موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية

المجلد الثاني

مجموعة العبقريات الإسلامية كاملة

الطبعة الأولى

ربيع الاول ١٣٩١ هجرية

نوار (مايو)

١٩٧١ ميلادية

موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية

المجلد الثاني

مجموعة
العبقريات الإسلامية
كاملة

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

مجموعة
العبقريات الإسلامية

- عبقرية محمد
رسول الله
- عبقرية الصديق
- عبقرية عمر
- عبقرية عثمان بن عفان
ذو النورين
- عبقرية الإمام علي
- عبقرية خالد

الفهرست

مقدّمة الناشر

سيظل « عباس محمود العقاد » ، في تاريخ الأدب المتناوِل لهذه العقود الستة من القرن العشرين التي نحياها — الدوحة الأرحب : بما وسعت ظلالها من أقاليم المعرفة ، وبما قدّمت ثمارها من ألوان الثقافة المختلفة الطعوم .

وإن ذلك ليتضح إذ نُرجع البصر كَرَّة في ثبت المؤلفات التي نتجت عن يراع هذا المؤلف المعطاء . ففيها القصة والرواية ، وفيها الدراسة والبحث ، وفيها التحقيق والتقرير ، وفيها المطالعات والمراجعات ، وفيها الخطرات والاستقصاءات ، وفيها غير ذلك وغيره ...

ولعل الجامعة التي تربط بين هذا الإنتاج الثّرّ المختلف المتلون هي تلك السمة الطاغية التي تسم ذلك الإنتاج كافة : سمة تقديس الحقيقة ، وسمة احترام الوسيلة المفضية بها إلى الناس — بما تقتضيه هذه الوسيلة من لغة ونهج واختيار — .

ونحن إذ نورد هذا الانطباع العام عن نتاج العقاد لا ندّعي تقييمه ، بل كل ما نهدف إليه هو الإشارة إلى طابعه العام ، وذلك بصدد هذا الإصدار لمجموعة من كتبه .

لقد شرح العقاد غايته من كتبه « العبقريات » ... و « شخصيات إسلامية » وغيرها ؛ لذلك لا نرى ضرورة لإعادة ما أورده في شرح تلك الغاية . ولكننا نأمل في هذا التقديم لفت القارىء الكريم إلى ما يلي :

إن الصورة المستحدثة ، التي مال العقاد في تأليف خطوطها واختيار

ألوانها ، لإبراز كثير من وقائع التاريخ التي احتاج إلى إبرازها في رسم عبقرية كل من أبطال العرب المسلمين الذين هدف إلى ابراز عبقرياتهم ، وفي إبراز ملامح كل شخصية من « الشخصيات الإسلامية » التي تصدى إلى عرضها ، هي الصورة التي يستسيغ المحدثون استيعابها واستجلاءها والتملي من جمالها ، لينتهوا بعد ذلك كله إلى تمثُّلها .

ولقد كان في اطلاع العقاد على قسط وافر الغزارة من كتابات أهل الغرب في التاريخ الإسلامي مجالٌ لردّه الكثير من مواطن سوء فهم بعض المؤرخين الغربيين لبعض المواقف في ذلك التاريخ ، ولردّه الكثير من خطأ التعليل لدى أولئك المؤرخين في كثير من المواقف أيضاً ، فضلاً عن تعريته لكثير من التغرض الذي ظهر منهم في الحكم على بعض المواقف في بعض الأحيان .

ولعل أقوى ما اصطنعه العقاد من وسيلة للإقناع فيما كتبه : الروح الحيادية ، والاحتكام إلى المنطق ، ومعطيات علم المناهج وعلم النفس ، والمحاكمة العقلية ، والنهج العقلاني . فلم يكن فيما أراد إثباته أو نفيه ذلك المؤمن الذي يكتفي بإيمانه ويقتصر على أدلة ذلك الإيمان ، ويدعو الخصم إلى منازلته في ساحته هو ؛ بل انتقل إلى ساحة الخصم واستعمل سلاحه ، حتى لا يكون للخصم ، إذ يُغلب ، أي تعلّة في انهزامه وحبوط رأيه وحكمه .

والعقاد بعدُ ، في « العبقريات » ... وفي « شخصيات اسلامية » ... وغيرها من كتبه المفردة للبارزين في التاريخ ، يتكشف عن محلِّل نفسي لا يبارى في استكناه الدوافع النفسية للمواقف المصيرية الحاسمة ، ولنماذج السلوك في الأحداث العادية ، التي اتخذها أولئك البارزون . إذ هو في كل ذلك يعمد إلى اصطناع المحاكمة المناهجية العلمية ، فيلقي الأضواء على تلك الأحداث ، وينتهي إلى تأكيد السِّمات والعناصر التكوينية في النماذج العبقرية من الشخصيات التي تناولها بالبحث .

وإذا كان لنا أن نضيف إلى ما ذكر شيئاً يختص بهذه المجموعة الموسومة

« بتوحيد وأنبياء » ، فإننا نشير إلى تفرد المؤلف فيها — من بين المتناولين للأبحاث الدينية عامة — بميزة جعلت من كتاباته في هذا الموضوع ضرورة لازمة وسدّاً لحاجة ماسة دعت إليها الأجواء العقائدية التي أوجدها المناخ العقلاني العام في مثقفي هذه الحقبة التي نعيشها .

لقد شهد العقاد قلقاً ، أو قل رغبة في الاطمئنان لدى الشبيبة الآخذة بالمعارف الحديثة والمعتمدة للموضوعية والعقلانية إلى أن ما استقر لديها من معارف لا يتعارض وما تحرص عليه من معتقدات وإيمان . وهو إذ يقدم لنا هذه الكتب يكون قد قدم أجوبة وإيضاحات لحل ما يثور في نفوس المثقفين من تساؤلات حول الموضوع .

وكلمة أخيرة في مجال بعث التراث العربي ، وتوجيه الأفكار إليه ، وحمل الجماهير العربية على الإعجاب به والاطمئنان إليه .

لقد رافق حركة البعث هذه — مذ تمادت أقيستها ، وتقبلتها الأجيال الطالعة قبولاً حسناً — ، شعورٌ بأن إحياء هذا التراث سيف ذو حدّين : فهو إن كان يُطلع النشء الجديد على مدى الإسهام الحضاري البالغ ، الذي اضطلعت به أجيال متعاقبة من الشعب العربي في القرون الماضية ، ويخلق لديه الاطمئنان إلى أصالة هذا الإسهام ، ومن ثمّ — انطلاقاً من هذه الأصالة — إمكان الأجيال الحالية من هذا الشعب معاودة الإسهام في البناء الحضاري ، فإنه يُخشى أن يؤدي من جانب آخر إلى ايجاد شعور لديه بالاطمئنان والدعة ، والاكتفاء بما سبق أن قدم العرب من إنجازات ، والنوم على تلك الأمجاد ، والانخداع بالفخر بها ، دون أن تكون مدعاة — لهذا النشء الجديد — وحافزاً له إلى خوض المعركة الحضارية من جديد ، وما في خوضها من حتمي ومصيري في هذه الحقبة من تاريخه .

وحول ذلك نرى ان انتهاء بعث التراث إلى هذه النتيجة أو تلك إنما يكون مبعثه ومقرره — إلى حدّ بعيد — ، الصيغة التي نلقي بها ذلك التراث إلى هذه الأجيال الطالعة ، مضافة إلى المناخ التكويني العام لشخصيتها ومعتقداتها وحوافزها

ومُثلها ؛ ولعل الصيغة التي اعتمدها العقاد — من بين العوامل المقررة لدرج مفعول التراث تحت العوامل الدافعة أو المثبطة لدى الجيل الصاعد — هي بلا مراء مما يؤدي إلى ايجاد الحافز إلى الانخراط من جديد في المعركة ؛ ويبقى على واضعي فلسفة التربية للشعب العربي في مرحلته الحالية ، وعلى منفذي تلك الفلسفة ، القيام بالشق الثاني من المهمة .

إن جميع ما ذكر كان وراء سعي « **دار الكتاب العربي** » ومزيد اندفاعها في إصدار ما أصدرت من تراث السابقين ، وحرصها الدائم على إصدار هذه الآثار الأخرى ، التي تجلو ذلك التراث في الصورة المستحدثة المستساغة ؛ آملة أن يحسن ذلك لدى قرائها ، وأن يكون فيه ما يجسد إيمانها برسالة الناشر ، والله من وراء القصد .

الناشر

عباس محمود العقاد

عبقرية محمد

المقدمة

تعود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة . إلى اليوم الذي سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد ﷺ .

وكنت أُقيم يومئذ في ضاحية العباسية البحرية على مقربة من الساحة التي كانت معدة للاحتفال بالمولد النبوي في كل عام .

ولنا رهط من الأصدقاء المشتغلين بالأدب يشتركون في قراءة كتبه العربية والافرنجية ، ويترددون معًا على الأحياء الوطنية ، وقلما يترددون على غيرها . فلا يزالون متنقلين فترة بعد فترة بين الحي الحسيني والحي الزينبي ، أو بين منشية القلعة . وضاحية العباسية ، أو بين الروضة والخليج .. على حسب المناسبات ، وعلى غير مناسبة في كثير من الأوقات .

وكان رهطًا له نقائض الدنيا مجتمعات : نقائض الشباب ، ونقائض الحياة الفنية ، ونقائض الاختلاف في البيئة بين ناشيء في العاصمة وناشيء في الريف ، وناشيء في الصعيد وناشيء في الثغور ، إلى غير ذلك من النقائض التي كانت حلية لهذه الجماعة ، ولم تكن فيها من دواعي التفرق والشتات .

* * *

ومن عجائبها أن الذي كان يغريها بالأحياء الوطنية هو قراءاتها في الكتب الإفرنجية التي كانت شائعة بينها ، لأنهم كانوا يقرأون أكثر ما كانوا يقرأون كتب « دكنز » و« هازليت » و« لي هانت » و« كارليل » .. وهم كتّاب مولعون بعرض

الأخلاق الاجتماعية ودراسة العادات المحلية وتمثيل الريفيين ، والحضريين في أوضاعهم المختلفة ، ولهم فصول عن الأسواق ، والدكاكين ، والباعة ، تفيض بحسن الملاحظة وبراعة الفكاهة ومتعة القراءة ، وتعوِّد من يدمن قراءتها أن يتحرى نظائرها حيثما رآها .

ففي يوم من أيام المولد – والرهط يزورني لنؤم الساحة مجتمعين في المساء – كان الكاتب الإنجليزي العظيم « توماس كارليل » هو محور الحديث كله ، لأنه كما يعلم الكثيرون بين قراء العربية صاحب كتاب الأبطال الذي عقد فيه فصلاً عن النبي محمد عليه السلام ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل .

* * *

وإنا لنتذاكر آراءه ومواضع ثنائه على النبي ، إذ بدرت من أحد الحاضرين الغرباء على الرهط كلمة نابية غضبنا لها واستنكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية . وكان الفتى الذي بدرت منه الكلمة متحذلقًا يتظاهر بالمعرفة ، ويحسب أن التطاول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة .. فكان مما قاله شيء عن النبي والزواج ، وشيء عن البطولة ، فحواه أن بطولة محمد إنما هي بطولة سيف ودماء !

قلت : « ويحك ! .. ما سوغ أحد السيف كما سوغته أنت بهذه القولة النابية ! »

وقال صديقنا المازني : « بل السيف أكرم من هذا ، وإنما سوغ صاحبنا شيئاً آخر يستحقه .. وأشار إلى قدمه ! »

وارتفعت لهجة النقاش هنيهة ، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من النديّ ، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول ، أوخيل إليه أنه مقبول .

وتساءلنا : ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبي ، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه ، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه . ثم سألني بعض الاخوان : « ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابًا عن محمد على النمط الحديث ؟ »

قلت : « أفعل .. وأرجو أن يتم ذلك في وقت قريب » .

ولكنه لم يتم في وقت قريب .. بل تم بعد ثلاثين سنة ! وشاءت المصادفة العجيبة أن تتم فصوله في مثل الأيام التي سمعت فيها الاقتراح لأول مرة .. فكتبت السطر الأخير فيه يوم مولد النبي على حسب الشهور الهجرية ، واتفقت هذه المصادفة على غير تدبير مني ولا من أحد ، لأني لم أدبر لنفسي أوقات الفراغ التي هيأت لي إتمام فصوله وتقسيم العمل فيه يومًا بعد يوم .

* * *

والخيرة في الواقع ..

والخيرة كذلك في هذا التأخير ..

فإنني لو كتبته يومئذ لعدت إلى كتابته الآن من جديد ، واحتجت إلى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية إلى محصول ذلك العمر الباكر .. إذ هو عمر يستطيع المرء أن يمتلىء فيه إعجابًا بمحمد ، لأنه عمر الإعجاب والحماسة الروحية . بيد انه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره في مثل تجاربه ، وفي مثل السن التي اضطلع فيها بالرسالة . وان تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الشأو البعيد من شتى نواحيه .

أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين ؟ ..

إنها مسافات في عالم الفكر والروح .. لو تمثلت مكانًا منظورًا ، لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار وامتداد النظر بغير قرار .

كم رأي ؟.. كم مذهب ؟.. كم وسواس ؟ كم محنة ؟.. كم مراجعة ؟.. كم زلزال يتضعضع له الكيان وتميد معه الدعائم والأركان ؟.. كم وكم في ثلاثين سنة مما يطرق نفسًا لا تعفيها الحياة من التجارب والعوارض لمحة عين في نهار؟.. وكم لذلك كله من أثر في توطيد الرأي وتهدئة الثوائر وتجلية الغبار؟.. وكم يضيف ذلك كله إلى الشباب الباكر الذي كان يحلم يومئذ بالعظمة في كل أوج ، وبالأوج المحمدي في عليا مراتب الأنبياء ؟..

الخيرة في الواقع ..
الخيرة في ذلك التأخير ..

واليوم ، ونحن نضع كتابنا هذا عن « عبقرية محمد » بين يدي القراء ، لا نقول إننا قد استوفيناه كما أردناه ولا إننا فصلنا فيه الغرض الذي توخيناه .. ولكننا نقول إننا التزمنا فيه الباعث الذي أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة . كأننا شرعنا في كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة ، فكتبناه ونحن نستحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يلغط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية ، ونظرنا اتفاقًا ، فإذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية .. لأنهما كانا مثار اللغط تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد ، وكانا مثار اللغط في كل ما ردده سفهاء الشانئين من الأصلاء والمقتدين في هذا الباب .

* * *

فسيرى القارىء أن « عبقرية محمد » عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة ولا يتعداها . فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السير العربية والإفرنجية التي حفلت بها « المكتبة المحمدية » حتى الآن .. لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات ، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع ، ثم لا يقال انه استنفد كل الاستنفاد .

وليس الكتاب شرحًا للإسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعًا عنه أو مجادلة لخصومه .. فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى ، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها .

إنما الكتاب تقدير « لعبقرية محمد » بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان ، وليس في قلب كل مسلم وكفى .

فمحمد هنا عظيم .. لأنه قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المخلصون

لجميع الناس ..

عظيم لأنه على خلق عظيم ..

وإيتاء العظمة حقها لازم في كل آونة وبين كل قبيل .. ولكنه في هذا الزمن وفي عالمنا هذا ألزم منه في أزمنة أخرى ، لسببين متقاربين لا لسبب واحد : أحدهما أن العالم اليوم أحوج ما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة .. ولن يتاح لمصلح أن يهدي قومه وهو مغموط الحق ، معرض للجفوة والكنود .

والسبب الآخر أن الناس قد اجترأوا على العظمة في زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها .. فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسًا من صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة ، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة .. والمساواة هي شرعة السواد الغالبة في العصر الحديث .

* * *

ولقد جار هذا الفهم الخاطىء للمساواة على حقوق العظماء السابقين ، كما جار على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين . ثم أغرى الناس بالجور بعد الجور غرورهم بطرائف العصر الحديث ، واعتقادهم انه قد أتى بالجديد الناسخ للقديم في كل شيء .. حتى في ملكات النفوس والأذهان ، وهي مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم .

يرون أن البخار يلغي الشراع ، وربما كان الاختراع السابق أدل على القدرة وأبين عن الفضل من الاختراع الذي تلاه ، ولم يكن ليتلوه لولا ما تقدم عليه ..

وينظرون إلى أقطاب الدنيا كأن الأصل في النظر إليهم أن يتجنوا عليهم ويثلبوا كرامتهم ، ولا يثوبوا إلى الاعتراف لهم بالفضل إلا مكرهين ، بعد أن تفرغ عندهم وسائل التجني والثلب والافتراء .

هذه الآفة تهبط بالخلق الإنساني إلى الحضيض ..

وتهبط بالرجاء في إصلاح العيوب الخلقية والنفسية إلى ما دون الحضيض ..

فماذا يساوي إنسان لا يساوي الإنسان العظيم شيئًا لديه ؟.. وأي معرفة بحق من الحقوق يناط بها الرجاء إذا كان حق العظمة بين الناس غير معروف ؟.. وإذا ضاع العظيم بين أناس ، فكيف لا يضيع بينهم الصغير؟

لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذي يفهمه المعاصرون ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين ، نافعًا في هذا الزمن الذي التوت فيه مقاييس التقدير..

إنه لنافع لمن يقدرون محمدًا ، وليس بنافع لمحمد أن يقدروه .. لأنه في عظمته الخالدة لا يضار بإنكار ، ولا ينال منه بغي الجهلاء إلا كما نال منه بغي الكفار.

وإنه لنافع للمسلم أن يقدر محمدًا بالشواهد والبينات التي يراها غير المسلم ، فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجري على مجراه فيها .. لأن مسلمًا يقدر محمدًا على هذا النحو يحب محمدًا مرتين : مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره ، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس ..

وحسبنا من « عبقرية محمد » أن نقيم البرهان على أن محمداً عظيم في كل ميزان : عظيم في ميزان الدين ، وعظيم في ميزان العلم ، وعظيم في ميزان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون في العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا في الطبائع الآدمية ، إلا أن يرين العنت على الطبائع فتنحرف عن السواء وهي خاسرة بانحرافها ، ولا خسارة على السواء .

* * *

إن عمل محمد لكاف جد الكفاية لتخويله المكان الأسنى من التعظيم والإعجاب والثناء ..

إنه نقل قومه من الإيمان بالأصنام إلى الإيمان بالله ، ولم تكن أصنامًا كأصنام يونان يحسب للمعجب بها ذوق الجمال إن فاته أن يحسب له هدى الضمير. ولكنها أصنام شائهات كتعاويذ السحر التي تفسد الأذواق وتفسد العقول . فنقلهم محمد من عبادة هذه الدمامة إلى عبادة الحق الأعلى .. عبادة خالق الكون الذي لا خالق سواه ، ونقل العالم كله من ركود إلى حركة ومن فوضى إلى نظام ، ومن

مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية . ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات .

إن عمله هذا لكاف لتخويله المكان الأسنى بين صفوة الأخيار الخالدين ، فما من أحد يضن على صاحب هذا العمل بالتوقير ثم يجود بالتوقير على اسم إنسان .

إلا أننا نمضي خطوة وراء هذا . حين نقول إن التعظيم حق « لعبقرية محمد » ولو لم تقترن بعمل محمد ..

لأن العبقرية قيمة في النفس قبل أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق ، وهي وحدها قيمة يغالي بها التقويم ..

فإذا رجح بمحمد ميزان العبقرية ، وميزان العمل ، وميزان العقيدة .. فهو نبي عظيم وبطل عظيم وإنسان عظيم .

وحسبنا من كتابنا هذا أن يكون بنانًا تومىء إلى تلك العظمة في آفاقها ، فإن البنان لأقدر على الإشارة من الباع على الإحاطة ، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير ..

عباس محمود العقاد

علامات مولد

عـالم

كان عالماً متداعياً قد شارف النهاية.. خلاصة ما يقال فيه إنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام.

أي إنه فقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر.. طمأنينة الباطن التي تنشأ من الركون إلى قوة في الغيب، تبسط العدل، وتحمي الضعف، وتجزي الظلم، وتختار الأصلح الأكمل من جميع الأمور.

وطمأنينة الظاهر التي تنشأ من الركون إلى دولة تقضي بالشريعة، وتفصل بين البغاة والابرياء، وتحرس الطريق، وتخيف العائثين بالفساد.

بيزنطة قد خرجت من الدين إلى الجدل العقيم الذي أصبح بعد ذلك علَمًا عليها، وتضاءلت سطوتها في البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمي بجوارها.

وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس.. وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة، وبواعث الفتن، ونوازع الشهوات.

والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة، وبين التوحيد الذي هو ضرب من عبادة الأوثان.. ثم هي بعد هذا التشويه في الدين، ليست بذات رسالة في الدنيا ولا بذات طور من أطوار التاريخ.. فليس لها عمل باق في سجل الأعمال الباقيات.

عالم يتطلع إلى حال غير حاله.. عالم يتهيأ للتبديل أو للهدم ثم للبناء.

أمـــة

وبين هذه الدول المتداعيات، أمة ليست بذات دولة ولكنها تتأهب لإقامة

دولة.. هي أمة العرب وقد تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها..

في أيديها تجارة العالمين كلها.

فإذا سارت القوافل من خليج فارس إلى بحر الروم، فهي تسير في البادية بين حراس من العرب لا سلطان عليهم للدول المتداعية.. أو هم قد شعروا بذلك السلطان حيناً في إبان الصولة الرومانية والصولة الفارسية، ثم علموا أنهم مالكون لزمامهم يرضون فتتصل الأرزاق بين المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق، ويغضبون فتبور التجارة وينضب المورد وتكسد الأسواق.

وإذا سارت القوافل من اليمن إلى الشام أو من بحر القلزم إلى بحر الروم، فهي في جيرة الأعراب من كلتا الطريقين.

أمة تيقظت لوجودها، وعرفت شأنها بين من يحدقون بصحرائها..

ثم رأت هؤلاء المحيطين يجورون عليها، ويريدون إخضاعها وابتلاعها..

فهرقل الرومي يرسل الى مكة من يحكمها، وأبرهة الحبشي يزحف إلى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بها كعبة غيرها، وفارس تطغى على شرق البلاد وعلى جنوبها..

خطر من خارجها، يزيد الأمة يقظة وانتباهاً لوجودها..

وخطر من داخلها، يدفع بها دفعاً إلى الزوال أو إلى استكمال النقص المستشري في حياتها..

مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة، وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع في أيديها ثروة المدينة..

حالة لا استقرار فيها..

فمن هنا الترف، والطمع، والخمر، والقمار، والمتعة، وتسخير الأقوياء للضعفاء..

ومن هنا الفاقة، والحسرة، والشك في صلاح الأمور..

ولكنه شك يبحث ويضطرب، وليس بالشك الذي يستجم ويستكين..

فحيثما اجتمع أناس من أولي الرأي يذكرون العقيدة وطمأنينة الضمير، فهناك

هاتف بينهم بسوء ما هم عليه. اجتمع أناس بنخلة لإحياء عيد العزى فقال رجل منهم لإخوانه: «والله ما قومكم على شيء وإنهم لفي ضلال.. فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، ومن فوقه يجري دم النحور. يا قوم التمسوا لكم دينًا غير هذا الدين الذي أنتم عليه».. ثم تفرقوا، فمنهم من تنصر، ومنهم من اعتزل الأوثان، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الإسلام فلباها.. وكان الذي تنصر وسمع دعوة الإسلام ورقة بن نوفل الذي كتب له أن يتلقى بشارة النبي العربي عند ظهوره ويلقي إليه بالبشارة.

هؤلاء شكوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير..

وغيرهم شكوا وبحثوا عن وازع من الضمير، ووازع من السلطان. فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم يتعاهدون باسم الله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه. وذلك حلف الفضول الذي شهده النبي العربي في شبابه وقال فيه: «ما أحب أن يكون لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم».

حالة لا تستقر، ولا تزال في طلب الاستقرار..

وأمة يقظى..

وخطر محدق بها مما حولها، ومما هو في دخائلها وأحشائها..

حالة تنذر بالزوال، وقلما تزول أمة يقظى في أوان انتباهها.. فتلك إذن حالة للتبديل والتجديد.

قبيلة

وقبيلة في تلك الأمة، في تلك المدينة.. لها شعبتان:

إحداهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم كما كان قائمًا على هواها.

والأخرى من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقام القوي الذي يجور ويطغى ويستبقي أداة الجور والطغيان، ومقام الضعيف الذي يحتمل الأذى ويصبر على الكريهة ولا يملك مع السيد الآمر إلا أن يذعن له ويأكل من فضلات يديه.

بيت

وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق وليس له لؤم الثروة الجامحة

والكبرياء الجائحة، والقسوة على من دونه من المحرومين.

ذلك هو بيت عبد المطلب من صميم قريش ومن ذؤابتها العليا. وإن لم يكن معدودًا من أثرياء القبيلة القرشية في ذلك الأوان.

ورأس هذا البيت - عبد المطلب - رجل قوي الخلق قوي الإيمان فيما آمن به، حكيم مع قوة طبعه وشدة إيمانه، خليق أن ينجب العقب الذي يبشر بدعوة وينضح عن دين.

نذر لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة .. ثم أحله قومه وأحلته العرافة من نذره، فأبى أن يتحلل حتى يستوثق من رضى الرب ورضى ضميره. سألتهم العرافة: «كم الدية فيكم؟».

قالوا: «عشرة من الإبل».

قالت: «فتقربوا إذن بعشر من الإبل واضربوا على الفتى وعليها بالقداح .. فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم» فما زالوا يزيدون حتى بلغت الإبل مائة وخرجت القداح عليها. فهتفت قريش بعبد المطلب: «لقد رضي ربك .. فأطلق فتاك». وكان خليقًا بمن يريد أن يتحلل ويتعلل أن يقبل ولا حرج عليه، ولكن عبد المطلب لم يكن من المتحللين المتعللين، فأبى إلا أن يضرب عليها القداح ثلاث مرات، ثم نحرت الإبل للجياع من الأناسي والسباع.

وجاء القائد الحبشي يهدم الكعبة ويسطو على الإبل والشاه .. فلما سأله عبد المطلب أن يرد إليه إبله، قال له مقال السياسي المحرج المداور بالكلام: «أراك تسأل عن إبلك ولا تسأل عن الكعبة».

فأجابه عبد المطلب جواب الحكيم المؤمن: «أما الإبل فأنا ربها، وأما البيت فله رب يحميه!»

فكان إيمانه إيمانًا كفؤًا لدهاء السياسة، ولم يكن إيمان العجز والتواكل والاستسلام..

ومن كان له هذا الخلق، وهذا الضمير، وهذا الإيمان، وهذه الرئاسة، فليس من عجب أن ينجب نبيًا في زمان يستدعي الأنبياء، ومكان مهيأ لهم دون كل مكان.

بل العجب أن يكون الأمر غير ما كان.

أب

وإذا كان عبد المطلب جَدًا صالحًا لنبي كريم، فابنه عبدالله نعم الأب لذلك النبي الكريم..

لكأنما كان بضعة من عالم الغيب، أرسلت إلىٰ هذه الدنيا لتعقب فيها نبيًا وهي لا تراه.. ثم تعود.

كان إنسانًا من طينة الشهداء، يتجه إليه القلب الإنساني بكل ما فيه من حب وحنو ورحمة. فهو الفتى الذي اسمه عبدالله والذي اختير للفداء، فجاشت له شفقة قومه حتى تركه لهم القدر إلى حين. وهو الفتى الذي تحدثت الفتيات في الخدور بوسامته وحيائه، وودت مئات منهن لو نعمن منه بنعمة الزواج. وهو الفتى الذي أقام مع عروسه ثلاثة أيام، ثم سافر ليتجر فإذا هي السفرة التي لا يؤوب منها الذاهبون. وهو الفتى الذي مات وهو غريب، وولد له نسله الكريم وهو دفين. وهكذا تتمثل البصائر الخاشعة آباء الأنبياء والسلالة التي تصل بين الآخرة والدنيا وبين عالم البقاء وعالم الفناء.

رجل

عالم يتطلع إلى نبي.. وأمة تتطلع إلى نبي، ومدينة تتطلع إلى نبي، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لإنجاب ذلك النبي.

ثم ها هو رجل لا يشركه رجل آخر في صفاته ومقدماته، ولا يدانيه رجل آخر في مناقبه الفضلى التي هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة في المدينة.. وفي الجزيرة، وفي العالم بأسره.

نبيل عريق النسب.. وليس بالوضيع الخامل، فيصغر قدره في أمة الأنساب والأحساب..

فقير.. وليس بالغني المترف فيطغيه بأس النبلاء والأغنياء، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار.

يتيم بين رحماء.. فليس هو بالمدلل الذي يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة

والاستقلال ، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذي تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح ، وفضيلة العطف على الآخرين.

خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش في البادية والحاضرة.. تربى في الصحراء وألف المدينة ، ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد الحروب والأحلاف ، واقترب من السراة ولم يبتعد من الفقراء..

فهو خلاصة الكفاية العربية في خير ما تكون عليه الكفاية العربية..

وهو على صلة بالدنيا التي أحاطت بقومه.. فلا هو يجهلها فيغفل عنها ، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق في لجتها.

أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة ، على غير علم من الدنيا التي ترقبها.

ذلك محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام..

قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه ، والجزيرة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه ، والدنيا مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه ، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة؟.. وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير؟.. وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق؟.. علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة ، وهي أسباب تتمهد لظهورها ، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أوانها..

فإذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها؟.. وإذا تعذر عليها أن تجتمع فأي علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟

خلق محمد بن عبدالله ليكون رسولاً مبشرًا بدين ، وإلا فلأي شيء خلق؟.. ولأي عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب والصفات؟

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن ، لكان تاجراً أميناً ناجحاً موثوقاً به في سوق التجار والشراة.. ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ؛

ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة إليها في هذا العمل مهما يتسع له المجال.

ولو اشتغل زعيماً بين قومه لصلح للزعامة، ولكن الزعامة لا تستوفي كل ما فيه من قدرة واستعداد..

فالذي أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية لا سواها، وما من أحد قد أُعِدَّ في هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل إعداد.

بشائر الرسالة

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية.. يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه، وما أيدته الحوادث أو ناقضته، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته، ويتفرقون في الرأي والهوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام؟

لا موضع هنا لاختلاف..

فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة، أو كان ثبوت الإسلام متوقفاً عليها.

لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها، ولا عرفوا انها علامة على شيء أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة.

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة، لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه.

وقد ولد مع النبي عليه الصلاة والسلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره. ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين.. يوم تأتي الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين.

أما العلاقة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها ، فهي علامة الكون وعلامة التاريخ ..

قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة ..
وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ..
ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ ..

* * *

عبقرية الداعي

اتفقت أحوال العالم إذن على انتظار رسالة..

واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة..

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد، ولا تتفق معها الوسائل التي تؤدى بها رسالته على أحسن الوجوه.

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول، ثم لا يظهر الرسول.

وكان من الممكن أن يظهر الرسول في البيت الصالح وفي البيئة الصالحة، ثم لا تتهيأ له الصفات التي يتم بها أداء الرسالة.

ولكن الذي اتفق في رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق، وكان المعجزة التي تفوق المعجزات.. لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها، مما يقبله العقل قبولاً سائغًا بغير عنت ولا استكراه.

فكان محمد مستكملاً للصفات التي لا غنى عنها في إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ.

كانت له فصاحة اللسان واللغة..

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة..

وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها..

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول.. ولكنها هي التي عليها المدار في تبليغ الرسالة، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال.

الفصاحة

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام، ولهيئة النطق بالكلام، ولموضوع الكلام.. فيكون الكلام فصيحًا وهيئة النطق به غير فصيحة، أويكون الكلام والنطق به فصيحين، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب.

أما فصاحة محمد.. فقد تكاملت له في كلامه، وفي هيئة نطقه بكلامه، وفي موضوع كلامه.

فكان أعرب العرب، كما قال عليه السلام: «أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر».

فله من اللسان العربي أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة.. وهذه هي فصاحة الكلام.

ولكن الرجل قد يكون عربيًا قرشيًا مسترضعًا في بني سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم، أو يكون صوته غير محبوب، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس.. فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل.

أما محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه، وخير من وصفه بذلك عائشة رضي الله عنها حيث قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل، يحفظه من جلس إليه».

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها.. فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم..

ولكن الرجل قد يكون عربيًا قرشيًا مسترضعًا في بني سعد، ويكون سليمًا في كلامه سليمًا في نطقه.. ثم لا يقول شيئًا يستحق أن يستمع إليه السامع في موضوعه.

فهذا أيضًا قد تنزه عنه الرسول في فصاحته السائغة من شتى نواحيها.. فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل صادق على أنه قد أوتي حقًا «جوامع الكلم»، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام.

وكانت له مع الفصاحة صباحة ودماثة تحببانه إلى كل من رآه، وتجمعان إليه قلوب من عاشروه. وهي صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو، ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه محمد بين الضعفاء والأقوياء على السواء.

وحسبك من حب الضعفاء إياه أن فتى مستعبدًا يفقد أباه وأسرته – كزيد بن حارثة – ثم يظهر له أبوه بعد طول الغيبة، فيؤثر البقاء مع محمد على الذهاب مع أبيه..

وأن خادم خديجة رضي الله عنها – ونعني به ميسرة – يقدمه ليبشر سيدته بالربح والتوفيق في تجارته، وهو أولى أن ينفس عليه، وأن يدعي لنفسه ما اختصه به من الفضل والتقديم.

وحسبك من حب الأقوياء إياه أنه جمع على محبته أناسًا بينهم من التفاوت في المزاج والخصال ما بين أبي بكر وعمر وعثمان وخالد وأبي عبيدة، وهم جميعًا من عظماء الرجال.

ولكن الرجل قد يكون صبيحًا دمثًا محبوبًا، ولا يكون له من ثقة الناس وائتمانهم إياه نصيب كبير.. لأن الرجل المحبوب غير الرجل الموثوق به، وإذا اتفقت الخصلتان حينًا فمن الجائز أن تفترقا حينًا آخر، لأنهما في عنصر الخصال لا تتلازمان.

أما محمد فقد كان جامعًا للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان، وكان مشهورًا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه. وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه. وامتلأ هو من العلم بمنزلته من ثقة القوم، فأحب أن يستعين بها على هدايتهم وترغيبهم دعوته فكان يسألهم: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني؟»

فيقولون: «نعم، أنت عندنا غير متهم».. إلا أن الإنسان ينفر مما يصدمه في مألوفاته وموروثاته، ولو صدقه وقام لديه ألف برهان عليه. فلم يكن ما بالقوم أنهم لا يصدقون محمدًا ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة، وإنما كان بهم أنهم ينفرون من التصديق كما ينفر المرء من خبر صادق يسوؤه فيمن يحب أو فيما يحب، وهو مفتوح العينين ناظر إلى صدق ما يلقى إليه.

ومن المحقق أن هذه الموافقات على كثرتها، وهذه الشمائل على ندرتها، لا تزال تتوقف على صفة أخرى يحتاج إليها الداعي أشد من احتياجه إلى الفصاحة والصباحة.. وهي إيمانه بدعوته وغيرته على نجاحها. فقد نجح داعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان وطلاقة القسمات، ولم ينجح قط داع كبير يعوزه الإيمان بصواب ما يدعو إليه، والغيرة عليه..

وقد قضى محمد عليه السلام شبابه وهو يؤمن بفساد الزمان وضلال الأوثان.. وجاوره أناس أقل منه نبلاً في النفس ولطفًا في الحس ونفورًا من الرجس، آمنوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله، ومن حاجتهم إلى عبادة غير عبادة الأصنام، وآداب غير آدابهم في تلك الأيام. فإذا جاوزهم في صدق وعيه وسداد سعيه فقد وافق المعهود فيه، والموروث من جده وأبيه.

ولما آمن برسالته هو ودعوة ربه إياه إلى القيام بأداء تلك الرسالة لم يهجم على هذا الإيمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره، ولكنه تردد حتى استوثق، وجزع حتى اطمأن. وخطر له في فترة من الوحي أن الله قلاه وأعرض عنه، ولم يأذن له في دعوة الناس إلى دينه. ثم تلقى الطمأنينة من وحي ربه ومن وحي قلبه ومن وحي صحبه.. فصدع بما أُمر، ورضي ضميره بما أُوتي من الهداية على النحو الذي رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية، مع ما بينه وبينهم من فارق في الرتبة والأهبة، وما بين زمانهم وزمانه من فارق في الحاجة إلى الإصلاح.

فما من عجب إذن أن يكون محمد صاحب دعوة.

وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التي بلغت. وإنما العجب ممن يغفلون عن هذه الحقيقة أو يتغافلون عنها لهوى في الأفئدة، فيشبهون اليوم أولئك الجاهلين الذين أصروا أمس على الكفر به وحجبوا بأيديهم نوره عامدين.

نجاح الدعوة

ما من حركة كبرى في التاريخ تتضح للفهم إن لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهومًا بأسبابه الواضحة المستقيمة التي لا عوج في تأويلها، وما من شيء غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البيِّنة ثم يخيل إليه أن الدعوة الإسلامية كانت فضولاً غير مطلوب في هذه الدنيا، وان نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود أو غير الإرهاب بالسيف والإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين.

أي إرهاب وأي سيف؟..

إن الرجل حين يقاتل من حوله إنما يقاتلهم بالمئات والألوف.. وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدًا لسيوفهم، وكانوا يلقون عنتًا ولا يصيبون أحدًا بعنت، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذًا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولا يخرجون أحدًا من داره.

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفًا من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين.. ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الإرهاب والوعيد، ولم يحملوه ليبدأوا واحدًا بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان.

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم، ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع.

أما الإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين.. فلو كان هو باعثًا للإيمان، لكان أحرى الناس أن يستجيب إلى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرتهم وأصحاب الترف والثروة فيهم، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس إلى استدامة الحياة واستبقاء النعمة. فإن حياة النعيم بعد الموت محببة إلى المنعمين تحبيبها إلى المحرومين، بل لعلها أشهى إلى الأولين وأدنى.. ولعلهم أحرص عليها وأحنى، لأن الحرمان بعد التذوق والاستمراء أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه حال.

* * *

لم يكن أبو لهب أزهد في اللذة من عمر..

ولم يكن السابقون إلى محمد أرغب في النعيم من المتخلفين عنه..

ولكننا ننظر إلى السابقين وننظر إلى المتخلفين، فنرى فارقًا واحدًا بينهم أظهر من كل فارق. ذلك هو الفارق بين الأخيار والأشرار، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين وبين من يعقلون ويصغون إلى القول الحق، ومن يستكبرون ولا يصغون إلى قول.

ذلك هو الفارق الواضح بين من سبقوا ومن تخلفوا.. وليس هو الفارق بين طالب لذة وزاهد فيها، أو بين مخدوع في النعيم وغير مخدوع.

ولعلنا لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما نستبينها من مثال عمر رضي الله عنه في إسلامه.. فقصته في ذلك نموذج لتلبية الدعوة المحمدية، ينفي كل كلام يقال عن الوعيد والإغراء وأثرهما في إقناع الأقوياء أو الضعفاء.

قال ابن إسحق: «... خرج عمر يومًا متوشحًا بسيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه... وقد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء. ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم.. ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة. فلقيه نعيم بن عبدالله فقال له، «من تريد ياعمر؟..»

فقال: «أريد محمدًا هذا الصابىء الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله».

فقال نعيم: «والله لقد غرتك نفسك ياعمر!.. أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا؟.. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟»

قال: «وأي أهل بيتي؟»

قال: «ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو! وأختك فاطمة بنت الخطاب.. فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما».

قال: «فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه، وعندهما خباب في مخدع لهم أو في

بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليها ، فلما دخل قال : « ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ »

قالا له : « ما سمعت شيئًا ! .. »

قال : « بلى والله ! .. لقد أُخْبِرْتُ أنكما تابعتما محمدًا على دينه » .. وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته : « نعم .. قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك » . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته : « أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد » . وكان عمر كاتبًا ، فلما قال ذلك قالت له أخته : « إنا نخشاك عليها » .

قال : « لا تخافي » وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها . فلما قال ذلك طمعت في إسلامه ، فقالت له : « يا أخي ! .. إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر» . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « سورة طه » . فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! » فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : « ياعمر ! والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته وهو يقول : أللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب .. فالله الله ياعمر ! » .

فقال له عند ذلك عمر: « فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم »

فقال له خباب : « هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه » . فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا السيف ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع ، فقال : « يا رسول الله ! .. هذا عمر بن الخطاب متوشحًا بالسيف » .

فقال حمزة بن عبد المطلب : « نأذن له .. فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له ، وإن كان يريد شرًا قتلناه بسيفه » .

فقال رسول الله ﷺ : «ائذن له !» فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة وقال : « ما جاء بك يا بن الخطاب؟.. فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة !» .

فقال عمر : « يا رسول الله !.. جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله » .

قال : « فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم » ، فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله وينتصفون بهما من عدوهم... »

هذه قصة إسلام عمر بن الخطاب ، وهذا موضع ما فيها من الوعيد والإغراء.. خرج بالسيف ليقتل محمدًا ولم يخرج عليه أحد من المسلمين بسيف ، وقرأ صدرًا من سورة طه ليس فيه ذكر للخمر والنعيم وهو : « طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلاّ تذكرة لمن يخشى. تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى. الرحمن على العرش استوى. له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » .

فلا جبن إذًا ولا طمع في إسلام عمر بن الخطاب ، بل رحمة وإنابة واعتذار..

ولم يكن في إسلام الفقراء الذين هم أقل من عمر ناصرًا وأضعف منه بأسًا جبن ولا طمع ، لأنهم تعرضوا بإسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله ، وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال إن الذين سبقوهم الى الإسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة القوة.. ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور، فمن كان أقرب إلى هذه الطلبة من غني أو فقير ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم ، ومن كان به زيغ عنها فقد أبى.. وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه ، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف. وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان في جانب اللذة والخوف ، ويضع الطغاة من قريش في جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون به هوى كهوى الكفار من قريش ، في الإصرار والإنكار.

إنما نجحت دعوة الإسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث ،

وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته..

فلا حاجة بها إلى خارقة ينكرها العقل أو إلى علة عوجاء يلتوي بها ذوو الأهواء، فهي أوضح شيء فهمًا لمن أحب أن يفهم، وهي أقوم شيء سبيلاً لمن استقام.

* * *

عبقرية محمد العسكرية

حروب ودفاع

قلنا في الفصل السابق إن الإسلام لم ينجح لأنه دين قتال كما يردد أعداؤه المغرضون، ولكنه نجح لأنه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق، وليس بين أسباب نجاحه سبب واحد يصعب فهمه على هذا الاعتبار.

ونريد في هذا الفصل أن نقول إن محمدًا كان على اجتنابه العدوان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه، وانه لم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده.. ولكنه اجتنبه لأنه نظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضة يلجأ إليها ولا حيلة له في اجتنابها، ويجتنبها حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة.

وقبل ذلك ينبغي أن نستحضر في الذهن بعض الحقائق التي تظهر لنا الاختلاف بين الدين الإسلامي والأديان الأخرى في مسألة القتال، لنثبت أن للإسلام شأنًا في اجتناب القوة كشأن كل دين، وانه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن إلى جانب ذلك صالحًا للانتصار، وأن الأديان الأخرى ما كانت لتحجم عن عمل أقدم عليه النبي لو كانت دعوتها كدعوته، وكانت أسبابها كأسبابه.

* * *

فالحقيقة الأولى، أن مطعن القائلين بأن الإسلام دين قتال إنما يصدق – لو صدق – في بداءة عهد الإسلام كما أسلفنا، يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين، ولولاهم لما كان له جند ولا حمل في سبيله سلاح...

لكن الواقع أن الإسلام في بداءة عهده كان هو المعتدى عليه ولم يكن من قِبله اعتداء على أحد.. وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية واجتماع القوم حول النبي عليه الصلاة والسلام، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين».

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أُمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة، فلم يكن لهم قط عدوان ولا إكراه.

وحروب النبي عليه السلام كما أسلفنا كانت كلها حروب دفاع. ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال، وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أومع الروم.. ففي غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامي أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة، وكان قد سرى إلى النبي نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامي عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة في تجهيزه وسفره.

والحقيقة الثانية، أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع..

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف «سلطة» تقف في طريقه، وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه..

لأن السلطة تُزال بالسلطة، ولا غنى في إخضاعها عن القوة..

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء، وفي الأعقاب بعد الأسلاف.. وكل حجتهم التي يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه.

وقصد النبي بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التي تأبى العقائد الجديدة، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هي التي كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء، لأن امتناع المقاومة

من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التي تصد الدعوة الإسلامية، فيمتنع القتال.

ومن التجارب التي دل عليها التاريخ الحديث كما دل عليها التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب.. ومن تلك التجارب تجربة فرنسا في القرن الماضي، وتجربة روسيا في القرن الحاضر، وتجربة مصطفى كمال في تركيا، وتجارب سائر الدعاة من أمثاله في سائر البلاد.

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة.. ولا بد من التمييز بين العملين، لأنهما جد مختلفين.

* * *

والحقيقة الثالثة أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها..

فالدولة التي يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها، ماذا تصنع إن لم تحتكم الى السلاح؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين».

والدولة التي يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها، بماذا تفض الخلاف بينهم إن لم تفضه بقوة السلطان؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضًا حيث جاء فيه: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين».

وفي كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح.. ثم يأتي الصلح والتوفيق أو يأتي التفاهم بالرضى والاختيار.

* * *

والحقيقة الرابعة، أن الأديان الكتابية بينها فروق موضعية لا بد من ملاحظتها عند البحث في هذا الموضوع..

فاليهودية أو الإسرائيلية كانت كما يدل عليها اسمها أشبه بالعصبية المحصورة في أبناء إسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس.. فكان أبناؤهم يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم – فضلاً عن امتشاق الحسام – لتعميم الدين اليهودي وإدخال الأمم الأجنبية فيه، ولا وجه إذن للمقارنة بين اليهودية والإسلام في هذا الاعتبار...

أما المسيحية فهي قد عنيت «أولاً» بالآداب والأخلاق، ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة..

وقد ظهرت «ثانيًا» في بلاد للمعاملات والنظم الحكومية فيها قوانين تحميها كما يحميها الكهان المعززون بالسلطان، فهي قد عدلت عن فرض المعاملات والدساتير لهذه الضرورة، لا لأن المعاملات والدساتير ليست من شأن الدين..

وقد ظهرت «ثالثًا» في وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول، وليس للوطن الذي ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة في ميدان القتال.

أما الإسلام فقد ظهر في وطن لا سيطرة للأجنبي عليه، وكان ظهوره لإصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن والنظام.. وإلا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية.

فإذا اختلفت نشأته ونشأة المسيحية، فذلك اختلاف موضعي طبيعي لا مناص منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه.

وآية ذلك أن المسيحية صنعت صنع الإسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش، وحين استقلت شعوبها عن الأجانب المتغلبين.. وأربت حروب المذاهب فيما بين أبنائها على حروب صدر الإسلام مجتمعات.

* * *

والحقيقة الخامسة، أن الإسلام شرع الجهاد، وأن النبي عليه السلام قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

وجاء في القرآن الكريم: «فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسًا وأشد تنكيلاً.»

وحدث فعلاً أن المسلمين فتحوا بلاداً غير بلاد العرب، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح.

إلا أن هذه الفتوح تأخرت في الزمن، ولم يتم شيء منها قبل استقرارالدولة للإسلام، فلا يمكن أن يقال إنها كانت وسيلة الإسلام للظهور، وقد ظهر الإسلام قبلها وتمكن في أرضه واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت في سبيله..

ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها..

فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو إليه، لوجب في ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التي شاعت في أرض فارس وفي أرض الروم.. ووجب أن يكف الشر الذي يوشك أن ينقض عليه من كلتيهما، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسري منهما إلى حماه..

هذا الى أن الإسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب.

* * *

والحقيقة السادسة، أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع.

فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام.. واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوي الأمر والجاه.

فإذا قيل ان المدعوين إلى الإسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين، فلا ينفي هذا القول أنهم اقتنعوا به متأخرين.. إن الإسلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار، إلى جانب قدرته على إكراه من يركب رأسه ويقف في طريق الإصلاح.

ومن نظر إلى الإقناع العقلي، تساوى لديه من يستميلك إلى العقيدة بتوزيع الدواء والطعام، أو بتربية الأطفال عليها وهم لا يعقلون ومن يستميلك إليها بالخوف من

الحاكم.. على فرض أن خوف الحاكم كان ذريعة من ذرائع نشر الإسلام.

فالشاهد الذي تطعمه وتكسوه ليقول قولك في إحدى القضايا، كالشاهد الذي ينظر إلى السوط في يديك فيقول ذلك القول.. كلاهما لا يأخذ بإقناع الدليل ولا بنفاذ الحجة، ولا يدفع عن عقيدة دفع العارف البصير..

وصفوة ما تقدم أن الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوغته جميع الحقوق، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك.. إلا أن يحال بينها وبين انتضائه، أو تبطل عندها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها.. وأن الإسلام عقيدة ونظام، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام في أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه..

القائد البصير

لم يكن الإسلام إذن دين قتال، ولم يكن النبي رجلاً مقاتلاً يطلب الحرب للحرب أو يطلبها وله مندوحة عنها، ولكنه مع هذا كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة... يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة، ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه وترسم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة. وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والإنشاء، لأن القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع، وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام.

وقد كانت غزوة بدر هي التجربة الأولى للنبي عليه السلام في إدارة المعارك الكبيرة، فلم يأنف أن يستمع فيها إلى مشورة الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال إلى غير المكان الذي نزل فيه، ثم وعى من تجربة واحدة ما قلّ أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى.. فلو تتبع حروبه عليه السلام ناقد عسكري من أساطين فن الحرب في العصر الحديث ليقترح وراء خططه مقترحًا أو ينبه إلى خطأ، لأعياه التعديل.

ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذي

كان هو الأسلوب الغالب في العصور الماضية، والذي ظهر في الحرب العالمية الحاضرة أنه لا يزال الخطوة الأخيرة في جميع الحروب، على الرغم من الحصون والسدود.. لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق في خطط النبي العسكرية، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم..

١ – فنابليون كان يوجه همه الأول إلى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع، فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع.. وإنما كانت عنايته الكبرى منصرفة إلى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان، وهو على يقين أن الفوز في هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التي يلجأ إليها جلة القواد..

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور.. أن يختار الموقع الملائم له، وأن يختار الفرصة، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداده.

وكان النبي عليه السلام سابقًا إلى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها.. فكان كما قدّمنا لا يبدأ أحدًا بالعدوان، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال، بل ربما وصل إليه الخبر كما حدث في غزوة تبوك والناس مجدبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة.. فلا يثنيه ذلك عن الخطة التي تعودها، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال. ولا يبالي ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدي فلم يحدث ما توقعوه.

وكان عليه السلام يعمد إلى القوة العسكرية حيث أصابها، فيقضي على عزائم أعدائه بالقضاء عليها.. ولا يضيع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء، وإضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة في أيدي الهاجمين، إلا أن يكون الهجوم وبالاً على المقدمين عليه، كما حدث في غزوة الخندق.

٢ – وكان نابليون يقول ان نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد..

والنبي عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة

قوة الإيمان. وربما بلغت نسبة هذه القوة إلى الكثرة العددية كنسبة خمسة إلى واحد في بعض المعارك، مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح والركاب إلى جانب رجحانهم في عدد الجنود.. ومعجزة الإيمان هنا أعظم جدًا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة. فالنبي عليه السلام كان يحارب عربًا بعرب، وقرشيين بقرشيين، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة.. فلا يقال هنا ان الفضل لقوم على قوم في المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون، وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والإيمان.

٣ – وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التي يتناولها اقتداره.. فكان يحارب الانجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصل إلى القارة الأوربية، وتحويل المعاملات عن طريق انجلترا إلى طريق فرنسا..

وهكذا كان النبي عليه السلام يحارب قريشًا في تجارتها، ويبعث السرايا في أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها.

وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوربا هذه السرايا وسموها «قطعًا للطريق»، وهي هي سنة المصادرة بعينها التي أقرها «القانون الدولي» وعمل بها قادة الجيوش في جميع العصور، ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية، رشيدًا تارة وغاليًا في الحمق والشطط تارة أخرى..

٤ – وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه إلى الجيش، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة.

ونرجع الى غزوات النبي عليه السلام فلا نرى أنه حاصر محلة، إلا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التي عسى أن تخرج منها قبل استعدادها، أو قبل نجاحها في الغدر والوقيعة، كما حدث في حصار بني قريظة وبني قينقاع، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم في الميدان المختار بغير كبير اختلاف.

٥ – وكان نابليون معتدًا برأيه في الفنون العسكرية ولاسيما الخطط الحربية، ولكنه كان مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغني عن مشاورة صحبه في مجلس الحرب

الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال.

ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه في خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول، ومن ذلك ما صنعه ببدر - وألمعنا إليه آنفًا - حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان غيرالذي نزلوا فيه أول الأمر ثم بتعوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل إليه الأعداء، وقيل في روايات كثيرة إنه عمل بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة. فحفر الخندق وعمل النبي بيديه الكريمتين في حفره.

وقبول النبي مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة، وسنة من سنن القواد الكبار، غير أننا نعتقد أنه عليه السلام كان خليقًا أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسي بين أهل المدينة في إبان الهجمة عليها. لأنه عليه السلام كان شديد الالتفات إلى سد الثغور وحماية الظهور في جميع وقعاته. وفي وقعة أُحد جعل الجبل إلى ظهره وأقام على الشعب الذي يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين راميًا مشددًا عليهم في التزام موقفهم، قائلاً لهم: «احموا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه. وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا. وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل».

والذي يفعل هذا في شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله في ثغرة مدينة، ولكن المشاورة هنا هي المقصودة بالمضاهاة بين ما سبق إليه النبي وما نبغ فيه نابليون. فهذه خصلة معهودة في كبار القواد لا تقدح فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب.

٦ - ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون.

وكانت فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال، فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر، لأنهما يذكران قريشًا ولا يذكران أبا سفيان، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء، وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد

سأل عن عدد الجزور التي ينحرونها كل يوم. فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذي يحتاج إليه. وكان صلوات الله عليه إنما يعول في استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس إلى العلم بفجاجه ودروبه، ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كلٍّ فيما هو خبير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع.

٧ - واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام، وكان يقول إنه يخشى من أربعة أقلام ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام..

والنبي عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة في كسب المعارك وتغليب المقاصد، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التي عاهدوا عليها ويشهرون به وبالإسلام أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون في هجوه وهجو دينه، فينفذ إليهم من يحاربهم في حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم.

* * *

وعاب هذا بعض المغرضين من الكتاب الأوروبيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الإنجليزي «كولردج» الذي كان يخوض في ذمه ويستهوي الأسماع بسحر حديثه.

إلا أن الفارق عظيم بين الحالتين، لأن حروب الإسلام إنما هي حروب دعوة أو حروب عقيدة، وإنما هي في مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الالهية والوثنية، وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلاً من سبل الصراع في هذا الميدان.

فليس في حالة سلم مع النبي إذن من يحاربه في صميم الدعوة الدينية، ويقصده بالطعن في لباب رسالته الإسلامية، وإن لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده، وإنما هو مقاتل في الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين، ولا سيما إذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة إلا ريثما تعود.

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح، فلا يجوز له أن يقتل أحدًا لا يحمل السلاح في وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب إزهاق حياته. وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين، ولا كان للرسول الإسلامي من غرض لو جاز

له أن يقبل المسالمة ممن يحاربونه في دينه وإن لم يشهروا السيف في وجهه، فإن الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذي يضربون فيه.

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التي سبق إليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح.

لم يتخذ محمد الحرب صناعة، ولا عمد إليها كما أسلفنا إلا لدفع غارة واتقاء عداوة، فإذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعًا اليه، فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذي تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع إلى أن سكن في منفاه، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمي بين رمال الصحراء.

ولقد كانت خبرة النبي ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال، فكانت طريقته في اختيار المكان والغرض أو في اختيار القائد وتزويده بالوصايا والاتباع مثلاً يحتذى في جميع العصور، ولاسيما العصر الحديث الذي كثرت فيه ذرائع التخبئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة، فكثرت فيه – من ثم – حاجة المقاتلين إلى استقصاء أحوال الأعداء.

ففي الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التي تصدر إلى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو في عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض، الى أمثال ذلك من العلامات التي تعين بها الجهات.

ويتفق في أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعًا على سر البعثة ورجاله جميعًا يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون في غزوة أم في مناورة استطلاع، الى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات، وهنالك تصدر الأوامر التي لا بد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ، ولا خوف من كشفها في تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذي يقابلها به العدو إذا انكشف له قبل تنفيذها بفترة وجيزة، ولاسيما إذا كانت الحركة من حركات البحار..

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة..

فقد عُرفت في المأثورات النبوية على أتم أصولها التي تلاحظ في أمثالها، ومن

ذلك أنه عليه السلام بعث عبدالله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه أن «سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحدًا من أصحابك على المسير معك ، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم» .

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثًا وقديمًا وعند بداءة الدعوات على التخصيص .

فأولها كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبي عليه السلام ، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عينًا عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما في البوح به من الخطر المحظور ، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون – وإن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنَّة حكيمة من سنن النبي عليه السلام في جميع المطالب ، وهي في حروب الدعوات على التخصيص أقمن باتباع .. ولهذا كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها على النحو الذي يتبعه قادة الحروب إلى الآن .

ومما لوحظ في كتاب «النبي» لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصايته ألا يكره أحدًا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات في هذا المقام .

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتقيه إذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه ، بل لعله ينقلب إلى النقيض فيحرف الأخبار عمدًا ، أو يتلقاها على غير اكتراث ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه .

ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفي امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة ، حتى تطمئن إلى صحته قبل الاعتماد عليه .

وفي الحرب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين .. لقد عرف أن «هتلر» يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطائرات وراء

الصفوف ، فيتسللون إلى مراكز المواصلات ويعيثون بين القرى المعزولة ، فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ، ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد .

قيل في الإعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير، وقيل في انتقادها والتنبيه إلى خطرها كثير.

فمن دواعي الإعجاب بها أنها أفادت في قطع المواصلات وإشاعة الذعر وتضليل المدافعين ، وانها شيء جديد في شكله وإن لم يكن جديدًا في غايته ومرماه .

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية . فهي تستلزم أن يكون الرائد غيورا على عمله متحمسًا لإنجازه رقيبًا على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه ، فليس أيسر له إذا هو انفرد وأعوزته الرغبة في إنجاز عمله من أن يستأسر في أول مكان يصل اليه من بلاد الأعداء، طلبًا للسلامة ، ولا عقاب عليه إلى نهاية القتال . ثم يتعلل بما شاء من المعاذير ان وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه ، وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه في أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات .

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة إن لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول إليهم ، وهي لهذا أحرى أن تحسب من وحي إخوان الطريق وإلهام العقائد لا من النظام الذي يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود ، فلولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون في نفوس الناشئة جذوة البغضاء ويلهبونهم بحماسة العقيدة .ويخلقون فيهم اللدد الذي يغني عن الرقابة ساعة التنفيذ لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب .

وها هنا تتجلى حكمة النبي عليه السلام في اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر والإكراه .

فهذه « أولاً » بعثة منفردة لا سبيل إلى الإكراه الفعال بين رجالها إذا أريد..

وهي « ثانيًا » بعثة استطلاع لا يغني فيها عمل الكاره المقسور، وألزم ما يلزم العامل فيها إيمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه ، فإن أعوزته هذه الصفة فقد

أعوزه كل شيء.

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع فقد كان النبي عليه السلام عليمًا بمزاياه معنيًا به غاية العناية، يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون، في حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية في الوقت الضروري، ويحول من ثم دون الانتصار عليه.

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون في هذا الميدان حين أصيب في وسائل الاستطلاع، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون في روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم.

فمن أسباب هزيمة نابليون إهماله النصائح التي سمعها في مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل في الحرب الروسية، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع.

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها ديارًا يسأله عن مكان الجيش المتراجع أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذي كان شديد التعويل عليه.

أما هتلر فقد أُتي من قبل هذين النقصين كما أُتي مِنْ قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة.

فقد اشتهر أنه كان في مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم..

واشتهر أنه أخطأ في استطلاع أخبار القوم إذ خيل إليه أن الشعب الروسي يتحفز للثورة ويترقب الإغارة عليه لنصرة المغير كائنًا من كان، ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافي، وهو عنصر الجرمان.

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون، ولكنه لم يخطىء قط مثل هذا الخطأ في جميع غزواته وكشوفه، ولعلنا نفهم – كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية – أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين.

وينبغي ألا تمر بنا سرية عبدالله بن جحش دون أن نستوفي كل ما فيها من الشؤون العسكرية. لأنها تشتمل على أكثر من جانب واحد من جوانب السنة النبوية والتشريع الإسلامي في هذه الشؤون.

فهي سرية استطلاع كما علمنا لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه.

لكن حدث بعد فض الكتاب أن اثنين من رجال السرية ذهبا يطلبان بعيرًا لهما ضل فأسرتهما قريش، وهما سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان..

ثم نزل الركب بنخلة فمرت بهم عير قريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمي، آخر شهر رجب. وكانت قريش قد حجزت أموال أناس من المسلمين منهم بعض من في السرية. فتشاوروا في قتال أهل العير، وحاروا فيما يصنعون: إن تركوا العير تمضي ليلتها امتنعت بالحرم وفاتهم تعويض ما حجزته قريش في هذه الفرصة السانحة، وإن قاتلوا أهلها قتلوهم في شهر حرام، لكنهم اندفعوا إلى القتال فأصابوا من أصابوه ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فأرداه، وأسروا رجلين.

وقفل عبدالله بن جحش ومن معه إلى المدينة وقد حجزوا للنبي عليه السلام الخمس من غنيمتهم، فأباه عليه السلام وقال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، وعنفهم إخوانهم لمخالفة النبي، وساءت لقياهم بين أهل المدينة.

وراحت قريش تثير ثائرة العرب، واندس جماعة من اليهود يحضأون نار الفتنة، وتنادوا أن محمدا وأصحابه قد أباحوا الدماء والأموال في الشهر الحرام، وقال المسلمون في مكة: بل كان ذلك في شعبان، ثم نزلت الآيات: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا».

فقبض النبي العير والأسيرين، وطلبت قريش فداءهما فقال عليه السلام: «لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا، فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم».

هذه قصة السرية وما وقع فيها خلافًا لأمر النبي وما نجم عنها من تشريع..

فإذا نحن كتبناها باصطلاح العصر الحديث فكيف نكتبها؟ وكيف نفهمها؟..

هي لا خلاف حادثة طلائع أو حادثة حدود:

ترسل إحدى الدول طليعة من جندها إلى حدودها للكشف أو للحراسة، فيقع الاشتباك بينها وبين طليعة في بلاد دولة أخرى على غير علم من الحكومتين.

فالذي يحدث في هذه الحالة أن تنظر الحكومة الأخرى إلى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية لا تستوجب القتال، وتكتفي بما ينال المسئولين على أيدي حكومتهم من جزاء أو تأنيب، وينحسم النزاع.

هذا أو تصر الحكومة الأخرى على طلب الترضية. فإن قبلتها الحكومة المطلوبة فالنزاع منحسم، وإن لم تقبلها فالمفاوضة والمساومة أو امتشاق الحسام..

ذلك إذا نظر الفريقان إلى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية ولم يشأ أحدهما أو كلاهما أن يضعاها موضع التشريع العام لتقرير الحكم الذي تجريان عليه فيها وفي أمثالها، أو تقرير ما يعترفان به وما ينكرانه من الشرائط والأصول.

وقريش لم تكتف بالنظر إلى حادثة السرية كأنها حادثة فردية عرضية، ولم تعلن الحرب توًا لأنها تبيت النية لإعلانها بعد حين.. ولكنها أثارت مسألة تشريع عام في قتال الشهر الحرام. فوجب أن ينص الإسلام على هذا التشريع صريحًا لا لبس فيه، وهذا الذي كان.

ليست المسألة أن عبد الله بن جحش قد خالف أمر النبي فهذا أمر مفروغ منه ولا محل للبحث فيه..

إنما المسألة هي: ما الحكم بعد الآن في قتال الأشهر الحرم؟.. وماذا يبلغ من حق المشركين في الاحتماء بحرمة هذه الأشهر إذا كانوا لا يرعون للمسلمين حرمة ولا يزالون يقاتلونهم ويردونهم عن دينهم ما استطاعوا؟ وما الجواب على تشهير قريش واحتجاجها بالحرمات التي لا ترعاها؟..

هذا هو الحكم الذي وجب أن يعلنه الإسلام، وقد أعلنه على الوجه الذي دانت به الشرائع الحديثة في علاقاتها الحربية ولا تزال تدين به حتى اليوم. فهناك حرمات دولية إذا خالفتها إحدى الدول بطل احتماؤها بها وأحل لغيرها أن يخالفها كما خالفتها أو يتخذ من القصاص ما يردع الشر ويعوض الخسارة، وإلا كانت الحرمات درعًا للمعتدين ولم تكن مانعًا لهم وسدا في وجوههم كما أريد بها أن تكون.

واليوم تنقطع العلاقة بين دولتين في حالة حرب أو جفاء فيجوز لكلتيهما أن تحجز ما عندها من أموال الدولة الأخرى وأن تأسر الذين في بلادها من رعاياها ، ويجوز لها أن تجعل تلك الأموال ضمانًا لسداد المغارم التي تنزل بها وبأبنائها ، وأن تتخذ من المعتقلين رهائن تعاملهم بمثل ما يعامل به المعتقلون من أبنائها ، في سجون الدولة الأخرى.

فالذي حدث بعد سرية عبدالله بن جحش هو هذا بعينه، وهو حكم القانون الدولي المتفق عليه : أسيران بأسيرين ، وأموال العير بالأموال التي حجزتها قريش للمسلمين. ولا محل لضجة الناقدين من المبشرين والمتعصبين في تعقيبهم على هذا الحادث المألوف أو على حكم النبي والإسلام فيه ، فإن أصحاب هذه الضجة يعمون عما حولهم وينسون أن المعاملات الدولية في زمانهم لم تفصل في أمثال هذه الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذي ارتضاه النبي ونزل به القرآن ، وهو حكم مساواة يدين به المسلمون كما يدانون ، ويحار المعتسف لو شاء أن يستبدل به ما هو خير منه وأدنى إلى النفاذ والاتباع .

وكان هذا القائد الملهم الخبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع خبيرًا كذلك بتجنيد كل قوة في يديه متى وجب القتال ، إن قوة رأي وإن قوة لسان وإن قوة نفوذ ، فما نعرف أن أحدًا وجه قوة الدعوة توجيهًا أسد ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام .

غرضـــان

والدعوة في الحرب لها – كما لا يخفى – غرضان أصيلان بين أغراضها العديدة . أحدهما إقناع خصمك والناس بحقك ، وهذا قد تكفل به القرآن والحديث ودعاة الإسلام جميعًا ، فالدين كله دعوة من هذا القبيل .

وثانيهما ، إضعافه عن قتالك بإضعاف عزمه وإيقاع الشتات بين صفوفه .. وربما بلغ النبي برجل واحد في هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة ، وبالمكاتب والدواوين ، وبدر الأموال .

قال ابن إسحق ما ننقله ببعض تصرف : «ان نعيم بن مسعود الغطفاني أتى رسول الله ﷺ . فقال : يا رسول الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ..

فمرني بما شئت..

فقال رسول الله : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.. أي ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضاً فلا يقوموا لنا ولا يستمروا على حربنا.

« فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة – وكان لهم نديمًا في الجاهلية – فقال : يا بني قريظة ، قد عرفتم ودِّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم..

« قالوا : صدقت.. لست عندنا بمتهم.

« فقال لهم : إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم.. البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره ، وان قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه. وقد ظاهرتموهم عليه.. وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره.. فليسوا كأنتم !.. فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم. فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا محمدًا حتى تناجزوه..

« فقالوا له : لقد أشرت بالرأي.

« ثم خرج حتى أتى قريشًا فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من قريش : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدًا. وانه قد بلغني أمر قد رأيت عليَّ حقًا أن أبلغكموه نصحًا لكم.. فاكتموا عني !

« قالوا : نفعل.

« قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : انا قد ندمنا على ما فعلنا. فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟.. فأرسل إليهم أن نعم.. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهنًا من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

« ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، إنكم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إليَّ ولا أراكم تتهمونني. قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم.

« قال : فاكتموا عني .

« قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟ ..

« فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

« فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، أرسل أبوسفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : انا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافز .. فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم : ان اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بمقاتلي محمد حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله ان الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

« وقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم .

« ... وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم .. ثم رحلت قريش وغطفان إلى بلادها ، وانصرف رسول الله عن الخندق راجعاً إلى المدينة » .

هذه دعوة نعيم بن مسعود ..

وما نجحت دعوة قط برجل واحد نجاح هذا الرجل ، ولا انتهزت فرصة العناصر الطبيعية والعناصر التي تتألف منها جماعة الأعداء كما انتهزت هذه الفرصة .. فكل كلمة قيلت لطائفة من طوائفهم فهي الكلمة التي ينبغي أن تقال في الوقت الذي ينبغي أن تفعل فيه فعلها ، وهذه هي دعوة الإضعاف والتمزيق كأمضى ما تكون .

قائد بغير نظير

عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية ينبغي أن ننظر إلى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى ظواهر المعارك أو الى أشكالها وأحجامها ، لأننا إذا نظرنا إلى الظواهر فلا معنى إذن للمقارنة على الإطلاق إذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وأن حرباً تدار بالمذياع والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والإشارة ، وان نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والإبل ، وان المدفع أمضى من السيف والرصاصة أمضى من السهم. فلا معنى إذن لمقارنة بالظواهر تنتهي إلى نتيجة واحدة .. هي استضخام الحرب الحديثة والنظر إلى القيادة الغابرة كأنها شيء صغير إلى جانب القيادة التي توجه هذه الضخامة .

لكننا إذا نظرنا إلى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة في القيادة لا نراها في توجيه مليون .. بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة .

* * *

وهذه الفكرة هي التي ترينا محمدًا عليه السلام قائدًا حربيًا بين أهل زمانه بغير نظير في رأيه وفي الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة في توجيه كل ما يتوجه على يدي قائد من قوى الرأي والسلاح والكلام .

وهذه القدرة هي شهادة كبرى للرسول تأتي من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال ..

فمن كانت عنده هذه الأداة النافذة فاقتصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضروري الذي لا محيص عنه ، فذلك هو الرسول الذي تغلب فيه الرسالة على القيادة العسكرية ، ولا يلجأ إلى هذه القيادة إلا حين توجبها رسالة الهداية .

ويزيد هذه الشهادة عظمًا أن الرجل الذي يجتنب القتال في غير ضرورة رجل شجاع غير هياب ..

شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجوز فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال..

إن بعض المستشرقين زعموا أنه عليه الصلاة والسلام قد اشترك في حرب الفجار بتجهيز السهام، لأنه عمل أقرب إلى خلقه من الخوض في معمعة القتال.. وكأنهم أرادوا انه لم يكن قادرًا على المشاركة في المعمعة بغير ذلك.

فهذا خطأ في الإحاطة بمزايا هذه النفس العظيمة التي تعددت جوانبها حتى تجمعت فيها أطيب صفات الحنان وأكرم صفات البسالة والإقدام..

فمحمد كان في طليعة رجاله حين تحتدم نارالحرب ويهاب شواظها من لا يهاب، وكان علي فارس الفرسان يقول: «كنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم.. فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو».

* * *

ولولا ثباته في وقعة حنين، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين، لحقت الهزيمة على المسلمين.

وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعًا، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه إليه الشجاعة الكريمة لم يدعه إليه شيء.. لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير داره، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب إلى غيره.

ومشاركته في الوقعات الأخرى هي مشاركة القائد الذي لا يعفي نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له، فهي شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى، وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود.

وإذا كان القائد خبيرًا بالحرب قديرًا عليها غير هياب لمخاوفها، ثم اكتفى منها بالضروري الذي لا محيص عنه.. فذلك هو الرسول تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية، وتأتي جميع صفاته الحسنى تبعًا لصفات الرسول.

خصائص العظمة

لكن للعظمة خصائص تدعو إلى العجب، وإن كانت معروفة الأسباب.. وناهيك

بالعظمة التي ترتقي هذا المرتقى.

فمن تلك الخصائص أنها قد توصف بالنقيضين في وقت واحد..

لأنها متعددة الجوانب، فيراها أناس على صورة ويراها غيرهم على صورة أخرى، وربما رأتها العين الواحدة على اختلاف في الوقتين المختلفين..

ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد، وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين، ومجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك..

ولأنها عميقة الأغوار فلا يسهل استبطانها لكل ناظر، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر.

وهذا إذا سلمت النفوس من سوء النية.. فأما إذا ساءت النيات وران الهوى على البصائر فلا عجب إذن في الضلال.

* * *

ومن خصائص العظمة النبوية في محمد عليه الصلاة والسلام أنه وصف بالنقيضين على ألسنة المتعصبين من أعداء دينه.. فهو عند أناس منهم صاحب رقة تحرمه القدرة على القتال، وهو عند أناس آخرين صاحب قسوة تضريه بالقتل وإهدار الدماء البشرية في غير جريرة. وتنزه محمد عن هذا وذاك.

فإذا كانت شجاعته عليه السلام تنفي الشبهة في رقة الضعف والخوف المعيب، فحياته كلها من طفولته الباكرة تنفي الشبهة في القسوة والجفاء.. إذ كان في كل صلة من صلاته بأهله أو بمرضعاته أو بصحبه أو بزوجاته أو بخدمه مثلاً للرحمة التي عز نظيرها في الأنبياء.

ولا نقف كثيرًا عند الحوادث التي ذكرها المتعصبون ليستدلوا بها على إهدار الدماء في غير جريرة. فأكثرها لم يثبت قط ثبوتًا يقطع الشك فيه، ولا سيما القول بتحريض النبي عليه السلام على قتل عصماء بنت مروان اليهودية لأنها كانت تهجو الإسلام والمسلمين. فإن النبي عليه السلام قد نهى في قول صريح عن قتل النساء وكرر نهيه في غير موضع، حتى قال بعض الفقهاء بمنع قتل المرأة وان خرجت للقتال، ما لم يكن ذلك لدفع خطر لا يدفع بغير قتلها.

والحادث الوحيد الذي يستحق الالتفات إليه هو مقتل كعب بن الأشرف الذي

كان يهجو المسلمين، ويقدح في دينهم، ويؤلب عليهم الأعداء، ويأتمر بقتل النبي، ويدخل في كل دسيسة تنقض معالم الإسلام.. وكان مع قومه بني النضير معاهدًا على أن يحالف المسلمين، ويحارب من يحاربونهم، ولا يخرج لقتالهم، ولا يقابلهم إلا بما يقابل به الحليف حليفه من المودة والمعونة.

فنقض العهد وزاد على نقضه تأليب العرب مع قومه على النبي وصحبه، وانه رجع إلى المدينة «فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم» وافترى عليهن وعليهم ما ليس يفتريه رجل شريف وليس يرضاه في عرضه عربي غيور..

* * *

ورد في حديث مقتله أن الرهط الذين خرجوا لقتله انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة – وكان حديث عهد بعرس – فوثب في ملحفته.. فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: «إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة!»

وصدقت امرأته حين وصفته بأنه محارب يعامل معاملة المحاربين وقد حنثوا في أيمانهم، فلم يكن راعيًا لعهده ولم يكن له وازع من نفسه ولا من قومه، ولم يكن مأمونًا على المسلمين وهو لائذ بحصنه.. فهو أقل الناس حقًا في أمان.

وجاء في الخبر أن النبي عليه السلام أقر مقتله، فعاب بعض المؤرخين الأوربيين ذلك وحسبوه خروجًا على سنن القتال يشبه فعلة نابليون الكبير حين أمر باختطاف دنجان ومحاكمته بغير حق.. مع ما بين الحادثين من بون بعيد بيناه من قبل فلا نعود إليه.

إلا أننا نوجز هنا فلا نزيد على أن نشير إلى حكم القانون الدولي في أحدث العصور على من يؤخذون بصنيع معيب كصنيع ابن الأشرف، وإن لم يبلغ مبلغه من الغدر والكيد والإساءة إلى الأعراض.

وذلك هو حكم الأسير الذي ينطق بعهد الشرف ألا يعود إلى القتال، فإن القانون الدولي يوجب عليه أن يوفي بعهده ويوجب على حكومته ألا تندبه إلى عمل ينقض ما عاهد الأعداء عليه، ويقضي بحرمانه حق المعاملة كما يعامل أسرى الحرب إذا شهر السلاح على الذين أطلقوه أو على حلفائهم المحاربين في صفوفهم ويصح إذن أن

يحاكم كما يحاكم المذنبون ويقضى عليه بالموت(١).

فقوانين العصر الحديث إذن تعاقب بالموت جريمة أهون من جريمة كعب بن الأشرف بكثير، لأنه تجاوز الغدر إلى التأليب والائتمار وثلب الأعراض.

وليس في توقيع هذه الأحكام قسوة ولا رحمة، لأن المرجع فيها إلى الضرورة التي أوجبت القصاص وفرضته على الناس في أحوال السلم بين أبناء الأمة الواحدة، فضلاً عن أحوال القتال بين الأعداء.

أسرى غزوة بدر

ويلحق بقتل ابن الأشرف ما أخذه بعض المستشرقين من قتل بعض الأسرى بعد غزوة بدروخروج النبي إلى ساحة الحرب لرؤية صرعى المعركة وغنائمها بعد انتهائها.. فهو أمر لا يصح الحكم فيه إلا بالنظر إلى موضعه وموقعه وأشخاصه، لأنه ليس بالحكم العام الذي اتبعه الإسلام في جميع الأسرى وجميع الحروب، وإنما هي حالة أفراد كانوا معروفين بتعذيب المسلمين والتنكيل بهم في غير مبالاة ولا نخوة. وليست هي كحالة الأسرى الذين يقعون في أيدي أعدائهم غير معروفين بماض ولا بحاضر سوى انهم جند كسائر الجند الذين يحشدهم الأعداء.. فقتل الأسرى بعد بدر إن هو إلا قصاص كقصاص المتهمين بالتعذيب وقد وقعوا في أيدي من يتولى عقابهم من الغالبين. جاز هذا في كل قانون، وجاز أن يحاسب المغلوب على جرائمه التي ليست هي من فروض القتال أو من مباحاته في شيء.. وفرق بين معاملة هؤلاء ومعاملة أسير كل ما تعلمه في شأنه أنه جندي لا بغضاء بينك وبينه قبل حمل السلاح ولا بعد وضع السلاح، وليس في عمله محل للثأر والمحاسبة بعد انقضاء واجبه وهو القتال الشريف.

أما رؤية القتلى في ساحة الحرب، فقد نسي فيها أولئك الناقدون أن اغتباط المنتصر بفوزه طبيعة إنسانية لا غضاضة فيها.. ما لم تجاوز حدها إلى الفرح برؤية الدماء لمحض الفرح برؤية الدماء. وهذا ما لم يزعمه أحد من شاهدي المعركة عن النبي عليه الصلاة والسلام، ولا نمّ عليه كلام أحد من المشركين أو المسلمين.

* * *

(١) «أوبنهايم» الجزء الثاني، صفحة ٣٠٢.

ونسي أولئك الناقدون كذلك أن الرجل الذي يرى الدم في المدينة العصرية، غير الرجل الذي يرى الدم في حروب البادية وفي حياة البادية على الإجمال.. ونعني بها حياة الرعاة التي تتكرر فيها إراقة الدم كل يوم، وحياة القبائل التي كانت تغزو وتغزى في كثير من الأيام..

فانك لا ترمي بالقسوة طبيبًا قد ألف النظر إلى الجثث وأشلائها والأجسام الحية وجراحها.. لأن الطب لن يكون في الدنيا رحمة من الرحمات إن لم يألف الأطباء هذه المناظر ويملكوا جأشهم وهم يفتحون أعينهم عليها. ولكنك قد ترمي بالقسوة إنسانًا لم تقع عينه على منظر مثلها ثم هي تفاجئه فلا ينفر منها. وما من رجل عاش في البادية وشهد غزوة من غزواتها يمكن أن يقال فيه ان ساحة الحرب تفاجئه بما لم يكن يراه، أو بما يستلزم النظر إليه قسوة في الطباع واستراحة إلى رؤية الدماء.

كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدرا، لينظروا بعين النبي إلى عواقب هذه الواقعة التي أوشكت أن تصبح الوقعة الحاسمة في تاريخ الإسلام..

كان عليهم أن ينظروا هنالك بعين النبي إلى جيشين.. أحدهما فيه السلاح والخيل والعدد، والآخر في ثلث من يقاتلونه عددًا، ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف ومن كل مطية غير الأقدام..

وكان عليهم أن يلمسوا اشفاق النبي من عاقبة هذه الوقعة ويستمعوا إليه وهو يناشد ربه: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني.. اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد...».

وكان عليهم أن ينظروا إليه، وقد مد يديه وشخص ببصره وجمع نفسه في صلاته.. حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه وأبو بكر يرده ويناديه: «بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك..» وهو لا يلتفت إلى سقوط ردائه ولا إلى مناداة صفيه، لاستغراقه في الدعاء..

وكان عليهم أن يعلموا حرص قريش أن يستبقوا رجالاً منهم، يرجعون إلى مكة قبل المعركة أو بعدها ليثابروا على مناوأة النبي وإعادة الكرة عليه حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد، وليس الصبر عليه بيسير..

كان على الناقدين أن يعلموا هذا كله ليعلموا أن الشعور بالفرح في مثل هذا الموقف العصيب أمر لا غرابة فيه، وانه شعور مطبوع في نفس حية تجاوب كل ما يحيط بها من بواعث الحياة في مواقف السلم أو مواقف القتال. فأول ما يبادر النفس الحية من شعور مطبوع صادق في ذلك الموقف أن تغتبط بالنصر، وتخرج من الضيق إلى الفرج، وتنظر في ساحة الحرب إلى من قضى فيها من قريش ومن عاد منها إلى وكره ليعيد الكرة ويستأنف الإيذاء والمكيدة، وأن ترى ما هي تلك الأسلاب والغنائم التي أوشكت أن تفتن بعض المقاتلين لأنها أول شيء شهدوه من نوعه، ولما يتنزل حكم الدين في سلب أو غنيمة.

ان محمدًا رجل حي جياش النفس بدوافع الحياة، وليس بناسك مهزول من نساك الصوامع الذين يكبتون في جوانحهم كل دافعة وكل إحساس.. فامتناعه أن يشهد نتيجة المعركة التي سبقتها كل تلك المخاوف وستلحق بها كل تلك العواقب أمر لم يكن بالمنتظر من قائد في مثل موقفه، ولم تكن توجبه الفطرة الإنسانية على المقاتل.. وهو في اللحظة الأولى بعد الظفر خليق أن يعلم مدى انتصاره، ومدى ما يتوقعه بعده، ومدى ما فعلته الفئة القليلة بالفئة الكثيرة، ليقيس عليه ما تفعله مثلها فيما يليها من وقعات. وهؤلاء مراسلو الصحف الحربيون الذين يدرسون اليوم أشباه هذه المواقف يجدون من واجبهم ألا يتخلفوا عن ساحات القتال بعد انجلاء الفريقين، ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينهما ويسجلوا ما لا غنى عن تسجيله في جميع الحروب. فانصراف محمد عن ساحة بدر على أثر النصر عمل غريب يخل بمكانة القائد وبواجب التحقيق والاستفادة من كل ما يفيد.

بعد معركة الأحزاب

ونحن في صدد الحديث عن الرحمة والقسوة يحسن بنا أن نستقصي ما ذكره المؤرخون الأوربيون من مآخذ في هذا الباب، وأهمه عدا ما قدمناه قتل المقاتلين من بني قريظة بعد معركة الأحزاب.

فان أولئك المؤرخين يستعظمون قتلهم ويحسبونه مخالفًا للعرف المتبع في الحروب، وينسون أمورًا لا يصدق الحكم في هذه المسألة ما لم يذكروها ويستحضروها أتم

استحضار. وهي أن بني قريظة حنثوا في أيمانهم مرات فلا يجدي معهم أخذ المواثيق من جديد، وانهم قبلوا حكم سعد بن معاذ وهم الذين اختاروه، وان سعدًا انما دانهم بنص التوراة الذي يؤمنون به كما جاء في التثنية: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك..» (اصحاح ١٠ إلى ١٥ تثنية).

وينبغي أن يسأل الناقدون أنفسهم بعد هذا: ماذا كان مصير المسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب؟.

فالقضاء الذي قضاه النبي في بني قريظة عدل وحكمة وصواب، وما من أحد يقضي غير ذلك القضاء وهو مؤتمن على مصير أمة يرحمها من غدر أعدائها، ومن لددهم في خصومتها، ومن استباحتهم كل منكر في التربص والوثبة بعد الوثبة عليها.

وإن حملة تأديبية واحدة من حملات العصور الحديثة يحملها قوم مسلحون على قوم عزل يذودون عن أوطانهم وحقوقهم، لفيها من البطش والتعذيب ما لم يحدث قط نظير له في عقاب بني قريظة، ولا في جميع الحروب التي نشبت بين النبي عليه السلام وبين أعداء له ولدينه، هم المتفوقون عليه في العدد والثروة والسلاح.

ان عبقرية محمد في قيادته لعبقرية ترضاها فنون الحرب، وترضاها المروءة، وترضاها شريعة الله والناس، وترضاها الحضارة في أحدث عصورها، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء.

عبقرية محمد السياسية

سياسة الخصوم والاتباع

السياسة على معان كثيرة في العرف الحديث..

فمنها ما يكون بين بعض الدول وبعض من المراسم والعلاقات، ومنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات وخطط في أعمالها الخارجية، ومنها ما يكون بين الراعي ورعيته أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات. ولكل معنى من هذه المعاني اصطلاحه في العرف الحديث، وان جمعتها كلمة السياسة في اللغة العربية.

وقد تولى النبي عليه السلام أعمالاً كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة في عموم مدلوله.. ولكننا لا نعرف بينها عملاً واحدًا هو أدخل في أبواب السياسة، وأجمع لضروبها، وأبعد عن المشاركة في صفة القيادة العسكرية أو صفة الوعظ العلني أو سائر الصفات التي اتصف بها عليه السلام من عهد الحديبية في مراحله جميعًا، منذ ابتدأ الدعوة إلى الحج إلى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدي قريش.

ففي عهد الحديبية تجلى تدبير محمد في سياسة خصومه وسياسة أتباعه، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود.

بدأ بالدعوة إلى الحج، فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته.. بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي إليه، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتها. وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى،

ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد والرسالة الإسلامية. فليس محمد وأصحابه أناسًا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها، ولكنهم إذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم. فإذا خالفوا قريشًا في شيء فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة، وليس هو بشأن القبائل أجمعين.

ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعمدوه من إغضاب العرب على الإسلام، بما ادعوا من قطعه للأرزاق وتهديده للأسواق التي يعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون إلى مكة والرائحون منها.. فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين إلى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد بيت الحرام. فإذا حال بينهم حائل وبين ما يقصدون إليه، فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه.. ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين.

وقد سمعنا كثيرًا في العصور الحديثة عن المقاومة السلبية أو المقاومة التي تجتنب العنف ولا تعتمد على غير وجه الحق والحجة..

سمعنا بها في الحركة الهندية التي قام على رأسها غاندي وتابعه فيها بعض مريديه، حتى كان لها من الأثر في إزعاج الحكومة البريطانية ما لم يكن للقنابل ولا للمشاغبات الدامية..

وقيل يومئذ ان غاندي قد تتلمذ في هذه الحركة على المصلح الروسي الكبير ليون تولستوي.. وقيل بل هو أحرى أن يعرفها من آداب البرهميين والبوذيين التي تحرم ايذاء الحيوان فضلاً عن الإنسان، قبل أن يشرع ليون تولستوي مذهبه الجديد.

والذين قالوا بهذا الرأي الأخير استبعدوا أن يتفق المسلمون والبرهميون والبوذيون على حركة غاندي وتبشيره بتلك المقاومة السلبية، لاعتقادهم أن الإسلام قد شرع للقتال فلا يوائم المسلمين ما يوائم البوذيين والبرهميين، من اجتناب القوة والتزام السلم وترك المقاومة.

لكن المثل الذي قدمه النبي صلوات الله عليه في رحلة الحديبية ينقض ما توهموه،

ويبين لهم أن الإسلام قد أخذ من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجري في حينه مع مناسباته وأسبابه.. فلا هو يركن إلى السيف وحده ولا إلى السلم وحده، بل يضع كليهما حيث يوضع، ويدفع بكليهما حيث ينبغي أن يدفع. وهو الحكم المتصرف حيث يختارما يختار، وليس الآلة التي يسوقها السلم أوالحرب مساق الاضطرار.

* * *

وقد خرج النبي إلى مكة في رحلة الحديبية حاجًا لا غازيًا.. يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن سأله، ويثبت نية السلم بالتجرد من السلاح، إلا ما يؤذن به لغير المقاتلين.

فلم يفصل بهذه الخطة بين العرب وقريش وحسب.. بل فصل بين قريش ومن معهم من الأحابيش، وجعل الزعماء وذوي الرأي يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسالك في دفعه أو قبوله أو مهادنته، وهو عليه السلام يكرر الوصاة لأتباعه بالمسالمة والصبر منعًا للاتفاق بين خصومه على قرار واحد، وقل من أتباعه من أدرك قصده ومرماه حتى الصفوة المختارين.

ولما اتفق الطرفان - المسلمون وقريش - التعاهد والتعادن، كانت سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبتها قريش غاية في الحكمة والقدرة «الدبلوماسية» كما تسمى في اصطلاح الساسة المحدثين.

دعا بعلي بن أبي طالب فقال له «بسم الله الرحمن الرحيم».

فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش: «أمسك! لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللهم».

فقال النبي: «أكتب باسمك اللهم».

ثم قال: «أكتب (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو)».

فقال سهيل: «أمسك! لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك».

وروي أن عليًا تردد فمسح النبي ما كتب بيده، وأمره أن يكتب «محمد بن عبدالله - في موضع محمد رسول الله».

ثم تعاهدوا على أن من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشًا من رجال محمد لم يردوه عليه ، وانه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه.. ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه ، ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها ، ولا سلاح غيرها .

* * *

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون ، لوجب أن يكتب على غير هذا الأسلوب .. فيعترف المشركون كرهًا أو طوعًا بصفة النبوة ، ولا يردون أحدًا من مواليهم أوقاصريهم يذهب إلى النبي ويلحق بالمسلمين .

ولكنه عهد مهادنة أو عهد « إيقاف أعمال العداء إلى حين » كما يسمونه في اصطلاح العصر الحاضر.. فلا يعوزه شيء من الأصول المرعية في أمثال هذه العهود ، من اثبات صفة المندوبين التي لا ارغام فيها لأحد الطرفين ولا مخالفة لدعوى الفريقين ، ومن حفظ كل لحقه في تجديد دعواه واستئناف مسعاه .

فلو أن النبي عليه السلام شرط على قريش أن ترد إليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهداية الإسلامية ، ونقض الوصف الذي يصف به المسلمين.. فان المسلم الذي يترك النبي باختياره ليلحق قريشًا ليس بمسلم ، ولكنه مشرك يشبه قريشًا في دينها وهي أولى به من نبي الإسلام..

أما المسلم الذي يرد إلى المشركين مكرهًا فإنما الصلة بينه وبين النبي الإسلام ، وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد والقرب .. فان كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه ، وان كان وثيق الدين فبقي على دينه فلا خسارة على المسلمين .

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هي الخاسرة بذلك الشرط الذي حسبته غنمًا لها وخذلانًا لمحمد صلوات الله عليه.. فإن المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد في حوزته رعاية لعهده ، قد خرجوا إلى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهي أمان في عهد الهدنة بين الطرفين ، فلا استطاع

المشركون أن يشكوهم إلى النبي لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة، ولااستطاعوا أن يحجزوهم في مكة كما أرادوا يوم أملوا شروطهم في عهد الحديبية، ولو قضى العهد بولاية النبي على من ينفر من مسلمي مكة لجاز للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبي بالمحافظة عليه.

* * *

وتم العهد.. فعرف من لم يعرف ما أفاء على الإسلام بعد قليل..

فجهر بمحالفة النبي من لم يكن يجهر بولائه.. واستراح النبي من قريش، ففرغ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل إلى عظمائها بالدعوة إلى دينه، وفتح الأبواب لمن يفدون إليه ممن أنكروا بغي قريش وأمنوا أن تكون نصرتهم للإسلام حرباً يبتلون فيها بما لا يطيقون.

ويوم نزلت الآية الكريمة على أثر اتفاق الحديبية: «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا» لم يفقه الكثيرون معناها في حينها، ولم يتبينوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذي حسبوه محض تسليم.. ولكنهم فهموا أي فتح هو بعد سنتين، وعلموا أن من الفتوح ما يكون بغير السيف، وما يشبه الهزيمة في ظاهره عند من يتعجلون ولا يحسنون النظر إلى بعيد.

الفتح المبين

كان في تلك السنة فتح يراه الناظر بعين الغيب ولا يراه الناظر بعينه ولكنها سنة واحدة ثم رأى الفتح المبين من لا يرون بغير العيون.. رأوه وامتلأت عيونهم بالنظر إليه، فسر قومًا وساء آخرين..

ففي السنة التالية نادى الرسول أصحابه أن يتجهزوا للحج ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فخرجوا في شوق المنطلق بعد منع والمنتظر بعد صبر، إلا من استشهد في خيبر وأدركته الوفاة خلال العام. وخرج معهم جمع كبير ممن لم يشهدوا الحديبية يتبعهم النساء والأطفال، وساقوا أمامهم ستين بدنة مقلدات للهدي، وقد حملوا السلاح والدروع والرماح وعلى رأسهم مائة فارس يقودهم محمد بن سلمة..

فلما انتهى الرسول وصحبه إلى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه، وعلمت قريش بالنبأ ففزعوا وبعثوا بمكرز بن حفص في نفر منهم فجاءوا يقولون: «والله يا محمد ما عرفت صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر.. تدخل بالسلاح في الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر: السيوف في القرب؟» فقال عليه السلام: «إني لا أدخل عليهم بسلاح» قال مكرز: «هو الذي تعرف به. البر والوفاء».

وانما حمل النبي السلاح للحيطة كما قال لصحبه: «إن هاجنا هائج من القوم كان السلاح قريبًا منا».. وتركه في الحراسة على مقربة من مكة حيث يوصل إليه عند الحاجة إليه.

ثم أقبل عليه السلام على ناقته القصواء وجموع المسلمين محدقون به متوشحون بالسيوف يلبون ويهللون، وأخذ عبد الله بن رواحة بزمام القصواء وهو ينشد:

خلّوا بَني الكفّار عَن سَبِيلِــــــه خلّوا فكُلُّ الخَيْرِ في رَسُولِــــــه
يَا رَبّ إنّي مُؤْمِنٌ بِقيلِــــــه إنّي رَأَيْــتُ الحَقّ في قَبُولِــــه

وأوشك وقد هزته النخوة أن يصيح في قريش صيحة الحرب، فنهاه عمر رضي الله عنه وأمره النبي أن ينادي ولا يزيد: «لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وخذل الأحزاب وحده». فرفع ابن رواحة صوته الجهير، وتلاه المسلمون يرددونها وتهتز بها جنبات الوادي القريب، فيسمعها من فارقوا مكة لكيلا يسمعوها ولا يروا ركب النبي يخطو في نواحيها.

* * *

وكان الفتح الذي بصر به عيانًا من لم يره يوم الحديبية بنور البصيرة، وأسلم من الضعفاء والأقوياء من كان عصيًا على الإسلام: فريق منهم بهرهم وفاء النبي بعهده مع استطاعة نقضه، وفريق منهم راعهم سمت الدين ورحم الإسلام فيما بين المسلمين، وجمال ما بينهم وبين نبيهم من طاعة وتمكين، وفريق منهم علموا أن العاقبة للإسلام فجنحوا إلى طريق السلامة والسلام، وحسبك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الاقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما في رجاحة الخلق والعقل مثلان متكافئان، وإن كانا لا يتشابهان..

وهكذا تجلت عبقرية محمد في سياسة الأمور كما في قيادة الجيوش. فكان على أحسن نجاح في سياسته إذ نادى بعزيمة الحج وهو لم يفتح مكة بعدده وعدته، وإذ دعا المسلمين وغير المسلمين إلى مصاحبته في رحلته، وإذ توخى من طريقة المسالمة وإقامة الحجة في انفاذ عزيمته، وإذ قبل العهد الذي كبر قبوله على أقرب المقربين من عترته، وإذ نظر إلى عقباه ووصل به إلى القصد الذي توخاه.

* * *

عبقرية محمد الادارية

ملكات شخصية

في الإسلام أحكام كثيرة مما يدخل في تصرف رجال الادارة كما نسميهم اليوم.. وفيه وصايا كثيرة عن المعاملات، كالمساناة والمبايعة والاستقراض والشفعة والتجارة وسائر شئون المعيشة الاجتماعية يقتدي بها المشترعون في جميع العصور.

ولكنا لا نريد بما نكتب عن النبي أن نسرد أحكام الفقه ونبسط وصايا الدين، فهي مشروحة في مواطنها لمن شاء الرجوع إليها.

وإنما نريد أن نعرض لأعماله ووصاياه من حيث هي ملكات شخصية وسلائق نفسية، تلازمه حيث كان مؤديًا لرسالة الدين، أو مؤديًا لغير الرسالة من سائر أعمال الإنسان.

وكذلك لا يعنينا مثلاً أن نتكلم عن «الإدارة» كأنها نصوص المنشورات و«اللوائح» التي تدار بها الدواوين وتجري عليها تفصيلات الحركة في مكاتب الحكومة، فان هذه وما اليها هي أعمال منفذين مأمورين وليست أعمال مديرين آمرين. وإنما نعني الملكة الادارية من حيث هي أساس في التفكير: من اعتمد عليه استطاع أن يقيم بناء الادارة كلها على أسس قويمة، ثم يدع لغيره تفصيلات الأضابير والأوراق.

فليس في وسع رجل مطبوع على الفوضى مستخف بالتبعة أن يؤسس ادارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمة.

أما السليقة المطبوعة على انشاء الادارة النافعة فهي السليقة التي تعرف النظام، وتعرف التبعة، وتعرف الاختصاص بالعمل، فلا تسنده إلى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه.

وقد كانت هذه السليقة في محمد عليه السلام على أتم ما تكون.

كان يوصي بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي أو العمل المجتمع الذي يحتاج إلى تدبير. ومن حديثه المأثور «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم». ومن أعماله المأثورة أنه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة إذا أصيب من تقدمه بما يقعده عن القيادة. وكان قوام الرئاسة والامامة عنده شرطان هما جماع الشروط في كل رئاسة، وهما الكفاءة والحب: «أيما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين».

و«أيما رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه».

وكان إلى عنايته باسناد الأمر إلى المدير القادر عليه حريصًا على تقرير التبعات في الشئون ما كبر منها وما صغر، على النهج الذي أوضحه صلوات الله عليه حيث قال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة عنه. والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

وقد كانت أوامر الإسلام ونواهيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصارًا كانوا أو مهاجرين، ولكنه عليه السلام لم يترك أحدًا يدعي لنفسه حقًا في إقامة الحدود، وإكراه الناس على طاعة الأوامر، واجتناب النواهي غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس.

فلما قتل بعض المسلمين غداة فتح مكة رجلا من المشركين غضب عليه السلام، وقال فيما قال من حديثه المبين: «... فمن قال لكم ان رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة...». ولما أراد أن يصادر الخمر نهج في ذلك منهجًا يقصد به إلى التعليم والاستنان كما جاء في رواية ابن عمر حيث قال:

«أمرني النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن آتيه بمدية، فأتيته بها، فارسل بها فأرهفت ثم أعطانيها فقال: أغد عليّ بها. ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام. فأخذ المدية مني فشق ما كان من تلك الزقاق

بحضرته ثم أعطانيها ، وأمر الذين كانوا معه أن يمضوا معي ويعاونوني ، وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته ففعلت ، فلم أترك في أسواقها زقًا إلا شققته » .

وهذا تصرف المدير بعد تصرف النبي الذي يبين الحرام ويبين الحلال .

فالخمر شربها وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين من تفقه منهم ومن لم يتفقه في الدين ، ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغي أن تكون في يد ولي المسلمين لا في يد كل فرد يعرف الحلال والحرام . وليست المسألة هنا مسألة تحريم وتحليل ، ولكنها مسألة إدارة وتنفيذ في مجتمع حافل يشتمل على شتى المصالح والأهواء ، ولا يصاب ببلاء هو أضر عليه من بلاء الفوضى والاضطراب واختلاف الدعاوى وانتزاع الطاعة وتجاهل السلطان ، فلم يكتف النبي عليه السلام بصريح التحريم في القرآن ، ولا اكتفى باسناد الامر إلى غير معروف الصفة في تنفيذ الأحكام ، بل خرج بنفسه ثم أمر رجلا بعينه وأناسًا بأعينهم أن يمضوا في اتمام عمله ، ولم يجعل ذلك إذنًا لمن شاء أن يفعل ما شاء ..

وما أكثر ما سمعنا في أيامنا الأخيرة عن الأمن والنظام ، وتوطيد أركان الشريعة والقانون ، ولكننا لا نعرف في كل ما قيل كلامًا هو أجمع لوجوه الصواب في هذه المسألة من قول النبي : « السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت : « ... ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان » . ومن قوله : « الإمام الجائر خير من الفتنة ، وكل لا خير فيه . وفي بعض الشر خيار» . ومن قوله : « ان الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » إلى أحاديث في هذا المعنى هي جماع الضوابط التي تقوم عليها الإدارة الحكيمة ، والخطط السليمة المستقيمة ، بين آمر ومأمور.

نظام وفوق النظام سلطان ، وفوق السلطان برهان من الشرع والعقل لا شك فيه ، وجميع أولئك على سماحة لا تتعسف النزاع ولا تتعسف الريبة ولا تلتمس الغلواء ..

هذا الالهام النافذ السديد في تدبير المصالح العامة ، وعلاج شئون الجماعات ، هو الذي أوحى إلى الرسول الأمي قبل كشف الجراثيم ، وقبل تأسيس الحجر الصحي بين الدول ، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون ، أن يقضي في مسائل الصحة واتقاء

نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذي لم يأت العلم بعده بمزيد، حيث قال: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

فتلك وصية من ينظر في تدبيره إلى العالم الإنساني بأسره لا إلى سلامة مدينة واحدة أو سلامة فرد واحد.. إذ ليس أصون للعالم من حصر الوباء في مكانه، وليس من حق مدينة أن تنشد السلامة لنفسها أو لأحد من سكانها بتعريض المدن كلها لعدواها.

تدبير الشئون العامة

على أن الإدارة العليا إنما تتجلى في تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع، فليست الإدارة كلها نصوصًا وقواعد يجري الحاكم في تنفيذها مجرى الآلات والموازين التي تصرف الشئون على نسق واحد، ولكنها في كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك.

وذلك هو المجال الذي تمت فيه عبقرية محمد في حلول التوفيق واتقاء الشرور أحسن تمام. فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها إلا أشار فيه بأعدل الآراء، وأدناها إلى السلم والارضاء.

صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر بإقامة الحجر الأسود في مكانه، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة، ولا تؤمن عقبى الفصل فيه بإيثار احدى القبائل على غيرها ولو جاء الإيثار من طريق المصادفة والاقتراع، فأشار محمد بالرأي الذي لا رأي غيره لحاضر الوقت ولمقبل الغيب المجهول. فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل زعيم في طرف من أطرافه، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان، وأن ينسلف الدعوة وهي مكنونة في طوايا الزمان، ولو علموا بها يومئذ لما سلموا ولا سلم من عدوان وشنآن.

وصنع ذلك يوم هاجر من مكة إلى المدينة فاستقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله وهو يشفق أن يقدح في نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة.. فترك لناقته خطامها تسير ويفسح الناس لها طريقها حتى بركت حيث

طاب لها أن تبرك، وفصلت فيما لو فصل فيه انسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها، ولو أمنت في تلك الساعة على دخل وسوء طوية.

وصنع ذلك يوم فضل بالغنائم أناسًا من أهل مكة الضعيف ايمانهم على الناس من الأنصار الذين صدقوا الإسلام وثبتوا على الجهاد، فلما غضب المفضولون لم يكن أسرع منه إلى إرضائهم بالحجة التي لا تغلب من يدين بها، بل تريه أنه هو الغالب الكاسب وأنها تصيب منه المقنع والاقناع في وقت واحد: «أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى اسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار...».

كلام مدير فيه الادارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين.. فهو مدير حين تكون الادارة تدبير أمور، ومدير حين تكون الادارة تدبير شعور، وهو كفيل ألا يلي مصلحة من المصالح تعتورها الفوضى ويتطرق اليها الاختلال، لأنه يسوسها بالنظام وبالتبعة، وبالاختصاص وبالسماحة، وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلاف أو انحلال، أو لخطل في ادارة الأعمال.

* * *

البليغ

« اللهم هل بلغت » !

هذه هي اللازمة التي رددها النبي في أطول خطبه الأخيرة، وهي خطبة الوداع..

وهي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها، لأنها لخصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات. فما كانت حياة النبي كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها الا حياة تبليغ وبلاغ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله عليه السلام وهو يجود بنفسه « جلال ربي الرفيع فقد بلغت ! ».

ولصدق هذه الدلالة ترى أن السمة الغالبة على أسلوب النبي في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الابلاغ قبل كل سمة أخرى.. بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها، لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هي منها بمثابة الفروع.

وكلام النبي المحفوظ بين أيدينا إما معاهدات ورسائل كتبت في حينها، وإما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها وروعيت الدقة في المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع.

والابلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعًا، حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر إلى المرؤوسين أو مجرى الدعاء الذي يلقنه المسلم ليدعو الله على مثاله.

أنظر مثلاً إلى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الأعمال وهي كما جاء في مختار مسلم :

« ... بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل. فانحطت على

فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم. فقال بعضهم لبعض: أنظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها، لعل الله يفرجها عنكم، فقال أحدهم: اللهم انه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار أرعى عليهم. فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالديَّ فسقيتهما قبل بني. وانه نأى بي ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما. فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمي. فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر. فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء.

« ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء.

« وقال الآخر: اللهم انه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار. فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها.

« فلما وقعت بين رجليها قالت: يا عبدالله! اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه. فقمت عنه، فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة. ففرج لهم.

« وقال الآخر: اللهم اني كنت استأجرت أجيرًا بفرق[1] أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه.. فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا ورعاءها فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي! قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها فقال: اتق الله ولا تستهزىء بي! فقلت: اني لا استهزىء بك. خذ ذلك البقر ورعاءها! فأخذه فذهب به..

« فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي، « ففرج الله ما بقي ».

توجيه الأمراء والولاة

هذا أسلوبه عليه السلام في التعليم بالقصص.

---

(١) اناء يسع ثلاثة آصع.

فانظر إلى أسلوبه في توجيه الأمراء والولاة كما جاء في مختار مسلم حيث قال :
كان رسول الله إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال : اغزوا باسم الله في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فان هم أبوا فسلهم الجزية. فان هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فان هم أبوا فاستعن الله وقاتلهم.

«وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

«وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فانت لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا».

وهذا أسلوبه عليه السلام في تعليم الولاة بالأوامر والوصايا.

فانظر إلى أسلوبه في الرسائل من رسالته إلى النجاشي حيث قال :

«سلم أنت. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه.

«واني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فاني رسول الله.

«وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر.. فاني أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي.

«والسلام على من اتبع الهدى».

المعاهدات والمواثيق

أما اسلوبه في المعاهدات والمواثيق فهذا طرف مما جاء في كتابه عليه السلام بين المهاجرين والأنصار واليهود..

« ... المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

« وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالقسط بين المؤمنين.

« وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تعدي عانيها بالقسط بين المؤمنين.

« وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين... ».

وهكذا إلى آخر الكتاب.

تلك نماذج من كلام النبي في أربعة أبواب مختلفات، تتفرق موضوعاتها كما تتفرق القصص والأوامروالرسائل والمواثيق، ولكنها كلها موسومة بسمة واحدة لا اختلاف فيها، وهي سمة الابلاغ أو البلاغ المبين. وأصدق ما يقال في تعريفها ما قيل في تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة: أقرب موصل بين نقطتين.

فليس أقرب من هذا الأسلوب في ابلاغ الغرض منه.

لا كلفة ولا غموض ولا إغراب، وقلة الغريب – بل ندرته – في كلام النبي أجدر الأمور بالملاحظة في اقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغه العربية..

فمحمد العربي القرشي الناشىء في بني سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية في أطراف الجزيرة، لم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة... وسر ذلك انه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزًا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب، ومن

ذلك ما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه ، وأنه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال : « ان الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها » .

وقد عرف النبي عليه الصلاة والسلام في حياته الخاصة والعامة أنه كان قليل الكلام معرضًا عن اللغو لا يقول إلا الحق وإن قاله في مزاح .

فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة . فإذا كرر اللفظ بعينه كما جاء في بعض المعاهدات فذلك أسلوب المعاهدات الذي لا محيص عنه ، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه . فهو أيضًا سمة من سمات الابلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق ، أو على سبيل الاعادة التي روي أنه كان يتوخاها عليه الصلاة والسلام أحيانًا ليعقل عنه كلامه .

وفي كتابه إلى النجاشي زيادة من أسماء الله الحسنى ومن الاشارة إلى المسيح وأمه لم يؤثر في الكتب الأخرى ، ولكنها ألزم ما يلزم في خطاب ملك مسيحي يراد منه أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح في دينه وفي دين المسلمين الذي يدعى اليه ، وكيف يبتغي طريق المقابلة بين العقيدتين إذا شاء.. ما على الرسول إلا البلاغ .

وهذا هو البلاغ في التعبير : كل كلمة تصل إلى سامعها ، وكل كلمة مقصودة بمقدار .

ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقة متعمل في ابتغاء التأثير ، إلا الابلاغ الذي يليق بالرجولة والكرامة ، وعلى المعرض بعد ذلك وزر الإعراض .

سجع كحلية الذهب

وكان عليه السلام يكره « سجع الكهان » الذي يخدعون به السامع ليوهموه أنه يستمع إلى طلاسم السحرة والشياطين ، ولكنه لم يكن يأبى السجع بتة ولا يخلو كلامه من سجع يأتي على السجية ، ويغلب أن يكون ذلك فيما يرتل علانية كالأذان وما هو في حكمه ، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة كقوله : « ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط . قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق » أو قوله : « ان الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة

المال » .

ومذهبه في هذه الحلية اللطيفة مذهبه في كل حلية تليق بالرجل : فحولة في القول وحولة في الزينة ، فسجعه عليه الصلاة والسلام كحلية الذهب التي يليق بالرجل أن يتحلى بها ، ولا مزيد.

كتب إليه أبو سفيان كتابًا يقول في آخره :

« .. ، نريد منك نصف نخل المدينة ، فان أجبتنا إلى ذلك وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار.

تَجاوَبَت القَبَائلُ مِن نِزَارِ ... لِنَصْرِ اللَّاتِ في البيتِ الحرَامِ
وأَقْبَلَت الضَّراغِمُ من قُرَيشٍ ... على خَيْلٍ مُسَوَّمَةٍ ضِرَامِ

فأجابه بكتاب جاء فيه : « وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتكم. فوالله ما لكم عندي جواب إلا أطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام ، وبفلق الهام ، وخراب الديار، وقلع الآثار... » .

فهذا السجع في هذا المقام أصلح لخطاب الجاهليين ، لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين ، كما يعرفون منه معنى المناجزة والتخويف. ومن هنا أقر النبي نص الحلف الذي كان بين جده وخزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم يجعلونهما موثقًا تعقد به المواثيق وتؤكد به الحرمات. وهذا نصه :

« باسمك اللهم. هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفًا جامعًا غير مفرق : الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب . قد تعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد ، وأوثق عقد ، لا ينقض ولا ينكث ما أشرقت شمس على ثبير ، وحن بفلاة بعير ، وما قام الأخشبان (١) ، واعتمر بمكة إنسان : حلف أبد لطول أمد. يؤيده طلوع الشمس شداً ، وظلام الليل مدًا . وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون . على عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على طالب ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب في شرق أو غرب .

(١) جبلا مكة .

أو حزن أو سهل. وجعلوا الله على ذلك كفيلاً، وكفى به حميلاً.. ».

هذه أمثلة السجع الذي فاه به الرسول أو أقره من كلام غيره. وما عداه من تجميل الكلام فهو تجميل الابلاغ الذي لا كلفة فيه.

وقد أعانه عليه الصلاة والسلام على أسلوب الابلاغ أن الذين كانوا يستمعون إليه إنما كانوا يستمعون إلى كلام نبي محبوب مطاع. فهو نافذ في نفوسهم بغير حيلة، مستجمع لأسماعهم بغير تشويق قائم بالكفاية الوسطى التي لا حاجة بها إلى افراط ولا خوف عليها من تفريط.

أما رسائله إلى الملوك والأمراء - ممن لم يسلم ولم يهتد - فإنما كانت للابلاغ أول الأمر ثم يأتي بعدها التفسير والتفصيل على ألسنة المرشدين والموكلين بالاجابة فيما يسألونه عنه، فهي كذلك قائمة على كفاية الابلاغ، تلك الكفاية الوسطى التي لا افراط فيها ولا تفريط.

ونقول ان الأمرين أعانا النبي على أسلوبه المبلغ البليغ ولا نقول انهما أنشآه وأوحياه.. فإن الحوار القليل الذي حفظ لنا من أيام الدعوة الأولى قبل استفاضة الدين واقبال الأتباع المؤمنين قد كانت له صبغة هذا الأسلوب بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع.. لأن مصدر الفحولة في الابلاغ ثقته بقوله لا ثقة المستمعين إليه. فكلامه كله نسق واحد في هذه الخصلة. وخطابه كله خطاب سهولة وكرامة، وسياقه كله مطواع لا احتيال فيه، ووصاته لمن يقتدي به أن يقصر الخطبة ويقل الكلام كما كان يقول لمن يبعث بهم من الولاة.

ولا يفهمن من هذا أن مقتضيات الكلام لم يكن لها أثر في اختلاف الوضع أو اختلاف الموقف وهو يخاطب الناس. فقد كان عليه الصلاة والسلام يلاحظ هذا الاختلاف ويعطيه حقه كما كان يفعل حين يتكىء على قوس وهو يخطب في الحرب، أو يتكىء على عصا وهو يخطب في العظات، وكان يبدو على وجهه ما يختلج بصدره إذا غضب أو أنذر «فكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش: صبحكم مساكم»».

أسلوب عصري

ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبي - كتابة وخطابًا - أسلوبًا عصريًا يقتدي به المعاصرون في زماننا هذا وفي كل زمان... لأن الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصري في جميع العصور، ويخطىء من يحسب الوصل بين الجمل شرطًا للكلام العربي القديم والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتدعة في الزمن الأخير، ويخطىء كذلك من يحسب قبول الكلام لاشارات الترقيم علامة أخرى من علامات هذه الأساليب. فإليك الحديث الذي نقلناه آنفًا وهو مثل من أمثلة كثار حيث يقول عليه الصلاة والسلام: «ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، وان كان مائة شرط: قضاء الله حق، وشرط الله أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق».

هذا الحديث رضى البلاغة العربية في وصله وفصله، ورضى الأسلوب العصري في اشارات ترقيمه، وآية على خطأ الذين يفرقون بين شروط البلاغة العربية ذلك النحو من التفريق.

رأي النبي في الشعر

وقد نقلت إلينا تعقيبات معدودة عن رأي النبي في الشعر والشعراء لا تدخل في النقد الفني وتدخل في كلام الأنبياء الذين يقيسون الكلام بقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة. ومنها قوله: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد «ألا كل شيء ما خلا الله باطل». وقوله عن امرىء القيس إنه صاحب لواء الشعراء إلى النار، وأنه كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود، فكان يقول مثلاً «ويأتيك بالأخبار من لم تزود» لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى، ولكنه إذا نطق بقول سحيم عبد بني الحسحاس: «كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا» قدم كلمة الإسلام فقال: «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيًا» لينفي ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون.

وقد استحسن ما قيل من الشعر في النضح عن الإسلام والذود عنه وعن آله،

فكانت آراؤه هذه وشبيهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام، لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح، ولم يبعثوا ليلقنوهم دروسهم في قواعد النقد والانشاء..

جوامع الكلم

إلا أن الابلاغ أقوى الابلاغ في كلام النبي هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون في مجلدات.

ومن أمثلة ذلك علم السلوك في الدنيا والدين وقد جمعه كله في أقل من سطرين قصيرين من قوله: «أحرث لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».

ومن أمثلته علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله: «كما تكونوا يولَّ عليكم»..

فأي قاعدة من القواعد الأصلية في سياسة الأمم لا تنطوي بين هذه الكلمات؟

ينطوي فيها أن الأمم مسئولة عن حكوماتها، لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالاكراه، لأن الجهل جهلها الذي تعاقب عليه، والاكراه ضعفها الذي تلقى جزاءه.

وينطوي فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال.

وينطوي فيها أن الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وأحرى ألا يغير الوالي قومًا حتى يتغيروا هم قبل ذلك.

وينطوي فيها «أن الأمة مصدر السلطات» على حد التعبير الحديث.

وينطوي فيها أن الأمة تستحق الحكم الذي تصبر عليه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال.

وذلك هو الابلاغ الذي ينفذ في وجهاته كل نفاذ.

ويلحق بهذا في العلم بالتبعات قوله عليه الصلاة والسلام: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل».

فالمزايا الإنسانية واجبات وأعباء وليست بالمتع والأزياء، وعلم الإنسان بالخير

والشر يفرض عليه الفرائض التي يبتلى بها ، ولا يهنئه بالراحة التي يصبو إليها . وهو محسوب عليه وكذلك ذكاؤه محسوب عليه .

وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الإحصاء في هذا المقام .

كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء .

وكان بليغاً مبلغاً على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية . وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين ، بل قدوة المرسلين .

* * *

محمد الصديق

عطوف ودود

إذا كان الرجل محبًا للناس، أهلًا لحبهم إياه، فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها..

وإنما تتم له أداة الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة الإنسانية ومن سلامة الذوق، ومتانة الخلق، وطبيعة الوفاء.

فلا يكفي أن يحب الناس ليحبوه. لأنه قد يحبهم وفي ذوقه نقص ينفرهم منه ويزهدهم في حبه..

ولا يكفي أن يكون محبًا سليم الذوق ليبلغ من الصداقة مبلغها. فقد يكون محبًا محبوبًا حسن الذوق ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الوفي نزرًا ضعيفًا لا تدوم عليه صداقة، ولا تستقر عليه علاقة.

إنما تتم أداة الصداقة بالعاطفة الحية، والذوق السليم، والخلق المتين، وقد كان محمد في هذه الخصال جميعاً مثلاً عاليًا بين صفوة خلق الله.

كان عطوفًا يرأم من حوله ويودهم ويدوم لهم على المودة طول حياته، وإن تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام.

كان صبيًا في الثانية عشرة يوم سافر عمه، فتعلقَ به حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه في سفره..

وكان شيخًا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينسى..

وليس في سجل المودة الإنسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليمة

ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين، فيلقاها هاتفًا بها: أمي! أمي! ويفرش لها رداءه ويمس ثديها بيده... كأنه يذكر ما لذلك الثدي عليه من جميل، ويعطيها من الإبل والشاء ما يغنيها في السنة الجدباء.

ولقد وفدت عليه هوازن وهي مهزومة في وقعة حنين وفيها عم له من الرضاعة... لأجل هذا العم من الرضاعة تشفع النبي إلى المسلمين أن يردوا السبي من نساء وأبناء، واشترى السبي ممن أبوا رده إلا بمال.

وحضنته في طفولته جارية عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حياته، وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب من أمر بناته ورحمه، فقال لأصحابه: «من سرَّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن...». وما زال يناديها يا أمة يا أمة كلما رآها وتحدث اليها، وربما رآها في وقعة قتال تدعو الله وهي لا تدري كيف تدعو بلكنتها الأعجمية، فلا تنسيه الوقعة الحازبة أن يصغي اليها ويعطف عليها.

* * *

وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع. فما نهر خادمًا ولا ضرب أحدًا، وقال أنس: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته: لم تركته؟».

وكان من أضحك الناس وأطيبهم نفسًا، صافي القلب إذا كره شيئًا رؤي ذلك في وجهه، وإذا رضي عرف من حوله رضاه.

وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافة ولم يقصره على ذوي الرحم من الناس ولا على الناس من غير ذوي الرحم. فكان يصغي الاناء للهرة لتشرب، وكان يواسي في موت طائر يلهو به أخو خادمه، وأوصى المسلمين «إذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين» وكرر الوصايا بها أن «اتقوا الله في البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة».

وقال: «إن الله غفر لامرأة مومسة مرَّت بكلب على رأس ركي يلهث قد كاد يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك».

وقال في هذا المعنى: «دخلت أمرأة النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي

تركتها تأكل من خشاش الأرض».

لا بل شمل عطفه الأحياء والجماد كأنه من الأحياء، فكانت له قصعة يقال لها الغراء. وكان له سيف محلى يسمى ذا الفقار، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول، وكان له سرج يسمى الداج وبساط يسمى الكزوركوة تسمى الصادر ومرآة تسمى المدلة، ومقراض يسمى الجامع، وقضيب يسمى الممشوق..

وفي تسمية تلك الأشياء بالأسماء معنى الألفة التي تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين، كأن لها «شخصية» مقربة تميزها بين مثيلاتها، كما يتميز الأحباب بالوجوه والملامح وبالكنى والألقاب.

* * *

هذه العاطفة الإنسانية التي رحبت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط بها لم تكن هي كل أداة الصداقة في تلك النفس العلوية، بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة ونبلاً ويتمثل – فيما يرجع إلى علاقات النبي بالناس – في رعاية شعورهم أتم رعاية وأدلها على الكرم والجود.

«كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه. وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه...».

«وكان إذا ودع رجلاً أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده...»

«وكان أرحم الناس بالصبيان والعيال»... «وإذا قدم من سفر تُلقي بصبيان أهل بيته».

«وكان أشد حياء من العذراء في خدرها. وأصبر الناس على أقدار الناس».

يحفظ مغيبهم كما يحفظ محضرهم ويقول لصحبه: «من اطلع في كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع في النار».

ومع العاطفة الإنسانية والذوق السليم والأدب الكريم: سمت جميل ونظافة بالغة وحرص على أن يراه الناس في أجمل مرآه.

ومع هذا كله أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق؟ وحسبك من ثقة الناس به

ما أودعوه من أمانات وهم يناصبونه العداء، فلم يخرج للهجرة وهو مهدد في سربه حتى رد الأمانات إلى أصحابها، وقد يكون في ردها ما ينبههم إلى خروجه ويأخذ عليه سبيل النجاة، وهذا إلى اشتهاره بالأمانة في صباه حتى سمي بالأمين قبل أن يتجرد لدعوة تنبغي لداعيها أمثال هذه الصفات.

* * *

كل هذه المزايا النفسية – بل بعض هذه المزايا النفسية – خليق أن يتم لصاحبه أداة الصداقة أوفى تمام، وأن يجعله محبًا لمن حوله جديرًا منهم بأحسن حب وولاء. فلم يعرف في تاريخ العظمة – لا بين الأنبياء ولا غير الأنبياء – إنسان ظفر بنخبة من الصداقات على اختلاف الأقدار والبيئات والأمزجة والأجناس كالتي ظفر بها محمد، ولم يعرف عن إنسان أنه أحيط من قلوب الضعفاء والأقوياء بما يشبه الحب الذي أحيط به هذا القلب الكبير

تقدم في بعض فصول هذا الكتاب حديث زيد بن حارثة الذي خطف من أهله وهو صغير ثم اهتدى إليه أبوه واهتدى هو إلى أبيه على لهفة الشوق بعد يأس طويل، فلما وجب أن يختار بين الرجعة إلى آله وبين البقاء مع سيده «محمد» اختار البقاء مع السيد على الرجعة مع الوالد، وشق عليه أن يحتجب عن ذلك القلب الذي غمره بحبه ومواساته، وهو شريد لا يرى ذويه ولا يدري من هم ذووه.

وكان لا يغني من لازموه أن يلزموه في الحياة حتى يثقوا من ملازمتهم إياه بعد الممات. فضعف مولاه ثوبان ونحل جسمه وألح عليه الحزن في ليله ونهاره، فلما سأله السيد العطوف يستفسره علة حزنه ونحوله قال في طهارة الأبرار: «اني إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك لأني إن دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين فلا أراك» ورويت هذه القصة في أسباب نزول الآية الكريمة: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا».

وأدرك الموت بلالاً فأحاط به أهله يصيحون واكرباه وهو يجيبهم: «واطرباه غدًا ألقى الأحبة محمدًا وصحبه... !».

وقد عنينا مما تقدم بحب الصداقة بين الإنسان والإنسان لأننا لم نقصد حب المؤمن لنبيه في هذا الباب. فقد بلغ من امتلاء قلوب المسلمين والمسلمات بهذا الحب أن المرأة كانت تسمع أنباء المعركة فينعى اليها خاصة أهلها وهي تسترجع وتعرض عن هذا لتسأل عن النبي وتهتم بسلامته قبل اهتمامها بسلامة الإخوة وبني الأعمام. إلا أننا عنينا محبة الصداقة في هذا الباب لأنها هي المحبة التي جعلت كثيرًا من الناس يؤمنون بمحمد لمحبتهم إياه واطمئنانهم إليه، فكانت سابقة في قلوبهم وأرواحهم لحب العقيدة والايمان.

عظمة العظمات

إن عطف العظيم على الصغير حتى يستحق منه هذا الحب لفضيلة يشرف بها مقام العظيم في نظر بني الإنسان.

ولكن قد يقال ان استحقاق العظيم إن يحبه العظماء لأشرف من ذلك رتبة وأدل على حظه الجليل من فضائل التفوق والرجحان... وهذا صحيح لا ريب فيه.

وهنا أيضًا قد تمت لمحمد معجزته التي لم يضارعه فيها أحد من ذوي الصداقات النادرة..

فأحدقت به نخبة من ذوي الأقدار تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأي وعظمة الهمة وكل منهم ذو شأن في عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمة، كما أثبت التاريخ من سير أبي بكر، وعمر، وخالد، وأسامة، وابن العاص، والزبير، وطلحة، وسائر الصحابة الأولين.

وربما عظم الرجل في مزية من المزايا فأحاط به الأصدقاء والمريدون من النابغين في تلك المزية، كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة بنابليون.

بل ربما أحاط الصالحون بالنبي العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة.

* * *

أما عظمة العظمات فهي تلك التي تجذب اليها الأصحاب النابغين من كل معدن وكل طراز، وهي التي يتقابل في حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبي بكر وعلي،

وبين عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن العاص : كلهم عظيم وكلهم مع ذلك مخالف في وصف العظمة لسواه .

تلك هي العظمة التي اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق ، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن وأصبحت تجمع اليها البأس والحلم ، والحيلة والصراحة ، والألمعية والاجتهاد ، وحنكة السن وحمية الشباب .

تلك هي بلا ريب عظمة العظمات ، ومعجزة الاعجاز في باب الصداقات .

وما استحقها محمد إلا بنفس غنيت بالحب وخلصت له حتى أعطت كل محب لها كفاء ما يعطيها : مودة بمودة وصفاء بصفاء ، وعليها المزيد من فضل التفاوت في الأقدار .

ولقد كان صاحب الفضل على أصفيائه جميعًا بما هداهم اليه من نور العقل ونور البصيرة ، وهما أشرف من نور البصر لأنه نعمة يشترك فيها الإنسان والعجماوات ، ونور العقل ونور البصيرة نعمتان يختص بها الإنسان . ومع هذا كان يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم كما قال عن أبي بكر « ما أحد أعظم عندي يدًا من أبي بكر : واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته » وكما قال عن أبي بكر وعمر : « أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر » وكما قال عن علي : « علي أخي في الدنيا والآخرة » وكما قال عن بعض أصحابه : « ان الله تعالى أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم : عليّ منهم ، وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان » وكما قال عن الأنصار جميعًا وهو في مرض الموت : « استوصوا بالأنصار خيرًا . إنهم عيبتي التي أويت اليهم ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » ... وغير ذلك كثير عن الصحابة كافة وعن بعضهم مذكورين بأسمائهم .

* * *

على أننا نلمس دلائل هذا الفؤاد الرحب وهذا العطف الإنساني الشامل في معاملته لأعدائه وشانئيه فضلاً عن معاملته للأصفياء ، ومن ليس بينهم وبينه عداء ولا صفاء .

فما ثأر من أحد أساء إليه في شخصه ، وقد عفا عن رجل همَّ بقتله وهو نائم ورفع السيف ليهوي به فسقط من يده على كره منه ، وما حارب قط أحدًا كان في وسعه أن

يسالمه ويحاسنه ويتقي شره .

ومعاملته لعبد الله بن أبيّ الذي كان المسلمون يسمونه رأس النفاق مثل من أمثلة الإغضاء والصفح الجميل. فقد عاهد وغدر ثم عاهد وغدر وعاش ما عاش يكيد للنبي في سره ويمالىء عليه أعداءه ، وشاع أن النبي عليه الصلاة والسلام قضى بقتله فتقدم ابنه وقال له : « يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبيّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني ، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر فأدخل النار» .

فأبى النبي أن يقتله وآثر الرفق به ، وزاد في أفضاله واجماله فكافأ الولد خير مكافأة على خلوص نيته وإيثاره البر بدينه على البر بأبيه . فأعطاه قميصه الطاهر يكفن به أباه وصلى عليه ميتًا ووقف على قبره حتى فرغ من دفنه ، وقد حاول عمر أن يثنيه عن الصلاة على ذلك العدو الذي آذاه جهد الإيذاء فذكر الآية : « ... استغفر لهم أو لا تستغفر لهم . إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ... » فقال : « لو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له زدت » .

* * *

هذه النفس المطبوعة على الصداقة والرحمة والسماحة ما أعجب اتهامها بالقسوة على ألسنة بعض المؤرخين الأوربيين !

ما أعجب اتهامها بالقسوة لأنها دانت أناسًا بالموت كما يدين القاضي مجرمًا بذنبه وهو من أرحم الرحماء ! ..

ما أعجبهم إذ يذكرون العقوبة وينسون الذنب الذي استوجب العقوبة كما يستوجب السبب النتيجة..

وأي ذنب ؟ ذنب لو قوبل به غير محمد لأراق فيه أنهارًا من الدماء وله حجة من سلطان الدنيا والآخرة .

فلا نذكر استهزاء المشركين به وإعناتهم إياه وإلقاءهم عليه القذر والحجارة وائتمارهم بحياته وحياة أصحابه واخراجهم المسلمين من ديارهم إلى أقصى الديار، ولا نذكر

العناد والاغاظة والاستثارة لغير جريرة إلا أنهم دعوا إلى عبادة الله والتحلي بمكارم الأخلاق وترك عبادة الأصنام وترك الرذيلة.

* * *

لا نذكر شيئًا من هذا فهو أطول من أن يحصيه هذا الكتاب، ولكننا نذكر حادثًا واحدًا تجمع فيه من اللؤم ما تفرق في كثير غيره، وذلك حادث الرسل الأربعين – وقيل السبعين – الذين قتلوا في بئر معونة ولا ذنب لهم إلا أنهم ذهبوا تلبية لدعوة الداعين ليعلِّموا من ينشد علم القرآن والدين، غير مغصوب عليه..

فماذا كانت دول الحضارة صانعة بالقاتلين الغادرين لو كان هؤلاء الأربعون أو السبعون مبشرين بالدين المسيحي قتلوا في قبيلة من الهمج الذين يأكلون الآدميين ومن حقهم أن يعذروا كما تعذر الوحوش.. إن بقي من أبناء القبيلة من يروي أنباء المقتلة، فقد يقال إن القوم لرحماء في العقاب!.

ولم يكن حادث بئر معونة بالحادث الوحيد من حوادث الغدر بالرسل الأبرياء. فلعلنا نختم هذا الفصل عن الصداقة بخير ما يختم به حين نشير إلى غدر قبيلة هذيل بالرسل الستة الذين ذهبوا إليهم ليعلِّموا من شاء أن يتعلم أحكام الدين وهو آمن في داره، لا إكراه له ولا بغي عليه. فقتلوا جميعًا وجيء بأحدهم زيد بن الدَّثِنَّة أسيرًا ليباع... فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه، ونصب للقتل فسأله أبو سفيان مستهزئًا: «أنشدك الله يا زيد. أتحب أن محمداً الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟» فأجابه زيد: «والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي...».

فصاح أبو سفيان دهشًا: «ما رأيت من الناس أحدًا يحبه أصحابه كما يحب أصحاب محمد محمدًا...».

من فعلة كهذه نعلم مدى ما استحقه محمد من حب الأصدقاء ومدى ما استحقه أعداؤه من جزاء، فقد أحب أصدقاءه وأحبوه لأنه طبع على الصداقة. أما أعداؤه فقد لقوا جزاءهم لأنهم هم طبعوا على العداء والاعتداء.

محمد الرئيس

الرئيس الصديق

من الحسن أن نكتب عن محمد الرئيس بعد كتابتنا عن محمد الصديق لأنه هو قد جعل للرئاسة معنى الصداقة المختارة ، فمحمد الرئيس هو الصديق الأكبر لمرؤوسيه ، مع استطاعته أن يعتز بكل ذريعة من ذرائع السلطان ..

فهناك الحكم بسلطان الدنيا .

وهناك الحكم بسلطان الآخرة .

وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة .

وكل أولئك كان لمحمد الحق الأول فيه : كان له من سلطان الدنيا كل ما للأمير المطلق اليدين في رعاياه ، وكان له من سلطان الآخرة كل ما للنبي الذي يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون ... وكان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه أكفأ كفؤ وأوقر مهيب .

ولكنه لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر ، بسلطان الصديق الأكبر .. بسلطان الحب والرضا والاختيار .

فكان أكثر رجل مشاورة للرجال ، وكان حب التابعين شرطًا عنده من شروط الإمامة في الحكم بل في العبادة . فالإمام المكروه لا ترضى له صلاة ..

وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه . فروي أنه كان في سفر وأمر أصحابه باصلاح شاة . فقال رجل : يا رسول الله ! عليَّ ذبحها . وقال آخر : عليَّ سلخها . وقال آخر : عليَّ طبخها .. فقال عليه الصلاة والسلام : وعليَّ جمع الحطب .

فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل . قال : « علمت أنكم تكفونني ، ولكن أكره أن أتميز عليكم ، ان الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه » .

وأبى ، والمسلمون يعملون في حفر الخندق حول المدينة ، إلا أن يعمل معهم بيديه . ولو لا أنها سنة حميدة يستنها للرؤساء في حمل التكاليف لأعفى نفسه من ذلك العمل وأعفاه المسلمون منه شاكرين .

وجعل قضاء حوائج الناس أمانًا من عذاب الله أو كما قال : « إن لله تعالى عبادًا اختصهم بحوائج الناس يفزع إليهم الناس في حوائجهم . أولئك الآمنون من عذاب الله » .

وقد كان أعلم الناس أن الأعمال بالنيات . ولكنه علم كذلك « إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » فوكل الضمائر إلى أصحابها وإلى الله ، وحاسب الناس بما يجدي فيه الحساب .

سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم قائلاً : « إنما أنا بشر. وانه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق ، فأقضي له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها » .

واليوم يكثر اللاغطون بحرية الفكر ويحسبونها كشفاً من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها ، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا ويكن في كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة ..

فهذا الذي يحسبونه كشفًا من كشوف العصر الأخير قد جرى عليه حكم النبي قبل أربعة عشر قرنًا ، وشرعه لأمته في أحاديثه حيث قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » .

وزعموا كذلك أن تقديم الرحمة على العدل في تطبيق الشريعة دعوة من دعوات المصلحين المحدثين لم يسبقوا إليها ، وهي هي دعوة النبي العربي التي كررها ولم يدع قط إلى غيرها فقال : « إن الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي » وقال : « إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف » وقال : « إن الله تعالى لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا ، ولكن بعثني معلماً

ميسرًا » وروى عنه صاحب من أصحابه أنه ما خيِّر بين حكمين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن فيه خرق للدين .

وكان يوصي بالضعفاء ويقول لصحبه : « أبغوني الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » ويذم الترفع على الخدم والفقراء « فما استكبر من أكل مع خادمه وركب الحمار بالأسواق واعتقل الشاة فحلبها » .

لكنه مع الرحمة بالصغير لا ينسى حق الكبير : « من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا » .

إذ ليس الإنصاف حرامًا على الكبراء حلالاً لمن صغر دون من كبر ، فلكل حق ولكل إنصاف . وإنزال الناس منازلهم كما أمر قومه هو خير شعار تستقيم عليه الحكومة ، وتنعكس أمور الأمم بانعكاسه .

* * *

وكان النبي الرئيس يعلم أن الرئاسة لجميع المرؤوسين وليست للموافقين منهم دون المخالفين ، فيأمر قومه أن « اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا فانها ليس دونها حجاب » .

وإذا قال هذا رئيس ونبي فانها لأولى السنن أن يتبعها الرؤساء كافة ، لأنهم لم يبعثوا لنشر الدين ومحو الكفر كما بعث الأنبياء .

لقد كانت سنَّة الرئاسة عند محمد هي سنة الصداقة .. فلو استغنى حكم عن الشريعة لا ستغنى عنها حكم هذا الرئيس الذي جاء بالشريعة لجميع متبعيه ..

الـزوج

حق المرأة

الكلام عن زوج يستدعي الكلام عن مكانة امرأة عند رجل ، وعن مكانة النساء عامة عند الرجال عامة ..

وإنما تعرف مكانة المرأة التي وصلت إليها بفضل محمد ودينه ، متى عرفت مكانة المرأة التي استقرت عليها في الجاهلية ، ومكانة المرأة التي استقرت عليها في عصره — وبعد عصره — وبين أمم أخرى غير الأمة العربية ..

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة في الجاهلية وما صارت إليه بعد رسالة محمد :

كانت متاعًا يورث ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين ، فأصبحت بفضل الإسلام ونبيه صاحبة حق مشروع ، ترث وتورث ولا يمنعها الزواج أن تتصرف بمالها وهي في عصمته كما تشاء .

وكانت وصمة تدفن في مهدها فرارًا من عار وجودها ، أو عبئًا تدفن في مهدها فرارًا من نفقة طعامها . فأصبحت إنسانًا مرعي الحياة ينال العقاب من ينالها بمكروه .

ولم تكن في البلاد الأخرى بأسعد حظًا منها في البلاد العربية .

فلا نذكر شرائع الرومان واستعبادها النساء . ولا نذكر المتنطسين في صدر المسيحية وتسجيلهم عليها النجاسة وتجريدهم إياها من الروح .

وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذي قيل فيه إنه عصر المرأة الذهبي بين الأمم الأوربية ، وإن الفرسان كانوا يفدون النساء بالدم والمال ..

فهذا العصر كان كما قال الدارسون له : عصر الحصان قبل أن يكون عصر المرأة أو عصر « السيدة المفداة » .

وقد أجمله جون لا نجدون دافيز صاحب « التاريخ الموجز للنساء »[1] فقال : « إن عصر الفروسية كان معروفًا بما لحظ فيه من فقدان الشبان على الجملة الاهتمام بالجنس الآخر. ولعلنا نقل من الدهشة لذلك لو أننا وعينا كلمة الفروسية وذكرنا أنها لم تكن ذات شأن بالسيدات كما كانت ذات شأن بالخيل على خلاف ما يروق الكثيرين أن يذكروه . فقلما بلغ الاهتمام بالمرأة مبلغ الاهتمام بالحصان في عصر الفروسية إلا على اعتبار أنها عنوان صيغة » .

إلى القارىء محادثة من كتاب « أغاني الآداب والتحيات » Chanson de Geste, يروى فيها أن ابنة أوسيس Auseis جلست في نافذتها ذات يوم فعبر بها فتيان – هما جاران وجربرت – وقال أحدهما : « أنظر. أنظر يا جربرت : وحق العذراء ما أجملها من فتاة ! » فلم يزد صاحبه على أن قال : « يا لهذا الجواد من مخلوق جميل ! .. » دون أن يلتفت بوجهه .. وعاد صاحبه يقول مرة أخرى : « ما أحسبني رأيت قط فتاة بهذه الملاحة . ما أجمل هاتين العينين السوداوين ! » وانطلقا وجربرت يقول : « ما أحسب أن جوادًا قط يماثل هذا الجواد » وهي حادثة صغيرة ولكنها واضحة الدلالة . إذ قلة الاهتمام تورث الازدراء . وإليك مثلاً حادثة في الكتاب المتقدم يروى فيها أن الملكة بلا نشفلور ذهبت إلى قرينها الملك بيبن Pepin تسأله معونة أهل اللورين . فأصغى إليها الملك ثم استشاط غضبًا ولطمها على أنفها بجمع يده فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقول : « شكرًا لك . إن أرضاك هذا فأعطني من يدك لطمة أخرى حين تشاء » .

ولم تكن هذه حادثة منفردة لأن الكلمات على هذا النحو كثيرًا ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة .. وكأنما كانت اللطمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة جسرت في عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة ..

« ... ومتى كانت المرأة تزف إلى زوجها عفو الساعة وكثيرًا ما تزف إلى رجل لم

"Short History of Women" : by John Langdon Davies (1)

تره قبل ذاك ، إما لتسهيل المحالفات الحربية والمدد العسكري ، أو لتسهيل صفقة من صفقات الضياع . ومتى كانت بعد زفافها إلى فارس مجنون بالحرب معطل الذكاء قد يكون في معظم الأحوال من الأميين – عرضة للضرب كلما واجهته بمخالفة – أترى سيدة القصر إذن واجدة لها رحمة أو ملاذاً من حياة الشقاء أو صحبة قرين ليس لها بأهل ؟ » .

* * *

ولقد تقدم الزمن في الغرب من العصور المظلمة إلى عصور الفروسية إلى ما بعدها من طلائع العصر الحديث ولما تبرح المرأة في منزلة مسفة لا تفضل ما كانت عليه في الجاهلية العربية ، وقد تفضلها منزلة المرأة في تلك الجاهلية ..

ففي سنة ١٧٩٠ ، بيعت امرأة في أسواق انجلترا بشلنين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التي كانت تؤويها ..

وبقيت المرأة إلى سنة ١٨٨٢ ، محرومة حقها الكامل في ملك العقار وحرية المقاضاة ..

وكان تعلم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال ، فلما كانت اليصابات بلاكويل تتعلم في جامعة جنيف سنة ١٨٤٩ – وهي أول طبيبة في العالم – كان النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها ، ويزوين ذيولهن من طريقها احتقاراً لها كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسها ..

ولما اجتهد بعضهم في إقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فلادلفيا الأمريكية أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصادر كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصادر كل من يستشير أولئك الأطباء .

وهكذا تقدم الغرب إلى أوائل عصرنا الحديث ولم تتقدم المرأة فيه تقدماً يرفعها من مراغة الاستعباد التي استقرت فيها من قبل الجاهلية العربية ..

فماذا صنع محمد ؟ وماذا صنعت رسالة محمد ؟

حكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق كفاء ما فرض عليها : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » .

وحكم آخر من أحكامه العالية أمر المسلم بإحسان معاشرتها ولو مكروهة غير ذات حظوة عند زوجها : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا » .

وأباح لها الدين في الجهاد أن تكسب كما يكسب الرجال : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » .

ولم يفضل الرجل عليها إلا بما كلفه من واجب كفالتها وإقامة أودها والسهر عليها .

أما محمد فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخيارهم خيارهم لنسائهم » .

وأمر بمداراة ضعفها ونقصها لأن « المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها » .

وأوجب على الرجل أن يتجمل لامرأته ويبدو لها في المنظر الذي يروقها ، فقال عليه الصلاة والسلام مما قال في هذا المعنى وهو كثير : « اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا ، فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم » .

وأوجب على الرجل إذا خطب امرأة أن يظهرها على عيبه إن كان به عيب مستور : « إذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب » .

وبلغ من رعاية شعورها ومداراة خجلها الذي فطرت عليه أنه أوجب الرجل أن يمتعها كما تمتعه لأنها لا تطلب لنفسها ما يطلبه الرجل منها : « فإذا جامع أحدكم أهله فليصدقها . ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها حتى تقضي حاجتها » .

وكان تأديبه للمسلمين في هذه الصلة غاية في الكياسة والترفق ، فقال مما قال في هذا المعنى : « إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمشط الشعثة ... الكيس ، الكيس ! » .

معاملته لزوجاته

وإنما نلخص ما أوجبه النبي على المسلمين عامة في معاملاتهم لزوجاتهم ، وهو دون ما أوجبه على نفسه في معاملة زوجاته بكثير.

فكان يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ، ويزورهن جميعًا في الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن «كان ألين الناس ضحاكًا بسامًا » كما قالت عائشة رضي الله عنها ..

ولم يجعل من هيبة النبوة سدا رادعًا بينه وبين نسائه ، بل أنساهن برفقه وإيناسه أنهن يخاطبن رسول الله في بعض الأحايين . فكانت منهن من تقول له أمام أبيها : « تكلم ولا تقل إلا حقًا ... » ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها ، ومن تبلغ في الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب في شدته ، فيعجب لهم ويهم بأن يبطش بابنته حفصة لأنها تجترىء كما يجترىء الزوجات الأخريات . وإذا رأى النبي غضبًا كهذا من جرأة كتلك كفَّ من غضب الأب وقال له : ما لهذا دعوناك ! .

وقد كان يتولى خدمة البيت معهن ، أو كما قال : « خدمتك زوجتك صدقة » ..

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين احداهن وسائرهن وهو ميل قلبه : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك » .

ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن بعث اليهن فتلطف في سؤالهن : « أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟ » ... ليقلن عند عائشة ويأذنَّ له في الإقامة ببيتها . ولو أنه أحل لنفسه أن يقيم حيث أقام وهو مريض لما كان في ذلك من حرج .

والمعاملة الطيبة في الزمن الطويل خلق نادر بين الناس ، ولكنه في حالة الرضى خلق لا يشق فهمه على كثيرين .

إلا أن الخلق الذي يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاء .. في هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التي أثرت عن النبي في قصة عائشة بنت الصدِّيق وهي أحظى نسائه لديه ،

ونلخصها مما روته بلسانها إذ تقول رضي الله عنها :

« ... كان رسول الله إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه . وأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي ، ثم قفلنا من الغزوة إلى أن دنونا من المدينة ، فقمت حين آذنوا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأني ، وأقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي قد انقطع ، فرجعت ألتمسه فحبسني ابتغاؤه . وأقبل إليّ الرهط الذين كانوا يرحلون لي (١) فحملوا هودجي وهم يحسبون أني فيه . وكانت النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن (٢) ولم يغشهن اللحم . إنما يأكلن العلقة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن .

« ووجدت عقدي فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إليّ .

« فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت . وكان صفوان بن المعطل المسلمي قد عرس من وراء الجيش فأدلج (٣) فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم . فعرفني حين رآني واسترجع . فاستيقظت وخمرت وجهي بجلبابي ، ووالله ما يكلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا في نحر الظهيرة (٤) .

« فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أُبيّ بن سلول . واشتكيت حين قدمنا المدينة شهرًا والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك .

« ... ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي . إنما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذاك يريبني

---

(١) أي يحملون الرحل على البعير.
(٢) يثقلهن اللحم والشحم.
(٣) سار آخر الليل.
(٤) أي في شدة الحر.

ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع (١)

« ثم عدنا فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح ! » .

« قلت : بئس ما قلت ! أتسبين رجلاً قد شهد بدرًا ؟

« قالت : أي هنتاه (٢) ! أو لم تسمعي ما قال ؟ .

« قلت : وماذا قال ؟

« فأخبرتني بقول أهل الإفك . فازددت مرضًا إلى مرضي فلما رجعت إلى بيتي فدخل عليَّ رسول الله فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ استأذنت أن آتي أبويّ : أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي .

« قالت أمي : يا بنية هوني عليك . فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها .

« قلت : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم .

« ودعا رسول الله علي بن ابي طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما في فراق أهله . فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود ، وقال لرسول الله : هم أهلك ولا نعلم الا خيرًا .

« وأما علي بن أبي طالب : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير . وإن تسأل الجارية تصدقك .

« فدعا رسول الله بريرة يسألها : هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذي بعثك بالحق ان رأيت عليها أمرًا قد أغمصه (٣) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الداجن (٤) فتأكله .

« ... وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ثم بكيت ليلتي المقبلة

---

(١) أماكن في خلاء المدينة تقصد لحاجة بمكائد الناس .

(٢) كأنها تنفي عليها طيبتها وقلة معرفتها .

(٣) أعيبه .

(٤) أي الحيوان الذي يألف البيت .

لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي .

« فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : أما بعد يا عائشة فاني قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه . فان العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه .

« فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ! فقال : والله ما أدري ماذا أقول لرسول الله .

« فقلت لأمي : أجيبي عني . فقالت كذلك . والله ما أدري ماذا أقول لرسول الله .

« قلت – وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن – : إني والله لقد عرفت انكم سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به : فان قلت لكم اني بريئة ، والله يعلم اني بريئة ، لا تصدقوني . ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم اني بريئة ، لتصدقونني ، واني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

« ثم تحولت فاضطجعت على فراشي .

« ... فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان (١) في اليوم الشاتي .

« فلما سري عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال :

« أبشري يا عائشة ! .. أما الله قد برأك .

« قالت لي أمي : قومي اليه .

« قلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله . هو الذي أنزل براءتي ..

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره . فأقسم لا ينفق عليه شيئًا أبداً . فأنزل الله عز وجل : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربي ..

---

(١) الدر.

إلى قوله : ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ » .

« فقال أبو بكر : والله اني لأحب أن يغفر الله لي ، ورجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه » .

تلك هي القصة التي عرفت بقصة الإفك كما روتها لنا السيدة عائشة رضي الله عنها . وهي مسبار صادق يسبر لنا أغوار المروءة والرفق في معاملة النبي لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين . فليس النبي هنا في حالة من حالات الرضى التي تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الاناة ، ولكنه في حالة من تلك الحالات التي تثير الحمية وتثير الحب وتثير النقمة وتثير في النفس البشرية كل ساكنة تدعو إلى طيب المعاملة ، فلم يكن في هذه الحالة إلا كرمًا خالصًا بما سلك في أمر نفسه وفي أمر أهله وفي أمر دينه ، ولم يدع لحالم من حالمي الحضارة الحديثة مرتقى يتطلع اليه في جميع هذه الغايات ..

سمع النبي حديثًا يلاك بين المنافقين ويسري إلى المسلمين بل إلى خاصة ذويه الأقربين : حديثًا يسمعه رجل كعلي بن أبي طالب في بره وكرم نحيزته فلا يرى بعده حرجًا من الطلاق والنساء كثيرات .

سمع النبي ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بينة ولم يرفضه بغير بيِّنة ، وكان عليه أن يعود زوجه المريضة أو يجفوها إلى حين .. فعادها وبه من الرفق والانصاف ما يأبى عليه أن يفاتحها في مرضها بما يخامر نفسه الكريمة . وبه من الموجدة والترقب ما أبى عليه أن يقابلها بما كان يقابلها به والنفس صافية كل الصفاء . وظل يسأل عنها سؤال متعتب ينتظر أن تشفى وأن تأتيه البينة فيشتد كل الشدة أو يرحم كل الرحمة ، ولا يعجله لغط الناس أن يأخذ في هذا الموقف الأليم بما توجبه الحمية وما توجبه المروءة في آن .

وسأل من ينبغي أن يسأل : عليًا وأسامة وهما بمقام ولديه ، وبريرة الجارية التي تعرف عائشة وتخلص لسيدها كما تخلص لسيدتها ، وضرة لعائشة تنافسها وتكاد أن تضارعها في حظوتها لديه : زينب بنت جحش التي كانت أسرع من يقول لو علمت شيئًا يقال . فاستعاذت بالله وقالت « أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت

إلا خيرًا . » .

واتصل الحديث بعائشة فاستأذنته في زيارة أهلها ، وآن له أن يفاتحها وقد وصل النبأ إلى سمعها . ولم يئن له قبل ذلك وهو كاظم ما في فؤاده قادر على كتمانه مخافة أن يؤذيها بغير حق وهي تشكو سقامها .

فاتحها لتبرىء نفسها أو تستغفر الله .

وغضبت غضب البريء المشكوك فيه ، وانها لبريئة في نظر كل منصف يفهم أن امرأة كعائشة لا تعرض نفسها لهذه الريبة أمام جيش ، وفي وضح النهار ، ولغير ضرورة ، ومع رجل من المسلمين يتقي ما يتقيه المسلم في هذا المقام من غضب النبي وغضب المسلمين وغضب الله . فتلك خلة تترفع عنها من هي أقل من عائشة منبتاً ومنزلة وخلقًا وأنفة ، فكيف بها في مكانها المعلوم .

إلا أن النبي أراد لها البراءة أمام الخلق عامة وامام نفسه المحبة ، حذرًا أن تكون تبرئته إياها عن محبة وضعف لا عن تبين واستيثاق ، فلما قضى كل حق وانتهى به الاستيثاق إلى الثقة كان قد وفى الكرم والحمية والانصاف والرحمة أجمعين .

نعم وفي الرحمة حتى باللاغطين المتعجلين الذين أبدؤوا وأعادوا في ذلك الحديث المريب . وما أحد أرحم ممن يرحم المفترين على سمعة أهله وهناءة بيته وأمان سربه ، ولا يعذر الناس أحداً كما يعذرون نبيًا مطاعًا ينال في عرضه فينال بالعقاب العدل من استحقوه .

سماحة الكريم

ولقد علمنا من رواية السيدة عائشة كما علمنا من روايات شتى أن عبد الله بن أبي بن سلول كان أكبر اللاغطين بحديث الإفك عن سوء نية وكيد مبيت للنبي ودينه ، وكان هذا الرجل كما تقدم في بعض فصول هذا الكتاب بغيضا إلى المسلمين متهمًا عندهم يتوجسون منه ويسمونه رأس المنافقين ولا يكفون عن طلب دمه واستئذان النبي في قتله . فما ضر النبي لو خلى بين المسلمين وبينه يحاسبونه على فريته ويحاسبونه على كيده وينتقمون لعرض النبي منه ليأمنوا شره ويجعلوه عبرة لغيره ؟ .

وإذا قيل ان عبد الله بن أبيّ كان من أصحاب العصبية التي يحسب حسابها

وتتقى بوادرها ، فماذا يقال في مسطح وهو مكفول أبي بكر وصنيعته الذي يأكل من ماله ؟ ما الذي أنجاه من السخط والعقاب وكفل له دوام البر والمعونة لولا سماحة النبي وسماحة أبي بكر وسماحة القرآن ..

على أن العصبية التي كان عبد الله بن أبي يلوذ بها لم تكن لتحميه عقاب النبي لو أراده بعقاب ولو كان أصرم عقاب .. فما من عصبية هي أقرب إلى رحم الرجل وأولى بالذود عنه من ولده المشهور ببره . وقد أسلفنا أن ولد عبد الله قد تطوع لقتله يوم قيل له إن النبي يهدر دمه ويقضي بموته .

إنما هي سماحة الكريم ..

إنما هي السماحة التي شملت مسطحًا كما شملت كبير المنافقين ، وخرجت من حديث الإفك كله بالعفو عن جميع المسيئين مخلصين في الرأي وغير مخلصين ، وهي التي سبرت غورًا في قصة هذا الحديث فتكشفت عن أطيب معاملة للزوجات في أحرج الحالات ، وتلك هي المعاملة الطيبة في مثلها الأعلى ، معاملة لا تتبدل بعد أيام وشهور بل تطول مدى السنين ، وتطول مدى السنين مع نساء مختلفات لا مع امرأة واحدة ، وتطول في جميع الحالات ومنها حالة الألم البالغ ولا تنحصر في حالة الرضى والطمأنينة ، وأقل من ذلك أمنية يتمناها الحالمون بالوئام بين الأزواج في العصر الذي وصفوه بعصر المرأة ، لفرط ما أطنب فيه المطنبون من اكبار شأنها والدعوة إلى انصافها .

تعدد الزوجات

هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبي وهو الهدف الثاني الذي يرميه المشهِّرون بالاسلام فيكثرون من رميه كلما تكلموا عن أخلاق محمد عليه الصلاة والسلام وذكروا منها ما يزعمونه منافيًا لشمائل النبوة ، مخالفًا لما ينبغي أن يتصف به هداة الأرواح .

السيف والمرأة !

كأنهم يريدون أن يجمعوا على النبي بين الاستسلام للغضب والاستسلام للهوى ، وكلاهما بعيد عن صفات الأنبياء .

أما السيف فقد أسلفنا الكلام فيه .

أما المرأة فالظنة فيها أضعف من الظنة في السيف على ما نراه ، لأن الاستسلام للشهوة آخر شيء يخطر على بال الرجل المحقق – مسلمًا كان أو غير مسلم – حين يبحث في تعدد زوجات النبي ، وفيما يدل عليه ذلك التعدد ، وفيما اقتضاه .

قال لنا بعض المستشرقين إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ..

قلنا انك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية (Undersexed) لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية (Oversexed) لأنه جمع بين تسع نساء . .

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيرًا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها . هذا سواء الفطرة لا عيب فيه ، وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر والأنثى ، فهي الغريزة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى . أرأيت إلى السمك وهو يعبر الماء الملح في موسمه المعلوم فيطوي ألوفاً من الفراسخ ليصل إلى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه ؟ أرأيت إلى العصفور وهو يبني عشه ويعود من هجرته إلى وطنه ؟ أرأيت إلى الزهر وهو يتفتح ليغري الطير والنحل بنقل لقاحه ؟ أرأيت إلى سنة الحياة في كل طبقة من طبقات الأحياء؟ ما هي سنتها إن لم تكن هي سنّة الألفة بين الجنسين ؟ وأين يكون سواء الفطرة إن لم يكن على هذا السواء ؟ .

فحب المرأة لا معابة فيه .

هذا هو سواء الفطرة لا مراء ..

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه ، وحتى يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططًا في طلابه . فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور في جميع الطباع .

فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته ثم يقع في روعه ان المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير؟ .

مَنْ مِنْ بناة التاريخ قد بنى في حياته وبعد مماته تاريخاً أعظم من تاريخ الدعوة

المحمدية والدول الاسلامية ؟ .

ومن ذا الذي يقول ان هذا عمل رجل مشغول ؟ .

عم شغلته المرأة ؟ ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأومحمد في مسعاه ؟ .

فان كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطي الدعوة حقها ويعطي المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب . ورسالة محمد إذن هي الرسالة التي يتلقاها أناس خلقوا للحياة ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها . فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة فيما يخاطب به عامة الناس في عامة العصور.

وأعجب شيء أن يقال عن النبي إنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن في الطلاق لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها .

فقد شكون – على فخرهن بالانتماء اليه – انهن لا يجدن نصيبهن من النفقة والزينة ، واجتمعت كلمتهن على الشكوى واشتددن فيها حتى وجم النبي وهمَّ بتسريحهن ، أو تخييرهن بين الصبر على معيشتهن والتسريح .

وذهب إليه أبو بكر يومًا « يستأذن عليه فوجد الناس جلوسًا لا يؤذن لأحد منهم . ثم دخل أبو بكر وعمر من بعده فوجدا النبي جالسًا وحوله نساؤه واجماً ساكتًا . فأراد أبو بكر أن يقول شيئاً يسري عنه ، فقال : « يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة ! سألتني النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها » فضحك رسول الله وقال : هن حولي كما ترى يسألنني النفقة ! .. فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ويقولان : « تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ »

فقلن : « والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده » . ثم اعتزلهن الرسول شهراً أو تسعة وعشرين يومًا فنزلت بعدها الآية التي فيها التخيير وهي : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .

فبدأ الرسول بعائشة فقال لها : « يا عائشة ! إني أريد أن أعرض عليك أمراً

أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك .. »

قالت : « وما هو يا رسول الله ؟ » فتلا عليها الآية ..

قالت : « أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ .. بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .. » ثم خيَّر نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة ، وقنعن بما هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرن بما هو أنعم منها ..

علام يدل هذا ؟

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات ..

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ؟

أما كان يسيراً عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين ، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله ؟ ..

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال إنه كان يفرط في ميله إلى النساء ؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه ؟

لم يكلفه شيئًا من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها ، ولم نر هنا رجلاً تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهورون ، بل رأينا رجلاً يغلب تلك الملذات في طعامه ومعيشته وفي ميله إلى نسائه .. فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسطة في العيش قد ينالها أصغر المسلمين ، ولا شك في قدرة النبي عليها لو أراد .

رجل الجد والرصانة

وهكذا نبحث عن الرجل الذي توهمه المشهورون من مؤرخي أوربا فلا نرى إلا صورة من أعجب الصور التي تقع في وهم واهم .

نرى رجلاً كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال انه رجل غلبته لذّات حسه !

ونرى رجلاً تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التي يتحلين بها لعينيه ثم

يقال إنه رجل غلبته لذات حسه ! ..

ونرى رجلاً آثر معيشة الكفاف والقناعة على إرضاء نسائه بالتوسعة التي كانت في وسعه. ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه !

ذلك كلام لو شاء المشهورون ان يرسلوه كلاماً مضحكاً مستغرباً لأفلحوا فيما قالوه أحسن فلاح . أو لعله أقبح فلاح .

ويزيد في غرابته أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولاً قبل زواجه ولا بعد زواجه فتخبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع .

فحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة .

كان معروفاً من صباه إلى كهولته فلم يعرف عنه أنه استسلم للذات الحس في ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح ... بل عرف بالطهر والامانة واشتهر بالجد والرصانة . وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شانئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات : تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذي كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات ... كلا .. لم يقل احد هذا قط من شانئيه وهم عديد لا يحصى . ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل .

ولما بنى بأولى زوجاته – خديجة – لم تكن لذات الحس هي التي سيطرت على هذا الزواج . لأنه بنى بها وهي في نحو الاربعين وهو في نحو الخامسة والعشرين ، ونيف على الخمسين واوتي الفتح المبين وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة في الزواج بأخرى .

ولم يكن وفاؤه لها بقية حياته وفاء المرء للذات حس أو ذكرى متاع جميل . لأنه فضلها على عائشة في صباها وهي أحب نسائه إليه ، وكانت عائشة تغار منها في قبرها فلم يكتمها قط أنه يفضلها عليها .

قالت له مرة : هل كانت إلا عجوزاً بدلك الله خيراً منها ، فقال لها مغضباً : « لا والله ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني

الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

فلهذا أحب خديجة ووفى لها وفضلها ولم يمح ذكراها من نفسه قط من اعقبتها من الزوجات الفتيات : وفاء قلب وليست لذات حس ولا ذكرى متاع جميل .

أسباب تعدد زوجاته

ولوكانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه الملذات أن يجمع النبي إليه تسعاً من الفتيات الأبكار اللائي اشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية ، فيسرعن إليه راضيات فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة .

لكنه لم يتزوج بكراً قط غير عائشة رضي الله عنها ، ولم يكن زواجه بها مقصوداً في بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التي عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة .

قالت عائشة رضي الله عنها : « لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون للنبي : « أي رسول الله !.. الا تتزوج ؟ »

قال : « من ؟ »

قالت : « إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً ؟ »

قال : « فمن البكر ؟ »

قالت : « بنت أحب الناس إليك عائشة بنت أبي بكر »

قال : « فمن الثيب ؟ »

قالت : « سودة بنت زمعة آمنت بك واتبعتك »

ثم كانت سودة هي اولى النساء اللاتي بنى بهن بعد وفاة خديجة . وكان زوجها الاول – ابن عمها – قد توفي بعد رجوعه من الهجرة الى الحبشة . وكانت هي من أسبق النساء إلى الإسلام فآمنت وهجرت أهلها ونجا بها زوجها إلى الحبشة فراراً من إعنات المشركين له ولها . فلما مات لم يبق لها إلا أن تعود إلى أهلها فتصبأ وتؤذى ، أو تتزوج بغير كفء أو بكفء لا يريدها . فضمها النبي إليه حماية لها وتأليفاً لأعدائه من آلها . وكان غير هذا الزواج أولى به لو نظر إلى لذات حس ومال إلى متاع .

وكانت للنبي زوجة اخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهي زينب بنت جحش إبنة عمته عليه السلام التي زوجها زيداً بن حارثة بأمره وعلى غير رضى منها ، لأنها أنفت – وهي ما هي في الحسب والقرابة من رسول الله – ان يتزوجها غلام عتيق .

هذه ايضاً لم يكن « للذات الحس » المزعومة سلطان في بناء النبي بها بعد تطليق زيد إياها وتعذر التوفيق بينها ، ولوكان للذات الحس سلطان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قبول زيد وهي تأباه . فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئه من حسنها شيء كان يجهله يوم عرض عليها زيداً وشدد عليها في قبوله . فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه وترفعها عليه وإغلاظها القول له كان زواج النبي بها « حلاً لمشكلة » بيتية بين ربيب في منزلة الابن وابنة عمة أطاعته في زواج لم يقرن بالتوفيق .

أما سائر زوجاته عليه السلام فما من واحدة منهن – رضي الله عنهن – إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة .

فأم سلمة كانت كهلة مسنة يوم خطبها ، كما قالت له معتذرة إليه . لإعفائه من تكليف نفسه أن يتزوجها . جبراً لخاطرها بعد موت زوجها عبد الله المخزومي من جرح أصابه في غزوة أحد . ولما برح بها الحزن لوفاته واساها رسول الله قائلاً : « سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك وان يخلفك خيراً » .

فقالت : « ومن يكون خيراً من أبي سلمة ؟ » فأوجب على نفسه خطبتها لأنها تعلم أنه خير من أبي سلمة ، ولأنه يعلم أن أبا بكر وعمر خطباها فترفقت في الاعتذار ، وهما أعظم المسلمين قدراً بعد النبي عليه السلام ..

وجويرية بنت الحارث سيد قومه كانت إحدى السبايا في غزوة بني المصطلق فتزوجها النبي ليعتقها ويحض المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم تفريجاً عنهم وتألفاً لقلوبهم ، فأسلموا جميعاً وحسن إسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة إليه والبقاء في حرم رسول الله فاختارت البقاء في حرم رسول الله .

وحفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبي بكر فسكت .

وعلى عثمان فسكت . وبث عمر أسفه للنبي فلم يكن للنبي عليه السلام أن يضن على وليه وصديقه بالمصاهرة التي شرف بها أبا بكر من قبله ، وقال : يتزوج حفصة من هو خير من ابي بكر وعثمان .

ورملة بنت أبي سفيان تركت أباها لتسلم وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها إلى الحبشة ، ثم تنصر زوجها وفارقها وهي غريبة هناك بغير عائل . فأرسل النبي إلى النجاشي في طلبها لينقذها من ضياع الغربة وضياع الأهل وضياع القرين . فكانت النجدة الإنسانية باعث هذا الزواج ولم يكن له باعث من المتعة والاستزادة من النساء ، وكان للنبي مقصد جليل من وراء هذا الزواج الذي لم يفكر فيه حتى ألجأته النجدة إلى التفكير فيه ، وهو أن يصل بينه وبين أبي سفيان بآصرة النسب ، عسى أن يهديه ذلك إلى الدين ، بما يعطف من قلبه ويرضي من كبريائه .

وكان اعزاز من ذلوا بعد عزة : سنة النبي عليه السلام في معاملة جميع الناس ولاسيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن في الذل بعد فقد الحماة والأقرباء ، ولهذا خير صفية الاسرائيلية سيدة بني قريظة بين أن يلحقها بأهلها وأن يعتقها ويتزوج بها . فاختارت الزواج منه عليه السلام . وآية الآيات في رعاية الشعور الإنساني أنه عليه السلام أنب صفيه بلالاً لأنه مر بها وبابنة عمها على قتلى اليهود . فقال له مغضباً : « أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما ؟ » واحتقرتها زينب فلقبتها يوماً باليهودية فهجرها شهراً لا يكلمها ليأخذ بناصر هذه الغريبة ويدفع عنها الضيم ..

تتكشف لنا مراجعة الحياة الزوجية لمحمد عليه السلام عن هذه الأسباب وشبيهاتها من دواعي اختياره لنسائه واستجماعه لهذا العدد من الزوجات في حين واحد .

ولا حرج – كما أسلفنا – على رجل قويم الفطرة أن يلتمس المتعة في زواجه . ولكن الذي حدث فعلاً أن المتعة لم تكن قط مقدمة في الاعتبار عند نظر النبي في اختيار واحدة من زوجاته قبل الدعوة أو بعدها ، وفي إبان الشباب أو بعد تجاوز الكهولة .

وآخر صورة يتصورها المنصف هنا هي صورة رجل فرغ للذاته وجلس ينتقي واحدة بعد واحدة من الحسان على حسب ما يرجوه عندها من متاع . فإنما كان الاختيار كله على حسب حاجتهن إلى الإيواء الشريف أو على حسب المصلحة الكبرى

التي تقضي باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه ، ولا استثناء في هذه الخصلة لزوجة واحدة بين جميع زوجاته حتى التي بنى بها فتاة بكراً موسومة بالجمال ، وهي السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ..

إلا أن المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التي سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ولم يذكروا إلا شيئاً واحداً حرفوه عن معناه ودلالته ، ليفتروا على النبي ما طاب لهم أن يفتروه ، وذاك أنه جمع في وقت واحد بين تسع زوجات .

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة في شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق ، في غير مشقة عندهم ولا معابة .

ونسوا أنه بقي إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف في طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور اليه بين الأسر وبين الفتيات .

ونسوا انه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين .

ونسوا أنه اختار أحسابًا في حاجة إلى التألف أو الرعاية ولم يختر جمالاً مطلوبًا للمتاع .

ونسوا أن الرجل الذي وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير ، ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه وإرضاء نفسه ، ولو شاء لما كلفه إرضاء نفسه وارضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما في يديه .

نسوا كل هذا وهو ثابت في التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتي جمع بينهن عليه السلام . فلماذا نسوه ؟ .

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة ، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها .

الوجهة الخلقية

ونستطرد إلى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية فلا نطيل فيه . لأننا

نقصر هذا الكتاب على عبقرية محمد وما له اتصال بجوانب هذه العبقرية في تعدد مناحيها ، ولم نرد به أن نتناول حكمة الشريعة الإسلامية في تفصيلها ولا مسوغات الأصول الدينية على اختلافها .

فأوجز ما نقوله في تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن النبي عليه السلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها أو مباحًا يختاره من يختاره وله مندوحة عنه .. وإنما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة في بعض الأحوال لأنها خير من ضرورات . ولن ينكر هذا إلا متعنت يصدم الحقائق ويتجاهل المحسوس الماثل للعيان .

ففي حياة محمد الخاصة لا ينكر أحد أن بناءه بنسائه قد كان خيراً من الإخلاء بينهن وبين التأيم والمذلة والرجعة إلى الكفر والضلالة . وكان خيراً من قطع تلك الآصرة التي وصلت بينه وبين البيوت والعشائر فكان لها ما كان من فضل في نفع الدين والمتدينين به ، وهي ضرورة يلجأ إلى الاعتراف بها كل مسئول عن شئون أمة بل أمم تمارس الحياة الدنيا ، وكل إمام عليم بطبائع الناس .

أما الضرورة الاجتماعية العامة فقد اعترفت بها الشرائع المدنية الحديثة جميعًا ثم تحللت منها بإباحة الزنى وعلاج مشكلة الزواج بحل خارج عن نطاق الزواج أو خارج عن نطاق البيت والأسرة . ولو اهتدت هذه الشرائع المدنية إلى حل خير من هذا لجاز لها أن تنكر تعدد الزوجات ، وتنكر أنه ضرورة أكرم من ضرورات .

فلا شك أن الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها أكرم لها وللمجتمع من نبذها في معترك هذه الدنيا الضروس بغير ولد وبغير زوج وبغير عاصم ، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو كائن حي يريد أن يصل ما بينه وبين الحياة بذرية صالحة هي الغرض الأكبر من كل زواج ، ولولاها لانتقض في المجتمع الانساني أساس كل زواج .

ولا شك أن الجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة أخرى أكرم لها وأصلح من الجمع بينها وبين خليلة أو عدة خليلات .

ولا شك أن تسهيل الزواج وبخاصة في أوقات الحروب التي ينقص فيها الرجال

أكرم للمجتمع الانساني وأصلح من تسهيل العلاقات الأخرى التي لا تنفع النوع ولا تنفع الأخلاق ، ولا ترفع مكانة المرأة في عصمة رجل أو في متناول كثير من الرجال.

هذا شيء جائز..

بل هذا شيء أكثر من جائز ، لأنه واقع لا محيد عنه ولا حيلة فيه وغير ملوم من يواجهه بحل أكرم من حلول شتى .. بل اللوم عليه أن ينظر في شئون العالم ثم يغمض عينيه عن حقائقه التي تصدم كل عين .

ومن السهل – على من أراد – أن يسوس العالم في خياله بالفضائل التي تروقه وترضيه ! وليس من السهل عليه أن يخلق العالم الذي يساس له ويرضى بما ارتضاه . وقد علم هذا كل رجل واجهته مشكلة واحدة من المشكلات التي واجهت محمداً بادىء الرأي على غير مثال سابق يحتذيه ، إلا ما ألهمه الله .

ماذا صنع نابليون في عصرنا الحديث ؟

وإنما نضرب المثل بنابليون لأنه حضر انقلاباً في الأطوار والعادات يشبه نشأة الدين في أيام الدعوة المحمدية ونعني به الثورة الفرنسية ، وحضر انحداراً في الأخلاق والآداب يشبه الانحدار الذي أصيب به العرب في أواخر عهد الجاهلية ، وأسس دولة ، ونظر في سن قانون ، وحاول ضروبا من الإصلاح .

نابليون قد طلق امرأته وأكره أحبار المسيحية على قبول هذا الطلاق ، وقد اشتهرت له علاقات بخليلات متعددات ، غير الخليلات المجهولات .

ونابليون يقول عن المرأة : « لقد صنعت كل ما وسعني أن أصنع لتحسين حال أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى . الا أنك لا تستطيع أن تصنع لهم الشيء الكثير دون مساس بقواعد الزواج . والا أحجم الناس عن الزواج إلا القليل » .

« ولقد كان للرجل في العهد القديم سريات إلى جانب الزوجات ، ولم يكن أبناء الزنى محتقرين بين الناس احتقارهم اليوم .. انه لمن المضحك أن يحظر على الرجل الزواج بأكثر من واحدة . فتحمل هذه الزوجة الواحدة ، وكأن الرجل في أثناء حملها أعزب أو عقيم .

« واليوم لا سريات للرجال ولكنهم يعاشرون الخليلات وهن أقدر على التبديد

والا فساد » .

« انهم في فرنسا يخولون النساء فوق حقهن من التعظيم . وانما الواجب ألا ينظر اليهن كأنهن مساويات للرجال . فما هن في الحقيقة إلا آلات لاخراج الأطفال .

« وقد تمردن في إبان الثورة وعقدن الجماعات لأنفسهن وبدا لهن أن يؤلفن فرقا منهن في الجيش .

« وكان لا بد من صدهن . لأن المجتمع الانساني عرضة للخلل والفوضى إذا ترك النساء حالة الاعتماد على الرجال وهي مكانهن الحق في الحياة . نعم ان المجتمع لوشيك اذن أن يتمزق بدداً بغير انتهاء .

« وعلى جنس من الجنسين أن يخضع للآخر لا محالة ... فإذا نشبت الحرب بينهما ، فلن تكون كحرب الأغنياء والفقراء أو حرب البيض والسود ؟

« ألا وإن الطلاق لأضر بالمرأة دون مراء . فالرجل الذي يجمع بين زوجات لا يبدو عليه من ذلك أثر كالأثر الذي يبدو على المرأة بعد التزوج بعدة رجال . إنها تضمحل إذن كل الاضمحلال » .

كذلك اعترف نابوليون بالضرورات الزوجية في العصر الحديث . فكيف اعترف بها « لنين » في الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية ؟

حل مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج .. فلا رابطة بين الزوجين أوثق من رابطة الرفيقين في الفندق أو الطريق . وليس أعجب ممن جعل الزواج شريعة ملائكة إلا الذي جعله على هذا النحو شريعة عجماوات .

عقوبة الزوجات

ولا نختم هذا الفصل عن النبي في حياته الزوجية قبل أن نعرض لعقوبة الزوجات في الإسلام وللعقوبة التي اختارها عليه السلام . لأن عقوبة الرجل لامرأته في حالة الغضب كمحاسنته لها في حالة الرضى – كلاهما ميزان صادق لمكانتها عنده ، ومكانة المرأة عامة في تقديره .

والقرآن ينص على العقوبات السائغة في حالة النشوز وهي العظة والهجر في المضاجع والضرب ، والتسريح باحسان : « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن

في المضاجع واضربوهن : فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . « ... وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ... » .

والنبي عليه السلام لم يطلق زوجة من زوجاته دخل بها وعاشرها ولم يضرب قط واحدة منهن ، ولم يرو عنه قط أنه ضرب أو نهر خادمًا فضلاً عن زوجة ، بل روي عنه ما ينفي ذلك ممن عاشروه ولازموه .

بل كان عليه السلام يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال : « أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره ! » .

فما نص القرآن عليه من عقوبة الضرب فإنما نص عليه لعلاج النشوز الذي لا يستقيم بغيره ، وقيده المفسرون بشروط تمنع الإيذاء وتحصره في القدر الذي يستقيم عليه الجزاء .

فغاية ما يفهم من ذكر الضرب بين العقوبات أن بعض النساء يتأدبن به ولا يتأدبن بغيره ، وقد يعلم الكثيرون أن هؤلاء النساء لا يكرهنه ولا يسترذلنه ، وليس من الضروري أن يكن من أولئك العصبيات المريضات اللائي يشتهين الضرب كما يشتهي بعض المرضى ألوان العذاب .

إنما العقوبة التي آثرها النبي عليه السلام هي الهجر الطويل أو القصير ، بعد العظة والعتاب الجميل .

والهجر – ولا سيما الهجر في المضاجع – عقوبة نفسية بالغة وليست كما يسبق إلى بعضهم عقوبة حسية تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة .

فان فوات السرور والمتعة أيامًا لا يؤلم المرأة هذا الايلام الذي يجعل الهجر في المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق .

قال الاستاذ رشيد رضا رحمه الله في كتابه نداء للجنس اللطيف : « أما الهجر فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها هجره إياها ، ولا يتحقق هذا بهجر المضجع نفسه وهو الفراش ، ولا بهجر الحجرة التي يكون فيها الاضطجاع ، وإنما يتحقق بهجر الفراش نفسه . وتعمد هجر الفراش أو الحجرة

زيادة في العقوبة لم يأذن بها الله تعالى . وربما يكون سببًا لزيادة الجفوة . وفي الهجر في المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع أو البيت الذي هو فيه ، لأن الاجتماع في المضجع هو الذي يهيج شعور الزوجية فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر ويزول اضطرابها الذي أثارته الحوادث قبل ذلك . فإذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها في هذه الحالة رجا أن يدعوها ذلك الشعور والسكون النفسي إلى سؤاله عن السبب ويهبط بها من نشز المخالفة الى صف الموافقة ، وكأني بالقارىء وقد جزم بأن هذا هو المراد ، وإن كان مثلي لم يره لأحد من الأموات ولا الأحياء » .

والذي نراه أن الاستاذ رحمه الله قد أخطأه المراد الدقيق من هذه العقوبة النفسية . وأن الحكمة في إيثارها أعمق جداً من ظاهر الأمر كما رآه الاستاذ .

فأبلغ العقوبات ولا ريب هي العقوبة التي تمس الإنسان في غروره وتشككه في صميم كيانه : في المزية التي يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه ..

والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل ، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت أنها فاتنة له . وأنها غالبته بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق إليها ورغبة فيها .

فليكن له ما شاء من قوة ، فلها ما تشاء من سحر وفتنة وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم ، وحسبها أنها لا « تقاوم » بديلاً من القوة والضلاعة في الأجساد والعقول :

فإذا قاربت الرجل مضاجعة له وهي في أشد حالاتها إغراء بالفتنة ثم لم يبالها ولم يؤخذ بسحرها فما الذي يقع في وقرها وهي تهجس بما تهجس به في صدرها ؟

أفوات سرور؟ أحنين إلى السؤال والمعاتبة ؟ كلا . بل يقع في وقرها أن تشك في صميم أنوثتها وأن ترى الرجل في أقدر حالاته جديرًا بهيبتها وإذعانها ، وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة . فهو مالك امرأة إلى جانبها وهي إلى جانبه لا تملك شيئًا إلا أن تثوب إلى التسليم ، وتفر من هوان سحرها في نظرها قبل فرارها من هوان سحرها في نظر مضاجعها .

فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسد ، بل هذا هو الصراع الذي تتجرد فيه

الأنثى من كل سلاح ، لأنها جربت أمضى سلاح في يديها فارتدت بعده إلى الهزيمة التي لا تكابر نفسها فيها . فإنما تكابر ضعفها حتى تلوذ بفتنتها .. فإذا لاذت بها فخذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذاك ..

وهنا حكمة العقوبة البالغة التي لا تقاس بفوات متعة ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاتبة .

إنما العقوبة ابطال العصيان . ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل باحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه . والهجر في المضاجع هو مثابة الرجوع إلى هذا الاحساس .

على أن عقاب النبي لزوجاته كان من الندرة بحيث لا يذكر لولا ما تعود المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة في حياته الخاصة والعامة على السواء ، وهذا مع طول العشرة وتعدد الزوجات وكثرة الحوادث الجسام وقلة النسل الذي يصل المقطوع ويرأب المصدوع .

وكان معظم عقابه أشبه بعقاب نبي لمسلمات منه بعقاب زوج لزوجات . وهو في حالتي عقابه وإحسانه إنسان على أكمل ما يكون الإنسان من رحمة وكيس وإنصاف .

وإذا حارت الأدلة في قوام تلك الحياة الزوجية فالدليل الذي لا يحار ان ينقضي نحو أربعين سنة عليها وهي على ذلك الصفاء والولاء الذي لم يعرف مثله في علاقات الرجال والنساء : هذه حياة زوجية لا تقوم على الحس والمتعة ، ولن تدوم ذلك الدوام لو كان لها قوام غير مودة القلوب وراحة النفوس وحب الخير ومبادلة العطف والتعظيم .

الأب

الأبوة الروحية والأبوة النوعية

حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن الفهم وحارت في تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة .

وهو ولا ريب يجري على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء وان كنا نحن لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ، ولا نزيد عن استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة ، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول إليه .

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يجري على سنة المكافأة والتعويض في معظم حالاته . فيقابل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر ، ويقابل القصور في مزية من المزايا بالإتقان في مزية أخرى .

فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير في طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا أن الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الألوف . فيبقى منها القليل الكافي لدوام النوع بعد فناء الكثير..

والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد . فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلى .

ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه . فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجوز ذلك على نسله وينتقص من قسمته في أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد في صورة من الصور ، فإذا أداها في صورة أعفي منها في الصور

الأخرى . أوكأنما هي مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد إلا بثمن غال يحسب عليه ، ويؤدي حسابه للنوع على نحو من الأنحاء .

والإنسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر في تحديد النسل وزيادة عدده .

فهل يجوز لنا أن نقول إن العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم بإصلاح شئون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية؟

ان قلنا ذلك فإنما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التي أشرنا إليها . ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذي تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا إنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضي بنا إلى الجزم أو إلى التغليب .

فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لا شك في سيرتهم من هذه الناحية . كعيسى عليه السلام .

وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها أناث ، أو رزقوا ذرية من الإناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة .

وتواريخ العظماء في جميع نواحي العظمة ، وفي جميع الأمم ، وفي جميع العصور، حافلة بالشواهد التي تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة : يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون . ويدخل فيهم القادة العسكريون والسياسيون . ولا يصعب على أحد أن يدير بصره إلى فترة من الزمن في بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك في نفر من عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا في مصر أسماء جمال الدين الأفغاني . ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الله نديم ، ومصطفى كامل ، ومصطفى فهمي ، ومحمود سامي البارودي ، وحافظ ابراهيم .

فإذا جاز لنا أن نقف عند تلك الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم أن إصلاح شئون النوع الإنساني ضريبة تغني عن ضريبة الذرية في بعض الأحوال — فأين ترانا نجد تلك الضريبة في أرفع حالة وأعلى قيمة ان لم نجدها في رسالة نبوية

تتناول الأجيال بعد الأجيال وتتناول الملايين في كل جيل ؟ .. وأي أبوة إنسانية تغني عن أبوة اللحم والدم كما تغني أبوة النبي الذي يتكفل بتربية الأرواح في أمته ، وفي أمم لا يلقاها في زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه إلى أقصى الزمان .

نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا في الجانبين جديرًا بالملاحظة والاعتبار ..

ألا ما أثقل ثمن الإصلاح !

ألا ما أحق المصلحين بالتمجيد وحسن الجزاء .

فمحمد الأب كان أصلح الآباء ، ثم فجع في بنيه فجيعة لا يداري فيها ألم الإنسان إلا صبر الأنبياء .

ومن الناس من لا يكون صديقًا صالحًا ولا سيداً صالحًا ولا زوجًا صالحًا ، ولكنه أب صالح برّ ببنيه ..

لأن الرحم بين الآباء والأبناء أدنى الأرحام إلى المودة وأحراها بتحريك الشفقة فيمن لا يشفق على أحد .

فكيف تكون الأبوة في نفس صلحت للصداقة وصلحت للسيادة وصلحت للزوجية لأنها تصلح للعطف الذي يعم القريب والغريب ، ويشمل القوي والضعيف ؟

ذلك أن نعلم كيف يفرح بأبنائه .

ونعلم كيف يحزن حين يفجع في أولئك الأبناء .

ومن الراجح أن العطف الأبوي لم يتمثل قط في مولد أحد من أبناء محمد عليه السلام كما تمثل في مولد ابنه الذي سماه باسم جده الأكبر أملاً في أن يصبح بعده خليفته الأكبر . ولعل العطف الأبوي قد تمثل في تشييع هذا الطفل الصغير أشد من تمثله في استقباله يوم ميلاده .

كانت أسباب كبيرة توحي إلى قلب محمد العظيم شوقه الطويل إلى استقبال ذلك الوليد .

كان منها أن محمدًا عربي يحرص على العقب من بعده كحرص كل رجل من أبناء القبائل وأصحاب العصبية : هم فخورون بالنسب فخورون بالعقب ، يحفظون

سيرة السلف ويتوقون إلى استبقاء الخلف على نحو لا يعهده الحضريون وان كان حب الذرية فطرة مركبة في جميع الطباع .

ومحمد كان يحب التكاثر لنفسه ويحبه لأمته ويوصي المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ليفاخر بهم الأمم وفرة وعزة . فاشتياقه إلى العقب من الذكور خليقة عربية تقترن بالخليقة الإنسانية والخليقة النبوية ، فتزداد قوة على قوتها التي ركبت في جميع الطباع ..

وكان من أسباب هذا الشوق القوي طول العهد بالأبناء بعد من ولدتهم له السيدة خديجة رضي الله عنها ، وشماتة أناس من شانئيه سماه بعضهم بالأبتر لانقطاع معظم نسله : وفي ذلك نزول الآية الكريمة : « ان شانئك هو الأبتر » .

فقد مضى نيف وعشرون سنة لم تلد له في خلالها زوجة من زوجاته . ومات في هذه الفترة كل أولاده ما عدا فاطمة رضي الله عنها التي ماتت بعده بقليل ، مات القاسم ، والطاهر ، طفلين . وماتت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، بعد أن تزوجن . ولم يتعوض من فقدهن ما يعزيه بعض العزاء .

فجيعة تضاعف الشوق إلى الوليد المأمول .

وطول انتظار يضاعف الحب له كما يضاعف الشوق إليه .

ولسنا ندري لم طالت الفترة التي مضت على أزواج النبي جميعًا بغير عقب . ولكنا لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادفات التي لا يندر أن تجتمع في أمثال هذه الأحوال . فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي بكرًا غيرها قد مات عنها عليه السلام وهي دون العشرين . وهي سن قد تبلغها المرأة ولا تلد ، وان كانت ولودًا فيما بعدها .

أما أزواجه الأخريات اللائي تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن الأولين خلفًا غير رملة أم حبيبة ، وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنة يوم بني بها النبي عليه السلام ، وفي عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة .

فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبي ولا لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة المعضلة التي يصعب تعليلها إذ تذكرنا أن النبي قد توخى في اختيارهن تلك الأغراض العامة التي أجملناها في الفصل السابق ولم يتحرَّ منها النسل خاصة : وهي

الإيواء الشريف والمصاهرة . وبعضهن - بل معظمهن - قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة ، ما يعقم الولود .

فإذا أضفنا إلى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة النبوية التي أشرنا إليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبي فيما بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن ودرء الأخطار - لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصي على التعليل .

حزن الأبوة

طال اشتياق النبي إلى الوليد المأمول ، وتجدد اشتياقه في أثر كل زواج حتى جاءته مارية القبطية من قطر بعيد ، ومن معدن غير المعدن الذي يختار لإيواء المحزونات وتقريب الأسر والعصبيات ، فبشرت النبي بعقب لعله غلام ، واجتمع في هذه البشارة اشتياق نيف وعشرين سنة ، ورجاء لا ينتهي بانتهاء الزمان .

وولد ابراهيم ! ..

ولد الطفل الذي نظر أبوه إليه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين بل ألوف السنين ، وتخير له الاسم الذي وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى ، ليكون أبًا ويكون له أحفاد ، ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد .

ثم مات ذلك الطفل الصغير .

ومات ذلك الأمل الكبير .

مات كلاهما والأب في الستين .. أي صدمة في ختام العمر؟ .. أي أمل في الحياة ؟ .. الدين قد تم ، وهذه الآصرة قد انقطعت ، فليس في الحياة ما يستقبل وينتظر : كل ما فيها للاشاحة والادبار .

مات الطفل ولما يدرك السنتين .

مصاب صغير ان كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين .

ولكن المصائب في الأعزاء انما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم ، والصغير أحوج إلى العطف من الكبير المستقل بشأنه .

وإنما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا ، وتعويل الصغير على وليه أكبر من تعويل الكبير ..

وإنما تقاس بمبلغ الأمل فيهم ، والأمل يطول في بداءة الطريق وقد يقصر في منتصف الطريق .

إنما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين . وأي مصاب أفدح من مصاب الستين وما بعدها في الأمل الوحيد الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه .

ما تخيلت محمدًا في موقف أدنى إلى القلوب الإنسانية من موقفه على قبر الوليد الصغير ذارف العينين مكظوم الوجد ضارعًا إلى الله .

نفس قد نفثت الرجاء في نفوس الألوف بعد الألوف ، وهي في ذلك الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز : رجاء وا أسفاه لا يحييه كل ما ينفثه المصلح في الدنيا من رجاء.

وكأني بمحمد كان يومئذ أقرب إلى قلوب الخالفين من بعده مما كان مع الجالسين حوله ، ومع أقرب الناس إليه .

كان أقرب الناس إليه زوجاته أمهات المسلمين . وكن يحببنه غاية ما يحب النساء الأزواج ، ولكن حبهن إياه لم يكن في هذا الموقف من المقربات العاطفات ، لأنه حب أثار غيرتهن من أم الوليد المأمول ، فاحتجب من عطفهن بمقدار تلك الغيرة وبمقدار ذلك الحب . ولا لوم عليهن فيما طبع عليه الإنسان وفيما لا يقصدنه ولا يقدرن عليه .

وكان أقرب الناس إليه أصحابه الخاشعون بين يديه ، وكان اكبارهم لسيد الأنبياء ينسيهم أنه أب من الآباء ، بل أنه أب أرحم من سائر الآباء .

ظنوا أن النبي لا يحزن ، كما ظن قوم أن الشجاع لا يخاف ولا يحب الحياة ، وأن الكريم لا يعرف قيمة المال .

لكن القلب الذي لا يعرف قيمة المال لا فضل له في الكرم ، والقلب الذي لا يخاف لا فضل له في الشجاعة ، والقلب الذي لا يحزن لا فضل له في الصبر . إنما الفضل في الحزن والغلبة عليه ، وفي الخوف والسمو عليه ، وفي معرفة المال والإيثار عليه .

وفضل النبي في نبوته وفي أبوته أنه حزن وبكى ، وتلك هي الصلة بينه وبين قلب الإنسان ، وبينه وبين الناس ، وأي نبي تنقطع بينه وبين القلب الإنساني صلة

كهذه الصلة التي تجمع أشتات القلوب ؟

روى أسامة بن زيد أن زينب بنت النبي أرسلت إليه : « أن ابنتي قد حصرت فاشهدنا » فأرسل إليها عليه السلام يقول : « ان لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شيء عنده مسمى . فلتحتسب ولتصبر » . فأرسلت تقسم عليه ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وقمنا . فرفع الصبي في حجر النبي ونفسه تقعقع . ففاضت عينا النبي ﷺ فقال له سعد : « ما هذا يا رسول الله ؟ » .

قال : « هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء » .

ما هذا يا رسول الله ؟ !

هذا رسول الله في أصدق ما تكون عليه رسالة الرسل : في الرحمة ، وفي الآصرة الإنسانية ، وغير هذا لن يكون .

ومحمد قد اتقى رؤية طفل يموت لابنته وهو كهل غير يائس من العقب ، فكيف يكون حزنه على فلذة كبده ابراهيم وهو بعده ذاهب الرجاء في الأبناء ؟ ! ..

لقد كان حزنه لموته بمقدار فرحه بمولده ، وكان فرحه بمولده بمقدار أمله فيه واشتياقه إليه .

وان العطف الإنساني كله ليتجه إلى تلك النفس الزكية وهي تتوسع فرحًا بالوليد المأمول ... حلق الأب المتهلل شعر وليده وتصدق بزنته فضة على المساكين ، وذلك هو التوسع الذي وسعه رجل كان أقدر الرجال على وجه البسيطة غير مستثنى فيها رؤساء ولا ملوك .

جاء بأقصى ما عنده من الفرح وأقصى ما عنده من التوسعة ، ولو شاء لقد كان وزن الوليد كله درًا وجوهرًا بعض ما يستطيع في ذلك اليوم الأغر الميمون ..

وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم الاستقبال كان الحزن الوجيع يوم الوداع :

خرج الرجل الذي اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها وهو لا يضطلع بحمل قدميه : خرج يتوكأ على صديق عطوف إلى حيث يحمل الوليد آخر مرة في حجره الأبوي قبل أن يودعه حجر التراب . وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : يا جبل ! لو كان

بك مثل ما بي لهدك . ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون ..

إي والله ! إنها لاحدى الفواقر التي يحملها اللحم والدم ولا تحملها صخور جبال..

وصرخ أسامة حين بكى رسول الله . فنهاه رسول الله وقال : البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان .

حزن كما ينبغي له أن يحزن .. أما الحزن الذي لا ينبغي له فهو الصراخ الذي نهى عنه ، وهو أن تنكسف الشمس يوم موت ابراهيم فيحسب المسلمون أنها انكسفت لموته ، ويقول الأب الذي انكسفت الشمس حقًّا في عينيه : «كلا .. ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ! »

أو تخسفان ولكن في أكباد المحزونين ، وليس في كبد السماء .

أكرم الآباء

أوكان من الحتم أن يكون محمد مثال الآباء كما كان مثال الأنبياء ؟ .. كذلك شاء القدر القادر ، وكذلك رأينا محمداً مثال الأب يوم ولد له ابراهيم ، ومثال الأب يوم ذهب عنه ابراهيم .

ما يتمنى طفل – لو جاز أن يتمنى الأطفال – أبوة أرحم ولا أزكى من هذه الأبوة في الحالتين .

بل كان محمد مثال الأب حيثما كان له نسل قريب أو بعيد ، وذكر أو أنثى ، وصغير أو كبير .

أرأيت إلى الحسن بن فاطمة وقد دخل عليه فركب ظهره وهو ساجد في صلاته ؟

ان النبي في صلاته لهو النبي في مقامه الأسنى . وأن النبي في مقامه الأسنى ليشفق أن يشغل الصبي عن لعبه فيطيل السجدة حتى ينزل الصبي عن ظهره غير معجل . ويسأله بعض أصحابه : لقد أطلت سجودك ؟ فيقول : ان ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله .

أرأيت أن فاطمة تدخل البيت أشبه الناس مشية بمشية محمد ؟ .. أرأيت إلى حنان يفيض على القلب كحنانه حين يرى فتاة تشبه أباها في مشيته وسمته !

تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات ، يختصها النبي بمناجاته في غشية

وفاته ، إني مفارق الدنيا فتبكي . إنك لاحقة بي فتضحك ... في هذا الضحك وفي ذلك البكاء على برزخ الفراق بين الدنيا والآخرة أخلص الود والحنان بين الآباء والأبناء .

سرَّها بنبوَّته ، وسرَّها بأبوَّته ، فضحكت ساعة الفراق لأنها ساعة الوعد باللقاء .
وكذلك فارق الدنيا أكرم الأنبياء وأكرم الآباء .

* * *

السيّد

الخير المطبوع

قدمنا الكلام في فصول هذا الكتاب عن محمد رئيسًا ، ومحمد صديقًا ، ومحمد زوجًا ، ومحمد أبًا ، بعد الكلام على عبقريته في الدعوة ، وعبقريته في قيادة الجيش ، وعبقريته في السياسة والإدارة والبلاغة .

وبقي جانب لا تتم بغيره الإحاطة بجوانب النفس الإنسانية في العلاقات بينها وبين سائر النفوس ، وهو جانب المعاملة التي تكون بين الرجل ومن هم دونه ممن يملك أمرهم ويقبض على زمامهم ولا يعتصمون منه بعاصم غير عواصمَ طبعه وخلقه . ونريد بهم الخدم والعبيد الأرقاء ، وهي معاملة لها من الدلالة على الأخلاق ، ما يندر أن تدل عليه معاملة أخرى ، لأنها تأتي من طابع النفس وعقائدها ، ولا تأتي بأمر آمر أو بدعوة داع .

فالصداقة لها الحقوق المتكافئة بين الصديقين . لا يستطيع أحدهما أن ينساها زمنًا طويلاً إلا ذكره بها مذكر من صديقه الحافظ لحقوقه ، القادر على مقابلة الجفاء بمثله ، ولو في طوية نفسه .

والرئاسة قد تخول الرئيس حق السيطرة ، وتفرض على المرؤوسين واجب الطاعة ، غير أنه قل أن تنطلق بغير وازع من خشية الغضب أو خشية الانتفاض يحسب له الرئيس كل الحساب ، أو بعض الحساب .

والأب يعطف على بنيه فلا يعجب الناس لعطفه عليهم ، لما ركب في طباع جميع الأحياء من حب الأب لولده ، وان اختلف الآباء في صفات العطف وفي استحقاقهم لبر الأبناء .

وكذلك الزوج يرفق بزوجته وليس له كل الاختيار في رفقه ، لما يكون بين الزوجين من دالة يعتز بها الضعيف ، ويستغني بها أحياناً عن القوة والرئاسة ..

أما العبد المملوك فلا عاصم له غير ما في نفس سيده من رحمة وخير ، وإنه لمن الرحمة والخير أن يتبع السيد أمر الدين مع عبيده وخدمه الذين لا ينصرهم عليه ناصر في هذه الدنيا . بل انها لرحمة تؤثر ولو وقفت عند حدود الأوامر الآلهية ، فإذا تجاوزتها إلى طواعية في الخير لم يفرضها الدين ولم يفرضها العرف ولم يطلبها العبد نفسه فتلك هي الرحمة في أصدق معانيها ، وهي أدل الدلالات على لباب الأخلاق .

ولقد علم القارىء من فصولنا السابقة إننا لم نكتب هذا الكتاب لشرح الأصول الإسلامية وتفصيل محاسن الدعوة المحمدية . فذلك غرض لا تتسع له هذه الفصول وليس لنا أن نتصدى له بعد من فصلوه وكرروا الكتابة فيه ..

وإنما نقصد بهذه الفصول إلى غرض قدمناه على كل غرض في موضوعه ، وهو بيان البواعث النفسية التي توحي إلى النبي أعماله ومعاملاته ، ولا شك في مطابقة هذه البواعث لكل أمر من أوامر الدين وكل نهي من نواهيه . إلا أن الخير المطبوع شيء والخير المأمور شيء آخر . والخير المطبوع هو الذي قصدنا إلى بيانه بكل ما بيناه .

ففي كتابتنا عن معاملة محمد للعبيد والخدم لا ننوي أن نفصل أحكام الإسلام وأوامر القرآن في هذه المعاملة ، وإنما ننوي أن نبين مزية محمد على جميع السادة في هذا الباب ، وهي مزية لا تتوافر لمن يقنعون بالتزام الأوامر والحدود ، ولا للذين يرتفعون إلى أرفع مرتبة : تفرضها هذه الأوامر والحدود .

الإسلام والرق

على أن هذا لا يمنعنا أن نوجز الإشارة بداءة إلى مزية الإسلام بين الأديان الأخرى في مسأله الرق والاستعباد ، لأن أناسًا يخلطون بين اعتراف الإسلام بنوع من الرق وبين اعتباره مسئولاً عن وجوده في الزمن القديم ، ويردون شيئًا من ذلك إلى عمل النبي عليه السلام .

فمن الواجب أن نذكر أولاً أن دينًا من الأديان الأخرى لم يأمر بإلغاء الرق في شكل من أشكاله ، سواء رق الحروب او رق النخاسة والبيع والشراء ، وأن أناسًا من

أقطاب المسيحية كالقديس أغسطين سوغوه واعتبروه جزاء عادلاً للخطايا التي يقترفها المسترقون ، وجاء بعض أحبار الكنيسة فحرموا على الأرقاء شرف الخدمة فيها بالوعظ والهداية ، انفة لها أن يدنسها لؤم العنصر الذي وسموا به الرقيق .

ويجب أن نذكر بعد هذا أن النظام الاقتصادي القديم في أساسه كان مرتبطًا بالاسترقاق أشد الارتباط . فكان إلغاؤه طفرة واحدة أقرب شيء إلى المستحيلات ، ولم يكن أنفع في علاجه من التدرج خطوة فخطوة والابتداء بتصعيبه وترغيب الناس عنه . وهو ما شرعه الإسلام .

فالإسلام بدأ بتحريم كل رق غير رق الأسرى في الحروب ، ثم حسن اطلاقهم وسماه منا وعفوًا يشكر فاعله عليه : « فإما منًا بعد وإما فداء » .

ثم أجاز للاجير أن يشتري نفسه ، وأوجب حريته في حالات كثيرة يرجع معظمها إلى إرادته هو ، اذا استطاع .

والحق الذي لا مراء فيه أن صنيع الإسلام هذا كان أجمل صنيع لقيه الأرقاء من دين أو شريعة ، وإنه إذا كان هناك تمهيد لإلغاء الرق بتة فذلك هو تمهيد الإسلام دون غيره ، وهو أقصى ما كان مستطاعًا في نظام العالم القديم : نظام كان عدد الأرقاء فيه يقارب عدد الأحرار ، كما جاء في بعض الإحصاءات المروية عن الحضارتين الرومانية واليونانية .

وقد نظر في مسألة الرق عقل من أكبر العقول التي نبغت في أمة اليونان بل في الأمم كافة – ونعني به أرسطو– فأقره وأوجبه لأنه جعله سنة من سنن الفطرة وقيداً لا فكاك منه لطائفة من الناس ، خلت عاجزة عن ولاية أمرها فلا غنى لها عن سيد ولا موئل لها من وال .

معاملة محمد لعبيده

ولو وقف النبي عند هذا الحد في معاملة الأرقاء لأحسن وأجمل وامتاز بأمر دينه على كل محسن إلى الأرقاء في زمانه ، إلا أننا نقرر الواقع ولا نتعداه قيد شعرة حين نقول إن كثيرًا من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم خيرًا من المعاملة التي ظفر بها خدم محمد وعبيده . ومن من الآباء يحسن إلى أبنائه خيرًا من إحسان محمد لزيد بن

حارثة ولابنه أسامة ؟

فقد أعتق زيداً ورآه أهلاً للزواج بعقيلة من أقرب قريباته إليه وأولاهن بحدبه وتوقيره ، وهي التي رآها بعد ذلك أهلاً لزواجه بها وحظوتها لديه . فلم يعطه الحرية وكفى ، ولم يعطه المساواة في العيش وكفى ، بل رفعه إلى المنزلة الاجتماعية التي يرتفع إليها السادة ، ولا يثبتها شيء كما يثبتها شرف المصاهرة .

ثم حفظ هذا البر الأبوي لابنه أسامة ، فولاه جيش الشام وهو دون العشرين ، وفي الجيش طائفة من أكابر الصحابة . فلوكان للنبي ولد في سنه لما تكفل به أحسن من هذه الكفالة ، ولا ميزه أشرف من هذا التمييز .

نعم لم نعد الواقع ، ولا تجوزنا في الوصف ، حين قلنا ان الإبن لا يتمنى خيرًا من معاملة محمد لعبده . فقد عرف زيد فعلاً إن محمداً خير من أب وخير من أسرة كاملة يرجع إليها وترجع إليه . فبقي معه ولم يذهب مع أبيه ، ولم يبق معه إيثارًا لبركة النبوة فإن محمداً لم يكن قد أرسل بالدعوة يوم اختاره زيد وآثره على جميع آله . وإنما بقي معه لأنه الإنسان الذي يعرف حتى العبد الرقيق أن آصرة الإنسانية عنده أوثق من آصرة الأبوة عند آخرين .

إن حب الوالد لوليده وراثة ألوف الألوف من الأجيال . بل وراثة الحياة في جميع الأحياء . فإذا بلغ البر بالضعفاء مبلغ الحب الأبوي من القوة فقد بلغ الذروة العليا التي لا متسنم فوقها لراق ..

لقد خيرت شريعة الإسلام المحسنين بين المن واعتاق الأسرى ، وبين الفداء بالمال أو المبادلة . فأيهما اختار المالك فهو احسان .

أما محمد فقد اختار المن وزاد عليه . فأعتق كل أسير صار إلى حوزته ، وزاد على العتق تلك الرحمة الأبوية التي شملت كل منتم إليه ولم يستبح في غضبه ما يستبيحه المعلم والوالد من ضرب وتعزير . وربما كانت كلماته للخادم المخالف أقرب إلى الملاطفة منها إلى العقاب . ومن ذلك قصة الوصيفة التي أرسلها فأبطأت في الطريق ، فما زاد على أن قال لها حين عادت : « لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك ! »

ضرب سواك لابن عزيز ليس بالشيء الكثير .

ولكن محمداً يخشى القصاص إذ استباحه في معاملة وصيفة تهمل أمره ، وهو الذي لا يُهمل له أمر عند سادة الشرفاء ..

وروى أنس أن النبي أرسله في حاجة فانحرف إلى صبيان يلعبون في السوق ، « وإذا رسول الله ﷺ قد قبض ثيابي من ورائي ، فنظرت إليه ﷺ وهو يضحك ، فقال : يا أنيس ! إذهب إلى حيث أمرتك ! »

كلمة أمر لا يقولها لخادمه إلا وقد ناداه مدللاً وقابله ضاحكًا كأنه يعتب على قرين . وقد يلام القرين بأشد من هذا الملام .

وكانت رحمته بعبيد غيره كرحمته بعبيده ، فكان يجاملهم ويجبر كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافىء عليها ، ويلبي دعوتهم إذا دعوه إلى طعام ، ويوصي بهم قائلاً : « هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » و « اتقوا الله في الضعيفين النساء والرقيق » .

البر بالخدمة

وربما كان البر بالخدمة في هذا المقام أكرم وأنفى للهوان من البر بالخدم ... فالبر بالخادم عطف عليه . أما البر بالخدمة فارتفاع بالخادم إلى مقام السادة حيث لا يأنف السادة من خدمة أنفسهم بأيديهم ، وذلك هو البر بالخدمة كما عنيناه ، وذلك هو دأب النبي الذي جرى عليه في بيته وبين أهله وخدمه .

فقد كان يحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه ، أي البعير الذي يستقي عليه الماء . فإذا رأى الخدم لهم عملاً في البيت يماثل عمل سيدهم ومالك أمرهم فتلك هي المساواة التي تمسح ضير الخدمة وتجبر كسرها ، ولا تقتصر على العطف والرحمة .

ولم يقبل عليه السلام خدمة من خادم يأنف الأحرار أن يقضوها له شاكرين . فما كان في رجالات المسلمين كابر ابن كابر إلا كان يتمنى أن يؤدي لنبيه تلك الخدمة التي تطوعت بها نفوس مواليه وأتباعه . وهذا ضرب آخر من ضروب البر بالخدمة والتسوية فيها بين مقام الخادم ومقام المريد . فكان عمل الخادم عنده عمل التلميذ

الذي يجلس إلى قدمي أستاذه ، حبًا لا خنوعًا ، وتوقيرًا لا مذلة ، وأدبًا يفرضه على نفسه وليس بضريبة مكتوبة يفرضها عليه العرف والتأديب .

وعلى هذا كان النبي عليه السلام يكره أن تقبّل يداه مخافة أن تجري العادة بهذا بين الناس فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع . قال أبو هريرة رضي الله عنه : « دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل ، وقال للوزان : زن وأرجح... فوثب الوزان إلى يد رسول الله ﷺ يقبلها ، فجذب يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم . ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله فقال : صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله » .

ولقد يصح أن يقال إن حصة النبي من خدمة نفسه كانت أعظم من حصة خدمه . وأن تعويلهم عليه كان أكبر من تعويله عليهم وإنه جعل الخدمة على سنته ضربًا من توزيع الأعمال ، أو ضربًا من تعاون أبناء البيت الواحد فيما يستطيعه كل منهم من تدبيره وقضاء شئونه .

« إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » .

هذه كلمة السيد بإمامته ، السيد بنسبه ، السيد بسلطانه ، السيد بالتفاف القلوب حوله ، السيد بسيادته على سره وعلانيته ورأيه وهواه . ولو عمت هذه السيادة لبطل الاستعباد وأصبح تفاوت الدرجات كتفاوت الأعمار شيئًا لا غضاضة فيه على صغير ولا خنزوانة فيه لكبير. إنما هو تقسيم أعمال ، وتعاون بين أخوان ، وإن لم يكن تعاونًا بين أمثال .

العابد

الطبائع الأربع

طبيعة العبادة ، وطبيعة التفكير ، وطبيعة التعبير الجميل ، وطبيعة العمل والحركة..

هذه طبائع أربع تتفرق في الناس وقلما تجتمع في إنسان واحد على قوة واحدة . فإذا اجتمعت معًا فواحدة منهن تغلب سائرهن لا محالة ، وتلحق الأخريات بها في القوة والدرجة على شيء من التفاوت .

طبيعة العبادة تدعونا إلى الاتصال بأسرار الكون للمعاطفة والتآلف بيننا وبينها : تدعونا إلى الحلول من الكون في أسرة كبيرة .

وطبيعة التفكير تثير في نفوسنا ملكات الكشف والاستقصاء : تدعونا إلى الحلول من الكون في معمل كبير .

وطبيعة التعبير الجميل تشب النار المقدسة في سرائرنا ، فتصهر معادن الجمال من هذه الدنيا وتفرغها في قوالب حسناء من صنع قرائحنا وألسنتنا ، أو صنع قرائحنا وأيدينا ، أو صنع قرائحنا وأوصالنا ، تدعونا إلى الحلول من الكون في متحف كبير .

وطبيعة العمل والحركة تعلمنا كيف نتأثر بدوافع الكون وكيف نؤثر فيها ، وتجذبنا اليها فنستمد منها القدرة التي تجذبها إلينا : تدعونا إلى الحلول من الكون في ميدان صراع ومضمار سباق .

وقلما تشعر بالكون بيتًا لأسرة ، ومعملاً لباحث ، ومتحف فن ، ومضمار سباق في وقت واحد . إنما هي حالة من هذه الحالات تجب سائر الحالات ، وقد تلحقها بها إلحاق التابع بالمتبوع والمساعد بالعامل الأصيل .

محمد بن عبد الله كانت فيه هذه الطبائع جميعًا على نحو ظاهر في كل طبيعة : كان عابداً ومفكرًا وقائلاً بليغًا وعاملاً يغير الدنيا بعمله . ولكنه عليه السلام كان عابداً قبل كل شيء ، ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله ، وكل سجية فيه .

تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه . فولد في بيت السدانة والتقوى ، وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بإيمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه ..

ونشأ يتيمًا من طفولته فانطوى على نفسه وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار ، والنظر إلى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنايا ، الجانح إلى الطهر واستقامة الضمير .

وتكون في بنيته عابداً من صباه .

قيل إنه في الثانية أو الثالثة من عمره قد أدركته حالة يختلف شراح التاريخ في تفسيرها ، ويرويها من سمعوا بها على روايات مختلفات لا ندري ما هو الواقع الصحيح منها ، ويتعجل بعض المؤرخين الاوربيين فيحسبها ضربًا من الصرع على غير سند علمي أو تاريخي محقق يستند إليه .

كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمداً قد تكون ليتلقى الوحي الآلهي ، وان لهذا التكوين استعداداً لا بد أن يلحظ من أوائل صباه ، لأن البنية الحية لن تتهيأ له في أيام ولا في شهر ولا في سنوات ، ولن تستطيعه إلا إذا تمت أهبتها له والمولود في صلب أبيه ، ولا نقول في المهد أو في الرضاع .

فمن الأقوال المتواترة أنه كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحي نكس رأسه ، وكرب لذلك وتربد وجهه ، وأخذته البرحاء حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان في اليوم الشاتي ، وسمع عند وجهه كدوي النحل ، وقد يصدع فيغلف رأسه بالحناء . وقد شاب فقال : « شيبتني هود وأخواتها » وعدّد حين سئل عن اخواتها سورًا أخرى من القرآن الكريم .

وليس هذا من خليقة كل بنية إنسانية : إنما هو خليقة البنية التي تتلقى وحيًا وتستوعب سرًا وتهتز لنبأ عظيم .

صفة العابد

وكانت أوصافه في غير حالة الوحي توافق الاستعداد الذي يرشحة لتلقي الوحي والنبوة . فكان حسًا كله وحياة كله . يراه من ينظر إليه فيرى فؤادًا يقظًا يتنبه لكل خالجة نفسية وكل نبأة خفية . يسرع في مشيته ويلتفت فيلتفت بكل جسمه ، ويشير فيشير بكل كفه ، ويفكر فلا يزال يطرق إلى الأرض أو يرفع بصره إلى السماء ، ويدعو فيرفع يديه حتى يرى بياض أبطيه ، ويغضب فتحمر عيناه ووجنتاه ، ويمتلىء عرق جبينه وينام وقلبه يقظ لا ينام : حس مرهف يدني إليه ما وراء الحجاب ، ويوقظ سريرته لأخفى البواطن ، ويجعله أبداً في حالة قريبة من حالة الوحي حيثما هبط الوحي عليه .

هذه صفة عابد يفكر ويعبر ويعمل ، وليست بصفة عابد ينقطع للعبادة أو ينقطع للتفكير ، أو يعمل كما يعمل بعض النساك الذين هزلت بنيتهم الجسدية فلم يبق لهم إلا عكوف الصومعة أو رحلة الزهادة .

كانت عبادة محمد خلوًا بالنفس إلى حين ، أو عجبًا من بدائع الكون التي ألفها الناس لأنهم لم يوهب لهم في أبصارهم وبصائرهم تلك النظرة الجديدة التي ترى كل شيء كأنه في خلق جديد .

ما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت اليوم أمام عينيه دهشة لا تعدلها دهشة ...

وهي هي دهشة العين التي أبت أن تكل من الألفة لأنها أبدًا في نظر جديد ، أو في نظر إلى كل منظور كأنه مخلوق جديد .

وهكذا كانت عبادة محمد عليه السلام : عجب من بدائع الكون في كل نظرة كأنه يراها لأول مرة ، وتفكير في الخلق ينتهي إلى الإيمان لأنه يبدأ بالعجب ، ولا يزال أبداً بين العجب والايمان .

وإن محمدًا باعث الإيمان إلى القلوب . لقد كان يجدد إيمانه كما يجدد عجبه كل يوم . وكان يدعو الله فيقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » ... وقيل له في ذلك فقال : « إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين اصبعين من أصابع الله . فمن شاء أقام

ومن شاء أزاغ » .

حركة متجددة في الحس وفي الفكر وفي الضمير .

فلا انقطاع عن الحس للعبادة كل الانقطاع .

ولا انقطاع عن الحس للتفكير كل الانقطاع .

وإنما هو تفكير من ينتظره العمل ، وليس بتفكير من ترك العمل ليوغل في الفروض ومذاهب الاحتمال والتشكيك : ثلث أيامه لربه وثلثها لأهله ، وثلثها لنفسه . وما كان في فراغه لنفسه ولا لأهله شيء يخرجه من معنى عبادة الله والاتصال بالله ، على نحو من التعميم .

* * *

بهره الجمال من صباه : جمال الشمس والقمر والنهار والليل والروض والصحراء ، وجمال الوجوه التي يلمح عليها الحسن فيطلب عندها الخير . إنما هو الخير على كل حال ما قد طلب من الجمال . وإنما جمال الله هو الذي قد كان يدعوه إليه ، كلما نظر إلى خلق جميل .

فكر في الخلق فآمن بالخالق واستقر هنالك لا يتقدم ولا يتأخر . فقال : « إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول : من خلق السماء ؟ فيقول : الله . فيقول : من خلق الأرض؟ فيقول : الله . فيقول : من خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل : آمنت بالله ورسوله» .

تلك هي نهاية التفكير التي ينتهي إليها عقل مستقيم خلق لعبادة عامل ، وتعليم الناس عبادة وعملاً ، ولم يخلق ليوغل في الفروض ويتقلب بين الشكوك ..

وإنا لنسأل مع هذا : إلى أين انتهى المفكرون الذين أوغلوا في شكوكهم وتطوحوا بها إلى قصوى ما تفرضه الفروض ؟

إلى أين انتهى «كانت» Kant إمام المفكرين في هذا الباب بين فلاسفة العصر الحديث ، ان لم نقل الحديث والقديم ؟

انتهى إلى أن النفس نفسان والوجود وجودان : نفس حسية ونفس حقيقية : ووجود محسوس ووجود حق هو ذات الوجود .

النفس الحقيقية تدرك الوجود الحقيقي عندما ترجع إلى قرارها ، ثم لا تتخطى

بإدراكها عالم الباطن إلى عالم المحسوسات التي يتناولها التعبير وتصدير الكلام .

* * *

أليس معنى هذا أن إيمان النفس الباطنة أمر لا يتعلق بالبرهان ؟ وأن المرجع غاية المرجع إنما هو الإيمان ولا شيء غير الإيمان ؟

بل حتى البرهان الأكبر على وجود الله نعود إليه لنسأله ونسمع منه فماذا يقول ؟

يقول لنا إن العدم معدوم فالوجود إذن موجود ، وإنك إذا آمنت بالوجود فلا مناص لك من الإيمان به في صفته المثلى ، لأنك تحتاج إلى مقتض لفرض النقص ولا تحتاج إلى مقتض لفرض الكمال في وجود لا يتطرق إليه العدم .

وما الفارق بين الإيمان بالله والإيمان بالوجود في صفته المثلى ؟

هنا ينتهي الإيغال في الفروض والشكوك .

وهناك انتهى الإيمان ، بغير إيغال في فروض ولا شكوك ...

ألا تتلاقى النهايتان ؟ .. أو لا تضل الفروض والشكوك حيث تضل ثم لا يخطو لها قدمان وراء خطر الإيمان ؟

لهذه السنة التي استنها النبي عليه السلام في عبادته الروحية كثرت وصاياه بإدمان التفكير في خلق الله واجتناب التفكير في ذات الله . فقال في حديث : «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله» وقال في هذا المعنى : «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا» وقال في حديث قدسي : «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق فعرفت» أو كما جاء في رواية : «فخلقت الخلق فبي عرفوني» .

طريق الوصول

وخلاصة هذه الأحاديث وما في معناها أن التفكير في حقائق الوجود هو طريق الوصول إلى الله ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا للبديهة : إيمان بالوجود الأبدي في صفته المثلى ، وتفكير في حقائق الوجود كما نراها ونحسها ونعقلها ، وذلك قصارى ما عند العقيدة ، وقصارى ما عند الفلسفة ، وقصارى ما عند العلم إذ يقف العلم عند حده ، وهذا هو العلم الذي فرضه الإسلام على كل مسلم ومسلمة ، وقال النبي في رواية ابن عباس : «انه أفضل من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله لأنه سبيل الوصول إلى الله».

ومن الواجب أن نذكر بعد هذا جميعه أن محمداً نبي ، وأن النبي يعلم جميع الناس الإيمان ، وتلك سبيل جميع الناس فيما يفتح لهم من أبواب التفكير وأبواب الاعتقاد . فهم يضلون في تيه الشكوك والمناقضات التي يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون ، ولا يبلغون إلى هداية أقوم وأسلم من هداية الإيمان بالخالق والتفكير في الخليقة . فاما هذه الهداية واما الضلال الذي لا هداية وراءه . وليس لنبي أن يحجب طريق الهداية ويفتح طريق الضلال .

* * *

وقد تكلمنا في هذا الفصل عن روح العبادة أو عن فطرة العابد التي توحي إليه « عبادته الروحية » .

أما عبادة الشعائر الظاهرة فهي عبادة الإسلام كما فرضت على جميع المسلمين : يصلي النبي ويصوم ويحج ويؤدي الزكاة على الشريعة التي يتبعها كل مسلم ، وقد يطلب إلى نفسه في هذه العبادات ما ليس يطلبه إلى غيره ، على سنة السماحة والتيسير التي أثرت عنه في كل عمل من أعماله وكل سجية من سجاياه .

« فكان أخف الناس صلاة على الناس وأطول الناس صلاة لنفسه » وربما قام الليل أكثره أو أقله ولا يدين أحداً بالتهجد كما كان يتهجد أو بالصلاة والصيام كما كان يصلي ويصوم ، بل قد نهى الناس أن يشتدوا في العبادة فيصبحوا كالمنبت « لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى » .

لأن الناس جميعًا يتلقون الأمر بالعبادة كما يتلقون الأمر بفريضة واجبة ، فهم في حاجة إلى الرفق والتيسير .

أما النفس المفطورة على العبادة فالصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء ، ومطاوعة لميل الضمير وميل الجوارح على السواء .

* * *

وكان محمد « إذا حزبه أمر صلى » .

كذلك إذا حزب الأمر نفسًا رجعت إلى من تحب فخفف وقرها وانفرج كربها ، وأنست بعد وحشة واهتدت بعد حيرة .

ومتى وجدت النفس « فرحة اللقاء » في الصلاة فلا إجهاد فيها لجسد ولا تضييق فيها لوقت ، بل فيها الترويح عن الجهد والتنفيس عن الضيق ، ولا سيما إذا كانت النفس من سعة الأفق بحيث تحيي ما تحيي من ليلها ونهارها في الصلاة والعبادة ثم تؤدي عملها وتفكر تفكيرها ، ولا يحسب أحد يعرفها أنها تنقطع بالصلاة والعبادة عن حق من حقوق حياتها ، أو عن حق من حقوق بني الإنسان .

* * *

الرجل

المختار

عاش في العصور الماضية كثير من العظماء الذين تواترت الأنباء بأوصافهم السماعية وأوصافهم المرسومة في الصور والتماثيل. غير أننا لا نعرف أحدًا من هؤلاء العظماء تمت صورته السماعية أو المنقولة كما تمت صورة محمد عليه السلام من رواية أصحابه ومعاصريه، فنحن نعرفه بالوصف خيرًا من معرفتنا لبعض المخلدين بصورهم وتماثيلهم التي نقلت عنهم نقل الحكاية والمطابقة، لأن هذه الصور والتماثيل قد تحكي للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الظاهرة، وقد تحكي للمتفرسين شيئًا من طبائعهم التي تنم عليها سيماهم، إلا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبي في كل حالة من حالاته وكل لمحة من لمحاته: في سماه وفي هندامه، وفي شرابه وطعامه، وصلاته وصيامه، وحله ومقامه، وسكوته وكلامه، لأن الذين وصفوه وأحبوه وأحبوا أن يقتدوا به فتحرجوا في وصفه كما يتحرج المرء في الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة، فكانت أمانة الوصف هنا مزيجًا من العطف والتدين، وضربًا من اتباع السنن وقضاء الفروض، لم يختلف الوصف مرة إلا كما تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى. فيقول غير ما قال آنفاً ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين..

وخلاصة المحفوظ من الروايات المتواترة أن النبي عليه السلام كان مثلاً نادرًا لجمال الرجولة العربية، كان كشأنه في جميع شمائله مستوفيًا للصفة من جميع نواحيها. فرب رجل وسيم غير محبوب، ورب رجل وسيم محبوب غير مهيب، ورب رجل وسيم يحبه الناس ويهابونه وهولا يحب الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء،

أما محمد عليه السلام فقد استوفى في شمائل الوسامة والمحبة والمهابة والعطف على الناس. فكان على ما يختاره واصفوه ومحبوه، وكان نعم المسمى بالمختار.

إذا نظر إليه الناظر رأى رجلاً أزهر اللون، عظيم الهامة، مفاض الجبين، سبط الشعر، أزج الحاجبين بينهما عرق يدره الغضب. أدعج العينين في كحل، اقنى الأنف يحسبه من لم يتأمله أشم العرنين، أسيل الخد، ضليع الفم، غزير اللحية، جميل الجيد، عريض الصدر، عريض ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، لا بالمشذب ولا بالقصير، مربوعًا أو أطول من المربوع، معتدل الخلق متماسكًا لا بالبدين ولا بالنحيل.

وإذا أقبل يتحرك اليه الناظر فرأى رجلاً يصفه الأقدمون بأنه «حي القلب» ويصفه المحدثون «بالحركة الحيوية».

يمشي فكأنما ينحدر من جبل وينحط من صبب، ويرفع قدمه فيرفعها تقلعًا كأنما ينشط بجملة جسمه، ويلتفت فيلتفت كله، ويشير فيشير بكفه كلها، ويتحدث فيقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بابهام اليمنى وراحة اليسرى، ويفتح الكلام بأشداقه ويختمه بأشداقه، وربما حرك رأسه وعض شفته أثناء كلامه. وهو على هذه الحركة الحية جم الحياء: أشد حياء من العذراء، نضاح المحيا إذا كره شيئًا عرف ذلك في وجهه وإذا رضي تطلقت أساريره وتبين رضاه.

واقترن النشاط والحياء بالقوة والمضاء في هذه البنية الجميلة.. فكان عليه السلام يصرع الرجل القوي ويركب الفرس عاريًا فيروضه على السير، ويداعب من يحب بالمسابقة في العدو. قالت عائشة رضي الله عنها: «خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم. فقال ﷺ للناس: تقدموا! فتقدموا. ثم قال: تعالي حتى أسابقك. فسابقته فسبقته، فسكت.

«حتى إذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال ﷺ للناس: تقدموا! فتقدموا. ثم قال: تعالي أسابقك فسابقته فسبقني فجعل ﷺ يضحك ويقول: هذه بتلك!».

وهذا بعد أن قارب الستين انها لمسابقة تنم على فتوة الروح فوق ما نمت عليه من فتوة الأوصال.

وتجلت هذه الأريحية في علاقته بكل انسان من خاصة أهله أو من عامة صحبه. فرقت حاشية جده حتى عطفت على كل أسى، ورحمت كل ضعف، وامتزجت بكل شعور.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «دخل النبي عليه السلام على أمي فوجد أخي أبا عمير حزينا. فقال: يا أم سليم! ما بال أبي عمير حزينًا؟

فقالت: يارسول الله مات نغيره. تعني طيرًا كان يلعب به..

فقال ﷺ: أبا عمير!.. ما فعل النغير؟ وكان كلما رآه قال له ذلك».

وهذه قصة صغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت اليها، فالسيد يزور خادمه في بيته، ويسأل أمه عن حزن أخيه، ويواسيه في موت طائر، ولا يزال يرحم ذكراه كلما رآه.

ومثل هذا عطفه على الضعف البشري في رجل مثل عبدالله الخمار الذي لقب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة، فكان النبي عليه الصلاة والسلام يحده في الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه.

قبول للدعابة

وكان نعمان بن عمرو أشهر الأنصار بالدعابة، لا يقيل منها أحدًا ولا يراه النبي فيتمالك أن يبتسم. وربما قصد النبي ببعض هذه الدعابات لطمعه في حلمه وعلمه بموقع الفكاهة من نفسه: جاء اعرابي إلى رسول الله فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائه، فقال بعض الصحابة لنعمان: «لو نحرتها فأكلناها؟ فانا قد قرمنا إلى اللحم، ويغرم النبي ﷺ حقها» فنحرها نعمان. وخرج الاعرابي فرأى راحلته فصاح: «واعقراه يا محمد!..» فخرج النبي يسأل: «من فعل هذا؟» قالوا: «نعمان»... فاتبعه النبي حتى وجده بدار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد. فأشار اليه رجل ورفع صوته: «ما رأيته يا رسول الله» وهو يشير بأصبعه إلى حيث هو، فأخرجه رسول الله وقد تعفر وجهه بالتراب فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: «الذين دلوك عليَّ يا رسول الله هم الذين أمروني!» فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب ويضحك. ثم غرم ثمن الراحلة..

ونعيمان هذا هو الذي باع عاملاً لأبي بكر الصديق وهو يعلم أن النبأ وصل إلى النبي لا محالة.

سافر أبو بكر إلى بصرى تاجرًا ومعه نعيمان وسويط بن حرملة عامله على زاده. فجاءه نعيمان وطلب اليه طعامًا فأباه عليه حتى يأتي أبو بكر. فأقسم نعيمان ليغيظنه. وذهب إلى قوم فقال لهم: «تشترون مني عبدًا لي؟» قالوا: «نعم!» قال: «إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم: لست بعبده أنا رجل حر... إلى أشباه ذلك. فان كان إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا عليّ عبدي...» قالوا: «لا بل نشتريه ولا ننظر في قوله» فاشتروه منه بعشر قلائص، ثم أداهم اياه فوضعوا عمامته في عنقه ولم يحفلوا بقوله، وجعلوا كلما قال لهم: أنا حر! انه يتهزأ ولست أنا بعبده» سخروا منه وقالوا: بل عرفنا خبرك فدع عنك اللجاجة... فلما جاء أبو بكر سأل عنه فقص عليه نعيمان قصته، وذهبوا جميعًا ليلحقوا بالقوم فيفتدوه ويعيدوه.

ثم قدموا على رسول الله فضحك من فعلة نعيمان، وجعل يذكرها حولا كاملاً كلما رآه.

من سعة النفس أن ينهض الرجل بعظائم الأمور بل بأعظمها جدًا ووقارًا وهو إقامة الأديان واصلاح الأمم وتحويل مجرى التاريخ ثم يطيب نفسا للفكاهة ويطيب عطفًا على المتفكهين. ويشركهم فيما يشغلهم من طرائف الفراغ. فللجد صرامة تستغرق بعض النفوس فلا تتسع لهذا الجانب اللطيف من جوانب الحياة، ولكن النفوس لا تستغرق هذا الاستغراق إلا دلت على شيء من ضيق الحظيرة ونقص المزايا وان نهضت بالعظيم من الأعمال.

فاستراحة محمد إلى الفكاهة هي مقاس تلك الآفاق النفسية الواسعة التي شملت كل ناحية من نواحي العاطفة الانسانية، وهي المقياس الذي يبدي من العظمة ما يبديه الجد في أعظم الأعمال.

وكان محمد يتفكه ويمزح كما كان يستريح إلى الفكاهة والمزاح، وكان دأبه في ذلك كدأبه في جميع مزاياه: يعطي كل مزية حقها ولا يأخذ لها من حق غيرها، أو يعطي الفكاهة حقها ولا ينقص بذلك من حق الصدق والمروءة. فعبد الله الخمار

كان يجد من قلب النبي عطف القلب الكبير على نقيصة الضعف في الرجل السكير. ولكنه كان يجد من تأديب النبي جزاء الشارب الذي يخالف الدين ويخل تماديه بالشريعة. عطف يجمل بالنبي على أحسن ما يكون، لأنه يجمل بالانسان على أفضل ما يكون.

وإذا مزح محمد فانما كان يعطي الرضى والبشاشة حقها ولا يأخذ لهما من حق الصدق والمروءة.. فكان مزاحه آية من آيات النبوة لأنه كان كذلك آية من آيات الانسانية، ولم يكن بالنقيض الذي يستغرب من نبي كريم..

قال لعمته صفية: لا تدخل الجنة عجوز!.. فبكت. فقال لها وهو يضحك: الله تعالى يقول: «انا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارًا عربا أترابا»... ففهمت ما أراد وثابت إلى الرضى والرجاء.

وطلب إليه بعضهم أن يحمله على بعير. فوعده أن يحمله على ولد الناقة. فقال يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة! فقال: وهل تلد الابل إلا النوق؟

وكان عليه السلام يقول لحاضنته السوداء أم أيمن وهي عجوز: «غطي قناعك يا أم أيمن!»

وسمعها في يوم حنين تنادي بلكنتها الأعجمية: «سبت الله أقدامكم!» فلم تنسه الغزوة القائمة أن يصغي إليها ويداعبها بين نذر الحرب وصليل السيوف، وأقبل عليها يقول: «أسكتي يا أم أيمن فإنك عسراء اللسان!» فكانت هذه الدعابة في ذلك الموقف المرهوب كأنها ترتيب سيد الفصحاء على تلك اللكنة البريئة.

أريحية محمد

هذه الأريحية الفياضة هي الحلية الباطنة التي تمت بها حلية محمد في عيون الناس، وهي جواب محمد لما كان له في قلوبهم من حب واعظام، أو هي الآسرة التي تجمع بين قلبه وتلك القلوب في نطاق الأسرة الإنسانية: يحبونه ويحبهم ويشعرون به ويشعر بهم، وليس قصارى الأمر أنه وسيم وأنه محبوب وأنه مهيب.

سمت يقابل العيون بجمال.

وأريحية تقابل النفوس بجمال.

وقد مرت هذه الأريحية في صميم طويته فامتزجت طواعية وارتجالاً بجميع خصاله

وجميع علاقاته بالناس ولا سيما الضعفاء والمكسورين. فكان أحرص إنسان على جبر القلوب وتطييب الخواطر وتوخي المؤاساة واجتناب الإساءة، يتفقد أصحابه كبارًا وصغارًا ويسأل عنهم، ويتحدث إلى ذوي الأقدار وعامة الناس فلا يحسب صغيرهم أن أحدًا أكرم عليه منه، ويتحدث إليه من شاء فلا يقطع عليه حديثه وان طال. وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ومن جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يكون الآخذ هو الذي يرسلها..

ومن سننه التي اتبعها وأوصى باتباعها أن يجيب دعوة من دعاه ولا يرد دعوة عبد ولا خادم ولا أمة ولا فقير، وفي ذلك يقول من وصاياه في آداب الولائم والمحافل: «إذا اجتمع الداعيان فأجب أقربهما بابًا فإن أقربهما بابًا أقربهما جوارًا، وان سبق أحدهما فأجب الذي سبق».

يبدأ من لقيه بالسلام ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامه. وربما خفف صلاته إذا جاءه أحد وهو يصلي ليسأله عن حاجته ويلقاه بالتحية.

يتقي الغضب جهده ويعالجه إذا أحسه بعلاج من الروح فيقبل على الصلاة والتسبيح، أو بعلاج من الجسد فيجلس إذا كان قائمًا ويضطجع إذا كان جالسًا، ويأبى الحركة التي ينزع إليها وهو غضبان.

آدابه الاجتماعية

وكان في آدابه الاجتماعية قدوة الرجل المهذب في كل زمان. فلم يرقط ماداً رجليه بين أصحابه، وتعود كلما زار أحدًا ألا يقوم حتى يستأذنه، ولم يكن ينفخ في طعام ولا شراب ولا يتنفس في إناء، وإذا أخذه العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه، وربما نهض بالليل فيشوص فاه بالسواك، ولا يزال يستاك ويوصي بالاستياك بعد الطعام والتيقظ من النوم، وكان يتطيب ويتحرى النظافة ويقول لصحبه: «إغتسلوا يوم الجمعة ولو كأسًا بدينار».

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل في شئون عرضية لا تتصل بلباب الذوق والشعور. فيأكلون في جيل بأصابع اليد ويأكلون في الجيل الآخر بالشوكة والسكين، ويخرج أناس بالثياب السود ويخرج غيرهم بالثياب البيض. وهي عرضيات

يقاس بها عرف البيئة ولا يقاس بها تهذيب الطباع ، فلا ضير على الناس أن تختلف عاداتهم باختلاف بيئاتهم من أمة لأمة ومن جيل لجيل . وانما الضير فيما يتناول الطبع السليم والذوق الحسن وهما الخصلتان اللتان كان عليه السلام قدوة فيهما لكل رجل مهذب في كل أمة وفي كل زمان .. فلم يكن يهفو في حق أحد ولم يكن أحد يشكو من محضره بإنصاف ، وذلك هو ملاك التهذيب الكامل في أصدق معانيه ..

صاحب هذا السمت رسول .

وصاحب هذه الآداب رسول ..

وخلاصة سمته وآدابه أنها سماحة في الأنظار وسماحة في القلوب . فالسماحة هي الكلمة الواحدة التي تجمع هذه الخصال من أطرافها ، والسماحة هي الصفة التي ترقت في محمد إلى ذروة الكمال .

ومن يكون الرسول ان كان لا بد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة ؟ الرسول هو الذي له وازع من نفسه في الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملات الناس ، لأن عمل الرسول الأول أن يقيم للناس وازعًا يأمرهم بالحسن وينهاهم عن القبيح ويقرر لهم حدودهم التي لا يتخطونها فيما بينهم ، ومن كان هذا عمله الأول فينبغي أن تكون صفته الأولى - بل صفته الكبرى - أن يستغني عن الوازع وأن يغني الناس عن محاسبته وطلب الحق منه . وهذه هي السليقة الشاملة التي سرت في خلائق محمد وامتزجت بجميع أعماله وأقواله ، فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه في رعاية حق الصغير والكبير ، وصيانة الحرمات للعاجز والقدير .

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول ، لأنها علامة من داخل السريرة .. وليست علامة من خارجها قد تلازم أو تفارق من تعروه ..

وليس للنوع البشري مقياس صحيح يقاس به محمد فيعطيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل .

يعطيه هذه المرتبة من يدين بالاسلام ومن يدين بغير الإسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل .

فليس للنوع البشري أصل من أصول الفضائل يرمي إلى مقصد أسمى وأنبل من

تقديس تلك المناقب التي كان محمد قدوة فيها للمقتدين.

عزيمة الزهد والايمان

وليس أولى بالحب والتبجيل ممن يطلب خير الناس ويزهد في نعمة العيش وهي بين يديه.

فقد ثبت أن محمدًا لم يستمتع بدنياه ولم يشبع ثلاثة أيام تباعًا حتى مضى لسبيله، وقالت عائشة رضي الله عنها: «لقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقوتك» فيقول: «يا عائشة! مالي وللدنيا... اخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا»..

وقالت زوجه أم سلمة تصف ما وجدته في بيته ليلة عرسها: «... فإذا جرة فيها شيء من شعير، وإذا رحى وبرمة وقدر وكعب فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته في البرمة، وأخذت الكعب فأدمته، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه!».

رآه عمر وقد أثر في جنبه حصير فقال له: «يا رسول الله! قد أثر في جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله» فاستوى جالسًا وقال: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا!».

ولقد مات ودرعه مرهونة، ولا ميراث لأهله مما ترك من عقار، وهو قليل..

فما عسى أن يقول قائل في قدر هذا الرجل — آمن به أو لم يؤمن؟

أيقول انه رسول وانه كان يعلم أنه رسول فصدع بأمر ربه واحتمل ما احتمل في سبيل طاعته وفي سبيل اصلاح خلقه؟.

تلك إذن منزلة الأنبياء التي تستوجب له مقام أصفياء الله عند من يؤمن بالله؟.

أم ينكر النبوات ويقول انه رجل أراد الخير وهو لا يعلم أنه رسول ولا أن الله مطالبه برسالته إلى خلقه، ولكنه تجرد لهدايتهم في غير مأرب يناله ولا نعمة ينعم بها لأنه لا يطيق لهم شراً ولا ينتظر في الدنيا ولا الآخرة من جزاء؟.

من قال هذا وغض من قدر رجل يحب الناس ذلك الحب ويغار على هدايتهم تلك الغيرة فهو إنسان ممسوخ الضمير.

فمحمد الرجل في المقام الأول بين الرجال: في المقام الأول بخلقته، وفي المقام الأول بنيته، وفي المقام الأول بعمله، وفي المقام الأول بالقياس إلى المشبهين له في دعوته.

ونرى عن يقين أنه لم يحرم نفسه ذلك الحرمان إلا استزادة لأسباب الإيمان وشحذاً للعزيمة في سبيل ذلك الإيمان، واعذاراً إلى الله وإلى الناس فيما تجرد له من إصلاح.

لأن محمداً لم يكن كارهًا لطيبات الدنيا ولا حاضًا لأحد على كراهتها والاعراض عنها. فإذا قنع بما قنع فإنما فعل ذلك ليرتفع بإيمانه عن ظنه هو لا عن ظنون غيره.. كأنه يخشى إذا استوفى حظوظ النعيم الميسرة له أن يحسب تلك الحظوظ غرضًا من الأغراض التي نظر إليها حين نظر إلى هداية الناس.

فليكن الإيمان إذن موجب كل غرض وكل عمل وكل جزاء... وتلك راحة ضميره، ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهده كله في هدايتهم غير منقوص ولا مظنون.

إذا هدى الناس واستمتع بالعيش خشي أن يحسب المتعة من آماله.

وإذا هدى الناس وكفى كانت الهداية هي جملة الآمال وغاية الآمال.. فلينقص حظه من العيش ليكمل حظه وحظ أمته من إيمانه، وليتم بذلك حسابه لنفسه وحسابه عند الله وحسابه بين الناس.

وما حساب أولئك جميعًا؟

حساب رجل هو وازع نفسه في السر والعلانية، وهو أحق الناس أن يقيم وازعًا للناس.

رجل ولا كمثله الرجال.

محمد في التاريخ

إتصال التاريخ بمحمد

أردنا بالفصول المتقدمة أن نصف محمداً في عبقريته ، أو محمداً في نفسه ، أو محمداً في مناقبه التي يتفق على تعظيمها من يدين برسالته الدينية ، ومن لا يدين له برسالة .

ونريد بهذا الفصل – وهو خاتمة الكتاب – أن نذكر كلمة موجزة عن محمد في التاريخ ، أو محمد في العالم وأحداثه الخالدة . وهو بحث يغنينا فيه الإيجاز ، لأن العالم كله صفحات تنبئنا بمكان محمد فيه .

محمد في نفسه عظيم بالغ في العظمة ، وفاقًا لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بني الإنسان في عصور الحضارة .

فما مكان هذه العظمة في التاريخ ؟ ما مكانها في العالم واحداثه الباقية على تعاقب العصور؟

مكانها في التاريخ أن التاريخ كله بعد محمد متصل به مرهون بعمله ، وأن حادثًا واحداً من أحداثه الباقية لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله .

فلا فتوح الشرق والغرب ، ولا حركات أوروبا في العصور الوسطى ولا الحروب الصليبية ، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب ، ولا كشف القارة الأمريكية ، ولا مساجلة الصراع بين الأوروبيين والأسيويين والافريقيين ، ولا الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات ، ولا الحرب العظمى التي شهدناها قبل بضع وعشرين سنة ، ولا

الحرب الحاضرة التي نشهدها في هذه الأيام ، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه كانت واقعة في الدنيا كما وقعت لولا ذلك اليتيم الذي ولد في شبه الجزيرة العربية بعد خمسمائة وإحدى وسبعين سنة من مولد المسيح .

كان التاريخ شيئًا فأصبح شيئًا آخر ، توسط بينهم وليد مستهل في مهده بتلك الصيحات التي سمعت في المهود عداد من هبط من الأرحام إلى هذه الغبراء .. ما أضعفها يومئذ صيحات في الهواء .. ما أقواها بعد ذلك أثراً في دوافع التاريخ .. ما أضخم المعجزة .. وما أولانا أن نؤمن بها كلما مضت على ذلك المولد أجيال وأجيال ، وما أغنانا أن نبحث عنها قبل ذلك بسنين حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون ..

فتوح إيمان

على أننا نستعظم الأحداث العظام في تاريخ بني الإنسان بمقدار ما فيها من فتوح الروح ، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان .

وجائز أن يقع في الدنيا طوفان أو زلزال فيتصل به من أحداث الزحوف والفتوح ما يبدل في التاريخ ، ويبتعث دوافع الشعوب .

اما غير الجائز فهو أن تنفتح للإنسان آفاق جديدة من عالم الضمير بغير عظمة روحية يوحيها الإيمان ، وبغير رسالة باطنية تسبق هذه الظواهر التي تهول الأنظار .

ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح في كل قلب من قلوب أتباعه عالمًا مغلقًا تحيط به الظلمات ، فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها فإن الأرض لا تزيد بغلبة سيد على سيد أو بامتداد التخوم وراء التخوم ، ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها في هذه الحياة ، فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ، ودنا به مرتبة إلى الله .

يدين بهذه الحقيقة كل من يدين بحقيقة في عالم الضمير .. فمن أنكرها فإنما ينكر تقدم الإنسان كثيراً أو قليلاً في هذه الطريق .

عقد عالم أوربي (١) مقارنة بين محمد وبوذا والمسيح فسأل : « أليس محمد

(١) الدكتور ماركس دودز في كتابه « محمد وبوذا والمسيح » .

Mohammed, Buddha and Christ" by Dr. Marcus Dodds.

نبيًا على وجه من الوجوه ؟ » ثم أجاب قائلاً : « انه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء : فهد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله ، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة ، وانه لخليق في هذه الفضيلة أن يسامي أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بني إسرائيل ، لأنه جازف بحياته في سبيل الحق ، وصبر على الإيذاء يومًا بعد يوم عدة سنين ، وقابل النفي والحرمان والضغينة ، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة ، فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه انسان دون الموت الذي نجا منه بالهجرة ، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على اسكاته وعد ولا وعيد ولا اغراء ... وربما اهتدى إلى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان . الا أن أحداً آخر غير محمد لم يقم في العالم مثل ما أقام من إيمان بالوحدانية دائم مكين ، وما أتيح له ذلك إلا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان . فإذا سأل سائل : ما الذي دفع بمحمد إلى إقناع غيره حيث رضي الموحدون بعبادة العزلة ؟ فلا مناص لنا أن نسلم أنه هوالعمق والقوة في إيمانه بصدق ما دعا إليه » ..

والحقيقة التي يراها المنصف مسلمًا كان أو غير مسلم ، هي هذه :

هي أن فتوح محمد فتوح إيمان ، وأن قوة محمد قوة إيمان ، وأنه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة ، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل ، لقد جاء الاغراء الذي أشار إليه العالم الأوربي وهو داع مهدد في سربه ، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته ، فما حفل بالإغراء وهو بعيد من مقصده ولا حفل به وهو واصل إليه .

جاء سيد قومه عتبة بن ربيعة وهو في مبدأ أمره فقال له واعداً ملاطفًا بعد أن أعياهم تخويفه متوعدين : « يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبًا ونسبًا ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد . فقال : يا ابن أخي ! .. ان كنت تريد بما جئت من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً . وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع

أمرًا دونك ، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا ، وإن كان الذي يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » .
فما زاد عليه الصلاة والسلام على ان أجابه بآيات من القرآن الكريم ثم تركه يعود كما أتى .

ثم أدرك النبي غايه ما سعى إليه فلم يدخل له المال ولا المتاع في حساب ، ولم يكن النعيم المستطاع أفعل في اغرائه من النعيم الموعود ، بل كان النعيم المستطاع فوق ما حلم به عتبة بن ربيعة ، وكان النبي أزهد فيه من زهده في النعيم الموعود فلم كل هذا ؟ لم هذا الجهاد ؟ ولم هذا العناء ؟ ولم هذا الصبر ان لم يكن في سبيل الإيمان ؟ وأي نبي له من الإيمان شفاعة أكبر من هذه الشفاعة ورسالة أكبر من هذه الرسالة ؟ ..
وأي انسان يعرف تعظيم الأنبياء ان لم تظفر نبوة محمد عنده بالتعظيم ؟ .

التاريخ هو فيصل التفرقة بين محمد وشانئيه : حكمه أنفذ من حكم الشانئين والأصدقاء ، وأنفذ من حكم المشركين والموحدين ، وأنفذ من حكم المتدينين والملحدين ... لأنه حكم الله .

وقد حكم له أنه كان في نفسه قدوة المهذبين ، وكان في عمله أعظم الرجال أثرًا في الدنيا ، وكان في عقيدته مؤمنًا يبعث الإيمان ، وصاحب دين يبقى ما بقيت في الأرض أديان .

وسيطلع في الأفق هلال ويغيب هلال ، وسيذهب في الليل قمر ويعود قمر ، وتتعاقب هذه الشهور التي كأنها جعلت لتاريخ ما بين الصدور ، لأن الناس لا يؤرخون بها مواسم الزرع ولا مواعد الأشغال ولا أدوار الدواوين والحكومات ، ولا ينتظرونها إلا هداية مع الظلام وسكينة من الليل : أشبه شيء بهداية العقيدة في غياهب الضمير.

يوم الغار

ستطلع الأقمار بعد الأقمار ، وتقبل السنة القمرية بعد السنة القمرية ، وكأنها تقبل بمعلم من معالم السماء يومىء إلى بقعة من الأرض هي غار الهجرة . أو يومىء إلى يوم لمحمد هو أجمل أيام محمد ، لأنه أدل الأيام على رسالته ، وأخلصها لعقيدته ورجاء سريرته ، وهو يوم التقويم الذي اختاره المسلمون بإلهام لا يعلوه تفكير ولا تعليم .

لم كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ في الإسلام ، ولم يكن يوم الدعوة ؟

ولم لم يكن يوم بدر أو يوم ولادة النبي أو يوم حجة الوداع يوم ابتداء التاريخ .. كل يوم من هذه الأيام كان في ظاهر الرأي وعاجل النظر أولى بالتأريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقيدة في جنح الظلام .

فالرجل الذي اختار يوم الهجرة بدءاً لتاريخ الإسلام قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والإيمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه .

لأن العقائد انما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب : كل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة . أما النفس التي تعقد حقًا ويتجلى فيهو انتصار العقيدة حقًا فهي النفس التي تؤمن في الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء .

وليس يوم أحق بالتأريخ إذن من اليوم الذي هجر فيه النبي بلده ... « إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ، إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » .

ليقل من قال ان التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتًا معروفًا على عهد النبي عليه السلام .. وليقل من قال ان دخول المدينة هو المقصود بالتأريخ من الهجرة ، وهو يوم عظيم .. ليقل من قال هذا أو ذاك ، فإن تاريخ النصر في القرآن ظاهر إذ هو « ثان اثنين » في الغار .

وان ابن الخطاب لنبيل ملهم الفؤاد – سواء كان هو المقترح أو مجيب الاقتراح – حين نظر إلى غار « ثور » ولم ينظر في التاريخ إلى نصر المدينة ولا إلى نصر بدر ولا إلى نصر أحد ولا إلى نصر فارس ، ونظر إلى تلك « الجنود التي لم تروها » وقد نراها نحن الآن.

يوم الدعوة لم يكن يوم الإسلام الأول ، لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل إنسان ويستطيع النكول عنها بعد قليل أو كثير.

ويوم ميلاد النبي لم يكن يوم الإسلام الأول ، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الإسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية ، ولأن محمداً بشر مثلنا في مولده ولكنه سيد الرسل يوم دعا ويوم نجا بالدعوة إلى حيث تنجو وحيث تسود ، وحيث

يكون امتحانها الأول في قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق ، وهما اثنان في غار.

كذلك تؤرخ العقائد والأديان : بالشدة تاريخها وليس بالغنائم والفتوح وانها لشيء في القلوب فلنعرفها إذن حين لا تكون إلا في القلوب ، وحين يكون كل شيء ظاهر كأنه ينكرها وينفي وجودها وهي يومئذ من الوجود في الصميم .

يوم عقيدة ورجاء

ان يوم الغار ليوم له عبرته وعزاؤه في كل يوم ولا سيا أيام القلق والحيرة والانتظار.

انه يوم عقيدة فهو يوم رجاء ويوم نظر إلى المستقبل الذي ينظر إليه من ليس له رضي في حاضر عهده . وحاضر العالم في عهده لا يرضي أحداً من محبيه .. حيثما غلبت الحيرة والقلق في العالم فهنالك أمر واحد كن منه على أتم اليقين . كن على يقين أن العالم يبحث عن عقيدة روحية !

لأنه يضيق بالحاضر وينظر إلى المستقبل ، وكل مستقبل فلا محل له من جوانح الصدور ان لم يكن موضع رجاء ومرجع إيمان ، وغاية سعي يستحق الكفاح .. وفي التاريخ الإنساني كله لم تقم قط حركة عظيمة على الماضي الذي لا مستقبل بعده ، إنما تقوم الحركات العظمى جميعًا على الرجاء في غد محجوب ، أو على شيء يمكن أن يتحقق في حياة الإنسان ، وشيء يبقى أبدًا موضع الرجاء البعيد .

لقد كان علي فتى يستقبل الدنيا وكان أبو بكر كهلاً يدبر عنها يوم أعانا محمد في يوم حراء .. ولكنهما كانا معًا على أبواب غد واحد ورجاء واحد ، يستوي فيه الفتى والكهل والشيخ الدالف إلى قبره ، لأنه رجاء الإيمان لا رجاء العيان .

المستقبل للايمان

ماذا فتح الإسلام لأبي بكر من عوالم الحياة ؟ هل رجع به إلى الماضي أو أقبل به على المستقبل ؟ هل مشى به في حركة إلى أمام أو قفل به في رجعة إلى الوراء ؟ الحق أن الإسلام مثل المستقبل للشيخوخة كما مثل المستقبل للشباب ، وانفصل من حالة لا تبقى ليتصل بحالة يرجى لها البقاء ، وكان يفتح أمام أبي بكر – وليس أمام علي وحده – باب الحياة الصالحة في الدنيا وباب الحياة الخالدة في الآخرة ... وهكذا كل عقيدة فما هي بعقيدة على أي معنى من معاني الاعتقاد ان كان خيرها

كله شيئًا يناله الإنسان في أيامه ... فلا مناص من العقيدة من خير وراء أيام الفناء .

ليذكر هذا جميعه من يتحفزون للنهوض ، ومن يبتغون الحركة ، ويقودون الخطوات المقبلة في عجلة أو أناة .

لن تتحرك أمة إلا إذا فتحت أمامها باب المستقبل ، ولن تلتفت إلى الماضي إلا إذا كان فيه التقاء بالمستقبل ، ولن تعيره الحياة إلا وهو مبعوث من جديد في صورة الخلق الجديد .

ليذكر هذا من يحارون في أمر العالم اليوم وهو غارق في دمائه ، ضائق بحاضره ، معرض عن ماضيه .. فيم يحار؟

في طلب المستقبل ، في طلب العقيدة ، في طلب المسوغ للوجود لأن الوجود وحده لا يكفي الإنسان إلا أن يكون على طبقة مع الحيوان .

فالإيمان للمستقبل .. وعسى أن يكون المستقبل للإيمان .

وعسى أن يجد العالم عزاء باقيًا من يوم الغار ومن صاحب يوم « الغار» .

عبقرية الصديق

تقديم

في تقديم كتابي هذا عن أبي بكر الصديق أقولُ ما قلتُه في «عبقرية محمد» و«عبقرية عمر» وكلِّ كتاب من هذا القبيل، وفحواه أنني لا أكتب ترجمةً للصديق رضي الله عنه، ولا أكتب تاريخًا لخلافته وحوادث عصره، ولا أعنى بالوقائع من حيث هي وقائع ولا بالأخبار من حيث هي أخبار، فهذه موضوعات لم أقصدها ولم أذكر في عناوين الكتبِ ما يعد القارىء بها ويوجه استطلاعه إليها، ولكنما قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية، تعرفنا به وتجلو لنا خلائقه وبواعثَ أعمالِهِ، كما تجلو الصورة ملامحَ مَن تراه بالعين. فلا تعنينا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدي أداءها في هذا المقصد الذي لا مقصد لنا غيره، وهي قد تكبر أو تصغر فلا يهمنا منها الكبرُ أو الصغر إلا بذلك المقدار، ولعل حادثًا صغيرا يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته، ولمحة مصورة أظهر من لمحته. بل لعل كلمةً من الكلمات الموجزةِ التي تجيء عرضًا في بعض المناسبات تتقدم لهذا السببِ على الحوادث كبيرها وصغيرها في مقياس التاريخ.

ومن هنا أن تكون الصورة صادقةً كلَّ الصدق في جملتها وتفصيلها... فليس من غرضنا التجميل الذي يخرج بالصورة عن حقيقتها، ولسنا نريد أن يطلعَ القارىء على تلك الصورةِ فلا يعرفها ولا يعرف أبا بكر منها، ولكن تجميل الصورة شيء، وتوقير صاحبها شيء آخر، فإنك إذا صورت أبا بكر ورفعت صورته مكانًا عليًّا لم تكن قد أضفت إليه جمالاً غير جماله أوغيَّرت ملامحَه النفسية بحيثُ تخفى على من يعرفها، فهذا هو التوقيرُ الذي لا يُخلُّ بالصورة ولا يعاب على المصور، وليس هو بالتجميل المصطنع الذي يُضِلُّ الناظرَ عن الحقيقة.

فكل فضيلة أثبتناها لأبي بكر في هذه الصفحات فهي فضيلته التي لا نزاعَ فيها، وكل عمل استطاعه ووصفناه بقدرته فقد استطاعه بغير جدال، وما مِن عَمَل لم يعمله قلنا إنه قد عمله، ولا من قدرة لم تظهر منه جعلناها من صنوف قدرته، ثم يتوسمه القارئ بعد هذا فيرى صورة مميزة بين صور العظماء من أمثاله، فهو محمود موَقَّر وعمر ابن الخطاب في صورته محمود موقر، ولكنهما مع ذلك لا يتشابهان ولا يتراءى أحدهما في ملامح الآخر، وهذا قصاراك من صدق الصورة في تمييز الرجل بين نظرائه، وفي تمثيله بما فيه وما ليس فيه.

إنك حين تعدد ثروة رجل فتقول: إنه صاحبُ عشرة بيوت، لا يلزمك بعد ذلك أن تقول: ولكنه ليس بصاحب أرض زراعية ولا أوراقٍ ماليةٍ ولا معاملَ صناعية ولا مرتبات حكومية، وإذا أنت سكتَّ عن هذا قاصداً أو غير قاصد لم يجز لأحد أن يلومك أو يظنَّ بك تعمد الإخفاء والسكوت، فحسبُك أنك ذكرت ثروته الصحيحة ولم تُضِف إليه ما ليس من ماله لتكون قد أعلمتَ من يريد العلم بثروته غاية ما ينبغي أن يعلم.

وكذلك الشأن في ثروات النفوس حين يحصيها المقدِّرون: تصدق إن ذكرت له ما يملك، ولا يفوتك الصدق إن فاتك أن تحصيَ كل ما ليس له بملك، فليس هذا بغرض من أغراض الإحصاء أو التعريف.

ومذهبنا الذي نتوخاه في الكتابة عن العظماء الذين حسنت نياتهم في خدمة الإنسان أن نوفيهم حقَّهم من التوقير، وأن نرفع صورهم إلى مكان التَّجلَّةِ، وإن لم يمنعنا هذا أن نَصدقَهم الوصف والتصوير وقد عبرت عن هذا المذهب شعرًا قبل ثلاثين سنة فقلت من أبيات:

لا تَلحُ ذَا بَأْسٍ وَذَا هِمــــــةٍ ... عَلَى ذُنُوبِ العُصبَةِ الغُلَّــــــبِ
فَلَيسَ مِقْيَاسُكَ مِقْيَاسَهُــم ... ولا همُ مِثْلَكَ في المَــــــأرَبِ
انظُر إلىٰ مَا خَلفُوا بَعْدَهُــــم ... مِنَ المَعَالي ثمّ لُمْ واعْتَـــــبِ
مَنْ رَكِبَ الهائِلَ مِنْ أمْـــرِهِ ... فَعُذْرُهُ في ذَلِـكَ المَرْكَـــــبِ

ونحسب هذا المذهب في زماننا هذا أوجب مما كان في الأزمان الغابرة ، لأن الأسباب التي تَغُضُّ من وقار العظمة لم تزل تتكاثر منذ القرن الثامن عشر إلى الآن ، وهي مما يحدث عفوًا في بعض الأحيان ، ومما يأتي قصدًا في أحيان أخرى ، وقد تفيد الاشارة إليها في اتقائها إذا كان إلى اتقائها سبيل .

بدأت هذه الأسباب بفهم سيىء للمنازعات التي شجرت بين رجال العلم ورجال الدين منذ النهضة العلمية الحديثة . فوقر في بعض الأذهان أن العلم الحديث قد ألغى ما قبله من جهود المصلحين وطلاب المعرفة الإلهية والدنيوية ، وخلط أناس بين دعاة الأديان الذين أخلصوا العقيدة في الإصلاح وبين رجال الأديان الذين استَغَلوا العقائد وتعمدوا إنكار الحقائق ووقفوا بعنادهم ولجاجتهم عقبة في طريق التقدم والتهذيب .

فالمصلحون من عظماء الأديان أهل لكل تعظيم واعتراف بالجميل ، لا يعيبهم أنهم سبقوا عصر العلم الحديث ، بل يُزكّيهم ذلك ويضاعف حقهم في الثناء وعرفان الجميل ، ويدل على أن الحاجة إليهم كانت أَمَسَّ وألزم وأنهم كانوا في خدمتهم الإنسانية أقدرَ وأعظم ، مع ما هو مفهوم من الفارق بين حاجة الناس إلى الدين وحاجتهم إلى العلوم . فهذه حاجة ذهنية وتلك حاجة حيوية أو روحية لا تغني فيها علوم العلماء .

ثم جاءت الديموقراطية وأساء بعض الناس فهمها كما أساءوا فهم النزاع بين العلم والدين ، فظنوا أن حرية الصغير تجعله في صف الكبير ، وأن المساواة القانونية تلغي الفوارق الطبيعية ، وأن الثورة على الرؤساء المستبدين معناها الثورة على كل ذي مكانة من العظماء ، وهو وَهْم ظاهر البطلان ولكنه قد سرَى مسراه إلى الأذهان ، فكثر التطاول على كل عظمة إنسانية ، وفشت بدعةُ الاستخفاف والزراية حتى أوشك التوقير لمن يستحق التوقير أن يعاب .

ثم جاءت الشيوعية وهي قائمة على أن الأبطال صنائع المجتمع وليسوا بأصحاب الفضل عليه ، وأن تعظيم الأبطال الغابرين يصرف الناس عن عيوب النظم الاجتماعية التي أنشأت أولئك الأبطال فخدموها قاصدين مدبرين أو على غير قصد منهم وتدبير ، وأفرط الشيوعيون في تلويث كل عظمة يؤدي توقيرها إلى نقض مذهبهم ومخالفة دعوتهم ، حتى بلغ من سخفهم في هذا أنهم غيّروا أبطال الروايات في مسرحيات شكسبير وأمثاله

فعرضوا «هملت» على المسرح لئيما ماكرا سيِّىء النية على خلاف ما صوره الشاعر، لأن تصوير أمير من أمراء القرون الوسطى في صورة حسنة يُخِلُّ بما قرروه عن النظم الاجتماعية والسياسية في تلك القرون.

وتكاثرت على هذا النحو أسباب الغض من العظماء حتى صحَّ عندنا أن العظمة في حاجة إلى ما يسمى «برد الاعتبار» في لغة القانون، فان الانسانية لا تعرف حقًّا من الحقوق إن لم تعرف حقَّ عظمائها، وإن الإنسانية كلَّها ليست بشيء إن كانت العظمة الانسانية في قديمها أو حديثها ليست بشيء.

ومن ثمَّ مذهبنا في توقير العظمة مع التفرقة بين التوقير المحمود والتجميل المصطنع الذي يعيب المصور ويضل الناظر إلى الصورة. فليس لنا أن نُثبت جمالاً غير ثابت، ولكن لنا – بل علينا – متى أثبتنا الجمال في مكانه أن نرفع الصورة إلى مقام التوقير.

قال زميلنا الباحث الفاضل الأستاذ أحمد أمين من نقده لكتاب هيكل (باشا) في الصِّدِّيق وكتابي في عبقرية عمر: «... بقيت مسألة هامة كثيرًا ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها، وهي أن العظيم مهما عظم له خطآت، وإلا ما كان إنسانًا والعصمة لله وحده. فهل واجب المترجم له أن يعرض لكل ذلك في تفصيل، فيذكر كل ما له ويَشِيد بذكره ويذكر خطآته وينقدها، ويعلِّم بذلك درسًا في نواحي مجده، ودرسًا آخر في مواضع خطئه، أو واجبه فقط تجلية نواحي العظمة والتأويل والدفاع الدائم عن نواحي الخطأ؟ أنا أرى أن الرأي الأول أوجب، متأسيًا بأبي بكر وعمر نفسيْهما، والمؤلفان الفاضلان إلى الرأي الثاني أميل».

والواقع أننا إلى الرأي الثاني أميل كما قال زميلنا الأستاذ، ولكنه الميل الذي نُحِده بما قدمناه من حدود، ونحتج له بما بيناه من أسباب.

ويخيل إلينا أن الأستاذ نفسه يستطيب هذا الميل حين قال في صدر مقاله عن الكتابين: «... إن الأوروبيين قد وجدوا من علمائهم من يشيد بعظمائهم ويستقصي نواحي مجدهم، بل قد دعتهم العصبية أحيانًا أن يتزيَّدوا في نواحي هذه العظمة، ويعمِلوا الخيال في تبرير العيب وتكميل النقص تحميسًا للنفس وإثارة لطلب الكمال. أما نحن فقد كان بيننا وبين عظمائنا سدود وحواجزُ حالت بين شبابنا وجمهورنا

والاستفادةِ منهم ... »

فهذه السدود كثيرة في الشرق، كثيرة في العصر الحاضر حيث كان، وهي التي تُجيز لنا – بل تفرض علينا – أن نوفي العظماء حقهم من التوقير، وأن نصورهم كما خلقهم الله، ثم لا علينا أن نرفع الصورة حيث شئنا بعد الصدق في التصوير.

عباس محمود العقاد

اسم وصفة

عُرف الخليفة الأول في التاريخ بأسماء كثيرة : أشهرها أبو بكر والصدّيق ، ويليهما في الشهرة عَتيق وعبدالله .

وقيل إنه عُرف بهذه الأسماء أو الألقاب في الإسلام والجاهلية على السواء .

عُرف في الجاهلية بلقب الصدّيق لأنه كان يتولى أمر الديات وينوب فيها عن قريش ، فما تولاه من هذه الديات صدّقته قريش فيه وقَبِلَته ، وما تولاه غيره خذَلَته وتردَّدت في قبوله وإمضائه .

وعُرف بالعتيق لجمال وجهه ، من العتاقة وهي الجودة في كل شيء ، وقيل : بل من العِتق ، لأن أمه لم يكن يعيش لها ولد فاستقبلت به الكعبةَ وقالت : اللهم إن هذا عتيقُك من النار فَهَبه لي . فعاش فعرف باسم عتيق ... وقيل غير ذلك : إنه أحد ثلاثة أبناء هم : عتيق ومُعتق ومُعَيتيق ، سموا بذلك تفاؤلا بالعيش والعتق من الموت .

وعرف كما قيل في بعض الروايات باسم عبد الكعبة في الجاهلية ، ثم عبدالله في الإسلام .

وسُمي في الإسلام بالصديق لأنه صدّق النبي عليه السلام في حديث الإسراء ، وبالعتيق لأنه عليه السلام بشَّره بالعتق من النار.

ومن الجائز أنه عُرف بهذه الألقاب على مَحمَلِها في الجاهلية ومحملها في الإسلام . ففي حياته وسيرته قبل الإسلام وبعده ما يُحقق هذه التسمية أو هذا التلقيب .

وُلِد للسنة الثانية أو الثالثة من عام الفِيل ، فهو أصغر من النبي عليه السلام بنحو سنتين ، وهو عبدالله بن عثمان الذي عُرف باسم أبي قحافة ، ويَلتَقِي نسبه ونسب النبي عليه السلام عند مُرَّة بن كَعب ، بعد ستة آباء . وكِلاَ أبويه من بني تَيم ، وهم قومٌ اشتهر

رجالهم بالدَّماثة والأدب، واشتهر نساؤهم بالدَّل والحُظوة، وقيل إن بنات تيم أدل النساء وأحظاهن عند الأزواج. وربما كان مرجع ذلك إلى طول عهد القبيلة بحياة المدينة وأشغالها، وأن اشتغالها بالتجارة كان يقوم على المَودَّة وحسن المعاملة ولا يقوم على بَسطَة النفوذ وصولة الوَفر والغلبة. فبنو أمية - مثلاً - كانوا يتَّجرون وكان زعيمهم أبو سفيان يُرسل القوافل بين الحجاز والشام، ولكنها قوافل أشبه بالحملات والبعوث، معوّلهم فيها على الوفر والوفرة، وليست كذلك تجارة أبي بكر وإخوانه من أبناء البُطون القرشية التي لها شَرف النسب في غير مكاثرة بالعَدَد والعُدّة، ومغالبة بالصَّولة ودهاء القوة، كمغالبة الأمويين.

ومهما يكن من أثر المعاملة الودية وآداب الأسرة والمدنية في بني تيم، فهذه الآداب واضحة في أسرة الصديق رضي الله عنه أجمل وضوح، لم تُذكر لنا قط أسرة كانت في عصره على مودّة أجمل من المودة التي اتصلت بينه وبين أبيه وأمه وأبنائه، مدى الحياة. وقد كان له ابن حارَب في صفوف المشركين، وأوشك أن يكون بينه وبين أبيه قتال، ولكننا إذا تجاوزنا هذه الفَلتة من فلتات السن رجَعنا إلى أُبوَّة لا عقوق فيها بعد اهتداء ذلك الابن إلى الإسلام، كما اهتدى إليه سائر ذَويه.

عاش أبو قحافة حتى رأى ابنه خليفة يرفع صوته على اناس لم يكن في مكة أرفع منهم صوتًا وأعظم خطرًا، وكان مكفوف البصر على باب داره بمكة يوم أقبل أبو بكر إليها مُعتمرًا بعد مبايعته بالخلافة، فقيل له: هذا ابنك: فنهض يَتَلقَّاه، ورآه أبنه يهم بالنهوض فعجل نازلاً عن راحلته وهي واقفة قبل أن يُنيخها، وجعل يقول: يا أَبَت لا تقم! ثم لاقاه والتزمه وقبّل بين عينيه، ولم ينتظر - وهو في نحو الستين - أن يُنيخ لينزل منها، مخافة على ابيه من مشقة النهوض.

ودعا الخليفة بأبي سفيان لأمر أنكره فأخذته الحِدَّة التي كانت تُراجعه في بعض ثورات نفسه، وأقبل يصيح على أبي سفيان وهو يلين له ويسترضيه. فسأل أبو قحافة قائده: على من يصيح ابني؟ فقال: على أبي سفيان! ... فدنا منه يقول له وفي كلامه من الغبطة أكثر مما فيه من الانكار، وفيه من دهاء الطيبة أكثر مما فيه من سهو الشيخوخة: أعَلى أبي سفيان تصيح وترفع صوتك يا عتيق؟ لقد عَدَوت طورك وجُزت مقدارك!

فابتسم أبو بكر والصحابة، وقال لأبيه المُنكِر في رضاه الراضي في إنكاره: يا أبت إن الله رفع بالإسلام قومًا وأذل به آخرين.

وهذه الطبيعة التي لا تخلو من دهائها هي التي ظهرت من هذا الأب الصالح، يوم نعوا إليه رسول الله فقال: أمر جَلَل. وسأل: ومَن وَليَ الأمرَ بعده؟ قالوا: ابنك؛ فعاد يسأل: فهل رضيَت بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم... قال: لا مانع لما أعطى الله، ولا معطيَ لما منع!

بل هذه الطيبة التي لا تخلو من دهائها هي التي ظهرت منه حين هاجر ابنه مع النبي عليه السلام فأقبل على أحفاده يسألهم: ما تَركَ لكم بعد هجرته من المال؟ وهي التي ظهرت منه حين ذهب ابنه يُنفق من ماله لإعتاق الأرقاء الذين عذبهم المشركون فكان يقول: لو أنك إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقت رجالاً جُلدًا يمنعونك ويقومون دونك؟ ويقول له ابنه: يا أبت إني أريد ما عند الله.

ثم عاش الأب الصالح حتى قُبض ابنه العظيم فرد ميراثه منه إلى أحفاده وسأل حين بلغته وفاته وهو يقول: رزء جلل، رزء جلل. فمن وَليَ الأمر بعده؟ قالوا: عمر؛ قال: صاحبهُ... يعني صاحب الأمر أو صاحب الصدّيق، في إيجاز كافٍ كإيجاز ابنه العظيم.

كثير مما في أبي بكر من هذا الأب الصالح: طيبة في يقظة في استقامة، ويزيد عليه ابنه في كل وصف حميد.

الصدّيق الأول والخليفة الأول

في رواية من أشهر الروايات عن مرض النبي ﷺ أن مُؤَذِّنه بلالاً جاءه يومًا ، وقد اشتد به المرض فقال عليه السلام :

مُروا أبا بكر فليُصَلِّ بالناس .

قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ! إن أبا بكر رجل أسِيف ، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس . فلو أمرت عمر؟

فقال عليه السلام مرة أخرى : مروا أبا بكر فليصل بالناس .

فعادت عائشة تقول لحفصة : قولي له : إن أبا بكر رجل أسِيف ، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس . فلو أمرت عمر؟

فأعادت حفصة ما قالته لها عائشة .

وضَجِر عليه السلام من هذه المراجعة ، فقال : إنَّكُنَّ أنتنَّ صواحب يوسف . ثم قال لثالث مرة : مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وروى عبد الله بن زمعة أنه خرج من عند النبي ، فإذا عمر في المسجد وأبو بكر غائب . فقال : يا عمر . قم فصل بالناس . فتقدّم فكَبَّر ، وكان رجلا مجهرًا . فلما سمع رسول الله ﷺ صوته سأل : فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون .

ولام عمر عبد الله بن زمعة قائلا : ويحك ! ما صنعتَ بي يا ابن زمعة ؟والله ما ظننتُ حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمرك بذلك . ولو لا ذلك ما صلَّيت بالناس .

قال ابن زمعة : والله ما أمرني رسول الله ﷺ بشيء ، ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتُك أحقّ مَن حضر بالصلاة بالناس .

وموضع العجب في هذه الرواية تردد السيدة عائشة رضي الله عنها في تبليغ أمر النبي بإقامة أبيها مقامه في الصلاة ، وقد تكرر الأمر أكثر من مرة .

فهذا التردد عجيب من وجوه :

عجيب أن تتردد في تبليغ أمر محمد عليه السلام ، وهو الزوج المحبوب والنبي المطاع .

وعجيب أن تتردد في تبليغه ، وهو تشريف لأبيها بمقام كريم تتطاول إليه الرقاب .

ويزيده عجبًا أن يحدث في شدة المرض والنبي مُجهد يطلب الراحة ، وهي أشد نسائه سهرًا عليه في مرضه ، وأرعاهم له بما يريحه ، ويخفف الجهد عنه .

نعم إن عائشة رضي الله عنها كانت أكثر الناس دالَّة على النبي وأجرأهم على مراجعته ، والتلطف في إبلاغه ما يتَهَيَّب القوم أن يبلغوه فلئن كانت هي أولى الناس أن تطيعه وتبلغ أمره ، لقد كانت كذلك تعلم من مكانتها عنده ما يُبيح لها أن تراجعه وتأمن غضبه ، لدالَّتها عليه وثقته من مضمر حبها له وامتثالها لأمره .

إلا أنها قد بلغت مكان الدالة عند رسول الله بما لها من صفات كثيرة غير الصَّباحة والجمال ، وأول تلك الصفات فرط الذكاء ولطافة الحس وحسن التقدير .

وخليق بمن كانت في مثل ذكائها ولطافة حسها وحسن تقديرها أن تفطن إلى الجد في ذلك الموقف العصيب ، وفي ذلك البلاغ الخطير ..

وهيهات أن تتردد يومئذ عن دلال في غير موضعه ، ولأسباب غير السبب الذي يمكن أن يوحي إليها ذلك التردد ، ولا بدَّ له من سبب عظيم .

ولقد كان له سبب عظيم .

بل هو أعظم الأسباب التي يمكن أن توحي إليها ذلك التردد ، ولولاه لما أقدمت عليه .

وما نحسب أن شيئاً حفظته الروايات التاريخية لنا عن ذكاء السيدة عائشة يدل على قوة ذلك الذكاء ، كما دلَّ عليه ترددها في ذلك الموقف العصيب .

يكفي أن نستحضر اليوم ما قيل عن الخلافة بعد النبي عليه السلام لنعلم مبلغ ذلك الذكاء العجيب في مقتبل الشباب ونُكبر ذلك النظر الثاقب إلى أبعد العواقب ، ونلتمس لها العذر الذي يَجمُل بامرأة أحبها محمد ذلك الحب وأعزها ذلك الإعزاز.

فقد قيل في الخلافة بعد النبي كثير :

قيل فيها ما يخطر على بال الاكثرين ، وما يخطر على بال الأقلين ، وما ليس يخطر على بال أحد إلا أن يَجمحَ به التَّعنت والاعتساف أغرب جماح .

قيل : إن وصول الخلافة إلى أبي بكر إنما كان مؤامرة بين عائشة وأبيها ! .

وقيل : إنه كان مؤامرة بين رجال ثلاثة أعانتهم عائشة على ما تآمروا فيه ، بما كان لها من الحظوة عند رسول الله ، وكان هؤلاء الرجال على زعم أولئك القائلين أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ، وهم الذين أسرعوا - من المهاجرين - إلى سقيفة بني ساعدة ليُدركوا الأنصار قبل أن يتفقوا على اختيار أمير أو خليفة لرسول الله .

وقيل : إن هؤلاء الرجال الثلاثة اتفقوا على تعاقُب الحكم واحداً بعد واحد : أبو بكر فعمر فأبو عبيدة ؛ ولهذا قال عمر حين حضرته الوفاة : لو كان أبو عبيدة حيًّا لعهدت إليه لأنه أمين الأمة ، كما قال فيه رسول الله ، وهذا زعم روَّجه بعض المستشرقين ولَقِيَ بين القراء الأوربيين كثيرًا من القبول ، لأنه شبيه بما عهدوه في أمثال هذه المواقف من أحاديث التدبير والتمهيد وروايات التواطؤ والائتمار.

فالسيدة عائشة مسعودة الحظ لا مِرَاء ، لأنها لم تخالف محمداً قط في أمر خطير، وحين خالفته أو ترددت في تبليغ كلامه في أمر من أخطر الأمور، كان هذا التردد أدَلَّ على مكانتها وفضلها وعلى استحقاقها لمنزلة الإيثار في ذلك القلب العظيم.

فهي قد ترددت لتُبرىء نفسها من القالة ، وتُبرىء ذلك الموقف الخطير من المَظَنَّة ، وتبرىء الخلافة من أسباب الادعاء ، وقد يكون فيها إضعاف وإيذاء .

وأشهدت على نفسها أولى الناس بالشهادة في ذلك الموقف الخطير حفصة بنت عمر رضي الله عنهما .

فإذا علمت حفصة أن عائشة راجعت رسول الله مرتين في تبليغ الأمر إلى أبيها أن يصلي بالناس ، فقد علمت ذلك مَن هي أحق بعلمه من سائر أمهات المسلمين ،

إذ كان عمر رضي الله عنه أحدَ اثنين في حق الخلافة لا يُذكر أحدهُما إلا ذُكر الآخر، كما ظهر ذلك من واقع الأمور، أو كما ظهر من قول عبد الله بن زمعة لعمر: «حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق مَن حضر بالصلاة بالناس».

فتردد عائشة في ذلك الموقف الخطير لم يضر بل نفع، وكان أنفع من إسراعها بالتبليغ، وأول ما نفع به أنه أظهر رغبة النبي إظهارًا لا مجالَ للظنَّة فيه، فكان ذلك من أدعى دواعي الاتفاق على الاختيار وقَطع السبيل على الفتنة والشقاق.

نعم إن رواية من الروايات تزعم لنا أن السيدة عائشة رضي الله عنها ترددت في التبليغ لأنها أشفقت أن يتشاءم الناس برؤية أبيها في مقام يُذكرهم بالخطر على أحب الناس إليهم في ذلك المقام، وتلك سانحة يجوز أن تَسنح لها وهي أشد الناس إحساسًا بذلك التشاؤم ووقعه في نفوس المسلمين. ولكننا إذا سلَّمنا أنها رضي الله عنها قد تعمَّدت الإبطاء في التبليغ، فالسبب الذي أومأنا إليه آنفًا أولى وأليق بالمعهود من ذكائها وخلقها الكريم. لأنها لا تجهد النبي في مرضه ولا تفوّت على أبيها شرف الخلافة حذرًا من التشاؤم وحده، ثم هي لا تدعو حفصة إلى تعريض عمر لموقف تصون عنه أباها. فإن كان تعمُّدٌ للإبطاء في التبليغ فذلك السبب الذي أومأنا إليه آنفًا أحق الأسباب أن يَرجُح على غيره لتفسير ذلك الإبطاء، فهو أدعى أن يَبطُل به العجب ولا يمتنع مع هذا أن يقترن بغيره من الأسباب.

* * *

ويقل العجب من تردد السيدة عائشة كلما ازداد العجب من تلك الفروض والأقاويل التي خاض فيها مَن خاض عن «مؤامرة» الخلافة المزعومة، وليس لها سندٌ من التاريخ، ولا من التفكير القويم، ولا من المعهود في أخلاق الرجال والنساء الذين عُزيت إليهم تلك المؤامرة بغير بَيِّنَة قاطعة ولا ظن راجح.

فليس في شيء رواه الرواة عن الخلافة بعد النبي عليه السلام كلمة واحدة تُرجِّح تلك الفروض والأقاويل، سواء كان قائلها ممن أسرعوا إلى بيعة الصدِّيق أو تباطأوا في بيعته، أو قضوا حياتهم ولم يبايعوه.

وليس في شيء من خلائق أبي بكر وعمر وأبي عبيدة التي عهدها الناس منهم

في حياة النبي أو بعد وفاته ما يأذن لمتوَهِّم أن يتوهم فيهم التآمر على خلافته وهو بقيد الحياة ، دون أن يطلعوه على جليلة أو دقيقة مما يفكرون فيه .

وليس في سيرة أبي بكر وعمر بعد أن وليا الخلافة ما ينم على طمع في السطوة ، وحرص على زَهو الملك يغريهما باستباحة ثقة النبي في حياته بما لا يليق . وهو عندهما بمكان من التجلَّة والحب لا تتطرق إليه الشكوك ولا ترتفع إليه الشبهات .

وعلى نقيض ذلك تَدُل الحوادث والروايات التاريخية على أن الأمر قد وقع منهم جميعًا موقع المفاجأة التي لم يتدبروا فيها إلا بعد وقوعها ، ولم يبرموا فيها الرأي على نحوٍ من الأنحاء قبل اجتماع الأنصار بسقيفة بني ساعدة .

فالأقوال تتفق – أو تكاد تتفق – على أن أبا بكر لم يكن قريبًا من النبي عليه السلام يوم أمر النبي بلالاً أن يدعوه إلى الصلاة بالناس ، ولو كان بينه وبين السيدة عائشة اتفاقٌ في هذا الصدد لكان اقترابه من المسجد أو بيت النبي في تلك اللحظة لازمًا كل اللزوم لإنجاز ذلك الاتفاق ، وإلا توجهت الدعوة إلى غيره وخرج الأمر من أيدي المتفقين .

وقد توفي النبي عليه السلام وليس في أصحابه الأقربين مَنْ كان يتوقع وفاته ، فتركه أبو بكر بعد الصلاة وهو يقول : يا نبي الله ! إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نُحب واليوم يوم بنت خارجة ، أفآتيها ؟

فأذن له النبي في الانصراف : وخرج أبو بكر إلى « السُّنح » حيث كان يقيم .

أما عمر فقد دهش لِنَعي النبي تلك الدهشة التي لم يكن لها على أهْبة ، ولو كان على أهبة لها لقد كان الأحْرَى أن يؤكد الوفاة ولا يستغربها ، تمهيداً لذلك الاتفاق المزعوم الذي سيتلوها .

وبلغ أبا بكر وعمر أن الأنصار مجتمعون في سقيفة بني ساعدة لاختيار الخليفة منهم ، فخرجا إلى السقيفة على غير اتفاق بينهما أيهما الذي يخاطب القوم . فكان عمر يخشى حِدَّة أبي بكر فيهيء في نفسه كلامًا يقوله ، وكان أبو بكر يخشى حدة عمر فيستمهله ويخاطب القوم قبله ، وليس في ذلك دليلُ اتفاق قديم .

وكان لقاؤهما أبا عُبَيدة يومئذ لقاء مصادفة في الطريق . وجاء في رواية مشهورة

أنَّ عمر فاتح أبا عبيدة قبل ذلك فقال له : أبسط يدك فلأبايعك . فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله. فقال له أبو عبيدة : ما رأيت لك فهّةً (١) قبلها منذ أسلمت. أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين! فإذا صحَّت هذه الرواية فهي تنفي ما قيل عن تفاهم هؤلاء الرجال الثلاثة على مبايعة أبي بكر وتعاقب الخلافة بعده ، وقد يكون عمر فاتَح أبا عبيدة عازمًا على مبايعته ، أو فاتحه لاستطلاع ما عنده من الرأي والرغبة ، فعلى كلتا الحالتين لا تفاهم مِن قبل على ذلك الرأي ولا اتفاق.

هكذا تَلقَّى الصحاب الأجلاء نعي النبي ، وهكذا كانوا في أثناء شدة المرض عليه فمتى كان التفاهم المزعوم ؟ أقبل أن يمرض رسول الله يعقل عاقل أن يجتمع صفوة أصحابه والمؤمنين برسالته للتآمر على وراثته واغتنام موته ؟ إن جاز في عقل عاقل هذا ، فمن أدراهم إذن أن القرآن الكريم لا يوحي برأي في الخلافة غير الذي رَأوْه ؟ ومن أدراهم إذن – سلفًا – أن النبي عليه السلام يفارق هذه الدنيا ولا يُوصِي في أمر الخلافة بوصاة يشهدها الناس عامة وتخالف ما اتفقوا عليه ؟

إن الأمر لم يكن قابلا لأن يحصل فيه غير ما حصل ، بعد حسبان كل حساب ، واستقصاء كل فرض ، وتمحيص كل رواية .

ولم يكن فيه اتفاق مدَبَّر على صورة من الصور ، وإنما هو كما قال عمر رضي الله عنه : « إن بيعة أبي بكر كانت فَلْتة ... ألا وإن الله وقى شرها » .

وما حاجة الأمر إلى تمهيد وقد كان في غنى عن التمهيد ؟

لقد كان اختيار ابي بكر للخلافة « خيرة الواقع » الذي لا يحتاج إلى تدبير ، بل يقاوم كل تدبير.

فمن غير أبي بكر كانت تجتمع له الشرائط كما اجتمعت له ، وتتلاقى عنده الوجهات كما تلاقت عنده ؟

كانت تجتمع له شرائط السن ، والسبق إلى الإسلام ، وصحبة النبي في الغار ، والمودَّة المرعية بين أجِلاَّء الصحابة ، ومعظمهم ممن دخلوا في الدين على يديه .

وكانت أمَارات استخلافه ظاهرة من طلائعها الأولى قبل مرض النبي عليه

(١) الفهة : الزلة .

السلام بسنوات . فكان أول أمير للحج بعث به النبي عليه السلام وهو بالمدينة . وكان ذلك سنة تسع من الهجرة ، واتفق في طريقه أنه دعا إلى صلاة الصبح فسمع رغوة ناقة وراء ظهره ، فوقف عن التكبير وقال : هذه رغوة ناقة النبي – ﷺ – الجَدْعَاء فلعله أن يكون رسول الله فنصلي معه . فإذا علي بن أبي طالب على الناقة . فسأله أبو بكر : أمير أم رسول ؟ قال : لا . بل رسول . أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم ببَرَاءة أقرؤها على الناس . فلمّا قدموا مكة قام أبو بكر فخطب الناس محدِّثا عن المناسك ، وقرأ عليٌّ سورة براءة حتى ختمها ، ثم كان يوم عرفة فخطب أبو بكر وقرأ عليٌّ السورة ، وهكذا حتى انتهت المناسك .

وكان قتال بين جماعة من الأوس فذهب النبي عليه السلام يُصلِح بينهم وقال لبلال : إن حضرت الصلاة ولم آت فمر أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس .

وأثبت البخاري عن جُبير بن مطعم أن امرأة أتت النبي ﷺ فأمرها أن ترجعَ إليه . قالت : أرأيت إن جئتُ فلم أجدك ... كأنها تريد الموت . قال : إن لم تجديني فائتي أبا بكر.

وهذه أمارات مشهودة متفق عليها ، وغيرها أمارات شتى بعضها أصرع وبعضها أحوج إلى التأويل ، لا ضرورة لاستقصائها لأنها لا تبلغ في الجزم والتوكيد مبلغ ما قدمناه .

* * *

واقترنت بتلك الأمارات جميعًا أمارات أخرى لا تقل عنها صراحة وتواترًا تدل على رغبة قوية في اجتناب كل ما يُثير العصبية ، ويلبس الأمر على الجهلاء والمغرضين بين دعوة النبوة وطلب السلطان والاستعلاء .

فلا نحسب أن محمداً عليه السلام دل بعمله وقوله ومضامين رأيه على شيء واضح مطرد كما دل على هذه الرغبة القوية ، ولا ظهر منه الحرص على شيء كما ظهر حرصه على تنزيه النبوة من مطامع السيادة الدنيوية ومفاخر العصبيات .

فأبغض شيء كان إلى نفسه الكريمة قول من كانوا يقولون : إن النبوة تمهيد لدولة هاشمية أو وراثة دُنيوية .

ولهذا أثر عنه أنه لم يُوَل أحداً من قرابته ولاية أو عمالة في مكة والمدينة أو في غيرهما .

بل لهذا أصهر إلى أبي سفيان ، واتخذ معاوية كاتبًا للوحي ، وأمر يوم فتح مكة مناديًا ينادي في الناس « ... من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن » ليمحوَ من نفوس بني أمية حزازة العصبية بينهم وبين بني هاشم ، ولا يدع في سرائرهم مجالاً للظن بأنها غَلَبة أسرة على أسرة ، أو بطن من قريش على سائر بطونها.

وقال عليه السلام : « ان هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه ما اقاموا الدين » . ولم يقل « في بني هاشم » أو في بني عبد المطلب ، ولو شاء لقال .

ولا ريب أنه عليه السلام لم يُؤثِر قريشًا بالأمر يومئذ لأنه يؤثر العصبية لبني قبيلته وقومه ، ولكنه آثرهم للحكمة السياسية البَيِّنة التي لا يسهو عنها الهداة المسئولون عن مصائر الأمم في عصر من العصور . فقريش هم اصحاب السيادة في مكة وهي كعبة الإسلام وعاصمة الدول الإسلامية في ذلك الحين . ولن تفلح دولة يكون أهل العاصمة فيها أولَ الثائرين عليها والمنكرين لذويها .

ويغلب على اعتقادنا أنه عليه السلام ترك أمر الخلافة بغير وصية ظاهرة لأنه علم أن الخلافة منتهية إلى مثل ما انتهت إليه ، ولا سيما بعد تقديمه أبا بكر للصلاة بالناس .

ونص على « قريش » ولم يتجاوز ذلك لأنه علم أن قريشًا تتفق على مثل ما اتفقت عليه ، وأن الخلاف إنما يجيء – إن جاء – من جانب الأنصار أهل المدينة . فالحاجة ماسَّة إلى هذا التخصيص لدفع الخلاف المنظور ، ومع هذا التخصيص اللازم وصية مكررة بإكرام الأنصار أوصى بها المسلمين بعده ، وهي وصية معناها الواضح في هذا المقام أنه عليه السلام كان يترقب أن تَؤُول الخلافة إلى المهاجرين فهم الذين تتجه إليهم الوصية بإكرام مثوى إخوانهم الأنصار ، ولولا ذلك لما اتجهت الوصية لفريق منهما دون فريق .

ونقول إن النبي علم بمصير الخلافة على الوجه الذي صارت إليه ، لأننا لا نستطيع أن نفهم أنه عليه السلام ترك هذه المسألة وهو يتوقع فيها الفشل والفتنة ولم يُبرم فيها حكمًا يدفعهما به ما استطاع .

فإذا انحصرت الخلافة يومئذ في قريش فهي صائرة إلى أبي بكر دون غيره ولا حاجةَ إلى تدبير لن يغيِّر مصير الأمور.

وإلا فكيف كانت الخلافة صائرة إلى غير ما صارت إليه وهي محصورة يومئذ في قريش ؟

وإلى من كانت تصير؟

إن الذين تولوْها بعد أبي بكر من صحابة النبي هم عمر وعثمان وعلي ومعاوية . فأي هؤلاء كان أظهر حقًا وأقرب طريقًا وأدنى من الصديق إلى اتفاق المسلمين عليه ؟

أهو عمر؟ لقد كان أصغر من أبي بكر بنحو عشر سنين ، ولم تكن له سابقة في الإسلام وفي صحبة النبي ، ولم تكن ألفةُ الناس له كألفتهم لأبي بكر ، وليس هو بأقوى عصبة منه بين بطون قريش ، وليس هو بالذي يَشغَب على أبي بكر ويعصيه لطمع في الخلافة إذا تقدم إليها بل كان هو أول من بايعه وحثَّ الناس على بيعته . وقال له : أنت أفضل مني . فقال أبو بكر : وأنت أقوى مني . فعاد عمر يقول : وإن قوتي لك مع فضلك ، وكان هذا فصل الخطاب ومرجع الاختيار الذي لا تفويتَ فيه لفضل ولا قوة ، ولا تضييع فيه لفرصة أبي بكر التي لا فرصة بعدها . أما عمر فله بعد ذلك فرصته حين يأتي أوانها .

أفكانت تصير إذن إلى عثمان بن عفان ؟

إن عثمان رضي الله عنه أسلم على يدي أبي بكر ، وقد كانت معه عصبية بني أمية وهي عصبية قوية ، ولكن زعامة تلك العصبية كانت في يد أبي سفيان يومَذاك ولا طريقَ له إلى الخلافة وإن طمع فيها . وتنزه عثمان مع هذا أن يركن إلى تلك العصبية ليزاحم أبا بكر في حق لا ينكره ولا يَنفَسه عليه .

أفكانت تصير إذن إلى علي بن أبي طالب !

إنما كانت تصير إليه بحجة بني هاشم وهي الحجة التي اتقاها النبي جهده كما

قدمنا ، وكان بنو هاشم مع هذا لا يتفقون على اختيار واحد من رؤسائهم الثلاثة العباس وعلي وأخيه عقيل ، ولم يكن عليٌّ بعد هذا وذاك قد جاوز الثلاثين إلا بسنوات قلائل ، وهي عَقَبة من العقبات التي لا يسهل تذليلها في أمة ترعى حق السن ومكانة الشيوخ إلا بوصية ظاهرة من النبي عليه السلام . ولم تكن هنالك وصية من هذا القبيل كما اتفق عليه كل سَنَد وثيق .

أفكانت تصير إذن إلى معاوية بن أبي سفيان .

ما نحسب أن معاوية نفسه قام بخلده أن يرشح نفسه لخلافة النبي في تلك الآونة . ولو توافرت له السن وتوافرت له الذرائع التي تقربه من ذلك الأمل لآثرت قريش بالمبايعة كل بطن من بطونها غير بطن بني أمية ، لأن الخلافة في بني أمية معناها دولة بني أمية ، لاستطاعتهم بالخلافة وقوة العصبية أن يفرضوا دولتهم على سائر البطون وسائر القبائل ... أما الخلافة في بني تَيم ، رهط أبي بكر ، فهي خلافة قريش كلها ومعهم جميع المسلمين ، لتعذر قيام الدولة ببطن واحد من البطون الصغيرة واحتياج الحاكم إلى اتفاق هذه البطون من حوله . ويقال مثل ذلك في بني عَدِيٍّ رهط عمر ، وفي سائر البطون القرشية ما عدا هاشما وأمية .

فإذا كان انتخاب أبي بكر للخلافة هو رأي قريش الذي لا محيدَ عنه ، وهو نِيَّة النبي التي ظهرت من أعماله وإشاراته ، فما الحاجة إلى التدبير بين السيدة عائشة وأبيها ، أو بين الرجال الثلاثة أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ؟ ومن أين يأتي تخيل التدبير ولا موجب له من الفروض ولا من الإسناد ؟

ربما كان الدليل الذي هو أقطع من كل دليل على نفي التدبير المزعوم أن نُقَدِّر أن التدبير لم يحصل قط فماذا كان يحصل بعد امتناعه – أكان يقع في مسألة الخلافة شيء غير الذي وقع ؟ وما هو؟ وما حيلة التدبير في منعه ؟

فإن كان الجواب أن التدبير وتَرْك التدبير يستويان ، وأن الحاجة إليه لا تخطر على بال عاقل ، ففي ذلك غِنًى عن الأدلة الأخرى التي تنقضه وتُلقي به في مراجم الظنون والأوهام .

نظر النبي إلى ذلك كله بالبصيرة الثاقبة التي تكشف له ما لا ينكشف لغيره ،

فسكت بالقدر اللازم ، وأشار بالقدر اللازم ، وعلم أنه قد أشار بما فيه الكفاية ، وأن ما زاد على ذلك فهو زيادة على الكفاية .

وما نشك لحظة في أنه عليه السلام قد أحاط بكل ما يحاط به في هذه المسألة خلال مرضه وقبل مرضه ، وقد اطمأن إلى كل ما يوجب الاطمئنان في تقديره ، وأنه لو رأى حاجة إلى المزيد من التصريح بالقول القاطع لصرّح وقطع بالقول ، لأننا لا نستطيع أن نفهم أنه عليه السلام يترك الإسلام والمسلمين عرضة للفشل والفتنة ثم لا يدفع ذلك بما في وسعه . فاكتفاؤه بما صنع هو الدليل على علمه بما سيحدث واستغنائه عن المزيد من التدبير .

وقد نظر عليه السلام – ولا ريب – إلى كل ما يستحق النظر في مسألة الخلافة وهو يرشح لها أبا بكر ذلك الترشيح الأبوي الذي يؤنس بالرأي ولا يُقحمه على القلوب .

نظر إلى حق أبي بكر كما نظر إلى مصلحة المسلمين .

فحق أبي بكر في قيامه مقام النبي ظاهر ما فيه خلاف ، ولا موجب لِتخطيه إلى غيره على وجه من الوجوه .

ومصلحة المسلمين في ولايته راجحة في كل حساب ، لأن المسلمين كانوا يومئذ أحوجَ إلى عهد يكون امتداداً لعهد النبي حتى يحين وقت التوسع والتصرف ، وأحوج إلى ألفة غير مخشية ولا منفوسة تعوضهم من طاعتهم للنبي بتعاونهم على النصيحة والمودة . وكل أولئك ميسور لأبي بكر قبل تيسره لغيره من جلّة الصحابة الأقربين . فهو في حرْص شديد على الاقتداء بالنبي حرفاً حرفاً وخطوة خطوة لن يكون عهده إلا امتداداً للعهد النبوي حتى تتغير الأحوال فتأذن بالتغيير ، وهو في ألفته واجتماع القلوب إليه خير من يخلف الطاعة بالمودة ويعالج الفرقة والانقسام بالرفق والتؤدة . فإن جدّ ما يدعو إلى التصرف أو يدعو إلى الشدة فهناك الاعوان المخلصون له وللدين ، وهناك المشيرون الذين يقلبون الرأي على جميع الوجوه : فضله مع قوتهم وقوتُه مع فضلهم ، نعم العون ونعم الكفيل باجتماع أسباب الحول والحيلة ، كما ألمع إلى ذلك عمر بن الخطاب .

ثم حانت الساعة التي تهيأت لها مشيئة القدر وتهيأت لها مشيئة الناس على ذلك

النحو المستقيم .

فتم في يوم واحد كل ما ينبغي أن يتم في يوم .

ولاح للوهلة الأولى أن الخطر عظيم وأنه موشك أن يعصف بكل شيء وأن يخرج على كل سواء .

إذ اجتمع الأنصار يتحدثون بحقهم في الخلافة دون المهاجرين ، وهمَّت الفتنة أن تنطلق بغير عنان في طريق لا تُعرف عقباه ، ولكنها فتنة مكبوحة قُدِّر لها ألا تقوى على الانطلاق من باب السقيفة التي نَجَمت فيها .

فكان سعد بن عبادة زعيم القوم مريضاً لا تؤاتيه في ذلك اليوم حركة النفس التي لا غنى عنها في ذلك المقام ، لأنها تعدي بالهيبة والثقة من يستمعون إليه . فحملوه من بيته إلى السقيفة وهو لا يملك زمام عزمه ولا يقدر على الكلام ، فجعل يخاطبهم بلسان القريبين منه وجعلوا يصغون إليه إصغاءهم إلى مريض يشعرون بضعفه لا إلى زعيم يشعرون بقوته وبأسه .

وكان القوم فريقين متنافسين منذ زمن قديم ، وهم الخزرج والأوس وبينهما ملاحاة دائمة تَهُون معها كل ملاحاة بين الأنصار والمهاجرين .

وكانت يقظة عمر وأصحابه أسرع من فتنة القوم . فبلغوا السقيفة في إبَّانها وعالجوا الأمر حق علاجه ، وقال كل منهم كلمة كانت أنفذ من سهم وأقهر من جيش . قال أبو بكر : « إن هذا الأمر إن تولته الأوس نَفَسَتْهُ عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ، ولا تدين العرب لغير هذا الحي من قريش ... نحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تُقضَى دونكم الأمور » وقال عمر : « إن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم » . وقال أبو عبيدة : « يا معشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وآزَر فلا تكونوا أول من بدَّل وغيَّر » .

ونادى أبو بكر القوم : هذا عمر وهذا ابو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا . فقال عمر وقال أبو عبيدة مثل مقالته : « لا والله ! لا نتولى هذا الأمر عليك . فإنك أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذهما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين

المسلمين ، فمن ذا الذي ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك .

« ابسط يدك نبايعك » .

فبايعه زعيم من الأوْس ، بشير بن سعد ، وهو يقول : « كرهت أن أنازع قومًا حقا جعله الله لهم » وقال النقيب أُسَيْد بن حُضير : « والله لئن وليتْها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم نصيبًا أبدًا فقوموا بايعوا ... » .

وبايع عمر وأبو عبيدة فكأنما بايع المهاجرون معهما ، ولم يبق للخزرج الحاضرين عزمُ خلاف ، فتزاحموا على البيعة حتى أوشكوا أن يطئوا زعيمهم المريض ، وماتت الفتنة في مهدها لأنها ولدت بِعِلَّة الموت .

ولدت بعلة الموت فماتت وما اصطدمت بأكثر من ثلاثة رجال ، لم يستعدوا لها بأكثر من استعداد الساعة . بل لعلهم أفلحوا في القضاء عليها لأنهم كانوا أولئك الثلاثة بعينهم ولم يكونوا جمعًا حاشداً من المهاجرين المناظرين فلاحوا للقوم هداة ينصحون ولم يلوحوا لهم غزاة يقتحمون ، وكان ذلك أدعى أن يستمعوا إليهم كما يستمعون إلى الضيف الناصح دون أن تثار فيهم نخوة الغاضب لذِماره ، المطروق عليه في عُقْر داره .

ولو أن سعد بن عبادة كان صحيحًا غير مريض ، وكان الأنصار حزبًا واحدًا غير منقسم ، وكان المهاجرون الثلاثة متخلفين عن الموعد الحاسم ، أو كانوا غير أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، أو كانوا جمعًا كثيرًا يَحفِز العداء والمقاومة ، لجاز أن يتغير مجرى الأمور وأن يكون للتاريخ الإسلامي شأن غير شأنه الذي عرفناه .

ولكننا نخطىء كثيرًا إذا نسينا فضل الأنصار أنفسهم فيما صارت إليه الأمور ، فقد كانت لهم فيه مشيئة مستورة إن لم نقل مشيئة ظاهرة .

كانوا على الأرجح يقضون حق المجاملة لسعد بن عبادة ولا ينوون الزيادة أو يَجدون في الكفاح لانتزاع الخلافة : كانوا مسلمين قبل كل شيء ولم يكونوا طلاب مُلك قبل كل شيء ، وكانوا يحسون ما أحسه المسلمون جميعًا إذ قالوا : إن النبي قد ائتمن أبا بكر على الدين بتقديمه للصلاة فكيف لا يؤتمن على الدنيا ؟ وكانوا

يعلمون أن المهاجرين مقدّمون في القرآن على الأنصار، « والسابقون الأوّلونَ مِن المهاجرين والانصار والذين اتّبعوهم بإحسان » ، فلم يكن إيمانهم بحقهم في الخلافة إيمان مَنْ يغضب لفواتها ويستميت في طلبها ، ولم يكن حرصهم على السلطان أشدَّ مِن حِرصهم على الدين ومصلحة المسلمين ، ولم يكن أملهم فيها إذا نازعتهم قريش عليها بالأمل الذي يطغى على كل تفكير ، فما هو إلا أن أشار بعضهم إلى منازعة المهاجرين حتى قالوا : « منا أمير ومنهم أمير » قبل أن تستفيض بينهم حجج المهاجرين . ثم تمت البيعة فلم يعودوا إلى تَمَحل الاسباب للخروج على صاحب الأمر كما يفعل كل حريص على السلطان لَجُوج فيه .

فهم ولا ريب أصحاب مشيئة فيما صارت إليه الأمور ، على هذا النحو من المشيئة التي قد يجهلها صاحبها وهي حاضرة .

وهم ولا ريب إخوان يطلبون حقًّا في الإرث المشروع إن ثبت لهم حق فيه ، وليسوا بأعداء ينظرون إلى أسلاب العدو ويستحقونها بالغلبة عليها ، كائنة ما كانت ذريعتهم إليها من حق أو باطل .

على أنهم لو كانوا غير ذلك وكان نزاعهم إلى السلطان نزاعًا طاغيًا لا يبالون فيه بالحقوق والحرمات لبطل في هذا النزاع كل تدبير سابق لأبي بكر وصاحبيه ، ولكان مآل الفتنة إلى حكم الواقع الذي لا تغني فيه الخطط السابقة ولا العظات البالغة . إذ قصارى التدبير من أبي بكر وصاحبيه أن يجمعوا حولهم كلمة قريش ورؤسائها وبطونها . فأما أن يُخضعوا بالتدبير من لا يخضع لغير السيف ، وأن يدفعوا بالاتفاق بينهم ما ليس له دافع ، فذلك هو المحال بعينه ، أو ذلك هو الاتفاق على أناس خارجين من نطاق الاتفاق .

وصفوة القول إن خلافة أبي بكر كانت نتيجة لكل مقدمة سبقتها من فعل الحوادث ، أو من فعل أحد عامد أو غير عامد .

وغير هذه الخلافة ما كان ليكون ، إلا الفتنة التي لا يجدي فيها اختيار هذا ولا اختيار ذاك ، ولا يُغني فيها تدبير ولا تقدير .

ولسنا نُحب أن يُفهم من هذا أن أحدًا من كبار الصحابة كان يعاف الخلافة

ولا يَسره أن يُختار لهذا المقام العظيم ، وأن يراه الناس أهلاً للاضطلاع بعبئه الجسيم . فخلافة النبي شرف لا يأباه أحد يحبه ويعظمه ويتتبع خطاه ، وأقل من هذا المقام الأسنى كان حقيقًا عند الصحابة أن يستشرفوا له ، ولا يكتموا طموحهم إليه . جاء أهل نجران إلى النبي عليه السلام فقالوا : « ابعث لنا رجلاً أمينًا فقال : لأبعثن إليكم أميناً حق أمين » فاستشرف لها الناس . فبعث أبا عبيدة بن الجراح .

وروى أبو بكر هذه القصة حيث قال : « قدم إلينا وفد نجران فقالوا : يا محمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويُعطيناه . فقال : والذي بعثني بالحق لأرسلَنَّ معكم القوي الأمين » فما تعرضت للإمارة غيرها . فرفعت رأسي لأريَه نفسي ، فقال : قم يا أبا عبيدة » .

ولقد ساء أبا بكر بعد مبايعته الأولى أن ينقبض أناس عنه فظهر منه الاستياء حيث قال : « أيها الناس ! ألست أحق الناس بها ؟ ألست أول من أسلم ؟ » .

وغير ذلك – أيضًا – لم يكن ليعقله العقل ولا بالذي يجمل بالكريم ، فكل رجل كريم يسوؤه أن ينقبض أناس عنه وهو جدير منهم بغير الانقباض .

ولكن الغبطة بالخلافة شيء والاحتيال لها بالحيلة والدسيسة شيء آخر ، فهذا الذي نُنكره لأننا لم نجد دليلاً واحدًا عليه ، ووجدنا أدلة كثيرة على نقيضه .

كذلك دبر أبو بكر وأصحابه كل ما يُحمد تدبيره بعد قيامه بالخلافة لتوطيد أركانها وحماية الإسلام غوائل عصيانها والتمرد عليها ، وجهدوا أن يفرقوا كل اجتماع يخشون مَغَبّته على وحدة المسلمين . فاقترحوا على العباس بن عبد المطلب أن يجعلوا له نصيبًا يكون له ولعَقِبه من بعده ليمنعوا الاتفاق بينه وبين علي ابن أخيه ، إن سعى إليهما من يسعى إلى التأليب والتخريب ، كما هَمَّ أبو سفيان أن يفعل باسم البطون القوية في قريش : بني هاشم وبني أمية ، وصنع أبو بكر وأصحابه نظائر ذلك في سبيل الوحدة العربية والجماعة الإسلامية ، ولكن الذي صنعوه هو التدبير الواجب الذي لا يضير ، وقد يكون في تركه ضير كبير .

لقد كان أبو بكر الخليفة الأول لأنه كان الصديق الأول ، ولأن شروط الخلافة التي اجتمعت له لم تجتمع لأحد غيره ، وليس له من منازع فيها بين أهل عصره ،

ولأن المزايا التي قد يَرجَحه بها أنداده وقرناؤه لا تضيع على الإسلام بولايته عليهم ومعونتهم إياه . فكان اختياره أصح اختيار عُرف في تاريخ الولاية ، وكانت التوفيقات فيها غنية عن التدبير والتمهيد . فإن لجَّ بعض المكابرين مع هذا في دعوى التدبير فأنْعِم به تدبيرًا ينقطع به الخلاف ، ويتم به أصح استخلاف .

* * *

صفاته

كان أبو بكر في جملة ما وصفوه به أبيض تخالطه صفرة ، وسيمًا ، غزير شعر الرأس ، خفيف العارضَين ، ناتِىء الجبهة ، غائر العينين مَعروق الوجه ، نحيفًا مسترخي إزاره عن حِقْوَيْه (١) حمش الساقين (٢) ، ممحوص الفخذين خفيف اللحم في سائر جسمه .

وكان أجنأ – أي منحني القامة – وقيل في وصف آخر : إنه حسن القامة لا يُلحظ عليه انحناء ، ولعله كان كذلك أيام الشباب ، ولم يرد في أخباره وصف قاطع عن الطول والقصر ، ولكنه على ما يؤخذ من بعض تلك الأخبار كان أميل إلى القصر ، ولا سيَّما أخبار الهجرة مع النبي عليه السلام .

فقد جاء في خبر الهجرة أن النبي عليه السلام «كان على بعير ، وأبو بكر على بعير ، وعامر بن فهيرة على بعير ، فكان رسول الله ﷺ يثقل على البعير فيتحول عنه إلى بعير أبي بكر ، ويتحول أبو بكر إلى بعير عامر ويتحول عامر إلى بعير رسول الله ﷺ ...»

فكان هو أخف من عامر بن فهيرة .

وكان عامر بن فهيرة أخف من رسول الله عليه السلام .

وكان رسول الله كما علمنا من وصفه ربَعة في الرجال فوق القصير ودون الطويل ، ولم يكن بيِّن الامتلاء ، بل معتدلاً لا إلى السمن ولا إلى النحافة ، فلو كان أبو بكر رضي الله عنه أطول من الرَّبعة لما كان أخف كثيرًا من رسول الله ، وأخف كذلك من عامر بن فهيرة ، بحيث يظهر الفرق بينه وبينهما في حركة البعير الذي يتعاقبون ركوبه .

---

(١) الحقو : موضع شد الإزار، وهو الخاصرة. (٢) دقيق الساقين ، خلص من الاسترخاء.

أما صفاته الخلقية فقد اتفقت فيها أقوال واصِفيه ، ودلائل أعماله في الجاهلية والإسلام ، فكان أليفًا ودودًا حسن المعاشرة ، وكان مطبوعًا على أفضل الصفات التي تتألّف له الناسَ فيألفونه ، ومنها التواضع ولين الجانب . فلم يتعال على أحد قط في جاهليته ولا في إسلامه ، وكان في خلافته أظهر تواضعًا منه قبل ولايته الخلافة . فإذا مدحه مادح قال : اللهم أنت أعلم مني بنفسي ، وإذا سقط منه خِطام ناقته وهو راكب نزل منها ليأخذه ولم يأمر أحداً بمناولته إياه . وبلغ من بغضه الخُيلاء أنه كان يبغضها حتى حيث يغتفرها الناس من ربّات الحِجال . فدخل يومًا على السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تمشي وتنظر إلى ذيل ثيابها فقال : يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قالت : ومم ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العُجْب بزينة الدنيا مقَته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فلما نزعت تلك الزينة التي أعجبتها فتصدقت بها قال : عسى ذلك يكفر عنك .

ولم يكن تألّفه الناس محْضَ مجاملة باللسان مما يستسهله معظم المشهورين بالتودد والمجاملة ، ولكنها كانت ألفة النجدة والكرم والسخاء ، فكان كما قال ابن الدُّغنة لقريش ، وقد همّ أبو بكر أن يهجر بلده : « أتُخرجون رجلاً يُكسب المعدوم ويَصل الرحم ويحمل الكلّ ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق ؟ »

فهو ودود كريم لا يضن بماله وجاهه في سبيل الكرم والسخاء .

ومع هذه المودة وهذه الألفة كانت فيه حِدَّة يغالبها ولا يستعصي عليه أن يكبح جماحها . ووصف بها نفسه ووصفه بها أقرب الناس إليه وأصدقهم في وصفه . فقال في خطبة من أوائل خطبه بعد مبايعته : « ... اعلموا أن لي شيطانًا يعتريني فإذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني .. »

وقال عمر بن الخطاب : « وكنت أداري منه بعض الحد – أي الحدة – » وذلك حين أعدّ كلامًا يقوله في سقيفة بني ساعدة ، مخافة أن يحتدّ أبو بكر في ذلك المقام .

وسئل عنه ابن عباس فقال : « كان خيرًا كله على حدّة كانت فيه » .

إلا أنها كانت حدة تنم على سرعة التأثر فيه ، فإذا لم تكن غضبًا يغالبه ويكبحه

فهو سريع التأثر إلى الرحمة والرفق في جملة أحواله ، يميل إلى الحزن والأسى ويعطف على الحزين والأسْوان ، أو كان كما وصفته عائشة رضي الله عنها : « غزير الدمعة وقيذ الجوانح (١) شجي النشيج » ... « أسيفًا متى يقم مقامك -- تخاطب رسول الله -- لا يسمع الناس » .

* * *

وكان في جاهليته وإسلامه وقورًا جميل السَّمْت يغار على مروءته ويتجنب ما يريب . فلم يشرب الخمر قط لأنها مُخلَّة بوقارِ مثلِه ، وسئل : لم كان يتجنبها في الجاهلية . فقال : «كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي ، فإن من شرب الخمر كان مُضيَّعًا في عقله ومروءته » ، ومن مروءته أنه كان يتقي كل ما يورِدهُ موارد الشبهات . دعاه رجل في الجاهلية أن يستصحبه لحاجة يُعينه عليها ، فرآه يمر في طريق غير التي يمر منها فسأله : أين تذهب ؟ هذه الطريق ! .. قال الرجل : إن فيها أناسًا نستحي منهم أن نمر عليهم . قال رضي الله عنه : تدعوني إلى طريق نستحي منها ؟ ما أنا بالذي أصاحبك .

وكان لمروءته يتحاشى السقَط من الكلام ، فلا يتكلم إلا أن يدعوه داع إلى قولة خير فيقولها إذن ويصدق في مقاله . ومن وصاياه لبعض عماله : « إذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضًا »

وقد اشتهر بالصدق في الجاهلية والإسلام ، فكان « ضامن » قريش المقبول الضمان . لا يعد أحدًا إلا وفى وصدّق الدائن والمدين . ووكلت إليه الديات والمغارم فلم يكن يحمل شيئًا منها إلا اطمأن إليه الناس ، فإن احتملها أحدٌ غيره خذلوه ولم يصدِّقوه .

وما امتحن صدقه بشيء إلا كان صدقه أثبت وأقوى . فخطب رسولُ الله ابنته عائشة حين ذكرتها له خولة بنت حكيم . وكان المطعم ابن عديّ قد خطبها قبل ذلك لابنه ، فقال أبو بكر لزوجه أم رومان : « إن المطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه والله ما أخلف أبو بكر وعدًا قط ... » ثم أتى مطعمًا وعنده امرأته ، فسأله :

---

(١) الوقيذ الجوانح : المحزون القلب .

ما تقول في أمر هذه الجارية ؟ فأقبل الرجل على امرأته ليسألها : ما تقولين ؟ فأقبلت هي على أبي بكر تقول : لعلنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تُصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه . فلم يجبها أبو بكر وسأل المطعم بن عدي : ما تقول أنت ؟ فكان جوابه : إنها تقول ما تسمع .

فتحلل أبو بكر عند ذلك من وعده ، ولم يتحلل منه قبل ذلك على ما في نسب الرسول من شرف ، وما في قلبه من إعزاز له يفوق كل إعزاز.

وكانت شجاعته كفاءة صدقه ووفائه بوعده : سواء منها شجاعة الرأي وشجاعة القتال . فلما أسلم لم يبال أن يعلن إسلامه وأن يجهر بصلاته ودعائه ، يصيبه في ذلك ما يصيب ، ولما وجب القتال كان هو أقرب المقاتلين إلى رسول الله في كل غزوة وكل مأزق من مآزق الجلاد ، وانهزم كثير من الشجعان في بعض الملاحم الحازبة ، ولم تذكر له قط هزيمة في ساعة من ساعات الشدة ، ولا ثبت نفر قط حيث يصعب الثبات إلا كان هو بين أول الثابتين . ولم تكن وقعة قط أشد على المسلمين من وقعتي أُحد وحنين ، ولَّى فيهما مَن ولَّى واستشهد من استشهد وتردد في صفوف العسكرين أن الرسول عليه السلام كان بين المستشهدين . فذعر الضعيف وقال القوي : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله ...

ففي وقعة أُحد – أشد هاتين الوقعتين – كان أبو بكر في طليعة الثابتين ، ونظر إلى حلقة من درع قد نشبت في جبين صديقه وصفيه ونبيه فشغله أن يصاب هذا المصاب ، وانكب عليها لينزعها ، لولا أن أقسم عليه أبو عبيدة ليسبقنه هو إلى نزعها ، فجذبها بثَنِيَّته جذبًا رفيقًا حتى نزعها وسقطت ثنيته .

* * *

وعلى هذا الحظ الوافر من المزايا الخلقية كان له قسط محمود من المزايا العقلية التي يمتاز بها ذوو الأقدار من أهل زمانه ، فقيل فيه وفي صاحبه أبي عبيدة : إنهما « داهيتا قريش » . وأثر عنه أنه كان أسرع الناس إلى الفطنة لما يوحي به النبي عليه السلام بالتلميح دون التصريح . ومما جاء في الحديث الشريف عن علمه وفطنته أنه عليه السلام قال :

«كأني أعطيت عُسًّا (١) مملوءاً لبناً فشربت منه حتى امتلأت ، فرأيتها تجري في عروقي بين الجلد واللحم ، ففضَلت منها فضلة فأعطيتها أبا بكر. قالوا : يا رسول الله ! هذا علم أعطاكه الله ، حتى إذا امتلأت فضلت فضلة أعطيتها أبا بكر. قال ﷺ : قد أصبتم» .

* * *

وكان لأبي بكر حظ وافر من الملَكة الروحية إلى جانب ما عنده من هذه الملكة الذهنية ، وتلك الملكة الخلقية ، ونعني بالملكة الروحية ما نسميه اليوم بيقظة الضمير.

ومناط الضمير أن يرعى الإنسان حق غيره ، وأن يُحْسِنَ ولا يسيء ، وهي خصلة كانت ملحوظة في أبي بكر من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالدين الذي يأمر بالخير وينهى عن الشر ، ويدعو إلى اتباع الحق واجتناب الباطل . فلما جاء هذا الدين بنَى منه على أساس قديم ، وبلغت به نفسه قصارى ما تبلغه نفس طيبة من رعاية حقوق الناس ، ومن كلف بالخيرات وسخط على الشرور.

قال ربيعة الأسلمي : « جرى بيني وبين أبي بكر كلام فقال لي كلمة كرهتها وندم ، فقال : يا ربيعة ! ردّ عليَّ مثلها حتى يكون قصاصًا . قلت : لا أفعل ! قال : لتقولن أو لأستعدِيَن عليك رسول الله ﷺ . فقلت : ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر وجاء أناس منْ أسلَم فقالوا لي : رحم الله أبا بكر ، في أي شيء يستعدي عليك وهو الذي قال لك ما قال ؟ فقلت : أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؟ هذا ثاني اثنين ، وهذا ذو شيبة في الإسلام . إياكم لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب ، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه ، فيغضب الله لغضبها فيهلك ربيعة . وانطلق أبو بكر وتبعته وحدي حتى أتى رسول الله ﷺ ، فحدثه الحديث كما كان . فرفع إليَّ رأسه فقال : يا ربيعة ! مالك والصديق ؟ فقلت يا رسول الله : كان كذا وكذا ، فقال لي كلمة كرهتها ، فقال لي قل كما قلت حتى يكون قصاصًا فأبيت . فقال رسول الله ﷺ : أجلْ لا ترد عليه ، ولكن قل : قد غفر الله لك يا أبا بكر...»

---

(١) العس : الإناء الكبير أو القدح الكبير.

وهو يكره أن يسيء لأنه يكره أن يُساء ، ويعلم ما تُوقعه الإساءة في النفس من ألم يغلبها على الحلم والأناة حتى في المحضر الذي تُراض فيه على غاية الحلم وغاية الأناة.

بينما رسول الله جالس ومعه أصحابه وَقع رجل بأبي بكر فآذاه ، فصَمَتَ عنه . ثم آذاه الثانية فصَمَت عنه . ثم آذاه الثالثة فانتصر منه . فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر. فقال : أوَجدْت عليّ يا رسول الله ؟ فقال رسول الله : نزل ملك من السماء يكذبه بما قال ، فلما انتصرت وقع الشيطان .

ولا شك أنه درس من الدروس النبوية يداوي به نوازع الحِدة في صاحبه الأمين ، لأنه كان يهيئه لأمر عظيم : أمر ينبغي لمن تولاه أن تؤلمه إساءته إلى الناس فوق ألمه لإساءة الناس إليه .

ومن يقظة الضمير فيه أنه لم يطق أن تستقر في جوفه لقمة يشك في مأتاها : فكان له مملوك يغِل عليه ، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة . قال المملوك : مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ قال : حملني على ذلك الجوع ... من أين جئت بهذا ؟ فأنبأه المملوك أنه مرَّ بقوم كان يَرقِي لهم في الجاهلية فوعدوه ، فلما أن كان ذلك اليوم مر بهم فإذا عرس لهم فأعطوه ذلك الطعام !

قال الصديق : إن كدت لتهلكني .

وأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ – وجعلت اللقمة لا تخرج – فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء ...

فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها .

قيل له : يرحمك الله ! كل هذا من أجل لقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها .

وما نحسب أن يومًا مرَّ به دون أن يُطيع فيه داعي الإحسان ، وسليقة البر والمودة سُئل عنها أو لم يُسأل .

فكان من عادة النبي عليه السلام أن يسأل أصحابه حينًا بعد حين عما ابتدروه من الخيرات فلا يكتموه شيئًا لأنه يسأل ويريد أن يجاب ، ليُتبع جوابهم عظة من العظات ، أو يعقبه بحديث يؤثرونه عنه .

صلى النبي ذات صباح فلما قضى صلاته سأل : أيكم أصبح اليوم صائمًا ؟
قال عمر: أما أنا يا رسول الله فقد بت لا أحدِّث نفسي بالصوم، وأصبحت مفطرًا.
وقال أبو بكر: أنا يا رسول الله ، بت الليلة وأنا أحدث نفسي بالصوم ، فأصبحت صائمًا .

ثم سأل النبي . أيكم عاد اليوم مريضًا ؟

قال عمر: إنما صلينا الساعة ولم نبرح ، فكيف نعود المريض ؟

وقال أبو بكر: أنا يا رسول الله . أخبروني أن أخي عبد الرحمن بن عوف مريض وجع ، فجعلت طريقي عليه ، فسألت عنه ، ثم أتيت المسجد .

ثم قال النبي : فأيكم تصدق اليوم بصدقة ؟

قال عمر: يا رسول الله . ما برحنا معك مذ صلينا فكيف نتصدق !

وقال أبو بكر: أنا يا رسول الله ، دخلت المسجد ، فإذا سائل يسأل وابنٌ لعبد الرحمن بن أبي بكر معه كسرة خبز، فأخذتها فأعطيتها السائل .

فقال النبي : فأبشر بالجنة . أبشر بالجنة !

لا جَرَم يقول عمر: ما سابقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقني اليه .

ولا جرم يقول عليّ : هو السبَّاق . والذي نفسي بيدِه ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا اليه أبو بكر.

* * *

لقد وصف لنا الصديق بأوصاف نستطيع أن نعيدها اليوم بما ألفْناه من أساليب العصر فنراها على وفاق لحقائق تلك الاوصاف ودلالاتها ، وذلك أبْين البيِّنات عن صدق ما وصفوه به في الجاهلية أو الاسلام .

فمن جملة الملامح والسمات التي وُصف بها يتبين لنا أنه كان من أصحاب المزاج العصبي الناشئين في وراثة كريمة ، فهو عصبي كريم النزعات والطوايا .

ولا يندر في أصحاب هذا المزاج أن يتميزوا بحدَّة الذكاء وسرعة التأثر والطموح إلى المثل العليا والحماسة لما يعتقدونه ، والتعلق بما يؤمنون به ويصدقونه ، والتقدم في العقائد والدعوات .

بل هذا هو الغالب فيهم ، كما نشاهد اليوم في كل دعوة دينية أو اجتماعية أو سياسية ، لن تخلوَ من إناس في مزاج أبي بكر وخلائقه الجسدية والنفسية ، ينصرونها ويتشبثون بها ويؤمنون بدُعاتها ولا ينكصون عن سبيلهم أو سبيلها .

وإذا كان الرجل من بيت من بيوت الشرف والوجاهة فشأنه – إذ يكون على هذا المزاج – أن يعتصم بالوقار ودواعيه ، وأن يستزيد من خلائق الصدق والمروءة التي رُكِّبت فيه .

ولم يكن أبو بكر على علمنا صاحب « الشخصية الباطشة » التي تروع الناظر إليها لأول وهلة .

ولم تكن سيادة بيته سيادة جبارين يملكون الناس بالبأس والسطوة .

فسبيله إذن أن يعتصم بصدقه ومروءته ليحفظ بهما كرامة الشرف الذي ينتمي إليه ، وأن يستزيد من ذلك الصدق وتلك المروءة بما يزيدهما في التمكين ويُملي لهما في الثبات والرسوخ ، وأن يتجنب فلتات الطبع واللسان ويتنزه عن كل مخلّ بالوقار مُزْر بالصيان ، لأن وقاره وصيانه هما الحجاز القائم بينه وبين كل مهانة واستخفاف ، ولو كان باطش المظهر أو باطش السيادة لقد يستغني عنهما بعض الاستغناء في بعض الأحيان . أما وهو بعيد من البطش في مظهره وسيادته فليس من شأنه أن يغفل عن سمْت الوقار والمروءة طرفة عين .

وقد عرف الصديق بالحدة وهي أيضًا من خلائق هذا المزاج التي يُغالبها مَن يحرصون على وقارهم ومروءتهم أن يستهدفا لجرائر الحدة أو يندفعا في غير عمل حميد .

إلا أن يُمس الرجل فيما هو من أخص الخصائص التي يقوم عليها مزاجه وتستقيم عليها عاداته وسماته فعندئذ تعسر المغالبة وتبرز الحدة من مكمنها ، وهي على حق إذن في بروزها .

لهذا نرجع الى حوادث أبي بكر في الحدة والصرامة على خلاف عادته من الرحمة والألفة ، فإذا هي كلها مما يمس الصدق والتصديق أو يمس الإيمان ، أو يجري مجرى الاستهزاء الذي يمس الوقار.

بلغ أقصى ما بلغ من غضب وحدة في عقاب الفُجَاءة بن إياس ابن عبد ياليل .

وبقي طوال حياته يندم على حدته في ذلك العقاب ..

وماذا صنع الفجاءة حتى هاج منه تلك الحدة التي يغالبها أقوى مغالبة ؟ أثاره في مكمن الثورة فيه ..

كذبه الأمانة ، وخدعه وخدع المسلمين ، وقتل من قتل من الآمنين ، وقلما غضب إنسان كما يغضب الصادق لصدقه المخدوع ، ولا سيما الخديعة التي فيها غدر وسفك دماء .

جاءه يطلب سلاحًا ليحارب به المرتدين ، فأخذ السلاح وحارب به المسلمين الآمنين ، وعاث في الطريق ينهب ويسلب ويهدر الدماء ، فلما وقع في الأسر لم يجزئه عنده إلا أن يقذف به في النار .

وجاء له رجل من أحبار اليهود اسمه فنحاص في الآية : « من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة » فقال فنحاص مستهزئًا بالله والنبي : « لوكان عنا غنيًّا ما استقرضنَا أموالنا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطيناه ! » .

هذا هو الاستهزاء .

وهذا هو المساس بالإيمان .

وكلاهما لا يطيقه الرجل المؤمن الوقور وتغلبه فيه الحدة إن هو غلبها في غير ذلك من الأمور .

ولقد عاش أبو بكر ما عاش أليفًا مؤلفًا لقومه ، محبًا محبوبًا فيمن حوله ، رحيمًا بالغرباء فضلاً عن الأقربين وفضلاً عن الأبناء ، إلا أن هذا الرجل الرحيم الأليف نهض الى مبارزة ابنه ودعا عليه بالهلاك حين شهد الحرب مع المشركين ، ورأى البرَّ به – غاية البر – أن ينهض هو لمبارزته ولا يدعه لأحد غيره من المسلمين .

كان ذلك يوم بدر ، وكان ابنه عبد الرحمن من أشجع الشجعان بين العرب ، ومن أنفذ الرماة سهمًا في قريش . فتقدم الصفوف يدعو إلى البرازِ ، وقام أبوه يجيب دعوته ، لو لا أن استبقاه النبي عليه السلام ، وهو يقول له : متِّعني بنفسك .

ولما أسلم عبد الرحمن قال لأبيه : لقد أهدفت لي يوم بدر فَضِفْتُ عنك – أي عدلت عنك – ولم أقتلك ، فقال أبوه : لكنك لو أهدفت لي لم أضِف عنك .

وهكذا نعلم أين تبدر الحدة وأين تبدر الصرامة من خليقة أبي بكر المسالم الوديع ، فحيثما روى راوٍ أنه احتد أو اشتد فلنعلم عن يقين أن في الأمر شيئًا يمس التصديق والإيمان ، أو يمس المروءة والوقار ، فلا تأتي الحدة أو الشدة يومئذ في غير موضعها من الطبيعة التي ولد بها ومُرِّن عليها .

رجل له خصائص المزاج العصبي في البِنْيَة الدقيقة

ورجل من عنصر كريم وأرومة طيبة

ورجل له قدم في السيادة واعتصام بالوقار والمروءة .

فكل ما روي عنه فهو موافق لهذه الخصال ، منتظم في هذه الخصائص ، معقول في هذا التركيب في الخُلُق والخليقة ، وهو من ثمَّ دليل على صحة الوصف وصحة السيرة على الإجمال .

ولن يكون هذا الرجل على هذا التكوين إلا كما وصفوه ونقلوا عنه : حديد الطبع ، مستمسك الخلق ، سريع التأثر ، قوي العاطفة ، محبًّا للاعتقاد ، حَمِسًا في اعتقاده ، صادقًا في وعده ، كما نستطيع أن نعرف ممن طُبعوا على هذا المزاج ونراهم بيننا رأي العين ، أو نعرفهم على السماع معرفة اليقين .

ونحن فيما نتوخاه من المضاهاة بين أوصاف السابقين وأوصافنا نحن المعاصرين إنما نريد أن نُفضي إلى المقياس الصحيح للتصديق أو التكذيب ، والمحك الصالح للتشكيك أو التغليب . فإذا كانت الاوصاف التي نقرؤها مطابقة للأوصاف التي نعقلها والتي نعهدها فذلك هو برهان الصحة في كل مقياس .

وإنه لمن واجبنا في عصرنا هذا أن نقضي على آفة العصر التي أوشكت أن تغلب فيه على كل آفة ، وهي الظن الشائع بين المتفيهقين والمتهجمين أن البراعة كل البراعة في التكذيب ، وأن الجهالة كل الجهالة في التصديق ، وليست الجهالة كلها في الحقيقة هنا ، ولا البراعة كلها في الحقيقة هناك ..

فكثيرًا ما تكون الغفلة في التكذيب أعظم من الغفلة في التصديق ، وكثيرًا ما يكون بخْس الشيء الثمين أدل على الغباء وأضيع للمنفعة من إغلاء الشيء البخس ، في تسويم التجارة أو تسويم الضمائر والعقول .

خذ مثلا لذلك حسنات أبي بكر اليومية التي سأله عنها النبي عليه السلام ، فاتفق في يوم سؤاله عنها أنه كان قد أهداها جميعًا على وجه من الوجوه ..

تلمح على وجه المتفيهق المتشكك مسحة التردد وهو يتابع ذلك الخبر كأنه مما لا يجوز ولا يتكرر على هذا المنوال .

فإذا سألته : لم التردد وفي وسعك أن تبلغ بالخبر إلى مقطع اليقين ؟ لم تقف هنا ولا تتابع الطريق إلى منتهاه ؟ إنك لتعلم إذن ان التردد سخف حين يكون اليقين منك على مد اليدين تتناوله إن شئت متى مددتها إليه ..

ماذا يكون إن صدقنا الخبر؟

وماذا يكون إن كذبناه ؟

إن صدقنا الخبر فكل ما هنالك أن إمامًا في الدين مطبوعًا على الكرم والكرامة قد جرى على سنة نبيه وهاديه ، فأصبح صائمًا وعاد مريضًا وتصدق على فقير بكسرة خبز وجدها في يد حفيده .

وليس هذا بممتنع ، بل هذا أقرب الأشياء أن يقع ، ولا سيما إذا أضفناه إلى جملة أخبار أبي بكر من إحسانه في الجاهلية والإسلام ، ومن إنفاقه المال كله في سبيل الخير حتى مات وهو فقير.

فإن كذبنا الخبر فماذا يتقاضانا تكذيبه من جهْد للعقل واعتساف للتفكير والتخمين ؟

إن كذَّبناه وجب أن نعتقد أن أبا بكر رضي الله عنه قد أجاب النبي عليه السلام بغير الحق ، وأنه يتجافى صدق المقال في أقمن المواضع بصدق المقال ، فلو جاز أن يكذب على كل إنسان لما جاز أن يكذب على الرجل الذي صدقه ، وخاطر بالمال والبنين والحياة في سبيل تصديقه . فمن الذي يقبل هذا الفرض ولا يرى أن كل فرض دونه أدنى إلى القبول ؟

ومن الذي يعقل ثم يخيل إليه أن العقل يميل به إلى هذا التكذيب ولا يميل به إلى ذلك التصديق ؟

ونقول : إن هذا جائز لنتمادى مع التفهيق إلى أقصى مداه فما الذي يتقاضانا جوازه مرة أخرى من جهد واعتساف ؟

يتقاضانا أن نقبل شيئًا يقرب من المستحيل .

إن الرجل الذي يجترىء على الكذب في هذا المقام لا ينطبع على الصدق ، ولا يخفى كذبه على الناس ، فكيف به وهو مشهور بالصدق في كل ما قال ، والوفاء بكل ما وعد ؟ وكيف به وهو مشهور بالصدق في شؤون الضمان والمغارم ، وهي شؤون لا يخفى التدليس فيها إلى زمن طويل ؟ وكيف به وهو مشهور بالصدق قبل أن يدين بالدين الذي يحضه عليه ؟

أيجوز أنَّ أكذَب الكاذبين ، بأمر الدين وبغير أمر الدين ، يشتهر بأنه أصدق الصادقين ؟

تصديق هذا غفلة أدعى إلى السخرية من كل غفلة ! ولا سيما إذا لجأ الإنسان إليها فرارًا من القول بأن إمامًا شبيهًا بالأنبياء يصوم أيامه ويعود مرضاه ويعطي مسكينًا كسرة من الخبز ، وهو قد أعطى الألوف وأنقذ المعسرين وضَمِن من ليس له ضمان .

وعلى هذا النحو نتوخى التصحيح والترجيح فيما نأخذ به من أوصاف هؤلاء العظماء . أقرب المقاييس إلينا أن يكون تكذيب الوصف أصعب من تصديقه في تقدير العقل والبديهة ، وفيما نعهده اليوم من حقائق هذه الأوصاف .

وكذلك أوصاف الصديق كما نقلها الناقلون وكما يفهمها اليوم الفاهمون ، فإن الأقدمين ذكروا أوصافًا متفرقة لم يقصدوا أن نجمعها نحن ، ولا قصدوا بعد جمعها أن نعرضها على علم النفس ووقائع الحياة ، كما وضحت لنا بمصباح العلم الحديث .

ولكننا جمعنا تلك الأوصاف وعرضناها على علم النفس فوجدنا بينها ذلك التناسب الذي يقضي بتصديقها ، وينفي الظنة عن استقامتها في جملتها .

فأبو بكر كما وصفوه رجل لا محالَةَ من أصَلاء المزاج العصبي النابتين في منبت الشرف والمروءة ، وقد قالوا : إنه كان يجود بماله ، ومثل هذا الرجل خليق أن يجود بماله ، وقالوا : إنه يحتد ويعطف ، ومثل هذا الرجل معهود في حدته وعطفه ، وقالوا : إنه يروض نفسه على السمت (١) والكرم ، ومثل هذا الرجل لا يستغني عن هذه

---

(١) السمت : الاعتدال والوقار.

الرياضة ولا يعجز عنها ، وقالوا : إنه يشتد في اعتقاده ، وليس فيما شهدناه وخبرناه أشد من اعتقاد مثله .

قالوا ذلك فلم يقولوا عجبًا ولم يقل أحد ما ينقضه وينفيه وله حجة فيه .

فإذا كانت للعقل أمانة فالأمانة في تقرير هذه الأوصاف كما فهمناها بالاستقراء وكما رواها الرواة في مُجمل الأنباء ، وإذا كانت للعقل مهانة فمهانة العقل أن نعطله عن فهم حقيقة ماثلة ، لغير شيء من الأشياء .

* * *

مفتاح شخصية

كان أبو بكر كما رأينا رجلاً عصبي المزاج دقيق البنية ، خفيف اللحم صغير التركيب .

تكوين يغلب على أصحابه أحد أمرين : إن كانوا من كرام النحيزة(١) فهم مطبوعون على الإعجاب بالبطولة ، والإيمان بالأبطال .

وإن كانوا من لئام النحيزة فهم مطبوعون على الحسد والكيد ، وهما ضرب من الإعجاب المعكوس يؤدي إليه انعكاس الطبيعة ، والإحساس بالعظمة في غير معاطفة بينهم وبينها ولا ارتياح إليها .

فالحسد هو إعجاب اللئيم عند شعوره بالعظمة ، أو هو التحية التي يؤديها اللئيم الى العظمة حسبما عنده من التواء وارتكاس (٢) .

ولهذا يصح أن يقال : إن أصحاب البنية الدقيقة والمزاج العصبي مطبوعون على الشعور بالعظمة على كل حال من الأحوال ، فإن كانوا كرامًا شعروا بها مغتبطين مؤيدين ، وإن كانوا لئامًا شعروا بها محنقين مُثَبِّطين ، ويندر فيهم جدًّا من يشذ عن هذه أو تلك من الخصال .

ولقد كان أبو بكر رجلاً كريمًا أليفًا من أهل الخير والمودة ، فلا جرم كان الإعجاب بالبطولة طبعًا متأصلاً فيه ، مقرونًا بكل ما في الإعجاب من حب وثقة وإيمان ، ولا جرم كان هذا الإعجاب «مفتاحًا لشخصيته» مفسرًا لكل ما يلتبس من أعماله ، مميزًا لكل ما يتشابه بينه وبين غيره من الصفات .

قلنا في كتابنا عن «عبقرية عمر» : إن مفتاح الشخصية «هو الأداة الصغيرة التي تفتح لنا أبوابها ، وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت في كثير من

---

(١) النحيزة : الطبيعة.   (٢) ارتكس : وقع في أمر.

المشابه والأغراض. فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب، فاذا عالجته بها فلا حصن ولا إغلاق».

وقلنا: «وليس مفتاح البيت وصفاً ولا تمثيلاً لشكله واتساعه، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخائلها، ولا تزيد».

فشخصية الصديق لها مفتاح قريب المتناول وهو هذا المفتاح، مفتاح الإعجاب بالبطولة.

وهذا الإعجاب بالبطولة هو الوَسْم الذي يتسم به كل عمل من أعماله وكل نية من نياته، وهو السر الذي نراه كامناً في كل رأي يرتئيه وكل قرار حاسم يستقر عليه.

والإعجاب بالبطولة في التاريخ الإنساني شيء عظيم؛ ليس بعد البطولة منزلة يشرف بها الإنسان أشرف من منزلة الإعجاب بها والركون إليها. لأن الفضيلتين معاً لازمتان جنباً الى جنب في كل أمر جليل تم في تاريخ الإنسان، وكل طور من اطوار التقدم ارتقى اليه.

وليقل أصحاب التحليل العلمي ما يشاءون.

وليقل أصحاب القياس المنطقي ما يحبون.

فشاءوا أو لم يشاءوا، وأحبوا أو لم يحبوا، لقد تم بغير التحليل العلمي وبغير القياس المنطقي كثير من العظائم في تاريخ الإنسان، ولم يتم قط – ولن يتم فيما نرى – أمر عظيم واحد بغير البطولة وبغير الإعجاب بالأبطال.

لها برهانها من الواقع كبرهان الأقيسة المنطقية والتجارب العلمية. فالرجل الذي ينهض له البرهان النفساني على الثقة ببطل من الأبطال فيثق به ويعينه على عمله ليس بالرجل الذاهب على غير هدى أو الآخذ بغير دليل. كلا. فعمله ونتيجة عمله كلاهما برهان يغنيه عن مصنع التحليل وعن قضايا المنطق، ويغني العالم كذلك عنهما إذا نظرنا الى العمل ثم نظرنا إلى النتيجة، ونظرنا قبل هذا وبعد هذا الى طبائع الإنسان.

خذ لذلك مثلاً حديث الأعاجيب التي سمعها أبو بكر في أيام الدعوة المحمدية فصدقها لأنه يصدق صاحبها ويركن إليه.

هبه قد ثاب إلى معمل التحليل فقال له المعمل إنه لم يسمع بأمثال هذه الأعاجيب ، وليس لديه مسبار لها يصلح للتأييد أو التفنيد.

وهبه قد ثاب إلى قضايا المنطق فقالت له : إنها لا تعرف هذه الأقيسة ولا هذه المقدمات ولا هذه البراهين.

وهبه قعد في مكانه بعد هذا وذاك ، لأن معمل التحليل لا ينشط به إلى الحركة في هذا الطريق ، لأن قضايا المنطق لا تزجيه إلى الجهاد في هذا الميدان – أفكاسب هو إذن؟ أفعاقل هو إذن؟ أفحق ما انتهى إليه وما انتهت اليه الجزيرة العربية من جراء سكونه وإحجامه؟

إن الجزيرة العربية لا تربح شيئًا بذلك التمحيص المزعوم ، وإن العالم الإنساني لا يزيد عقلا ولا علمًا ولا تحليلاً ولا قضايا منطق بذلك الإحجام الذي استقر عليه. وإن أبا بكر لن يكون خيرًا من أبي بكر ، والدنيا لن تكون خيرًا من الدنيا ، والتفكير لن يكون خيرا من التفكير ، بل كلٌّ من أولئك فاقد وخاسر ومنقوص.

وقصارى ما في الأمر أن رجلا شك فلم يعمل شيئًا ، ولم يدر أحد بأنه شك ولا بأنه لم يعمل ، ولم ينتفع عقل الإنسان بما كان.

أفيفهم فاهم من هذا أننا نقول : إن العمل على خطأ خير من الشك على صواب؟

كلا! .. ليس هذا ما نقوله ، وليس هذا ما نحن مضطرون إلى قوله بضرورة من الضرورات.

وإنما نقول : إن الشك إذن هو الخطأ ، وان برهان خطئه نفساني يقام له وزنه كما يقام الوزن للتحليل العلمي والقضايا المنطقية ، وإنما الخطأ أن تحوج البطولة إلى الدخول في المعمل لتثبت لك قدرها ، وتثبت لك حقها في الإعجاب ، وحقها في العمل ، وحقها في تحويل تاريخ الإنسان ثم تثبت لك قدرتها عليه!

ليس المعمل محل هذا.

محل هذا نفس الإنسان.

وساءت الدنيا إن كانت نفس الإنسان لا تغنيه في تقويم النفوس ، ولا سيما أعظم النفوس.

أفلا يروعني البطل إلا خلال الأنابيق والأنابيب؟

أفلا تملكني نخوة الإعجاب إلا بوثيقة من إيساغوجي؟

أفيروقني الطائر المنطلق فأعلم لمَ يروقني، ويتراءى لي الروح العظيم فأقول: مكانك حتى أرجع إلى مائدة التشريح أو الى قارورة الكيمياء؟!

ما قال ذلك قائل قط أمام روح عظيم.

والسبب واضح مستقيم..

السبب أن الروح العظيم كان قبل ان تكون مائدة تشريح وقارورة كيمياء، وأن الإنسانية ألهمت خيرًا ألا تؤجل الإعجاب بكل روح عظيم إلى أن يظهر المشرحون والمحللون.

ليظهروا «على مهلهم» ولتأخذ العظمة الروحية حقها من الاعجاب قبل إذْنهم، فلا مناقضة للعلم ولا للمنطق في ذلك. إنما المناقضة أن نعلق دوافع النفوس وبواعث الفطرة على شيء لا تتعلق به ولا تتوقف عليه، ولا نخطىء الواقع ثم نخطىء الواقع الصالح ولا سند لنا أوثق من الواقع على كل حال، ولا شفاعة أكرم من شفاعة الواقع الصالح في كل مآل.

أفيقولون إن البديهة قد تخطىء في الإعجاب؟

قد تخطىء ولا جدال..

ولكن كذلك يخطىء العقل، وكذلك تخطىء التجربة، وكذلك تخطىء العلوم وتمضي في خطئها مئات السنين. ولم يقل أحد إن قبولها للخطأ ينفي قبولها للصواب، ولا نسي أحد أنها إذا أخطأت مرة فلها امتحان من العواقب يأبى على الخطأ أن يدوم.

على أن تمحيص القضايا المنطقية أو العلمية شيء وتمحيص الشمائل النفسية شيء آخر. وربما كانت وسائل الصديق أقل من وسائل المحللين والمشرحين في العصر الحاضر في باب القضايا المنطقية أو العلمية. أما في باب الشمائل النفسية فوسائله ليست بأقل من وسائلهم بحال، وقدرته على أن يُحس من حوله عظمة النفس الإنسانية ليست بأقل من قدرة أحد من المحللين والمشرحين.

وهو قد قال: هذه نفس عظيمة لا شك في عظمتها، فالخير في متابعتها، إن لم

يكن بد من افتراق الطريق بينها وبين أعدائها.

وهو فيما قال قد أصاب.

أصاب منطقًا وأصاب علمًا وأصاب حسًا وأصاب بكل مقياس من مقاييس الصواب.

هو فيما قال أصوب ممن يخالفه رأيًا، ولو استند إلى كل حجة من حجج التحليل والتشريح.

وهاديه فيما اهتدى إليه هو إعجابه بالبطولة..

وهو إعجابه بالبطولة التي تستحق الإعجاب، لأن الإعجاب طبقات تتفاوت، كما أن البطولة نفسها طبقات تتفاوت. وقد كان هو من طبقات هذا الإعجاب في أرفع مكان..

لأنه لم يعجب ببطل تروعه منه سطوة العُتاة المتجبرين، ولم يعجب ببطل تروعه منه مظاهر الزخرف والخيلاء، ولم يعجب ببطل تروعه منه جلبَة الصيت الفارغ والمواكب الجوفاء، ولم يعجب ببطل يزدهي بالوَفْر والثروة أو بالعُصْبة أولي القوة.

لا. لم يكن شيء من هذا هو الذي راعه من بطولة محمد عليه السلام، لأن محمدًا عليه السلام لم يكن ذا سطوة، بل كان عرضة للأذى من المسلطين عليه، ولم يكن من أصحاب الزخرف والخيلاء بل كان أعداؤه هم أصحاب الزخرف والخيلاء. ولم يكن وراءه أحد يتبعه ولا معه مال يصل به من يصل إليه، بل كان وحيدًا يطرده الأكثرون، فقيرًا يعينه الموسرون، وأولهم أول صدِّيقيه والمقبلين عليه.

إنما البطولة التي أعجب بها أبو بكر هي البطولة التي ليس أشرف منها بطولة تعرفها النفس الإنسانية: هي بطولة الحق، وبطولة الخير، وبطولة الاستقامة، وهي بعد هذا، وفوق هذا، بطولة الفداء – يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء.

تلك هي بطولة محمد.

وذلك هو إعجاب الصدّيق. خير لبنيَ آدم أن يبقى لهم هذا الإعجاب من أن يزول ويبقى بعده كل شيء، وأي شيء!

ولقد أجدى ذلك الخلق الكريم أكبر جدواه لأنه تهيأ له بسليقته ونشأته وتوشّج تركيبه عليه.

فظهر منه في إيمان القلب، ورويَّة الفكر، وفي سياسته العامة، وفي سياسته الخاصة، وما تشتمل عليه من أدب سلوك وعلاقة بالناس.

أحاط به أناس من المشركين يتهكمون به ساخرين عابثين: هل لك إلى صاحبك؟ إنه يزعم أنه أُسْريَ به الليلة الى بيت المقدس!

وكان أناس قد ارتدوا بعد إسلام لما سمعوا بحديث الإسراء ولم يتبيَّنوه، فأما أبو بكر فما زاد على أن قال: أوَقَد قال ذلك؟ لئن قال ذلك لقد صدق!

فغاظهم منه أنهم لم يبلغوا منه موقع التشكيك فيما أربى عندهم على حدود التصديق، وعادوا يسألونه: أتصدق أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يُصبح؟

قال: نعم! إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خبر السماء في غدوة أو روحة. ثم ذهب إلى النبي عليه السلام فطفق يسمع منه ويصدقه ويقول: أشهد أنك لرسول الله.

وهذا هو البرهان النفساني كما دعوناه، وهو برهان لا خلل فيه من وجهته التي يستقيم عليها، وإن لم يكن هو البرهان الذي تعوده المناطقة والعلماء.

وهنا موضع صالح للتفرقة بين هذه البراهين في ظواهرها، وللتوفيق بينها فيما تنتهي إليه من نُشْدان الحقيقة الكبرى:

إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خبر السماء.

وفحوى ذلك: إني لأصدقه لأنه أهل للتصديق.

هذا هو أساس الإقناع في منطق الإعجاب والإيمان، فإن كان للمنطق أو للتجربة العلمية أساس آخر، فليس معنى ذلك أن الأساسين متناقضان متدابران، وإنما معناه أنهما نحوان مختلفان.

ولكننا إن فرضنا مع هذا أنهما قد تناقضا وتدابرا فليس الخطأ إذن في جانب الصديق، ولكنه على التحقيق في جانب العالم أو المنطيق.

إن قال العالم أو المنطيق: إنني لا أصدق حديث الإسراء ولهذا أبطل الدعوة الإسلامية وأبطل قبلها العظمة المحمدية، فهو المخطىء في برهانه وهو الذي تعدى به

حدود قياسه..

لأنه نظر إلى المسألة في غير جانبها الذي يُنظر إليه، من حيث كان أبو بكر على صواب كل الصواب في نظرته إليها من جانبها الأوفى، أو جانبها الذي هو مناط التأييد والإنكار.

أبو بكر يأخذ النفس العظيمة مأخذًا واحدًا ويصدق الخبر فيها جملة واحدة ولا يجزئها قطعة قطعة وخبرًا خبرًا، فيبطلها كلها بخبر من أخبارها وجزء من أجزائها.

وأبو بكر ينظر الى المسألة في أساسها فيطمئن إليها عند ذلك الأساس ويبني عليه كل ما فوقه من الإضافات والمزايدات، والمسألة في أساسها هنا هي مسألة الصلاح والفساد، ومسألة التوحيد وعبادة الأصنام. ومسألة المقابلة بين الاخلاق الجاهلية والأخلاق التي تأمر بها الدعوة المحمدية، ومسألة الثقة بالمقاصد العظيمة والمساعي الكريمة. أو الثقة بالجهل الشائع والعادات الذميمة.

فإذا كان أبو بكر قد نظر إلى هذا الاساس فهو المصيب.

وإذا كان العالم هو والمنطيق لم ينظر إليه فهما المخطئان، وهما المقيمان للقياس على غير أساس قويم. إذ كان خليقًا بهما أن ينظرا إليه ولا يغفلا عنه وهو أولى بالتقديم والاعتبار سواء أخذناه بالإحساس والإيمان، او بالتجربة وبالتفكير.

تُرى لو مَثُل العالم والمنطيق والصديق أمام عرش «الحق» السرمد بعد ذلك اليوم بعشر سنين فسألهم فأجابوه كل على ما أجملنا آنفًا، فأيهم كان يسخطه وأيهم كان يرضيه؟

يمثُل العالم أو المنطيق بين يدي الحق فيسأله: ماذا سمعت قبل عشر سنين؟

فيقول: سمعتُ مَن رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت المقدس فلم أظفر منه ببرهان.

فيسأله: فماذا صنعت بعد ذلك؟

فيقول: كذّبته وصدقت المشركين، ثم نقضت الدعوة الإسلامية وبقيت حتى اليوم على سنة الجاهلية.

فما يختلف اثنان إذن في الجواب الذي يلقاه ذلك العالم أو ذلك المنطيق، ليقولن الحق له إذن: إنك أخطأت وخالفت العلم والمنطق فيما صنعت لأن تلك المقدمة لا تنتهي بك إلى تلك النتيجة، وحديث الإسراء على أيّ معنى فهمته لن يجعل النفس العظيمة

لغوًا، ولن يجعل عملها العظيم مستحقًّا للإبطال.

ويمثل الصدّيق بين يَديَ الحق فيسأله: ماذا صنعت قبل عشر سنين؟

فيقول: سمعت من رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت المقدس فلم أشك فيما رآه.

فيسأله: ولِم لمْ يخامرك الشك فيه؟

فيقول: لأنني صدقته في أمر السماء فما يكون لي أن أكذّبه فيما دون ذلك.

فيسأله: فلِمَ صدقته في أمر السماء؟

فيقول: لأنني أعتقد فيه الخير ولا أعتقد فيه السوء، ولأنني أعتقد السوء في منكريه ولا أعتقد فيهم الخير.

ليقولَن الحق إذن: إنك أصبت وتأدَّيت إلى التصديق من طريق صالح للتصديق، ووافقت المنطق والعلم أخيرًا وإن لم تأت معهما في الطريق، وإن هذه السنين العشر لتشهد لك بصدق الوعي ولا تشهد به لمن خالفوك: أخذت في المنطق والعلم بالنتيجة ولم تبال بالمقدمة، وأخذ المخالفون إياك بالمقدمة ولم يبالوا بالنتيجة. فأنت في سبيلك أهدى وأنت إلى المنطق والعلم أقرب وأدنى.

أفيفهم فاهم من هذا أننا نَدين بقول القائلين: إن النجاح هو برهان الصلاح؟

كلا! ليس هذا ما ندين به، وليس هذا بالذي يقتضيه ما قدمناه، وكل ما هنالك أننا نقرر حقيقة لا شك فيها حين نقول: إن أبا بكر كان أفهم للعظمة المحمدية ممن أنكروها لأنهم شكوا في حديث الإسراء، وإن المنطق والعلم لا يقضيان بمحاربة الدعوة المحمدية كائنًا ما كان فهم الفاهمين لحديث الإسراء. فإن قال قائل: إن المنطق والعلم يقضيان بذلك فهو يظلم المنطق والعلم فيما ادعاه عليهما بغير برهان؛ وهو الذي يخالف البرهان النفساني في آن.

ولا حاجة بنا هنا إلى إلغاء البراهين العلمية أو البراهين المنطقية، وإنما حاجتنا كلها ألا تلغى البراهين النفسانية؛ لأنها قد تتناول العظائم الإنسانية في عمومها فينطوي فيها العلم والمنطق معًا، وتأتي الأيام بعد ذلك بتفصيل هذا الإجمال وتوضيح هذا الإبهام.

يقول قائل: ومامرجعنا في البراهين النفسانية؟ أنصدق كل من يدعيها؟ أنأخذ بها حيثما رأيناها؟ أندين بالإعجاب حيثما هتف هاتف بإعجاب؟ فأقرب ما عندنا

من جواب أن عظمة النفوس مستحقة للإعجاب كما يستحقه جمال الوجوه.

فماذا عسانا قائلين لمن يسألنا: وما مرجعنا في جمال الوجوه؟... ولا حاجة هنا إلى مرجع، ولا فائدة في المرجع إن وجدناه.

فجمال الوجوه لا يتوقف على مرجعه الذي نسهب أو نوجز في توضيحه... وعظمة النفوس من باب أولى قائمة في الدنيا بغير مرجعها الذي نسوقها إليه، ولا خوف عليها من قلة المراجع عندنا، فهي تأتي حين تأتي بآياتها وبراهينها، وحيثما ظهرت مُعجبة ظهر لها صديقون معجبون، وأقبل عليها مقبلون وأعرض عنها معرضون، ولن ينفعها المرجع شيئًا إن لم يكن فيها ما يغنيها عنه.

وقد كان في وسعنا أن نجتزىء بهذا ولا نزيد عليه. ولكننا نود أن نستريح بالعقل إلى سند ما أمكننا أن نريحه. فغاية ما نستريح بالعقل إليه في هذا الصدد مأخوذ من كلام الصديق نفسه رضي الله عنه. وذلك إذ يقول: «إن خير الخصلتين لك أبغضهما إليك».. فالدعوة التي تزين لنا ما نستنيم إليه ليست بدعوة عظيم، والدعوة التي ترفعنا فوق أنفسنا وتنهض بنا إلى ما يشق علينا هي الدعوة العظيمة في أصدق مقاييسها، وهي التي تفرحنا بالواجب ولا تفرحنا بالهوى، وحسبها ذلك «برهانًا نفسانيًّا» لا نهتدي إلى خير منه، فكل ما عظم بنا فقد كلفنا ما يشق علينا وانتقل بنا الى طور فوق طورنا، فإن كنا على استعداد لهذا الانتقال مالت إليه نفوسنا كما يميل الجسم إلى النمو وإن كان نموه ليكلفه عنتًا عند الولادة، وعنتًا عند التسنين، وعنتًا عند المراهقة، وعنتًا عند بلوغه سن الرشد والاستقلال... وان لم نكن على استعداد كرهناه وحسبنا الراحة في كراهته، وهي في الحقيقة داء يمنع النماء.

مرجع «البرهان النفساني» الصادق في تقدير العظمة أنه سبيل الفداء في طريق النماء، وكل ما تركنا كما نحن أو تحدَّر بنا دون ما نحن فيه فبينه وبين العظمة حجاب، وليس له من ضمائر النفس برهان.

بهذا البرهان النفساني واجه أبو بكر مسألة الدعوة المحمدية من حيث تنبغي مواجهتها، ونظر إليها من جانبها الأصيل الذي تنحصر فيه النظرة الأولى؛ أمحمد إمام خليق بالاتباع؟ أهو بطل جدير بالإعجاب؟ إن كان كذلك فهو مُعجَب به مُتَّبع

إياه ، وإن لم يكنه فلا إعجاب ولا اتباع ... وكل ما وراء ذلك فضول وانحراف عن الجانب الأصيل .

ومحمد بطل جدير بإعجابه ، إمام خليق باتباعه ، فامتلأ به إعجابًا ولازمه اتباعًا ، وعرف طريق الخير من بداءة الأمر أنه أشق الطريقين ، وعوده كرم النَّحيزة من قبلُ أن المجد تكليف وجهد ، وأن الحق صبر وجهاد ، فكانتُ سنَّتهُ فيهما أن يحمل المغارم وأن يأخذ بيد المهيض ، وأن يجور على نفسه وفاء بحق غيره ، فلم تطرقه الدعوة الاسلامية من باب غريب ، ولم يصادفه الجهاد للدين على غير تأهيب وتدريب ، بل زاده يقينًا من طبعه واستواء على نهجه ، وجعله في صدر هذه الدعوة مثل الاعجاب والايمان ، وأبرزه للأجيال عنوانًا « للشخصية » التي يبلغ بها الولاء للبطولة ذروة مجدها وغاية تمامها ، ويستخرج منها كوامن قواها وأحاسن مزاياها ، ويستقيم بها على سوائها ، ويرتقي بها إلى سمائها ، فهو هو أبو بكر في تصديقه وولائه على أحسن ما يكون .

وهو هو الصدّيق .

برهانه في تصديق الغيب كبرهانه في تصديق الشهادة لأن المرجع فيه إلى شخص القائل لا إلى الشيء الذي يقال .

فلما ارتد بعض المسلمين من حيث الإسراء بالنبي إلى بيت المقدس قال أبو بكر قولته تلك : إني آمنت به في أمر السماء فلم لا أومن به فيما دون ذلك ؟ .

ولما تشاور المسلمون في صلح الحديبية رضي مَن رضِيَ وأبى من أبى ، وظهر هنا منطقان متقابلان : منطق أبي بكر يقول : إني أشهد أنه رسول الله فلم لا أتبعه فيما ارتضاه ؟

ولما اختلف المختلفون في بعثة أسامة كان أمام أبي بكر خطط متعددات يختار منها ما يشاء : منها أن يحتفظ بالجيش لحراسة المدينة ، وأن يحتفظ به لحرب أهل الردة ، وأن يبعث به إلى العراق ترصّدًا للفرس المنذرين بالاغارة ، وأن يبعث به حيث أراد رسول الله ، وإن قال بعض القائلين : إن الحال قد تبدَّل ، وان المقام يُؤذن بالمراجعة فيما أراد . فشاء أبو بكر الخطة التي شاءها محمد ، وأبى أن يأذن فيها بمراجعة أو تبديل .

ولما جاءوا بالأعطية يقسمونها كانت التفرقة بين الأقدار أدنى إلى التصرف ،

وكانت التسوية بين الاقدار أدنى إلى الاتباع. وكان عمر يقول: أنعطي من حارب الرسول كما نعطي من حارب مع الرسول؟ وكان أبو بكر يقول: أنؤجرهم على إيمانهم فنعطيهم بمقدار ذلك الايمان؟ فكان عمر عنوان التصرف وكان أبو بكر عنوان الاقتداء.

ومن أصالة الاعجاب بالبطولة فيه أنه كان مثلا في أدب الملازمة وقدرة في أصول المصالحة، وكان بفطرته خبيرًا بالمراسم التي نسميها اليوم «بالبروتوكول» لأن أدبه في توقير العظمة أدب الطبع الذي يهتدي من نفسه بدليل.

انظر إليه وهو يستأذن أسامة في استبقاء عمر بن الخطاب!

انظر إليه وهو يأبى إلا أن يركب أسامة وهو يشيعه سائرًا على قدميه!

انظر إليه وهو ينادي بنته عائشة: يا أم المؤمنين!

هو في كل أولئك المعجَب المؤدَّب بأدب المصاحبة الخبير بمراسم المعاملة، الذي يدري بوحي نفسه كيف يكون التعظيم. وكيف يكون السلوك، وكيف تصان حقوق المراتب والدرجات.

قيل: إنه كان إذا قدم على الرسول وفود القبائل علمتهم كيف يُسَلمون وكيف يتكلمون بين يديه عليه السلام.

وكان عليه السلام يومًا في المسجد قد أطاف به أصحابه إذ أقبل عليّ بن أبي طالب فوقف فسلم ثم نظر مجلسًا. والتفت عليه السلام يرى أيهم يوسع له، وكان أبو بكر على يمينه فأسرع فتزحزح عن مجلسه وهو يقول: ها هنا يا أبا الحسن! فبدا السرور في وجه النبي، وقال: «يا أبا بكر. إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل».

وكأنما خلق أمينًا لسر، فما تعوزه صفة واحدة من صفات الامناء للعظماء الذين يعجبون بهم ويغارون عليهم. ومنها هذا الأدب، ومنها قلة الكلام، ومنها الكتمان عنهم في خاصة شئونهم، وكان أبو بكر في كتمانه عن النبي يتصدى للملام ولا يبوح بكلام.

تأيمت حفصة بنت عمر فعرضها على عثمان، ثم على أبي بكر، ثم خطبها النبي عليه السلام.

قال عمر: «فقال عثمان: سأنظر في أمري، فلبث ليالي ثم لقيني فقال: قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا. ولم يرجع إليَّ أبو بكر شيئًا، فكنت أوْجَد عليه مني على عثمان،

فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه... فلقيني أبو بكر فقال: لقد وجدت عليّ حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ قلت: نعم! قال: لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أنني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ولو تركها رسول الله قبلتها».

فهو في هذا الكتمان قد جرى على خير سنة يجري عليها أمناء الأسرار! أشفق أن يذيع سر الرسول عليه السلام فيبدو له في العدول، فتكون في ذلك ملامة، فآثر هو أن يُلام على أن يُعرض صاحبه للملام.

ومع هذا الكتمان وهذا الكلام النزر كانت له خبرة بكياسة القول هي القدوة العليا لمن جبلوا على مخاطبة العظماء. فسأل رجلاً يحمل ثوبًا: أتبيعه؟ فأجابه: لا عافاك الله... قال: هلا قلت وعافاك الله!!

تلك نفس ملكتها شمائل الوقار والتوقير، وامتزجت بها سليقة الاعجاب والتعظيم، حتى فاضت على جوارحها، وسرت مرتجلة إلى جميع حالاتها، فهي هنالك تستشفها في بواطن الضمير وتلمسها فيما ظهر من الأعمال والمعاملات، وتتلقاها من خلجات الذهن وبوادر اللسان، وهي هنالك مفتاح الشخصية كلها تنفذ بنا إلى خفاياها، وتفتح لنا ما استغلق من أسرارها، وتميز لنا بين خصائصها وخصائص الأنفس التي تناظرها في المقام، وتخالفها في المزاج والتركيب.

لقد كان عمر بن الخطاب معجبًا بمحمد غاية إعجابه محبًّا له غاية محبته ولكن «الإعجاب بالبطولة، كان صفة من صفاته ولم يكن صفته الأولى التي تغلب على جميع الصفات، وخليقته الشاملة التي تنطوي فيها جميع الخلائق. فإذا قضى حق الاعجاب بقيت له بقية للمناقشة والمراجعة، واستطاع أن يجمع بين التوقير والاستفسار والتفسير، فكانت له طريق إلى الايمان تصاحب طريق الاعجاب وتنتهي معها إلى مثل نهايتها آخر المطاف.

أما أبو بكر فقد كان الاعجاب أقرب طرقه إلى الإيمان، وأكبرها على السواء. وهما بعد هذا وذاك ملتقيان.

فإذا كان عمر ثاني المتصرفين بعد نبيِّه وأستاذه وهاديه، فأبو بكر أول المقتدين

بغير سابق، وبغير نظير.

وهما بعدُ قرينان يتقابلان في كل حركة من حركات التاريخ، وكل ظاهرة من ظواهر الأمم، ولا سيما في إبّان الدعوات.

* * *

نموذجان

النموذجان المتقابلان في الملكات والأخلاق ظاهرة معهودة في كل أمة، ولا سيما خلال النهضات التي تبرز فيها كوامن الملكات وتمتحن فيها حقائق الأخلاق.

وعهدُ التاريخ بها في شؤون الضمير كعهده بها في شؤون المعرفة والحكمة، أو في شؤون السياسة والتشريع، أو في كل شأن له أثر بيّن في أعمال الناس.

فاصطلح النقاد على تسمية هذين النموذجين في المعرفة والحكمة بالنموذج الأفلاطوني نسبة إلى أفلاطون، والنموذج الأرسطي نسبة إلى أرسطاطاليس، أو النموذج الذي يتمثل في النظريات ويتعلق بما وراء الطبيعة، والنموذج الذي يتمثل في التجربة والمشاهدة ويتعلق بالطبيعة وظواهرها المحسوسة.

وفي الأدب والفن يوجد المثاليون عشاق المثل الأعلى، والواقعيون طلاب الواقع الذين يأخذون الدنيا كما هي ويصفون الناس على ما هم عليه.

وفي السياسة محافظون ومجددون، وفي التشريع حرفيون ومعنويون، وفي العقيدة أو فِقه العقيدة مقتدون ومجتهدون، وفي ميول الناس ومشاربهم عاطفيون وعقليون، وأصحاب أثرة أو أصحاب إيثار.

وليس المقصود بالنموذجين المتقابلين هنا تقابل الضدين اللذين يتناقضان كما يتناقض الصواب والخطأ، والخير والشر، والعلم والجهل، والهدى والضلال.

ولكن المقصود هو التقابل الذي يتمم فريقًا بمزايا فريق، ويُعين قوة نافعة بقوة أخرى تكافئها، ويزدوج في عناصر الأمة كما يزدوج الجناحان اللذان يستقل بهما الطائر، ولا يستقل بفرد جناح.

هذان النموذجان معهودان، لازمان.

معهودان على الخصوص حيثما نهضت أمة من الأمم بجميع قواها وجميع مزاياها، وجميع ما فيها من عُدد الأهبة والحيطة وبواعث الاقدام والإحجام.

ولازمان في النهضات على الخصوص حيثما تقدمت النهضة في طريقها واحتجب عنها إمامها وهاديها، وأصبح لزامًا بعده أن تتقابل القوى، وتتعاون الجهود.

ومن تمام الدعوة المحمدية أنها كشفت هذه النماذج المتقابلة في الأمة العربية بين عشية وضحاها، فإذا الأمة العربية كلها كأنما هي حشد مستعد بكل عدة، متزوّد بكل زاد.

ظهر فيها أقطاب الشجاعة وأقطاب الدهاء، وظهر فيها المقدمون والمتحذرون، وظهر فيها الخياليون والعمليون، وظهر فيها كلُّ طرف وما يقابله من طرف يوازنه ويستند إليه.

وبين هذه النماذج كلها نموذجان من الطراز الأول، يوشك أن يجتمع فيهما كل ما تفرق في غيرهما من الملكات والشمائل والميول.

نموذجان كبيران تغيب في أطوائهما جميع النماذج الصغار.

وهما نموذج الصدّيق ونموذج الفاروق.

بين هذين الرجلين العظيمين تَقابُل كثير الشعب متعدد الأنحاء: تقابل ينتهي الى التجاذب والإخاء ولا ينتهي الى التدافع والنفار، لأنهما كانا يحومان معًا في نطاق كوكب واحد، أو نظام كوكبي واحد كما تحوم السيارات والأقمار حول شمس واحدة، هي لها جميعًا مركز أصيل لا تنفصل عنه.

وربما دخل في وجوه التقابل بين هذين الرجلين العظيمين أكثر ما أجملناه من الفوارق التي تختلف بها نماذج الناس: العقل والعاطفة، والمحافظة والتجديد، والواقع والمثل الأعلى، وما لا يحصى من الألوان والشيات، والأطراف والحدود.

ولكنها على تعددها واختلافها فوارق متناسبة متوافقة تقبل التلخيص في فارق واحد يطويها من معظم نواحيها، وهو الفارق بين نموذج الاقتداء ونموذج الاجتهاد.

كان أبو بكر نموذج الاقتداء في صدر الاسلام غير مدافع.

وكان عمر في تلك الفترة نموذج الاجتهاد دون مِراء.

وكلاهما كان يحب النبي ويعطيه ويحرص على سنته ويعجب به غاية ما في وسعه من إعجاب..

ولكنهما في ذلك طريقان يتوازيان، وإن كانا لا يتناقضان ولا يتحدان.

وإن بينهما في ذلك لفرقًا لطيف المأخذ عسير التمييز، نحاول الايضاح عنه جاهدين، ونرجو أن نُبرزه بأوفى ما يستطاع له من إبراز، ونحسب أننا موفقون حين نقول: إن تقديم وصف على موصوف يكفي في الابانة عن هذا الفرق الدقيق الذي لا ينفسح حتى يتسع لأكثر من هذا التفريق.

فأبو بكر كان يعجب بمحمد النبي.

وعمر كان يعجب بالنبي محمد.

ونزيد القول إيضاحًا فنقول: إن حبّ أبي بكر لشخص محمد هو الذي هداه إلى الايمان بنبوته وتصديق وحيه.

وإن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذي هداه الى حبه والولاء له والحرص على سنته، وعلى رضاه.

ولهذا كان أبو بكر صاحبًا آمن بصاحبه الذي يطمئن إليه ويحمد خصاله، وكان عمر عدوًّا رده الاقتناع إلى مودة الرجل الذي كان ينكره ويعاديه.

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمدًا فيفهم القرآن، وكان عمر يأخذ بالقرآن أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمدًا حتى يثُوب الى الفهم الصحيح.

هما قريبان جِدّ قريبين.

ولكنهما ليسا بشيء واحد على كل ما بينهما من اقتراب.

أوهما كما قلنا في ختام الفصل السابق: أبو بكر أول المقتدين، وعمر ثاني المجتهدين، وبذلك يتكافآن ولا نقول يتفاضلان.

نعم يتكافآن ويتعادلان، وهذا الذي نريد أن نؤكده ونجتنب فيه سوء الفهم والتفسير. فليست المقابلة بين هذين الرجلين العظيمين مقابلة بين قوة وضعف وقدرة وعجز عن قدرة.

كلا. هذا أبعد ما يخطر على بال أحد يدرك فضائل الرجلين العظيمين ويعرف ما لكل منها من خلق مكين وعمل جليل.

فإن الضعف «سلبي» لا يُجنى منه عمل عظيم.

وصلابة أبي بكر في حرب الردة لم تكن صلابة «سلبية» تقول «لا» في موضع «نعم» ولا تزيد.

ولكنها كانت صلابة تثوب إلى قوة لا شك فيها: قوة مصدرها الاقتداء. هذا لا يهم في وصفها بالقوة وإبعادها من صفة الضعف والعجز عن القدرة... وإنما المهم أنها قوة فعالة، وأنها قوة عظيمة لا مِراء.

ليست المقابلة إذن بين هذين الرجلين مقابلة بين قوة وضعف، وقدرة وعجز عن القدرة.

ولكنها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر، وكلتاهما فعالة، وكلتاهما ذات أثر في الإسلام، وفي العالم، جليل.

وليس من الضروري اللازم أن يكون كل مقتد أقل في الشأن والأثر من كل مجتهد برأيه، فقد يكون من المقتدين من هو أكبر وأقدر من المجتهدين، وقد يكون الاقتداء وكله خير، ويكون الاجتهاد ولا خير فيه.

ولعلنا نوضح هذه الحقيقة بالمثل المحسوس، لأنه أقرب إلى المشاهدة والإقناع.

فالمصابيح الكهربائية منها ما هو أمٌّ مستقل بمفتاحه، ومنها ما هو تابع موصول بمفتاح غيره.

ويتفق مع هذا أن يكون «المصباح الأم» أصغر حجمًا وأضعف نورًا من المصباح الذي يتبع غيره ويضيء بمفتاحه، وهما أقرب مثل محسوس للاجتهاد والاقتداء.

كذلك الكوكب الثابت والسيارات التي تدور حول غيرها: لا يلزم أن يكون كل كوكب ثابت أصغر من كل سيار دائر، وإن تكرر هذا في العيان وسبق إلى الأذهان.

وعلى هذا النحو كان الفرق بين الصدِّيق والفاروق، وبين أول المقتدين وثاني المجتهدين. فهو بين قوة من نوع، وقوة من نوع آخر، ولا محل للضعف في الموازنة بين هاتين القوتين.

* * *

وهناك مقابلة أخرى بين الصدّيق والفاروق لا تفوتنا الإشارة إليها لأنها مقابلة أصيلة فيما تؤول إليه من الصفات والآثار.

ونعني بها المقابلة بينهما في تكوين البِنْية وتركيب المزاج، وهي أيضًا مثل عجيب من أمثلة التقابل بين هذين الرجلين العظيمين.

فكان أبو بكر نموذج القوة في الرجل الدقيق.

وكان عمر نموذج القوة في الرجل الجسيم.

ومن عجيب المصادفات أن هذا كان غزير الشعر بيِّن الغزارة فيه، وهذا كان أصلع، بيِّن النزارة فيه، ليتم بينهما التقابل حتى في الصفة التي لا يقتضيها اختلاف البنية بين الرجل الدقيق والرجل الجسيم.

قلنا في كتابنا عبقرية عمر: «إن العالم الإيطالي لومبروزو ومدرسته التي تأتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور في أحد من أهلها. وهي علامات تتفق وتتناقض ولكنها في جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة. فيكون العبقري طويلاً بائن الطول، أو قصيرًا بيِّن القصر، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود في سائر الناس، ويكثر بين العبقريين من طراز جَيَشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارىء فيكون فيهم من تُفرط سورته كما يكون فيهم من يفرط هدوؤه، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يُلحظ تارة، في الزكانة(١) والفراسة، وتارة في النظر على البعد أو الشعور على البعد، وتارة في الحماسة الدينية أو في الخشوع لله».

تلك جملة الخصائص العبقرية التي أجملناها من كلام لومبروزو وأشياعه، فكأنما شاء القدر أن يتفق الصاحبان في جوهر العبقرية ويختلفا في أعراضها اختلاف المقابلة، حتى في غزارة الشعر ونزارته على غير ما يقتضيه هذا الاختلاف.

والمقابلة بين الصدّيق والفاروق في تكوين البنية وتركيب المزاج كان لها أثر كبير في المقابلة بين الرجلين العظيمين في الخلائق والجهود، فعمر، بما نشأ عليه من

---

(١) الزكانة : الفطنة والفهم.

الجسامة والهيبة ، لم ينشأ وله منبه من البنية ينبهه أبدًا إلى وجوب التهدئة والترويض ، فمضى بتلك البنية كما يمضي راكب الفرس الجموح غير متوجس من جماحه ، لأنه مطمئن آخر الأمر الى العنان.

وأبو بكر. بما نشأ عليه من الدقة والنحول ، قد نشأ وله منبه إلى غوائل الحدّة التي تعهد من أصحاب هذا التركيب ولا تؤمَن غوائلها عليهم ، فراض نفسه على التهدئة والترويض ، ومضى بتلك البنية كما يمضي راكب الفرس الجموح عوّدها قبل الدخول في المضمار أن تدع الجماح ، وأن تشعر بالعِنان القابض عليها في كل حين.

وهنا لا تكون التفرقة أيضا من قبيل التفرقة بين القوة والضعف ، وبين القدرة والعجز عنها ، ولكنها على ما قدمنا تفرقة بين قوة وقوة تكافئها ، أو بين طرازين من القدرة يتقابلان.

فلو كان أبو بكر ضعيفًا قليلاً لجمحت به الحدة ، ولم يعتصم من عزمه إلى كابح قدير على الكبح ، فتحطم كما يتحطم الضعفاء.

ولو كان شعوره بنفسه شعور ضعف وقلة لاستقر على هذا الشعور واستكان إليه ، ولم يأخذ نفسه بالسَّمت والوقار، ولا بمناقب السيادة والمروءة ، ورضي له ولذويه بما يرضى به الضعفاء.

ولكنه شعر من نفسه بقوة يعتصم بها ويقوى على رياضتها ، فكان مثلاً للقدرة الرائضة والنفس المروَّضة كما تكون في الرجل الدقيق النحيل.

* * *

في حياة الصاحبين موقف من المواقف النادرة التي يظهر فيها الرجل كله ، ولا يتفق في التجارب النفسية أن يواجهها الإنسان مرتين في حياته ، وهو الموقف الذي فاجأهما بموت النبي عليه السلام.

ليس للصاحبين صديق واحد بمنزلة محمد عندهما من المحبة والتّجلّة ، وهما لا يروَّعان كل يوم بنبأ فاجع يسوؤهما كما يسوؤهما نبأ موته وانقضاء عشرته والأنس بقربه. فالموقف نادر، والبليَّة به خليقة أن تَبتلي الرجل في كل ما ينطوي عليه من بديهة وروية..

وابتلي به عمر فغضب غضبته المرهوبة وثار بالنُّعاة يتوعدهم ليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن محمدًا قد مات.

غضب غضبة الرجل المملوء بقوته وحميته، الذي لم ينبهه منبه قط الى ترويض غضبه والمبالاة بعواقب ثوراته، وكأنما قام في دخيلة نفسه أنه يستكثر حتى على الموت أن يجترىء على الصديق الذي يحبه ذلك الحب، ويجله تلك التجلة، ويعتقد فيه تلك العقيدة، وينتظر حتى من الموت أن يتحامى جانب ذلك الصديق، ويرعى له حرمة لا يرعاها لسائر الأحياء.

وأبو بكر يحب محمدًا كما يحبه عمر، ويأسى لفراقه كما يأسى ويرفعه مثله درجات فوق مقام الأحياء من قبله ومن بعده، ولكنه رجل راض نفسه وقمع حدة طبعه، وعرف الصبر على ما ليس يدفعه دافع ولا تغني فيه حيلة، فإن كان تسليمٌ فهذا أحق المواقف بالتسليم وأولاها بطول ما ارتاض عليه من صبر، وما تأهب له من أُسوة.

بذلك أدى كل من الرجلين ضريبة طبعه ومزاجه الذي لا معدَى له عن مطاوعته والاستجابة لدواعيه.

ثم زالت الغاشية الأولى. فظهر الرجلان في حالة القرار كما ظهرا في حالة المفاجأة: ظهر أن عمر لم يكن ثورة كله، بل كانت فيه إلى جانب الثورة رويّة تفرغ للأمر في أحرج أوقاته، وظهر أن أبا بكر لم يكن روية كله، بل كانت فيه إلى جانب الروية مطاوعة لسليقة الحب والألفة قد تشغله عن العواقب إلى حين.

فبينا هو مشتغل بتجهيز رسول الله إذا بالأنصار يجتمعون في سقيفة بني ساعدة ليتخذوا لهم أميرًا دون إخوانهم من المهاجرين، واذا عمر يتأهب للأمر أهبته، ويعاجل الخَطْب قبل استفحاله، ويأخذ أبا بكر من بيت رسول الله إلى سقيفة بني ساعدة ليبايعه هناك بالخلافة... ويتقي الحدة من أبي بكر فيهيىء في نفسه كلامًا يصلح لذلك المقام يمهد به لكلامه. وفي بعض الروايات أنه فكر في أمر المبايعة قبل ذلك حين لم يفكر فيها أحد من المهاجرين وأنه شاور أناسًا وشاوروه فيما يكون بعد وفاة رسول الله. فما كانت غضبته الثائرة الا ريثما قبض على العنان بكلتا يديه، ثم كان عنانه ذلك أطوع عنان.

كلا الرجلين العظيمين فيه روية وفيه حدة : تأتي الروية أولاً أو تأتي الحدة أولاً ذلك هو موضع الفارق من بوادر المزاج والتركيب ، ولكن الروية هناك قائمة في المزاجين حين تراد .

* * *

وقد نلمس هذه الجوانب المتقابلة من مزاج الصاحبين في كل مسألة ذهبا فيها مذهبين ونزعا فيها إلى رأيين مختلفين .

من ذلك مسألة الرِّدة ، ومسألة خالد بن الوليد ، ومسألة الأعطية والنوافل للمؤلفة قلوبهم ولغيرهم من عامة المسلمين .

في كل مسألة من هذه المسائل كان كل من الصاحبين عند طبعه ومزاجه ، أو عند المعهود من وصفه واستقصاء أحواله ؛ دليل أصدق دليل على خلوص الرأي وصراحة الضمير والتوجه إلى الأمر بما يستدعيه عندهما من مقدماته وموجباته ، في غير حيد ولا انحراف عن سواء السبيل .

ففي مسألة الرّدة جنح أبوبكر إلى الصرامة وجنح عمر الى الهوادة ، وفي ظاهر الأمر أن هذا اختلاف على غير المنظور من طبيعة الرجلين ولكن الواقع أنه لا يخالف المعهود إذا مضينا فيه إلى ما وراء الظاهر القريب .

فقد كان ابو بكر عند طبعه حين أبى أن يترك عقالاً مما كان يأخذه رسول الله من فريضة الزكاة ، وكان كذلك عند طبعه حين استثاره الاستخفاف به والجرأة عليه ، كأنهم يستصغرونه ويتقحّمونه ، وهو الذي توقّر طول حياته من مكانة من يُستصغر ويتقحم ، لدقة في تكوينه وقوة في نفسه تعاف أن تُحسب عليه الدقة في التكوين صغرًا في المقام .

وقد كان عمر عند طبعه حين أخذ بالتصرف والاجتهاد على حسب اختلاف الأحوال ، ووثق من مصير الأمور إلى الخير بأية حال .

* * *

أما مسألة خالد بن الوليد فقد كان السؤال فيها : هل يحاسب أو لا يحاسب ؟ فكان جواب الصاحبين على حسب المعهود فيهما من مزاج وخليقة ، ولم يكن منظورًا

أن يقضي أحد منهما بغير ما قضاه .

قتل خالد مالكَ بن نويرة وبنى بامرأته في ميدان القتال على غير ما تألفه العرب في جاهلية وإسلام ، وعلى غير ما يألفه المسلمون وتأمر به الشريعة .

أفيحاسَب على هذا أو لا يحاسب عليه ؟

أول جواب يبدر إلى عمر عن هذا السؤال هو المحاسبة بغير ونَاء . ولِم لا ؟ ما الذي يُتّقى ؟ ما الذي يكون ؟ إن المبالاة بعقبى حسابه ليست مما يروع عمر ويثنيه ، بل لعلها مما يحفزه الى التحدي والإسراع فيه .

أما أبو بكر فقد استشار هنا طبيعة الاقتداء ، وطبيعة الإعجاب بالبطولة وطبيعة اللين والإغضاء ، وهي تشير عليه بالإعفاء من الحساب أو بالإمهال به إلى حين .

فهو لا يعزل قائدًا من قواد رسول الله وسيفًا من سيوفه ، وهو لا ينسى بطولة خالد وإن زل أو أخطأ التأويل ، كما قال ، وهو يُؤثر اللين لأنه في عامة أحواله مطبوع عليه ما لم يمسه الأمر فيما يثير .

* * *

وجاءت مسألة الأعطية فأبى أبو بكر أن يتصرف في تمييز الأقدار وأقدم عمر على التصرف والاجتهاد .

وجاءت مسألة المؤلفة قلوبهم فأعطاهم أبو بكر متبعًا سابقة الرسول وأنكر عمر عطاءهم لأنهم كانوا يأخذون ما أخذوه والإسلام ضعيف . .

فأما الآن فماذا عساهم أن يصنعوا إن لم يأخذوا ؟ ما يصنعونه كائنًا ما كان لا يكرِثه ولا يثنيه .

* * *

وهكذا نستقصي علل الخلاف بين الصاحبين في كل مسألة من المسائل فإذا هي في مردها خلاف بين قوتين من نوعين ، أو خلاف في تناول الأمور على طريقتين ، ولم تكن قط خلافًا بين قوة وضعف ، أو بين حرص وتفريط ، أو بين أثَرة وإيثار .

ومن المسلّم أن القوة ضروب ، وأن العظمة صنوف ، وأن اللِّين لا يلين أبدًا والشديد لا يشتد أبدًا ، فلا بد من اختلاف بين العظيم والعظيم ، ولا بد من اختلاف بين عمل

العظيم الواحد في أوقات. وليس العجب أن يجري كل منهم على خطته وأسلوبه، وإنما العجب أن تتعدد ضروب القوة وتتعدد صنوف العظمة ثم تتوحَّد الخطة والأسلوب.

وموضع العبرة – بل موضع الإعجاز فيما تقدم – هو تلك الدعوة التي شملت هذه القوة كلها في طيّة واحدة، وضمت هؤلاء الرجال جميعًا حول رجل واحد، وجذبت إليها أكرم العناصر التي تأتي بالعظائم وتصلح للخير وتُقْدِم على الفداء.

فأوجز ما يقال في تلك الدعوة أنها خاطبت خير ما في الإنسان فلبَّاها أمثال الصديق والفاروق، وأقبل عليها الأقوياء المخلصون من كل طراز فليست هي بالدعوة التي تخاطب الضعف والضعة، ولا بالدعوة التي تخاطب الطمع والأثرة، ولا بالدعوة التي قوامها الترهيب والترغيب، ولكنها الدعوة التي يجيبها أكرم سامعيها، ويتخلف عنها أقلهم سعيًا إلى الخير واقتدارًا عليه.

والصديق والفاروق خير نماذج الرجال في الجزيرة العربية، ففي خلائق هذين العظيمين دليل على السر الذي من أجله نادى محمد قومه ومن أجله أجيب، ومن قال من المكابرين والمتعنتين: إن دعوة محمد لم تكن بالدعوة الصالحة فلْيقل: أيّ صلاح كان يَلقى في الجزيرة العربية مجيبين أكرم وأقدر من هؤلاء المجيبين؟ وأي هداية بين الناس أشرف من الهداية التي تجمع إليها أقوى الأقوياء وأطيب الطيبين، على ما بينهم من تقابل في المزاج والرأي كأعجب ما يكون التقابل بين المختلفين المتفاوتين؟ وأي إقناع أقنع الصديق؟ وأي إقناع أقنع فاروق؟ الخشية؟ المتعة؟ الشر؟ الطمع؟ لقد كانا إذن آخر من يجيب، وكان خصومهما إذن أسرع المجيبين وأسبق المؤمنين!

إسلامه

قيل إن أبا بكر رضي الله عنه كان أول من أسلم، واتفقت الأقوال على أنه كان أول من أسلم من الرجال، وأن السيدة خديجة رضي الله عنها كانت أول من أسلم من النساء، وكان عليٌّ رضي الله عنه أول من أسلم من الصبيان، وكان زيد بن حارثة أول المسلمين من الموالي، وهو الذي تبناه النبي عليه السلام.

وقال النبي عليه السلام: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت منه عنده كِبْرة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر، ما عكم(١) عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه».

فلمَ سهل إسلام الصدِّيق هذه السهولة التي لم تُؤثر عن أحد غيره كما جاء في ذلك الحديث الشريف.

لعلنا نختصر الطريق إلى جواب هذا السؤال إذا نحن سألنا عن الموانع دون الإسلام، قبل أن نسأل عن الموجبات..

لأننا إذا بحثنا عن العقبات فلم نجدها، أو بحثنا عنها فوجدناها قليلة العدد هينة التذليل، بدت لنا سهولة الطريق من غير جهد كبير في البحث عن الموجبات، وعرفنا أنه «لا مانع» فعرفنا أنه لا صعوبة ولا محل للتردد والمقاومة فما الذي كان يمنع أبا بكر أن يجيب دعوة الإسلام؟

بل ما الذي يمنع إنسانًا من الناس -كائنًا من كان- أن يجيب الدعوة إلى عقيدة جديدة؟

موانع شتى

ومن الحقائق الملحوظة أن هذه الموانع كانت أقل ما تكون في أبي بكر الصديق،

---

(١) عكم عنه: تأخر.

فلا نعرف أحدًا في عصر النبي كانت موانعه دون إجابة الدعوة الجديدة أقل من موانع هذا الرجل الصادق المصدق، المستعد لإجابة النبي إلى هدايته كأنما كان معه على ميعاد.

يمنع الإنسان أن يصغي إلى دعوة العقائد الجديدة موانع شتى من آفات العقل والخلق والبيئة، تجتمع وتتفرق، ويُبتلى الرجل الواحد بها جميعًا، وقد يبتلى بمانع واحد منها فيحول بينه وبين الاصغاء والاجابة.

يمنعه أن يجيب الدعوة إلى المصلحين غطرسة، أو سيادة مهددة، أو مصلحة في بقاء القديم ومحاربة الجديد، أو ذهن مغلق لا يتفتح للفهم والتفكير، أو مغامسة للشهوات تحبب إليه أن يستنيم إلى العرف الذي يبيحها ويعزف عن الهداية التي تحظرها وتقف في سبيلها، أو تعصب غضوب للعقيدة التي درج عليها، أو شعور بقوة سلطان تلك العقيدة في أبناء قومه، سواء منهم المتعصبون لها والقابلون لها على المجاراة والمداراة، أو جبن ينهاه أن يخرج على المألوف ويتصدى لسخط الساخطين وإن تبين طريق الاستقامة والسداد، أو إيغال في الشيخوخة يصد الانسان عن كل تغيير ويميل به إلى كل تواكل ومتابعة وتقليد، أو حداثة سن تجعله تابعاً لغيره في الرأي والخليقة وتجعل له شرة تحجبه عن التروية والمراجعة، أو ذلة مطبوعة تلحقه بمن أذله وبسط سلطانه عليه.

فالغطرسة خلة تأبى على صاحبها أن يستمع إلى قول أو يصيخ إلى دعوة، أو يتنزل إلى متابعة إنسان، ترفعًا عن الإصغاء قبل أن يهديه الإصغاء إلى موافقة أو إنكار.

والسيادة المهددة توحي الى صاحبها كراهة التجديد، لأنه يحس بالبداهة أن صاحب الجديد أولى منه بالسيادة إن شاع ما جدده بين الناس، فتبطل سيادته ببطلان القديم الذي قامت عليه، وقيام الجديد الذي نسَخه وعفاه.

والمصلحة في حالة من الحالات المستقرة تجعل الرجل محبًّا لتلك الحالة حبه للمنفعة، كارهًا لتبديلها كراهته للخسارة، ميالاً إلى محاربة الدعوة الجديدة قبل أن يبحث فيها ويتعرف وجوه الخير الذي قد يصيبه منها.

والذهن المغلق يجهل ما يقال، ويعادي ما يجهل، وينفر من كل ما يشق عليه،

وأول ما يشق عليه أن يفهم شيئًا على وجهه السوي، أو يتهيأ للفهم بأية حال.

ومغامسة الشهوات تُبغِّض إلى المرء سلوانها والاقلاع عنها، وتقرن عنده دعوات الاصلاح والاستقامة بشؤم التنغيص والتكدير، فيتبرَّم بها وينزعج لها، كما ينزعج النائم المستغرق أيقظته من نوسة لذيذة قد استراح إليها.

والتعصب الغضوب لما اعتقده المرء يثيره أن تمس عقيدته كما يثور لحماية الحوزة أو الذود عن الآباء والأجداد، لأنه يحسب عقيدته ملكًا له ولآبائه يردّ عنها من يهجم عليها، كما يرد صاحب البيت من يهجم عليه.

والعقيدة إذا كانت قوية السلطان غلبتْ عزتها على عزة العقل والفؤاد، فأصر عليها من كان خليقًا أن يعافها ويعرف عيبها لو دعي إلى تركها وهي تتداعى وتتزعزع وتؤذن بالزوال.

والجبن يخيف صاحبه أن يجهر بالحق ويبتعد به عن طريق المخافة، فلا يدنو إلى الصوت الذي عسى أن يقوده إلى الإصغاء فالإيمان فالجهر بما يضير.

والشيخوخة عدو لكل طارق، والحداثة بين طيش يدعو إلى التمرد وطاعة تدعو الى متابعة الأولياء، والذلة حجاب بين الذليل ونفسه يحجبه وراء من أذله، فلا تصل إليه الدعوة إلا من تلك الطريق.

هذه موانع الإصغاء إلى كل دعاء جديد.

أو هذه أعم الموانع التي تحول بين معظم الأسماع والإصغاء إلى ذلك الدعاء.

ومن الحقائق الملحوظة – كما أسلفنا – أن أبا بكر كان براء منها جميعًا، أو كان كأبرأ الناس منها في عهد الدعوة المحمدية.

فلم يكن متغطرسًا، بل كان مشهوراً بالدعة والتواضع، مألفًا لقومه كما قال واصفوه «محبًّا سهلاً...» وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته.

ولم يكن مهددًا في سيادة مضروبة على أعناق الناس، فكان من ذوي الشرف في قريش، ولكنه لم يكن من قبائلها الساطية التي تستطيل بالبغي والطغيان. كان من (تيم) وهي بيت قرشي معدود، ولكنه لم يمنع أبا سفيان أن يقول كما قال لعلي بن أبي

طالب يستثيره حين بويع أبو بكر بالخلافة : «ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟» ولم تكن «تيم» أذل قبيلة في قريش كما قال أبو سفيان، ولكنها على أية حال لم تكن بمقام السطوة والسيادة التي تطمس الضمائر والألباب.

ولم تكن لأبي بكر مصلحة في دوام الجاهلية ، لأن عمله فيها كان ضمان المغارم والديات ، وربما كان هذا العمل أدنى إلى الخسارة منه إلى المنفعة والغنيمة ، فلا راحة ولا أسف عليه. أما التجارة فلا خوف عليها من الدعوة الجديدة ، وصاحبها الداعي إليها تاجر يبيحها ويزاولها ويحض عليها.

ولم يكن مغلق الذهن ولا وَصَفه أحد بهذه الصفة من محبيه أو شانئيه ، بل كان معروف الذكاء يَلمح اللحن البعيد فيدركه ويسبق الحاضرين إلى فهمه والفطنة لموضع الاشارة فيه ، كما حدث غير مرة والنبي عليه السلام يتحدث أو يعظ الناس.

ولم يكن مغامسًا للشهوات ، بل كان يكره ما شاع منها بين الجاهليين من ذوي الأقدار والأخطار، فلم يشرب الخمر ولم يركب الدنس ولم يشتهر قط بوصمة يعيبه بها من أسرعوا إلى معَابته يوم هجر عقيدة الجاهلية وجنح الى عقيدة الاسلام.

ولم تكن عبادة الأوثان عقيدة مكينة السلطان في عهد الدعوة المحمدية ، بل كان أناس يهملونها وأناس يبحثون عن غيرها ، وأناس يؤثرون عليها المسيحية واليهودية ، فلا يصابون بمكروه في أكثر ما سمعنا من أخبار أولئك المتمسحين أو المتهودين.

وعلى هذا لم يكن أبو بكر متعصبًا للجاهلية وعباداتها ، بل لعله كان مزدريًا لها مستخفًّا بالأصنام وبأحلام عابديها ، وإذا صح ما جاء في «أنباء نجباء الأبناء» فهو لم يسجد لصنم قط. وقال : «لما ناهزت الحُلُم أخذ أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مَخدع فيه الأصنام فقال : هذه آلهتك الشم العوالي ، وخلاّني وذهب ، فدنوت من الصنم وقلت : إني جائع فأطعمني ! فلم يجبني. فقلت : إني عارٍ فاكسني ! فلم يجبني. فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه».

ولم يكن الصديق بالجبان ، ولا بالشجاع الذي نَصيبه من الشجاعة قليل ، بل كانت شجاعته تفوق شجاعة الأبطال المعدودين في الجاهلية والاسلام. فثبت مع النبي في كل وقعة حين ولىّ من ولى وأبطأ من أبطأ ، وغامر بحياته في حروب الردة وله

مندوحة عن خوضها ، ولم يُذكر في أخباره قط خبر نُكول أو خوف على حياة ومال ..

ولم يكن شيخًا فانيًا متابعًا لكل قديم ، ولا حدثًا صغيرًا تطيش به شرة الشباب حين دعاه محمد إلى دينه وهداه ، بل كان رجلاً ناضجًا في بسطة الرجولة ، يفقه الأمور ويعتدل بين الصبا الباكر والكهولة المولية ، ويزن القول بفهم نافذ وحكم صادق ، وعقل راجح يعرف الترجيح .

* * *

تلك جملة الموانع التي تحول بين الانسان وقبول الدعوات الجديدة إلى الاصلاح ، وكلها هنا غائبة على الأقل إن لم نقل إن جانب الدواعي في مكانها أوضح من جانب الموانع ، ومعنى ذلك أن الصديق لم تكن بينه وبين الاسلام عقبات تصده عن وروده ، وأن طريقه إليه كانت ممهدة مفتوحة يخطو فيها خطوته الأولى فلا يلبث أن يُتبعها بخطوات .

على أن الأمر لم يقتصر على قلة الموانع في طريق الصديق الى الإسلام . فقد كانت هناك الدواعي التي أشرنا إليها في مكان تلك الموانع ، وكانت للصديق خلائق عاملة تقربه من العقائد القويمة ، وتجعله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ولا حاجة به إلى أكثر من ذلك ليفرق بين سنن الجاهلية وسنن الاسلام ، ويميز بين ما هو حقيق بالترك والاعتراض ، وما هو حقيق بالحرص عليه والايفاض(١) إليه .

كان الرجل صادق الطبع مستقيم الضمير ، لا يلتوي به ، عما يعلم أنه الحق ، عوج ولا سوء دخلة ، وعُرف باسم الصديق إذ عرف الناس فيه الصدق من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالاسلام ، لأنه كان يضمن المغارم والديات فيصدقونه ويعتمدون على وعده ويركنون إلى وفائه ، وقيل : إنه سمي بالصدّيق لتصديقه النبي في كل ما أنبأه به من المغيّبات والبشائر ولكنهم لم يختلفوا في تصديق ضمانه والاعتماد على وعده ، وإن اختلفوا في سبب التسمية وفي ميقاتها من الجاهلية أو الاسلام .

ومن كان على هذا الصدق في الخليقة فلا حجاز بينه وبين دعوة إصلاح ، وليس من شأنه أن يصم أذنيه عن قول صادق ودعاء مستقيم ولا أن يعادي الحق ويلجّ في

(١) الإيفاض : الإسراع .

عدائه، شنشنة المكابرين المستكبرين.

وكان مطبوعًا على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصلاح، يطلب العقيدة ويطلب المعتقدين بها والمهتدين إليها. يبدو ذلك من إسراعه إلى التبشير بالإسلام ساعة أن اهتدى إليه، فدخل في الدين على يديه نخبة من أسبق الصحابة وأخلصهم للنبي عليه السلام وأعظمهم أثرًا بعد ذلك في قيام الدولة الاسلامية، كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، وجعل لا يهدأ ولا يستريح حتى أدخل في دينه أمه وأباه وذويه.

وتبدو حماسته لاعتقاده من إلحاحه على النبي أن يظهر بالمسلمين في نواحي المسجد وهم دون الأربعين عددًا، ومن قيامه بينهم خطيبًا يجهر بالدعوة إلى الله، والمشركون متربصون ثائرون، حتى أصابه من ذلك أذى شديد خيف عليه الموت منه، وتركه المشركون وهم لا يشكون في أنه مات أو أنه مائت عما قريب.

وتبدو هذه الحماسة من اتخاذه مسجدًا لصلاته وتلاوته على قارعة الطريق، يسمعه حين يقرأ كل عابر، ويتوعده المشركون فلا يفزع من وعيد. ولما جاءه الرجل الذي أجاره من المشركين على أن يكتم إسلامه فخيره بين الكتمان أو رجع الذمّة إليه، لم يتردد في رد ذمته وقال له: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل.

ورجل مطبوع على سماع الحق وتصديقه والدعوة إليه والحماسة له غير عجيب أن يسرع إلى العقيدة الجديدة هذا الاسراع.

وإلى هذا كان قريبًا من السليقة الدينية التى تتراءى في مكاشفة الغيب واستطلاع الرُّؤى والهواتف وانفتاح النفس لإشارات الإيحاء والاستيحاء، ويُروى عنه أنه رأى قبل البعثة وهو بالشام رؤيا تنبىء بقرب ظهور النبوة في البلاد العربية، ويُعرف عنه على التحقيق أنه كان يعبِّر الرؤيا بين يدي النبي عليه السلام ويستأذنه في تفسيرها، ويحتفل هو بما يراه في منامه.

وإلى هذه القربى من الايمان بالغيب كان لطيف الحس خاشع النفس عظيم الرفق والمودة، لا ترِيَنَّ على قلبه تلك الغلظة التي تغلق أبواب القلوب وإن تفتحت الأذهان، فكان خشوعه يبكيه وفرحه يبكيه، وسليقته الدينية كاملة لا يعوزها إلا

القبس الذي يلمسها، فتضيء ثم لا ينطفىء لها ضياء.

وكان مع الصدق وحماسة العقيدة ومقاربة الغيب وموحياته ونجاواه بليغًا متذوقًا للبلاغة. كثير الرواية للشعر والاسترواح للكلام الحسن الفصيح، فكان في ازدرائه لكلام المتنبئين غضب تلمح فيه عيفان(١) الذوق البليغ كما تلمح فيه عيفان المؤمن الناقم على الضلال. سمع فقرات من قرآن مسيلمة الكذاب فما عتم أن ابتدر قارئيه مشمئزًا من سخفه وإسفافه: «ويحكم إن هذا لم يخرج من إل(٢) ولا بر!»

ولا جرم يكون هذا الذوق المستقيم سببًا قريبًا بين صاحبه وبلاغة القرآن وبلاغة النبي عليه السلام.

إلا أن سبب الأسباب جميعًا في التقريب بين الصديق وبين الدعوة المحمدية هو ذلك السبب الغالب على كل ما ذكرناه، لأنه يمتزج بأطواء نفسه ويصبغها بصبغته وينحو بها أبدًا في منحاه، ونعني به الإعجاب بالبطولة، ذلك الاعجاب الذي نحسبه مِلاكًا لأخلاقه ومفتاحًا لشخصيته كما فصلناه في غير هذا الباب.

فالرجل المعجب بالبطولة يعرف بطله، ثم يثق به، ثم يرتقي بالثقة إلى ما فوقها وما هو أمكن منها، لأن الثقة استناد إلى وثيقة تدعو إليها على حسب ما فيها من بيناتها وبراهينها؛ أما الاعجاب فهو الرغبة في الثقة وكراهة التحول عنها، هو البحث عن الثقة والتذاذها إذا وقف الواثقون عند الانتظار، أو مجرد التأمين والموافقة بعد الانتظار.

وقد تواترت أنباء مختلفة بصداقة أبي بكر للنبي عليه السلام قبل الدعوة المحمدية بسنين، وذكر المؤرخون الثقات أنه كان معه عليه السلام حين ذهب في صحبة عمه إلى الشام واجتمع بالراهب بحيرا وسمع منه ما سمع عن الدين والبشارة بالنبوة. وقد شك بعض المؤرخين من الأوربيين في اتصال المودة بين الصفيين قبل الدعوة المحمدية بزمن طويل، إلا أن الدليل الذي يُغني عن وثائق التاريخ أن أبا بكر كان باتفاق الأقوال أول المستجيبين لدعوة محمد من غير أهله، ولن يكون ذلك بغير معرفة سابقة بين الرجلين حببت إلى النبي عليه السلام أن يبدأ به ويترقب منه الإصغاء إليه،

---

(١) العيفان: النفور والكراهية.

(٢) الإلّ: العهد والحلف.

وأيسر ما يستلزمه ذلك السبق إلى الإسلام أن يكون أبو بكر معروفًا بصفاته لمحمد وأن يكون محمد معروفًا بصفاته لأبي بكر. فلما سمع دعوته سارع إلى تصديقه وهو معجب به وباستقامة طبعه ونقاء سيرته وبلاغة حديثه، وأعانه على التفرقة بينه وبين خصومه، والتمييز بينه وبين منكريه أنه كان نسّابة قريش لا يفوته مغمز من مغامزهم قديمها وحديثها في الأنساب والأخلاق، ومحمد عنده مطهر من كل ذلك براء.

* * *

من جملة ما تقدم تتبين لنا سهولة اتجاه الصديق الى الدعوة المحمدية، سواء من ضعف العقبات في طريقه أو من قوة الدواعي التي تجذبه اليه، فقد اجتمعت هذه وتلك على تفسير تلك الأعجوبة النادرة في تاريخ الدعوات الجديدة: أعجوبة رجل في سمت الرجولة يقال له: تعال الى دين جديد غير دين آبائك وأجدادك، فلا يتوانى ولا يتردد في إجابة الدعوة، وما هو إلا أن يسمعها حتى يلبيها وينقطع لها، ويصبح من أقوى دعاتها بعد صاحبها.

ومن تمام الجلاء في تفسير تلك الأعجوبة أن نفهمها على حقيقتها في جميع أحوالها وملابساتها، وأن نفهم الفارق بينها وبين نظائرها لو جرت في عصرنا الحاضر، أو في بيئة أخرى غير البيئة التي جرت فيها.

فنحن نسمع بقصة أبي بكر وتصديقه السريع للدعوة المحمدية فنُحضر في أخلادنا رجلاً من المسلمين أو المسيحيين أو الاسرائيليين في عصرنا الحاضر يقال له: تعال الى دين غير دينك ودين آبائك وأجدادك فيجيب الداعي لتوِّه وساعته كأنها تحية وجوابها.

وهي أعجوبة عندنا يوشك أن يأباها العقل وأن تمتنع على التصديق.

ولكن اسلام أبي بكر لم يكن من هذا القبيل، ولم يكن الدين الذي تحول عنه كالدين الذي يؤمن به المسلم في هذه الأيام.

لم يكن دين المشركين من قريش دينًا من أديان الروح وعقيدة من عقائد الضمير.

لم يكن له شأن بالحياة الصالحة ولا بالحياة الباقية ولا بالنظر الى الكون في أسرار خلقه ولا بالجماعة الانسانية في قِوام أمرها ومناط الخير والشر فيها والصلاح والفساد بين رجالها ونسائها.

ولم يكن التابعون له ينظرون إليه هذه النظرة أو ينظرون هذه النظرة الى دين آخر

أو عقيدة أخرى.

ولكنهم كانوا ينظرون إلى عقائدهم نظرتهم الى الموروثات المألوفة والعرف المتفق عليه، أو نظرتهم الى العادات التي ترتبط بها مصالح العيش ومصالح السيادة والجاه، وكان يعز عليهم أن يقال لهم: إن آباءهم وأجدادهم هالكون، وان الدين الذي نشأوا عليه وماتوا دين سخيف ومهانة وضلال. فكانوا في ثورتهم على الدعوة الجديدة أشبه الناس بأبناء القرى والمدن الذين يثورون على رجل يبتدع في الولائم والأفراح والجنائز بدعة تخالف المألوف وتهدد مصالح الوجهاء أو ما يسمونه «شرف الأسرة» وسير البلدة وعادات الناس، وتهدد مع تهديدها الوجهاء مصالح العاملين في شئون الزواج وشعائر الوفاة، وما إلى ذلك من الرسوم والعادات.

وكان المشركون لا يبالون أن يخرج على دينهم من يخرج عليه ناجيًا بروحه خاليًا بنفسه بينه وبين ربه، فعاش بينهم اليهود والمسيحيون والمتهودون والمتنصرون وهم في دعة وأمان إلا من أذى الأقارب المخالفين لهم في قليل من الأحيان، وإنما كانوا يثورون على الدعوة العامة التي تبدّل العرف كله وتخرج الجماعة من مألوفاتها وقواعدها التي استقرت عليها. فكان الثائرون في وجه الدعوة المحمدية من مشركي قريش بين رجل من ثلاثة لا يعدوهم إلى رابع: رجل صاحب سيادة تتصل سيادته ببقاء الأمور على ما هي عليه، ورجل من الأذناب الذين لا يعقلون ولا يُحسون الظلم والفساد ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به السادة المسيطرون، ورجل لم يصغ إلى الدعوة الجديدة حق الإصغاء، ولم يتسع له الوقت للتفرقة بينها وبين العرف القديم.

وما عدا هؤلاء جميعًا فهو قريب من الدعوة المحمدية لا يمنعه مانع أن يتجه إليها متى أصاب الوجهة التي تهديه في طريقه، وليس معنى ذلك أن التغلّب على العرف الجاهلي كان من الهنات الهيّنات أو كان أهون من التغلب على سائر العقائد والأديان، فليس أصعب ولا أعضل في الحقيقة من التغلب على عرف ترتبط به مصالح السيادة وغباوة الدهماء وتراث الأجداد والآباء، وإنما معناه أن الأمر لا يعم جميع المشركين ما لم يكن واحدًا من أولئك الثلاثة، وهم ألوف وألوف.

وأبو بكر رضي الله عنه لم يكن واحدًا من هؤلاء.

وكان مع هذا رجلاً يحس بالروح والضمير، ويحس الخواء الذي تتركه العقائد الجاهلية في حياة الروح والضمير.

وقد عافاه الله من سبب قوي من أسباب الثورة على الدعوة المحمدية بين المشركين المعتزين بالآباء والأمهات..

«أأبي على ضلال؟ أأمي مع الهالكات؟».. تلك خاطرة كانت تهجس في نفس المشرك من قريش فيغضب ويثور ويحسب الدعوة الجديدة في عداد السباب الموجه إلى أقرب الناس وأعزهم عليه.

أما أبو بكر فقد عافاه الله من ذلك في إبّان الدعوة المحمدية، لأنها ظهرت وأبوه وأمه بقيد الحياة مفتوح لهما باب النجاة، فما زال بهما حتى دخلا معه في دينه، واطمأنت نفسه على أبيه وأمه وبنيه.

وفيما عدا هذا قيل له: دع هذه البقايا الفاسدة وأقبل ومن تحب على دين جديد فيه الخير والصلاح والهداية إلى خالق الأرض والسماء.

فلِمَ لا يترك تلك البقايا الفاسدة؟ ولم لا يقبل على الدين الجديد؟

إنه لا يحب بقايا الجاهلية، ولا يربطه بها شُحّ ولا كبرياء ولا ذلة ولا غباء، وإنه ليفهم ويعقل ويحب الخير والصلاح ويحس في قلبه جيشان الروح والضمير، وإن الذي يدعوه لكريم حليم صادق قويم حبيب إلى النفس مبرّأ من العيب يحق له أن يجاب، وإنه لا يخاف لأنه شجاع، ولا يقابل الأمر بفتور المستخِف لأنه رجل حي الفؤاد مطبوع على الحماسة لما يؤمن به والإعجاب بمن يستحق عنده الإعجاب.

فالعجب أن يُدعى إلى تلك الدعوة فلا يجيبها أسرع ما يكون الجواب، وليس العجب أن يسرع إلى إجابتها كما أسرع فأجاب.

وهكذا يبين لنا في إسلام أبي بكر كما بان لنا في إسلام كل رجل ذي بال من السابقين إلى الدعوة المحمدية أنها دعتهم إليها بأسبابها المعقولة فاستجابوا إليها بأسبابهم المعقولة التي تُوائم كلاً منهم أصدق المواءمة، ولا تحوج أحدًا من المعللين والمفسرين إلى الخوارق المكذوبة، أو إلى تفسير الأمر بالوعد والوعيد ورغبة الجنة ورهبة السيف.

وكما قلنا في كتابنا «عبقرية محمد» إن الأقوياء لم يُسْلموا خوفًا لأنهم أقوياء، وإن الضعفاء لم يُسلموا خوفًا لأن الإسلام عرضهم للقتل والعذاب ولسيوف المشركين الذين لهم عليهم سيادة وطغيان، «وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال: إن الذين سبقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة القوة، ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور. فمن كان أقرب إلى هذه الطلْبَة من غني أو فقير ومن سيد أو مستعبَد فقد أسلم. ومن كان به زيغ عنها فقد أبى، وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف، وما يقسّم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان في جانب اللذة والخوف، ويضع الطغاة من قريش في جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون له هوى كهوى الكفار...»

* * *

كان الصديق إذن أول رجل من شرفاء العرب دان بالإسلام بعد نبيه عليه السلام. دان به سريعًا إلى دعوته لتلك الأسباب التي تليق به وتليق بالدعوة المحمدية، وكتب له في اللحظة الأولى أن يكون ثاني اثنين حين يكون النبي هو أول الاثنين. فكان ثاني اثنين في الإسلام، وثاني اثنين في غار الهجرة، وثاني اثنين في الظُّلمة التي أوى إليها النبي يوم بدر الذي لا يوم مثله، وثاني اثنين في كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين، وأقرب صاحب إلى النبي في شدة الإسلام ورخائه، وفي سره وجهره، وفي شئون نفسه وشئون المسلمين.

ومن اللحظة الأولى وهب للإسلام كل ما يملك إنسان أن يهب من نفسه وآله وبنيه. فأخذ أمه إلى النبي لتسلم على يديه وهي بين الحياة والموت، وجاءه بأبيه بعد فتح مكة ليسلم على يديه وقد جلَّله الشيب وابيض رأسه كأنه ثُغَامة(١)، وحمل ماله كله وهو يهاجر في صحبة النبي يؤثر به الدين على الآل والبنين.

والروايات في توجيه الدعوة إليه مختلفات: منها ما يؤخذ منه أن النبي عليه السلام وجه الدعوة إليه خاصة فلباها، ومنهم ما يؤخذ منه أنه عليه السلام قصد الناس في

(١) الثغام: نبت جبلي ورقه كورق الزنجبيل، إذا يبس شبه الشيب به.

المسجد بالدعوة العامة فاتصل نبؤها بأبي بكر فجاءه يسأله :

يا أبا القاسم ! ما الذي بلغني عنك؟

فسأله النبي : وما بلغك عني يا أبا بكر؟

قال : بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله، وزعمت أنك رسول الله.

قال : نعم يا أبا بكر. إن ربي جعلني بشيرًا ونذيرًا، وجعلني دعوة إبراهيم، وأرسلني إلى الناس جميعًا.

فما أبطأ أبو بكر أن قال : والله ما جربت عليك كذبًا وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك وحسن فعالك. مُدّ يدك فإني مبايعك.

والصدق والأمانة وصلة الرحم وحسن الفعال صفات يفهمها أبو بكر لأنه يحبها ويتصف بها ويحب أهلها. فهو صادق أمين رحيم حسن الفعال، وتلك أقرب الآيات إلى لُبّه وقلبه، وهي أولى الآيات بالتصديق عند الصادقين المصدقين، فمن الجائز أن تخدعنا الخوارق وليس من الجائز أن يخدعنا من يصدُق ويبَر ويؤدي الأمانة، ويستقيم على سواء الطريق في فعاله وخصاله.

وأصبح الإسلام منذ تلك اللحظة دينًا عند أبي بكر يقابل الدنيا بما وسعت من خيرات وطيبات. أصبح عنده غنيمة يفتديها بكل غنيمة يضن بها المرء من حياة أو آل أو ذرية ومال، ولو قاسه بمقياس دنيا. لقد كان الإسلام بليّة عليه لا يطلبها عاقل، ولكنه قاسه بمقياس دين فعلم أنه أربح الرابحين وأرشد الراشدين.

طلبه دينًا وكفى. فصبر فيه على ما يجزع منه طالب الدنيا، ويأبى أن يستهدف له أو يشارفه من بعيد.

كان المسلمون دون الأربعين يوم أشار على النبي أن يجتمعوا في المسجد ويجهروا بالدعاء. فلما وقف بينهم في المسجد يدعو إلى الله ورسوله وثب عليهم المشركون يضربونهم ويؤذونهم ويوسعونهم إهانة مع الضرب والإيذاء، وتصدى عتبة بن أبي ربيعة لأبي بكر فجعل يضربه بنعلين مخصوفين حتى ورم وجهه، وخفي على الناظر إليه مكان أنفه. وتسامع أهله من بني تيم فأقبلوا يتعادون ويُجْلون المشركين عنه. ثم حملوه في ثوب إلى بيته وما يشكون في موته. وصاح منهم صائحون في المسجد : والله لئن مات أبو بكر

لنقتلن عتبة.

ثم أحاطوا به يكلمونه حتى أفاق وأجاب، فكان أول ما فاه به وهو في تلك الحال: ما فعل رسول الله؟

فلاموه وعنفوه، وسألوا أمه أن تطعمه أو تسقيه شيئًا يرد إليه نفسه فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يعلم ما فعل رسول الله.

قالت: والله ما أعلم بصاحبك.

قال: فاذهبي إلى بنت الخطاب فأسأليها عنه.

فلما جاءتها أنكرتها وأشفقت أن تكون عينًا من عيون المشركين عليها وعلى رسول الله. فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله!. ثم عرضت عليها أن تذهب إلى أبي بكر لتسمع منه وتطمئن إلى مقاله. فوجدته صريعًا دَنِفًا قد برَّح به الألم، فغلبها الإشفاق فأعلنت بالصياح وهي تقول: إن قومًا نالوا منك لأهْل فسق. وإني لأرجو أن ينتقم الله لك.

فمازاد على أن كرر سؤاله الذي لزمه مذ أفاق من غشيته: ما فعل رسول الله؟

قالت وهي لا تزال حَذِرَة من أمه: هذه أمك تسمع!

قال: لا عين عليك منها.

قالت: سالم صالح!

فلم يكفه ذلك حتى يراه بعينه، وسألها: أنَّى هو؟.. فأعلمته بمكانه من دار الأرقم ابن أبي الأرقم، وأحب أن يذهب إليه، وكأنه أحس من أمه ممانعة في خروجه وهو بتلك الحال، حتى يتبلغ بشيء ويذوق شرابًا يرويه ويقويه، فأقسم لا يذوقنّ طعامًا ولا شرابًا أو يرى رسول الله.

وأكبرت المرأتان العطوفان حبه لصديقه ونبيه، فأمهلتاه حتى هدأت الرِّجْل وسكن الناس، وخرجتا به يتكىء عليهما ولا يقدر على حمل نفسه. ثم دخلتا به على رسول الله وهو بتلك الحالة فانكب عليه يقبله، ورق الرسول لصديقه وصفيه رقة شديدة، فقال الصديق الصفي: بأبي أنت وأمي! ليس بي إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بوالديها فادعها إلى الله! وادع لها عسى أن يستنقذها بك من النار.

ولبث بين المشركين يستهين بالخطر على نفسه، ولا يستهين بخطر يصيب النبي قل أوكثر حيثما رآه واستطاع أن يذود عنه العادين عليه، وإنه ليراهم آخذين بتلابيبه فيدخل بينهم وبينه وهو يصيح بهم: «ويلكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟»؛ فينصرفون عن النبي وينحون عليه يضربونه ويجذبونه من شعره فلا يدعونه إلا وهو صديع.

ولما أذن له النبي في الهجرة إلى الحبشة بعد ما ابتلي به من عنت المشركين غضب لرحلته الأكرمون من القوم ولحق به ربيعة بن فهيم المعروف بابن الدُّغُنة فقال له: إن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج. إنك تُكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار. ارجع واعبد ربك ببلدك.

وطاف ابن الدُّغنة عشية في أشراف قريش يبلغهم أنه أجار أبا بكر فعرفوا له جواره وقالوا له: مره فليعبد ربه في داره يصلي فيها ويقرأ ما يشاء، ولا يؤذينا ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

إلا أن أبا بكر بنى بفناء الدار مسجدًا يصلي فيه ويرتل القرآن، ويستمع له النساء والأطفال فيجتمعون إليه. منهم من يسخر ومنهم من يعجب ويسأل عن الخبر. ففزع المشركون وطلبوا إلى ابن الدغنة أن ينهاه أو يسترد منه ذمته، فأبى أبو بكر أن ينتهي عن الجهر بالصلاة والقراءة، وقال لابن الدغنة: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل!

وبقي بمكة طوال مقامه بها يعمل لدينه ولنبيه ولا يعمل لنفسه إلا ما ليس عنه غنى من طلب المعاش، يدعو وجوه الناس ويعرض الأمر على القبائل، ويُغْني في في الدعوة بصلاح سيرته ورجاحة قدره ويقين الناس باستقامة قصده، ما قل أن يغنيه دليل العقل أو نقاش الجدل والملاحاة. وكان يتعرض للأذى فلا يعنيه أن يتقيه كما يعنيه أن يَقيَ منه النبي وسائر المسلمين. فكان يُعين الفقراء ويُعتق الموالي الذين يُسامون العذاب في سبيل الله، أو يحمل المغارم ويهيىء لمن أراد الهجرة وسائلها، ولا يكون عمل من الأعمال ينفع الدين الجديد وينفع أهله إلا وله سهم فيه.

ثم كانت هجرته إلى المدينة فكانت أخطر هجرة أقدم عليها مسلم من أهل مكة.

إذ كان كفار قريش يقيمون لكل مهاجر من الأرصاد والعيون كَفَاء قدره، وكانت أرصادهم وعيونهم على النبي أكثر ما استطاعوا من عُدة وكيد وحَيْطة. فكانت الهجرة في صحبة النبي شرفًا من شرفين، لا يدري المرجّح بينهما أيهما أحق بالإعظام: إما مجازفة بالحياة، وإما يقين لا يخامره الريب أن النبي ناج في حماية ربه، ولوكان في الهجرة ما فيها من فراق الموطن أو الهجوم على فراق أرهب منه وأقسى، وهو فراق الدنيا.

فتلقى أبو بكر الإذن بهذه الهجرة كما يتلقى البشارة بالسلامة. قالت بنته عائشة رضي الله عنها: «ما شعرت قبل ذلك أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي حين أذن رسول الله ﷺ بصحبته».

وقالت بنته أسماء رضي الله عنها: «لما هاجر رسول الله ﷺ، وهاجر أبو بكر معه احتمل أبو بكر ماله كله خمسة آلاف درهم أو ستة. فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره. وقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه. قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا، وأخذت أحجارا فوضعتها في كوة البيت الذي كان أبي يضع فيه ماله، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده وقلت: يا أبت، ضع يدك على هذا المال. فوضع يده عليه وقال: لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكني أردت أن أسكّن الشيخ».

* * *

وكذلك أقبل الصديق على الإسلام وهو عالم بالذي هو مقبل عليه. لم يقل له أحد ولا قال هو لنفسه إن الأمر أهون مما توقع، وإن البلاء بعقيدته التي تحوّل إليها أخف مما وجد، فلم يجد نَصَبًا وكان يرجو الراحة، ولم يجد غُرْمًا وكان يرجو المنفعة، ولم يجد عداء من قومه وكان يرجو منهم المودة، ولم يجد خطرًا وكان يرجو السلامة، وإنما دخل في شيء يتوقع ما هو ملاقيه فيه، ويراه دون حقه من المصابرة والحفاظ والاحتمال؛ لأنه الدين. لأنه الحياة الفانية والحياة الباقية. لأنه الحق ودونه الباطل، والهدى ودونه الضلال.

فما أقبل إنسان قط أصدق من هذا الإقبال، وما تأهب إنسان قط لبلاء في سبيل

ضميره وربه أعظم من هذه الأهْبَة ، وما نَفُس الصدق عند إنسان قط أغلى من هذه النفاسة. فهي سلامة النفس وسلامة الآباء والأبناء وسلامة المال والعتاد وسلامة الدنيا بأسرها يعلقها بكلمة صدق من رجل صادق ، وإن أناسًا ليصدقون غاية التصديق ثم لا يخاطرون في سبيل الصدق برزق يوم ولا براحة ساعة.

إنه الصدِّيق.

وما وصف بكلمة واحدة هي أجمع لخلائقه من كلمة الصدّيق.

ولقد رأينا أناسًا من الناقدين يستنكرون على عربي في الجاهلية أن يُقَوِّم الهداية الدينية بهذه القيمة التى لا تعلوها قيمة.

ولكنهم مخطئون.

لأن العربي الجاهلي عرف «الحق» وعرف بيع الحياة في سبيل «الحق» كما يراه : حق الجوار أوحق العرض أوحق الشرف والذمار.

وأبو بكر خاصة كان ممن يرعَون الحقوق ويكْفِلونها لأهلها ، وكان ممن يكرهون البغي ويَنْقِمونه على أهله.

فإذا عرف «الحق» الأكبر فغير عجيب أن يرعاه هذه الرعاية وأن يكفله هذه الكفالة ، وهومهيأ لعرفانه بكرم الخَليقة وطيب النّحيزة واستقامة الفطرة وصفاء القريحة.

وقد عاش أبوبكر في زمن كان عقلاؤه في كل أرض يتطلعون إلى هداية من السماء ، ويخيل إلينا أن انتظار الهداية من السماء لم يطل في زمن من الأزمان ، ولا سيما الزمن الذي يعم فيه الفساد وتَعيا به حيلة الإنسان ، وحسبنا أننا بعد الإسلام رأينا أناسًا يترقبون «المهدي» الذي ينشر العدل كلما عم الجَوْر ، ويأمر بالعرف كلما فشا المنكر ، ويهدي إلى سواء السبيل كلما استحكم الضلال.

وقبل البعثة المحمدية كان أناس ينتظرون الهدى من نسل داود أو ينتظرونه من نسل إسماعيل بن إبراهيم.

وسمع أبو بكر ما سمع من هذا في رحلته إلى اليمن ، ورحلته إلى الشام ، وفي حديثه مع وَرَقَة بن نَوفل ، وحديثه مع المنكرين لظلام الجاهلية والمستشرفين إلى كل نور جديد.

وهذا محمد بن عبدالله يدعوه دعوة إبراهيم : دعوة الأب الأكبر الذي يشمل

العرب جميعًا ، ومن فوقها دعوة الله التي تعم جميع الناس .

فمَن أولى منه بالدعوة ، ومن أولى منه بالتصديق ؟

إنه استشار خُلقَه القويم فهداه ، وإن مشورة العقل وحدها لتهديه هذه الهداية ، حيثما وازن وقابل فأحسن الموازنة والمقابلة بين جميع ما ينتظم فيها من شئون ذلك الزمان.

كان أبو بكر في اهتدائه إلى الإسلام هو أبو بكر في نشأته وسليقته وجملة أحواله وأحوال قومه وعهده .

وكان أبو بكر في إسلامه هو أبو بكر فيما وصف به وفيما جد عليه من إيمان المصدق بدينه ، وحماسة المعجب ببطله .

كان إسلامه إسلام الرجل الكريم السمح الودود. يستمسك بالصدق والتصديق ويُخلص في الإعجاب بالبطل الذي هداه إخلاصًا لا شِيَةَ فيه. فهو يلين في كل حالة ويشتد في حالة واحدة هو فيها أشد الأشداء : مرجعها إلى كل ما اتصل عنده بقوة التصديق وقوة الإعجاب .

قال بعد مبايعته بالخلافة : « إنما أنا متَّبع ولست بمبتدع » فجمع إسلامه أجمع صفة وأحسنها في هذه الكلمات .

وربما عرض له من الأمر ما ليس يتضح فيه طريق الاتباع ، فيخرج إلى الناس يسألهم ثم يقول : « الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا سنة نبينا » .

فلا يبتدع إلا بعد استقصائه كل مرجع من مراجع الاتباع .

وفي هذا هو شديد غاية الشدة ، بعيد من اللين والهوادة غاية البعد ، وهو الرجل الذي اتسم في حياته كلها باللين والهوادة .

فتصديق المؤمن وإعجاب المعجب ببطله العزيز عليه ، هما تفسير كل شدة يشتدها الصديق الحليم الودود .

هو شديد في تسيير جيش أسامة لأن النبي عليه السلام ولاه وأمر بتسييره ، وما يكون له أن ينزع رجلاً استعمله رسول الله « ولو تخطفته الذئاب ولم يبق في القرى أحد غيره » .

وهو شديد في حرب الردة ، لأنه لا يترك عِقالا كان رسول الله يأخذه من المرتدين .

وإذا رأيناه يتردد بين الهوادة والشدة في محاسبة بعض الناس فالشدة التي مرجعها التزام جادة الرسول والاقتداء بقدوته في كل شيء هي أقرب التفسيرين إلى فهم عمله، وهي أغلب في طبعه من اللين والهوادة، على اشتهاره بها في كل ما عدا ذاك.

فالهوادة ليست هي التي تفسر لنا عمله في ترك جزاء خالد بن الوليد على البِناء بامرأة مالك بن نويرة، والبِناء ببنت مجاعة في حرب بني حنيفة، وتوزيع الأموال وتأخير الحساب، وإنما الذي يفسر لنا هوادته معه أنه سيف من سيوف الله، ولا يعزل أبو بكر من استعمله الرسول وله مندوحة عن عزله.

ويتبين لنا مناط الشدة واللين عنده في جناية واحدة استصغر فيها العقوبة على امرأة واستكبر العقوبة نفسها على امرأة أخرى، وذلك إذ كتب اليه المهاجر بن أبي أمية المخزومي يقول له: إن مغنيتين تغنت إحداهما بثلب رسول الله، وتغنت الأخرى بثلب المسلمين، فقطع يديها ونزع ثناياهما لتكفا عن الغناء. فخطأه أبو بكر لأن الأولى كانت أحق بالقتل، وأن الثانية كانت أحق بالصفح... وأوصاه أن يقبل الدعة وأن يحذر المُثْلة «فإنها مأثم ومُنَفّرة إلا في قصاص».

ففي تعظيم النبي كل شدة قليلة، وفي أمر غيره كل صفح جائز بل مستحَب محمود، وليست هي المحبة التي يعوزها التفكير قد فرقت هذه التفرقة بين العقابين، لأن هجو النبي قدح في لباب الدين وأس النظام، وهجو المسلمين وزر قد يأتيه المسلم في خلاف بينه وبين قومه، ولكنها على هذا حادثة قد عرضت لنا طبع أبي بكر في حالتيه: لين وهوادة، وإعظام لا لين فيه ولا هوادة، وإنما هي الشدة كأشد ما تكون.

* * *

وربما تهيب الأمر فيه نفع لا شك فيه إذا لم يسبقه النبي عليه السلام إلى صنعه أو صنع مثله، لفرط اتقائه أن يصنع ما ترك أو يترك ما صنع، كما تهيب جمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر، فقال: «كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟» ثم استصوب جمعه لما فيه من خير.

فسماحة أبي بكر كانت طبيعة فيه لأنه طبع على الرفق والأناة والأخذ بالحيطة واستبقاء المودة.

وشدة أبي بكر كانت طبيعة فيه، لأنه طبع على تصديق من هو أهل لتصديقه، والإعجاب بمن هو أهل لإعجابه، ولن ترى شدة في إنسان كشدة الرجل السمح في تنزيه صفيه وحبيبه وموضع إعجابه، ولا حرصًا في إنسان كحرصه على القدوة بذلك الصفي الحبيب المعجب به، واجتناب التخلف عنه والحيد عن طريقه.

وفيما عدا هذه الشدة لم يكن أبو بكر إلا حلمًا غالبًا ورحمة غالبة؛ ولم تنفرج أمامه طريقان: إحداهما إلى العفو، والأخرى إلى البطش إلا أخذ بالأولى وأعرض عن الثانية.

شاوره النبي عليه السلام في أسرى بدر فقال: «يا نبي الله؛ هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عَضُداً».

وشاوره حين اجتمعت قريش لصدّه وصد المسلمين عن البيت فنادى بالناس: «أشيروا أيها الناس عليّ. أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن فاتونا كان الله قد قطع علينا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين؟».

فقال أبو بكر: «يا رسول الله؛ خرجت عامدًا لهذا البيت، لا تريد قتال أحد ولا حربًا، فتوجَّه له فمن صدَّنا قاتلناه»... يقاتل من صده عن البيت ولا يقاتل من لم يصده.

وشيع جيش اسامة فلم ينس أن يوصيه بالضعفاء وهو ذاهب إلى القتال: «لا تخونوا ولا تَغُلّوا، ولا تغدروا، ولا تُمَثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة. وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا. اندفعوا باسم الله».

وليس أكثر من الشواهد التي تشهدنا على قوة الدين في نفوس من آمن به. إلا أننا لا نعلم بينها شاهدًا أصدق في الدلالة على تلك القوة من أن يدين المرء نفسه بالدين

أمام أعدائه، كما يدينها به أمام إخوانه في اعتقاده. ومن شواهد ذلك في إسلام الصديق أنه كره المُثلة بأعدى الأعداء في ميدان القتال، فلما بعث اليه عمرو بن العاص برأس بُنان بطريق الشام أنكر فعله أشد إنكار، ولم يخفف من إنكاره قول عقبة بن عامر له: إنهم يصنعون ذلك بنا، بل قال: أيستنُّون بفارس والروم؟ لا يحمَل إليَّ رأس. إنما يكفي الكتاب والخبر.

فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو في قتال. وهذا بلاغ الدين القويم في نفس إنسان.

وهكذا كان مسلكه مع إخوانه وأعدائه، وفي لينه وشدته، وفي مفترق كل طريقين: إحداهما الى الشدة وأخراهما الى اللين. فقال النبي عليه السلام يصفه ويصف عمر: «.. إن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»... و«إن مثلك ياعمر مثل نوح قال: رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارًا. ومثلك مثل موسى قال: ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يَروا العذاب الأليم».

ولم يكن عمل من أعماله في قضاء حقوق دينه وأداء فرائضه إلا يدل على هذه الخليقة التي اتصف بها في جملة حياته الإسلامية، وهي المبادرة في كل ما فيه قدوة بالنبي عليه السلام، والأخذ بالحيطة في كل ما يحتمل التعجيل والتأجيل.

سأله النبي: متى توتر؟ قال: أول الليل.

وسأل عمر، متى توتر؟ قال: من آخر الليل.

فقال لأبي بكر: أخذت بالحزم، وقال لعمر: أخذت بالعزم.

وصلاة الوتر كما لا يخفى تقضى من بعد العشاء إلى ما قبل الفجر، ويرى بعض الأئمة أنها فريضة، ويرى بعضهم أنها سنة يقتدى فيها بالنبي.

فأبو بكر يبادر إلى أدائها ويأخذ بالحيطة مخافة أن يفوته أوانها إذا أجلها، وعمر الشديد على نفسه الواثق من عزيمته يعلم أنها لن تفوته وأنه لن يغلبه عليها غالب من النوم، فيؤجلها إلى ما قبل الفجر، وهو واثق من أدائها في أوانها.

لهذا قال النبي لأبي بكر: إنه أخذ بالحزم وهو الأحوط، وقال لعمر إنه أخذ بالعزم وهو الأقوى، وعرف صاحبيه في هذه الفارقة الصغيرة كما عرفهما في كبار الأمور وصغارها.

وإن العقيدة التي تتسع لهذين الرجلين ولهذين الخلقين ولهذين العقلين، ثم يكون كلاهما إمامًا فيها عظيمًا في اتباعها، لهي عقيدة تتسع لكثير.

* * *

الصدّيق والدولة الإسلامية

قلنا في كتابنا « عبقرية عمر » إن الدولة الإسلامية « تأسست في خلافة أبي بكر رضي الله عنه لأنه وطّد العقيدة وسيّر البعوث . فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الرّدة ، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح . فكان له السبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين » .

« إلا أننا نسمي عمر مؤسسًا للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة . لأننا « أولاً » لا نجد مكانًا في التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام ، ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية ، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسسًا لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسسًا لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه وأعزها بهيبته وعنفوانه ... »

إلى أن قلنا « ... إنه كان في يوم إسلامه آخذًا في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء » .

والذي قلناه عن عمر في تأسيسه بناء الدولة الإسلامية قبل خلافته يصدق على أبي بكر بهذا المعنى منذ يوم إسلامه قبل سائر الصحابة وسائر الخلفاء .

ويكفي من ذلك أن نذكر الذين أسلموا على يديه من عظماء القوم وضعفائهم على السواء . فقد كان لإسلامه أثر بالغ بين السادة ، كما كان له أثر بالغ بين العبيد

والأتباع ، وما هو إلا أن علم الوجوه والعِلْية من فُضلاء قريش أن أبا بكر رضي الإسلام دينًا حتى كان للقدوة به حُجة عندهم أقوى من حجة البيان والإقناع : إن الدين الذي يرتضيه رجلٌ كأبي بكر في مروءته وصلاحه وشرفه واستغنائه واستقامة قصده وسلامة صدره لدينٌ جدير بالاستماع إليه والنظر في دعوته ، وإن النظر في دعوته وفيما بينها وبين العقائد الجاهلية من البَوْن الشاسع لكاف وحده لكسب القلوب وتحويل الأذهان ، ولا سيما عند من خلا من الغرض في دوام العقائد الجاهلية وإحباط الدعوة الجديدة أو كل دعوة جديدة كائنًا ما كان حظها من الخير والفلاح .

فأسلم على يديه رهط من أكبر السادة وأكبر القادة في الإسلام ، أسلم على يديه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله ابن عبد الأسد أبو سلمة ، وخالد بن سعيد ، ومنهم من أسلم وهو يفع أو شاب ناشىء كسعد والزبير ، فكانا فتوةً للإسلام حين جد الجد واشتدت سواعده بسواعد فتيانه الأبرار .

واشترى نفرًا من العبيد المرهقين : منهم بلال بن رباح مؤذن النبي عليه السلام . وكان سيده يخرجه في حمّارة القيظ فيطرحه على ظهره في بطْحاء مكة ويلقي بصخرة عظيمة على صلبه ويدعَهُ وهو يقول : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد . فلا يزيد على أن يقول : أحد . أحد ، ويرددها حتى يوشك أن يغيب عن وعيه من ألم العذاب . اشتراه أبو بكر أو استبدله بما يساوي خمس أواق ذهبًا فقيل له : لو أبيت إلا أوقية لبعناك ! وقال : ولو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته ، ومضى في شراء العبيد والإماء بما يطلبه سادتهم من ثمن يغالون فيه ليعجزوه ويدخلوا الندم على نفسه ، وهو لا يبالي ما يبذل من ماله وجهده لينقذ أولئك المساكين من أيدي المشركين ويريحهم من قسوة السادة المتجبرين . فكان كسبه لقلوب الضعفاء أربح للإسلام وأجدر بسمعته ورحمته من كسبه قلوب العِلْية الأعلام ، وأبلغ في التدين والفضيلة من إقناع بنافذ الحجة وإبلاغ بصادق الكلام . ولعل الدعوة الجديدة كسبت بين الأمم بهذه الرحمة أضعاف ما كسبته بهداية الشرفاء الذين اقتدوا به وذهبوا إلى النبي

من طريقه .

ولم يزل في كل عمل من أعماله منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة مؤسسًا لهذا البناء الشامخ الذي كان هو أول من قام عليه بعد بانيه . فالدعوة الصريحة إلى الإسلام في المسجد بمسمع من قريش ، والهجرة مع النبي من داره ، وبذل المال في البعوث وغير البعوث ، وتيسير القدوة للمقتدين بإسراعه إلى التلبية والتصديق كلما التبس الأمر واضطربت الأفكار ، ومحاربته قريشًا بعلمه واطلاعه على الأنساب كما حاربهم بماله وسلاحه ومشورته ورأيه – بل كل ما عمل منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة ، فهو في جملته ركن من أركان الدولة الإسلامية يجعله بالحق مؤسسًا لها مشاركًا في بنائها ، بسلطان العقيدة قبل سلطان الحكومة والكلمة المسموعة .

* * *

ثم كانت البيعة بالخلافة ..

وكانت بعثة أسامة بن زيد ، وكانت حروب الردة ، وكانت بعوث العراق والشام ، فقام على هذه المآثر الثلاث التي لا يقضي حقها من الإكبار كلّ ما قام بعد ذلك من بناء .

بعثة أسامة وما بعثة أسامة ؟ .. يستصغرها بعض المؤرخين المحدَثين ويقولون إنها من نوافل البعثات ، لأنها بدأت وانتهت بغير فتح وبغير ثمرة وبغير حظ كبير من الغنائم تلجىء إليه ضرورة من الضرورات .

وإنهم لمخطئون .

وإن الصديق لعلى صواب .

ولقد يكون في صوابه إلهام أو تكون فيه روية وقصد مرسوم ، ولكنه سداد على كل حال ، ووجهة قويمة هي أدنى الوجهتين إلى النفع والصلاح .

بعثة أسامة كانت العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية هي في ذلك الحين خير السياسات .

كان قِوامها كله طاعة ما أمر به رسول الله .

وكانت الطاعة – جد الطاعة – مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطأ

الأكبر في ذلك الحين .

وحيث يكون التمرذ هو الخطأ الأكبر فالطاعة – بل الطاعة الصارمة – هي العصمةالتي ليس من ورائها اعتصام .

وقد كان التمرد هو الخطر الأكبر في ذلك الحين لا مِراء :

كان النفاق يُطْلع رأسه في مكة والمدينة ، وكانت القبائل البادية تتسابق إلى الردَّة في أنحاء الجزيرة ، وكان جند أسامة نفسه يود لو استبدل به أميرًا غيره ، وكان أسامة أول من يشك في طاعة القوم إياه ويترقب أن يخلفه على البعثة أمير سواه .

تمرد ، أو نذير بتمرد ، في كل مكان .

وطاعة واجبة هنا حيث نبع التمرد ، أوْ لا سبيل إلى واجب بعد ذلك يطاع .

طاعة أو لا شيء .

فإن بقيت الطاعة فقد بقي كل شيء

وهنا تسعف الصدّيق طبيعة هي أعمق الطبائع فيه ، أو هي العبقرية الصدّيقية في أوانها ، وعلى أحسن حال تكون .

هنا تسعفه القدوة القويمة بالبطل المحبوب .

وهنا يقول وقد خوّفه الخطر على المدينة والجيش يفارقها :

« والله لا أحُلّ عقدة عقدها رسول الله ! ولو أن الطير تخطفتنا ، والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزنّ جيش أسامة ! »

كلمة لو قالها غير أبي بكر لكانت كبيرة ، ولكن الذي يقولها أبو بكر وبنته أعز أمهاتِ المؤمنين .

فلا خطر إذن أكبر من خطر الاجتراء على حق الطاعة في تلك الآونة ، ولو جرت الكلاب بأرجل البنات والأمهات .

ومن المؤرخين المحدثين من قال ما فحواه : إن بعثة أسامة انما أرسلت ثأرًا لأبيه زيد الذي قتل في معركة مؤتة ، وإن قاتله في تلك المعركة قد مات لتوِّه ، أفما كان إرجاء البعثة من المستطاع وقد أدرك ثأر القائد القتيل ؟

ومن المهاجرين والأنصار من كان يرى الرأي في بقاء البعثة بالمدينة بعد موت

النبي عليه السلام ، وفي مقدمتهم أسامة .

ومنهم من كان يرى أن يتقدم للقيادة من هو أسنّ منه وأخبر بفنون القتال ، ومنهم عمر بن الخطاب .

أما أبو بكر فقد رأى العصمة – حق العصمة – في رأي واحد لا رأي قبله ولا بعدها ، وهو الطاعة في غير ليّ ولا هوادة ولا إبطاء ، ولو لم يكن التمرد هو الآفة المحذورة في تلك الآونة لقد كان غير الرأي أصوب ، ولكنه كان آفتها التي لا آفة مثلها ، ثم لا خطر إن سلمت الدولة من شرها ، فلتكن الطاعة إذن هي الصواب ، وهي الملاذ .

وقد ضرب المثل الأول في الطاعة التي أرادها . فشيّع البعثة وهو ماش على قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجواره . فقال أسامة : يا خليفة رسول الله . والله لتركبن أو لأنزلن . فقال : والله لا تنزل ، ووالله لا أركب . وما عليّ أن أغبّر قدمي في سبيل الله ساعة .

ثم استأذن أسامة قائلاً : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فعاد عمر بإذنه : بإذن القائد الذي هو في مقام الطاعة هناك ، حتى على الخليفة وعلى أكبر الصحابة من بعده .

ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله ﷺ ... ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله .

أفكان المؤرخون المحدثون على صواب في أمر هذه البعثة حين قالوا إنها من النوافل بعد مقتل القاتل لزيد أبي أسامة ؟

إنهم لعلى خطأ في كل تقدير قدروه ولو جاريناهم فحصرنا أغراض البعثة في ذلك الغرض الوحيد ، لأن مقتل قائد في معركة ليس بالجريمة الفردية التي يعاقب عليها القاتل وحده ، وإنما المسألة هنا مسألة الجيش كله ، وهيبة الأمة التي أرسلت ذلك الجيش وتمثلت فيه بقوتها ومناعة حوْزتها ، فإن لم يقع في روْع الأعداء المقاتلين أن ذلك الجيش قوة تهاب وتنال حقها من التأثر فقد بطل الغرض كله من القتال .

وفي هذه البعثة بعينها ، ماذا كان يحدث لو أن قبائل غسان وقضاعة استضعفت

شأن المسلمين وفي أيديها الطريق بين بلاد العرب وبلاد الروم ؟

كل شيء جائز أن يكون

وأوله إغراء الروم بالهجوم ولهم عون من تلك القبائل ومن يجتمع إليها من المجترئين والمتحفزين ، ولما تقعدهم عن الاجتراء والتحفز هيبة جيوش الإسلام .

ولقد أدرك أناس في عصر أبي بكر صواب الرأي في إنفاذ تلك البعثة بعد إنفاذها وعودتها . فشاع في الجزيرة العربية خبرها ، وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا ، وقالوا فيما بينهم : لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء .

فإذا كان بقاء أسامة بالمدينة جائزًا لدفع خطر ، فإرساله كذلك جائز لدفع خطر مثله ، وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة ، وهو يومئذ ألزم الدروس .

* * *

ثم تكرر هذا الدرس في أوسع نطاق لأنه نطاق الدولة الإسلامية كلها في ذلك الحين ، وجاءت حروب الردّة التي هي مفخرة أبي بكر الكبرى غير مدافع ، أو هي مفخرته الخاصة التي انفرد بها في تاريخ الدعوة الإسلامية بغير شريك . فكان « هو نفسه » كما يقول الغربيون في تعبيراتهم حين يذكرون الأعمال التي تدل على صاحبها بجميع خصائصه ولُباب شعوره وتفكيره ، وتُبرزه على حقيقته التي لا مماراة فيها ، خلافًا لأعمال أخرى قد تكون فيها هذه « الحقيقة » موضع التباس أو اختلاف .

ففي حروب الردّة كان أبو بكر رضي الله عنه هو أبا بكر على سوائه وجلائه ، ولم يكن موقفه فيها غريبًا كما يسبق إلى الذهن للوهلة الأولى حيثما يخطر للذهن أنه الرجل الوديع الرفيق ، وذلك الموقف أولى المواقف بالصلابة الصارمة والبأس الشديد .

غضب الصديق رضي الله عنه في حروب الردة غضبته التي لا بد أن يغضبها وإلا فما هو بغاضب .

أثارته ردة المرتدين لأنها مسته في كل ما يُثيره ، وأصابته في كل ما يُعزّه ويغار عليه .

فهنالك الصديق المحب لصديقه ، والمعجب الغيور على ذكرى بطله ، يثيره أن

يغدر الغادرون بعهد ذلك الصديق وذكرى ذلك البطل ، ولمّا تمض له في قبره أيام أو أسابيع .

وهنالك المسلم « الصدّيق » الذي آمن ببشارة النصر ولو كره الكافرون ، كما آمن من قبل بانتصار الروم على الفرس بعد بشارة القرآن فخاطر على ذلك النصر بالمال والميثاق ، ولم يخامره الشك لحظة أنه الرابح لا محالة في ذلك الخطار . وكذلك غضب في حرب الردة غضبة الواثق من الحق ، الواثق من الغلَبة ، الواثق من العاقبة ، لأنه سمع البشارة السماوية لينصرن الله الإسلام على الدين كله ، فإذا حارب في سبيل الإسلام فهو لا محالة على حق وهو لا محالة منصور .

وهنالك الرجل « الدقيق التكوين » يقابَل بالاستخفاف في أول خلافته وقد راض نفسه طوال حياته على المروءة والكرامة والوقار ، أنفةً من الاستخفاف وكراهة للصغر والاستصغار ، فإذا بهم يستقبلونه بما أشاح عنه طوال حياته ، وإذا بالأمر صريح بالمقال فضلاً عن صراحته بلسان الحال : هم يستكثرون عليه كنيته أبا بكر فيكنونه أبا الفصيل ؟ وأعوانه يردون عليهم ذلك الاستهزاء متوعّدين : لترَوُنْه غداً أبا الفحول .

وهنالك الرجل الذي فيه من وثاقة العزم ما قمع به ثورة الحدَّة وهي أصيلة في تركيبه ، ومن كان له ذلك العزم فهو مُنجده حين يحتاج إليه ، وما كان محتاجًا إليه قط لو انه استغنى عنه في فتنة الردة ، وهي تفاجئه بالغضب المثير .

وهنالك الرجل الذي كان مثلاً في الاقتداء بالرسول حيثما سبقت سابقةٌ يُقاس عليها ، وقد سبقت هذه السابقة في فريضة من فرائض الإسلام وإن لم تكن فريضة الزكاة : سبقت في فريضة الصلاة ، وذهب أناس من المثقفين يعرضون على النبي إسلامهم على أن يعفيهم من الصلاة ، فقال عليه السلام : « إنه لا خير في دين لا صلاة فيه » . وكذلك لا خير في دين لا زكاة فيه ، فإذا جاء المرتدون يزعمون أنهم مسلمون يقبلون فرائض الإسلام ولا يقبلون الزكاة فليس أبو بكر بالذي يقبل منهم ما يزعمون .

إنما كان أبو بكر إذن أصدق ما كان لنفسه وسرائر مزاجه يوم قابل الردة بدرس

الطاعة التي لا هوادة فيها ، ولم يكن في باطن الأمر غريبًا عن المعهود فيه ، وإن لاح في ظاهر الأمر أنه جاء بالغريب من رجل وديع رفيق .

ولقد أكثر المؤرخون من الكتابة عن حروب الردة ما لم يكثروا قط في حادث من حوادث صدر الإسلام ، وكانوا على حق حين وازنوا بين دعوة الإسلام الأولى في مقاومة الشرك ودعوة الإسلام الثانية في مقاومة الارتداد فإنما كانت الغلبة على فتنة المرتدين فتحًا جديدًا لهذا الدين الناشيء ، كأنما استأنفت الدعوة إليه من جديد .

ولكنهم لم يكونوا على حق حين حاولوا أن يصبغوا الردة بغير صبغتها وأن يفهموها على غير وجهها ، ولا سيما النقاد المغرضين الذين انحرفوا بها عمدًا ليتسللوا منها إلى الطعن في نشأة الإسلام . فقالوا : إن ارتداد الأعراب إنما كان دليلاً على أنهم قد أسلموا مكرهين ، فما عتّموا أن وجدوا سبيلاً إلى النكصة على أعقابهم حتى نكصوا مسرعين .

والمسألة أوضح من هذا لو أراد أولئك النقاد طريق الوضوح .

المسألة أقرب شيء إلى طبائع الأمور في أشباه هذه الأطوار من كل دين ومن كل مذهب ومن كل دعوة تتناول الناس عامة وخاصة ، بل من كل فكرة تُخامر الأذهان والقلوب حتى ما كان من قبيل الحكمة والفلسفة والدراسات العلمية التي يُعنى بها خاصة الباحثين ولا تتسرب دعوتها إلى السواد . فماذا حدث في الحكمة بعد سقراط ؟ وماذا حدث في مذهب النشوء بعد داروين ؟ وماذا حدث في علم الأخلاق بعد كانْت أو بعد بنتام أو بعد برجسون ؟

فالذي حدث من ردة العرب هو الطبيعي المنظور أن يحدث ، والذي تَخيَّله النقاد المغرضون واجبًا مقررًا هو الغريب الذي لم يحدث قط في دعوة من الدعوات .

وإلا فما هو ذاك الذي كان يتخيله أولئك النقاد المغرضون ؟ .. أكانوا يتخيلون أن دينًا جديدًا يملك الناس جميعًا في الجزيرة العربية فيسري إلى كل نفس ، ثم يسري من كل نفس إلى جميع بواطنها وخفاياها فلا يُبقي فيها بقية للنكسة والارتداد ؟ أكانوا يتخيلون ذلك الدين مقتلعًا في مدى تلك السنوات القليلة كل أثر لأطماع الخليقة الآدمية وكل حنين في قلوب الزعماء إلى الجاه القديم ، وكل فضلة من فضلات

الجاهلية ، وكل باب من أبواب الدسائس التي تنفذ إلى جزيرة العرب من طريق الدول الأجنبية والعُصب الداخلية ؟ ... أكانوا يريدون من الأعراب بعد بضع سنوات أن يوغلوا في الإسلام أشد من إيغال قبائل نجران أو الغساسنة في الدين المسيحي بعد بضعة قرون ؟

إن تخيلوا ذلك فاللوم على الخيال المضلل وليس على الواقع ولا على العقل السليم ولا على الإسلام .

وما من شيء أحرى أن يدل على النشأة الطبيعية في الإسلام من هذه العوارض الطبيعية التي عرضت له في حياة نبيه وبعد موته ، وأولها حرب الردة وما اقترن بها من عوامل النكسة والاضطراب .

لقد كان النبي مناط الاستقرار في الجزيرة العربية بعد نجاح دعوته ودخول العامة والخاصة في دينه ، أو كان كما قال الشاعر :

فإنك موضع القسطاس منها فتمنع جانبيها أن يميلا

وإذا غاب « مناط الاستقرار » أو موضع القسطاس فماذا يكون ؟ بل ماذا يمكن أن يكون ؟

يكون نقيض الاستقرار لا جرَم .

أو يكون الميل هنا والميل هناك ، ولو كان العارض الذي طرأ قد عرض لأجسام من المادة لا تعرف الدين باختيار ، ولا تعرفه باضطرار .

فلما غاب « مناط الاستقرار » أول مرة حدث ما لا بد أن يحدث ، وطرأ التقلقل الذي لا مناص منه في كل بيئة ريثما يزول الأثر الطارىء وترجع الأمور إلى نِصَاب .

فعرض لكل طائفة من الناس تقلقلٌ يناسبها ويجري في مجراها .

تقلقل الأنصار وهم مسلمون حق مسلمين ، واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يبتون بتهم في مصير الخلافة ، لأنه مصير لا بد لهم من البت فيه .

وتقلقل المهاجرون من بايع منهم أبا بكر ومن لم يبايعوه ، ومنهم عِترة النبي وأقربهم إليه وأعظمهم إيمانًا بدينه والغيرة عليه .

وتقلقل في مكة أناس قريبو عهد بالنفاق ، فهموا بالعصيان لو لا نذير من وليّ السلطان .

أما القبائل فيما وراء ذلك فكان لكل منها نصيب من التقلقل يناسب نصيبها من القرب والبعد والمودة والجفاء .

فأقربهم إلى مهد الإسلام كانوا يخلصون للنبي ويخرجون على من ولي الحكم بعده .

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر؟

وأناس منهم آمنوا بالزكاة ولم يؤمنوا بمن يؤدونها إليه ، واحتجوا بآيات من القرآن الكريم حرفوها إلى المعنى الذي أرادوه ، ومنها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم » ... قالوا : فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا ! وأبوا أن يدفعوها وإن علموا أن دفعها فريضة من فرائض الدين ، فهم لم ينكروا الفريضة ولكنهم أنكروا الُجباة .

أما الأبعدون من مهد الإسلام فكان لهم تقلقلهم الذي يعرض لكل بعيد لم يسكن قط إلى قرار ، وإنما هو في اضطراب مستور يتربص أن يثب إلى الجهر ما تهيأ له وثوب .

فأبناء اليمن كان لهم مُلك قديم ، وكانت لهم أُسَر معرقات في الحكم تتداوله تارة بسلطان الحبشة ، وتارة بسلطان فارس ، وحيناً بين هذا وذاك بسلطان أهل البلاد ، وكانت لهم كهانة تمتزج بكل عقيدة من العقائد الكتابية وغير الكتابية . فلما اضطرب بينهم ميزان الأمور برز كل عامل من هذه العوامل في الفتنة بأثر من آثاره ، ونجح بينهم الأسود العنسي صاحب النبوة فيهم – وهو مسخ مشوّه – لأن التشويه كان من آلات الكهنة والسحر عندهم ولم يكن من عوائق النجاح في أمثال هذه الدعوات . فكان وفاقًا لشروط الكهانة اليمنية على شبه من كاهنهم «سطيح» الذي قيل فيه إنه كان لحمًا بغير عظم ، أوكان من لين العظام بحيث يدرج جسمه كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه ، وهي مع هذا تمس باليد فيؤثر فيها المس الخفيف لفرط لينها ، وعلى شبه من كاهنهم «شق» الذي سمي بهذا الاسم لأنه أشبه بنصف

إنسان مشقوق لنحافته وانسلاخ أعضائه . فكانت حقارة الأسود العنسي آلة من آلات نجاحه تبطل العجب ولا تدعو إليه ، كلما استعظم أحد أن يظفر مثله بما ظفر به من الفوز العاجل في بداية الفتنة اليمنية .

وحيثما رجعت الفتنة إلى مطامع العنسي وأمثاله من المشعوذين الطامحين إلى الصولة فقد بدأت طلائعها من أيام النبي عليه السلام في أنحاء متفرقات من الجزيرة ، لأن هؤلاء المشعوذين لم يفهموا الإسلام ولم يعقلوا قط أنه دعوة إصلاح لخير الناس ، وكل ما عقلوه أنه حيلة كاهن أفلحت فحق لهم أن يطمعوا في الفلاح لأنهم كهان لا تعوزهم وسائل السحر وحبائل الخديعة . فتطلعت رءوس الفتنة من هنا وهناك والنبي عليه السلام بقيد الحياة ، إلا أنها لم تتفاقم ولم تبلغ مداها من الانتشار في حياته عليه السلام .

ولكنها تجمعت إلى يوم الرجَّة التي ارتجتها الجزيرة العربية بعد فراقه هذه الدنيا . وهي رجّة لا محيص عنها . فما كان معقولاً ولا منظورًا أن يحدث هذا الحادث الجلل بغير رجته التي تقترن به لا محالة ، وإذا وقعت الرجة فما كان معقولاً ولا منظورًا أن تقع على غير هذا المثال .

وغاية ما يفهم من هذه الرجة التي لا غرابة فيها أنها الأثر المعقول المنظور لمطامع الطامعين وخلائق الأعراب وذوي الجهالة من أهل البادية في كل جيل . فما عرف التاريخ قط أناسًا منقطعين للبداوة الأولى إلا عرف منهم الاستعداد لأمثال هذا الانتقاض كائنًا ما كان الدين الذي ينتحلونه والزمن الذي قضوه في انتحاله . وربما مضت مئات السنين على قبيلة من البادية المغرقة في البداوة وهي تدين بالمسيحية أو الإسرائيلية ثم تنقلب مثل انقلاب الردة في رجة من الرجات النفسية أو الاجتماعية التي تشبهها ، ولا يستغرب العالمون بطبائع الناس هذا الانقلاب بعد مئات السنين كما استغرب أناس أن ينقلب بعض أهل البادية على الإسلام أو على دولة الإسلام ، ولمّا ينقض على دخولهم فيه عشر سنين .

على هذه الحقيقة أن تُفْهم فتنة الردة إنصافًا للتاريخ إن لم يكن إنصاف الدعوة المحمدية مما يعني أولئك المستغربين .

ولإنصاف التاريخ ينبغي أن تفهم هذه الفتنة على أنها أصدق امتحان للدعوة المحمدية خرجت منه دعوة من الدعوات .

فإذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ الزائغين وريبة المرتابين فهي قد كشفت كذلك عن الإيمان المتين والفداء السمح واليقين المبين فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمية تشرق بها صفحات الأديان ، وجاءت الشهادة الأولى على لسان رجل من أصحاب طليحة سأله : ويلكم ما يهزمكم ؟ فقال له : أنا أحدثك ما يهزمنا . إنه ليس رجل منا الا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وإنا لنلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه !

وقد امتحنت دعوة الإسلام وامتحنت جميع الدعوات التي نهضت لمنافسته بقوة السلاح وقوة الدهاء وقوة العصبية فقضت له بالبقاء وقضت عليها بالفناء .

ولوكان نجاح الدعوة الإسلامية نجاح سلاح أو دهاء أو عصبية لقد كان أصغر مُتَنَبِّىء من أدعياء الردة خليقًا أن يطمع في ذلك النجاح ، لأنهم بدأوا دعوتهم ومعهم من جموع القبائل التي تعتز بعصبياتها ما لم يتهيأ لصاحب الدعوة المحمدية قبل عدة سنين ، وصدقهم أناس كانوا يقولون إن نبيًّا كاذبًا منهم خير من نبي صادق من مضر أو قريش .

وأصدق من هذا كله في امتحان الدعوة المحمدية أنها خرجت من فتنة الردة وهي بشهادة الواقع والحق بِنْيَة حية تسير على سَنَن الحياة الصحيحة التي لا زيف فيها ولا اصطناع : يعرض لها الخطر من أسبابه ، وتعرض لها السلامة من أسبابها ، وتنجو كما تنجو البنية الحية القوية حيثما تجمعت فيها عناصر النجاة .

فليست هي جسمًا محجَّبا بالأوهام كما زعم طليحة الكذاب لجسمه أنه لا يعمل فيه السيف ولا تصيبه السهام . ولكنها جسم صحيح يعمل فيه السيف وله مع ذلك ما يدفع الطعن ويبرىء من الجراح .

ولا شك أن المسلمين لم يواجهوا جوانب الخطر كلها في حروب الردة دون المرتدين الذين أشعلوا الفتنة وصُلُوا بنارها . فقد كانت حروب الردة فتنة كجميع الفتن التي لا يؤمن خطرها على الفريقين المشتركين فيها فكان فيها جانبها الخطر على

أهل الردة كما كان فيها جانبها الخطر على الإسلام . وما كان منها خطرًا على فريق فقد كان فيه للفريق الآخر أمان .

وقد كان أمانها على الإسلام أن المرتدين متفرقون لا تؤلف بينهم وحدة معلومة المقاصد في السياسة ولا في الدين ، وأنهم هددوا المدينة بجموع البادية فأثاروا فيها سليقة الدفاع ووحدوا بين صفوفها وهي موشكة أن تتصدع بين الشيَع والأهواء . فعلم أهل المدينة كما علم أهل مكة أنهم مهددون بجائحة من البادية لا يطمئنون بعدها إلى مصير ، وهبوا يتعاونون ويتكاتفون لاتقاء تلك الجائحة سواء من بايع الخليفة ومن تثاقل عن البيعة في أوائلها . وتقدم على رءوس المدافعين أناس كانوا في يوم البيعة متخلفين ، وجرى القضاء بوقوع أهل الردة في خطأ من أخطاء العجلة كان فيه نفع – أي نفع – للمسلمين . فهجموا على المدينة مغترين بكثرتهم وقلة المدافعين عنها ، ولم يحسنوا الأهبَة للهجوم كما أحسن المسلمون الأهبة للدفاع . فثارت حمية الأنصار والمهاجرين معًا للدين الذي آمنوا به ، وثارت حميتهم معًا للجوار الذي رُوّعوا فيه ، وكانت هذه الهجمة وبالاً على الردة وفاتحة من فواتح الهزيمة ، ولو أنهم قنعوا بالبقاء في باديتهم والتوغل في صحرائهم لقد كان ذلك أدنى إلى الحزم من ناحيتهم ، وإن لم يكن حتمًا لزامًا أن يفضي بهم آخر الأمر إلى نجاح .

وزاد في بواعث الطمأنينة إلى جانب المسلمين أن عاد جيش أسامة سالمًا موفورًا ولمّا ينقض على مبعثه شهران على أرجح الأقوال : عاد بالأسلاب والغنائم من تُخوم الروم ولم يُقتل منه أحد ولا بدا عليه عناء أو مشقة مما كان فيه .

ولا تجهل قبائل البادية ما هي دولة الروم التي اجترأ الجيش على تخومها في غير مبالاة . إنهم يعلمون ما هي دولة الروم بالعيان أو يعلمون ما هي دولة الروم بتهويل السماع ، وجيش يذهب إلى تخوم تلك الدولة ثم يعود غير مسحوق ولا منقوص بل يعود بالغنائم والأسلاب ، كيف تستخف به قبيلة هائمة في عرض صحراء ؟ وكيف تخفى دلالة هذا الحادث على أناس اشتهروا بتنسم الأخبار كما اشتهروا باستطلاع الدلائل على القوة والضعف وعلى الخطر والأمان ؟

إن جيش أسامة قوة ذات بال في الجزيرة العربية ، ولكنه فعل بسمعته ومعناه

ما لم يفعله بقوته وعَدَده . فأحجم من المرتدين من أقدم . وتفرق من اجتمع ، وهادن المسلمين من أوشك أن ينقلب عليهم ، وصنعت الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرجال وقبل أن يصنع السلاح .

* * *

تلك فتنة الردة بجملتها ، وبجانِبَي الخطر والسلامة فيها .

قابلها أبو بكر رضي الله عنه بأحزم ما تقابل به من مبدئها إلى منتهاها ، وعالجها علاجها في كل خطوة من خطواتها وكل ناحية من نواحيها .

فبادرها بالحزم من صيحتها الأولى ، وتعقبها بالحزم يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى أسلمت مقادها وثابت إلى قرارها .

وأحزم الحزم في تلك الفتنة عقابه للمرتدين الذين مَرَدوا على العصيان ولم يستجيبوا نصيح المودة ولا استجابوا نذير الجزاء ؛ فقد كان العقاب أليق شيء بالوزر الذي اجترموه ومردوا عليه : أناس قد استوهنوا سلطان الدين وبخلوا بالمال فبلغ من شحهم به أنهم أنكروا حقوق الدين كله في سبيل حصة من الزكاة ، فجزاؤهم أن يشهدوا من بأس ذلك السلطان ما يعتبرون به ولا ينسونه مدى الحياة ، وأن يفقدوا المال الذي من أجله تبادروا إلى الفتنة واسْتَبَقُوا إلى العصيان . فاستبيحت ديارهم ومراعيهم ومساقيهم ووهبت عطايا للمجاهدين ، ولان خالد في بعض المواقع وأبو بكر الوديع الرفيق لا يلين ، ووضع القصاص فيمن تجاوزوا منع الزكاة إلى قتل المسلمين بين ظهرانيهم ، فلم تأخذه فيهم هوادة بعد إصرارهم على العصيان واعتدائهم بالقتل وإعراضهم عن النصيح والنذير .

جزاء حق لأنه من جنس العمل .

استهانة يقابلها بأس ، وبخل بالمال يقابله ضياع للمال ، ونفس بنفس ، ومجاهدون مخلصون يُؤْثِرون الإيمان على عروض الدنيا أخذًا بثأرهم من عصاة غادرين يؤثرون عُروض الدنيا على الإيمان .

* * *

قال أبو رجاء البصري : « دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلاً

يقبّل رأس رجل ويقول له : أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا ، قلت : من المقبِّل ومن المقبَّل ؟ قالوا : هو عمر يقبل رأس أبي بكر في قتال أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوْا بها صاغرين » .

وأبو رجاء من ثِقات الرواة : وكلا الرجلين جدير بما رُوي عنه من مودة وإكبار ، عمر جدير بإكبار أبي بكر ، وأبو بكر جدير بإكبار عمر إياه ، فالخبر صحيح أو هو كالصحيح ، إن لم يكن فهو حرِيّ أن يكون . هنالك ولا ريب أعظم رجلين واجها حروب الردة بين عظماء المسلمين في ذلك الحين .

وما كان اثنان قط أقرب منهما في القصد ، ولا كان اثنان قط أبعد منهما في الرأي بما أشارا أول الأمر في شأن أهل الردة .

ولا ينتهي العجب في موقفهما هذا عند فرط الاقتراب وفرط الابتعاد ، ولكنه عجب عاجب من غير ناحية فيه ، فإذا قُدّر لهما أن يتفقا مقصداً ويختلفا رأيًا فقد كان المظنون أن يتجه عمر إلى جانب الشدة ، وأن يتجه أبو بكر إلى جانب اللين ، فجاء اختلافهما يومئذ على غير المظنون .

ومهما يكن من حق الدراسة التاريخية في هذا الموضوع فحق الدراسة النفسية يساويه إن لم يزد عليه ، أو ربما كان حق الدراسة التاريخية مطلوبًا لما ينتهي إليه من هذه العجيبة النفسية التي هي غاية العلم الذي نصبو إليه . إذ ليس للتاريخ ولا لغيره من العلوم غاية أشرف ولا أنفس من تعريف الإنسان بالإنسان .

كان عمر يقول لصاحبه : يا خليفة رسول الله ، تألّف الناس وارفُق بهم ! ... كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ : أُمِرْت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسَه ومالَه إلا بحقه ؟

وكان أبو بكر يقول : « والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقًا (١) لقاتلتهم على منعها » ... ويملكه الغضب فيصيح بصاحبه : « يا ابن الخطاب ، رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ؟ أجبّار في الجاهلية وخوَّار في الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوحي وتم الدين ، أوَينقص وأنا حي » ؟

(١) عناقًا : الأنثى من أولاد المعز.

فكيف اختلف الصاحبان هذا الاختلاف ؟

أما أن يختلفا فلا عجب ، وأما أن يتصارحا بالاختلاف فلا عجب فيه كذلك .

وإنما العجب – عند النظرة الأولى – أن يجيء منهما الاختلاف على هذا النحو الذي خالف المنظور كما خالف المعهود من طبائع الرجلين ، وهذا الذي يستوقف النظر في طليعة ما يستوقف الأنظار من حروب الردة ، ومن جميع ما أعقب وفاة النبي عليه السلام وقيام الخلافة الأولى .

وصفوة ما يقال في تفسير هذه العجيبة حقيقتان غير عجيبتين : أولاهما أن المعهود من أخلاق الإنسان ليس هو الإنسان كله ، بل في الإنسان شيء كثير مما ليس يعهده الناس منه في عامة أحواله . والحقيقة الثانية أن الخلق المعهود قد يفسر على وجوه كثيرة بعضها موافق للمتبادر إلى الذهن وبعضها لا يوافق المتبادر إلى الذهن إلا بعد إنعام واستقصاء .

فالشدة في أبي بكر موجودة تظهر في مناسباتها

واللين في عمر موجود يظهر في مناسباته

وأولى المواقف أن يظهر فيها هذان الخلقان هو الموقف العصيب ، لأنه موقف المراجعة الذي لا يذهب فيه الإنسان مع الخاطرة الأولى .

فالموقف العصيب هو الموقف الذي يراجع فيه الإنسان نفسه ويثوب إلى المكنون من أخلاقه فيصل منها إلى القرار الذي يخفى على الناس في عامة الأحوال ولا يظهر لهم للوهلة الأولى . فيشتد اللين ويلين الشديد ، أو يبدو كل منهما على الحالين بجميع ما فيه من شدة ولين .

ومن ثمَّ يبدو ما لم يكن بمعهود في عامة الأحوال ..

على أن الموقف الذي وقفه عمر في حرب الردة معهود فيه إذا علمنا أن الخلق الإنساني يفسر نفسه على عدّة وجوه .

فعمر متصرف بالرأي

وعمر جريء فيما يرى

وعمر وثيق الإيمان

وعمر عادل متحرج في عدله .

وهل كان موقفه من المرتدين خلوًا من خلق من هذه الأخلاق ؟

ألم يكن فيه تصرف حين أراد أن يؤجل أمر الزكاة إلى يوم تتبدل فيه الأحوال ؟

ألم يكن فيه جرأة حين جهر بهذا الرأي ولم يحفل بمداراته ؟

ألم يكن فيه ثقة بأن المصير إلى ثبات الإسلام ، وإن ضل من ضل وزاغ في الطريق من زاغ ؟

ألم يكن فيه تحرج من قصاص لم يتضح له حقه فيه حتى وضح له ذلك الحق فبطل الحرج ووافق صاحبه في كل ما ارتآه ؟

فهذا هو عمر المعهود ، ولكن بعد إنعام واستقصاء .

أما أبو بكر المعهود فنحسب أننا قد بيناه فيما تقدم ، فبينا أن ما صنع من قتال أهل الردة كان أقرب الأعمال إلى « الصديقيات » المطبوعة ، وإن بدا في النظرة الأولى على غير ذلك ، ونحن لا نفهم الإنسان حقًّا إذا فهمنا أنه يعيش حياته كلها ولا يأتي بشيء يخالف ما عهدناه وانتظرناه . ونحن لا نستغرب الموقفين من أبي بكر وعمر إذا أحضرنا هذه الحقيقة التي هي أَقْمَن شيء بالإحضار في دراسة النفوس الإنسانية ، وبخاصة نفوس العظماء .

وقد وضح كل الوضوح أن أبا بكر كان على صواب عظيم .

ولكن لم يتضح كل الوضوح أن عمر كان على خطأ عظيم .

فنحن يخيل إلينا اليوم ، أننا لو كنا في عصر الردة لوضح لنا يومئذ ما يتضح لنا اليوم ، ولم نتردد في متابعة أبي بكر إلى القتال على يقين أنه الصواب كل الصواب أو أنه الواجب الذي لا مثنوية فيه .

ولكننا لو حضرنا ذلك العصر لجاز كثيرًا أن يميل منا الألوف – بل ألوف الألوف – إلى القول بالمسالمة والمتاركة حتى حين ، وجاز أن يعتقد منا الكثيرون أن التربص بالمرتدين حتى يعود جيش أسامة ويثوبوا إلى الحسنى أسلم وأحزم ، فإن لم يثوبوا إلى الحسنى فعُدة القتال يومئذ أوفى وأعظم ، وقد يجنح بنا إلى هذا الرأي أن الخطر من نكسة المنافقين في مكة والمدينة غير بعيد ، وأن الخطر من غلبة المرتدين غير مستحيل ، وأن القبائل إن بقيت في باديتها فأمرها مستدرك حتى تعالج بالهوادة أو بالنذير أو بالقتال

آخر الأمر على ثقة من الغلبة فيه .

ذلك جائز واضح الجواز ، وما كان كذلك فالقول به ليس بالخطأ العظيم ، وإن بينت الحوادث أن القول بغيره كان صوابًا جدَّ صواب .

وإنما الخلاف في أهل الردة من ضروب الخلاف التي يفضها الفقهاء لأن الرأي وحده لا يكفي ولن يكفي يومًا لفض خلاف في مسألة حاسمة من مسائل التاريخ .

وقد شاء القضاء أن يكون أبو بكر بطل الإسلام في حروب الردة غير مدافع . فهو صاحب الشرف الأول بين ذوي الرأي وذوي العمل في تلك الحروب . وكأنما عمر قد وضع بشفتيه شفاه المسلمين جميعًا على ذلك الرأس الجليل يوم انحنى عليه بالتكريم والتقبيل . وحسب المؤرخ والنفساني عبرة أن يلحظ هذه الثروة النفسية في صدر الدعوة الإسلامية : دعوة فيها لكل موقف أبطال ، وفي كل بطل منها أهبة لكل حادث طارىء تختلف فيه الأهَبُ والآراء ، وفيهم جميعًا التعاون والإخلاص مختلفين ومتفقين .

* * *

وما انتهت حروب الردة حتى بدأت في تاريخ الإسلام مرحلة أخرى أجل وأعظم ، تصدى لها الصدِّيق بذلك العزم الذي تصدى به لكل ما عقد النيّة عليه وآمن بصوابه : إقدام كأنه لا يعرف المبالاة والتدبير ، ومبالاة وتدبير ، كأنهما لا يعرفان الإقدام .

كانت المرحلة الأولى تأمين الإسلام في عُقر داره .

وكانت المرحلة الثانية تأمين الإسلام في حدوده وتُخومه ، ودفع الخطر من هجوم الأعداء عليه .

ونقول تأمين الحدود ولا نزيد ، لأننا نعتقد أن الصديق رضي الله عنه أخذ في تسيير البعوث إلى حدود العراق والشام وهو على هذه النية دون نية الفتح بالسلاح ، وأنه رضي الله عنه قد التزم في سياسته الخارجية خطة النبي عليه السلام في تلك السياسة ، وهي الخطة التي ظهرت في بعثة تبوك ثم في بعثة أسامة بن زيد ، وأصدق ما يقال فيها إنها خطة لا هجوم فيها ولا تهجُّم ، ولا باعث لها إلا دفع الأذى ،

وحماية الطريق ، والتمهيد لنشر الدين بالحسنى والبرهان إن تيسر نشره بالحسنى والبرهان ، فإن قامت العقبَة من قوة طاغية تحول دون ذلك فعلى القوة الطاغية حساب تلك العقبة ، حيثما حان أوان الحساب .

ففي غزوة تبوك - كما قلنا في عبقرية محمد - « عاد الجيش الإسلامي أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة ، وكان قد سرى إلى النبي نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية ، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامي عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة في تجهيزه وسفره » .

أو كما قلنا في عبقرية عمر إن دولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم الجزيرة وتهيج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبي عليه السلام ، وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها ، يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول : « ... وكنا تحدثنا أن غسان تَنْتَعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابي ضربًا شديدًا وقال : أثَمّ هو ! ففزعت فخرجت إليه ، وقال ، : حدث أمر عظيم ... قلت : ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول . طلق النبي ﷺ نساءه ! »

وهو حديث يتبين منه مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار.

فلما تولى الصديق رضي الله عنه الخلافة أنفذ بعثة أسامة التي يصح أن تسمى بلغة العصر الحاضر بعثة تأديبية لردع القبائل التي تعيث في الطريق بين الحجاز والشام تأمينًا لتلك الطريق وتوطيدًا لهيبة الإسلام في نفوس تلك القبائل . فلم تجاوز البعثة هذا الغرض المحدود ولم تلبث أن قفلت إلى المدينة بعد أربعين يومًا في قول بعض المؤرخين وسبعين في قول آخرين .

أما غزوة فارس فقد كانت استطرادًا لحروب الردة في أطراف البحرين ، فكانت القبائل التي تدين لسلطان فارس توالي الإغارة على أرض المسلمين فيدفعونها ويقتصون منها ويتعقبونها في بلادها ، وكان الصديق رضي الله عنه يجهل اسم القائد المقدام الذي كان يتولى الدفاع والتعقيب في تلك الأنحاء ، فسأل عنه في شيء من العجب : من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ فعرّفه به قيس بن عاصم

قائلاً : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد : هذا المُثَنَّى بن حارثة الشيباني !

فكان هذا الاستطراد في حرب الردة بداءة الاشتباك بفارس ومن والاها من قبائل البحرين والسّواد ، ومضت الحوادث شوطًا قبل أن تنقلب إلى الحرب الضروس بين العرب وفارس في أوسع نطاق ، فلما أرسل الصدّيق خالدًا لنجدة المثنى أمره أن « يتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم » . وتقدم خالد في تأمين الطريق فصالح أهل الحِيرَة وغيرهم على « أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافرًا على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدُلوهم على عورات المسلمين ... فإن هم خالفوهم فلا ذمة ولا أمان وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمُعاهد ، وعلى المسلمين المنع لهم ... وأيما رجل منهم وُجِد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زي الحرب ... »

فمن طلائع الغزوة الفارسية يلوح للمتتبع أنها غزوة فرضتها الحوادث على الخليفة الأول ، فاستجاب لها بما ينبغي أن يستجيب ، وقَبِل المناجزة حين لم يكن له من قبولها مناص ولا متحوَّل ، ولم ينس مع هذا أن يتألف الأمم ويسالم الأمراء ويدعوهم إلى السلام والإسلام ، ويُشْخِص إليهم من يعلمهم ما هو وَصْف الدين الذي يدعوهم إليه . فإن أصاخوا إليه فلا حرب ولا عداء ، وإن جردوا له السيف رجع معهم إلى حُكْمه الذي نزلوا عليه .

* * *

وهكذا قدر للخليفة الأول أن تتوطد على يديه دعائم الدولة الإسلامية الناشئة في سياستها الداخلية وسياستها الخارجية ، فما صنعه فقد استمر فيه على خطة النبي عليه السلام ، وما صنعه الذين لحقوا به فإنما هو نتيجة لازمة لما بدأ فيه .

وشاء الله أن يشهد سداد رأيه بعينه وهو حظ لا يتاح للكثيرين ممن يفتتحون الدول العظام ولا سيما الشيوخ . فشهد سداد رأيه فيما تم من أعماله وفيما هو آخذ في التمام ، وفارق الدنيا وهو يعلم أنه قارن التوفيق في حرب فارس كما قارنه في حرب الردة ، وليس بينهما تفاوت في الإقدام ولا في ثقة الإيمان .

ويحق لمن يؤرخ تلك الحوادث ، ولمن يبحث في صفات الصديق ومناقبه ، أن يسأل : ما مبلغ تلك الثقة من الإيمان ؟ وما مبلغها من الحساب ؟

إنه سير البعوث لإخضاع الجزيرة العربية وهي ترتجُّ رجّتها الكبرى وليس معه من الجند إلا قلة محدودة من أهل تلك الجزيرة .

وإنه سير البعوث إلى تخوم فارس والروم وليس معه من قوة غير المسلمين من العرب ، مستثنى منهم في أول الأمر كل من تابوا بعد ردة ، وإنه لتفاوت بين القوتين أعظم من التفاوت بين جيش الخليفة وجيوش المرتدين .

أفكانت مجازفة ؟

أفكانت يقيناً لا تصحبه الروية وهي في الدين الإسلامي مطلوبة مع اليقين ؟

لا ريب أن اليقين كان أكبر العُدد التي تقدّم بها الصديق في بعوث الردة وفي بعوث فارس والروم على السواء .

ولا ريب أنه أقصى المسلمين الذين تابوا بعد ردة فلم يلحقهم بالجند الموجهين إلى تخوم الدولتين ، لأنه علم أن العُدة الكبرى في أولئك الجند هي عدة اليقين الذي لا يتزعزع ولا يدركه الوهن والطمع .

ولا ريب أن يقين الصدّيق بنصرة الإسلام على الدين كله في يوم من الأيام قد كان أقوى يقين سكن في قلب إنسان أو سكن إليه قلب إنسان .

فكل وعد من وعود القرآن قد كان عنده حقيقة عيان ، بل أمكن من حقيقة العيان .

وكل كلمة سمعها من النبي بخبر من أخبار الغد المجهول فهي عنده شاهد على شواهد الحاضر الملموس باليدين . .

نزل القرآن الكريم بغَلَبة الروم على الفرس في بضع سنين فذهب الصديق إلى مشركي قريش يُكْبتهم بنبأ هذا النصر القريب لأنهم كرهوه كراهةً منهم في كل أهل كتاب ، وأحبوا نصر فارس حبًّا منهم لكل عابد وثن ، وقال لهم : ليظهرَنّ الروم على فارس ! أخبرنا بذلك نبينا .. فصاح به أُبَيّ بن خلف الجُمحي : كذبت يا أبا فيصل ! قال الصديق : أنت أكذب يا عدو الله ، ودعاه أبيّ أن يراهنه على

عشر قلائص . فعاد اليه يقول : بل على مائة إلى تسع سنين . لأنه سمع وعْد القرآن ، ووعد القرآن حقيقة عيان ، بل أمكن من حقيقة العيان .

ولما تعقب جاسوس المشركين سُراقة بن جعشم ركْب النبي عليه السلام في الهجرة سمعه الصديق يقول لسُراقة : كيف بك إذا لبست سوارَيْ كسرى ؟

فما شك الصديق أن الإسلام غالب الأكاسرة في يوم من الأيام ، وأنه منصور على الدين كله كما جاء في الكتاب وفي حديث صديقه الرسول الأمين .

ذلك كله لا ريب فيه ..

سيُنصر الإسلام على الدين كله في يوم من الأيام . ذلك خبر عيان بل أمْكَن من خبر العيان .

ولكن أي يوم ؟ ومتى يحين الأوان ؟

هنا تبدأ الرويّة إلى جانب اليقين ، بل تجب الروية على ولي الأمر في الإسلام كما يجب اليقين .

ونعتقد نحن أن الخليفة الأول قد أعطى الروية حقها كما أعطى اليقين حقه ، فما كان أبو بكر بالرجل الذي ينسى الحيطة كلما وجبت الحيطة على ولي الأمر ، وهي هنا كأوجب ما تكون .

وحسبنا من ذلك حيطته في حراسة المدينة وتبييت الجند بالمسجد حين تجرد لكفاح أهل الردة ، ثم وصيته لخالد بن الوليد – وقد علم حُنْكته في فنون الحرب وقدرته على قيادة الجيوش – فلم يُنسه هذا العلم أن يزوده بالنصح حين خرج لحرب المرتدين ، فيدير هذا النصح كله على الحيطة او اليقظة كما قال من كلام رصين وجيز : « إذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة فإني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بأفراد ، وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن في العرب غرَّة ... وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك ، وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك ، متربص دائرة السوء ينتظر لمن تكون الدّبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندي من أهل

اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأَسَرِهم ، فإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة ، سر على بركة الله » .

وأدلّ من هذه الوصية على الحيطة والاحتراس في كفاح الأجانب وصيته ليزيد بن ابي سفيان في فتوح الشام حين يقول : « .. وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لُبْثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولا تُرَيِّنْهم فيروا خَللكَ ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ثروة عسكرك ، وامنع من قِبلكَ من محادثتهم ، وكن أنت المتولي لكلامهم ، ولا تجعل سرك كعلانيتك فيختلط أمرك ... وأكثر حرسك ، وبددهم في عسكرك ، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك ، فن وجدته غفل عن مَحْرَسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار.. » .

ولم ينس قط ما بين جنده وجند العدو الأجنبي من فروق العدة . فكان يعمل في تدارك هذا الفرق ورأب هذا الصدع ما استطاع . فذهب يومًا يتفقد جنده الذين هموا بالخروج لغزو الشام فلم تعجبه عدّتهم وسأل من حوله : ما ترون في هؤلاء إن أرسلتهم إلى الشام في هذه العدّة ؟ فقال عمر : ما أرضى هذه العدّة لجموع بني الأصفر ، وقال بقية أصحابه : نحن نرى ما رأى عمر ، فكتب إلى أهل اليمن يستكمل العدّة ويستنهضهم إلى الجهاد ليخفوا إليه بما يسد هذا النقص من جند وسلاح .

فالرجل الذي لا تفوته فائتة من شأن القبائل التي يرسل اليها بعوثه ، والرجل الذي يختار القائد فيحسن اختياره ثم لا ينسى مع ذلك وصيته وتحذيره وإتمام عدته بما يقارب عدّة عدوّه ، والرجل الذي يقرن ذلك كله بالحيطة في مدينته بما في وسعه — ليس هو الرجل الذي يُزْجي البعوث إلى تخوم فارس ولم يأخذ للأمر مثل هذه الحيطة ولم يعمل فيه مثل هذه الروية ، وليس بالذي يجازف وله مندوحة عن المجازفة من إرجاء أو مسالمة إلى حين . وإنما يرجو الغلبة بالقليل على الكثير لأنه يعتمد على « عدّة الإيمان » ويعلم كما قال ليزيد بن أبي سفيان : « قد نبأنا الله ان الفئة القليلة مما تغلب الفئة الكثيرة باذن الله ، وأنا مع ذلك ممدكم بالرجال في أثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا الى زيادة إنسان » .

وإننا لنعلم اليوم أن الصدّيق لم يجازف قط بتجريد البعوث الى تخوم فارس والروم ، ونعلم أن عوامل النصر كانت كلها أو معظمها في صفوفه ، وأن عوامل الهزيمة كانت كلها أو معظمها في صفوف أعدائه .

نعلم اليوم أن الفرس قد انهزموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطمتها الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وباخت نارها التي تعبدها في قلوب أهلها قبل أن تبوخ في معابدها ومشاعلها ، وشاع فيهم الخوف من الثبات في القتال حتى قيدوا بعضهم الى بعض بالسلاسل ليحولوا بين هارب وهربه ، وقلت الدربة في قادتهم حتى تخيروا أسوأ المواقع وأسوأ الأوقات للهجوم في معارك كثيرة .

ونعلم ان الروم قد انهزموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطّمها ما قد حطم الفرس من الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وباخت عقائدها في صدورها لفرط ما أرّثها من الجدل العقيم والمحال الدميم ، واستكانت إلى الذلة زمنًا حتى رضيت بالجزية تؤديها لبرابرة الهون والأبارة ، واشتملت على أمم كثيرة تعاديها وتتربص بها الدوائر كلما طمع الطامعون فيها .

نعلم اليوم ذلك من الواقع الذي وقع وبطل الشك فيه ، ومن التاريخ الذي تفتحت أمامنا صفحاته وقد زال عنها الحجاب .

ولكنّ الصديق لم يكن قد رأى هذا الذي رأيناه ، ولا تصفّح هذا الذي تصفحناه ، فهل معنى ذلك أنه أقدم بغير علم ، وأنه نسي ما طبع عليه من الحيطة والحزم ، وأنه سها عن واجب الروية وقد تهيأ له واجب اليقين ؟ !

لا . فإن الذي كان يعلمه الصدّيق قد كان يكفيه ويغنيه عن هذا الذي علمناه .

كان يعلم أن الفرس قد خسروا قبل الإسلام وقعة ذي قاروهم أقوى صولة والعرب أضعف شأنًا من شأنهم بعد الإسلام .

وكان يعلم أن الروم قد صبروا على بعثتين عربيتين بلغتا من بلادهم إلى التخوم وأوغلتا في بعض الأطراف ثم فترت همتهم عن مقابلة ذلك بالقمع والقصاص السريع .

وكان يعلم أن العرب إن طلبوا الدِّين حاربوا صادقين في القتال ، وإن طلبوا

الدنيا حاربوا صادقين في القتال ، وأنهم موعودون بالنصر ومؤمنون بصدق الوعد ومقبلون بنفوس تحب الموت كما يحب أعداؤها الحياة ، وأنهم خِفاف لا تثقلهم العُدد ، محميون من وراء ظهورهم بالصحراء إن وجبت الرجعة ، مُقْدِمون على أرض خبرتها طلائعهم وهوّنت عليه خطبهم ، وأبلغته من أخبار فِتَنها ومفاسدها ما يملي له في الإيمان بالقدرة عليها .

فإذا علم هذا فهو حسبه من الروية مقرونًا بذلك اليقين الذي لو سها عن كل روية لكان له بعض العذر ، وكان به جُل الغَنَاء .

وفي أقل من ثلاث سنوات قصار أنجز ما أنجز من تلك المآثر الطوال .. وفي أقل من ثلاث سنوات أنفذ بعثة أسامة وفي سبيلها ما فيه من صعاب ، وقَمَع الردَّة وحولها ما حولها من خطر ، ووطىء حدود فارس والروم ولها ما لها من هيبة ومَنعة : ثلاثة أركان للدولة الإسلامية لم يكن ليقوم لها ركن قبل أن تقوم ، ولو أنها حُسبت لثلاثين سنة – ولم تحسب لثلاث سنوات قصار – لجلَّلتها جميعًا بالثناء والفخار.

ولم يتسع الزمن لإقامة نظام للدولة الإسلامية في عهد أبي بكر على مثال النُّظم السياسية والإدارية التي تقام للدول الكبار في حداثة نشأتها . أو لعل المسألة هنا ليست مسألة اتساع الوقت وضيقه في عهد الخلافة الأولى ، ولكنها مسألة الحاجة إلى تلك النظم وقلة الحاجة إليها ، ففي عهد الخليفة الأول بعد النبي ﷺ لم يطرأ على إدارة الدولة الإسلامية ما يدعو إلى نظام جديد غير النظام الذي كانت تجري عليه في عهده عليه السلام. لأن الجزيرة العربية عادت بعد حروب الردة إلى مثل ما كانت عليه في أيام النبوة ، ولأن الأرجاء الأجنبية التي زحفت عليها بعوث المسلمين لم تزل إلى آخر خلافة الصدِّيق في دور الغزو والفتح ولم تبلغ بعد إلى دور التوطيد والتنظيم ، فكل ما جرى عليه النظام في أيام النبوة فقد كان صالحًا للاتباع في أيام الخلافة الأولى ، وههنا تتجلى حكمة النبي عليه السلام في إسناد الخلافة الأولى إلى أصلح الناس لمتابعة العهد النبوي على حاله الذي كان عليه . حتى إذا حان وقت التوسع والتصرف وجد الوقت من هو أصلح وأقدر عليه ، وكأنه كان معروفًا من قبل موكولاً إلى حينه الذي يترقبه ويستدعيه ، ولن يكون إلا عمر بن الخطاب كما سماه عليه السلام حيث قال : «أُريتُ في المنام أني

أنزع بدلو بكرة على قليب(١)فجاء أبو بكر فنزع ذنوبًا(٢)أو ذنوبين نزعًا ضعيفًا ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غَرْبًا ، فلم أر عبقريًّا يفري فريه حتى روي الناس وضربوا بعطن(٣)» .

* * *

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الأداة الحكومية– أو الإدارية – لم تكن في عهد الصديق محتاجة إلى نظام غير النظام الذي اتخذه النبي عليه السلام ، واكتفى به في إدارة الشؤون العامة بمكة والمدينة والجزيرة العربية ، مع التعديل الذي اقتضاه توزيع العمل وتفرقة العبء الكبير بعد وفاة النبي ، وغياب المرجع الأعلى الذي ترتفع إليه جميع الأمور.

فتولى بيت المال رجل سماه النبي عليه السلام « أمين الأمة » وهو أبو عبيدة بن الجراح ، وتولى القضاء رجل لم يشتهر أحد بالعدل اشتهاره وهو عمر بن الخطاب ، وتولى الكتابة كاتب النبي عليه السلام زيد بن ثابت ، وكانت ولاياتهم أقرب إلى الارتجال والتداول منها إلى التكليف الدائم والعمل المرسوم .

وكان قادة الجند يفتحون البلدان ويقيمون فيها الولاة والقضاة على النحو الذي ألفوه في الجزيرة العربية ، ومن عرضت له مشكلة من مشكلات الإدارة في بلد أجنبي تركها على النحو الذي كان مألوفًا في ذلك البلد ، إلا ما كان فيه خلاف للدين .

وكل من ولاَّه النبي عليه السلام في حياته عملاً من الأعمال العامة أبقاه الصديق في مكانه ، أو ردَّه إليه إن كان قد تحول عنه ، أو استأذنه في تحويله عنه إن بدا له من مصلحة المسلمين ما أوجب تحويله ، كما كتب إلى عمرو بن العاص « إني كنت قد رددتك الى العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولاَّكَه مرة وسماه لك أخرى : مبعثك إلى عمان ، إنجازًا لمواعيد رسول الله ﷺ ، فقد وليته ثم وليته ، وقد أحببت – أبا عبد الله – أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك . »

---

(١) بئر (٢) دلو. (٣) مربط الإبل حول الماء.

وأشار عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد بعد أن قتل مالك بن نويرة على غير بيِّنة قاطعة في رأي عمر، وتزوج بامرأته في ميدان القتال وهو أمر تكرهه العرب قبل الإسلام وبعد الاسلام. فاختلف الفاروق والصديق اختلافهما الذي يرجع من كل منهما إلى أصل أصيل في الطباع والنظر الى الأشياء والرجال: والفاروق وديدنه أن يوقع الجزاء بمن يستحقه كائنًا من كان، والصديق وديدنه أن يتألف ويستبقي ولا يبتدىء شيئًا بغير سابقة، وساعده على إبقاء خالد سابقة للنبي عليه السلام معه في حرب بني جذيمة. فإنه تعجل يومئذ في قتل بعض الأسرى فودَاهم النبي عليه السلام حتى رد إليهم مَيْلغَة الكلب، ورفع يديه يبرأ إلى الله مما صنع خالد، ولكنه لم يعزله من الإمرة أو القيادة. فكانت هذه السابقة أمام الصديق يومَ لامَ خالدًا على ما بدر عنه ثم أبقاه.

وما من شيء يدل على تكافؤ العظمة بين الرجلين كما تدل عليه الحجة التي يعتمد عليها كل منهما حين يختلفان. فما اختلفا قط بحجة تضعف من ناحية وحجة تقوى من الناحية الأخرى، بل كان لكل منهما حجته الناهضة فيما يجنح إليه، وإن كانت هذه حجة اقتداء، وهذه حجة ابتداء..

جاءت الغنائم والأنفال إلى بيت المال لتوزيعها بين من يستحقونها من الرجال والنساء. فكان الفاروق يجنح إلى تمييز الأنصبة على حسب المآثر والأقدار، وحجته أنه لا يُسوِّي بين من قاتل رسول الله ومن قاتل مع رسول الله، وكان الصديق يجنح إلى التسوية بين الأنصبة بغير تمييز، وحجته أن «الأعمال شيء ثوابه على الله، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثَرة».

وما اختلفت حجة الابتداء وحجة الاقتداء – أو ترك الابتداء – كما اختلفت هاتان الحجتان على مساواة في النهوض والإقناع.

وقد جرى الصديق في سياسة الدولة على سنة النبي عليه السلام من مشاورة ذوي الرأي والثقة في كل ما جلّ أو دعا إلى السؤال، ولكنه كان يستقل بالرأي حين تكون التبعة فيه تبعته دون غيره، كما استقل بالرأي في اختيار الخليفة من بعده، واستقام له بعد المشاورة والروية أن يعهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب.

فخلاصة ما يقال في سياسة الصديق للدولة الاسلامية على عهده أنها كانت سياسة المقتدي المقتدر الفعال الذي يصغي إلى النصح ممن يرون التصرف والتمييز والابتداء ، ولم يكن قط مقتديًا على ضعف وتواكل وإلقاء بالتبعة على غيره ، بل ربما اقتدى ليعمل ما هو أصعب وأعضل وأنهض بالتبعة من أعمال المتصرفين .

* * *

وإذا حُسبت لأبي بكر بعوث أسامة وبعوث الردة وبعوث فارس والروم ، فلا بد أن يحسب له عمل آخر لا يدخل في باب البعوث ، ولكنه أقوم للدولة الإسلامية من جميع هذه البعوث ، لأنه دستور هذه الأمة التي لم تقم لها قائمة بغيره ، وهو جمع القرآن .

وقد كانت سُنّته في جمع القرآن سنته الواضحة التي لا مَحيد عنها : وهي سنة الاقتداء والإصغاء إلى القويم من الآراء . فلمَّا مات من مات من حُفَّاظ القرآن في حروب الردة وخيف على من بقي منهم أن تأتي عليهم حروب فارس والروم كَبُر الأمر على عمر فأشار على الخليفة بجمع القرآن . فأحجم بادىء الرأي ، وهو يقول : كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ؟ ثم انشرح صدره لما أشار به عمر فتجرد له بجميع عزمه ، وانقضت خلافته على القول الأشهر والقرآن مجموع مفروغ من كتابته في المصاحف كما نقرؤه الآن .

وكانت الدولة الإسلامية بهذه المثابة أمانة أعْظِمْ بها من أمانة تنوء بها كواهل الرجال . يقول من شاء ما شاء في دراسة هذه الفترة الخالدة ، إلا شيئًا واحدًا لا يقول عارف بما يقول ، وهو أن أحدًا كان يتلقى تلك الأمانة خيرًا من تلقيه أو يسلمها خيرًا من إسلامه ، منذ ان تلقاها بيد من النبي عليه السلام حتى أسلمها بيد إلى عمر ابن الخطاب .

الصدّيق والحكومة العصرية

قلنا في الفصل السابق عن الصديق والدولة الإسلامية إن الحاجة لم تَدْعُ في عهده إلى نظام غير النظام الذي سنه النبي عليه السلام لسياسة الجزيرة العربية، وإنه – رضي الله عنه – قد توفي ولما تستقر الأمور في البلاد المفتوحة على حال تدعو إلى اتباع نظام شامل لكل قطر من أقطار الدولة الإسلامية.

إلا أن الصديق كان أول خليفة قام بالحكم الإسلامي بعد عهد النبوة فمن الطبيعي أن نسأل عن نوع الحُكم الذي توصف به حكومته وحكومة الخلفاء من بعده، وأن نعرف وجه المشابهة بين تلك الحكومة وحكومة العصر التي قامت على المبادىء الدستورية الحديثة. فأي حكومة هي حكومة الصديق أو حكومة الإسلام في عهده؟ وأي العناوين هو أقرب إليها من عناوين الحكم في هذا العصر الحديث؟

الديموقراطية – ولا ريب – هي أقرب النظم إلى نظام الحكم في عهد الصديق.

ولكن الديموقراطية أشكال تختلف في العصر الواحد بين أمة وأمة، ولها قواعد دستورية ومقدمات تاريخية من العسير أن نوَحِّد بينها وبين قواعد الخلافة ومقدماتها، ومن السهل جدًّا مع هذا أن نصدُف عن هذا التوحيد دون أن نُغِض من نوع الحكومة في صدر الاسلام.

فليس من المحقق أن حكومة الاسلام يومئذ توصف بالديموقراطية على المعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة في هذه الايام.

ولكن من المحقق أن الحكومة الاسلامية على النحو الذي جاء به القرآن الكريم واتفق عليه المسلمون كانت بعيدة كل البعد من جميع أنواع الحكومة المعيبة أو جميع

المبادىء التي تستند في تقرير حكم الشعوب على أساس معيب..

فإذا كانت حكومة الخلافة لم تقرر الديموقراطية على أساسها العصري المعروف بيننا فهي - بلا ريب - قد أبعدت مبادىء الاوتوقراطية، ومبادىء الثيوقراطية، ومبادىء الأليجاركية، ومبادىء حكومة الغوغاء، وسائر المبادىء التي لا تستقيم مع حرية الفرد ومع الفطرة السليمة.

فالأتوقراطية وهي حكومة الفرد المستبد ممنوعة في الاسلام، لأن القرآن الكريم يأمر النبي أن يشاورهم في الأمر وينص على أن «أمرهم شورى بينهم». وإذا كان النبي الذي يتلقى الوحي الإلهي لا يَجِل عن مشاورة أتباعه والرجوع إلى رأيهم في سياسته، فغيره من ولاة الأمر أولى أن يتقيد بالشورى ويتجنب حكومة الطغيان.

والثيوقراطية وهي الحكومة التي يدعي فيها الحاكمون صفة إلهية ممنوعة كذلك في الإسلام، لأن القرآن الكريم يعلّم المسلمين أن النبي بشر مثلهم ويُبطل الكهانة والوساطة بين الانسان وربه، وقد نهى النبي ولاته وأمراء جيشه أن يُبرموا العهود باسم الله أو باسم رسوله، فكان يقول لمن ولاه: «... لا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله».

ولما قيل للصديق: يا خليفة الله، أنكر ذلك وقال: إنما أنا خليفة رسول الله، وسأل الناس أن يُقوِّموه ويرشدوه.

والأليجاركية وهي حكومة الفئة القليلة من الأعيان والسروات ممنوعة كذلك من المسلمين، لأن بيعة الخاصة في الإسلام لا تُغني عن بيعة العامة وليس في الاسلام سيادة نسب كما جاء في الحديث الشريف: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة».

وحكومة الأهواء سواء كانت أهواء الوجوه أو أهواء السواد ممنوعة كما منعت الحكومات التي أسلفناها. فليست أهواء المحكومين مُغنية عن أصول الحق والعدل ودستور الشريعة والنظام، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: «فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكُلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا»...

وإذا امتنعت كل هذه المبادئ المعيبة في حكم الناس فقد صلحت الحكومة بما شئت من الصفات والعناوين. إذ الحكومة على تعدد أنواعها إنما تنحصر في نوعين اثنين هما النوعان اللذان فرق بينهما أرسطو في أصول السياسة : أوهما الحكومة الصالحة لمصلحة المحكومين، والحكومة الفاسدة لمصلحة الحاكمين. وكل ما عدا ذلك من الصفات والعناوين فهو داخل في أحد هذين النوعين.

فإذا لم تكن حكومة الصديق ديموقراطية حديثة فالديموقراطية لا تتوخى من الحكم غاية أفضل من الغاية التي تتوخاها حكومة الخلافة، ولا تُبْعِد من المبادىء شيئًا غير المبادىء التي أبعدتها الحكومة الاسلامية بما نص عليه القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو اتفاق المسلمين.

* * *

أما الحكومة من حيث علاقتها بشخص الخليفة وخلائقه النفسية فخلائق أبي بكر التي عرفناها دليل عليها : عفة وصدق ودعة وحزم وأناة وكَيس، وكل ما يعهده من هذه الخلائق فهو معهود من الخليفة الأول في جميع ما حكَم به وتولاه.

ولي الخلافة فأصبح ذات يوم وعلى ساعده أبْراد يذهب بها إلى السوق، فلقيه عمر فسأله : أين تريد؟ قال : إلى السوق. قال : تصنع ماذا وقد وُليت أمر المسلمين؟ قال : فمن أين أطعم عيالي؟ فأشار عليه أن يذهبا إلى أبي عبيدة أمين بيت المال ليفرض له قوته وقوت عياله. ففرضت له ستة آلاف درهم في السنة.

وكان يقيم بالسنح على مقربة من المدينة فتعود أن يحلب للضعفاء أغنامهم كرمًا منه ورفقًا بهم. فسمع جارية تقول بعد مبايعته بالخلافة : اليوم لا تحلب لنا مفاتح دار. فسمعها فقال : بلى لعَمري لأحلبنها لكم. فكان يحلبها وربما سأل صاحبتها : يا جارية! أتحبين أن أرغي لك أو أصرح؟ فربما قالت : أرغ، وربما قالت : صرح. فأي ذلك قالته فعل.

ثم تكاثرت أعمال الحكومة فانتقل إلى المدينة ورأى أن يعين نفسه على النفقة بالتجارة حيثما استطاعها. فلما حضرته الوفاة أمر أن يُحصى ما أخذه من بيت المال

فيرد من ماله وأرضه وقال لعائشة رضي الله عنها : « فإذا أنا مت فردي اليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما فوقي اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتي اتقيت بها نزّ الأرض. كان حشوها قطع السعف ».

ومما روي عن عفته وزهده أن امرأته اشتهت حلوًا واستفضلت من نفقتها في عدة أيام ما تشتريه به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات إلى بيت المال وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لثمن الحلوى.

وما كان صديق النبي وصفيه ليبيح لنفسه ما لم يبحه النبي وإن استطاع من خاصة ماله ، فضلاً عن بيت مال المسلمين.

وكان حكمه إلى الرفق والأناة والكياسة ، غير غافل عن اليقظة والحزم حيثما وجبت يقظة وحزم.

فكان يتقصى أخبار الولاة ويسأل الرعية : هل من أحد يتشكى ظُلامة ؟ فإن وجد ظلامة أنصف المظلوم على سنته التي استنها ، وهي أن الكبير صغير حتى يأخذ الحق منه.

وكان يوصي قائده : « ألّا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تتجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم ». أو يقول : اقبل علانيتهم وكلهم إلى سرائرهم ، ويأمره مع ذلك ألا يغفل عن استطلاع أمرهم لإصلاح ما فسد منه.

وإلى كياسته يرجع الفضل في تغليب مبدأ مِنْ أسْلم مبادىء القضاء قديمها وحديثها ، أخذ به رجال المسلمين في قضائهم واتبعته الحكومات العصرية جميعًا في قضائها ، ونعني به المبدأ الذي يحرّم على القاضي أن يحكم بعلمه في إقامة الحدود ، وقد آثره الصديق رضي الله عنه فقال « لو رأيت رجلاً على حَدٍّ من حدود الله لم آخذه حتى يكون معي شاهد غيري ».

* * *

وما حفظت له وصية قط إلا ظهر فيها خُلقاه الغالبان ، الكياسة والصدق ، فإذا حذر الولاة أن يكشفوا عن أسرار الناس لم ينس قط تحذيرهم من إخلاف الوعد والوعيد ، وجماع ذلك قوله لعكرمة : « مهما قلت إني فاعل فافعله ، ولا تجعل قولك لغوًا في

عقوبة ولا عفو، ولا ترج إذا أمنت ولا تخافنّ إذا خُوِّفت ، ولكن انظر ماذا تقول وما تقول ولا تعدن معصية بأكثر من عقوبتها ، فإن فعلت أثمت وإن تركت كذبت » .

جرى حكمه كله على هذه السنة من الرفق والصدق ومن اليقظة والحزم ، ومن الكيس والفطنة ، لم تؤخذ عليه إلا بادرة واحدة هي إحراقه الفجاءة في ساعة من ساعات الحدة التي كان يغالبها جهده ، حتى غلبته مرة في عقاب هذا اللص الخاتل السفاح .

وكان الفُجاءة هذا – أو إياس بن عبد ياليل – قد جاء الصديق فاستعانه بالسلاح لقتال المرتدين ، فلما أعطاه السلاح أخذه ليقطع الطريق ويعيث في الأرض ويثخن فيمن صادفه قتلاً ونهبًا من المسلمين كان أو المرتدين ، وتفاقم شره وعظم بغيه حتى وقع في الأسر وجيء به الى الخليفة وهو يرى أنه قد استحق جزاء أكبر من جزاء القتل لأن جرمه أكبر من جرم قاتل . وقد استثاره هذا الرجل بكل ما يثيره ويذهب بحلمه ورفقه : استثاره بكذبه عليه وهو يمقت الكذب ، واستثاره بخداعه إياه وهو يكره أن يعبث به أحد ، واستثاره بتسخيره في قتل المسلمين بما أعطاه من سلاح وعدة ، فأكبر جرمه بمقدار ما يكبر عنده الصدق والكرامة والغيرة على دماء المسلمين ، وأمر به أن يلقى في نار توقد له في مُصلى البقيع .

خطأ ولا ريب . .

ولكنه خطأ له عذره ، وخطأ في رأي أبي بكر نفسه قد ندم عليه بعد فورة الغضب التي ذهبت بحلمه ورفقه ، وقد ظل يذكر هذا الخطأ ويأسف له إلى أن قال وهو يجود بنفسه : « وددت أني لم أكن حرقت الفجاءة السُّلمي وأني كنت قتلته سريحًا أو خليته نجيحًا . . . » .

ومهما يكن من رأي الأقدمين أو المحدثين في هذا الحادث فالخطأ الذي لا جدال فيه أن ندين به الإسلام كله أو ندين به أبا بكر كله في جميع حالاته . ففي كل عصر تقع الحوادث من اشباه هذا الحادث المفرد ولا تحسب على دين أو دولة سواء في العصر القديم أو العصر الحديث . . إنما يحسب على الإسلام ما هو قاعدة من قواعده ، ويحسب على أبي بكر ما هو سنة مطردة في حكومته ، وما عدا ذلك فهو نَبْوَة عارضة

عذره فيها فداحة الجرم وشفيعه فيها طول الندم، فمن غلا في المؤاخذة حتى فتح من هذا الحادث المفرد بابًا للمقارنة بين عصر وعصر. وبين حاكم وحاكم فقد أضاف إلى سوء النية جهله بالعصر الحديث.

وعلى هذا يثبت من شاء هذا الحادث لحكومة أبي بكر ويحذفه من شاء منها، فلا تزال على الحالين قدوة لأصلح الحكومات العصرية في مزيتين جامعتين: إحداهما إبطال المبادىء الضارة التي تفسد الحكومة على اختلاف صفاتها وعناوينها ودعاواها، والثانية تقرير الغاية التي لا تفضلها غاية لحكومة إنسانية: وهي حرية الفرد ومصلحة المحكومين.

* * *

الصديق والنبي وصحبه

سئل النبي عليه السلام : يا رسول الله ! أي الناس أحب إليك؟

قال : عائشة .

قالوا : إنما نعني من الرجال ...

قال : أبوها .

وكان عليه السلام يقول : ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافيناه بها ماخلا أبا بكر، فان له يدًا يكافيه الله بها يوم القيامة .

ويفسر ذلك قوله عليه السلام : ما أحدٌ أعظم عندي يدًا من أبي بكر: واساني بنفسه وماله ، وأنكحني ابنته .

وكان عمر بن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله .

وهذه حقيقة لو لم يؤيدها لسان المقال لأيدها ما يسمونه بلسان الحال. فإن أبا بكر كان ألزم الناس للنبي وأعرفهم بسره وجهره وأقربهم إلى ثقته وحسن رأيه ، وكان النبي عليه السلام يسمر عنده في شئون المسلمين ويركن إلى مشورته في كثير من الأحايين ، وإذا بلغ من شأن رجل أن يكون أحب الناس إلى النبي عليه السلام فهو أهل لحبه وأهل لثقته لا مراء ، لأن هذا الحب في النفوس العظيمة قرين الثقة والتقدير لا يخلو منها ولا ينفصل عنها – فمن استحق منها الحب الراجح فقد استحق عندها الثقة الراجحة في آن .

فلم يكن حب النبي أبا بكر حب الرجل يجزي به من يحبه ويخلص له ويوليه الجميل من ذات نفسه وماله ثم لا يزيد. ولكنه كان كذلك حب الرجل من يستحق

منه الحب لفضيلته وكفايته واقتداره على معونته فيما تجرد له من عمل عظيم لا يضطلع به كل معين.

وحين قدمه للإمامة من بعده لم تكن وسيلته إليها حب الإخلاص والجزاء، بل كانت وسيلته إليها حب الثقة والروية وحب الدعوة التي تجرد لها وحب المسلمين الذين آمنوا بتلك الدعوة. فإن نبيّا كمحمد عليه السلام لا يجعل مستقبل دينه مكافأة لصداقة إنسان، وإنما يَكِلُ هذا المستقبل لمن هو أهل لأمانته وأقدر على صيانته، وهو من أجْل ذلك أهل للحب وأهل للبُقيا والادخار.

أما حب أبي بكر محمدًا فهو كما قدمناه حب الإيمان والإعجاب والولاء، وهو الحب الذي تهون فيه على المرء نفسه وماله وذووه، وينزعه من ماضيه ليستولي على حاضره كله وما هو أعز عليه من الحاضر وما فيه، وهو الأمل فيما يشهد والأمل فيما وراء الغيب، بل الأمل في حياة لن تبيد.

فمنذ اللحظة التي انعقدت فيها الصداقة بينهما رضي الصديق الأمين أن يسخو في سبيل هذه الصداقة بكل نفيس عنده وكل أثير لديه وأنفق ماله وفارق وطنه وأبناءه وهاجر من مكة مخاطرًا بحياته، فما همّه وهو محفوف بالخطر في طريقه إلا صاحبه الذي معه يفديه بما وسعه من فداء: ليسبقه تارة ويخلفه تارة أخرى ليدرأ عنه الشر من حيثما توقعه واتقاه، ثم يقيم على هذا العهد ما أقام في دنياه، غير باخل بعزيز، ولا ناكص عن محذور ولا نادم على مبذول أو مفقود.

ومن فضول القول أن يقال إنه أقام على عهده هذا بعد موت النبي، كما أقام عليه طوال حياته، فكل حركة تحركها وكل كلمة قالها شهيد بذلك له عند من ينصف ويعقل، بل عند من يعقل ولو لم يكن من المنصفين.

إذ ليس من العقل أن يقدح قادح في ولاء الصديق للنبي بما حرَم فاطمة رضي الله عنها من ميراث أبيها. فلئن حرمها لقد حرم عائشة مثلها، لأن الأنبياء في شرعة محمد لا يورثون، وما أراد أبو بكر أن يضن بميراث محمد على وارثيه ومنهم بنته وأحب الناس إليه، ولكنه أراد أن يضن بدينه ويضن بوصاياه، وهي أولى أن تصان من المال ومن البنين، كذلك لا يقال إنه حرم عليًّا رضي الله عنه حقًّا في الخلافة، فما كان في

وسعه أن يحرمه شيئًا لوكان عليه السلام قد وصّى له بشيء، وما كانت فاطمة بغائبة عن سرير أبيها في مرض موته فيقال إنهم قد كتموا عن النبي بعض ما قال، ولا كان عليٌّ بالذي يعوزه المنطق لو أنه أراد البرهان من القرآن الكريم أو أراد الحجة من الحديث الشريف. ومن أين لأبي بكر تلك القوة التي ينتزع بها الخلافة انتزاعًا من آل النبي ومن الأنصار والمهاجرين بغير حجة وبغير برهان؟ لئن استطاع ذلك غير محتال ولا مغتال ولا سافك دم لكفى بذلك آية له أنه أحق المسلمين بولاية أمر الإسلام وأقدرهم عليها. وما استطاعه بعد ذلك من تثبيت الدين وقمع الفتنة وافتتاح الدولة لهو الآية بعد الآية والتمكين فوق التمكين.

لقد حدث بعد النبي ما لابد أن يحدث، وما ليس بكثير أن يحدث في موقف مقتضب لم يُمهَّد له بسابق متبوع ولا بقدوة مأمومة، فتأخر عليٌّ على المبايعة أشهرًا وقيل إنه لم يتأخر غير أيام بل ساعات، فلا هو ولا أبو بكر صنعا ما يعاب في هذه الفترة طالت أو قصرت، لأن أبا بكر كان يندب عليًا للمهمات في حراسة المدينة وعليٌّ كان يلبي ندبة أبي بكر تلبية الصدق والنجدة. ولو صح أن أبا بكر أخفى حقًا يشينه إخفاؤه لما أقرّ عليٌّ له ببيعة، ولا رضي له ولا لمن بعده بصحبة، فكيف لو صح ما تهوَّس به بعض المتهوسين من إخفاء آيات من القرآن أو كلمات من الحديث؟

جهد ما يقال في أحداث تلك الفترة أنها مدعاة أسف لا يؤسى عليه، لأنها أقل ما يؤسف له إلى جانب الغبطة التي يغتبط بها من أحاط بالموقف وأحاط بدواعي الخطر فيه ودواعي السلامة منه.

أما عهده لعمر من بعده فلا محل هنا للموازنة بين استخلاف عمر واستخلاف علي في تلك الآونة، ولكننا نقول إن الصديق قد جهد في مسألة العهد جهد رأيه، وإنه كان يود أن يكل الأمر الى المسلمين يختارون من يشاءون، فجمع إليه نخبة من أهل الرأي وقال لهم فيما قال: «... قد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمّرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي».

فلم يستقم لهم أمر كما جاء في رواية الحسن البصري، ورجعوا اليه يقولون: «إن

الرأي يا خليفة رسول الله رأيك» فاستمهلهم حتى «ينظر لله ولدينه ولعباده».

ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن الحضير.

وسأل عليًّا فقال: «عمر عند ظنك به ورأيك فيه، إن وليته - مع أنه كان واليًا معك - نحظى برأيه ونأخذ منه، فامض لما تريد، ودع مخاطبة الرجل، فان يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت، وإن يكن ما لا تظن لم ترد إلا الخير».

وأملى أبو بكر كتاب العهد على عثمان بن عفان فكتبه وختمه وخرج به مختومًا ونادى في الناس: أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟... وقيل إن أبا بكر أشرف من كُوَّته فقال: «يأيها الناس! إني قد عهدت عهدًا أفترضونه؟» فقالوا: «رضينا ياخليفة رسول الله». وقام عليٌّ فقال: «لا نرضى إلا أن يكون عمر».

ثم كانت البيعة التي أجمع عليها المسلمون.

* * *

فالمسألتان اللتان حسبتا من قبيل الخلاف بين الصديق وعِترة النبي عليه السلام هما هاتان المسألتان: الميراث والخلافة.

ففي مسألة الميراث ما كان له أن يُبرم فيها غير ما أبرم وقد علم أن النبي لا يورث كما قال عليه السلام، وكان حكم عائشة في هذا كحكم فاطمة رضي الله عنهما، وقد حضرته الوفاة وهو يوصي عائشة أن تنزل للمسلمين عما وهب لها من ماله، وإنه لحلّ لها بالهبة والميراث.

وفي مسألة الخلافة لا تحمد المجاملة حيث تكون المجاملة إخلالاً بالذمة التي بينه وبين ربه، وإخلالاً بالوحدة الإسلامية ومصالح المسلمين مجتمعين.

وفيما عدا هاتين المسألتين لم يكن من أبي بكر في حق فاطمة إلا أحسن المجاملة والإجمال، ولم يكن منه تقصير قط في تعهد البيت النبوي بما يصون وقاره، ويحمي جواره، بل كان منه في حق أهل البيت كل ما يُرضي ويريح.

* * *

وجرى أبو بكر في معاملته لصحابة النبي على طبعه الذي فطر عليه، وهو الرفق

والمروءة والحياء. فأحسن صحبتهم وأثبت لهم ما أثبته النبي لهم في حياته، ولم يكن منه في حقهم ما يشكونه إلا ما شكا منه بعضهم حين التسوية بينهم وبين العبيد والنساء في حصة بيت المال، وذلك رأي له قدمنا حجته فيه، فأقدارهم عند الله يجزيهم عليها الله، وهذا معاش تحسن فيه المساواة بين الناس.

وكان أقربهم إليه وأجمعهم لثقته وحسن ظنه عمر بن الخطاب: عرفه على حقيقته التي جهلها بعض الصحابة، وعرف ما في باطن نفسه من رحمة تخفيها خشونة ملمسه وشدته في عمله. فلما سأل عنه عبد الرحمن بن عوف أجابه: «إنه أفضل من رأيك فيه. ولكن فيه غلظة» فقال عن خبرة به: «هو كذلك لأنه يراني رقيقًا، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو فيه».

وقد آثر أبو بكر أن يبقي عنده نخبة الصحابة في المدينة فلا يقصيهم في الولايات ولا يفرقهم بين الأقطار، لأنهم أحق الناس ان يستشيرهم ويرجع إليهم ويشركهم معه في رقابة العمال والولاة، وسئل في أهل بدر: لم لا يوليهم عملاً فقال: أكره أن أدنسهم بالدنيا، ولعله يريد بالتدنيس تعريضهم لفتنة الدنيا وشهوة الحكم وغواية المال والمتاع.

ولا ندري على التحقيق أي الصاحبين كان صاحب الفكرة الأولى في هذه السياسة التي اتفقا عليها ولم ينحرفا عنها قط في عهديهما إلا لضرورة نادرة. ونعني بها سياسة الإقلال من إسناد الأعمال إلى كبار الصحابة.

فعمر كان مشتدًا في اتباع هذه السياسة حتى ليخطر على البال أنه هو صاحب الفكرة السابقة فيها، وكان ابو بكر يخالفها حينًا فيحاول عمر ان يرده اليها. قال «لما خرج معاذ بن جبل إلى الشام أخلَّ خروجه بالمدينة واهلها في الفقه وما كان يفتيهم به، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس إليه، فأبى عليّ، وقال: رجل أراد جهادًا يريد الشهادة فلا أحبسه، فقلت: والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه».

إلا أن أبا بكر كان يحاذر انطلاق بعض الصحابة محاذرة الرجل الذي امتلأ بيقين رأيه ولم يستمده من مشورة غيره. فلم ينس ان يحذر عمر هذا التحذير في وصيته إياه بعد استخلافه حيث قال:

«واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرىء منهم لنفسه ، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فإياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ... »

وفاض هذا الرأي من لسانه حين أحس من بعض المهاجرين طمعًا في الاستخلاف دون عمر بن الخطاب ، فقال لعبد الرحمن بن عوف وقد دخل عليه يعوده :

« ... مالقيت منكم أيها المهاجرون أشدُّ عليَّ من وجعي ، إني وليت أمركم خيركم في نفسي ، فكلكم وَرِمَ أنفه أن يكون له الأمر دونه ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ، ولمّا تقبل ، وهي مقبلة حتّى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي (١) كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان . والذي نفسي بيده لأن يقدم احدكم فيضرب عنقه في غير حد خير له من ان يخوض غمرات الدنيا . ثم أنتم غدًا اول ضال بالناس يمينًا وشمالاً ، لا تضيعوهم عن الطريق . يا هادي الطريق جُرْتَ ! »

فهذا كلام رجل ممتلىء النفس باليقين مما يقول ، فليس هو برأي انتقل إليه من غيره استحسنه وارتضاه ، ولكنه – فيما نرجح – رأي اتفقا عليه وقلباه بينهما فازداد كل منهما يقينًا به فوق يقين .

* * *

على أن هذه النصائح القوية بين يدي الموت تكشف من حياة أبي بكر ما ليست تكشفه الأخبار المطولة والأقوال المستفيضة ، فهي تشهد له أنه قد سار في حياته تلك السيرة التي يريدها من الصحابة ويحث عليها أناسًا في منزلة عبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب ، وان تلك السيرة كانت من البدائه المعروفة التي يصدر عن صاحبها النصح فيسمعه أمثال هؤلاء الصحابيين الكَبيرين . وقد كانت هذه في الواقع منزلة ابي بكر بين الصحابة عامة وخاصة : استحقها بينهم بسابق إسلامه وقديم صحبته للنبي صلوات الله عليه ، واستحقها برياضة نفسه على الكرامة والوقار حتى امتلأت النفوس حوله بكرامته ووقاره ، ولم يكن أحد غير أبي بكر يسكت عمر بن الخطاب وقد ثار ثورته بعد موت النبي ، او يسكته وقد نهض للكلام أول مرة في سقيفة بني ساعدة ، وما أسكته

(١) منسوب الى أذربيجان .

يومئذ لأنه خليفة فما كان يومئذ بالخليفة ولا كان عمر بالذي تسكته هيبة منصب او سطوة سلطان، ولكنه رجل وقور يستمع له رجل حق. وناهيك بمن يهابه عمر بن الخطاب! إنه لأحق امرىء بين الصحابة أن يهاب.

* * *

ثقافة

تُعرف ثقافة الرجل المثقف بعلامات كثيرة، ولو لم تكن لها بالفكر والاطلاع صلة ظاهرة.

وندَر أن يظهر من الإنسان أثر محسوس إلا كان فيه علامة من العلامات على نصيبه من ثقافة زمانه.

على أن هذه العلامات تتفاوت في الدلالة كما تتفاوت في القيمة، وأدلها وأقومها – فيما نرى – كلام الإنسان ورأيه في كلام غيره. لأن الكلام صورة نفسية وقدرة عقلية في وقت واحد. فهو يكشف عن نفس قائله كما يكشف عن قدرة عقله ومبلغ عرفانه بتصوير خلجات قلبه وخطرات ذهنه، فتقديره لكلامه وكلام الناس ميزان صادق لتقدير الرجل في جملة أحواله وأفعاله، وعلامة على الثقافة الروحية والفكرية قلما تضارعها علامة أخرى.

وتقدير الكلام من أصدق العلامات على ثقافة الصدّيق، سواء نظرنا في وزنه لكلامه أو في وزنه لكلام غيره، أو في وزنه للكلام عامة من حيث هو جزء من «الشخصية الانسانية» يحرص عليه المرء كما يحرص على مقومات نفسه.

فالصديق كان أحرص الناس على كلام يبدر من لسانه، وكان أعلم الناس بموضع كلام الرجل من مروءته وشرفه، فكان قوله نزرًا، ووصيته بالإقلال من المقال أسبق وصاياه إلى ولاته وعماله. قال لخالد بن الوليد: «أقل من الكلام فإنما لك ما وعي عنك». وقال ليزيد بن أبي سفيان: «إذا وعظتهم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً»، وكان يقول: «إن البلاء موكل بالمنطق» ويجتنب التزيد في المقال كما يجتنب التعرض للبلاء.

كان أقرب الصحابة إلى النبي عليه السلام وألزمهم له في نهاره وليله، ولكنه على هذه الملازمة لم يرو من الأحاديث النبوية إلا نيفًا ومائة وأربعين حديثًا لم يتجاوز ما أثبته البخاري ومسلم نحو سبعها. وقيل في تعليل ذلك إنه رضي الله عنه مات قبل تدوين الأحاديث، وهو تعليل يرد عليه أن كثيرًا ممن سمعوا الأحاديث النبوية ماتوا كذلك قبل الاشتغال بتدوينها، وإنما هي قلة كلامه فيما نرى أقلّت ما سمع الناس عنه فحرروه ونقلوه.

ذلك وزنه للكلام عامة من حيث هو ملكة نفسية وجزء من الشخصية الإنسانية.

أما كلامه هو فمن أرجح ما قيل في موازين الكلام، سواء في ذلك موازين البلاغة أو موازين الخلق والحكمة، وله من جوامع الكلم أمثلة نادرة تدل الواحدة منها على ملكة صاحبها فيغني القليل منها عن الكثير كما تغني السنبلة الواحدة عن الجرين الحافل، حين تكون المسألة مسألة الدلالة على المنبت والنبات.

فحسبك أن تعلم معدن القول من نفسه وفكره حين تسمع كلمة كقوله: «احرص على الموت توهب لك الحياة»، أو قوله: «أصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة»، أو قوله: «خير الخصلتين أبغضهما إليك»، أو قوله «الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله» أو قوله: «إذا فاتك خير فأدركه وإن أدركك فاسبقه»، أو قوله: «لا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك» أو قوله: «ليست مع العزاء مصيبة» فهي وما أثر عنه من أمثالها كلمات تتسم بالقصد والسداد، كما تتسم بالبلاغة وحسن التعبير، وتنبيء عن المعدن الذي نجمت منه فتغني عن علامات التثقيف التي يستكثر منها المستكثرون، لأن هذا الفهم الأصيل هو اللُّباب المقصود من التثقيف.

وكانت له – رضي الله عنه – لباقة في الخطاب إلى جانب هذه البلاغة في الكلام، وهذا الجد في وزن المقال.

عزّى عمرَ في طفل احتسبه فقال له: «عوضك الله منه ما عوضه منك» وسأل رجلاً يحمل ثوبًا: أتبيع هذا الثوب؟ فأجابه: لا... عافاك الله! قال: هلا قلت لا وعافاك الله!

وهذا تمام البصر بالكلام، قصد في العبارة، ووزن للكلام، وذوق في الخطاب،

ولا تتعرف النفس المثقفة إلى الناس بآية هي أقرب من هذه الآية وأحق منها بالتصديق.

ومن السهل على من يملك هذا البيان في كلامه أن يتتبع شواهد البيان في كلام الآخرين. ولعل الصديق قد ملك هذا البيان لأنه طبع عليه وطبع على حبه فتتبعه في كلام البلغاء من الخطباء والشعراء. فكان يروي الشعر ويحفظ الأمثال ويراجع النبي عليه السلام في الأبيات التي يبدل مواضع كلماتها ليخرجها عن وزنها، ومنه – لا ريب – قبست السيدة عائشة ذلك القبس من مأثورات الشعر والخطب – فيما كانت تتمثله وترويه، واليه ترجع السليقة التي ظهرت في ذريته ومنهم ولداه عبدالله وعبد الرحمن وكانا ينظمان الأبيات بعد الأبيات. وهو نفسه لم ينظم الشعر فيما أجمع عليه الثقات، ولكنه – وإن لم ينظم – قريب السليقة ممن قالوه ولو بالتذوق والحفظ والرواية.

ولهذه الثقافة مراجعها التي ترجع إليها أفضل ثقافات زمانه في الجزيرة العربية: طبع سليم وملاحظة صادقة وخبرة بالدنيا من طريق المعاملة والسياحة، وإصغاء إلى الحسن من القول، والوثيق من الأخبار، وعلم بالأنساب والتواريخ مشهور بين المشهورين من أربابه، واستيعاب للقرآن كله ولفقه الدين كله، ودراية بما استوعب من معانيه عن فهم وعن سماع ممن نزل عليه القرآن الكريم صلوات الله عليه.

قرأ يومًا: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» فقال: إن الناس يضعون هذه الآية في غير موضعها، ألا وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن القوم اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، والمنكر فلم يغيروه، عمهم الله بعقابه».

وسأل أصحابه يومًا: ما تقولون في هاتين الآيتين: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» و«الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم»؟ قالوا: لم يلبسوا إيمانهم بظلم الخطيئة. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل: استقاموا فلم يلبسوا إيمانهم بشرك.

وإن فقه القرآن لينبوع يستمد منه الصديق في سلامة طبعه وصفاء ذهنه مددًا يرجع بأمداد.

فثقافته في زمانه هي ثقافة الفقيه الأديب المؤرخ بما اصطلحوا عليه من معنى

التاريخ في ذلك الزمان.. ولا يتشابه معنى التاريخ عندهم ومعنى التاريخ عندنا كما نتوسع فيه اليوم، ولكنَّ النسب الذي كان يعلمه الصديق كان هو النسب المحيط بالمحامد والمثالب في القبائل العربية كافة، وهو أنفع ما في علم التاريخ حين يراد بعلمه الطموح إلى منزلة الحمد والسمعة الرفيعة والتنزه عن معارض الذم وقَالَةِ السوء، وكذلك كان علم الصديق بأنساب العرب أجمعين..

لما خرج النبي عليه السلام ليَعرض نفسه على القبائل في أول الدعوة الإسلامية كان معه أبو بكر وعلي بن أبي طالب أسبق الناس الى الاسلام.

قال عليٌّ رضي الله عنه: «فرفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر فسلم، وكان مقدمًا في كل خير، وكان رجلاً نسَّابة فقال: ممن القوم: قالوا: من ربيعة، قال: وأيّ ربيعة أنتم؟ أمن هاماتها أو من لهازمِها؟ قالوا: من هاماتها العظمى. قال: وأي هاماتها العظمى أنتم؟ قالوا: من ذُهَل الأكبر. قال: فمنكم عوف بن مُحلّم الذي يقال فيه: لا حرّ بوادي عوف؟ قالوا: لا. قال: فمنكم المزدلف الحر صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: فمنكم بسطام بن قيس أبو القرى ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: فمنكم جساس بن مرة حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: فمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالب أنفسها. قالوا: لا. قال: فمنكم أصهار الملوك من كِنْدة؟ قالوا: لا. قال: فمنكم أصهار الملوك من لخمْ؟ قالوا: لا. قال ابو بكر: فلستم ذهلاً الأكبر. إنما انتم ذهل الأصغر».

وكان هذا علمَه بأنساب كل قبيلة ومحامد السابقين منها ومثالبهم ولا سيما قريش ومن جاورها. ولهذا كانوا يقولون كلما سمعوا أبياتًا من الشعراء المسلمين يردون بها الهجاء على المشركين: هذا تلقين ابن أبي قحافة وما عداه. لأنه كان في هذا العلم بين قريش عامة بغير نظير.

ونحن لا ننتظر بداهة من كل رجل تيسرت له هذه المراجع ان يبلغ من الثقافة مبلغ ابي بكر الذي تدل عليه اقواله واعماله وخلائقه وسجاياه. ولكننا إذا علمنا أن تلك مراجعه وأن ذلك مبلغه فقد علمنا شيئًا آخر نقصده ونتحراه، وهو أنه رجل خلق من معدن العظمة والامتياز، ولم يخلق رجلاً كسائر الرجال.

الصدّيق في بيته

من السهل بعد مراجعة يسيرة لحياة الصديق في جملتها أن نعلم أنه «رجل بيت» أو «رجل أسرة» وأن أواصره البيتية لا تستند إلى الشعور بالواجب وحده، ولكنها تستند مع الشعور بالواجب إلى الشعور بغبطة القرابة ومودّة الرحم ونعمة الألفة والمصاحبة، فلم يكن ولدًا بارًّا لأن البر بالآباء واجب وكفى، ولا أبًا رحيمًا لأن الرحمة بالأبناء غريزة وكفى، ولا زوجًا وفيًّا لأن الوفاء للأهل واجب وكفى، ولكنه كان كذلك كما كان في جميع أواصره وعلاقاته: رجلاً يشعر بالغبطة في جوار أبناء جنسه، ويأنس للصحبة في جو الشعراء والأصدقاء، ويتجلى فيه خلق الإنسان «الاجتماعي بطبعه» على أخلصه وأوفاه.

عُرف بره بأبويه في الجاهلية، فلما أسلم وصاحب النبي عليه السلام جمع بين بر الفطرة والحنان وبر الواجب والفريضة، واطمأن إلى هذا البر كما يطمئن صاحب الخير الذي لا جزاء عليه أن يصبح وله من الحظوة الإلهية أجمل جزاء.

وعرف عطفه على أبنائه طوال حياته، فما داخلته في عطفه عليهم قسوة أو شدّة إلا أن يكون ذلك بدافع من العقيدة أو وازع من التأديب.

قال له بعض أبنائه – وقد كان يقاتل مع المشركين – إنني كنت أراك فأتحاماك. فقال له: لكنني لو رأيتك لما تحاميتك.

وكان بين عائشة والنبي كلام. فسألها: من ترضين أن يكون بيني وبينك؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح! قالت: لا. ذلك رجل هيِّن ليِّن يقضي لك. قال: أترضين بأبيك؟ قالت: نعم. فلما جاء أبو بكر قال رسول الله: اقصصي! فقالت: بل اقصص أنت. فأخذ رسول الله في إعادة ما جرى بينهما من كلام، وبدرت من عائشة كلمة

لا تعنيها فقالت : اقصد ، أي التزم القصد ولا تزد في الرواية ، فرفع أبو بكر يده فلطمها وانتهرها مغضبًا : تقولين يا بنت أم رومان : اقصد ! من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ! وجعل الدم يسيل من أنفها ورسول الله يحجز بينهما ويقول لصديقه : إنا لم نرد هذا. حتى انصرف برضى رسول الله. فقال لها ما معناه : رأيت كيف أبعدك الله منه ! أو قال لمثل هذه المناسبة : « رأيت كيف أنقذتك من الرجل ! » .

ففي هذا وأمثاله يشتد ابو بكر على بنيه وهي شدة قد تقترن بالرحمة ولا تحجبها إلا إلى حين. وكان لصدق شعوره بالأبوة يحس ما يحتاج إليه الوليد في نشأة الطفولة ويزوده بتلك الحاجة ولو أغضب الآباء وهم عنده أصدق الأصدقاء.

فلما أخذ عمر بن الخطاب ابنه عاصمًا من أمه المطلقة تخاصما إليه فقضى بالوليد لأمه وقال لعمر: « ريحها وشمها ولطفها خير له منك » . فكان غاية الرحمة وغاية العدل في آن ، وإن رجلا يعدل حين يَهم بالجور عمر لهو من العدل بمكان لا يُسامى.

وكادت الصداقة عنده أن تكون أخوّة أو بنوّة. فكان يتحدث عن عمر يومًا فإذا هو يقول كأنما يتحدث إلى نفسه : « والله إن عمر لأحب الناس إليّ... » ثم خشي أن يكون في قوله ما يمس الصدق الذي فطر عليه فسأل من معه وفيهم عائشة : كيف قلت؟ فأعادت له عائشة ما جرى به لسانه ، فاستدرك قائلاً : اللهم أعز والولد ألوط ، أي ألصق بالقلب وأدنى .

* * *

وقد بني أبو بكر بزوجتين في الجاهلية وزوجتين في الإسلام ، منهن أم رومان وهي أم ولديه عبدالرحمن وعائشة رضي الله عنها ، ومنهن حبيبة بنت خارجة التي مات عنها وهي حامل ، فولدت بعد موته أم كلثوم .

ومن أولاده غير عبد الرحمن وعائشة – عبد الله الذي كان يأتيه بأخبار قريش حين هاجر مع النبي إلى المدينة . وقد جرح بالطائف ومات بجرحه بعد انتقاضه . وكانت فيه شجاعة وأدب ورقة ، وله شعر حسن يروي بعضه في زوجته المطلقة عاتكة بنت زيد وقصته معها من أدلّ أخبار هذه الأسرة على شعور أبي بكر بالأبوة والزوجية والواجب في وقت واحد ، وأن المغالبة بين الرحمة والواجب في نفسه كانت مغالبة

سجال .

وقد كانت عاتكة من أشهر نساء عصرها بالجمال والعقل والفطنة ، ففتن بها عبد الله وشغل بها عن مصالحه وشئونه ، فنصح له أبوه بطلاقها فطلقها ، فما زال حتى ندم وألح به الندم على فراقها ، وقال من شعره فيها :

أعَاتِكَ ، لَا أَنْسَاكِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ ... وَمَا لَاحَ نَجْمٌ في السَّمَاء مُحَلِّقُ
أَعَاتِكَ ، قَلبِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ... لَدَيْكِ بما تخفي النُّفُوس مُعَلَّقُ
لَهَا خُلُقٌ جَزْلٌ وَرَأْيٌ وَمنصَبٌ ... وخلقٌ سويٌّ في الحياءِ مُصَدَّقُ
ولم أَرَ مثلي طَلَّقَ اليَومَ مِثْلَهَا ... ولا مِثْلَهَا في غيرِ شيءٍ تُطَلَّقُ

فرحمه أبوه وأمره بمراجعتها ، فراجعها . فكان أبو بكر في هذا نموذجًا مقابلاً لنموذج عمر في هذه الناحية من الخلائق والوشائج القلبية ، كما كان نموذجًا مقابلاً له في خلائل شتى ووشائج أخرى . إذ كان عمر ينعى على ولده أنه عجز عن طلاق امرأته ، ويعد ذلك من مآخذه حين رشحه بعضهم للخلافة بعده .

ولم يكن لزوجات أبي بكر ما يشتكينه منه غير الإقلال من النفقة والقصد في المعيشة ، ففي اليوم الذي اجتمعت فيه نساء النبي عليه السلام يطالبنه بالمزيد من النفقة كانت بنت خارجة زوجة أبي بكر تطالبه هذه المطالبة ، فيغضب منها ، ويلوي عنقها ، ويذهب إلى النبي فيحدثه بحديثها ليسري عنه وقد رآه بين أمهات المسلمين على مثل تلك الحالة . فكأنما كنَّ جميعًا على ميعاد .

ولم يكن أبو بكر مقلاًّ من المال ، ولا عاجزاً عن كسبه قبل الخلافة ولا بعدها ، فقد أنفق في سبيل الإسلام أربعين ألف درهم ، وما زال ينفق من ماله في شراء الأكسية والأطعمة وتوزيعها على الفقراء ولا سيا في الشتاء ، ولكنه آثر متاع روحه على متاع جسده وكره أن يعيش في بيته خيراً من نبيه وصفيه ، وكان يبغض السرف فيقول : « إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في يوم » ... فلو بقي له من المال ما يجاوز به حظه من النفقة لما جاوزه وهو يرى أمامه مثل النبي ويجب أن يكون مثلاً لمن معه ومن بعده من خلفاء الإسلام وعامة أتباعه .

وقد تعددت الروايات عما قسم له من الرزق بعد الخلافة وكيف قسم بمشورة

من حضر من جلّة الصحابة ومنهم عمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة . ولكن الروايات متفقة على قصده في بيته واجتنابه للسرف في معيشته ، وأنه كما قال : « لم يعد سد الجَوْعة ووزْي العورة وقوامَة القِوام » . ومات وليس عنده مدخر يذكر . فقال عمر : « رحمه الله . لقد أتعب من بعده » . يريد أنه ألزمهم قدوة تتعب ولا تريح .

* * *

ونحسب أن النشأة في حياة أبي بكر البيتية لا تتمثل في شيء كما تتمثل في نشأة بنتيه عائشة وأسماء رضي الله عنهما . فأما عائشة فقد فارقت بيت أبيها وهي في نحو العاشرة أو اكبر من ذلك بقليل كما استخلص بعض المؤرخين من مراجعة التواريخ الكثيرة ، فإذا هي في تلك السن قد وعت ما وعته من الشعر البليغ والأمثال السائرة والأخبار النادرة ، وقد نضجت لمصاحبة النبي والوعي عنه والدراية بالمأثور من كلامه ، وكانت بعد ذلك مرجعًا من مراجع الفقه والسنة خليقًا باعتماد الثقات الأجلاء .

ومن الناس من تعود أن يتخيل عائشة رضي الله عنها جارية صغيرة حظيت عند زوجها عليه السلام لجمالها وصغرها وصداقة أبيها ، ولكنها – ولا ريب – لم تبلغ هذه الحظوة عنده صلوات الله عليه إلا لأنها الزوجة الكفء لبلوغها والمحافظة عليها ، وكانت تعرف من أدب الزواج ما يجمل بمكانها ، وتعرف من ملاطفة الزوج مداخل قلبه ومواطن رضاه ، وربما دللت زوجها ولم تترك له وحده مسرة تدليلها . فمن ذلك في روايات تختلف في النقل وتتفق في هذا المعنى أنه كان عليه السلام يصلح نعله في يوم قائظ فتندى جبينه وتحدر العرق على خده ، وهي تلحظه من قريب وكأن بها وجداً عليه . فسألها : مالك بُهتّ ؟ .

فقالت : لو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بقوله . فعاد يسألها : أي قوله ؟ فأجابته : حين يقول :

ومُبَرَّإٍ مِنْ كلّ غبّر حيضةٍ وفَسَاد مرضَعَةٍ وَداء مُغيلِ
وإذا نَظَرْتَ إلىٰ أسرّةِ وجههِ بَرِقَت بُرُوقَ العَارضِ المتهللِ

فقام النبي إليها يقبل ما بين عينيها ، ويقول لها : سررتني يا عائشة سرك الله .

فهي أبعد شيء عما يتصوره النقاد الأوربيون حين يصورونها لقرائهم لعبة صغيرة بين يدي رجل كبير يدللها ولا تفاهم بينه وبينها ، ولكنها الزوجة التي تكافىء الزوج في حياته المنزلية ، والمرأة التي تبادل الرجل ما عنده من شعور ، والتلميذة التي تتلقى عن أستاذ عظيم فتحسن التلقي عنه ، وهي من جميع هذه الجوانب مثل صالح للنشأة البيتية في أسرة الصديق .

* * *

أما أسماء — ذات النطاقين — فما حمد الناس فضيلة للمرأة بنتًا وزوجًا ووالدة إلا كانت فيها على أجملها وأسماها وأحقها بالتمجيد والإكبار.

أسلمت مع أبيها ، وكانت تخاطر بنفسها لإخفاء هجرته مع رسول الله وتزويدهما بالطعام والميرة في تلك الهجرة ، ولم تجد ما تشد به طعامها فشقت نطاقها وشدته به ، فسميت لذلك ذات النطاقين.

وتزوجت الزبير بن العوام وليس له مال ولا مورد ، فكانت تعلف فرسه وتدق النوى لناضحه[1] وتستقي له الماء وتخرز[2] له غربه[3] وتنقل النوى على رأسها من الأرض التي أقطعه إياها رسول الله على مسيرة ميلين. وما زالت كذلك حتى علم أبوها بمشقتها في خدمة زوجها اتفاقًا فأعانها بخادمة ، بعد أن قضت زمنًا تخدم بيتها وهي بنت أبي بكر وزوج الزبير وأم عبد الله من أعظم أبطال الإسلام .

وحوصر ابنها عبدالله في مكة فخذله الناس حتى أهله وولده ، وعرض عليه بنو أمية الأمان والولاية والمال. فذهب إليها يعرض عليها أمره ، وهو يقول : «... لم يبق معي إلا اليسير ومن لا دفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار ، وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ فما ضعفت من الهول ضعف النساء ، ولا ضعف الأمهات ، وإن الأبطال الصناديد ليضعفون في مكانها ، فلا يعدمون المعذرة الناهضة والشفاعة المقبولة ، بل ملكت جأشها وملكته جأشه وأقبلت عليه تقول : «يا ولدي ؛ إن كنت

(١) البعير الذي يستقى عليه الماء .

(٢) تخرز : تثقب .

(٣) الدلو من الجلد .

على حق تدعو إليه فامض عليه، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيتلعبوا بك، وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا فعل الأحرار، ولا فعل من فيه خير. كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقنع به يا بن الزبير. والله لضربة بسيف في عز أحب إليّ من ضربة بسوط في ذل».

والتفتت تدعو الله كأنما تناجي نفسها: «اللهم ارحم طول ذاك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأمه! اللهم إني قد سلمت فيه لأمرك، ورضيت فيه بقضائك، فأثبني في عبدالله ثواب الشاكرين».

مقالة أم جاوزت المائة واصطلحت عليها الملمات وكف بصرها الحزن ويئست من نصرة ابنها ومن حياته في جهاده، فناهضت من السن والمرض والخوف والثكل في أحرج الساعات ما تنوء به عزائم الاقيال وتنهد له أركان الجبال.

ثم غلب القوم ابنها المقدام فصلبوه ورفعوا جثته للتمثيل والتشهير، فآلمها أن يصاب في كرامة موته كما آلمها من قبل أن يصاب في كرامة حياته. وذهبت إلى الحجاج تسأله في ذلك سؤال الأعزاء، فقادها الدليل إليه حتى وقفت على مقربة منه تقول: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ قال في غير رفق ولا حياء: المنافق؟ فما همها وهو صاحب طلبتها أن يجيبها أو لا يجيبها، وإنما همها أن تدفع عن ولدها وان تجزي الشاتم بشتمه، وقالت مغضبة: والله ما كان منافقاً، والله ما كان منافقاً، وقد كان صواماً قواماً...»

فعاجلها مغيظاً من ردها عليه: اذهبي فإنك عجوز قد خرفت...

قالت: لا والله! ما خرفت. ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج من ثقيف كذاب ومبير[1]. فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فأنت هو.

وهذه هي الأم التي يشرف بها الأبناء والآباء، وتشرف بها سلالة آدم وحواء..

هذه أسماء بنت أبي بكر. وتلك عائشة بنت أبي بكر. فما عسى أن يقول القائل وان يثني المثني على بيت ينجب هاتين العقيلتين الكريمتين؟

لقد كان لأبي بكر أبناء من خيرة الرجال. ولكن البيت تدل عليه بناته قبل أن

---

(١) مبير : مهلك.

يدل عليه أبناؤه ، لأن الفضل في نشأتهن كلها للبيت ، من حيث يحسب لغير البيت الفضل في نشأة الأبناء .

وذلك هو بيت الصديق ، أكرم به من بيت بين ما حملت الأرض كلها من بيوت .

* * *

صورة مجملة

قالت السيدة عائشة في وصف أبيها وقد تناوله بعضهم بما أغضبها :

« ... سبق إذ ونيتم سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأمد ، فتى قريش ناشئًا وكهفها كهلاً ، يفك عانيها ويريش مملقها ، ويرأب شعبها ويلم شعثها ، حتى حلته قلوبها ، ثم استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل ... »

وكان نفر من المهاجرين والأنصار يتذاكرون فضائل أهل الفضل عند باب النبي عليه السلام ، فخرج عليهم النبي فسألهم : فيم أنتم ؟ قالوا : نتذاكر الفضائل .. فقال : « لا تقدموا على أبي بكر أحدًا فإنه أفضلكم في الدنيا والآخرة » .

ومن قوله فيه عليه السلام : « أبو بكر خير الناس إلا أن يكون نبي .. »

وقال علي رضي الله عنه في تأبينه : « ... كنت كالجبل الذي لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف : كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفًا في بدنك قويًّا في أمر الله ، متواضعًا في نفسك عظيمًا عند الله ، جليلاً في الأرض كبيرًا عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك ... »

وفي هذا الثناء كفاية إذا عمدنا إلى الثناء الذي قاله فيه عارفوه .

ولكننا في أمر أبي بكر وأمثاله نستطيع أن نتجاوز الثناء إلى مقالة الأعداء الألداء ، ونحن آمنون أن نسمع فيه ما يغض من فضله وينقص شيئًا من حقه . إذ ليس على عظيم من العظماء غضاضة أن يختلف فيه مختلفون ، وأن يتأول أعماله متأولون ، فكل عظيم من عظماء الدنيا قيل له وقيل عليه ، وحسنت نيات قوم نحوه وساءت نيات آخرين ،

فليس هذا بضائره، وليس هذا بعجيب، وإنما الميزان العادل في الحكم له أو عليه دليل القائل وليس مقال القائل. فلمن شاء أن يزعم ما يشاء فيمن يشاء، ولكنه لا يوضع في الميزان إلا بدليل تؤيده الوقائع والأعمال. فهذا الذي يحسب من مقال القائلين ومن خلاف المختلفين.

فليست فضيلة أبي بكر أنه ظفر من الناس جميعًا بالثناء الذي لا معقب له عليه، إذ ليس هذا بممكن وليس هذا بمعقول ولا بمطلوب..

وإنما فضيلته أنه قد ظفر بالثناء ممن في ثنائه صدق ولثنائه قيمة وأن خلاف المخالفين لم يقم قط على دليل ولم يأت قط من أناس يحسنون ما يقولون.

وكل حكم على أبي بكر مؤيد بدليل معتمد على واقع، فهو مصور له في صورة عامة واحدة لاشك فيها، وهي صورة أمين، وأكثر من أمين، لأنه لم يتهم قط بخيانة في الجاهلية أو في الإسلام.

وأكثر من الأمين، لأن الأمين هو الذي يعطي حق غيره، فأما الذي يعطي الأمانة ويزيد عليها، أو يعطي حق غيره ويعطي من حقه الذي لا يطلب منه، فذلك هو المفضل الذي جاوز قدر الأمانة، فهو أكثر من أمين.

وكان أبو بكر يؤدي الأمانات في الجاهلية ويزيد عليها من عنده فضل المفضل وإحسان المحسن وإغاثة المغيث. ثم تسلم الأمانة الكبرى بعد الخلافة فترك الدنيا وقد أداها كما هي وزاد عليها.

ولسنا غالين في المجازحين نقول إنه صنع مثل ذلك في أمانة الخلق أو أمانة الحياة، فمات خيرًا مما ولد، ونشأ ضعيفًا في بدنه كما قال رسول الله، فاذا هو يستمد من قوة باطنه لقوة ظاهره، ويلقي من مروءته على مَرآه، حتى أنشأ من نفسه ما لم ينشأ من بدنه، وبلغ من المهابة بالقوة التي زادها على تكوينه الظاهر فوق ما يؤتاه أمثاله في أمثال هذا التكوين.

للناس أن يعطوه وهم على ثقة ان يستردوا ما أعطوه وزيادة، وللحياة أن تعطيه وهي على ثقة ألا ينقص عطاؤها وألا يزال معه في ازدياد، وعلى كل أمانة عنده كائنًا ما كان معطيها حق مصون، ومزيد مضمون.

صورته المجملة أنه الأمين وأكثر من الأمين.. الأمين في الصداقة، والأمين في الحكومة، والأمين في السيرة، والأمين في المال، والأمين في الإيمان، ثم هو في كل أولئك أكثر من الأمين.

عصمته العواصم من فتنة الغواية فولد كريمًا تعنيه العزة بين الأقوياء، ولا يعنيه الطغيان على الضعفاء.

وكبر وليس له مأرب في سيادة باغية، ولا في صولة دائمة على من لا يريدها ولا يطمئن إليها.

وكبر في تكوينه حدة الشعور وحماسة اليقين، وسليقة الإعجاب، وعصمة المروءة والوقار.

وكبر وكل فضيلة فيه تكبر إلى آمادها، فلما مات كان أكبر ما كان، وأكبر ما يتأتى أن يكون..

مات وهو صاحب الدعوة الثانية في الإسلام، فكان الثاني حقاً بعد النبي عليه السلام في كل شيء، من قبول الإسلام إلى ولاية أمر الإسلام إلى تجديد دعوة الإسلام، بعد أن نقضت الردة دعوته الأولى وأوشكت أن ترجع بها إلى الجاهلية الجهلاء.

ثاني اثنين، وأول مقتد وأول مجيب..

ذلك موضعه في تلك الدعوة الإنسانية التي نشأت في أمة واحدة ثم غيرت ما بعدها في جميع الأمم، سواء منها من علم بها ومن لم يعلم، وهي دعوة صديقه وصفيّه ونبيه محمد صلوات الله عليه.

* * *

قيل إنه مات بالسم في أكلة أكلها قبل عام من وفاته، وليس لهذا القول مرجع يميل الباحث إلى تصديقه.

وقيل إنه مات بالحمى لأنه استحم في يوم بارد، وقد مات في شهر قائظ كما يظهر من مضاهاة الشهور العربية على الشهور الشمسية، فليس لهذا القول سند صحيح. وأغلب الظن أنها حمى المستنقعات «الملاريا» التي أصيب بها بعد الهجرة إلى المدينة، ثم عاودته في أوانها مرة أخرى وهو شيخ ضعيف، فجددت الإصابة الثانية عقابيل

الإصابة الأولى، وانتهت حياة بلغت نهايتها في حيز الجسد، وفي حيز المجد، وفي حيز التاريخ.

* * *

عبقرية عمر

مقدمة المؤلف

تم تأليف هذا الكتاب في أحوال عجيبة هي أحوال بأس وخطر. فلا غرابة بينها وبين موضوع الكتاب الذي أدرته عليه، لأننا لا نتكلم عن عمر بن الخطاب إلا وجدنا أننا على مقربة من البأس ومن الخطر في آن..

فما شرعت في تحضيره، وبدأت في الصفحات الأولى منه، حتى رأيتني على سفر بغير أهبة إلى السودان. فوصلت إليه وليس معي من مراجع الكتاب إلا القليل، وكانت الصفحات الاولى التي كتبتها في القاهرة مما تركته مع المراجع الكثيرة فيها، فاعدت كتابتها في الخرطوم ومضيت فيه هنالك حتى انتهيت من أكبر شطرية. واستغنيت بمراجع الخرطوم عن المراجع التي أعجلني السفر عن نقلها، لأن أدباء السودان وفضلاءه يدخرون جملة صالحة من هذه المراجع، ويجودون بها أسخياء مبادرين إلى الجود، فلا أذكر أني طلبت كتابًا في المساء إلا كان عندي في بكرة الصباح..

وإني لأتوفر على كتابته وأحسبني منتهيًا منه في السودان إذ رأيتني مرة أخرى على سفر بغير أهبة إلى القاهرة، فعدت إليها بالطائرة ألتمس العلاج السريع، لأن يديّ أوشكتا أن تعجزا عن تناول القلم مما عراهما من ثآليل « الخريف ».

فعدت وما يشغلني عن اتمامه شاغل في السفر والمقام، ولم أحسب هذا البأس في الحالتين من موانعه وعراقيله، لأنني ألّفت بعض كتبي الكبار في أحوال تشبه هذه الأحوال. فألفت كتابي عن « ابن الرومي » بين السجن ونذره ومقدماته، وألّفت كتابي عن « سعد زغلول » وأنا غير مستريح من كفاحه، وكلاهما من آثر الكتب عندي، وأكبرها في الموضوع، وفي عدد الصفحات..

إنما حسبت هذا البأس من مطابقاته وموافقاته، ومن وضع الشيء في موضعه على نحو من الأنحاء، ولم أعدده من حرج التأليف كما عددته من مهيئات جوه، ولا سيما حين ألفيتني أدرس الحركة المهدية وأتقلب بين مشاهدها وميادينها، وأستخرج العبرة من القتال بين الراجلين والفيلة في مواقع فارس، ومن القتال بين الراجلين والسفن المسلحة في مواقع الخرطوم وأم درمان. فهذه عقيدة وتلك عقيدة، ولكن العقيدة التي ظفرت كان معها حليف من الغد المأمول، ولم تكن العقيدة التي فشلت على وفاق مع الغد ولا مع الأمل.

* * *

ولكن الحَرَج كل الحرج في التأليف إنما كان في محاسبة عمر بن الخطاب، أو ليس الحَرَج في الحساب أيضًا من العمريات المأثورات ؟ !

فالناس قد تعودوا ممن يسمُّونهم بالكتَّاب المنصفين أن يحبذوا وينقدوا وأن يقرنوا بين الثناء والملام، وأن يسترسلوا في الحسنات بقدر، لينقلبوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها، ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها، فإن لم يفعلوا ذلك فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتحيز، وهم إذن أقل من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون، ولا يعجبون إلا وهم متحفزون للملام.

عرض لي هذا الخاطر فذكرت قصة العاهل الذي تحاكم إلى قاضيه مع بعض السوقة في عقار يختلفان على ملكه فحكم القاضي للسوقة بغير العدل ليغنم سمعة العدل في محاسبة الملوك، وعزله العاهل لأنه ظلم وهو يبتغي الرياء بظلمه. فكان أعدل عادل حين بدا كأنه يحرص على مال مغصوب ويجور على تابع جسور.. لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم، وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالانصاف.

قلت لنفسي: إن كنت قد أفدت شيئًا من مصاحبة عمر بن الخطاب في سيرته وأخباره فلا يحرجنك أن تزكي عملاً له كلما رأيته أهلاً للتزكية، وإن زعم زاعم أنها المغالاة، وأنه فرط الإعجاب..

وهذه هي الأسوة العمرية في الحساب..

فالحق أنني ما عرضت لمسألة من مسائله التي لغط بها الناقدون إلا وجدته على حجَّة ناهضة فيها.. ولو أخطأه الصواب..

وإن أعسر شيء أن تحاسب رجلا كان أشد أعدائه لا يبلغون من عسر محاسبته، بعض ما كان يبلغه هو من محاسبة نفسه، وأحب الناس إليه.

ذلك رجل قلَّ أن يجور عن القصد وهو عالم بجوره، وقلَّ أن يتيح لأحد أن يكسب دعوى الانصاف على حسابه، إلا أن يكسبها أيضًا على حساب الحق والنقد الأمين..

فاذا عرفت منحاه من الخلق والرأي، وسلمت له مزاجه ووجهة تفكيره، فكن على يقين إنه لن يتجافى عن النهج السوي ولن يتعلق بأمر يعدوه الصلاح ويشوبه السوء.

وذاك أحرج الحرج الذي عانيته من نقد هذا الرجل العظيم.

وتلك حيطة معه إن لم يستفدها الكاتب، وهو مشغول بعُمَر ونهج عمر، فشغله عبث ذاهب في الهواء.

* * *

وعلم الله لو وجدت شططًا في أعماله الكبار، لكان أحب شيء إليَّ أن أحصيه وأطنب فيه وأنا ضامن بذلك أن أرضي الاثرة وأرضي الحقيقة، ولكني أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه في مقدوري: إن هذا الرجل العظيم أصعب من عرفت من عظماء الرجال نقدًا ومؤاخذة، ومن فريد مزاياه أن فرط التمحيص وفرط الاعجاب في الحكم له أو عليه يلتقيان.

وكتابي هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التي تقصد بها الحوادث والأنباء.. ولكنه وصف له، ودراسة لأطواره، ودلالة على خصائص

عظمته واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة، فلا قيمة للحادث التاريخي جل أو دق إلا من جيث أفاد في هذه الدراسة، ولا يمنعني صغر الحادث أن أقدمه بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث، إن كان أوفى تعريفًا بعمر وأصدق دلالة عليه.

وعمر بعد رجل المناسبة الحاضرة في العصر الذي نحن فيه. لأنه العصر الذي شاعت فيه عبادة القوة الطاغية وزعم الهاتفون بدينها أن البأس والحق نقيضان. فإذا فهمنا عظيمًا واحدًا كعمر بن الخطاب فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه، لأننا سنفهم رجلاً كان غاية في البأس وغاية في العدل وغاية في الرحمة...

وفي هذا الفهم ترياق من داء العصر يشفى بن من ليس بميئوس الشفاء.. وإنه لجهاد جديد لعمر بن الخطاب، يطيب لنا أن نوجزه في كتاب.

عبقري

« .. لم أر عبقريًا يفري فريه(١) .. »

كلمة قالها النبي عليه السلام في عمر رضي الله عنه، وهي كلمة لا يقولها إلا عظيم عظماء: خُلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال.

فمن علامات العظمة التي تحيي موات الأمم أن تختص بقدرتين لا تعهدان في غيرها، أولاهما أن تبعث كوامن الحياة ودوافع العمل في الأمة بأسرها وفي رجالها الصالحين لخدمتها، والأخرى أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة والوحي الصادق فيم تكون عظمة العظيم، ولأي المواقف يصلح، وبأي الأعمال يضطلع، ومتى يحين أَوانه وتجب ندبته، ومتى ينبغي التريث في أمره الى حين ؟ ..

كلتا القدرتين كان لهما الحظ الوافر في سيرة عمر بن الخطاب.

فأين – لولا الدعوة المحمدية التي بعثت كوامن العظمة في أمة العرب – كنا نسمع بابن الخطاب ؟ وأي موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمي الذي يزخر بكبار الأسماء ؟

إنه الآن اسم يقترن بدولة الاسلام ودولة الفرس ودولة الروم وكل دولة لها نصيب في التاريخ. فأين كنا نسمع باسم عمر لولا البعثة المحمدية ؟

---

(١) فرى الجلد : قطعه ليصلحه، وفرى الفري أتى بالعجب. والمعنى أن عمر عبقري متفرد في عمله، فلا يقدر أحد على ان يصنع مثل صنيعه.

لقد كان ولا ريب خليقًا أن يستوي على مكان الزعامة بين بني عدي آله الأقربين، أو بين قريش قبيلته الكبرى، ثم ينتهي شأنه هناك كما انتهى شأن زعماء آخرين لم نسمع لهم بخبر.. لأنهم عظموا أو لم يعظموا، يعطون البيئة كفاء ما تطلب من جهد ودراية، وهي تطلب منهم ما يذكرون به في بيئتهم، ولكنها لا تطلب منهم ما يُذكرون به في أقطار العالم البعيد.

وقد كان عمر قوي النفس بالغًا في القوة النفسية.. ولكنه على قوته البالغة لم يكن من أصحاب الطمع والاقتحام، ولم يكن ممن يندفعون إلى الغلبة والتوسع في الجاه والسلطان، بغير دافع يحفزه إليه وهو كاره لأنه كان مفطورًا على العدل وإعطاء الحقوق والتزام الحرمات ما التزمها الناس من حوله، وكان من الجائز أن يهيجه خطر على قبيلته أو على الحجاز ومحارمه المقدسة في الجاهلية، فينبري لدفعه، ويبلي في ذلك بلاء يتسامع به العرب في جيله وبعد جيله، ولكنه لا يعدو ذلك النطاق ولا هو يبالي أن يمعن في بلائه حتى يعدوه.

بل كان من الجائز غير هذا، وعلى نقيضه..

كان من الجائز أن تفسد تلك القوة بمعاقرة الخمر والانصراف اليها. فإنه كان في الجاهلية كما قال: « صاحب خمر يشربها ويحبها » وهي موبقة لا تؤمن حتى على الأقوياء إذا أدمنوها ولم يجدوا من زواجر الدين أو الحوادث ما يصرفهم عنها، ويكفيهم عن الافراط في معاطاتها.

فعمر بن الخطاب الذي عرفه تاريخ العالم وليد الدعوة المحمدية دون سواها، بها عرف وبغيرها لم يكن ليعرف في غير الحجاز أو الجزيرة العربية..

أما القدرة الأخرى التي يمتاز بها العظيم الذي خلق لتوجيه العظماء فقد أبان عنها النبي عليه السلام في كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى، أي من اللحظة التي سأل الله فيها أن يعزَّ به الاسلام، إلى اللحظة التي ندب فيها أبا بكر للصلاة بالناس وهو – عليه السلام – في مرض الوفاة.

سبر غوره واستكنه عظمته، وعرفه في أصلح مواقفه فعرف الموقف الذي يتقدم فيه على غيره والموقف الذي هو أولى بتقدم غيره عليه..

وليست هي مفاضلة بين رجلين، ولا موازنة بين قدرتين..

ولكنها مسألة توفيق بين الرجل والموضع الذي ينبغي أن يوضع فيه، والمهمة التي ينبغي أن يندب لها، والوقت الذي يحين فيه أوانه.

وربما رأينا في زماننا هذا رئيساً يوصي لنصير من أنصاره بالوزارة ويوصي لغيره بقيادة الجيش، فلا نقول انه يفاضل بين النصيرين أو أنه يرجح أحدهما على الآخر في ميزان الكفاءة. وانما يختار كلا منهما لموضعه في الوقت الذي يحتاج اليه، ولا غضاضة على أحد منهما في هذا الاختيار..

فالنبي عليه السلام كان يعلم من هو أبو بكر ومن هو عمر. وقد عادل بينهما أجلّ معادلة حين قال: « ان الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال: « من تبعني فانه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: « إن تعذبهم فانهم عبادك، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » ومثلك يا عمر مثل نوح قال: « رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً » ومثلك كمثل موسى قال: « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ».

كان النبي عليه السلام يعلم – أن عمر أشد المسلمين في الله، ويعلم أن في أبي بكر ليناً وهوادة. فجمع للاسلام المزيتين حين اختار أبا بكر للصلاة وضمن هذا الاختيار معنى من معاني الاستخلاف.. أو كما جاء في بعض الروايات أنه نص على استخلاف أبي بكر بالقول الصريح..

فتعزيز الاسلام بعد نبيه كان في حاجة إلى كثير من الهوادة والمجاوزة، وكان كذلك في حاجة إلى كثير من الشدة والصرامة، ولن تذهب شدة عمر إذا احتاج إليها أبو بكر في محنة يشتد فيها اللين الوديع. إنما الخوف أن يذهب لين أبي بكر إذا اشتد

عمر، ولا خوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد. فان الموقف إذا استنفد حجج الرحمة حتى يلجأ فيه أبو بكر إلى البأس ويصر عليه، فأقرب شيء أن يعدل عمر عن لينه وأن يثوب إلى المعهود من صرامته ولدده.

وكان النبي عليه السلام يعلم أن احتمال التبعة أو « المسؤولية » خليق أن يبدل أطوار النفوس في بعض المواقف والأزمات، فيجنح اللين إلى الشدة، ويجنح الشديد إلى اللين.. لأننا إذا قلنا ان رئيسنا أصبح يشعر بالمسؤولية فعنى ذلك أنه أصبح يراجع رأيه فلا يستسلم لأول عارض يمليه عليه طبعه، ولا يقتنع باللين أول وهلة إذا كان من دأبه اللين، ولا بالشدة أول وهلة إذا كان من دأبه الشدة. ومن هنا ينشأ الاختلاف بين موقف الرجل وهو مسؤول وموقفه وهو غير مسؤول.

* * *

وهذا الذي ظهر أعجب ظهور في موقفَي الصاحبين من حرب الردة. فإن عمر الشديد قد آثر الهوادة وأبا بكر الرفيق قد آثر القتال وأصر عليه. وكان عمر يقول: « إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمده الله بهم » وقد انقطع ذلك اليوم. ثم يقول للخليفة: « الزم بيتك ومسجدك فانه لا طاقة لك بقتال العرب » وكان أبو بكر يقول متسائلاً: « أئن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟.. والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون » قوله الحق ووعده الصدق « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ».. « كم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ». « والله أيها الناس لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم بالله وهو خير معين ! ».

هنالك بلغت التبصرة بوجوه الرأي المختلفات غاية مداها، وجاء عمر بقصارى ما عنده من حجج الرأي الآخر حتى وضحت المناهج واستقر العزم والتقى الصاحبان عليه فكانت شِدّتها في الحق شِدّتين..

وهَب الأمر مع هذا قد اختلف في موقف الصاحبين، فمال أبو بكر إلى السلم

والمسامحة ، فأين كانت شدة عمر ذاهبة عنه في هذا الحال ؟.. أغلب الظن أنه هو الذي كان يتولى يومئذ أن يبسط وجه الشدة في معاملة المرتدين.. لأنه يعلم أنه المسؤول عن بسط هذا الوجهدون غيره فلا تفوت الاسلام مزية من مزايا الصاحبين.

ان محمدًا عليه السلام قد عرف من هُم رجاله ، وما هو الموقف الذي هم مقبلون عليه بعد وفاته ، فعرف الموضع الذي يضع فيه كلا منهم والعمل الذي يتولاه خير ولاية في ذلك الموضع ، ولم يفته أن يحسب حساب التبعة وما في احتمالها من ضمان للأخلاق الصالحة والعقول الراجحة ، وأبو بكر وعمر من خيرة أصحاب هذه الأخلاق وهذه العقول.

ولا يحسبن حاسب اننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد وقوعها ، ولم يكن مقصودًا في النيات قبل ذلك.. فان الذي يحسب هذا الحسبان يخطىء تلك الخطأة الشائعة التي لا تثبت على أقل نصيب من الروية والمراجعة : يخطىء في وهمه خطأة الذين يتخيلون أن هذه السياسات العالية من بدع الزمن الأخير وليست هي من البدع في زمن كان.. لأن العظمة لم تكن قط وقفًا على العصر الحديث ، ولا سيما العظمة التي ترجع إلى الفطرة القويمة والبديهة النافذة والنظر السديد.

فكل هذا التقدير الذي أجملنا شرحه كان تقدير قصد وتدبير ، وكان مفهومًا على البداهة بين ولاة الأمر في تلك الآونة ، ملحوظًا بينهم في مناجاة النيات قبل أن نلحظه نحن في عصرنا هذا من تفسير حوادث التاريخ..

وإلى ذلك أشار عمر في قول صريح حين قال لمن هابوه وتحدثوا بخوف الناس منه : « بلغني أن الناس هابوا شدتي وخافوا غلظتي وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، ثم اشتد وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور اليه ؟.. ومن قال ذلك فقد صدق. فقد كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه. وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله : بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فكنت بين يديه سيفًا مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي.. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض ، والحمد لله

على ذلك كثيرًا وأنا به أسعد. ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتي بلينه، فأكون سيفًا مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض، والحمد لله على ذلك كثيرًا وأنا به أسعد. ثم اني قد وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين: فأما أهل السلامة والدين والقصد، فألين لهم من بعض لبعض...»

بل ظهرت آثار الشعور بالتبعة بعيد موت النبي والحال على أشده في يوم السقيفة، والمسلمون مختلفون على من يلي الأمر بعد محمد حتى قيل فيما قيل: من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير.

ففي تلك المحنة التي تشخص فيها الأبصار، وتعظم التبعات، وتودي زلة الساعة فيها بالكثير الذي لا تستدركه الأعوام، كان عمر الحاد الشديد يخشى بوادر الحدة من أبي بكر ويهيىء الكلام اللين ليعالج الأمر بالرفق والتؤدة: ويقول فيما رواه عن محنة ذلك اليوم: «وكنت أداري منه بعض الحد - أي الحدة - فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك! فكرهت أن أغضبه. فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر».

عمر الحاد الشديد يحاذر من بوادر أبي بكر، وأبو بكر الحليم الوديع يكف عمر عن الكلام، فيطيع!

هؤلاء رجال يعرفهم صاحبهم، وهذه مواقف يعرفها صاحبها، وهذه مسألة فصل فيها الزمن ولم يبق لنا نحن الذين نعود اليها ونستخلص عبرتها إلا أن نراقب ما فيها من آيات الاعجاز، وسوابق النظر البعيد.

ما وُضع أبو بكر خيرًا من موضعه، وهو يلي الاسلام والخطر من داخل أهله، والطب الذي يطبهم به هو طب التآلف والاحجام عن السطوة ما كان إلى الاحجام عنها سبيل.

وما وضع عمر خيرًا من موضعه، وهو يلي الاسلام والخطر عليه من أعدائه المحدقين به. والطب الذي يطبهم به هو طب الصلابة والحزم الذي لا ينكل عن صراع.

وكأنما توقع النبي أن أيام أبي بكر معدودات ولكنها الأيام التي تحتاج اليه وتكفي لإنجاز عمله. وتوقع أن يأتي عمل عمر في حينه المقدور. فلا يفوت الاسلام أن ينتفع بمقدرته في عهد أبي بكر ولا في عهده. نقول هذا على الترجيح. ومن حقنا أن نقوله على التوكيد، لأن حديث النبي فيه غنى عن التخمين والتأويل. قال عليه السلام: « رأيت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب(١) فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا(٢) أو ذنوبين نزعًا ضعيفًا. والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا، فلم أر عبقريًا يفري فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن(٣)».

وفهم فقهاء الإسلام أن ضعف النزع هو قصر المدة وانصراف العزم إلى حرب الردة، وأن فيض الري على يد عمر هو فيض العبقرية التي ينفسح لها الأجل وتنفسح أمامها منادح العمل، ويؤتى لها من السبق ما لا يؤتى لغير العبقريين.

ولنا أن نفسر العبقرية بمعناها الذي يفهمه الأقدمون أو بمعناها الذي نفهمه نحن المحدثين، فكلا المعنيين مستقيم في وصف عمر بن الخطاب.. أتراها على كلا المعنيين شيئًا غير التفرد والسبق والابتكار؟..كلا.. ما للعبقرية مدلول يخرج عن صفة من هذه الصفات. ومن يكتب تاريخ عمر فقد يجد في النهاية أنه يكتب تاريخًا « لأول من صنع كذا وأول من أوصى بكذا» حتى ينتهي بسرد هذه « الأوليات » إلى عداد العشرات.

وتلك هي العبقرية التي لا يفري فريها أحد كما قال صاحبه وأعرف الناس به. صلوات الله عليه.

---

(١) بئر. (٢) دلو. (٣) مربط الابل حول الماء.

رجل ممتاز

يوصف عمر بالعبقرية إذا نظرنا إلى أعماله، ويوصف بها إذا نظرنا إلى تكوينه الذي جعله مستعدًا لتلك الأعمال مضطلعا بتلك القدرة، وإن لم يكن من اللازم اللازب أن تقترن القدرة بالعمل الذي تستطيعه. لما يتفق أحيانًا من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل..

إلا أن عمر كان رجلاً ممتازًا بعمله، ممتازًا بتكوينه، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد في عرف الأقدمين والمحدثين، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين.

إذا وصفته للأقدمين الذين يقيمون العبقرية بالفراسة والخبرة عرفوا من صفته أن الذي يوصف لهم رجل ممتاز أو رجل نسيج وحده.

وإذا وصفته للمحدثين الذين يقيمون العبقرية بالعلم أو مشاهدات العلماء عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز، أو رجل موهوب.

كانت نظرة اليه - قبل السماع بعمل من أعماله - توقع في الروع أنه من معدن في الرجال غير معدن السواد، وأنه جدير بالهيبة والاعظام، خليق أن يحسب له كل حساب.

كان مهيبًا رائع المحضر حتى في حضرة النبي التي تتطامن عنده الجباه، وأولها جبهة عمر..

أذن النبي يومًا لجارية سوداء أن تفي بنذرها «لتضربن بدفها فرحًا إن رده الله سالمًا» فأذن لها عليه السلام أن تضرب بالدف بين يديه.

ودخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل علي وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، والصحابة مجتمعون.

فما هو إلا أن دخل عمر حتى وجمت الجارية وأسرعت إلى دفها تخفيه ، والنبي عليه السلام يقول : « إن الشيطان ليخاف منك يا عمر! ».

وروت السيدة عائشة رضي الله عنها أنها طبخت له عليه السلام حريرة ودعت سودة أن تأكل منها فأبت.. فعزمت عليها لتأكلن أو لتلطخن وجهها. فلم تأكل، فوضعت يدها في الحريرة ولطختها بها. وضحك النبي عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها : لطخي أنت وجهها ففعلت.

ومر عمر فناداه النبي : يا عبد الله!.. وقد ظن أنه سيدخل، فقال لهما : قوما فاغسلا وجهيكما!.

قالت السيدة عائشة : فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إياه.

ومن تلك الهيبة أنها كانت رضي الله عنها تتحفظ في زيارة قبره بعد موته، وحكت ذلك فقالت : « ما زلت أضع خماري وأتفضل في ثيابي وأقول : انما زوجي وأبي حتى دفن عمر بن الخطاب ، فلم أزل متحفظة في ثيابي حتى بنيت بيني وبين القبور جدارًا فتفضلت بعد».

وإن من أدب الرسول عليه السلام، أنه كان يرعى تلك الهيبة برضى عنها واغتباطًا بأثرها في نصرة الحق وهزيمة الباطل وتأمين الخير والصدق وإخافة أهل البغي والبهتان.

وقد كان الذين يعرفون عمر أهيب له من الذين يجهلونه.. وتلك علامة على أن هيبته كانت قوة نفس تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار.. فربما اجترأ عليه من لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه عن الخيلاء وقلة اكتراثه للمظهر والثياب. أما الذين عرفوه واختبروه فقد كان يروعهم على المفاجأة روعة لا تذهبها الإلفة وطول المعاشرة، ومن ذاك أنه كان يمشي ذات يوم وخلفه عدة من أصحاب رسول الله إذ بدا له فالتفت ، فلم يبق منهم أحد إلا وحبل ركبتيه ساقط !.

وتنحنح عمر والحجَّام يقص له شعره ، فذهل الحجَّام عن نفسه وكاد أن يغشى عليه فأمر له بأربعين درهمًا .

فهي هيبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد. إلا أنه مع هذا كان في منظر الجسد رائعًا يهول من يراه ، ولا يذهب الخوف منه إلا الثقة بعدله وتقواه.

كان طويلا بائن الطول يرى ماشيًا كأنه راكب ، جسيما صلبًا يصرع الأقوياء ويروض الفرس بغير ركاب، ويتكلم فيسمع السامع منه وفاق ما رأى من نفاذ قول وفصل خطاب .

تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة ، أو معدن العبقرية والامتياز بين بني الانسان ، وللمحدثين علامات في العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال .

فالعالم الايطالي « لاومبروزو » ومدرسته التي تأتمُّ برأيه ، يقررون بعد تكرار الترجمة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور في أحد من أهلها.. وهي علامات تتفق وتتناقض ولكنها في جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة .

فيكون العبقري طويلاً بائن الطول ، أو قصيرًا بيِّن القصر، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين ، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود في سائر الناس. ويكثر بين العبقريين من كل طراز جيَشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارىء ؛ فيكون فيهم من تفرط سورته كما يكون فيهم من يفرط هدوؤه ، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وبخفايا الاسرار على نحو يلحظ تارة في الزكانة والفراسة ، وتارة في النظر على البعد ، وتارة في الحماسة الدينية أو في الخشوع لله .

ومهما يكن من الشك في استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع فهي بلا ريب صادقة في حالات ، مقاربة في حالات ، غير أهل في كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام ، ولا سيما عندما تتفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور..

وفي عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير.

كان كما تقدم طويلاً يمشي كأنه راكب، وكان أعسرًا يسرًا يعمل بكلتا يديه، وكان أصلع خفيف العارضين، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله بلال: وكيف تجدون عمر؟.. فقال: خير الناس، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم..

وكان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدي الله، وأثر البكاء في صفحتي وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان.

ومن فرط حسه، وتوفُّز شعوره، انه كان يميِّز به بعض المذوقات والمشمومات التي لا يسهل التمييز بينها. سقاه غلامه ذات يوم لبنًا فأنكره. فسأله: ويحك!.. من أين هذا اللبن؟.. قال الغلام: إن الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال الله.

وقد عرفنا أهل البادية. وعرفنا أنهم جميعًا أصحاب إبل وألبان، ولكننا لم نجد منهم إلا قليلاً يدعون أنهم يفرقون بين لبن ناقة ولبن غيرها هذه التفرقة السريعة، ولا سيما في المناخ الواحد والمرعى المتقارب.

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن « من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه »... وتروى له في أمر هذه الفراسة روايات قد يصدق منها القليل وتتسرب المبالغة إلى كثير، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها، وهي أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة، فمن ذلك أنه كان جالسًا فمر به رجل جميل فقال ما معناه: أحسبه كان كاهنهم في الجاهلية. فكان كذلك.

وأنه أبصر أعرابيًا نازلاً من جبل فقال: هذا رجل مصاب بولده قد نظم فيه شعرًا لو شاء لأسمعكم. ثم سأل الأعرابي: من أين أقبلت؟.. فقال: من أعلى الجبل.. فسأله: وما صنعت فيه؟.. فقال: أودعته وديعة لي.. قال: وما وديعتك؟. قال: بنيّ لي هلك فدفنته.. قال: فأسمعنا مرثيتك فيه.. فقال: وما يدريك يا أمير المؤمنين؟. فوالله ما تفوهت بذلك، وإنما حدثت به نفسي، ثم أنشد أبياتًا ختمها بقوله:

فالحمد لله لا شريك لـــــه في حكمه كان ذا وفي قـــدره
قدر موتا على العباد فـــا يقدر خلق يزيد في عمـــره

فبكى عمر حتى بل لحيته. ثم قال: صدقت يا أعرابي!.

وكان عمير بن وهب الجمحي، وصفوان بن أمية، يذكران مصاب أهل بدر فقال صفوان: والله ما ان في العيش بعدهم خير. فوافقه عمير وهو يقول كالمعتذر من تخلفه عن الثأر: أما والله لولا دين عليَّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله.

فقال صفوان يحرضه: عليَّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم.

فوقع كلامه من نفس عمير، فأسرَّ إليه بعزمه على الغدر بالنبي، وشحذ سيفه وسمه، ثم انطلق حتى قدم المدينة.

فما نظر عمر اليه متوشحًا بالسيف حتى أوجس منه وهمس لمن معه: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب. ما جاء إلا لشرّ وهو الذي حرش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر. ثم دخل على النبي فأخبره خبره وعاد إلى عمير فأخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها. وقال لرجال من الأنصار: أدخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فانه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله فلما رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: أرسله يا عمر! ادن يا عمير.

وجعل رسول الله يسأل عمير وهو يراوغ حتى ضاقت به منافذ الإنكار فباح بسره، وأعلن الاسلام والتوبة.

هذه الفراسة وشبيهاتها هي ضرب من استيحاء الغيب واستنباط الأسرار بالنظر الثاقب. وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن العبقرية في حاشية من حواشيها.. إذ ما هي العبقرية في لبابها كائنًا ما كان عمل العبقري المتصف بها؟. ما هي الحكمة العبقرية؟. ما هو الفن العبقري؟ ما هو دهاء السياسة في الدهاة العبقريين؟ من هو:

الألمعي الذي يظن بـــــك كأن قد رأى وقد سمعـــــا ؟

كل أولئك يلتقي في هبة واحدة، .هي كشف الخفايا، واستيضاح البواطن واستخراج المعاني التي تدق عن الألباب.. فاتصالها بالفراسة وشبيهاتها أمر لا عجب فيه، ولا انحراف به عن النحو الذي تنتحيه.

والذي يعنينا بالفراسة وشبيهاتها في صدد الكلام عن عمر رضوان الله عليه أن نحصي الخصال الأخرى التي هي كالفراسة في هذا الاعتبار، وهي التفاؤل والاعتداد بالرؤيا والنظر أو الشعور على البعد أو « التلباثي » كما يسميه النفسانيون المعاصرون، ولكل أولئك شواهد شتى مما روي عن عمر في جاهليته وبعد إسلامه إلى أن أدركته الوفاة.

جاء رسول من ميدان نهاوند فسأله: ما اسمك؟.. قال: قريب، وسأله مرة أخرى: ابن مَن؟.. فقال: ابن ظفر!.. فتفاءل وقال: ظفر قريب إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

وروى يحيى بن سعيد أن عمر سأل رجلاً: ما اسمك؟.. قال: جمرة!.. فسأله: ابن من؟.. قال: ابن شهاب.. فسأله: ممن؟.. قال من الحرقة، وعاد يسأله: ثم ممن؟.. من بني ضرام، وهكذا في أسئلة ثلاثة أو أربعة عن مسكنه وموقعه، والرجل يجيب بما فيه معنى النار ومرادفاتها حتى استوفاه. فقال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا..

وقد يكون التأليف ظاهرًا في هذه القصة. ولكنها مع تأليفها لا تخلو من الدلالة على اشتهار عمر باستكناه الألفاظ في معرض التفاؤل أو الإنذار.

أما الرؤيا فآخر ما روي عنه من أخبارها أنه رأى قبيل مقتله كأن ديكا نقره نقرتين فقال: يسوق الله إليّ الشهادة ويقتلني أعجمي، فإن الديك في الرؤيا يفسر برجل من العجم.

على أن المكاشفة أو الرؤية Vision كما يسميها النفسانيون المحدثون إنما تظهر بأجلى وأعجب من هذا كثيرًا في قصة سارية المشهورة، وهي مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباثي Telepathy أو الشعور البعيد.

كان رضي الله عنه يخطب بالمدينة خطبة الجمعة فالتفت من الخطبة ونادى : يا سارية بن حصن ! الجبل.. الجبل.. ومن استرعى الذئب ظلم.

فلم يفهم السامعون مراده، وقضى صلاته فسأله علي رضي الله عنه : ما هذا الذي ناديت به ؟.. قال : أو سمعته ؟.. قال نعم.. أنا وكل من في المسجد.

فقال :وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل.. فان عدلوا اليه قاتلوا من وجدوه وظفروا، وإن جاوزوه هلكوا، فخرج مني هذا الكلام.

وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا ذلك اليوم وتلك الساعة حتى جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول : يا سارية بن حصن ! الجبل.. الجبل. فعدلنا اليه ففتح الله علينا.

ولا داعي للجزم بنفي هذه القصة استنادًا الى العقل أو الى العلم أو الى التجربة الشائعة. فان العقل لا يمنعها، والعلماء النفسانيون في عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفي أمثالها. بل منهم من مارسوا « التلباثي » وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين.

إلا أن المهم من نقل هذه القصة في هذا الصدد أن عمر كان مشهورًا بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية إما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد، وهي الهبات التي يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الانسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها.

فهو رجل نادر بما تراه منه العين، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق، نادر في مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين.

أو هو رجل ممتاز، وعبقري موهوب في جميع الآراء.

صفات

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال. رجل عبقري، أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدون في الزمن الواحد بأكثر من الآحاد. أنقول رجل قوي؟.. نعم هو رجل قوي لا مراء.. وكل عظيم فهو قوي بمعنى من معاني القوة. نعلم هذا فنعلم الشيء المهم عنه، ولكننا بعد هذا لا نعلم شيئًا مهمًا عن صفاته وأخلاقه. لأن الناس من حيث القوة أقوياء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون إلى هنا تارة وإلى هناك تارة أخرى. أما من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوف وألوف، وهم في قوتهم أو ضعفهم أنماط لا تحصى من المناقب والعيوب، وأحرى بنا أن نقول ان القوة صفة تستفاد من جملة مناقب الانسان وعيوبه. فهي حالة تدل عليها المناقب والعيوب، أو تدل عليها الصفات والأخلاق، وليست هي بالحالة التي تدلنا على مناقب الانسان وعيوبه وتهدينا بغير هاد الى صفاته وأخلاقه. فإذا قلت ان عمر بن الخطاب رجل قوي، فما زدت على أن تقول إنه رجل عبقري أو إنه رجل عظيم.

وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالأمر اليسير، لأنه نمط لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس إلى أمثاله الكثيرين.. وقد يكون الرجل العظيم نمطًا وحيدًا في التاريخ كله لا نظير له في تفصيل أخلاقه وصفاته وإن ساواه في القدر أنداد وقرناء.

وعمر بن الخطاب مثل فذ من أمثلة هذا الطراز الفريد، تفهم سره فاذا هو على وفاق مع جهره، وتنفذ الى باطنه فاذا هو مصدق للظاهر من سماه..

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر والسريرة؟..

كلا.. ولا تقدمنا بعيدًا في طريق حلها، لأننا لا نعرف هذا التقارب الا بعد معرفة السريرة التي نبحث عنها، فلا بد اذن من البحث، ولا بد اذن من المعرفة.. فاذا وصلنا الى الغور البعيد عرفنا ساعتئذ انه لا يناقض الظاهر المكشوف. ولكن لا بد من الوصول الى الغور البعيد قبل ذاك.

لا تناقض في خلائق عمر بن الخطاب. ولكن ليس معنى ذلك انه أيسر فهما من المتناقضين، بل لعله أعضل فهما منهم في كثير من الأحيان. فالعظمة على كل حال ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ الى صميمه ويحتويه.

إنما الأمر الميسور في التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جدًا لا يسترها حجاب. فما من قارئ ألم بفذلكة صالحة من ترجمته الا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلاً، وكان رحيما، وكان فطنا وكان وثيق الايمان عظيم الاستعداد للنخوة الدينية..

فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والايمان الوثيق صفات مكينة فيه لا تخفى على ناظر، ويبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف تتجه هذه الصفات الى وجهة واحدة ولا تتشعب في اتجاهها طرائق قددا كما يتفق في صفات بعض العظماء. بل يبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتمم بعض هذه الصفات بعضا حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان..

وأعجب من هذا في التوافق بين صفاته أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى ولا تستمدها من ينبوع واحد. ثم هي مع ذلك متفقة لا تتناقض، متساندة لا تتخاذل، كأنها لا تعرف التعدد والتكاثر في شيء.

خذ لذلك مثلاً عدله المشهور الذي اتسم به كما لم يتسم قط بفضيلة من فضائله الكبرى.. فكم رافدة لهذا الخلق الجميل في نفس ذلك الرجل العظيم؟..

روافد شتى: بعضها من وراثة أهله، وبعضها من تكوين شخصه، وبعضها من عِبَر أيامه، وبعضها من تعليم دينه.. وكلها بعد ذلك تمضي في اتجاه قويم الى

غاية واحدة لا تنم على افتراق.

لم يكن عمر عادلاً لسبب واحد بل لجملة أسباب :

كان عادلاً لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه، فهو من أنبه بيوت بني عدي الذين تولوا السفارة والتحكيم في الجاهلية، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلاً بعد جيل على الانصاف وفصل الخطاب، وجده نفيل بن عبد العزّى هو الذي قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية حين تنافرا اليه وتنافسا على الزعامة. فهو عادل من عادلين، وناشىء في مهد الحكم والموازنة بين الأقوياء..

وكان عادلاً لأنه قوي مستقيم بتكوين طبعه.. وان شئت فقل أيضًا بتكوينه الموروث. إذ كان أبوه الخطاب وجده نفيل من أهل الشدة والبأس. وكانت أمه منتمة بنت هشام بن المغيرة قائد قريش في كل نضال فهو على خليقة الرجل الذي لا يحابي لأنه لا يخاف، والذي يخجل من الميل إلى القوي لأنه جبن، ومن الجور على الضعيف لأنه عوج يزري بنخوته وشممه..

وكان عادلاً لأن آله من بني عدي قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بني عبد شمس وكانوا أشداء في الحرب يسمونهم لعقة الدم، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم، فاستقر فيهم بغض القوي المظلوم للظلم وحبه للعدل الذي مارسوه ودربوا عليه، وساعدت عِبَر الأيام على تمكين خليقة العدل في خلاصة هذه الأسرة، أو خلاصة هذه القبيلة، ونعني به عمر بن الخطاب.

وكان عادلاً بتعليم الدين الذي استمسك به وهو من أهله بمقدار ما حاربه وهو عدوه، فكان أقوى العادلين كما كان أقوى المتقين والمؤمنين.

وكذلك اجتمعت عناصر الوراثة الشعبية، والقوة الفردية، وعبر الحوادث وعقيدة الدين في صفة العدل التي أوشكت أن تستولي فيه على جميع الصفات..

كان عادلاً لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقلة التناقض فيه. وربما كان تعدد الأسباب هو العاصم الذي حمى هذه الصفة أن تتناقض في آثارها لأنه منحها

القوة التي تشدها كما يشد الحبل المبرم فلا تتفكك ولا تتوزع، فكان عمر في جميع أحكامه عادلاً على وتيرة واحدة لا تفاوت بينها. فلو تفرقت بين يديه مائة قضية في أعوام متباعدات لكنت على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا.. كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير..

إلا أن الصفات اذا بلغت هذا المبلغ من القوة الرائعة لم تكد تسلم من طروء التناقض عليها، وإن سَلِمت منه بطبيعتها، لأنها تدخل في صفات البطولة التي تثير الإعجاب والمبالغة، وكل بطولة فهي عرضة للمبالغات والاضافات، ومن ثم لا تسلم من تناقض الأقاويل..

وصفات عمر كلها صفات لها طابع البطولة، وفيها دواعي الاغراء بالاعجاب والمبالغة. وممن؟.. من الأصدقاء المصدقين لأنهم لا يتهمون بقصد السوء وهم في الواقع أولى بالاحتراس من الخصوم المتهمين.. فمن هنا يجيء التناقض لا من طبيعة الصفات التي تأباه.

فالعدل مثلاً هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم في قضاء الحقوق واقامة الحدود..

وليس أقرب الى الحاكم من ابنه.

فإذا سوّى الحاكم بين ابنه وسائر الرعية، فذلك عدل مأثور يقتدي به الحاكمون..

ولقد سوّى عمر بين أبنائه وسائر المسلمين، فبلغ بذلك مبلغ البطولة في هذه الصفة النادرة بين الحكام..

وذلك كاف في تعظيم قدره.. لا حاجة بعده إلى مزيد..

إلا انها صفة من صفات البطولة التي تروع وتعجب وتملأ النفس بالرغبة في التحدث بها والاطناب في أحاديثها. فهي لا تكفي المبالغين حتى يجعلوا عمر مقيمًا للحد على ابنه، مشتدًا في عقوبته اشتدادًا لا يسوي فيه بينه وبين غيره، ثم لا يكتفي المبالغون بهذا حتى يموت الولد قبل استيفاء العقوبة، فيمضي عمر في جلده وهو ميت لا تقام عليه الحدود! ومن اعتدل من المبالغين لم يذكر الموت واتمام العقوبة وذكر

لنا أن الولد مات بعد ذلك بشهر من مرض الضرب الذي ثقل عليه، وعجز عن احتماله..

نعني بما تقدم قصة عبد الرحمن بن عمر في مصر، وهي كما رواها عمرو بن العاص والي مصر يومئذ حيث يقول: «... دخلا - عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة - وهما منكسران، فقالا: أقم علينا حد الله، فانا قد أصبنا البارحة شرابًا فسكرنا، فزبرتهما وطردتهما، فقال عبد الرحمن: ان لم تفعل أخبرت أبي إذا قدمت عليه.. فحضرني رأي وعلمت أني إن لم أقم عليهما الحد غضب عليّ عمر في ذلك وعزلني وخالفه ما صنعت، فنحن على مانحن عليه إذ دخل عبدالله بن عمر، فقمت اليه فرحبت به وأردت أن اجلسه في صدر مجلسي فأبى عليَّ وقال: أبي نهاني أن ادخل عليك الا أن لا أجد من ذلك بدًا. ان أخي لا يحلق على رؤوس الناس. فأما الضرب فاصنع ما بدا لك».

قال عمرو بن العاص: وكانوا يحلقون مع الحد فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد، ودخل ابن عمر بأخيه إلى بيت من الدار فحلق رأسه ورأس أبو سروعة، فوالله ما كتبت إلى عمر بشيء مما كان حتى إذا تحينت كتابه إذا هو نظم فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاص:

«... عجبت لك يا ابن العاص ولجرأتك على خلاف عهدي... فما أراني إلا عازلك فمسيء عزلك. تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك: وقد عرفت أن هذا يخالفني؟.. إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين. ولكن قلت هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت ألا هوادة لأحد من الناس عندى في حق يجب لله عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع»..

قال: «فبعثت به كما قال أبوه وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه، وكتبت الى عمر كتابًا اعتذر فيه وأخبره أني ضربته في صحن داري، وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه أني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم، وبعثت بالكتاب مع

عبدالله بن عمر».

قال أسلم: «فقدم عبد الرحمن على أبيه فدخل عليه وعليه عباءة ولا يستطيع المشي من مركبه. فقال: يا عبد الرحمن فعلت كذا؟. فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرة. فلم يلتفت إلى هذا عمر وزَبَره. فجعل عبد الرحمن يصيح: أنا مريض وأنت قاتلي!. فضربه وحبسه، ثم مرض فمات رحمه الله».

فهذه قصة تتوافق أخبارها ومن رويت عنهم، فلا نستغربها في جميع تفصيلاتها إلى حين تطرأ عليها المبالغة التي تتسرب إلى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التي يوجبها الدين ولا تقبلها الفطرة الانسانية، فيقيم عليه الحد وهو ميت، أو يعرضه للموت من أجل حد أقيم.

هذا هو الغريب الذي استوقفنا فأنكرناه، ومضينا في تمحيصه فطابق التمحيص ما قدرناه. أما سائر القصة فلا غرابة فيه من كل نواحيه، بل هو من القصص التي يستبعد فيها التلفيق والاختراع.. إلا أن يكون الملفّق من حذاق الرواة ومهرة الوضاع.

ولو كان المصدر واحدًا معروفا بالحذق في القصص لحسبناها من وضعه وتلفيقه. ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به، فهي أقرب إلى الواقع فيما يشبهه ويجري مجراه.

فعبد الرحمن بن عمر يذهب إلى الوالي لأنه شرب شيئًا ظنه غير مسكر فإذا هو قد سكر منه، ولا مناص من اقامة الحد عليه والا رفع الأمر الى أبيه.. هي شنشنة عمرية لا لبس فيها، وهو ابن عمر لا مراء.

والوالي.. من الوالي؟.. عمرو بن العاص الذي لا خفاء بدهائه ولا ببعد حسابه، فهو يتريث بادىء الأمر ويحاول أن يصرف الفتى إذا طاب له الانصراف دون أن يقيم الحد عليه.. وهي أيضًا شنشنة لا غرابة فيها. فمن يدري؟. ألا يجوز أن يصبح هذا الفتى أخًا للخليفة أو مدبرًا للسلطان معه في يوم غير بعيد؟

والخليفة يدري بالأمر فيهوله، ويستكبر أن يخفيه عنه واليه فلا يصل اليه نبأه من قبله، وهو ما هو في تحرجه من تبعة يحملها غافلا عنها، لحرص الولاة على تحري هواه وابتغاء رضاه؛ فيشفق أن يقع ابنه في معصية ثم ينجو من الحد الذي شرعه الدين، وهو مسؤول عن الولاة والحدود، ومسؤول عن ذويه الأقربين قبل سائر المسلمين.

كل أولئك كما قلنا سائغ لا غرابة فيه.

أما الغريب من عمر حقًا في معدلته وعلمه بالدين وكراهته رياء الناس فهو أن يتم على ابنه الحد وهو ميت. أو يشتد في إقامة الحد على ابنه حتى يتلف أو يصاب بما يتلفه بعد أيام.

فلا موجب لذلك من حكم دين ولا اتقاء تبعة.

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر في إقامة الحدود خاصة وفي مثل هذه العقوبة بعينها.

فقد جيء له يومًا بشارب سكران وأراد أن يشتد عليه فقال له: لأبعثنك الى رجل لا تأخذه فيك هوادة. فبعث به الى مطيع بن الأسود العبدي ليقيم عليه الحد في غده، ثم حضره وهو يضربه ضربًا شديدًا، فصاح به: قتلت الرجل. كم ضربته؟ قال: ستين، قال: أقص عنه بعشرين. أي ارفع عنه عشرين ضربة من أجل شدتك عليه فيما تقدم من الضربات..

وقد كان من دأبه أن يتريث في اقامة الحدود، حتى ليؤثر – كما قال – تعطيلها في الشبهات على أن يقيمها في الشبهات.

ومرَّ بقوم يتبعون رجلا قد أُخذ في ريبة فقال: لا مرحبًا بهذه الوجوه التي لا ترى إلا في الشر.

وربما غضب على الوالي من كبار الولاة لغلوه في تقاضي الحدود على المعاصي كما فعل في انذاره الشديد لأبي موسى الأشعري حين جلد شاربًا وحلق شعره وسود

وجهه ونادى في الناس ألا يجلسوه ولا يؤاكلوه. فأعطى الشاكي مائتي درهم وكتب الى ابي موسى « لئن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك في الناس » وأمره أن يدعو المسلمين الى مجالسته ومؤاكلته وأن يمهله ليتوب، ويقبل شهادته إن تاب.

وتفقد رجلا يعرفه فقيل له انه يتابع الشراب، فكتب اليه: «اني احمد اليك الله الذي لا اله إلا هو، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذو الطول، لا إله إلا هو، اليه المصير» فلم يزل الرجل يرددها ويبكي حتى صحت توبته وأحسن النزع وبلغت توبته عمر، فقال لمن حضروا مجلسه: « هكذا فاصنعوا. إذا رأيتم أخاً لكم زلّ زلّة فسددوه ووفقوه وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه ».

وقد تكرر منه إعفاء الزانيات من الحد لشبهة القهر والعجز عن المقاومة، وتكرر منه الإعفاء لمثل هذا العذر في غير ذلك من الحدود.

فلم يكن عمر بالسريع المتعطش إلى إقامة الحد، ولم يعرف عنه قط أنه أقام حدًا وله مندوحة عنه..

وفي قصة ولده منادح شتّى ترضيه على شدة تحرُّجه وتحريه. ثم لا حاجة بمثله إلى رياء العدل فيجور على ابنه ويسرف في القسوة عليه، ليقال انه سوّى بينه وبين غيره.

وأصح من ذلك، أن نأخذ برواية عبدالله بن عمر وهو أحق الناس بالمبالغة في عدل أبيه لوكانت المبالغة مما يجمل بمثله، فقد روى هذه القصة فقال ما خلاصته: ان أخاه عبد الرحمن وأبا سروعة عقبة بن الحارث سكرا، فلما أصبحا انطلقا إلى عمرو بن العاص وهو أمير مصر فقالا: طهرنا فإنا قد سكرنا من شراب شربناه!.. ولم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص. فقلت: والله لا يحلق اليوم على رؤوس الاشهاد. ادخل أحلقك، وكانوا إذ ذاك يحلقون مع الحد فدخل معي الدار فحلقت أخي بيدي، ثم جلدهما عمرو بن العاص. فسمع عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو أن ابعث إليَّ بعبد الرحمن بن عمر على قتب.. ففعل ذلك عمرو.. فلما قدم عبد الرحمن

على عمر جلده وعاقبه من أجل مكانه منه. ثم أرسله، فلبث شهرًا صحيحًا ثم أصابه قدره فتحسب عامة الناس أنه مات من الجلد ولم يمت منه.

هذه رواية عبدالله عن أبيه وأخيه، ولوكان الأمر مبالغة في عدل عمر لكان الابن أحق الناس بهذه المبالغة، أوكان الأمر رحمة بعبد الرحمن لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة. ولكنه أمر صدق لا نقص فيه ولا زيادة..

فالذي يجوز لنا أن نقبله من هذه القصة هو الجانب الذي يستقيم مع خلائق عمر ولا يناقضها. وهو العدل الصحيح في محاسبة ولده على ذنبه ولا زيادة، ولا سيما الزيادة التي لا تستقيم مع عدله ورحمته على السواء. وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصيلة فيه.

نعم كانت الرحمة من صفاته التي وازنت فيه العدل أحسن موازنة.. فما عهد فيه أنه أحب العدل لغضه من الأقوياء المعتدين كما كان يحبه لنجدته الضعيف المعتدى عليه.

ولا يمنعن ذلك أنه كان خشن الملمس صعب الشكيمة جافيًا في القول إذا استغضب واستثير. فليست الخشونة نقيضًا للرحمة، وليست النعومة نقيضًا للقسوة. وليس الذين يستثارون ولا يستغضبون بأرحم الناس. فقد يكون الرجل ناعمًا وهو منطو على العنف والبغضاء، ويكون الرجل خشنًا وهو أعطف خلق الله على الضعفاء، بل كثيرًا ما تكون الخشونة الظاهرة نقابًا يستتر به الرجل القوي فرارًا من مظنّة الضعف الذي يساوره من قبل الرحمة. فلا تكون مداراة الرقة إلا علامة على وجودها وحذرًا من ظهورها..

ومن المألوف في الطبائع أن الرجل الذي يقسو وهو معتصم بالواجب قلما ينطبع على القسوة، ولا سيما إذا كان الواجب عنده شيئًا عظيمًا يزيل كل عقبة ويبطل كل حجة ويقطع كل ذريعة. فهو إنما يعتصم بالواجب في هذه الحالة كما يعتصم الانسان بالحصن المنيع كلما خشي أن تقتحم عليه طريقه، ولولا خوف الرحمة أن تغلبه لما كانت به حاجة إلى ذلك الحصن المنيع، ولا سيما حين يكون حصنًا بالغًا في المنعة

كما كان الواجب عند عمر بن الخطاب.

أرأيت هذا الرجل الصارم الحازم قاسيًا قط إلا باسم واجب أو في سبيل واجب ؟. كلا.. وما نذكر اننا سمعنا رواية واحدة من روايات شدته إلا لمحنا الواجب قائمًا الى جانبها يزكيها ويسوغها. ومن كانت القسوة طبعًا فيه فما هو بحاجة إلى واجب يغريه بالقسوة، بل هو في حاجة إلى واجبات عدة تنهاه عنها وتغريه باجتنابها.

وليس قصاراه في هذا الخلق أنه غير قاس، أو أن الرحمة كانت تنفذ إلى قلبه كلما طرقته واتخذت سبيلها اليه، فان نصيبها من الرحمة قد كان أوفى جدًا من ذاك، وكانت هذه الفضيلة من فضائله الأصيلة فيه لا تكاد تفارقه في عامة حياته، حتى ليصحّ أن تُضرب الأمثال برحمته كما كانت تضرب الأمثال بعدله.. وأن يُقرن معه لقب العادل بلقب الرحيم.

وفي صدد الكلام عن الخليفة الاسلامي الكبير قد يهمنا خلق الرحمة فيه خاصة، لأن شأنها في التقريب بينه وبين الاسلام غير قليل.

فمن المحقق أن رقته للمسلمين وللدين الذي يدينون به كانت مقرونة في أول الأمر برحمته لامرأتين ضعيفتين رآهما في حالة من الشكوى تلين القلب وتكف الغضب وتمسح جفوة العناد والبغضاء..

قالت أم عبدالله بنت حنتمة: لما كنا نرتحل مهاجرين إلى الحبشة أقبل عمر حتى وقف عليّ، وكنا نلقى منه البلاء والأذى والغلظة علينا، فقال لي: إنه الانطلاق يا أم عبدالله! قلت: نعم.. والله لنخرجن في أرض الله.. آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجًا. فقال: صحبكم الله، ورأيت منه رقة لم أرها قط.

وحديثه مع أخته فاطمة في سبب إسلامه مشهور متواتر في أوثق الروايات.. فانه ضربها حين علم باسلامها فأدمى وجهها، فأدركتها الثورة الخطابية التي فيها منها بعض ما فيه، وقالت وهي غضبى: يا عدو الله، أتضربني على أن أوحد الله؟. قال غير متريث: نعم! فقالت: ما كنت فاعلا فافعل. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. لقد أسلمنا على رغم أنفك.

ويذكر رواة القصة التي اتفقت عليها روايات كثيرة أنه ندم وخلى عن زوجها - بعد أن صرعه وقعد على صدره - ثم انتحى ناحية من المنزل وطلب الصحيفة التي كتبت فيها آيات القرآن، وخرج من ثمة إلى حيث لقي النبي، فأعلن شهادة الاسلام على يديه..

وغير عسير علينا أن نرقب طوية عمر ونرى كيف كانت تتمشى فيها الخوالج والخطرات وهو يتحدث إلى المرأتين: بنت حنتمة وبنت الخطاب.

فهذا بطل مناضل يشحذه النضال اذا لقي أنداده من الأبطال، وأقرانه من الرجال: الاساءة تتبعها الإساءة والتحدي يعقبه التحدي، وكلما قوبل البطش بمثله تضرمت سورة الغضب وثارت نحيزة القتال، ومضى العداء شططًا لا اعتدال فيه ولا نكوص عنه حتى ينكسر عدو من العدوين. فلا موضع هنا لرحمة ولا سبيل لها إلى ظهور. وتتمادى الشرة على ذلك شهورا وسنين، وكأن الرحمة لم تُخلق في النفس، ولم يُسمع لها في حنايا الصدور صوت.

أما المرأة الشاكية، أو المرأة الدامية، إذا واجهت ذلك البطل القوي فما حاجته إلى قوته ونضاله؟.. وما أحرى تلك القوة أن تهدأ في مكانها كأنها هي الخليقة الخفية التي لم تخلق وليس لها صوت مسموع، وما أقربها إذن إلى أن تخجل من إيذائها وتندم على قسوتها وتثوب إلى التوبة والخشوع وهما من لباب الدين.

إن العرب يشتقون الرحمة من الرحم أو القرابة، وهو اشتقاق عميق المغزى يهدينا إلى نشأة هذه الفضيلة الإنسانية العالية، ومودة عمر بن الخطاب لرحمه وذوي قرباه لا تنحصر دلائلها في رحمته لأخته الشاكية الثائرة. فإن المرأة قد ترحم لضعفها في موقف شكواها ويأسها ولو كانت بعيدة الآصرة منقطعة النسب. انما يدل على مودته لذوي قرباه ذلك الحب الذي كان يضمره لأبيه بعد موته، مع شدته عليه وغلظته في زجره وتأديبه.. فكان يطيل الحديث عنه، وينقل أخباره، ويقسم باسمه. وظل يقسم باسمه وهو كهل إلى أن نهي المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية.

وندر بين الناس من أحب إخوته كما كان عمر يحب أخاه زيدًا في حياته وبعد

مماته، فما شاء أحد أن يبكيه إلا ذكره له ففاضت شؤونه، وجعل بعد قتله يتأسى بمن أصيب مثل مصابه ولا يرى أحدًا فقد أخاه إلا التمس الأسوة عنده.

حكى أحمد بن عمران العبدي عن أبيه عن جده قال: «صليت مع عمر بن الخطاب الصبح. فلما انفتل من صلاته، إذا هو برجل قصير أعور متنكبًا قوسه وبيده هراوة فسأل: من هذا؟. فقيل: متمم بن نويرة. فاستنشده رثاءه لأخيه فأنشده حتى بلغ إلى قوله:

وكنا كندماني جذيمة حقبة
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا
لطول افتراق لم نبت ليلة معا

فقال عمر: هذا والله التأبين: يرحم الله زيد بن الخطاب!. إني لأحسب أني لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيته كما بكيت أخاك. ثم سأله: ما أشد ما لقيت على أخيك من الحزن؟. فقال: كانت عيني هذه قد ذهبت فبكيت بالصحيحة فأكثرت البكاء حتى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع. فقال عمر: إن هذا لحزن شديد. ما يحزن هكذا أحد على هالك. قال متمم: لو قتل أخي يوم اليمامة كما قتل أخوك ما بكيت أبدًا. فصبر عمر، وتعزى عن أخيه وقال: ما عزاني أحد عنه بأحسن مما عزيتني..»

هذا هو عمر من وراء النقاب.

فما كان أحوجه رضي الله عنه إلى ذلك النقاب، وما أقل الغرابة في ذلك النقاب من الشدة والهيبة حين ينفذ الناظر إلى ما وراءه فيرى مكان الحاجة إليه.

وقد يرحم الرجل أهل الرحمة والقرابة ويجفو غيرهم من الناس، ولكن الرحمة الأصيلة في الطباع تسوّي في المودة ولا تفرق، وتخلق هي سبب الرحمة ولا تنتظر حتى تفرضها عليها القرابة بأسبابها. فكان عمر كما روى «الحسن» يذكر الصديق من أصدقائه بالليل فيقول: يا طولها من ليلة!. فإذا صلى الغداة غدا اليه. فإذا لقيه

التزمه أو اعتنقه.

وكان بكاء طفل يزعجه ويقطع عليه صلاته وينغص عليه ليله.

قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى فاقترح على عبد الرحمن بن عوف أن يذهبا ليحرساهم من السرق، ثم باتا يحرسان ويصليان. فسمع بكاء صبي. فتوجه نحوه وقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك.. ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فرجع إلى أمه كرة أخرى، ثم سمع بكاءه آخر الليل فقال لأمه. ويحك!. اني لأراك أم سوء.. ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟. قالت: يا عبدالله! قد أبرمني منذ الليلة إلى أربعة عن الفطام. فسألها: ولم؟.. فقالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم؟.. فسألها: وكم له. فلما علم أنها فطمته دون سن الفطام أمر مناديًا فنادى ألا تعجلوا صبيانكم عن الرضاع فانا نفرض لكل مولود في الاسلام.

وقصته مع الصبية الجياع مشهورة، ولكنها تعاد لأنها أحق قصة بأن تعاد..

قال أسلم خرجنا مع عمر رضي الله عنه إلى حرة واقم حتى إذا كنا بضرار(١)إذا نار تؤرث فقال: يا أسلم اني أرى هاهنا ركبانًا قصر بهم الليل والبرد.. انطلق بنا!..

« فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون. فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء. وكره أن يقول: يا أصحاب النار. فأجابته امرأة: وعليكم السلام!. فقال: أأدنو؟. فقالت: أدن بخير أو دع.. فدنا منها فقال: ما بالكم؟. قالت: قصر بنا الليل والبرد.. قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟. قالت: الجوع!. قال: وأي شيء في هذه القدر؟. قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا.. والله بيننا وبين عمر!. فقال: أي رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟. فقالت: يتولىّ أمرنا ثم يغفل عنا؟. فأقبل عليَّ فقال: انطلق بنا.

« فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق. فأخرج عدلاً من دقيق وكبة من شحم!. وقال: احمله عليَّ!. قلت: انا أحمله عنك.. قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أم لك!.

---

(١) مكان على مقربة من المدينة.

« فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه اليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا فجعل يقول لها: ذري عليَّ وأنا أحر لك(١).

« وجعل ينفخ تحت القدر. وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم. ثم أنزلها وأفرغ الحريرة في صحفة وهو يقول لها: أطعميهم وأنا أسطح لهم – أي أبرده! . ولم يزل حتى شبعوا وهي تقول له: جزاك الله خيرا. كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين».

وأمثال هذه القصة في سيرة عمر كثير، لا يقال إنها هي ومثيلاتها من الشعور بالتبعة وليست من الرحمة، لأن العهد بالشعور بالتبعة أن يأتي من الرحمة، وليس العهد بالرحمة أن يأتي من الشعور بالتبعة.

كذلك لا يقال إنه قد كان يطيع أمراً سماويًا تحركت له نفسه أو لم تتحرك. فان النفس التي تتحرك للأمر السماوي هي النفس التي فيها الخير ولها رغبة فيه، وقلما تشفق من عقاب السماء إلا أن تشعر بألم الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب.

على أن عمر كان يرحم في أمور يحول فيها النفور الديني دون الرحمة عند كثيرين..

فمن ذلك أنه رأى شيخًا ضريرًا يسأل على باب، فلما علم أنه يهودي قال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟. قال: اسأل الجزية والحاجة والسن! فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله. فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول: انظر هذا وضرباءه فوالله ما انصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم. انما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه.

فهنا علمته الرحمة كيف يطيع الدين، ولن يطيع الدين هكذا إلا رحيم.

* * *

(١) أي اتخذ لك حريرة وهي الحساء من الدقيق والدسم.

وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال ، كما فرض لكل مولود من زوجين ، وهي رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته في نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون .

بل كان يرحم كل مخلوق حيّ حتى البهيم الذي لا يبين بشكاية ، فروى المسيب ابن دارم أنه رآه يضرب رجلاً ويلاحقه بالزجر لأنه يحمِّل جمله ما لا يطيق .

وكان يدخل يده في عقرة البعير الأدبر ليداويه وهو يقول : اني لخائف أن أسأل عما بك . ومن كلامه في هذا المعنى : لو مات جدي بطف الفرات لخشيت أن يحاسب به الله عمر .

وإنه لشعور بالتبعة عظيم .

لكنه كما أسلفنا لن ينبت في قلب كل أمير عليه تبعة ، إلا أن يكون به منبت للرحمة عظيم .

فنحن إذن بازاء صفة كبيرة إلى جانب صفة كبيرة : الرحمة إلى جانب العدل ، وكلتاهما من البروز والوثاقة وعمق القرار بمثابة العنوان الذي يدل على صاحبه ، أو بمثابة العنصر الاصيل الذي يلازمه ويلابسه ولا يفارقه في جملة أعماله .

ومن خصائص عمر أنه كان على هذا الشأن في جميع صفاته المشهورة ، خلافًا للمعهود في الصفات الغالبة بين الناس من المحامد كانت أو العيوب . إذ قلَّما يوسم إنسان بأكثر من صفة غالبة بهذه المثابة من التأصل والبروز . فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن أو وثيق الإيمان ، ثم تطغى إحدى هذه الصفات على سائرها فلا تعطيها إلى جانبها مكانة رسوخ واستقرار .

على غير هذا العهد ، كان عمر في جميع صفاته الكبيرة التي ذكرناها ، فكانت كل صفة منها في قوتها ورسوخها تكفي للغلبة على شخصية تنسم بها ولا تذكر بغيرها ، وانه ليتصف بها فتأخذ من سماته ومعالمه ما يخصصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة في أبناء جلدته جميعًا ، فيخيل اليك أنها سمة مميزة له لم توجد في غيره .

فأحرار العرب كلهم غيور. ولكنك إذا قلت : « العربي الغيور » فكأنما سمَّيت عمر بن الخطاب ، لأنه طبع هذه الصفة القومية بطابعه الذي لا يشبهه فيه غيره ، فكان الغيور بين الغيورين.

قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام : « إن الله غيور يحب الغيور. وإن عمر غيور».

وتحدث الى صحبه يومًا وعمر فيهم فقال : « بينا أنا نائم رأيتني في الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر. فقلت : لمن هذا القصر؟. فقالوا : لعمر. فذكرت غيرته فوليت مدبرًا» فبكى عمر، وقال كالمعتذر : « أعليك أغار يا رسول الله؟ .. »

وكانت هذه الغيرة معروفة مخشية بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطباعه ، والنساء من باب أولى يعرفنها ويعهدنها ويتقينها كما لم يتقينها قط من غيره.

استأذن على النبي يومًا وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب.

فدخل والنبي يضحك..

قال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله... كأنه يسأله عن سبب ضحكه. فقال عليه السلام : عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب.

قال عمر: فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يَهَبن.. ثم التفت اليهن يقول : أي عدوات أنفسهم ! .. أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟.

قلن – ولا يخذل المرأة لسانها في هذا المقام : نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله !

وحسبك من غيرته أنه هوالذي أشارعلى النبي ﷺ بحجاب أمهات المسلمين ، وكان يرى احداهن في الظلام ذاهبة لبعض شأنها فيقول لها : عرفتك يا فلانة ! .. ليريها أنها في حاجة إلى مزيد من التحجب.. وقد ضجرت احداهن منه لهذا فقالت له : وانك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا ؟.

على أن الغيرة في ابن الخطاب لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفى، بل غيرته على المرأة لم تكن إلا شطرًا من غيرته على كل حرم وحوزة. فمن هذه الغيرة العامة سياسته العربية التي كانت تصد الغرباء عن جزيرة العرب كأنها الحرم الموصد، ومنها غيرته على الزي العربي والشمائل العربية، ومنها غيرته على العقيدة وحدود الشريعة، وغيرته على كل حق يحميه غيور..

والأحاديث عنه في هذه الخصلة تتعدّد في معارض شتى، كما تعددت أحاديث عدله ورحمته وكل صفة بارزة فيه. فشأن هذه الصفات أن يظهرن أبدًا حيث ظهر له قول أو عمل، لأنهن أصيلات مطبوعات يختلطن بكل ما عمل وقال..

إلا أنك تقرأها جميعًا فتخرج منها بأثر واحد لا اختلاف فيه.

ذلك أن عمر كان يغار على حق، ولا يغار من أحد، ولا ينفس على ذي نعمة.

فإذا قيل لك ان عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل: ممن كانت غيرته؟. وإنما يخطر لك أن تسأل في كل مرة: علام غار؟. ولأي شيء كان يغار؟

فهو يغار على حق، أو يغار على عرض، أو يغار على دين أو يغار على صديق أو صاحب حرمة، ولا يغار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها هذا أو ذاك..

إنما كان يغار على شيء يحميه ويعلم من نفسه القدرة على حمايته، فهي غيرة من يريد الحماية لغيره، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه أو غلبة انسان على حظه.

رجل قوي، جياش الطبع، شديد الشكيمة، مؤمن بالحق وحرماته، قادر على تقويم من يحيد عنها ويجترىء عليها.. فان لم يكن هذا غيورًا، فمن يكون الغيور؟

وقل في ذكائه وفطنته وألمعية ذهنه ما تقول فيما اشتهر به من صفات العدل والرحمة والغيرة، وان كانت هذه الصفة أحوج منهن إلى الشرح والتحليل..

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه قد عرضوا لأمر تفكيره، فوصفوه بأنه محدود التفكير أو أنه يأخذ الأمور بقياس واحد.

ونحن لا نقول ان عمر رضي الله عنه خلق بذهن عالم بحاثة منقطع للكشف والتنقيب، ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر في مناحي الظنون والفروض، ولا أنه خلق بذهن منطيق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين. فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه، وأنه كان معنيًا بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير، ولكن الفرق بعيد بين هذا وبين الفكر المحدود والنظر الذي يقيس الأمور بقياس واحد.

فعمر كانت له فطنة الرجل العليم بنقائض الأخلاق وخبايا النفوس، ولم يحكم عليها قط كأنه ينظر من جانب واحد أو يطبعها في تفكيره بطابع واحد. بل علم الدنيا وعلم كيف يتقلب الانسان، وراح في علمه هذا يراقب الناس مراقبة الحذور، ويقيم عليهم الأرصاد اقامة الرجل الذي لا يفوته أن ينتظر منهم ما ينتظر من خير وشر وقوة وضعف وصلاح وفساد.

وكفى من كلماته الدالة عليه أن تذكر أنه كان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير، لأن « الذي لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه » وأنه كان يحب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب حيث يقول: « أعقل الناس أعذرهم للناس » وأنه هو القائل: « احترسوا من الناس بسوء الظن » وهو القائل مع ذلك: « أظهروا لنا حسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر».. يوفق في هذين القولين بين سهر الحاكم الذي لا ينبغي أن تخفى عليه خافية وبين عدل القاضي الذي لا ينبغي أن يحكم بغير بيِّنة ظاهرة.

بل لو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر إلى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد، وأن للأمور وجوهًا لا تنحصر في الوجه الذي يراه، وكثيرًا ما قال: « أخوف ما أخاف عليكم اعجاب المرء برأيه »، وليس استطلاع الآراء ولا الخوف من الاعجاب بالرأي شيمة رجل محصور التفكير ضيق المنافذ إلى الحقيقة.

وقد عاشره أناس من الدهاة فخبروه وحذروه!. قال المغيرة بن شعبة لعمرو بن العاص: « أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئًا فيلقنه عنك؟. والله ما رأيت عمر

مستخليًا بأحد الا رحمته كائنًا من كان ذلك الرجل. كان عمر والله أعقل من أن يُخدع وأفضل من أن يَخدع .. »

إنما كان عمر كما وصف نفسه : « ليس بالخب ولكن الخب لا يخدعه » وهذا هو الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود والدهاء المذموم، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح ، فهنال فطنة تسيء الظن لأنها تعرف الشرور التي في طبائع الناس ، وفطنة تسيء الظن لأنها تشعر شعور السُوء ، والفرق بينهما عظيم الفرق بين الخير والشر والمحمدة والمذمة. فالفطنة الأولى معرفة حسنة والفطنة الثانية خلق رديء ، وانما كان عمر بالفطنة الأولى معصومًا من أن يخدع أو ينخدع لغيره ، وهذا هو الحد القوام الذي لا نقص فيه من جانبه .

وكانت له في استيحاء الخفايا قدرة تقرب من مكاشفة الغيب لولا أنها تستند إلى التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة ، وحكاية واحدة من هذا القبيل تُغني عن حكايات ، وهي حكايته مع المغيرة الذي استكثر على عمرو بن العاص أن يوحي إلى عمر بمراده ويتداهى عليه..

فقد همّ عمر رضي الله عنه بأن يعزل المغيرة عن العراق، ويولي جبير بن مطعم مكانه ، وأوصى جبيرًا أن يكتم ذلك ويتجهز للسفر. فأحس المغيرة وسأل جليسًا له أن يدس امرأته وهي مشهورة بلقط الأخبار حتى سميت « لقاطة الحصا » لتستطلع النبأ من بيت جبير. وذهبت إلى بيته فإذا امرأته تصلح أمره ، فسألتها : إلى أين يخرج زوجك؟ . قالت : إلى العمرة ! . قالت لقاطة الحصا : بل كتمك. ولوكانت لك عنده منزلة لأطلعك على أمره ! . فجلست امرأة جبير متغضبة ؛ ودخل عليها وهي كذلك ، فلم تزل حتى أخبرها وأخبرت لقاطة الحصا. وذهب المغيرة إلى عمر ففاتحه بما علم وهو يقول له : بارك الله لأمير المؤمنين في رأيه وتوليته جبيرًا ! . فلم يعجب عمر من وقوفه على السر بل قال :كأني بك يا مغيرة قد فعلت كيت وكيت – كأنما سمع ورأى – وأنشدك الله هل كان كذلك؟ . قال المغيرة : اللهم نعم. ثم صعد عمر على المنبر ونادى في الناس : أيها الناس ! . من يدلني على المخلط المزيل النسيج وحده؟ . فقام المغيرة فقال : ما يعرف ذلك في أمتك أحد غيرك ! . فأبقاه على ولايته ولم يزل

واليه على العراق حتى مات.

وانما كانت مجاراته للداهية من هذا القبيل إعجابًا بحصافته لا انخداعًا بمكره. وقد يتغابى ويعمل ما يريده المتداهي عليه لأنه أدرك مرمى كلامه وفهم ما فيه من صواب، كما صنع مع عمرو بن العاص في خطبة أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهما. وسيأتي الكلام عنها في فصل تال.

على أن القدرة الذهنية التي امتاز بها عمر في غنى عن الاستدلال عليها بما قال، وما قيل فيه، وما دار بينه وبين بعض القوم من المساجلات والمحاورات. انه عمل ما لم يعمله إلا القليل من أقدر الحكام في تاريخ بني الانسان، وكفى بذلك دليلاً على قدرته الذهنية لا حاجة بعده إلى دليل: ساس شعوبًا بينها من الاختلاف مثل ما بين العرب والفرس وبين الفرس والقبط والسوريين، ونصب ولاة وانتدب قوادًا وسيَّر بعوثا وأشرف على ميادين قتال وأقام نظمًا في الحكومة وراقب رعاة ورعية فيما يعلنون وما يبطنون ونجح في كل ما عمل نجاحًا منقطع النظير غير مردود إلى المصادفة ولا إلى ارتجال المغامرين، وليس هذا كله مما يضطلع به رجل محدود الفكر ضيق الأفق قليل الخبرة بالجماعات والافراد. فاذا استوفى هذا الحظ الوافي من القدرة الذهنية، فذلك حَسْبه منها، وحَسْب كل من تصدى لمثل عمله ونهض بمثل وقره. ولا عليه بعد ذلك أنه لم يفكر على نمط الفلاسفة واقطاب العلم وأساطين المنطق والرياضة، فان الدنيا لم تخرج لنا عمر لتزيدنا أفلاطون آخر أو اقليدس ثانيًا أو «فاراداي» سابقًا في الزمن القديم، بل أخرجته للناس ليكون مؤسس عهد ومحول تاريخ. فاذا تأدى به عقله إلى تلك الغاية فهو العقل الصائب يفكر على النحو الذي خلق له ويبلغ القصد الذي رمى اليه. وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيره وأن نسلكه بين قرنائه وأنداده.

إنما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدة، وهي ناحية العدل الذي لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال، والقضاء الذي يكيل الجزاء دقة بدقة ولا يبالي بالنقائض والمفارقات..

ونظروا إلى جملة آرائه في المسائل الجلى فاذا هي من الآراء التي يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق الى غرض ماثل لا تنحرف عنه قيد شعرة. كأنه قد جهل ما في الدنيا من نقائض وخفايا ومن عوج وتعريج، أوكأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه إلى هدفه المحدود ولا يلتفت إلى شيء في نفاذه أو يعوقه عائق دونه..

فخطر لهم أن فطنته انما كانت فطنة فراسة فطرية كالغريزة التي تهتدي على استقامة واحدة، ولكنها لا تنحرف ولا تنصرف ولا تخالف ما جبلت عليه.. وانها فطنة العقل المحدود، والبصر الموكل بجانب واحد ينفذ فيه ولا يحيط به أو يتشعب في نواحيه.

والفكر المحدود هنا هو فكر أولئك المستشرقين لا فكر عمر بن الخطاب.

فالرجل الذي يستقيم على وجه واحد لا يحيد عنه، هو واحد من رجلين:

فاما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه لا يرى غيره، ولا يحيط بما حوله.

وإما رجل يستقيم على هذا الوجه لانه قادر على اختراق العقبات عالم انها تنثني اليه حيث كان دون أن ينثني اليها حيث كانت.

واستقامة عمر بن الخطاب على وجهه من هذا القبيل وليست من ذلك القبيل:

هي استقامة قدرة وليست باستقامة عجز، وهي استقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجور مقيد، يأبى أن يدور لأنه قد أعياه أن يدور.

هي استقامة حياة غلابة، وليست باستقامة أداة كالموازين تسوِّي بين التبر والتراب لأنها لا تميز بين التبر والتراب.

فالرجل الذي يجتنب التصرف في العدل، عجزاً عن الفهم والتزامًا للحرف المكتوب، ونزولاً إلى مرتبة الموازين التي لا تعي ولا تغضب ولا تغار إنما هو آلة فقيرة في مادة الحياة.

أما الذي يجتنب التصرف في العدل غيرة على الضعيف وقدرة على القوي، وعلمًا بالتبعة واضطلاعًا بجرائرها، فذلك حيٌّ غني بالحياة يعدل لفرط السليقة الانسانية

والقدرة الحيوية، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذي لا حسّ فيه..

وشتّان بين هذا وذاك.. انهما لنقيضان وإن كانا في ظاهر الأمر شبيهين متقاربين..

والاعتماد على الأمثلة الخاصة أولى بنا في هذا المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقريرات النظرية.

فهذه أمثلة ثلاثة من أمثلة العدل الذي يبدو لأول وهلة كأنه عدل الموازين الآلية حين تسوي بين الأوزان وان اختلفت القيم والأقدار، وتفصل في الأنصباء بغير نظر إلى فوارق الدنيا ومقتضيات السياسة وتبدل الأحوال.. ونختارها من أجهر الأمثلة وأدناها إلى تأييد شبهات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود. لنرى على قدر ضخامة هذه الأمثلة ضخامة الخطأ في استخراج ما تدل عليه..

كان عمرو بن العاص واليًا لمصر وكان ابنه يجري الخيل في ميدان السباق، فنازعه بعض المصريين السبق واختلفا بينهما لمن يكون الفرس السابق. وغضب ابن الوالي فضرب المصري وهو يقول: أنا ابن الأكرمين، فاستدعى عمر الوالي وابنه حين رفع إليه المصري أمره، ونادى بالمصري في جمع من الناس أن يضرب خصمه قائلاً له: اضرب ابن الأكرمين!. ثم أمره أن يضرب الوالي لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس إلا بسلطانه، وصاح بالوالي مغضبًا: بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ فما نجا من يده إلا برضى من صاحب الشكوى واعتذار مقبول.

وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الاسلام في زمانه، فأحصى عليه عمر بعض المآخذ ومنها إنفاقه من بيت المال في غير ما يرضاه. فأمر به أن يحاكم في مجلس عام كما يحاكم أصغر الجند، وعزله بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع..

وكان جبلة بن الايهم أميرًا نصرانيًا فأسلم وأسلمت معه طائفة من قومه. ثم وطىء أعرابي إزاره فلطمه جبلة على ملأ من حجاج بيت الله. فقضى عمر للأعرابي أن يلطم الأمير على ذلك الملأ، لأن الاسلام لا يفرق بين سوقة وأمير.

هذه أمثلة العدل الذي لا يتصرف ولا يلتفت إلى الدنيا وما فيها من فوارق وتعريجات تتأبى على القصاص المستقيم، وهي من أقوى الشبهات على النظر المحدود

في تقدير الجزاء بالحرف المكتوب، دون التفاوت إلى الأحوال والمقتضيات..

فهل هي في الواقع كذلك؟. وهل كان على عمر أن «يتصرف» في هذه الأقضية بلباقة الساسة الدهاة في جميع الأزمان إذ يحتالون على حرف الشريعة ويدورون حول حدود القانون؟

نعم كان عليه ذلك لو عجز عن سنَّة المساواة واحتاج إلى الحيلة.. فإنما يعاب على الوالي عدل الموازين ويحمد منه التصرف والدوران لأن المساواة تعييه، أو لأن المساواة تعرضه لعاقبة شر وأظلم من الاجحاف، فإذا نظر إلى عاقبة المساواة في المعاملة فرآها شرًّا وأظلم من عاقبة التفرقة والتمييز فقد وجب عليه إذن أن يدور حول الحقيقة وألا يواجهها نصًا بغير انحراف.

ولكن أين هذا من عمر وأين عمر من هذا؟.. انه كان قويًا قادرًا على العواقب، وكان شديد الألم من ظلم الظالم شديد الخجل من خذلان المظلوم، وكان وثيق الايمان بنصر الله في الحق وفي النجدة. فلماذا ينحرف؟. ولماذا يتصرف؟. ولماذا يدور؟.

كان قويًا بطبعه قويًا بإيمانه، فلماذا يهاب قويًا جار على ضعيف؟. ولماذا يروغ من صرامة القاضي إلى دهاء السياسي الذي يدور حول الحقوق والحدود؟

للمستشرقين المتحدثين بالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكبار الولاة ويثبتوا به كل ما قالوه عن ذلك التفكير المحدود الذي ينسى الفوارق ولا يحتال على المحظورات، ولكن بشرط واحد:

ذلك الشرط هو ان يتوقعوا، ولو من بعيد، أن يثور ابن العاص ونظراؤه على هذا القصاص، فيختل حكم الدولة وينتشر الأمر على الخليفة ويقع من المحظور أضعاف ما كان واقعًا لو بطلت المساواة بين السوقة والولاة..

أما أن يكون ابن العاص ونظراؤه لا يثورون، ويعلمون مَن هو عمر، وما هي عقباهم إذا ثاروا عليه

وأما أن يكون عمر لا يخشى تلك الثورة ولا يعيى بها إذا هي فاجأته أو جاءته على انتظار

وأما أن يكون الأمر في ضميره وفي ضمائرهم يجري على البديهة التي لا خفاء بها ولا شك فيها، فكيف يقال إذن أن تفكير عمر في قصاص الولاة كبارًا وصغارًا تفكير محدود؟.. وأين هو في هذه الحالة موضع التفكير المحدود؟.

إنه في موضع واحد، وهو كما أسلفنا موضع الناقد الذي يصف عمر بغير وصفه، لأنه هو محدود الفكر في قياس الرجال بمقياس واحد، أو في اعتقاده أن الخطوب تبقى كما هي ولا تتغير كلما تغيرت عليها أيدي الرجال.

لقد كان عمرو بن العاص خطرًا على الخليفة الذي يغض منه لو كان غير عمر، ولكنه هو والذين كانوا أجرأ منه على الفتك وأسرع منه إلى الغضب لم يكن لهم من خطر إذا كان عمر هو الذي أمر بالعزل وهو الذي قضى بالقصاص.

فأجرأ منه لا ريب كان خالد بن الوليد، وأشهر منه بين سيوف الاسلام لو عمد إلى السيف. ومع هذا نقم خالد عزله فخطب الناس ومضى يقول: «إن أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى إذا كانت بثنية – أي حنطة – وعسلا عزلني وآثر بها غيري»، فما أتمها حتى نهض له رجل من السامعين فقال له: صبرًا أيها الأمير فانها الفتنة، فما تردد خالد أن قال: أما وابن الخطاب حيّ فلا..

نعم، لا فتنة وابن الخطاب حيّ ولو كان الغاضب خالدًا الغضوب، ومن هنا حق له أن يشكو ولا جناح عليه.

وأطرف من هذا في هيبة عمر بين ولاته وقواده أنه كتب إلى أبي عبيدة يأمره أن يقاسم خالدًا ماله نصفين. فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه، فقال أبو عبيدة: إن هذا لا يصلح إلا بهذا. فأبى خالد أن يخالف أمر عمر وأعطاه إحداهما وأخذ الأخرى.

لقد نظرنا الى عمر مستقيما ولم ننظر إلى الخطوب، ولو نظرنا اليها رأينا أنها انثنت لتنقاد له وتتقي مصادمته وتستقيم على منهاجه. فعلمنا لم استقام دون أن يقدح ذلك في صدق نظره إلى الدنيا وصدق فراسته في خلائق الناس..

وندع قضايا الولاة وننظر في قضية الأمير الذي ارتد عن الاسلام هو وقومه لأن عمر أجبره على قصاص المساواة بينه وبين رجل من السوقة. فماذا كان ينبغي أن يفعل عمر غير ما فعل من المساواة الصادقة بين الأمير الضارب وخصمه المضروب؟

لعل داهية من دهاة السياسة الذين يصفون أنفسهم بالنظر البعيد كان يؤثر إرضاء الأمير واستبقاء أتباعه في الإسلام والاحتيال على الشاكي بما يواسيه ويغنيه عن أن يسوي بين الخصمين، ويمكن لضعيف من ضرب أمير اعتدى عليه..

فهل معنى ذلك أن عمر كان يعوزه دهاء أولئك الساسة وما عندهم من بعد نظر مزعوم؟

كلا. بل معناه أن أولئك الساسة يعوزهم السخط على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والإيمان بمناعة الإسلام أن يصيبه غضب أمير صابىء بما يضيره، ولو كثر أتباعه والصابئون في ركابه..

معناه انهم احتاجوا إلى التصرف وعمر لم يحتج اليه.

وها هي ذي السنون قد مضت وتلتها الأحقاب والقرون فبدا لنا اليوم أن النظر البعيد والعدل الشديد في هذه القضية يلتقيان، وأن عمر كان أحسن المتصرفين فيها لأنه اجتنب التصرف الذي يهواه الدهاة، فقد أفاد الاسلام ما لم يفد بقاء جبلة وأتباعه على دينه، ووقاه ضررًا أضخم وأوخم من نكوص أولئك الصابئين عنه: أفاده ثقة أهله باقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء الى كنفه ورهبة الأقوياء من بأسه، وسمعته في الدنيا برعاية الحق وانجاز الوعد وتصديق معنى الدين، ولا معنى له ان كان أضعف بأسًا من أمير وجب العقاب عليه.

ويجوز أن الفاروق لم ينظر إلى عواقب القرون كما ننظر إليها الآن، بعد أن برزت من حيز الفرض إلى حيز العيان.. غير أن الأمير الذي لا يجوز في اعتقادنا أنه عدل في قضية جبلة ونظائرها عدل آلة أو عدل ميزان. إن الميزان لأقل من مخلوق له حياة، أما الفاروق في هذه القضية فقد كان أكبر من الحياة الفانية، كان بطلاً يؤمن ويعمل بإيمانه، وهكذا يعلو الانسان ببطولة الايمان.

والعبرة التي نخرج بها من هذا أن النظرة الأولى في أخلاق عمر بن الخطاب حسنة ولكن النظرة الثانية هي على الأغلب الأعم أحسن من الأولى.

فالناقدون الأوربيون الذين فسّروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق والفكر المحدود لم يفهموه ولم ينصفوه، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادة في القدرة وليس بنقص في الفطنة، أو أنه زيادة في قوة الثقة وقوة الايمان وليس بنقص في العلم والبداهة، ولم يكن عسيرًا عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وتريثوا في حكمهم، لأن قوة الثقة وقوة الايمان لا تخفيان في خلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله. ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل إقدام وبكل إحجام فكان يقدم على أعظم الخطوب ويحجم عن أهون الهينات تحرجًا منها وتنزهًا عنها، إذا اقتضى ذلك وازع من قوة الايمان..

فلم يكن يمضي قدمًا لأنه يغفل عما حوله من النواتىء والمنعرجات والسدود، بل كان يمضي بينها قدمًا لأنه لا يباليها ويؤمن أصدق الايمان أنها تنثني له إذا مضى فيها، فلا حاجة به أن ينثني اليها.

انه ليعلم العوج ولكنه يعلم أنه أقدر منه؛ لأنه يؤمن بحقه ايمان القوي الوثيق، فله من قوته ومن ايمانه قدرتان.

إنه ليرفع العبء إلى كاهله وهو قائم لا يطأطىء للنهوض به، فليس الفارق بينه وبين غيره أنه يجهل العبء الذي يعرفونه، أو ينسى العواقب التي يذكرونها، أو يتحلل من المصاعب التي يتحرجون منها.. كلا!. انما الفرق بينه وبينهم أنهم ينثنون للخطوب، وان الخطوب هي التي تنثني اليه.

هذه القوة في ايمانه كانت هي المسيطر الأكبر على كل خلق من أخلاقه، وكل رأي من آرائه، بل كانت هي المسيطر الأكبر على ما هو أصعب مقادًا من الأخلاق والآراء، وأشد عرامًا من العقائد والشبهات، وهي دوافع الطبع وسورات الغزيزة، وقلما خلا منها طبع قوي عزوف غيور..

فالأفكار والأخلاق جانبان من جوانب النفس الانسانية قابلان للضوابط والقيود ، ولكن ما القول في الدوافع والسورات ؟

مثل الفكر كمثل السفينة الطافية على وجه النهر، لها شراع ولها سكان ، وعليهما معًا رقيب من النواتية والربان .

ومثل الخلق كمثل النهر المندفع تحسه الشواطىء والقناطر ويفيض في موعد ويعرف له مجرى ، ويحسب له مقدار.

ولكن ما القول في السيل العرم؟

ما القول في السورة الجامحة التي ليست بفكر يسوس ويساس ، ولا بخلق متميز بسماته وخصائصه ومراميه ؟ ..

هنا تبدو لنا قوة الضوابط والقيود ..

وهنا أيضًا كانت ضوابط الإيمان القوي في نفس عمر كأقوى ما تكون.

ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به في الجاهلية أو الاسلام سورة أكبر من سورته يوم نعي النبي إلى المسلمين ، فأنكر أن يُنعى وأبى أن يسمع صوتا بين المسلمين يزعم أن محمدًا قد مات . وصاح والناس في رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيم يومئذ على الرؤوس : « والله اني لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات » .

ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه ، فنزل فتمشى وئيدًا صامتًا لا يكلم أحدًا ، وتيمم النبي وهو مغشى بالثوب ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبّله ، وبكى .

ثم أحس صولة عمر وهو يكلم الناس ، فخرج اليهم فقال : اجلس يا عمر! . وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء : « أما بعد ، فمن كان يعبد محمدًا ، فان محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فان الله حيٌّ لا يموت . وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين » .

فأهوى عمر إلى الارض وأناب.

وكأنه والمسلمين معه ما علموا أن أنزلت هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة..

يا لروعة الشلال الزاخر!..

ويا لروعة السابح القاهر الذي لوى به ليًّا كأنما قبض منه على عرف، وأخذ له بعنان!..

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لا يرينا صراعًا عاتيًا هو أولى بالروعة من نفس عمر وهي متراوحة بين شعوره الزاخر وإيمانه الوثيق.

لحظة هائلة من أهول ما تحس النفوس، ثم انهزام كأسرع ما يكون الانهزام، وانتصار كأسرع ما يكون الانتصار، وغاشية تتجلى عن صاحب تلك النفس وهو مالك لزمامه، ماض بشعوره إلى حيث يمضي به ايمانه، فهما قوتان غالبتان، وليستا بعد بالعسكرين المتغالبين.

لقد كانت تلك سورته الكبرى، ولكنها لم تكن أولى سوراته ولا أخراها..

فقد عهدت هذه السورات في طبعه حتى عرف من عهدوها كيف يسوسونها ويتَّقونها، وأوشكت أن تُحسب في عداد الأنهار المحكومة لا في عداد السيول الجارفة انطلقت من عقالها.

ذهب اليه بلال مستأذنًا فقال له الخادم إنه نائم، فسأله: كيف تجدون عمر؟. قال خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم. قال بلال: لوكنت عنده اذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه!.

فهو الايمان ضابط كل شيء في تلك النفس حتى السورات التي ليس لها ضابط في النفوس.

أو قل انها هي النفس القوية في دفعاتها وفي ضوابطها على السواء.

وربَّ نفس من ضعف الدفعة بحيث يقمعها أهون ضابط يسيطر عليها ، فأما الدفعة التي لا يقف في طريقها الا ضابط أقوى منها فتلك هي الطبيعة الحيوية المضاعفة ، ليست هي الضعف الذي يتراجع لأهون مراجعة .

نذكر هذا وينبغي أن نذكره ولا ننساه ، لأن الفرق بين الايمان الذي يكبح الهزيل المنزوف الحياة وبين الايمان الذي يكبح القَويَّ الجياش فرق عظيم ..

ولم يكن عمر مُعرضًا عن زخارف الحياة لهزال كان في دواعي الحياة فيه . وانما كان معرضًا عنها لأنه كان قادرًا على الإعراض غير ممتحن به في إرادة ولا عزيمة .

وكان معرضًا عنها لأنه صاحب حيوية غير الحيوية الجسدية الموكلة بالسرور والمتاع .

فمن الواجب إذا ذكرنا الحيوية وضعفها وقوتها أن نذكر أبدًا أنها حيويات متعددة وليست بحيوية واحدة .

حيوية الروح ، وحيوية الخلق ، وحيوية الذوق ، وحيوية العقل ، وحيوية الجسد ، وغير ذلك مما يتداخل بين هذه الحيويات .

فليس من الضروري إذا رأيت رجلاً قليل الاشتهاء لمتعة الأجساد أن تحكم عليه بضعف الحيوية ، فربما كانت له حيوية أخرى تملأ ألوفًا من النفوس لا تجد متاعها في أكلة أو شهوة وتجد المتاع خير المتاع في إحقاق الحق ، وزجر الطغيان ، وإقامة العدل والشريعة بين الناس .

وهكذا كانت حيوية عمر فيما يريده وفيما يزهد فيه .

لم تكن قلة الرغبة في زخارف الدنيا هي مقياس حيويته العظمى وانما كان مقياس تلك الحيوية عظم الرغبة في الاصلاح والتقويم ، وفي إجراء ما ينبغي أن يجرى ، غير مبالٍ ما يكلفه ذلك من جهد تتضاءل دونه جهود الألوف من الموكلين بمتاع الأجساد .

* * *

تلك صورة مجملة للصفات الخلقية الكبيرة التي كانت غالبة على نفس عمر بن الخطاب، وهي العدل، والرحمة، والغيرة، والفطنة، والايمان..

وأول ما يلاحظ عليها تعدد الصفات الغالبة في نفس واحدة، وصفة واحدة منها قد تغلب على النفس – وليست بصغيرة – فتنعتها بنعتها وتستأثر بتمييزها والدلالة عليها.

ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه وتصطبغ بصبغته، حتى كأنها لم تعهد في غيره على شيوعها وكثرة الموسومين بسماتها..

إلا أن هذا وذاك ليس بأعجب الملاحظات ولا أندرها في هذا السياق، وإنما العجب العاجب حقًا هذا التركيب الذي ندر مثيله جدًا بين خصائص النفوس كائنًا ما كان نصيب صاحبها من العظمة والامتياز.

وأحرى بنا أن نقول « هذه التركيبة » ولا نقول هذا التركيب، لأن صفاته الكبيرة تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذي ينفع لغرض واحد مفهوم، والذي ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط.

إذا نظرت إلى تلك الصفات أجزاء متفرقات فهي سهلة بسيطة ليس فيها شيء عويص أو مكتنف بغموض..

ولكنك تنظر اليها مركبة متناسقة فيبدو لك منها جانب الدهشة والاعجاز، أو جانب الندرة التي يعزُّ تكرارها في طبائع النفوس، لانها تتركب لاستيفاء الغرض منها جميعًا واستيفاء الغرض في كل منها على حدة، وهذا هو النادر جد الندرة في تركيب الأخلاق..

ما العدل مثلاً بغير الرحمة التي تمزجه بالاحسان؟. وما العدل والرحمة معًا بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظى التي تجعل كراهة المرء الظلم كأنها كراهة الضرر الذي يصيبه في نفسه وآله، وتجعل حبّه للعدل كأنه حب هواه وقبلة مناه؟. وما العدل والرحمة والغيرة جميعًا بغير فطنة تضع الأمور في مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن

لا يستحق ويغفل عمن يستحق وهو حسن القصد غير متهم الضمير؟. وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الايمان الذي هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع، والمرجع الذي لا مرجع بعده لطالب الانصاف؟

كل صفة تتمة لجميع الصفات..

وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخذلان الباطل.

وكل خليقة فهي جزء لا ينفصل من هذه «التركيبة» التي اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليقة منها على أتم قدرتها في بلوغ كمالها وتحقيق غايتها..

فلا نقص في العدل كالنقص في كل عدل يعمى عن الطبيعة البشرية ويذهل عن ضعف الانسان..

ولا نقص في الرحمة كالنقص في كل رحمة تجور مع الهوى، ولا تدين بالمساواة..

ولا نقص في الغيرة كالنقص في كل غيرة ظالمة قاسية كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح..

ولا نقص في أولئك كله، كالنقص في جميع الصفات بغير الفطنة التي تخرج بها من ظلام الى نور، وبغير الايمان يقف منها موقف الحارس الساهر والرقيب الأمين.

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدد في مرآها، ولا تزال في صورة البساطة بعيدة عن التركيب، فيخطىء النظر القصير في التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشيء البسيط المحدود، وانه لخطأ شائع ينساق اليه كثيرون ممن يستسهلون بساطة عمر، وهي أولى بالروعة من تركيب يختلط من كل مزيج، ثم يزيد في الألوان ولا يزيد في الاتمام والتوحيد والاتقان.

ولو أن مخترعًا من أهل القصص حاول أن يخترع سيرة عمر بن الخطاب لأعياه أن يخترع ذلك الشتيت المتفرق من الأخبار والاحاديث والنوادر ليقرأه القارىء بعد ذلك، فيقبل منه ما يقبل، ويسقط منه ما يسقط، ثم يبقى منه ما يدل أصدق

الدلالة على كل صفة من تلك الصفات.

فلا اختراع في جملة أخبار عمر وإن جاز الشك في بعضها أو جاز إسقاط الكثير منها، ومن شاء فليشك في هذا الخبر أو ذاك ما بدا له الشك وليسقط منها ما بدا له الاسقاط، فسيبقى بعد ذلك جميعه خبر يدل على عدله ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدل على رحمته ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدل على غيرته ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدل على فطنته ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدل على ايمانه ولا سبيل الى نقضه، ويبقى ذلك التركيب العجيب الذي هو موضع الاعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل في مصادر الأخبار..

هذه هي المعضلة التي عنيناها حين قلنا في صدر هذا الفصل أن سهولة عمر وخلو طبائعه من التعقيد والغموض هي سهولة أصعب من الصعوبة، لأنها تنتهي بك إلى صعوبة التركيبة التي هي أندر من التعقيد والغموض، وتريك عناصر شتى قد تتناقض في غير هذا التركيب ولكنها هنا لا تتناقض في شيء ذي بال، لأن التناقض أن يذهب كل عنصر في وجهة معارضة لسائر الوجهات، فأما أن تكون كلها ذاهبة في وجهة واحدة فذلك عنصر واحد متعدد الأجزاء والألوان.

ولهذا كانت دراسة عمر غنيمة لكل علم يتصل بالحياة الانسانية كعلم الأخلاق، وعلم الاجتماع، وعلم السياسة. ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى..

لأن كل نفس صغرت أو كبرت فهي انسان يضيف العلم به الى علم النفس بعض الاضافة..

ولكن ليست كل النفوس بالنفس التي تصحح أوهام الواهمين في فضائل الأخلاق وفضائل الاجتماع، وفي القدوة المثلى التي يقتدي بها طلاب الرفعة والسيادة.

ونحن في عصر شاعت فيه فلسفات مسهبة تنكر الرحمة والعدل على الأقوياء الغيورين؛ وتحسبها حيلة من حيل الطبع في خلائق الضعفاء لاستدامة البقاء.. كأن رحمة الضعيف تنفعه إذا رحم، وكأن عدل الضعيف ينفعه إذا عدل، أو كأن القوي يخلق نفسه لنفسه ولا يخلق قويًا لتفيد قوته فائدتها في خدمة المحتاجين اليها.

فعمر ذو البأس والعدل ، وعمر ذو الرحمة والغيرة : أصدق تفنيد لذلك الوهم الأخرق البليد. اذ كانت رحمته وعدله لا يناقضان البأس والغيرة فيه ، بل كان بأسه معوانًا لرحمته وكانت غيرته معوانًا لعدله. وكان هو قويًا لينتفع الناس بقوته ، ولم يكن قويًا ليطغى بقوته على الضعفاء.

ولِمَ يكون لزامًا أن يقسو ذو البأس ولا يرحم؟

ألا يقسو الضعيف؟ . فلم العجب إذن من رحمة القوى؟كل ما هنالك أن رحمة الضعفاء غير رحمة الأقوياء. فأما العقل الذي يرى الرحمة غريبة في الأقوياء ، ويرى القسوة غريبة في الضعفاء فهو يرى غير الواقع من هؤلاء وهؤلاء. إذ الواقع في الدنيا أن القسوة لا تدل على القوة ، وأن الرحمة لا تدل على الضعف ، وأن ليس في الدنيا أقسى من الأطفال وهم أضعف من فيها من الضعفاء.

وبغير إمعان طويل في دقائق النفس الانسانية ، استطاعت امرأة محزونة أن تفرِّق بين الخصلتين وتجمع بينهما معًا في عمر بن الخطاب ، ونعني بها عاتكة بنت زيد حين قالت في رثائه :

رؤوف على الأدنى غليظ على العدى
أخي ثقــة في النائبـــات منيـــب

وهي تفرقه سهلة ولكنها صادقة جامعة ، فغير عجيب أن يكون انسان كذلك ، وانما هو أوفق شيء لطبائع الأشياء..

مفتاح شخصيّة

مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التي تفتح لنا أبوابها وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشابه والأغراض ، فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب ، فإذا عالجته بها فلا حصن ولا اغلاق ! .

وليس مفتاح البيت وصفًا له ولا تمثيلاً لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها ، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخائلها ، ولا تزيد .

ولكل شخصية انسانية مفتاح صادق يسهل الوصول اليه أو يصعب على حسب اختلاف الشخصيات.. وهنا أيضاً مقاربة في الشكل والغرض من مفاتيح البيوت.. فربّ بيت شامخ عليه باب مكين يعالجه مفتاح صغير، وربّ بيت ضئيل عليه باب مزعزع يحار فيه كل مفتاح..

فليست السهولة والصعوبة هنا معلقتين بالكبر والصغر، ولا بالحسن والدمامة، ولا بالفضيلة والنقيصة.. فربّ شخصية عظيمة سهلة المفتاح، وربّ شخصية هزيلة ومفتاحها خفي أو عسير..

وقد يحيرنا الرجل الذي قيل في وصفه مثل ما قيل في ابن عباد :

لا تمدحن ابن عبـاد وإن هطلـت
يداه بالجود حتى شابـه الديمـا

فانهـا خطرات من وسـاوســــــه
يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرمًا

فاننا لا نستطيع أن ننفذ منه إلى مواضع اللوم أو مواضع الثناء، ولا ندري حقًا أعمله من الكرم أم من البخل، ومن الرفعة أم من الخسة، ومن الشجاعة المحمودة أم من الجبن المذموم؟. وغاية ما ننتهي اليها أن نفضَّ المشكلة بكلمة واحدة هي الوسواس، وهي حيلة تلجئنا اليه قلة الحيلة، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا في تقدير صاحبها وتقدير أعماله وأخلاقه، ولكنه تفسير له معنى واحد في النهاية: وهو ترك التفسير..

قد تحيرنا هذه الشخصية المنقوصة ولا تحيرنا الشخصية الكاملة التي تروعنا بفضائلها ومزاياها، ثم نستغرب منها فضيلة أو مزية بالقياس إلى انتظام عملها واتصال أثرها كالشمس الطالعة تروعنا باشراقها في أوقاتها وبروجها، ثم لا تحيرنا لمحة عين كما تحيرنا الذبالة الضئيلة تومض لحظة وتختفي من بعيد.

وفي اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحًا لمن يبحث عنه، فليس فيها باب معضل الفتح وان اشتملت على أبواب ضخام..

وقد ذكرنا في الفصل السابق أن ايمان عمر هو الضابط الذي يسيطر على أخلاقه وأفكاره كما يسيطر على دوافعه وسوراته، ولكن الذي نريده بمفتاح الشخصية شيء آخر غير معرفة الضابط الذي يسيطر عليها: نريد به السمة التي تميزه بين العظماء حتى في الايمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسورات، فان الايمان ليقوى في نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس، وهنا نبحث عن «مفتاح الشخصية» لنعرف به الفارق بين الايمان في طبيعة عمر وبين الايمان في طبائع غيره من الأقوياء.

والذي نراه أن «طبيعة الجندي» في صفتها المثلى هي أصدق مفتاح «للشخصية العمرية» في جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم..

فأهم الخصائص التي تتجمع «لطبيعة الجندي» في صفتها المثلى الشجاعة

والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والايمان بالحق وحب الانجاز في حدود التبعات أو المسؤوليات..

هذه الخصائص قد تجمعت بعد ألوف السنين من تجارب الأمم في تعبئة الجيوش حتى عرف الناس أخيرًا أنها لازمة للجندي في أمثل حالاته. فما من خاصة منها يستغني عنها الجندي الكامل الذي تحلى بأجمل صفاته وألزمها لتحقيق وجوده..

* * *

فانظر إلى هذه الخصائص جميعها، هل تجدك محتاجًا إلى تعمُّل أو استقصاء لجمع أَشتاتها والاهتداء إلى شواهدها ومواقعها؟.

كل هذه الخصائص عمرية لا شك فيها. فهو الشجاع، الحازم، الصريح، الخشن، المطيع، الغيور على الشرف، السريع النجدة، المحب للنظام، المؤمن بالواجب والحق، الموكل بالانجاز، العارف بالتبعات والمسؤوليات..

هذه الخصائص واضحة كلها في عمر، وعمر وحده واضح بين أمثاله في جميع هذه الخصائص، حتى ليخيل الينا لو أن أحدًا مولعًا بتأليف الألغاز سأل عن عظيم في الاسلام والعروبة متصف بجميع هذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها لكان الجواب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن الخطاب..

وقد يكون العجب من توافر هذه الخصائص في تفريعاتها الثانوية وأشكالها العارضة أبلغ وأدل على العمق والتأصل من توافر الخصائص الجليلة التي هي بمثابة الأصول الجامعة في طبائع الجنود.

فالنظام مثلاً ليس بالخلق الأصيل في الجندي الباسل، فقد ينساق اليه بطبعه وقد يحتاج إلى تعوده وادمانه حتى يكسبه بطول المرانة..

لكن النظام كان خلقًا أصيلاً في طبيعة عمر حتى فيما يتفرع عليه ويدخل منه في عداد الأشكال والنوافل..

أرأيته وهو يصلي بالناس فلا يكبِّر حتى يسوي الصفوف ويوكل رجلاً بذلك؟. أرأيته وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد في شهر رمضان أوزاعا متفرقين حول كل قارىء فيأمرهم أن يجتمعوا إلى قارىء واحد؟ أرأيته وهو يحمل الدرة لينبه المخالفين في الطريق ويذكرهم هيبة القانون؟ أرأيته وهو يركب في السوق فيكسر ما برز من الدكاكين ويخفق التجار بالدرة اذ تكوّفوا على الطعام وقطعوا طريق السابلة؟. أرأيته وهو لا يزال يأمر بالمثاعب (١) والكنف أن تقطع عن طريق المسلمين؟.. أرأيته وهو ينهى الولاة عن الاتكاء في مجالس الحكم، ويكتب الى عمرو بن العاص « وقع إليّ أنك تتكىء في مجلسك، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكىء» !

بل أرأيته وهو يرعى المراتب فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبي بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم؟..

ذلك هو السمت العسكري بالفطرة التي فطر عليها، وليس هو السمت العسكري بالأسوة والتعليم.

وبالفطرة التي فطر عليها، كان يحب ما يحسن بالجندي في بدنه وطعامه، ويكره ما ليس بالمستحسن فيه، فكان يقول: « إياكم والسمنة فإنها عقلة »، وكان يقول: « إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية إلى السقم، وعليكم بالقصد في قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة ». وكان يأمر بالجد ويحذر من المهازل لأن « من كثر ضحكه قلت هيبته ومن كثر سقطه قل ورعه »، وكان يمشي شديد الوطء على الأرض جهوري الصوت؛ كما يمشي الجنود وكما يتكلمون، وكان يأمر بتعلُّم الرماية والسباحة والفروسية والمصارعة وكل رياضة يتدرب عليها الجندي وتتهذب بها الأبدان والأخلاق.

وإذا ارتقينا من هذا إلى النظام الأشمل، والتقسيم الأعم الأكمل، فهناك عمر بن الخطاب الذي دوّن الدواوين وأحصى كل نفس في الدولة الإسلامية كأدق

---

(١) مسايل الماء.

احصاء وعاه الموكلون بالتجنيد في العالم الحديث. فما من رجل أو امرأة أو طفل إلا عرف اسمه وعرف مكانه وعرفت حصته من بيت مال المسلمين، وما من مجاهد إلا عرفت له رتبته من السبق والتقديم على حسب المراتب التي يمتاز بها الجنود.. فالحاضرون في وقعة « بدر » هم المقدمون بين المجاهدين، والحاضرون في « الحديبية » يأتون بعدهم في التقديم، والذين اشتركوا في حرب الردة يأتون بعد هؤلاء وهؤلاء، والذين حاربوا في معارك الروم والفرس ومعهم أبناء الغزاة في « بدر » يلحقون بمراتب هؤلاء المتقدمين، وقِس على ذلك ما يليه من سائر المراتب في حقوق التقديم والتقسيم.

ثم هناك عمر بن الخطاب الذي عشَّر الجنود، أي جعلهم عشرات عشرات، ثم قسمهم إلى كتائب وبنود.

* * *

وهناك عمر بن الخطاب الذي لم يدبر قط تدبيرًا كبيرًا أو صغيرًا في شؤون الدولة إلا بنظام لا يختل أو على أساس لا يحيد.

وقد كانت له طريقة الجند في التصرف السريع الذي ينفذ إلى الغرض من أقرب طريق، فلما تشاور المسلمون ماذا يصنعون بسهيل بن عمرو خطيب المشركين يومئذ، وأقدر الخائضين منهم في الاسلام.. قال عمر بن الخطاب: « يا رسول الله!.. انزع ثنيتيه السفليين فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا » وكان سهيل أعلم – أي مشقوق الشفة السفلى – فاذا نزعت ثنيتاه فقد عجز عن الخطابة من غير ما حاجة إلى عهد أو تحذير أو شغل شاغل باسكاته والرد عليه.

والقضاء لم يكن من لوازم « الطبيعة الجندية » وإن تولاه القادة والجند في أيام الفتن والأيام التي تقام فيها الدول الناشئة والنظم الجديدة.

ولكن كم من قضية لعمر بن الخطاب تذكرنا بالقضاء العسكري الذي يمنع الضرر من أقرب الطرق ويحمي الأكثرين بالحد من حقوق الأقلين؟

هتفت امرأة باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه فأرسل اليه « فاذا هو أحسن الناس شعرًا وأصبحهم وجهًا. فأمره أن يحم شعره فظهر جبينه ووجنتاه فازداد حسنًا » ثم أمره أن يعتم فزادته العمامة زينة وغواية ، فقال : لا يسكن معي رجل تهتف به العواتق في خدورها ، وزوده بمال وأرسله إلى البصرة ليعمل في تجارة تشغله عن النساء ، وتشغل النساء عنه..

وفي القضية جور على نصر بن حجاج لا جدال فيه ، ولكن في سبيل مصلحة أكبر وأبقى ، أو في سبيل مصلحة يرعاها « الحكم العسكري » في أزمنة كزمان عمر ويقضي فيها بما هو أعجب من إقصاء نصر بن حجاج : يرعاها أحيانًا بمنع الاقامة بمكان ، ومنع المرور من طريق ، وتحريم تجارة لا حرام فيها ، ومراقبة انسان يخشى ان يقود إلى جريمة ، وتقييد السهر بعد موعد الليل..

* * *

ولسنا نقول ان هذا الحكم في قضية نصر بن حجاج كان حكمًا لزامًا لا محيص عنه ولا مأخذ عليه ، ولكنا نقول انه حكم فيه تلك الصبغة العمرية التي سميناها « مفتاح شخصيته » وهي المقصودة بما نكتبه الآن.

وقد كان له في قضائه ذلك الحزم الذي يقطع اللجاجة وينهض بالحجة على كل ذي خلاف كلما اشتجر الخلاف : كتب اليه أبو عبيدة من دمشق أن عمرو بن معد يكرب وأبا جندل وضرارًا وجماعة من علية القوم والوجوه شربوا الخمر، وسُئلوا فأجابوا : « اننا خُيرنا فاخترنا » . قال : « هل أنتم منتهون؟ » ، ولم يعزم.. وكأن أبا عبيدة تحرج من عقاب هؤلاء العلية فرفع أمرهم إلى الخليفة يستفتيه. فلم يلبث البريد أن بلغ المدينة حتى عاد اليه يأمره أن يدعوهم على رؤوس الأشهاد ويسألهم سؤالاً لا يزيد عليه ولا ينقص منه : « أحلال الخمر أم حرام؟ » فإن قالوا حرام فليجلدهم ، وإن قالوا حلال فليضرب أعناقهم. فقالوا : بل حرام ، فجلدوا وتابوا.

وربما تجمع للرجل كل ما في « طبيعة الجندي » من الخصائص وبقيت محبوسة فيه لا يدري بها الناس إلا أن يأتي بعمل ينم عليها. فيدين نفسه بطبيعته تلك ولا يدين

غيره، ويكون مطبوعًا على أن يطيع ولا يكون مطبوعًا على أن يطاع، وإذا جاءته طاعة المطيعين له فانما تجيئه من سلطة النظام وحكم الشرع وغلبة العادات، لأن الشجاعة مثلاً لا تلازم الهيبة في كل حال. فقد يكون الشجاع مهيبًا ويكون غير مهيب، بل يكون أحيانًا ممن تقتحمهم الأنظار ويجترىء عليهم المستخفون.

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له «طبيعة الجندي» ظاهرة باطنة، تبادر القلوب كما تبادر الأنظار، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه. فما يجترىء عليه مجترىء إلا أن يُطمعه هو، ويسهو عن نفسه لحظة ليغريه بالاجتراء..

وهي في موقف الأمر تخيف من لا يخاف ويجفل منها من يحتمي بجاه أوكبرياء. شكا اليه رجل من بني مخزوم ابا سفيان لظلمه إياه في حد كان بينهما. فدعا بأبي سفيان والمخزومي وذهبوا الى المكان الذي تنازعاه. ونظر عمر فعرف صدق الشكوى ونادى بأبي سفيان: خذ يا أبا سفيان هذا الحجر من هنا فضعه هنا.. فأبى وتردد، فعلاه بالدرة وهو يقول: خذه فضعه ها هنا فانك ما علمت قديم الظلم. فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال.. ولو غير عُمر أمَرَه هذا الأمر لاستكبر أن يطيع أو شنها عليه شعواء لا تؤمن جريرتها.

كان يومًا في مجلس عمر وزياد بن سمية يتكلم وهو يومئذ شاب. فأحسن كعادته في مجال الخطابة والمشورة. فأعجب به عمر وهتف به: لله هذا الغلام!.. لو كان قرشيًا لساق العرب بعصاه.

وكان علي بن أبي طالب إلى جانب أبي سفيان، فمال اليه هذا وهمس في أذنه كلامًا فحواه أنه يعرف مَن أبو ذلك الغلام من قريش. قال علي: فمن؟. قال: أنا.. قال: فما يمنعك من استلحاقه؟.. فهمس له: أخاف هذا الجالس أن يخرق عليّ اهابي!

وخليق بمثل هذا الرجل ألا يكون له شعار غير شعار الجند حيث كانوا: الأمر هو الأمر والطاعة هي الطاعة.

وخليق بالناس أن يفهموا ذلك عنه بغير بيان، لا سيما إذا فهموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة كان هو أول من يطيع.

ذلك هو الجندي المطبوع..

جندي من جنود الله في معترك الحق والايمان. واذا استوفينا المثل إلى أقصاه، فالقانون المطاع هو القرآن، والقائد الأعلى هو النبي الذي يوحى اليه، وليس أحد بعد ذلك أكبر من أن يطيع..

يأمر الله فالطاعة واجب لا هوادة فيه..

ويأمر القائد الأعلى فقد يراجعه من دونه ويرتفعان معًا إلى القانون لأن الطاعة لا تمنع المراجعة والمشاورة، ولكنها تمنع التمرد على القائد الأعلى وانكار سلطانه حيثما استقر على قرار، فاذا رجع القائد عن أمره فحسن والمراجعة إذن خير لا ضرر فيه، وإذا مضى في أمره فلا خلاف إذن فيما يجب، والذي يجب إذن أمر واحد: وهو أن يطاع.

كذلك راجع عمر النبي في مسائل شتى، فأخذ النبي برأيه في بعض هذه المسائل وخالفه في بعضها، فلم تكن طاعته فيما خولف فيه أقل ولا أضعف مما ووفق عليه.

وكذلك راجع الخليفة أبا بكر في كبريات المسائل وصغارها. فكان أبو بكر يثوب إلى رأيه كثيرًا، ويصرُّ على ما بدا له إذا رأى الحسنى في الإصرار.. فيطيع عمر أمرَه بعد ذلك، كأن لم يكن خلاف..

واذا امتنعت المراجعة فليس الرجل عند ذلك بواهن عن احتمال التبعة وتصريف الرأي والاضطلاع بأعباء الموقف كيف كان.

اشتد المرض بالنبي عليه السلام فقال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده.. قال عمر: ان النبي ﷺ غلبه الوجع..

وعندنا كتاب الله حَسْبنا..

عندنا كتاب الله حَسْبنا..

عندنا القانون الأعلى..

اما القائد الأعلى فهو في مرضه بحال لا تستحب معها المراجعة، وهو مع ذلك لم يصر على أمره ولم يعاود طلب الورق للكتابة. وانما قال حين كثر اللغط بين الصحابة: قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع: ثم عاش عليه السلام أيامًا ولم يذكر الكتاب.

فالرجل كان يطيع إذا استقام الأمر واستقرت التبعة

وكان يراجع إذا اتسع مجال المراجعة

فان لم يكن هذا ولا ذاك فهو ضليع بالتبعة التي يوجبها على نفسه، وقمين أن يذهب اليها ولا ينكل عنها.

وتلك سنَّة جرى عليها عمر عن علم وقصد، ولم يجر عليها عن بداهة وإلهام وكفى، وأشار اليها في كلامه غير مرة فقال في خطبة من خطبه ما فحواه: «.. كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه وجلوازه (١). وكان كما قال الله تعالى: بالمؤمنين رؤوف رحيم، وكنت بين يديه كالسيف المسلول، إلا أن يغمدني أو ينهاني عن أمر فأكف عنه، وإلا أقدمت على الناس لمكان أمره..».

فهو جلواز النبي، وسيفه المسلول، كما وصف نفسه..

وهو على أقوم مثال للجندي الفاضل العليم بموقع الطاعة، وموقع المراجعة، وموقع المشاورة، وهو مع التبعة حيث لا مهرب منها، وتلك هي الجندية في صورتها المثلى.

وما نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد، وهو الوصول الى الأمر الذي يحمل التبعة فيه.

---

(١) الجلواز: الشرطي.

فاذا أعفى نفسه من التبعة بمراجعة رؤسائه، وأعفى نفسه من التبعة بمشاورة مرؤوسيه، فقد عرف كيف ينبغي أن يطيع وعرف كيف ينبغي أن يطاع، وعرف ما يتوق كل جندي أن يعرفه حين يؤمر وحين يأمر، وهو توضيح ما يطلب منه وما يطلب من غيره، وتقرير مكان التبعات حين تقسّم التبعات..

ولقد كانت له مخالفات ليست من قبيل المراجعة ولا المشاورة التي تعمل فيها الروية عملها، أو تختلف مذاهب الآراء فيها.

كانت هذه أيضا من مخالفات « الجندي » التي يندفع اليها كلما غلبته الحماسة، وثارت به الحمية..

فلما كان يوم أُحد جاء أبو سفيان ينادي على مسمع من المسلمين: أفيكم محمد؟ فقال رسول الله: لا تجيبوه!.

فعاد ينادي مرتين: أفيكم محمد؟.. فلم يجيبوه!.

فسأل ثلاثًا: أفيكم ابن أبي قحافة؟.. فسكتوا.

ثم سأل: أفيكم ابن الخطاب؟.. وكررها ثلاثًا.. فلما لم يسمع جوابًا قال لقومه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم!

كثير على عمر أن يحتوي صبره في هذا الموقف أكثر مما احتواه. فما قالها أبو سفيان حتى صاح به من مكانه: « كفرت يا عدو الله. ها هو ذا رسول الله ﷺ، وأبو بكر وأنا أحياء!.. ولك منا يوم سوء!.»..

هذه مخالفة لا مراجعة فيها ولا مشاورة..

لكنها من مخالفات الجند، ولهم ولا شك مخالفات كما لهم طاعات.

* * *

نعم كانت له مخالفاتهم وطاعاتهم، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم التي هي أخص بهم من سائر الفكاهات والأهواء..

فكانت تعجبه الفكاهة التي توحي اليه معنى مضحكًا فيه صراحة وخشونة، ومنها الفكاهة التي نسميها اليوم « بالنكات العملية »..

فرغ رسول الله يومًا من بيعة الرجال، وأخذ في بيعة النساء، فاجتمع اليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة رضي الله عنه. فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بصنيعها. فلما دَنون منه ليبايعنه، قال عليه السلام: تبايعنني على ألا تُشْركن بالله شيئًا؟..

قالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما تأخذه على الرجال، وسنؤتيكه..

قال: ولا تسرقن.

قالت: والله ان كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة وما أدري أكان ذلك حلالاً لي أم لا؟..

قال أبو سفيان وكان شاهدًا: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل.

فقال رسول الله: وإنك لهند بنت عتبة؟

قالت: أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

فمضى رسول الله في أخذ البيعة، وعاد يقول: ولا تزنين!

قالت: يا رسول الله هل تزني الحرة؟

قال: ولا تقتلن أولادكن!

قالت: قد ربَّيناهم صغارًا وقتلتهم يوم « بدر » كبارًا، فأنت وهُم أعلم.

فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب، وكان قليل الإغراب في الضحك، فان استغرب ضاحكًا بين حين وحين فانما يضحكه مثل هذه الفكاهة..

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمه أسلم وابنه عاصم: دخل عليهما وهما يغنيان غناء يشبه الحداء فوقف يستمع ويستعيد. وشجعهما إصغاؤه واستعادته، فسألاه:

أيُّنا أحسن صنعة؟.. قال: مَثَلكما كمثل حماري العبادي. سُئل: أيُّهما شر؟.. فقال: هذا ثم هذا.

ومن فكاهته القوية تلك المزحة المرعبة التي أطار بها لبَّ الحطيئة ليكفَّ عن هجاء الناس: فدعا بكرسي وجلس عليه ودعا بالحطيئة فأجلسه بين يديه، ودعا بأشفى - أي مثقب - وشفرة يوهمه أنه سيقطع لسانه، فضج الحطيئة وتشفع الحاضرون فيه، ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهدًا لا يهجُوَنَّ أحدًا بعد، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. فما هجا أحدًا بعدها وعمر بقيد الحياة.

تلك أمثلة من فكاهته الخشنة التي تُعهد في طبيعة الجند، وهي فكاهة لا يطمع منه في غيرها.

وشاءت الجاهلية أن تورّطه في بعض أهوائها، فكان هواه منها معاقرة الخمر يحبها ويكثر منها، وقد نرى أنه هوى قريب من مزاج الجند غير نادر فيهم، إذ الخَمر توافق ما فيهم من سورة طبع وتشغلهم عن الخطر أو تعينهم عليه، وتصاحبها في كثير من الأحيان ضجة يألفونها.

وقد أحب ضجة الدفوف وهي في سياق هذا الهوى، وظل يحبها بعد اسلامه وخلافته وإن كرهها في غير الأعراس.. فسمع ضوضاء في دار فسأل: ما هذا؟. قيل له: عرس!.. فقال: هلا حركوا غرابيلهم؟.. أي الدفوف!.

على أنه كان يحب الغناء جملة، ويطيل الإصغاء اليه، ما لم يشغله عن مهم من أمر دينه أو سياسته. فسمع صوت حادٍ وهم منطلقون إلى مكة في جوف الليل، فما زال يوضع راحلته حتى دخل بين القوم يسمع إلى مطلع الفجر، ثم قال للقوم، ايه!. قد طلع الفجر.. اذكروا الله.

فطبيعة الجندي في الفاروق تامة متكاملة بأصولها وفروعها.. ويندر أن تتم طبيعة شاملة في رجل واحد، إلا أن يكون كعُمَر في اصالة الطبع وصراحته وخلوصه واتساقه، فلا يخذل منه جزء جزءا ولا تقبل منه وجهة حيث تدبر أخرى. وحينئذ لا عجب ان تتم له طبيعة واحدة بالغة ما بلغت من تعدد العناصر والألوان والشيات،

كما انه لا عجب أن يشبه الولد أباه لأنه أصيل صريح النسب ، بالغًا ما بلغ التعدد في مشابه الأخلاق والجوارح والأعمال..

لهذه الطبيعة أثرها في أمور لا تمت إليها على ظاهرها ، كأثرها في تحريم رقّ العربي وفي اخلاء الجزيرة من غير العرب ، فهي شنشنة الغيور على الحوزة الموكل بحماية الذمار.

ولها أثرها في سياسته مع الأمم حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف والبر بالوعد ولو كان اشارة باليد أو نبأة من صوت. فقد أوجب على قادته وجنوده إذا نزلوا بلاد الاعاجم فبدرت منهم اشارة أو نبأة يحسبونها عهدًا ، أن ينجزوا هذا العهد ولا ينكصوا فيه.. ولو أتيح لهم أن يتعللوا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات.

أو أنك على الجملة لا تعرض عملاً من أعمال الفاروق العامة والخاصة على هذه الطبيعة إلا وجدت له قرارًا فيها ووجدت عليه صبغة منها.

فهي بلا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة ، وبها تتميز خصائصه التي لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها وان كانوا عظماء أقوياء..

وقد أسلفنا الاشارة إلى الإيمان القوي ، وقلنا انه ضابط لأخلاقه وسوراته وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها ، لأن الإيمان القوي نفسه يحتاج في فهمه وتمييزه إلى المفتاح الذي يفرق بين ضروب الإيمان عند الأقوياء ، وليست القوة كلها كما لا يخفى معدنًا واحدًا في البواعث والمظاهر والآثار..

وهكذا كان إيمان عمر في سلوك دنياه وسلوك دينه :كان إيمان الطبيعة الجندية في حالتها المثلى

ففي سلوك دنياه كان يعيش أبدًا عيشة المجاهد في الميدان.. فآثر الشظف وقنع منها بأقل ما يكفيه ولا غنى عنه.

وفي سلوك دينه كان موقفه بين يدي الله ابدًا كموقف الجندي الذي يعلم انه لا يلقى مولاه إلا ليؤدي الحساب على الكثير والقليل.. فإن تجنه المسامحة ، جاءت

عفوًا لا ينسيه تحضير الحساب..

وكان معتمدًا على الغيب موصولاً بالقدر يركن إليه كأنه يراه بعينيه، ومن دأب كل طبيعة تستحضر الموت أن تنظر إلى الغيب، وتستطلع طلعه وتنتظر منه الحماية والهداية..

فاشتهر عن كثير من كبار القادة أنهم يؤمنون لهم بنجم سعد يلحظهم، أو بغاية أجل لا يعجلون عنها، أو بإلهام يهديهم إلى النجاة ويرون أماراته وعلاماته في الرؤى والهواتف وكلمات الفأل والبشارة

وكان عمر يتفاءل بالاسماء وينظر في الرؤى والمنامات، ويروى عنه في روايات متواترة أنه أُنبيء بموته في منام، وأنه رأى كأن ديكًا ينقره نقرتين، وفسروا له الديك برجل من العجم يطعنه طعنتين.

وروى محارب بن دثار عنه أنه سأل رجلاً: من أنت؟.. فقال: قاضي دمشق.. قال: كيف تقضي؟.. قال أقضي بكتاب الله.. فسأله: وإذا جاءك ما ليس في كتاب الله؟.. فأجابه: أقضي إذًا بسنَّة رسول الله، فسأله ثانية: وإذا جاءك ما ليس في سنة رسول الله؟.. قال: أجتهد برأيي وأؤامر جلسائي.. فاستحسن قوله وأوصاه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلاً: «إني أسألك أن أفتي بعلم وأن أقضي بحلم، وأسألك العدل في الغضب والرضا».

ثم رجع القاضي بعد فترة فسأله عمر: ما أرجعك؟.. قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب..

فسأله: مع أيهما كنت؟.. فقال: مع القمر!..

فتأمل قليلاً ثم ذكر قوله تعالى: «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة». ثم قال لا تلي لي عملاً.

هذه رواية من روايات كثيرة عن المنامات ونظره فيها، لا ندري مبلغها من الصحة في تفصيلاتها، ولكنها كلها تدل على الغرض الذي قصدنا اليه وهو استهداء

الغيب من طريق الرؤى والعلامات، الى جانب الايمان القوي الذي لا يسهو عن عالم الغيب طرفة عين.

ومن الحق ان نضيف هنا ان الايمان القوي ليس بمستغرب في الطبيعة الجندية. بل ربما كانت طبيعة الجهاد أقرب شيء إلى طبيعة الايمان..

وأن نضيف هنا استدراكًا آخر لعله أدعى إلى البحث من القول في الجهاد والايمان، وذلك أن العدل لا يناقض طبيعة الجند العامة، وأن طبيعة الجند لا تستلزم العدوان في كل محارب، ولا سيما المحارب نضحًا عن دين ووفقًا لشريعة..

فالعدل يفتقر الى شجاعة وشرف وهما خصلتان مطلوبتان في الجندي المطبوع، فأما الشجاعة في الرجل العادل فتحميه أن يحابي الأقوياء وهو جبن، وأما الشرف فيحميه أن يجور على ضعيف وهو خسة، ولا تناقض بين هذه الخصال..

انما المحارب المعتدي هو الذي «يحارب لحسابه» كما يقولون، أو يحارب لنفسه مرضاة لطمعه وذهابًا مع نزواته، ومن هذا الطراز: الاسكندر، وتيمور، ونابليون.

أما المحارب الذي تقيده إرادة غير ارادته، ويحكمه قانون غير هواه، فالحرب من مثله واجب يلام على تركه وليست بجريمة فلا يلام على اقترافها.

وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى قبل جهاد الخصوم والاقران، كما رأى عمر بن الخطاب..

ومصداق ذلك ظاهر في كل قائد تدعوه إلى الحرب إرادة إله أو إرادة أمة، أو إرادة ضمير له قانون.. فطبيعة الجندي في هؤلاء لا تناقض العدل، إلا كما تناقضه طبيعة الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف في شؤون المعاش، ولا تناقض بينه وبين واحد منها، أو هي جميعًا في هذه الخصلة سواء..

هؤلاء لا يحاربون إلا مكرهين، وإذا حاربوا لم يحاربوا لبغي ولا لتنكيل ولو كانوا في ميدان القتال، وسنتهم هي سنة عمر حين حذّر المجاهدين ان يعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين.. ثم قال: «لا تجبُنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا

عند الظهور، ولا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا. ونزّهوا الجهاد عن عَرَض الدنيا، وأبشروا بالأرباح في البيع الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم».

وذلك هو الجندي في حالته المثلى..

وذلك هو المفتاح الصادق الذي لا نعلم مفتاحًا أصدق منه لخلائق هذا الجندي العادل الكريم.

إسلامه

يجوز أن نبحث عن سبب واحد للعمل الذي يعمله الرجل اليوم وينساه غدًا، أو يكرره كل يوم ولا يلتفت إلى عقباه، أو يلتفت إلى عقباه ولا يتوقع له أثرًا يغير في مجرى حياته. فسبب واحد لعمل من هذه الأعمال كافٍ ولا حاجة بعده إلى استقصاء.

لكن العمل الذي تتحول به حياة الانسان تحولاً حاسما لن يرجع إلى سبب واحد، ولن نستغني في تفسيره عن عدة أسباب، بعضها حديث وبعضها قديم، ومنها الظاهر الطيع والخفي المستعصي، وقد يجهل صاحبها بعض هذه الأسباب وينسى المهم منها ويتعلق بالهين القريب.

فالرجل الذي يغيِّر موطنه، أو معيشته، أو زيَّه، لا يفعل ذلك عفو الساعة، ولا تلبية لاقتراح يوحى إليه في مجلس فراغ. وقد يتوهم هو أنه سمع الاقتراح فلبَّاه، وأنه لم يكن ليلبِّيه لولا ما سمع في تلك اللحظة العارضة. فهجر أهله وترك موطنه وغيّر صناعته من أجل كلمة.. وانك سائله ساعتئذ: «انك قد هجرت أهلك وتركت موطنك وغيرت معيشتك لأنك لبَّيت اقتراحًا، فهل تعلم لِمَ لبَّيت الاقتراح؟». فاذا سألته ذلك السؤال، رددته إلى نفسه فعلم ان الأسباب الصحيحة وراء ذلك.. وانه لم يتحول لأنه سمع الاقتراح المزعوم، بل سمع الاقتراح ولبَّاه لأنه كان قبل ذلك مستعدًا للتحول ماضيًا في طريقه. ولو سمعه مائة معه لم يكونوا مستعدين مثله، لما عملوا به ولا التفتوا اليه..

وأين تغيير المعيشة والموطن والزي من تغيير العقيدة الدينية؟.

اننا إذا استصغرنا السبب الواحد في تفسير تلك التغييرات فهو لا مراء أصغر من ذلك جدًا في تفسير التحول الحاسم إلى دين جديد.

لأن الانسان إذا غيّر معيشته فإنما يغير صناعة، وإذا غيَّر موطنه فإنما يغيِّر سمتًا يقوم على كساء، ولكنه إذا غيّر عقيدته الدينية فقد غيَّر كونه واستبدل به كونًا آخر. وقد غيَّر ماضيه وماضي أهله، وغيَّر حاضره وحاضر أهله، وغيَّر مصيره في الدنيا ومصيره بعد الموت، وغيَّر آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس، ومنها مآلف وأواصر ومحاب ومكاره متوشجات الأصول إلى ما وراء الآباء والأجداد.

فسبب واحد لا يغيِّر هذا كله دفعة واحدة.

ولا بد لتمام هذا التغيير من أسباب سابقة، وأسباب مهيِّئة، وأسباب موقوتة هي أظهر تلك الأسباب، وقد تكون أضعفها وأقلها تفسيرًا لذلك الحدث العظيم في العالم، وهل يتغير الانسان هكذا إلا وقد أحاط بالعالم في نظره حدث عظيم؟..

ونحن قد أشرنا فيما تقدم إلى ندم عمر لشكاية المرأتين اللتين عارضهما في الاسلام، وإلى ما كان لندمه من كسر حدته واستلال ضغنه وترويض عناده والتقريب بينه وبين الخشوع الديني والهداية الاسلامية. فهل نقف عند هذا الندم وكفى؟. وهل انتهينا به الى حيث يستقر الوقوف؟..

إنه لسبب من الأسباب..

ومما لا شك فيه أن عمر كان مقتربًا من الاسلام يوم رثى لأم عبدالله بنت حثمة، وتركها تنطلق إلى الهجرة وهو يدعو لها بالسلامة. وكانت هي على صواب حين طمعت في اسلامه ورجالها يائسون منه. فقد سألها عامر بن ربيعة مستغربًا مستبعدًا: كأنك قد طمعت في اسلام عمر؟ قالت نعم.. قال: انه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب!..

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة، إذ ليس أسرع من المرأة أن تلمح جانب الرقة وجانب الغضب من قلب الرجل في خطفة عين. أليست حياتها كلها من قديم الزمن منوطة بذلك الغضب كيف تتلطف في تحويله؟ وبتلك الرقة كيف تتلطف

في ابتعاثها من مكمنها؟.. وهل تحجبها عنها القوة وهي ما نفذت إلى نفس الرجل قط إلا من وراء القوة؟..

فعمر كان مقتربًا من الاسلام يوم رثى للمرأة المهاجرة ودعا لها بصحبة الله، وكان على تمام الاسلام يوم رأى الدم على وجه أخته ورأى زوجها منطرحًا تحته لا يقوى على دفاع.

ولكنه كما قلنا: سبب من أسباب، أو أنه هو السبب العارض الذي يومىء إلى السبب العميق: سبب عارض هو الأسف لشكاية الضعيف، وسبب عميق هو الرحمة التي تجمل بذي نخوة كريم. وليس الانسان كله ندمًا ورحمة وان طال ندمه وطالت رحمته. فليس كل ما احتوى رحمته بمحتويه إلى زمن طويل.

وقد تعددت الروايات في اسلام عمر واختلف بعض هذه الروايات في اللفظ واتفق في المغزى، وجعل أناس ينظرون فيها كأنما الصحيح منها لا يكون إلا رواية واحدة وسائرها باطل لا يشتمل على حقيقة، فلم لا تكون صحاحًا كلها؟.. ولم لا تكون أسبابًا متعددات في أوقات مختلفات؟.. فمن المستطاع المعقول أن نسقط منها قليلاً من الحشو هنا وهناك ثم نخلص منها إلى جملة أسباب لا تعارض بينها في الجوهر، وقد يعزز بعضها في نسق السيرة وفي لباب النتيجة..

روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «كنت للإسلام مباعدًا، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش.. فخرجت أريد جلسائي أولئك فلم أجد منهم أحدًا. فقلت: لو أنني جئت فلانًا الخمار وخرجت فجئته فلم أجده.. قلت: لو أنني جئت الكعبة فطفت بها سبعًا أو سبعين!.. فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام واتخذ مكانه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليماني. فقلت حين رأيته: والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول، وقام بنفسي أنني لو دنوت أسمع منه لأروعنه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الاسلام».

وروى ابن اسحق في سبب إسلامه كما نقلنا عنه في كتابنا « عبقرية محمد » :

« أن عمر خرج يوما متوشحًا بسيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه.. قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم.. فلقيه نعيم بن عبدالله فقال له: أين تريد يا عمر؟. فقال: أريد محمدًا هذا الصابيء الذي فرق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها، فأقتله. فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر!.. أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا؟.. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟.. قال: وأي أهل بيتي؟. قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، واختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه. فعليك بهما..

قال.. فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه، وعندهما خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت. وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما. فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟.. قالا له: ما سمعت شيئًا!.. قال: بلى والله. لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت اليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجَّها.. فلما فعل ذلك قالت له أخته: نعم قد أسلمنا وآمنَّا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفًا، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد.. وقرأ سورة طه، فلما قرأ منها صدرًا قال. ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر، والله اني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه. فاني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم ابن هشام أو بعمر بن الخطاب. فالله الله يا عمر!. فقال له عند ذلك عمر: دلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوشحه. ثم عمد إلى رسول الله ﷺ

وأصحابه فضرب عليهم الباب. وقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا بالسيف، فرجع إلى رسول الله وهو فزع، فقال: يا رسول الله!. هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف. فقال حمزة بن عبد المطلب: تأذن له. فإن كان يريد خيرًا بذلناه له، وان كان يريد شرًا قتلناه بسيفه!. فقال رسول الله: ائذن له.. ونهض إليه حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة. فقال عمر: يا رسول الله!. جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله!.»

* * *

هاتان الروايتان هما أجمع الروايات للأسباب «المباشرة» التي قرّبت بين عمر والاسلام. وتتفرع منها روايات منوعة يزيد بعضها تارة أن عمر قد أُوفد لقتل النبي من قبل قريش، ويزيد بعضها تارة أخرى آيات من القرآن الكريم قرأها عمر في بيت أخته غير الآيات التي تقدمت الاشارة إليها في سورة طه.. وأشبهها بالتصديق أنه لما اطلع على الصحيفة قرأ فيها اسم «الرحمن الرحيم» فذعر وألقاها. ثم رجع الى نفسه فتناولها وجعل كلما مرّ باسم من أسماء الله ذعر. فلما بلغ «.. ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين».. قال: أشهد أن لا اله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وهذه على اختلافها روايات متقاربة يبدو لنا أنها قصة واحدة شطرت شطرين وزيدت عليها الحواشي والأطراف، فاختلفت في ألفاظها ومواعيدها واتفقت في جوهرها ومدلولها، لأنها تمس نفس عمر من الناحية التي هي أشبه أن تهديه إلى طريق جديد.

وهي - كما اسلفنا - تجمع لنا الأسباب «المباشرة» التي اقترنت باسلام عمر، ولا تغنينا عن الأسباب الأخرى التي هي أساس هذه الأسباب ومرجعها، ولأجلها كان خليقًا أن تأخذه بلاغة القرآن، وأن تميل به الرحمة إلى الإيمان

فقد كان مهيأ للاسلام لا محالة، وكانت مجافاته للاسلام خليقة أن تنتهي بعد قليل، وألا تطول ريثما تعن المناسبة للشهادة باللسان بعد التهيؤ بالفطرة والضمير.

فلم يكن بين عمر والاسلام في بداءة الأمر إلا باب واحد للعداء.

وكل ما عدا ذلك من الأبواب فقد كان مفتوحًا بينه وبين هذا الدين الجديد، ما هو الا أن يراه بالعين حتى يندفع فيه.

كان باب العداء بينه وبين الاسلام انه رجل قوي غيور عزيز في قومه. فاذا رجل يخرج عليهم فيفرق - كما قال - أمر قريش ويسفه أحلامها ويعيب دينها، ويسب آلهتها.. فلا جرم أن يثور ويغضب وينقم، ولا عجب أن يذود عن ذماره ويرحض المعابة عن شرف آبائه، ويرى أنه غير عاد ولا باغ، وأن البغي والعدوان انما يجيئان من قبل ذلك الرجل الخارج على قومه؛ حتى يتبين له بالحق الذي يصدع به أن الذي هو فيه هو البغي والعدوان..

ذلك باب العداء الوحيد الذي كان بين عمر والاسلام، وهو باب لا يطول مدخله في نفس طبعت على العدل والانصاف.

فما من سبب يصل بين الجاهلي الشريف وهذا الدين الجديد الا كان موصولا بنفس عمر أوثق صلة، وما علمنا من سبب للاسلام إلا كانت له عقدة في نفس عمر وثيقة القرار..

فربما أسلم أناس أخذوا ببلاغة القرآن، وأسلم أناس لأنهم كرهوا المنكر الذي كان يشيع في الجاهلية، أو لأنهم ورثوا النزعة الدينية والخلائق المستقيمة، أو لأنهم جُبلوا على روحانية تصل بينهم وبين عالم الغيب وحظيرة الأسرار، أو لأنهم قد عرضت لهم عارضة مرموقة حركت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب..

وكل أولئك كان عمر على استعداد له عظيم.

وكل أولئك لم يكن عمر فيه بالوسط المكرر. بل كان فيه العلم المرتفع المضيء بين الأعلام.

كان عمر بليغًا حسن النقد للبلاغة، هواه منها الصدق والطبع وجمال التفصيل، فكان يطرب لقول زهير:

فإنَّ الحَقّ مَقْطَعه ثـلاثٌ يَمِينٌ أو نِفَارٌ أو جَلاءُ

ويقول كلما أنشده معجبًا: ما أحسن ما قسم!.. وسماه شاعر الشعراء لأنه لا يعاظل بين القوافي ولا يتبع حواشي الكلام.

وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرق الفجر فيقول لجليسه: «الآن اقرأ يا عبدالله».

وجاءه يومًا بعض آل هرم بن سنان ممدوح زهير فقال عمر: أما وان زهيرًا كان يقول فيكم فيحسن، فقيل له: كذلك كنا نعطيه فنجزل، فعاد عمر يقول: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.

وجاءه وفد من غطفان فسألهم من الذي يقول:

حلَفْتُ فلَمْ أتْرُك لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَليس وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَب

قالوا: نابغة بني ذبيان. فسألهم: ومن الذي يقول:

أَتَيْتُكَ عَارِيًا خَلِقًا ثِيَابي عَلى وَجَلٍ تَظَنّ بي الظُّنُون
فَألفَيْتُ الأمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كذَلك كان نُوحٌ لا يَخُون

قالوا: هو النابغة. فقال: هو أشعر شعرائكم.

وطالما أُعجب بقول عبدة بن الطبيب:

والمرءُ سَاعٍ لأَمْرٍ لَيْسَ يُدْرِكُهُ والعَيْشُ شُحٌّ وإِشْفَاقٌ وَتأمِيلُ

وينشده فيقول: على هذا بنيت الدنيا!

وندر بين أئمة الدين مَن غاص في أدب قومه غوصه، ووعى من أشعارهم وطرفهم مثل ما وعاه. قال الأصمعي: ما قطع عمر أمرًا إلا تمثل فيه ببيت من الشعر. ونحن نرجع إلى الشعر الذي تمثل به فنراه في أحسن موقع وأصدق شاهد، ونلمح من قليل

أخباره في خلوته أن الأدب كان جانبًا من جوانبه التي ترق فيها حاشيته ويأنس فيها إلى قلبه ويرجع فيها إلى فطرته. جاء عبد الرحمن بن عوف إلى بابه فوجده مستلقيًا على مزحفة له، وإحدى رجليه على الأخرى، وهو ينشد بصوت عالٍ:

وكيفَ ثوائِي بالمدِينةِ بَعدمَا ... قَضَى وَطرًا مِنْها جَميلُ بن مُعَمَّر

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال له: يا أبا محمد، إنا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس..

ولم يقصر إعجابه بالشعراء، على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية، بل نظر في فنهم وفاضل بينهم في بلاغتهم، ففضل امرأ القيس لأنه «سابقهم خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر».

ونوادره مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة وحفظه لأجمل ما يحفظ بين أهل عصره، كما تدل على ذلك خطبه ورسائله وشواهده وأمثاله.

وقد يصح أنه نظم الشعر أو لا يصح، فقد نسبت اليه أبيات وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول: لو نظمت الشعر لقلته في رثاء أخي. ولكن الصحيح أنه كان يحب الشعر البليغ ويرويه ويوصي بروايته، وأنه نشأ في قوم يحبون مثل ما أحب، ويعجبون بمثل ما أعجبه، ومنهم أبوه الذي نظم الشعر في أكثر من مناسبة وروي عنه أنه قال لما توعده أبو عمرو بن أمية:

أَيُوعِدُني أَبُو عَمْرو ودُونِي ... رِجالٌ لا يُنْهِهَا الوَعِيدُ

... ...

ربيعُ المُعْدَمِينَ وكلّ جارٍ ... إذا نَزَلَتْ بِهِم سَنَةٌ كَؤُودُ
هُمُ الرأسُ المقدّمُ مِن قُرَيْش ... وعِنْدَ بُيُوتِهِم تَلْقَى الوفُودُ
فَكَيفَ أَخَافُ أَو أَخْشَى عَدُوًّا ... وَنَصْرُهُمُ إِذَا أَدْعُو عَتِيدُ
فَلَسْتُ بِعَادِلٍ عَنْهُم سِوَاهُم ... طِوَالَ الدَّهْرِ مَا اختَلفَ الجدِيدُ

إلى آخر ما نسب إليه..

فأقرب شيء إلى الواقع – وإلى المتوقع – أن يؤخذ ببلاغة القرآن رجل نشأ هذه النشأة، وأحب الكلام البليغ هذا الحب، وأن يخشع لآياته ويعجب لتفصيله، فيفتح من قلبه مسالك الاصغاء.

وكان عمر مستقيم الطبع مفطورًا على الانصاف، فلم يكن رجل مثله ليستريح إلى فساد الجاهلية، أو ينكر فسادها، إذا نبّه إليه وهدي إلى ما هو خير منه.

وكانت النزعة الدينية وراثة في أسرته، على ما يظهر من مبادرة أخته فاطمة وابن عمه سعيد بن زيد إلى الاسلام، وكان له قبل الاسلام رجل من عمومته يقدح في الوثنية ويبحث عن الحق في النصرانية واليهودية، ويبتلي أهله بالخلاف ويبتلونه بالإيذاء والحبس والارهاق، ونعني به زيد بن عمرو بن نفيل.

* * *

وعمر نفسه.. ألم يقل لنا انه يئس ليلة من السمر ومن الخمر فذهب يطوف بالبيت كأن طواف البيت شهوة من شهوات قلبه تنوب عنه مناب المحبوب من الشهوات؟. ألم يكن في الجاهلية ينذر أن يعتكف ليلة من كل اسبوع؟. بل لعل صلابة الخطاب أبيه لم تكن في صميمها شيئًا مناقضًا لعنصر الدين والإيمان. فإن هؤلاء الصلاب الشداد في المحافظة على العرف هم أولئك المؤمنون المتزمتون الذين لا يطيقون المساس بعقائدهم إذا آمنوا بدين.

وزاد عمر على الوراثة الدينية أنه كان صاحب فراسة وزكانة وكان يستطلع الرؤى والمنامات ويتصل بالغيب ويبصر على البعد كما سلف في حديث سارية حين ناداه: يا سارية الجبل!. يا سارية الجبل، وبينها مسيرة أيام.

وكانت العوارض تمر به فتعطفه إلى الاسلام تارة من طريق الرحمة وتارة من طريق العدل والنخوة، فيخشع ويندم ويراجع عناده وكبرياءه. إذ ليس أبغض إلى الرجل الأبي المنصف من أن يحارب أناسًا لا يحاربونه ويلج في إيذاء قوم لا يقدرون على أذاه..

فإذا تفتحت هذه الأبواب جميعًا بين عمر والاسلام، فباب واحد موصد لن يحجبه طويلاً عن هذا الدين، ولن يحجب هذا الدين طويلاً عنه.

وقد تفتحت في يوم من الأيام.

تفتحت كلها فدخلها دخول العاصفة من جميع الأبواب، ولَسلم الجاهلي الشريف كما كان ينبغي أن يسلم، وكما كان يقينًا سيُسلم في مناسبة من المناسبات.

فإذا العالم الانساني قد تفتحت فيه صفحة جديدة..

صفحة يقرأ فيها القارىء قبل كل شيء ماذا يصنع الاسلام بالنفوس، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الذين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التي تسيطر على هذا الوجود: كان قدرة تلابس الضعيف فيقوى، وتلابس القوي فتنمي قوته وتجري به في وجهته، وكان يدًا خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة في التيه فإذا هي صرح له أساس وأركان، وفيه مأوى للضمائر والأذهان..

جاهلي كسبه الاسلام فكسبه العالم الانساني كله إلى آخر الزمان.. ونفس ضائعة ردت إلى صاحبها فعرف منها ما كان ينكر واطلع منها على ما كان يجهل، ونفع بها أمته وأممًا لا تحصى، وصنع بها الاسلام أعظم وأفخم ما تصنعه قدرة بناء وانشاء، حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء.

ونظرت الأمم فرأت كيف تعلو النفس الانسانية حتى يحار فيها الانسان وهو ريشة في مهب النوازع والأشجان.

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروي ظمأه إلا ليعدل ويعرف الحق. وكأنه لا يصحو ولا ينام إلا ليعدل ويعرف الحق، وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول دولة الباطل بين الناس، وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم، وهو وحده أقوى في المطالبة بهما من ألف غريم..

لقد كان هذا الرجل المجيد يبغض أن يظلم غيره أشد من بغضه أن يظلمه غيره. وهذه منزلة في الانفة لا تطاولها المنازل، لأنها منزلة الأبطال الذين يسمون على أنفسهم، ولهم أنفس أسمى من عامة الأبطال.

واننا لنعلم كم حزّ في قلبه الكريم أن يضرب بريئًا على دين الحق كلما رجعنا إلى أيامه الأولى بعد الاسلام، وهي أيام لا تنسى في تاريخ البطولة والأبطال..

فما شغله أمر بعد اعلان الدين إلا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناسًا في سبيل ذلك الدين..

ثار إلى الناس يضربونه ويضربهم، فقام خاله يسأل: ما هذه الجماعة؟. قيل له ان ابن الخطاب قد صبأ.. فقام على الحجر فنادى: ألا إنني قد أجرت ابن أختي: فانكشف الناس عنه، فكان لا يزال يرى مسلمًا يضرب ولا يضربه أحد، وثقل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين، فذهب إلى خاله وقد اجتمع الناس في الحجر وناداه: اسمع!. جوارك مردود عليك. قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدرى: لا تفعل يا ابن أختي. فأصر على رد جواره، وطاب له بعد ذلك أنه اقتص من نفسه للأبرياء الذين ضربهم وهو يجهل دينهم، فلا تمضي تلك الضربات بغير قصاص، وان كفّر عنها بالتوبة واعزاز الدين الذي آذاهم من أجله.

وأبى من اللحظة الأولى إلا أن يواجه الخطر الأكبر في سبيل دينه. وإلا أن يقبض على الثور من قرنيه كما يقول الغربيون في أمثالهم، وأن يتحدى قريشًا بحقّه مذ آمن بأنهم على باطل، فسأل أناسًا: أيّ أهل مكة أنقل للحديث؟. قيل له: جميل بن معمر الجمحي. فذهب اليه فصرح له باسلامه!. ولم يكذب الرجل الظن به، فما هو الا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه الى أندية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته على باب المسجد: يا معشر قريش!. ألا ان عمر بن الخطاب قد صبأ. وعمر يقول من خلفه: كذب!. ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. ثم تنشب المعركة بين هذا الرجل المفرد وبينهم فيثب على أدناهم منه وأجرأهم عليه – عتبة بن ربيعة – فيصرعه ويبرك عليه يضربه، ويدخل إصبعيه في عينيه.

لأنهما عميا وان عن الحق لا تبصران النور! .. و يتكاثرون عليه فلا يدنو منهم أحد « إلا أخذ شريف من دنا منه » حتى أحجموا عنه وركدت الشمس وفتر من طول الصراع ، مجلس وهم قائمون على رأسه يثلبونه وهو يقول لهم : « افعلوا ما بدا لكم. فوالله لوكنا ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم » ..

افعلوا ما بدا لكم ! . وهذا ما أراد .. فما يستريح وجدانه الحي أن يضرب مسلمًا لاسلامه ولم يضرب كافرًا لكفره ، وما يشعر أنه وفى الله دينه ، وقد ضَرب ولم يُضرب ، وآذى أناسًا ولم يُؤذه أحد ، وما تهدأ حاسة العدل فيه – وقد كانت كأنها من حواس بدنه – الا أن يحس القصاص في نفسه كما أحس المضروبون بالأمس عدوانه في أنفسهم .

« وراح يسأل النبي : يا رسول الله ! . ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟ . فقال عليه السلام : بلى والذي نفسي بيده انكم على الحق إن متم وإن حييتم . قال : ففيم الاختفاء؟ . والذي بعثك بالحق لتخرجن !

« فما لبث النبي أن خرج في صفين ، أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة . ولهما كديد (١) كأنه كديد الطحين ، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة فلا يجرؤ سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان .. وسماه النبي يومئذ بالفاروق .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا مختفيًا ، إلا عمر بن الخطاب ، فانه لما همَّ بالهجرة تقلَّد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهمًا واختصر عنزته (٢) ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها .. فطاف في البيت سبعًا متمكنًا ، ثم اتى المقام فصلّى ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم : شاهت الوجوه ! .. لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ! .. من أراد أن يثكل أمه أو يوتم ولده أو يرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي .. »

---

(١) التراب الناعم .   (٢) عصا لها زج كالرمح الصغير .

لقد كان له في تحديه هذا لقريش **عدّتان** : شجاعته وعدله .. فما كانت شجاعته في هذا التحدي بأظهر من عدله ولا كان عدله فيه بأظهر من شجاعته ، إذ الشجاع الحق مطبوع على الانفة من الظلم لأنه شديد الاحساس بذلّه ، ومن كان شديد الاحساس بذلّ الظلم فهو شديد الاحساس بعزة العدل من طريق واحد ، وقلما أغضب العادل الشجاع شيء كاستطالة الظالم وظنه أن المظلوم لا يستطيل عليه ، فذلك هو التحدي الذي يثير الشجاعة ويثير النقمة على الظلم أو يثير حب العدل في وقت واحد ، وان الموت لأهون من الصبر على هذا التحدي المرذول وهذا الصلف القبيح ، وما الشجاعة ان لم تكن هي الجرأة على الموت كلما وجب الاجتراء عليه ؟ .. وأي امرىء أولى بالجرأة من الشجاع الذي يعلم أن الحق بين يديه ؟ .. ألسنا على الحق إن حيينا وإن متنا ؟ .. فعلى الحق إذن فلنمُت ، ولا نعيشن على الباطل .. فالباطل كريه والجبن كريه .. وذانك ملتقى العدل والشجاعة في قلب العادل الشجاع .

* * *

ونهج عمر طريقه في الاسلام كما نهج طريقه الى الاسلام : كلاهما طريق صراحة وقوة لا يطيق اللف والتنطع ولا يحفل بغير الجد الذي لا عبث فيه .. فلا وهن ولا رياء ولا حذلقة ولا ادعاء . وما شئت بعد ذلك من اسلام صريح قويم فهو اسلام عمر بن الخطاب .

قال في بعض عظاته : « لا تنظروا إلى صيام أحد ولا إلى صلاته ، ولكن انظروا مَن إذا حدَّث صدق ، وإذا ائتمن أدى ، وإذا أشفى – أي همَّ بالمعصية – ورع »

وقال في هذا المعنى : « لا يعجبنكم من الرجل طنطنته ، ولكن .. من أدى الأمانة إلى من ائتمنه وسلم الناس من يده ولسانه »

وقال في عمل الدنيا والآخرة : « ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا ، أو عمل للدنيا وترك الآخرة ، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه . وانما الحرج في الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية .. »

ولم يكن أبغض اليه ممن يتوانى ليقال إنه متوكل على الله. أو يتراءى بالضعيف ليقال إنه ناسك، أو يفرط في العبادة ليقال إنه زاهد في الدنيا.

فكان يقول: «ان المتوكل الذي يلقي حبه في الارض ويتوكل على الله».. و«لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني.. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة وان الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض».

وكان يضرب من يتماوت ويستكين ليظهر التخشع في الدين. فنظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدرة وقال: «لا تمت علينا ديننا أماتك الله» وأشاروا له الى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له: كل يا دهر!.. كل يا دهر!.. ينهاه عن الصوم الذي يعوقه عن معاشه ولا يوجبه عليه الدين.

وكان كلما رأى شابًا منكسًا رأسه، صاح به: «إرفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعًا فوق ما في قلبه فانما أظهر للناس نفاقًا إلى نفاق».

وانما كان يعجبه الشاب الناسك نظيف الثوب طيب الرائحة، ويرى المسلمين بخير ما علَّموا أبناءهم الرمي والعوم والفروسية، فأنتم بخير كما قال: «ما نزوتم على ظهور الخيل».

دين الرجل القوي الشجاع الذي ينتصر بدينه في ميدان الحياة، وليس بدين الواهن المهزوم الذي تركته الدنيا فأوهم نفسه انه هو تاركها ليقبل على الآخرة.

وكانت شجاعته بدينه أندر الشجاعات في النفوس الآدمية.. لأنها الشجاعة التي يواجه بها تهمة الجبن وهو أرذل من الموت عند الرجل الشجاع. فان كثيرًا من الناس ليعدلون عن الصواب الذي يظهرهم بمظهر الخوف ليقال انهم شجعان، وانهم في عدولهم عنه لمن الجبناء المستعبدين للثناء، ولم يكن عمر يعدل عن صواب فهمه ولو قيل في شجاعته ما قيل، وتلك أشجع الشجاعات.

* * *

فشا طاعون عمواس، وعمر في طريقه إلى الشام، فلقيه أبو عبيدة وأصحابه عند تبوك وأخبروه خبر الطاعون، فاستشار المهاجرين والانصار، فاختلفوا بين ناصح بالمضي وناصح بالقفول: ناصح بالمضي في طريقه يقول انه خرج لأمر ولا يرى له أن يرجع عنه، وناصح بالقفول يقول انه اصطحب «بقية الناس وأصحاب رسول الله ولا يرى أن يقدمهم على وباء».. ثم دعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم يختلف عليه رجلان وأشاروا جميعًا بالرجوع. فقال أبو عبيدة: أفرارًا من قدر الله؟

قال عمر: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله.. أرأيت لوكان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان، احداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس ان رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟.. وما رام مكانه حتى جاءه عبد الرحمن ابن عوف لحسم الخلاف برأي النبي في الخروج من أرض الطاعون والقدوم اليها حيث قال عليه السلام: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

فكان إيمانه بصيرًا لا يهجم به على عمياء ولا يستسلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيطة والأخذ بالاسباب، وكانت نصيحته العامة للمسلمين في أمر الطاعون كرأيه الخاص في أمر نفسه وصحبه، فأمرهم بالاستنقاذ ما وجدوا له سبيلا وكتب إلى أبي عبيدة: «انك قد أنزلت الناس أرضًا غمقة – أي وخيمة – فارفعهم الى أرض مرتفعة نزهة»، وهو أحوط ما يحتاط به أمير عالم في هذه الايام.

كذلك لم يكن يؤمن بشيء ينفع أو يضر غير ما عرفت أسباب نفعه وضرره، فكان ينظر الى الحجر الأسود فيقول كلما استلمه: اني لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا اني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك.

وسمع أن الناس يأتون الشجرة التي بايع رسول الله تحتها بيعة الرضوان، فيصلُّون عندها ويتبركون بها، فأوعدهم وأمر بها أن تقطع، مخافة أن تسري إلى الإسلام من هذه المناسك وأشباهها لوثة من الوثنية والتوكل على الجماد.

* * *

وربما التبس الأمر من نوادر عمر في التقشف واجتناب المتع والمناعم فحسبت فرائض يوجبها ويجري على طريقة أولئك النساك المتخشعين الذين كان ينهاهم أن يميتوا الدين ويهزأ بهم كلما تنطعوا فيه وأوجبوا ما لا يجب على المؤمنين..

فلا يلتبسن الأمر هذا الملتبس، فهو واضح بين التفرقة من سيرته ومن الأحاديث التي صحبت تلك النوادر، ففسرتها ودلت على الغرض منها.

فعمر كان مسلمًا وكان خليفة للمسلمين. وفرق بين محاسبة المسلم نفسه وهو مسؤول عنها دون غيرها، وبين محاسبة الخليفة نفسه حتى يقع الشك في عمله، وينزّه يده وأيدي أهله عما ليس لهم بحق من سلطان الحكم أو بيت المال، ثم يفي لذكرى صاحبه الذي خلفه على المسلمين، فلا يعيش في مكانه خيرًا من عيشته ولا يمنح نفسه وذويه مالم يمنحه النبي لآله وذويه.

وعمر الذي كان يقنع بالخشن الغليظ من المأكل والملبس ويأبى أن يذوق في المجاعة مطعمًا لا يسع جميع المسلمين إنما هو الخليفة الذي يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية، وقد وجد منهم من لامه لأنه طرح كساءه وفيه فضل ملبس. فاتقاء هذا الحساب وما وراءه من حساب الله هو الذي توخاه خليفة النبي في معيشته ومعيشة أهله، مما يشبه تقشف النسّاك..

وعلى هذا كان أعلم الناس أن الطيبات حلال وأن النهي عن الحلال تنطع في الدين يأباه الاسلام..

كتب اليه أبو عبيدة أنه لا يريد الاقامة بأنطاكية لطيب هوائها ووفرة خيراتها، مخافة أن يخلد الجند الى الراحة فلا ينتفع بهم بعدها في قتال. فأنكر عليه ذلك وأجابه: (ان الله عزّ وجلّ لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات، فقال تعالى في كتابه العزيز: « يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون الأبدان النصبة في قتال من كفر بالله)..

وحدث حذيفة بن اليمان أنه أقبل على الناس وبين أيديهم القصاع فدعاه عمر الى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت ! فقال حذيفة : « أمنعتني أن آكل الخبز واللحم ودعوتني على هذا؟ . قال : إنما دعوتك على طعامي. فأما ذاك فطعام المسلمين » .

فللمسلمين حل ما شاءوا من الطعام أما الرجل الذي ينفق من بيت المال فله ما يكفيه . والحرج كل الحرج عليه – وهو في عدل عمر وحزمه وجلده – أن يأخذ منه ما لا حاجة به اليه ، وانه ليزداد حرجًا على ما فيه من قناعة أن يكون من أصحاب رسول الله ويعلم كيف كان رسول الله يأكل في بيته وماذا كان يجد من الملبس له ولأهله ، ثم يصيب من هذا أو ذاك خيرًا مما أصاب الرسول .

وللولاة عنده مثل ما للمسلمين عامة من حق المتعة السائغة والنعمة التي ترضاها الرجولة ، لا يأخذهم بمحاكاته لأنهم يتولون الأمر كما تولاه . بل ربما لامهم على التقتير كما كان يلومهم على الإسراف .

أنكر على عامله في اليمن حللاً مشهرة ودهونًا معطرة فعاد اليه في العام الذي يليه أشعث مغبرًا عليه اطلاس ، فقال : لا. ولا كل هذا.. ان عاملنا ليس بالشعث ولا العافي . كلوا واشربوا وادهنوا انكم ستعلمون الذي أكره من أمركم .

ومن تمام العلم باسلام عمر أن نعلم فضل اسلامه مع من لم يكن من أهل الاسلام . فإن الحق الذي يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل في باب السياسة القومية أكثر من دخوله في باب الفضيلة الانسانية . وإنما يصبح جديرًا باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه .

وعمر كان ولا ريب أشد المسلمين في اسلامه .

فلو كان الاسلام ظالما بطبيعته لِمَن لم يدخلوا فيه ، لكان عمر أشد المسلمين ظلمًا لهم وقسوة عليهم. لكنه كان في الواقع أشد المسلمين رعاية لعهدهم مذ كان أشد المسلمين غيرة على دينه وعملاً بأدبه .

فكان شأنه مع من حاربوه شأن المحارب الشريف ، ولن ينتظر محارب من محارب إلى آخر الزمان معاملة أقوم ولا أصدق من معاملة عمر لمحاربيه .

وكان شأنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يفي بعهدهم ويخلص في الوفاء به اخلاص من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه، ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه..

كتب للنصارى في بيت المقدس أمانًا على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن، وحان وقت الصلاة وهو جالس في صحن كنيسة القيامة فخرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التي على بابها بمفرده. وقال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي وقالوا: هنا صلى عمر! ثم كتب كتابًا يوصي به المسلمين ألا يصلي أحد منهم على الدرجة إلا واحدًا واحدًا غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها.

وكذلك كان يفعل في كل موضع صلى فيه من الكنائس التي عاهد النصارى على تركها وتحريم هدمها وسكناها.

أما عهده لهم فقد كان مثالاً من السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت..

فكتب لهم العهد الذي قال فيه: «.. هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان. أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود.. وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وأن يخرجوا منها الروم واللصوت، فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية.. ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي ببيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم..».

وليس لذي عهد من ظافر أن يطمع في أمان أكرم من هذا الامان.

وانه لقد كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لا يقنع بها حتى يشفعها بالوصاية للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة، وأن يوفي لهم بعهدهم وينضح

عنهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم : كتب بذلك إلى أبي عبيدة كما كتب الى غيره من الولاة وأوصى به في وصيته قبل أن يموت..

وما شكا اليه مظلوم من أهل الذمة واليًا كبر أو صغر إلا أنصفه منه.. بعث زياد بن حدير الأسدي على عشور العراق والشام. فمر عليه تغلبي نصراني معه فرس قوموها بعشرين ألفًا. فخيّره أن ينزل عن الفرس ويأخذ تسعة عشر ألفًا أو يمسكها ويعطي الألف ضريبة. فأعطاه التغلبي ألفًا وأمسك فرسه، ثم مرَّ عليه راجعًا في سنته فطالبه بضريبة أخرى. فأبى وشكاه الى عمر وقصَّ عليه قصته فما زاد على ان قال له : كفيت ! . ثم رجع التغلبي إلى زياد وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفًا أخرى، فوجد عمر قد كتب اليه : من مر عليه فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئًا إلى مثل ذلك اليوم من قابل !

وسمع أن بني تغلب لا يزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينازعهم، وأنهم أوغروا صدره، فقال فيهم يتوعدهم :

إِذَا مَا عَصَبْتُ الرَّأْسَ مِنِّي بِمشْوَذٍ فَغَيّك مِنِّي تَغْلبَ ابْنَةَ وَائِل

فخشي أن يضيق بهم صبره فيسطو عليهم، فعزله وأمَّر غيره..

ولعل حاكمًا من الحكام لا يرام منه أن يبلغ في البر بمخالفيه في الدين مبلغًا أكرم وأرفق من إجراء الصدقة على فقرائهم، ولا سيما الحاكم الذي يدعو الى دين جديد.

وقد تقدم أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودي مكفوف البصر. وقال : ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم.

وقد جعل ذلك سنة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوزين..

فمر في أرض دمشق بقوم مجذمين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت.

وإذا أحصيت له في سيرته الطويلة أوامر وخططًا تحرم الذميين بعض الحريات أو بعض الحقوق فكن على يقين أنه قد صدر في ذلك جميعه عن حكمة توحيها سياسة

الدولة، ويقرها العقل والعرف، كما يقرها الدين والكتاب، ولم يصدر فيه قط عن حيف مقصود أو رغبة في حرمان الذميين حرية يستحقونها أو حقًا هم أحرار فيه.

ولعل الذي يحصى له من هذه الأوامر والخطط لا يعدو النهي عن استخدام بعض الذميين، ومنعهم أن يتشبهوا في الأزياء والمظاهر بالمسلمين، واجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية في إبان الفتوح والحذر من الكيد والتجسس والانتقاض.

فأما نهيه عن استخدام بعض الذميين فارجع إلى ما قاله في ذلك، تعلم انه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكراهة الظلم والمحاباة فقال:

« اني نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فانهم يستحلون الرشى».

وطلب يومًا من أبي موسى رجلاً ينظر في حساب الحكومة فأتاه بنصراني، فقال: « اني سألتك رجلاً أشركه في أماني فأتيت بمن يخالف دينه ديني» وقلما نهى عن استعمال اليهود والنصارى إلا ذكر بعدها: أنهم أهل رشى، ولا تحل في دين الله الرشى!

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق. فعرض عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين. فأبى، وأعتقه وأطلقه وقال له: اذهب حيث شئت!

فلم يكن نهيه عن استخدام أهل الكتاب في مهام الدولة إلا إيثارًا للعدل وكراهة للرشوة والزيغ في الحكومة، وما نظن أحدًا ينكر أن استخدام الغرباء عن الدولة خليق أن يحاط بمثل هذا الحذر وأن تجتنب فيه مثل هذه الآفة. إذ يكثر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول وهم غرباء عنها كارهون لمجدها وسلطانها أن ينظروا إلى منفعتهم قبل أن ينظروا إلى منفعتها. وأن يساوموا على نفوذهم قبل أن يستحضروا الغيرة على سمعتها، والرغبة في خيرها وخير أهلها. ولا سيما في زمن كانت الدولة تميز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان.

وما من أمة في عهدنا هذا تبيح الوظائف العامة إلا بقيود وفروق متفق عليها: أولها تحريمها على الأجانب مالم تكن في استخدامهم منفعة عامة.

وهذه هي سياسة عمر في مسألة الوظائف القومية، بغير إعنات للدولة ولا إعنات

للرعية، وكفى باتقاء الإعنات أن العبد المملوك يخيَّر في الوظيفة والاسلام فيأبى، فلا يصيبه من ذلك ضيم. ويطلق له زمامه يفعل ما يشاء..

أما نهيه عن تشبه الذميين بالمسلمين وكراهته أن يبدلوا أزياءهم التي ولدوا عليها، فلا يلام عليه حتى نعلم لِمَ كان أناس من الذميين يودون التشبه بالمسلمين في الزي والشارة؟ أكانوا يتشبهون بهم حبًا لدينهم فهم إذن مسلمون لا يمنعهم مانع أن يجبروا بالاسلام.. أم يتشبهون بهم كيدًا لهم ورغبة في التسلل بينهم والافلات من عهودهم والتزاماتهم وما توجبه الدولة عليهم في تلك العهود والالتزامات؟

إن كانوا يفعلونه لهذا فلا لوم على عمر أن يأباه. وبخاصة في الزمن الذي كان المسلمون فيه جميعًا في حكم الجنود، وما من دولة ترضى أن تبيح أزياء جنودها لمن يشاء.

وأما اخراج بعض الذميين من الجزيرة، فما خرج منهم أحد إلا وقد غدر بذمته وكرر الغدر مرة بعد مرة، كما صنع أهل خيبر.

ومنهم من أجلي عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلاً عن نقضه العهد، كما فعل أهل نجران.

فقد صالحهم النبي على أن يبقوا في مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به، وجاء أبو بكر فجدد الصلح على ذلك، ثم استخلف عمر فرجعوا إلى الربا وأفرطوا فيه، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفاً فتحاسدوا بينهم وأتوا عمر يسألونه إجلاءهم فاستحب هذا الجلاء.

على انه لم يكن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة ويؤدوا العشور. فلما كتب اليه المشركون من أهل منبج أن «دعنا ندخل أرضك تجارًا وتعشرنا» شاور أصحاب النبي فأشاروا عليه بقبولهم، فدعاهم اليه.

* * *

ولا يفوتنا في هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الإجلاء التي لجأ اليها عمر، وأيقن بصوابها وضرورتها.. فأول الأمرين ان الجزيرة حرم الاسلام الذي كان يحيط به أعداؤه ويتربصون به الدوائر ويثيرون الفتنة على أطرافه، كما صنع الفرس بالعراق، والروم بالشام، ولا أمان على حرم يسكنه أناس فيهم من يغدر بأهله، بل فيهم من هؤلاء كثيرون..

وثاني الأمرين ان عمر قد سوّى بين الاسلام والنصرانية في هذه الخطة، فحفظ حرم النصرانية ببيت المقدس للمسيحيين لا يسكنه معهم من لا يقبلونه، كما حفظ حرم الاسلام بالجزيرة العربية للمسلمين لا يسكنه معهم من يحذرون غدره..

وقد أجمل العوض حين ألجأته ضرورة الدولة إلى اتخاذ هذه الخطة فاشترى بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأقطعهم النجرانية عند الكوفة، وكتب لهم وصاة قال فيها: «.. هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران. من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين.. ومن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الارض، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله.. ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فانهم أقوام لهم ذمة وجزيتهم متروكة أربعة وعشرين شهرًا بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا إلا من صنعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم».

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذي يختار بعده بالذميين كافة «أن يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم».. ودون هذا بالمراحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات في كل ما اتخذت من حيطة حربية أوحماية قومية أومعاهدة بينها وبين أمة أجنبية، وان عذرها لدون عذر عمر في خططه وان أسبابها لدون أسبابه في الاقناع..

كان مسلمًا شديدًا في إسلامه، فلم تكن شدته في إسلامه خطرًا على الناس، بل كانت ضمانًا لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمي ولا مشرك في غير حدود الكتاب والسنة.

وكان جاهليًا فأسلم. فأصبح إسلامه طورًا من أطوار التاريخ، ولولم يكن الإسلام قدرة بانية منشئة في التاريخ الإنساني لما كان إسلام رجل طورًا من أطواره الكبار.

وكان هذا الرجل يحب ويكره كما يحب الناس ويكرهون، ولكن لا ينفعك عنده أن يحبك ولا يضيرك عنده أن يكرهك إذا وجب الحق ووضح القضاء. قال يومًا لأبي مريم السلولي قاتل أخيه : والله لا أحبك حتى تحب الارض الدم المسفوح ! .. فقال له أبو مريم : أتمنعني لذلك حقًا؟.. قال : لا ضير! .. إنما يأسى على الحب النساء .

وحسبك من إسلام يحمي الرجل من خليفة يبغضه وهو قادر عليه ، فذلك المسلم الشديد في دينه ، والذي يشتد فيأمنه العدو والصديق ..

عمر والدولة الاسلامية

تأسست الدولة الاسلامية في خلافة أبي بكر رضي الله عنه لأنه وطد العقيدة وسيَّر البعوث. فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الردة، وشرع السنَّة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح. فكان له السبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين.

إلا أننا نسمي عمر مؤسسًا للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة. لأننا « أولاً » لا نجد مكانًا في التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام.

ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية. إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح. وعمر كان على نحو من الانحاء مؤسسًا لدولة الاسلام قبل ولايته الخلافة بسنين، بل كان مؤسسًا لها منذ أسلم، فجهر بدعوة الاسلام وأذانه، وأعزَّها بهيبته وعنفوانه..

وكان مؤسسًا لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها، وكان مؤسسًا لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم، وهو في الدولة الاسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم. ولم يزل يراجع أبا بكر في ذلك حتى استدعى زيد بن ثابت كاتب الوحي فأمره أن يتتبع آي القرآن ليجمعها من الرقاع والاكتاف والعسب وصدور الرجال، فكان ذلك أول الشروع في جمع الكتاب..

هذا إلى أن أبا بكر رضي الله عنه أسس ولم يتسع له الأجل حتى يفرغ من عمله، وجاء عمر بعده فأتم عمله وأقام الأساس ثم أقام عليه البناء.. وكانت قدرته على التأسيس هي آية الآيات فيه، وفي ذلك العصر من البداوة البادية، لأنه التفت إلى مواضعه الخليقة بالاهتمام والتقدم كأنه راجع تاريخ عشرين دولة مستفيضة الملك راسخة العمران. وهي قدرة تروّعنا وتدهشنا من ملك تربى على الملك، وسلفه على عرشه سمط من الملوك. وأولى أن تروّعنا وتدهشنا من رجل البادية الذي يقدم على أمر جديد، لم تعنه فيه السوابق، ولم يهتد فيه إلا بما اختار هو أن يهتدي اليه..

فبعد جمع القرآن لا نعرف عملاً يقترن به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد. وكلاهما عمل لا يفطن اليه إلا من طبع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها. وكلاهما فطن اليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة. فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آي القرآن، وكان أثره في تدعيم الدولة الأدبية كأثره في تدعيم دولة الغزوات والفتوح.

وندر في الدولة الاسلامية من نظام لم تكن له أولية فيه.. فافتتح تاريخًا، واستهل حضارة، وأنشأ حكومة ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصول القضاء والادارة، واتخذ لها بيت مال ووصل بين أجزائها بالبريد، وحمى ثغورها بالمرابطين، وصنع كل شيء في الوقت الذي ينبغي أن يصنع فيه، وعلى الوجه الذي يحسن به الابتداء. فأوجز ما يقال فيه انه وضع دستورًا لكل شيء وتركه قائمًا على أساس لمن شاء أن يبني عليه.

وملاك النظم الحكومية كلها نظام الشورى الذي أقامه عمر على أحسن ما يقام عليه في زمانه، فجمع عنده نخبة الصحابة للمشاورة والاستفتاء، وضن بهم على العمالة في أطراف الدولة، تنزيهًا لأقدارهم وانتفاعًا برأيهم واعتزازًا بتأييدهم له ومعاونتهم إياه فيما تولاه من ثواب أو عقاب.

وجعل موسم الحج موسمًا عامًا للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء في أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها: يفد فيه الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولايتهم،

ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يشكيهم ويفد فيه الرقباء الذين كان يبثهم في أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال.. فهي « جمعية عمومية » كأوفى ما تكون الجمعيات العمومية في عصر من العصور.

وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم، ويستمع لهم ويسمعهم، ويتوخى في جميع ذلك تمحيص الرأي وإبراء الذمة والخلوص إلى التبعة السليمة من العقابيل.

وان أضعف الناس رأيًا لمن يستضعف فضل الأمير في عمل تولاه، لأنه عمله بمشاورة غيره.

فان باب المشاورة مفتوح لكل انسان، وليس كل انسان مع ذلك بالذي يريد أن يستشير، أو بالذي يعرف كيف يستشير إذا أراد، أو بالذي يحسن الموازنة بين الآراء ان عرف من يستشيرهم ومن يقبل مشورتهم في حالة ويرفضها في حالة أخرى.

إن المشاورة لَفَنٌّ عسير..

وإن الذي ينتفع بمشورة غيره لأقدر ممن يشير عليه..

وقد كان عمر عبقري هذا الفن الذي لا يجارى. وكان من بدعه الملهمة في هذا الفن العسير انه لم يلتمس الرأي عند أهل الحنكة والخبرة وكفى، بل كان يلتمسه كذلك عند أهل الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك في الشعور والتفكير.. فكان كما روى يوسف بن الماجشون: « إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم » وانه لإلهام في فن الاستشارة لا يلهمه إلا صاحب رأي أصيل. فمن الرأي الأصيل أن يخبر الانسان كيف يستعير آراء المشيرين.

انظر اليه كيف يستشير في اختيار أمير، تعلم أن الاستشارة كما قلنا فن، وأنه فن عسير..

قال لأصحابه: دلوني على رجل أستعمله.

فسألوه: ما شرطك فيه؟

قال : إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم..

إن الذي يسأل هكذا لهو أقدر من الذي يجيبه بالصواب ، لأنه قطع له ثلثي الطريق السديد إلى الجواب .

وكان ربما استشار العدو الذي لا يأمنه ، كما فعل في سماع رأي الهرمزان في أمر الحرب الفارسية. لأنه بصير يطلب نورًا ، فاذا رأى النور استوى لديه أن يحمل له المصباح عدو أو صديق.

ومن اليسير، اذا تعقبنا مشاورات عمر، أن نعلم انه هو واضع دستور الشورى في الدولة الاسلامية... وان الشورى التي وضع دستورها هي شورى الرأي الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء.

* * *

وقد وضع لقواده دستور الحرب ، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم أعدائها ، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده..

فأرسل المدد إلى العراق ، وعليه أبو عبيدة بن مسعود الثقفي ، وعلمه كيف يستشير مجلس الحرب الذي معه ، وكيف يُقدم في موضع الاقدام ، ويتريَّث في موضع التريث ، وأجمل له ذلك في قوله « إسمع من أصحاب رسول الله ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعًا بل اتَّئد.. فانها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة ، ولا يمنعني أن أؤمِّر سليطًا (ابن قيس) إلا سرعته إلى الحرب . والسرعة إلى الحرب إلا عن بيان ضياع » وزاده تبصرة بالحيطة فقال له : « انك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية : تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه. فانظر كيف تكون. وأحرز لسانك ولا تفشين سرك. فان صاحب السر – ما يضبطه – متحصن لا يؤتى من وجه يكره. واذا لم يضبطه كان بمضيعة » .

فهي المشاورة، ثم أناة في الاجتهاد، إلا أن تجب السرعة ببيان وثقة فليكن الإسراع، وهذه وصية عمر بن الخطاب الذي يظن به الاندفاع وينسى من يظن به هذا الظن أنه قوي اندفاع وقوي ضابط في وقت واحد، وعندما يقترن الاندفاع بضابط فهو مزية وليس بعيب.

وكتب الى سعد بن أبي وقاص بعد اختياره لحرب فارس، وفي كتابه له قبس من هذا المعنى: إذا انتهيت الى القادسية وهو منزل رغيب خصيب دونه قناطر وأنهار ممتنعة، فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر، على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينها، ثم الزم مكانك فلا تبرحْه.. فانك إذا أحسوك أنغصتهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم، فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله وقويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدًا، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم. وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليهم أجرأ وبهم أعلم. وكانوا عنها أجبن وبها أجهل، حتى يأتي الله بالفتح».

ثم كتب اليه يستوصفه المنازل التي نزل بها ويسأله: «أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم؟.. فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر عليه أمر عدوكم.. فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن: صفة كأني أنظر اليها واجعلني من أمركم على الجلية».

وكتب إلى أبي عبيد وقد ترك حصار حلب يستضعف رأيه في ترك حصارها: «.. سرني ما علمت من الفتح وعلمت من قتل الشهداء، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحي التي قربت من انطاكية فهذا بئس الرأي.. أتترك رجلاً ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسطع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه؟.. فما هذا برأي.. يعلو ذكره بما صنع ويطمع من لم يطمع، فترجع اليك الجيوش وتكاتب ملوكها. فإياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.. وقد أنفذت اليك كتابي هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ورسوله ورغب في الجهاد

في سبيل الله ، وهم عرب وموالٍ ، رجال وفرسان ، والمدد يأتيك متواليًا إن شاء الله تعالى » .

فكان دستوره في الحرب أن يضع الأسس العامة ويعهد في تنفيذها إلى ذي خبرة وامانة ، ولا يتخلى عن تبعته العظمى في مصائر الحرب كل التخلي اعتمادًا على القائد وحده ، إذ ليس القائد بالمسؤول الوحيد عن المصير..

فإذا رأى القائد رأيًا وخالفه هو في رأيه أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأي الذي دعاه اليه . وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر وإعانته عليه .

ولقد كان الى جانب هذا السهر على الميادين عامة لا يغل يد القائد فيما يحسن أن تنطلق فيه ، فاذا تجاوز الأمر سياسة الحرب العامة من فتح الميادين وفك الحصار وانتظام الهجوم ، فمن حق القائد عنده ان يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع اليه ، وان يجري في إدارة المعركة على الوجه الذي تمليه ضرورة الساعة ، ولهذا استشاره أبو عبيدة في دخول الدروب خلف العدو فكتب اليه : « انت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنت بحضرة عدوك ، وعيونك يأتونك بالأخبار، فإن رأيت الدخول الى الدروب صوابًا فابعث اليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيِّق عليهم مسالكهم ، وان طلبوا اليك الصلح فصالحهم .. »

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بداءتها .

وهو يختار القائد الضليع بتسيير تلك الحملة .

وهو بعد هذا لا يعفي نفسه من التبعة ، ولا يعفي القائد من واجب الرجوع اليه في المواقف الحاسمة ، ولا يغل يده فيما هو أدرى به وأقدر على الاختيار فيه ، ولا ينسى أن يعينه إذا خالفه في الرأي ليتفق الرأيان المختلفان. فإذا رجع القائد إلى الحصار الذي أزمع أن يتركه رجع اليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل ، ليستمد من الايمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدي عملاً يخالف الصواب في تقديره .

وهذه السياسة هي السياسة التي جرى عليها عمر في جميع بعوثه وغزواته وسراياه . وهي السياسة التي لا يستطيع حاكم ان يجري على غيرها في حرب قديمة أو حديثة ،

وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد في الميدان، وجعلت بطل الفرس رستم المشهور في التواريخ والأساطير يقول: ان عمر هو هازمه في الميدان و « انه هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل! .. أكل عمر كبدي أحرق الله كبده! .. »

* * *

وربما أخطأ القائد الذي يختاره، فسَّته التبعة من هذا الجانب لأنه هو المسؤول عن اختياره، غير أنها لا تمسه من جانب إلا أعفي منها من جانب آخر او جوانب عدة، كما حدث في وقعة الجسر التى قتل فيها قائده أبو عبيد المتقدم ذكره. ثم انهزم فيها جيش المسلمين. فهو مسؤول عن اختيار هذا القائد كما يُسأل كل رئيس دولة في مثل ذلك، ولكن اعذاره على التحقيق أكبر من أخطائه في كل مسألة من هذا القبيل، وفي هذه المسألة بعينها كان اختياره لأبي عبيد انصافًا له حجته الراجحة فيه، لأنه كان أول من أجاب الدعوة إلى القتال، فلم يرَ من الانصاف ان يؤخر المتقدم ويقدم عليه المتخلفين، وقد سوغ الرجل اختياره إياه بانتصاراته الاولى التي رفعت شأنه بين القواد، فلما أخطأ جاءه الخطأ من مخالفة عمر في وصاياه، ومنها وجوب التريث والحذر من عبور الأنهار والجسور، ولم يكن على عمر لوم في تقصير عن التنبيه والتحذير.

وقبل أن يضع دستورًا للولاة وضع دستورًا لنفسه قوامه أن الحكم محنة للحكام ومحنة للمحكومين، و « انه لا يصلح إلا بشدة لا جبرية فيها ولين لا وهن فيه » .. وان الخليفة مسؤول عن ولاته واحدًا واحدًا في كل كبيرة وصغيرة، ولا يعفيه من اللوم أنه أحسن الاختيار.

قال يومًا لمن حوله: « أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أكنت قضيت ما عليَّ؟ .. قالوا: نعم. قال: لا، حتى أنظر في عمله أعَمِل بما أمرته أم لا؟ .. ».

وعهوده على نفسه هي خير العهود التي تؤخذ على ولاة الأمر، وأبينها للحدود القائمة بين الراعي والرعية، وخير ما فيها أنه كان يحث الناس على الاستغناء عن

التحاكم إلى الحكام خلافًا لأصحاب الأمر الذين يودون لو فرضوا لأنفسهم حكمًا في كل شيء فكان يقول لهم: « أعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضًا على ان تحاكموا اليَّ.. »

وجمع صلاح الأمر في ثلاث: « أداء الامانة، والأخذ بالقوة، والحكم بما أنزل الله»، وصلاح المال في ثلاث: « ان يؤخذ من حق، ويعطى في حق، ويمنع من باطل».

وعاهد الناس فقال: « لكم عليَّ ألا أجتني شيئًا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم، ولكم عليَّ ألا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم - أي أحبسكم - في ثغوركم، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم.. فاتقوا الله عباد الله، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم».

ومن أوائل عهوده في بيان الحق الذي يرشح الحاكم لولاية الحكم: « أيها الناس: اني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، واشدكم استضلاعًا بما ينوب من مهم أموركم ما وليت ذلك منكم».

فأحق الناس بالحكم أقدرهم على البر والحزم والنهوض بالأعباء، وليس له في غير ذلك حق يرشحه للحكومة.

ومن أوائل خطبه بعد توليه الخلافة: « ان الله ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبي، فلا والله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلو فيه عن أهل الصدق والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن اليهم، ولئن أساءوا لأنكلن بهم ».

فهو يعاهدهم أن يلي الأمر بنفسه في كل ما حضره، وألا يعهد فيه إلى غيره إلا إذا غاب عنه، ثم لا يكون وكلاؤوه فيه إلا من أهل الصدق والأمانة ثم هو

لا يدعهم وشأنهم بعد ذلك بل يراقبهم ويتتبع أعمالهم، فيحسن إلى من أحسن وينكل بمن أساء.

وقد كان يقول، ويعني ما يقول، ويعمل بما يقول..

* * *

وصارح القوم فيما لا يحصى من الخطب والاحاديث أن له عليهم حق الطاعة فيما أمر الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وان لهم عليه حق النصيحة ولو آذوه فيها، ومن ذلك الرواية المشهورة التي سأل الناس فيها أن يدلوه على عوجه فقال له أحدهم: «والله لو علمنا فيك اعوجاجًا لقوَّمناه بسيوفنا» فحَمَد الله أن جعل في المسلمين من يقوِّم اعوجاج عمر بسيفه.

ولم يكن يبيح من مال المسلمين أجرًا لعمله إلا ما يقيم أوده وأود أهله عند الحاجة اليه، فان رزقه الله ما يغنيه عن بيت المال كف يده عنه: «.. ألا واني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم: ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف: تقرم البهيمة الاعرابية: القضم لا الخضم» أي كما تأكل ماشية البادية قضمًا بأطراف أسنانها لا مضغًا وطحنًا بأضراسها..

ولما سئل عما يحل للخليفة من مال الله قال: «انه لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتين: حلة للشتاء وحلة للصيف وما أحج به وأعتمر وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين».

وقد كان أسخى من ذاك في تقديره لأرزاق الولاة والعمال، فقدَّر لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفة ستمائة درهم في الشهر له ولمساعديه. يزاد عليها عطاؤه الذي يوزع عليه كما توزع الأعطية على أمثاله، ونصف شاة ونصف جريب من الدقيق.

وقدر لعبدالله بن مسعود مائة درهم وربع شاة لتعليمه الناس في الكوفة وقيامه على بيت المال فيها، ولعثمان بن حنيف مائة وخمسين درهمًا وربع شاة في اليوم، مع

عطائه السنوي وهو خمسة آلاف درهم.. وهكذا على حسب الولايات والنفقات.

وكان يحظر على الولاة مظاهر الخيلاء والأبهة التي تبعد ما بينهم وبين الرعية، ولكنه ينظر في أعذارهم فيقبلها أو يغضي عنها حيثما توقف صلاح الولاية على ذلك.

قدم إلى الشام راكبًا على حمار فتلقاه عامله معاوية بن أبي سفيان في موكب عظيم، فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة فمضى في سبيله ولم يرد عليه سلامه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين، فلو كلمته؟ فالتفت إذ ذاك إلى معاوية وسأله: إنك لصاحب الموكب الذي أرى؟

قال: نعم..

قال: مع شدة احتجابك ووقوف ذوي الحاجات ببابك؟

قال: نعم..

قال: ولِمَ ويحك؟

قال: لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا، وأما الحجاب فاننا نخاف من البذلة جرأة الرعية؛ وأنا بعد عاملك، فإن استنقصتني نقصت، وإن استزدتني زدت، وإن استوقفتني وقفت!

فقال عمر: ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه. إن كنت صادقًا فإنه رأي لبيب، وإن كنت كاذبًا فإنها خدعة أريب، لا آمرك ولا أنهاك.

أما دستور الولاة عنده فأساسه ان الولاية تمييز بالواجب والكفاءة وليست تمييزًا بالوجاهة والاستعلاء، فكان يقول للوالي: « افتح لهم بابك وباشر أمورهم بنفسك، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً ».

وشغله كل الشغل أن تخضع الرعية لواليها رغبة في حكمه واطمئنانًا إلى عدله، فكان يقول للوالي: « اعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس » ويقول للرعية: « إني لم أبعث اليكم الولاة ليضربوا أبشاركم ويأخذوا أموالكم، ولكن ليعلموكم ويخدموكم ».

وتستوي عنده رغبة الرعية من المسلمين ورغبة الرعية من غيرهم. فلما رأى أقوامًا ذميين ينقضون العهد ويثورون على الدولة طلب من صلحاء البصرة وفدًا، فيهم الأحنف بن قيس، وهو مصدَّق عنده فسأله: «إنك عندي مصدَّق. وقد رأيتك رجلاً فأخبرني: أَلِمَظْلَمَة نَفَر أهل الذمة أم لغير ذلك»؟..

فقال الأحنف: «لا.. بل لغير مظلمة والناس على ما تحب».

فهدأ باله وقال: «فنعم إذن.. انصرفوا إلى رحالكم».

وربما ذهب في إرضاء الرعية مذهبًا لم يحلم به الغلاة من المطالبين بحقوق الشعوب في هذه العصور.

فكان من قواده وولاته سعد بن أبي وقاص قائده المظفر في حروب فارس، وقريب رسول الله ﷺ، والرجل الذي جعله عمر واحدًا من ستة يستشارون بعده في أمر الخلافة، فثارت به طائفة من أتباعه وشكته إلى عمر وجيوش الفرس تتجمع للغزو والثأر. فلم يشغله ذلك عن تحري الأمر من مصادره، وإيفاد من يبحث عن حقيقة الشكوى بين أهلها.. فبعث بوكيله على العمال محمد بن مسلمة يسأل عن سعد وسيرته في الرعية. وكلما سأل عنه جماعة أثنوا عليه، إلا من شكوه. فقد أحجم فريق منهم لم يمدحوه ولم يذموه، وقال فريق منهم: انه لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، ولا يغزو في السريَّة».

فعاد محمد بن مسلمة الى المدينة وسعد معه، وأعاد عمر سؤاله فلم تثبت له من أمره ريبة، إلا أنه اتقى الفتنة والخطوب منذرة، فعزله وقال لشاكيه: «ان الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم لهذا الأمر وقد استعد لكم من استعد، وايم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وان نزل بكم» وقال لسعد يومئذ مبرِّئًا له من تهمة خصومه: «هكذا الظن بك يا أبا اسحق!. ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بيننا».
ثم أبى أن يفارق الدنيا وفي ذمته شهادة لسعد يعلنها لملأ المسلمين. فلما حضرته الوفاة وسألوه أن يستخلف، أبى أن يخلف أحدًا من أهله، وسمى عليًا وعثمانَ وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعدًا «لأنهم نفر توفي رسول الله وهو عنهم راض.

فأيهم استخلف فهو الخليفة ».. ثم قال: « فان أصابت سعدًا فذاك، وإلا فأيهم استخلف فليستعن به، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة ».

وهذا مثل من أمثلة الوفاء بجميع الحقوق والرعاية لجميع الذمم من حاكمين ومحكومين.

ولا يبعد ان يقع الغبن على بعض الولاة الكفاة من فرط العناية بشكايات الرعية، إلا أن عمر في حزمه وعدله لم يكن يفوته مفرق الصواب بين الأمرين.. فغبن وال أو قائد أهون من غبن أمة أو جيش.. ومن أقواله في ذلك « هان شيء أصلح به قومًا أن أبدلهم أميرًا مكان أمير ».

بل ربما جرى منه حكم العزل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص. وانما هو سبب من الأسباب التي ترجع إلى سلامة الدولة أو ما نسميه في العصور الحديثة بالسياسة العليا. وهذه أسباب لا يصح أن يغفل عنها ولاة الأمر في أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة، وأولها عصمة الدولة من فتنة الولاة المقتدرين المحبوبين..

فربما كان الوالي المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة في تأسيسها من الوالي العاجز البغيض إذا لم يتعهده نظر ثاقب وحساب عسير.

فقد تزيّن له رعيته، أن يستقل بالأمور وينتحل لذلك ما شاء من المعاذير. فإن فاته الاستقلال ورئيسه قوي مهيب لم يفته بعد زوال ذلك الرئيس، ولو جاء بعده من يضارعه في القوة والمهابة لأن الفترة بين زوال عهد واستقرار عهد آخر تؤذن بمثل هذا التقلقل وتفتح الثغرات لمن يريد أن يلج منها بعد طول تربص واستعداد.

ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف تاريخ الاسكندر المقدوني وتواريخ العتاة من قياصرة الرومان، ولا كان الغيب قد انكشف له فرأى ما تلاه من الأمثلة في دول المغول والعثمانيين ودول المسلمين من مشرقيين ومغربيين، ولكنه لو استقصى أخبارهم جميعًا وعرف فتنة الولاة بعد زوالهم لما ندم لحظة على عزل الذين عزلهم وهو يقول لهم: إنما عزلتكم لكيلا أحمل على الناس فضل عقولكم، أو لكيلا تفتتنوا بالناس

كما افتتن الناس بكم، ولكان له سبب آخر وجيه بالغ في الوجاهة يدعوه إلى تغلب رغبات الرعية على مكانة الولاة، وهو عصمة الدولة من أولئك الولاة أن يطول بهم العهد وتتم لهم القدرة ويحوطهم الحب والولاء فلا يبقى بينهم وبين الانتقاض إلا الفرصة السانحة، وهي أقرب شيء سنوحًا في إبان التأسيس والانتقال.

وما لم يكن عزّل العمال لسبب من أسباب السياسة العليا التي من هذا القبيل، فلا جزاء إلا بقسطاس دقيق محيط، ولا سيما في الشؤون المالية، لأنه يعتمد في محاسبتهم على وسائل متفرقة يستدرك بعضها نقص بعض، فلا تكاد تخفى عليه خافية مما يريد الوقوف عليه..

فمن هذه الوسائل انه كان يحصي أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على ما زادوه بعد الولاية مما لا يدخل في عداد الزيادة المعقولة، ومن تعلَّل منهم بالتجارة لم يقبل منه دعواه لأنه كان يقول لهم: إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجارًا.

ومنها أنه كان يرصد لهم الرقباء والعيون من حولهم ليبلغوه ما ظهر وما خفي من أمرهم، حتى كان الوالي من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس اليه أن يرفع نبأه إلى الخليفة..

ومنها انه كان يندب لهم وكيلاً خاصًا يجمع شكايات الشاكين منهم ويتولى التحقيق والمراجعة فيها، ليستوفي البحث فيما ينقله الرقباء والعيون..

ومنها أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهارًا إذا قفلوا اليها من ولاياتهم، ليظهر معهم ما حملوه في عودتهم، ويتصل نبأه بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم على ملاقي الطريق.

ومنها انه كان يستقدمهم في كل موسم من مواسم الحج ليحاسبهم ويسمع ما يقولون وما يقال فيهم، وعليهم شهود ممن يشاء أن يحضر الموسم من أهل البلاد. ونوى في أواخر أيامه أن يستكمل الرقابة بالسير في البلاد، فيقيم شهرين شهرين في الشام، ومصر، والبحرين، والكوفة، والبصرة، وغيرها. فانه ليعلم «ان للناس حوائج تقطع عنه أما هم فلا يصلون اليه، وأما عمالهم فلا يرفعونها اليه».

وكان لا يكتفي بوسائله تلك إذا استراب ، فيعمد إلى الحيلة للكشف عن الخبايا التي تريبه. ومن ذلك انه سمع بعودة أبي سفيان من عند ولده معاوية والي الشام ، فوقع في نفسه أن ولده قد زوده في عودته بمال. وجاءه أبو سفيان مسلمًا فقال له : أجزنا يا أبا سفيان ! . قال : ما أصبنا شيئًا فنجزيك ! . فمد يده إلى خاتم في يده فأخذه منها وبعثه إلى هند زوجه ، وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجها : انظري الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما..

فما لبث أن عاد بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر في بيت المال..

وكانت سنتّه إذا ثبتت على الوالي شبهة التصرف في بيت مال المسلمين أن يصادر المال الذي ظفر به أو يقاسم الوالي فيما أربى على كسبه المعقول فيترك له النصف ويضم النصف إلى بيت المال ، وهذا عدا ما يجزيه به من عزل أو عقاب.

أما حساب الشكايات من المظالم ، فكانت سنّته فيه التحقيق ثم الجزاء على شرعة المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها. فمن ضَرب ، ضُرب ، ومن غصب ردَّ ما غصب ! .. ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب.

وقد يأخذ الوالي أحيانًا بوزر ولده أو ذوي قرابته إذا وقع في نفسه أنهم يستطيلون على الناس بسلطان الولاية ولا ينهاهم الوالي المسؤول عنها..

جاء مصري فشكا اليه واليها عمرو بن العاص ، وزعم أن الوالي أجرى الخيل فاقبلت فرس المصري فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح : فرسي ورب الكعبة ! . ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو ووثب على الرجل يضربه بالسوط ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين. وبلغ ذلك أباه فخشي أن يشكوه المصري فحبسه زمنًا.. وما زال محبوسًا حتى أفلت وقدم إلى الخليفة لابلاغه شكواه..

قال أنس بن مالك راوي القصة : فوالله ما زاد عمر على أن قال له اجلس.. ومضت فترة إذا به خلالها قد استقدم عمرًا وابنه من مصر فقدما ومثلا في مجلس القصاص. فنادى عمر : أين المصري؟.. دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين.

« فضربه حتى أثخنه ونحن نشتهي أن يضربه. فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين!.. ثم قال: أجلها على صلعة عمرو!.. فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه.. قال عمرو فزعًا: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت، وقال المصري معتذرًا: يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني.. فقال عمر: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه. والتفت إلى عمرو مغضبًا يقول له تلك القولة الخالدة التي ما قالها حاكم قبله: أيا عمرو!.. متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا!».

ومن هذا العدل في شؤون الولاية، نستطيع أن نفهم دستوره في شؤون القضاء، فلن يكون هذا الدستور إلا دستور العدل المحكم في الجزاء والفصل بين الحقوق.. إلا أننا نعتقد أن وصاياه في القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه، فلا تعقيب بعدها لمعقب في زمانه أو في زمان يليه، مهما تختلف الأقوام والأوقات..

أنشأ وظائف القضاء وتخيَّر لها العدول الأكفاء. ولم تكن به من حاجة هنا إلى سن الشريعة التي يحكمون بها فانها ماثلة في الكتاب والسنة، ولكنه كان في حاجة إلى تعليم القضاة كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر فأحسن التعليم.

* * *

كان يكتب لأحدهم: « إذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به، ولا يلفتنك عنه الرجال، فان جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله ﷺ فاقض بها، فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الأمرين شئت: إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم، وإن شئت أن تأخر فتأخر. ولا أرى التأخير إلا خيرًا لك».

وضرب لهم أصلح الأمثلة باجتهاده واستفتائه. فلم يقطع يد السارق في عام المجاعة رعاية للزمن، ولم يقطع يد الغلام الذي سرق من سيده رعاية لسنِّه أو للعلاقة

بين السارق والمسروق منه ، واشتركت المرأة وصاحبها في قتل رجل فتحرج من قتل اثنين بواحد حتى أفتاه عليّ رضي الله عنه بأنهما مستحقان للقتل كما يستحق اللصوص المتعددون أن يقام عليهم الحد إذا سرقوا لحمًا من بعير واحد. فأخذ بفتواه.

* * *

ومن وصاياه للقاضي : « آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك. والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرم حلالاً وأحل حرامًا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه. فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك ما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي ﷺ ، واعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدعي حقًا غائبًا أو بينة أمدًا ينتهي اليه. فإن أحضر بيِّنته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر.. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا في حد أو مجربًا عليه شهادة زور أو ظنينًا في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات. ثم إياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الدخر، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ».

ومن وصاياه لمن يلون الحكم : الزم خمس خصال يسلم لك دينك وتأخذ فيه بأفضل حظك : إذا تقدم اليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة أو اليمين القاطعة ، وأدن الضعيف حتى يشتدَّ قلبه وينبسط لسانه ، وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله ، وإنما ضيع حقه من لم يرفق به ، وآس بين الناس في لحظك وطرفك ، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء» .

* * *

تلك نماذج متفرقة من وصاياه للقضاة وولاة الأحكام، وهي فيما نراه أحكم وصاياه وأقربها أن يتبعها سواه.

ولذلك سبب لا يعسر تعليله. فقد كان عمر في الجاهلية حكمًا من قبيلة محكمين، أو سفيرًا يسعى بين الناس بالصلح من قبيلة سفراء. فهو في هذه الصناعة عريق..

إلا أن المرء قد يجلس للحكم بين الناس كما جلس عمر ولا يحسن الوصية فيه كما أحسنها، وانما بلاغ حسن الوصية أن تجمع الخصلتين اللتين اجتمعتا في وصاياه لقضاته.. فما من أحد يستطيع أن يوصي قاضيًا بخير مما أوصى، وما من عقدة قضائية تأتي من قبل القضاة أو من قبل المتقاضين إلا وهي ملحوظة في كلامه، وهاتان هما الخصلتان الباديتان في دستور القضاء كما أملاه.

* * *

ولا بد أن يلفت النظر في سياسته للولاية وسياسته للقضاء انه كان يأخذ بالواجب حيث وجب، وان اختلف الواجبان..

ففي الولاية كان يتحرى البواطن، ويمعن في تحرِّيها، ولا يكتفي من الناس بالظواهر.

وفي القضاء وما شابه القضاء كان يكتفي بالظواهر حتى تنقضها البينة القاطعة، وكان يعلن هذه الخطة على المنبر فيقول: «أظهروا لنا حسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر، فإن من أظهر لنا قبيحًا وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنًا» أو يقول: «انما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل، وإذ النبي ﷺ بين أظهرنا. فقد رفع الوحي، وذهب النبي ﷺ، فانما أعرفكم بما أقول لكم. ألا فمن أظهر لنا خيرًا ظننا به خيرًا وأثنينا عليه. ومن أظهر لنا شرًا ظننا به شرًا وأبغضناه».

بل كان له في الأخلاق الاجتماعية مذهب ثالث يشبه مذهبه في القضاء، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه ما يستره عنه وينهى أن تظن بكلمة شرًا وأنت

تجد لها في الخير محملاً.

وهذه في الظاهر نقائض، وفي الحقيقة واجبات متعددة كل منها في موضعه لازم..

فالعلم بخبايا الحكومة واجب على كل ولي مسؤول، لا تنصلح الأحوال بغيره، وفي الغفلة عنه مضرة محققة لجميع الناس.

والأخذ بالبينة دون الظاهر في شؤون القضاء واجب لا محيص عنه لضمان السلامة ومنع الجور، وهو في أحد طرفيه لا يخلو من الحذر الشديد من الطبيعة البشرية، إذ فيه خشية من غواية الهوى أن تنطلق بالقضاة في الحكم بغير برهان.

وفي الاخلاق الاجتماعية لا يؤمن التقاطع بين الأصدقاء إذا جرت العلاقة بينهم على التجسس والخدعة، ولا رعاية للمودة ما لم تكن رعاية للحرمات ومنها الأسرار.

والتفرقة بين الواجبات المختلفة هي دليل البصيرة في عرفان كل واجب منها، وانها تصدر عن رأي أصيل ولا تصدر عن تسخير العرف وإملاء التقليد والمحاكاة..

* * *

وأنشئت في عهد عمر دواوين أخرى غير ديوان القضاء ودواوين الاحصاء والخراج والمحاسبة التي لم تكن من المؤسسات القائمة قبل عهده. فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور ومصنع السكة لضرب النقود ودار الحبس للعقاب. ووكل معظم الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة وليس من الميسور أن ينصرف اليها فتيان العرب عما هو أولى بهم وهو فرائض الدفاع والجهاد.. فلو وجد منهم من يفي لتلك الاعمال لكانت خسارة الدولة في قيامهم بها أعظم من ربحها، ولكنهم غير موجودين، ولا عملهم فيها باللازم اللازب للمصلحة الكبرى، وقد يكون عمل الفارسي في مصلحة فارس والسوري في مصلحة سورية والمصري في مصلحة مصر أحرى أن يعصمهم إن كان بهم عاصم، وإلا فلا تثريب.

ووضع عمر نظامًا لتحصيل الجزية، وتصرَّف في وضعها على حسب الأمم والبلاد. فأعفى التغلبيين بالشام من الجزية وفرض عليهم بديلا عنها ضعف صدقة المسلم، لأنهم أنفوا أن يؤدوها وأزمعوا اللحاق بأرض الروم..

وكان له نظام اقتصادي يوافق مصلحة الدولة في عهده، فكان يحض على التجارة ويوصي القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك. ولكنه أبقى الأرض لأبنائها في البلاد المفتوحة، ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند في الجيش القائم.. وإذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء. وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم وأن يعتصم الجند الاسلامي من فتن النزاع على الأرض والعقار ومن فتن الدعة والاشتغال بالثراء والحطام. وربما أغضى عن كثير في سبيل الاعانة على تعمير البلاد بأهلها، فصفح عن أهل السواد «العراق» ليأمنوا البقاء فيه. مع أنهم حنثوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين في أثناء القتال..

* * *

ويلوح من كلامه في أخريات أيامه انه كان على نية النظر في تصحيح النظام الاقتصادي، وعلاج مشكلة الفقر والغنى، على نحو غير الذي وجدها عليه. فقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء».

ولم يرد في كلامه تفصيل لهذه النية. ولكن الذي نعلمه من آرائه في هذا الصدد كافٍ لاستخلاص ما كان ينويه. فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبدًا بين المساواة في الآداب النفسية والمساواة في السنن الاجتماعية. فكتب الى أبي موسى الأشعري: «بلغني انك تأذن للناس جمًا غفيرًا. فإذا جاءك كتابي هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة»، ولكنه لما رأى الخدم وقوفًا لا يأكلون مع سادتهم في مكة غضب وقال لسادتهم مؤنبًا:

ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟.. ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة في جفان واحدة.

فالمساواة في أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفي التفاضل بالدرجات. ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة، فكان يقول لهم في خطبه: « يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسلمين » وكان يوصي الفقراء والأغنياء معًا « أن يتعلموا المهنة فانه يوشك أن يحتاج أحدهم الى مهنة وان كان من الأغنياء ».

فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول الغنى وتقسيمه بين ذوي الحاجة، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات الفاضلة وتقسيمها في وجوه البر والاصلاح.

على أن عمر يصحّ أن يسمى مؤسسًا لديوان الوقف الخيري على الوجه الذي نعهده الآن. فقد أنشأ بيت الدقيق لاغاثة الجياع الذين لا يجدون الطعام، وأصاب قبل خلافته أرضًا بخيبر فاستشار النبي عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها. فجعلها عمر صدقة لاتباع ولا توهب ولا تورث، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم. ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ويطعم صديقًا فقيرًا منها.

* * *

وعرضت لعمر مسائل التعمير على حسب الحاجة اليها في وقته فلم تجده مسألة منها دون ما تحتاج اليه من اصابة الرأي وحسن الروية. فكانت نصائحه في تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح، وكانت دواعيه الى بنائها من أشرف الدواعي وأليقها بالأمير..

شاهد في الجند هزالاً وتغيّر ألوان، فسأل قائدهم سعدًا: ما الذي غيّر ألوان العرب ولحومهم؟.. فأجابه: انها وخومة المدائن ودجلة، فكتب اليه ان العرب

لا يوافقها إلا ما وافق ابلها من البلدان، فابعث سلمان وحذيفة فليرتادا منزلاً بريًا بحريًا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر، وأمر أن تبلغ مناهج المدينة أربعين ذراعًا، وما يليها ثلاثين ذراعًا، وما بين ذلك عشرين، وألا تنقص الأزقة عن سبعة أذرع ليس دونها شيء، وألا يرتفع بناء الدور..

فبنيت الكوفة على هذا التخطيط.

وعلم أن الجند يشكون الشتاء ويعوزهم الملجأ الذي يسكنون اليه بعد الغزو في حدود فارس. فكتب الى عتبة بن غزوان أن « ارتد لهم منزلاً قريبًا من المراعي والماء » ووصف له ما يلتزم من مواقعه وخططه فبنيت البصرة عند ملتقى النهرين..

وهو الذي أشار على عمرو بن العاص أن يحفر خليجًا بين النيل وبحر القلزم لاتصال المرافق بين مصر وعاصمة الدولة، وضرب له الموعد حولاً يفرغ فيه من حفره واعداده لمسير السفن فيه، فساقه من جانب الفسطاط الى القلزم، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن وسمي خليج أمير المؤمنين، ولم يزل مفتوحًا حتى ضيعه الولاة وغفل عنه الخلفاء.

* * *

فسياسته التعميرية وافية بالغرض منها لعصره، وقد يلاحظ عليها أبناء العصر الحاضر شيئًا لا يوافقهم كالحد من ارتفاع الدور والزهد في تشييد القصور. أما هو فالوجه الذي توخاه في سياسة التعمير أن يحمي الدولة في نشأتها من الترف والبذخ، وأن يحول بين الجند وبين الاستنامة الى متاع القصور المشيَّدة والصروح الممردة وما فيها من بواعث الوهن والفتور. ومن فلاسفة العصر الحاضر من يحسب ضخامة البناء دليلاً على ابتداء الضعف وعفاء العقيدة، ويقول « شبنجلر » أحد هؤلاء الفلاسفة: ان الأمم في نهوضها تعبر طريقين مختلفين: طريق العقيدة وقوة النفس وتلازمه بساطة الظواهر وعظمة الضمائر، وطريق الفخامة المادية والوفرة العددية وفيه تنحل الضمائر وتخلفها العظمة التي تقاس بالباع والذراع وتقدر بالقنطار والدينار، وكانت قبل

ذلك تقاس بما لا يحس من العزائم والأخلاق..

وعمر على كلتا الحالتين لم يتعد طبائع الأشياء، ولم يأخذ في زمانه بغير الصالح من الآراء..

وقصارى القول ان هذا الرجل لم تواجهه في ولاياته الواسعة صعوبة أكبر منه وأحوج الى قدرة أعلى من قدرته أو هيبة ودراية أجل مما كان له من هيبة ودراية، فإذا عرضت الصعوبة الطارئة فهناك الحزم اللازم لمواجهتها والحيلة الصالحة لتدبيرها، كأنما كان لها على استعداد، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس بهذه الأمور.

* * *

وكان اضطلاعه بتفريج الأزمات والكوارث، كاضطلاعه بتدبير الحاجات الى التعمير والتنظيم.. ففي السنة الثامنة عشرة للهجرة فاجأه قحط الرمادة المشهور، وهو القحط الذي لا يقال في وصفه أوجز من قولهم يومئذ ان الوحش كانت تأوي فيه الى الإنس، وان الرجل المتضور من الجوع كان يذبح الشاة فيعافها لقبحها..

فنهض لهذه الكارثة نهوضه لكل خطب، واستجلب القوت من كل مكان فيه مزيد من قوت، وجعل يحمله على ظهره مع الحاملين الى حيث يعثر بالجياع والمهزولين العاجزين عن حمل أقواتهم، وآلى على نفسه لا يأكل طعامًا أنقى من الطعام الذي يصيبه الفقير المحروم من رعاياه، فمضت عليه شهور لا يذوق غير الخبز والزيت. ونظر في كل شيء حتى في تعليم كل بيت كيف ينتفع بالرزق الذي يرسله اليهم مع عماله.. فقال للزبير بن العوام: «اخرج في أول هذه العير فاستقبل بها نجدًا، فاحمل إليَّ أهل كل بيت قدرت أن تحملهم إليّ، ومن لم تستطع حمله فمر لكل أهل بيت ببعير بما عليه، ومرهم فليلبسوا كساءين ولينحروا البعير فليحملوا شحمه، وليقددوا لحمه، وليحتزوا جلده، ثم ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وحفنة من دقيق فليطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق».

* * *

وهذه السهولة في مواجهة كل حالة بما يوائمها هي التي تبرز لنا « مؤسس الدولة الملهم » في هذا الرجل العظيم..

فكل عمل من هذه الأعمال سهل على القرطاس، صعب عند تصورنا إياه واحاطتنا بما يستدعيه من تدبير وانجاز وخلق وهيبة. فكم بين المدينة وتلك الاطراف في زمن أسرع وسائله بعير سريع ؟.. وكم عمل عمر لملاحقة كل جيش يسير وكل بلد يفتح، وكل أمة تحكم، وكل عارض يطرأ على غير رقبة ولا سابقة خبرة؟

تجنيد الجيوش لشتى الميادين وليس بسهل، واختيار القواد على حسب ما يندبون له وليس بسهل، والأمر بكل حركة على حسب كل ميدان وليس بسهل، والسؤال عن قادة الاعداء ومداوراتهم ليستقصي خبرهم ويعرف ما يقابلهم به من الكيد والعدة وليس بسهل، وانشاء المدن والعمائر في مواضعها، وإقامة الدواوين عند الحاجة اليها، وارضاء الأمم والجيوش بالاصغاء الى شكاياتهم ولو جاءت في غير أوانها، والنهوض للكوارث والأزمات بما ينبغي لها، والمشاورة لمن تسمع منه المشورة والاجتهاد بالرأي عندما تختلف الآراء، والاشتغال بكل شاك كأنه لا يشتغل بغير ما شكاه، وخدمة الناس في دينهم وخلقهم كخدمته إياهم في دنياهم ودولتهم، وتجدد هذه المتاعب يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام. وهي شاقة لا سهولة فيها على غير صاحبها القدير عليها ولو زاولها عرضًا إلى أيام.

* * *

وجليل بعض هذا غاية الجلال لو أن صاحبه قنع منه بالاشراف والمراجعة ولم يعمل بيده فيه كأنه خادم البيت المرهق وأجير الديوان الصغير. لكنه كما تعلم كان يكدح بيده ويحمل على ظهره ويتعقب بعينه؛ ولا يدع أحدًا من خدام الدولة الواسعة إلا وهو شريك له في مثل ما يتولاه..

وأكبر ما يستحق الاكبار في هذا الرجل الكبير انه كان قادرًا على تأسيس الدول وعلى فتح الامصار، ولكنه راض القدرتين فلم يقدم على فتح الامصار إلا بمقدار..

فليس الفتح شهوة عنده ولا المجد الحربي لبانة من لباناته، وهو على علمه بأن الله وعد المؤمنين أن يورثهم الارض لم يكن يرى في ذلك داعيًا إلى العجلة بالفتح كما كان يرى فيه دواعي للتبصر والاناة، حتى لا يسفك دم في غير موجب ولا تعتسف خطة بغير روية.

فكان همه الأكبر تأمين الجزيرة العربية من أطرافها وحماية الاسلام في عقر داره. ولولا أن الدول العظمى التي كانت تحدق بجزيرة العرب تحفَّزت للبطش بها، وقمع دعوتها في مهدها، لكانت للدولة الاسلامية سياسة أخرى في مصاولة أولئك الاعداء..

فدولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم الجزيرة وتهيج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبي عليه السلام، وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها. يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول: « .. وكنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابي ضربًا شديدًا وقال: أثمَّ هو؟.. ففزعت فخرجت اليه وقال: حدث أمر عظيم.. قلت: ما هو؟.. أجاءت غسان؟.. قال: لا، بل أعظم منه وأطول..طلق النبي ﷺ نساءه! ».

* * *

ومن هذا الحديث يتبين لنا مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار..

أما فارس فقد بلغ بطغيانها ان عاهلها غضب من دعوته إلى الاسلام فأوفد إلى الحجاز رسولاً مع نفر من الجند ليأتيه بالنبي العربي حيًا أو ميتًا!.. ولولا انه مات قبل انجاز وعيده واشتعلت نيران الفتن في بلاده لوطئت الجيوش الفارسية أرض الجزيرة قبل أن ينهض العرب لدفاع..

وما هو إلا أن حفظ العرب حدودهم من قبل العراق الفارسي حتى سكنوا إلى ذلك، وودَّ عمر بن الخطاب « لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون الينا

ولا نصل اليهم » ولم تتغير خطته هذه إلا حين استوى يزدجرد على عرش فارس وتأهب للغارة على المسلمين واخراجهم من حيث نزلوا.. فتجدد القتال.

وقد طال تردد عمر في فتح مصر، ولم ينبعث إلى غزوها حبًا للغزو ولهجًا بالفتوح، ولولا أن علم أن أريطون قائد الروم في بيت المقدس قد فرَّ منها الى مصر ليحشد فيها الحشود ويتأهب للكر على الشام لطال تردده في الزحف عليها. ومع هذا أوشك أن يسترجع عمرو بن العاص بعد اشخاصه اليها، ونهاه عن الايغال في المغرب بعد فتحها، لأن السطوة.. وهو مقتدر عليها – لم تكن تزدهيه ولا تغويه، ولأن الضن بالأرواح أغلب في طبعه من الشغف بالفتوح و « أن رجلاً من المسلمين أحب اليَّ من مائة ألف دينار! ».

* * *

فلا يخطىء القائل الذي يقول ان الاناة في السطوة أكبر ما يستحق الاكبار من هذا الخلق الرفيع، وان دلالته الانسانية أكبر دلالة يشتمل عليها هذا السجل الحافل بالمآثر. لأنه يرينا القوة كيف تكون نعمة انسانية عالية ولا تكون لزامًا نقمة من نقم الاثرة والأنانية، ويرينا الرجل كيف يقوى فلا يخافه الضعيف بل يخافه من يخيف الضعفاء.

وبحق يتزود بهذه القوة مؤسس دولة تقوم على دين، لأن الدولة قد تقيمها القوة الطاغية، أما الدين فلا يهدمه شيء كما تهدمه قوة الطغيان..

إن البأس الذي رزقته نفس عمر لحظ عظيم. ولكنه لو كان في يدي غيرها لقد يكون نصيبها منه أوفى من نصيبها وهو في يدها، فلم يشحذه عمر قط لغرض يخصه دون غيره، ولم يضرب به قط بمعزل عن الايمان حتى في أيام الجاهلية. فلو لم يقع في روع عمر أن محمدًا أهان قريشًا وانتقص دينها لما تصدى له بأذى، ولولا حرمة الإيمان الجاهلي عنده لما ثار على ايمان محمد وصحبه..

وغاية ما هنالك انه فرّق بين ايمان وايمان ، ففي الجاهلية كان إيمانه مضللاً فعقم ولم يأت بطائل ، وفي الإسلام كان إيمانه رشيدًا فأتى بأطيب الثمرات ..

* * *

قبل أن يقال ان عمر كان أكبر فاتح في صدر الاسلام ينبغي أن يقال انه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الإسلام ، وأنه أسسها على الإيمان ولم يؤسسها على الصولجان ، فكان مؤسسًا لها قبل أن يلي الخلافة وينفرد بالكلمة العليا ، وكان من يوم اسلامه آخذاً في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء .

إن تاريخ عمر وتاريخ الدولة الاسلامية لا يفترقان ، فاذا بدأت بهذا فقد بدأت بفصل من تاريخ ذاك ، ولن يطول بك الاستطراد حتى تثوب اليه كرة أخرى .

عمرو الحكومة العصرية

من الحقائق التي لا يحسن أن تغيب عنا ونحن نقدر الأبطال من ولاة العصور الغابرة أنهم أبناء عصورهم وليسوا أبناء عصورنا، واننا مطالبون بأن نفهمهم في زمانهم وليسوا هم مطالبين بأن يشبهونا في زماننا، وان الرجل الذي يصنع في عصره خير ما يصنع فيه هو القدوة التي يقتدي بها أبناء كل جيل، ولا حاجة به الى اقتداء بنا، ولا أن يشق حجاب الغيب لينظر الينا ويعمل ما يوافقنا ويرضينا.

ويحسن بنا أن نذكر مع هذا ان أشكال الحكومات بمرتبة دون مرتبة المبادىء التي تقوم عليها، وان المبادىء التي تقوم عليها بمرتبة دون مرتبة الروح الانساني الذي ينبغي أن يعمها ويتخللها، لأن المبدأ يعيبه أن يخلو من الروح الانساني ولا يعيب الروح الانساني أن يخالف المبدأ في بعض الأحايين.. فالملكية والجمهورية شكلان من أشكال الحكومة قد يقومان على مبدأ واحد، هو مبدأ الحكومة الشعبية أو الديمقراطية، ولكن العدل والحرية هما الروح الانساني المقدم على المبدأ وعلى الشكل معًا، لأن فقد المبدأ والشكل لا يضيرنا اذا وجدنا العدل والحرية.. أما فقدان العدل والحرية فهو الذي يضير ولو توافرت المبادىء والأشكال..

فإذا عرفنا العدل بروحه ولبابه، فلا ضير عليه أن تنكره مبادىء الثورة الفرنسية أو مبادىء الوثيقة الكبرى في البلاد الانجليزية، أو مبادىء الدستور الامريكي في أيام آباء الدستور هناك، أو مبدأ من المبادىء التي لا تني تتجدد وتتغير كائنًا ما كان.

ويحسن بنا ان نسأل أنفسنا كلما أعجبنا بعظيم من عظماء العصور الحديثة: ماذا كان هذا العظيم صانعًا لو نشأ في القرن الأول للهجرة مثلاً أو القرن الأول للميلاد؟..

أكان يصنع فيه ما هو « عصري » في زماننا أو يصنع فيه ما هو عصري في ذلك الزمان ؟ .. فما لا مراء فيه أنه يخالف عمله في زماننا ، ولا يخالف عمله في زمانه الذي نشأ فيه ، ولا ملامة عليه فيما خالف وفيما وافق . بل اللوم علينا نحن اذ ننتظر ما لا ينتظر ونقيس على غير قياس .

وإلى جانب هذا كله ينبغي أن نذكر أن عصرنا ليس بخير العصور ! .. واننا لو ملكنا تبديله في كثير من الأمور لبدلناه ، واننا لا نتفق على استحسان الحسن ولا استقباح القبيح فيه ، وان الفارق الأكبر بينه و بين العصور الاخرى انما هو فرق الألفة والاستغراب ، فعصرنا مألوف لنا وسائر العصور مستغربة في أنظارنا ، وكثيرًا ما يكون الاستغراب عرضيًا سخيفًا متعلقًا بالمظاهر والأزياء دون الجواهر وحقائق الأشياء ..

أذكر من الصور التي رأيتها في الصحف الأوروبية – ولا أنساها – صورة جامعة لبعض المشهورين والمشهورات في أزياء عصرنا وأزياء العصور السابقة على اختلافها ، عرضتها الصحيفة وأحسبها كتبت تحتها : هل تعرف هؤلاء لو مروا بك في الطريق ؟

فإذا تأملت الصورة رأيت فيها يوليوس قيصر في القبعة الطويلة وكسوة السهرة السوداء ، ورأيت كليوباترة في زي الباريسية العصرية ، ثم رأيت أميرًا من أمراء هذا الزمن وحكيمًا من حكمائه على نمط التماثيل التي حفظت لقياصرة الرومان وحكماء اليونان . فإذا بك تستغرب ما تألف وتألف ما تستغرب .. وكأنك على استعداد أن تحادث يوليوس قيصر حديثك للرجل الذي يفهمك وتفهمه من الكلمة الأولى ، وعلى حذر أن تقارب الرجل الذي مثلته لك الصورة في زي الأقدمين المخالفين لك في العقيدة والشارة والذوق ونمط التفكير والنظر الى الأشياء ..

هذه صورة نشرت يومئذ للتسلية والفكاهة ، ولكنها خليقة أن تعلمنا الكثير وأن تصحح لنا مقاييس المقابلة والتقدير بين كل عصر سابق وعصر أخير ..

* * *

ونحن – إذ ننظر الى أعمال عمر بن الخطاب نقيسها الى نظام الحكم في زماننا – واجدون فيها كثيرًا من المستغربات التي تحول بيننا وبين تقديرها الصحيح للوهلة الأولى. ولكننا لا نلبث أن نرفع القشرة وننفذ الى اللباب حتى تزول الغرابة ونرى في مكانها أحيانًا ما يصلح كل الصلاحية للتفسير حتى بمبادىء هذا العصر الاخير.

خذ مثلاً أنه – وهو أقدر المالكين في عصره – كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ، ويهنأ إبل الصدقة، أي يداويها بالقطران، ويراه رسل الملوك وهو نائم على الارض نومة الفقير المدقع، وتعرض له المخاضة وهو داخل إلى الشام فينزل عن بعيره ويخلع خفيه ويخوض الماء ومعه بعيره، ويسافر مع خادمه فيساوي بينهما في المأكل والمركب والكساء..

حاكم من حكام العصر الحديث لا يصنع هذا ولا يطالب بأن يصنعه، وهو وأبناء العصر الحديث على حق فيما ارتسموه لأنفسهم من السمت والشارة لأن حاكم الأمة يحتاج الى المهابة بين قومه وغيرهم من الأقوام، وهذا حسن مشكور..

ولكن هذه وجهتنا نحن في هذا، فما هي وجهة عمر فيه؟

وهذه حجتنا نحن فيما ارتسمنا.. فما هي حجة عمر فيما ارتسم!؟

إننا إذا عقدنا المقارنة بين الوجهتين والحجتين ألفيناه في غنى عن وجهتنا وحجتنا، وإنه كان يصل إلى الغاية التي نرومها نحن من طريق أقوم وأنفذ من الطريق الذي توخيناه..

فكان يعيش عيشة الفقراء، وأمته وأمم أعدائه أهيب له مما تهاب التيجان في القصور..

وكان عمل الرجل تثبيت سلطان وتثبيت عقيدة هي اساس الحكم قبل كل أساس، فكانت عيشته الفقيرة أعون له على تثبيت العقيدة، ثم لا غضاضة فيها على السلطان.

وكان يدين نفسه بهذه العيشة ولا يأبى على غيره أن يخالفها، ويقنع باليسير ويعطي الحق الكثير لمن يستحقه على تفاوت في المآثر والأعمال. فلما ندب أبا عبيدة لتوزيع الطعام في عام المجاعة أعطاه ألف دينار وألح عليه في قبولها، ولما قسم الولايات جعل لكل والٍ كفاء عمله من أجر وطعام مكفولاً له مع عطائه الذي يعطاه كسائر المسلمين. وهو الذي خالف أبا بكر في التسوية بين الأعطية لعلمه بتفاوت الحقوق، فقال له: «أتسوي بين من هاجر الهجرتين وصلى القبلتين وبين من اسلم عام الفتح خوف السيف؟. أتجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه؟..» ولقد ظل كلاهما على رأيه حتى قام عمر بالخلافة فأخذ بمذهب التفضيل وتوفية العطاء حسب الحقوق.

أما المهابة فمن افتقر من الولاة إلى المظهر فيها لم يمنعه عمر ولم يوجب عليه أن يقتدي به في خصاصته وشظفه، فله من ذاك ما تقضي به مصلحة الدولة حيث كان..

وبهذا يكون الحاكم عمر بن الخطاب قد أدى «الواجب الحكومي» على الوجه الأقوم فلا سبيل لأحد إلى أن يؤاخذه فيه بقياس حديث أو بقياس قديم..

فإذا بقي أن نستدل بتشديده في المعيشة على تفكيره أو خلقه فما هي الدلالة التي يدل عليها؟.. هل يدل هذا التشديد في محاسبة النفس على شيء يعاب؟.. هل هو أدنى إلى النقص أو هو أدنى إلى الرجحان؟..

إن أناسًا يشددون على أنفسهم عن كزازة في الطبع وضيق في الحظيرة وعجز عن ملابسة الدنيا. وهذه نقائص تعاب في مقياس الفكر والاخلاق.

ولكن هل كانت خليقة عمر بن الخطاب خليقة المرعب المتوجس العاجز الذي يرجع الشظف عنده إلى العجز عن ملابسة الدنيا؟..

أعجل الناس بالاتهام، لا يتهم عمر بهذا ولا بما يشبهه ويدانيه.

وانما تدل جملة أخلاقه على أن الخلق الذي ألزمه حياة الشظف انما هو خلق قوي يروض صاحبه على ما يريد، وليس بخلق ضعيف، يجفل من التصرف والتكليف، اجفال العجز والرهبة والوسواس..

وفي « طبيعة الجندي » التي قدمنا الكلام فيها بعض التفسير لنظرته في حساب نفسه وفي الموقف الذي اختار أن يقفه بين يدي الله. فهو يعلم ان الله شديد الحساب وان الله رحيم، ولكن الجندي القوي اذا وقف بين يدي مولاه جعل تعويله على الوفاء بالأمر وقضاء الواجب في أدق تفاصيله، ولم يجعل معوله الوحيد على طلب الرحمة والصفح عن الخطيئة، فان جاءه الصفح من مولاه فليس هذا بمعفيه أمام نفسه من استقصاء الحساب ولو جار عليها. فأكرم لطبيعته الجادة القوية أن يجور على نفسه من أن يترخص في اعطائها ثم يتعرض للصفح والغفران.

وكان وفاؤه لحقِّ الصداقة، كوفائه لحقِّ الله، سببًا من أسباب هذا الشظف الذي عاش عليه بعد النبي وخليفته الأول. فقد أبى له وفاؤه أن يعيش خيرًا مما عاشا، وأن يستبيح – وقد صار الأمر اليه – حظًّا لم يستبيحاه، وكثيرًا ما توسل اليه خاصته أن يشفق على نفسه وأقنعوه بما علموا أنه أدنى الى إقناعه، وهو أن يتوسع في العيش ليكون ذلك أقوى له على الحق، فكان يقول لهم: « قد علمت نصحكم. ولكني تركت صاحبيَّ على جادة، فإن تركت جادتهما لم أدركهما في المنزل »، وكلما نصح له ذووه ومنهم بنته حفصة أن يستكثر من الطعام الطيب والنعمة السائغة سألها: كم كان نصيب النبي من هذا أو من ذاك وأنت تعرفين نصيبه؟.. فيكون السؤال هو الجواب.

ثم كانت رغبته في اقامة الحجة على ولاته وعماله سببًا آخر من أسباب شظفه وقناعته بالقليل، فقد يستحي أحدهم أن يخون ليغنى وخليفته قانع لا يطمع في أكثر من الكفاف.

وما كان عمر بالذي يجهل ما عرفه الناس من مروءة « الأبهة والوجاهة » وهو الذي يعلم ما جهلوه، ولكنه كان غنيًا عنها ايثارًا لغيرها مما هو أرفع منها وأدل على المروءة في حقيقتها. فكان يقول: « المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة ومروءة باطنة. فالمروءة الظاهرة الرياش، والمروءة الباطنة العفاف ».

فهو في جملة أَحواله يفرض الشظف على نفسه لأن قوته الخلقية تستطيع أَن تريد فتفعل، وتستسهل الجد الذي يصعب على غيرها. ففيها رجحان يكبره العقل

والخلق، وليس فيها نقص يعاب بمقياس التفكير أو بمقياس الأخلاق..

انما كان الرجل يحاسب غيره فيعطيه حقه في غير بخس ولا حرج، ويحاسب نفسه فيؤثر الشدة ليقطع الشك ويدرأ الشبهة ويقتدي بصاحبيه، ويترك القدوة المثلى لمن يليه.. فلا سبيل عليه لباحث في نظم الحكم ولا لباحث في معاني الاخلاق.

على أن عصورنا الحديثة تستغرب الشظف من عمر، وهي تهلّل لملوكها وتكبر لهم حين يستنون لأنفسهم سنته في بعض أوقات الضيق والمحنة، وهي الاوقات التي يتنبه فيها شعور الرعية للفارق بينها وبين راعيها في المعيشة والتكليف. وأكثر ما يكون ذلك في أوقات المجاعات والحروب وشح المؤونة على الاجمال.

ففي الحروب الأخيرة تجاوبت الصحف بالثناء على الملوك الذين راضوا أنفسهم وراضوا أسرهم وحاشيتهم معهم على جراية الحرب التي توجبها ضرورات التموين، وعدوا من مفاخر الملوك أنهم لا يأكلون الا ما تأكله شعوبهم وأنهم لا يرون لهم عزة في الترف الذي يعز على رعيتهم. فاقتدوا بعمر فيما أوجبه على نفسه عام القحط، وعلّمتهم الشدة كيف ينفذون إلى الواجب الانساني من وراء زخارف الحضارة الحديثة.

وشيء آخر يستغربه العصريون في نظام حكومة عمروإن كانوا ليتمنون مثله لو استطاعوه، ونعني به طريقته في محاسبة الولاة والعمال سواء لتحقيق العدل أو لتحقيق الامانة..

فكان يجزي الوالي جزاء المثل عن كل مظلمة وقعت على أحد رعاياه، ويأخذ الوالي بسيئات أبنائه وذويه إن أساءوا وهم مستطيلون بما للولاية من حول وجاه..

وكان يحصي أموال الولاة، ثم يستصفي ما زاد عليها كلما فشت لهم فاشية من النعمة لا يخبرونه بمصدرها..

وفي هذا وذاك ضمان للعدل والأمانة، يستغربه العصريون لأنهم لا يألفونه في طرائق الحكومات العصرية.

ولكن أتراهم يستغربونه لأنه غير حسن أو لأنه غير مستطاع؟..

بل لأنه غير مستطاع ولا ريب، أو لأن الحكومات العصرية لا تملك أن تتحراه وتنصف في تنفيذه.

أما أنه حسن فلا شك في حسنه ولا في أنه أحسن من نظائره بين النظم العصرية، لأن حكومات العصر الحديث قد تحمي الوالي وإن ظلم واعتدى فلا تسمح بمقاضاته إلا بإذن منها!.. وقد تحميه مرة أخرى بالاحالة إلى الثقة بالوزارة ومنع المناقشة في عمله، لأنها هي المختصة بمناقشته فيه. وتعتذر في الحالتين بعذر المحافظة على نظام الدولة أن يهدده ما يهدد مراكز الحكام.

ولم يكن عمر يخشى هذا الخطر لأنه أقوى منه، فله هو الحق وعلى النظم العصرية الملام..

أما الطريقة العصرية في ضمان أمانة الحكام فهي أن تحرم عليهم الدساتير مباشرة الأعمال في الشركات وما اليها، ثم هي لا تأخذ منهم درهمًا ولو دخلوا الخدمة صفر اليدين وخرجوا منها بالضياع والقصور والأموال.

فمن استغرب الطرائق العمرية في هذا الباب فليستغربها ما شاء وهو يعلم أن الغرابة ليست بعيب، وأن المألوف هو المعيب إن قصر عن الغرض المطلوب.

وما عدا هذا من اختلاف بين العهدين فقلما يعدو اختلاف الاسماء وتغيير العناوين، وقلَّ أن ينفذ إلى ما وراء القشور. وهذه بعض الشواهد التي تقرب أسباب النظر إلى حقيقة هذا الاختلاف..

مرَّ عمر في سوق المدينة، فرأى اياسًا بن سلمة معترضًا في طريق ضيق فخفقه بالدرة وقال له: « امط عن الطريق يا ابن سلمة!.. ».

ثم دار الحول ولقيه في السوق فسأله: أردت الحج هذا العام؟.. قال: نعم يا أمير المؤمنين، فأخذ بيده حتى دخل البيت وأعطاه ستمائة درهم وقال له: يا ابن سلمة!.. استعن بهذه، واعلم انها من الخفقة التي خفقتك بها عام أول!.. قال أياس: يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها.. فأجابه عمر: أنا والله ما نسيتها.

فالنظم العصرية تحار في وضع هذه الحادثة في باب من أبوابها المرتبة حسب الوظائف والأوامر والمراجعات..

ولكن ماذا يصنع جندي المرور في عصرنا إذا شاء أن يميط عن الطريق ويفض الزحام؟.. وماذا تصنع المحاكم في تعويض من أصابه الضرب بغير ضرورة؟..

إن جندي المرور ليضرب بالدرة وبما هو أقسى منها، وإن المحاكم لتعوض المضروب بشيء من مال الدولة عن خطأ الجند والموظفين، وعمر قد عوض الرجل من ماله كما يؤخذ من قول ابن سلمة انه ذهب به إلى بيته، فإن لم يكن هذا المبلغ من مال عمر وكان من خزانة الدولة فقد غرم عمر كل دين عليه قبل موته، ولم يفارق الدنيا إلا على ضمان وثيق أن يعاد كل درهم من دينه إلى ذويه. وقد يكون الخطأ يومئذ في الحساب لا في تصرف عمر بن الخطاب.

ورأى عمر امرأة في زي استغربه فسأل عنها فقيل له إنها الأمَة فلانة! فضربها بالدرة ضربات وهو يقول لها: يا لكعاء!.. أتتشبهين بالحرائر؟.

وهنا مجال واسع للحذلقة العصرية في الكلام على «الحرية الشخصية» وعلى حق من يشاء أن يلبس ما يشاء ويسير حيث يشاء..

ولكن ماذا تصنع الحضارة العصرية بالنساء المريبات اللاتي يتنكرن بأزياء الحرائر ويأوين الى البيوت في أحيائهن ويخرجن معهن الى الطريق؟ وبماذا يختلف شأن النساء المريبات من شأن الاماء في زمن كن فيه متهمات الاعراض؟

* * *

ورأى عمر رجلاً يتبختر ويمشي مشية قبيحة لا تليق بالرجال فأمره أن يتركها فأبى، وزعم انه لا يطيق تركها.. فجلده، وعاد بعد جلده الى التبختر فجلده مرة أخرى. ثم مضت أيام وجاءه الرجل وقد ترك تلك المشية القبيحة ودعا له: جزاك الله خيرًا يا أمير المؤمنين. ان كان الا شيطانًا أذهبه الله بك..

غير أن عمر في عقوبته هذه انما كان يعاقب على أمر نهى عنه القرآن وليس له أن يبيحه بحال ، فهو قانون يعرفه من أوقع العقاب ومن وقع عليه ، ومن شهدوه وأقروه .. وكلهم يأبى أن يمشي في الأرض مرحًا ويعدها من قبائح الآداب ..

ولكننا في العصر الحديث نقسم النواهي والأوامر الى قسم يحاسب عليه القانون وقسم يحاسب عليه العرف المأثور. وعقاب العرف حق الأمة وليس بحق الحكومة والقضاء .

وحجة العصر الحديث أن العقاب القانوني هنا غير منصوص عليه وليس النص عليه بمستطاع ، وربما فتح الباب للأغراض والأهواء واستبداد الحاكمين اذا استطيع .

وعندنا أن حجة العصر الحديث في هذا ناهضة لا شك في صدقها ، ولكنها إن نهضت فانما تنهض على العصر الحديث ولا تنهض على عمر ولا على من وثقوا بعدله وأسلموه زمام العرف والقضاء على السواء ... فماذا لو استطاع العرف في عصرنا أن يحاسب الناس بالحبس والجلد والغرامة على رذائل الذوق وقبائح الآداب دون أن يخطىء أو يجور؟ .. أيأبى الاصلاح وهو آمن عقباه ؟ .. إن أباه فليس صوابه في إبائه بأكبر من صواب عمر في تقريره ، وليس على عمر ولا على رعيته جناح أن يطمئنوا الى عدل يعيينا أن نطمئن إلى مثله .

* * *

وقد تقدم أن عمر غضب على الحطيئة لهجائه الناس ، ونهاه أن يهجو أحدًا فضرع إليه الرجل وقال : اذن أموت ويموت عيالي من الجوع . فأنذره ليقطعن لسانه ! .. ثم عطف عليه فساومه على ترك الهجاء بثلاثة آلاف درهم. فسلم الناس من لسانه واستغنى عن هذه الصناعة ما عاش عمر. ثم عاد اليها بعد موته ..

إن أمين الحساب في خزائن الدول الحديثة يحار في أي باب من أبواب المصروفات يضع هذه الدراهم التي اشترى بها هجاء الحطيئة، ولكنه لا يحار طويلاً حتى يذكر باب الدعوة وما تنفقه الدول من الملايين للثناء والهجاء. فيضعها هنالك وهو أهدأ ضميرًا مما وضع في الباب كله، لأنه مال تنتفع به الرعية وتنتفع به الاخلاق، ولا نفع فيه لذوات الحاكمين..

ولنضرب أمثلة من طراز آخر على الطريقة العمرية التي يستغربها العصريون وهم مخطئون في استغرابها أو قادرون على النظر اليها كما ينظرون الى المألوفات، لو أطلقوا عقولهم من عقال الصيغ والاشكال ونفذوا من ورائها الى الجواهر والأصول..

كان عمر يعمل في المدينة فسمع صوت رجل وامرأة في بيت، فتسور الحائط فاذا رجل وامرأة عندهما زق خمر، فقال: يا عدو الله! .. أكنت ترى ان الله يسترك وأنت على معصية؟.. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين أنا عصيت الله في واحدة وأنت في ثلاث، فالله يقول: « ولا تجسسوا » وأنت تجسست علينا. والله يقول: « وأتوا البيوت من أبوابها » وأنت صعدت من الجدار ونزلت منه. والله يقول: « لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » وأنت لم تفعل ذلك.. فقال عمر: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟.. قال: نعم، والله لا أعود. فقال: إذهب فقد عفوت عنك.

وما أسرع ما تقول الحذلقة العصرية وهي مستريحة البال: هذه بدوات البادية في حكمها.. تجسس ثم محاجة جدلية ثم نزول عن عقاب. وهي « طريقة تعوزها الاجراءات الرسمية » التي نحن عليها حريصون وبها جد فخورين!.

لكن ما القول في مطابقة هذه الطريقة كل المطابقة لما يجري عليه النظام الحديث في اجراءاته الرسمية بغير استثناء؟.

فالدساتير الحرة تمنع الرقابة وفض الرسائل واستباحة الأسرار.. والحكومات – مع هذا المنع الدستوري – تضطر إلى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوي الشبهات. فإذا اتفق في حادث من الحوادث انها استباحت سرًا

يدل على جريمة محظورة فماذا يكون من سير الاجراءات الرسمية؟.. يكون ما كان من عمر في الحادث الذي رويناه بغير اختلاف.. فالقضاء لا يأخذ بدليل يمنعه الدستور ولا تثبت عنده الجريمة إلا بدليل مشروع، والحكومة تضطر هنا إلى السكوت ومتابعة الحالة حتى تسفر عن بينة يجوز لها أن تعتمد عليها أمام القضاء.. وهي فيما تصنع من هذا القبيل أعجز من عمر فيما صنع. لأنه جعل الاستطلاع سبيلاً إلى العظة والتوبة. واستغنى عن الاجراءات الرسمية التي نحن عليها حريصون وبها جد فخورين!.

* * *

ونقترب من حادث تطول فيه الألسنة العصرية أبعد مما طالت في شتى الحوادث التي قدمناها، ونعني به كتابه الذي خاطب به النيل يوم قيل له انه أمسك عن الفيضان..

وقد زعم المؤرخون أن أهل مصر ذهبوا إلى عمرو بن العاص في شهر بؤونة فأخبروه أن للنيل عندهم سنة قديمة لا يجري إلا بها، وهي: «انهم إذا كانت ليلة ثلاث عشرة من هذا الشهر عمدوا إلى جارية بكر بين أبويها فحملوا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقوا بها في النيل».. فلم يجبهم عمرو إلى ما سألوه وقال لهم: هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بؤونة، وأبيب، ومسرى، لا يجري فيها النيل قليلاً ولا كثيراً. ثم رفع عمرو الخبر إلى عمر فاستصوب ما صنع وكتب له: اني بعثت اليك بورقة مع كتابي هذا فألقها في النيل. وفي الورقة كتاب يخاطب به النيل يقول فيه: «من عبدالله عمر إلى نيل مصر. أما بعد: فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر. وإن كنت تجري من قِبَل الله فنسأل الله أن يجريك».

قال رواة هذه القصة: إن عَمْرًا ألقى بالورقة في النيل قبل يوم الصليب بشهر وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعًا واستراحوا من ضحاياه في ذلك العام وفيما بعده من الاعوام.

والرواية على علاتها قابلة للشك في غير موضع عند مضاهاتها على التاريخ..

وقد يكون الواقع منها – إن وقعت – دون ما رواه الرواة بكثير..

ولتكن على هذا صحيحة بحذافيرها فما هي الغضاضة فيها على العلم الحديث ولا نقول على العقل « البدوي » قبل نيف وألف سنة؟

إن عمر لم يجد أهل مصر معوِّلين في فيضانهم على القناطر والسدود وفنون الهندسة، فأبى عليهم أن يعوِّلوا عليها، ولكنه وجدهم معولين على خرافة يعافها العقل والشعور فأنكرها وحق له أن ينكرها، ولم يقل لهم ان ورقته الملقاة في النيل هي التي تجريه، بل قال لهم: ان النيل ليجري بغير تلك السنَّة التي استنوها له.. بغير القربان الذي يتقربون به اليه. وليس في هذه القصة كلها ما يستغرب من حاكم عصري مؤمن بالله منكر للخرافات. فورقة عمر أقرب إلى العقل في زماننا هذا من الكؤوس والقوارير التي تكسر في الأنهار عند فتح قناطرها وجسورها، وأقرب الى العقل من البخور الذي يحترق في البيع والهياكل جلبًا للفيضان واستغاثة بالسماء..

* * *

ونحن لا نعرض لهذه الأشتات من طريقة عمر في حكومته لأنها هنات تلجىء المعجب به الى دفاع وتسويغ، وليس في كل هذه الأشتات وأشباهها ما يلجىء عمر ولا المعجبين به الى دفاع أو تسويغ.

وانما عرضنا لها توسعة لأفق النظر الى العظمة الانسانية في مختلف أزمانها، واستخفافًا بالغرائب التي تخلقها العادة العارضة لعبادها، ثم هي لا تستحق من هوانها أن نخسر من أجلها شعورنا بعظمة الانسان وانها لأنفس ما نعتز به في جميع الأزمان..

عدل عمر نخسره لأنه كان يقضي فيه بغير « استثمارة » مدموغة ينص عليها قانون المرافعات! . أو لأنه كان يقضي فيه على غير « الاجراءات العصرية » في مواجهة الحقوق الشخصية!.. أو لأنه كان يقضي فيه قضاء يختلف الفقهاء في عنوانه وفي الرف الذي يضعونه عليه بين رفوف الأضابير!...

يا لها من حماقة تخجل العصر الحديث، تخجله وهو واقف بين العصور يتطاول عليها بتسخيف الحماقات وادحاض الخرافات..

عمر والنبي

يندر أن يظفر الباحثون في طبائع الإنسان بمغنم نفسي هو أوفر ثمرة وأنفس محصولاً من دراسة عمر بن الخطاب ، لأن الظواهر المختلفة التي تتجلى في هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم ولا ظواهر كل دراسة ، ولأن اتفاقها البسيط مع تركيبها العجيب مما يتعذر جدًّا في النفوس التي نعهدها ، ومما يتعذر جدًّا حتى في نفوس الافذاذ من العظماء..

بيد أن المغنم الأكبر في هذه الدراسة إنما هو مغنم الأخلاق.. لأن علم الأخلاق أحوج الى الاستدلال بالظواهر الطبيعية ، وأفقر الى الاسناد والدعائم التي تقيمها أمثال هذه الدراسات.

فكل نفس – عظمت أو صغرت – فدراستها مغنم لعلم النفس لا شك فيه ، كائنة ما كانت النتيجة التي تتأدى اليها من بحث خفاياها وتنظيم شواهدها..

لكن الوصول الى نتائج علم الأخلاق « فكرية تكليفية » يستنبطها الفكر الذي يختلف في صوابه كما يختلف في خطئه ، ويمليها التكليف الذي يطاع ولا يطاع ، ويراض عليه الانسان رياضته على الأمر الغريب « الأجنبي » عن توازع الطباع.

فإذا اهتدينا الى نفس تعزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التي هي أقرب الى الآمال المنشودة منها الى الوقائع الموجودة فقد ظفرنا بمغنم كبير..

وإذا ظفرنا بحقيقة نفسية ، هي في الوقت نفسه حقيقة فكرية وحقيقة خلقية فذلك هو المغنم المضاعف الذي قلما ينال.

ونفس عمر بن الخطاب هي تلك النفس التي تدعم علم الأخلاق من الأساس ، وهي ذلك الصرح الشامخ الذي ننظر الى أساسه فكأننا تسلقنا النظر الى ذروته العليا ، لأنه قرب بين الآمال والقواعد أوجز تقريب ، إذ هو التقريب الملموس .

آمال كثيرة من آمال محبي الخير ودعاة الإصلاح هي في نفس عمر بن الخطاب وقائع مفروغ منها ، كأنها وقائع المرئيات والمسموعات ..

فمنها فيما أسلفناه أن القوة لا تناقض العدل في طبيعة الانسان بل يكون العدل هو القوة التي تخيف فيخافها الظالمون .

ومنها فيما نحن بصدده الآن ، أن القوة لا تناقض الإعجاب على خلاف ما يتبادر الى الأكثرين ..

فإن الأكثرين يحسبون أن الرجل الذي يعجب به الناس لا يعجب هو بأحد ، وأن البطل الذي يقدسه عشاق البطولة لا يعشق البطولة في غيره ، وأن التطلع الى الأعلى صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع ويحسنوا الخدمة والعون للكبار ، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر إلى جانب المتفوقين عليه ، ممن هم أكبر قدرًا وأحق بالاعجاب ..

لكن البطل الذي ندرسه هذه الدراسة ينقض ذلك الحسبان أقوى نقض مستطاع ، لأنه بطل يروع ويعرف روعة البطولة ... ويستحق الاعجاب غاية استحقاقه ثم يخيِّل اليك من فرط ولائه لمن يفوقونه انه خلق للاعجاب بغيره ، ولم يخلق ليكون هو موضع اعجاب .

فعمر كان يحب محمدًا حب اعجاب ، ويؤمن به إيمان اعجاب ، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد ، وما هو فيما خلا ذلك بصغير في نظر نفسه ولا في نظر الناس .

كان محمد عليه السلام كما نعلم قدوة في الدعة وحسن المعاملة لجميع صحبه وتابعيه ، وكان يعاملهم جميعًا معاملة الاخوان والزملاء فلا يغمرهم برهبة التفاوت

الشاسع والتفوق البعيد، فلو جاز أن ينسى أحد فارقًا بينه وبين عظيم لنسي أصحاب النبي هذا الفارق بما يلقونه من مساواته وحسن معاملته، ولو نسيانا إلى حين.

الا أن عمر «العظيم» سمع مرة من صديقه محمد عليه السلام كلمة «يا اخي» فظل يذكرها مدى الحياة.

استأذنه في العمرة فأذن له وقال: «يا أخي لا تنسنا من دعائك».. فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها: «ما أحب أن لي بها ما طلعت عليه الشمس لقوله يا أخي!..»

شهادة لعظمة محمد أنه يؤاخي الناس كبارًا وصغارًا وان الناس كبارًا وصغارًا لا ينسون ما في مؤاخاته من فخر وغبطة وما بينهم وبينه من فارق بعيد..

وشهادة لعظمة عمر انه أهل لذلك الإخاء، لأنه يدرك ما فيه من عظمة، ويشعر بما فيه من رضوان.

وما يدريك ما عمر الذي يشيع في قلبه الفرح بهذا الإخاء؟..

ليس بالرجل الذي يحب تواضع المرائين، وليس بالرجل الذي يجهل مقداره أو يهاب مخلوقًا بغير الحق، وبغير الإعجاب.

عمر هذا هو الذي تولى الخلافة، وحجته الأولى في ولايتها أنه أكفأ المسلمين لها غير مدافع، وانه كما قال: «لو علمت أن أحدًا أقوى مني على هذا الأمر لكان أن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أليه».

نعم، هذا هو عمر أقدر المسلمين كما يعلم، وهو عمر الذي يستصغر نفسه إذا نظر الى المثل الأعلى والقدوة الفضلى، وهو إذن أكبر ما يكون بهذا الاستصغار..

لقد كان يُسمع، وهو خليفة، يقول كالساخر وما هو بساخر: «بخ بخ يا ابن الخطاب. أصبحت أمير المؤمنين!..»

أكان يقولها لأنه كان يجهل أنه أكفأ العرب للخلافة بعد صاحبيه؟.. كلا.. بل كان يقولها لأنه يعرف النظر إلى المثل الأعلى.. يعرف الاعجاب بما فوقه. يعرف

محمدًا ويعرف أن اللحاق به أمل لا يطال. يعرف الاعجاب بطلاً معجبًا ببطل، ويشاء فضله أن تحصى له هذه بين أصدق شواهد البطولة فيه.

ومن الخطأ أن يتوهم المتوهم أن عمر كان يتصاغر لأنه يشعر بصغره، ويتواضع لأنه يشعر بضعة فيه.

إن الصغير لا حاجة به إلى التصاغر لأنه صغير، وربما كانت حاجته الكبرى إلى مداراة شعوره الدخيل بتفخيم الرواء وتزويق الطلاء والتخايل بالمسكن والكساء..

وإنما كان عمر يتصاغر لأنه يشعر بعظمته ويكبح ما يخامره من اعتداد بنفسه، ومحال أن تمتلىء نفس بمثل هذه القوة ثم تخلو من شعور بقوتها واعتداد بقيمتها، فليس ذلك من معهود الطباع في حي من الأحياء، ولا نقصر القول على الانسان.

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء، لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر، فأبى أن يركب البرذون وهو يغالب عزة الفتح داخلاً إلى الشام دخول المنتصر، وقيل له في ذلك فصاح بهم: خلوا سبيل جملي! .. إنما الأمر من ها هنا، وأشار إلى السماء.

وكلما اعتز مَن حوله، من خاصة أهله وخلصاء رعاياه، بما يرونه فيه من بسطة السلطان وعلو الكلمة غض من اعتزازهم وأحضر في أذهانهم ما ينسيهم السلطان المبسوط والكلمة العالية، فقال لأصحابه يومًا وقد مر ببعض الشعاب على مقربة من مكة: « لقد رأيتني في هذه الشعاب أرعى إبل الخطاب، وكان غليظًا يتعبني، ثم أصبحت وليس فوقي أحد! ».

وضايقت هذه الكلمة ابنه فقال له: « ما حملك على ما قلت يا أمير المؤمنين؟ ».. قال: « إن أباك أعجبته نفسه فأحب أن يضعها ».

وانظر هنا الى كلمة « أمير المؤمنين » يقولها الابن، ثم انظر إلى كلمة « أباك » يقولها أمير المؤمنين.

ومن قبيل هذا ركوعه لله ذليلاً خاشعًا يوم أمر أبا سفيان أن ينقل الحجر من مكانه فنقله، فخشع لله الذي جعله يأمر أبا سفيان في شعاب مكة فيستمع لما أمر.

وليس هذا وأشباهه تصاغرًا يكشف الصغر، إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد.

* * *

بل يشاء بأس هذا البطل أن تتمادى فيه الصفات إلى غايتها وهي متناقضة في النظرة الأولى فإذا بهذا التمادي يردها إلى الوفاق والتكافؤ ولا يوسع ما بينها من ظواهر الاختلاف.

فما رأيناه أنه عادل يفوق العدول، وقوي يفوق الأقوياء.. فإذا العدل والقوة فيه وفقان متساندان لا يختصمان ولا يتناقضان.

ومما رأيناه أنه بطل تعجب بطولته الاصدقاء والخصوم، ثم هو في إعجابه بالبطولة كأنه خلو من دواعي الإعجاب.

وبقي من موافقاته النادرة أن الاعجاب عنده لا ينقض الاستقلال، ولا يهدد «الشخصية» بالفناء والزوال، فيعجب بمن يفوقه غاية الاعجاب ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ، ولا يتناقض الأمران..

فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر.

ولم يكن أحد مستقلاً برأيه في مشورة محمد أكبر من استقلال عمر. فهو آية الآيات على أن فضيلة الاعجاب لا تغض من صراحة الرأي عند ذي الرأي الصريح..

فما احجم عمر قط عن مصارحة النبي عليه السلام برأي يراه، ولو كان ذلك الرأي من أخص الخصائص التي يقف عندها الاستقلال.

فمحمد في بيته وهو صاحبه، ومحمد في شريعته وهو صاحبها، كان يستمع إلى عمر حين يقترح، وحين يستنزل الأحكام، وحين يستدعي الوحي في أمر من الأمور..

فكان يشير على النبي عليه السلام أن يحجب نساءه، ويبلغ ذلك إحدى امهات المسلمين زينب فتقول له: انك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل علينا في بيوتنا!.. وتخرج احداهن سودة وهي تحسب أن أحدًا لا يعرفها لاستتارها بالظلام ويعرفها بطول قامتها ويناديها: «عرفتك يا سودة!..» ليؤكد ضرورة الحجاب. فيؤمر المسلمون بعد ذلك ألا يسألوهن الا من وراء حجاب.

* * *

ولما هم النبي عليه السلام بالصلاة على عبدالله بن أبيّ كبير المنافقين يوم وفاته، تحوَّل عمر حتى قام في صدره، وأخذ يذكره مساوئ عبدالله وأقاويله في النكاية بالاسلام وحكم القرآن فيه وفي أمثاله أن «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» وألح في التذكير حتى أكثر على النبي عليه السلام وهو يبتسم ويقول له: أخِّرعني يا عمر، لو أعلم أني ان زدت على السبعين غفر له زدت». ثم صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه.. ثم ما كان الا يسيرًا كما قال عمر حتى نزلت هاتان الآيتان: «ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره».

وروى ابو هريرة عن النبي عليه السلام أنه أنفذه الى رهط من المسلمين فقال له: «اذهب اليهم فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله الا الله مستيقنًا بها قلبه فبَشِّره بالجنة» فكان أول من لقي عمر. فصده وعاد به الى النبي يسأله: «يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أبعثت أبا هريرة من لقي يشهد أن لا اله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشّره بالجنة؟.. قال النبي: نعم.. فلم يتريث عمر أن قال: «فلا تفعل يا رسول الله!.. فاني أخشى أن يكل الناس عليها. فخلهم يعملون» فوافقه عليه السلام وقال: «فخلهم!»

وفي التشريع أو التحليل والتحريم كان عمر لا يقنع حتى يصل الى القول الفصل فيما يستفسر عنه ويتردد في حكمه، فما زال يسأل عن الخمر حتى حرمت وبطل فيها الخلاف. وهو هو الذي كانت الخمر شهوة له في الجاهلية يحبها ويكثر منها. ولو شاء لالتمس الرخصة فيها ولم يكثر من السؤال عن تحريمها، ففي سؤاله عنها وحذره منها فضل أكبر من الاستقلال بالرأي والاخلاص في المراجعة، وهو فضل الغلبة على النفس والتحصن من الغواية بالامر الذي لا هوادة فيه.

وجرى صلح الحديبية الذي كان ظاهر الغبن فيه على المسلمين وظاهر الفوز فيه للمشركين. فيستطيع قارئ التاريخ قبل أن يحصي أسماء المعارضين للصلح والصابرين عليه أن يعلم أين كان عمر بين الفريقين. فقد غمَّه هذا الصلح غمًّا شديدًا وذهب الى أبي بكر يراجعه ويناجيه: علام نعطي الدنية في ديننا؟.. فأجابه أبو بكر «يا عمر الزم غرزك (اي رحلك) فاني أشهد أنه رسول الله. وردد عمر إنه ليشهد انه رسول الله ثم ذهب في بعض الروايات إليه عليه الصلاة والسلام فسأله: ألسنا يا رسول الله على الحق وهم على الباطل؟.. أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ ورسول الله يجيبه: بلى!.. فيعود فيسأل: علام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟..

فلما ناداه: ابن الخطاب!.. اني رسول الله!.. ولن يضيعني الله أبدًا، ثم علم انه الفتح المنتظر، ثاب الى الرضى وكفّ عن السؤال.

والمحنة على ما هي عليه أعظم مما يطيقه صبر عمر وتسكن اليه سورة طبعه، فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذاك فيردوا من جاءهم من قريش ولا ترد اليهم قريش أحدًا ممن يجيئون اليها، وان يكتب النبي اسمه في عقد الصلح فلا يكتب فيه انه رسول الله، وهذه محنة وردت على حمية عمر بالوارد الجلل الذي ليس أقسى منه ولا أمر على هذه الحمية العزوف. ولكن الصلح لم ينته حتى تفاقمت المحنة وادلهمت الغاشية كأن ما ابتلاه منها لا يكفيه.. فبينما هم يكتبون اذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في الحديد قد انفلت الى رسول الله. فقام اليه سهيل – وكان وكيل المشركين في عقد الصلح – فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ليدفع به الى قريش، وأبو جندل يصيح: يا معشر المسلمين، أأردّ الى المشركين يفتنونني في ديني؟.. فواساه النبي ودعاه الى الصبر والاحتساب. ووثب عمر اليه يمشي الى جنبه ويدني منه قائم السيف ويقول له: اصبر يا أبا جندل فانما هم المشركون. وإنما دم أحدهم دم كلب، ورجا – كما قال بعد ذلك – أن يأخذ أبو جندل سيفه فيضرب به أباه... قال: ولكن الرجل ضن بأبيه ونفذت القضية.

فالمحنة أعظم مما تطيقه الحمية العمرية بغير وازع من هداية نبوية. ولأيًا ما سكنت نفسه واطمأنت الى حكمة سيده ومعلمه وهاديه. ولا سيما حين ناداه: ابن الخطاب!..

اني رسول الله ولن يضيعني الله أبدًا..

هذه المراجعة كانت من خلائق عمر التي لا يحيد عنها ولا يأباها النبي عليه السلام، وكثيرًا ما جاراه واستحب ما أشار به وعارض فيه. فلا جرم يراجع النبي في كل عمل أو رأي لم يفهم مأتاه ومرماه ما أمكنته المراجعة وما قلقت خواطره حتى تثوب إلى قرار. اللهم الا أن تستعصي المراجعة ويعظم الخطر، فهناك تأتي الخليقة العمرية بآية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذي يضطلع بجلائل المهمات. فلما دخل النبي عليه السلام في غمرة الموت، ودعا بِطِرس يملي على المسلمين كتابًا يسترشدون به بعده أشفق عمر من مراجعته فيما سيكتب وهو جد خطير، وقال: إن النبي غلبه الوجع؛ وعندنا كتاب الله حسبنا. ومال النبي الى رأيه فلم يعد الى طلب الطرس واملاء الكتاب. ولو قد علم النبي أن الكتاب ضرورة لا محيص عنها لكان عمر يومئذ أول المجيبين.

وكانت هذه سنته في حياة النبي وبعد موته في كل عمل لا يستريح اليه، فلم يحجم عن مراجعة أمره حيًا وميتًا في مسألة ليست من مسائل الوحي الذي فيه فصل الخطاب، وما كانت المسألة مسألة رأي فهو ناهض بها برأيه حتى يؤمن بخطئه أو يرده عن المعارضة أمر مطاع..

كذلك صنع في قيادة أُسامة بن زيد قائد الجيش الى البلقاء وفيه جلة الصحابة من كبار السن والمقام. فقد ولاه النبي القيادة ومات عليه السلام وهو في أول الطريق. فقال أسامة لعمر: «ارجع الى خليفة رسول الله ﷺ فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس، فان معي وجوه الناس، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل(١)رسول الله وثقل المسلمين أن يتخطفهم المشركون» وقالت الأنصار: فإن أبى الا أن نمضي فأبلغه عنا واطلب اليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سنًا من أسامة».

وغضب أبو بكر وكان جالسًا فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف به: ثكلتك امك وعدمتك يا ابن الخطاب!.. استعمله رسول الله وتأمرني أن أنزعه؟..

(١) عصا لها زج كالرمح الصغير.

فوجبت الطاعة، لأنه أبرأ ذمته بالمراجعة وسمع أمر الرئيس الذي لا رجعة فيه، وعمر جندي متى صرح له الأمر من صاحب الأمر لم يبق له الا أن يطيع.

وختمت سنة النبي بوفاته فلم يكن بين الصحابة أحد أحرص على هذه السنة وألزم لها وأكثر رجوعًا اليها من عمر، ولم تكن له وصية مقدمة على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله. الا أنه مع هذا لم يكن يغفل عن العلل اذا وجب البحث عن العلة التي وراء السنة النبوية، فخالف أبا بكر رضي الله عنه في اقطاعه الأرض لعيينة بن حصن والأقرع بن حابس وقال لهما: «إن رسول الله كان يتألفكما على الاسلام وهو يومئذ ذليل، وان الله قد أعز الاسلام.. فاذهبا فاجهدا جهدكما...»

فقد علم سنة النبي مع «المؤلفة قلوبهم» ولم يغفل عن سببها وموقتها، فهي سنة تطاع لحكمتها ولا توضع في غير موضعها، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التي ألفوها من صاحب الرسالة، اذا تغيرت الحكمة واختلفت العلة، واستغنى الاسلام عن ناصرين تتألفهم العطايا والانفال.

ولمثل هذا السبب – ولا شك – نهى عن زواج المتعة ونهى عن التحلل من بعض مناسك الحج ولم يكن منهيًا عنهما كل النهي في حياة النبي عليه السلام. فكان الرجل يتزوج بالمرأة لأجل معلوم ثم يتركها. وكان منهم من ينوي الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه، فنهى عنهما عمر في ايام خلافته وقال: «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما».

وموافقات عمر للقرآن وللسنة كثيرة لا يدعونا المقام هنا إلى إحصائها واستيفائها، وكذلك مراجعاته ومناقشاته فيما يرد عليه من أحكام لا تنجلي له مآتيها ومراميها، فحسبنا منها دلائل استقلاله وصراحة عقله فيما سردناه؛ وحسب الاسلام فخرًا أن يؤمن به الانسان إيمان عمر ثم يستقل برأيه وطبعه استقلال عمر. فالايمان في أقصاه لا يعطل الرأي المستقل في أقصاه، وكل صفة في عمر فهي مستقصية لا وسط فيها. إذا آمن فذلك غاية الايمان، وإذا استقل فذلك غاية الاستقلال، وإذا أعجب فذلك غاية الإعجاب.. وإن الظفر الذي يظفره علم الاخلاق من دراسته لمبعثه هذا

الشاهد من الصفات التي تتناقض في ظاهرها وهي على عهدنا بها في عُمر، متفقات متساندات لا تستغني واحدة منها عن سائرها..

* * *

فإن لم يكن في دراسة عمر إلا أن نرى رجلاً عادلاً بالغًا في عدله، قويًا بالغًا في قوته، معجبًا بالبطولة بالغًا في إعجابه، مستقلاً بالرأي بالغًا في استقلاله، لكفى بذلك ظفرًا لعلم الاخلاق، وكفى بسيرة واحدة أن تقرر لنا هذه الحقائق التي تستكثر على عشرات السير، وهي أن القوة لا تناقض العدل، وان البطولة لا تناقض الاعجاب، وان الاعجاب لا يناقض الاستقلال، وتلك الحقائق أثبت في عمر من معارف بدنه وملامح سيماه.

وكانت مودة النبي لعمر كمودة عمر للنبي شرفًا له من جانبيه، وشهادة لعظمته وعظمة معلمه ومؤدبه وهاديه.

كانت نظرة محمد اليه نظرة عالية لا تعلوها نظرة أحد من أصحابه فلم يكن أحد يكبر عمر كما كان يكبره أكبر عارفيه، ولم يكن رضاه عن مخالفاته ومراجعاته بأقل من رضاه عن موافقاته وتسليماته.. لأنه كان ينظر إلى بواعث هذه وتلك فيحمدها ويرجو للاسلام خيرًا منها، بل يدخر للاسلام سورته كما يدخر له تسليمه وطاعته، ويسوسه في رفق وكرامة سياسة المعلم لتلميذه الذي يعينه ويستعين بغيرته، ويروضه رياضة الامام لمريده الذي يهيئه للامامة بعد حين، ويشجعه بقبول الحسن من رأيه تشجيع من يثبت فيه حسن الرأي ويستزيده منه.

ولا يتأتى أن ينظر النبي الملهم إلى عمر دون أن يرى فيه أولى متشابهاته للطبائع النبوية وهي الالهام الديني والبصيرة الروحية، فكان عليه السلام يقول فيه: « قد كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي أحد فعمر».

ومن قوله في بعض ما نقل عنه عليه السلام: « لوكان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب » وقوله: « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه».. وقوله: « عمر بن الخطاب معي حيث أحب، وأنا معه حيث يحب، والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان».

وتلك لمحات نبي ملهم إلى بصيرة ملهمة تقارب بصيرة الأنبياء.. وإن في هذه اللمحات لمعرفة بالنفس ونفاذًا إلى الضمير، من أجلها كان محمد مصلح نفوس وهادي ضمائر، وفاتح عهد روحي في تاريخ الانسان.

ومن تحصيل الحاصل أن نقول ان محمدًا قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر وكل خليقة من خلائق طباعه. وراقبه قبل إسلامه وبعد اسلامه فلم تفته كبيرة ولا صغيرة من مواطن العظمة فيه، إلا أنه لم يحمد منه شيئًا كما حمد حبه للحق وكراهته للباطل، فهي الخصلة التي تلاقيا فيها وتقاربا من قبلها، وإن كان محمد لأرحب صدرًا وأعلم بالناس من أن يكلف صاحبه أن يشبهه كل الشبه في علاج الحق والباطل، فلا بد من فارق بين الرجلين هو الفارق الذي لا بد منه بين المعلم والمريد، وبين الامام والمأموم..

ولا نخالنا نلمس هذا الفارق كما نلمسه من قصة الأسود بن شريع ذلك الشاعر الذي كان ينشد النبي بعض الأماديح فاستنصته مرتين إذ دخل عليهما عمر والشاعر لا يعرفه. فصاح: واثكلاه!.. من هذا الذي أسكت له عند النبي؟.. فقال النبي: «هذا عمر.. هذا رجل لا يحب الباطل»..

وتلك قصة تكبر عمر مرة وتكبر النبي مرات، فلا يسمعها السامع فيخطر له أن محمدًا كان يقبل الباطل الذي يأباه عمر. أوكان يهوى اللغو الذي يعرض عمر عن سماعه.. وانما يسمعها فيعلم أي الرجلين يهدي صاحبه في مناهج الحق ويدربه على كراهة الباطل، ويعلم أن الامام يطيق ما لا يطيقه المريد ويتسع صدره لما تضيق به صدور تابعيه، وأن محمدًا أراد أن يعوِّد الناس مهابة عمر، وأن يستبقي لعمر سورته في محاربة الضلال، والأيام كفيلة بترويض تلك السورة فيما ينبغي أن تراض عليه..

وهنا يتجلى مذهبان في كراهية الباطل، ويتجلى فارق واضح بين مذهب المعلم ومذهب المريد:

فعمر كان ينكر الباطل إنكار المحارب ويرفع له سلاحه حيثما رآه، ومحمد كان ينكره ولا يرفع له سلاحه حيثما رآه.. لأنه يعلم ضروبًا من الباطل وضروبًا من الانكار.

ومن الانكار أحيانًا أن يتجاوز عنه، وأن يشفق عليه إشفاق الرجل على سخف الطفل الصغير، وأن يتربص به الأيام حتى يزول وأن يعالجه بسلاح المحارب وبغير سلاح المحارب، وهو بذلك قد أعد له ضروبًا من الانكار، وكان أكمل عدة له من الراصدين له في ميدان واحد..

أنقول ان الفارق بين محمد وعمر في هذا هو الفارق بين نبي وخليفة ! ؟

إن قلنا ذلك فقد قلنا حقًا جامعًا لا شبهة فيه، ولكننا لا نعدو به تحصيل الحاصل وتكرير الاسماء.. فمحمد نبي وعمر خليفة ما في ذلك خلاف.. ولا بد بينهما من فارق؛ ما في ذلك خبر جديد. فما هو الفارق الذي يعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات ؟

الفارق فيما نرى هو الفارق بين إنسان عظيم ورجل عظيم..

فالنبي لا يكون رجلاً عظيمًا وكفى. بل لا بد أن يكون إنسانًا عظيمًا فيه كل خصائص الانسانية الشاملة التي تعم الرجولة والانوثة والاقوياء والضعفاء، وتهيئه للفهم عن كل جانب من جوانب بني آدم. فيكون عارفًا بها وان لم يكن متصفًا بها، قادرًا على علاجها وإن لم يكن معرضًا لأدوائها، شاملاً لها بعطفه وإن كان ينكرها بفكره وروحه. لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الانداد، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة. وأخبر بسعة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء، لأنه يملك مثلها آفاقًا كآفاقها، هي آفاق الروح.

ومن الصغائر الآدمية التي كثيرًا ما يطيقها الانسان العظيم، ويبرم بها الرجل العظيم كل غرور صبياني يحيك بنفوس الناس، وهو ضروب ليست لها نهاية : غرور الشاعر بأماديحه، وغرور الفنان بصنعته، وغرور المرأة بجمالها، وغرور الشيخ بتراثه، وغرور الأحمق بخيلائه، وغرور الجاهل بعلمه.. وفي كل ضرب من هذه الضروب كان بين محمد وعمر فارق واضح وتفاوت محسوس، وكانت بينهما دروس تجري بها الحوادث تعليمًا وهدى كما تجري عرضًا غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين.

وعمر رضي الله عنه قد استفاد من دروس معلمه وهاديه في هذه الضروب شتى الفوائد، كما ظهر من سياسته في أيام خلافته ومن مراجعة نفسه والنبي عليه السلام بقيد الحياة.

فقد أشار على النبي بقتل عبدالله بن أبيّ بن سلول حين مشى بالفتنة بين المسلمين. فأبى النبي وترك عبدالله يمضي في شططه حتى أنكره قومه وعنفوه، وتصدى له من صلبه من يريد له الموت، فقال النبي لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟.. أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته، قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وكان عمر يستكثر صلاة النبي على عبدالله بن أبيّ بعد موته ويستعظم أن يهب له قميصه وأن يكفنه أهله في ذلك القميص، وكان النبي يرعى في ذلك حق ابنه الذي أخلص في إسلامه وبلغ من اخلاصه انه اقترح على النبي قتل أبيه، وسئل النبي كما جاء في بعض الروايات: لم وجهت اليه بقميصك وهو كافر؟.. فقال: ان قميصي لن يغني عنه من الله شيئًا، وانني اؤمل من الله أن يدخل في الاسلام كثيرًا بهذا السبب!.. فقيل ان ألفًا من الخزرج أسلموا لما رأوا زعيمهم يطلب الاستشفاء بثوب الرسول، وخرجت الصحابة وعمر في طليعتها بعبرة باقية من هذا الدرس النبوي الحكيم.

وشبيه بدرس عبدالله بن أبي درس الخطيب المفوه سهيل بن عمرو الذي أسر في بدر فأشار عمر على النبي بكسر ثنيتيه السفليين ليعجز عن الكلام، إذ كان مشقوق الشفة السفلى.. فأبى النبي «عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه» فما زال وما زال عمر حتى رآه في حروب الردة يقطع بلسانه كما يقطع السيف، فحمد له ذلك المقام.

وجاء الفتح بعد صلح الحديبية، فرأى عمر كما رأى المعارضون معه أن قريشًا خسرت ولم تربح بالصلح الذي عارضوه، وان المسلمين ربحوا ولم يخسروا بقبوله. وانهم زادوا عددًا وزادوا حلفاء من غير المسلمين، وان الذين رفضهم النبي من تابعيه عملاً بالصلح لم ينفعوا قريشًا بل كانوا بلاء عليها أشد من بلاء القتال. وبدا ذلك من مبدأ الأمر لعمر فاعتبر به وقال: «ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا».

وتجتمع خلاصة هذه الدروس كلها في خبر واحد من أخبار عمر بعد ولايته الخلافة. وذلك حين بلغوه فتح « تستر » وذكروا له أن رجلاً ارتد عن الاسلام فقتلوه، فلامهم على قتله وقال لهم: « هلا أدخلتموه بيتًا وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفًا فاستتبتموه؟.. اللهم اني لم أشهد ولم آمر ولم أرض اذ بلغني ».

فهذا عمر تلميذ محمد في الاسلام، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول ومن على شاكلته من المنافقين والمشركين، وهذا عمر المستفيد بما وعى من تلك الدروس، ومعنى ذلك جميعه أن محمدًا أعظم من عمر، وليس معناه أن عمر لم يكن بعظيم.

* * *

ومن تحصيل الحاصل أن نقول ان النبي عليه السلام كان يعلم ما يحتاج اليه صاحبه وما يستغني عنه من الدروس. فعمر لم يعوزه قط درس قوي يعلمه حب الحق وكراهة الباطل لأنها خليقة متمكنة منه أصيلة فيه موشوجة بطبعه، ولكنه قد يعوزه حينًا بعد حين أن يتعلم الصبر على الباطل ولا سيا في فوعة الشباب، وألا يأسى على الحق أن تفوته معركة زائلة في صراعه الدائم مع خصمه القديم، فهي معركة لا تضيع بصدمة ولا تؤخذ بهجمة. ولا تزال سجالاً منظورة العواقب في ساعة النصر وساعة الهزيمة على السواء!..

وربما أعوزه ما يعوز الأقوياء في معظم الأحايين، وهو أن يذكروا أن الناس جميعًا ليسوا بأقوياء، وأن الناس جميعًا ليسوا بعمر بن الخطاب. فاذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرة واحدة، فقد يشقُّ ذلك على آخرين، واذا استطاع أن يتصدى للموت في كل لحظة فليس ذلك في وسع كل مسلم، وقلما يستحضر الأقوياء هذه الحقيقة الا بعد تذكير وروية. أما على البداهة فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلاً لما هم أهل له وكفوءًا لما هم قادرون عليه، ولهم من الشرف في نسيان هذه الحقيقة فوق ما لهم من الشرف في تذكارها ودوام استحضارها.

وقد كان تفكير عمر كله على البداهة في عهد النبي عليه السلام، فكان يفضي اليه بما يوحيه عفو خاطره وتمليه بادرة فكره، مطمئنًا الى مرجع الرأي ومقطع القول

بين يديه، شاعرًا بواجبه الأول أحسن شعور في هذا المقام ، لأنه شعور الرجل الكريم الذي لا يضن بشيء من عونه فهو يعرض أقصى ما عنده من البأس ويدع لصاحب الأمر أن يكتفي باليسير منه اذا شاء، ولكن ليس عليه هو أن يعرض اليسير ويترك لصاحب الأمر أن يطلب الكثير..

مثل عمر في هذه المواقف مثل صاحب المال تنزل الضائقة الحازبة فيبسط ما عنده من المال جميعًا ويدع للوالي القائم بالتدبير أن يختار من ماله مقدار ما يريد، وذلك أفضل الحسنيين وأكرم الواجبين، وهو الواجب الذي يليق بعُمر في صحبة الرسول..

ولا يحسبن قارئ اننا نعتسف التأويل والتخريج لننظر الى عمر في أجمل الصور ونوجه أعماله أحسن توجيه. فما نقوله هنا لا يعدو تفسير عمر نفسه لما اتصف به من الشدة في عهد رسول الله وتفسيره، كما قال غير مرة انه كان سيفًا للرسول إن شاء ضرب به وإن شاء أغمده في قرابه، وانه كان جلوازه القائم بين يديه، وليس من شأن الجلواز أن يمسك كثيرًا أو قليلاً من بأسه حتى يؤمر بامساكه، ويرد الى الهوادة واللين.

بل هذا الذي نقوله هو الذي قاله أبو بكر رضي الله عنه في شدة عمر ولينه، فكلما تحدثوا اليه بغلظته قال: انما يشتد لأنه يراني لينًا، ولا غلظة على الضعفاء فيه.

فكان جميلاً بعمر أن يسهو عن تلك الحقيقة، وأن يحتاج فيها الى تذكير واستحضار، وكان أفضل واجبيه لا مراء ان يعرض البأس حتى يؤبى، ثم يثوب الى اللين ولا جناح عليه.

وهو اليقين الذي لا يخامرنا الشك فيه أن عمر كان خليقًا أن يفهم تلك الحقيقة بتفصيلاتها لو جعل باله اليها ولم يجعل باله الى تقديم ما عنده «والجود بأقصى جوده» في انتظار القول الفاصل من رأي النبي عليه السلام، ولولا استعداده لفهم تلك الحقيقة وما شابهها لما انتفع بالقدرة ولا أغنت معه المثل والتجاريب.

ومهما يكن من حاجته الى دروس معلمه وهاديه فالذي نعتقده أن مكانه من الخلافة لم تقرره الحاجة الى تلك الدروس، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد في هذا الاعتبار سواء منهم الخلفاء الراشدون وغير الخلفاء الراشدين. فما من رجل كان

بين اصحاب محمد عليه السلام الا كان مفتقرًا الى جانب من جوانب هديه وتهذيبه وتقويمه، وما كان عمر على التخصيص بأشد افتقارًا الى ذلك من رفاقه وتابعيه وإن اختلف ما يعوزهم من مواضع الهدي والتهذيب، والتقويم.

وواضح مع هذا أن دعوة النبي عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس في مرض وفاته لم تكن بالمصادفة ولا بالاختيار الذي يتساوى فيه أبو بكر وعمر في ذلك المقام، فقد دعاه ثم دعاه حتى وصل الأمر اليه رضي الله عنه فلباه، وتفصيل ذلك كما جاء في رواية البخاري أن النبي اشتد عليه المرض فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس. قالت عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر رجل رقيق القلب اذا قام في مقامك لا يكاد يسمع الناس من البكاء.. فلو أمرت عمر؟.. فعاد النبي يقول: مروا ابا بكر فليصل!.. فعاودته، فقال مرة أخرى: مروه فليصل.. إنكن صواحب يوسف!..

* * *

وحدث عبدالله بن زمعة ان بلالاً دعا النبي الى الصلاة فقال: مروا من يصلي بالناس «فخرجت فاذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائبًا. فقلت: قم يا عمر فَصلِّ بالناس. فقام، فلما كبر سمع رسول الله ﷺ صوته، وكان عمر رجلاً مجهرًا. فقال: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون. فبعث الى ابي بكر فجاء بعد ان صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس».

قال عبدالله بن زمعة ان عمر لقيني فقال لي: ويحك!.. ماذا صنعت بي يا ابن أبي زمعة؟.. والله ما ظننت حين أمرتني الا أن رسول الله ﷺ أمرك. ولولا ذلك ما صليت بالناس... قلت: والله ما أمرني رسول الله ﷺ بذلك!.. ولكن حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة.

والواضح من كلتا الروايتين أن النبي عليه السلام قصد الى اختيار أبي بكر للقيام في مقامه من إمامة المسلمين وضمن ذلك ما ضمنه من معنى الاستخلاف والتقديم.

فعلى أي وجه نفهم هذا الاختيار الذي صدر عن قصد وروية ولم يصدر عن مصادفة واتفاق؟.. وعلى أي وجه تساءل النبي عليه السلام حين سمع صوت عمر

ولم يسمع صوت أبي بكر فقال : « يأبى الله ذلك والمسلمون » ؟

إننا لا نفهم ذلك إلا على وجه واحد يجمل بمحمد ويجمل بأبي بكر ويجمل بعمر ويجمل بالمسلمين :

فمن البديه أن ينظر النبي في اختيار خليفته إلى جميع الاعتبارات التي تدخل في الحسبان ، ولا يقنع بالنظر إلى اعتبار واحد.

فإذا نظر النبي إلى جميع الاعتبارات فأي غضاضة على عمر أن يقع الاختيار على أبي بكر ولا يقع عليه ؟.

إن اختيار أبي بكر يجمع للاسلام فضائل الرجلين ، ولا غضاضة فيه على أحدهما ولا على المسلمين. ولكن الغضاضة أن يتأخر أبو بكر وهو أسن وأسبق إلى الاسلام وثاني اثنين في الغار، وأقمن أن تبطل حوله منافسة الأنداد ، وله الرأي الصائب والشجاعة المأثورة والايمان الثابت والمسالمة المرضية والحق الظاهر في الايثار كلما قوبل بغيره من الحقوق.

ومع هذا الرجحان الذي انفرد به أبو بكر ترجيح آخر لاستخلافه في الموقف الذي كان منظورًا بعد موت النبي عليه السلام ، وهو موقف رضى ومسالمة بين المسلمين يغنيان إذا جرت الأمور في مجراها الطيب المأمون. فاذا تأزمت واضطربت ونفدت حيلة اللين حتى نبذه ابو بكر في رفقه وهوادته فذلك إذن موطن الاجماع ، واذا صلب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلين في الأمر سواه فصلابتهم أقمن إذن أن تنعطف بلينه الى الاجماع الذي لا شذوذ فيه.

فالنبي عليه السلام قد حسب للعواقب كل حساب ، وقد نظر في استخلافه الى كل اعتبار، وقد وازن بين أمور كثيرة ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة.

ومما نظر اليه عليه السلام أن عمر أصغر من أبي بكر بعشر سنوات أو نحو ذلك ، فدور أبي بكر لا يحجب دور عمر، وإذا انتفع الاسلام بمزايا أبي بكر في حينها الذي

هو أحوج اليها فسينتفع الاسلام بمزايا عمر في الحين الذي يتولاه فيه، يوم تغني الصلابة في مدافعة الأعداء ما أغناه الرفق في تأليف الاوداء.

ولا يحسبن قارئ هنا أيضًا أننا نستخلص النتائج من التاريخ وندرك ما كان بعد أن كان، فالواقع المنصوص عليه ان الذي رأيناه بعد وقوعه قد كان منظورًا اليه قبل أن ينكشف عنه الغيب. وقد نظر اليه النبي عليه السلام فقال: «أُريت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوبًا أو ذنوبين نزعًا ضعيفًا، والله يغفر له ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا فلم أر عبقريًا يفري فريه حتى روي الناس وضربوا بعطن»(١). ولم يخف معنى هذه الرؤيا على معبريها لأنها لا تحتمل غير تعبير واحد، وهو الذي أشار اليه الشافعي رحمه الله ففسر ضعف النزع بقصر المدة وعجلة الموت والاشتغال بحرب أهل الردة عن «الافتتاح والازدياد الذي بلغه عمر في طول مدته».

* * *

ويجوز أن النبي عليه السلام قد أدخل في حسابه تقديرات أخرى من هذا القبيل لا يحيط بها أبناء عصره ولا نراها نحن في عصرنا. فلهذه المسائل في جميع العصور نواحيها الموضعية ونواحيها الخاصة التي لا يدركها كل من عاش بينها ولا يتأتى نقلها بالكتابة والتدوين. ومتى كانت هذه التقديرات التي فصلت في مسألة الترشيح للخلافة، فأي غضاضة فيها على عمر..؟ انها شيء لا يتناوله وحده وليس لكفاءة أبي بكر ولا لكفاءته هو كل اليد فيه، وان الذي حدث لا يعدو أن يكون موازنة بين أحوال ثم تقدمًا للصالح في تلك الأحوال، أو هو تأخير موعد ومناسبة وليس بتأخير حق وكفاءة، فأبو بكر كفؤ للخلافة، وعمر كفؤ للخلافة، ولكن تقديم أبي بكر أصلح وأولى وأوفق لأحوال الزمن ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين.

---

(١) القليب: البئر. والذنوب: الدلو المملوءة. والعطن: مبرك الابل حول الماء.

وانك لتكونن على ثقة من حقيقة واحدة في رهط محمد تجزم بها وأنت آمن أن تخالف التاريخ فيما بطن وفيما ظهر... وذلك انه عليه السلام لم يبرم قط أمرًا فيه غضاضة على أحد من أصحابه، ولا سيما في مسألة الاستخلاف أو التقديم للامامة والصلاة بالناس، فكل الذي حدث فيها فهو الذي يجمل بالنبي من تقدير وتدبير، ويجمل بصاحبيه من ايثار وتوقير، ويجمل بالاسلام من تمكين وتعمير، وانتفاع بعمل كل عامل واقتدار كل قدير.

* * *

بقي جانب من جوانب العلاقة بين النبي وعمر، لا يُسكت عنه لكثرة ما قيل فيه، فضلاً عن وجوب النظر فيه لأنه يتمم العلم بتلك العلاقة ويزيدنا فهمًا لها واستقصاء لمداها واطلاعًا على طريقة عمر في الموازنة بين الواجبات والشئون حيثما اشتجرت بين يديه، ونريد به جانب العلاقة بين عمر وآل البيت وبين عمر وابني عم النبي الكبيرين علي وابن عباس بعد انتقال النبي الى الرفيق الأعلى..

فالذين أولعوا في التاريخ بخلق القضايا والمخاصمات يقولون كثيراً في هذه العلاقة ويمثلون عمر على صورة الرجل الذي كان يتحدى بني هاشم ويناجزهم مناجزة لعصبية فيه عليهم. ولكنهم لا يذكرون من الوقائع ما يعزز شبهة أو يرجح بظن في هذه الوجهة. وكل ما حفظته لنا أنباء العصر فإنما تخلص بنا الى الخلاصة التي تجمل بعُمَر وتحمد منه. وهي الوفاء المحض لذكرى النبي عليه السلام في آله وخاصة بيته، والأمانة المحض لمصلحة العرب والاسلام مقدمة على كل مصلحة خاصة أو عامة، وكل ما عدا ذلك لغو وباطل.

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبي النصيب الأوفى والمكان المقدم بين الصحابة. وكان لهم التفضيل في كل حق من حقوق المسلمين حسبما كان بينهم وبينه عليه السلام من رحم وقرابة، وفضلهم عمر على أقرب الناس اليه في اللقاء والحفاوة، فكان في بعض الأيام ينتظر الحسين بن علي رضي الله عنه فذهب اليه الحسين فلقي عبدالله بن عمر في الطريق فسأله: من أين جئت؟.. قال. استأذنت على عمر فلم يأذن لي. فرجع

الحسين ولم يذهب اليه .. ثم لقيه عمر معاتبًا وسأله : ما منعك يا حسين أن تأتيني ؟ .. قال : قد أتيتك ولكن أخبرني عبدالله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت .. فعزَّ ذلك على عمر وقال له : وأنت عندي مثله ؟ .. وأنت عندي مثله ؟ .. وهل أنبت الشعر على الرأس غيركم ؟ ..

* * *

وكسا عمر أصحاب النبي فلم يكن في الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضي الله عنهما. فبعث إلى اليمن فأتى لهما بكسوة تصلح لهما وقال حين رآها : الآن طابت نفسي ! ..

وسافر الى الشام فاستخلف عليًا رضي الله عنه على المدينة وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع اليه في قضائه متحرجًا من دعوته اليه حين يحتاج إلى سؤاله : استفتاه بعضهم في مجلسه فقال : اتبعوني ، وأخذهم إلى علي فذكر له المسألة فقال علي : ألا أرسلت اليَّ ؟ .. قال عمر : أنا أحق باتيانك ..

وكذلك كان يستفتي ابن عباس في الدين والأدب ، ولا يلقاه باحثًا مسترسلاً في الحديث الا قال له معجبًا متبسطًا : غص غواص ! .. وقلما سئل في أمر وابن عباس حاضر الا قال يشير اليه : عليكم بالخبير بها .

ولم يحجم عن توليتهم الولايات إلا كما أحجم عن تولية الجلة من الصحابة ورؤوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة وصانهم عن محاسبته وعتابه . وفي ذلك يقول لابن عباس .. اني رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم ... والله ما أدري أصرفكم عن العمل أو رفعكم عنه وأنتم أهل ذلك ؟ .. أم خشي أن تعاونوا لمكانتكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب ؟

أما مسألة الخلافة فالذي يزعمه فيها الذين يخوضون في القضايا والمخاصمات أن عمر رضي الله عنه تعمد أن يحول بين علي والخلافة بصرفه النبي عن كتابة الكتاب الذي أراد أن يبسط فيه وصاياه فلا يضل المسلمون بعده ، ويزعمون انه هو قد حال بين علي والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها .

واستكثروا من عمر صرامته في دعوة علي الى مبايعة أبي بكر كما جاء في بعض الروايات التي ترجح صحتها، وخلاصتها « أن عمر أتى منزل علي وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال : والله لأحرقن عليكم الدار أو لتخرجن الى البيعة، فخرج الزبير مصلتًا بالسيف فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه ... » أو قال لهما في رواية أخرى : « والله لتبايعان وأنتما طائعان أو لتبايعان وأنتما كارهان » .

فاستكثر المستكثرون هذه الصرامة، وعدُّوها من اصرار عمر على الاجحاف بعلي وإقصاء بني هاشم عن الخلافة..

أما القول بأن عمر هو الذي حال بين النبي عليه السلام والتوصية باختيار علي للخلافة بعده، فهو قول من السخف بحيث يسيء الى كل ذي شأن في هذه المسألة، ولا تقتصر مساءته على عمر ومن رأى في المسألة مثل رأيه..

فالنبي عليه السلام لم يدع بالكتاب الذي طلبه ليوصي بخلافة علي أو خلافة غيره. لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج الى أكثر من كلمة تقال، أو اشارة كالاشارة التي فهم المسلمون منها ايثار أبي بكر بالتقديم، وهي اشارته اليه أن يصلي بالناس..

وقد عاش النبي بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبه، ولم يَكُن بين علي وبين لقائه حائل، وكانت السيدة فاطمة زوج علي عنده الى أن فاضت نفسه الشريفة. فلو شاء لدعا به وعهد اليه..

وفضلاً عن هذا السكوت الذي لا إكراه فيه نرجع الى كل سابقة من سنن النبي في تولية الولاة فنرى انه كان يجنب « آله الولاية ويمنع وراثة الانبياء » وهذه السنة مع هذا السكوت لا يدلان على أن محمدًا صلوات الله عليه أراد خلافة علي فحيل بينه وبين الجهر بما أراد..

ولم يعتمد عمر على الشورى في اختيار الخليفة بعده وله مندوحة عنها. فقد رأى من أصحابه – كما قال – حرصًا سيئًا وخلافا لا يحسمه رأي واحد، وكانت حيرته عظيمة، بين الاستخلاف وترك الاستخلاف، فلما قيل له وهو طعين يودع الحياة : ماذا تقول لله عزّ وجل اذا لقيته ولم تستخلف على عباده، أصابته كآبة.. ثم نكّس

رأسه وقال : « ان الله تعالى حافظ الدين. وأي ذلك أفعل فقد سن لي. إن لم استخلف فان رسول الله ﷺ لم يستخلف، وان استخلفت فقد استخلف أبو بكر ».

* * *

واختار للشورى في أمر الخلافة أناسًا ليس بين المسلمين أولى منهم بالاختيار، وكأنهم كانوا مسمين بأسمائهم لهذه المهمة لو لم يرشحهم هو، لرشحهم لها كل مختار.

ولم يكن الفكاك من التبعة هو الذي أوحى اليه أن ينفض يديه ويلقي بالعبء على عواتق غيره.. فعُمَر لا ينجو بنفسه ليوقع أحدًا فيما يحاول النجاة منه، ولكنه قدر ان الرجل الذي تختاره كثرة المحكمين هو أولى أن ينعقد عليه الاجماع وينحسم بترجيحه النزاع. فمن خرج عليه فهو باغي فتنة ينبعها الاقلون ويردعها الاكثرون.

وكان مع هذا يود لو اجتمع الرأي على اختيار عليّ بعد المشاورة، فقال لابنه: لو ولوها الاجلح « أي المنحسر الشعر » لسلك بهم الطريق. فسأله ابنه: فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدم عليًا؟.. قال أكره أن أحملها حيًا وميتًا.

وفيما عدا الاستخلاف بعد النبي، والاستخلاف بعد عُمر، فالسياسة التي جرى عليها عمر كانت كلها سياسة عامة قائمة على أساس عام لا تفرقة فيها بين بني هاشم وغيرهم ولا بين علي وغيره.

فكان يكره أن تستأثر بالأمر عصبة دون غيرها بالغة ما بلغت منزلتها، ولم يكره ذلك من بيت هاشم دون سائر البيوت.

كان يحجر على وجوه قريش أن يخرجوا إلى البلدان إلا بإذن وإلى أجل، وبلغه أنهم يشكونه فأعلن في الناس: « ان قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما في أنفسهم، ألا إن في قريش من يضمر الفرقة ويروم خلع الربقة، أما وابن الخطاب حيٌّ فلا. إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد »

وكان يزجر قومه بني عدي كلما أَحس منهم الطمع في خلافته لأنه واحد منهم، فيصارحهم قائلاً: « بخ بخ بني عدي!.. أردتم الأكل على ظهري، وأن أهب

حسناتي لكم، لا والله حتى تأتيكم الدعوة وإن أطبق عليكم الدفتر.. » أي وان كتبتم في الاعطية آخر الناس. وهو الذي أبى أن يختار ابنه للخلافة وقال للمغيرة بن شعبة الذي زين له استخلافه: « لا أرب لنا في أموركم، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتي، ان كان خيرًا فقد أصبنا منه، وان كان شرًا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد »..

* * *

وجمع عليًا وعثمان في مجلس الشورى لاختيار الخليفة فالتفت إلى علي فقال: « أتق الله يا علي ان وليت شيئًا، فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين »..

والتفت الى عثمان فقال: « اتق الله ان وليت شيئًا فلا تحملن بني معيط على رقاب المسلمين » أو قال: بني أمية.

وكان أكبر همه أن يعصم الاسلام من الملك الذي يستأثر به مستأثر لأناس دون أناس، وكثيرًا ما سأل: والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك؟! مستعيذًا بالله من كل سلطان لا يعم جميع رعاياه بالخير.. وكلمته لابن عباس حيث قال: « إن الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة، وان قريشًا اختارت لأنفسها فأصابت » هي كلمته حيثما تكلم في هذا الصدد لا يخص بها بيتًا دون بيت ولا معشرًا دون معشر ولا قبيلة دون قبيلة.. الا الأمانة لمصلحة المسلمين جميعًا، حيثما اتفقوا عليها أو كان لهم رجاء في الاتفاق..

وما كانت لعمر صرامة مع علي لم تكن له مع غيره في مأزق الخوف من الفتنة والذود عن الوحدة.. فقبل أن يسلم الروح كانت وصيته وهو لا يعلم مَن الخليفة بعده: « ان اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وان اتفق أربعة فرضوا رجلا وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما. فان رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً فحكموا عبدالله بن عمر فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فان لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس ».

وما اختار ابنه عبدالله للفصل بين الفئتين المتساويتين إلا لأنه خارج من الاختيار، ثم لم يجعل له القول الفصل حتى يفتح للناس مخرجًا من رأيه إن شاءوا ألا يتبعوه.

ولن يقضي بأمثل من هذا القضاء في مأزق الفتنة أحد له قضاء عادل منزه عن خبايا القلوب.

* * *

فما اتخذ عمر من حكم بين الناس فهو الحكم الذي يجمل به ويحمد منه ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر الناس. هو الحكم الذي يعم ويعدل ولا يخص ويتحيز، وهو الحكم الذي لو سئل فيه النبي سيد بني هاشم لأعاد فيه قوله: «عمر بن الخطاب معي حيث أحب وأنا معه حيث يحب، والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان».

عمر والصحابة

بايع عمر فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه .

وبويع عمر فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه .

وقد تواترت أقوال الصحابة في عمر بما يشيد بفضله ويشهد بقدره ويُكبر في أعين الناس أكبر من تقال فيه .. لأن الذين قالوها أناس لهم حلوم راجحة ، وألسنة صادقة ، وعقيدة راسخة ، وقلوب لا تهاب أن تقول الحق في انسان . ولكن الشهادتين اللتين شهد بهما الواقع أدل على قدر عمر بين الصحابة من كل ما قيل . لأن شهادة الواقع هي الشهادة التي يقولها الصادق باختياره ويحاول الكاذب أن يكذب فيها فلا يستطيع . وانما يجوز الصدق والكذب فيما يملكه اللسان أو يملكه الشعور . أما الشهادة التي تعبِّر عن نفسها بلغة الواقع ، فهي قائمة من وراء كلام الألسنة ومن وراء هوى النفوس : انكارها كانكار المحسوس الذي تقع عليه الأيدي ولا تغمض عنه العيون .

وقد انتهت مسألة الخلافة بعد النبي بسلام .

ولكن انتهاءها بسلام لا يعني انها كانت ستنتهي وحدها بسلام على أية حال ، ولا يعني أنها انتهت لأنها من المسائل التي يؤمن فيها الخطر وتمتنع فيها الفتنة . اذ الحقيقة أن انتهاءها على هذا النحو قد كان أعجوبة من أعاجيب التاريخ ، مع ما يحيط بها من دواعي النزاع ومن كوامن القلق والخوف على غير سابقة يستقيم بها العرف وتتضح بها معالم الطريق .

فما هو إلا أن لحق النبي بالرفيق الأعلى حتى تحفزت دواعي النزاع من كل فج ، وتكشفت كوامن القلق والخوف من كل مكمن ، وجهل أعلم الناس كيف تنجلي الغاشية ويستقر القرار.

فالأنصار يقولون انهم أحق بالخلافة من المهاجرين ، لأنهم كثرة والمهاجرون قلة ، ولأنهم في ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم ، ولأنهم جميعًا عرب مسلمون ولهم فضل التأييد والايواء.

والمهاجرون على قلتهم غير متفقين على اتفاق ينعقد به الإجماع ، وحجتهم الغالبة انهم السابقون الى الإسلام ومنهم جلة الصحابة الأولين.

وتسايرت الأحاديث بحق آل البيت النبوي في الخلافة النبوية ، وبين آله رجلان هما علي والعباس .. لو أصغيا الى هذه الدعوة ومضيا فيها لتمخضت عن خطب عظيم.

وكأن هذه العصبيات لم تكفِ دعاة الخلاف حتى جاء أبو سفيان يزيدها عصبية أخرى بالمفاخرة بين أكبر القبائل وأصغرها في قريش. فدخل على عليّ والعباس يثيرهما ويعرض عليهما النجدة والمعونة ، ويهيب بعلي باسمه. ثم بالعباس باسمه : « يا علي ! .. وأنت يا عباس ! .. ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ .. والله لو شئت لأملأنها عليه – يعني أبا بكر – خيلاً ورجلاً وآخذنها عليه من أقطارها » .. فيجيبه علي بما هو أهله : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجلاً ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خليناه واياها » ، ثم يبلغ به كرم النحيزة أن يؤنب أبا سفيان من طرف خفي على سعيه في هذه العصبية فيقول : « يا أبا سفيان ! .. ان المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وان المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض ، متخاونون وان قربت ديارهم وأبدانهم ! .. »

ولم تكن هذه العصبيات كل ما هنالك من دواعي النزاع وكوامن القلق والخوف. فقد كان هنالك منافقون أسلموا وهم راغمون ، وكان هنالك ضعفاء من المسلمين يقفون على شفير من الفتنة لا يلبث أن يضطرب تحت أقدامهم حتى ينهار، وكان

هنالك أناس لا ينصرون ولا يخذلون، فهم ان لم يفسدوا في الارض لا يصلحون.

وبين هذه المخاوف والنوازع تنتهي مسألة الخلافة بسلام فيكون انتهاؤها بسلام أعجوبة الأعاجيب. وتبحث عن سر هذه الاعجوبة أو عن سرها الأكبر فيغنيك فيها أن تذكر اسمًا واحدًا هو اسم عمر بن الخطاب.. الى أين كانت تلك الفتنة ذاهبة لو لم يقف في وجهها عمر وقفته المرهوبة يوم السقيفة؟

سؤال يدلك على سر تلك العجيبة قبل كل جواب.. فما عُرف رأي عمر في البيعة حتى بطل الخلاف الا ما لا خطر له. واطمأن من يوافق، وعلم من يخالف أن خلافه لا ينفعه، واجتمعت كلمة على مبايعة أبي بكر أوشكت أن تكون كلمات..

قال أبو بكر لعمر: أبسط يدك نبايع لك

قال عمر: أنت أفضل مني

قال أبو بكر: أنت أقوى مني

قال عمر: ان قوتي لك مع فضلك. لا ينبغي لأحد بعد رسول الله ﷺ أَن يكون فوقك يا أبا بكر. أنت صاحب الغار مع رسول الله، وثاني اثنين، وأَمرك رسول الله حين اشتكى فصليت بالناس، فأنت أحق الناس بهذا الأمر.

ووثب عمر فأخذ بيد أبي بكر. فتواثب الجمع من علية الصحابة يبتدرون البيعة، ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر وتكلم عمر بين يديه يقول للناس: «ان الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين اذ هما في الغار، وأولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوا»...

فكانت البيعة العامة، وتركت شجرة الخلاف لجفاف، فان لم تذبل لساعتها فهي وشيكة ذبول..

بايع عمر فقطعت جهيزة قول كل خطيب.

وذلك قدر عمر عند الصحابة، وقدره عند أبي بكر، وقدره عند الله، تغني شهادة السرائر فيه عن شهادة كل كلام.

وفي تلك الكلمات الموجزات التي تبادلها الصديقان العظيمان خلاصة نقد الناقدين وبحث الباحثين وحكم التاريخ في أبي بكر وعمر، وفي موقف الخلافة من بدايته الى منتهاه..

قال عمر: إنك أفضل مني.

وقال أبو بكر: إنك أقوى مني.

وقال عمر: ان قوتي لك مع فضلك.

صدقا غاية الصدق، وجاملا غاية المجاملة، وقضيا بالعدل والحكمة والاخاء. وتركا التاريخ يقول ما يقول ويسهب ما يسهب، ثم لا يزيد في فحواه كلمة على ما ضمنته تلك الكلمات الموجزات.

ولقد كانت من قوة عمر أنه كان يراجع أبا بكر في خلافته حتى يرجع عن رأيه، وكان من فضل أبي بكر أنهم يسألونه مستثيرين: والله ما ندري أأنت الخليفة أم عمر؟.. فيقول: هو لو كان شاء!..

وكان فضل أبي بكر وقوة عمر جمعًا لا يشذ عنه مكابر. ومن شذ عنه فما له من فضل ولا قوة ينفعانه.

بل كان الرجلان على اختلافهما في المزاج كأنهما رجل واحد يراجع نفسه بين الرأيين المختلفين، حتى يستقر على أحدهما فاذا هو رأي جميع لا خلاف فيه، لأنهما يصدران عن عقيدة واحدة ويتجهان الى غرض واحد. فهما غير مفترقين الى أمد طويل.

وأعجوبة الأعاجيب في هذا الأمر موقف الرجلين من المشكلة الكبرى التي واجهتهما معًا بعد موت النبي بأيام قلائل وهي مشكلة الردة ونكوص العرب عن أحكام الدين، وحيرة الصحابة الكبار فيما يعامل به المرتدون.

وليس العجب أن يختلف أبو بكر وعمر في مشكلة كبيرة أو صغيرة، وانما العجب هو نوع هذا الخلاف الذي لم يتوقعه أحد. فيخالف أبو بكر لأنه يجنح الى الشدة والصلابة، ويخالف عمر لأنه يجنح الى اللين والهوادة.. ثم يلتقيان ولا يتعارضان.

فأبو بكر يأبى الا أن يحارب الذين منعوا الزكاة ويقول مصرًّا على قوله : « والله لو منعوني عناقًا [1] لقاتلتهم على منعها » .

وعمر يقول له : « كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني نفسه وماله الا بحقه وحسابه على الله ! ؟ » .

ويشارك عمر في رأيه جلة الصحابة كأبي عبيدة الذي قال فيه النبي : « إنه أمين الأمة » وسالم مولى أبي حذيفة الذي قال فيه النبي : « ان سالمًا شديد الحب لله » وأناس من هذه الطبقة في صحابة الرسول .

ويعود أبو بكر فيقول : « إن الزكاة حق المال » وفيها نحارب بالحق . ثم يهيب بعمر : « رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ! .. أجبار في الجاهلية وخوار في الاسلام ؟ »

فإذا بعمر يثوب الى شدته بعد أن أفرغ أمانة الرأي كما قال : « ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال حتى عرفت انه الحق » وما أسهل أن يعرف الحق لمن يريد أن يراه ولا يغمض عينيه .

أرجلان هنا مختلفان أم رجل واحد ؟ ..

قل هذا وذاك فالقولان مستويان . ما دمت لا تنسى ان الرجلين المختلفين معهما العقيدة الراسخة التي لا تفارقهما ، وطالما جمعت العقيدة جيوشًا على قلب واحد ، فضلاً عن رجلين ..

وانما كان يعيب عمر أن يعارض اذا كان في المسألة وجه واحد لا يحتمل المعارضة بحال ، فاما أن يكون لها وجه آخر يبديه ويشرح حجته فالذي يعيبه ويضير الاسلام أن يكتم ذلك الوجه وأن ينطوي عليه صامتًا في موقف البحث والمشاورة ، وهو الناصح الأمين .

ومسألة الردة قد كان لها وجه آخر غير الذي رآه أبو بكر رضي الله عنه ، وكان

---

(١) معزة .

عمر خليقًا أن يرى ذلك الوجه الآخر لأنه موافق لمجمل آرائه في الحرب والسياسة. فقد كان بطيئًا الى الحرب كما عرفنا من عامة وصاياه، وكان أبطأ ما يكون عنها اذا نشبت بين العرب أو المسلمين، وكان جيش الاسلام بعيدًا عن المدينة في غزوة الروم التي خرج بها أُسامة بن زيد بعد قيام أبي بكر بالخلافة، فالتريث الى أن يستكمل الاسلام عدته ويسترجع الغائبين من جنده وجه غير ضعيف، أو هو في أقل الأمر وجه لا يحسن كتمانه عن الأمير المسئول.

وقد كان من عادة عمر أن يطيع صاحب التبعة متى وجبت الطاعة واستقر القرار، فلا ضير إذن لا يألوه جهده معارضة حتى يتبين مذاهب الرأي على اختلافها، ثم هو مستعد بقوته لمعاونته بأقصى ما استطاع.

ومثل هذا الرجل معارضته قوة فوق قوة وخير لا ضير فيه.

وخليق بنا أن نفهمها على صوابها في مسألة الردة فنعلم بعد النظرة الثانية أنها من دلائل قوته المعهودة وليست من فلتات الضعف فيه. لأنه رأى الرأي فلم يحجم أن يبديه ويشرح حجته، جريئًا فيما رآه.

وعلى هذا الدأب ظل عمر قوة لأبي بكر بموافقته ومعارضته على السواء. وأصاب فيما قال له يوم بايعه: « ان قوتي لك مع فضلك». فكسب الاسلام خليفتين معًا بتقديم أبي بكر للخلافة، لأنهما لم يبغيا بالخلافة مأربًا غير خدمة الاسلام.

ثم بويع عمر بالخلافة فبطل الخلاف الا ما لا خطر فيه.

عرضها عليه أبو بكر فقال: لا حاجة لي فيها، فقال أبو بكر: « ولكن لها بك حاجة يا ابن الخطاب»... وسأل خيرة أَصحابه فقال له عبدالرحمن بن عوف: « هو والله أَفضل من رأيك فيه». وقال عثمان بن عفان: « ان سريرته خير من علانيته، وانه ليس فينا مثله» وسأل أسيد بن الحضير فقال: « اللهم أعلمه الخيرة بعدك. يرضى للرضى ويسخط للسخط والذي يسر خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه»..

وأَجمع المهاجرون والأنصار على تزكية عمر وتصويب أبي بكر في ترشيحه.

ولعلهم لم يذكروا من مناقبه الا ما هو به أعلم وأخبر، فلم يزده ثناء المثني علمًا بصاحبه! ولم يكن قدح القادح ليخلف رأيه فيه: لأنه على عرفانه بالدنيا وعرفانه بالناس لا يجهل أن رجلاً كعمر بن الخطاب في حزمه وصدقه لن يخلو من مبغض، ولن يبغضه أحد لما يعيبه ويحول بينه وبين ولاية أمر المسلمين.

قال له وهو يعرض عليه الخلافة: «يا عمر!.. أبغضك مبغض وأحبك محب وقدمًا يبغض الخير ويحب الشر».

وإن منهم لمن حذره شدة عمر وقالوا له: «إنك كنت تأخذ على يديه ولا نطيق غلظته؛ فكيف وهو خليفة؟.. وما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافه علينا»؟..

فبلغ الصبر بالرجل الصبور مداه، وأمر من حوله أن يجلسوه فجلس فقال لمن خوفوه الله وعمر: «أبا لله تخوفوني؟. خاف من تزود من أمركم بظلم. أقول: اللهم إني قد استخلفت على أهلك خير أهلك!».

ولو شاء أبو بكر لقال ان ما خوفوه من شدة عمر لفضيلة من فضائله التي قدمته عنده على غيره. فقد خاف عليهم الفتنة، وكان أكبر حذره أن تجيء الفتنة من أولئك الاعلام الذين يتبعهم الطغام. وليس لهؤلاء غير عمر يرهبونه ويتقون الفتنة باتقائه، فمن هنا وصاه فحذره «هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين قد انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرىء منهم لنفسه» وقال له: «ان لهم لحيرة عند زلة واحد منهم فاياك أن تكونه واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله، ولك مستقيمين ما استقامت طريقك».

فالذين حذروه عمر إنما رغبوه فيه ولم يحذروه منه، لأنه أراد لهم من يخافونه ويستقيمون معه، فكانت سيئته عندهم حسنة عند أبي بكر ورجاء في صلاح أمر الاعلام والطغام.

فلما اتفق مدح المادحين ونقد الناقدين على إيثار عمر بالخلافة فرغ أبو بكر من مشورته وأبرأ الى الله ذمته ودعا بعثمان فأملى عليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده

بالدنيا خارجًا منها، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها، حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب : اني استخلفت عليكم بعدي .. » .

ثم أخذته غشية فكتب عثمان « عمر بن الخطاب » ولم يترك الكتاب خلوا من الاسم مخافة أن يذهب الموت بأبي بكر في تلك الغشية فيلج من يلج بالخلاف ،وله شبهة يحوم عليها .

وانه ليكتبها اذ أفاق أبو بكر فقرأ عليه ما كتب ، فكبر وأدرك ما وقع في روعه فحياه ودعا له : « جزاك الله عن الاسلام خيرًا : والله ان كنت لها لأهلا » .. ثم أتم الكتاب .

ثم بويع عمر بالخلافة باجماع لم ينعقد لخليفة قبله ولا بعده إلا أن تكون وراثة في دولة استقرت لها دعائم وثبتت لها أركان . فكانت شهادة من الصحابة والمسلمين أجمعين بما هو أنطق من الالسنة والقلوب : بالبديهة التي لا تكذب في صادق ولا كذوب .

وجائز جدًا أن يبدأ عمر خلافته وهذا رأي المسلمين فيه ، وأن يختمها آخر الأمر ورأيهم فيه على اختلاف ، اذ الحكم يخلق العداوات ، ويفتق أسباب التباعد في الظنون والآراء . ويفتن صاحبه حتى يتبدل من حيث يريد ولا يريد . فشهادة أخرى من شهادات الواقع والبداهة أن عمر قد فارق الدنيا والمختلفون فيه ينقصون ، والمتفقون على حمده يزيدون ، ثم هم يزيدون في حمدهم اياه وثنائهم عليه ..

دخل زياد على عثمان في خلافته بما بقي عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئًا من فضة ومضى به . فبكى زياد ... قال عثمان : ما يبكيك؟ .. قال : أتيت أمير المؤمنين بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهمًا فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام ، وإن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ ، فلم أر أحدًا قال له شيئًا .. قال عثمان : « إن عمر كان يمنع أهله وقرابته إبتغاء وجه الله . وإني أعطي أهلي وأقربائي ابتغاء وجه الله ، ولن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر! .. » .

وبكى عليٌّ يوم موته فسئل في بكائه فقال : « أبكي على موت عمر . إن موت

عمر ثلمة في الاسلام لا ترتق إلى يوم القيامة ».

وقال عبدالله بن مسعود: « كان إسلامه فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة ».

وقال معاوية يوازن بين الخلفاء: « أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده. وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها. وأما نحن فتمرغنا فيها ظهرًا لبطن ».

وقال عمرو بن العاص وهو يحدث نفسه: « لله در ابن حنتمة. أي امرىء كان! .. »

ولم يقل فيه قائل، راض ولا ساخط، إلا ثناء كهذا الثناء بعد خلافة طويلة لو خرج منها بنصف الثناء لأربى على الأمل في إنصاف بني الانسان..

* * *

ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما رعوا قدره.. إلا أنه كان مفضلا في هذا كما كان مفضلا في جميع محامده وحسناته، فانه رعى أقدارهم وهو مستطيع ألا يرعاها، وقليل منهم من كان قادرًا أن يعمل معه غير ما عمل ويقول فيه غير ما قال..

جمع منهم مجلس المشورة لا يبرم أمرًا ولا ينقضه إلا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مأثورات النبي وأحاديثه.

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعًا له فجنبهم ولاية الاعمال قائلا لمن راجعه في ذلك: « أكره أن أدنسهم بالعمل » فسبق الدساتير العصرية بحسن تقسيمه وصادق حدسه وتدبيره: هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس الأمة أن يلي عملا من أعمال الحكومة، فهما في الدولة وظيفتان لا تجتمعان.

وقدم صغارهم على أعظم العظماء من رؤوس القبائل وقروم الجزيرة العربية. فحضر بابه سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب في جمع من السادة ينقطع ندهم بين الكابرين، وحضره معهم صهيب وبلال وهما موليان فقيران. ولكنهما شهدا بدرًا وصحبا رسول الله.. فأذن لهما قبل علية القوم! .. وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه: لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه؟.. أما صاحبه فكان

حكيمًا فقال : أيها القوم ! .. اني والله أرى الذي في وجوهكم... ان كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم. دعي القوم - إلى الاسلام - ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم اذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ » .

ولو غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال .. ولا أمن أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل ..

لكنه الحق فوق كل قدر عند هذا القسطاس الذي يعطي كل ذي قدر قدره حيث ينبغي له من تقديم وتأخير. فيقدم من يقدمه عمله ويؤخر من يؤخره عمله ، ولا عليه من غضب الغاضبين ولوم اللائمين.

فلما ندب الناس الى غزو العراق فبادر اليه أبو عبيد بن مسعود وتخلف من حضر الدعوة من الصحابة ولاه قيادتهم وأبى أن يوليها رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار. وأجاب من راجعوه قائلاً : « لا والله ! .. لا أفعل. ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو. فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرئاسة منكم من سبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء. والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابًا » .

ثم دعا معه ابن عبيد وسليط بن قيس فأبلغهما « إنكما لو سبقتما لوليتكما .. » والتفت الى أمير الجيش الذي اختاره فقال له : « اسمع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعًا حتى تتبين ، فانها الحرب » .

هذا ما استحقوه .. فلا رجحان لهم الا بالحق ، ولا رجحان عليهم الا للحق ..

ومن الحق الذي له الرجحان عليهم حق الأمة جمعاء وحق الأمان الذي يعم الدولة ويوطد أركانها ، فاذا خيف على الدولة من بعضهم فأمان الدولة مفضل عليهم ، وحقها الأكبر مقدم على الكبير من حقوقهم. فربما حبسهم في المدينة لا يسافرون منها إلا بإذن والى أجل ، مخافة منهم على الناس ومخافة عليهم من الناس. ويستأذنه أحدهم في غزو الروم والفرس محتجًا بسابق بلائه مع رسول الله ﷺ ، فيتخذ من سابق هذا البلاء حجة عليه يذوده بها عن السفر. ويقول له : « ان لك في غزوك مع رسول الله ما يكفيك ويبلغك ، وبحسبك ، وهو خير لك من الغزو اليوم ، وان خيرًا

لك ألا ترى الدنيا ولا تراك».

* * *

على هذا الوجه وحده ينبغي أن نفهم كل علاقة كانت بين عمر وبين أحد من أكابر الصحابة والتابعين، فهو القسطاس الذي لا يجور، وكأنه لا يعرف الجور لو شاء.

بل على هذا الوجه وحده نفهم كل علاقة بينه وبين أحد من عامة المسلمين، فلكل رجل حقه ولكل عمل حقه، ولا ضير على أحد أن يتأخر قدره ويتقدم عمله، ولا ينفع أحدًا أن يتقدم قدره ويتأخر عمله فكل عمل وله حساب، وكل قدر وله كرامة، وأكبر الصحابة خليق أن ينزل منزلة المرءوسين لمن سبقهم الى العمل النافع. وأصغر الناس خليق أن ينال جزاءه الحسن إذا استحقه، وكل قسطاس غير هذا القسطاس فإنما يقارفه الحاكم لظلم أو لخوف، وليس لهذا ولا لذاك سبيل إلى عمر، لأنه عادل، ولأنه لا يخاف، وإذا وقع ما يخافه غيره فهو ضليع بالتبعات.

على هذا الوجه وحده ينبغي أن نلتمس التأويل في محاسبات عمر ومعاملاته إذا وقع منها ما يحتاج إلى تأويل. وقل في محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج اليه، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره، وحسابه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين..

ففي جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة لم توضع مسألة في موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادمة كما وضعت مسألة خالد بن الوليد رضي الله عنه..

ولا يعقل أن تكون هذه المسألة شذوذًا عن خطته مع جميع القادة والولاة لأن الذي صنعه فيها عمر هو الذي كان منتظرًا أن يصنعه، سواء كان القائد خالدًا أو كان رجلاً غيره.. وهذا الذي ينفي الشذوذ والحيف، أو ينفي المعاملة الخاصة التي تكيل للناس بكيلين وتزن لهم بميزانين، وتنظر اليهم بنظرتين مختلفتين.

عزل عمر خالد وهو سيف الاسلام وبطل الجزيرة والشام، وإذا كان لا بد لخالد بن الوليد من عازل أو قاض عادل، فلن يكون عازله وقاضيه غير عمر بن

الخطاب .. هو على قدر عزله بلا مراء، وهو قدر كبير..

فقال أناس انها منافسة الند للند والشبيه للشبيه، وقال أناس عزله لغير خطأ أتاه، وقال اناس إنها ترة قديمة ولولاها لما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله، وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده..

والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيلها لهم وتقربها إلى حدسهم. لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهة خلق وخلق توحي الظن بالتنافس والملاحاة، وكانت مشابهة خالد لعمر في خلقته تلتبس على بعض الناس فيكلمون عمر وهم يحسبونه خالد بن الوليد..

فمن شاء أن يخبط بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته وأمسك عن الخوض في أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى، وكتب إلى الامصار يبرئه من الخيانة ويعلنهم « انه لم يعزله لسخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به ».. قال: « فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة ».

ولما سأله خالد في ذلك قال له: « ان الناس افتتنوا بك فخفت أن تُفتن بالناس ».

فمن شاء أن يخبط بالظن هنا فقد يخبط ما شاء وله شبهة فيه، ولكنه لا يرجع إلى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه. ويوقن أن عمر لم يحاسب خالدًا بميزان غير الذي حاسب به جميع القادة والولاة، وأن المدهش الحق أن يبقيه في الولاية والقيادة بعد ما أخذه عليه، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين..

والذي أخذه عمر على خالد يرجع بعضه الى أيام النبي عليه السلام، وبعضه الى أيام أبي بكر رضي الله عنه، وبعضه الى أيامه، وكله مما يصح أن يؤخذ به في موقف الحساب، وإن كان الذي حدث في أيام عمر وحدها كافيًا لما قضاه في أمره.

ففي فتح مكة نهى رسول الله خالدًا عن القتل والقتال، وقال له وللزبير: « لا تقاتلا الا من قاتلكما ». ولكن خالدًا قاتل وقتل نيفًا وعشرين من قريش وأربعة نفر من هذيل، فدخل رسول الله مكة فرأى امرأة مقتولة فسأل حنظلة الكاتب: من

قتلها ؟ .. قال : خالد بن الوليد. فأمره أن يدرك خالدًا فينهاه أن يقتل امرأة أو وليدًا أو عسيفًا – أي أجيرًا – وبعث اليه من يسأله : ما حملك على القتال ؟ .. فاعتذر بخطأ الرسول في تبليغه، وشهد الرسول على نفسه بالخطأ فكف عنه.

ثم بعث رسول الله خالدًا الى بني جذيمة داعيًا الى الاسلام ولم يبعثه للقتال، وأمره ألا يقاتل أحدًا إن رأى مسجدًا أو سمع أذانًا، ثم وضع بنو جذيمة السلاح بعد جدال بينهم واستسلموا. فأمر بهم خالد فكتفوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، وأفلت من القوم غلام يقال له السميدع حتى اقتحم على رسول الله واخبره وشكا اليه. فسأله رسول الله : هل أنكر عليه أحد ما صنع ؟ .. قال : نعم، رجل أصفر ربعة ورجل أحمر طويل ... وكان عمر حاضرًا فقال : أنا والله يا رسول الله أعرفهما، أما الاول فهو ابني، وأما الثاني فهو سالم مولى بني حذيفة. وظهر بعد ذلك أن خالدًا أمر كل من أسر أسيرًا أن يضرب عنقه، فأطلق عبدالله بن عمر وسالم مولى أبي حذيفة أسيرين كانا معهما .. فرفع رسول الله يديه حين علم ذلك وقال : « اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد » .. ثم دعا علي بن أبي طالب وأمره أن يقصد الى القوم ومعه إبل وورق فودى لهم الدماء وعوضهم من الأموال.

وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه وجه خالدًا الى بعض أهل الردة يدعوهم الى أحكام الاسلام او يقاتلهم حتى يثوبوا اليها. فعزم على المسير الى مالك بن نويرة ولم يأمره الخليفة بالمسير اليه. وأحجم الأنصار ينتظرون أن يكتب اليهم الخليفة بما يراه، وقال خالد : « قد عهد إليَّ أن أمضي وانا الأمير، ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمته فانني لم أعلمه، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد الينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به، فأنا قاصد الى مالك ومن معي من المهاجرين والتابعين ولست أكرههم ... »

ثم جاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من بني ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم : يشهد قوم أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا، ويشهد آخرون انه لم يكن من ذلك شيء. فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم في ليلة باردة. وارسل فيما قيل مناديًا ينادي : أدفئوا أسراكم، فظن القوم انه اراد قتلهم ... لأن ادفاء الأسرى كناية عن القتل في لغتهم.

ويروى ان مالكًا قال لخالد: ابعثنا الى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا. فلم يجبه خالد الى طلبته وقال له: لا أقالني الله إن أقلتك، وتقدم الى ضرار بن الأزور يضرب عنقه. وتزوج بامرأته في الحرب وهو أمر تكرهه العرب وتعايره.

وقد أبلغ الخبر عمر بن الخطاب فقال لأبي بكر: ان سيف خالد فيه رهق. فاعتذر له أبو بكر بأنه «تأوَّل فأخطأ» وودى مالكًا واستدعى خالدًا اليه..

قدم خالد فدخل المسجد، وعليه قباء، وفي عمامته أسهم غرزها للمباهاة فقام اليه عمر فنزعها وحطمها وقال له: قتلت امرءًا مسلمًا ثم نزوت على امرأته؟.. والله لأرجمنك بأحجارك!..

وكان أبو بكر رضي الله عنه همّ بعزل خالد لاستئثاره بتصريف المال الذي في ولايته فسأل عمر: من يجزي جزاء خالد؟.. فندب عمر نفسه ليخلفه إن لم يكن بد من ذلك، وتجهز عمر حتى أنيخ الظهر في الدار، لولا ان مشى اصحاب رسول الله الى ابي بكر يوصونه ان يحتفظ بعمر لحاجته اليه، وأن يبقي خالدًا في ولايته لحاجته اليه. فعمل بما أشاروا.

ذلك ما كان في عهد النبي وأبي بكر، فلما بويع عمر كتب الى خالد أن يراجعه في حساب المال والا يعطي شاة ولا بعيرًا الا بأمره، فأحاله الى ما جرى به العمل قبله. وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب قال فيه: «إما أن تدعني وعملي والا فشأنك بعملك»، فلم يطقها عمر وقال: «ما صدقت الله ان كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه».

وقد ابرمه منه أنه وهب للشاعر الأشعث بن قيس عشرة آلاف درهم. ونمي الأمر اليه كما كانت تنمى اليه أخبار الولاة والقواد من عيونه وأرصاده. فكتب الى أبي عبيدة أن يحاسبه على هذه الهبة «فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر الخيانة وان زعم أنها من ماله فقد أسرف»..

* * *

وقد أبى خالد أن يجيب في مبدأ الأمر فاعتقله أبو عبيدة بعمامته كما أمر عمر

ونزع منه قلنسوته في موقف المحاسبة حتى قال إنها من ماله. فقومت عروضه وضم ما زاد منها الى بيت المال، وقال له عمر يومئذ: «يا خالد!.. والله انك عليَّ لكريم، وانك اليَّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء».

ولم يعزله عمر دفعة واحدة على أثر قيامه بالخلافة كما جاء في بعض الأخبار. لأن اسم خالد كان بين أسماء الشهود على عهد بيت المقدس بعد فتحه، والأرجح ان في تاريخ القصة خطأ وقع فيه بعض المؤرخين ومنهم ابن الأثير، فكتب عن عزل خالد في أخبار السنة الثالثة عشرة للهجرة ثم ذكره في أخبار السنة السابعة عشرة، وأورد في الموضعين أقوالاً متشابهات.

تلك جملة المآخذ التي أَخذها على خالد من عهد النبي عليه السلام الى عهد خلافته وما من أحد يعرف عمر ثم يلوح له أنه أنكر من خالد شيئًا كان يقبله من غيره، وأنه نصب له ميزانًا غير الموازين التي يحاسب بها القواد والولاة وكل صاحب عمل مسئول. فرأي عمر في انكار هذه المآخذ معروف من بداية أيامه، والذين لزموه وتأدبوا بأدبه ينكرونها مثله ولوكانوا على البعد منه، كما حدث من ابنه في بعثة جذيمة حيث أبى على خالد بطشه بمن أوثقهم وعرضهم على السيف. ثم أَنكر النبي عليه السلام ما أنكراه واستصوب ما استصوباه.

فعمر كان يكره الاسراع الى القتال ويوصي قواده جميعًا بالتريث فيه، وربما نحى القائد المغوار عن القيادة وهو كفؤ لها لأنه يعجل بالقتال، كما قال لسليط بن قيس: «لولا انك رجل عجل في الحرب لوليتك هذا الجيش. والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث».

وكان يتحرج غاية الحرج ان يستبيح دم بريء او مشكوك فيه، وتقدم في هذا الكتاب انه لام أُناسًا من أصحابه لأنهم قتلوا رجلاً ارتد عن دينه، وقال لهم: «هلا استتبتموه وحبستموه؟».. وتبين من رأيه في أهل الردة انه كان يؤثر الهوادة والاستتابة على القتال. فان كان قتال فالذي لا حيلة فيه ولا محيص عنه، فانكاره لمقتل مالك بن نويرة وأصحابه هو رأيه الذي لا شذوذ فيه، ويضاف اليه انكار البناء بامرأته، ووقوع البناء بها أثناء المعركة، وهو أَمر لا ينفرد عمر بكراهته وانتقاده، بل

تكرهه العرب عامة، مسلمين وغير مسلمين.

وكان عمر يحاسب جميع الولاة أدق حساب: يكتب عروضهم قبل ولايتهم، ويسألهم فيما فشا من طارئ أموالهم، ويأمرهم إذا عادوا إلى أهلهم أن يدخلوا المدينة نهارًا لينكشف ما عادوا به اليهم، ويقاسمهم كل درهم يربى على المحسوب من أرزاقهم. ويجري على هذه السنة مع كل وال وكل عامل ذي أمانة. فلم يستثن منها أحدًا قط، ولم يعرف والٍ قط سلم من مصادرة أو حساب عسير.

فالذي صنعه مع خالد حين أنكر « سرعة هجماته وشدة صدماته » سنة عمرية لا شذوذ فيها، والذي صنعه حين حاسبه على هباته وتوزيعاته سنة عمرية كذلك لا شذوذ فيها، ولو انه صنع غير هذا الصنيع لقد كان ذلك هو الشذوذ المستغرب الذي لا يقع من عمر بن الخطاب خاصة، لأنه لا يحابي ولا يفرق في المعاملة ولا يبالي غضب قائد كبير ولا والٍ قدير. وليس يحب أن يقال ان رجلا من الرجال لا غنى عنه لدولة الاسلام. فربما كان شيوع هذه العقيدة أخطر على الاسلام من عزل والٍ مظلوم أو ولاة مظلومين.

ولا ننسى الأمانة الكبرى التي هي أكبر من أمانة الرفق بالولاة والعدل في محاسبة العمال، ونعني بها أمانة الدين والدولة أو ما نسميه نحن في أيامنا « بالسياسة العليا »..

وعمر لا يتركنا نفسر أعماله هنا باجتهادنا في فهمها وتأويلها على ما نراه، بل يصرح للناس فيها بما يغنيهم عن التفسير والتأويل.

فكان يرعى في شئون الولاة الكبار والقواد المشهورين أمرين يجيزان له عزلهم ولو لم يقع منهم ما يوجب المؤاخذة..

أحد هذين الأمرين، أن يفتتن بهم الناس كما قال لخالد بعد عزله. والخوف في هذا الأمر من القائد الكفوء أعظم من الخوف من قائد صغير لم يبل أحسن البلاء ولم تتساير بذكراه الأنباء، فليس لهذا خطر في بقائه كخطر القائد الكبير.

وخطته هنا عامة لا يخص بها واليًا دون وال ولا قائدًا دون قائد. فلما عزل زياد بن أبي سفيان عن ولاية العراق سأله زياد: لم عزلتني يا امير المؤمنين؟.. ألعجز

أم خيانة؟.. فقال له: لم أعزلك لواحدة منها، ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس. وقديمًا قال فيه عمر: لو كان قرشيًا لساق العرب بعصاه. فالحيطة منه وفاق رأيه فيه.

وقد كان من خلق عمر أن يقدم الحذر ويأخذ بالحيطة ويطيل الروية ثم يجزم بالرأي السديد في غير ابطاء. ولهذا كان يكره ولاية الرجل الفخور وينهى عنها في خلافته وقبل خلافته، فأشار على أبي بكر ألا يولي خالد بن سعيد وكلمه في عزله لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب.. فعزله أبو بكر كما أشار.

فإذا اجتمع لعمر هذا السبب من أسباب السياسة العليا إلى المآخذ التي أنكرها على خالد فلا جناح عليه، ولا محل للشك والظنة في أسباب عزله.

لقد رأى زهو خالد بالنصر والغلب قبل أن يفتح الشام ويسبق بالشهرة أنداده من القواد: رأى ذلك يوم عاد من حرب أهل الردة فدخل المسجد وفي عمامته السهام. ورآه يوم استقل ببيت المال في ولايته على عهد أبي بكر وعلى عهده، ورآه في أمور كان يبتدئها ولا يستأذن فيها، ورآه مما يحس ولا يلمس، ومما يقدر ولا ينتظر. فاذا أشفق أن يفتتن بالناس كما افتتنوا به فلا جناح عليه.

وثاني الأمرين اللذين يدخلان في تقديرات السياسة العليا ويجيزان العزل في غير جريرة ظاهرة أن يصبح القائد ضرورة لا غنى عنها لتسيير الجيوش وفتح الفتوح، وان يعزى اليه النجاح فتتخاذل العزائم وتصغر أقدار القادة دونه، وأن تعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله، ويخسر الجيش بذلك أضعاف ما يخسره باقصاء قائده ولو لم يكن له نظير..

فان كان له نظير، كما تبين من اختيار عمر لقواده في كل ميدان فلا خسارة هناك بل هو كسب العقيدة وكسب قائد جديد. وإذ حان اليوم الذي ينتفع فيه بالقائد المعزول فهو قمين أن ينفع ما بقيت فيه بقية من صلاح وخير..

وتعويل عمر على العقيدة أمر تعزوه إلى كل شيء فتراه فيه على صواب: تعزوه إلى ايمانه بالله فهو فيه مصيب، وتعزوه الى حسن سياسته فهو فيه مصيب، وتعزوه الى

تقديره للواقع فهو فيه مصيب. فكل أولئك كان خليقًا أن يرجح كفة العقيدة عنده على كل كفة، وأن يوجب عليه استبقاءها قبل كل استبقاء. وألا يزال بالناس يذكرهم ما ذكرهم به حين كتب الى الامصار بعد عزله خالدًا « ان الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة ».

ولو أن رئيسًا لخالد غير عمر بن الخطاب في ايمانه المكين لما فاته أن يعلم أين كانت قوة المسلمين وبم كان انتصارهم في جميع الميادين، ولا فاته أن يستبقي هذه القوة بكل وسيلة وأن يفتديها بجميع ما في يديه: تلك قوة العقيدة لا مراء، ان ضاعت فلا عوض عنها، وان بقيت فللقادة عوض كثير..

فكيف بعمر بن الخطاب الذي يؤمن بهذا ايمان تسليم، كما يفكر فيه تفكير سياسة وتدبير؟.. لئن نسي ذلك لهو الحقيق باللوم على نسيانه، ولئن ذكره فاقتضاه ذكره أن يعزل خالدًا بغير جريرة لما كان عليه من لوم.

وهو كما رأينا لم يعزله لغير جريرة، أو لم يكن حسابه له مختلفًا عن حسابه للقادة والولاة... وقد كان أبو بكر نفسه - وهو من أبقى خالدًا - يلمح بعض الخطر من افتتان الناس به حين قال: أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد! ؟

ويؤكد تعويل عمر على العقيدة في كل نجاح واسناده كل فشل إلى ضعفها والترخص فيها أن الجيش الذي غزا مصر أبطأ في فتحها فالتمس عمر علة ذلك في ضعف نياتهم وكتب اليهم يقول: « عجبت لإبطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين.. وما ذاك الا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وان الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا الا بصدق نياتهم »..

فنظرته في عزل خالد هي النظرة العامة التي لا تخصيص فيها لرجل ولا لمعركة ولا لمكان، وتقديمه العقيدة على كل عدة من عدد النصر هو الخطة التي جرى عليها في مراقبة القادة ومراقبة الجيوش وتدبير عدد النصر وتجنيب المسلمين مآزق الخذلان.. وهل أخطأ؟.. هل كانت منه حماسة ايمان ولم تكن روية تفكير؟.. هل يرى غير هذا الرأي ناقد عسكري من أعداء الإسلام لو بحث في الأمر ونفذ الى حقائق الأسباب؟

كلا .. بل هو صدق الرأي وصدق الإيمان معًا مقترنين ، لا يشير هذا بغير ما يشير به ذاك .

ودون هذا من أسباب « السياسة العليا » يجيز لعمر ما استجازه من عزل خالد من القيادة والولاية ، ولا سيما بعد ما أخذ عليه ما أخذ وبعدما علم الناس انه لا يسامح أحدًا في أمثال هذه المآخذ . فما باله يسامح خالدًا فيها ؟ إنه اذن لصانع النصر الذي لا غنى عنه ، وإن الخطر الأكبر الذي يخشاه لقد حق على الجند وعلى الدولة ، ولقد حق معه خطر آخر لا يقل عنه : أن يسكن الناس الى التفرقة في الحساب ، وأن يألفوا ما يعاب اذا عيب من الرؤوس والأقطاب ، دون الأتباع والأذناب .

* * *

ومسألة أخرى يجب ألا يغفل عنها الرجل العصري وهو ينظر في عزل خالد للأسباب التي قدمناها أو لأي سبب غيرها .. وذلك أن حقوق الولاية في عصرنا غير حقوق الولاية والعمالة في دول الاسلام ..

فالولاية في عصرنا مركز يستحقه موظف الحكومة بعد مرانة طويلة ودراسة خاصة واستعداد مقصور على طائفة من المرشحين لها لم تشركهم فيه طائفة أخرى ، وكأنها صناعة العمر التي لا يحتمل عمر الانسان تجديد صناعتين مثلها . فاذا قيل ان واليًا عزل في عصرنا فكأننا نقول ان تاجرا صودر ماله أو زارعًا حيل بينه وبين زرع أرضه . ومصادرة من هذا القبيل حري أن تلتمس لها أسباب من قبيلها في الرجاحة والاقناع .

غير أن الولاية في عهد عمر لم تكن كذلك بوجه من الوجوه ، ولم يكن لصاحبها مثل هذا الحق الذي اصطلح عليه العرف وان لم ينص عليه القانون وانما كانت تجربة ارتجالية يتساوى فيها جميع الصالحين من المسلمين ، لا تنقطع بها صناعة العمر ولا سابقة الاستعداد والمرانة ، فيصح أن يعزل الوالي لأسباب أهون من تلك الأسباب التي قدمناها في الرجاحة والاقناع ، ويصح أن يكون للعزل معنى المناوبة في ندبة متساوية بين جميع المسلمين .

لله در « ابن حنتمة » أي رجل كان ! ..

كلمة قالها رجل يعرف الرجال .. قالها عمرو بن العاص وكأنه لم يكن يود أن يقولها لولا أنطقه بها الاعجاب الذي لا يجدي فيه كتمان ..

وهي كلمة يقولها الناظر في سيرة عمر كلما وقف من أخبارها موقف الناقد الذي يبحث عن الخطأ فيلفيه حيثما بحث عنه عسيرًا جد عسير.. أي رجل كان هذا الرجل؟ .. أي عدل كان عدله؟ .. أي قسطاس كان قسطاسه؟ .. أي حساب كان حسابه لنفسه؟ .. وأي سبيل للناقد الى رجل كان يحاسب نفسه هذا الحساب؟ .

وربما اختلفت الأمزجة أو اختلف تركيب العقول والأبدان، فقل في ذلك ما تشاء ، وقل في خلائق عمر ما تشاء .. قل هي الشدة والصرامة ، أو قل هي الخشونة والصلابة ، أو قل هو نسيان الضعف وفرط الغيرة على الحق في عالم تستكثر فيه مصانعة الحقوق ويستعظم فيه تكلف الصواب .. قل ما بدا لك من ذلك واذهب ما شئت ان تذهب فيه ، فانك لا تعطي المزاج حقه ولا تفرض له فرضه حتى تحار بعد ذلك في سبب انتقاد او علة اختلاف ، لأنه لا يزاول أمرًا إلا وهو صواب لا محل فيه لسوء الطوية من وجهة ذلك المزاج .

* * *

كنا نقرأ عن عزل خالد ما تتفق قراءته من هنا وهناك ، وكنا نستمع الى الذين يردونه الى المنافسة والتناظر فنجيز هذا ولا نمنعه أو نرى فيه منالا من قدر عمر ومنقصة تغض من اعجابنا بمزاياه. لأنه قد يغار من خالد ويعزله لغير جريرة ويبقي له بعد ذلك قدره الجليل وأثره الضخم في تاريخ الانسان.

وفي عصرنا هذا رأينا أبطالا خدموا أقوامهم ثم بلغ من ضغنهم على منافسيهم أنهم قتلوهم ولم يقنعوا باقصائهم عن الحكم ولا بمحاسبتهم بين يدي القضاء. ثم نصب الناقدون لهم موازين النقد فأسقطوا السيئات من الحسنات ، وقرنوا قتل أفراد بإحياء أمة ، فبقي لأولئك الأبطال حقهم الخالد في الثناء والتعظيم.

واذا بلغ من صواب عمر أنك لا تحصي عليه خطأ غير عزله لخالد وما جرى

مجراه فما أكثر هذا صوابا على الآدمي وإن كان من أعظم العظماء ! ..

بدأنا نقرأ عن هذه القصة وفي خلدنا هذا الفرض الذي لا يحملنا على استبعادها ، وعندنا أنه خطأ يذكر الى جانب حسنات ، فلا ضير أن يكون له موضعه في جانب تلك الحسنات ..

ثم نقرأ كل ما تسنى لنا أن نقرأه في هذه القصة فلا نزال نستبعد الخطأ ونستبعده ، ولا تزال كلمة ابن العاص تعود الى لساننا وتعود ، حتى نطقنا بها كما هي ، وغفر الله لابن العاص .

* * *

وهكذا كنا نصنع في كل خطأ نسب الى عمر وتواتر على السماع دون تمحيص واستقصاء ، فلا تزال بنا الوقائع حتى يثبت بطلانه من أساسه ، أو يضعف سنده ضعفًا لا يبيح الاعتماد عليه ، إلا لمن يتجنى ويتحمل ذرائع النقد ودعوى التخطئة والعيب .

كلا .. هذا رجل لا يسهل نقده ، ولا يتأتى لإنسان أن يحاسبه كما يحاسب هو نفسه ، ولن يقع الخلاف بين المنصف وبينه إلا على أنه اختلاف في الأمزجة وتركيب العقول والأبدان . فإذا وضع هذا موضعه من التقدير فأعسر عسير بعد ذلك أن تلومه على خطأ ، وأن تحصي عليه خطأ فيه من سوء النية نصيب .

فالذي حصل والذي كان متوقعًا حصوله ينفيان الظنة عن مروءة عمر وانصافه في قضية خالد بن الوليد ، وقد حكم فيها بما وجب عنده ، وانتهى كل شيء بعد ذلك في هذه القضية بانتهاء الغرض منها في مصلحة الدولة ومصلحة السياسة العليا ، اذ لا موضع فيها لحزازات النفوس وصغائر المنافسة وما تجر اليه من لغو المشاكسة وفضول الكلام .

قال لخالد : لن تعتب عليّ في شيء بعد اليوم ، ثم أمسك عن الخوض في قضيته إلا أن تثار في معرض عام ، فيشير اليها حيث تثار على سبيل الاعتذار ، ويقبل ما شاء له كرم الخليفة أن يسمع من ملام الاقربين والمشايعين وإن أغلظوا في المقال ، على

.. كان له من هيبة ترد الجامح وتخيف من لا يخاف..

قال من خطبته بالجابية: اني أعتذر اليكم عن عزل خالد بن الوليد، فاني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان..

فتصدى له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وجابهه بكلام غليظ يقول منه: « والله ما أعذرت يا عمر.. ولقد نزعت غلامًا استعمله رسول الله ﷺ، وأغمدت سيفًا سله رسول الله ﷺ. ووضعت أمرًا نصبه رسول الله ﷺ. وقطعت رحمًا وحسدت بني العم.. »

فما زاد عمر على أن قال وهو يعذره: « انك قريب القرابة، حديث السن، تغضب في ابن عمك ».

ولم ينس ان يصون للرجل اسمه ومنزلته في أمصار المسلمين، فكتب ما ألمعنا اليه آنفًا يرحض عنه سمعة العجز والخيانة، ويجعل العزل لفضيلة فيه لا لقصور منه. ولا لتثريب عليه.

وعلم بموته فاشتد حزنه عليه واسترجع مرارًا ونكس رأسه وهو يكثر من الترحم عليه. ثم قال: كان والله سدادًا لنحور العدو، ميمون النقيبة..

ولم يهمه أن يذكر صوابه أو خطأه في عزله بمقدار ما أهمه أن يعلن فضله ويذكر حسناته فقال: « قد ثلم في الاسلام ثلمة لا ترتق ». وقيل له لم يكن هذا رأيك فيه. فلم يحجم أن يعلن قائلاً: « ندمت على ما كان مني اليه ».. وقال في غير هذا المعرض وقد بلغه أنه لم يعقب من حطام الدنيا غير فرسه وغلامه وسلاحه: « رحم الله أبا سليمان. كان على غير ما ظنناه به ».

وقد كان عمر ينهى عن الندب والعويل. فلما مات خالد واجتمع بنات عمه يبكينه وسئل عمر أن ينهاهن قال: « دعهن يبكين على أبي سليمان. ما لم يكن نقع أو لقلقة. على مثله تبكي البواكي »!.

ودخل هشام بن البختري في أناس من بني مخزوم على عمر فاستنشده شعره في خالد. وقال له وقد أطال الاصغاء اليه: « قصرت في الثناء على أبي سليمان. رحمه

الله. ان كان ليحب أن يذل الشرك وأهله، وان كان الشامت به لمتعرضاً لمقت الله. رحم الله أبا سليمان ! .. ما عند الله خير له مما كان فيه».

ومن الحق أن يقال ان قضية خالد قد أرتنا مروءة خالد كما أرتنا مروءة عمر، وقد عرضت لنا هذا البطل في صفحتيه فاذا هو بطل الفؤاد في ولايته وبعد عزله، وفي شدته على عدوه وطاعته لأميره.. وما على مثله من ضير أن يحق عليه العزل في ميزان عمر بن الخطاب فذاك ميزان تعلو فيه الكفة ولا يزال صاحبها راجحًا أي رجحان..

وقد استحق المجد بيقين واستحق العزل بظن، ولولا مصلحة أعلى من مصلحة الابقاء على رضاه لقد كان ذلك الظن حقيقًا بالغض عنه والتجوز فيه..

وكفى بالرجلين فضلاً أن يختلفا ومن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهما ويعترف به كل محب وشانىء وكل منصف وجاحد، وما نخال أن تقديرنا خالدًا وتقديرنا عمر يدعونا أن ننصب الميزان في هذه القضية من جديد. فقصارى ما نغنم من ذلك أن خالدًا كان جديرًا بالبقاء في منصبه ولم يكن مستحقًا لعزله. وليس ذلك بشيء إلى جانب ما رأيناه حين نصب الميزان في القضية كما نصبه خليفة الاسلام، فقد أرانا عدلاً أعظم من بطولة الابطال. فان أخطأ البطل – على تقدير خطئه – فالعدل أعظم منه وأحرى أن يتعقبه كأنه من أضعف الضعفاء، وذلك ميزان أشرف لعمر ولخالد وللاسلام من كل ميزان.

ثقافة عمر

اذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول انه كان رجلاً وافر الحظ من ثقافة زمانه، وانه كان أديبًا مؤرخًا فقيهًا، مشاركًا في سائر الفنون، مدربًا على الرياضة البدنية، خطيبًا مطبوعًا على الكلام، فليس أرجح من نصيبه في ثقافة زمانه نصيب.

ظل في إسلامه كما كان في جاهليته عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطرف الأدبية، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلائلها ودقائقها التي لا تدع له من وقته فراغًا لغيرها، فكان يروي الشعر ويتمثل به ويحث على روايته ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة كما قال لابنه عبدالرحمن: « يا بني انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه. ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقًا ولم يقترف أدبًا ».. وقال للمسلمين عامة: « ارووا الأشعار فانها تدل على الأخلاق ».

ونظر الى فائدته العملية كما نظر الى متعته الأدبية، فقال فيه إنه جذل من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به الثائرة ويبلغ به القوم في ناديهم ويعطى به السائل.

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التي لا يبالي الموت لو حرم نصيبه منها، فكان يقول: « لولا أن أسير في سبيل الله، وأضع جبهتي لله، وأجالس أقوامًا ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب الثمر لم أبال أن أكون قد مت ».

واذا اقترنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر فذلك غاية ما يبلغه الأدب عنده من ثناء وتقريظ.

وقد كان إعظام الرجل في عينيه بمقدار حذقه للحديث وقدرته على الابانة والمنطق الحصيف. فنظر يومًا الى هرم بن قطبة ملتفًا في بت بناحية المسجد وقد عرف تقدم العرب له في الحكم والعلم وهو ما هو من دمامة وضآلة ومنظر زري، فأحب أن يكشفه ويسبر حكمته، فسأله في علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل: أرأيت لو تنافرا اليك اليوم أيهما كنت تنفر؟.. فأجابه الرجل: يا أمير المؤمنين!.. لو قلت فيهما كلمة واحدة لأعدتها جذعة، أي لأعاد الحرب فتية كما كانت، فأثنى عليه وقال: لهذا العقل تحاكمت اليه العرب!..

وجاء وفد فيه الأحنف فتركهم جميعًا واستفتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة إلى أن مات.

وسره أن عاد العرب الى رواية الشعر بعد أن شغلهم عنه الجهاد في سبيل الدين، فكان يقول ان الشعر «كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن روايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا الى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره».

ومن ناحية الأدب فيه، وناحية الدين معًا، حثه على تعلم العربية «لأنها تثبت العقل وتزيد في المروءة» وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية..

ولم يزل عمر الخليفة هو عمر الأديب طوال حياته، لم ينكر من الشعر الا ما ينكره المسئول عن دين، ولم ينس قط أنه الأديب الحافظ الراوية الا حيث ينبغي أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضي المتحرز الأمين.

فنهى عن التشبيب بالمحصنات كما نهى عن الهجاء. وجيء له بالحطيئة متهمًا بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه:

دَعِ المَكَارِم لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فإنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسي

فنسي أنه الأديب الراوية ولم يذكر الا أنه القاضي الذي يدرأ الحدود بالشبهات

ولا يحكم بما يعلم دون ما يعلمه أهل الصناعة، وقال للزبرقان: ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة. ثم سأل حسان بن ثابت فقضى بأنه هجاه وأفحش في هجائه، فحبسه وأنذره ونهاه أن يعود الى مثلها، فانتهى طوال حياة عمر، ثم عاد الى الهجاء بعد وفاته.

واستعداه تميم بن مقبل على النجاشي لأنه قال في قومه بني العجلان:

إذا اللهُ عَادَى أهْلَ لُوءْمٍ وذِلةٍ فَعَادَى بَني العَجْلان رهْطَ ابن مُقْبلِ

فذكر عمر قضاءه ولم يذكر روايته للشعر، وقال على سنة القضاة يدفع الحدود بالشبهات: انه دعاء والله لا يعادي مسلمًا.

قال تميم: فانه يقول عنا:

قَبيلَتُهُ لا يَغْدِرُون بذمــةٍ وَلا يَظْلِمُون النَّاس حَبَّةَ خَرْدَل

فقال عمر: ليتني من هؤلاء.

قال تميم: وانه يقول:

تعَافُ الكِلاب الضاريات لُحومهمُ وتأكُلُ مِن عوْفِ بن كَعْبِ بن نهْشَلِ

فقال عمر: كفى ضياعًا بمن تأكل الكلاب لحمه.

قال تميم: وانه يقول:

وَلا يَردُونَ المَاءَ إلا عَشِيَّةً إِذَا صَدَرَ الوُرَّادُ عَنْ كُلِّ مَنْهَلِ

فقال عمر: ذلك أصفى للماء وأقل للسكاك (أي الزحام).

قال تميم: وانه يقول:

وَمَا سُمّيَ العَجْلاَن إِلّا لقَوْلهِم خُذِ القُعْبَ واحْلب أيُّهَا العَبْدُ واعْجَلِ

فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم أنفعهم لأهله.

قال تميم: فسله عن قوله:

أُولئِك أوْلاَدُ الهَجِينِ وأُسْرَةُ اللَّئِيمِ وَرَهْطُ العَاجِزِ المُتَذَلِّلِ

فقال عمر: أما هذا فلا أعذرك عليه، وحبس الشاعر وضربه وأنذره لئن عاد ليضاعفن له العقاب..

وقد تجوزنا فقلنا ان عمر نسي علمه بالشعر ليذكر إبراء الذمة في القضاء. وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب في نسيان أدبه. ولكنه مطلب ما استطيع قط ولن يستطاع. فكان عمر في تخريجه للكلام وعلمه بما تنصرف اليه معانيه أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه الا ظاهر لفظه ومعناه.

ومن المشهور عن عمر انه كان عليمًا بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر انسابها كعلمه بالمتخير من شعرها ولسائر أمثالها.

جنح الى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه، وكثيرًا ما كان يقول كما جاء في البيان والتبيين: سمعت ذلك عن الخطاب ولم أسمع ذلك عن الخطاب.

ومن وصاياه: « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا». ومنها: « عليكم بطرائف الأخبار، فانها من علم الملوك والسادة، وبها تنال المنزلة والحظوة عندهم».

* * *

وفقه عمر بالشريعة التي كان مسئولاً عن نفاذها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه. فكان عبدالله بن مسعود يقول: « كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله » وكان اذا اختلف أحد في قراءة الآيات قال له: اقرأها كما قرأها عمر، وأطنب فقال: « لو أن علم عمر بن الخطاب في كفة ميزان، ووضع علم الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم، ولقد كانوا يروون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم».. وقال ابن سيرين: « اذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر فشك في دينه » وكل ما فسر به آي القرآن في معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح في وزن العقل والدين، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح.

ونصائحه للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يجمل بالعلماء في طلبه، فكان يقول: « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتواضعوا لمن تعلمون، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم » وكان يوصي طلابه « أن يكونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم، ويسألوا الله رزق يوم

بيوم، ولا يضيرهم ألا يكثر لهم » ولا يزال يذكرهم أن التفقه مقدم على السيادة « فتفقهوا قبل أن تسودوا ».

ولم يقصر نصائحه على علم الدين ولا على علم الأدب واللغة وحده، بل تناول كل ما عرف من معارف زمانه فقال: « تعلموا من النجوم ما يدلكم على سبيلكم في البر والبحر ولا تزيدوا عليه ».

ولا شك أن نصائحه العملية في طلب العلم كانت أغلب من نصائحه النظرية فيه. شأنه في ذلك شأن رجل الدولة الذي يعلم الناس ما ينفعهم ويصلح معاشهم ويهذب أخلاقهم.. ولكننا مخطئون إن فهمنا من هذا القول الذي رويناه في علم النجوم أنه كان يكره الزيادة الحديثة فيه كما عرفناها نحن في أيامنا. فانما الزيادة التي كرهها هي تلك الزيادة التي كانت على عهده تخوض في التنجيم وتربط أقدار الناس بالكواكب وتجعل منها أربابًا تعبد وأرصادًا تؤتمن على أسرار الغيب. وذلك ما ننهى عنه الآن ونعد النهي عنه من تحقيق العلم الصحيح..

ولم يفته الحرص على المعرفة التي تخترع منها منافع للناس في أمر المعاش. فطلب الى أبي لؤلؤة غلام المغيرة ان ينجز ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء، وهو علم الصناعات كما انتهى اليه في عصره، لا يضيره انه قسط ضئيل، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على ما يلقاه منه تشجيع الصناعة يوم يراها جليلة كبيرة الآثار.

على أن زبدة الثقافة كلها في أقطاب الحكم وعظماء الأعمال انما تتلخص في شيء واحد: هو الدراية بالناس ونفاذ البصر في شئون الدنيا وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية، أو ما نسميه في أيامنا هذه بالرأي السليم والحكمة العملية، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قليل النظراء فيه، وحفظت له كلمات في معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكماء.

فأي كلمة أدل على النفس البشرية من قوله: « ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين »..

وأي نفاذ في تركيب الطبائع أمضى من نفاذه إذ يقول: « ما وجد أحد في نفسه

كبرًا إلا من مهانة يجدها في نفسه » ؟ . أليس هذا بعينه هو مركب النقص الذي يلهج به علم النفس الحديث ؟ . .

وأي رأي في تجربة الناس أصدق من رأيه حين يقول : « لا تعتمد على خلق رجل حتى تجربه عند الغضب » أو حين أثنى بعضهم على رجل أمامه فسأله : أصحبته في السفر ؟ . . أعاملته ؟ . . فلما أجابه نفيًا قال : « فأنت القائل بما لم تعلم » .

وأي فهم لمعنى الاستعداد للعمل أقرب من فهمه حين ينصح العاملين : « إذا توجه أحدكم في الوجه ثلاث مرات فلم ير خيرًا فليدعه » !

كذلك سداد جوابه حين سئل فيمن يشتهي المعصية ولا يقارفها وفيمن ينتهي عنها وهو لا يشتهيها أيهما أفضل وأجزل مثوبة عند الله ، فكتب في هذا فصل الخطاب إذ قال : « ان الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر كريم » .

وكذلك وصيته بكتمان السر وتبيينه لحسن عقباه حين قال : « من كتم سره كان الخيار بيده » .

وكذلك وصيته في الحب والبغض حين قال : « لا يكن حبك كلفًا ولا بغضك تلفًا » .

وكذلك مخافته محنة الفراغ على الناس أشد من مخافته محنة الخمر حين قال : « أحذركم عاقبة الفراغ فانه أجمع لأبواب المكروه من السكر » .

وكذلك وصاياه التي كانت تحفل بها كتبه الى الولاة وخطبه في الصلوات والأعياد وكلها آيات من هذه الحكمة العملية التي هي خلاصة الثقافة المحدودة في أقطاب الحكم خاصة ، وفي كل رجل يزاول شؤون الحياة على التعميم .

أما مشاركته في سائر الفنون والمعارف التي كانت ميسورة على عهده فمنها المستغرب عند من يتخيل صورة عمر من جملة أخباره ، ولا يتقصى فيها الى التفصيل .

فقليل من يتخيل أن عمر كان يعرف « جغرافية » الشرق كأحسن ما يعرفها رجل

في وطنه، ولكنه كان يعرفها حقًا عن سماع وعن رؤية وعن زكانة تعين السماع والرؤية. بل كان يفرض على الولاة أن يحيطوا بعلم ما يتولونه من البلاد ويعزل من يرى فيه تقصيرًا عن ذاك. فاستقدم عمار بن ياسر أمير الكوفة لما شكوه اليه وقالوا في شكواهم إياه: « انه لا يدري علام استعمل » وجعل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة سؤال مطلع خبير، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره..

ومن الواجب أن نشك في كل خبر يوهم أن عمر كان يجهل معرفة من المعارف العملية التي يحتاج اليها في تدبير الدولة، فلا يعقل مثلاً أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب وقد كان تاجرًا منذ نشأته في الجاهلية وكان يحضر الجيوش ويعرف ما هي الألوف وما هي عشرات الألوف، فاذا استفسر عن رقم فلم يكن الا استفسار تجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارة كما جاء في أخبار الخراج من هجر والبحرين..

قال أبو هريرة ما فحواه: قدمت من هجر والبحرين بخمسمائة الف درهم. فأتيت عمر بن الخطاب ممسيًا أسلمه إياه فسأل كم هو؟.. قلت خمسمائة ألف درهم؟.. قال: وتدري كم خمسمائة ألف درهم؟!.. قلت: نعم مائة ألف ومائة ألف خمس مرات.. قال: أنت ناعس، اذهب فبت الليلة حتى تصبح!..

فكل شيء يجوز أن يفهم من هذه القصة الا أن عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك، وهو الذي شهد الدولة وحسابها من عهد أبي بكر وأحصى الجند والمال في عهده.. انما هي غبطة واستعظام، وليس هو جهلاً بدلالة هذا الرقم في جملة الحساب.

واذا قل من يتخيل علم عمر بالجغرافية والحساب فأقل من أولئك من يتخيل له حظًا من السماع والغناء، ولكنه كان يسمع ويغني في بعض الأحيان، ولا ينهى عن غناء الا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات. جيء له برجل يغني في الحج وقيل له: ان هذا يغني وهو محرم. فقال: دعوه فان الغناء زاد الراكب.

وروى نائل مولى عثمان بن عفان انه خرج في ركب مع عمر وعثمان وابن عباس، وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رباح بن المعترف الفهري الذي كان يحدو ويجيد الحداء والغناء. فسألوه ذات ليلة أن يحدو لهم فأبى وقال مستنكرًا: مع عمر!..

قالوا : احدُ فإن نهاك فانته. فحدا، حتى إذا كان السحر قال له عمر: كف فإن هذه ساعة ذكر. ثم كانت الليلة الثانية فسألوه أن ينصب لهم نصب العرب. فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلاً : مع عمر؟.. قالوا له كما قالوا بالأمس : انصب فإن نهاك فانته. فنصب لهم نصب العرب حتى إذا كان السحر قال له عمر: كف فإن هذه ساعة ذكر. ثم كانت الليلة الثالثة فسألوه أن يغنيهم غناء القيان. فما هو إلا أن رفع عقيرته بغنائهن حتى نهاه وقال له : كف فإن هذا ينفر القلوب.

وكان يخرج للحج ومعه من يحسن الغناء فيقترح عليه أن يغني شعرًا ويؤثر أن يكون ذلك من شعره..

خرج مرة للحج ومعه خوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار، وقال عمر: بل دعوا أبا عبدالله فليغن من بنيات فؤاده. فما زال يغنيهم حتى كان السحر فهتف به عمر: ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا.

وجاءه قوم فذكروا أن إمامهم يصلي بهم العصر ثم يتغنى بأبيات من الشعر، فقام معهم اليه واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه، واستنشده الأبيات التي يغنيها، فأنشده :

وَفُؤَادي كُلَّمَا نَبَّهْتُهُ عَادَ في اللَّذَّاتِ يَبْغِي تَعَبِي
لا أرَاهُ الدَّهْرَ إلا لاهِيًا في تَمَادِيهِ فَقَدْ بَرَحَ بِي
يا قَرِينَ السُّوءِ مَا هَذا الصِّبَا فَنِيَ العُمْرُ كَذَا بِاللَّعِبِ
وَشَبَابٌ بَانَ مِنِّي فَمَضَى قَبْلَ أَنْ أَقْضِيَ مِنْهُ أَرَبِي
نَفْسُ لا كُنْتِ ولا كَانَ الهَوَى اتَّقِي المَوْلَى وخافي وارْهَبِي

فأعاد البيت الأخير، وقال لمن شكوا اليه : من كان منكم مغنيًا فليغن هكذا..

وكان مرة في سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد :

ومَا حَملَتْ مِن نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِها أَبَرّ وأَوفَى ذِمَّةً مِن مُحَمَّد

فاجتمع الركب اليه، فقرأ فتفرقوا. فعل ذلك وفعلوه مرات، فصاح بهم : « يا بني المتكاء ! .. اذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا أخذت في كتاب

الله تفرقتم ؟.. » لا يلومهم على الغناء وسماعه ، وانما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات .

ولا شك ان الشغف بالشعر الجزل والحديث الرائق والصوت الحسن لا يجتمع في نفس إلا اجتمع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل . ولكن أين يقع هذا من صرامة عمر وبأسه وشدة حجره على زينة الحسان؟.. فقد دخل في روع أناس أنها جميعًا من نقائض حب الجمال ، وقد سمعنا هذا فعلاً من أدباء يجلون عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من مأثور حسناته ، لأنه كان شديدًا في الحجاب وكان ينفي الفتيان الحسان كما صنع بنصر بن حجاج ومعقل بن سنان ، وكان يقول : « استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر» .

وعندنا نحن أن هذا جميعه ينم على الاحساس بخطر الجمال وطغيان فتنته ، ولا ينم على غفلة عنه وقلة مبالاة بأثره . وما نخال أحدًا من المترخصين في الحجاب كان يؤمن بسلطان الجمال أبلغ من ايمان عمر بسلطانه ، أوكان يعرف حق المرأة في الشوق اليه كما عرفه وأمر برعايته ، فانه كان ينكر على الآباء ان يكرهن فتياتهم على قباح الوجوه ويوصيهم : « ألا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فانهن يحببن ما تحبون » وجاءت له امرأة بزوج أشعث أغبر تسأله الخلاص منه ، فأمر به أن يحم وأن تقلم أظفاره ويؤخذ من شعره ، ثم قال له ولمن في مجلسه : « هكذا فاصنعوا لهن فوالله انهن ليحببن أن تتزينوا لهنّ كما تحبون أن يتزيّن لكم » .

فكل ما روي عن عمر من الشدة والرفق في معرض الجمال فهو دليل على الاحساس به ، وإكبار خطره ، وليس بدليل على الغفلة عنه واستصغار أثره ، وربما كانت الشدة والحجر أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة .

* * *

ومن الآداب العامة التي لها حظ من ذوق الجمال في معارض السياسة أدب الذكريات الذي لا يستغني عنه ولاة الأمر الموكلون باحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمها وأعيادها .

ففي هذا الأدب كان لعمر النصيب الذي يغنيه . فهو الذي اختار أو وافق على اختيار يوم الهجرة بداية للتاريخ الاسلامي . وانه لأصلح يوم يؤرخ به الاسلام .

لأن العقائد كما قلنا في « عبقرية محمد » : « تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب ، وكل انسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة. أما النفس التي تعتقد حقًا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقًا فهي النفس التي تؤمن في الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء » .

وكلما اقترح على عمر اقتراح فيه نفحة من ذوق الذكرى ، كان مجيبًا له سريع الاصغاء اليه. فكان يحترم وفاء بلال واقلاعه عن الآذان بعد وفاة النبي عليه السلام. ولكنه دعاه الى الآذان تلبية لاقتراح الجلة من الصحابة في يوم وداع دمشق بعد الفتح المبين. فبينما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة اذا بالصوت الذي انقطع بعد النبي يرتفع رويدًا رويدًا في الفضاء ويسري رويدًا رويدًا من الأسماع إلى الصدور. والتفتوا وكأنهم يسألون : ماذا ؟.. هل عاد محمد الى الأرض ؟.. إن لم يكن قد عاد فقد عاد الحنين اليه أقوى ما ينبعث من صوت إنسان إلى صدر إنسان... فذابت قلوب لا يذيبها الهول ، وبكى أشيب أولئك الأبطال وأصبرهم على حر القتال .

* * *

وإذا كان عمر المعجب بالجمال مستكنًا وراء ستار يحوجنا الى النظر من ورائه فعمر الرياضي المشغول بالرياضة البدنية ظاهر لنا بعمله وقوله. وبسيرته في الجاهلية وسيرته بعد الاسلام، وسيرته بعد الخلافة الى أن فارق الحياة..

فكان يصارع في المواسم ويسابق على الخيل، وكان ينوط مجد العرب بالرياضة والفروسية ويكتب إلى الامصار أن « علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن الشعر » ولا يفتأ يذكرهم انه « لن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو » أي يرمي بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب .

* * *

أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات البنية ولم تكن من صفات الذهن وكفى. فكان له فم يمتلىء بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول ، ولوحظ عليه انه كان ينطق ببعض الحروف – كالصاد – من كلا شدقيه وهي تنطق في الاغلب من شدق واحد .

وكان جهوري الصوت واضح النطق سليم الشفتين في اخراج الحروف. وكتابته

كلها كأنها خطب مرتجلات تقرأها فكأنك تصغي الى خطيب لا تفقد منه إلا الصوت المسموع.

ولانطباعه على الكلام الذي لا تصنع فيه كان يستسهل كل كلام يوافق طبعه ولا يستصعب من الخطب الا الذي يغير من نظرته الى الناس ويلجئه الى المداراة والباطل. فكان يقول: «ما يتصعدني كلام كما تصعدني خطب النكاح». والتمس ابن المقفع علة ذلك فقال: «ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه، ونظر الحداق من قرب في أجواف الحداق، ولأنه إذا كان جالسًا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء، واذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية» والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن اناس أنهم رجعوا باستصعاب عمر لخطب النكاح إلى «أن الخطيب لا يجد بدًا من تزكية الخاطب، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورًا وغر القوم من صاحبه» وكلا القولين جائز في بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم في محافل النكاح. فهو مطبوع على أن يتكلم إلى الناس كلام رجل يقود الرجال، ومطبوع على الصدق الذي تثقل على صاحبه المداهنة، وهي مما لا غنى عنه في هذا المقام. ولوكان الخاطب من الأكفاء.

وقد اختلفوا في نظمه الشعر فزعم الشعبي أنه كان شاعرًا ورويت له أشعار لا تشبهه ولا ترضيه، ونفى هو نظمه للشعر حين قال: «لوكنت أقول الشعر لرثيت أخي زيدًا».

ولا طائل في هذا الخلاف. لأنه لن ينتهي الى رأي قاطع يسكت عليه، ولكنما المهم في هذا الصدد أنه كان مطبوعًا على التعبير وله عبقرية فيه، أو أن تعبيره كان خاصًا به لا يشبهه تعبير سواه، فهو تعبير عمري بمفرداته وتركيبه لا يلتبس بتعبير أحد من أهل عصره حتى ليسهل تمييز كلامه من كل كلام ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة.

فمن خصوصياته في التعبير انه كان يقول: «لولا الخليفي لأذنت» وهو يعني الخلافة ولا يقصد الإغراب.

ومنها وهو ينقل خبر إسلامه إلى خاله: «وجئت الى خالي فأعلمته فدخل الى البيت وأجاف الباب» أي أوصده!

ومنها وهو يصف ما وقع في نفسه من الآية التي تلاها أبو بكر رضي الله عنه حين أنكر موت النبي فقال : « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي » يعني أنه عجز عن القيام .

ومنها في الكتابة والقراءة ينهى عن العجلة فيها : « شر الكتابة المشق وشر القراءة الهذرمة ، وأجود الخط أبينه » .

ومنها وهو يذكر امرأة كانت تسقي الناس يوم أحد : « كانت تزفر للناس القرب » أي تحملها .

ومنها في المشورة « الرأي الفرد كالخيط السحيل ، والرأيان كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض » .

ومنها حين كتب الى أبي عبيدة بعد ولايته الخلافة : « .. ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس » .

ومنها حين شكا اليه الشاكي هجاء الشاعر الذي قال فيه :

وَلا يَرِدونَ المَاءَ إلا عَشِيَّةً ... إِذَا صَدَرَ الوُرَّادُ عَنْ كلِّ مَوْرِدِ

فقال : ذلك أنفى « للساك » أي الزحام .

ومنها في سماحه بالبكاء « ما لم يكن نقع أو لقلقة » أي ما لم يثر التراب ويفرط في العويل ..

ومنها وقد حار بأهل الكوفة : « أعضل بي أهل الكوفة ما يرضون بأمير ولا يرضاهم أمير » .

ومنها : « ان قريشًا تريد أن تكون مغويات لمال الله » أي مصائد تحتجنه لها دون عباد الله .

ومنها : « تمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوًا » ، أي تزيوا بزي العرب من معد بن عدنان .

ومنها : « فرقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين ، ولا تلثوا بدار معجزة » أي تقيموا .

ومنها : « فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا » أي أن يتعرضا للقتل.

ومنها : « ... ان الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في الضلالة، فافهموا ما توعظون به. فان الحريب من حرب في دينه » يريد المسلوب.

ومنها وقد سمع بامرأة سافرة يبرزها زوجها فقال : « هذه الخارجة وهذا المرسلها لو قدرت عليهما لشترت بهما » أي لأغلظت القول لهما.

ومنها لما سألوه لم حصبت المسجد فقال : « هو أغفر للنخامة وألين في الموطن » أي أستر للبصاق.

ومنها : « ثلاث من الفواقر : جار مقامة إن رأى حسنة سترها، وإن رأى سيئة أذاعها. وامرأة إن دخلت عليها لسنتك وإن غبت عنها لم تأمنها، وسلطان إن أحسنت لم يحمدك، وإن أسأت قتلك » ولسنتك : أي تناولتك بلسانها..

ومنها وهو يخاطب سعد بن عبادة يوم السقيفة : « لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك » أي تسقط.

ومنها وهو يتكلم عن امرئ القيس : « خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معاني عور أصح بصر » أي استنبط عين الشعر وشق طريق المعاني وأتى بالشوارد الحسان.

ومنها وهو يتكلم عن نصيب المسلمين في الغنائم وبيت المال : « والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه » أي قبل أن يخجل ويحمر وجهه في طلبه.

ومنها قوله لأعرابي استفتاه في صيد ظبي وهو محرم : « أتقتل في الحرم وتغمص الفتيا ! » أي تعيبها ولا ترضاها !

* * *

وأشباه هذا كثير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتاب، تعمدنا أن نكثر شواهده لنرى أنه ليس بالمصادقة وليس بالتكرير لنمط واحد من العبارات..

ويلحق بهذا تسمية مواليه بين أسبق وأسلم ويرفأ وفرقد وذكوان وفروخ وما شابه هذه الأسماء. وهي تسمية مفردة تكاد تقتصر عليه، وانما هي الطبيعة العمرية تمثلت في صيغة الكلام وفي اختيار الأعلام. فلا تستطيع أن تسميها اغرابًا او عسلطة أو تعملاً ينحو من أنحائه، اذ ليس وراءها قصد متفق في جميع هذه الصيغ، وأبين ما يبين فيها أنها من عفو البداهة هنا وهناك، وانها تترجم عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة وأشبهها بصاحبها، فهي قوية خشنة مستقلة جادة خالية من الزخرف. وهكذا كان المتكلم عمر وهكذا كان كلامه الذي ينطبع عليه حين يكون منطبعًا على التعبير، فلو أن كلمات تتمثل رجلاً لتراءى لنا من مثال هذه الكلمات شخص عمر في خلقه وخلقه كما كان.

* * *

ومحصل هذه الأخبار جميعًا أن عمر كان من نخبة المثقفين في العربية، وكان وافر السهم في ثقافة قومه وعصره. وكان الجانب العملي من ثقافته أغلب وأظهر من جوانبها النظرية كما هو المعهود في ساسة الأمم وعواهل الدول، وإن كان لا يمنع انه اشتاق الى نفائس الشعر وأطايب الأدب لما يجده فيها من راحة النفس ومتعة الخاطر.

ويستطرد بنا الكلام على ثقافته العربية الى الكلام على موقفه من الثقافات الأخرى في زمانه، وعلى حقيقة الرواية التي شاعت وتواترت عن موقفه من مكتبة الاسكندرية التي قيل انه أمر باحراقها. فهل هو الآمر باحراقها كما جاء في تلك الرواية؟.. واذا كان هو الآمر بذلك فما دلالته على تفكيره؟.. وما وجه التبعة فيه؟.. فحوى تلك الرواية أن عمرو بن العاص رفع اليه خبر المكتبة الكبرى في الاسكندرية، فجاءه الجواب منه بما نصه: «أما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى: وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه، فتقدم باعدامها» قال مفصل هذه الرواية: فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفد لكثرتها!..

وأحرى شيء أن يلاحظ في مسألة المكتبة هذه أن الذين أدحضوها وأبرأوا عمر من تبعتها كان معظمهم من مؤرخي الاوربيين الذين لا يتهمون بالتشيع للمسلمين،

وكانوا جميعًا من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم في هذا الموضوع .

فالمؤرخ الانجليزي الكبير ادوارد جيبون Gibbon صاحب كتاب « الدولة الرومانية في انحدارها وسقوطها » يسرد الحكاية ويعقب عليها قائلاً : « أما أنا من جانبي فانني شديد الميل الى انكار الحادثة وتوابعها على السواء ، لأن الحادثة لعجيبة في الحق كما يقول مؤرخها اذ يسألنا هو أن نسمع ما جرى ونعجب ! .. وهذا الكلام الذي يقصه أجنبي غريب يكتب على تخوم ميدية بعد ستمائة سنة يوازنه ويرجح عليه ولا شك سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحي وكلاهما مصري ، وأقدمهما البطريق يوتيخيوس Eutychius الذي توسع في الكتابة عن فتح الاسكندرية ، وان القضاء الصارم الذي نسب الى عمر لبغيض الى أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين الذين يفتون بتحريم احراق الكتب الدينية التي تغنم من اليهود والمسيحيين في الحرب ، وما كان من الكتب دنيويا ظنينا سواء ألّفه المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة فحكمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين .

وقد تعزى الى متقدمي الخلفاء بعد محمد غيرة أضرى من ذلك بالهدم والابادة . ولكن لو صح هذا لوجب أن تنفد الأوراق سريعًا لقلة المادة المحترقة ! .. فلا نرجع الى نكبة المكتبة في الحريق الذي أصابها على غير قصد بيدي قيصر وهو يدافع عن نفسه ، ولا الى تعصب المسيحيين الأوائل الذين كانوا يدبرون الوسائل تدبيرًا لتعفية الآثار المتخلفة من أيام عبادة الأصنام ، ولكننا ننحدر شيئًا فشيئًا من عصر أنتونين الى عصر ثيوديسيوس فنعلم من سلسلة الأنباء المعاصرة أن القصر الملكي وهيكل سرابيس لم تبق فيهما تلك الأسفار التي جمعها البطالسة وبلغت في احدى الروايات أربعة آلاف وفي رواية أخرى سبعة آلاف ، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة بذخيرة من الأوراق والأضابير، فان كانت هذه هي الوقود الذي أفنته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعديد الطبيعة المسيحية والقائلين بتوحيدها فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامة أنها كانت في الحمامات أنفع لبني الانسان ! .. » .

والدكتور الفرد بتلر Butler المؤرخ الانجليزي الذي أسهب في تاريخ فتح العرب لمصر والاسكندرية يلخص الحكاية وينقضها ابتداء لأن حنا فلبيوتوس الذي

قيل أنه خاطب عمرو بن العاص في أمر المكتبة لم يكن حيًا في أيام فتح العرب لمصر. ثم ينقضها لأسباب شتى منها أن كثيرًا من كتب القرن السابع كانت من الرق وهو لا يصلح للوقود، وانها لو قضى الخليفة باحراقها لأحرقت في مكانها ولم يتجشموا نقلها الى الحمامات مع ما فيه من التعب ومع امكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بابخس الأثمان، وأننا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق لما كفى الباقي من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يومًا، وهذا عدا الشك الذي يعتور القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الاسكندرية، ثم كتابتها بعد ذلك خلوًا من المصادر والاسناد، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة في السنة الثامنة والأربعين للميلاد، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلاقل بين طوائف المسيحيين.

والمستشرق كازانوفا يسمي الحكاية أسطورة ويقول انها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون، وينقضها لمثل الأسباب التي لخصناها من كتاب بتلر، ثم يقول: «.. وهناك اعتراض أخطر مما تقدم وهو أن ما ذكر عن يحيي النحوي منقول عن كتاب الفهرست لابن النديم في أواخر القرن العاشر، وفيه أن يحيي هذا عاش حتى فتحت مصر وكان مقربًا من عمرو ولم يذكر شيئًا عن مكتبة الاسكندرية، فحادثة المكتبة إذن من أوهام ابن القفطي أخذها عن خرافة كانت شائعة في عصره».

ثم يمضي في تفنيده فيقول: «وقد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس والأشوريين والبابليين والقبط التي حرقها عمر عند فتح العرب. وقال ابن خلدون في كلام آخر: إن العرب لما فتحوا بلاد الفرس سأل سعد بن أبي وقاص عمر عما يأمر به في شأن الكتب التي بها فأمره بالقائها في اليم فانتقلت القصة من فارس الى الاسكندرية مع الزمن، وفعل الخيال فعله في تحريفها.

«وقد وقع تحريف في هذه الخرافة في بعض دوائر المعارف حيث نقل عن سبرنجل أن مكتبة الاسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد، وأن الترك فتحوا الاسكندرية سنة ٨٦٨ وأضرموا فيها النار على عهد أحمد ابن طولون.. ولكن أحمد بن طولون لم يفتح مصر، وانما أقامه خليفة بغداد حاكما

عليها. فلا علاقة للترك إذن بهذا الحادث المزعوم».

قال: «وفي سنة ١٨٧٧ ذكر الكونت دي لندبرج أن أحد الضباط الانجليز اتهم نابليون الأول باحراق مكتبة الاسكندرية».

قال: «وسلم هنا بالسبب الذي من أجله ظهرت هذه الخرافة في القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك».

«ففي أواخر القرن الثاني عشر رجعت مصر إلى حكم خلفاء بغداد. وأبلى صلاح الدين بلاءه في الحروب الصليبية وانتصر على المسيحيين فلقبه الشعب بفاتح مصر، وقرن بين اسمه واسم عمر بن الخطاب، وكان لابن القفطي أب يعجب بصلاح الدين ولاه صلاح الدين قضاء القدس، وعاصر عبد اللطيف البغدادي وهو من المعجبين مثله بصلاح الدين، فتلاقيا في القدس وسمع منه هذه الأسطورة التي توسع ابن القفطي في نقلها. فكان أول من ألف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد. ومما يروى عن صلاح الدين أنه باع كنوز القصر والمكتبة فبقيت هذه الرواية إلى القرن الثامن عشر يوشيها ما ينسجه الخيال حول الخرافة العمرية. ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد تعززها خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله ألا كتاب إلا كتاب الله»..

ومن المشارقة الذين تناولوا حكاية المكتبة المؤرخ الكبير جورجي زيدان في الجزء الثالث من كتابه «تاريخ التمدن الاسلامي» حيث قال إنه كان يميل إلى نفي الحكاية ثم عدل عن ميله هذا إلى قبولها وأورد من أسباب ذلك «ان حكاية إحراق مكتبة الاسكندرية لم يختلقها أبو الفرج لتعصب ديني، ولا دسها أحد بعده، بل هو نقلها عن ابن القفطي وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل، وكان صدرًا محتشمًا جمع من الكتب ما لا يوصف وكانوا يحملونها اليه من الآفاق وكانت مكتبته تساوي خمسين ألف دينار. ولم يكن يحب من الدنيا سواها وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ولم يخلف ولدًا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب، وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة وفي جملتها كتاب أخبار مصر من ابتدائها

إلى أيام صلاح الدين في ستة مجلدات وكتاب تراجم الحكماء الذي نحن في صدده. وان ابن القطفي وعبد اللطيف البغدادي أخذا عن مصدر ضائع. وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة. فلا بد له من سبب، والغالب انهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الإسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه أو لعل لذلك سببًا آخر، وفي كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبي الفرج ... »

ونرى نحن أن ابن القفطي كان أولى ممن تقدموه بالسكوت عن حريق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب لو كان الذين تقدموه قد سكتوا عنه لعرفانهم قدر الكتب وغيرتهم على سمعة الخلفاء الراشدين، فان ابن القفطي لا يجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين في المغالاة بنفاسة المكتبات. فلا بد من تعليل أصوب من هذا التعليل لسكوت المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية الى أن نجمت بعد بضعة قرون..

* * *

فمن جملة هذا العرض لآراء نخبة من الثقات في هذه المسألة يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها، وانها موضوعة في القرن الذي كتبت فيه ولم تتصل بالأزمنة السابقة له بسند صحيح، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الذميم عليه وعلى الاسلام.

واذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة فالمعقول ألا توضع قبل القرن السادس الهجري الذي تسربت فيه الى الكتب المدونة، وهذا يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر في الحكاية من جميع أطرافها لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها في وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة.

فهو يستلزم أن يكون الملفق عليمًا بالأقوال والأحوال التي أُثِرت عن عمر بن الخطاب وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريبة التصديق مشابهة لما يتوخاه الخليفة في أوامره ونواهيه ... ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين

أنفسهم عند فتح الاسكندرية فضلاً عن المسيحيين أو الاسرائيليين ، وانما عمت واستفاضت بعدما دونت السير وجمعت المتفرقات .

ويستلزم تلفيق الحكاية ، للتشهير بالخليفة المسلم ، أن يكون الملفق عارفًا بما في هذه التهمة من المعابة ، شاعرًا بما فيها من الاعتساف والغرابة ، ولم يكن هذا ايضًا مفهومًا في أيام فتح الاسكندرية بين خصوم الإسلام ، لأنهم كانوا قد تعودوا احراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية وبقاياها رجسًا من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم ، وما من عارف بالكتب بينهم الا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين في تدمير التحف الاغريقية ولا سيما « ثاوديسيس » الذي أحرق هياكل شتى فيها ولا شك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التي عليها الخلاف .

وقد يستلزم تلفيق الحكاية أن تكون مصر وأخبارها موضع اهتمام ومثار قيل وقال ، ولم تكن مصر قط قبلة أنظار العالم كما كانت في أوقات الحروب الصليبية ، يوم كانت هي ميدان الفصل ومناط الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها .

وقد يستلزم كذلك أن يكون العصر عصر حزازة بين الاسلام وخصومه كما كان عصر الحروب الصليبية وما قبله بقليل .

وقد يستلزم مع جميع أولئك أن يشترك في القيل والقال حافظو الكتب الاغريقية في بيزنطية وشواطىء آسيا الغربية وهي البلاد التي كانت موطىء أقدام الجيوش في الكر والفر والقدوم والاياب ، ومنها تدفق حافظو الكتب الى أوروبا عندما أغار الترك على بيزنطية من تلك الأرجاء .

فتلفيق الحكاية كان عجيبًا أيام فتح الاسكندرية وما تلاها من الأزمنة الى زمان القفطي والبغدادي وأبي الفرج الملطي ، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبة في تلك الأيام .

وتلفيقها في عصر الحروب الصليبية غير عجيب لاجتماع الأسباب التي يستلزمها ذلك التلفيق ، ولهذا ظهرت فيه وأمدنا ظهورها فيه بالسبب الذي يبطل العجب ويفسر الغوامض التي لا يفسرها تعليل معروف غير هذا التعليل ..

الا اننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الاسكندرية، فما هي الوصمة التي تلحقه من هذا الأمر؟.. ولماذا كان يحرم عليه أن يحرقها ويجب عليه أن يستبقيها ويفتح أبوابها؟.. ولماذا كان ينبغي أن يكون على يقين أنها شيء مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها؟..

أمن النقص في تفكير الانسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية؟.. أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها، إن صح انهم حفظوها؟..

إن احوال الروم والقبط في ذلك العهد لم يكن فيها دليل واحد على أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفيسة، وان ضياع كتبهم فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التي لا يجوز التفريط فيها.

فقد كانوا على شر حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفساف الأمور. فاذا كان عمر غير مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها، واذا كانت أحوال الأمم التي هي أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوغ الاعتقاد بخلوها من كل قيمة، فأين هو العيب في تفكيره إن صح انه فكر على ذلك المنوال؟..

انما يعيب الانسان أن يكون عدوًا للمعرفة على اطلاقها، ولم يكن عمر عدوًا للمعرفة ولا معرضًا عنها، بل كان مشغوفًا بها حيث رآها دينية كانت أو أدبية، ومن قومه أتت أو من غير قومه..

فكان يستشير الغرباء في تدوين الدواوين ومنافع الصناعة ولا ينهى عن علم شيء إلا أن تكون فيه فتنة أو ضلال.

وكان ولا ريب يؤثر للمسلمين أن يقبلوا على دراسة القرآن ويقدموا فهمه على فهم كل كتاب، وهذا واجبه الأول الذي لا مراء فيه، وما من احد هو مطالب بهذا الواجب قبل أن يطالب به عمر على التخصيص، لأنه الخليفة الذي في عهده انتشر المسلمون

بين أقطار المشرق وخيف عليهم أشد الخوف أن ينحل العقد الذي جمعهم وبث فيهم الهمة والبأس وسودهم على العالمين.

وفي الأخبار التي نقلت بهذا الصدد، أن رجلاً أنبأه أنهم لما فتحوا المدائن أصاب كتابًا فيه كلام معجب. فسأله: أمن كتاب الله ؟.. فقال: لا... فدعا بالدرة فجعل يضربه بها وهو يقرأ: « الر. تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآنا عربيًا لعلكم تعقلون... » ثم قال: « انما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم ».

رويت هذه الرواية عن عمر بن ميمون عن أبيه، وليس فيها ما يأباه العقل ولو حكمنا على عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والايمان الى حين..

فبالتجربة الواقعية أيقن عمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات الى النور وانتصروا على من حاربوه وعندهم كل كتاب..

وما فرغ المسلمون بعد من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله بينهم سنوات. فكيف يرضى الخليفة الذي يهمه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه الى كتب لا يؤمن ما فيها؟.. وكيف يكون الحال اذا تفرقوا شذر مذر ولهم في كل بلد قراءة غير هذا الكتاب الذي لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا كل ما فيه؟.. أمن عداوة المعرفة هذا أومن ايثار المعرفة التي تتقدم على غيرها؟.. واذا لم تتقدم هذه المعرفة على غيرها في السنوات الأولى من تداول القرآن الكريم فمتى تتقدم؟.. ومتى يعطى القرآن حقه من الفقه والوعي والاقبال؟ وأين هي الغنيمة الروحية التي تعدل في كتاب من الكتب بعض ما غنمه المسلمون بوحي القرآن في صدر الاسلام؟..

فعلى أي فرض من الفروض، لم يكن في تصرف عمر ما يأباه العقل الذي ينظر الى الحقائق المشهودة والآثار الواقعة، ويجوز انه أمر باحراق مكتبة الاسكندرية على أبعد احتمال، ولكن الذي لا يجوز لمنصف أن يفهم من ذلك أنه عدو الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفع، ومعرفة مجهولة

ظواهرها كلها تغري باتهامها. ولا لوم عليه أن يتهمها وهي لم تنفع أهلها يوم رآهم يخبطون في الضلالة والهزيمة، ولا يقال عن عقل يفكر هذا التفكير أنه لم يفكر على هدى مستقيم.

عمر في بيته

كان الخليفة الأكبر – صاحب الأمر في الجزيرة العربية ، وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة ، ومدبر الحكم في الرقعة الوسطى بين قارات العالم المعمور – رجلا فقيرًا يعيش في بيته عيشة الكفاف ، ويقنع من الغذاء والكساء بحظ لا يتمناه كثير من الرجال ، ويزهد فيه كثير من النساء .

فمن العجيب أن يخطب بعض النساء فيأبين عيشه ، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبي عليه السلام ، فلم يقبلنه إلا وقد خيرن بينه وبين الطلاق ..

وما ندري أي الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أغلى وأجمل ، فان الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصى ، وهي جميعًا مما تغالي به السير وتزدان بجماله . ولكنا لا نعرف بينها ما هو أغلى وأجمل من هاتين الشهادتين : أن يعيش في بيته عيشًا لا يشتهى ، وأن تكون في يده صولة الملك فلا ترى فيها امرأة من النساء خلابة تغرها ولا صولة تخيفها من أن ترفضها وتأباها ..

إن امرأة واحدة ترفض عمر لأغلى في الشهادة له من ألف امرأة يقبلن على بيته ويطمعن في سلطانه .

وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته ، وصفًا لم نسمع فيما قيل عن إيمانه بالله أصدق منه ولا أوجز وأوفى ، فقالت أم ابان بنت عتبة بن ربيعة :

إنه رجل « أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه ، كأنه ينظر الى ربه بعينه » .

والذي نعنيه من الوصف هو قولها عن مخافته الله إنه كان يخافه كأنه يراه بعينه ..

فهو في الحق أصدق وصف لايمان هذا الرجل المتفرد بإيمانه كما تفرد بكثير من شؤونه. انه تجاوز حد الإيمان الى حد الرؤية والعيان، وحقق مبالغات أبي الطيب المتنبي حين وصف الغاية القصوى من الشجاعة والحكمة فقال:

تَجاوَزْتَ مِقْدارَ الشَّجاعَةِ والنُهى إلى قول ِ قَوْم ٍ أَنت بالغَيْب ِ عالِـم

ومهما يكن من إيمان بالغيب فهو لا يبلغ في اليقين والحضور مبلغ الرؤية بالعين، وهي قولة عائرة من قائلة أصابت ما لم يصبه قائل، ولعلها لا تدري مدى صوابها.

وخطب عمر أم كلثوم بنت أبي بكر الى أختها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت له: الأمر اليك. ثم سألت أختها فأبته وقالت: لا حاجة لي فيه. فزجرتها قائلة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟.. قالت: نعم. انه خشن العيش شديد على النساء. وكرهت عائشة أن تجبهه بالرفض فوسطت في الأمر عمرو بن العاص يحتال له برفقه وحسن تدبيره، فجاء عمر وفاجأه قائلاً: بلغني خبر أعيذك بالله منه. قال: ما هو؟.. قال: خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر.. قال: نعم، أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني؟.. قال: لا واحدة، ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أمير المؤمنين في لين ورفق، وفيك غلظة، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك، فكيف بها ان خالفتك في شيء فسطوت بها؟.. كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك!.. ففهم عمر أن ابن العاص لا يقدم على هذه الوساطة بغير موسط، وان في الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء.. فسأله كأنه يستطلع ما وراءه من الممانعة: كيف بعائشة وقد كلمتها؟.. قال: أنا لك بها، وأدلك على خير منها: أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، تعلق منها بنسب رسول الله.

وأم كلثوم بنت علي حدثة أيضًا، والمحظور في اغضابها أكبر من المحظور في اغضاب بنت أبي بكر، وان اعتمد ابن العاص على أن عمر يملك نفسه فلا يغضبها فقد كان حريًا به أن يعتمد على شيء من ذلك في خطبته لبنت الصدِّيق... فلن يفوت عمر – وهو يعلم من يخاطبه في الأمر – أن يفهم خبيئة سعيه وأن يتجاهله لئلا يكشف موقف الرفض والاعتذار من عائشة وأختها رضي الله عنها، ويعمل بما يراه الصواب.

والطريف في القصة – وكلها طريف – أن يذهب عمرو بن العاص إلى خليفته ليواجهه بما يؤخذ عليه من خلائقه وهو آمن أن يغضبه، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته إياه ما دام على صدق في مقاله.

وللمرأة أن تأبى الخشونة في رجلها ولا تستريح اليها، ولكن دارس الأخلاق لا ينبغي أن يعيب هذه الخصلة الا بمقدار ما فيها من نقص في الطبائع الانسانية الأصيلة.. اذ المحقق أن الخشونة حرمان من الصقل والمرونة، ولكننا نخطىء كل الخطأ إن حسبناها حرمانًا من البر والرحمة، لأن المرء قد يكون ناعم الملمس وهو قاس مفرط القسوة، ويكون خشن الملمس وهو رحيم مفرط الرحمة، ويغلب في هذه الحالة أن تكون خشونته – كما أسلفنا في فصل سابق – درعًا يستر بها مواضع اللين في خلقه، وضربًا من الخجل أن يطلع على ناحية فيه يتطرق اليها الضعف وتنفذ منها الرماية.

فالخشونة نقيض الصقل والنعومة، وليست نقيض العطف والرحمة. وعمر بن الخطاب من أفذاذ الرجال الذين تتجلى فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء، حتى في علاقته بالأهل والنساء.

رحمة عمر رحمة في غلاف وليست بالرحمة المكشوفة لكل ناظر ولامس. ولا تطول بالناس عشرته حتى ينقشع هذا الغلاف عن قلب وديع مفعم بالعطف والمودة، مفتح الجوانب لكل عاطفة كريمة ولو لم تكن من ولي حميم.

فنساؤه اللائي عاشرنه قد كلفن بحبه ورضين عيشه لرضاهن بمودته وعطفه، وكانت إحداهن التي سميت العاصية وسماها النبي عليه السلام الجميلة لا تطيق فراقه. فإذا خرج مشت معه الى باب الدار فقبلته ولم تزل في انتظاره..

وكانت من نسائه عاتكة بنت زيد، وهي على قسط وافر من الجمال ومن الدين ومن البلاغة، تولهت في رثائه حين قتل فلم يكن بكاؤها عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد، وتعددت قصائدها في تأبينه بكلام لا يغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة، وهي التي قالت فيه:

عِصْمة الناس والمعِين على الدَّهـ ـرِ وغَيث المُنتـاب والمحروب
قُل لأَهلِ الضرَّاء والبُؤْس مُوتوا قَد سَقَتْه المنون كأسَ شعوب

وقالت فيه :

رؤوفٍ على الأدْنَى غَليظ على العِدَا أَخي ثقَةٍ في النَّائبات مُنِيبِ
مَتَى مَا يَقُلْ لا يَكْذب الله قَوْلهُ سَريعٍ إلى الخَيْرَاتِ غَير قطوبِ

وقالت فيه :

يا لَيلَة حُسِبَت عليَّ نُجُومهـا فَسَهرتُهَا والشَّامِتُونَ هُجُودُ
قَدْ كانَ يسْهِرني حذَارُكَ مَرَّة فاليَوْمَ حقٌّ لِعَينِي التَسْهِيـدُ

ولا يُبكى الرجل هذا البكاء على ما فيه عيشه من الشظف إلا ومن وراء خشونته مودة قلب تنفذ إلى القلوب.

وأكثف ما تكون الدروع أرق ما يكون الموضع الذي يليها وأخوفه من الاصابة.

فانظر أين الموضع الحصين المحمي فهنالك الموضع اللين الذي يخاف عليه، ولا يخدعنك عن ذلك خادع من إظهار أو تظاهر غير مشعور به، وغير مقصود.

أين أكثف ما تكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التي عنيناها ؟..

المرأة ولا نزاع !..

فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعدت من دلائل شدته عليها، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ : «ان الله غيور يحب الغيور، وإن عمر غيور».

وعلى المرأة ومن المرأة كان حذره أن تتخايل للعيون وتتبرج في مضطرب الفتون.

وكلما أوصى بوصية فيها فانما هي الفتنة التي يتقيها، فلما قال: عليكم بالأبكار. لم يقل عليكم بالأبكار لأنهن أمتع وأنضر، ولكنه قال عليكم بهن لأنهن أكثر حبًا وأقل خبًا.

ولما توجس من زواج المسلمين ببنات الأعاجم لم يتوجس منه لأنه حرام بل لأن «في نساء الأعاجم خلابة، فان أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم»..

فالخلابة هي المحذور الذي يتقى..

وهنا كثافة الدرع فابحث هنا عن منفذ الحذر، إنك لا تبعد كثيرًا حتى تلمس

الموضع الذي نمَّ عليه الرجل حيث قال : « لو أدركت عفراء وعروة جمعت بينهما » .. أو نم عليه الصبي الذي عناه ابن الخطاب حيث قال : « أحب أن يكون الرجل في أهله كالصبي فاذا احتيج اليه كان رجلاً » .

ومتى كان فرط الغيرة على المرأة أو الحذر منها دليلاً على أنها ذلك الشيء المهين ، وان قال الغيور الحذور بلسانه إنها لشيء مهين ؟ ..

* * *

وابحث عن جانب واحد مغلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذي ينبغي أن يوصل فإنك لن تجده في نفس هذا الرجل بتة ، وإن جهدت في البحث ..

فكان ابنًا بارًا لا ينسى التحدث عن أبيه ويعتز بذكراه على ما كان من قسوته عليه في صباه ، ولم يزل يقسم باسمه حتى نهاه النبي ، فانتهى وهو يقارب الكهولة .

وكان أبًا يحب أبناءه ويعرف وجد الآباء بالأبناء ، وينزع الثقة من وال لا يحنو على صغاره .. أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبي صغير فجلس في حجره وهو يلاطفه ويقبله فسأله المرشح للولاية : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين ؟ .. إن لي عشرة أولاد ما قبلت أحدًا منهم ولا دنا أحدهم مني .. فقال له عمر : وما ذنبي إن كان الله عزّ وجل نزع الرحمة من قلبك ... انما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول : انه اذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟ ..

وكان كلاب بن أمية الكناني في غزوة فاشتاق اليه أبوه الهرم وحزن لغيابه . واتصل نبؤه بعمر فكتب الى قائد الجيش يستعيد كلابًا الى المدينة . فلما عاد ودخل عليه سأله : ما بلغ من برك بأبيك . قال : كنت أكفيه أمره ، وكنت أعتمد اذا أردت أن أحلب لبنًا أغزر ناقة في ابله وأسمنها فأريحها وأتركها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد ، ثم أحلب له فأسقيه ..

ثم بعث إلى أبيه فجاء يتراوح في مشيته ضعيفًا بصره محنيًا ظهره فسأله : كيف أنت يا أبا كلاب ؟ .. قال : كما ترى يا أمير المؤمنين ... ثم جاءه بلبن حلبه ابنه ففطن الرجل ، وقال وهو يدني الاناء الى فمه : لعمر الله يا أمير المؤمنين اني لأشم رائحة يدي كلاب من هذا الاناء ! .. فقال عمر : هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به .

فوثب اليه ابنه، وطفق الأب الذي لم يكد يراه يضمه ويقبله... وبكى عمر، وأمر كلاباً أن يلزم أبويه ما بقيا، وله عطاؤه كأنه يجاهد في سبيل الله.

ومن حنانه على الأطفال انه كان يشفق عليهم أن يحزنوا في لهوهم ولعبهم فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوه ومحصول لعبه، فحدث سنان بن سلمة انه كان في صباه يلتقط البلح في أصول النخل مع بعض الصبية إذ أقبل عمر فتفرق الغلمان وثبت هو في مكانه، فلما دنا منه أسرع قائلاً: يا أمير المؤمنين!.. انما هذا ما ألقت الريح. قال: أرني أنظر فانه لا يخفى عليّ. فنظر في حجره ثم قال: صدقت. إلا أن الصبي لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين الى بيته، فقال: يا أمير المؤمنين! أترى هؤلاء الآن؟.. وأشار الى الصبية الهاربين. ثم قال: والله لئن انطلقت لأغاروا عليَّ فانتزعوا ما معي، فمشى معه عمر حتى بلغه بيته!..

وكثير على المصدقين المفرطين في التصديق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم يصدقوا أنه وأد بنتًا في الجاهلية على تلك الصورة البشعة التي انتقلت الينا في بعض الروايات، وخلاصتها «انه رضي الله عنه كان جالسًا مع بعض الصحابة إذ ضحك قليلاً ثم بكى، فسأله من حضر فقال: كنا في الجاهلية نصنع صنماً من العجوة فنعبده ثم نأكله وهذا سبب ضحكي. أما بكائي فلأنه كانت لي ابنة فأردت وأدها فأخذتها معي وحفرت لها حفرة، فصارت تنفض التراب عن لحيتي فدفنتها حية».

فهي قصة يعتورها الشك من ناحية ضحكها ومن ناحية بكائها ومن ناحية اجتماعها في لحظة واحدة لتمكين واضع القصة من التفرقة بين عصري عمر في جاهليته واسلامه، وأدعى ما فيها من الشك تلك الخاتمة التي يتم بها اختراع الفجيعة والبلوغ بها الى ذروتها، وهي نفض الطفلة الصغيرة تراب حفرتها عن لحية أبيها.

فالوأد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية. ولم يشتهر بنو عديّ خاصة بهذه العادة ولا اشتهرت بها اسرة الخطاب التي عاشت منها فيما نعلم فاطمة أخت عمر وحفصة أكبر أولاده وهي التي كني أبا حفص باسمها.

وقد ولدت حفصة قبل البعث الاسلامي بخمس سنوات فلم يئدها. فلماذا وأد

الصغرى المزعومة وهي في السن التي تفهم فيها كيف تنفض التراب عن لحية أبيها؟.. لماذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومة فلم يذكرها أحد من اخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومتها وخؤولتها؟..

ما نحسبها إلا احدى جنايات الاغراب على من خلقوا وفي سيرتهم مثال للإغراب والاعجاب. فهي اختراعة تضعفها قرائن التاريخ، وتضعفها خلائق عمر التي لا تتبدل هذا التبدل من النقيض الى النقيض بين جاهليته وإسلامه. وقد كان عمر في جاهليته لم يسلم بعد يوم أشفق على أخته وهي دامية الوجه. وكان في جاهليته يوم أحب أخاه حبه المفرط وبقي عليه. فليس وقوع القصة المزعومة في الجاهلية مانعًا لغرابتها ومقربًا لتصديقها. وغير هذا الأب وهذا الأخ يطيق هذه القسوة التي لا تطاق.

إن قليلاً من الآباء من أحب أبناءه كما أحب عمر أبناءه، وان قليلاً من الاخوة من أحب أخًا كما أحب عمر زيدًا أخاه، فما سمع اسمه بعد مقتله الا سالت عبرته، وما هبت الصبا، كما قال – الا وجد نسيم زيد – وتمنى نظم الشعر لينظمه في رثائه.

بل إن قليلاً من الاصدقاء أخلص لأصدقائه وعشرائه كما أخلص عمر لكل صديق وعشير... وهو القائل: «لقاء الإخوان جلاء الأحزان» وهو القائل حرصًا على المودة وضنًا بها: «اذا أصاب أحدكم ودًا من أخيه فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك».

* * *

فإذا أردنا أن ننقب عن وشائج الرحم وصلات المودة في نفس هذا الرجل المهيب المخيف فلننقب عنها في ينابيعها الخفية التي تسري منها وتترقرق في نواحيها، ولا ننقبن عنها في الصخور التي تكتنفها وتطفو عليها وترفع أعلامها..

أو نحن حريون أن ننقب عنها بين هذه الصخور والأعلام ولكن على هدى وبصيرة. فلا نقنع منها برأي العين من بعيد أو قريب، ولا نغتر بما تبديه كأنه كل شيء تحتويه.

فما هذه الصخور والأعلام التي كانت تروع الناظر من هيبة عمر ومن ملامح

سماه ؟ . .

هي مظهر قدرته على نفسه لا أكثر ولا أقل ، وهي الحارس اليقظ الذي يحمي تلك النفس أن يتسرب اليها الوهن وأن تؤخذ على حين غرة ، من حيث يخاف عليها.

والمرء لا يعتصم بقدرته على نفسه وهو آمن . ولا يوقظ الحارس على دخيلته وهو وادع في سربه . انما يعتصم بقدرته ويوقظ حارسه حين يحذر ، وانما يحذر من الطارق الذي لا يستهين به ولا يزال على رقبة منه . . .

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر ما يكون اعتصامًا بقدرته في أمس الأمور بقلبه وسريرة طبعه : في خشية الخديعة من ناحية الترف والمتعة فهو لا يستسلم لشهوة مأكل ولا ملبس ولا قنية دنيوية . وفي خشية الخديعة من ناحية ولده وأهله فهو يجفل من أن يرى لهم رزقًا لا يعرف مأتاه ، ويجفل من أن يرى لهم إبلاً سمانًا بين الإبل العجاف ، مخافة أن يسمنها لهم الناس في مراعيهم . . لأنهم ولد أمير المؤمنين وتلك ابل أبناء أمير المؤمنين ! . .

وكان أكثر ما يكون اعتصامًا بقدرته حين يلمح الفتنة الكبرى التي يقتدر بها شيطان الغواية . وتلك هي المرأة التي لا فرق بين خيارها وشرارها . فمن شرارها استعذ بالله ! . . ومن خيارها كن على حذر ! . .

واذا اعتصم عمر بن الخطاب بنفسه فانتظر شيئًا واحدًا لن تجد حولا عنه ، وهو تقديره العدل تقدير الخائف أن يزيد فيه شعرة أو ينقص منه شعرة . فمتى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر فللحق يقظته وفي سبيل الحق انتصاره .

يعرض شأن المرأة فهو الغيور الحذر ، وهو الواقف على الميزان فيما تعطاه وفيما تعطيه ، فلا هي بظالمة ولا مظلومة في كل أمر يرجع اليه .

فمن همه كان ألا تظلم لضعفها ، ولا تغبن لحيائها ، وخفرها ، ومن حقها عنده ألا تكره على زواج الرجل القبيح لأنها تحب لنفسها ما يحبه الرجل لنفسه ، وأن يعرف لها عذرها حيث يعرف للرجل عذره في الصلة بينها وبينه . فسمع مرة اعرابية تنشد :

فمنهنَّ مَنْ تُسْقَى بعَذبٍ مبرّدٍ نقَاخ فتِلكم عند ذلك قَــرّتِ
ومنهنَّ مَنْ تُسْقَى بأخضَرَ آجنٍ أجَاج ولولا خَشْيَةُ اللهِ فَــرّتِ

فتوهم في زوجها عيبًا وأرسل في طلبه فاذا هو متغير الفم. فخيره بين خمسمائة درهم وطلاقها.. فقبل الدراهم وطلقها..

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد :

تطاوَلَ هذا الليلُ تَسْري كواكبُهُ وأرّقني ألّا خليل أُلاعبُــــه
فَواللهِ لوْلاَ الله لا شيءَ غَيْرهُ لَزُلْزِلَ مِنْ هَذَا السَّرير جَوانبُــه

فسأل عن زوجها فعلم أنه خرج في غزوة طالت غيبته فيها، فأمر بعد ذلك ألا تطال غيبة الأزواج في الغزوات.

وكان يقبل شكوى المرأة من زوجها الذي يهمل النظافة والزينة لأن النساء « يحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم.».

وقبل شكوى المرأة من زوجها الخاضب قبل البناء بها يوهمها أنه شاب وهو موخوط الرأس بالشيب، فأوجعه ضربًا وقال : غررت القوم.

* * *

ولم يكن يتحرج مع المرأة مثل هذا التحرج أن تستر من سيرتها ما لا يضير ستره إن عاق زواجها. فكاشفه رجل بأمر ابنة له أسلمت وأصابها حد من حدود الله، فهمَّت أن تذبح نفسها، فأدركها أهلها وقد قطعت بعض أوداجها فبرئت وتابت واستقامت على الهداية. فسأله : أأخبر القوم الذين يخطبونها بما تقدم من سيرتها؟.. قال : ويلك!.. أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه؟.. والله لئن أخبرت بشأنها أحدًا من الناس لأجعلنك نكالاً.. « انكحها نكاح العفيفة المسلمة ».

فهي أولى عنده ببعض المحاباة حين لا ضير في المحاباة، وقد عاهد الناس فيما عاهدهم عليه « ليمنعن النساء إلا من الأكفاء ».

ونرى انه قضى في الخلاف بين الزوج والزوجة بالقول الفصل في بناء الأسر وتعمير البيوت، حيث قال لرجل همَّ بطلاق امرأته لأنه لا يحبها : « أوَكل البيوت بني على الحب؟.. فأين الرعاية والتذمم؟.. ».

فإنه لبر بربات البيوت لم يدركه متحذلقة العصر الذين يلغطون بالحب والزواج ويجهلون أن الرعاية والتذمم أقمن بالدوام والتعمير من زواج يبنى على الحب وحده. لأن الحب منوط بالأهواء التي تتغير بين آونة وأخرى. وأما مناط الرعاية والتذمم فهو الأخلاق التي قلَّ أن يطرأ عليها تغيير..

* * *

وقد استشار النساء فيما يحسِنّ كما استشار الرجال فيما يحسنون، ولم يتعال قط أن يرجع عن خطئه إذا ردته عنه امرأة بالبينة الصادعة. ومن ذاك أنه نهى الناس في بعض خطبه أن يزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية، فصاحت به امرأة فطساء من صفوف النساء: ما ذاك لك؟.. فلم يأنف أن يسألها: ولم؟.. قالت: لأن الله تعالى يقول: «.. وآتيتم إِحْدَاهُنّ قِنْطارًا فلا تأخُذوا منه شيئًا أتأخُذونه بُهْتانًا وإِثمًا مُبِينًا». فرجع عن خطئه واعترف بصوابها.

* * *

فما للمرأة من حق تعطاه.

وما ليس لها بحق لا تعطاه وتذاد عنه.

والذي ليس لها بحق في رأي عمر – ورأي كل رجل ذي رجولة – ألا تتعرض لعمله الذي لا تفقهه ولا يرجع اليها في مثله، ولا سيما ان كان شأنًا من شئون الدولة ومهمة من أخص مهام الرجال، فتشفعت له امرأته في وال مقصر تسأله: فيم وجدت عليه؟.. فالتفت غاضبًا وقال لها: وفيم أنت وهذا؟.. انما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين!..

كلمة لا تلبس القفاز الناعم، ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس في كل حين.

والذي ليس بحق للمرأة أن تعلو كلمتها على كلمة وليها، وهذا الذي كان ينكره عمر على أهل المدينة حيث قال: «.. كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار. وصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني. قالت: ولم تنكر أن

أراجعك ؟ .. فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وان إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل. فأفزعني .. ».

نعم هذا مفزع لعمر، وقد كان ولا ريب مفزعًا لرسول الله أن تعلو كلمة على كلمته في بيته. ولكن طريقة محمد في تغليب الكلمة طريقة نبي يؤم متبعيه، وطريقة عمر طريقة مريد مؤتم بنبوة، ولا جناح على عمر ألا يلحق بشأو محمد في كل ما سبق اليه.

فمحمد إنسان عظيم، وعمر رجل عظيم. وهذا هو الفارق بينهما كما بيناه في مناسبة سابقة. وإنما الفارق بينهما في المناسبة التي نحن بصددها أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندي في معرض القوة والنضال، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها في معرض الهوى والفتنة، فيكسرها ولا ينكسر لها اذا لجت في الغرور وانطلقت في عنانه. ومن ثم استصغر عمر ولده نفسه – عبدالله – لأنه عجز عن تطليق زوجه. فلما أشاروا عليه باستخلافه قال لمن كلمه في ذلك : « ويحك ! .. كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته ؟ .. »

أما الانسان العظيم فهو يشمل ضعف الانسانية كله ويعطف عليه. ومنه ضعف المرأة في غرورها واعتزازها بدلال الضعف على القوة، لأنه في حقيقته اعتزاز بمكانها منها وتقدير لتلك القوة في بعض نواحيها. فهو يرى في تكبر المرأة اذا كانت كبيرة عنده نوعًا من الاعتراف بكبره، وهو لا يقف معها في ميدان كما يقف كل ذكر وأنثى، لأن ميدانه هو يشمل الميدانين مجتمعين اذ هو ميدان الانسان كله والانسانية جمعاء.

* * *

على أن شأن الرجل مع المرأة لا يظهر من رأي الرجل فيها كما يظهر من رأيها فيه : فبعد معاملة عمر للمرأة قوله فيها يبقى له شأن في عالمها يظهر لنا من رأيها هي فيه ..

وقد أكبرت سيدة نساء العصر عمر فوصفته بأنه كان نسيج وحده، وهي عائشة رضي الله عنها، وجمعت الشفاء بنت عبدالله بعض صفاته فقالت انه : « كان اذا

تكلم أسمع . وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقًا » . وصاحت أم أيمن مرضعة النبي يوم أصيب : اليوم وَهَى الاسلام ..

وعلينا نحن أن نسأل المرأة في عصر عمر عن مثال الرجل في عصرها ولا نسأل فيه نساء زمان غير ذلك الزمان . وما نخالنا نعرف رأي المرأة يومئذ في الرجل الذي يكبر في عينيها كما نعرفه من امرأة هي هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وأم معاوية ، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه ..

جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها يخطبانها فاستخبرته عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ، ان تابعته تابعك وان ملت عنه حط اليك ، تحكمين عليه في أهله وماله . وأما الآخر فموسع عليه منظور اليه في الحسب الحسيب والرأي الأريب . مدره أرومته وعز عشيرته . شديد الغيرة لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله » ..

فقالت : « يا أبت ! .. الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشرت وخافها أهلها فأمنت ؟ .. ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بولد أحمقت . وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت . فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه عليّ بعد ! .. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقيلة . وإني لأخلاق مثل هذا لموافقة ، فزوجنيه » .

ونحن نحسب هذا رأي المرأة النجيبة في زمان عمر ، ولو شئنا لحسبناه رأيها في كل زمان على أن تضمره بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان ، فان زادت خشونة العيش في بيت عمر على القدر الذي ترضاه المرأة فهي خشونة غير محقورة السبب ، لأنها لا تحسب على عمر « الزوج » من ناحية حتى تحسب لعمر « الرجل » من ناحية اخرى : اذ هي لم تأت من قلة القدرة على العيش ، وإنما جاءت من كثرة القدرة على النفس ، وهي خليقة تعجب بها المرأة في الرجل الذي تكبره . لأنها من أقوى خلائق الرجولة فيه .

* * *

وليس لدينا بيان واف عن النساء اللائي تزوج بهن عمر يعيننا على التمييز بين

سماتهن والبحث في المياسم الشخصية التي يتعددن فيها أو يختلفن ، ويجيز لنا أن نسهب في الكلام عن موقع كل منهن من نفسه وأثرها في حياته ومبلغ حظوتها عنده وسبب هذه الحظوة في رأيه وشعوره ، وما يدل عليه جميع ذلك من نوازع فطرته وذوقه – فقد سكت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان واف في هذا الباب ، فلم يبق لدينا منه الا أسماء وأعوام ونوادر مقتضبات ، لا تساعدنا على تكوين سمات واضحات فضلاً عن التفرقة بين تلك السمات .

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يفقدنا شيئًا كثيرًا في هذا الباب لأننا مستطيعون أن نعوض ما فقدناه بالقياس الى ما عرفناه ، فلا نخطىء اذا رجحنا أن سمات هؤلاء النساء جميعًا تدخل في نطاق الوصف الذي كان يستحبه عمر في المرأة ولا يطيق منها أن تخالفه وتخرج عليه .

فأفضل ما كان يشرطه في المرأة أن تكون ولودًا ودودًا وألا تعاب بالحمق فيسري حمقها في دماء وليدها . اذ « لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر الا خرج مائقًا » كما قال .

أما ذوق الجمال فقد كان عمر فيه كما كان في جميع خلائقه عربيًا بحتًا يستلمح ما يستملحه كل عربي صميم ويستحسن الحسن عنده وهو أعم من الملاحة ، ويروى عنه أنه قال : « تزوجها سمراء ذلفاء عيناء ، فان فركتها فعلي صداقها » . وانه قال : « اذا تم بياض المرأة في حسن شعرها فقد تم حسنها » . وهذان هما الملاحة والحسن كما وصفا في الشعر العربي من قديم الى حديث .

ومن القليل الذي بقي لدينا من أخبار نسائه نعلم أنه كان موفور الحظ من هذا الجمال في الزوجات . فقد وصف أكثرهن بالحسن البارع وضرب المثل بملاحة احداهن بين نساء قريش وهي قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة . فروي في مأثور الحديث الشريف أن سعد بن عبادة قال يومًا في حضرة النبي عليه السلام : ما رأينا من نساء قريش ما كان يذكر من جمالهن ! .. فقال عليه السلام : « هل رأيت بنات أبي أمية بن المغيرة ؟ هل رأيت قريبة ؟ » وهي إحدى زوجات عمر قبل إسلامه .

وروي أن جميلة بنت ثابت سميت بهذا الاسم لجمالها ، وكان اسمها في الجاهلية عاصية فكرهته بعد اسلامها وسألت عمر ثم سألت النبي في تغييره فاتفقا على تسميتها بوصفها ، ونوديت بعد ذلك باسم جميلة .

وروي عن عاتكة بنت زيد بن نفيل أنها أعطيت شطر الحسن مع ما رزقته من الفصاحة والتقوى ..

وروي مثل ذلك عن زوجات أخريات ، وان لم يتفوقن هذا التفوق المشهور ..

ومن أخبار زوجاته أنه طلق اثنتين من أشهر نسائه بالجمال وهما قريبة وجميلة .. تزوج بالأولى وطلقها قبل إسلامه . وتزوج بالثانية وطلقها بعد إسلامه ، ولا ندري على التحقيق ما سبب تطليق هاتين الزوجتين الجميلتين ، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو على شموس المرأة غير صبور؟ .. لعله ذاك ، ولعل الذي أبقى عاتكة بنت زيد في عصمته أنها تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها ، أو غضت من دلالها بالفطنة والتقوى .

وكذلك بقيت في عصمته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وهي جميلة صغيرة ، وولدت له ابناً سماه باسم أخيه زيد الذي كان يحبه ويذكره ويطيل البكاء عليه ، وأعزها عنده النسب والأدب والمحافظة على آصرة النبوة ، فلم يفترقا في الحياة ، ولم ينشب بينهما خلاف الا حين جاءتها الهدية من ملكة الروم فضمها الى بيت المال .

وله مع إحدى تلك الزوجات قصة صغيرة لا يفوتنا ايرادها في الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه : تدل على عمر في أبوته ، وتدل على عمر في سورة طبعه ، وتدل على عمر في مثوبته إلى الحق كلما وجب أن يثوب اليه ..

فقد طلق جميلة وله منها ولد صغير . فرآه يوماً يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه ، فأدركته جدّه الشموس بنت أبي عامر وجعلت تنازعه إياه حتى انتهيا الى أبي بكر رضي الله عنه وهو خليفة . فقال له أبو بكر : خلِّ بينه وبينها فهي حاضنته . فرده اليها ولم يراجعه بكلمة .

ولعمري إن في هذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغني عن قصص ، وفيها

عمر انسان عطوف، وفيها عمر رجل سوار الطبيعة، وفيها عمر صاحب خلق مكين يكبح من طبيعته كل سورة جاوزت حد العدل والانصاف، وهذا هو عمر في شتى نواحيه.

وقد تدل هذه القصة على شيء يبرئه من بعض اللوم في تطليقه أم هذا الولد، فاسمها عاصية واسم أمها الشموس، وكأنها - كما ينبىء عنها هذان الاسمان - من أسرة تباهي بدلال بناتها وشموسهن وتختار لهن من الأسماء ما يدل على هذه الخصلة، وقد يضيف الى توكيد هذه الخصلة فيهن أن عاصية غضبت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له: سميتني باسم الإماء! .. ثم اختار لها النبي هذا الاسم، فقالت: يا رسول الله! .. أتيت عمر فسماني جميلة فغضبت، قال عليه السلام: أوما علمت أن الله عز وجل عند لسان عمر وقلبه.

فكأنها نشأت في قوم يعتقدون أن التحسين والترغيب إنما هو من شأن الإماء، وان الشموس والعصيان أليق بالحرائر وإن أحببن أزواجهن وأحبوهن، فإن كان في تطليقها مأخذ على عمر فقد يكون فيه مآخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبها وأحبته.

* * *

ورزق عمر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات، فقرت عينه بهم لأنه كان كأهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصي الناس أن يستكثروا منها، وكانوا جميعًا عنده بمكان الحب والمودة لا يخشى الانحراف عن العدل من جانب كما يخشاه من جانب هذه الذرية أو جانب أهله على التعميم، ولهذا كان يجمعهم إذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم « إن الناس ينظرون اليكم نظر الطير إلى اللحم » ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة!.

وليس بنا أن نحصي فتاواه وأقضيته في محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه خاصة قبل سائر أهله. فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته، ولكنا نكتفي بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه في اتجار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين، وذاك أن ابنيه عبدالله وعبيدالله خرجا في جيش إلى العراق، فلما قفلا نزلا بالبصرة وذهبا

الى أبي موسى الأشعري وهو أميرها، فقال لهما : لو أقدر على أمر أنفعكما به؟.. ثم عرض عليهما أن يحملا إلى أبيهما مالاً من مال الله فيشتريا به متاعًا من العراق يبيعانه بالمدينة، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح. فلما علم عمر سألهما : أَكُلَّ الجيش أسلفه؟.. ثم أمرهما أن يؤديا المال وربحه.. فسكت عبدالله وقال عبيدالله : ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا. لو نقص هذا المال أو هلك لضمنّاه!.. وقال رجل في المجلس : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضًا؟.. فأخذ رأس المال ونصف ربحه، وأخذ ابناه نصف ربح المال.

وإنما كان عمر يتقي محاباة الولاة لأبنائه وذويه واقرار هذه المحاباة باذنه، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتجر ويربح ما يعيش به في أهله، ويلجأ إلى التجارة لقلة رزقه الذي فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسول الله. فقال عثمان : كل واطعم، وقال علي : ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، وقال هو : إن افتقرت أكلت بالمعروف وإن أيسرت قضيت.

وكان يقترض فيتأخر قضاؤه، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد في تقاضيه، فيحتال له عمر ويؤجله إلى أن يستحق عطاءه مع عطاء المسلمين، فيسد به دينه.

ومع هذا كان يشفق أن يقترض من بيت المال إلا أن يتعذر عليه الاقتراض من بعض صحبه، فأرسل مرة إلى عبد الرحمن بن عوف في طلب أربعة آلاف درهم يجهز بها عيرًا إلى الشام، فعاد الرسول يقول له : خذها من بيت المال ثم ردها!.. وشق ذلك عليه فلقي صاحبه وعلم منه صدق ما بلغه فقال : أفئن مت قبل أن تجيء قلتم أخذها أمير المؤمنين دعوها له، وأوخذ يوم القيامة؟.. «لا.. ولكني أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح مثلك، فإن مت أخذها من ميراثي».

وحدث ما توقعه من مجيء الأجل قبل سداد ديونه جميعًا فلم يشغله الموت ولا شغلته كبار الخطوب التي يضطلع بتصريفها قبل موته أن يسأل عن ديونه ويوصي بسدادها من ماله ومال أهله وقال لابنه : «إن وفى به – أي بالدين – مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فاسأل فيه بني عديّ، فان لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشًا

ولا تعدهم الى غيرهم. وكان عبد الرحمن بن عوف حاضرًا فأشار عليه مقترحًا أن يستقرضها من بيت المال حتى تؤدى فلم يقبل عمر، ودعا ابنه عبدالله فقال: اضمنها! فضمنها، ووفى بوعده فلم يدفن أبوه حتى أشهد بها على نفسه أهل الشورى وعدة من الأنصار، وما انقضى أسبوع حتى حمل المال الى عثمان، وأحضر الشهود على البراءة بدفعه. وقد بيعت لعمر دار في هذا الدين وسميت زمنًا باسم دار القضاء، لأنها بيعت في قضاء دينه.

ولأن يموت عمر مدينًا، وفي الدين، لهو أعظم الشرفين... وأيسر من ذلك شرفًا أن يموت غنيًا بغير دين.

صورة مجملة

صحبنا عمر بن الخطاب في حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال..

صحبناه في جاهليته واسلامه، وفي سره وعلانيته، وفي بيته وحكومته، وفي دينه وثقافته، وفي اتصاله بالله واتصاله بالناس. فاذا الصورة المجملة من جميع هذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصور. واذا هو صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الانسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه الى غاية واحدة: وهي إحقاق الحق وادحاض الباطل، ووسمته جميعًا بسمة الجندية المجاهدة التي تحمي الحدود للناس وتحميها من الناس، وهو هو في طليعة من يحمي وفي طليعة من يحتمي على السواء.

ورسخت في طويته خليقة المساواة في العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية التي لا تنفصل منه، وحتى أصبح يتجرد من نفسه أو يجرد منها شخصًا آخر غريبًا عنه لا فرق بينه وبين أحد في حدود الله وحرماته، وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عامدًا وغير عامد، فكان يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن غريب: بخ بخ يا عمر!.. ويحك يا ابن الخطاب! ماذا يقول عمر؟.. وهذا فلان بن عمر وليس بفلان ولدي... الى أشباه هذه التجريدات التي تنبعث فيه من خليقة التسوية بين جميع الناس، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس.

وكانت فيه خشونه الأقوياء الصرحاء، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة: «باطنه خير من ظاهره» أوكما قال فيه الصديق من كلام فحواه: «إن مبغضيه هم المبغضون للخير».

وكان له محبون من كرام الناس لا يعدلون بحبه حب أحد من أمثاله. فكان عبدالله بن مسعود يقول: « لو أعلم عمر كان يحب كلبًا لأحببته، والله اني لأحسب العضاه[1] قد وجدت فقد عمر »

والغالب في أمثال عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبة أن تحجب عنهم الهيبة ألفة الغرباء الذين لا يختلطون بهم في السر والعلانية، بل تحجب عنهم ألفة الأقربين في كثير من الأحيان، لأنهم من تفردهم بالصراحة والحق في عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم اليهم:

أعَاذَكَ أنسُ المجْدِ مِن كلِّ وَحْشَةٍ   فَإِنَّكَ في هذَا الأَنَامِ غَريبُ

ولكنهم لا يكرهون إلا عن خطأ أو حسد لئيم. وكان عمر على التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية في قلب انسان: لأنه كان على عظم « شخصيته » مبرأ من العنصر الشخصي، في معاملة الأصدقاء والخصوم. وانما ينجم العداء الشديد من الاحساس بهذا « العنصر الشخصي » ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام..

فالذين كانوا يذوقون انصاف عمر كانوا يستمرئونه ويحبونه، والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقبًا لهم صوالاً عليهم، وانما يشعرون بميزان الشريعة منصوبًا على رؤوسهم. يتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب. فلا موضع هنا للضغينة ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزازاة بالحزازة.

ولهذه الخصلة ذكره بالحب والإعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء، وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء..

فعمرو بن العاص ومعاوية كانا يثنيان عليه وشد ما ابتليا في حياته بضربات عدله وهيبته، والحطيئة أهجى الشعراء وأبخلهم بالثناء، كان رفاقه يذكرونه اسم عمر بعد

---

(١) جمع عضاهة: وهو شجر كبير له شوك.

موته فيرتعب ثم يهدأ فيقول : يرحم الله ذلك المرء ! .. ويثني عليه. وقد قال عمرو بن العاص إذ رأى عمر يبكي لاستعطاف الحطيئة اياه في سجنه : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الحطيئة ! ..

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلاً فلا يكون قتله دليلاً على بغضاء « شخصية » أو خلة ترتبط بحياته الفردية. فانما البغضاء « الوطنية » هي علة التآمر على قتله بين المغلوبين في ميدان القتال على التحقيق ، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذكراه فانما هي في أصلها « بغضاء وطنية » كامنة وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية ، وان تطاولت الأيام.

فالمعلوم أن عمر مات بطعنات من خنجر فيروز « أبي لؤلؤة » من سبايا الفرس بالمدينة ، وان فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا اليه مولاه المغيرة بن شعبة لأنه فرض عليه خراجًا درهمين في كل يوم ، فسأله عمر عن صناعته فأنبأه أنه « نجار نقاش حداد » .. فلم يستكثر عمر هذا الخراج على من يصنع هذه الأعمال ، وقال له : قد بلغني انك تقول : « لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت » وطلب اليه أن يصنع رحى على هذه الصفة ، فقال له : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب .. ثم انصرف وهو يقول : « وسع للناس عدله غيري ! » . فقال عمر لسامعيه : « لقد توعدني العبد آنفًا » .. ولم يؤاخذه بهذا الوعيد بل كان من نيته أن يلقى المغيرة ليخفف عن مولاه ..

هذا هو السبب الظاهر الذي لا يستر ما وراءه ، لأن « أبا لؤلؤة » لم يكن إلا منفذًا للكيد الذي اتفق عليه كثيرون. وقد روى عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رأى هذا الرجل مع الهرمزان وجفينة قبل مقتل عمر جالسين يتحدثون ، فلما فاجأهم قاموا وقوفًا فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه ، وهو الخنجر الذي حمله فيروز لقتل عمر وقتل نفسه إذ أخذ بفعلته.

والهرمزان أمير زالت عنه الامارة بعد ذهاب الدولة المجوسية ؛ وجفينة من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس ، و « أبو لؤلؤة » فارسي شديد الحقد على المسلمين لم ينس أسره ولم يزل كلما جيء الى المدينة بأسرى من وقعات فارس مسح رؤوسهم وتوعد

المسلمين أجمعين.

وقد كان شاركهم في هذه المؤامرة يهودي مغلوب تظاهر بالإسلام وهو المسمى بكعب الأحبار، ولعله أراد أن يكسب سمعة العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة، فذهب إلى عمر قبل ثلاثة أيام من مقتله ينذره أن يختار ولي عهده لأنه ميت في ثلاثة أيام.. فسأله عمر: وما يدريك؟.. قال: أجده في كتاب الله التوراة. فلم تجز هذه الدعوة على عمر، وعاد يسأله: «آلله.. إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟» فأشفق الرجل أن ينكشف دجله وقال: «بل أجد صفتك وحليتك وانه قد فني أجلك».. ثم كرر النذير مرتين في اليومين التاليين.

فعمر إنما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الاسلامية لا شك فيها، وما كانت قصة الخراج إلا الستار الذي يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى مخافة القصاص الذي يحيق بهم إذا جهروا بما دبروه أو جهروا بالعلة التي من أجلها تربصوا بذلك التدبير.

إن مقتل عمر أحرى أن يعد جزءًا من أكبر أجزاء سيرته ولا يحسب نهاية تختم تلك السيرة دون أن تضيف اليها..

فقد تمثلت في مقتله مزاياه الكبار التي تمثلت في جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله، فكان عمر الصريع قدوة في الشجاعة وتقديم الواجب والايثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير، كما كان عمر في أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير.

وكان رضي الله عنه ينظر إلى الحياة كأنها رسالة تؤدى ما استطيع أداؤها ثم لا معنى لها إذا فرغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أدائها، فبعد الحجة التي مات على أثرها أناخ بالأبطح ثم كوّم كومة من البطحاء ألقى عليها طرف ردائه واستلقى عليها ورفع يده الى السماء، ودعا الله: «اللهم كبرت سني وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط، اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك».

مضت اسابيع فخرج يومًا قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوي الصفوف للصلاة،

فلم يكد يؤم الناس حتى فاجأه القاتل بطعنتين إحداهما في كتفه، والأخرى في خاصرته، وقيل ثلاث طعنات. إحداهن تحت السّرّة، وقد خرقت الصفاقين قضى بها نحبه رحمه الله. وقيل : بل ست طعنات.. منها تلك الطعنة القاتلة.

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم في موعدها وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلي بالناس.

ثم جعل يغمى عليه ولا ينتبه إذا دعوه. حتى قال بعض عارفيه : انكم لن تفزعوه بشيء مثل الصلاة إن كانت به حياة .. فنودي : الصلاة.. الصلاة ! .. فلما سمع النداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات : « الصلاة ! .. ها .. الله .. اذن .. » ثم قال : « لاحظ في الاسلام لمن ترك الصلاة .. » .

ولم يهمه من قتله بعد أن حمل إلى منزله إلا أن يعرف : أَلِمَظْلَمة كان قتله أم لبغي من القاتل؟ .. فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال : ولِمَ قاتله الله وقد أمرت به معروفًا ؟ .. ثم حمد الله قائلا : « الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط .. ما كانت العرب لتقتلني » .

وهمه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقى حسابه عند الله. فأمر ابن عباس أن يخرج الى المهاجرين والانصار يسألهم : أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني؟ .. فصاحوا معلنين : « لا والله.. ولوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا » .

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة قبلها، فنهاهم أن يبكوا عليه. ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو فلم يعرفوا أدمٌ هو أم النقيع خرج بلونه؟ .. فسقوه اللبن فخرج أبيض يشوبه صديد. فأشار عليه الطبيب أن يعهد فقال : « لو قلت غير هذا لكذبتك » .

وكان قد انكر على الناس أن يجيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصاياه : ويحكم أيها الناس أأنظر في أمر نفسي قبل أن أنظر في أمور المسلمين؟ .. فلما قال الطبيب مقالته أخذ في تدبير المهم من شؤون الدولة وأولها الخلافة، فجعلها شورى ليستقر بها

القرار ما استطيع إقراره، ونجا بأهله منها وهو يقول : «... أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافًا لا وزر ولا أجر إني لسعيد».

وهو في هذا كله لا يخالف ديدنه من صراحة ولا يكتم طبيعة أهل الفناء من حب الحياة، ولا يخفي «ان للحياة لنصيبًا من القلب وان للموت لكربة !» ولكنها لم تمنعه قط أن يعطي الحق حيث وجب للموت أو للحياة..

فلما فرغ من شؤون الدولة في أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداده، وأقبل يطمئن إلى مضجعه في جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا. فدعا بابنه عبدالله ينطلق الى عائشة أم المؤمنين ويقرئها منه السلام... ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين، لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميرًا... ثم يستأذنها أن يدفن الى جوار صاحبيه، يعني النبي عليه السلام وخليفته الصديق.

ووجدها عبدالله تبكي فسلم عليها، واستأذنها فأذنت وقالت : كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي !..

فلم يكفه هذا حتى يستوثق كل الاستيثاق من رضاها، فعاد يخاطب ابنه : « يا عبدالله بن عمر !.. انظر، فاذا أنا قبضت فاحملوني على سريري ثم قف على فقل : يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلني، وإن ردتني فردني الى مقابر المسلمين، فإني أخشى أن يكون إذنها لي لمكان السلطان ».

قال شهود دفنه : « فلما حمل، فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة الا يومئذ »... وفارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلوم أو متهم بظلم، فما دلها شيء على عظم فضله ولا عظم الحاجة الى العدل فيها كما دلها هذا الختام...

ذو النورين

عثمان بن عفان

على العهد

عَلِمَ قراء هذه التراجم وِجْهَتَنا التي نتّجه إليها في كتابتها ، ولا نحسب أن أحداً ممن تتبعوها – أو تتبعوا معظمها – ينتظر منها بحثاً غير بحوثها التي عنيناها ، فليس يعنينا منها سردُ الحوادث ، ولا استقصاء البيان عن فترة من السنين ، وإنما يعنينا من الحادثة التي نعرض لها ، ومن الفترة التي نستبينها ، أنها وسيلة إلى مقصد واحد : وهو التعريف بالنفس الإنسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية ، أو حالة من أحوال النبل والأَرْيَحِيّة ، فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره ، فانما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنساني ، وتخرجه من غمار التيه والظلمة ، وتسلك به مسلكاً غير مسلك التخبط والضلال .

ونحن نقيس أثر هذه التراجم بمقياسين متقابلين ، بل متعارضين متناقضين ، ولكنهما ينتهيان إلى نتيجة واحدة .

نقيس أثرها بالرضى والقبول من الموافقين ، ونقيسه بالسخط والنفور من المخالفين ، وكلاهما دليل على أثر نغتبط به ونستزيد منه : دليل على أن التراجم رَمِيَّةٌ أصابت مرماها ، وهذا كل ما نبغيه .

ومن الملاحظات التي نغتبط بها خاصة ، أن جانب الرضى عن هذه التراجم غير مقصور على أبناء دين واحد أو أبناء نِحْلة واحدة . فتراجمنا لعظماء الإسلام قد اطلع عليها وتتبعها أناس كثيرون ممن لا يدينون بالإسلام ، وترجمتنا لغاندي قد كان أكثر قرائها من المسلمين ، وهؤلاء وهؤلاء قد عرفوا وجهتها ولم يخرجوا بها عن سبيلها ، فليست النفس الإنسانية مِلْكاً لأبناء دين واحد ، وليس الكشف

عن أسرارها وأغوارها فريضة شرع واحد أو عرف واحد ، وما من شيء يجعل للدين نفسه معنى إن لم تكن النفس الإنسانية ذات معنى وذات قيمة وذات علاقة أصيلة بهذا الوجود أجمع ، فلا يضل معتقد عن هدى عقيدته حين يؤمن بجانب من جوانب عظمتها أو جانب من جوانب النبل والأريحية فيها . . والسؤال الذي يسأله من يعرف المسألة كلها هو :

هل تستحق الحياة أن نحياها ؟ . .

فإن كانت حياة الإنسان أهلاً للثقة بها والايمان بقدرها فالجواب نعم ، وإن لم تكن كذلك فلا جواب للسؤال غير اليأس والضياع والانحلال .

بل نحن نرى أن الشاكّين والمترددين يثوبون إلى طريق الأمل والرجاء كلما لمسوا للنفس الإنسانية جذوراً عميقة في أصول الحياة ، وهذه الجذور نلمسها لمساً كلما علمنا أن النفس الإنسانية قابلة لعمل عظيم ، وكلما علمنا أن قوة الاعتقاد بالخير هي نفسها عمل عظيم . وليس الخلاف إذن بين دين ودين ، أو بين مذهب ومذهب ، أو بين فلسفة وفلسفة . ولكنه خلاف بين حياة لها جذور ، وحياة مستأصلة من جميع الجذور ، وهو بعبارة أخرى بين حياة لها معنى ، وحياة فارغة من كل معنى ، ولو كان هذا المعنى من مخترعاتها الملفقة وأباطيلها المزجاة .

* * *

نقيس أثر هذه التراجم بالرضى من هؤلاء المؤمنين بمعنى الحياة وهؤلاء الباحثين عن معناها .

ونقيسه كذلك بسخط الساخطين وغيظ المحنقين ، وكلما اشتد هذا السخط واضطرم هذا الغيظ علمنا موقع الرمية من الهدف الصميم ، فهو موقعها الذي أصبنا به المقتل من ذلك المعسكر الذي يسمي نفسه بمختلف الأسماء ولا يصدق عليه اسم منها كما يصدق عليه اسم أعداء الإنسان .

وإنما تصدق الأسماء حيث تصدق على الصفات والأعمال ، وقد سُمِّيَ بأعداء النوع الإنساني قديماً معاشرُ من الخلق كانوا يكرهون النعمة ويعافون السرور

ويتجنبون معاشرة الناس ، ولكنها تسمية لم تكن على صواب . لأنهم كرهوا النعمة وعافوا السرور إيماناً بنعمة أشرف من جميع النعم ، وشوقاً إلى مسرة أرفع من جميع المسرات ، ثم تجنبوا معاشرة الناس نبوّاً بضمائرهم عن العيش الذي لا يعرف النعم والمسرات إلا في أحضان الرذائل والشهوات ، فمن شاء فليسم هؤلاء المترمتين بما شاء من الأسماء إلا أن يسميهم بأعداء الإنسان .

أما أعداء النوع الإنساني حقاً فهم الحريصون على تصغير كل عظيم فيه ، الملوِّثون لكل صفحة نقية من صفحاته ، العاكفون على هدم كل ما بناه في تاريخه الطويل من قِيم الأخلاق وعقائد الخير والفلاح ، الذين يعملون ما لا يعمله إلا عدو مغير على الأرض يتعقب بقايا أهلها كما يتعقب العدو اللدود جنساً من ألد الأعداء لجنسه ، فلا يسرُّه شيء كما يسره أن يرجع إلى ماضيه وحاضره بالتشويه والتخريب ، وذم الحميد منه وتسجيل الدميم المعيب .

ويبلغ المسخ بهؤلاء المساكين أنهم يخلصون في بغضائهم إخلاص الجنسين المتعادِيين بالطبيعة ، فلا يقنعون بما يجدونه من العيوب والأدناس ، بل يتجسسون عليها ويلحُّون في تأويلها ، ولا يطيب لهم شيء كما يطيب لهم أن يبطلوا الثناء على بطولة البطل وتفدية الشهيد وإيثار الكريم ، فيردوه إلى الزراية والمهانة ، وتعطيل الأمور بأسوأ العلل ، وتفسيرها بأقبح البواعث والأغراض .. ومثل هذه اللجاجة في تلطيخ تراث الإنسانية كله بالأوزار والأدناس لا تصدر إلا من طبع سقيم وخليقة عوجاء ، فيجوز لكل صاحب عقل أن يفهم بعقله علل الأعمال سامية أو مُسِفَّةً ، عامة أو خاصة ، مخلوطة بالأثرة أو خالصة للإيثار . ولكن الهيام بتحقير كل عظيم واتهام كل ثناء ، والحماسة المتشنجة لتغليب الخسة على النبل ، ونبش السمعة المأثورة عن جرائم النتن والقذى ، ليس المرجع فيه إلى فهم ودراسة ، ولكنه يرجع إلى مسخ في الكيان ، يسلخ المبتلى به في مسالخ العدو المبين لنوع الإنسان .

وما كان في وسع إنسان حيّ أن يسيغ الحياة كما يريدها هؤلاء المسخاء المنكودون ، ولكنهم فقدوا الثقة بالحياة المثلى فعوضوها ببديل منها لا يغني عنها إلا إلى حين .. إن المنحدر من القمة إلى الهاوية يتحرك في انحداره ، بل يتحرك سريعاً إلى قراره ،

وهو في حركته هذه أسرع من الصاعد إلى القمة بجهده وهدايته ، وأسبق منه جداً إلى غايته بل نهايته .. إلا أنها حركة المصاب بالحركة على الرغم منه ، فلا وجه للمقابلة بين الصاعد المجاهد والهابط المقذوف كما ينقذف الجلمود ، وإن لاح لمن يراهما أنها متحركان ، وأن الهابط منهما أقدر من الصاعد على العدو والجريان .

وقد امتلأ مكان الثقة من نفوس هؤلاء المسخاء بسخائم المقت والكراهية ، فكانت لهم عوضاً بئس العوض : كانت لهم عوضاً كعوض الحركة الهابطة من الحركة الصاعدة ، وليس أدل على ضرورة الثقة للانسان في اجتماعه وانفراده من حاجة هؤلاء إلى تعويضها بذلك الثمن الثقيل ، وإنه لِجَدٌّ ثقيلٍ في الحقيقة ، فإنه لهَوَ الانتحار بغير إرادة الانتحار.

ونحمد الله على نصيبنا من هذه الكراهية ، كما نحمده على نصيبنا من تلك الثقة ، فهذه وتلك كلتاهما مقياس صادق لأثر هذه التراجم التي نزيدها اليوم ترجمة جديدة ، وسنزيدها بمشيئة الله كلما اتسع الوقت وأحسسنا الرضى من هنا والكراهية من هناك .

* * *

إن سيرة الخليفة الثالث نمط من أنماط متعدده زخرت بها الدعوة الإسلامية من سير الخلفاء وغير الخلفاء : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي عبيدة وخالد وسعد وعمرو وأمثالهم من الصحابة والتابعين ، ما منهم إلا من كان عظيمًا بمزيَّة ، وَعلَماً من أعلام التاريخ ، فأين كان موضع هؤلاء من العظمة ومن تاريخ بني الإنسان لولا العقيدة الدينية ولولا الرسالة المحمدية ؟

ليقل من شاء من فلاسفة التاريخ ما يشاء في التعليل والتحليل ، والتلخيص والتفصيل ، فمهما يقل القائلون ومهما يشرح الشارحون فليس من السهل على عقل رشيد أن يزعم أنها كلها خدعة وهم في رؤوس أناس جاهلين . ولا حاجة هنا إلى الفلسفة ولا إلى الحذلقة ولا إلى الجدل الطويل ، فالقول الفصل بعد كل قول ووراء

كل شرح أن الوهم الخادع في رؤوس الجاهلين خير ألا يكون . وماذا يبقى من تاريخ الإنسانية لو حذفنا منه هذه العوامل الحية وقلنا مع القائلين إنها وهم من الأوهام كان خيراً لها أنه لم يكن ولم يكن بعده ما جرى في مجراه ؟

وفي هذه السيرة على ما نرجو ، وعلى خلاف ما يخطر في بال الكثيرين لأول وهلة ، شواهدُ على هذه العبرة الكبرى أكبر من شواهد أخرى ، فلعلها لا تبرز لنا عبقرية كعبقرية الصديق أو الفاروق أو الإمام ، ولكنها تبرز لنا من جانب الأريحية صفحةً لا تطوى ، ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها إلى باعث غير باعث العقيدة والايمان .

الفصل الأول

- بين القيم والحوادث
- وبعد الصدمة
- أسباب ولا أسباب

بين القيم والحوادث

ربما كانت سيرة الخليفة الثالث – ذي النّوَرين – أوْفى السِّير بالشواهد على الخصائص التي تلازم تاريخ العقيدة في أطوارها الأُولى ، ولاسيما أطوار التحول في طريق الاستقرار.

وأبرز هذه الخصائص في تاريخ العقيدة أنه تاريخ قيم ومبادىء وليس بتاريخ وقائع وأحداث .

فالوقائع والأحداث تتشابه في العصور المتطاولة ، ولو أننا تخيلناها معروضة في الصور الصامتة ، لما وجدنا من فارق يذكر بين الوقائع والأحداث التي تفصلها من مسافة الزمن آلاف السنين ، ومن مسافة المكان آلاف الفراسخ : كلها صورة متكررة من حيث ظواهرها وأعراضها البادية للعيان ، ولكنها تختلف اختلافاً بعيداً حين ننفذ من ظاهرها إلى باطنها ، أو حين ننفذ من حركاتها المكشوفة إلى القيم النفسية التي تكمن وراءها ، وإلى الدعاوى التي تدور عليها ، ولو كانت من دعاوى المبطلين التي يصدق عليها في بعض الأَحايين أنها كلمات حق أريدت بها أباطيل .

فالحوادث التي تدور على طلب السطوة غير الحوادث التي تدور على طلب الحرية ، ولو كان طلب الحرية أكذوبة يتعلل بها المتعلل لغاية في نفسه يسترها ويعلن ما عداها .

فإذا كان المتعلل بالحرية مبطلاً في دعواه فهناك فارق صحيح بين المعارك التي تذكر فيها الحرية حقاً أو باطلاً ، والمعارك التي لا ترد فيها على لسان أحد ولا

تخطر بباله . فلولا أنها أصبحت شيئاً يهتم به الناس ويتنازعونه لما ذكرها الصادقون ولا المبطلون . ومتى أصبحت الحرية قيمة من القيم المحسوبة في حياة الأمم فهناك دليل عليها ممن يتعلل بها صادقاً ويتعلل بها كاذباً ليخدع الناس بها عما يريده من ورائها .

* * *

وفي سيرة عثمان رضي الله عنه صدمة عنيفة تواجه كل باحث في تاريخ صدر الاسلام ، وتلك هي قِتْلته البشعة وهو شيخ وقور جاوز الثمانين .

لم يكن عثمان أول خليفة قتل . فإن الفاروق عمر بن الخطاب قتل قبله غيلة وهو يقيم الصلاة .

ولكن مقتل عمر لم يكن صدمة في تاريخ العقيدة . قتله غلام دخيل على الإسلام ، ومن ورائه عصابة تدين بغير دينه وتكره منه ما عمله لإقامة ذلك الدين ، فلا غرابة ولا صدمة ، ولا شيء فيه غير الفاجعة التي تفجع نفوس المسلمين .

أما تلك القتلة البشعة التي انتهت بها حياة الخليفة الثالث فشيء غير هذا ، وشيء بعيد عن هذا في صدمته المفاجئة لمن يتابع تاريخ العقيدة الإسلامية في أطوارها الأولى .

لم يمض جيل على الإسلام ويقتل خليفة المسلمين هذه القتلة ؟.. فماذا صنعت هذه العقيدة إذن بنفوس الحاكمين والمحكومين ؟.. وماذا تغير من فتكات الجاهلية بعد جهاد المؤمنين وإيمان الكافرين ؟..

والسؤال صدمة عنيفة .

ولكنه قائم على خطأ جسيم ، وإن يكن خطأ قريبَ التصحيح .

فالعقيدة لا تبطل الخلاف والنزاع ، ولا تختم الوقائع والأحداث في التاريخ ، ولم يحدث قط في دعوة إصلاح في الدين أو غير الدين أنها قسمت التاريخ إلى

عهدين : عهد سابق كان فيه نزاع وكانت فيه أحداث ، وعهد لاحق يبطل فيه النزاع وتنقضي فيه الأحداث .

لم يحدث هذا قط ولا يحسن أن يحدث ، فإنه لو حدث لكانت العقيدة المصلحة شللاً معطِّلاً لحياة الأمم معوِّقاً للتاريخ في مجراه المطرد إلى غير قرار.

إن العقيدة لا تلغي الحوادث والخصومات ، ولكنها تجدد القيم التي تدور عليها الحوادث والخصومات .

وليست الخصومات شرُّ ما يبتلى به الناس ، فشرٌّ منها الخسة التي ترضى بالدون ، وشر منها الوفاق على الغش والمهانة ، وشر منها شلل الأخلاق الذي لا يبالي صاحبه ما يَحْسُنُ وما يقْبُحُ وما يُرْضِي وما يسوء ، وشر منها الحياة بغير قيمة تستحق الخلاف عليها وبغير معنى يتسع للبحث فيه .

فليس مطلوباً من العقيدة أن تبطل الخصومات ، ولكنما المطلوب منها أن ترتفع بالنفوس عن الخصومة في غير شأن ، أو ترتفع بها عن الخصومة في شأن هزيل ضئيل .

وعلى هذا ينبغي ألا تكون الخصومات والأحداث هي مدارَ البحث في تاريخ هذه الفترة ، بل ينبغي أن يكون مدار البحث على القيم والمبادىء التي دارت عليها تلك الخصومات والأحداث .

ولا نقول إن الفاجعة إذن تهون .

وغاية ما نقوله انها تفهم على وجهها الصحيح ، وانها تفهم على وجه لا يريب في عمل العقائد وعمل العقيدة الإسلامية على التخصيص .

لقد كان مدار الخصومة على محاسبة الإمام : محاسبة الرعية لإمامها ، ومحاسبة الإمام لنفسه ، وكل أولئك شيء جديد في التاريخ ، وكل أولئك شيء يقيم ويُقعِد في حياة الأمم ، ولا سيا حياتها في أطوار العقيدة الأولى .

أين كان أبناء الجاهلية من حق الحساب بين الحاكم والمحكوم ؟

أما في البادية فقد كان الحساب كله على شريعة الثأر والانتقام وإغارة القبيلة الكبيرة على القبيلة الصغيرة ، وكان الغالب على الفرد أن يعيش في كنف قبيلته ، تحميه إن استطاعت ، أو تخلعه إن عجزت عن حمايته . وقد شاع في العصور الحديثة كلام كثير عن الحرية البدوية ، ولم تفهم على حقيقتها مع كثرة الكلام فيها ، فما كانت الحرية البدوية قط قائمةً على حق إنساني تحميه الشرائع والآداب ، ولكنها كانت أشبه شيء بانطلاق المادة حيث لا عائق لها مما حولها ، ومثل هذه الطلاقة طلاقة العصفور في فضائه ، والحيوان الآبد في صحرائه : طلاقة المادة حيث لا حواجز ولا سدود .

وأما الحكومات التي قامت في الجزيرة العربية ، على نحوٍ من نظام الملك والإمارة ، فقد كانت شريعتها – على خلاف المظنون – طغياناً مطلقاً من جميع القيود ، وكان بعض ملوكهم يتخذ من أهوائه ونزواته شعائر يدين بها الناس في مسائل الحياة والموت ، فكان المنذر بن ماء السماء يجعل له يوم نعيم ويوم بؤس ، ويقتل كلَّ مَنْ يسوقه إليه الحَيْن في يوم بؤسه ولو كان عابر طريق. ، وكان يسكر ويأمر بالقتل فينفذ لساعته ولا يدري بعد إقامته فيم كان هذا العقاب إن صح أن يسمى بالعقاب . وحدث أن حُجْر بن الحارث فرض على بني أسد إتاوة ثقيلة فتمردوا عليها فاستباح أحياءهم ، واعتقل رؤساءهم ، وأقسم ليقتلنهم بالعصا هواناً بهم عنده أن يقتلهم بالسيف أو السلاح ، فسموا من أجل ذلك بعبيد العصا ، وقال شاعرهم عَبِيد بن الأبرص يستشفع فيهم :

ومَنَعْتَهُمْ نجـــداً فقـد حَلُّـوا على وَجَلٍ تِهامَهْ
إما تركتَ تركتَ عفـ ـواً أو قتلتَ فلا ملامـــه
أنت المُمَلَّـــكُ فوقَهـــمْ وهمُ العبيـــدُ إلى القيامـــه

وكان عمرو بن هند يكلم الناس من وراء ستور ، وكانوا يضربون المثل بكليب وائل في عزته فيقولون عن العزيز البـالغ في العزة : إنه « أعزّ من كليب وائل » .. لأ نه كان يحمي الكلأ فلا يقرب حماه ، ويمر بالمكان يعجبه فيرمي عنده بكليب

وينادي بين القوم أنه حيث بلغ عواؤه كان حِمى لا يُرعى .. وكانوا يقولون : « لا حرَّ بوادي عوف » لأنه كان من عزته يقهر كل من حل بواديه ، فكلهم عنده كالعبيد .

وأقبح من ذلك ما روي عن عمليق ملك طسم وجديس ؛ فإنه كان يأمل ألا تزف الفتاة إلى بعلها قبل أن تزف إليه ، وفي ذلك تقول إحدى هؤلاء الفتيات :

أيجمُـلُ ما يؤتى إلى فَتَيَاتِكُمْ وأنتم رجالٌ فيكُمُ عددُ الرملِ ؟

إلى أشباه هذه المظالم التي أجملناها في كتابنا عن الديمقراطية في الإسلام ، وقلنا معقبين عليها انها روايات لم تخل من إضافات القصة والخيال كجميع روايات التاريخ القديم المنقول بالتلقين والإسناد ، « ولكننا نثبتها ونعوّل عليها لأن الفكرة هنا أبلغ من الخبر وأصدق من وثائق الأوراق ، فلو لم تكن فكرتهم الغالبة عن الحكم أنه عزة وخيلاء لا تكملان لصاحبها بغير إذلال الأعزّاء وتمحُّل الذرائع للعتو والإيذاء ، لما تواترت أنباء الملوك على هذه الوتيرة .. » .

* * *

ومن هذه الفكرة المتواترة عن سلطان الحكم إلى محاسبة الخليفة على كل صغيرة وكبيرة في شؤون الدولة بون بعيد ، وشيوعها بين الخاصة والعامة حتى يتصدى للحساب صغير القوم وكبيرهم على السواء هو الفتح الذي جاءت به العقيدة الإسلامية على أعقاب الجاهلية وعلى مسمع من طغيان الأكاسرة والقياصرة والتبابعة ، في الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وسنرى أنهم كانوا يحاسبون الخليفة على الزيادة في حمى المرعى المتروك لإبل الصدقة بعد تكاثرها ومضاعفة عددها ، وسنرى أنهم كانوا يحاسبون والياً من أكبر ولاته – وهو والي الشام معاوية بن أبي سفيان – لأنه سمى مال الدولة مال الله بعد أن كان يسمى ببيت مال المسلمين ، وأشفقوا أن يكون تغيير الاسم تمهيداً لاستئثار الحاكم بالتصرف فيه ، وكف المسلمين أصحاب المال عن المحاسبة عليه .

هذه المحاسبة بين الحاكم والمحكوم قيمة كبيرة نشأت مع العقيدة المحمدية ، وهي قيمة كبيرة على جميع حالاتها من الصدق فيها أو التذرع بها إلى غرض قد يخفيه أصحاب الذرائع والتّعلاّت ، فإن القانون يصونه أناس مخلصون ، ويدّعي غيرهم صيانته كاذبين مدلسين ، ولكن القانون على الحالتين كسب عزيز لا يستهين به عاقل ، ولا يقول أحد بالاستغناء عنه من أجل الكذب به أو الكذب عليه ، وكذلك كل قيمة غالية من قيم الحياة الإنسانية ، كالفضيلة والخير والحرية والصدق وما شابهها من فتوح الضمير في آماد التاريخ ، مما يحرص عليه الناس أو يصطنعون الحرص عليه ، فإنما تكسبها الإنسانية بالتعارف عليها وقبولها أو قبول مقاييسها ، ولن تكون القيم جميعاً إلا من هذا القبيل وعلى هذا المثال .

ولقد كان من الناهضين لمحاسبة عثمان رضي الله عنه أناس مغرضون يقولون ما لا يفعلون ويفعلون غير ما يقولون . كان منهم من أقام عليه الحد ، ومن حبس أباه في جريمة ، ومن فرَّق بينه وبين خليلة تزوجها على غير الشريعة ، ومن أبى عليه الولاية ، ومن لم يصنع به الخليفة أمراً من هذه الأمور ولكنه كان منطوي النية على الفساد والإفساد . وكل هذه المآرب قد شِيبَتْ بها حركة المحاسبة على أعمال الخليفة ، فكانت عيباً للحركة ، ولكنها لم تكن عيباً لحق المحاسبة ولا إزراءً بشأنه ولا بالشأن الذي كسبته الأُمة من تقريره والتعارف عليه ، ولو لا أنه حق لما تعلل به المبطلون .

وآفة البحث في تطور الأخلاق والقيم الإنسانية أن يتولاه من لا يفقهون قيمة النهي عن شيء بعد أن كان مباحاً غير منهيّ عنه ولا يخطر النهي عنه على بال أحد . فإقامة الحدود التي يؤخذ الناس بالتزامها وينهون عن تجاوزها ، هي عنوان الدوافع الباطنية التي غيَّرت حياتهم ، وغيرت نظراتهم إلى الأعمال والأخلاق فأعلنوها في تلك الحدود .

وأضلُّ مِن هؤلاء مَن يبحثون في تطور الأخلاق فيأخذونها بالعناوين ، ويُطلقون العنوان الواحد على صفتين مختلفتين أو متناقضتين ، ويكاد القس راشدال Rashdall أن يزن الأطوار الأخلاقية بهذا الميزان حيث يقول : « إنه ندر من

رذيلة أو جريمة إلا كانت في زمن من الأزمنة منظوراً إليها كأنها واجب من واجبات الديانة أو العرف ، كالسرقة التي كانت تحسب فضيلة من الناشئة الإسبرطية ومن الطائفة الهندية التي تسمَّى بطائفة الخناقين ، وقد كانت القرصنة – وهي سطو وقتل – صناعةً محترمة في العالم القديم ، وكان الاضطهاد الديني في القرون الوسطى أشرف الواجبات » .

* * *

وليس من الميسور في هذا المقام أن نفصِّل وجوه الخلاف بين الإباحة القديمة والتحريم الحديث في جميع هذه الفعال والخلال ، ولكننا نكتفي بما يستطاع بيانه بغير حاجة إلى الإفاضة والإسهاب كالقرصنة ما بين العصرين القديم والحديث . فهل القرصنة التي نحرِّمها اليوم هي القرصنة التي كانت مباحة بالأمس أو هما نقيضان باسم واحد مشترك بينهما بوهم الاصطلاح ؟

الواقع أن قرصنة الأمس كانت حقاً كحق صاحب الملك الذي تسطو عليه . إذ كان صاحب الملك يجمع بضاعته بالسطو على قبيلة أو عشيرة أضعف منه وأعجز عن الهجوم والدفاع ، فإن كان فيما يملكه شيء مصنوع فهو من صنع العبيد المسخرين في أرضه أو معمله وكلهم من أسرى الحرب المغتصبين من أبناء القبيلة التي قُهرت لأنها عاجزة عن مقاومته ودفعه . فحقه في بضاعة السفينة كحق القرصان في السطو عليها ، وليس هذا بالحق الذي يستطيع القرصان في العهد الحديث أن يدّعيه ويقبل التعارف عليه .

ويصدق على سرقة الناشئة الإسبرطيين ما يصدق على القرصنة في العصور القديمة ، ويمكن أن يقال كذلك ان الاضطهاد الديني في العصور الوسطى غير الاضطهاد الديني في العصر الحديث . لأن العمل لا يعتبر رذيلة أو جريمة إلا إذا كان فيه نقص لقيمة أخلاقية مصطلح عليها ، ولم يكن التسامح ولا الحرية الفكرية قيمة مصطلحاً عليها في العصور المظلمة بين الأوربيين ، سواء منهم المضطهدون ومن يقع عليهم الاضطهاد ، فلو أن أحداً من الذين وقع عليهم الاضطهاد ظفر

بمخالفيه في العقيدة لا ضطهدهم كما اضطهدوه ، وقسرهم على التصديق بعقيدته كما قسروه ، وكلا الفريقين يستعيذ من حرية الفكر على اعتبارها تفريطاً في الغيرة على الدين .

فالقيم الأخلاقية والوجدانية هي الجوهر المهم في تطور الأخلاق ، وليست هي الأسماء والعناوين ، ومتى ظهرت « القيمة » في أمة فهي مكسب حق لا شك في نفعه أيّاً كانت نية المنادي به على الصدق أو على الخداع ، فلو لم يكن الذهب ذا قيمة لما استحق أن يزيفه المزيفون .

ومحاسبة الحكام كانت قيمة جديدة بين العرب وسائر المسلمين في الصدر الأول من الإسلام ، فنادى بها الخاصة والعامة ، وادّعاها الصادق والكاذب ، وظلت عاملاً مهماً في السياسة أيام الخلافة وبعد أن صار الحكم مُلْكاً يتوارثه الأبناء عن الآباء .

أما الخليفة عثمان رضي الله عنه فأثر العقيدة فيه وهو فرد أوضح من أثرها فيمن قدموا إليه من الامصار ليناظروه ويحاسبوه ، وهو واحد من آحاد معدودين لم يكن في وسع العقل أن يتخيلهم في جاهليتهم على حالتهم التي ارتفعوا إليها بعد الاسلام .

إنه كان من سلالة الأمويين ، وهي سلالة اشتهرت في الجاهلية بالحرص على المال لا تبذله في غير مأرب أو متعة ، ولم ينهض أحد منهم بتكاليف المروءة والسخاء إلا منافرة لمن ينافسهم بين الملأ ، وغيرةً منهم أن يسبقوه إلى المجد والثناء ، فلما أسلم عثمان رضي الله عنه كانت شهرته الكبرى بالسخاء والأريحية ، فنزل عن ماله لتسيير جيش في سنة العسرة ، ونزل عن ماله لشراء بئر يستقي منها المسلمون بغير ثمن ، ونزل عن ماله لتوسعة المسجد ، ونزل عن ماله لحمل المغارم وإغاثة الملهوف والبر بالأقربين والأبعدين .

ومذهبه في محاسبة نفسه قد تتعارض فيه الأقوال والتأويلات ، ولكنه في الأمر الثابت الذي لا جدال فيه قد بلغ الذروة من محاسبة النفس ، والتحرج من المساس بالحياة البشرية ولو في سبيل الذود عن حياته وحياة أقرب الناس إليه .

فلما أيقن من القتل أبى أن يبقى في داره من يقتل أحداً ممن يحيطون بها ويعالجون اقتحامها لاغتياله ، ولما سُئل أن يتنحى عن الخلافة أبى أن يتنحى عنها . ولم يكن إباؤه ضنّاً بشيء تحتويه ، فلا شيء أغلى من الحياة وقد هانت عليه . ولا يزعم أحد أنه غنم من الخلافة مالاً ، بل يتفق المؤرخون على أنه ترك الدنيا وماله أقل مما كان لديه يوم ولي الخلافة ، ولكنه أبى أن يخلع نفسه حذراً من أن يحمل جريرة الخلع وما يعقبه من النزاع والقتال ، وقد صرح بذلك غير مرة فقال إنه يخشى على الذين يستطيلون أيامه أن يتمنوا بعده لو كان يومه مائة سنة ، فلا يبوءنّ بالعاقبة المحذورة وهو مختار .

فإذا تركنا الحوادث جانباً ونظرنا إلى التاريخ في صدر الاسلام على أنه تاريخ قيم ومبادىء ، فلنا أن نقول اننا أمام فواجع مؤلمة يود الناظر إليها لو يزوي بصره عنها ، وليس لنا أن نقول اننا أمام صدمة يصطدم بها من يسأل عن أثر العقيدة وأطوارها ، فلا صدمة هنالك إذا نحن وزنّا الحوادث بميزان القيم ، وعلمنا أن التاريخ لن يخلو من الحوادث ، وأن حوادث الخلاف ليست بأكبر الشرور التي تبتلى بها ضمائر بني الانسان .

* * *

وبعد الصدمة

وليست الصدمة العنيفة بالحائل الوحيد دون توضيح هذه الفترة ، وتمحيص أسبابها وعواملها ، وتبعات المسئولين عنها . فالصعوبة الكبرى أننا في هذه الفترة أمام حادثين يرجع كل منهما إلى أسبابه وعوامله ، ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متّحد الأسباب والعوامل .

هذان الحادثان هما التطور السياسي ومقتل عثمان رضي الله عنه ، وأسباب هذا لا تكفي لتعليل ذاك وليس من الحتم أن تؤدي إليه . وقد طال الجدل حول عمل عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء وأثره في هذه الفترة ، فرأى بعض المؤرخين أنه أهون من ذاك ، لأنهم اعتقدوا أن الانقلاب السياسي ومقتل عثمان حادث واحد له أسباب واحدة ، وليس هو كذلك . ولو أنهم فصلوا بين الأسباب في كليهما لأمكن تقدير التبعة والاستطاعةِ في عمل كلّ عامل ودسيسةِ كل مشترك في المؤامرة .

فابن السوداء ولا شك أهون من أن يُحدث التطور السياسي ، وغيره ممن هم أعظم منه شأناً وأشد منه خطراً أهون من إحداث ذلك التطور كلّه ، سواء تعمدوه أو عملوا له غير عامدين ، لأنه يرجع إلى أسباب متفرقة ، عميقة القرار ، كثيرة التشعب ، لا تضطلع بها قدرة رجل واحد ولا عدة رجال متألّبين متواطئين .

ولكن مقتل عثمان شيء اخر غير التطور السياسي ، وفي وسع ابن السوداء ومن هو أقل منه أن يقترفه بيده وأيدي من يستمعون لتحريضه ودسيسته ، لأنه في حقيقته « مشاغبة » من مشاغبات الدهماء التي لا تعجز عن أمثال هذه الاعاعيل .

والذين يقرأون فاجعة عثمان ويلمون بالتاريخ يسبق إلى خيالهم ما قرأوه عن مصارع رؤساء الدول في إبان الثورات والفتن القومية ، كالثورة الانجليزية مع شارل الاول ، والثورة الفرنسية مع لويس السادس عشر ، وغيرهما من الثورات في العالم القديم والعالم الجديد .

ومتى سبقت إلى خيالهم هذه الصورة ، حسبوا أن الثورة التي أفضت إلى مقتل رئيس الدولة في الأمتين كالثورة التي أفضت إلى مقتل رئيس الدولة الاسلامية في صدر الاسلام ، وبينهما في الواقع فارقٌ بعيد أبعد من فارق الزمان والمكان .

إن الثورة التي طاحت بشارل الأول قد اجتمعت فيها قوة الأمة بأسرها على وجه التقريب أمام قوة العرش وأنصاره من النبلاء ، وقد كانت هناك حرب وهزيمة غَلَبتْ فيها إحدى القوتين وانهزمت فيها القوة الأخرى .

وهكذا حدث في الثورة الفرنسية التي طاحت بلويس السادس عشر وهكذا حدث في ثورات كهذه بالقارة الأمريكية والعالم القديم .

أما مقتل عثمان عليه الرضوان فلم تكن فيه حرب بين قوة الدولة وقوة الأمة ، ولم تتقابل فيه قوى الحكومات الإسلامية وقوى الأمم في البلاد العربية وغير العربية ، وغاية ما يوصف به أنه « حادثة محلية » قد تم على أثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء ، وقد يستطيعها ابن السوداء ومن هو أقل من ابن السوداء .

وعلى سبيل الإيجاز الذي يغنينا عن الإسهاب في المقارنة والمناقشة نقول : إن عثمان رضي الله عنه ما كان ليقتل لو كانت داره محروسة حراسة الدور التي يقيم فيها ولاة الأمور ، وأن هذه الجمهرة التي اقتحمت داره واجترأت عليه بالسلاح ما كانت لتقتل والياً من ولاته – كمعاوية بن أبي سفيان في الشام مثلاً – لو أنها هجمت على داره بين حرسه وأجناده ، فلا محل هنا للموازنة بين قوى الدولة وقوى المشاغبة أو الفتنة ، ولا محل كذلك للموازنة بين عوامل الانقلاب السياسي وعوامل الدفاع عن شخص الخليفة في داره ، فكل عوامل الانقلاب لم يكن من الحتم أن تؤدي إلى مقتل الخليفة ولو بلغت أضعاف ما كانت عليه ، وقد كانت

المشاغبة التي جنت جنايتها على حياة الخليفة كافيةً لاجتراح هذه الفَعْلة ولو لم يكن وراءها كل عوامل التطور التي كانت تتجمع هنا وهناك في تلك الفترة الفاجعة ، وقد بقيت عوامل التطور وازدادت بعد انتهاء عهود الخلفاء الراشدين وقيام الملك الموروث ، فلم ينجم عنها مقتل ملك أو والٍ من كبار الولاة في بقاع الدولة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها .

فمن الواجب إذن عند إحصاء الأسباب والتبعات ، والكلام عما يستطاع وعمن يستطيعه ، أن نفرق بين الحادثين ، وأن نرجع بالتطور السياسي إلى أسبابه وعوامله التي تبلغ ما تبلغ ، ولا يلزم منها أن تؤدي إلى مقتل ولي الأمر في عاصمته ، وأن نرجع بمقتل ولي الأمر إلى أسبابه وعوامله التي قد تحدث مع ذلك التطور وقد تحدث منفصلة عنه في كل طور من أطوار القلق والتذمر ، مما يدوم أو ينقضي بانقضاء آونته ثم لا يعود في عصره .

* * *

أسباب ولا أسباب

على أن الاسباب التي ذُكرت للحادثين جميعاً لا تزال في حاجة إلى إعادة نظر. لأنها إما أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها ، أو يجتهد بها المجتهدون بغير رَوِيَّة في مواردها ومصادرها ، وإما أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها إلا لاقترانها بأحوال تلك الفترة ، ولو جاءت في فترة أخرى لما كان لها ذلك الاثر.

خذ لذلك مثلاً أسباب الفتنة كما ذكرها معاوية لابن الحصين .. سأله حين وفد عليه : « ما الذي شتّت أمرَ المسلمين وخالف بينهم ؟ » قال ابن الحصين وكأنه أراد أن يوافق هواه : « قتلُ الناسِ عثمانَ ؟ » . قال معاوية : « ما صنعت شيئاً » فعاد ابن الحصين يقول : « فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال عليّ إياهم » . قال معاوية مرة أخرى : « ما صنعت شيئاً » . فقال الرجل : « ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين » . قال معاوية : « فأنا أخبرك . إنه لم يشتت بين المسلمين ولا فرّق أَهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر الى ستة نفر ، وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهرَه على الدين كلِّه ولوكره المشركون . فعمل بما أمره الله به ثم قبضه الله إليه وقدّم أبا بكر للصلاة فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأَمر دينهم فعمل بسنَّة الرسول وسار بسيرته حتى قبضه الله ، واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته . ثم جعلها شورى بين ستة نفر ، فلم يكن منهم رجل إلا رجاها لنفسه ورجاها له قومه .. ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف » .

كذلك روى ابن الحصين عن معاوية ، وجاء أناس من ذوي النظر في الحكمة

والتاريخ فقالوا بما قال معاوية ومنهم محمد بن سليمان المتفلسف فيما رواه عنه ابن مكي الحاجب . قال ما فحواه : إن اختيار الستة من أهل الشورى ليكون الخليفة واحدًا منهم بعد مقتل الفاروق قد جعل كلاًّ منهم يشرئبُّ إليها ويعلم أنه أهل لها ، وكان أشدَّهم عملاً لها وكيداً لعثمان طلحةُ بن عبيد الله بن عثمان التيمي الملقب بطلحة الجود ، فهو من أبناء عمومة أبي بكر ، محبوب لسخائه وشجاعته وسبقه إلى الإسلام ، وكان ينافس عليها الفاروق فضلاً عمن جاء بعده ، ويرى أن أبا بكر كان خليقاً أن يَكِلَها إليه ، وأنه إذا فضّل عليه عمر فليس بعد عمر من يفضله ، وأعانه الزبير لأ ن منافسة علي وعثمان إذا وليا الخلا فة أشق عليه من منافسة طلحة إذا هي آلت إليه .

وكان أناس من المجتهدين يتابعون محمد بن سليمان المتفلسف على هذا الرأي ، أو يتابعون معاوية بن أبي سفيان أولَ من قال به وذهب إلى تخطئة عمر في ندبه لأهل الشورى ، ولم تزل منهم بقية في عصرنا هذا ترى الحصافة والحكمة فيما قاله معاوية ، منهم الأستاذ محمد أحمد جاد المولى الذي كان كبيراً للمفتشين بوزارة المعار ف ، فهو ينقل كلام معاوية في كتابه « إنصاف عثمان » ثم يتبعه قائلاً انه رأي « الحصيف المجرِّب الذي حلب الدهر أشْطُرَهُ ، وغلب برأيه ودهائه صاحب الحق على حقه ، وأقام دولة الإسلام على تخوم دولة الروم موطّدة الأكناف قوية الدعائم ، وحاش لعمر أن يتهمه أحد فيما فعل ، فإنه لم يرد إلا الخير للمسلمين جاهداً ، وكان أعظم ما يرجوه من ذلك ألا يكون خلاف وافتراق بين المسلمين .. وأكبر الظن عندنا أن عمر لو كان في حال غير هذه فربما فضَّل أن يريح المسلمين من العناء والمناوشات الحزبية ، ويعهدَ إلى من هو أهلٌ للخلا فة ، فقد يجد الناس لهذا التعيين حرمة تسكت الألسنة والدولةُ لا تزال فتيَّة ، أعدى أعدائها الشقاق والا نقسام .. »

هذا سبب من أشهر الأسباب المذكورة ، تواتر القول به من أيام الفتنة إلى العصر الحاضر ، ولو كانت الأسباب التاريخية تهمل على قدر وهنها وظهور الغرض فيها ، لما ورد لهذا السبب ذكر على لسان بعد إفضاء معاوية به إلى ابن الحصين ، إلا أن يكون ذِكرُه لتوهينه والكشف عن غرضه ، وهو مكشوف لا يُجهد من يريد أن يلتفت إليه .

فمعاوية لم ينكر الشورى في اختيار الخليفة إلا لأنه أجمع العزم على خطة ولاية العهد ، ورشح لها ابنه يزيد من بعده ، وما كان في هذه الخطة حصافة ولا تجربة ، لأنها لم تلبث أن أوقعت الخلاف في أقرب الأقربين إلى معاوية ، وساقتهم إلى تولية العهد اثنين بدلاً من ولي عهد واحد ، ولم تحسم الخلاف بين بني أمية فضلاً عن حسم الخلاف بين قريش وبين سائر المسلمين .

ولقد قال الشعبي إن عمر لم يمت حتى كانت قريش قد ملَّته لقمعه رؤساءهم وحبسه إياهم بالحجاز خوفاً من فتنتهم بالدنيا وفتنة الدنيا بهم ، فاذا كانت هيبته في حياته قد سكنت بهم عن الخلاف فهم مختلفون بعد موته لا محالة ، ولو أنه اختار للخلافة أحداً سماه لما اختار طلحة ولا الزبير لأنه لم يذكرهما فيمن تمناه للخلافة من الموتى ولا من الأحياء . فقال إنه كان يختار أبا عُبَيْدَة لو عاش لأنه سمع رسول الله يدعوه أمين الأمة ، أوكان يختار سالماً مولى أبي حُذَيْفَة لو عاش لأنه رأى رسول الله يقدمه للصلاة بالمهاجرين . فلما سمى من يحسبهم مرشحين للخلافة من الأحياء سمّى عليّاً وعثمان ولم يجاوزهما إلى غيرهما من الستة أصحاب الشورى . فقال لعلي : « اتق الله يا علي إن صارت إليك ، ولا تحمل بني هاشم على رؤوس الناس » وقال لعثمان : « اتق الله يا عثمان إن صارت إليك ، ولا تحمل بني مُعَيْط على رؤوس الناس » وما نحسبه سكت عن طلحة إلا عامداً وعلى عِلْم بأن الستة لا يُجْمعون عليه ، وتقيةً أن يظن ظانٌّ أنها وقف على بني تيم ، ويقيناً منه أن اتفاق الستة على واحد أحْرَى أن يلزمهم الطاعة لمن يتفقون عليه .

وإذا كان في كلام معاوية لأَبي الحصين حصافة ألمعية فتلك هي إشارته المقصودة إلى التفرقة بين أمور الدين وأمور الدنيا ، واعتبارُه أن تقديم النبي عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس بمثابة الرضى عنه لأمور دينهم ، فأضاف الناس إليه الرضى عنه لأمور دنياهم ، ويصح من ثَمَّ أن يكون المرضي عنه لهذه غيرَ المرضي عنه لتلك ، وهذا هو المدخل إلى ولاية الملك لأمثال يزيد وعَقِبه مع وجود من هم أفضل منه ديناً من جلة الصحابة والتابعين .

* * *

ونعدل عن الأسباب المزعومة أو الأسباب التي اجتهد بها المجتهدون ، إلى الأسباب الواقعة التي حدثت وكان لها أثر في إهاجة الخواطر وتسويغ الا نقلاب ، ومنها ما يتعلق بأمور الدين ، ومنها ما يتعلق بأمور الدنيا أو أمور الحكم والسياسة .

فمن الأمور التي تتعلق بالدين أن الخليفة الثالث زاد النداء في الأذان لصلاة الجمعة ، وأنه أتم الصلاة في منى وعرفة وكان النبي والخليفتان الأولان يقيمونها على القصر ، وقد صلاَّها عثمان نفسه في أول خلافته ركعتين ، ومنها أنه جمع القرآن الكريم في نسخة وأمر باحراق ما عداها في المدينة والأمصار.

ولم يكن عثمان رضي الله عنه في واحدة من هذه مستبيح حرام ، بل كان متحرجاً غاية التحرج لدينه ، فقد زاد في الأذان لكثرة عدد الناس واتساع المدينة ، وصلى صلاة المقيم لأنه اتَّخذ بمكة أهلاً ، فتحرَّج أن يصلي صلاة المسافر وهو صاحب أهل فيها ، وقد كان جمعه القرآن الكريم حسنة من أجلّ الحسنات وسبقه أبو بكر وعمر إلى مثلها فحمد المسلمون صنيعها ، وأنكره من أنكره منهم أولاً ثم عادوا الى قَبوله ، بل ألفوه وأثْنَوْا عليه .

قال عمر : إن القتل قد استَحَرَّ بأهل اليمامة ، وأخشى أن يستحر بقُرَّاء الكتاب في غيرها ، فيذهب ما حفظوه بذهابهم ، إلا أن يجمعوه ، وأشار على الخليفة الأول بجمعه ، فكانت مفاجأة نفر منها أبو بكر وجعل يقول : «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ! » . فقال عمر : « هو والله خير » . قال أبو بكر : « نعم خير » . ولم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله لذلك صدره . ثم أخذوا يتتبعون آي القرآن ويجمعونها من الرِّقاع والعُسُب والأكتاف وصدور الرجال حتى وجدوا من سورة التوبة آيتين عند خزيمة بن ثابت لم يجدوهما عند غيره ، وتم جمع الكتاب في مصاحف عند طائفة من جلة الصحابة كالإمام علي ، وعبدالله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبيّ بن كعب ، وجاء عثمان فسد ذرائع الخلاف ، ولم يأت بشيء من عنده غير تعميم المصحف في جميع البلدان ليقرأه المسلمون على نسخة واحدة .

ولئن كان في بعض هذه الأمور التي تتعلق بالدين مخالفة للمألوف ، لقد خالف عمر المألوف في منع زواج المتعة ، وفي نقص الأعطية للمؤلَّفة قلوبُهم ،

وفي الإعفاء من حَدّ السرقة في عام المجاعة ، وفي تسوية الصفوف بالمسجد عند الصلاة ، وفي مسائل أكبر مما أحصَوْه على عثمان ، فلم يتحدث بها متحدث على سخط وتذمُّر فضلاً عن الثورة وحمل السلاح .

ولا نطيل في سرد الأمور « الدنيوية » التي قيل انها أهاجت الفتنة على عهد عثمان ، ومنها غلبة قريش على الأمصار ، وسيادة العرب على الأمم الأخرى ، وإقامة بعض الولاة الذين اتهموا في تقواهم ، وبذل الأموال لذوي القرابة والنصراء .

فقد ثار الثوار فجاء الكوفيون يطلبون الزبير ، وجاء البصريون يطلبون طلحة ، وجاء المصريون يطلبون عليًّا ، وكلهم من صميم قريش . وقد أقام معاوية ملكه بقريش والعربِ ، وكان بذل الأموال لذوي القرابة والنصراء عمادَ دولته ووسيلتَه إلى تأسيس بيته وبسط سلطانه .

ومن الولاة الذين أنكر الثائرون ولايتهم لا تهامهم بشرب الخمر الوليد بن عقبة ، وقد حَدَّهُ عثمان بعد استماعه للشهادة عليه ، ولم تكن ولايته على عهد عثمان ، بل ولاه عمر على الجزيرة ، واختاره عثمان لولاية الكوفة .

* * *

وسنرى ، بعدُ ، أنه ما من عمل نسب إلى الخليفة الثالث إلا حدث مثله من قبله فلم تنشب من أجله فتنة ، أو حدث مثله من بعده فلم تنشب من أجله فتنة ، بل لعله كان من دعائم الدولة وأساس السلطان .

ولهذا قلنا انها اسباب ولا أسباب ، وانها بين أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها ، أو أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها إلا لا قترانها بأحوال تلك الفترة ، ولو جاءت في فترة أخرى لما كان لها ذلك الأثر .

.. لِمَ ؟ ..

نعم ، لم والاسباب واحدة تختلف عواقبها بين هذه الفترة وغيرها ؟..

ذلك أنها فترة جاءت بين الخلافة والمملكة ، فلا تستقيم فيها وسائل الخلافة ، ولا تستقيم فيها وسائل المملكة ، ومن هنا اضطراب الوزن ، واضطراب السخط والرضى ، وقياس الأمور في وقت واحد بمقياسين مختلفين أو متعارضين .. ولعمر الحق ما من شيء يدل على أن الأحداث السياسية تبعٌ للحالة النفسية ومقاييس الفكر والأخلاق كما يدل عليه تاريخ هذه الفترة في صدر الاسلام بين خلافة الراشدين ودولة بني أمية .

لقد كان الناس رعية « مملكة » يتصرفون في معايشهم ومطالبهم كما يتصرف رعايا الممالك ، ويسومون ولي أمرهم أن يسوسهم سياسة الخلافة ، وينتظرون من الخليفة الثالث ألا يجري في أمر من الامور على نهج ينحرف قيد شعرة عن نهج الخليفتين الأول والثاني ، وهم أنفسهم قد انحرفوا عن نهج رعايا الخليفتين أبعد انحراف .

ومما لا جدال فيه أن عثمان لم يكن بقوة أبي بكر وعمر ، ولكن عمر نفسه على قوته ومهابته قد أحس في أخريات أيامه وطأة الاختلاف بين العهود ، فكان يقول في دعائه : « اللهم كبرت سني ، وضعفت قوّتي ، وانتشرت رعيتي ، فالقبضَ غير مضيّع ولا مفرّط » ...

فتكليف عثمان أن يستبقي الزمن حيث لا يبقى ، ضربٌ من تكليف الأيام ضد طباعها كما قال الشاعر الحكيم ، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك فقلنا في عبقرية الإمام ان عثمان « أحس بها ، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين لا يرجع أحدهما إلا بالغلبة على ندّه وضده » .

وقلنا قبل ذلك : « انه لا بد من مُلك أو خلافة ، ولن يكون ملك بأدوات خليفة ولا خليفة بأدوات مَلِك ... ولم يكن معاوية زاهداً في الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه ، فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملكُ يطلبه » ..

ثم قلنا : « كيف يكون المخرج بين سياسة الملك كما يطلبها العصر وسياسة

الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية ! . أيفرّق الأموالَ على رؤوس القوم وقادة الجند وطلاب الترف ، أم يُلْزمهم عيشةَ النسك والشظف والجهاد ؟ وإذا حرمهم وتألبوا عليه مع خصمه أفهو الغالب إذن بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟ وإذا أعطاهم ليبذخوا بذخ الملك الدنيوي وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنَّة النبوة ، أفيستقيم له هذا « الدور » العجيب وهو في جوهره متناقض لا يستقيم » ؟

تلك هي العقدة التي استحكمت في عهد عثمان ووجب أن تنقطع في عهد عليّ ومعاوية .

وإعادة النظر في جميع الأسباب والتبعات تعود بنا إلى نظرة فاصلة في هذه المشكلة التي زادها نفر من المؤرخين إشكالاً بما أضافوه إليها من الأسباب المختلفة والأسباب الصحيحة التي خرجوا بها على غير مخرجها .

فنحن أولاً في تاريخ الخليفة الثالث أمام حادثين لا تكفي أسباب أحدهما لتفسير الحادث الآخر .

ونحن في الحادثين جميعاً بعد هذا أمام أسباب لا تفعل فعلها لو جاءت في فترة أخرى ، ولعلها تفعل نقيض فعلها فتؤيد ولي الأمر ولا تخذله كما تأيدت دولة بني أمية بالعطايا والعمائر وكان فيها خذلان عثمان ومشيره مروان .

وما لم تنقطع غاشية هذا اللبس وهذا الإبهام من تاريخ هذه الفترة ، فنحن نسلكها في ضباب لا تبدو فيه الأشباح والصور على حقيقتها ، ومن ثم رجونا أن نبدأ السيرة وقد تبدد ما حولها من غواشي ذلك الضباب الكثيف ، وسنبدؤها من حيث تبدأ في طريق لا يبهمه اختلاط الأسباب ، ولا التعويل عليها مبتورةً منفصلة الرؤوس والأذناب .

* * *

الفصل الثاني

- بين الجاهليّة والإسلام
- نشأته وشخصيّته
- ثقافة عثمان

بين الجاهلية والإسلام

نشأ عثمان بن عفان في أسرة أموية تنتمي إلى أمية جد أبيه ، وعند أمية يكثر الخلاف على سلسلة النسب بين أسرته والنسابين ، فلا تتفق الأقوال المتضاربة على قول حاسم .

يقول المقريزي في رسالة النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم : « وقد كانت المنافرة لا تزال بين بني هاشم وبني عبد شمس بحيث أنه يقال ان هاشماً وعبد شمس ولدا توأمين فخرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم وقد لصقت إصبع أحدهما بجبهة الآخر ، فلما نزعت دُمي المكان فقيل سيكون بينهما أو بين ولديهما دمٌ ، فكان كذلك .

« ويقال ان عبد شمس وهاشماً كانا يوم ولدا في بطن واحد كانت جباههما ملصقة بعضها ببعض ففرق بين جباههما بالسيف فقال بعض العرب : ألا فرق ذلك بالدرهم ؟ فإنه لا يزال السيف بينهم وبين أولادهم إلى الأبد » .

وأمية هو في تاريخ الأسرة ابن عبد شمس أحد التوأمين أو الأخوين ، ولكن بعض النسابين يقول انه ربيب عبد شمس ، وانه ابن جارية رومية وصلت إلى الحجاز مع ركب سفينة جنحت إلى الشاطىء ، ويفسرون بذلك أبياتاً منسوبة إلى أبي طالب يقول فيها :

قديمـــاً أبوهم كان عبداً لجَدِّنا   بني أمَةٍ شَهْلاءَ جاش بها البحرُ

ويفسرون به أيضاً قول الإمام عليّ لمعاوية في بعض كتبه « ليس المهاجر كالطليق

ولا الصريح كاللصيق » .. وجاء في ابن هشام أن عقبة بن ذكوان بن أمية صاحَ حين أمر النبي بقتله : « أأقتل من بين قريش ؟ » . فقال عمر بن الخطاب : « حَنَ قِدْحٌ ليس منها » وهو مثل يضرب للقدح الدخيل في الميسر ، وروى ابن هشام أيضاً أن النبي عليه السلام قال حينئذ : « إنما أنت يهودي من أهل صفورية » . ويقال في تفسير الحديث ان الأمَة التي ولدت أباه كانت ليهودي من أهل صفورية ، ويقال غير ذلك مما يعسر الفصل فيه .

ولكنه من الراجح الذي ينتهي به التاريخ إلى دور التحقيق أن التبني وتدعيم العصبية به ، معهودان في هذه الأسرة على نحو لم يذكر له مثيل في الأسر الجاهلية الكبيرة ، ومما رواه الأصفهاني وابن أبي الحديد أن معاوية قال لدَغْفَل النسابة : « أرأيت أمية ؟ » . قال : « نعم » . قال : « كيف رأيته ؟ » . قال : « رأيته رجلاً قصيراً ضريراً يقوده عبده ذكوان » . قال معاوية : « ذلك ابنه أبو عمرو» . قال دغفل : « ذلك شيء تقولونه أنتم ، أما قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده » .

* * *

وفي التاريخ الثابت بعد الاسلام أن أبا سفيان استلحق زيادًا الذي كان يسمى بزياد بن أبيه أو بزياد بن سُمَيّة ، وكان معاوية يغضب على من ينكر هذا الاستلحاق ، فقال يزيد بن مُفَرِّغ يخاطبه :

أتغضبُ أنْ يقالَ أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقالَ أبوك زانِ
فأقسِمُ أن رِحْمَك من زيادٍ ... كرِحْمِ الفيلِ من ولد الأتان

وروى البلاذري من أخبار هذا الاستلحاق أن عثمان بن محمد بن أبي سفيان ولي المدينة بعد عمرو بن سعيد ، فعرّض في خطبته بسلفه ، وكان هذا حاضراً في المسجد فنهض مغضباً وقال فيما قاله لعثمان حفيد أبي سفيان : « إنني لا يستنكر شبهي ، ولا أُدعى لغير أبي » .

ويزيد المقريزي على ما تقدم من خبره أن أُمية « صنع في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب : زوّج ابنه أبا عمر امرأته في حياته » .

قال المقريزي : « والمَقْتِيُّونَ في الإسلام هم الذين أولدوا نساء آبائهم واستنكحوهن من بعد موتهم . وأما أن يتزوجها في حياته ويبني عليها وهو يراه فإن هذا لم يكن قط . وأُمية قد جاوز هذا المعنى ولم يرض بهذا المقدار حتى نزل عنها له وزوَّجها منه » .

ثم قال المقريزي : « وأبي معيط بن أبي عمرو بن أمية قد زاد في المقت درجتين » .

وندع ما جاء في أنساب الأشراف وفي شرح نهج البلاغة من سائر هذه الأخبار عن استلحاق الأبناء ، فإن الحرص على تدعيم العصبية ظاهر في هذه الأسرة مما ثبت من أخبارها ، فلا حاجة إلى الإسهاب فيه .

وكانت المنافرة شديدة بين أمية وهاشم إلى أيام الدعوة المحمدية ، يحفظ لنا الرواة أخباراً كثيرة منها قديمة وحديثة ، فمن أحدثها قبل الدعوة الإسلامية أن حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم تنافرا إلى حكم من بني عديّ القرشيين هو نُفيل جد الفاروق . فقال نفيل لحرب : « أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفداً ، وأطول منك مذوداً :

أبوك مُعَاهِرٌ وأبوه عــــف وذادَ الفيلَ عن بلدٍ حرامِ

يشير إلى تعرض أمية للنساء ، ومنهن امرأة من بني زهرة راودها فتصدى له بعض قومها وأوشكت أن تكون من جرّاء هذا الخلاف فتنة بين قبائل قريش .

وأقدم من هذه المنافرة منافرة أخرى بين هاشم وأمية تكلف فيها أمية أن يصنع صنيع هاشم ، وكان هاشم – واسمه عمرو – قد غلب عليه لقب هاشم لأنه تكفل بإطعام المعوزين من أهل مكة وجيرتها عام المجاعة ، فكان يهشم الثريد لهم وينحر الابل ويتعهد الفقراء ، وفيه يقول شاعرهم :

عمرو الذي هَشَمَ الثَّريدَ لقومِه
ورجالُ مكةَ مُسْنِتُون عِجَـــافُ

فأراد أمية أن ينافسه في الشرف ومحبة الناس إياه فعجز عن هذه المنزلة ، فدعاه إلى المنافرة كعادتهم ، واحتكما إلى كاهن خزاعة بُعسْفَان على خمسين ناقة تنحر بمكة وجلاء عشر سنين من جوار الحرم ، فقال الكاهن سجعاً على أسلوب الكهان والمحكَّمين جميعاً يومئذ : « والقمرِ الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعَلَم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم إلى المآثر ، أول منه وآخر ، وأبو همهمة بذلك خابر » .

وأبو همهمة الذي أشار إليه الكاهن هو حبيب بن عامر الذي خرج مع أمية ، وينتهي نسبه إلى فهر بن مالك . وكأنما أراد الكاهن بذكره أن يذكِّره بما في النسب الأول والآخر من سر هو به خبير .

قال الرواة : فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعم لحمها من حضر وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين .

ويكاد التنافس بين العشيرتين أن يشمل كل مطلب من مطالب الحياة ، فشمل الفروسية ووسامة الذرية كما شمل الرئاسة ومفاخر السيادة .

تنافس أمية وعبد المطلب على سباق الخيل ، وتراهنا على أن تُحزَّ ناصية المسبوق سنة ويغرم عدداً اختلفوا فيه من العبيد والإماء والإبل ، فسبق فرس عبد المطلب فرس أمية ، ودان أمية بسيادته عليه سنة . وينقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة كلمة لعبد الله بن جعفر في محضر معاوية جَبَهَ بها يزيد وهو يفاخره فقال : « أتفاخرني بحرب الذي أجرناه ، أم بأمية الذي ملكناه ، أم بعبد شمس الذي كفلناه ؟ » .

ويقول الكلبي في أبناء عبد المطلب : «كانوا إذا طافوا بالبيت يأخذون البصر» ورآهم عامر بن مالك فقال : « بهؤلاء تمنع مكة » ، وغير هذه الصفة تقال في أبناء حرب فلا يتصدى لنقضها أحد من الأمويين المتقدمين .

ونحسب أن المنافسة بين العشيرتين كانت ضربة لازب ، لأن الاختلاف بينهما أعمق غوراً من الاختلاف على الرئاسة ومناصب الشرف فيما اصطلح عليه عرف الجاهلية : كان اختلافاً في الخلق والطبيعة ، وكان بنو هاشم على ما ثبت من الروايات المتقدمة أقربَ إلى الأخلاق المثالية الدينية ، وبنو أمية أقرب إلى الأخلاق العملية الدنيوية . وقد يتردد المؤرخ في قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها ، ولكنه لا يحتاج إلى المشكوك فيه من تلك الروايات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ففي حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ، وتخلى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه .. وحلف الفضول هذا هو الذي قال عنه النبي عليه السلام : « لقد شهدت في دارِ عبدِ الله بنِ جُدْعان حلفَ الفُضُول ... أما لو دُعيت به اليوم لأجبت ، وما أحب أن لي به حُمْرَ النَّعم وأني نقضته » .

وخلاصة قصته أن رجلاً يمانياً قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها رجل فلواه بحقه وأبى أن يرد إليه بضاعته ، فقام في الحجر أو في مكان على شرف وصاح يستغيث ، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بني هاشم وأحلافهم ألاّ يُظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه في جفنة وبعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه وشربوه .

وقد أبى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف ، فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول : « لو أن رجلاً وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول » .

وإن طبيعتين يفصلها هذا الفاصل من ذوات النفوس لا جَرَمَ تتنافران وإن ضمها بلد واحد ، وإنهما في البلد الواحد لأخلق بالتنافر من المتباعدين .

* * *

هذه العجالة عما كان من المنافرة بين بني هاشم وبني أمية في الجاهلية تدخل في سيرة عثمان من مداخل شتى ، وقلّ أن يمر بنا مبحث في عمل من أعماله أو خلق من أخلاقه إلا كانت به عودة إلى تلك المنافرة .

فمنها نفهم أن فضل عثمان في إسلامه لا يدانيه فضل أحد من السابقين إلى الاسلام ، إذ لم يكن منهم من أقامت أسرته بينها وبين النبي هذه الحواجز العريقة من المنافسة والملاحاة ، وكلهم كان بينهم وبين الاسلام ما كان بين القديم عامة والجديد عامة ، ولم تبلغ عداوتهم أن تكون من عصبية اللحم والدم او عصبية البيت كما كانت عداوة الأمويين للهاشميين ، وليست هذه العداوة في الجاهلية بالشيء الهين ولا بالعقبة المذللة . فقد رأينا رجلاً من بني عبد شمس كان يتمنى ان يشهد حلف الفضول فحماه أن يفعل ذلك خشية الخروج على قومه ببدعة لم يقبلوها ولم يشتركوا فيها ، وهذا مع ما هو واضح من الفارق بين دعوة كحلف الفضول لا تنقض ديناً ولا تغير عبادة ولا تميز أحداً من الداخلين فيها بشرف او سيادة . وبين دعوة كالدعوة المحمدية تحطم كل صنم وتبدل كل عبادة وتثبت لبيت عبد المطلب شرفاً لا يسمو إليه شرف بين الناس كافة ، فضلاً عن قريش وأمة العرب بكل من تشتمل عليه .

وما تقدم من شواجر النزاع بين أمية وهاشم كاف للإبانة عن فضل عثمان في سبقه مع السابقين إلى قبول الدعوة المحمدية . إلا أن هذا الذي تقدم لم يكن شيئاً إلى جانب الشر الذي قوبل به النبي في بيت عثمان نفسه وبيت عمومته وقرابته من جملة الأمويين .

فالحكم بن العاص – عم عثمان – كان يتصدى للنبي ويشتمه ويمشي وراه يحكيه في مشيته ويخلج بأنفه وفمه ، فقيل إنه عليه السلام التفت إليه وهو بهذه الحالة فلزمه ذلك الاختلاج ، وقال فيه عبد الرحمن بن حسان وهو يهجو مروان ابنه :

إن اللعينَ أباك فَارْمِ عِظَامَـــهُ
إن تَرْمِ تَرْمِ مُخَلَّجاً مجنـــونا

يُضْحِي خَمِيصَ البطنِ مِنْ عَمَلِ التُّقَى
ويظلُّ مِنْ عَملِ الخبيثِ بطينـا

وقد لبث على دِخْلَةِ نفسه بعد إسلامه عام الفتح خوفاً من القتل فكان يتطلع على النبي في داره فرآه مرة فقال : « من عذيري من هذا الوَزَغةَ ! » ثم أمر ألا يساكنه بالمدينة ، فأخرج مع بنيه إلى الطائف لا يدخل المدينة ما أقام فيها عليه السلام .

ومنهم عقبة بن أبي مُعَيْط الذي كان يتربص بالنبي حتى يسجد في صلاته فيلقي على رأسه سلا الشاء أو يطأ على عنقه الشريفة كما قال النبي في يوم بدر : « إنه وطىء على عنقي وأنا ساجد فما رفعت حتى ظننت أن عينيَّ قد سقطتا » .. وكان أحد الأسرى الذين قتلوا ببدر لشدة ما ابتلي به المسلمون من أذاهم قبل الهجرة ، وفي بيت عقبة هذا أقام عثمان زمناً لأنه تزوج من أمه بعد موت أبيه في صباه .

وتصدى للنبي عليه السلام كثيرون غير هذين من قرابة عثمان وخاصة أهله ، ولم يدخل في الإسلام أحد من بني أمية قبله مع هذه العداوة في أسرته كلها وفي خاصة قرابته منها ، فله من فضل هذه السابقة ما ليس لأحد السابقين إلى قبول الدعوة المحمدية .

ولما أسلم رضي الله عنه أخذه عمه الحكم فأوثقه رباطاً وعذبه وأقسم لا يخلينه أو يدع ما هو فيه . فأقسم لا يدعنه أبداً ، وصبر على العذاب حتى يئس منه عمه فأخلاه .

وروي في سبب إسلامه أن أبا بكر شرح له قواعد الاسلام وهداية الدين الجديد وأنِسَ منه خشوعاً وتفكيراً فقال له : « ويحك يا عثمان ، والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل . ما هذه الأوثان التي تعبدها وقومك ؟ أليست حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ؟ » . فراجع نفسه وقال : « بلى والله إنها لكذلك » فدعاه أبو بكر إلى لقاء النبي ولقيه فقال له عليه السلام : « يا عثمان ! .. أجب الله إلى جنته » . قال عثمان : « فوالله ما ملكت حين سمعت قوله أن أسلمت

وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله . ثم لم ألبث أن تزوجت رُقَيَّة » .

ومن المتواتر أن عثمان كانت له خالة اسمها سعدى بنت كُرَيْز تتكهن وتتعبد ، ونقل عنها أنها هنأته بإسلامه وزواجه ، فقالت :

هَدَى اللهُ عثمانَ الصَّفيَّ بِقَوْلِهِ
فأَرْشَدَهُ والله يهــــدِي إلَى الحق
فبايــعَ بالرَّأي السَّديدِ محمـــــداً
وكان ابن أرْوَى لا يصدُّ عن الصدق
وأنكحَهُ المبعوثُ خيرَ بناتــــهِ
فكانَ كبدرٍ مازَج الشمسَ في الأُفْقِ

وينقل عنها غير ذلك أنها كانت طُرِقَتْ وتكهنت عند قومها فلما رأته بعد قيام النبي بالدعوة قالت :

أبشِرْ وَحُيِّيتَ ثَلاثَـــاً تَتْرَى أبــاك خــيرٌ وَوُقيتَ شرَّا
أنكحت والله حصانـــاً زَهْرَا وأنت بِكْرٌ ولقيتَ بِكْــرا
وافيتَهــا بِنتَ عظيمٍ قــدْرَا بنتَ نبيٍّ قــد أشاد ذكــرا

قال عثمان : « فعجبت من كلامها وسألتها : يا خالة ! .. ما تقولين ؟ » . قالت : « يا عثمان ! .. لك الجمال ولك اللسان ، هذا نبي معه البرهان ، أرسله بحقه الديان ، فاتبعه واهجر الأوثان » . واستزادها قائلاً : « يا خالة ! .. إنك لتذكرين شيئاً ما وقع ذكره في بلدنا فأبينيه لي » . قالت : « محمد بن عبدالله رسول من عند الله جاء بتنزيل الله يدعو إلى الله » . ثم قالت : « مصباحه مصباح ، ودينه فلاح ، وأمره نجاح .. دانت له البطاح ، ما ينفع الصياح ، لو وقع الذباح ، وسُلَّت الصفاح ، ومُدَّت الرماح » .

ويقال ان عثمان إنما ذهب إلى أبي بكر بعدما سمعه من خالته فرآه أبو بكر مفكراً فسأله وجرى بينهما بعد ذلك ما تقدم من النصيحة والاستجابة على ما اتفقت

به الروايات .

ونحن نسقط من حسابنا ما روي من كلام الكاهنة ، لأنه ضعيف السند لا يبقى منه إلا أن خالة لعثمان كانت تتكهن وتتعبد ، وأن مسألة الدين في بيته كانت شغلاً شاغلاً لمن يأخذه على العصبية والعناد أو يأخذه على العبادة والتقوى ، فما نظن ان رجلاً في الثلاثين – وهي سنه عند إسلامه – كان يعصي آله جميعاً ويطيع شيخة عقاماً لو لم يكن في ضميره باعث مطاع إلى الايمان بالدين الجديد .

وفي وسعنا أن نتخيل غضب قومه الأقربين من إسلامه فقد كان كأشد غضب لحق مسلماً من قومه المقيمين على الجاهلية ، ولكنه مع هذا لم يمنع أناسًا منهم أن يلوذوا به خوفًا على أنفسهم بعد هزيمتهم ، ولم يمنع أن يتشفع لهم عند النبي وصحبه ويسأله العفو عنهم ، وكذلك نرى أن تاريخ أمية في الجاهلية يحضرنا عند تقدير فضل عثمان في إسلامه ، ويحضرنا عند تقدير أعذاره وعلل أعماله التي أخذت عليه بعد ولايته الخلافة . فقد كان لتدعيم العصبية وتأليبها شأن قديم في تاريخ هذه الأسرة ألجأها إلى استلحاق الأبناء من الموالي وإلى تزويج البنين من زوجات آبائهم او الموالي من زوجات أوليائهم ، ولا ندري على التحقيق بم نعلل هذه العادة التي انفردوا بها اوكادوا ، إلا أنها قد تعلل بأن القوم لم يكونوا من الخمول بحيث يسكنون إلى خمولهم ، ولم يكونوا من العزة الراسخة بحيث يطمئنون إلى عزتهم ، وأنهم – وإن لم يعقموا – لم تشتهر عنهم غزارة الذرية في الجاهلية ولا في الاسلام ، وهذه سلسلة ولاية العهد أوشكت أن تنقطع في كل بيت من بيوتهم ولي الخلافة بعد قيام الدولة الأموية ، وربما انقرض البيت في جيل او جيلين وبقي معاصروه من غيرهم عدة أجيال .

وقد انتهت المفاخرة بعد الاسلام بين المسلمين من بني أمية وبين بني عبد المطلب ، فما من أموي مسلم كان يتعالى إلى مطاولة آل النبي بالنسب من جانب آبائه عليه السلام خاصة ، ولكنهم مع هذا – ولا استثناء لأصدقهم إسلاماً كعثمان وصحابة النبي – قد كانوا يودون لو سمعوا عن أمية كلما سمعوا عن هاشم وبنيه . وتقدم ان معاوية سأل دغفلاً النسابة عن أمية بعد سؤاله عن عبد المطلب ، وابن

أبي الحديد يروي مثل هذا عن عثمان في أيام خلافته وأنه رضي الله عنه تمنى رجلاً يحدثه عن الملوك وسير الماضين فذكروا له رجلاً بحضرموت ، فكان مما سأله عنه : « أرأيت عبد المطلب ؟ » قال : « نعم ، رأيت رجلاً قعداً أبيض طوالاً مقرون الحاجبين بين عينيه غرة يقال ان فيها بركة ، وإن فيه بركة » . فعاد يسأله : « أفرأيت أمية ؟ » . قال : « نعم . رأيت رجلاً آدم دميماً قصيراً أعمى يقال انه نكد . وإن فيه نكداً » . قال عثمان : حسبك من شر سماعه ، وصرف الرجل ..

ولا ينبغي أن ينسى العذر حيث يذكر الفضل للرجل من سوابق آله وذويه .

* * *

نشأته وشخصيته

ترجمة عثمان ترجمة سويَّة ، لا نستغرب من لاحِقِها بعد الإسلام شيئاً مما نعلمه عن سابق سيرته قبل إسلامه ، وإذا فاجأنا بالغرابة لأول وهلة فإنما نستغربه من أثر المفاجأة ، ثم نعود الى دواعيه فاذا هو مطّرد لا غرابة فيه .

نشأ في نعمة وعيش خفيض ، وكانت ولادته بالطائف أخصب بقاع الحجاز ، لستٍّ سنوات مضت من عام الفيل ، ولم يؤثر عنه أنه اختبر شظف العيش قط في صباه أو طفولته .

وهو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، كان أبو تاجراً واسع التجارة ، وكان يحمل قوافله الى الشام على دأب الأكثرين من تجار بني أمية ، وفي إحدى هذه الرحلات التجارية مات عن ثروة عظيمة ، وترك ابنه بين الصبا والشباب .

وإذا صح ما جاء في أنساب الأشراف للبلاذري فقد كان عفان يعمل في حياكة الثياب : « عفانُ أولُ حائك لثيابكم » . ولكننا نستبعد جداً أن يجمع الثروة من حياكة الثياب بيديه ، ومن الراجح إذن أنه كان يدير مصنعًا من مصانعها ، او أنه عمل بها في صباه ثم تحول عنها الى التجارة .

وأم عثمان هي أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأمها أروى البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبي عليه السلام ، وقد سبق ان أختها كانت تتكهن وتنقطع للكهانة ، ففي وراثته من جانب أمه جنوح الى طبيعة التدين التي اشتهر بها عبد المطلب وآباؤه وبنوه .

ويروى كما جاء في ابن الأثير أن عقبة بن معيط شكاه الى أمه – وكان قد تزوج بها بعد وفاة عفان – فقال لها أن ابنك قد صار ينصر محمداً ، فلم تنكر ذلك من ابنها وقالت : « ومن أولى به منا ؟ أموالنا وأنفسنا دون محمد » .

وقد كان مألوفاً في الجاهلية ان تتزوج المرأة بعد تطليقها من زوجها او بعد وفاته ، ولكن هذه العادة المألوفة لا تمنع ان ينقبض لها الابن وأن ينكسر لها بينه وبين نفسه ، فيلازمه منها بعض الخجل ولا يرتاح اليها بأية حال .

ويبدو من دراسات علم النفس الحديث أن « مشكلة الأب » قد تمكنت من طوية الصبي فكان لها فعلها في توجيه شعوره من ناحية ذويه ومن ناحية البيئة بأسرها ، فضاعفت ما في وراثته الأموية من الإيواء الى ذوي قرباه ، وهيأت نفسه للنفور من الوضع القائم في البيئة ، فلم يصعب عليه أن ينكر الأوضاع القائمة في نطاقها الأعم الأوسع ، وهو نطاق الشعائر الجاهلية .

ذلك أنه نشأ وهو يحسّ أن رب البيت الذي نشأ فيه غاصب ينتزع مكان أبيه ، فتمكنت من نفسه الريبة في الأوضاع القائمة ، ولم يحتملها إلا على مضض الكاره وترقب المتربِّص ، وبخاصة حين تأتي من ناحية الأم التي تتمثل لابنها في هذه الحالة كأنها مغلوبة على امرها منتزعة ممن هو أحق بها .

وقد أسلفنا أننا لا نعول كثيراً على الرواية التي تعود باسلام عثمان الى نصيحة خالته الكاهنة ، فليس في كلامها مقنع للفكر يحوِّل رجلاً في الثلاثين عن دينه وتراث بيته ، ولكنها على هذا تدل على داعية من الشعور لا نهملها ولا نستبعد مكانها من السريرة الباطنة ، ويعززها ان أسرة أمه كانت لا تخلو من عطف قوي نحو صاحب الدعوة الى الدين الجديد ، عطف يبدو من قول أمه : « أموالنا وأنفسنا دون محمد » .. وهي كلمة لا ينبغي أن ننساها في مواطن كثيرة من سيرة ابنها رضوان الله عليه .

ونقرأ وصف عثمان على ألسنة معاصريه فنراهم مجمعين على صفتين لم ينسهما أحد منهم ، وهما الجمال والحياء .

كان ربعة لا بالقصير ولا بالطويل ، حسن الوجه ، مشرف الأنف ، بوجنتيه

نكتات من آثار الجدري ، رقيق البشرة ، أسمر اللون ، كثير الشعر ، له جُمَّة أسفل أذنيه ، وبه صلع مع طول في لحيته وغزارة في عارضيه .

وكان خفيف الجسم ولكنه لم يكن بضعيفه ولا معروقه ، بل كان ضخم الكراديس بعيد ما بين المَنْكِبَيْن .

اما خلا ئقه فقد أجمع واصفوه على أنه كان عذب الروح حلو الشمائل ، محبباً الى عارفيه ، ومن ذاك أن نساء قريش كن يرقصن اطفالهم فيقلن :

أحبُّـــك والرحمن حبَّ قريشٍ عثمان

وكان يوتد اسنانه بالذهب ، ويخضب لحيته ، وربما تركها بغير خضاب .

وفي كتاب « الرياض النضرة » يروي المحب الطبري عن عمرو بن عثمان ان عثمان بن عفان قال : «كنت رجلاً مستهتراً بالنساء ، وإني ذات ليلة بفناء الكعبة في رهط من قريش إذ أتينا فقيل لنا ان محمداً قد أنكح عُتْبَة بن أبي لهب رقية ، وكانت رقية ذات جمال رائع . قال عثمان : فدخلتني الحسرة لِمَ لا أكون أنا سبقت الى ذلك ، فلم البث ان انصرفت الى منزلي فأصبت خالة لي قاعدة وهي سعدة بنت كريز ، وكانت قد طرقت وتكهنت عند قومها فلما رأتني قالت : أبشر وحييت ثلا ثاً تترى .. الى آخر الأبيات ، وروى ما تقدم من حديثها في غير هذا الفصل الى قوله : « وكان لي مجلس عند ابي بكر فأتيته فأصبته في مجلس ليس عنده أحد ، فجلست اليه فرآني مفكراً فسألني عن أمري – وكان رجلاً متأنياً – فأخبرته بما سمعت من خالتي ، فقال : « ويحك يا عثمان ! انك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل » . ثم قال : « فما كان أسرع من أن مرّ رسول الله ﷺ ومعه علي ابن ابي طالب يحمل ثوباً فلما رآه ابو بكر قام فسارّه في أذنه بشيء فجاء رسول الله ﷺ فقعد ثم أقبل عَلَيَّ فقال : « يا عثمان ! أجب الله إلى جنته فإني رسول الله إليك وإلى خلقه » . قال : « فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله » .

وتتكرر قصة كهذه في كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني ، وهي قصة

يلاحظ عليها أن زواج السيدة رقية من عتبة بن أبي لهب قد كان قبل البعثة النبوية ، فلما بعث النبي قال أبو لهب لابنه : « رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق له ابنته ، ففارقها ولم يكن دخل بها » .

فلا يبقى من هذه القصة ما يستبقى للتعريف بخلائق عثمان إلا قوله عن نفسه انه كان في الجاهلية مستهتراً بالنساء ، ولو لم يرد حديث هذه القصة في رواية من الرويات لما علمنا قط أنه كان كذلك في الجاهلية ، لأن أحداً من معاصريه في الجاهلية لم يشهده على حال يحسبها من الاستهتار بالنساء ، فإنهم كانون يبيحون كثرة الزوجات لمن استطاع أن يجمع بينهن ، وإنما نعرف من هذه القصة خلائق عثمان بنعمته وحيائه ، وبقدرته على المتعة والتعفف عما يشينه منها ، وبالخلق الذي لازمه طول الحياة ، وهو خلق ربيب النعمة الكريم .

روى عمرو بن أمية الضمري قال : « إني كنت أتعشى مع عثمان خزيراً من طبخ من أجود ما رأيت ، فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن ، فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام؟ قلت : هذا أطيب ما أكلت قط . فقال : يرحم الله ابن الخطاب. أكلتَ معه هذه الخزيرة قط ؟ قلت : نعم ، فكادت اللقمة تفرث بين يدي حين أهوي بها الى في وليس فيها لحم ، وكان أدمها السمن ولا لبن فيها. فقال عثمان : صدقت ! إن عمر رضي الله عنه أتعب والله من تبع أثره وأنه كان يطلب بثنيه – أي منعه – عن هذه الامور ظلفًا – أي غلظًا في المعيشة. ثم قال : أما والله ما آكله من مال المسلمين ولكني آكله من مالي ، وأنت تعلم أني كنت أكثر قريش مالاً وأجدَّهم في التجارة ، ولم أزل آكل من الطعام ما لان منه وقد بلغت سناً ، فأحب الطعام إليّ ألينه ، ولا أعلم لأحد عليَّ في ذلك تبعة » .

ودخل زياد على عثمان في خلافته بما بقي عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به ، فبكى زياد ... قال عثمان « ما يبكيك ؟ » . « قال : « أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهماً ، فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام ، وإن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ ، فلم أر أحداً قال له شيئاً » . قال عثمان : « إن عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله ، وإني

أُعطي أهلي وأقربأئي ابتغاء وجه الله . ولن تَلقَى مثلَ عمر ، لن تلقى مثل عمر..» .

وقد سُمع غير مرة يقول : « يرحم الله عمر ، من ذا يطيق ما كان يطيقه » !

* * *

وصفوة القول في خلائق عثمان أنه كان إلى صفات الطيبة والسماحة أقربَ منه إلى صفات البأس والصرامة ، وأن نشأة العيش الخفيض صحبته من صباه إلى شيخوخته ، وفي غير تبعة عليه كما قال .

اختصم يوماً هووأبوعبيدة بن الجراح فقال أبوعبيدة : « أنا أفضل منك بثلاث » ، فسأله عثمان : « وما هن ؟ » . قال : « الأولى أني كنت يوم البيعة حاضراً وأنت غائب ، والثانية شهدت بدراً ولم تشهده ، والثالثة كنت ممن ثبت يوم أُحد ولم تثبت أنت » ، فلم يغضب عثمان ولكنه قال له : « صدقت » . ثم أجابه معتذراً فقال : « أما يوم البيعة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثني في حاجة ومديده عني وقال : هذه يد عثمان بن عفان ، وكانت يده الشريفة خيراً من يدي . وأما يوم بدر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلفني على المدينة ولم يمكني مخالفته ، وكانت ابنته رقية مريضة فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها ، وأما انهزامي يوم أُحد ، فإن الله عفا عني وأضاف فعلي إلى الشيطان ، فقال تعالى :

[إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَد عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ] .

والحق أن تخلف عثمان عن يوم البيعة وعن يوم بدر لم يكن باختيار منه ، ولم يكن فيه إحجام عن خطر مخوف ، بل تخلف في اليومين طوعاً لأمر النبي عليه السلام ، أما يوم « أُحد » فقد انهزم معه فيه كثيرون من شجعان الصحابة ، وكانت الهزيمة فيه صدمة من صدمات البغتة التي يكاد النُّكوص فيها أن يكون دفعة آليّة ، ثم يثبت الجأش بعد الصدمة الاولى ، كما حدث من أكثر المنهزمين في ذلك اليوم العصيب .

بيد أن المعارك الأخرى لم تحفظ لعثمان موقفاً من تلك المواقف النادرة التي تتناقلها الألسنة ويتساير بها الركبان من أخبار زملائه الخلفاء ، فإن كان فيها غير متخلف ولا مُحْجِم فليست هي بفخره الأول وفضيلته العليا ، إنما كانت فضيلته العليا السخاء حيث يعز السخاء على أمثاله من ذوي الثراء ، ولا سيما ذوي الثراء من بني أمية الذين ضنوا بأموالهم في الجاهلية والإسلام إلا لمطمع أو مصلحة ، وهذه هي آية العقيدة في مناقب عثمان .

لقد أشربت النفوس من العقيدة الجديدة غَيْرَةً لا عهد لها بمثلها في التنافس بين أكفائها : غيرة في العقيدة ، وغيرة لها ، وغيرة عليها ، فجمعت من معاني الغيرة أشرفها وأصدقها وأبعدها عن التنازع بين الناس بالباطل والتلاحي بينهم بالعرض الزائل ، إذ كانت تجمع من معاني الغيرة الشريفة غيرة الحماسة للعقيدة ، وغيرة التنافس عليها ، وغيرة الصدق في منافستها ، وأشرف ما في هذه الغيرة الشريفة أنها لم تكن تغري أحداً بغمط حق لأحد ، أو بادعاء حق لا يؤمن به من يدعيه في قرارة ضميره ، لأنها لم تكن غيرة العرف الظاهر قصاراها الوجاهة عند الناس ، بل كانت الوجاهة عند الله قصاراها ومبدأها ومنتهاها ، فلا يدعيها مدع بالباطل ، ولا يأمن إذا ادعاها بالباطل أن تذهب جميعاً ، فلا تبقى لها عنده ولا عند الناس أو عند الله باقية . ومن ثم كانت غيرةَ بناء وصدق ولم تكن غيرة هدم وادّعاء .

ومضى الناس يتنافسون ، ويُؤمرون أن يتنافسوا في مثل هذا الفضل ، فهم فيه متنافسون مجدّون . وقد رأينا كيف كان أناس في رجاحة أبي عبيدة وعثمان يتعارفون على هذا التنافس الذي لا يخجل فيه أخ من أخيه ولا صديق من صديقه . فلا ينقم مسبوق على سابق ، ولكنه يغبطه ويستحث عزائمه على سبقه ما استطاع .

وهكذا نظر عثمان إلى أكفائه ، فوجد أنه لم يسبقهم في ميادين الجهاد بالسيف ، فآلى على نفسه ليسبقنهم في ميادين الجود والسخاء ، وثابر على ذلك من أول أيامه في الإسلام إلى ختام أيامه في الحياة ، فهاجر إلى الحبشة وهو يعلم أن ماله كله عرضة للضياع من جرَّاء هذه الهجرة ، فلم يبال ما بقي منه وما ضاع ، وتقدم في كل محنة أصابت المسلمين من فاقة أو قحط أو نقص في السلاح والعتاد ، فبذل

من المعونة والعطاء ما لم يبذله أحد من أمثاله في ثرائه ، وما لم يبذله الذين هم أقدر منه على معونة أو عطاء ، ولم يكن على أية حال بأغنى الأغنياء .

* * *

وكانت له سماحة ، محببة حيث يجود ويتكلم بكلام التجار في مساوماتهم وهو على غاية الجود .

قال ابن عباس : « قَحِطَ الناس في زمن أبي بكر ، فقال أبو بكر : لا تمسُون حتى يفرّج الله عنكم ، فلما كان من الغد جاء البشير إليه فقال : لقد قدمت لعثمان ألف راحلة بُرّاً وطعاماً ، فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب ، فخرج إليهم وعليه مُلاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه ، فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برّاً وطعاماً . بعنا حتى نوسع على فقراء المدينة ، فقال لهم عثمان : ادخلوا ! فدخلوا فإذا ألف وِقْرٍ قد صُبَّ في الدار ، فقال لهم : كم تربحوني على شرأيي من الشام ؟ قالوا : العشرة اثني عشر . قال : قد زاودني . قالوا : العشرة أربعة عشرَ. قال : قد زاودني قالوا : العشرة خمسة عشر. قال : قد زاودني ... قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ؟ قال : زاودني بكل درهم عشرة . هل عندكم زيادة ؟ قالوا : لا . قال : فأشهدكم معشَرَ التجار أنها صدقة على فقراء المدينة » .

ويشير عثمان هنا – كما هو ظاهر – إلى جزاء الحسنة بعشرة أمثالها عند الله . ولن تعدم في هذا المقام ابتسامة سخف على فم متحذلق يقول : أما أعطى عطاءه وهو ينتظر الجزاء في الآخرة .. ؟ فلقد آمن بالآخرة ألوف من ذوي الأموال التي لا تفنى ، وهم لا يَبِضّون بدرهم يوقنون من جزائه ما أيقنه عثمان .

وكان يدخل عرف الإحسان في صفقات التجارة ، وهي تلك المعاملة التي اصطلح الناس قديماً على أنها شيء يتقدم فيه حساب المنفعة على حساب المودة بل القرابة ، وممن يعبّرون اليوم عن هذا المعنى ويقولون باصطلاح العصر من يعبرون

عن معنى قديم تفاهم عليه المتعاملون بالبيع والشراء من أقدم الأزمنة ، فقيل من أخباره في هذه الخصلة أنه ابتاع حائطاً – أي بستاناً – من رجل ، فساومه حتى قام على عثمان ، فالتفت عثمان إلى عبد الرحمن بن عوف فقال : سمعت رسول يقول : إن الله عز وجل أدخل الجنةَ رجلاً كان سمحاً بائعاً ومُبْتاعاً ، وقابضاً ومُقْبِضاً ، ثم زاد البائع العشرة آلاف .

وأسعدت شمائل السماحة فيه بخصال أندر في أبناء النعمة من خصال الكرم والإحسان ، فقد يهون على المرء أن يتجرد من بعض ماله ، ولا يهون عليه أن يتجرد من بعض كبريائه وخيلائه وتعاليه على أنداده ونظرائه ، فضلاً عمن يعلوهم بالبساطة والجاه ، وكان المأثور عن عثمان كما روى صاحب الصفوة عن مولاة له أنه «كان لا يوقظ أحداً من أهله إلا أن يجده يقظان فيدعوه» .

وروى الحسن أنه «رآه نائماً في المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس إليه ، ثم يجيء الرجل فيجلس إليه ، كأنه أحدهم» .

وربما أحرج كما يحرج أصحاب الحياء حين يجترىء على حيائهم من هو أولى بتوقيره ، فيبدر منه بعض ما يسوء مخاطبه ، ثم لا يلبث أن يندم على بادرته ويتوب إلى الله ، ومن قبيل ذلك غضبه على عمرو بن العاص حين واجهه بالزجر وهو يخطب الناس ، فثارت ثورته أن يكون هو من يعظه عمرو بمثل ذلك الكلام وما فيه من إغراء بالفتنة عليه . قال عمرو: يا عثمان إنك قد ركبت بالناس النهابير (١) وركبوها معك ، فتب إلى الله عز وجل وليتوبوا .. فالتفت إليه مغضباً وأجاب قائلاً : وأنت هناك يا ابن النابغة ؟ ثم لم يلبث أن رفع يديه وقال : أتوب إلى الله تعالى . ثم كررها فقال : اللهم إني أول تائب إليك .

فهذه شخصية سمحة . تساندت فيها مناقب السماحة ، وأوشكت أن تستوفيها على مثال منقطع النظير فيمن عرفناهم من الأعلام بين الجاهلية والإسلام : كرم وحياء ودعة ورفق وأريحية ومروءة تعين على المروءات . فهل يقال على هذا إنها

(١) الرمال المشرفة .

شخصية سمحة وكفى ؟ هل يقال إنها شخصية خلت من صفات البأس والصرامة ، أوكان حظها من هذه الصفات ضئيلاً لا يُلتفت إليه ؟ هل يقال إنها شخصية ضعيفة بكلمة متيقنة لا تردد فيها ؟

من السهل أن يقال ذلك متابعة لجمهرة المؤرخين الذين درجوا على تعليل الحوادث الجلّى في عصر عثمان بضعفه واستسلامه لمن حوله ، وعلى رأسهم ابن عمه مروان ابن الحكم .. فإن السهولة هنا توحي إلى المؤرخ أن يختار سبيلها ، ويعفي نفسه من النظر إلى طريق غيرها قد يعترضه فيها اعتراض ، من حيث لا اعتراض على سالك السبيل السهل الذلول .

لكن القول بضعف عثمان صعب على من يعلم أن السماحة نفسها قوة لا يضطلع بها طبع ضعيف ، وصعب على من ينظر في أعماله جميعاً ولا يكتفي منها بأعماله التي يبدو عليها الضعف والتردد ، ولم يكن عهد من عهود سيرته يخلو من عمل يدل على قوة نفس ومناعة خلق وثبات لا يتزعزع أمام الهول والخطر ، وحسبنا من عهود سيرته ما أحاط بأطرافها من أول إسلامه إلى ختام حياته . فقد كان إسلامه تحديًا قوياً لخاصة أهله ، ثبت عليه مع بقاء العِلْية من قومه بين عدوّ للإسلام أو مسالمٍ له على دَخَلٍ وسوء نية ، وقد تلقى في أول خلافته صدمات لم يتعرض الفاروق لأخطر منها في جميع أيامه ، ومنها هزيمة الجيوش ، وفناء بعضها بين عوارض الأجواء القصية ، وانقضاض الروم والخزر على أطراف الدولة الإسلامية الحديثة ، وبعض مواقفه في تلك الأيام لا يمكن الرجوع به إلى رأي مروان بن الحكم ، كوصاياه في إعداد الحملات البحرية من المتطوعين بغير إكراه على أحد من المجندين ، وليس من السهل أن يوصف بالضعف رجل يحيط به خطر الموت من كل جانب ولا يذعن لمن توعدوه به جهرة ورددوه على مسمعه ليل نهار.

كلا . لا يقول القائل عن رجل كهذا انه ضعيف ، ثم يستريح إلى قولته ، إلا أن يبتغي الراحة ولا يبتغي سواها .

ولكننا نحسب أن مكان عثمان من القوة والعزيمة هو المكان الذي يحتاج إلى التوضيح ، ولا يتضح لأول نظرة في سيرته وحوادث عصره ، فليس هو بالمكان

الذي يتراءى على القرب والبعد كأنه العَلم البيِّن الغني عن التوضيح .

من الناس من يقتحم طريقه ولا ينتظر من يدله أو يدفعه ، بل لعله يقتحمه ويصر على اقتحامه كلما كثر المعارضون له وقلَّ من يدُلُّونه عليه ، ومن شأنه أن يحسم تردد المترددين واعتراض المعترضين ، فلا يلبث أن يقودهم معتزماً فينقادوا له معتزمين .

ليس عثمان من هؤلاء .

ومن الناس من لا يعرف العزم تابعاً أو متبوعاً ، ولا يثبت عليه إذا عرفه إلا ريثما يدفعه الخطر عنه ، وقد ينثني عن عزمه بغير خطر لأ نه من الوهن والعيّ بحيث لا يقوى على الثبات .

وليس عثمان من هؤلاء .

فليس هو مقتحماً ، ولا هو منقاداً عاجزاً عن العزم والثبات ولكنه وسط بين الا قتحام والا نقياد لغيره في جميع الأَحوال .

إنه ينقاد ويسوّغ انقياده لنفسه بمسوغ ترضاه ، ولا بد له من المسوغ المرضي في جميع الأَحوال .

هؤلاء أيضاً يختلفون في مسوغ الا نقياد للآخرين ، فمنهم من ينقاد لمن هم أكبر منه ويأبى الا نقياد لمن هم مثله أو دونه في المنزلة ، ومنهم على نقيض ذلك من ينقاد لمن هم أنداده أو ينقاد لمن هم دونه ، ويأبى الا نقياد للنظراء والرؤساء .

ومسوغ الأولين الذين ينقادون لمن هم أكبر منهم أن الا نقياد للأكبر طبيعة في كل علا قة بين رئيس ومرؤوس ، ويدين بهذا المسوغ من لا حقّ له في الرئاسة ، أو من لا مطمع له فيها على الأقل إلى حين ، فقد يكون صغيراً يرجو أن يكبر ، أو خاملاً يرجو أن يُعرف ، أو مبتدئاً يرجو أن ينتهي إلى العظمة كما انتهى إليها من يعظمهم من الرؤساء .

أما مسوغ الآخرين الذين ينقادون لمن هم أنداد لهم أو من هم دونهم ، فهو أنهم أمنوا أن ينسب انقيادهم إلى ذلة أو خوف ، وبخاصة حين يكون المنقاد معروف الوجاهة والرئاسة ، مساويًا لمن يدله ويشير عليه ، أو راجحًا عليه بالمكانة والسلطان .

وكذلك كان عثمان في اهتدائه إلى الإسلام بنصيحة أبي بكر الصِّدِّيق . فقد كان عثمان أجمعَ لأسباب الوجاهة من أبي بكر في عرف عصره : كان من أمية وأبو بكر من تَيْم ، وكان أغنى منه وأقدر على مخالفته ، وكان أبو بكر إلى جانب هذا وذاك يدعوه إلى الإيمان برسول يتبعانه معًا فيقبل إن شاء ، ويأبى إن شاء ، ولا سلطان له عليه .

وكذلك كان عثمان في إصغائه لمروان بن الحكم حيث أصغى إليه ، فقد كان مروان كاتبه وتابعه ، وكان إصغاؤه له لغير خوف أو مذلة ، وعلمًا منه بأنه محسوب عليه .

وسماحة عثمان واضحة هنا أيضًا لأنها فرض كفروض الحساب لا يتأتى بغيره تقدير الحقيقة الملتبسة ، فمن الناس من يأبى الانقياد للأنداد والرؤساء حسداً ونكداً ، ومن يأبى الانقياد للأتباع والأعوان تيهًا وتجبرًا وذهابًا مع شهوة الترفع والاستعلاء ، فهؤلاء كأولئك لا يعرفون السماحة ولا يوصفون بها ، ولو لم يكن عثمان سمحًا مبَرَّأً من الحسد والنكد ومن شهوة الترفع والاستعلاء ، لما أصغى إلى نِدٍّ ولا إلى تابع ، ولا سوّغ الإصغاء إليهما بمسوغ من المسوغات ترضاه نفسه وتطمئن اليه .

من أشد ما يروى استدلالاً على ضعفه وانقياده لرأي مروان بن الحكم قصة رواها ابن عباس عن أبيه وهو ثقة فيما عاينه وحكاه . قال :

« ما سمعت من أبي شيئًا قط في أمر عثمان يلومه فيه أو يعذره ، وما سألته عن شيء من ذلك مخافة أن أهجم منه على ما لا يوافقه ، فإنّا عنده ليلة ونحن نتعشى إذ قيل : أمير المؤمنين بالباب . فقال : ائذنوا له ، فدخل فأوسع له على فراشه وأصاب من العشاء معه ، فلما رفع قام من كان هناك وثبتّ أنا ، فحمد عثمان الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا خال فإني قد جئتك أستعذرك من ابن أخيك

عليّ ، سبني وشهر أمري وقطع رحمي وطعن في ديني ، واني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطلب ، إن كان لكم حق تزعمون أنكم غُلبتم عليه فقد تركتموه في يدي من فعل ذلك بكم ، وأنا أقرب اليكم رحمًا منه ، وما لمت أحدًا منكم إلا عليّاً ، ولقد دعيت أن أبسط يدي عليه فتركته لله والرحم ، وأنا أخاف ألا يتركني فلا أتركه .

قال : « فحمد العباس الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا ابن أختي ، فإن كنت لا تحمد عليّاً لنفسك فإني لأحمدك لعلي ، وما عليّ وحده قال فيك بل غيره ، فلو أنك اتهمت نفسك للناس اتهم الناس أنفسهم لك ، ولو أنك نزلت مما رقيت وارتقوا مما نزلوا فأخذت منهم وأخذوا منك ما كان بذلك بأس .

قال عثمان : « فذلك إليك يا خال ، وأنت بيني وبينهم » .

قال : « فأذكر لهم ذلك عنك ؟ » .

قال : « نعم » وانصرف .

« فما لبثنا أن قيل : هذا أمير المؤمنين قد رجع بالباب فقال : ائذنوا له . فدخل فلم يجلس وقال : لا تعجل يا خال حتى أوذنك » .

« فنظرنا فإذا مروان بن الحكم جالسًا بالباب ينتظره حتى خرج فهو الذي ثناه عن رأيه .

« فأقبل عَلَيَّ أبي وقال : يا بني ! ما إلى هذا – يعني عثمان – من أمره شيء » .

فاذا أخذت هذه القصة على عجل فعثمان قد كان أداة لمروان يذهب به ويجيء كما يشاء ، ويمضيه على رأي أو يثنيه عنه على هواه .

ولكننا إذا تخيلنا عثمان على هذه الصورة وجب أن نسأل : من غير مروان كان يصنع بعثمان هذا الصنيع ؟ فإن الرجل إذا كان هيّن المقادة إلى هذا الحد هان على كل موسوس له أن يقوده ، ولا سيا أقربهم اليه وألزمهم له من حرمه ومساكنيه في داره . وقد عرفنا من تاريخ تلك الفترة أو ما قاربها أنه كان يستمع في بيته الى

من يوغر صدره على مروان فلا يستجيب لتوغيره ، ومنهم نائلة بنت الفُرَافِصَة زوجته ، وقد كان للزوجات أثر في قصور ذوي السلطان ممن عرفوا بالقوة والسطوة لم ينقطع في عصر من العصور.

فالطاعة هنا ليست بطاعة نفس ضعيفة لكل من يوسوس لها على مقربة منها ، ولكنها طاعة اختيار لسبب له شأنه عند عثمان ، وإن لم يكن له هذا الشأن عندنا نحن اليوم أو عند ناقديه من معاصريه .

ونحن على يقين أننا اليوم نتردد في الجواب إذا سئلنا : « من غير مروان بن الحكم كان خليقاً أن يعمل لعثمان عمل الكاتب الوزير الذي يعمل له كأنه يعمل لنفسه في سره وجهره » .

إننا نعرف رجال تلك الفترة المرشحين لمثل هذا العمل ، فمن منهم يتولاه إذا استغنى عن مروان ؟ .

ليس مروان بأفضل من يكتب للخليفة في عصره ، ولكن الذين هم أفضل منه لا يرتبطون بهذا العمل ارتباطه ، ولا يطالبهم عثمان بما يطالب به مروان من خدمته وولائه .

لقد ذهب عثمان إلى العباس يشكو عليًّا ويكاد يعم بالشكوى بني عبد المطلب ، لأنه يحسبهم ذوي حق غلبوا عليه ، فإذا خامرته هذه الشكوى صوابًا أو خطأً ، وخامرته في أناس كبني عبد المطلب على مثل ذلك الصواب أو ذلك الخطأ ، فهو لا يتخذهم وزراء كتبة يعملون له ويرتبطون بخدمته كارتباط مروان ومن إليه ، ولعله لو لم يشكهم لا يخطر له أن يكلفهم عملاً كعمل كاتبه ووزيره فإنهم في مقام الأنداد ولهم شاغل عن عمل يرتبطون به إلى جواره .

ولا نقول إن عثمان لم يكن يستمع لمروان ، ولا أنه كان يستمع للصواب من رأيه ويُعرض عن الخطأ منه ، ولكنا نريد أن نقول ان ما بينهما ليس بطاعة الضعيف يلعب به القوي ، وانه اختيار له سببه الذي يوضع في ميزانه عند عثمان وغير عثمان حين يكون في مكانه .

والسؤال الواجب على أية حال في كل مقام كهذا المقام هو: « ماذا كان أجدر وأجدى من هذا ؟ » فإن كان الجواب قاطعًا فقد أمكن القطع بالخطأ ، وإن كان الجواب يحتمل رأيًا هنا ورأيًا هناك فليس التردد بينهما بالدليل حتماً على الضعف والاستسلام .

واتّباع عثمان لمشورة مروان أو لمشورة غيره ، لم يكن قط ذلك الاتّباعَ الذي يعاب جملة أو يستحسن جملة ، ولم يكن طاعة المستسلم الذي لا يدري فيم يستسلم ، ولكنه أشد ما يكون من قبيل الحيرة التي يشترك فيها سالكان لا يأمن أحدهما إذا ضل صاحبه ، ومن حار معك كما تحار أقربُ إليك ممن يهتدي وهو في طريق وأنت في طريق .

ونعود فنقول إن شخصية عثمان بما اشتملت عليه من نواحي قوتها وضعفها شخصية سَوِيَّة ، لا تناقض بين ما علمناه من أخبارها وأعمالها وبين ما نرجحه من المؤثرات فيها من فعل البيئة والعقيدة . وقد ذكرنا بين مؤثرات البيئة وراثته الأموية ، ويتمه في صباه ، ونشأته في بيت يتولاه غير أبيه ، وانتماءه من جانب الأمومة إلى بيت عبد المطلب ، وعلينا أن نشير إلى مؤثر آخر يلحق بهذه المؤثرات ولا يورد على أنه مؤثر يتواتر في جميع الحالات ، ولكنه يورد لأنه لا يهمل في اعتبار بعض النفسانيين .

ذلك السبب هو إصابته بالجدري في شبابه . وعند بعض النفسانيين أن الجدري يعقب أثرًا في بنية المصاب به اذا أهمل علاجه – بعد سن الطفولة خاصة – وليس إهمال علاجه يومئذ بالأمر البعيد .

أما أثر العقيدة فمن الواجب ونحن نتعرف معادن الشخصية الإنسانية أن نتثبت من معاييره في تقويم الأخلاق والتفرقة بين فاضلها ومفضولها ، ويجب هذا التثبت خاصة في الزمن الذي يكثر فيه الخلط بين قيمة الفضيلة وبين التعريف بأسبابها ، فيعذر بعض المقصرين أنفسهم أن يكونوا دون المؤمنين بالدين شجاعةً وسخاء ، ويقولون اننا كنا خُلَقَاءَ أن نُقْدِمَ مثلَ إقدامهم ، ونسخوَ مثل سخائهم ، ونجودَ

بالروح والمال مثل جودهم ، لو كنا ننتظر الجزاء في اليوم الآخر أضعافًا مضاعفة من النعيم والسعادة .

وتلك في الواقع خديعة الطبع اللئيم ، وإنهم ليزعمون أنهم يشجعون ويجودون لو آمنوا بالجزاء بعد الموت ، والواقع أنهم واهمون أو مغالطون ، وإن لهم أشباهًا صدّقوا بالجزاء بعد الموت ولم يتركوا الجبن والشح ، ولا تركوا ما هو أقبح من الجبن والشح وهو السلب والغصب والعدوان على النفس والمال .

فانتظار الجزاء بعد الموت لا يبطل قيم الأخلاق ، ولا يجعل الشجاع غير شجاع ، أو الكريمَ غير كريم في ميزان الخلق المحمود .

قلنا في كتابنا أبي الشهداء : «كذلك يقول من يقول إن الأريحية التي سمت إليها طبائع أنصار الحسين إنما هي أريحية الإيمان الذي يعتقد صاحبه أنه يموت في نصرة الحسين فيذهب لساعته إلى جنات النعيم .. فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الإنسان الى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وإيمان ، وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التي يصاب من جرائها الفرد طوعًا أو كرهًا في خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟ . إنهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ، ولأنهم لا يملكون عزيمة الإيمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت ، ويقرعون بها وساوس التعلق بالعيش ، والخنوع للمتعة القريبة ، فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعًا بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنّة واحدة في الأريحية والفداء . ومرجع الفرق إذن في آخر المطاف إلى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين» .

وهذا الفرق بين الطبائع هو الذي نرجع إليه في رجل يمتاز بالشجاعة البالغة ، ورجلٍ يمتاز بالسماحة البالغة . ولا يمتازان بمزية واحدة ، وكلاهما يؤمن بالثواب والعقاب .

وهذا الفرق بين الطبائع هو الفرق بين من يطمح إلى المثل الأعلى ولا يقنع بما دونه ، وبين من يكفيه من الجزاء أنه يأمن العذاب .

وهذا الفرق بين الطبائع هو الفرق بين فرقتين من المسلمين تحارب كلتاهما في صف ، وكلُّهم مصدقون بجزاء السماء واطلاع علام الغيوب بما يطوونه في الخفاء .

فالعقيدة الدينية لا تبطل سماحة عثمان ولا تَغُضّ من قيمتها ، وتظل هذه السماحة سماحة مقومة في معيار كل فضيلة ومعيار كل فاضل ، لا يغير منها أن العقيدة بعثتها في مبعثها هذا ، أو حركتها بعد سكون ، أو خلقتها خلقًا من حيث لم تكن . فقد كان مع عثمان أناس من منبته لم يعتقدوا كما اعتقد ، ولم يزل بينهم وبين الاعتقاد حجاب من عوج العقول وعمى البصائر وأثرة الجهالة ، وكل أولئك محسوب معدود في معايير الأخلاق .

ونعمّم هذا القول في تقويم الفضائل والمواهب ، فنفرّق بين التقويم والتقدير ، وبين التعليل والتفسير ، فليست كل فضيلة عللناها أو فسرناها شيئًا قد أبطلنا قيمته وقدْره ، وليس قولنا ان هذه الروضة تُنبت الرياحين والثمرات مبطِلاً ما بينها وبين الفلاة المجدبة من الفرق والاختلاف . وليس قولنا إن هذا الإنسان شجاع لأنه استمد مناقب الشجاعة من وراثته أو من تعليمه أو من اعتقاده ذاهبًا بفضل الشجاعة مسوّيًا بينه وبين الجبان ، أو بينه وبين الشجاع الذي هو دونه في شجاعته وإقدامه .

فالأسباب تثبت الفضائل والمواهب ولا تنفيها ، وهي من أجل هذا جديرة بالإثبات وجديرة بالطلب وجديرة بالثناء ، وان من تعرف أسباب حُسْنه لَحَسَنٌ وان من تعرف أسباب قبحه لقبيح ، فلن يصبح الحسن قبيحًا لأنه معروف السبب ، ولن يصبح القبيح حسنًا لأنه معروف السبب ، وإن قل العجب مع عرفان السبب كما قيل ، فقد يذهب العجب ولا يذهب الإعجاب .

والشاعر قد بلغ غاية الإعجاب بيحيى حفيد عليّ بن أبي طالب حين قال :

كَدَأبِ عَـلِيٍّ فِي اَلْمَـوَاطِنِ كُلِّـها
أبي حَسَنٍ وَالْعِرْقُ مِنْ حَيْثُ يَخْرُجُ

وَأيْنَ لَهُ مِـنْ ذَاكَ لا أيْنَ ! إنَّــهُ
إلَيْــهِ بِعرْقَيْــهِ الزَّكِيَّيْنِ محـــرجُ

تفسير للشجاعة هو غاية التقدير ، وإبطال للعجب هو غاية الإعجاب ، وإنما يتجنى على الفضائل الإنسانية بتفسير أسبابها من يتمحّل للنوع الإنساني كأنه يتمحل لعدوّ لا يرضيه أن يوصف بخير إلا أن يتعلل لمعابته بعلّة ، ويبطل العجب منه والإعجاب به سواء .

* * *

ثقافة عثمان

نُعنَى في تراجم عظماء الصدر الأول من الإسلام بالكلام على ثقافتهم ومصادرِ هذه الثقافة من معلومات زمنهم ، ونرى أنها من العناصر التي لا غنى عنها في التعريف بمنازلهم وكفاياتهم ، لأن هذه الكفايات قسمة بين قوة النفس والخلق وبين قوة الفهم والتفكير ، ولا تخفى علاقة ثقافتهم بما يفهمون ويفكرون .

وبديهٌ أن ثقافة الأقدمين غير ما نريده بكلمة الثقافة في العصر الحديث ، ولكنه فرق يُحسب للأقدمين ، ويشهد باجتهادهم ودرايتهم بالاستفادة من القليل المبعثر ، حيث لا يستفاد اليوم من الكثير المجموع الميسّر لطالبيه ، ولو أننا جعلنا ودائع الورق مقياسًا للثقافة لكانت أوراق تلميذ مبتدىء في عصرنا أضخم من أوراق نوابغ المثقفين في صدر الاسلام ، ولكنهم كانوا بهذا المحصول القليل يعملون ما يُعجز نوابغنا وأبطالنا ، ويتكلمون في المعضلات ، فإذا بالكلمة الوجيزة فصل الخطاب .

ونخال أن الاختلاف بيننا وبينهم في ثقافتنا وثقافتهم يتلخَّص في فرق واحد يحصر جميع الفروق : وذاك أن الكلمة قد رخصت في زمن المطبعة وإباحة الكلام أو ابتذاله لمن لا يحسنه في قول ولا استماع .

كانت الكلمة تسمع وتُحفظ ، وتنقل من سَلَفٍ إلى خَلَفٍ ، وتندمج في تجربة كل سامعٍ ، كأنها زيادة عضوية تتوالد ولا تموت .

كانت بَضْعَةً من حياة .

كانت تصان كما تصان ذخائر الآباء والأجداد ، ولو أنها صينت هذه الصيانة

لأول مرة في عصر التنزيل لما استغرب أحد تقديسهم للكلمة التي يعلمون أنها مقدسة ، ويصونونها إيمانًا بالفريضة الإلهية ، وما في ذلك غرابة عند الأقدمين أو المحدثين ، ولكنهم فعلوا ذلك قبل عصور التنزيل ، وتعوّدوا الحرص على ذخيرتها الإنسانية قبل أن يتعوّدوا الحرص عليها وهي ذخيرة سماوية يدخرونها لحياة أبقى من حياة الدنيا ، وهي حياة الخلود .

إليك مثلاً علمهم الذي كانوا يسمونه علم الأَنساب : ما مبلغه من العلم بالقياس إلى العلم الذي يقابله في زماننا وهو علم التاريخ ؟

أين ذلك مما يستوعبه اليوم من النقد والتحليل ، والشرح والتفصيل ، والتفريع والتأصيل ؟

لكن علم الأنساب هنالك وشائج أعراق وأحساب وعروق في الأبدان والأنفس لا يدفنها التراب .

إذا عرف أحدهم نسبًا ، فقد عرفه ليهتز بفخره ، أو يهتاجَ بعداوته ، أو يقرنَه بفعال صاحبه ويشهدها في ذريته وخلفائه .

وإذا عرف ذلك النسب فهو فلان هذا الذي أمامه ، يساجله المودة أو البغضاء ، ويذكر ما كان له ولآبائه من عزة ومضاء ، أو ذلة واستخذاء ، ويضيف إلى كل نسب رواية عن ملحمة ، أو طُرفة من حكمة ، أو مُلحة من فكاهة ، ولا يجد بينها وبين أبناء نهاره فاصلاً بين قديم وجديد ، أو بين مدثور مهجور ، وحاضرٍ مسموع ومذكور .

قل مثل ذلك في أمثال العرب وشواهدها ومعارض الاستشهاد بها في مواضعها .

وقل مثل ذلك في أشعارها ومدائحها وأهاجيها وبلاغتها ومحاسن ألفاظها ومغازيها .

كل ممدوح كائن حيّ من مجد وَمَنَعَة وجود ومطاولة بالغلبة والعطاء ، وكل مادح كائن حي ، بما استجاشه من طمع ، وما استقبله من أمل ، وما خلفه وراءه

من عطف وحنين ، وما أثار في كلامه من تنافس وتناظر ، أو من سوابق بين عشائرهم تذكر وتستعاد ، وتعود معها محاسن آباء وأجداد ، ومساوىء أضغان وأحقاد .

فإذا سطرت تلك الأمثال والقصائد كلامًا في الورق فهي بضع صفات مختزَلات ، وإذا تمثلتَها خوالج بين الصدور فهي حيوات تضاف إلى حياة .

لقد كانوا يعيشون عيشهم المحمَّل بتجاربه وعواقبه كلما تكلموا أو استمعوا إلى متكلم من رواتهم وبلغائهم وثقاتهم ، فلا جرم كانوا يفاخرون أمم العالم بأنهم يتكلمون .

* * *

وكان عثمان على علم بمعارف العرب في الجاهلية ومنها الأنساب والأمثال وأخبار الأيام . وساح في الأرض فرحل إلى الشام والحبشة ، وعاشر أقوامًا غير العرب ، فعرف من أطوارهم وأحوالهم ما ليس يعرفه كل عربي في بلاده ، وجدد في رحلاته تجديد الخبرة والعمل معارفَ البادية عن الأنواء والرياح ومطالع النجوم ومقارناتها في منازل السماء ، وهي معارف القوافل والأدلاء ، من أبناء الصحراء العربية ، وأبناء كل صحراء .

وأسلم فكان من أفقه المسلمين في أحكام الدين ، وأحفظهم للقرآن والسنة ، روى عن النبي عليه السلام قُرابة مائة وخمسين حديثًا وقال محمد بن سيرين وهو يتكلم عن الصحابة : «كان أعلمهم بالمناسك عثمان ، وبعده ابن عمر» .

وكان أقرب الصحابة إلى مجرى الحوادث بين المسلمين والمشركين ، فكان من سفراء الإسلام في غير موقف من مواقف الخلاف أو الوفاق ، تارة بين المسلمين وأعدائهم ، وتارة بينهم وبين الأسرى منهم في أرض الأعداء .

وكان كاتباً يجيد الكتابة ، فاعتمد عليه النبي عليه السلام في تدوين الوحي ، واعتمد عليه الصديق في كتابة الوثائق الهامة ، ومنها الوثيقة التي عهد فيها بالأمر بعده لخليفته الفاروق .

وزودته معرفته بالأخبار والأنساب وسياحته في البلاد بزاد حسن من مادة الحديث مع ذوي الكمال من الرجال . قال عبد الرحمن بن حاطب : « ما رأيت أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا حدّث أتمَّ حديثًا ولا أحْسَنَ من عثمان بن عفان ، إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث » .

ولم يكن حديثه لغواً ولا ثرثرة يزجي بها الفراغ بين أهل الفراغ ، بل كان من تلك الأحاديث التي كان يتوق إليها النبي عليه السلام في بعض أوقاته فيتمناها ، وتروي السيدة عائشة من ذلك أنها سمعت النبي ذات ليلة يقول : لو كان معنا من يحدثنا ؟ قالت : يا رسول الله أفأبعث إلى أبي بكر؟ فسكت . ثم قالت : أفأبعث إلى عمر؟ فسكت . ثم دعا وصيفًا بين يديه فسارّه فذهب فإذا عثمان يستأذن ، فأذن له فدخل فناجاه عليه السلام طويلاً .

وينقل عنه الرواة كثيراً من شواهد الأمثال والأشعار ، وكأنه كان ينظم الشعر إن صح ما قيل انهم وجدوا في خزانته وصية مكتوبًا على ظهرها :

غِنَى النفسِ يُغني النفسَ حتى يُجلَّها
وإن غَصَّها حتى يَضُرَّ بها الفقـرُ
ومـا عسرةٌ فاصبرْ لها إن لَقِيتَـها
بـكائنةٍ إلاَّ سيتبعُـها يسـرُ
ومن لم يقَاس الدهرَ لم يعرفِ الأسى
وفي غِيَرِ الأيـام ما وعدَ الدهـرُ

ولكن هذا الشعر وغيره مشكوك في نسبته إليه .

إلا أنه كتب في خلافته رسائل من النمط الذي لا يرتضي الظن نسبته إلى كاتبه مروان .

ومن هذه الرسائل كتاب إلى عماله يقول فيه :

« .. استعينوا على الناس وكلِّ ما ينُوبُكم بالصبر والصلاة ، وأمر الله أقيموه ولا تداهنوا فيه ، وإياكم والعجلةَ فيما سوى ذلك ، وارتضوا من الشرِّ بأيسره ، فإن

قليل الشر كثير ، واعلموا أن الذي أَلَّف بين القلوب هو الذي يفرقها ويباعد بعضها عن بعض . سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة » .

ومنها كتاب إلى العمال يقول فيه : « إن الله أَلَّف بين قلوب المسلمين على طاعته ، وقال سبحانه : (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا في الأرضِ جَميعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلوبِهِمْ).. وهو مفرِّقها على معصيته ، ولا تعجلوا على أحد بحدٍّ قبل استيجابه فإن الله تعالى قال : (لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ إلاَّ مَنْ تَوَلَّى وكَفَرَ) .. ومن كفر داويناه بدوائه ، ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره إن شاء الله » .

ومن كُتُبِه إلى العمّال :

« أما بعد ، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشِكَنَّ أئمتُكم أن يصيروا جُبَاة ولا يكونوا رعاة . فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن عدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فتعطوهم الذي لهم وتأخذوا بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة (١) فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء » .

ومن كتبه إلى الجباة :

« أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها ، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فان الله خَصْمٌ لمن ظلمهم » .

وكتب إلى أمراء الأجناد : « أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ، بل كان على ملأ منا . لا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم . فانظروا كيف تكونوا ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظرَ فيه والقيام عليه » .

---

(١) أي الذميين .

وبعض هذه الكتب يبدؤه ويختمه بذكر آيات من القرآن تتوالى في بيان ما يدعوهم إليه وينهاهم عنه ، وليست هي مما يكتبه مروان ، لأنه لم يكن يحفظ القرآن حفظ عثمان ، وليس ما تقدم من الوصايا بالذي يكتبه مروان غير مملًى عليه . لأنها هي الوصايا التي هي أحْرى بحياء عثمان وألفته ووفائِه ورحمته لليتيم وإيثاره الموادعة وكراهته اللجاجة في القصاص . لهذا نقول انها من أسلوبه الذي يوائمه رضي الله عنه ، وأسلوبه ثمة هو ترجمان نفسه ، فإن الرجل يكتب لغيره ليقنعهم بما يحس أنه مقنعه لو كُتب اليه . وهذه كتابة عثمان لا كلفة فيها ولا محاولة ولا إطناب ، إلا الدعوة القويمة في استقامة وسهولة وبساطة ، لا تقدر في الناس أنهم يخالفون ما وضح لهم واستقام بين أعينهم من الأمور ، وكذلك كان عثمان يعقل ما يطيعه وما يطاع ، وكذلك استجاب لدعوة أبي بكر حين دعاه الى الإسلام . فما هو الا أن اتجه ذهنه مستقيمًا إلى حقيقة الأصنام وحقيقة الإسلام حتى قال لصاحبه : نعم ، هو ذاك .

* * *

أما الخطابة فقد كانت على هذا النهج من الكتابة السهلة القويمة ، وربما أُرتج عليه فلا يبتئس لذلك ولا يزيد على أن يقول ما معناه : سيأتي القول حين الحاجة الى القول .

ومن خطبه في أوائل الفتنة : « إن الناس يبلغني عنهم هنات وهنات ، وإني والله لا أكون أول من فتح بابها وأدار رحاها . ألا وإني زامٌّ نفسي بزمام ، وملجمها بلجام ... ومناولكم طرف الحبل ، فمن اتبعني حملته على الأمر الذي يعرف ؛ ومن لم يتبعني ففي الله خلف منه وعزاءٌ عنه . ألا وإن لكل نفس يوم القيامة سائقًا وشاهداً : سائقٌ يسوقها على أمر الله ، وشاهدٌ يشهد عليها بعملها . فمن كان يريد الله بشيء فليبشر ، ومن كان إنما يريد الدنيا فقد خسر » .

ومن خطبه بعد تفاقم الفتنة خطبة على الرويَّة لم تكن مرتجلة قال فيها :

« ... آفة هذه الأمة ، وعاهة هذه النعمة ، عيَّابون طعَّانون ، يُرونكم ما تحبون ، ويسترون عنكم ما تكرهون ، يقولون لكم وتقولون . أمثالُ النعام يتبعون

أولَ ناعِق ، أحبُّ مواردهم إليهم البعيد ، لا يشربون إلا نَغَصًا ، ولا يَرِدُونَ إلا عَكراً ، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور.

« ألا فقد والله عِبْتُم عَلَيَّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فسلمتم له على ما أحببتم وكرهتم ؛ ولنت لكم ، وأوطأتكم كنفي ، وكففت عنكم يدي ولساني فاجترأتم عَلَيَّ . أما والله لأنا أعزُّ نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأحْرى إن قلت : هلم أُتي إليّ . ولقد أعددت لكم أقرانًا ، وأفضلت عليكم فضولاً ، وكشرت لكم عن نابي ، وأخرجتم مني خُلُقاً لم أكن أحسنه ، ومنطقًا لم أنطق به ، فكفوا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم ، فإني كففت عنكم من لوكان هو الذي يكلمكم رضيتم مني بدون منطقي هذا . ألا فما تفقدون من حقكم ؟ والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ، ولم تكونوا. تختلفون عليه » ...

وهذه الخطبة هي التي قام مروان بعدها يهم بالكلام ويتكلم متوعداً فأسكته عثمان ، وترى أنها قيلت على الروية ، لأنه خرج من داره وهو يعلم باجتماع الوفود وتحفُّزها ، ولم يفاجأ منها بأمر لم يكن يعلمه وهو ينوي الخطابة فيها .

وهذه النماذج من كتبه وخطبه لا تورد في هذا المقام من ناحية البلاغة والبيان مستقلة عن مواضعها ودواعيها ، ولكنها تُورَدُ قبل كل شيء لأنها – مع ما تبديه من بيانه – تبدي لنا أسلوب الخليفة الثالث في علاقته برعاياه من خلال أسلوب الكتابة والخطابة . فقد كانت أوائل كتبه أشبه الكلام بما نسميه اليوم « الأسلوب الرسمي » أو أسلوب التشريع والوثائق القانونية : تبليغ وتقرير بغير تنميق ولا محاولة تأثير ، وهوكذلك أسلوب الخلافة التي تعلم أن التفاهم بينها وبين من تخاطبهم مفروغ منه متفق عليه مستغن عن الإقناع وعن المسحة الشخصية التي يصطبغ بها الكلام إذا وقع الاختلاف في النظر بين السامع والمتكلم ، ثم يستطرد الموقف بالخليفة إلى ما رأيناه في خطابه الأخير ، وأول ما يبدو منه أن الراعي والرعية لا يثوبون إلى قسطاس واحد ، وتلك بوادر المُلْك تظهر في مضامين القول كما ظهرت على ما نراه في الأعمال والنيات .

الفصل الثالث

من إسلامه إلى خلافته

١ ـ شُئُونُه

٢ ـ شئونُ المجتَمع

١ ـ شئونه

مضى من إسلام عثمان إلى مبايعته بالخلافة نيف وثلاثون سنة ، شهد فيها من الغِيَر في تاريخ الجزيرة العربية وفي تاريخ العالم من حولها ما لم يعهده العالم قط قبل البعثة المحمدية ، وشهد فيها عهد الدعوة النبوية .وعهد الخلافة في أوجها على أيام الصدّيق ثم على أيام الفاروق .

وجمعت المصاهرة بين حياته الخاصة وحياة النبي عليه السلام في بيته مع اتصاله به في الدعوة الكبرى من سنتها الأولى ، فلم يفته شيء من أخبار النبوة الخاصة والعامة في حياة النبي ، ولم يفته شيء بعدها من أخبار الخلافة في حياة الشيخين ، ولم يفته بعبارة أخرى شيء مما نسميه اليوم بأعمال التأسيس في الدولة الإسلامية .

تزوج من السيدة رقية بنت النبي عليه السلام ، وهاجر بها إلى الحبشة فكان أول المهاجرين إليها ، ثم هاجر بها إلى المدينة فمرضت هناك بالحصبة ، وأذن النبي عليه السلام أن يتخلف عن وقعة بدر للعناية بها ، فماتت يوم ورد البشير إلى المدينة بنصر المسلمين وهزيمة قريش في تلك الوقعة الحاسمة ، وقيل إن عثمان كان قد أصيب بالجدري قبل الخروج إلى بدر ، فحال مرضه ومرض زوجته دون الخروج اليها مع جِلَّة الصحابة .

وكانت غبطة عثمان بمصاهرة النبي عليه السلام عظيمة ، وحزنه لانقطاع هذه الصلة أعظم ، فلم يُرَ بعد ذلك إلا محزونًا مهمومًا لفقد زوجته وانقطاع صلته بنبيِّه وأكرم الناس عليه ، ورآه النبي على تلك الحال فسأله : « مالي أراك مهمومًا ؟ » قال فيما رواه سعيد بن المسيّب : « وهل دخل على أحد ما دخل عَليَّ يارسول

الله ! ماتت ابنة رسول الله التي كانت عندي ، وانقطع ظهري ، وانقطع الصهر بيني وبينك » . فطيَّب النبي خاطره وزوَّجه أختها أم كلثوم ، وبقيت معه الى أن توفيت في السنة التاسعة للهجرة بعد بنائه بها بست سنوات .

وأشهر الروايات على أنه سمي بذي النورين لأَنه تزوج من رقية وأم كلثوم بنتَيْ النبي عليه السلام ، « ولم يُعلم أحد تزوج بنتي نبي غيره » .

ويقال إنه سمي بذلك لأن النبي عليه السلام قال : فيه نور أهل السماء ومصباح أهل الأرض ، ويقال إنه كان يختم القرآن كل ليلة في صلا ته « فالقرآن نور وقيام الليل نور» .

ومما خرجه الحافظ السِّلْفي في سياق هذه الكنية أن إسماعيل بن علين أتى يونس بن خبّاب ليسمع منه ، فسأله يونس « من أين أنت ؟ » فقال : « من أهل البصرة » قال يونس : « أنت من أهل المدينة الذين يحبون عثمان بن عفان وقد قتل ابنتَيْ رسول الله ﷺ ؟ » فقال يونس ما فحواه : « أتراه قتل واحدة فزوجه الثانية من أجل ذلك ؟ » .

وجواب اسماعيل مفحم ، وقصته مع يونس بن خباب عبرة من الدعوة « السياسية » إذا لجت بالنفوس وغلبت على العقول ، فما يسمّى عثمان من أجله بذي النورين يجري على لسان صاحب الهوى في النقد والمعابة فينعاه عليه وينعاه على البلد الذي يحبه ، ويحسبه قتلاً لبنتين من بنات النبي ، ولا يدور بخلده جواب إسماعيل أن من قتل واحدة لا يعطى غيرها ليقتلها ، ولا يرد على باله ما لا يغيب عن مثله من حديث ابن عباس حيث يروي عن النبي أنه قال لعثمان مواسيًا بعد موت رقية : « والذي نفسي بيده لو أن عندي مائة بنت تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى من المائة شيء ... »

وحقيق بهذه القصة أن نحضرها أخلادنا ونحن مقبلون على العلل والتعلات في الدعوة لعثمان والدعوة عليه ، فإننا لو اردون على علل كثيرة وتعلات أكثر منها ، تسبقها الرغبة في خَلْق المحاسن أو المآخذ فلا تعيا مرة بخلق ما تريد .

ومنذ اليوم الذي أسلم فيه عثمان لزم النبي حيث كان ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه أو في مهمة من المهام التي يُندب لها ولا يُغني أحد فيها غناءه . شأنه في هذه الملازمة شأن الخلفاء الراشدين جميعًا ، كأنما هي خاصة من خواصهم رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين بغير حاجة إلى مفاضلة وترجيح .

فمن الصحابة من كان يبرح المدينة أو مكة في عمل من أعماله ، ومن كان يحضر الغزوات ويغيب عما عداها في مصالحه ومصالح أهله ، ما عدا أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً ، فقد أصبح عملهم بعد إسلامهم مقترنًا بعمل النبي في مقامه وسفره ، وقد يقترن به فيما عم أو خص من أمره صلوات الله عليه ، وتلك وشيجة من وشائج الواقع غير مدبَّرة ولا مقدرة ، تجمع بين النبوة والخلافة كما ينبغي أن تجتمعا بحكم القرابة اللَّدنية بين المهمتين المتلازمتين .

وترك عثمان تجارته الواسعة لمن يتولاها عنه من وكلائه وذوي قرباه ، وجعل بيته بيتاً لمال المسلمين قبل أن يكون للدولة الإسلامية بيت مال ، فلم يتطلب عمل الرسالة مدداً من زاد السلم أو الحرب إلا نهض به عثمان وحده ، أو كان أول ناهض به مع القادرين على بذل المال في هذا السبيل .

شكا المهاجرون تغير الماء بالمدينة ولم يجدوا فيها إلا بئراً واحدة يستسيغون ماءها ، وكانت عند يهودي يغالي بثمنها ، فاشترى منه نصفها ، وغلبه دهاءً ، لأنه قسم سقياها يومًا له ويومًا لصاحبها ، وأباح السقيا منها بغير ثمن في يومه ، فكان طلاب الماء يأخذون منه كفايتهم في ذلك .. ونظر اليهودي فرأى أنه لا ينتفع من نصفه الباقي له بكثير أو قليل ، فلما باعه بالقليل بعد المغالاة فيه وهبها عثمان لمن يستقي منها في جميع الأيام .

ولما ندب النبي المسلمين لغزوة تبوك لم يكن عندهم من المال ما يقوم بنفقاتها ، لبعد شُقّتها واشتداد القيظ في وقت الخروج إليها ، فتكفل عثمان وحده بثلث نفقاتها ، وتبرع للمجاهدين بالمطايا والأطعمة ، وجاء بألف دينار في كمه فنثرها في حجر الرسول ، وكرر ذلك غير مرة على ما جاء في جمهرة الأخبار .

واشترى أرضًا ليزيدها في بناء المسجد بذل فيها عشرين ألف درهم أو خمسة عشر ألفًا ، ولم يقصّر عن معونة يستطيعها في عسرة أو مجاعة ، مدعوًّا إلى ذلك أو ملبّيًا من نفسه داعية النجدة والسماحة ، فلم يضارعه في سخائه أحد من أقرانه ، وكان بحقٍّ أسخى الأغنياء وأغنى الأسخياء .

وعهد إليه النبي في السفارات التي يخشى خطرها ، فلما كانت حملة الحديبية التي تأهب فيها النبي لدخول مكة دعا بعمر ليبعثه إلى رؤساء عشائرها ، فقال عمر : « إن قريشًا تعرف عداوتي إياها وغلظَتي عليها ، وليس بين القوم أحد من بني عَدِيّ ينتصر لي ، فلو بعثت يا رسول الله عثمان إليهم فهو بينهم أعزّ مني » . وقد بعثه النبي فلم يسلم من سفاهة السفهاء ولم يمنعهم أن يبطشوا به لولا أن تصدى لهم ابن عمه أَبَانُ بن سعيد بن العاص ، وشاع يومئذ في معسكر المسلمين أن المشركين قتلوه ، وكانوا قد احتبسوه ثلاثة أيام يتشاورون في أمره ، فلما دعا النبي جنده إلى بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة ، وضع يده اليمنى على يده اليسرى وهو يقول : هذه بيعة عثمان .. « اللهم هذه عن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك » .

وسيأتي من أمر الدعوة على عثمان أنهم كانوا يحسبون عليه أنه لم يشهد بدراً ولم يشهد يوم البيعة ، ولا لوم عليه في المرتين ولا سيما التخلف عن بيعة الشجرة ، إذ كان قد تخلف فيما هو أخطر وأعسر من حضور المبايعة كما حضرها سائر الصحابة ، وهذه وما تقدمها من حديث يونس بن خباب بعض أفانين التهم التي تخلقها الفتنة ويعلم بطلانَها القائلُ قبل المستمع إليها .

* * *

ومن المهام التي اختصه النبي بها أنه كان يكتب له الوحي عند نزوله ، وكان عليه السلام يناديه متحببًا ويقول له وهو يملي عليه : « أكتب يا عثيْم » . واستخلفه على المدينة في غزوته إلى ذات الرّقاع ، وأرسله إلى اليمن مستطلعًا حين كانت إمارتها الى عليّ ، وكاد أن يفرده بالعمل فيما نسميه اليوم أمانة السر أو الكتابة الخاصة ، وهي أمانة يضطلع بها من يوثق بصدقه وكياسته ولطف أدائه لما يؤتمن عليه من رسالة أو سفارة .

لا جرم يروي عنه أبو عبدالله الجبيري في رواية راجحة أنه كان موضع سر النبي في مرضه عليه السلام ، وفي هذه الرواية ينقل عن السيدة حفصة أنها حادثت السيدة عائشة تذكّرها بما كان من هذه المسارّة فقالت : إني كنت أنا وأنت عند رسول الله ﷺ فاغمي عليه فقلت لك : أترينه قد قبض ؟ فقلتِ : لا أدري ، ثم أفاق فقال : افتحوا له الباب ، فقلت لك : أبوك أو أبي ؟ فقلت : لا أدري ففتحنا فاذا عثمان . فلما رآه النبي ﷺ قال : ادنه . فأكبّ عليه فسارّه بشيء لا أدري أنا وأنتِ ما هو ، ثم رفع رأسه فقال : أفهمت ما قلت لك ؟ قال : نعم . قال : ادنه .. فأكب عليه أخرى مثلها فسارّه بشيء ما ندري ما هو ، ثم رفع رأسه فقال : أفهمت ما قلت لك ؟ قال : نعم ، سمعته أذناي ووعاه قلبي . ثم أمره فانصرف .

كان بين الصحابة منزلةٌ من منازل الفخر يعتدّون بها ويتعارفون عليها ، وهي منزلة الرضا من رسول الله إلى يوم وفاته ، وكان من الكلمات الجارية على الألسنة في معرض الثناء أن يقال عن الرجل انه ممن تُوفي رسولُ الله وهو عنهم راض .

فهذه المنزلة كانت من مفاخر عثمان التي يذكرها ويذكرها له من يحمده . وكان في الطليعة ممن تحسب لهم هذه المفخرة بين الصحابة ، وإنما كان شانئوه يتحدثون بتخلفه عن وقعة بدر وعن بيعة الرضوان لينزلوا به شيئًا من منزلته تلك التي ليس عليها خلاف .

وصارت الخلافة إلى الصديق وهو الذي أسلم عثمان على يديه ، وطالت الصحبة بينهما من قبل الإسلام ، وألّفت بينهما مشابهُ كثيرة في الطباع والأخلاق ، وكان أبو بكر يعتقد في عثمان الحزم كما قال له يوم فاتحه في أمر إسلامه ، وليست هي من كلمات المجاملة في مقام الترغيب والارتفاع ، فما كان أبو بكر بالرجل الذي يرسل الكلمات جزافًا ، ولا بالمتكلم الذي يُعييه أن يجامل أحداً بالصدق الذي يرضيه .

ولم يكن مستغربًا بعد طول الصحبة أن يكون عثمان أقرب المقربين إلى الخليفة الجديد في أعمال سياسته وأواصر مودته ، ولكننا هنا أمام عهد نادر من عهود

الإنسانية ، تتقدم فيه النظرة إلى الدعوة القائمة على كل نظرة إلى ما عداها ، وقد يحب الإنسان من يحب لأنه أقرب إلى اعتقاده في نصرة الدعوة والأمانة لها والقدرة على خدمتها ، وإن هذه الظاهرة العميقة الأغوار لَمِنْ أقوى ظواهر العهد وأحقِّها من المؤرخ بالانتباه إليها ، وقد سبقت الإشارة إلى فعلها اللدني في الجمع بين النبوة والخلافة ، وتخصيص الخلفاء الراشدين على غير تدبير ولا تقدير بملازمة النبي في مقامه وسفره ، وغيابهم حين يغيبون بإذنه وفي رسالة من رسائل الدعوة النبوية ، ثم ها هي تتكرر في التقريب بين الخليفة الأول وبين أوفق الصحاب لمعونته وملازمته والاطلاع على مقاصده ونيّاته ، فلم يكن بين أبي بكر وعمر من الصحبة قبل الإسلام ولا من المشابهة في الخلق بعض ما كان بين أبي بكر وعثمان ، ولكن أبا بكر وعمر كانا أوفق اثنين بين الصحابة للعمل معًا في مهامّ الخلافة الأولى ، فتلازما وتشاوروا وتقارب بينهما في الدعوة ما تباعد في الخلق والخليقة ، حتى كان من يريد الوقيعة يسأل أبا بكر متجاهلاً : والله ما ندري أأنت الخليفة أم عمر؟ فيقول رضي الله عنه : هو لو كان شاء .

ويحق لنا أن نقول ان الأمر لم يكن باختيار أبي بكر ولا باختيار عمر ، ولكنه كان باختيار المصلحة العليا التي غلبت على كل مصلحة في ذلك العهد النادر ، وإنها لَمِنْ وحي الله .

في أيام أبي بكر لم يكن أحد بعد عمر أقربَ إليه من عثمان ، وكتب أبو بكر عهده الأخير وهو على سرير الموت وعثمان إلى جواره يملي عليه . فلما أفاق سأله : من كتبت ؟ قال : عمر.. كتبها وهو يعلم أنه لا يعدو بها نية الخليفة المحتضر فإن أفاق أتم عهده كما أراد ، وإن ذهب في تلك الغشية بطلت اللجاجة فيما أراد ، وانسدّ باب الفتنة والخلاف .

قال أبو بكر وهو على سرير الموت مستريح إلى وفاء صاحبه ، مطمئن إلى أمانة كاتبه : « بارك الله فيك ! بأبي أنت وأمي لو كتبت نفسك كنت لها أهلاً » .

وهذا هو أسلوب الصديق فيما يرتضيه لمجاملته وصدقه : كلمة حق توافق السامع ولا تخالف الحقيقة في ضمير القائل ، ومما لا شك فيه أن أبا بكر كان يرى

في عثمان أنه أهل للخلافة ، وإن رأى أن عمر أحق بها منه .

* * *

ثم صارت الخلافة إلى عمر ، ولم يكن عنده قريب أو بعيد غير من يقرّبه عمل أو يبعده عمل ، ولم تكن للناس عنده أقدار غير أقدارهم عند الله وعند رسول الله . وكان يستمع إلى كلٍّ ويعتمد على كل ، ويستبقي كبار الصحابة جميعًا عنده ليستعين برأيهم ، ويجنّبهم غواية الدنيا إذا انطلقوا إليها ، أو كما قال : انه كان يخشى عليهم من الدنيا ويخشى على الدنيا منهم ، فبقي منهم من بقي على رضى وموافقة ، وبقي الكثيرون منهم على تبرم وملل ، فلم يرسل أحداً منهم في البلاد إلا من أرسله في ولاية أو جهاد ، ولم يكن يطيل الولاية لأحد منهم وإن أحسن وأفضل ، مخافة على الناس أن يفتتنوا بإحسانه وإفضاله ، إن لم يخف عليه أن يفتنه الناس .

وكان عثمان ممن بقي معه ولازمه غير مُكرَه ولا راغب في الرحلة كما رغب فيها الذين لم يرتحلوا ارتحاله قبل الإسلام ، ولم يشتغلوا بالدين اشتغاله بعد الإسلام ، فركن إليه عمر في طلب المشورة وعمل بمشورته في إحصاء الناس والأعطية ، وفي بدء السنة بشهر المحرم ، وعمل بها في خطته الكبرى وهي خطة العزل بين الإمامة والقيادة إلى ميادين القتال ، فإن إصابة الإمام قد تطمِع العدو وقد تيئس الصديق ، وليست كذلك إصابة القائد الذي من ورائه إمام يوليه ويولي أنداده وأمثاله من بعده ، وهي نصيحة من عثمان لعمر ما أدلها على سرائر المؤمنين في ذلك العهد الأمين : ينصح الناصح ولا يبتغي بنصيحته غير وجه الله ، ويتقبلها السامع وهو لا يبتغي بقبولها غير وجه الله .

* * *

شيء واحد من أشياء كثيرة يكشف لنا عن أصالة المشكلات والنقائض في عهد عثمان .

فها هنا فترة من التربية السياسية مرت به ومر بها ولم تُهيَّأ لخليفة قبله ولا بعده ،

فهي أطول من فترة التربية السياسية التي تهيأت لأبي بكر مع النبي ، وأطول من الفترة التي تهيأت لعمر مع النبي والخليفة الأول ، ثم هي أطول من الفترات التي تهيأت للخليفة الرابع عليّ الذي جاء بعده ، لأن عليًا رضي الله عنه أسلم وهو صبي ، ومضت عليه سنوات قبل مشاركته في أعمال الرأي أو أعمال الفعل والإنجاز ، وقد كان إسلام عثمان وهو في نحو الثلاثين ؛ مشهود له بالحزم والبصر ، ومتأهب من اللحظة الأولى للمشاركة في كل خطة يتعاون عليها أقرب المقربين من صاحب الدعوة ، وبينه وبين صاحب الدعوة عليه السلام صِهْرٌ ومودة وقرابة ليست بالبعيدة .

وفي هذه الفترة التي تمرّس فيها بشئون الدعوة وشئون الخلافة عرضت كل مشكلة وارتسمت كل خطة في معاملة الصحابة وسائر المسلمين ، وارتسمت كذلك كل خطة في معاملة المشركين والمنافقين من مسالمين أو محاربين ومن أناس على المواربة بين السلم والقتال ، واتضحت على هذا النحو حدود الإمام وحدود الرعية ومواضع الترخص والتشدد في جميع هذه الحدود على اختلاف أحوال اليسر والعسر أو أحوال التبسط والحرج ، وكان خليقًا به وهو مطلع على كل قدوة وكل سابقة أن يكون اطلاعه هذا عُدة جامعة يستعد بها لولاية الخلافة وتدبير الولايات من قبلها ، وصراطًا يستقيم عليه فلا يعوزه الرأي الواضح ولا التصرف العاجل في أمر من الأمور .

وهذه هي المشكلة الكبرى .

بل هذه هي مشكلة المشاكل في عهد عثمان من قبل ابتدائه إلى ما بعد نهايته .

المشكلة الكبرى كما سوف تتراءى لنا أنه لم يعمل في خلافته عملاً قط على غير سابقة تشبهه في كل شيء إلا في ظروفه وملابساته ، فقد تغيرت كل الظروف والملابسات وهي هي بيت القصيد في كل استعداد لها بالقدوة والسابقة .

لقد كانت له سابقة في كل شأن من شئونه ، حتى في شئون زواجه ومصاهرته ، وحتى في شئون تمييزه وتأليفه لذويه ولأعدائه ، ولكن مع هذا الفارق الواحد الذي هو في الحقيقة جامع لكل فارق يخطر على البال ، وهو فارق الظروف والملابسات .

كانت تربيته السياسية عدَّة له وأيّ عُدة ، وكانت مع هذا هي مشكلة المشكلات بين الاستعداد بها والتصرف فيها وفاقًا لما اختلف من ظروفها وملابساتها .

عدة ولا عدة ..

وهذه هي إحدى النقائض الكبرى التي تأصلت في عهد هذا الخليفة الشهيد .

ونقيضة أخرى من نقائض عهده ، تعود إلى مزيته العظمى في إسلامه قبل عامَّة قومه .

فهذه المزية العظمى ، ما معناها إذا نحن عبَّرنا عنها بعبارة أخرى لا تخرج عنها في لبابها أو قشورها ؟

معناها القريب البسيط أن قومه تأخروا في الإسلام ، وأنه كان مسلمًا من صفوة المسلمين إذ كان قومه عامة على لَدَد الكفر وإصرار العداوة بينهم وبين النبي وصحبه الأبرار ، وكان منهم من يعوذون به وهم كافرون أو مرتدون ، فيبدو ذلك نكيراً منفرداً بين جلة الصحابة ، لأنه كان وحده منفرداً بالمزية التي لم ينفردوا بها مثله ، وهي سبقه إلى الإسلام بين أسرة مصرّة على المكابرة والعداء .

ولقد كان العربي يلوذ بالعربي وهما في المعسكرين المتناجزين ، وكان عثمان مسلمًا يوم أوفده النبي إلى مكة وتلقاه أهلها بالأذى فتصدى لنصرته بعض أبناء عمومته المشركين ، ومضى ذلك في حينه ولم يلتفت إليه ملتفت في ذلك الحين ، لأنه لم يكن بِدْعًا من عادات القوم قبل الإسلام ولا بعده ، وكان مشركو مكة يهابون المساس بصاحب الدعوة نفسه ، لعلمهم أن عشيرته تغضب له إذا جَدَّ الجد وأصابه المكروه في سبيل الدين .

فلما انتهى أمر الشرك ، وانتهى عرفه وعاداته ، وبقيت مفاخر الاسلام وسوابقه ، أصبحت المزية العظمى نقيصة من جانبها الآخر... وبغير هذا الجانب الآخر لم تكن مزية على الإطلاق .

يَحْضُرُنا في هذا الصدد مثل يستوحيه الذهن قسرًا في موقعه من هذه السيرة ،

وهو مثل الرؤيا التي فسرها المنجمون للملك تفسيراً قضى عليهم بالعقاب ، ثم فسرها له غيرهم تفسيراً أغدق عليهم النعمة والثواب ، ولا فرق بين التفسيرين في المدلول ...

قال له المنجمون أولاً : إن الرؤيا مشئومة ، لأنها تُريه أعزّاءه يهلكون واحداً بعد واحد ، ثم لا يلبث الملك أن يهلك على آثارهم .

ثم قال له المنجمون آخراً : إنها لرؤيا سعيدة تبشره بالعمر الطويل وأنه لأطول عمراً من قومه أجمعين .

والتفسير ان واحد في المدلول ، ولكن الأول يُسخِط ويسوء ، والثاني يُرضي ويسر ، ولا فارق بينهما في غير التعبير .

وعثمان رضوان الله عليه كان أسبق قومه إلى الاسلام ، فهذه مزيته العظمى .

وكان كل أهله على الشرك ما عداه ، وهنا تتغير الصفحة في النظر بعد ذهاب الشرك وأهله ، وما بدا في الصفحة الأولى إلا الذي بدا في الصفحة التالية : قريب من قريب .

* * *

ليس من المألوف في أيام عثمان أن يكون الزواج مسألة من مسائل المجتمع ، فإنما كانت شئون الزواج تجري على وتيرة واحدة بحكم العادة كأنها من شئون الزوج والزوجة التي لا تعني أحداً غيرهما ، ولكن زواج عثمان لم يجرِ على هذه الوتيرة ، سواء قبل الخلافة أو بعدها . فكان زواجه على التعاقب من بنتين للنبي عليه السلام تاريخًا في علاقات الزواج يكفي من ندرته أنه عُرف به في كنيته على قولٍ من أشهر الأقوال .

ولم يختلف بعد وفاة السيدة أم كلثوم عن سُنَّة أمثاله في الزواج من عقيلات البيوت على الأغلب إلى أن توفي عن زوجاته الثلاث : رَمْلة وفاختة ونائلة ، إلا أن زواجه من نائلة بنت الفرَافِصة كان من قبيل الزواج الذي يقال فيه انه مسألة من مسائل المجتمع في حينه ، فقد كان زواج الصحابة من غير المسلمات خارج

الحجاز أحدَ الطوارىء التي جدَّت في المجتمع الاسلامي بعد فتوح العراق والشام ومصر ، وكان لها أثرها البعيد في تطوّر البيت العربي ، واختلاف أنماط المعيشة بين ذوي البيوتات من جِلَّة الصحابة ، وبعضها مما دخل على المعيشة العربية بعادات للأمم الغريبة لم يتعودها العرب قبل مخالطتهم تلك الأممَ مخالطة الصِّهر والمعاشرة البيتية .

وتتعدد الروايات في الباعث إلى خطبة عثمان لنائلة بنت الفرافصة كما هو الغالب في أخبار العصر كله ، وأشهرها أنه سمع بزواج سعيد بن العاص والي الكوفة من أختها هند ، وتناقل ذوو قرباه الأَحاديث عن كياستها وجمالها وحسن قيامها على أمور بيتها ، فكتب إلى سعيد يخطب أختها ولا يعرفها ، وكان ضب بن الفرافصة قد أسلم ، فأمره أبوه أن يزوّجه أختها نائلة ، وكانت أديبة ذكية تنظم الشعر وتحسن القول ، ولها في زواجها من عثمان أبيات مما تغنَّى به ابن عائشة في بعض ألحانه ، ومنها قولها تخاطب أخاها :

ألسْتَ ترى يا ضبُّ باللهِ أنَّني
مُصاحِبةٌ نَحْوَ المدينـــةِ أرْكُبَـــا
إذَا قطَعُوا حَزْنا تَخُبُّ رِكَابُهُمْ
كَمَا حَرَّكَتْ ريحٌ يَرَاعًا مُثَقَّبـــا
لَقَدْ كَانَ في فِتْيَان حِصْنِ بْنِ ضمْضَم
لَكَ الوَيْلُ يُغْني الخِباء المُطَنَّبا

ثم قولها تخاطب نفسها :

قَضَى اللهُ حَقًّا أن تَمُوتِي غَرِيبةً
بيَثْرِبَ لاَ تَلْقِين أُمًّا وَلا أبـــا

وغادرت قومها في بادية الشام وحواضرها على كره منها إلى مسكنها الغريب ، وسألها عثمان حين رآها : « لعلك تكرهين ما ترين من شيبي ؟ » .

قالت : « والله يا أمير المؤمنين إني من نسوة أحب أزواجهن إليهن الكهول » .

قال عثمان : « أنا قد جزت الكهول ، وأنا شيخ ، ولن تجدي عندنا إلا خيراً » .

وعلى هذه النفرة بعد هذه الغربة توثقت المحبة بين الزوجين حتى كرهت الزوجة الفتيّة بعد مقتل عثمان أن تتزوج من أحد بعده كائنًا ما كان قدره ونسبه ، وتكاثر خُطّابها فأحبت أن تصرفهم عنها وتصرفَ نفسها عنهم ، فعمدت إلى حجر فهتمت ثناياها ، وردّت معاوية بن أبي سفيان حين خطبها قائلة لرسوله : « ماذا يرجوه من امرأة جذماء ؟ » .

ونائلة هي التي كتبت إلى معاوية تصف مقتلَ زوجها ، وقالت من خطابها الذي تواترت نسبته إليها : « من نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان . أما بعد ، فإني أدعوكم إلى الله الذي أنعم عليكم ، وعلّمكم الاسلام ، وهداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الكفر ، ونصركم على العدوّ ، وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطِنة ، وأنْشُدُكم الله وأذكِّركم حقه وحقّ خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم ، فإنه قال : (وَإِنْ طَائفَتَانِ مِنَ المؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفيءَ إِلَى أمْرِ اللهِ) . وإن أمير المؤمنين بُغي عليه ، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية لحقَّ على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره ، فكيف وقد علمتم قدمه في الاسلام وحسنَ بلا ئه وأنه أجاب داعيَ الله وصدّق كتابه واتبع رسوله ، والله أعلم به إذا انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة » .

ثم استطردت تقص خبر مقتله ، وتتهم المقصرين عن نجدته . فما كان صوابها بأدلّ على الوله والحزن من خطئها فيما اتهمت ، ومن تخبطها فيما زعمت ، فإنّ خَطْئًا أهونَ من خطبها الذي شهدَته بعيني رأسها ليُذهل الحزين عن سداد رأيه ، كما قال حكيم المعرة فيما دون ذلك :

رُبّما أذْهَلَ الحزينَ جَوَى الحزْنِ
إلى غيرِ لائِقٍ بالسَّدَادِ
مِثلَمَا فَاتَتِ الصَّلاةُ سلَيْمانَ
فَأنْحَى عَلَى رِقَابِ الْجِيَادِ

وقد كان لها عند عثمان مثل هذا الحب وهذه الحظوة ، بل كان له من الثقة بنصحها ما لم يكن له في مروان بن الحكم أقْرب المقربين . وكانا يتلاحيان كثيراً في محضره ، وعيَّرها مرة أباها « الذي لا يحسن الوضوء » ، فقالت له تعرِّض بأبيه – وهو عم عثمان – « أما والله لولا أنه عمه ، وأنه يناله غمه ، لأخبرتك عنه ما لم أكن أكذب عليه » .. وغضب عثمان ، فتوعد مروانَ لئن تعرّض لها ليسوِّدن وجهه ، ثم قال له : « والله لهي أنصح لي منك » .

إن خلق الرجل لا يقاس بمقاس أصدق من المرأة وأسبر منها لأغوار طبعه ، وقد يعز على هذا المقياس – مقياس المرأة – أن يَسْبِرَ لنا أغوار عقله وأعماق بديهته ، ولكنه لا يعز عليه أن يفرق بين الرجل الذي يُحَبّ ويطاع ويهاب ، والرجلِ الذي تنزل به الألفة منزلة الوهن والعجز في نظر من يألفونه قبل من يعرفونه على البعد أو لا يعرفون منه إلا القليل .

وهذا مقياس صادق من هذا الزواج الغريب أو الطارىء على المجتمع الإسلامي بعد فتوح العراق والشام وسائر الفتوح الآسيوية والافريقية ، وهو مقياس قيس به رجال من النابهين على نحو واحد ، فلم يكن بينهم مَنْ هو أرجح فيه من عثمان ، ولا سيما مقياس الشخصية الغالبة التي تؤثّر فيمن يعاشرها ، وتصبغه بصِبْغتها ، كما تأثرت السيدة نائلة بإيمان عثمان وتقواه وكرم نفسه ، فنسيت نفرتها واختلاف عقيدتها وبيئتها ، وتحنفت على سنة زوجها كما قال من وصفوها في حياته وبعد مقتله . وفي ذلك العصر نفسه تزوج أناس من ولاة الدولة العربية بالعقائل والجواري في الحاضرة والبادية ، فكان منهم من تعوّد عاداتهن من الشراب على الطعام وسوّغه لنفسه باختلاف المختلفين في الخمر وأنواعها ، وكان أمر هؤلاء ومَنْ شاكلهم يُرفَع إلى الفاروق قبل خلافة عثمان فيحسمه على دأبه بتأديب مَنْ عَصَى والتنكيل بمن أصرّ على استباحة الشراب المحظور.

ومن لم يبلغ من ضعفه أن ينقاد هذا الانقياد لم يبلغ من شخصيته الغالبة على ذوي جواره وعشرته أن يصبغهم بصبغته ، ويحوّلهم إلى معيشة كمعيشته ، وهذه مَيْسُون بنت بَحْدَل الكلبية من قبيلة نائلة بنت الفرافصة قد تزوجت بمعاوية ،

وداره إلى جانب دارها ، ومقامه في دمشق أقرب إلى باديتها ، فلم تلبث أن سئمت مقامها ، وعافت القصر الذي تسكنه زوجةً لأمير المؤمنين وأُمًّا للأمير من بعده ، ونظمت أبياتها التي جرت مجرى الأمثال على لسان كل زاهد في مقامه حنينًا إلى مآلف عَيْشه الأولى ، وإن كانت دون ذلك المقام في الرغد والنعيم .

قالت ميسون تذكر القصر والبادية :

لَبَيْتٌ تخفِقُ الأرواح فيـــه
أحبُّ إليَّ مِنْ قصرٍ مُنِيـــفِ
ولَبسُ عبـــاءةٍ وتَقَـــرّ عيني
أحبُّ إليَّ مـــن لبْسِ الشُّفوفِ

وقالت تشير إلى زوجها :

وَخِرْقٌ مِنْ بَـــني عَمِّـي نحيفٌ
أحبُّ إليَّ مِنْ عِلْـــجٍ عَلِيفِ
فَما أَبْغي سِوَى وَطَني بَدِيـــلاً
فَحسْبي ذَاكَ مِنْ وَطَنٍ شريفِ

وذلك مع الفارق البعيد بين قصور الشام وبيوت الحجاز ، وبين سن معاوية وسن عثمان ، وبين ما ترجوه زوجة الخليفة بعد موته وما ترجوه زوجة معاوية وأم يزيد وأم شقيقته ، « أمة رب المشارق » وسيدة القصر تكاد أن تنفرد فيه ، وأن تغدوَ وتروح بين الحاضرة والبادية حين تشاء .

* * *

هذه لمحة من ملامح « الشخصية العثمانية » لا تهمل في مكانها من سيرته الخاصة ، ولعلها أهدى للمؤرخ من شيم كثيرة توضّح له خلائقه التي يؤثر بها فيمن حوله ، ولا شك أنها تزداد وضوحًا إذا اتضحت معها ملامح الشخصية التي تأثرت بهذا الأثر ، وهي السيدة نائلة التي جاءته نافرة تنعي غربتها وزواجها من غير بني عمومتها ، ولم تلبث أن تحنفت وأخلصت لبعلها في وفائها واعتقاده .

فهذه شخصية قوية ، من بيئة عريقة في القوة والاعتزاز بالعرف والقوة ، وقومها بنوكلب أحد القبائل التي هجرت موطنها قديمًا في الجزيرة العربية ، وحافظت على أرومتها وعصبيتها وفصاحتها ، فكانت إلى ما بعد الاسلام بعدّة قرون مرجعًا لمن يتقصّى أساليب الفصحى أو يريد أن ينشيء أبناءه على خشونة البادية وصحتها ، ومهما نصعد مع أصولها في القدم نجدْ في أخبارها – بل في أسمائها – لونًا من ألوان هذه العصبية وهذه الخشونة وهذه العراقة البدوية ، التي لا يسهل على أبنائها وبناتها أن يتخلّقوا بخلق غيرها .

وتُنسب هذهْ القبيلة إلى وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، ويقول النسابون : « ان وبرة ولد له كلب وأسد ونمر وذئب وثعلب وفهد وضبع ودب وسِيد وسِرحان » ثم يزيدون على ذلك بعد الاسلام : « أن من أشراف كلبٍ الفرافصةَ بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة ، وهو الذي تزوج عثمان بن عفان ابنته نائلة بنت الفرافصة ، ومنهم زهير بن جناب بن هبل بن عبدالله بن كنانة ، ومن أسلافهم في الاسلام دِحْيَة بن خليفة الكلبي وهو الذي كان جبريل عليه السلام ينزل في صورته ، ومنهم حسان بن مالك بن جَذِيمة .. » .

ويؤخذ من بعض أخبار الكنيسة الشرقية أن رؤساءهم دانوا بالمسيحية تلبية لدعوة الرسل الأولين في بادية الشام قبل أن تدين بها الدولة البيزنطية ، خلافًا لما قد يظن من أنهم دانوا بها مع الدولة القائمة في بلاد الروم .

وأيًّا كان مقطع القول في ذلك ، فلا مراء في قوة هذه القبيلة وعراقتها واعتزازها بأصولها واعتدادها بأنفتها وخشونتها ، كأنها ضرب من الايمان أو آصرة من أواصر الأنساب ، وقد عجزت قصور الملك في دمشق أن تروّض أم يزيد على البقاء مع بعلها في القصر المنيف ، فلم يسع معاوية إلا أن يرسلها وابنَها إلى باديتها ، عسى أن يستفيد من تلك النشأة مَنَعَةً في الخلق تواتيه يوم ينهض بأعباء الدولة التي أعدَّها له من صباه .

فإذا كانت خلائق عثمان هي التي حببت إلى زوجته من تلك العشيرة أن تفارق النشأة التي عزت مفارقتها على أترابها ، فلن يَرِدَ على الخاطر أنها خلائق رجل

إِمَّعَة أو رجل هزيل ، يذهب به من يذهب ويجيء به من يجيء ، ولا بد لتردده وحيرته ، حين يقع منه التردد والحيرة ، أن يثاب بهما إلى باعث يعمل عمله في طبائع الأقوياء وغير المستضعفين ، ولا ينحصر عمله في النفوس التي برئت من القوة ، وخلصت للضعف والهزال .

وقد ولدت له نائلة بنتَه مريم ، فكان مما يخطر على البال أن هذه التسمية من إيحاء أمها ومن بقايا حنينها إلى عقيدتها الأولى ، ولكن اسم مريم كان من الأسماء المحببة إلى عثمان ، وقد سمى به بنته من أم عمرو بنت جندب ، وهو أشبه أن يكون تحيةً للزوجة المخلصة من أن يكون متابعة لها فيما لا تعاب المتابعة فيه .

* * *

تزوج عثمان على التعاقب تسعًا من النساء ، ومات عن ثلاثة منهن ، هن نائلة وفاختة ورملة ، إذا صح أنه طلق أم البنين وهو محصور .

وقد وُلد له تسعة من الذكور وسبع من الإناث ، ولم يولد له من بنتي رسول الله رقية وأم كلثوم غير عبد الله ابنه من رقية ، عاش إلى السادسة ثم نقر عينَه ديك فورم وجهه ومات ، وسائر أبنائه من زوجاته الأخريات لم يؤثر عنهم أمر ذو خطر في التاريخ ، وهي حالة من حالات السلالة الأموية لا يجزم بتعليلها على وجه واضح ، فهم على خلاف بني هاشم الذين بقيت فيهم بقايا النّجابة والعزيمة على استمرار القتل في أصولهم وفروعهم ، وإنما كان بنو أمية في المشرق والمغرب يُعقِبون كأنما يأتي العقب منهم على قدر الضرورة ، مع أنهم قد اتخذوا الجواري إلى جانب زوجاتهم ، وتزوجوا من قريباتهم وغير قريباتهم ، فإذا تسلسل النسب منهم جيلاً أو جيلين لم يمض على سوائه في الجيل الثالث ، أو يُرزقون الولد ولا يرزقون فيه النجابة والنبوغ ، وربما كان للنسب الدخيل في أصولهم الجاهلية أثر في هذه الحالة المتلاحقة ، وأقرب من ذلك إلى التعليل المقبول أن أولئك الأصول في الجاهلية لم يتصوَّنوا في المخادنة والمعاشرة كما شاع عن بعضهم ، فأصابهم من الآفات الجنسية ما كمن في أعقابهم ، وتداركوه بالتبني تارة والاستلحاق تارة والتماسك بين ذوي القربى حيث لا موضع للتبني والاستلحاق .

ونحن نومىء إلى هذه الملاحظة بسبيل الكلام على ذرية عثمان ، لأنها ملاحظة شوهدت في تاريخ الأصول الأموية وشوهدت في نسله وعشيرته ، وشوهدت في أعمال خلافته ، فلها محل فيما خَصّ أو عَمّ من سيرته وتاريخه .

* * *

٢ـ شئون المجتمع

منذ أسلم عثمان إلى أن تولى الخلافة تغير المجتمع العربي في نطاق واسع ، وأصبحت الصبغة الإسلامية نوعًا من الصبغة العالمية ، يكاد أن يقرِّب بين أساليب المعيشة في جميع أمم الحضارة الشرقية والغربية .

أسلم عثمان والدعوة الإسلامية محصورة في آحاد معدودين ، يلتمسون النجاة بعقائدهم وأنفسهم وذويهم من مجتمع الى مجتمع ومن بلد الى بلد ، وصاحب الاسلام في جهاده وفتوحه حتى عمّ الجزيرة العربية قبيل وفاة النبي عليه السلام ، وأصبح بذلك دينًا عربيًا يجمع بين قبائل العرب على اختلاف الانساب والطبقات .

ثم صاحبَ الإسلام في جهاده وفتوحه أيام حروب الرِّدَّة وفتوح العراق وما جاوره من أرض فارس والروم ، ثم صاحبه في جهاده وفتوحه حتى أوشكت هذه الفتوح أن تحيط بالعالم المعمور يوم تسلّم زمامه من سلفه العظيم عمر بن الخطاب .

ولم تمض سنوات من خلافة عثمان حتى أحاط العالم الإسلامي بالعالم المعمور كله إلاَّ ما كان منه في أقصى المشرق أو أقصى المغرب ، فأصبحت الصِّبغة الإسلامية – كما أسلفنا – صبغة عالمية تشمل العربي والفارسي والرومي والمصري والبربري ، تسلكهم كلهم في دولة واحدة لأَول مرة في التاريخ .

وليس الذي طرأ على المجتمع العربي خاصة أنه عرف الترف ولم يكن يعرفه ، أو عرف الثروة وكان محرومًا منها . فإن الترف والوفر قديمان في الجزيرة العربية ، وزيادة المقدار لا تحسب من التغير الجوهري في المجتمع إن لم تكن مصحوبة بالتغير

في نظرة الانسان إلى الحياة ، وهذا الذي غيَّر المجتمع العربي ، وغيرَّ المجتمع الإسلامي ، بعد اتساعه وامتداده إلى أقصى مداه في خلافة عثمان .

إن الغنيّ المترف من عرب الجاهلية لم يكن يخجل من ترفه ، ولم يكن يحسب أنه يختلس به شيئًا ليس من حقه ويستمتع بشيء لا ينبغي لمروءته ، بل كان يبذخ في ترفه ، ويفاخر نظراءه ببذخه ، ومن لم يدرك من الترف والبذخ حظًا كحظه فهو متطلع له ، حاسد عليه ، ناظر إليه كما ينظر إلى أمنية الحياة ، إن فاتته فقد فاته من حياته خير ما يتمناه .

تغيَّر هذا بعد الإسلام كل التغيُّر ، وأصبح الترف رذيلة مزدراة ، كائنًا ما كان نصيب المترَف من الجاه والثراء ، وأصبح الثراء نعمة دون النعمة الكبرى التي يتطلع إليها المسلم في حياته الجديدة ، فهو وسيلة دون غاية ، ومتاع في حاجة إلى تسويغ ، ثم لا مسوِّغ للسرف فيه بأية حال .

وعلى هذا كبر مقدار الثروة التي ينعم بها أصحابها بعد أن تغير النظر إلى كثيرها وقليلها ومسوّغاتها ومحظوراتها ، فربما بلغت ثروة الرجل الواحد في خلافة عثمان ما يعدل ثروة السادة المترفين جميعًا على آخر عهد الجاهلية ، وما يحسب حتى في زماننا هذا غنى مفرطًا عند أغنى الأغنياء .

قيل في مصادر متعددة أن عبد الرحمن بن عوف خلَّف ذهبًا كان يُقطع بالفؤوس حتى تَمْجَلَ أيدي الرجال ، وترك ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ، وقسم ميراثه على ستة عشر سهمًا فبلغ السهم ثمانين ألف درهم ، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحًا ، ويتجر فيكسب من التجارة مئات الألوف .

وكان كلما اجتمع له من الربح مدخر كثير فرّقه على الغزاة وتصدق به على الفقراء . قال ابن عباس : « مرض عبد الرحمن بن عوف فأوصى بثلث ماله ، فصح فتصدق به ، ثم قال : يا أصحاب رسول الله ﷺ ، كل من كان من أهل بدر له عليّ أربعمائة دينار ، فقام عثمان وذهب مع الناس ، فقيل له : يا أبا عمر ! ألست غنيًا ؟ قال : هذه وصلة من عبد الرحمن لا صدقة ، وهو من مال

حلال ، فتصدق عليهم في ذلك اليوم بمائة وخمسين ألف دينار» .

وكان كلما اجتمع له عدد من العبيد أعتقهم ووصى لهم بما يكفيهم .

ولما مات الزبير بن العوام طلب أبناؤه ميراثه ، فأبى عبدالله أن يقسم بينهم حتى ينادى بالموسم أربع سنين من كان له على الزبير دَيْن فليأتنا فَلنَقْضِه ، لأنه كان يؤتمن على الودائع ممن يترددون على الحجاز للتجارة ، فلما انقضت أربع سنين قسم بينهم ما بقي من ماله خالصًا فإذا هو خمسون ألف ألف ومائتا ألف .

وكان طلحة يُغِلّ بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف ، ويُغِلّ بالسراة عشرة آلاف دينار ، وكان لا يدع أحداً من بني تيم عائلاً إلا وكفاه مؤونة عياله ، ويزوِّج أيَامَاهُمْ ويقضي دَيْن غارمهم . وأخرج صاحب الصفوة فيما أخرج من أخباره أنه باع عثمان أرضًا بسبعمائة ألف حملها إليه ، فلما جاء بها قال : إن رجلاً تبيت هذه عنده في بيته لا يدري ما يَطْرُقه من أمر الله لغَرِيرٌ بالله .. فبات ورسله تختلف في سكك المدينة حتى أسْحَرَ وما عنده منها درهم .

وعن سعدى بنتِ عوف امرأته أنها دخلت عليه يومًا فرأته مغمومًا ، فسألته : ما شأنك ؟ قال : المال عندي قد كثر وأكربني . قالت : وما عليك ؟ إقسمه ، فقسمه حتى ما بقي منه درهم ، وقال خازنه : كان المال الذي فرقه يومئذ أربعمائة ألف .

ونحن لا نشك في عظم هذه الثروات التي توافرت لهؤلاء النُّخْبة من أجلاّء الصحابة شيئًا فشيئًا ، من أيام النبي عليه السلام إلى ما بعد قيام الدولة الأموية ، ولا نجري على عادة المحدَثين الذين يتلقون أخبار العصور الماضية جملة واحدة بالشك أو بالنفي من غير بيّنة ، فإن الرفض المطلق كالتسليم المطلق ، كلاهما من الآليّات التي تحكم حكمها بغير تصرف ولا انتقاد ، ومن الجائز أن الناقلين لم يتحرّوا الدقة في حساب الأرقام بالملايين والألوف والمئات كما نحسبها اليوم ، ولكن الذي نعتقده أن مقادير تلك الثروات أكبر وليست أقل مما توحيه الأرقام ، لأنها اجتمعت من أربح التجارات في جميع العصور ، وهي التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب من

طريق العراق والشام والجزيرة العربية مجتمعات .

* * *

لقد كان الملأ من قريش أغنياء مفرطين في الغنى أيام الجاهلية ، وكان موردهم كله من مواصلات الحجاز بين اليمن والشام ، ولم يكن لهم فوق ذلك سلطان على بقعة وراء الحجاز ، بل كان سلطانهم في الحجاز نفسه عاجزاً عن تأمين قوافلهم بغير المساومة والمقاسمة بينهم وبين قبائل الطريق .

فلما استقر الأمن في الجزيرة العربية ، وامتدت الفتوح إلى العراق والشام وفلسطين ومصر ، واطمأنت القوافل على هذه الطرق شرقًا وغربًا وإلى الشمال والجنوب ، واتسعت مواصلات التجارة العالمية في تلك البقاع – لم يكن مورد في العالم قط أعظَم ولا أربح من هذا المورد الذي تهيأ لبيوت التجارة العريقة في قريش ، ويكفي أن يسلم هذا المورد سنة في كل سنتين أو ثلاث ليغنم منه التاجر الكبير ألوف الألوف ، ويأخذ من ربح سنة ما يعوض وقف التجارة سنوات .

ومن المعلوم في العصور الحديثة أن شركة الهند الشرقية جمعت الملايين من أرباح تجارة دون هذه التجارة في السعة والضمان ، إذ كانت تؤدي الضرائب والإتاوات في البحر والبر ، ولا تملك خطوطًا من المواصلات كتلك الخطوط التي تمهدت لأصحاب التجارات في الحجاز ، أما أصحاب هذه التجارات فلم تكن عليهم ضريبة مفروضة غير الزكاة ونفقات الحراسة ، وكانت أرباحهم معدنًا خالصًا أو عملة مقبولة في كل جهة من جهات العالم يومذاك ، دون أن تتعرض لتقلب المضاربات في الأسواق بين أقصى المشرق في الهند وأقصى المغرب على الشواطىء الأطلسية .

فإذا قام على هذه التجارة العالمية عشرون بيتًا أو ثلاثون بيتًا من بيوت التجارة العريقة في مكة والمدينة ، فليس من المبالغة أن يقال عنها انها كانت تملك الملايين وتُعمِل الفؤوس في حطام الذهب والفضة ، فربما كانت المبالغة هنا إلى القلة لا إلى التزيد في التقدير .

ويهمنا أن نلتفت إلى مصدر الثروات من التجارة تصحيحًا بوهم الواهمين أنها قد اجتمعت كلها من غنائم القتال ، فإن عطاء المقاتلين لم يكن يتفاوت هذا التفاوت في الأنصبة بين أكبر عطاء وأصغر عطاء ، ولم يكن في وسع طلحة ولا الزبير ولا عبد الرحمن بن عوف أن يجمعوا من أنفال القتال ثروة تزيد على نصيب الأجناد بمثل ذلك الفارق الكبير .

وليس هذا كله ما يهم من تحقيق مصدر الثروة أو من الرجوع بأكثره إلى التجارة دون غنائم القتال : إذ المهم في الواقع أن المجتمع الذي تدور ثروته على الأعمال التجارية غير المجتمع الذي تدور ثروته على أعطية الجند من غنائم القتال دون سواها ، فهما مجتمعان متغايران في آداب المعاملة وفي موازين الأخلاق وفي النظر إلى متع الحياة ، وإذا التقيا معًا في أقل من عمر الرجل الواحد ، فلا قرار ولا تفاهم بين موازين التجارة وموازين الجهاد إلى حين .

قال محمد بن سيرين : «كثر المال في زمان عثمان فبيعت جارية بوزنها ، وفرسٌ بمائة ألف درهم ، ونخلة بألف درهم» .

وهذا الذي كان يقال عنه في الزمن الماضي أنه وفرة الخير ودرة الرزق .. وهذا الذي نقول عنه اليوم انه آفة « التضخم » في النقد ، مع فارق بعيد بين أحوال عصرنا وأحوال العصور الماضية : ذلك هو الفارق بين عملة الورق وعملة الذهب والفضة ، فإذا رخص الذهب والفضة كما حدث في ذلك العصر فقد رخص المال في جوهره ، ولم تكن ثمة غرابة في كتل الذهب التي تقسمها فؤوس العبيد ، ولا حيلة في مثل تلك الحالة لمن يعيش على مورد محدود ، ولا يقتني من الذهب والفضة ما يكفيه من الكفاف ، وليست كذلك أزمة التضخم من عملة الورق وما جرى مجراها ، إذ يقل الشراء لقلة ما يشترى من المتاع المطلوب .، وبعضها يطلب ولا يوجد عند طلبه في الأسواق .

* * *

هذه الأزمة بلغت غايتها في خلافة عثمان ، ولكنها بدأت بعد الهجرة إلى المدينة ، واستئناف مسير القوافل إلى رحلتيْ الصيف والشتاء ببضع سنوات .

والاسلام لا يمنع التجارة ، ولا ينكر الثروة ، ولكنه يمنع الترف ، وينكر كنز الذهب والفضة ، ويأمر بإنفاق المال في المنافع والمرافق كما جاء في القرآن الكريم : (كَيْ لاَ يَكونَ دُولةً بَيْنَ الأغْنِيَاءِ مِنكم) ويتقي أشد التقية أن يَتْرَفَ أناس ويُعدِمَ أناس آخرون .

ولم يصعب على المجتمع الإسلامي تدبير مشكلة الثروات الكبيرة في السنوات الأولى من الدعوة ، أو على الأصح أن الثروات الكبيرة لم تكن مشكلة من مشكلات المجتمع في تلك السنوات ، سواء من جانب الأغنياء أو جانب الفقراء ، فإن أصحاب تلك الثروات كانوا يتعوَّذون منها ويشفقون من فتنتها ويسارعون إلى تفريقها على مستحقيها من الغزاة والمجاهدين وعلى المحرومين والمعْوزين ، وكان تخصيص الغزاة بالصلات التي تأتيهم من فيض تلك الثروات تشريفًا لهم يتنافسون عليه ولا يأنفون منه ، بل كان منهم من يأبى أن تفوته هبة يراد بها أهل بدر أو غيرهم من أصحاب المغازي والسرايا ، كأنه يرى في ذلك إنكاراً لصفته وكرامته وسابقته في جهاده ، وقد تقدم أن عثمان ذهب مع الناس إلى عبد الرحمن بن عوف ليأخذ حصته من العطاء الذي نذر تفريقه على البدريّين ، وموقف عثمان هنا خاصة – ونحن بصدد ترجمته – يصور لنا شعور الغني والفقير يومئذ بشرف العطاء الذي يُخَصّ به البدريون ومَنْ حَذَا حذوهم في غزوات الجهاد ، فقد كان عثمان رضي الله عنه يفرق أضعاف ما أخذه من عبد الرحمن بن عوف ، ولكنه اشفق أن يدخل البدريون في حساب ولا يكون هو مثلهم من الداخلين فيه ، وبخاصة حين عيّره بعضهم أنه تخلف عن غزوة بدر ودفع عنه هذا التعيير بما اعتذر به من إذن النبي له بالتخلف ومن حسبان سهمه في الغنيمة وهو غائب . فمثل هذا الشعور الذي يشمل الواصل والموصول من الغزاة والمجاهدين لا يجعل الثروة الكبيرة مشكلة يضيق بها المجتمع بين أغنيائه وفقرائه ، إذ هي ودائع عند الأغنياء يحرصون على تفريقها ولا يحرصون على اكتنازها واستبقائها ، ثم هم لا حاجة لهم إلى اكتنازها واستبقائها لأنهم كانوا

يعافون الترف ويُعرضون عنه إعراضهم عن وصمات الخلق التي لا تجمل بالرجل في دينه ولا في دنياه ، وكان أحدهم يشكو الحِكَّة فلا يسمح لنفسه بلبس الحرير وهو قادر عليه إلا أن يستأذن في ذلك رسول الله فيأذن له على سبيل الفُتْيا لا على سبيل التسلط من الرسول في لباس المسلم وطعامه ، فما كان هذا التسلط مما يفرضه الرسول لنفسه أو يفرضه المسلمون للرسول في غير ما يتولاه من التبليغ والتشريع ، وقد كان الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ممن أذن لهم الرسول بلبس قميص من الحرير في بعض الغزوات ضرورةً لا ترفًا ولا سَرَفًا ، والمقام غير مقام الترف والسرف في شِكَّة الجهاد .

وابتدأت الخلافة الأولى على عهد الصِّدِّيق ومشكلة الثروات الكبيرة مكبوحة الجماح مملوكة الزمام ، ثم أحس الخليفة الأَول بزمامها يضطرب في يديه بعد اتساع التجارة وامتداد الفتوح فاتخذ الحيطة لفتنتها ، واستبقى عنده كبار الصحابة ، ليجمع بين معونتهم له في الرأي والعمل ، وبين تجنيبهم في الفتنة ومآزق الولاية ، وكان يتذمر من ترخص بعض الصحابة في أمور تؤذن بما بعدها ، فقال لعبد الرحمن ابن عوف وهو على سرير الموت : « ما لقيت منكم أشدُّ من وجعي ، وإني ولَّيْتُ أمركم خيركم في نفسي ، فكلكم وَرِمَ أنفُه أن يكون له الأَمر دونه ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولَّما تقبل ، هي مقبلة حتى تتخذوا ستورَ الحرير ونضائدَ الديباج وحتى يألَمَ أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأَذربي – أي المنسوب إلى أذربيجان – كما يألم أحدكم إذا نام على حَسَكِ السَّعْدان » .

ثم قال يعظه ويحذّره : « والذي نفسي بيده ، لأَن يُقدَّمَ أحدُكم فتُضربَ عنقُه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا ، ثم أنتم غداً أول ضالّ بالناس يمينًا وشمالاً . لا تضيعوهم عن الطريق . يا هادي الطريق جُرْت ! » .

ولم يكن عمر بحاجة إلى التحذير من عواقب انطلاق الصحابة في الأقطار ، بل ربما كان يحذرها حيث لم يحذرها صاحبه ، ولكن الصدِّيق رضوان الله عليه لم ينس تحذيره في موقف الأمانة فقال له وهو يجود بنفسه : « واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أجوافهم ، وطمحت أبصارهم ،

وأحبَّ كل امرىء منهم لنفسه ، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فإياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله .. »

كلمات لا تدري كيف تحيط بما فيها من فهم لكل شيء في إبّانه وقبل موقعه : فهمٌ لطبائع الناس ، وفهمٌ للخطر كيف يأتي ومن أين يبدأ ، زلة واحدة تتبعها حيرة من الكثيرين ، وماذا يصدّ ذلك الخطر من الزلة ومن الحيرة ؟ .. تصدّه القدوة بوليّ الأمر ، فلن يزالوا خائفين منه ما خاف الله .

وهكذا قد كان ..

على أن المشكلة ظلت في قبضة الزمام على عهد عمر ، بين قوة الخليفة ، وتورُّع الأجلاَّء من الصحابة ، وشواغل الجهاد والفتح قبل استفحال قضاياه ونقائضه . وما برح الصحابة الكبار يتورّعون من الشغلان بالثروة إلى ما بعد أيامه ، فكان أقدرُهم على التجارة وتثمير المال عبدُ الرحمن بن عوف يخجل أن يراه أحد منصرفًا إلى شئون متاجره ومزارعه ، وحدَّث ابنه إبراهيم عنه فقال : « إن رجلاً زار المدينة ليلقى أصحاب رسول الله فلقيهم جميعًا إلا عبد الرحمن بن عوف ، وسأل عنه فقيل له انه في أرضه بالجرف ، فلما جاءه ألفاه واضعًا رداءه وبيده مسحاة يحوّل بها الماء ، فاستحى عبد الرحمن وأخذ رداءه وألقى المسحاة » .

قال إبراهيم : « فسلم الرجل ثم قال : جئتك لأمر ثم رأيت أعجب منه . هل جاءكم إلا ما جاءنا وهل علمتم إلا ما علمنا ؟ .. قال عبد الرحمن : ما جاءنا إلا ما جاءكم وما علمنا إلا ما علمتم . فقال الرجل : فما لنا نزهد في الدنيا وترغبون فيها ، وتخفّ إلى الجهاد وتتثاقلون عنه ، وأنتم خيارنا وسلَفُنا وأصحاب نبيّنا ﷺ »؟ .. فعاد عبد الرحمن يقول : إنه لم يأتنا إلا ما جاءكم ولم نعلم إلا ما قد علمتم ، ولكنا ابتلينا بالضرَّاء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر » .

* * *

وقد دعا الأمر بعد قيام الفاروق بالخلافة إلى مضاعفة الحيطة في كل تدبير لجأ إليه الصدِّيق على اتفاق مع صاحبه لاتقاء الفتنة ، ومصاحبة التغير الطارىء

بالسياسة التي تلائمه ، وجعل يشتد في حيطته كلما تباعدت المسافة بين المجتمع الإسلامي في أوائل عهد الدعوة ، وبين هذا المجتمع بعد افتتاح العراق وأقاليم فارس الغربية والشام ومصر إلى حدود أفريقية الشمالية والسودان .

فمن سياسته في ذلك أنه ثابر على استبقاء كبار الصحابة إلى جواره في المدينة ، وكان منهم من يسأله الخروج للغزو والجهاد فيثنيه عن ذلك ويُلقي في رُوعه معذرته المشهورة : « أن له في غزوه مع رسول الله ما يكفيه ويبلِّغه ... وهو خير له من الغزو اليوم » ثم يقول له : « خير لك ألا ترى الدنيا ولا تراك » .

وانتهج في محاسبة الولاة خطة حاسمة لا هوادة فيها مع أحد ممن أحسن أو أساء ، فراقبهم جميعًا أشدَّ مراقبة ، واتخذ موسم الحج موعداً لمراجعتهم وسماع أخبار الرعية عنهم ، ومنهم من كان يعزله ويستدعيه إليه لغير جريرة يؤخذ بها إلا أنه لا يريد – كما قال غير مرة – أن يحمل فضل عقله على الناس ، وأنه يخشى أن يفتتن الناس به إن لم يفتتن هو بالناس مع فتنة السلطان وفتنة النجاح .

وحظَّر على المقاتلين أن يملكوا الأَرض والعقار ، وكان له كما قلنا في عبقرية عمر « نظام اقتصادي يوافق مصلحة الدولة في عهده ، فكان يحض على التجارة ويوصي القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك ، ولكنه أبقى الأرض لأبنائها في البلاد المفتوحة ، ونهى المسلمين أن يملكوها ، على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند في الجيش القائم ، وإذا أسلم أحد الذمِّيين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء ، وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم ، وأن يعتصم الجند الإسلامي من فتن النزاع على الأرض والعقار ، ومن فتن الدَّعة والاشتغال بالثراء والحطام ، وربما أغضى عن كثير في سبيل الإعانة على تعمير البلاد بأهلها . فصفح عن أهل السواد – العراق – ليأمنوا البقاء فيه .. مع أنهم حنثوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين في أثناء القتال ، ويلوح من كلامه في أخريات أيامه أنه كان على نية النظر في تصحيح النظام الاقتصادي وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذي وجدها عليه . فقال : « لو استقبلت من امري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء » .

ولم يرد في كلامه تفصيل لهذه النية . ولكن الذي نعلمه من آرائه في هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه . فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبداً بين المساواة في الآداب النفسية والمساواة في السنن الاجتماعية ، فكتب إلى أبي موسى الأشعري : بلغني أنك تأذن للناس جمًّا غفيراً ، فإذا جاءك كتابي هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين ، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة ... ولكنه لما رأى الخدم وقوفًا لا يأكلون مع سادتهم في مكة غضب وقال لسادتهم مؤنّبًا : ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟ ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة في جِفَان واحد .

فالمساواة في أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفي التفاضل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويُعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم في خطبه : « يا معشر الفقراء ، ارفعوا رؤوسكم !... فقد وضح الطريق فاستَبِقُوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسلمين » . وكان يوصي الفقراء والأغنياء معًا أن يتعلموا المهنة ، فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء ... فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول الغني وتقسيمها في وجوه البِرّ والصلاح . على أن عمر يصح أن يسمى مؤسسًا لديوان الوقف الخيري على الوجه الذي نعهده الآن . فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الفقراء الذين لا يجدون الطعام ، وأصاب قبل خلافته أرضًا بخيبر فاستشار النبي عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدّق برَيْعها ، فجعلها عمر لا تباع ولا توهب ولا تورث ، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم ، ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ويطعم صديقًا فقيراً منها .

وكان عمر يستقصي عادات المسلمين في معيشتهم حيث تفرقوا من بقاع الدولة الاسلامية ، فسأل من عنده من أجلاّء الصحابة : إن الناس قد دنوا من الريف فما ترون في حد الخمر؟ .. وكان ممن سألهم عبد الرحمن بن عوف فقال : نرى أن نجعله كأخف الحدود ، فجلد فيه ثمانين .

ثم انتهت خلافة عمر والمجتمع الإسلامي مجتمعان ! . . أحدهما ماض ولَمَّا يمض بأجمعه ، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه ، وأوشك عمر على قوّته أن يحار

في تدبيره ، وقال الشعبي كما تقدم انه قضى وقد أوشكت قريش أن تملّه ، لشدته ووقوفه لها بحيث وقف حائلاً بينها وبين نزعاتها ومطامحها في دنياها الجديدة ، بين ماض ينصرم ، وحاضر يتقلب ويكاد أن ينهزم ، ولكن الثقة به لم تضعف مع طوالع المجتمع الجديد ، بل زادته هذه الطوالع المتقلبة تمكينًا على تمكين ، وجعلت من يخالفه يخجل من مخالفته ، لمكان تلك الثقة القوية ، ولاستطاعة النفوس أن تغالب محن الحوادث ولا تستسلم لغوايتها ، ولعلنا لا نجد لهذه المغالبة مثلاً يبرزها كما يبرزها مثل عبد الرحمن بن عوف الذي بلغ غاية النجاح في المجتمع الجديد وكان قطبًا من أعظم الأقطاب في مجتمع الدعوة والخلافة الأولى ، فإنه شهد بدراً والمشَاهِدَ كلَّها ، وكتبت له حصة وافية من أنفال الغزوات وغنائمها ، وفاضت ثروته من التجارة والزراعة حتى فرقها مرة بعد مرة ، وعاش إلى أيام عثمان ، وكان صاحب القول الفصل في اختياره للخلافة ، لأنه ارتضى أن يخلع نفسه منها ليكون له الرأي فيمن يختار من المرشحين لها ، فهو بحق مثل نادر للمغالبة النفسية بين ما استقبل واستدبر من حياته على عهد النبي صلوات الله عليه وعهد عمر وعهد عثمان ، وقد كان كما أخرجه البخاري يقول كلما رأى وفرة المال عنده : « .. خشينا أن تكون حسناتنا قد عجّلت لنا » .. كان يصوم ثم يؤتى له بالطعام فيقول : « قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فكفن في بردة إن غُطي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطيت رجلاه بدا رأسه ، وقتل حمزة وهو خير مني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط . وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجّلت لنا » .

فهذه المغالبة لمحنة المجتمع الجديد ، وتلك الثقة بالفاروق ، وتلك القوة فيه ، قد حفظت زمام الدولة في قبضة وليّها ، ولم تذهب بالمخالفة له إلى مدى أبعد مما سماه الشعبي بالملل ؛ وأحسن في وصفه ، فلو لم تكن هنالك ثقة مكينة لجاوز الأمر الملل إلى السخط والتمرد ، وأُلفيَ هنالك من يتمرد ليمضي مع الماضي ومن يتمرد ليقبل مع المستقبل ، ولكنها حالة لم تدم طويلاً بعد خلافة الفاروق . إذ كان في الناس من يغضب باطلاً ولا يخجل من غضبه بالباطل ، وكان منهم من يغضب حقًا وليس هو على يقين أن ولاة الأمر أحق منه وأجدر بالفضل والطاعة ، كان منهم من يحار بين الفريقين ولا يدري كيف يهتدي في حيرته إلى صواب .

الفصل الرابع

المبايعة

الخلافة

الإمام : أو مصحف عثمان

النهاية

المبايعة

إذا لخصت سُنة الصدّيق أوسنة الفاروق في تولية العهد بعدهما ، كانت خلاصتها أنها إبراء للذمة أمام الله ، دَرْءًا للخلاف ، وحرصًا على الوحدة الإسلامية .

ولا بد من استحضار هذه الحقيقة لمنع كل شبهة ، وتأويل كل قصد ، ودفع كل فِرْيَة ، عند تعليل الطريقة التي اختارها كلاهما لتحقيق هذه البغية ، واختلفا فيها ظاهراً ، ولا اختلاف بينهما باطنًا فيما قصدا إليه .

فلا تدبير هناك ولا احتيال لغاية يرميان إليها غير تلك المصلحة أو تلك الوحدة . ومن ظن أن الصدّيق قد اختار عمر ليُقْصِيَ عن الخلافة غيره ، أو ظن أن عمر قد اختار جماعة الشورى ليُرجِّح الكفة في جانب واحد منهم على سواه ، فهو ينكر عليهما الإسلام ولا ينكر عليهما حسن النية أو حسن التدبير وحسب ، فإن أحداً يؤمن بأنه محاسب على نيته وعمله إذ يودّع الدنيا ويستقبل الآخرة ، لن يحتال ولن يدبِّر لهواه وهو يعلم أنه يُغضب الله بما يفعل ، ولو كان لأحدهما هوى في أحد لاختار أبو بكر من بني تَيْم ، واختار عمر من بني عَدِيّ أو بني الخطاب ، وما كان ينبغي لهما الهوى وهما في سطوة الدنيا وجاه الولاية ، فكيف ينبغي لهما وهما مقبلان على الموت مؤمنان بحساب لا شك فيه ؟ !

لم يكن هناك نظامان دستوريان كما وَهِمَ بعض المحدَثين الذين أرادوا أن يعيِّنوا بلغة الدساتير العصرية نظامًا لتولية العهد في سابقة الصديق أو سابقة الفاروق ، وإنما هما نظام واحد يتبعه كلاهما في موضع صاحبه ، فما نحسب أن أبا بكر كان مسمِّيًا أحداً بعينه لو كان في موضع عمر ، وما نحسب أن عمر كان محجمًا عن التسمية لو كان

في موضع أبي بكر ، وليس البحث عندهما : أي أولياء العهد أفضل وأحب إليهما ، ولكنما البحث الذي يعنيهما ويشغلهما : أيهم أحبُّ إلى المسلمين وأَقْمَنُ أن يجمعهم على بيعة واحدة وكلمة متفقة ، ولا يعقل أن أحدًا منهما كان يعلم في طويته أن ثمة وسيلة غير الوسيلة التي اختارها لتحقيق الوحدة المنشودة ثم يعدل عنها ، ليأثم في حق ربه وحق دينه وحق رسوله وحق المسلمين كافة ، تبرعًا منه بالإثم حيث لا حاجة ولا مصلحة ولا فرصة بعدها للندم والتوبة .

حضرت الوفاة أبا بكر ، فسأل نفراً من نخبة الصحابة عمن يتولى أمور المسلمين بعده فذكروا عمر ، وأشار بعضهم إلى شدَّته ، فقال لهم إنه كان يشتد لأنه يراني رفيقًا فإذا وكّل إليه الأمر فلا خوف من شدته . وروى محمد بن سعد أن جماعة من الصحابة دخلوا عليه لما عزم على استخلاف عمر ، فقال له قائلون منهم : « ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غِلْظَتَه ؟ » . فقال أبو بكر : « أجلسوني » . ثم جلس فقال : « أبالله تخوفونني ؟.. خاب من تزوَّد من أمركم بظلم ، أقول : إني قد استخلفت عليهم خير أهلك .. أبلغوا عني ما قلت لكم مَنْ وراءكم » .

ثم اضطجع ، وجاء عثمان بن عفان فجعل يملي عليه : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر ، ويصدِّق الكاذب ، إني استخلفت بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا ، فإني لم آلُ الله ورسولَه ودينه ونفسي وإياكم خيراً ، فإن عدلَ فذاك الظنُّ به وعلمي فيه ، وإن بدَّل فلِكُل امرىء ما اكتسب ، والخيرَ أردتُ ولا علم لي بالغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وكان يملي وتدركه غشية ، فلما قال : « استخلفت بعدي » ولم يذكر اسماً أتم عثمان وصيته باسم عمر بن الخطاب . ثم أفاق أبو بكر فسأله : ماذا كتبت ؟ فأعاد عليه العبارة كما زادها ، فدعا له وبارك عليه ، وقال له : « هكذا الظن بك ، لو كتبت اسمك لكنت لها أهلاً » .

والقوم في معرض المحاسبة لأنفسهم أمام الأمانة العظمى لا يصطنعون زخارف المجاملات التي يتلهَّى بها طُلاَّب الظرف ورواد الأندية في زماننا هذا وقبل زماننا ، فما كان عمر ليتنحى عن الأمانة وقد اختير لها وهو يعلم أنه أقدر عليها .. فإنه محاسب على إنكاره حقَّه كما يحاسب على إنكار حق غيره إذا اجتمعت له صفة الولاية دونه . فكان يتولى الخلافة وهو يقول : « لو علمت أن أحداً أقوى على هذا الأمر مني ، لكان أن أُقَدَّم فتضربَ عنقي ، أحبَّ إليَّ من أن أَلِيَهُ » .

ثم حضرته الوفاة فلم يعهد في بادىء الأمر لأحد ، ونقل إليه حديث الناس إذ يقولون : « إنه غير مستخلف ، ولو كان له راعي إبل أو راعي غنم ثم ترك رعيته كان قد فرَّط في أمانته . فماذا يقول لله عز وجل إذا لقيه ولم يستخلف على عباده ؟ » فأصابته كآبة ثم نكس رأسه طويلاً ثم رفعها وقال : « إن الله تعالى حافظ الدين ، وأي ذلك أفعل فقد سُنَّ لي . إن لم أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف ، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر » .

وعاودوه في الحديث فجعل يسأل كأنما يسأل نفسه : « من أستخلف ؟ » وروى عمر بن ميمون الأودي أنه قال بعد ذلك : « لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني : سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى أبي حُذَيْفَة حيًّا استخلفته وقلت لربي إن سألني : سمعت نبيك يقول : إن سالمًا شديد الحب لله تعالى ».. فقال له المغيرة بن شعبة : أدلك عليه . عبدالله بن عمر» . فنهره قائلاً : « قاتلك الله ! والله ما أردتَ اللهَ بهذا . ويحك ! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته ؟ لا أرب لنا في أموركم ، فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي . إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شرًّا فقد صرف عنا . بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد . أما لقد جهدت نفسي وحَرَمْتُ أهلي ، فإن نجوت كَفَافًا لا وِزْر ولا أجر إني لسعيد ..»

ثم قال : « انظر ، فإن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ، ولن يضيع الله دينه » .

وراجع نفسه وروجع في الاستخلاف مرة بعد مرة فقال : « ما أردت أن أتحملها حيًّا وميتًا . عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى ﷺ أنهم من أهل الجنة ، وهم عليّ وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير وطلحة . فليختاروا منهم رجلاً ، فإذا وَلَّوْا منهم واليًا فأحسِنوا مؤازرته وأعينوه » .

ثم دعا بهم فحضروا إلاَّ طلحة كان غائبًا ، فقال لهم : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادَتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قُبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ . وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكني أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس » .

ووضع رأسه وقد نزفه الدَّم ، فتنَاجوْا بينهم حتى ارتفعت أصواتهم وقال عبدالله ابن عمر : « سبحان الله ! إن أمير المؤمنين لم يمت بعد ! » فسمعه فانتبه ، وقال : « أعرضوا عن هذا ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصلِّ بالناس صُهَيْبٌ ، ولا يأت اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم . ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم في الأمر ، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة فامضوا » .

والتفت سائلاً : « ومن لي بطلحة ! » قال سعد بن أبي وقاص : « أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله تعالى » .

وقال لأبي طلحة الأنصاري : « يا أبا طلحة ، إن الله طالما أعزَّ بكم الإسلام ، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار ، فاستحثَّ هؤلاء الرهط حتى يختاروا منهم » ، وقال لصهيب : « صلِّ بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهطَ بيتًا وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشْدَخْ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رأسيهما ، وإن رضي ثلاثة رجلاً فحكّموا عبدالله بن عمر ، فإن لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس » .

* * *

على هذا الوجه أبرأ عمر ذمته من قضية الاستخلاف .

وعلى هذا الوجه نرى عقل رجل من أولئك الرجال الأفذاذ يعمل في تفصيلات هذه القضية التي واجهته بجميع عُقَدها ومخاطرها لأول مرة في حياته ، وهو يفارق تلك الحياة : يقلبها على جميع الوجوه ، ويفرض لها جميع النتائج ، ويطرق أبوابها فيفتح منها ما ينبغي أن يُفتح ويُغلق منها ما ينبغي أن يُغلق ، ويلاقي من جانب ما يخشاه من جانب ، ويختار الرجال ثم يختار الخطط على كل احتمال ، من إحسان أو إساءة ، ومن وفاق أو شقاق ، ويفعل ذلك في غمرات الموت بين صرعات الألم من جراحه القاتلة ، ويعالج به أمراً لم يُعالَج من قبل على هذا المثال أو على مثال غيره ، وكأنما هو من خبراء الاختصاص في دساتير الحكم ، درسها وتلقى دروسها من أساتذتها الذين سبقوه إلى تقريرها وتدوين وقائعها ومواقعها ، وجلس ليوازن ويقابل ، ويطابق ويوافق ، ومن حوله الأعوان يلبُّون ما يطلب ، ويستدركون ما يفوت ، وينتهون في سعة من الوقت إلى قرارهم وهم وادعون آمنون أن يصيبهم مكروه من مغبَّة ما قرَّروه .

ولو كان تفكيره لعذر يتكلم به أو لحجة يسكن إليها لقد كان حسبه أن يبرىء ذمته بالطمأنينة إلى أن الدين في حراسة الله ، أو كان حسبه أن يبرىء ذمته بما جرى عليه الأمر في عهد رسول الله ، ولكنه لا يلتمس عذراً يقال وحسب ، أو حجةً تُقنِع وكفى ، بل يسأل نفسه ويحاسبها على اختلاف الأمور بين عهد وعهد ، وتباين الأعذار من حال إلى حال ، فلا يدع من جوانب القضية شبهة يوردها من يحاسبه إلا أوردها لنفسه ، كأنما هو حامل الميزان .

فمن سأل عن معجزات العقائد في كواكب السماء أو أطواد الأرض فهذه معجزة المعجزات التي تأتي بها العقيدة في نفس الإنسان : تخرجه من جوف الصحراء كفؤاً لأعضل المعضلات بخُلقه ، وكفؤاً لها بعقله ، وكفؤاً لها بعمله ، ونمطًا من الشعور بالتبعات لا يُجارى ، ونمطًا من القدرة على النهوض بها ، يطول الزمن بأبناء الحضارات قبل أن يبلغوه ، وقبل أن يعرفوه .

ومن آيات بُعد النظر في سبر أغوار الرجال أنه جعل للترجيح بين أصحاب الشورى رجلين : هما عبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن عوف ، فأما عبدالله بن عمر فهو الذي نحَّاه عن المشاركة في الخلافة وأعدّه للترجيح بين المختلفين وليس له من الأمر شيء ، وأما عبد الرحمن بن عوف فلم يلبث أن نحَّى نفسه ليُقبَل حكمه ، فكان بحق أصلح المتشاورين لترجيح إحدى الكفتين .

ومن آيات بعد النظر في الاختيار وسبر الأغوار أنه أقام أبا طلحة الأنصاري على رأس خمسين ممن يختارهم لقمع الفتنة في مهدها إذا اختلف المتشاورون ، فكان أبو طلحة عند ظنه حزمًا وتَقِيَّة . قال للقوم وقد تنازعوا الرأي : « لقد حسبتكم تتدافعونها ولا تتنافسونها » ثم أقسم لا يمهلنهم لحظة بعد الأيام الثلاثة ، ثم هو صانع بهم ما أمر به أمير المؤمنين .

ومن آيات بُعد النظر في الاختيار أن اختار صُهيبًا للصلاة بالناس ، فهو الإمام الذي لا تُخشى له دعوة من تقديمه للصلاة ، ولا يأبى الناس أن يأتمّوا به وقد أمّهم قبل ذلك .

ومن آيات بعد النظر في الاختيار وسبر الأغوار أنه اختار طلحة مع الستة وهو غائب عن المدينة ... أَوَ ما كان في الخمسة المقيمين بالمدينة غنى وكفاية ؟ أَوَ ما كان لطلحة بديل من سائر الصحابة المقيمين ؟ .. جواب ذلك عند التاريخ في نهاية عهد عثمان ، وعند التاريخ في بداية عهد عليّ ، وعند عمر قبل ذلك باثنتي عشرة سنة .

وآية الآيات دستوره في اختيار الستة دون سائر الصحابة من الأنصار والمهاجرين .

أتراه اختارهم جزافًا كما شاء ؟ ذلك دستور لا يُلزم الناس جميعًا ، ولا حجة له عليهم فيه إذا سألوه عن فضل المختارين على غير المختارين ؟

أتراه اختارهم من قبائل قريش ليكون كل منهم نائبًا عن قبيلة منها ، أو متكلمًا باسم بيت من بيوتات الرئاسة فيها ؟.. تلك هي العصبية يُحييها في أسوأ أوان لإحيائها ، حيث تراد الوحدة والغيرة على العقيدة ، ولا تراد العصبيات الجاهلية ، أو لا يراد الاعتراف بها إذا تيقظت على غير إرادة .

أتراه اختارهم من البَدْرِيِّين وذوي السوابق في الجهاد ؟ لقد كان من هؤلاء عند وفاة عمر نفر غير قليل ، لو جمعهم كلهم لكثروا ، ولو فاضل بينهم لما وضحت أسباب المفاضلة ، ومنهم من هو ذو فضل وليس بذي رئاسة تتّبع ، ومنهم من ذوي الفضل والرئاسة من لو اجتمعوا لاختلّ ميزان الترجيح وبطل معنى الاختيار .

فلا بد من اختيار ، ولا بد من دستور يثاب إليه في الاختيار ، وكان الدستور الذي ثاب إليه عمر حيث يعجل المرء عن الروية غايةً في الرَّويَّة والدقة في الموازنة بين جميع الوجوه :

كان دستوره أن أصحاب الشورى هم الذين ذُكروا بأسمائهم في خطبة النبي عليه السلام بعد حجة الوداع ، وهم الذين يتفق الناس على الاختيار منهم ، أصحاب الشورى وأن تكون لهم حجتهم عليه (١) .

وعمر يعلم أن طلحة كان يطمح إلى استخلافه بعد أبي بكر ، وكلاهما من عشيرة واحدة وهي قبيلة تيم ، فقال له أبو بكر : « أما والله لو وليتك لجعلتَ أنفك في قفاك ، ورفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها » .

وما كانت تخفى على عمر فضيلة في واحد من الستة ولا نقيصة ، وما كان يغمط لهم فضلاً ولا يُغضي على نقص ، وأولهم عبد الرحمن بن عوف الذي أقامه بينهم مقام الحكم الذي يرجح بين العدلين ، فقال له إن إيمانه يرجح بنصف إيمان الأمة ، وقال عنه لابن عمر : نِعْمَ المرء .. ذكرت رجلاً صالحًا إلا أنه ضعيف ، وهذا الأمر لا يصلح له إلا الشديد من غير عنف ، اللَّيِّن من غير ضعف ، الجواد من غير سَرَف ، الممسك من غير بخل .

ورأيه في الزبير أنه مؤمن الرضا كافر الغضب ، وقد صارحه برأيه فيه فقال له : « لعلها لو أفضت إليك ظللت يومك تُلاطم بالبطحاء على مُدٍّ من شعير » .

---

(١) في العبارة سقط لم أتبينه . ولعل صوابه : « وهم الذين (توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض) ، يتفق الناس على (من يقع عليه) الاختيار منهم ، (فتكون له حجته على) أصحاب الشورى ، وتكون لهم حجتهم عليه » .

ورأيه في سعد أنه أهلٌ لها . فإن تُوَلُّوه فهو أهل ، وإلا فليستعن به الوالي ، فإني لم أعزله عن ضعف ولا خيانة ، وكان يقول : « إذا روى سعد حديثًا فلا تسألوا عنه غيره لصدقه وأمانته » .

وكان يظن مع هذا أنه لا يليها « إلا أحد هذين الرجلين : عليّ وعثمان . فإن وَلِيَ عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولي علي ففيه دعابة ، وأحرى به أن يحملهم على الحق » .

وقال لعثمان : «كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك ، فحملت بني مُعَيْط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء » وقال لعلي مثل ذلك عن بني هاشم ولم يذكر الفيء ، وإذا صح ما جاء في إحدى الروايات (١) أنه قال لعثمان بعد مقالته الأولى : « فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحًا » فإنها لمن نبوءاته التي جعلته من المحدَّثين ، أي من الذين يتحدث إليهم بلسان الغيب كما قال عنه النبي عليه السلام .

ولا خوف عليهم من الناس إذا اتفقوا كما قال لهم حين دعاهم للمشاورة وانتخاب واحد منهم للخلافة ، فليس أسلم عاقبة ولا أصدق حجة من اتفاقهم على إسناد الخلافة إلى أحدهم . فإن اتفق أكثرهم فأبو طلحة مأمور بحسم الفتنة قبل أن تَنْجم ، والقضاء على المخالفة قبل أن يبرح مجلس الشورى . فإن لجَّ الخلاف مع هذا وبعد هذا فلا حيلة فيه .

وقد روى الثقات حديث النبي عليه السلام حين عاد من حجة الوداع قبيل وفاته فقال : « أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤني قط فاعرفوا له ذلك ، يا أيها الناس إني راض عن عمر وعليّ وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن مالك وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين ، فاعرفوا لهم ذلك » .

فحسبُ عمر أن يرتضي للمشاورة في أمر الخلافة مَنْ رضي النبي عليه السلام عنهم قبيل وفاته ، وحسبُه مع هذا أن يكون هؤلاء النفر الكرام المرضي عنهم هم

(١) رواها الجاحظ وابن أبي الحديد مسندة إلى ابن عباس .

ملتقى الآراء بين خاصة المسلمين وعامتهم ، فلا يُسمون خليفة إلا كان واحداً من هؤلاء ، ولا يحاول أحد في ذلك العصر أو في عصرنا هذا أن يزيد عليهم علمًا من أعلام الإسلام يومئذ إلا اعترضه مانع ، أوكان مستنده إلى سبب غير جامع . فقد كان العباس ابن عبد المطلب حيًّا في ذلك الحين فلم يدخل في أصحاب الشورى ، وقال ابن جرير الطبري في تعليل ذلك : « إنه – أي عمر – إنما جعلها في أهل السبق من البدريِّين والعباس لم يكن مهاجراً ولا سابقًا ولا بدريًا .. »

ولكن الواقع أن العباس لم يذكر في خطبة الوداع ، ولم يكن من المرشحين للخلافة مع وجود علي ، وهو نفسه قد تقدم لمبايعة علي ، ثم أشار عليه ألا يدخل في جماعة الشورى ، فليس في استثنائه تعسف من عمر ، وإنما التعسف أن يختاره لسبب ولا يختار معه كل من يشاركونه في هذا السبب ، وذلك هو الاستثناء الذي لا يغني شيئًا ولا يطاع بسند شامل براءٍ من التحكم والجزاف .

* * *

ولقد علمنا فيما علمناه وألممنا به آنفًا من آراء المعقبين على خطة الصديق وخطة الفاروق ، أن بعضهم وَدَّ لو كان الفاروق قد نهج على منهاج سلفه في اختيار خلفه ، وأنهم عابوا عليه أن يَكِلَ إلى الستة أن يتشاوروا في انتخاب واحد منهم . لأنهم تولوا هذه المهمة . فداخل كلاًّ منهم الأمل في الخلافة والإيمان بصلاحه لولايتها . فانفتح بينهم التنافس وتطرقت إليهم نوازع الشقاق في هذا الباب .

ومعاوية بن أبي سفيان كان على رأس القائلين بهذا الرأي . وهو نفسه حجة على نقيضه . لأنه قد اشرأبَّ إلى الخلافة وتصدّى للمبايعة بها ، وليس هو من الستة ، ولا مَنْ كان يطمع في إسنادها إليه بوصية من الفاروق لو اختار الفاروق أن يعهد بعده لخليفة يسميه باسمه . وقد نادى معاوية بولاية العهد لابنه يزيد . وبويع عليها طوعًا أو كرهًا . فلم يحسم بذلك خلافًا بين المسلمين عامة ولا بين بني أمية أو أبناء بيت أبي سفيان .

وما نحسب أن عمر كان يؤمن بترجيح واحد من الستة على الآخرين . وإجماعْ

المسلمين على مثل رأيه فيه ، وأنه قادر على رد المخالفين له إلى الإجماع ، إن كان من الناس من يخالفه قبل المبايعة . وليس البحث في هذا المقام عن فضل العلم أو فضل البأس والفروسية ، فربما قل الخلاف على صاحب الفضل فيهما بين أصحاب الشورى ورؤساء المهاجرين والأنصار كافة ، وإنما البحث فيمن يجمع الناس إلى حكمه وفضله ، وهو بحث لازم لا غنى عن المشاورة يومئذ فيه ، ولو استغنى عنه أحد لاستغنى عنه عمر ، ولم يبال إن كان يحكم برأيه في ولاية العهد على يقين .

ولا ريب أنه حصر المرشحين بعده للخلافة فأحسن حصرهم ولم يدع واحداً منهم خارجًا من زمرتهم ، فهم مرشَّحون لها عند أنفسهم وعند أنصارهم قبل أن يَنْدُبَهم للمشاورة فيها ، فإن صارت إلى واحد منهم باتفاقهم كان هذا ألزمَ لهم وأوجبَ لتحرُّجهم من الخروج على ولي الأمر باختيارهم ، وكان أوجب لتحرجهم كذلك من الخروج على مشيئة عمر التي أملاها ورتب لها نتائجها .

كان ولي الأمر في ذلك المجتمع الوليد كفؤاً لأمانة الخلافة إلى النَّفَس الأخير من أنفاس حياته المباركة ، فأوصى وصيته المحكمة التي نظر فيها نظرته الشاملة ولم يَدَعْ فيها بقيَّة لنظرة تالية ، ولكن الوصايا مهما يبلغْ من إحكامها وإلزامها لا تنفذ بغير منفِّذين يقدرون على تنفيذها ويصْدُقون النية فيه ، فلو لم يكن أصحاب الشورى وقائد الجند وإمام الصلاة في الأيام الثلاثة أهلاً لأمانتهم ، لما أغناهم حزم الخليفة الراحل شيئًا في تلك المهمة المعجَّلة ، التي يوشك أن يفسدها كل خطأ في القيام عليها وكل تأخير عن موعدها . وقد أدى الخليفة واجبه ، وبقي واجب المنفذين الذين ائتمنهم على الأمة بعد حياته ، فمن حقهم على التاريخ أن يسجل لهم أداءهم لواجبهم ، وتصريفَهم لأمانتهم على أتم الوجوه الميسرة لهم في تلك المهمة المحرجة .. وفي زمرتهم قبل غيرها مُحْرِجاتها ، بل أعضل محرجاتها .

تنافسوا بينهم ولا جَرَم . أقل من منصب الخلافة في الدنيا والدين يتنافس عليه المتنافسون ، ومن المروءة أن يستشرف المرء إلى مقام الفاضل ، ويأبى لدينه ودنياه مقام المفضول ، فإن لم يكن تنافسهم على مكانة عالية فهو تنافس يربأون به عن مَظِنَّة التخلف والقصور .

ثم أُلهم أحدهم أول حل للمشكل تَتْبَعه لا محالة سائر الحلول : واحد ينزع نفسه منها باختياره ، وينوب عن سائرهم في التوفيق بين المختلفين .

سبقهم إلى هذا الحل عبد الرحمن بن عوف ، ولم يسبقهم إليه نزولاً بقدره عن أقدارهم ، بل نزولاً به عن قدر الصديق والفاروق ، فقد علم أن الرضى عن خليفة بعد هذين مطمع بعيد ، ولم يشأ أن ينزل بنفسه منزلاً لا يُرْتَضَى له ولا يرتضيه .

ولم يخطر له أن يخلع نفسه باديء ذي بدء قبل أن يرى منهم من عساه يصنع مثل صنيعه ، فإن كان منهم مَنْ يخلع نفسه على أن يختار غيره ، فقد ضاقت بينهم شقة الخلاف ، وإن لم يكن ، فلينظر بعد ذلك فيما يلي خطوته الأولى من خطوات .

قال : « أيكُم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ » فلم يجبه أحد . فقال : « فأنا أنخلع منها » ، ثم تقدم إلى الخطوة التالية فلم يخطئها ، ووصل منها إلى حصر الخلافة في واحد من اثنين : علي وعثمان .

لقي كُلاًّ منهما فأراه أنه يعلم حجته ودعواه ، قال لعلي : « تقول يا أبا الحسن إني أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد في نفسك ، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به ؟ » قال : « عثمان » .

ولقي عثمان فقال : « إنك تقول : شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله وابن عمه ، ولي سابقة وفضل ، فأين يصرف هذا الأمر عني ؟ لكن لو لم تحضر ، فأي هؤلاء الرهط تراه أحق ؟ » فقال : « علي » !

وتختلف الروايات فيمن اختاره الزبير وسعد ، ولكن الراجح منها أنهما ذكرا عثمان بشرط ولم يقطعا برأي في إيثار عَليٍّ عليه .

فلما انحصر الترجيح بين عثمان وعلي ، خرج يسأل من يلقاه من غير أصحاب الشورى فيذكر له بعضهم عثمان وبعضهم عليًّا ، ويزيد المختارون لعثمان على المختارين لعلي ، وهو أمر لا غرابة فيه مع المعهود من طبائع الناس ، وأنهم لا يجنحون إلى

العظمة النابغة جنوحَهم إلى الطيبة والسلامة ، ولا يَنْفِسُون على الشيوخ ما ينفسونه على الفتيان والكهول .

كل أولئك وأبو طلحة الأنصاري رئيس الجند ينذرهم ويقسم لهم « بالذي ذهب بنفس عمر » لا يزيدنهم على الأيام الثلاثة ، ثم يجلس في بيته فينظر ماذا يصنعون ، وينفذ الأمر فيمن خالف وأصرّ على الخلاف .

* * *

ولئن كان عمر موفَّقًا في اختيار كلٍّ لعمله ، لقد كان اختياره لأبي طلحة أوفقَ ما في هذا التوفيق. إنه الرجل الذي آخى النبي عليه السلام بينه وبين أبي عبيدة ابن الجراح أوْلى الناس في رأي عمر بالخلافة لو عاش ، وهو البطل الذي ثبت في واقعة أُحُد ، يوم انهزم أشجع الشجعان ، ولزم النبيَّ في ذلك اليوم المشهود ، يقف بينه وبين السهام والسيوف ، ويتطاول بصدره ليدفع عنه ضربات المشركين الذين عرفوه وتعمدوه ليصيبوا الدعوة في مقتلها إذا أصابوه ، وشهد أبو طلحة وقعة حُنَيْن ، فبارز عشرين خَصمًا وصرعهم ، وصاح صيحتَه التي كان عليه السلام يقول : « إنها في الجيش خير من مائة رجل » . ولم يكن يبالي الموت وهو في سعة من دنياه ، ولم يكن يعرف غير الجد فيما يعمل أو يقول .

وقد أوفى بأمانته في أيام الشورى ، فلم يدعهم حتى فرغوا من عملهم في صبيحة اليوم الثالث ، وكان فيه فصل الخطاب .

في تلك الليلة أتى عبد الرحمن بن عوفَ منزل المِسْوَر بن مَخْرَمة فأيقظه وأرسله يدعو الزبير وسعداً ، ثم بدأ بالزبير فقال له : « خل بني عبد مناف وهذا الأَمرَ » قال الزبير « نصيبي لعليّ » ثم قال لسعد : « اجعل نصيبك لي فنحن كَلالَةٌ » — أي أبناء عم من بعيد — وكلاهما من بني زهرة . فقال سعد : « إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعليّ أحبّ إليّ » ثم قال : « أيها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا » فاعتذر عبد الرحمن لأنه خلع نفسه منها ، وأعاد عليه مقالته : أنه لا يقوم مقامَ أبي بكر وعمر أحدٌ بعدهما ويرضى الناسُ عنه .

ثم كان علي وعثمان آخرَ من دعاهم في تلك الليلة : دعا عليًّا فناجاه طويلاً ، ثم دعا عثمان فناجاه إلى صلاة الصبح ، ويُظن أنه سأل كلاً منهما عما ينويه إذا ولي الخلافة ، وعن وصية عمر بعمال الولايات أن يتركوا في ولاياتهم عامًا بعد وفاته ، ثم يصنع الخليفة ما بدا له من إقرار أو عزل ، على حسب أحوالهم وأحوال ولاياتهم ، وأنه سأل كلاً منهما عن سياسته عامة وخاصة في شئون الأفياء والأرزاق والأجناد والسرايا والمغازي وسائر ما يتولاه من أمور الخلافة ، ولا يقطع أحد بما دار بين عبد الرحمن وبين كل من علي وعثمان على حدة ، وأغلب الظن أن الذين ذكروا شيئًا من هذا إنما ذكروه مستنبطين ولم يذكروه نقلاً عن عبد الرحمن أو عن علي وعثمان ... قال عبدالله بن عمر : من أخبرك أنه يعلم ما كلم به عبد الرحمن ابن عوف عليًا وعثمان فقد قال بغير علم .

وحانت صلاة الصبح فصلّوا في المسجد ، وجمع عبد الرحمن رهط الشورى ، وبعث إلى من كان بالمدينة من أهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد فاجتمعوا حتى التجَّ المسجد بأهله ، وقام عبد الرحمن فقال : « أيها الناس ! إن أهل الأمصار قد أحبوا أن يلحقوا بأمصارهم وقد علموا مَنْ أميرُهم » فصاح به سعيد بن زيد أحد ذوي السابقة الأولى في الجهاد : « إنّا نراك أهلاً لها » . فقال عبد الرحمن : « أشيروا عليَّ بغير هذا » . قال عمار بن ياسر : « إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليًّا » وقال المقداد بن الأسود : « صدق عمار . إن بايعت عليًّا قلنا : سمعنا وأطعنا » . وإذا بعبدالله بن أبي سَرْح يناديه : « بل تبايع عثمان فلا تختلف قريش » ويثني عبدالله بن أبي ربيعة فيقول : « صدق . إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا » فتنابز عمار وابن أبي سرح ، واختلط القول بين بني هاشم وبني أمية ، فعاد عمار يقول : « أيها الناس ! إن الله عز وجل أكرمنا بنبيِّه ، وأعزنا بدينه فأنَّى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟ » وبادره رجل من آل مخزوم شاتمًا : « لقد عَدَوْت طورك يا ابن سُمَيَّة ! وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ؟ » .

وضاق سعد بن أبي وقاص صدراً بهذه المنابزة وهذا الصخب فصاح بعبد الرحمن : « يا عبد الرحمن ، أفرغ قبل أن يفتتن الناس » .

ولا ندري هل تعمد عبد الرحمن هذا التمهل قبل إعلان البيعة أو أنه سكت حين اعترضه المعترضون باللجاج والمنابزة. فالغالب من تصرفه في أمر الشورى أنه كان يخطو الخطوة ثم يتبعها ما بعدها بحسب وأناة، وآخر ما كان من ذلك أنه أرجأ محادثة الاثنين اللذين انحصرت فيهما الأقوال حتى كانا آخر من تحدث إليه، وأنه لما دعاهما دعا عليًّا ثم ثنى بعثمان.

فإن كان قد تمهل في المسجد على عمد فقد أحسن الرويّة، لأنه سكت حتى أيقن الحاضرون بما رأوه وما سمعوه أن الفتنة موشكة أن تكشر عن نابها إن لم ينته الناس من مبايعة خليفتهم تلك الساعة! هذا يذكر إتفاق قريش، وهذا يشترط، وهذا يقابل شرطه بمثله، وهذا يتكلم عن بني هاشم، وهذا يتكلم عن بني أمية. فلما صاح سعد صيحته بعبد الرحمن: أفرغ يا عبد الرحمن قبل أن يفتتن الناس، كان صوته في تلك اللحظة كأنما هو صوت المسجد كله يتكلم بلسانٍ واحد.

وأسرع عبد الرحمن فقال: «إني قد نظرت وشاورت، فلا تَجْعُلُنَّ أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً» ودعا عليًّا وقال: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده» فقال: «أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي مع اجتهاد رأيي» ودعا عثمان فقال له كذلك: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده». فقال: «نعم».

فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال «اللهم اسمع واشهد. إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان» ثم بايعه بالخلافة، وبايعه المهاجرون والأنصار.

وجاء في بعض أخبار ذلك اليوم أن عبد الرحمن بن عوف لما بايعه ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه عند المنبر، فقعد عبد الرحمن مقعد النبي صلوات الله عليه، وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه، وأبطأ عليّ فقال عبد الرحمن: «وَمَنْ نَكثَ فإنّما يَنْكثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِما عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِمًا» فرجع عليّ يشق الناس حتى بايع وهو يقول: «فصبرٌ جميلٌ واللهُ المُسْتَعانُ على ما تَصِفُون».

وقد بايع رهط الشورى عثمان في المسجد ما عدا طلحة ، فإنه كان غائبًا فقدم بعد ذلك وعلم بالبيعة فسأل : « أكل قريش راض به ؟ » ثم قال له عثمان حين ذهب إليه : « أنت على رأس أمرك .. إن أبيت رددتها » قال طلحة : « أتردها ؟ » قال : « نعم » . فسأله : « أكل الناس بايعوك ؟ » قال : « نعم » قال : « قد رضيت ، لا أرغب عما قد اجتمعوا عليه » .

ولا نلتفت هنا إلى زوائد الأقاويل عما خدع عليًا وعمن خدعه . فإن ما أجملناه هنا من شتى الروايات هو الأشبه والأمثل بهم أجمعين .

ولكنا نلم بطرف من تلك الأقاويل حيث يزعم بعض الرواة أن عليًا بايع وهو يقول جهرة : « خدعة وأي خدعة ! » . وأنه يعني بذلك أن عمرو بن العاص خدعه فانخدع ، وأن ابن العاص لقيه في ليالي الشورى فألقى في رُوعه أن « عبد الرحمن ابن عوف رجل مجتهد ، وأنك إن أعطيته شرطه زهد فيك .. ولكن تَقْبَل على الجهد والطاقة » . ويزعم أصحاب هذه القصة أيضًا أن ابن العاص لقي عثمان فقال له : « إن عبد الرحمن رجل مجتهد ، وليس والله يبايعك إلا بالعزيمة » أي وفاقًا لشرطه ، فاقبل منه عزيمته يبايعْك عليها .

فهذه القصة وما هو من قبيلها ضرب من ضروب المخترعات المألوفة ممن يحبون أن يردُّوا كل شيء إلى دهاء الدهاة وخديعة المخدوعين ، فما كان عليّ بالذي يعتقد أن عمرو بن العاص يتآمر معه على عبد الرحمن وعثمان ، وما كان عثمان بالذي يتلقى سر عبد الرحمن من عمرو بن العاص ، وما تخطر هذه الخواطر إلا على بال الذين يتعشقون بطولة الدهاء فيضعون عمرو بن العاص بحيث يعرف سر عبد الرحمن ويعرف الشرط الذي سيعرض به الخلافة على عليّ وعثمان ، ويجعل هذا يقول «نعم» ويجعل ذاك يقول « لا » كما يشاء .

والأشبه والأَمثل بهم جميعًا أن يكون عبد الرحمن بن عوف وغيره يشترطون ذلك الشرط بعينه على من يقبل أمانة الخلافة في تلك الآونة ، وأن عليًا وعثمان يقولان ما قالاه في جوابه ، ولا حاجة إلى دهاء ولا إيحاء من النُّصَحاء والوُسطاء .

* * *

إن حكم الحال أصدق من حكم المقال في جميع الأخبار ، وهو كذلك على التخصيص في أخبار هذه المبايعة ، إن لم يكن في رواية الأقوال والحوادث ، ففي رواية الشعور الذي كان يخامر الصدور ويتجمع فيها منذ زمن بعيد : شعور بحال لا تدوم ، وخوف من تغيير وتبديل ، واجتهاد في منع التغيير والتبديل ، أو في اجتناب الضرر منهما جَهْدَ المستطاع .

ومن الأحاديث التي رويت عن النبي صلوات الله عليه أن الخلافة ثلاثون سنة ثم هي بعد ذلك مُلكٌ عَضُوض .

ومن كلام أبي بكر في معارض شتى أن الدنيا موشكة أن تغير من النفوس ما لا يحمد تغيره ، ومن كلام عمر وعمله في أيامه جميعًا ما ينم على حذر كهذا أو أشد من خطر الدنيا على نفوس الأقطاب الكبار ، فضلاً عن الدهماء وسواد الدنيا .

وكانت لهذا الشعور أحيانٌ يشتد فيها ويغلب على الناس عامة حتى كأنه بديهة حاضرة لا تحتاج إلى تفكير ، ومن هذه الأحيان فترات التَّوجُّس والترقُّب بين عهد وعهد منذ أيام النبي عليه السلام : بين وفاة النبي وقيام أبي بكر ، وبين وفاة أبي بكر وقيام عمر ، وبين وفاة عمر خاصة وقيام عثمان .

ولما حدثت فتنة الرِّدَّة في أوائل عهد أبي بكر دهش الناس ولم يدهشوا : دهشوا لأنهم فوجئوا ، ولم يدهشوا لأنهم – وقد وقع الذي وقع – لم يستغربوه ، ولم يستكثروا حدوثه بعد صدمة كتلك الصدمة الهائلة ، وبعد غياب صاحب الدعوة ومتعهدها ، وصاحب المنزلة التي لا تدانيها فيهم منزلة . ثم أصبح التوجس والترقب دَيْدَنًا لهم في كل فترة من قبيلها ، فتساءلوا بعد موت أبي بكر ماذا عسى أن يكون بعد ذهاب هذا الخليفة الرفيق الرقيق . لعله تساؤل لم يُعْنِتْهم كثيراً ولم يطل بهم أجله غير قليل . إذ كان أبو بكر لا يُبْرِم أمراً بغير مشورة عمر ، وكانت سياسة الشيخين واحدة تلين معهما تارة وتشتد تارة أخرى . فلما أشفق الناس بعد وفاة أبي بكر لم يُشفقوا من تبديل سُنَّة مرعية أو خروج على جادَّة متَّبعة ، ولكنهم أشفقوا من شدة فيها وصرامة في حمل الناس عليها ، ثم ذهب عمر بغتة والناس يستعظمون الخطوب ،

ويلمسون بوادر التغير من بعيد ومن قريب ، فعادوا إلى ديدنهم في أمثال هذه الفترة ، وخُيِّل إليهم أن كل أمر جائز وكلَّ خطر متوقع خلال هذه النقلة ، مما علموه إلى ما يجهلونه ، ويوجسون منه ويترقبونه .

وفي كل كلمة بَدَرَتْ ، وكل وصاة قيلت في هذه الفترة ، إعراب مقصود أو غير مقصود عن هذا الشعور الغالب الذي بلغ أقصاه يومذاك : شعور بحالة يخشى ألا تدوم ، وخوف لا يُدْرَى كيف يُتَّقَى .

عمر يوصي ببقاء الولاة عامًا ويتوقع الفواجع من الأثرة والإيثار ، ويريد « من يحمل الأمة على الحق » ومن يشتد في غير عنف ، ويلين في غير ضعف ... وعبد الرحمن يعلم أنه لا رضى عن أحد بعد الصديق والفاروق ، ولا طمأنينة للناس إلا أن يطمئنوا إلى سيرة كالسيرة الأولى ، وهم لا يعلمون من أين يأتي التبدل والانحراف .

إن تقرير هذه الحالة النفسية أهمُّ من إحصاء مئات الحوادث والأقوال التي انحدرت إلينا من تلك الفترة ، لأَن الحوادث والأقوال لا تفهم بغير فهم تلك الحالة النفسية ، ولعل تلك الحالة في كثير من الأحيان هي مبعث الحوادث وأقوال القائلين فيها ، فما كان أحد يعيب سياسة عثمان مخلصًا أو غيرَ مخلص ، إلا كان الحذر من تبديل السنن ونقض السوابق حجةً له يسوقها في خطابه للخليفة أو خطابه للخاصة والعامة من رعيته ، وأصبح حضور هذا الحذر في الأذهان من دواعي المبالغة في تعظيم المخالفات وخلقها من غير شيء ، على نية حسنة عند بعضهم ، وعلى نية سيئة عند الأكثرين ، لأنها كانت نغمة العصر التي تفتح الآذان ، وتتأهب الآذان لاستماعها في كل مكان .

وأهم من تلك أن عثمان على رأس المسلمين قد ساوره ذلك الشعور وداخلته تلك الحالة النفسية ، وجثمت في سريرته ، حتى تمكن منه التسليم والاستسلام لما هو كائن لا محالة ، فكان يقول لمحدثيه كما يقول في خطبه : إن ما تبتلى به هذه الأمة قَدَرٌ واقع لا يدفع ، وإن فتنة الدنيا طغت على النفوس طغيانها الذي لا تجدي فيه الحيلة أو المحاولة . وذلك كله مما نلمسه في استسلامه آخر أيامه وتركه المحاولة أو

عدوله عنها بعد المضيِّ فيها ، ونلمسه كذلك في شكِّه واسترابته في صدق العاملين . وتعويله من أجل ذلك على أقربائه وخاصة ذويه ، عسى أن يصدقوه في رعاية السنن والمواثيق .

وتظهر تلك الحالة النفسية من خُطَبه الأولى كما تظهر من خطبه الأخيرة . فلما بايعه أصحاب الشورى خرج فيهم وهو أشدهم كآبة حتى أتى منبر رسول الله وقام يخطب الناس فأُرتِجَ عليه ، وجاء في كلام من روى خبر الإرتاج عليه أن قال يومئذ : « أيها الناس . إن أوَّل مَركبٍ صَعْبٌ ، وإنّ بعد اليوم أيامًا ، وإن أعشْ تأتكم الخطبة على وجهها ، وما كنَّا خطباء ، وسيُعلمنا الله ... »

مقام أدل من المقال ، يدل على كثير .

وأول ما يدل عليه أنه لا تدبير ثمة ولا تحضير ، فلوكان عثمان على علم باختياره للخلافة لما أعياه أن يعد لهذا المقام كفايته من المقال البليغ ، ولكنها قد جاءته وهو لا يستبعد أن تفوته ، ولا يزال يخشى في ذات نفسه أمام الله أن يتعجلها بالتحضير والتدبير ، وأن يطويَ في سره منها ما لم يكن له أن يبديَه في العلانية .

ثم خطب فاتفقت الأقوال أوكادت على نصوص خطبه الأولى ، وكان مدارها على فتنة الدنيا والوعد باتباع السنن واجتناب البدع ، وتهدئة النفوس من قِبَل ما تخافه ، ولا تخاف خطراً أكبر من خطره .

قال في خطبته الأولى : « إنكم في دار قُلْعَة ، وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالَكم بخير ما تقدرون عليه . فلقد أُتيتم ، صُبِّحتم أو مُسِّيتم . ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغُرَّنكم الحياة الدنيا ولا يغُرَّنكم بالله الغَرور . اعبروا بمن مضى ، ثم جدّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم . أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعَمَرُوها ومُتّعوا بها طويلاً . ألم تَلْفِظْهُم ؟ . ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها .. »

وقال في أوائل خطبه : « ... إني قد حملت وقد قبلت ، ألا وإني متبع ولست بمبتدع . ألا وإن لكم عَلَيّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثلاثًا : اتّباع مَنْ كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن

ملأ ، والكفّ عنكم إلا فيما استوجبتم . ألا وإن الدنيا خَضِرَة قد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ، ولا تثقوا بها ، فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها » .

إن أقرب الأخبار إلى الصدق ما تهم بأن تنفيه فيحمي صدقه بآية من دواعيه قبل النفس وقبل الواقع ، وكل ما كان خليقًا أن يحدث عند مبايعة الخليفة الثالث قد حدث على وجهه الذي يطابق الواقع والمتوقع ، وفي هذه الخطبة مطابقة لما يتطلبه الموقف من المعدات والعهود ، وفيها زيادة وعد « بالكف عن الناس إلا فيما استوجبوه » ولعلها الزيادة التي أتت في أوانها بعدما تململ منه القوم من صلابة عمر ومَنْعِهِ إياهم أن ينساحوا في الدنيا ، وخوفًا منهم عليها .

أما المكائد التي أبدعتها أوهام المتوهمين ، فقد يبطلها قبل كل شيء أنها ليست بمكائد تعمل عملاً ينفع من يكيدها .

ومن هذه المكائد ما يُخَيِّل إلينا أن مخترعيها وضعوا حين وضعوها « قصة مسرحية » ، يعطون كل بطل من أبطالها دوره في الكلام ، ودوره في الدخول والانصراف . ومنها ما يخيِّل إلينا أن أصحاب الشورى كانوا عصبة محضرة مستعدة على مصارحة بينها لحرمان هذا واجتباء ذاك ، وإحدى هذه الخيالات خيالة المستشرقين الذين توهموا أن أصحاب الشورى خصوا عثمان باختيارهم لأنه شيخ يدلِف إلى منيَّته ، فكلهم يطمع فيها بعد موته أفحدث حقًا أنهم خصوه وعرفوا يقينًا قبل أن يبايعه عبد الرحمن من سيكون مختارَه ومجتباه ؟

وفي مكيدة أخرى من هذه المكائد التي « يمسرحها » المخترعون لها أن اختيار عثمان قرر الملك لبنى أمية على نية مبيَّتة ، فهل هي مسرحية يكتبها التاريخ نسخة بعد نسخة ، ويريد هنا غير ما يريده هناك ؟ ولماذا تطمع القبائل أن تتداول الخلافة بعد خليفة من بني أمية وهم أقدر على احتجانها ، وأرغب في الاستئثار بها بعد مآلها إليهم في صدر الإسلام ؟

كل هاتيك حِيَلٌ مسرحية توضع لها أدوارها وأعمالها حسب منهاج التأليف ، وأوْلاها بالشك فيه ما لاح عليه التوفيق بين الأدوار والأعمال ، وأوْلاها بالقبول ما ليس وراءه تحضير ينتظم كما ينتظم التحضير في المسرحيات : شيء يراد وشيء لا يراد ، ويعالجه فيستطيعه تارة ، ويعيا به تارة أخرى فينقلب على غير ما تعمده وانتحاه .

وعلى هذا النحو المطبوع آلت الخلافة إلى عثمان .

* * *

الخلافة

بين هذه النُّذُر قامت أصعب خلافة تولاّها خليفة قط في صدر الإسلام ، وقد كانت ثورة المرتدين في أول خلافة الصديق محنة شديدة نهض لها المسلمون جميعًا متساندين متآزرين ، فابتُلِيَ عثمان في أول خلافته بما يشبه تلك الثورة ويزيد عليه : الخلاف في الداخل والتغير في الدواعي النفسية ، وهو أخطر المصاعب جميعًا في خلافة عثمان .

كانت هيبة عمر تملأ الجزيرة العربية وما حولها ، وكان أصحاب الدولتين الكبيرتين من الروم والفرس أهيبَ له من رعيته في الجزيرة ، لأن هذه الرعية تعتصم من هيبته بحق يعرفه لها وتعرفه لنفسها ، ولم تكن للروم والفرس عصمة من هيبته إلا بالحذر والدَّسيسة ، ورستم بطل الفرس المشهور الذي كاد أن يصبح من أبطال الأساطير هو القائل عن عمر : « أحرق كبدي عمر . أنه يكلم الكلاب فتفهم عنه ! » . يعني أنه جعل من عرب البادية الذين ازدراهم الفرس أبطالاً كالأسود ، بفضل ما يُسدي إليهم ويستمعون إليه من نصيحته والاقتداء بسيرته . وقد خطر للمؤرخين في صدر الإسلام أن الهرمزان كان من المتآمرين مع أبي لؤلؤة على قتل عمر ، وهو خاطر قريب إلى الذهن ولو لم يعتمد فيه المؤرخون على غير القرائن التي شهد بها يومئذ شهود الفاجعة قبل وقوعها ، ولكننا نحسب أن المؤامرة أكبر جدًّا من ظواهرها التي تحصرها في أبي لؤلؤة والهرمزان ، وأن تدبيرها في معسكرات فارس وبلاط يزدجرد وحاشيته ، أقربُ إلى الخاطر ، وأدنى إلى المنظور في مجمل الأحوال .

فما هو إلا أن ذاع في ساحات المشرق والمغرب مقتل عمر ، حتى تلاحقت الثورات والفتن كأنما كانت على موعد ، وتمرد من قبائل الفرس والترك والروم من

كان قد أذعن وتعاقد مع قادة الحرب على الصلح والطاعة ، ونقضت دولة الروم صلحها ، فأغارت على الإسكندرية برًّا وبحراً ، وأرسلت أساطيلها إلى شواطىء فلسطين ، وأطلقت في الميادين خُفْيَةً من يَبُثُّ فيها الوعد والوعيد ، ويغري المطيع بالعصيان ، وأحصى المؤرخون البيزنطيون عدة السفن والجيوش التي اشتركت في حركات الثورة والانتقاض ، فقال بعضهم إنها جاوزت خمسمائة سفينة ومائة ألف مقاتل ، وسرعان ما تسايرت الأَنباء بهذه الزحوف بين الخزر والأَرمن ومَنْ وراءهم من الشعوب الآسيوية ، فهبُّوا يتعللون بالذرائع لنقض الصلح ، أو ينقضونه بغير ذريعة ، وينتهزون الفرصة التي علموا أنها لا تسنح مرة أخرى إذا استكانوا للطاعة والمسالمة .

لقد كانت محنة كمحنة الرِّدَّة أو أكبر منها في اتساع ميادينها وتباعد أطرافها .

وكان عثمان كفؤاً لها بالعزم والرأي والسرعة في تصريف الأمور وتسيير النجدات ، وإسنادِ كل عمل إلى من يحسنه ويسد فيه أحسن سداد .

ولقد درج العاذرون واللائمون في تاريخ عثمان على التسليم بضعفه كأنه حالة لا تفارقه في جميع أعماله ، أوكأنه حالة لم تفارقه قط في عمل مما تولاه .

فالذين آمنوا منه بحسن القصد ، كانت معذرتهم له بالضعف واللين أسبقَ معاذيرهم إلى ألسنتهم حيث يوفّقون بين خطئه وحسن قصده ، والذين أفرطوا في اللوم ، جعلوا من ذلك الضعف خَطَلاً في الرأي قد يغطي على حسن النية لو افترضوه وسلموه . وهؤلاء وهؤلاء يستغربون أن يقال انه كان كفؤاً لتلك المحنة بعزيمته وأصالة رأيه ، ويخيل إليهم أن كلمة « الضعف » تلغي كلَّ قوة وتُبْطل كل عزيمة ، أو ينسون أن الضعفاء لا يتساوون ، وأن الضعف لا يلازمهم في كل ما يعملون ، وأن الضعف كالمرض تتفاوت فيه مناعة الأبدان ومناعة النفوس ، فقد يُعْدَى القويُّ الرَّكين وإلى جانبه النحيل الهزيل لا تسري إليه عَدْوَاه ، وقد يكون القوي في حالات ، أضعفَ من الضعيف في حالات ، وهذا مع التسليم بضعف عثمان على العلات وهو قول لا يُقبَل على إطلاقه ، إذ لا نرى من علامات ضعفه إلا ما يظهر فيه الضعف بالنسبة إلى موقف من المواقف قد يحار فيه الأقوياء كما يعيا به الضعفاء .

فلا تنس أن عثمان قد ولي أعمالاً ناجحة في الجاهلية والإسلام ، وأن من هذه الأعمال قوافلَ تترحل في الصيف والشتاء ، وتوافق مطالب اليمن في الجنوب والشام في الشمال ، وأنه استطاع أن يصرِّف هذه القوافل ويوائمَ تلك المطالب وهو مقيم في مكة أو المدينة ، وأنه تعود أن يستشار فيما يحضره ويغيب عنه ، وأنه تعود كذلك أن يعرف مشورة غيره في مثل عمله ، وأن يعرف أخبار من تقدمه ومن عاصره من نظرائه ، وأنه بعد الإسلام قد لازم ولاة الأمر في السياسة والحرب من عهد النبي عليه السلام إلى عهد الفاروق ، وشاركهم في كثير ، وسمع أوامرهم وحضر مشاوراتهم في كثير .

فلا تكونن كلمة الضعف حاضرة في الذهن كلما حضرته حادثة من حوادث سيرته أو آية من آيات عزمه وتدبيره ، وليكن للضعف محله ، فلا يشغل كل محل في معارض هذا التاريخ العُجاب .

إن علاج عثمان لمشكلات الدولة « الخارجية » التي فاجأته بعد ولايته قد كان كأحسن علاج يتولاه خليفة في تلك الآونة : عزمٌ وسداد وسرعة ، مع الخيطة والأَناة والرفق في سياسة الأَولياء والخصوم .

ولا شك أن الخليفة كان مُعانًا على عمله ، ولم يكن منفرداً بعبئه في تلك المحنة الجائحة : كان معانًا عليه بحمية الجند وكفاية القادة ، وكانت حَمِيَّة الدين التي حفزت دعاة الإسلام من نصر إلى نصر ومن عزمة إلى عزمة ، وصحبتهم من بدر إلى القادسية وتبوك وبابليون ، صامدةً على سمعتها كأقوى وأقوم ما كانت في يوم من أيامها ، بل لعلها في حروب الفرس والروم كانت أقوى وأقوم من حروبها في الجزيرة العربية ، إذ كانت أنفَة العربي أن ينهزم أمام المتعجرفين عليه من الأعاجم كفيلةً أن تنفث في قلبه الغضبة القوية التي لا تثيرها حرب العربي للعربي والشبيه بالشبيه .

كان حبيب بن مسلمة الفهري يقاتل الروم في ميادين سورية وفلسطين ، فاستعان بمدد من الجزيرة فوصل إليه ، واستعان بمدد من الكوفة فأبطأ عنه ، فلما أقبلت الروم قبل وصول المدد وهم لا يتوقعون القتال مع قلة الجند في معسكر العرب أتاهم حبيب من حيث لم يتوقعوا وبيَّتهم بليل . فانتصر وانهزموا .

وإن الدهشة من هذه الجرأة لتغمرها حتى لتكاد تمحوها دهشة أخرى من دهشاتها التي لا عداد لها في كل وقعة من وقعاتها : كانت أم عبدالله امرأة حبيب معه وهو ينوي الهجمة بليل قبل أن يُسْفِر نور الصبح ويأتي المدد المرتقب ، فسألته : أين الموعد ؟ قال : سرادق « الموريان » أو الجنة ... فوجدها عند السرادق قد سبقته إليه .

وقبل هذا أُعِينَ الصدّيق والفاروق بحَمِيّة الأجناد وكفاية القُوّاد ، ولكن أعباء الجهاد في أوائل أيام عثمان كانت أشق وأكبر وأحوج إلى التوجيه الناجز والتصريف الذي لا يغني الإجمال فيه عن التفصيل ، على حسب الأطوار المتجددة والطوارىء المتقلبة ، لامتداد خطوط القتال ، وتعدد الفتن ، وتباعد المسافات بين البلدان ، وتكاثر العناصر والأجناس في جيوش المسلمين : فقام الخليفة الشيخ بأعبائه الجسام على أحسن ما يقام بها في تلك المحنة الجائحة ، وكان له ولا شك أكبر الفضل في تثبيت مهابة الدولة الجديدة بعد ما أصابها من الوهن والتخلخل عند مقتل عمر ، فوقر في أخلاد الأمم المحيطة بها أنهم ينازلون قومًا لا يقدح في قوّتهم موت خليفة أو تبديل قائد ، وأنهم منتصرون مستميتون في سبيل النصر على اختلاف القادة والرؤساء . فقتل بعد هذه التجربة عثمان ، ثم قتل عليّ ، ثم مات معاوية ، ثم مات يزيد وتخلى معاوية الثاني عن الملك ، وانقسم المسلمون على أنفسهم ، ولم تقم للثورة عليهم قائمة في بلاد الروم أو بلاد الفرس ، إلا ما كان من شغب متفرق على غير وجهة ، يَعْرُو الدول في داخلها ومن خارجها بلا انقطاع ، ولا يُخاف منه على دعائمها وأركانها .

ولم يقنع عثمان بتسكين الثورات حيث يكفي فيها التسكين ، أو قمعها حيث تحتاج إلى القمع في بلاد الطغاة والمتجبرين ، فصالَحَ من صالح ، وحارب من حارب ، ثم أمر قواده بمجاوزة البلاد التي نشبت فيها الثورات إلى ما وراءها ، منعًا لارتداد الهاربين إليها وانبعاث الفتن والدسائس من قِبَلها ، فتقدمت جنوده شرقًا إلى الهند والصين ، وشمالاً إلى ما وراء بحر الخزر ، وغربًا إلى أبواب القسطنطينية وتخوم الأندلس ، وجنوبًا إلى السودان وجوانب الحبشة ، ولم يؤخذ عليه قط وَنَاءٌ

في إنفاذ نجدة ، أو تسيير مدد ، أو تدارك خطر في أوانه ، من أقصى تلك البقاع إلى أقصاها .

وعرضت له مسألة عسيرة من المسائل التي استطاع الفاروق إرجاءها ، ولم يكن ثمة بد من عودتها في أوانها .

عرضت له غزوة قبرس ورودس وجزر بحر الروم ، وإعداد العدة لدفع الغارات البحرية عن شواطىء مصر والشام والقيروان ، فكانت بحق مسألة ، بل مشكلة من المشكلات التي لم تستحكم قبل أيامه ، ولم تتطلب الحل السريع من وليٍّ لأمر المسلمين في الجزيرة العربية ، أو في البقاع التي انتهت إليها الفتوح .

وكان من سياسة عمر ألا يجعل بينه وبين جيش من المجاهدين بحراً ولا جسراً ولا قنطرة ، وأن يجنِّبهم ركوب البحر ما استطاع ، وكان معاوية يلح عليه في غزو الروم بحراً ، ويهوّن عليه خطب هذه الغزوات ، ولا يفتأ يحضُّه على ذلك ، ويقول فيما قاله حضًّا عليه : « إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم » يعني جزيرة أرواد ...

فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يسأله أن يصف له البحر وراكبه ويقول له : « إن نفسي تنازعني إليه » .

فكتب إليه : « إني رأيت خَلْقًا كبيراً يركبه خَلْقٌ صغير ، ليس إلا السماء والماء . إن ركد خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قِلَّة والشك كثرة ، هم فيه دُودٌ على عود ، إن مالَ غرَّق وإن نجا برق .. » إلى آخر ما هوَّل به عليه ، فأقسم عمر لا يحملن عليه مسلمًا أبداً ، ورضي من ملك الروم بترك القتال ، ثم زاد ملك الروم فكاتبه وقاربه وبادله الهدايا . وأرسل مع البريد هدية من الملكة إلى السيدة أم كلثوم زوجة عمر تحتوي فيما احتوته عقداً فاخراً يُقَوَّم بأضعاف أضعاف هدية الطّيب التي أرسلتها إليها أم كلثوم ، فباع عمر العقد وأودعه بيت المال ، وكتب إلى معاوية يحذّره من القتال ، وينذره أن يصيبه منه ما أصاب العلاء الحضرمي اذا هو أقدم عليه بغير إذنه .

* * *

أما قصة العلاء هذه فقد كان لها أثرها الذي لم ينسه عمر ، ولم يزل عالقًا بذهنه ، يعاوده كلما عاودوه بذكر البحر وغزواته . وخلاصتها أن العلاء الحضرمي والي البحرين كانت بينه وبين سعد ابن أبي وقاص منافسة في الجهاد ، فبرز اسم العلاء في حروب الردة ، ثم غلبه سعد فضلاً وهِمَّة في وقعة القادسية ، « وأزاح الأكاسرة عن الدار ، وأخذ حدود ما يلي السواد » .. قال ابن الأثير : « فأراد العلاء أن يصنع في الفُرس شيئًا .. وقد كان عمر نهاه عن الغزو في البحر ، فعبرت الجنود من البحرين إلى فارس ، فخرجوا إلى إصطخر وبإزائهم أهل فارس ، وعليهم الهربذ ، فحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم .. واقتتلوا قتالاً شديداً بمكان يدعى طاوس . وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة ، ثم خرج المسلمون يريدون البصرة ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً ، وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وامتنعوا .. »

قال ابن الأثير الذي نلخص منه قصة هذه الغزوة : « لما بلغ عمر صنيع العلاء أرسل إلى عتبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جند كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا ... وأمر العلاء بأثقل الأشياء عليه وهو تأمير سعد عليه ، فشخص العلاء إلى سعد بمن معه » ولم يكن أشد على نفسه من هذا العقاب الأليم ، وما كان ليطيعه لولا إيمانه وتقواه ، وأنه استحقه بمخالفته من لا ينجو من عقابه مخالف كائنًا من كان .

وبقيت عبرة هذه الغزوة لا تنسى ولا تغيب عن فكر عثمان بعد عمر ، وأوشكت مصائبها جميعًا أن تعزى إلى البحر وإلى كل ماء من بحار فارس والروم ، ثم عادت المسألة – أو المشكلة – إلى عثمان فوجب أن يفصل فيها برأيه وهو على ذكر من سياسة عمر وسياسة أبي بكر من قبله : لا يحملن أحداً من المسلمين على ركوب البحر ، أو على ركوب الغَرَر في قتال .

ونظرة عثمان في هذه المشكلة من أدلّ أعماله على نصيبه من الاجتهاد ومن الاقتداء ، ومن أدلّ الأمور على إقدامه حيث يحجم من هم أشهر منه بالإقدام .

إن المشكلة هنا قد تغيرت ولم يبق بينها وبين مجازفة العلاء الحضرمي غير شبه قليل .

تغير من ركوب البحر أنه أصبح اليوم ضرورة لا محيد عنها ، بعد إذ كان مجازفة لا حاجة إليها .

فقد أصبحت قبرس ورودس وجزر الشاطىء القريب ملتقى تتربص فيه الأساطيل المتجمعة من أقطار دولة الروم ، وأصبح امتناع السفن المغيرة بها خطراً على الشام وفلسطين ومصر والقيروان ، لا يؤمن على غِرَّة ولا على استعداد وأُهْبة ، ثم كان ما كان من اختبار المسلمين ركوبَ البحار اضطراراً ، وتجربتهم للسفن كبارها وصغارها ، فذللوا المركب العصيّ الذي طالما تجنبوه ، وتغيرت المشكلة ، ولم يبق بينها وبين مجازفة البحرين غير شبه قليل .

وعلى هذا الشبه القليل بين الأمس واليوم ، لم تزل شبهة التغرير بالناس قائمة لا تدفع إذا خيف الضرر ، ووقع الخطر ، وقيل ان ولاة الأمر لم يحذروا ما كان حذرهم منه عمر ، وأوجب الحذر منه على أتباعه وتابعيه .

وعسير أن يُمنع غزو البحر ، وعسير مثله أن يُباح ، فخرج عثمان من العسرين خير مخرج ، وكتب إلى معاوية يأذن له ويشترط عليه « ألا ينتخب الناس ولا يقترع بينهم ، وأن يخيِّرهم ، فمن اختار الغزو طائعًا حمله وأعانه .. »

وعلى هذا الشرط غزا عبدالله بن قيس الجاسي قائد الأسطول خمسين غزاة « بين شاتية وصائفة ، في البر والبحر ، لم يغرق أحد ولم ينكب ... »

واتفقوا مع أهل الجزر على شروط تحميهم الغِرَّة ، وتبيحهم أن ينزلوا بها ، ليمنعوا نزول العدو بأرضها ، واحتماء الأساطيل المغيرة بمرافئها ، ورتبوا الحملة عليها من مصر والشام ، تأمينًا للطريق من شرقها وغربها وجنوبها ، فأمِنُوا البحر وأمَّنوه لمن يسلكونه من المسلمين والمسالمين .

ولو أنهم تركوا البحر وشأنه ، لا ستعصى عليهم بعد ذلك أن يدفعوا غارة الروم من قبل البحر كما دفعوها ، وأن يسيطروا على سبل الملاحة خلال سنوات معدودات كما سيطروا عليها .

وكانت هذه الهمة من عثمان في علاج الأخطار الخارجية حلاً نافعًا في شئون الدولة الداخلية إلى حين ، لأن مدافعة الأخطار من الخارج شغلت الناس زمنًا عن شواغل السلم والدعة التي تفرقهم وتفرغ أوقاتهم للنقاش والجدال فيما يعنيهم أو لا يعنيهم . ولكن مواقع الجهاد اختلفت.. واختلف عدد المجاهدين فيها ، ونصيب كل مجاهد من غنائمها وأنفالها ومن رواتبها وأعطيتها .

وبدأ ذلك في عهد عمر كما تبدأ مشكلات الميادين التي لا تستقر على قرار ، بين الكرّ والفرّ ، والإقامة والترحال ، وتعاقُب الأمراء في المدن والقادةِ في ميادين القتال .

فما حدث في عهد عمر من ذلك ، أن أهل البصرة شكوا عجز خراجهم على كثرتهم ، وأن أناسًا يشاركونهم فيه ممن أقاموا معهم بعد تمام الفتح ، فاختصم أهل البصرة وأهل الكوفة « وادعى أهل البصرة قرًى افتتحها أبو موسى دون أصبهان ، أيامَ أمدّ به عمر بن الخطاب أهل الكوفة ، فقال لهم أهل الكوفة : أتيتمونا مدداً وقد افتتحنا البلاد ، فأنشبناكم في المغانم ، والذِّمة ذمَّتُنا ، والأرض أرضنا . قال عمر : صدقوا . فقال أهل الأيام والقادسية ممن سكن البصرة : فلتعطونا نصيبنا مما نحن شركاؤكم فيه من سوادهم وحواشيهم . فأعطاهم عمر مائة دينار برضا أهل الكوفة ، أخذها من شهد الأيام والقادسية .. » .

وقد عزل عمر والي الكوفة عمَّار بن ياسر ، واستعمل عليها أبا موسى ، وكان أهل الكوفة يشكون عماراً ويقولون لعمر انه لا يدري علام استعملته ، فسألهم : ومن تريدون ؟ قالوا : نريد أبا موسى ، فولاه عليهم . فأقام عليهم سنة ، ثم باع غلامه العلف فشكوه فعزله وصرفه إلى البصرة .

ولبث عمر مهمومًا مغمومًا بأمر هذه الشكايات ، حتى اضطجع يومًا بجانب المسجد وهو يفكر فيها ، واستيقظ وهو مكروب بادي الأسى ، فقال له المغيرة بن شعبة : ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين إلا من عظيم . فقال : وأي شيء أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير ؟ وأتاه أصحابه وهو بتلك الحال من الغم والأسى فسألوه : ما شأنك ؟ فقال : إن أهل الكوفة قد عضلوني . واستشارهم

فيمن يولّيه ، فأشاروا عليه بتولية المغيرة ، فولاّه ، وأقام واليًا عليها أكثر من سنتين إلى مقتل عمر ، وكان من رأي المغيرة الذي استمع إليه عمر أن الوالي القوي المسدد أصلحُ من الضعيف التقي « أما الضعيف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضعفَه عليك وعلى المسلمين ، وأما القويّ المسدَّد فإن سداده وقوته لك وللمسلمين » .

ولم ينحسم هذا الخلاف في عهد عمر ولا في عهد عثمان ولا في عهد علي إلى أيام الدولة الأموية ، فكان معاوية يأخذ لجند قِنَّسْرين بنصيب من فتوح العراق وأذربيجان والموصل والباب ، وهكذا كان يحدث في الميادين عامة ، بين من ظفروا فيها ثم تحولوا عنها إلى غيرها ، وبين من أقاموا فيها ولم يشهدوا فتوحها ، ولا ظلم ولا غبن في التقسيم والتقدير ، وإنما هي من جرائر السعة واشتباك النظم والولايات وكثرة الأمداد التي تنتقل من ميدان إلى ميدان ومن ولاية إلى ولاية . ولنا أن نقول إنها جرائر الاختلاف من نظام الخلافة إلى نظام الملك ، والدولة التي تواجهها كل يوم قضية من قضايا المعيشة مقرونة بقضايا الجهاد ، أو قضية بين حالة عاجلة وحالة باقية على مدى الأيام ، ولا ينفصل فيها نظام المعيشة ونظام الجهاد كل الانفصال .

وليس بالنادر بين هذه القلاقل أن يخف الجيش لنجدة جيش آخر ، فلا يصل إلى المكان المحصور أو المهدد إلا بعد الاستغناء عن نجدته ، وليس بالنادر أن تتنافس الجيوش بالقيادة والسمعة والسابقة فينفس بعضها على بعض أن ينحاز لقيادته وأن يكون أميره تابعًا لأمير آخر لم يعرفه قبل ذلك .

ومما اتفق من ذلك أيام عثمان أن حبيب بن مسلمة ، الذي سبقت الإشارة إليه ، كتب إلى عثمان يسأله المدد ، فكتب إلى معاوية في الشام يأمره أن يُشْخِصَ إليه من أهل الشام والجزيرة قومًا ممن يرغب في الجهاد ، وكتب إلى سعيد بن العاص في الكوفة يأمره بأن يمدَّ حبيبًا بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلي ، فسار سلمان في ستة آلاف من أهل الكوفة ، ولم يصل إلى حبيب إلا بعد فراغ حبيب من حملته الظاهرة على المُورِيَان .

ولقد كان كلاهما – حبيب وسلمان – من أشجع القوَّاد وأخبرهم بفنون القتال ،

وكان كل منهما « غَزَّاءً » معروفَ السابقة في ساحات الجزيرة والشام ، فلما أراد سلمان أن يلي امارة الجيشين أبى عليه حبيب ذلك ، ودخل جند القائدين في المنافسة ، وقال أهل الشام : لَنَضْرِبَن سلمان إن أبى إلا الرئاسة علينا . فأجابهم أوس بن مغراء من جند سلمان بشعر يقول فيه :

فَإِنْ تَضْرِبوا سَلْمَانَ نَضْرِبْ حَبِيبَكُمْ
وَإِن تَرْحَلُوا نَحْوَ ابنِ عفَّان فَارْحَلُوا (١)
وإِنْ تُقْسِطُوا فالثَّغْرُ ثَغْرُ أميرِنَا
وَهَذَا أميرُ في الكَتَائبِ مُقْبِلُ
وَنَحنُ وُلاَةُ الثَّغْرِ كُنَّا حُمَاتَهُ
لياليَ نَرمي كُلَّ ثغرٍ ونُنْكِلُ

ولكن القائدين كانا أحكم وأكرم من أن تفسد عليهما هذه المنافسة عملاً حاضراً بين أيديهما ، فافترقا على أن يوغل حبيب في غرب أرمينية وأن يوغل سلمان في شرقها ، وأن يتلاقيا إلى الشمال بعد فتح المواقع بينهما ، فدان لهما ما بين البحر الأسود وبحر الخزر ، وصرفا بأسهُما إلى العدو ضنّاً بقوة الجيشين أن تتفرق في المنافسة على الإدارة والسمعة ، ولكنها منافسة كانت تحتدم في أيام السلم وبين سكان المدن ، فلا تنتهي بغير خصومة ولا تنتهي الخصومة فيها بغير شر وعناد .

* * *

ومن مقابلة النقيض بالنقيض أن نستطرد من قصة حبيب وسلمان إلى قصة الوليد بن عُقْبَة وسعيد بن العاص اللذين تعاقبا على ولاية الكوفة في عهد عثمان ،وقد أجمع المؤرخون على فداحة الخطر الذي نجم من هذه القصة على إمامة عثمان بين أهل الكوفة ثم بين سائر الأمصار.

كان الوليد بن عقبة والي الكوفة قد اتهم بشرب الخمر ، فعزله عثمان ، وأمر بإشخاصه إليه ، وأسند الولاية بعده إلى سعيد بن العاص ، فغضب نفر من بني

(١) الشعر في تاريخ الطبري (ط. المعارف) ٣٠٧/٤ ، وابن الاثير ٥٥/٣ وفيها :

* وإن تَرحلُوا نحوابن عفانَ نرحلِ *

أمية على سعيد ، لأنه غسل منبر المسجد قبل أن يخطب عليه . وعدّوا ذلك تشهيراً بالوالي المعزول . وتربّصوا به الدوائر يكيدون له بين رعيته ، ويُغْرُون به من يلغط في مجلسه .

ونحن نقتبس من جملة المؤرخين . كالطبري وابن الأثير وغيرهما ، زبدَة هذه القصة التي كان لها كل ذلك الخطر من بدء الفتنة إلى مقتل عثمان .

وزبدة هذه القصة من مراجعها المتواترة أن سعيداً اختار وجوه الناس وأهل القادسية وقُراء أهل الكوفة . فكان هؤلاء دخلته داخلاً ، وأما إذا خرج فكل الناس يدخل عليه .

وسأل عن أهل الكوفة فأطلعوه على حالهم ، فكتب إلى عثمان بما انتهى إليه كما أمره ، وقال له فيما قال : « إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغُلب أهل الشرف منهم ، والغالب على تلك البلاد رَوَادِفُ ردفت ، وأعرابٌ لحقت ، حتى ما يُنْظَرَ إلى ذي شرف ولا بلاء مِنْ نازلَتها ولا نابتَتِها » .

فأتاه الجواب من عثمان أن يفضِّل أهل السابقة والقُدْمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعًا لهم ، إلا أن يكون أهل السابقة قد تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، وليحفظ لكلٍّ منزلته ويعطيهم جميعًا بقسطهم على سنّة العدل والمعرفة بأقدار الناس .

وأرسل سعيد إلى وجوه القوم فقال لهم : « أنتم وجوه مَنْ وراءكم ، والوجه يُنْبِيء عن الجسد ، فأبلغونا حاجةَ ذي الحاجة وخَلّة ذي الخلة ، ثم أدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراءِ والمتسمِّتين في سمره ، فانقطع الذين لا سابقة لهم ولا قدْمة بعضهم إلى بعض ، وجعلوا يقعون فيه وفي عثمان ، وكلما لحق بهم لاحق من ناشيء أو أعرابيٍّ أو مولى طليقٍ أعجبه كلامهم ، حتى غلب الشر وفشت القالة ، فكتب سعيد بذلك كله إلى عثمان على ما تعوده الولاة من إبلاغ كل كبيرة أو صغيرة إلى الخليفة منذ أيام الصدِّيق ، فنادى منادي الخليفة إلى صلاة جامعة ، وخطبهم ، وتلا عليهم ما جاءه من سعيد ، وذكر لهم أنه يريد

أن يبعث إلى العراق بمن شاء النقلة إليه من أهل السابقة ، ويأذنَ له في أن يبيع ما يملك بالحجاز ، عسى أن يستعين بهم سعيد على نصيحة الشاغبين من الروادف والأ تباع .

على أن سعيدًا لم ينقطع عن لقاء العامة إذا جلس للناس ، فحدث في بعض هذه المجالس أن فتىً غِرًّا أثنى على طلحة بن عبيدالله فقال : ما أجود طلحة ! قال سعيد : إن من كان له مثل بساتينه لحقيقٌ أن يكون جوادًا ... والله لو أن لي مثلَها لأعاشكم الله بها عيشًا رغدًا .. فقال عبد الرحمن بن قيس ، وهو فتى حدث : والله لوددت أن لك ما كان لكسرى على نهر الفرات ، فانتهره أناس من الحاضرين وصاحوا به : أتتمنى له سوادنا ! وهاج الشرُّ بينهم وبين أهل الفتى ، وسمع قومه من بني أسد بما أصابه فجاؤوا وأحاطوا بالقصر ، وعاذت القبائل بسعيد فأقسم لا يغشى مجلسه أحد من أولئك الشاغبين ، « فقعد أولئك النفر في بيوتهم ، وأقبلوا يقعون في عثمان » .

ونما خبر هذا الشغب إلى عثمان ، فاذن لسعيد في إخراجهم إلى الشام ، وكتب إلى معاوية : « إن نفرًا قد خُلقوا للفتنة ، فأقم عليهم وانههم ، فإن آنست منهم رُشْدًا فاقبلهم ، وإن أعْيَوْك فارددْهم عليَّ » .

فلما قدموا على معاوية أنزلهم كنيسة مريم ، وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق . وكان يتغذى ويتعشى معهم ويحادثهم ويستخبرهم عن شكَاتِهم عسى أن يقنعهم ، فقال لهم في بعض هذه الأحاديث : بلغني أنكم نَقَمْتُمْ قريشًا ، ولو لم تكن قريش كنتم أذلَّة . إن أئمتكم لكم جُنَّة فلا تفرقوا عن جُنَّتكم ، وإن أئمتكم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة . والله لَتَنْتَهُنَّ أو لَيَبْتَلِيَنَّكُم الله بمن يسومكم السوء ولا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم .

قال رجل منهم – وهو صعصعة – : أمَّا ما ذكرت من قريش ، فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوّفنا ، وأما ما ذكرت من الجُنة فإن الجنة إذا اخترقت خلصت إلينا .

قال معاوية : عرفتكم الآن . وعلمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول . ثم قال لصعصعة : أنت خطيبهم ولا أرى لك عقلاً .. أعظِّم عليك أمر الإسلام وأذكِّرك به وتذكِّرني الجاهلية ؟ !

وطالت اللجاجة بينه وبينهم ، فأجمع رأيه على إخراجهم بعد الكتابة إلى الخليفة ، وكتب إليه يصفهم ويقول عنهم :

« .. قدم عَلَيَّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان ، أضجرهم العدلُ ، لا يريدون الله بشيء ، ولا يتكلمون بحجَّة ، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ، ثم فاضِحُهم ومُخْزيهم ، وليسوا بالذين ينكون أحدًا إلا مع غيرهم ، فانْهَ سعيدًا ومن عنده عنهم ، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير » .

وخرجوا قبل أن يخرجهم معاوية من الشام فقصدوا إلى الجزيرة ولم يعودوا إلى الكوفة اتقاء الشماتة بهم ، وسمع بهم والي حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فاستدعاهم منذرًا متوعدًا وقال لهم :

« يا آلة الشيطان . لا مرحبًا بكم ولا أهلاً .. خسر والله عبد الرحمن إن لم يؤدِّبكم . يا معشر من لا أدري أعربٌ هم أم عجم . لا تقولوا لي ما بلغني أنكم قلتم لمعاوية . أنا ابن خالد . أنا ابن من قد عجمته العاجمات أنا ابن فاقىء الرِّدَّة . والله يا صعصعة .. لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى » .

ثم أقامهم شهرًا كلما ركب مشاهم معه ، وخافوه فاستقالوه وأعلنوا له توبتهم ، وسرح أحدهم – وهو الأشتر – إلى عثمان ، فخيَّره عثمان أن يحل حيث شاء ، فاختار فاختار العودة إلى ولاية عبد الرحمن .

وجرى في البصرة ما كان يجري في الكوفة من أشباه هؤلاء الروادف ، وكان في بعض قرى الولاية قاطع طريق يسمى حكيم بن جبلة العَبْدِيَّ ، يصاحب الجيش ثم يخنس عنه ويُغير على أهل الذمة ، فشكاه أهل الذمة ورؤساء المسلمين إلى عثمان ، فكتب إلى ابن عامر والي البصرة أن يحبسه ومن كان مثله ، فلا يخرُجنَّ من البصرة « حتى تأنسوا منهم رشدًا » . فحبسه وتعقب خبره ، فجاءه النبأ ذات يوم أن رجلاً

يدعى ابن السوداء نزل عليه وأخذ يصرح له ولأمثاله بالطعن في عثمان وخلافته ، فدعا بابن السوداء هذا فإذا هو عبدالله بن سبأ ، يهودي من أهل اليمن يقول برجعة النبي إلى الدنيا ، ويُظهر التشيع لعلي. فسأله ابن عامر: من أنت ؟ قال : رجل من أهل الكتاب رغبت في الإسلام وفي جوارك. ثم أخرجه من البصرة لما علم من لياذه بالمفسدين فيها ، فذهب إلى الكوفة يلوذ فيها بأمثال حكيم بن جبلة فأُخرج منها ، وذهب إلى مصر فجعل يكاتب من تركهم في البصرة والكوفة ، وأوى بمصر إلى حمران ابن أبان وهو رجل موتور من عثمان ، كان قد تزوج امرأة في عدتها ففرق عثمان بينهما وضربه وسيره إلى البصرة ، فسعى هناك في وقيعة بين الوالي ورجل من النساك ، وافتضح كذبه عليه فأُخرج من البصرة ، وذهب يتردد بين الشام والحجاز ومصر، فلقيه فيها ابن السوداء ، وأوى إليه وأدخله معه في مكاتباته وسعاياته ، وكثرت السعاية بين أهل الأمصار من الروادف وأشباههم ، فمن نزل منهم بالشام أرضاه معاوية أو أخرجه ، ومن تحول عنها كاتب غيره للاجتماع في مكان لا رقابة عليهم فيه .

وحدث أن الكوفة خلت من واليها سعيد بن العاص وخلفه عمر ابن حريث ، فإذا بجموع المتكاتبين تلتقي فيها ، وإذا بأناس منهم يُشيِّعون في الناس أن سعيدًا عائد إليهم ، وأنه ذهب إلى الخليفة يريده على نقصان رزق نسائهم إلى مائة درهم ، وردِّ أولي البلاء من المجاهدين إلى ألفي درهم ، ويزعم أن الفيء من العراق بستان قريش ، وأنها تأخذ منه ما تأخذ وتدع ما تدع . وطفق دعاة منهم يذيعون هذه القالة أيام الجمع والناس مجتمعون في المسجد فيستخِفُّون ألبابَهم ، ولا يستمعون لذي رأي يبطل لهم ما يذاع على كذب بينهم ، وتصدى عمرو بن حريث - خليفة سعيد على الكوفة في غيابه - لتنفيذ ما زعموا ، فقام على المنبر في يوم جمعة ينصح لهم ، ويوصيهم بالطاعة ولا من سميع .

قال القعقاع بن عمر : « أتردّ السيَّل على أدراجه ؟ هيهات ! والله لا يسكِّن الغوغاءَ إلا المشرفية ، ويوشك أن تُنْتَضَى ويعجون عجيج العيدان ، ويتمنَّون ما هم فيه اليوم فلا يرده الله عليهم أبدًا فاصبر » قال عمرو: « أصبر » . وتحول إلى منزله لا يأمر ولا ينهى .

* * *

هذه بداية تتبعناها إلى نهايتها بدأت في أوائل خلافة وتتبعناها إلى نهايتها قبيل مقتله، وما يبلغ خَطْب هذه الفاشية أن تُفضي إلى مقتل رئيس دولة، لولا شذوذ في طبيعتها خرج بها عن سوائها، وتعدَّى بها أطوارها.

نعم. هي غاشية هان خطبها لو أنها صادفت أميرًا يعالجها بنظام الإمارة، وهان خطبها لو أنها صادفت واليًا مسؤولاً عن نظام ولايته مطلق اليد في دفع شواجر الفتنة عنها، وقد عالج كل والٍ من ولاة ذلك العهد ما وقع منها في ولايته، فاستطاع أن يصرف عنه غائلتها: عالجها معاوية بنفي القائمين بها، وعالجها عبد الرحمن بن خالد بتأديب دعاتها، ولم يستفحل شرها في الكوفة إلا بعد أن غاب عنها واليها سعيد ابن العاص، ووقف دونها خليفته عمرو بن حريث مكتوف اليدين وهو بعيد عن مشورة عثمان ومشورة أمير الولاية سعيد، ولوكان له أن يسكِّنها بالسيف كما قال القعقاع لما كان تسكينها كثيرًا عليه، ولكن القعقاع نفسه لم يشر عليه بامتشاق السيف على توقعه أن يعج عجيجها، وإنما أشار عليه بأن يصبر فصبر، ولزم بيته لا يأمر ولا ينهى.

لقد كان خطب الغاشية هينًا لو أخذها الآخذون بسلطان الإمارة أو بسلطان الولاية، ولكنها قد جرى الحساب فيها على سنَّة الخلافة في عهد لا هو بعهد خلافة ولا بعهد مملكة، تتقاصر فيه حقوق الخليفة ولَمَّا يتوطد فيه حق الملك. وهذه هي النكبة الكبرى في صميمها.

وفي أمثلة الشواجر التي أشرنا إليها في عهد عمر وعهد عثمان كذلك مجال للتفرقة بين طريقة الخلافة وطريقة الملك والإمارة في سياسة هذه الشئون، أو في سياسة جميع الشئون.

كان عمر أقوى من عثمان ولا مِرَاءَ في ذلك، وتقدم انه بدل ثلاثة من الولاة على الكوفة غير والٍ رابع كان يهم بإشخاصه إليها قبل مقتله. وشوهد مهمومًا مكروبًا على قدرته التي لا تضيق بأزمة من أزمات السلم والحرب، واضطلاعه بأعظم الأعباء التي عرضت له أيام خلافته: مائة ألف لا يرضون عن والٍ ولا يرضى عنهم والٍ، وهذه معضلة ثَقُلت عليه حتى أحس ثقلها كل من كان يعرفه ويلقاه في إبّان شكاياتها ومنازعاتها.

فما بال أزمة كهذه تثقل على الرجل الذي نهض بأفدح الأعباء وصغرت في عينيه مخاوف الدنيا ومطامعها ؟

أتراه خاف من ثورة أصحاب الشكاية ؟

لوكان هذا ما يخشاه لما أعضله ولا أعياه أن يعدَّ له عدته ويَفْرُغَ منه على النحو الذي يريده.

أم تراه خاف على سلطانه ، أو خاف على حياته ، أو خاف على مصلحة من المصالح الكبرى أو الصغرى تعنيه غير مصلحة الإسلام والمسلمين ؟

كلا. فما في شيء من ذلك ما يخيفه ، وإنما أعضله من أمر تلك الشكاية مخافةُ أمر واحد : مخافة الظلم أن يَقع منه على شاك له حق في شكاة.

ذلك كل ما أعضَل على عمر من شكايات أهل الكوفة ، ولو لم يكن حساب نفسه على الظلم أعضَل من كل معضلة لما كان في شكايات القوم ما يكربه ويقلق نومه ويغيم على وجهه ، حتى يلمحه من ينظر إليه من عارفيه.

ولو أن عمر كان على يقين من افتراء الشاكين لما أهمّه أن يسخطهم ويخسرَ ثناءهم ، ولا أعياه أن يؤدبهم ويردَّهم إلى طاعة وليِّهم ، فإنما الشكاة بالحق هي التي تزعجه وتكربه ويشغله منها أن يبرأ من مظنَّتها غاية جهده. فإن عرف وجه الحق فما يبالي بعده من شكا أو ادعى ولو زعم أنه يدعي بإسم من شاء من الأكثرين أو الأقلِّين ، وعلى هذا جرت سياسته وسياسة أبي بكر ، وعلى هذا كان يقضي بين أبي بكر والشاكين منه حيثما سمعت الشكاية من الخليفة الأول ، وبخاصة في مسائل الأعطية والأرزاق.

كان رزق أبي بكر الصديق حين استُخلف خمسين ومائتي دينار في السنة ؛ وشاةً في كل يوم يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها ، فلم يكن يكفيه ذلك ولا عياله ، فخرج إلى البقع يتجر ، وجاء عمر فإذا هو بنسوة جلوسٍ فسألهن : ما شأنكن ؟ قال بعضهن : « نريد خليفة رسول الله يقضي بيننا » فانطلق يطلبه فوجده في السوق ، فأخذ بيده وجذبه ليذهب به إلى حيث تنتظره النسوة. وقال أبو بكر : « لا حاجة

بي إلى إمارتكم رزقتموني مالا يكفيني وعيالي » وسأله عمر عما يكفيه ، فقدّره بثلاثمائة دينار في السنة وشاة كل يوم لا يؤخذ منها شيء. وجاء عليٌّ وهما على هذه الحالة فلم يَرَ ضَيْرًا في الزيادة ، ووافقه عمر بعد مراجعة. قال أبو بكر : « أنتما رجلان من المهاجرين ، لا أدري أيرضى بقية المهاجرين بما رضيتماه أم لا ». ثم صعد المنبر واجتمع إليه الناس فقال :

« أيها الناس ! إن رزقي كان خمسين ومائتي دينار وشاةً يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها. وان عمر وعليًا كملا لي ثلاثمائة دينار والشاة ، أفرضيتم ؟ ».

فأجابه المهاجرون : « اللهم نعم نعم. قد رضينا ». وصاح صائح من جانب المسجد فإذا هو أعرابي يقول : « لا والله ما رضينا. فأين حق أهل البادية ؟ ».

ولم يكن عسيرًا على عمر ولا على أبي بكر أن يعلما أنها صيحة لا يُصْغى إليها ، فمن التنطع أن يُمنع رزق الخليفة الذي أقره ذوو الرأي من المجاهدين في انتظار سؤال البادية مَنْ حضرهم منها ومن لم يحضر. وكان جماع قولهم أن المهاجرين إذا ارتضوا شيئًا فإنما الغائبون من أهل البادية تبعٌ للحاضرين ، ولا يشتكي من ذلك مشتكٍ بالحق كائنًا ما كان ادعاؤه ، وكائنًا من كان المدَّعون على غراره.

فلا حساب للخليفة اذا جاءته الشكاية غير حسابه لضميره ، وخشيته أن يكون قد ظلم أحدًا أو قمع شاكيًا مَظِنَّة صدقٍ في شكايته ، وغير ذلك حساب الملك والإمارة ، فإنهما بين خوف الفتنة وخوف الضرر على سلطان صاحب السلطان ، ويأتي الإنصاف في المرتبة بعد النظام والمصلحة إن كان له حساب.

ولقد شكا من الزكاة أيام الخليفة الأول أكثر أهل الجزيرة العربية ، واستدعى قتالهم جهدًا أكبر من جهد القتال مع الأكاسرة والقياصرة ، فما وقع اليقين في نفس الخليفة أنه على الحق وأن الشاكِين على الباطل حتى أقدم على مكاره الحرب الداخلية. وأقدم معه سائر المهاجرين والأنصار. ولو تكرر هذا لتكرر علاجه بما يقتضيه ، في غير مبالاة بكثرة الشاكين وقلة المجاهدين.

* * *

المثل الآخر الذي تفترق فيه خطط الخلافة وخطط الملك من جانب الرعية قبل جانب الرعاة، هو مَثَلُ الخلاف بين القائدين سلمان وحبيب في حروب أرمينية. فقد وجد النزاع على الرئاسة، ووجد التنافس بين الأتباع، ولكنهما وجدا في موقف جهاد، فأوحى الموقف إلى المتنازعين والمتنافسين خيرَ ما يصنعون، بغير حاجة إلى مشورة الخليفة، وهذه حادثة من حوادث عهد عثمان الذي اشتبكت فيه معالم الخلافة ومعالم الملك، وغلبت فيه معالم الملك على مطالب المعيشة أيام المسلمين، بعيدًا من حَمِيَّة الجهاد، ومن خطر العدو المتحفز للانقضاض، وقريبًا من شهوات الدنيا وبطالة الفراغ.

* * *

وقضي للخليفة الثالث، باتساع دولته ودرء الأعداء عنها، أن يتولى أصعب خلافة في صدر الإسلام.

كانت ثورة الفرس والروم والخزر والترك أولَ صدمة تلقاها، وأكبِرْ بها من صدمة يتلقاها صاحب دولة في أول حكمه، ولكنه ظفر بها، وجاوزها بالدولة سليمة منيعة، فأسلمه الظفر إلى الصدمة الكبرى وهي صدمة الزلازل النفسية التي امتحن بها رعاياه في بحبوحة السلم والرخاء، وكانت كلها طورًا جديدًا في حياة أولئك الرعايا، فلا هم رعايا خلافة ولا هم رعايا مملكة، متراوحين هنا تارة وهناك تارة أخرى، بَيْنَ بَيْنَ، على غير نظام متبع في حالة واحدة أو في الحالتين.

وقد أتينا من قبل على فارق بين الخليفة والملك في محاسبة النفس على شئون الرعية، ونأتي الآن على الفارق الأصيل أو الفارق الشامل بين النظامين، وهو الفارق بين الثقة التي لا تحتاج إلى حماية، وبين السلطة التي تحمي نفسها.

فالخليفة يعمل ما يشاء في ظل الثقة به والاطمئنان اليه، يعمل اليوم ما ينقضه غدًا ولا ملامة عليه، ما دام عمله اليوم والأمس لغيره لا لنفسه، وللمصلحة العظمى التي لا يناله منها نصيب غير نصيبه، وقد يرضى هو لنفسه بأقل من ذلك النصيب.

رعية تثق بخليفتها، وخليفة يثق برعيَّته، ولكنه لا يبالي ألاّ يثقوا به إن كان على

طمأنينة بينه وبين ضميره، وبينه وبين الله على السُّنَّة الإلهية التي يعلمها من أحكام دينه.

أما الملك، فالسلطة هي قوامه عند ذويه، سواءٌ نعموا بالثقة طواعيةً أم خذلتهم هذه الثقة عن إكراه وكراهية.

وقد وصلت الخلافة الى عثمان وهو أحوج ما يكون إلى هذه الثقة، وهي أعصى ما تكون عليه.

سبقه بالحذر من عِلْيَة الناس خليفتان بلغت ثقة العلية والدهماء بهما غاية مبلغها. فأبو بكر كان يحذر الدنيا على أولئك العلية. وعمر كان يسلمهم منها ما يأمن عاقبته عليهم، ولا يقدرون على مخالفته لأنهم لا يشكّون فيه، ولا الشك فيه مقبول منهم إذا هم قبلوه.

أما هؤلاء العلية فهم في خلافة عثمان منافسون ونظراء، وخلافته بينهم على شرط معرّض في كل لحظة للتأويل والحساب العسير.

وأما سواد الناس فقد شغلوا أولا، ثم فرغوا من الشغل للبطالة والملاحاة، وكأنهم ورثوا من بيزنطية سلطانها ومعه محاك الجدل البيزنطي الذي تضرب به الأمثال، ولا يؤمن سواد الناس مع البطالة والفراغ والقيل والقال.

وقد كانت سياسة أبي بكر وعمر أن يستبقيا العلية عندهما، ويرسلا الجند والقادة على قدر إلى ميادين الجهاد. وكان عمر يقتضب الولاية على الولاة مخافةً – كما قال – من أن يحملَ فضل عقولهم على الناس.

أما سياسة عثمان فقد اختلفت باختلاف الأحوال : سياسة عثمان كانت ترمي إلى إطلاق العلية في الآفاق، إرضاءً لهم، وتوسلاً بمقامهم بين الدهماء في كل قطر إلى تسديد النصيحة وحسن القيادة واتقاء الفوضى، وهو اجتهاد منه، له ولا ريب جانبه من الصواب.

وعزّت عليه الطمأنينة إلى الولاة مع الفراغ للدنيا بعد الجهاد، فاختار للولاية

أناسًا من ذوي قرابته سبقت لهم ولاية في عهد الخليفتين السابقين، عسى أن يَصْدقُوه العون بحكم القرابة، إن لم يصدقوه العون خالصًا لوجه الله.

ولما اضطر إلى هذه الخطة حاسب ضميره فعمل على تدارُك الضرر منها، فذلك حين وفد الوفود لكل مصر من الأمصار عليه والٍ من ولاته الأقربين، فهم يعيشون في أمصارهم، ويحضر منهم من يشاء في موسم الحج، ليرجع إليه بما يراه موضعًا للمراجعة من أحوال مصره، وهذه خطته التي آثرها للطمأنينة إلى ولاته والطمأنينة على رعاياه.

والذي شاع عن عثمان – وما أسهل الإشاعة – أنه كان يبالي ذوي الثراء ولا يبالي المقترين والضعفاء، والذي كان يحدث منه فعلاً أنه يُغْضِب الطامعين، ويحمي المطموع فيهم من أهل الذمة وأهل الحاجة والمتربة. فمن أجل إبل الصدقة غضب الغاضبون حين حمى لها المرعى، وزاد في مرعاها على حسب زيادتها، ومن أجل أهل الذمة غضب الشطار من قبل حكيم بن جبلة لأنه أدَّبهم وأمر بحبسهم ونهاهم عن أموال أهل الذمة وهم يحسبونها حلالاً مباحا لمن يسطو عليها، وكان رهط المبعدين من الكوفة الى الشام يحاور معاوية في هذه الأموال فينهاهم عنها ويكتب عنهم الى عثمان أنهم «لا يتكلمون بحجة وإنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة».

فأما الرزق الحلال فقد فرض لأصحابه ضعف ما كانوا يأخذونه من الأعطية يوم تولى الخلافة، ولم يفعلها سياسةً بل فعلها إيمانًا بالصواب في هذه الزيادة، وقد كان هو في عهد الفاروق أول من قال بكثرة المال، وأشار عليه برصد الأسماء، وتوفية كل ذي حق حقه من العطاء، خشية النسيان والتكرار.

وقد تعود المؤرخون أن يقسموا عهد عثمان قسمين: قسم الصلاح والرضى، وقسم الخلل والشكاية. وهم على صواب في تقسيمهم هذا، وإن لم يصب منهم من قال انهما قرينان لأيام الكهولة وأيام الشيخوخة في حياة عثمان.

فالواقع أن عثمان كان شيخًا جاوز السبعين على أرجح الأقوال في كلا القسمين، ولكن الفرق الصحيح بين السنوات الأولى والسنوات الأخيرة من عهده، أن

الناس كانوا في شاغل بدفع الأعداء في السنوات الأولى ، وأنهم فرغوا للجدل والملاحاة في السنوات الأخيرة ، وأن اتهام الولاة أيسر من اتهام القادة في إبان القتال ، وقد صارت الرئاسة كلها إلى الولاة بعد المشاركة بينهم وبين قادة الحروب .

ولم يأت هذا التغيير في أطوار النفوس من جانب واحد ، ولا من الرعية وحدها دون راعيها ، فحسب طالب الحقيقة أن يعلم أنه لم يأت كله من جانب عثمان ، وأن الرعية تغيرت فلم تصبحْ رعيَّةَ خليفة ، وهي تحاسب ولي أمرها بميزان الخلافة .

أما أن عثمان لم يشترك في هذا التغيير بعمل من عنده فذلك هو الطرف الآخر من طرفي الباطل والادعاء .

إنما آفة عثمان أنه لم يخل من الأموية ولم يكن أُمويًا « كفاية » .

فمن خلاله الأموية حبّ القرابة ، فهو مبالغ في إيثاره لذوي قرباه .

ومن خلاله الأموية تلك « الطبيعة العملية » التي لم يكن للأسر فكاك منها .

لقد كان أبو سفيان يخلط بين النبوة والملك فيقول للعباس : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا » .

وكان ينظر إلى الفَيْء بين يدي رسول الله فيقول للرسول عليه السلام : « لقد أصبحت أكثر قريش مالاً » .

وروي عن الحسن أن أبا سفيان دخل على عثمان رضي الله عنه حين صارت الخلافة إليه فقال : « قد صارت إليك بعد تَيْم وعَدِيٍّ ، فأدرها كالكرة ، واجعل أوتادَها بني أمية ، فإنما هو الملك ولا أدري ما جَنّة ولا نار » فانتهره عثمان ، وأخرجه مطروداً من عنده .

إن عثمان لأنزه نفسًا وأطهر عقيدة من مثل هذه النزعة الدنيوية ، ولكنه سلم من شر ما في « الأموية » ولم يسلم من ميراثها بأجمعه ، فكانت له نظرة إلى الإمامة قاربت أن تكون نظرة إلى الملك ، وكان يقول لابن مسعود كلما ألح عليه في المحاسبة : « مالك ولبيت مالِنا ؟ » .. وقال في خطبته الكبرى يرد على من آخَذَه بهباته الجزيلة

في إيتاء ذي القربى على رواية الطبري : « فضل من مال ، فلِمَ لا أصنع في الفضل ما أريد ، فلِمَ كنت إماماً ؟ » .

فقد كاد في هذا المقال أن يرفأ الخلافة برقعة من الملك ، ومالت به طبيعة العصر كله إلى بقية من النزعة الأموية ، فكاد الملك والخلافة لديه يلتقيان في حساب الأموال .

* * *

على أنه مع هذا التوسع في فهم حقوق الإمامة ، لم يثبت أنه أنفق المال في غير مصالح الأمة كما يقدِّرها ، ويوافقه على تقديرها الكثيرون من المحدثين ، الذين نشأوا في عصر الاقتصاد وتقسيم الموارد والمصروفات على حسب مرافق الدولة ، وثبت على التحقيق أنه أنفق من ماله الخاص – قبل الخلافة وبعدها – لاستصلاح أمور عامة من خصائص بيت المال ، وقد تحرَّج أشدَّ التحرُّج من إنفاق المال على حرس يحميه في أسوأ أيام الفتنة ، ولو أنه فعل لما خالف بذلك سنَّة الحكم في نظام من النظم الحكومية .

وكانت له « سياسة اقتصادية » يلاحظ فيها تدبير المرافق العامة ، وتيسير التجارة والعمارة ، ومنها إصلاح ميناء جدة ، وتمهيد الطرق ، وإقامة الشرطة في المخافر ، وتنظيم الأسواق .

ومهما يقل القائلون عن ترخُّصه في العطاء وبذل الرواتب من بيت المال ، فلا قول لأحد في حرمة الحياة عنده ، حتى فيما يخشى منه الجور على حياته ، فما طاوعه ضميره قط على إيقاع حكم الموت بإنسان ممن استحقوا هذا الحكم بالشغب والعصيان ، ومن لامه في هذا الباب فإنما يلومه لأنه أفرط في الرحمة والأناة ، ولا يلومه لأنه قسا فضلاً عن الإفراط في القسوة .

والمشقة التي يلقاها المؤرخون في هذا الصدد عظيمة متعبة ، لأن الغالب في المؤرخين أنهم يستسهلون الرأي كلما كتبوا عن رجل اشتهر بصفة من الصفات ، وهم

على دَأْبهم هذا قد يستسهلون الرأي في تقدير سياسة عثمان بعد السنوات الأولى من خلافته على الخصوص ، فما كان عملاً وتدبيرًا ، فليس أسهل من إسناده إلى أعوانه ، وما كان توانيًا وتفريطًا ، فليس أسهل من إسناده إليه ، وإن أسندوه إليه ليقولوا انه غُلب عليه.

وتحضرني في هذا المقام مساجلة بين بعض الصحاب سمعناها عن ضعف عثمان وتسيير الناصحين له من حزبه ومن غير حزبه ، وإحدى الدلالات على ذلك أنه تاب ثم عدل عن التوبة مرات في عامه الأخير.

والأمر الذي نسيه أصحاب هذه الدلالة أن التوبة شيء لم يطلب قط من أحد في تلك الآونة إلا استجيب إليه ، وما قيل لأحد قط : تب إلى الله ، فأجاب على ذلك بغير التوبة والاستغفار، فما كان منهم من أحد يرى أنه غنيٌّ عن الاستغفار وتكفير الذنوب في وقت من الأوقات ، أوكان يستعلي عن الوقوف أمام الله موقف التوبة والندامة. وما كانت توبات عثمان إلا من هذا القبيل كلما دعي إليها في أيامه الأخيرة ، فإنما هي توبة لله وأمام الله ، ولا عليه أن يُعِيدَها في اليوم مرَّات بعد مرات .

فمن تيسير المؤرخ على نفسه أن يحيل عمل عثمان وتدبيره على الأعوان والنصحاء ، وأن يحيل التواني والتفريط إليه ، أو إلى غلبة الأعوان عليه ، ولا سيما المسؤول الأكبر في رأي الأكثرين عن أخطاء عثمان ، ابن عمه مروان.

فما كان لمروان هذا من القوة ما أسبغه عليه المدَّاحون بعد قيام الدولة الأموية ، ولم تكن له هذه القوة حتى في مطامع الملك وهمم السيادة والرئاسة.. فإنه كان يزاحم معاوية فلم يستطع أن يبلغ معه كثيرًا ولا قليلاً ، وراح يحرِّض عمرو بن عثمان ليناوئ معاوية ، ويقول له : إنه لم يأخذ الخلافة إلا باسم أبيك ، ثم ينزوي ولا يَجْسُر على الظهور.. ولم يفارقه هذا الخمول بعد موت معاوية وابنه يزيد ، فكاد أن يبايع عبدالله ابن الزبير بالخلافة لولا النزاع بين اليمانية والقيسية في الشام.

وقد اودي حمقه بحياته بعد أن صارت الخلافة إليه ذلك المصيرَ الذي لا فضل له فيه. فقد خشي أن يكبر خالد بن يزيد بن معاوية فينازعَه سريره ، فلم تهده حيلته

إلى عمل يحتاط به لهذه المنازعة غير أن يتزوج أمّه ، ليصغره ويلحقه بأتباعه ، وأمعن في هذه الحيلة لما كبر خالد ، فقال له على مسمع من أشراف القوم : ما لك ولهذا يا ابن الرَّطبة . . فكان فيها حتفه ، وقيل إن خالداً أخبر أمه فقالت له : لا يعلمن أحد أنك أخبرتني ، ثم وضعت على رأس مروان وسادة ولم ترفعها حتى مات .

فمروان هذا ليس بالعون الغالب الذي لا يخالف ، وليس هو على الأقل بالذي ينسب إليه الرفق في تسيير الناس للقتال متطوعين ، أو الرفق في محاسبة الخصوم والثائرين ، أو بذل العطاء لمن ينافسهم وينافسونه من رؤساء بيت العاص أو بيت حرب في بني أمية ، وغاية شأنه أنه المأمور الذي لا يستعاض عنه بمن هو أنصح منه ، وأقدر على الطاعة ، وأعرف بما كان وما هو كائن من أخبار العاصمة وأحوال الولايات ، لطول المراسلة والمعاشرة ، ومن كان يحسب أن مشورته السيئة هي علة العلل في محنة عثمان ، فعليه أن يلغي هذه المشورة ، ويفترض أنه لم يقل بها ولم تسمع منه ، ثم لينظر ماذا يقدم هذا أو يؤخر من أزمة الحكم ومن فاجعة عثمان .

إنما المحنة كلها أنه زمن كان يحتاج حيناً إلى ثقة الخلافة فلا يجدها ، ويحتاج حيناً آخر ، أو في الحين نفسه ، إلى سلطة الملك فلا يجدها ، ولن يسلم حكم يحتاج إلى سند الثقة في موضعه ، أو إلى سند السلطة في موضعه ، فلا يجد هذا ولا ذاك .

* * *

الإمام
أو
مصحف عثمان

ينفرد اليوم بين أعمال عثمان عمل جليل يوازنها جميعًا ، يذكر باسمه حيث يذكر المصحف الشريف ، ويعلمه من يعلم أن المصحف « العثماني » منسوب إليه .

فقليل من الناس يعلمون اليوم أنباء الفتوح التي فتحها عثمان ، وأنباء الغارات التي ردها عثمان ، ومنها ما تلتبس فيه أسانيد المؤرخين ، فيختلط السند الواحد بين البلد والبلد ، وبين السنة والسنة ، ولا يُعرف القول الفصل في ذلك كله إلا بعد معارضة ومقابلة بين الأنباء والروايات لا يشتغل بها أحد غير المختصين .

أما عمل عثمان في المصحف فهو ماثل معلوم يُقرأ المصحف وحيث يقال : هذا مصحف عثمان . وكل مصحف اليوم هو مصحف عثمان ، فلم تكن كلمة « المصحف » نفسُها معروفةً عَلَمًا على الكتاب الذي يجمع آي القرآن الكريم . فعرف المصحف تارة ، و « الإمام » تارة منذ سميا باسميهما في أوائل خلافة عثمان .

وليس من مباحث هذا الكتاب تاريخ جمع القرآن منذ جمع لأول مرة في حياة النبي عليه السلام ، وإنما نذكر منه ما يذكر في تاريخ عثمان رضوان الله عليه ، وهو باتفاق الخالفين بعده ألزم ما كان لازمًا من أعمال العناية بالقرآن الكريم .

جُمع القرآن الكريم في حياة النبي عليه السلام بعد أن كان مفرَّقًا في جريد النخل وصفائح الحجارة والعظام والجلود والرقاع ، ولم يرتب يومئذ على حسب السور والموضوعات ، وفي ذلك يقول الشيخ محمد العاقب الشنقيطي من أرجوزته المشهورة :

لـم يُجمعِ القرآنُ في مجـلدِ على الصحيح في حياةِ أحمـدِ
للأمن فيه من خلافٍ ينشـأ وخيفةَ النّسْخ بوحْـيٍ يَطْـرأ
وكان يُكْتَبُ عـلى الأكتـافِ وقِطَـع الأدْمِ واللّـخافِ

فلما كانت أيام أبي بكر قال عمر : إن أصحاب رسول الله ﷺ باليمامة يتهافتون تهافت الفراش ، وإني أخشى ألا يشهدوا موطنًا إلا فعلوا ذلك وهم حَفَظَةُ القرآن.. فهلاّ جمعته وكتبته ؟.. فنفر أبو بكر أن يفعل ما لم يفعل رسول الله ، ثم أرسل أبو بكر إلى كاتب الوحي زيد بن ثابت فقال له مشيرًا إلى عمر: « إن هذا قد دعاني إلى أمر فأبيتُ عليه ، وأنت كاتب الوحي ، فإن تكن معه اتّبعتكما ، وان توافقني لا أفعل » . وتراجعا في الأمر حتى قال عمر : « وما عليكما لو فعلتما ذلك ؟ » فنظرا مليًّا ثم قالا : « لا شيء ! » .

فجمعت الآيات ، وروجع الحفَّاظ في كل آية ، ولم يشتغلوا يومئذ بنسخ ما جمعوه وإرسال النسخ إلى الأمصار، لأنهم تتبعوا الآيات لجمعها ، لا لمخافة الاختلاف في قراءتها .

ثم حدث هذا الاختلاف بعد تفرق المسلمين في الأمصار على أيام عثمان ، وبلغ من ذلك أن المعلمين والصبية كانوا يقتتلون في المكاتب ، لأن الصبية يرجعون إلى آبائهم فيسمعون منهم غير ما سمعوه من معلميهم ، وعاد حذيفة بن اليمان من قتال أرمينية فلم يدخل بيته حتى أتى الخليفة فقال له : « أدرك الناس يا أمير المؤمنين قبل أن يختلفوا في الكتاب » . فلم يتوان عثمان بقية يومه ، وأرسل إلى السيدة حفصة يطلب النسخة التي أودعها أبوها عندها قبل وفاته وقبل أن ينتخب الخليفة من بعده ، وأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها ، ثم عارضها على ما يحفظه وهو يحفظ القرآن كله ، وعارضها على ما يحفظه سائر الصحابة ، فخلصت له النسخة المتفق على قراءتها وترتيب آياتها . فلم يُحْجِم بعد ذلك عن أمر كان غيره خليقًا أن يهابه ، مذ رأينا أن أبا بكر قد تردد قبل أن يجيب عمر إلى مشورته ، وليس فيها أكثر من مجرد التفكير في جمع الآيات المتفرقات .

أمر بعد حصول هذه النسخة لديه فأباد كل ما عداها إحراقًا ومحوًا ، وأخذ « العُسُبَ واللِّخَافَ والجلود » التي لم تختلف ولم تجتمع على ترتيب فدفنها بين القبر والمنبر ، وأرسل من « المصحف » كما جمعه نُسَخًا إلى الأمصار يعتمدونها ولا يقرأون في غيرها .

عمل من أخلق الأعمال أن يوصف بأنه « عمل عثماني » في الإقدام عليه وفي أثره .

فهذه الجرأة أحق شيء أن يلتفت إليه من كانوا يحسبون أن صفة الرحمة أو صفة الطيبة تحجب الشجاعة وتثني صاحبها عن تبعته إذا آمن بها .

وهذا العمل – في اختلاف تقديره وأثره – مثال من أعمال عثمان كافة ، إذ كان معدودًا عليه من أكبر السيئات ، ولم تبق لعثمان حسنة أعظم منه في تاريخ الإسلام .

* * *

النهاية

قلنا في الفصل الأول من هذا الكتاب : « إن الصعوبة الكبرى أننا في هذه الفترة أمام حادثين يرجع كل منهما إلى أسبابه وعوامله ، ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متحد الأسباب والعوامل ، هذان الحادثان هما التطور الاجتماعي ومقتل عثمان رضي الله عنه ، وأسباب هذا لا تكفي لتعليل ذلك وليس من الحتم أن تؤدي إليه » .

ومقتل عثمان لا يوصف بأكثر من أنه « مشاغبة دهماء » لم تجد من يكبحها .

أما التطور الاجتماعي فلا بد من التفرقة في تعليله بين لغط الألسنة في حينه . وبين البواعث الحقيقية التي عملت فيه عملها الفعَّال ، ولم تعمل فيه بداهة بألسنة اللاغطين في ذلك الحين .

إنهم لغطوا يومئذ بسيادة قريش ، ولغطوا بالأَموال التي أغدقها ولاة الأَمر على الأَنصار والأشياع ، ولغطوا بإيثار الصنائع وذوي القربى .

ولم يكن شيء من هذا اللغط علة للتطور الاجتماعي الذي بدأ بعد دعوة الإسلام ، وانتهى بقيام الدولة الأموية .

فالذين شغبوا على عثمان جاءوا من البصرة والكوفة ومصر ليبايعوا واحدًا من ثلاثة : هم الزبير وطلحة وعلي ، وكلهم من قريش .

ودولة بني أمية قامت بعد ذلك ، وهي دولة قرشية غالية في عصبيتها .

والذين ثاروا على بني أمية ثاروا باسم بني هاشم وهم قرشيون، ومن بني هاشم قامت دولة العباسيين والفاطميين.

وبعد نحو مائة سنة من مقتل عثمان قام بالأمر في الأندلس « صقر قريش » عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، فبايعه العرب والبربر لأنه من سلالة قرشية.

فلا يكفي أن يَلْغَط بالنقمة على قريش سامرون في مجلس أو لاغطون في طريق، ليقال إن التطور الاجتماعي أيام عثمان إنما كان مداره على الضجر من قريش والرغبة في الخلاص من سيادتها.

وقد غلا الأمويون في العصبية كما غَلَوْا في كسب الأنصار والأشياع ببذل الأموال وإسناد الولايات، فوطدوا بذلك ملكهم، وقهروا خصومهم، ولم يقتل منهم أحد من جرّاء ذلك كما قتل عثمان.

* * *

كان خراج السواد في عهد معاوية خمسين مليون درهم ومعها مثلها من هدايا النيروز والمهرجان، فاحتجنها لنفسه، وأنفقها في سبيل سلطانه ودولته.

ووهب خراج مصر كلها لعمرو بن العاص جزاءً له على معاونته إياه، وهو يُرْبي على عشرة ملايين من الدراهم، وجعل عطاء الحسن والحسين مليوني درهم، وكان عشرة آلاف درهم في عهد عمر بن الخطاب.

واقتفى يزيد آثار أبيه فسأل عبدالله بن جعفر حين قدم عليه: « كم عطاؤك؟ » قال: « ألف ألف درهم » قال: « قد أضعفناها لك ». فقال له عبدالله: « فداك أبي وأمي، وما قلتها لأحد قبلك » فضاعف عطاءه ثانية. ثم خرج عبدالله فقال جلساء يزيد له: « أتعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف درهم؟ » فقال لهم: « ويحكم! إني أعطيتها أهل المدينة أجمعين، فما يده فيها إلا عارِيَة! ».

وهذه الهبات على عهد الدولة الأموية ربما بلغت في اليوم الواحد ما لم تبلغه هبات عثمان في سنوات، وأكثر هبات عثمان من خاصة ماله، وليس فيما وهبه من بيت المال عطاء واحد لم تكن له صلة بعمل من أعمال الفتح والجهاد.

فإذا كان الناس قد شغبوا على عثمان فلغطوا بسيادة قريش ، أو لغطوا بالهبات والعطايا ، فليس هذا اللغط هو حقيقة البواعث والقوى التي عملت في التطور الاجتماعي وانتهت بقيام الدولة الأموية على دعائم من سيادة قريش وتقريب الأنصار والأشياع .

إنما تطور المجتمع الاسلامي بعد أيام الدعوة النبوية ، لأن الدعوة النبوية قد رفعت مجتمعها إلى الأوج الذي لا تقوى النفوس البشرية على مداومة البقاء فيه ، ولو لم تتغير أحوال المعيشة بإقبال الدنيا واتساع الفتوح . فإذا اتفق على النفس البشرية عسرُ البقاء في ذلك الأوج وفتنةُ المعيشة معًا ، فلا بد من تطور المجتمع حالاً بعد حال .

وقد يسمى هذا التطور انقلابًا من قبيل الترخُّص في التعبير. أما حقيقته فهي نقيض الانقلاب .. حقيقته أنه رد فعل للانقلاب العظيم الذي طرأ على حياة الأمة العربية من أثر الدعوة النبوية ، فارتفعت مع تلك الدعوة شأوًا لا طاقة للنفوس البشرية بالدوام عليه ، وثابت إلى طبيعتها بعد سكون تلك الوثبة ، وغنمت منها القيم الجديدة التي دخلت في تقدير الرعاة والرعايا ، وحُسبت في موازين الأخلاق والآداب ، فأما دوام الغيرة الروحانية سنواتٍ وأجيالاً على قوة واحدة فذلك ما ليس فيه مطمع لطامع ، وليس له سابقة ولا لاحقة من وقائع التاريخ .

هذا التطور الاجتماعي هو أحد الحادثين المختلفين اللذين يتلاقيان في سيرة عثمان ، وفحواه التحوّل مع الزمن من وثبة النبوة إلى ثقة الخلافة إلى سلطة الملك ، أيًا كان القول في سيادة قريش وتوطيد الملك بالعصبية والهبات .

* * *

أما الحادث الآخر فلا صفة له أكثر من صفة المشاغبات التي يجمع بها الدهماء ، ولا اختلاف بينها وبين المشاغبات التي تعمل فيها الأغراض الصغيرة ، والغرائز الهوجاء ، والدعاوى الملفقة ، والصيحات التي تقبل بغير تمحيص ، وتنطلق إلى غير مقصد ، وعلى غير هداية .

وأساس البلاء كله البطر على الحقوق التي كسبوها من الإسلام ، ومنها حقٌّ خوَّلهم إياه عثمان ، حين وفد الوفود ، وندب طوائف منها للقائه في موسم الحج كل

عام، لإبلاغه ما يشكونه من الولاة وما يطلبونه إليه.

وقد رأينا أنهم استسهلوا الشكاية من العمال من أيام عمر، ثم زادها سهولةً عليهم أنهم استطاعوا في عهد عثمان أن يقدحوا في انتخابهم، ويشكّكوا الناس في كفايتهم للولاية لولا قرابتهم من الخليفة. وليس أدل على وَهْيِ الأسباب الحقيقية للشكوى من حاجتهم إلى نبش الماضي عن أسباب تثير الشعور ولا تستند إلى حجة غير المزاعم والأقاويل..

ومن ذلك نبشهم عن سيئات عبدالله بن أبي السَّرح الذي ارتدّ في عهد الدعوة ثم تاب وولاه عمر بعض ولاياته في مصر، فإنهم زعموا أن عثمان قد ولاه القيادة لأنه أخوه في الرضاع، والصحيح أن عبدالله بن أبي السرح كان أكفى الكفاة في قيادته، وأنه انتصر حيث قاد جيشًا في البر أو في البحر، ومع الروم أو مع أهل أفريقية.

وزعموا أن عثمان نفل مروان بن الحكم بخمس الغنائم التي أرسلها ابن أبي السرح من أفريقية، وهو غير صحيح، وإنما الصحيح أن ابن أبي السرح أخرج الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار، فأنفذها إلى عثمان، وبقي من الخمس أصناف من الأثاث والماشية يشق حملها إلى المدينة، فاشتراها مروان وبقيت من ثمنها بقية عنده، فوهبها له عثمان يوم بشَّره بفتح أفريقية، والناس على وَجَلٍ من أخبار الغارات عليها.

وكقصة ابن أبي السرح قصةُ الحكم بن العاص، الذي رخص له عثمان في العودة إلى المدينة بعد أن نفاه النبي عليه السلام عنها؛ فإنما أبى النبي أن يُسَاكِنَه في المدينة ثم وعد عثمان أن يعفو عنه، ولا حرج من مقامه حيث لا مُساكنة له عليه السلام بعد وفاته، فقد أذن له بالمقام في الطائف حيث لا يسكن معه وهي أحبّ في سكنها وأشهى.

ومن هذه الشكايات التي يبحث عنها الباحث، أنه ولّى الوليد بن عقبة لقرابته، ثم اتُّهم بشرب الخمر، وثبتت عليه التهمة.. فأما أنه هو الذي ولّاه فغير صحيح لأنه كان مُوَلًّى من قِبَل عمر، وأما أنه شرب الخمر فقد أقام عليه عثمان الحدّ وعزله، ولا يُطلب من الإمام أكثر من ذلك.

ولامُوه لأنه لم يقتصَّ من عبيد الله بن عمر لقتله الهرمزان المتهمَ بالتآمر على قتل

أبيه ، وأيًا كان وجه العدل في هذه القضية ، لقد كان لُوَّامُه على قتل عبيدالله لو أنه أخذه بالهرمزان أكثرَ من عاذريه ، فما كان أكثر من يقول يومئذ : إن عمر قُتل بالأمس وابنه يقتل اليوم ، وقد كان عذر عثمان في ترك عبيدالله أنه دفع الفتنة ، فأطلقه ولما يمض على قتل أبيه أيام ، ودفع الفتنة ولا ريب حقٌ من حقوق الإمام .

وذكروا أنه أبعد أناسًا من الصحابة عن مساكنهم أو عن أعمالهم ، ولم يذكروا أنهم أغلظوا له في القول ولم يوقروه ، وقد ضرب عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص لأنه لم يقف له في مجلس الخلافة ، وقال له : « إنك أردت أن تقول انك لا تهاب الخلافة ، فالخلافة تقول إنها لا تهابك ! » . ولم يعرف إنسان أنه اعتذر لصحابي من الإساءة إليه كما اعتذر عثمان لابن مسعود إلى يوم وفاته ، وهو غاية ما يستطيع .

وإذا كان أساس البلوى كلها سهولة الشكوى ، فيومئذ يظهر بالشكوى من كان حقه أن يتوارى بها من أصحاب التراث والذنوب ، ولكن سماحة عثمان أطمعتهم في الظهور ، وسولت لمن شاء منهم أن يجترئ عليه مع الشاكين والمتذمرين ، وأعجب العجب في هؤلاء قصته مع محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قريب عثمان وربيبه في داره . فإن الناس قد ولعوا بالكلام على محاباة عثمان لأقربائه ، وهذا واحد من أقرب الأقربين إليه ، أقام عليه الحد لأنه أصاب شرابًا ، ثم جاءه يطلب منه ولاية فأباها عليه وقال له : لو كنت أهلاً لذلك لولّيتُك ! فكان هذا زعيم الثائرين عليه في مصر ومعه نفر من ذوي قرباه .

ومنهم من عاقبه عثمان لأنه كان يلعب بالنيرنجيات ، ومن عاقبه لأنه تزوج بامرأة في عِدَّتها ، ومنهم من عزله كعمرو بن العاص فكان أحكم من أن يجهر بالشغب عليه ، ولكنه كان يدعوه جهرة إلى التوبة وهي دعوة أشبه ما تكون بالاتهام الصريح .

ومنهم من كان يزجره ولاة عثمان لأنه كان يهذر في الدين بما لا يعلم ، أو يهذر فيه بما يعلم أنه باطل ويضمر من ورائه سوء النية ، كعبدالله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، فقد أخرجه الولاة من بلد إلى بلد ، لأنه كان يقول برجعة النبي إلى الدنيا ، وحلولِ روح الله في عليٍ ، وقد كان علي رضي الله عنه أشدَّ على ابن السوداء هذا من عثمان وولاته .

وبين هؤلاء الشاغبين يُسمع النصح الصادق من رجل كأبي ذَرٍّ يروعه البذخ والترف، فيدعو إلى التقوى والصلاح، وينعى على الذين يكنزون الذهب والفضة ويحبسونهما عن الخير والصدقة، فتحسب صيحته على عثمان. ولا قبل لعثمان بتغيير الزمن وتبديل الأوان، وقد حذر منه قبل أوانه الصدّيق، ثم حذر منه الفاروق وجلّة الصحابة الأكرمين، ولا شيء يُجنى من تلك الصيحة إلا أن تُمْليَ للشاغبين في شغبهم، وهم لا يصدقون صدق أبي ذرٍ ولا يتقون تقواه.

ولقد أشير على عثمان بالضرب على أيدي الشاغبين، وكان عمرو بن العاص أولَ من قال له انه قد لان لهم في المقال ولم يجزهم بما استحقوه من جزاءٍ. ومن محنة الإمامة في ذلك الزمن، أن يُلام الإمام على النقيضين: على الرأفة بالشاكين، وعلى أنه أغضبهم ولم يُجبهم الى ما سألوه.

ولما جمع مجلسه للشورى كان من ناصحيه من أشار عليه بأن يشغل الناس بالجهاد، فلم يرض أن يكون الجهاد سياسة يحمي بها نفسه، ويشغل بها الساخطين عليه.

وكان من ناصحيه من أشار عليه باتخاذ الحرس أو بالسفر إلى الشام، فلم يقبل هذا ولا ذاك.

وكان رأي عليّ أن يشتد في حساب الولاة، وأن يعزل منهم من نهج في الولاية منهجًا لم يكن يرضاه قبله الفاروق ولا الصدّيق، ولو فعل لعزل معاوية أول من عزل، ولكن ولاية معاوية في الشام كانت أقل الولايات شغبًا عليه.

وللسائل في أمثال هذه المآزق أن يسأل: «فعل عثمان هذا أو ذاك فسخطوا عليه، فهل يرضون لو لم يفعل هذا وذاك؟».

واليقين في رأينا أن الرضى عنه في أمثال ذلك المأزق مطمعٌ لا يرام، لأن أساس البلاء كله سهولة الشكوى من الدهماء، ومتى سهلت الشكوى فالإعراض عنها محنة، واستجابتها محنتان، لأنها تغري بالشكوى من جديد، وتزيد البلاء بزيادة السهولة طمعًا في دوام الإصغاء.

وتحسب على عثمان أخطاء وهنات جنت عليه، وساعدت من أراد أن يتجنى عليه بالحق وبالباطل، منها توسعه في حقوق الإمامة، وتوسعه في معيشة الغنى بعد خليفتين كانا مثالاً في التقشف والرضى بالقليل، وقد توسع كذلك في تقريب ذوي قرابته، واصطفائهم لأعماله وبطانته، ولم يردعهم أن يَجْبَهُوا كبار الصحابة، من أمثال عليّ وعبد الرحمن بن عوف، بسوء المظنة والتهمة الجائرة، فجعلوهم في حيرة من أمرهم: إن دخلوا في أمر الفتنة على عزم وقوة لم يأمنوا التهم، وإن تجنبوا الأمر كله عزلوا عثمان حتى يشعر الناس بعزلته، وقد ظن من ظن بعد تفاقم الشر أن عثمان إنما صرف من تطوعوا لحراسته في داره لأنه لم يكن على طمأنينة من جانبهم، فتفرقوا وأحس الشاغبون حول الدار من تفرقهم كأنهم خاذِلوه.

* * *

ومن الإنصاف له أن يقال إن تقصيره في حق نفسه كان أكبر من تقصيره في حق رعيته، فقد أفرط في المسالمة، واغتفر ما لا يُغتفر من العدوان عليه في حضرته، وتحرج غاية الحرج من البطش بمساعير الفتنة. لأنه لم يكن من الغرور بحيث يبرىء نفسه من تبعة سخطهم ولم يكن من الأثَرَةِ بحيث يدرأ عن نفسه الخطر وهو لا يبالي أكان على خطأ أم كان على صواب.

ولا نحسب نحن من أخطائه أنه أصرّ على الإمامة وأبى أن ينزل عنها وقال لمن أنذروه القتل إن هو لم يعتزل انه لا يخلع قميصًا ألبسه الله إياه، فقد عزا بعضهم هذا الإصرار إلى وصية النبي له في مرض وفاته، وعزاه بعضهم إلى يقينه من الموت ويأسه من جدوى الاعتزال على رعيته، وأيًا ما كان باعثه على الاصرار فهو الباعث الذي لا يُعزى إلى الأثرة، ولا يفسِّره إلا الإيثار في سبيل ما اعتقده واجبًا عليه، حتى الإيثار على الحياة.

ومن الفضول في سيرة تدور على « تحليل الشخصية » أن نطيل في سرد أحداث الفتنة التي انتهت بمقتله، وأن نحصر أسماء من تكاتبوا، ومن دعا منهم ومن أجاب، فكل ما رواه المؤرخون من هذه الأحداث يدل على مؤامرة مشتركة بين وفود الأمصار، عملت فيها الدعاية والاستثارة، وعملت فيها الشعوذة والضلالة المدبَّرة، ولم تكن قط

في مصلحة رأس من رؤوس الصحابة الكبار فيميل الظن إلى اتهامه بالتدبير، فإن الفتنة التي يُلغط فيها بالثورة على قريش لن تكون من تدبير القرشيين، وإن الفتنة التي يشعوذ بها أصحاب الضلالة ممن يزعمون أنهم من دعاة عليّ لن تفيد عليّاً عند المؤمنين، ولن يرضاه عليّ لدينه ولا لدنياه.

إنما هو شغب غوغاء لا رأس له ولا قدم، ووجود التدبير وراء هذا الشغب الأعمى هو الذي يوحي إلى المؤرخ أن يدًا كانت تعمل فيه لمحض الشغب وإلى غير نتيجة إلا أن يفسد الأمر على الدولة الإسلامية، وتحوم الشبهات من أجل هذا حول ابن السوداء ومن كانوا يستمعون إليه من شُذَّاذ الأمصار الذين قيل فيهم: « لا ندري أعرب هم أم عجم، ومسلمون هم أم مفسدون مدسوسون على الإسلام.. »

ثم بلغ الكتاب أَجَلَه بقصة ذلك الكتاب الذي قيل انهم وجدوه مع غلام لعثمان يأمر فيه ولي مصر أن ينكل بقيادة الوفد الذي عاد من عند عثمان.

عاد وفد مصر من عند عثمان موعودًا بما يرضيه، ثم لم يلبث أن قفل ومعه كتاب مختوم بخاتم عثمان يأمر فيه بجلد « عبد الرحمن بن عديس وعمر بن الحمق وعروة بن البياع وحَبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلْب بعضهم ».

ولم يعد وفد مصر وحده، بل عاد وفد الكوفة ووفد البصرة وهم مفترقون في الطريق، ولم يفت عليًّا أن يسألهم عن هذا الملتقى العجيب، إن صحت قصة الكتاب!

* * *

وحان المصرع الأليم الذي لا نحب أن نطيل النظر فيه، فإن تريثنا بعده هنيهة فإنما نتريث لنستخرج العزاء لبني الإنسان من الشر المركوز في طبيعة الإنسان.

لئن كان مصرع عثمان شرًّا مطبقًا، لقد كان كجميع الشرور ينطوي على خير يبقى بعد زوال الغاشية في حياة فرد أو أفراد.

كان الخير فيه ذلك الحق الذي آمن به من لا يحسنونه، فأراهم أنهم أهل لحساب وليّ الأمر وهو يبسط سلطانه من تخوم الصين إلى بحر الظلمات.

وكان الخير فيه ذلك الإيمان الصادق الذي صمد به شيخ في التسعين للكرب المحيق به وهو ظمآن محصور في داره بغير نصير، ولو شاء لكان له ألوف من النُّصراء، يُريقون البحار من الدماء، حيث عزَّت قطرة الماء.

وإن وجبت كتابة السِّيَر، فأوجَبُ ما يوجبها أنْ تكشف جانب الخير في أغوار النفس الإنسانية، لا قصيدة مديح كما يقال، بل تحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور. وهذه السيرة الرابعة من سير الخلفاء الراشدين لا نسميها بالعبقرية كما سمينا عبقرية عمر وعبقرية الإمام وعبقرية الصدّيق، لأننا لا نؤمن بالعبقرية لعثمان رضي الله عنه، ونؤمن في الحق أنه ذو النورين : نور اليقين، ونور الأريحيَّة والخلق الأمين. ومن أبى عليه ميزانه أن يحابي في كلمة تستدعيها المجاراة لما سبقها من الكلمات، لن ينظم قصائد المديح في محراب التاريخ، فحسب النفس البشرية أملاً أنها غنية بالحق عن قصائد المديح في هذا المحراب.

* * *

عبقرية الإمام علي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة

في كلّ ناحية من نواحي النفوس الانسانية مُلتقى بسيرة علي بن أبي طالب رِضوان الله عليه ...

لأن هذه السيرة تخاطبُ الانسانَ حَيثما اتجه اليه الخطابُ البليغ من سير الأبطال والعظماء، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشريّ من ضروب العطف ومَواقع العبرة والتأملِ .

في سيرة ابن أبي طالب مُلتقى بالعاطفة المشبوبَة والاحساس المتطلع إلى الرحمة والاكبار. لأنه الشَّهيد أبو الشهداء، يجري تاريخه وتاريخ أبنائِه في سلسلةٍ طويلة من مَصارع الجهاد والهزيمة، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحدًا بعد واحد شيوخًا جللهم وَقار الشيب ثم جَللهم السَّيف الذي لا يَرحم، أو فتيانًا عُوجلوا وهم في نضرة العُمر يحال بينهم وبين متاع الحياة، بل يُحَال بينهم أحيانًا وبين الزَّاد والماء، وهم على حِياض المنيّة جِياع ظِماء.. وأوشَك الألم لِمصرعِهم أن يصبغ ظواهِر الكَون بصبغتهم وصبغة دمَائهم، حتى قال شاعرٌ فيلسُوف كأبي العَلاء لا يظن به التشيّع بل ظُنت باسلامِه الظُنون :

وعلى الأُفقِ مِن دمَاء الشَّهيدَ ... ين عليّ ونَجله شَاهدَانِ

فَهما في أَواخرِ اللَّيل فَجرا ... ن ، وفي أولياتِه شَفقانِ

وهذه غَاية من امتزاج العاطفة بتلكَ السّيرة قلما تبلغها في سِير الشُّهداء غاية، وكَثيرًا ما تتعطش اليها سَرائرُ الأُمم في قَصص الفداء التي عَمرت بها تَواريخ الأديان..

وفي سِيرة ابنِ أبي طَالب مُلتقى بالخيال حيثُ تُحلِّق الشاعريةُ الانسانيةُ في الأجواء أو تَغُوص في الاغوار. فهو الشجاع الذي نزعت به الشاعرية الانسانية مَنزع الحقيقة ومَنزع التخيل، واشتركَ في تعظيمه شهودُ العيان وعشاق الأعاجيب.. ألم يُحارب المَردةَ في فَلواتها؟.. ألم يَخلق له الرواة أندادا من المناجزين المبارزين لم يخلقهم الله ؟.. ألم يَستصْغر عليه المحبُّون الغالبون في الحب أن يصرع من عَرفنا من خصومه فأنشأوا له من الخصوم المغلوبين من لم يَعرفهم ولم يَعرفوه ؟.. ألم يُوشك من وَصفوه ووصفوا وقعاته وفتكاته أن يُلحقُوه بأبطال الأساطير وهُوَ أصدق الأبطالِ في أصدق مجال.

وتَلتقي سيرتُه – عليه رضوان الله – بالفكر كما تَلتقي بالخيال والعاطفة، لأنه صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق سَبقتْ جميعَ الآراء في الثقافة الاسلامية، ولأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن يُعدَّ من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصُور، ولأنه أُوتي مِن الذكاء مَا هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين مِنه بذكاء الساسَة المتغلبين فهُوَ الذكاءُ الذي تحسه في الفكرة والخاطرة قبلَ أن تحسّه في نتيجة العمل ومجرى الأمور.

وللذوقِ الأدبي – أوالذوق الفني – مُلتقى بسيرته كمُلتقى الفِكر والخيالِ والعاطفة، لأنه رضوان اللهِ عليه كان أديبًا بليغًا له نهجٌ من الأدبِ والبلاغة يقتدي به المقتَدون، وقسط من الذوق مطبوع يحمدُه المتذَوقون، وان تطاولت بينَه وبينهم السنون. فهو الحكيمُ الأديبُ، والخطيبُ المبين، والمنشىء الذي يَتَصل انشاؤه بالعربية ما اتصلتْ آيات الناثرين والناظِمين..

وللنفس الانسانيةِ نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخيل والتفكير، وتذوق الحس الجميل مِن التعبير.

فَمِن نَواحيها الكثيرة ناحِية لم تَنقطع قط في زمن من الأزمان، وهي ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان، أو ناحية الخصومة الناشِبة أبدًا على رأي من الآراء، أو حقٍّ من الحقوق أو وَطن من الأوطان.

فقد يفتر العقل والذّوق بعض حين، وقد يفتر الخيال والعاطِفة بعض حِين، ولكن الذي لم يفتر قط ولا نخاله يفتر في حين مِن الأحَايين خصامُ العقول وجدلِ الألسنة واختلاف المختلفين وتَشيع المتشيعين.

وان ها هُنا للمجال الرغيب والملتقى القريب في سيرة هذا الامام الأوحد التي لا تشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخواص، وهُو رضوان الله عليه قد قال في ذلك أوجزَ مقال حين قال:

« ليُحبني أقوامٌ حتى يدخلوا النار في حبي، ويبغضني أقوامٌ حتى يدخلوا النار في بغضي».. أو حين قال: « يَهلْك فيّ رجلان: مُحبّ مفرط بما ليس فيّ وَمُبغض يحمله شَنآني على أن يبْهتني».

وصدقَ الامامُ في غلوّ الطرفين من مُحبيه ومن مُبغضيه. فقد بلغَ من حُب بعضهم اياه أن رفعوه الى مرتبة الآلهة المعبودين، وبلغَ من كراهة بعضهم اياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين: هُنا الروَافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعُونه.. ويستتيبهم فيصرُّون على الكُفر أي اصرَار، ويأمرُ باحرَاقهم فيقولون وهُم يُساقون الى الحفيرة الموقدة: انه اللهُ وانهُ هو الذي يُعذّب بالنَّار!..

وهناك الخوارج الغُلاة يعلنون كُفره ويطلبونَ منه التوبة الى الله عن عصيانه.. ويسبُّونه على المنابر كما سبَّه خصومه الأمويون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السِباب..

مَيْدان من ميَادين الملاحاة لم يتسع قط مَيدان مُتسعه في تواريخ الأبطالِ المعرضين للحب والبغضاء: يقولُ اناسٌ: إله. ويقول اناسٌ: كافرٌ مطرودٌ من رحمة الله!..

وناحية أخرى من نواحي النفسِ الكثيرة تلاقيها سيرة الامام في أكثر من طريق: وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق الى التجديد والإصلاح.

فقد أصبح اسمُ عليٍّ عَلمًا يلتف به كل مغصوب، وصيحةً ينادي بها كل طالب انصاف، وقامت، باسمه الدول بعد موته لأنه لم تقم له دولة في حياته. وجعل

الغاضبون على كل مجتمع باغ ، وكل حكومة جائرة ، يَلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الاصلاح ، أوكأنها المنفس الذي يستروح اليه مكظوم.. فمن نازعَ في رأي ، ففي اسم عليٍّ شفاءٌ لنوازع نفسه ، ومن ثارَ على ضيم ففي اسم عليٍّ حافز لثورته ومرضاة لغضبه ، ومن واجه التاريخ العربي بالعقل أو بالذَّوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك مُلتقى بينه وبين عليّ في وجه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته. وتلك هي المزية التي انفرد بها تاريخ الامام بين تواريخ الأئمة الخلفاء ، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية إن قصَّر في خلقها التاريخ والمؤرخون.

وكل مُلتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب في حذر ما بعده من حذر ، لأن اشتباك العوامل النفسية يزيدُ صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ، ولا ينقصها أو يؤولُ بها الى البساطة والوضوح ، وكلما قلت هذه العوامل وانحصرت في ناحية من النواحي سهل الخلوص الى مقطع الحق فيها. فالبطل الذي يَلتقي بالفكر وحدَه أسهلُ من البطل الذي يَلتقي بالفكر والعاطفة ، وان هذا لأسهلُ مِن الذي يَلتقي بالفكر والعاطفة والخيال ، وكلّ أولئك أسهل مِمّن يَلتقي في ألفِ سنةٍ متواليةٍ بدخائلِ النفوس جميعًا من طموح الى المثل الأعلى ، أوحرص على الملاحاة ، أوشغفٍ بالبلاغة أو رياضةٍ على التقوى ، مزيدًا على التخيل والشعور والتفكير.

لهذا نعلم غيرَ مترددين في عِلمنا ان واجبنا في « عبقرية الامام » مرسوم الغاية والطريقِ ، وهو واجبُ التبسيط والقصد الى الخطة الوسطى ، وفي علمنا بهذا بعضُ التيسير ، وان لم يكن فيه كلُّ التيسير ، نرجع « بعبقرية الامَام » الى الحقيقة الوسطى.

نرجع من عشرين طريقًا الى بداية واحدة ، لأن الطريق الواحدة لا تؤدي اليها أقرب أداء. وحسبنا أننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق الى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله..

عباس محمود العقاد

صفاته

المشهور عن عليّ كرم الله وجهه انه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين.. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سِماتها وملامحها في كثير من أعلامها المقدمين، وهي في جملتها النبل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء، عَدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئكَ الأعلام.

فهو ابن أبي طالب عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

وقيل ان اسمه الذي اختارته له أمه: حيدَرةَ باسم أبيها أسد، والحيدرة هو الأسد.. ثم غيَّره أبوه فسماه عليًّا وبه عُرف واشتهر بعد ذلك.

وكان عَليٌّ أصغرَ أبناء أبويه، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب، وبين كلٍّ منهم وأخيه عشر سنين.

قيل ان عقيلا كان أحبَّ هؤلاء الاخوة الى أَبيه، فلما أصابَ القحْط قريشًا وأهابَ رسول الله عليه السلام بعمّيه حمزة والعباس أن يحْملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءُوه وسألوه أن يدفع اليهم ولده ليكفو أمرهم، فقال: دَعُوا لي عقيلا وخذوا مَن شئتم. فأخذ العباس طالبًا وأخذ حمزة جعفر واخذ النبيٌّ عليه السلام عليًّا كما هو مشهور. فعوَّضه إيثار النبي بالحب عن ايثار أبيه، ولكنه عرف هذا الايثار في طُفولته الأولى فكان سابقة باقية الاثر في نفسه على ما يبدو من أطوار حياته التالية.

وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعدادٍ فتعوّد أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرجُ في صباه.

وربما صحّ من أوصاف عليٍّ في طفولته انه كان طفلاً مبكر النماء سابقًا لأنداده في الفهم والقدرة، لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئًا من الدعوة النبوية التي يدق فهمها والتنبه لها على من كان في مثل هذه السن المبكرة. فكانت له مزايا التبكير في النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكّرين، ولا سيما المولودينَ منهم في شيخوخة الآباء..

ونشأ رضي الله عنه رجلا مكينَ البنيان في الشباب والكهولة، حافظًا لتكوينه المكين حتى ناهز الستين..

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة انه كان رضي الله عنه ربعة أميل الى القصر، آدم - أي اسمر - شديد الادمة، أصلعَ مبيض الرأس واللحية طويلها، ثقيلَ العينين في دعج وسعة، حسن الوجه واضح البشاشة، أغيد كأنما عنقه ابريق فضة، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش [١] السبع الضاري لا يتبين عضدُه من سَاعده قد أدمجت ادماجًا. وكان أبجرَ - أي كبير البطن - يميل الى السمنة في غير افراط، ضخم عضلة الساق مُستدقها، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها، شثن الكفّين، يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبي، ويقدم في الحرب فيقدم مهرولاً لا يلوي على شيء.

وتدل أخبَاره - كما تدل صفاته - على قوةٍ جسدية بالغةٍ في المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه انه لم يصارع أحدًا الا صرعه، ولم يُبارز أحدًا الا قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه الا رجال، ويحمل الباب الكبير يعي بقلبه الأشداء، ويصيح الصيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان.

---

(١) المشاش : رأس العظم.

ومن مكانة تركيبه رضي الله عنه انه كان لا يُبالي الحر والبرد ، ولا يحفل الطوارئ الجوية في صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء وثياب الشتاءِ في الصيف ، وسئل في ذلك فقال : « ان رسول الله ﷺ بعث اليّ وأنا أرمدُ العين يوم خيبرَ فقلت : يا رسول الله ، اني أرمدُ العين. فقال : اللهم أَذهب عنه الحر والبرد ، فما وجدت حرًا ولا بردًا منذ يومئذٍ .. »

* * *

ولا يُفهم منْ هذا انه رضوان الله عليه كان مَعدوم الحس بالحر والبرد بالغًا ما بَلغت بهما القساوة والايذاء. فقد كان يرعد للبرد اذا اشتد ولمْ يتخذ لهُ عدة من دثار يقيه. قال هرون بن عنترة عن أبيه : دخلتُ على عليّ بالخورنق وهو فصلُ شتاءٍ وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه. فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، ان الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيبًا وأنت تفعل هذا بنفسك ؟.. فقال والله مَا أرزؤكم شيئًا ، وما هي إلا قطيفتي التي اخرجتها من المدينة.

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء. انما هي مناعة قوية خصَّت بها بنيته ، لم يُخصّ بها معظم الناس.

وكان الى قُوته البَالغة ، شجاعًا لا ينهض له أحَد في ميدان مناجزة ، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنًا من الأقران بالغًا ما بلغ من الصَّولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو فتى ناشىء على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم بالف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو في الحديد ينادي جيش المسلمين : من يبارز.. فصاح عليّ : أنا له يا نبي الله.. وبه اشفاق عليه : انه عمرو. اجلس. ثم عاد عمرو ينادي : ألا رجل يبرز ؟ ، وجعل يؤنبهم قائلاً : أين جنّتكم التي زعمتم انكم داخلوها ان قتلتم ؟.. أفلا تبرزون اليّ رجلا ؟.. فقام عليّ مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يا رسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس. انه عمرو ، وهو يجيبه : وان كان عمرا.. حتى أذن له فمشى اليه فرحًا بهذا الاذن الممنوع كأنه الاذن بالخلاص.. ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله : من أنت ؟.. قال ولم يزد : أنا عليّ. قال : ابن عبد مَناف ؟..

قال : أبن أبي طالب. فأقبل عمرو عليه يقول : يا ابنَ أخي .. مِنْ أعمامك من هو أسنّ، واني أكره أن اهريق دمكَ، فقال له علي : ولكنّي والله لا أكره أن اهريق دمكْ. فغضبَ عمرو وأهوى إليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار، واستقبل عليٌّ الضربة بدرقته فقدَّها السيف وأَصاب رأسه، ثم ضربه عليٌّ على حبل عاتقه فسقط ونهض، وسقط ونهض، وثار الغبار، فما انجلى إلا عن عمرو صريعًا وعليّ يجأر بالتكبير.

وكأنما كانت شجاعته هذه القضاءَ الذي لا يؤسَى على مصابه لأنه أحجى المصائب، وأقلها معابة الا يُدفع. فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسّي بعد موته :

لو كا قاتلُ عمرو غير قاتله
بكيته أبدًا ما دُمت في الأبدِ
لكنّ قَاتِله مَنْ لاَ نَظِير لَه
وكَان يُدعى أبُوه بيضةَ البَلدِ

* * *

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التي يُشرَّف بها من يُصيب بها ومن يُصاب..

ويزيدها تشريفًا انها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشُجعان الأقوياء.. فلا يعرفُ الناس حليةً للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها عليّ بغير كلفة ولا مجاهدة رأي. وهي التورع عن البغي، والمروءة مع الخصم قويًّا أو ضعيفًا على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال.

فمن تورعه عن البغي، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة. انه لم يبدأ أحدًا قط بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن : « لا تَدعونَّ الى مبارزة. فان دعيت اليها فاجب. فان الداعي اليها باغٍ والباغي مصروع »..

وعلم ان جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له انهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك، فقال : « لا أقاتلهم حتى يُقاتلوني. وسيفعلون ! . »

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفين، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضحَ فيها عداءُ العدو أو غمُض : يدعوهم الى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشرّ، فما رفع يده بالسيف قط الاّ وقد بَسطها قبل ذلك للسّلام.

كان يعظ قومًا فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفِّرونه فصاح معجبًا اعجابَ الكاره الذي لا يملك بغضه ولا اعجابه : قاتله الله كافرًا ما أفقهه. فوثب أتباعه ليقتلوه. فنهاهم عنه، وهو يقول : انما هو سبّ بسبٍّ أو عفوٌ عن ذنب.

وقد رأينا انه كان يقول لعمرو بن ود : اني لا أكرهُ أن اهريق دمك.. ولكنه على هذا لم يرغب في اهراق دمه الا بعد يأس من اسلامه ومن تركه حرب المسلمين.. فعرض عليه أن يكفّ عن القتال فأنف، وقال : اذن تتحدث العربُ بفراري، وناشده : يا عمرو. انك كنت تعاهد قومك الا يدعوك رجل من قريش الى خلتين إلا أخذت منه احداهما. قال : أجل. قال : فأني أدعوك الى الاسلام أو الى النزال. قال : ولِمَ يا ابن اخي ؟.. فوالله ما أحب أن أقتلك.. فلم يكن له بد بعد ذلك من احدى اثنتين : أن يقتله أو أن يُقتل على يديه.

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة : فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميري فصاح بين الصفين : من يبارز ؟.. فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليه ونادى : مَن يبارز؟ فخرج اليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى : من يبارز ؟. فخرج اليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبه، ثم نادى رابعة : من يبارز؟. فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول الى الصف الذي يليه، وخاف علي أن يَشيع الرّعب بين صفوفه فخرج الى ذلك الرجل المدّل بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة صنعَ بهم صنيعه باصحابه، ثم قال مسمعًا الصفوف : يا أيها الناس. ان الله عزّ وجلّ يقول : « الشهرُ الحرام بالشهر الحرامِ والحرمات قصاص، ولو لم تبدءُونا ما بدأناكم » ثم رجع الى مكانه.

أما مروءَتُه في هذا الباب فكانت أندر بين ذوي المروءة من شجاعته بين الشُجعان. فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبرًا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترًا أو يأخذوا مالاً. وصلّى في وقعة الجمل على القتلى من اصحابه ومن اعدائه على السواء، وظفرَ بعبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه المؤلبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوْأته اتقاءً لضربته.. وحال جندُ معاوية بينه وبين الماء في معركة وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشًا.. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوَّغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: ايتمَ الله منك أولادك كما أيتمت أولادي. فلم يرد عليها شيئًا، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين. أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟.. فانتهره وهو يقول: ويحك؟.. انا أمرنا أن نكفّ عن النساء وهنّ مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟.. وانه لفي طريقه اذ أخبره بعض اتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة. ثم ودّع السيدة عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميالاً وأرسل معها من يخدمها ويحف بها. قيل انه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمّمهن بالعمائم وقلدهن السيوف.. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت: هتكَ ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي.. فلمّا وصلت الى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها: انما نحن نسوة.

وكانت هذه المروءة سنّته مع خُصومه، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان في حرمة عائشة رضي الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة، وهي أندرُ مروءة عُرفت من مقاتل في وغر القتال..

وتعدلها في النُبل والنُدرة سَلامة صَدره من الضغن على أعدى الناس لهُ وأضرّهم به وأشهرَهم بالضغن عليه. فنهىَ أهلهُ وصحبهُ أن يمثلوا بقاتِله وأن يقتلوا أحدًا غيره. ورثى طلحةَ الذي خلع بيعته وجمعَ الجموعَ لحربه رثاءَ محزونٍ يفيض كلامه بالألم

والمودّة ، وأوصَى أتباعه ألا يُقاتلوا الخوارج الذين شقوا صُفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرّاً عَليه مِن معاوية وجُنده ، لأنه رآهم مُخلصين وإن كانوا مُخطئين وعلى خَطئهم مصرّين ...

* * *

وتقترن بالشجَاعة – ولا سيّما شجاعةَ الفرسَان المقاتِلين بأيديهم – صفة لازمَةٌ لها متمِّمة لعملها قلما تنفصِل عنها وكأنها والشَجاعة أشبهُ شيء بالنضح للماء ، أو بالاشعاع للنُور ، فلا تكون شجاعة الفروسيّة الا كانت معها تلك الصفَة التي نُشير اليها ، وهي صِفة «الثقة» أو «الاعتزاز» أو الادراع بالهيَبة والتهويل على الخصُوم ولا سيَّما في مواقِف النِزال .

وقد يُسميها بعضُ الناس زهوًا وليست هيَ به ولا هيَ من مَعدنه وسمته ، وان شابَهته في بعضِ الملامِح والألوان .

فالزهوُ المذمومُ فضولٌ لا لزومَ له ولا خيرَ فيه ، وهو لونٌ خادعٌ قد يوجدُ مع الضَّعفِ كما يوجدُ مع القوّة، وقد يبدو على الجَبان كما يبدُو على الشجَاع .

أما هذا الاعتزاز الذي نشير اليه ، أو هذه الثقة التي تظهر لنا في صورة الاعتزاز، فهي جزءٌ من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغني عنه ولا يزال متصلاً بعمله في مواجهة خصومه . وهو عرض للقوة يساعد الفارس في ارهاب عدوه واضعاف عزيمة من يتصدى لحربه .. مَثَلهُ هنا كمثل العروض التي تعمدُ إليها الجيوش لأعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها . فهو كالشجاعة أداةٌ ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها . وليس كل ما فيها ضربًا من الخيلاء يُرضي به الشجاع غروره ويتيه به في غير حاجة الى التيه .

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكري من قديم الزمن وعهده وتحدثوا به وتناقلوه ، فسمحوا للفارس – بل لعلهم أوجبوا عليه – أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب اذ يتقدم لنزاله . وأن يلاقيه وهو ينشد الاشعار في ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والاشادة بغزواته . وعلموا انهم – وقد احتاجوا الى شجاعته – محتاجون كذلك الى فخره

وحماسته وايقاع الرعب في جنان قرنه، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحبِّ والمناجاة، وهي أحب القصائد الى القلوب.

* * *

ومن تأصُّل هذه العادة في الطباع أَنها تُشاهد في جميع الأحياء فطرةً وارتجالا بغير اصطناع ولا تعمد. فلا نرى حيًّا من الأحياء الناطقة أو العجماء ينازلُ قرنًا له الا حاول ما استطاع أن يهوّله بتكبير حجمه واستطالة قدره وائتمار نظره وتنفيش ريشه أو شعره، ويقف الانسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدق بيده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان، فاذا هو الفخرُ والحماسة واذا هو عنوان الثقة والاقدام.

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان، ولا سيّما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجهًا لوجه، وينظر أحدهم الى قرنه وهو يهجم عليه.

وكانت هذه الصفة من صفات علي رضي الله عنه، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدرا بفضله، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو أو يسميها الجفوة والخيلاء. قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر: انك والله ما علمت لتنظر الخيلاء.. ومرّ الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنم، فرأى رسول الله عليًا على مقربة منه فضحك له وضحك عليّ يحييه. فقال الزبير: لا يدع ابن ابي طالب زهوه. قال رسول الله: انه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم.

فليس هو بالزهو المكروه، ولكنها الشجاعة التي يمتلىءُ بها الشجاع والثقة التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها، لأن صاحبها لم يتكلّف مُداراتها ولم يحس انه يحتاج الى مداراتها ولأنه لا يقصدها ولا يتعمّد ابداءَها.

* * *

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال. فما منعته الطفولة الباكرة يومًا أن يعلم أنه شيء في هذه الدنيا وانه قوة لها جوار يركن اليه المستجير. ولقد كان في العاشرة أو

نحوها يوم أحاط القروم القرشيّون بالنبي عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير.. لوكان بعليّ أن يرتاع في مقام نجدةٍ أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية الى مقام الخشية والخشوع. ولكنه كان عليًّا في تلك السن الباكرة كما كان عليًّا وهو في الخمسين أو الستين. فما تردَّد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب : أنا نصيرك. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة ان تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم.

عليٌّ هذا هو الذي نَام في فراش النبي ليلة الهجرة، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش.

وعليٌّ هذا هو الذي تصدى لعمرو بن ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه ويحذره العاقبة التي حذرها فرسان العرب من غير تحذير، يقول النبيّ : اجلس. انه عمرو. فيقول : وإن كان عمرًا.. كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف، ولا يعرف إلا الشجاعة التي هو ممتلىء بها واثق فيها في غير كلفة ولا اكتراث.

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التي هي كمَا أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها.

وزادها تمكينًا حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين، وكلاهما خليق أن يعتصم المرءُ منه بثقة لا تنخذل، وأنفة لا تلين. فمن شواهد هذه الثقة بنفسه انه حملها من ميدان الشجاعة الى ميدان العلم والرأي حين كان يقول ! « أسألوني قبل أن تفقدوني، فو الذي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين السَّاعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة الا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها ومحط رحالها».

ومن شواهدها انه كان يقول والخارجون عليه يرجمونه بالمروق : « ما أعرف أحدًا من هذه الأمة عبدالله بعد نبينا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة تسع سنين ».

وزاده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه فلما عتب عليه خصماه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهما قال : « نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته. وما استنّ النبي ﷺ فاقتديته. فلم أحتج في ذلك الى رأيكما ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني المسلمين، ولوكان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما. »

وأبدى هذه الخليقة منه انه كان رضي الله عنه لا يتكلف ولا يحتال على أن يتألف. بل كان يقول : « شرّ الاخوان من تكلف له » ويقول : « اذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه »، فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والارضاء يخطئون ما انتظروه، ولا سيّما اذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التي اؤتمن اليها. فيحسبون انها الجفوة البيّنة وانه الزهو المقصود وما هو بهذا ولا بتلك. انما هي شجاعة الفارس بلوازمها التي لا تنفصل منها، وانما هو امتعاض المغموط المسيء ظنًا بمن حوله يتراءى على سجيته في غير مداراة ولا رياء. فما كان يتكلف اظهار تلك الخلائق زهوًا كما يسمونه أو جفوةً كما يحسبونها، بل كان قصاراه ألا يتكلف الاخفاء، فإذا التفتَ قاصدًا الى ما في نفسه فهو لا يقصد العجب ولا يرضاه، بل ينهي عنه ويشتد في اجتنابه، ويوصي مَن أحب : « اياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها »..
« واعلم ان الاعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب ».

نعم، كان ملاك الأمر في أخلاق عليّ عليه السلام انه كان لا يتكلف اظهار شيء ولا يتكلف اخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه، فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويّته ويقول له : « أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك ».

* * *

وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة. وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء. كأنه يعني ما يصنع وهو لا يعنيه، وانما يجيء منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها : كان مثلاً يخرج الى مبارزيه حاسر الرأس ومبارزوه مقنّعون بالحديد. أفعجيبٌ منه أن يخرج

إليهم حاسر النفس وهم مقنّعون بالحيلـة والرياء؟ وكان يُغفل الخضاب أحيانًا ويرسل الشيب ناصعًا وهـو لا يحرم خضابه في غير ذلك مـن الأحيان . أفعجيبٌ منه ، مع هذا ، أن يقلّ اكتراثه لكلّ خضاب ساترًا ما ستر، أوكاشفًا ما كشف . من رأي وخليقة؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها .. أو هي قريبة للشجاعة في نفس الفارس النبيل وقلما تفارقُها ، ونعني بها خليقة الصدق الصراح الذي يجترىء به الرجل على الضرّ والبلاء كما يجترئ به على المنفعة والنعماء. فما استطاع أحدٌ قط أن يحصي عليه كلمة خالف فيها الحقَّ الصراح في سلمه وحربه ، وبين صحبه أو بين أعدائه ، ولعله كان أحوج الى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء ، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف. فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء ، حتى قال فيه أقرب الناس إليه : إنه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خدعتها . وكان أبدًا عند قوله « علامة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون في حديثك فضل على علمك ، وأن تتقي الله في حديث غيرك » ..

* * *

وصدق في تقواه وايمانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة لسانه ، فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة دنيا أو سيب دولة ، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير فيقول : « لا احبُّ أن يدخل بطني ما لا أعلم » .. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أميّة التي تبغض عليّا وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات : « أزهدُ الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب » . وقال سفيان : ان عليّا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة » وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة ايثارًا للخصاص التي يسكنها الفقراء. وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام. وروى النضر بن منصور عن عقبة ابن علقمة قال : « دخلت على عليٍّ عليه السلام فاذا بين يديه لبنٌ حامض آذتني حموضته وكسر يابسة. فقلت : يا أمير المؤمنين. أتأكل مثل هذا ؟

فقال لي : يا أبا الجنوب ، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا – وأشار الى ثيابه – فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به ».

ومن هذا الزهد الشديد كان عليّ رضي الله عنه أبعد الناس من كزازة طبع وضيق حظيرة وجفاءِ عشرة ، بل كانت فيه سماحةٌ يتبسط فيها حتى يقال دعابة ، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال له : « لله أبوك لولا دُعابة فيك » وانه قال لمن سألوه في الاستخلاف : « ما أظن الا أن يلي أحد هذين الرجلين : عليّ أو عثمان. فان وليَ عثمان فرجل فيه لين ، وان ولي عليّ ففيه دُعابة ، وأحرَ به أن يحملهم على الطريق ».

وأغرق ابن العاص في وصف الدُعابة فسماها « دعابة شديدة » وطفق يُرددها بين أهل الشام ليقدح بها في صلاح الامام للخلافة ، وانما نقول ان ابن العاص أغرق في هذا الوصف ، وان الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته ، لأن تاريخ علي وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلاً على خلق الدعابة فضلاً عن الدليل على الافراط فيه . فان كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجع ذلك ان عليّا خلا من الشغل الشاغل سنين عدة ، فاعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حيناً الى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون ، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه .

* * *

وقد كانت للامام صفاتٌ ومزايا فكرية تناصي المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية . فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته ، واتفقوا على علمه وفطنته ، وتفرّقوا فيما عدا ذلك من رأيه في علاج الأمور ودهائه في سياسة الرجال .

والحق الذي لا مراء فيه انه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف ، وانه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء ، وانه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء

الذين شرّعوا علم الكلام قبل أن يتطرق اليه علم فارس أو علم يونان .. وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها في عظاته وخطبه شرح الأديب اللبيب ..

الى هنا متفق عليه لا يكثر فيه الخلاف ، ثم يفترق الناس في رأيه رأيين وان لم يكونوا من الشانئين المتحزبين ، فيقول أناس انه كان على قسط وافرٍ من الفهم والمشورة ، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضي به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه . ويقول أناس بل هو الاضطرار والتحرّج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه ، وانهم لدونه في الفطنة والسّداد . وهو رضي الله عنه قد اعتذر لنفسه بمشابه من هذا العذر حين قال : « والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس » .

أما مقطع الرأي بين الرأيين فنرجو أن نفصّله في مواضعه من الفصول التالية مشفوعًا بمناسباته ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقتين تجملان ما نبسطه في مواضعه من الكتاب ، ولا نحسبها تتسعان لجدال طويل ، وهما ان أحدًا لم يثبت قط ان العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجع في فض المشكلات من العمل برأي الامام ، وان أحدًا لم يثبت قط أن خصوم الإمام كانوا يصرفون الأمور خيرًا من تصريفه ، لو وضعوا في موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التي اصطلحت عليه . وكلتا الحقيقتين حرية أن تضبط لسانَ الميزان قبل أن يميل فيغلو به الميل هنا أو هناك .

* * *

هذه صفاتٌ تنتظم في نسق موصول : رجل شجاع لأنه قوي ، وصادق لأنه شجاع ، وزاهد مستقيم لأنه صادق ، ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور ، واصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق ان الناس قد أثبتوا له في حياته أجمل صفاته المثلى ، فلم يختلفوا على شيء منها الا الذي اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات ، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه الى صميم .

مفتاح شخصيّته

« آداب الفروسية » هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج الى تفسير.

وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي نلخصها في كلمة واحدة وهي النخوة..

وقد كانت النخوة طبعًا في عليٍّ فُطر عليه، وأدبًا من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التي يتعودها كل فارس وشجاع متغلب على الأقران، وان لم يُطبع عليها وينشأ في حجرها. لأن للغلبة في الشجاع أنفة تأبى عليه أن يسف الى ما يخجله ويُشينه، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلمًا، وتمنعه أن يعمل في السر ما يزري به في العلانية.

وهكذا كان عليٌّ رضي الله عنه في جميع أحواله وأعماله: بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء. فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة، ولم يساوره الريب قط في الشرف، والحق انهما قائمان دائمان كأنهما مودعان في طبائع الأشياء. فاذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم، وان أفادوا كثيرًا وباءَ هو بالخسار.

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف، ولم يرد أن يغلبه أو يقتص منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص..

قال بعض من شهدوا معركة صفين: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين

وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستويًا بساطًا واسعًا وأخذوا الشريعة – أي موردَ الماء – فهي في أيديهم. وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء. ففزعنا الى امير المؤمنين فخبرناه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال له : إئت معاوية وقل له انا سرنا مسيرنا هذا اليكم ونحن نكره قتالكم قبل الاعذار اليكم، وانك قدمت الينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها اذ حلتم بين الناس وبين الماء. والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث الى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له.. »

ثم قال راوي الخبر ما معناه ان معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين عليّ وبين المورد غير حافل بدعوته الى السلم ولا بدعوته الى المفاوضة في أمر الخلاف. فأنفذ معاوية مددًا الى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه، ثم كان بين العسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرماح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب عليّ طريق الماء وملكوه.

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء عليّ أن يهتبلها، وأن يغلب أعداءه بالظمأ كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة.. وقد جاءَ أصحابه يقولون : والله لا نسقيهموه. فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم. وصاح بهم : « خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا الى عسكركم وخلوا عنهم، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم ».

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه انصافًا لأعدائه، لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال. قالوا : أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟.. فقال : « انما القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر، وسنّ لهم سنَّة الفروسية أو سنة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترًا ولا يمدّوا يدًا الى مال.

ومن الفرص التي أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى

على الارض مكشوف السوأة لا يبالي أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء. فصدف بوجهه عنه آنفًا ان يصرع رجلاً يخاف الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازله في مجال صراع. ولو غير عليّ أتيح له أن يقضي على عمرو لعلم انه قاض على جرثومة عداءٍ ودهاءٍ فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به، ولا جناح عليه.

* * *

لقد كان رضاهُ من الآداب في الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها.

فكان يعرف العدّو عدوًا جيثما رفع السيف لقتاله ولكنه لا يعادي امرأةً ولا رجلاً موليًا ولا جريحًا عاجزًا عن نضال ولا ميتًا ذهبت حياته ولو ذهبت في سبيل حربه.. بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلي عليه.

وهذه الفروسية هي التي بغضت اليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام.

فلما سمع قومًا من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم: « اني أكره أن تكونوا سبَّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم اياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضَلالهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به ».

وربما شذ عن سنته هذه في بعض الأحايين فاذا به لا يشذ عنها الاّ كما يشذ الفرسان حين تغلبهم بوادر اللسان.. فندر بين رجال السيف من يسمع الكلمة المغضبة فلا ينطق لسانه بكلمة عوراء يجاري بها غضبه الذي طبع على ابدائه ولم يطبع على كتمانه.

ومن قبيل هذا كلمات قالها عليّ في ابن العاص وفي معاوية وفي الأشعث بن قيس وغير هؤلاء. ولكنه لم يجعلها ديدنًا له كما سبوه على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار.

شغب عليه الأشعث بن قيس ومرّد عليه الجند وأفشى بين أنصاره الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبه وهاج غيظه فبدره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين : حائك بن حائك ، منافق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرة والاسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مَالك ولا حسبك ، وان امرأً ولىّ على قومه السيف وساق إليهم الحتف لحريّ أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد » .

* * *

وطفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسبه على المنابر حتى وجب ردّه وادحاض زعمه . فقال رضي الله عنه في بعض خطبه : عجبًا لابن النابغة ! .. يزعم لأهل الشام ان في دعابةً . اني امرؤ تلعابة : اعانس وامارس[1] . لقد قال باطلاً ونطق آثمًا . أما — وشرّ القول الكذب — انه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيبخل ، ويخون العهد ويقطع الآل[2] ، فاذا كان عند الحرب فأيُّ زاجر وآمر هو مالم تأخذ السيوف مآخذها . فاذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سبته . أما والله اني ليمنعني من اللعب ذكر الموت . وانه ليمنعه من قول الحقّ نسيانُ الآخرة . انه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتيه آتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة[3] .

وكذلك كان يجبه معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون عليه بما يغض من حقه ويقدح في دعوته . فلا يشذ عن ديدن الفرسان في رويّة فكره ولا بوادر لسانه ، ولكن الفلتات التي من هذا القبيل شيءٌ واتخاذ السباب صناعةً دائمة وسلاحًا مشهورًا وسبيلاً الى القول الباطل شيءٌ آخر ..

ولقد كانت للامام رضي الله عنه شواغل أخرى غير الفروسية تجري في مجراها حينًا وتبدو غريبة عنها حينًا آخر في عرف بعض الناقدين ، ومنها التفقه والنزوع الى

---

(١) المعانسة : مضاربة الناس مزاحًا ومغازلة النساء .

(٢) الآل : القرابة والرحم .

(٣) الآتية : العطية . ومثلها الرضيخة مع قلة .

« التصوّف » واستنباط حقائق الأشياء.

* * *

فهذه في عرف في بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسية على ظاهر ما قدّروه.. ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة.. ؟ أليس هو في معدنه جهادًا في الحق أو جهادًا في الله.. ؟ أليست طبيعة الجهاد وطبيعة الفروسية من معدن واحد.. ؟ ألم نعهد في كل ملة وكل زمان فئات من الناس يجاهدون لأنهم متدينون متنطسون، أو يتدينون ويتنطسون لأنهم مجاهدون.. ؟

فالامام عليّ رضي الله عنه فارس لا يخرجه من الفروسية فقه الدين بل هو أحرى أن يسلكه فيها. ولا يخرجه من الفروسية بعض المقال في خصومه بل هي بوادر الفرسان بعينها، ولا تزال آداب الفروسية بشتّى عوارضها هي المفتاح الذي يدار في كل بابٍ من أبواب هذه النفسِ فاذا هو منكشف للناظر عمّا يليه.

إسلامه

ولد عليّ في داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكأنما كان ميلاده ثمة ايذانًا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها.

وكاد علي أن يولد مسلمًا..

بل لقد ولد مسلما على التحقيق اذا نحن نظرنا الى ميلاد العقيدة والروح، لأنه فتح عينيه على الاسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام.

فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجته الطاهرة قبل ان يعرفها من صلاة أبيه وأمه، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة. فكان ابن عم محمد عليه الصلاة والسلام وربيبه الذي نشأ في بيته ونعم بعطفه وبره. وقد رأينا الغرباء يحبون محمدًا ويؤثرونه على آبائهم وذويهم. فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جَدٌّ، ويجمعه به بيت، ويجمعه به جميل معروف: جميل أبي طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسه ابن أبي طالب ويأوي إليه..

واختلفوا في سنه حين اسلامه من السابعة الى السادسة عشرة، ولعله أسلم في نحو العاشرة لأنه كان يناهزها عند اعلان الدعوة المحمدية، وكان النبي عليه السلام يتعبد في بيته عبادة الاسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة، وليس ما يمنع عليًّا أن يألف تلك العبادة في طفولته الباكرة.

فاذا هو نفر منها وأعرض عنها لغير سبب في تلك الطفولة الباكرة فالعجيب انه

يعود الى ألفتها والرضا بها بعد أن بلغ السنَّ التي يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد.

ولولا ألفة عليّ لابن عمّه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذي دعي اليه، فقد أصر كثير من أقرباء النبي على الشرك زمنًا طويلاً، منهم عقيل أخوه وأحب اخوته الى ابيه. فحارب المسلمين في بدر ولم يسلم وقد وقع في أسر النبي وصحبه: بل افتداه عمّه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين.

على أن الألفة بين ابنَي العم الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقًا لاسلام عليٍّ في طفولته الباكرة. لأن النبي عليه السلام أبى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وابوه لا يعلم، وأشفق أن يكون برّه بعمه وبابن عمه سبيلاً الى التفرقة بين الأب وابنه وهو لا يدرك ما يفعل، ولم يشأ أن يعود الطفل الصغير أن يخفي سرًّا عن أبيه كأنه يخدعه باخفائه ولو في سبيل الهداية والخير. فظل هذا الحرج الكريم عائقًا عسيرًا أعسرُ ما فيه انه عائق اختيار يهون معه الاضطرار، أو عائق حيرة تقل فيها حيلةُ الكريم. حتى شاع أمر الدعوة المحمدية وعلم بها أبو طالب ونصر ابن أخيه وأمر عليًّا بمتابعة ابن عمه ونصره. فأقبل الغلام البرّ بأبيه وبكافله اقبالاً لا تلجلج فيه على الدين الجديد.

وملأ الدين الجديد قلبًا لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به الى عقابيله.. فبحقٍّ ما يقال ان عليًا كان المسلم الخالص على سجيته المثلى، وأن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق اسلامًا منه ولا اعمق نفاذًا فيه.

* * *

كان المسلم حق المسلم في عبادته، وفي علمه وعمله، وفي قلبه وعقله، حتى ليصحّ أن يقال انه طبع على الاسلام فلم تزده المعرفة الاّ ما يزيده التعلم على الطباع..

كان عابدًا يشتهي العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمرًا مكتوبًا عليه. وكان يرى في كهولته وكأنما جبهته ثفنةُ بعيرٍ من ادمان السجود.

وكان على محجة في الاسلام لا يحيد عنها لبغية ولا لخشية، فكلما زيّنوا له الهوادة أبى « أن يداهن في دينه ويعطي الدنية في أمره » وآثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس..

وكان دينه له ولعدوه، بل له ولعدو دينه، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وآذاه..

وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به الى شريح - قاضيه - يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال : انها درعي ولم أبع ولم أهب، فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين.. ؟ قال النصراني : ما الدرع الا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب !.. فالتفت شريح الى عليّ يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بيّنة !.. فضحك عليٌّ وقال : أصاب شريح. ما لي بينة !.. فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى و« أمير المؤمنين » ينظر إليه.. إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد ان هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يدينني الى قاضيه يقضي عليه !. أشهد أن لا آله الا الله وان محمدًا رسول الله، والدرع والله درعك يا أمير المؤمنين. اتبعت الجيش وانت منطلق الى صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال : أما اذا أسلمت فهي لك. وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاءً في قتال الخوارج يوم النهروان.

* * *

وأحسن الاسلام علمًا وفقهًا كما أحسنه عبادة وعملاً. فكانت فتاواه مرجعًا للخلفاء والصحابة في عهود أبي بكر وعمر وعثمان، وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأيٌ فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء.

الا أن المزية التي امتاز بها علي بين فقهاء الاسلام في عصره انه جعل الدين موضوعًا من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة واجراء الأحكام، فاذا عرف في عصره اناس فقهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه، فقد امتاز عليٌّ بالفقه الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة،

وأمعن فيه ليغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام.

ويصح ان يقال أن عليًّا، رضي الله عنه أبو علم الكلام في الاسلام، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة. فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، وابو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ عليٍّ رضي الله عنه. وأما الأشعرية فانهم ينتمون الى أبي الحسن عليّ بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وأبو علي الجبائي أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء.. أما الفقه فإمامه الأكبر أبو حنيفه قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن محمّد قرأ على أبيه وهكذا ينتهي الأمر الى عليٍّ رضي الله عنه. وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأي، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبدالله بن عباس وقرأ عبدالله بن عباس على عليٍّ رضي الله عنه. وقيل لابن عباس: أين علمك من علم ابن عمّك؟: فقال: كنسبة قطرةٍ من المطرِ الى البحر المحيط.

* * *

قال ابن أبي الحديد: «ومن العلوم عِلمُ الطريقة والحقيقة وأحوال التصوّف. وقد عرفت ان أرباب هذا الفن في جميع بلاد الاسلام اليه ينتهون وعنده يقفون. وقد صرح بذلك الشبلي والجنيد وسري وأبو زيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم. ويكفيك دلالة على ذلك: الخرقة التي هي شعارهم الى اليوم، وكونهم يسندونها باسنادٍ متصلٍ اليه عليه السلام».

* * *

وقد جمع «نهج البلاغة» نماذج شتى من الكلمات التي تنسب اليه ويصح أن تحسب أصلاً «للعلم الالهي» أو لأسرار التصوّف في صدر الاسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الاجنبية. وربما وقع الشك في نسبة بعض الكلمات الى عليٍّ رضي الله عنه لأنها تجمعت بعد عصره بزمن طويل وامتزج بها

ما لا بد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده. ولكن شيئًا على هذا النهج لا بد أن يكون قد صدر منه حقًا حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذي تواترت به الأقوال، وأجمله ابن أبي الحديد فيما تقدم..

* * *

ولنا أن نقول انه كان رضي الله عنه يتتلمذ القرآن الكريم ويستوحيه نصًّا في عرفان اسلامه وتقرير ايمانه. فكانت نظرته الى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ، فكلامه عن الطاووس والخفاش والزرع والسحاب انما هو الدرس القرآني الذي وعاه من أمر الكتاب بالنظر في المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها كالنمل والنحل والطير والأجنة في الأرحام. فهو تلميذ ربّه جلَّ وعلا في قوله عن الخفاش: « من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حي، وكيف غشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نورًا تهتدي به في مذاهبها.. فسبحان من جعل الليل لها نهارًا ومعاشًا. والنهار لها سكنًا وقرارا، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة الى الطيران كأنها شظايا الآذان، غير ذوات ريش ولا قصب.. تطير وولدها لاصقٌ بها لاجىء إليها، يقع اذا وقعت، ويرتفع اذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانه، ويحمله للنهوض جناحه، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه، فسبحان البارئ لكل شيء على غير مثال خلاف غيره».

ومثله قوله عن الطاووس: « ومن أعجبها خلقًا الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل. نضّد ألوانه في أحسن تنضيد، بجناح أشرج قصبه وذنب أطال سحبه. اذا درج الى الأنثى نشره من طيه. وسما به مظلا على رأسه. وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط وتترى وينبت تباعًا. فينحت من قصبة نحتات أوراق الأغصان. ثم يتلاصق ثانيًا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه ».

ونحن لا نستغرب ابتداءَ هذا النمط من النظر الفلسفي على نحو من الأنحاء

في عصر الامام عليّ رضي الله عنه. لأنه كان عهدًا نبتت فيه أصول الفرق الاسلامية جميعًا من الخوارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين في قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب. فأقرب شيء الى المعقول أن يكون امام العصر كله قدوة في الاجتهاد والنظر وعنوانًا للنوازع التي تفرقت بين أهل زمانه وتعبيرًا صادقًا لتفكيره ووعيه، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التي قدمناها وان لم تكن هي اياها بالنص والتفصيل.

ويستقيم مع هذا التقرير أن يكون الامام على سجيته مؤثرًا للاجتهاد ما استطاعه معرضًا عن التقليد ما استغنى عنه، فوافق الخلفاء من قبله في أمور وخالفهم في أمور، وأبى أن يأتمَّ بعملهم فيما يراه وما لا يراه، وأوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال:
«.. اعلم يا بني ان أحب ما أنت آخذ به اليَّ من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك، فانهم لم يدعوا ان نظروا الى أنفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر.. فان أَبَت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم، لا بتورط الشبهات، وعلق الخصومات، وابتدىء قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بالهك، والرغبة إليه في توفيقك، وترك كل شائبة أولجتك في شبهة أو أسلمتك الى ضلالة. فان أيقنت أن قد صفا قلبك. وتم رأيك فاجتمع، وكان همك في ذلك همًا واحدًا فانظر فيما فسَّرت لك..»

وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعريف باسلام عليّ كما ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه.. فانما هو اسلام المسلم «المطبوع» الذي يبتكرْ دينه لأنه يعتمد فيه على وحي بصيرته وارتجال مزاجه، وانما هو اسلام الحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمة والاجتهاد الى رياضة النفس على سنة النساك وتمحيص الفكر على سُنة العلماء، وانما هو اسلام الرجل الذي أتيح له أن أن يتتلمذ لربه ويتربى في حجر نبيِّه ويصبح إمامًا للمقتدين من بعده.

عصر الإمام

كانت الظاهرة الكبرى في عصر « عليّ » ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التي أُريقت في حروبها.

فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الاسلامية.

وعصر عمر كان هو العصر الذي تمَّ فيه انشاؤها.

وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الاسلامي بعد نشأة الدولة الجديدة. فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة، وعلى اساس الولايات التي تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها.

أما عصر عليّ فكان عصرًا عجيبًا بين ما تقدمه وجاء في أعقابه أو هو لم يكن عجيبًا لأنه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجري عليه، فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب لأنه كان بناء جديدًا في سبيل التمام، ولم يكن بناء متداعيًا فكله هدم واندثار، ولا بناء قائمًا مفروغًا منه فكله رسوخ واستقرار.

الا ان العجيب فيه حقًا انه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين: في أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعي والرغبة في بقائه وتدعيمه، وفي الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعي والتحفز لتقويضه وتحويله.

أحدهما، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي، كان قسم معاوية بن أبي سفيان في الشام وما جاورها.

والآخر، وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعي، كان قسم عليّ بن أبي طالب في الجزيزة العربية بجملة أنحائها.

كانت الشام بمعنى من المعاني أرضًا أمويّة في عهد الجاهلية فلجأ اليها أمية جد الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة، وقصد اليها أبناؤه متجردين أو مهاجرين الى ما بعد قيام الدعوة الاسلامية.

ثم قامت الدعوة الاسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبي سفيان ان يتولى الامارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبي بكر الصدّيق، وخلفه اخوه معاوية من قبل الخليفة عمر، فلم يزل مقيمًا على امارتها بضع عشرة سنة الى مبايعة عليّ بالخلافة بعد مقتل عثمان. فاتسع له من فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال ممهد لتأسيس السلطان الأموي الذي لا ينازعه منازع من حوله. ولم يزل منذ تولاها عاملا على البقاء فيها واصطناع الأعوان المؤيدين له في حكمها. فلم يتوان في استرضاء رجل ينفعه رضاه، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الأتباع والأجناد. بل كان يُرضي كل من وسعه ارضاؤه، وقد وسعت ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده او ساع اليه.

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قَصَدَه أقرب الناس الى خصومه وأولاهم باجتنابه والنقمة عليه.. ومنهم عقيل أخو علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وعبدالله بن زمعة، وعمرو بن العاص، وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوي الأخطار.

أراد عقيل من أخيه مالاً يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس له بحق، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول: « ان أخي خيرٌ لي في ديني، ومعاوية خيرٌ لي في دنياي » وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن عليّ والمقربون من معاوية بالنسب والرجاء.

قد همّه ارضاء السواد والعامة، كما همه ارضاء الشرفاء وذوي الأخطار.. « وبلغ من إحكامه للسياسة واتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه ان رجلا

من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن صفين، فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتي أخذت مني بصفين، فارتفع أمرهما الى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته.. فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه. فقال الكوفي : أصلحك الله انه جمل وليس بناقة. فقال معاوية : هذا حكم قد مضى. ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع اليه ضعفه وبرّه وأحسن إليه، وقال له : « أبلغ عليّا أني أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ! »

ولقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الأربعاء واعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها. (١)

فان كان في هذه القصص بعض المبالغة فهي مبالغة الفكاهة الموكلة لتكبير الملامح ليراها من غفل عنها، وليست مبالغة الخلق والافتراء.

وما هي إلا سنوات على هذه الوتيرة حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعي الجديد، راغب في تدعيمه ووقايته من نُذر الخطر والزوال.

وعلى قدر هذا الدأب الشديد في اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله في اتقاء أسباب التمرّد، والاخلال بالنظام، كما نسميه في هذه الأيام..

فما سمعت قط صيحة فتنة الا بادر اليها بما يسكنها ويردها الى طلب الاستقرار والدوام. فمن أجدى معه المال أسكته باغداق المال عليه، ومن كان من أهل الجد والاخلاص في العبادة والزهادة فهو محتال على اقصائه أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه في المصلحة ولا تعيبه.

حنق بعض الزهاد على هذا الترف الذي استفاض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صيحة أبي ذر الغفاري بالنكير، وطفق يطالب الأغنياء بالانفاق في سبيل الله. حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأغنياء ما يلقونه من نذيره أو بشيره : « وبشرّ

(١) مروج الذهب للمسعودي : الجزء الثاني.

الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ».

فاشفق معاوية من مغبة هذه الصيحة وأرسل الى أبي ذر ألف دينار يسكته بها ان كان ممّن يسكتهم الغنى عن الأغنياء، فما طلع النهار حتى كانت الدنانير في أيدي المعوزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون إليه. ثم صلى معاوية الصبح وأرسل الى الداعية رسوله الذي حمل إليه الدنانير يقول له : « أنقذ جسدي من عذاب معاوية فانه أرسلني الى غيرك فأخطأت بك. فقال له : يا بنيّ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار.. ولكن أخرنا ثلاثة ايام حتى نجمعها ».. فعلم معاوية أن الرشوة هنا لا تغني عن القسوة. وكتب الى الخليفة ان أبا ذرّ أعضل به فلا طاقة له بالصبر عليه، فأتاه الاذن بنفي أبي ذرّ من الشام الى المدينة، ثم ضاقت به المدينة ايضاً فنفي منها الى قرية من أرباضها حيث لا يُسمع له دعاء.

* * *

وصنع بعبدالله بن سبأ – صاحب القول برجعة النبي الى الدنيا ووصاية عليّ على الخلافة – مثل هذا الصنيع بعد ان داراه فأعياه، فلما يئس منه ومن ترغيبه او ترهيبه ضيَّق عليه ثم اقصاه.

والتفت الى من سمّاهم أهل الفتنة من طلاب الاصلاح والتبديل فكتب في امورهم إلى الخليفة يقول : « انه قدم عَلَيّ اقوام ليست لهم عقول ولا أديان. أضجرهم العدل. لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة. إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم، وليسوا بالذين ينكون أحداً الا مع غيرهم. »

ثم أخرجهم من دمشق إلى غيرها مستريحاً منهم بالنفي والإقصاء، كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هي التي ينبغي لها أن تستريح.

وهكذا تعاقبت السنون وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب الرضا والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح الى التغيير، حتى تحيزت له الشام عند مبايعة عليّ وفيها أعظم ما يتأتى في مثل ذلك العهد من دواعي السكينة واستدامة الحال، واقل

ما يتأتى فيه من شواجر الفتنة والعصيان..

أما علي فقد شاءت المصادفات أن تنعكس الآية في حصته من الدولة الاسلامية أيما انعكاس. فأوشكت أن تنعدم فيها دواعي الرضا والاستدامة، وأوشكت أن تتم فيها شواجر الفتنة وما نسميه اليوم بالاخلال بالنظام..

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة، لا يرضى أهل المدينة بما يُرضي أهل مكة، ولا يَرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهؤلاء. حتى ضاق به المقام في الحجاز وأوى الى الكوفة مأوى «المستجير من الرمضاء بالنار».

* * *

وكانت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة، وينظرون إليهم نظرتهم الى القوي المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة. وهي حالة كان أحجى بالولاة أن يخفوها ويتلطفوا في اصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من اصلاح وتبديل، ولكنهم على نقيض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والي الكوفة: «انما السواد بستان لقريش!».

وظهر هذا السخط من إثرة قريش في خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين عليّ وأنصاره، فقام في الجمع رجل من عبد القيس يقول:

«يا معشر المهاجرين!. انتم أول من أجاب رسول الله ﷺ فكان لكم بذلك فضل...» الى أن قال يشير الى خلافة أبي بكر: «ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله المسلمين في إمارته بركة، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا في ذلك. فرضينا وسلمنا. فلما توفي جعل أمركم الى ستة نفر فاخترتم عثمان، وبايعتموه عن غير مشورة منا، ثم بايعتم عليًّا من غير مشورة منا. فما الذي نقمتم عليه فنقاتله؟».

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه في صدر مقاله فكيف بكلام

الرجل ممن ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به في معرض الخصومة؟ .. ولعل النافثين بهذا الغيظ كانوا يثوبون الى بعض الصبر والتجاوز لو انهم وجدوا من يشكون اليه فيحسن الاصغاء والاعتراف لهم بالحق في دعواهم، ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم الى الصمت راغمين. فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا ان حمته عشيرته وصحبه. ثم وثبوا عليه في الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين.

* * *

وكان العبيد والموالي والأعراب المحرومون حانقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الاسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الانصاف. ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالي والأعراب المحرومين. فلما طولب عليّ بالاقتصاص منهم لمقتل عثمان قال: .. «**كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم** يسومونكم ما شاءوا فهلا ترون موضعًا لقدرة على شيء مما تريدون».

وقالت السيدة عائشة، رضي الله عنها: «أيها الناس!. ان الغوغاء من أهل الأمصار واهل المياه، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلمًا بالأمس. والله لأصبع عثمان خير طباق الأرض أمثالهم.»

* * *

وكان مع عليّ جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة، وهم خلق كثير يعدون بالألوف ويتفرقون في الحواضر والبوادي. ولا يزالون كأنبياء بني اسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين، منكرين لكل خلاف ولو يسير في اقامة أحكام الدين. لا يرضون عن الدنيا ولا عمن رضي بها من طلابها، ولا يستمعون الى أمر الا أن يكون في رأيهم وفاقًا لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة كما يعتقدونها. وطالما وقفوا بين عليّ وبين القتال لأنهم لا يستجيزونه، أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجلون القرآن عن قبوله. فاذا كان أجناد معاوية يسمعون

الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة، فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون الا ما أجازوه واستوجبوه، لأنهم خرجوا في الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر. فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسالمون في جماعة. وهم أقرب الناس في ذلك العهد الى الجهر بالنذير والنداء بالتبديل والتغيير، والاصغاء الى وحي الضمير قبل دعاء الأمير.

واجتمع مع عليّ في الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع اليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزحمونه عليها، فمنهم من كان يقول لعليٍّ : نبايعك على أنا شركاؤك، ومنهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليّا باسم عثمان، تمحُّلاً لذرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور..

* * *

وقد كان أبو بكر وعمر يمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشجر بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها. ثم ينصدع شملِ الأمة بالتشيع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلاً :

« .. احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحبّ كل امرىء منهم نفسه، وان منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فإياك أن تكونه، وأعلم انهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله » ..

فلما صارت الخلافة الى عثمان أهمل السياسة الحكيمة وشقّ عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب، وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن عوف : « ورأيتم الدنيا قد أقبلت .. حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضجاع على الصوف الأذربي[1] كما يألم أحدكم اذا نام على حسك السعدان ».

(١) منسوب الى اذربيجان.

روى المسعودي انه «في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة وبلغ ثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مربط عبدالرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته اربعة وثمانين ألفًا، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسّر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضياع. وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة والاسكندرية.. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيّد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج، وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصّصة الظاهر والباطن، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارًا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم».

* * *

هؤلاء أيضا اصبحوا في حصة عليّ من الدولة الاسلامية عنصرًا من أقوى عناصر القلق والتبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة، خلافًا لأمثالهم في معسكر معاوية.

فالذي يغلب على اصحاب الثروات في كل مجتمع انهم انصار الحالة القائمة واعداء الثورة والاضطراب السياسي او الاجتماعي على التخصيص، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود في مجتمع عليٍّ فأصبحوا قادة السخط والشكوى واعوان الثورة والتغيير ولو في سرائر القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهور في الثورة بفعل محسوس. لأنهم عرفوا عليًا من قبل ومن بعد فعلموا انه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد.

عرفوا مذهبه في حساب الولاية ومذهبه في حساب الخلافة. فلما كان واليًا لليمن أبى على بعض الصحابة أن يركبوا إبل الصدَقَةِ وقال لهم: انما لكم منها سهم

كما للمسلمين، ثم لام العامل الذي أذن لهم أن يركبوها في غيبته وهو منصرف الى الحج. وشاعت هذه القصة لأن أناسًا شكوه الى رسول الله عليه الصلاة والسلام، فأنكر شكواهم منه وقال: « لقد علمت انه جيش في سبيل الله ».

* * *

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب عليّ عليه، لأنه أباح للعمال والولاة ما ليس بمباح في رأيه، ولقي بالعتاب كل صحابيّ من اخوانه جمع مالاً واستهوته فتنة البذخ والثراء.

وليس مذهبه واليًا ولا مذهبه خليفةً بمريح أولئك الأغنياء الذين ذاقوا حلاوة الغنى وكرهوا ان يحرموه أو يحاسبوا عليه.

ولم يكن في وسع عليّ أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك، وهو لا يشاؤه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره. لأنه اذا غض نظره لم يستطع أن يغض الأنظار المفتوحة التي ثارت بعثمان وبايعت عليًا بعده ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه.

فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون، ولا دعاة الدين راضون مطيعون، ولا الفقراءُ والجهلاء راضون مطيعون، وما منهم الا من هو قَلق متوفز لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار.

وكل أولئك كانوا في حصة عليٍّ من الدولة الاسلامية، ولم يكن لمعاوية في حصته شاجرة فتنة من هذه الشواجر بل كان له في موضع واحدة منها دعامة تمكين وتأييد.

وان هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفي غنى عن علة اخرى من علل الفساد والشقاق تضاف اليها.

ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التي اصطلحت على حصة عليّ من الدولة الاسلامية. فقد اضيفت اليها علة اخرى، بل اضيفت اليها اكثر العلل التي تبتلى بها دولة أو حكومة. وهي اعتمادها في مواردها على غيرها..

فكانت موارد الشام في الشام نفسها من خراج أو انفال او تجارة. اما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وان دخلت في طاعته وجنحت الى القائم بالأمر فيه. وكانت مصر والسواد من حصة عليّ، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيرًا لتعاقب الولاة فيها، ولم يستفد بالسواد كثيرًا لتعاقب الفتن والغارات عليها. وحسبك من هذا داعية قلق وباعث مخافة ومبطل امان وطمأنينة.

* * *

وينبغي أن نذكر ان الحيلة في هذه التقسيم قليلة، وان الحوادث هي التي اختارت لكل حصة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم الى ولاية أمرها و «كما تكونوا يُولّ عليكم».. ولا محل في هذه القاعدة لحيلة أو اختيار..

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقاة من معاوية، ولم يكن أحد أشبه من عليّ بقيادة الشكوى التي تطمح بأصحابها الى التغيير..

ان شكا اناس غلبة قريش، فعليٌّ كان يشكو منها ويظن الظنون بحقدها عليه ونكرانها لحقه، ويقول في كتاب من كتبه الى أخيه: «... ودع عنك قريشًا وتركاضهم في الضلال وتحولهم في الشقاق، فان قريشًا قد أجمعت على حرب أخيك اجماعها على حرب رسول الله ﷺ قبل اليوم...»

وان جاءت صيحة الاصلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب الحفّاظ والقرّاء والنساك فعليّ كان إمام أهل العلم والقراءة، وأحق من يتكلم بتفقيه او تفسير.

وان جاءت من ضيم الفقراء فعليٌّ فقير، او من تهافت الولاة على المال فعليّ يبغض هذا التهافت كما يبغضه اضعف الفقراء، عن زهد فيه لا عن قلة الوسائل اليه..

فما شكا شاكٍ قط الا وعليّ شريك له في شكواه. وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التي قامت على التبرم بالحال والطموح الى التغيير؟.. وأية حيلة له الى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير؟..

* * *

كان عليّ نموذج أصحابه الأعلى، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى. وكان لأجل ذلك في موضع رشحتها له الحوادث قسرًا قبل أن يرشحا له بارادة مريد.

وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما في الرأي والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبدًا، وما لم نذكر أبدًا أن أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه، وان الآخر كان يعمل والحوادث عُدّة في يديه!..

البيعة

بُويع لعليّ بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية في تاريخ الاسلام ، وهي مقتل الخليفة عثمان بن عفان في شيخوخته الواهنة ، بعد أن حصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام..

وأفجع ما كان في هذه الحادثة ، انها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد في اتقائه لأن المسؤولين عنه كثيرون متفرقون في كل جانب يناصره أو يعاديه.. فاذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء ، واذا بطل الشر الذي فيه اختيار لم يبطل الشر الذي لا اختيار فيه ، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوين متساويين. فمن الأعمال المؤسفة التي عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليست هي في تعجيلها ولا في سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء..

مضت السنون الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضي في عهد خليفة.

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعي ومن جانب الرعية. لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها. وان ظهرت عواقبها طارئات.

وتتعدد الأسباب التي أوجبت ذلك التغيير بعد السنوات الأولى ، ولكنها قد تنحصر في سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ، وهما امعان الخليفة في الشيخوخة. واستمراء الأعوان لما تعودوا به من لين الخليفة ولين الرغد والمتاع.

ولقد كتبت الأسفار المطولات في احصاء المآخذ على عثمان رضي الله عنه، وكتبت الأسفار المطولات في تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعذار وتفسيرها على أحسن الوجوه، لأن المسألة خرجت من عداد المسائل التاريخية، وانتقلت الى ميدان النزاع بين الأحزاب والمذاهب وأقاويل الجدل والحجاج.. فجعلها الشيعيون وأهل السنة ذريعة الى تأييد مذهب وانكار مذهب في الخلافة والخلفاء، وراح الأولون يبالغون في الاتهام كما يبالغ الآخرون في الدفاع. ولا طائل هنا من شرح هذا وذاك، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن.. وانما المرجع فيه الى تاريخ عثمان..

الا اننا نجتزئ هنا بالاشارة الى التذمر الذي أثار الفتنة، والالمام بأسبابه عند اصحابه.. فمما لا شك فيه انهم تذمروا لأسباب تثيرهم وان طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطأ والصواب.

أهم هذه الأسباب، أنه خالف بعض السنن التي اتبعها النبيّ عليه السلام في الأذان والصلاة، وأنه أدنى اناسًا من اقاربه كان رسول الله عليه السلام قد اقصاهم عن المدينة.. فاستدعاهم اليه بعد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال، وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته في الولاية والعمالة، ومنهم من اتهموه باقامة الصلاة وهو سكران، وانه منح سفيان بن حرب مائتي الف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج بنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال، وانه توسع في بناء القصور، وحرم بعض الصحابة، وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب اهانة وايجاع..

ولم تنقض سنوات على هذه الحال حتى كثر المترفون من جانب والمتربون من جانب آخر، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائمًا في امثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء والتزيد بالتهم واللجاجة، واضافة الأوهام الى الحقائق في خلق ذرائع الخلاف والشحناء.

ويدل على خطر مسألة الثروة في هذه الفتنة. ان الناس تألبوا على الخليفة مرة. فأرسل في طلب عليّ ليصرفهم عنه. فلما قدم اليه استأذنه في اعطائهم بعض الرفد العاجل من بيت المال، فأذن له. فانصرفوا عن زعماء الفتنة. وهدأوا الى حين.

ثم توافد المتذمرون من الولايات الى المدينة مجندين وغير مجندين.

وتولى زعامة المتذمرين في بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة، كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على مآخذ الخليفة. فلما حملها عمار بن ياسر اليه، غضب وزيره مروان بن الحكم، وقال له: «أن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس. وانك ان قتلته نكلت به من وراءه» فضربوه حتى غشي عليه.

وفي مرات أخرى، كان الخليفة يصغي الى هذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه، ثم يعلن التوبة الى رعاياه، ويؤكد لهم الوعد باقصاء أولئك الأعوان وإخلافهم في أعمالهم بمن يرضي المسلمين، ويرضي الله.

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته، فيبقيهم حيث كانوا ويملي لهم فيما تعودوه من الترف والنكاية، وعلى رأسهم مروان بن الحكم، أبغض أولئك الأعوان الى المسلمين، حتى من أهل الخليفة المقربين.

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم، فاذا عادوا إلى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضربًا على ملأ من الشاكين الذين ينتظرون الانصاف. فيعود المضربون الى الشكوى، وينصرهم اجلاء الصحابة عند الخليفة، ويسألونه أن يولي عليهم غير واليهم المسيء اليهم. فاذا توجه الوالي الجديد الى مكانه، اذا في الطريق رسول يحمل خطابًا للوالي المعزول، يأمره فيه بقتل من يفد اليه من حاملي الشكوى وحاملي كتاب الولاية، ويقره في مكانه!

حدث هذا مع وفد مصر، واختلفت الأقاويل في تأويله من متهم للخليفة، ومتهم لمنافسيه على الخلافة، ومتهم لوفد الشكوى الذي عثر بالخطاب، ومتهم لمروان بن الحكم – عنصر السوء في هذه المأساة كلها – وهو أَولى الأقاويل بالترجيح والتصديق، اذ كان ايسر شيء على مروان لوكان بريئًا من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب، وفي كشف هذه الحقيقة ابراء له، وتعزيز لسلطان الخليفة، وفضيحة لأعدائه، وارحاض لحجة الفتنة، ودعوة الاثارة والتحريض. ولكنه أهمل السؤال، وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه.

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتحاجزون. لا هم في حرب، ولا هم في سلام..

وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر، زاد الخليفة ضعفاً، وزاد الثوار ضراوة، وزاد التوجس بينهم استفحالاً واتسع مع التوجس مجال السعاية والارجاف بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله.

وتوسط عليٌّ بين الخليفة والثوار، فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين.

فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة عليّ.. ومنهم من يسيء الظن، ويرى ان الخليفة إنما يستمهلهم في انتظار المدد الذي طلبه من الأمصار.

وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى.

وتفاقمت الفتنة، وأحاط الثائرون ببيت عثمان. لا يقنعون في هذه الكرة الا أن يعتزل، أو يسلمهم مروان بن الحكم، او يعزلوه عنوة.

وجاء في رواية «شداد بن أوس» ان عليّا رضي الله عنه، خرج من منزله يومئذ معتمًا بعمامة رسول الله متقلدًا سيفه، امامه الحسن وعبدالله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه عليّ. وقال بعد تمهيد وجيز: «.. لا ارى القوم الا قاتليك، فمرنا فلنقاتل» فقال الخليفة: «انشد الله رجلا رأى لله حقًا، وأقر أن لي عليه حقًا، ان يهرق في سبي ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فيّ» فأعاد عليّ القول، فأعاد عليه هذا الجواب. ثم خرج من عنده الى المسجد، وحضرت الصلاة فنادوه: «يا أبا الحسن. فصلِّ بالناس» فقال: «لا اصلي بكم والامام محصور، ولكني أصلي وحدي». ثم صلى وحده وانصرف الى منزله، وترك ابنيه مع أبناء زمرة من الصحابة في حراسة دار الخليفة، ليعلم الثوار انهم معتدون على كل ذي خطر في الاسلام ان وصلوا الى الخليفة باعتداء. عساهم ان علموا ذلك أن يتهيبوا المركب، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه.

الا ان الثوار علموا انهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاولة فتسوروا الدار

وولغوا في دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لعز عليهم أن يسفكوه

* * *

وللافاضة في مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل، مكان غير هذا المكان، وكتاب غير هذا الكتاب.

فانما نحن في صدد الموقف الذي وقفه عليٌّ من هذه الجريمة، وما ينم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريرته وجهره. وانما يعنينا هنا أن نسأل: أكان عليه وزر في هذه الجريمة؟. أكان في مقدوره عمل صالح يعمله لانقاذ عثمان من هذا المصير؟.

ونحن لا نسأل هذا السؤال لنرجع في جوابه إلى جدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين. فقد سال في الخلاف على هذا السؤال دم غزير ومداد كثير. وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور الذي لا ريَّ فيه.

ليس علينا هذا، لأننا نستطيع أن نعبره الى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها، وفيها الغنى – ولو بعض الغنى – عن الاسهاب في السؤال والجواب.

فالحقيقة التي لا يطول فيها الريب، ان عليًا رضي الله عنه لم يكن أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه، لو شاء عثمان أن يستمع الى بعض الناصحين اليه.

فقد كان معاوية واليًا عزيزًا، له جند يرسله الى الخليفة فيحميه في الشدة اللازمة وان أباه، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعليٍّ ولا لأحد من خلصائه. وكان هو أقمن أن يميل بعثمان الى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة الى مكة أو الشام. لو أرادَ.

وكان في وسع عثمان أن يرحل الى مكة. وهي آمن له من المدينة. أو يرحل الى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار في العصيان.

أما عليّ فقد كان موقعه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب.

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجماح ، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس. كلما حيل بينها وبين الانطلاق.

كان ناقدًا لسياسة عثمان وبطانته التي حجبته عن قلوب رعاياه. ناصحًا للخليفة باقصاء تلك البطانة ، وتبديل السياسة التي تزينها له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالاقلاع عنها.

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث ، كلما هجم الثوار على تلك البطانة ، وهموا باقصائها عنوة من جوار الخليفة.

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعي في الاصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار.

ولم يكن في العالم الاسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاص !

وضاعف هذا الحرج الشديد الذي كان يلقاه في كل خطوة من خطواته ، انه لم يكن بموضع الحظوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب الاصغاء الى الرأي والعمل بالمشورة. وانما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأولى بين المقربين اليه.. لا ينجو من احدى جناياته التي كان يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود الى الخليفة فيوقع في روعه ان عليًا واخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب الثائرين عليه ، وانه لا أمان له الا أن يوقع بهم ويعرض عنهم. ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه ، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة في دوامه.

ففي المؤتمر الذي جمعه الخليفة للتشاور في اصلاح الأمر وقمع الفتنة ، ولم يكن عليٌّ مدعوًا ولا منظورًا اليه بعين الثقة والمودة. بل كان المدعوون الى المؤتمر من اعدائه والكارهين لنصحه. وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبدالله بن أبي سرح وعبدالله بن عامر وسعيد بن العاص ، وهم في جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم عليّ وجمهرة الصحابة ، وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار.

قال لهم عثمان : « ان لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وانكم وزرائي ونصحائي

وأهل ثقتي. وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا اليَّ أن أعزل عمالي، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الي ما يحبون. فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ».

قال معاوية: «أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم، وأنا ضامن لك ما قبلي».

رأي رجل يريد أن يحتفظ بولايته، ولا يريد أن يغضب أحدًا من أصحاب الولايات في غير مصره.

وقال عبدالله بن عامر: «رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمهرهم في المغازي حتى يدلوا لك. فلا تكون همة أحدهم الا نفسه.»

رأي رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها، ثم هو لا يبالي أن يخلق جهادًا تسفك فيه الدماء في غير جهاد مطلوب.

وقال عبدالله بن سعد: «أرى يا أمير المؤمنين ان الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم».

رأي رجل يشتري الرضا بالرشوة، ويستبقي ما في يديه منها.

وقال عمرو بن العاص، وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع في ولاية يرجوها: «أرى انك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزم أن تعدل. فإن أبيت، فاعتزم أن تعتزل. فان أبيت، فاعتزم عزمًا وامض قدمًا».

رأي رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار، ولهذا بقي حتى تفرق المجتمعون. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره: «والله يا امير المؤمنين لأنت أعز عليَّ من ذلك. ولكني قد علمت ان سيبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي. فأقود إليك خيرًا وأدفع عنك شرًا...»

* * *

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلازمه ويكفل لهم ان يحجب النصحاء عنه، وفي مقدمتهم عليّ واخوانه.

ثم تفرّق المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل إلى عمله ، وأمره بالتضييق على من قبله ..

فكانت حيلة عليّ في تلك المعضلة العصيبة جد قليلة ، وكان الحول الذي في يديه أقل من الحيلة .

الا انه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين ، معصوب بالتبعتين ، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن الثوار أمام الخليفة ..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة ، يتخطون الخليفة اليه ويعرضون الخلافة عليه . فلقيهم أسوأ لقاء ، وأنذرهم لئن عادوا اليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم ، جزاء العصاة المفسدين في الأرض .

وجاءوه مرة أخرى وحجتهم ناهضة ، ودليل التهمة التي يتهمون بها بطانة عثمان في أيديهم . جاءوه بالخطاب الذي وجدوه في طريق مصر مع غلام عثمان ، يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيرًا وأجابهم الى تولية العامل الذي يرضيهم . فلم تخدعه حجتهم الناهضة ، ولم يشأ أن يملي لهم في ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه . وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين ، فقال لهم : « وما الذي جمعكم في طريق واحد ، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم الى وجهة ؟ » .

* * *

وكانت حيرة عليّ بين التقريب والابعاد ، اشد من حيرته بين الخليفة والثوار . فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه ، ويستدعى اليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك ، قال لابن عباس الذي حمل اليه رسالة عثمان بالخروج الى ماله في ينبع : « يا عباس . ما يريد عثمان الا أن يجعلني جملاً ناضحًا بالغرب – اي الدلو – أقبل وادبر . بعث اليَّ أن أخرج ، ثم بعث الي أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث اليَّ أن أخرج . والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثمًا » .

ثم بلغ السيل الزبى ، كما قال عثمان رضي الله عنه ، فكتب علي يذكر له ذلك

ويقول : ان أمر الناس ارتفع في شأني فوق قدره. وزعموا انهم لا يرجعون دون دمي وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه.

فان كنت مأكولاً فكن خير آكل والا فأدركني ولما امـــــزق

فعاد علي، وجهد في انقاذ الخليفة جهده، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلي به أطباؤه. فكلهم يريد تغييرًا يأتي من قبل الغيب. أو يأتي من قبل الآخرين ولا يغير شيئًا من عمله أو مستطاعه. ولعل الخليفة لو شرع في التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظم جدوى، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها، وامتناع التوفيق والصفاء بعدما وقر في النفوس ولغطت به الأفواه.

وعد الخليفة وعده الأخير. ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال.

وأحاطت به بطانته كدأبها في أثر كل وعد من هذه الوعود، تنهاه أن ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه، ان هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه.

وكانت المرأة أصدق نظر من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها العقول. فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء عليّ والاعراض عن هذه البطانة، ولم يكن أيسر على بطانته من اقناعه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة ضعيفة. فكان مروان يقول له : « والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها ».

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس، فلا يكلمهم الا بالزجر والاصرار. كما قال لهم يومًا : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب. شاهت الوجوه. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا. ارجعوا إلى منازلكم. فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا ».

اذن بطلت الروية، ولم يبق الا لحظة طيش لا يدرى كيف تبدأ، ولا يؤتى لأحد اذا هي بدأت أن يقف دون منتهاها.

* * *

هجم الثوار على باب الخليفة، فمنعهم الحسن بن عليّ وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة.

واجتلدوا فمنعهم عثمان، وقال لهم: «انتم في حلّ من نصرتي» وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله. ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان ان يعتزل، فرماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله، فجنّ جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان، وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم: «لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي.» وعزَّ على الثوار أن يدخلوا من الباب الذي كان قد أغلق بعد فتحه، فاقتحموا الدار من الدور التي حولها. واقدموا على فعلتهم النكراء بعد احجام كثير.

لو لم تقع الواقعة في هذه اللحظة الطائشة، لوقعت في لحظة غيرها لا يدرى كيف تبدأ هي الأخرى. فانما هي بادرة واحدة من رجل واحد تسوق وراءها كل مجتمع حول الدار من المهاجمين أو المدافعين، ولا أكثر من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأي، ومدافعين لا يضبطهم عنان..

ونقل الخبر الى المسجد، وفيه عليّ جالس في نحو عشرة من المصلين، فراعه منظر القادم وسأله: «ويحك ما وراءك؟» قال: «والله قد فرغ من الرجل» فصاح به: «تبالكم آخر الدهر.» وأسرع الى دار الخليفة المقتول. فلطم الحسن. وضرب الحسين، وشتم محمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير وجعل يسأل ولديه: «كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟» فأجاب طلحة: «لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع مروان ما قتل».

* * *

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه: «بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقي بن حرب، يلتمسون من يجيبهم الى القيام بالأمر، والمصريون يلحون على عليّ وهو يهرب الى الحيطان[1]. ويطلب الكوفيون الزبير

---

(١) البساتين.

فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم ، فقالوا فيما بينهم : لا نولي أحدًا من هؤلاء الثلاثة. فمضوا الى سعد بن ابي وقاص فقالوا : انك من أهل الشورى. فلم يقبل منهم ، ثم راحوا الى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا في أمرهم. ثم قالوا : ان نحن رجعنا الى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمارة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم ، فرجعوا الى علي فألحوا عليه ، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس. وكلهم يقول : لا يصلح لها الا علي. فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء ، فقال قائل : « انا لله وانا اليه راجعون » ثم الزبير ، ثم قال الزبير « انما بايعت عليًّا واللج على عنقي والسلام . »

وهذا الخبر على وجازته ، قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان. وربما كان أشدهم طلبًا لها طلحة والزبير ، اللذان أعلنا الحرب على عليّ بعد ذلك. فقدكانا يمهدان لها في حياة عثمان ، ويحسبان أن قريشًا قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمي ، وأن عليًا وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله ، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تئول الخلافة الى واحد من هذين. أو الى عبدالله بن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تيم والزبير زوج أختها أسماء ، وفي تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمل كبير في النجاح .

على أن الرأي هنا لم يكن رأي قريش ، ولا رأي بني هاشم. فلو ان عثمان مات حتف أنفه ، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة لخليفة غير علي بن أبي طالب ، وجاز أن يختلف بنو هاشم. فلا يجتمع لهم رأي على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة ، وهم : عقيل ، وعلي ، وابن عباس .

* * *

ولكنها الثورة الاجتماعية التي تنشد رجلها دون غيره ولا محيد لها عنه. فان ترددت أيامًا ، فذاك هو التردد العارض الذي يرد على الخاطر لا محالة ، قبل التوافق على رأي جازم. ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذي تتجه اليه وحده على الرغم منها ..

فطلحة والزبير ، كانا يشبهان عثمان في كثير مما أخذه عليه المتحرجون في الدين .

وتمرد له الفقراء المحرومون. كانا يخوضان في المال، ولا يفهمان الزهد والعلم على سنّة الناقمين المتزمتين، فاذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووفاق رجائهم. فما هم بواجديه في غير عليّ بن أبي طالب، وقد قال بحق: «ان العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر» ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطمعون في الخلافة مقالته عن العامة في انقيادهم اليه بغير رهبة ولا رغبة. فقد كان أولئك الخاصة جميعًا على رأي العامة في حكومة عثمان وبطانته، وان أخفى بعضهم لومه. ولم يذهب بعضهم في اللوم مذهب الثوار في النزق وسفك الدماء.

ونعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هي أولى الحقائق بالتوكيد والاستحضار، كلما عرض أمر من أمور الخلافة والتردد في خلافة علي رضي الله عنه. فاذا هي فهمت على وجهها، فكل ما عداها مفهوم البواطن والظواهر منسوق الموارد والمصادر. واذا هي لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانبًا، وبحث الباحثون عن العلل والعواقب في غيرها فالعهد كله غامض مجهول، والموازين كلها مختلفة منقوصة سواء في تقدير الرجال أو تقدير الأعمال، وجاز حينئذ أن يرمى علي بالخطأ. ولا خطأ عنده يصححه غيره في موضعه. وانما هو حكم الموقف الذي لا محيد عنه. وجاز كذلك أن ينحل خصومه فضل الصواب ولا صواب عندهم، لأنهم مضطرون الى ورود هذا المورد. فكروا فيه أو طرقوه اعتسافًا بغير تفكير.

فلم تكن المسألة خلافًا بين علي ومعاوية على شيء واحد، ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك.

ولكنها كانت خلافًا بين نظامين متقابلين متنافسين: احدهما يتمرد ولا يستقر، والآخر يقبل الحكومة كما استجدت ويميل فيها الى البقاء والاستقرار.

أو هي كانت صراعًا بين الخلافة الدينية كما تمثلت في علي بن أبي طالب، والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان.

* * *

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر عليّ.. فيحكم في مكان معاوية، أو ينتصر

معاوية فيحكم في مكان عليّ ، بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون اذا تغلب واحد منها على خصمه ؟ أتكون مبادئ الخلافة الدينية أو مبادئ الدولة الدنيوية ؟ . أتكون مبادئ الورع والزهادة أو مبادئ الحياة على أساس الثروة الجديدة ، كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بين السراة والاجناد والاعوان ؟

فلو أن عليًّا ملك الشام ومصر والعراق والحجاز ، وجرى في سياستها على سنّة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكري البذخ والاسراف لبقيت المشكلة حيث كانت ، ولم تغن هزيمة معاوية الا ريثما يتجرد للدولة منازع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل .

ولو أن معاوية ملك المدينة الى جانب ملكه ، وجرى في سياستها على سنّة الحفاظ والقراء لما ارضاهم ، ولا انقاد له احد من اشياعه .

فالحسم حق الحسم هنا ، انما تغلب مبادئ الملك او مبادئ الخلافة .. ولا حيلة لعليّ ولا لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه ، لو جهد له جهد الطاقة ..

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبسًا متشابكًا في عهد عثمان : كان نصف ملك ونصف خلافة ، اوكان نصف زعامة دينية ونصف امارة دنيوية .

فوجب أولاً ان يتضح الموقف بينهما ، وان يزول الالتباس عن فلق صريح .

ووجب وقد زال الالتباس ، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان ، ان يبلغ الخلاف مداه . ولن يزال قائمًا حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدأين وحكم من الحكمين ، وليس لعليّ أو معاوية على التخصيص .

هذه هي العلّة الكبرى التي تنطوي فيها جميع العلل الظاهرة .

وخليق بكل علّة أخرى أن تكون تعلّة موضوعة يستر صاحبها غير ما يبطن ، أو ينخدع في زعمه وهو غافل عن معناه .

* * *

خذ لذلك مثلاً علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على عليٍّ ليطلبوه بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع عليّ عنه . وقد كان عثمان كثيرًا ما يقول :

« ويلي من طلحة. أعطيته كذا وكذا ذهبا وهو يروم دمي. اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه ».

وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله يرمي الدار، ويقود بعض الثائرين الى الدور المجاورة ليهبطوا منها الى دار عثمان، وهو حديث يفتقر الى السند الوثيق، ولكنه ينم على ظن الناس بصداقة طلحة للخليفة المقتول.

وخذ لذلك مثلاً حجة معاوية حين علل ثورته باتهام علي في دم عثمان، وعلل اتهامه لعليٍّ بتقصيره في القود من الثائرين. وهم ألوف يحملون السلاح، وهو لم يسكن بعد الى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين. فماذا صنع معاوية بقاتلي عثمان حين صار الملك اليه؟ ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال؟ انه اتبع عليًا فيما صنع، وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد، وقد ذكروه به وألحوا في تذكيره. ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة إبنته وهي تبكي: « وا أبتاه » فلم تزده الصيحة المثيرة الا إصرارًا على الاغضاء والاعفاء. وقال لها يعزيها: « يا ابنة أخي. ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانًا، وأظهرنا لهم حلمًا تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره. فان نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا ولئن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خيرًا من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين. »

* * *

ولو كانت، الثورة كلها من أجل عثمان لما انتهت بهذا التسليم الهين. ولكان عذر عليّ في بداية المحنة أعظم حجة، وأحق بالقبول.

أو خذ لذلك مثلا علة عمرو بن العاص، وقد كان أول الناصحين لعثمان بالاعتزال، بل كان يخطب عثمان ليسترضي الناس، وعمرو يصيح به من صفوف المسجد: « اتق الله يا عثمان، فانك ركبت أمورًا وركبناها معك. فتب الى الله تتب. » ثم ترك عثمان في المدينة بين المؤتمرين به ومضى الى فلسطين، وسُمع وهو يقول: « والله اني كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان ».

فكل علّة للثورة على خلافة علي، فهي تعلّل موضوع ينخدع به قائله أو يخدع به غيره. إلا تلك العلّة التي طوت فيها جميع العلل ظاهرها وخافيها وصريحها ومكذوبها. وهي الخلاف بين مبادئ الخلافة الدينية ومبادئ الدولة الدنيوية، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين. وان كان في ظاهره فصلاً بين رجلين.

فلما بويع بالخلافة، كانت هذه البيعة ايذانًا بانقسام الحلقة بين الندين للصراع الاخير، أوكانت ايذانًا باصطفاف المتسابقين الى غاية لا بد من بلوغها. ولن تخطر على البال غاية لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على النحو الذي تهيأت له عناصر النظام الاجتماعي الجديد.

فأما انتهاء الملك في بدايته، فقد كان بعيدًا – بل كان عسيرًا جدًا في تلك الآونة – كما يعسر انطفاء النار وهي تهب بالاشتعال..

وأما انتهاء الخلافة فهو الذي كان، وهو الذي كان منظورًا ان يكون، ولم يكن غيره بمنظور. فمن الفضول لوم عليٍّ على شيء من الأشياء التي أفضت الى هذه الخاتمة، وهي محتومة ليس عنها محيد..

إذ لم يكن طبيعيًا ان يصمد الناس على سنة النبوة أكثر من جيل واحد، تثوب بعده الطبائع إلى فطرتها من نشأة جلال الخلافة النبوية، وهي في إبان النضال والحمية الدينية، فتنسى المطامع وتسهو عن الحزازات وتستعذب الألم والفداء إلى مدى الطاقة الانسانية، ولكنها تبلغ مدى الطاقة الانسانية بعد حين، وتفتر عن النهوض من قمة الى قمة. فتركن آخر الأمر إلى الأرض السواء حيث لا حافز ولا مستنهض، إلا مجاراة الطبيعة في مجاريها التي لا تشق عليها، وان المصلحين ليرضون غاية الرضا اذا هي حفظت من اصلاحهم عند ذلك وازعًا يهديها بعد ضلالة عمياء، ويردعها بعد جماح مريد، ويكفكف من غلوائها ما كان من قبل منطلقًا بغير عنان..

وقد نظر النبي عليه السلام بعين الغيب الى هذا المصير فقال: « الخلافة ثلاثون عامًا ثم يكون بعد ذلك الملك ». وأنبأ بانقسام الفرق وتشعب الاهواء، وكأنما كان ينظر الى ذلك بعينيه صلوات الله عليه.

وأتبع عليّ من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على انها خير من سياسته في صدق الرأي وأمان العاقبة، أو انها كانت كفيلة باجتناب المآزق التي ساقته الحوادث اليها.

فمن اللحظة الأولى أخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها..

فعزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة، وتمرغوا بالدنيا، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتحرجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين.

ورد القطائع التي وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوي الرحم، فصرفتهم عن وجوهها التي جعلت لها من اصلاح المرافق واغاثة المفتقرين اليها على شرعة الانصاف والمساواة.

ورجع الى خطة أبي بكر وعمر في تجنيب الصحابة الطامحين الى الامارة فتنة الولايات، مخافة عليهم من غوايتها وابعادًا لهم من دسائس الشيع والعصبيات. فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن، قال لهما: «بل تبقيان معي لآنس بكما» وسأل ابن عباس: «ما ترى؟» فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة. قال علي: «ويحك.. ان العراقين بهما الرجال والأموال. ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع، ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوي بالسلطان، ولو كنت مستعملاً أحدًا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي».

* * *

نعم، ان هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة الدنيوية على يديه. ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن رضا المنافسين ودوامهم على الرضا والوفاق بينهم في تأييده. وكانت تخالف عقيدته التي يدين بها نفسه وأقرب الناس اليه، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه. ولكن يكون مالكًا غالبًا بسياسة الملك على

كل حال ، فان لم يكن خليفة فما هو بشيء ، وان كان خليفة وملكًا فهي خطة عثمان التي لم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف ، وان كان خليفة ولا اختيار له في ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كأحسن ما تراض له الحكمة ، وهو السداد كأقرب ما يتاح له السداد .

وعلم ان قريشًا لا ينصرونه ، فنقل العاصمة من المدينة الى الكوفة . لأن قريشًا كانوا هاشميين وهم لا يتفقون على بيعته ، وقد تركه أقربهم اليه ورحل الى معاوية طمعًا في رفده ، أو كانوا أمويين وهم حزب معاوية وأهل عشيرته وبيته ، أو من تيم وهم حزب طلحة ، أو من عدي وهم يؤثرون عبدالله بن عمر بن الخطاب ، أو من قبائل أخرى ، وهم كما قال : « قد هربوا الى الاثرة » .. فاذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يُضمن لهم ولاء .

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه . فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان . وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة . وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه .

وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير .

* * *

فحشدوا جموعهم إلى البصرة ، وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب في خلافة طلحة . لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان ، ولما يزل قائمًا بالخلافة ، فقالت له : « يا ابن عباس . أنشدك الله فانك قد أعطيت لسانًا ازعيلا – أي ماضيًا – أن تخذل عن هذا الرجل – تعني عثمان – وأن تشكك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وانهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم . وقد رأيت طلحة بن عبيدالله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فان يل يسر بسيرة ابن عمه ابي بكر رضي الله عنه » فأجابها ابن عباس : « يا أمّه ! لو حدث ما فزع الناس الا الى صاحبنا » أي عليّ فقالت :

« أيها عنك .. اني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك » .

فلما بويع عليّ في المدينة ، لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه . ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه السلام في مسألة الافك التي قيل انه أشار فيها بتطليقها ، فخرجت الى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان ، وكانت هنالك وقعة الجمل التي سميت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول جملها وهودجها . فانتصر علي ، وقتل الزبير ، ومات طلحة بجرح أصابه في المعركة ، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين في الحجاز والعراق .

على أن هذا النصر العاجل ، لم يخل من آفة تكدره وتنذر بالمخاوف التي يوشك أن يلقاها علي في حربه لخصومه الباقين بعد موت طلحة والزبير. وأقواهم معاوية بن أبي سفيان صاحب الشام .

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة في جيش المتمردين والمتذمرين . فانهم يستحمسون في عقيدتهم ، وهي فضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتمادي في اللدد وإعجال قائدهم عن انعام الروية وانتظار الفرص المؤاتية ..

فقد كان عليّ يميل – كدأبه – إلى مفاتحة الخارجين عليه في المهادنة أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبئية – أتباع عبدالله بن سبأ – وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه ، ولكنهم لفرط غيرتهم ولددهم في عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه ، ولم يقبلوا التوسط في الصلح دون الغلبة التي لا هوادة فيها . فدهموا القوم وأوقدوا جذوة الحرب ، قبل أن يفرغ عليّ من حديث المهادنة والتقريب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه .

وكانت هذه أولى العثرات الكبار التي أعثرته بها حماسة المتمردين والمتذمرين في جيشه ، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم عليه حتى مني بالعثرة التي لا تقال ..

وكان ذلك في وقعة صفين .

فانه نظر بعد غلبته في العراق ، فلم يجد أمامه خصمًا يقف في طريق الخلافة

الا جيش معاوية بالشام، فعمد معه الى خطته التي جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة، ونعني بها خطة المسالمة والبدء بالاقناع. فطالت المراسلة منه الى معاوية ومن معاوية اليه، وفي مثل واحد منها، ما يغني عن كثير.

كتب الى معاوية بعد وقعة الجمل، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة:

« سلام عليك. أما بعد، فان بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام. لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعثمان على ما بويعوا عليه. فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وانما الشورى للمهاجرين والأنصار، فاذا اجتمعوا على رجل وسموه اماماً كان ذلك لله رضي، وان خرج عن أمرهم ردوه إلى ما خرج عنه، فان ابى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً. وان طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتها، وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما بعد ما أعذرت اليهما، حتى جاء الحق وظهر أمر الله، وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فان أحب الأمور اليّ قبولك العافية، وقد أكثرت في قتلة عثمان، فان رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون. ثم حاكمت القوم إلى حملتك واياهم على كتاب الله. وأما تلك التي تريدها – يعني الخلافة – فهي خدعة الصبي عن اللبن. ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنني أبرأ قريش من دم عثمان، واعلم انك من الطلقاء[1] الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى وقد بعثت اليك وإلي من قبلك جرير بن عبدالله، وهو من أهل الايمان والهجرة. فبايعه، ولا قوة الا بالله ».

فرد عليه معاوية بما يلي:

« سلام عليك. أما بعد، فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريء من دم عثمان، لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان. ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف. وقد أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم

(١) اطلق معاوية وابوه من الاسر يوم فتح مكة.

قتلة عثمان. فان فعلت كانت شورى بين المسلمين. وانما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير، ان كانا بايعاك فلم أبايعك أنا. فأمّا فضلك في الاسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ فلست أدفعه».

* * *

ومن رد معاوية هذا، تبدو النية الواضحة في فتح أبواب الخلاف واحدًا بعد واحد. كلما أغلق باب منها بقي من ورائه باب مفتوح، لا ينتهي الخلاف باغلاقه.

فتسليم قتلة عثمان لا يكفي، لأن عليًا نفسه متهم بالاغراء والتخذيل، وبراءة عليّ من هذه التهمة لا تكفي لأن المرجع بعد ذلك إلى الشورى والنظر في البيعة من جديد.

وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفي لأن الحق قد خرج منهم إلى أهل الشام، وهم الحكام على الناس. لأنهم يحكمون لمعاوية ولا يحكمون لغيره.

ومن ثم، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقال باللسان غير ما يجول في الصدور.

وزحف عليّ من الكوفة الى صفين ووجد جيش معاوية على الماء. فنحاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال.

وبدأت العثرات من ثم في كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتال، فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخر يحرمها ولا يقول بوجوبها، وتحاجز القوم نيفًا وثمانين فزعة. وتصاولوا في وقعات شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا، وقلما اشتبك فيها الجيشان في وقعة جامعة حتى كانت وقعة الهرير، وحاقت الهزيمة بجيش معاوية وقيل انه همَّ بالفرار.. واذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام، واذا بالعثرة الكبرى التي لا خطوة بعدها في طريق فلاح. فان عليًّا نظر حوله، فاذا بجيشه يوشك أن يقتتل فيما بينه نزاعًا على القتال أو إلقاء السلاح، وان معاوية لفي غنى عن كفاح قوم لا يتفقون على كفاحه. فله منهم سيوف مشرعة

لنصرته، شاءوا أو لم يشاءوا، وسيكفونه مئونة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه، وهيهات!

ولو كانت آفة الطاعة في جيش علي، مقصورة على اجتهاد القراء والحفاظ. وتعجل الغلاة والمتمردين، لكان في ذلك وحده ما يكفي لافساد التدبير واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله.. اذ لا يستغني القائد في ميدان الحرب، ولا في ميدان السياسة، عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارئ والمناسبات. فاذا كان في كل عمل من أعماله عرضة لاجتهاد أصحاب الفتاوي، وكان أصحاب الفتاوي يفترقون عشرين وجهة في كل حركة من حركات الجيش، فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ. وليس عجيبًا بعد ذلك، أن ينهزم في ميدان القتال شر هزيمة يبتلى بها مقاتل. بل العجيب أن يتماسك فترة من الزمن – وان قصرت – أمام جيش يفوقه في العدد ويرجع في أمره إلى قيادة موحدة ونية مجتمعة ومشيئة مطاعة.

* * *

ولكن الآفة مع هذا، لم تكن كلها في اجتهاد الحفاظ وتعجل الغلاة. بل كان في الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون لعدوه كارهون لانتصاره. فان لم يكونوا كذلك، فالأمر الذي لا شك فيه انهم كانوا يعملون وهم عامدون – وغير عامدين – شر ما يعمله الخائن الخبيث الذي يتحين الفرص للعناد والشقاق، وافشاء الخلل والخذلان في أحرج الأوقات.

وأدهى من ذلك، انه لم يكن قادرًا على زجرهم والتنكيل بهم. لأن الجيش الذي يوجد فيه من يحرّم حرب العدو، لن يعدم أناسًا يحرّمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة، وليس لك بينة قاطعة عليه..

ومثل ذلك أيضًا يغني عن أمثال كثيرة، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم أن ينصر حزبًا على حزب، لو خلصت نيته وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه.

طمح هذا الرجل الى الملك بعد موت النبي عليه السلام، فدعا قومه أن يتوجوه. وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر في حصنه أياماً، ويئس من الغلبة فاستسلم. على أن يصان دمه وبقية دم عشرة من أخصائه، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم الى أبي بكر رضي الله عنه، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة. فلما نشبت الفتنة بين عليّ ومعاوية، كان هو من حزب عليّ يتطلع للفرصة السانحة.

ثم زحف عليّ رضي الله عنه إلى صفين، فكان الأشعث أول المندفعين الى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء، وجاء علياً يقول: « يا أمير المؤمنين! أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا؟. ولِّني الزحف اليه. فوالله لا أرجع أو أموت ».

ولكنه عاد إلى المسالمة، بعد إن وضح النصر في ليلة الهرير، فخطب في قومه من كندة قائلاً:

«.. قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فنى فيه من العرب. فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله ان أبلغ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن توافقنا غداً انه لفنيت العرب وضيعت الحرمات. أما والله ما أقول هذه المقالة خوفاً من الحرب، ولكني رجل مسن أخاف على النساء والذراري غدا اذا فنينا».

ثم ذهب الى عليٍّ رضي الله عنه بعد رفع المصاحف، فقال له « ما أرى الناس الا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم الى ما دعوهم اليه من حكم القرآن. فان شئتَ أتيتُ معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل ».

ولقي معاوية فسأله: « يا معاوية.. لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟ ».

قال: « لنرجع نحن وأنتم الى أمر الله عز وجل في كتابه. تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه. ثم نتبع ما اتفقا عليه».

فقال الأشعث: « هذا الحق! »

وعاد الى علي ينادي بالتحكيم، ويختار له هو وأنصاره رجلا ينوب عن علي، وعليّ لا يرضاه.

* * *

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترءوا على أمير المؤمنين، فلم يبالوا أن يجبهوه بالقول السيء منذرين متوعدين :

« يا علي ! أجب الى كتاب الله عزّ وجل اذا دعيت اليه، والا ندفعك برمتك الى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان. انه عرض علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه. والله لتفعلنّها أو لنفعلنّها بك ».

وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعي من ساحة الحرب، والا اعتزلوه أو قتلوه.

فقبل التحكيم وهو كاره.

واختار أهل الشام عمرو بن العاص، فقال الأشعث : « فإنا رضينا بأبي موسى الأشعري ».

قال علي : « انه ليس لي بثقة. قد فارقني وخذل الناس عني، ثم هرب مني حتى آمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك ».

قالوا : « لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء، ليس الى واحد منكما بأدنى من الآخر. »

قال : « فاني أجعل الأشتر »

قال الأشعث – وهو ينفس على الأشتر مكانته وبلاءه من قبل – : « وهل سعر الأرض غير الأشتر ؟. أو قال : وهل نحن الا في حكم الأشتر ؟ »..

فلما رأى اصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال : « فقد أبيتم الا أبا موسى ؟ »

قالوا : « نعم ! »

قال : « فاصنعوا ما بدا لكم ! »

* * *

فهذا رجل من الزعماء المطاعين في جيش علي. لم يدع من وسعه شيئًا لتغليب حزب معاوية على حزبه، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذي يختاره نصيرًا له مؤمنًا بحقه وصحة رأيه. ولا طائل في البحث عن هذا الخذلان الصريح. أكان هو الطمع في الملك بعد فشل عليّ أم النقمة على الأشتر النخعي في مكانته وبلائه، أم التواطؤ بينه وبين معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة. فانما النية الخبيثة ظاهرة وان استترت العّلة، وأيا كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما استطاع لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذي هو فيه.

قال عليّ يصف قسمته من الأنصار، وقسمته من النوازل والعثرات : « لو أحبني جبل لتهافت ».

وقال يصف أنصاره : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء. ما عزّت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم. أعاليل بأضاليل، دفاع ذي الدين المطول. اي دار بعد داركم تمنعون ؟. ومع أي إمام بعدي تقاتلون ؟. المغرور والله من غرّرتموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل[1]. اصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع في نصركم. ولا أوعد العدو بكم. ما بالكم ؟. ما داؤكم، ما طبُّكم ؟. القوم رجال أمثالكم، أقوالًا بغير علم ؟. وغفلةً من غير ورع ؟. وطمعًا في غير حق ؟. »

* * *

وهي صيحة لا تصف الا بعض ما يعانيه من حيرة، لا مخرج له منها في سياسة أصحابه. فانه لم يفرغ من التحكيم الذي أذعن له وهو كاره، حتى فوجيء بطائفة

(١) الافوق هو السهم المكسور في موضع الوتر. والفاصل العاري من النصل.

أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم، وزعموه قبولا للتحكيم في كلام الله وفي دماء المسلمين، وهو عندهم كفرٌ بواح، أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح، وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذاك!

ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل التي وقع عليها الاختيار لتكون وسطا بين العراق والشام. ولم يكن قرار الحكمين خافيًا على من عرفوا أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص. فان أبا موسى لم يكتم قط أن السلامة في اجتناب الفريقين والقعود عن القتال. فليس أيسر من اقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء. ثم يرجع الرأي الى عمرو بن العاص في اقرار هذا الخلع أو الاحتيال فيه بالحيلة التي ترضيه.

إلا ان الدهاة من العرب. كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذي أنابه عنه.

ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذي اعتزل الفريقين من مطلع الفتنة الى يوم التحكيم. فلما اجتمع الحكمان علم انها الجولة الأخيرة في الصراع. فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور، على سنَّة الدهاة من أمثاله. إذ يتنسمون الريح قبل هبوبها. ولا يقلقون أنفسهم بمهبها قبل أوانها. فلقي أبا موسى وعمرو بن العاص. ثم ذهب الى معاوية وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما وراء هذا الابطاء المريب. فقال له وهو يرى اشتغال باله: «قد أتيتك بخبر الرجلين.»

قال معاوية: وما خبرهما؟.

قال المغيرة: «اني خلوت بأبي موسى لأبلو ما عنده فقلت: ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس في بيته كراهية للدماء؟. فقال: أولئك خيار الناس. خفت ظهورهم من دماء اخوانهم وبطونهم من أموالهم. فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص. فقلت: يا أبا عبدالله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب؟. فقال: أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقًا ولم ينكروا باطلاً».

ثم عقب المغيرة قائلاً «أنا أحسب أبا موسى خالعًا صاحبه وجاعلها لرجل

لم يشهد، وأحسب هواه في عبدالله بن عمر بن الخطاب، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي عرفته، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبدالله، ولا أراه يظن انك أحق بهذا الأمر منه.»

وقد أحس المغيرة حزره نقط الحرف بالحرف في تقدير نية الرجلين، فانهما ما اجتمعا هنيهة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له: «يا عمرو!. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله.؟»

قال: «وما هو؟.»

قال: «نولي عبدالله بن عمر، فانه لم يدخل في نفسه شيء من هذه الحروب.»

فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقي في روع صاحبه انه يريد معاوية، ثم عاد يسأله: «فما يمنعك من ابني عبدالله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته؟»

فأوشك أبو موسى ان يجيبه لولا انه قال: «ان ابنك رجل صدق، ولكنك غمسته في هذه الحروب غمسًا».

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه في كل لقاء، وطفقا يبدئان منه ويعيدان اليه بعد كل جدال، حتى وقر في خلد الاشعري ان خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره، فتواعدا إلى يوم يعلنان فيه هذا القرار.

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد: «... أيها الناس. انا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد اجتمع رأيي ورأي عمرو عليه. وهو أن نخلع عليًا ومعاوية، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم. واني قد خلعت عليًا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً».

وتلا عمرو فقال بعد تمهيد: «... ان هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه. وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأُثبِّت صاحبي معاوية. فانه وليّ عثمان بن عفان رضي الله عنه، والطالب بدمه واحق الناس بمقامه».

فغضب أبو موسى، وصاح به: «مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت. انما

مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.. »

فابتسم عمرو، وهو يقول: « انما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا.. »

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه.

وانتهت المأساة بهذه المهزلة، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة.

وبان أن اجتماع الحكمين لم يُفضِ إلى اتفاق بين الحكمين، فعاد الخلاف إلى ما كان عليه.

إلا انه استشرى واحتدم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم.

فقد أجمعوا وأبرموا فيما بينهم «.. ان هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله، وقد كفر اخواننا حين رضوا بهما، وحكموا الرجال في دينهم ونحن على الشخوص من بين أظهرهم، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق».

وخرجوا وعليٌّ يأبى قتالهم حتى ييأس من توبتهم، ولقيهم بالجيش، فآثر أن يلقاهم مناقشًا قبل أن يلقاهم مقاتلا، واقترح عليهم أن يخرجوا اليه منهم رجلا يرضونه، يسأله ويجيبه ويتوب إن لزمته الحجة ويتوبوا إن لزمتهم. فاخرجوا اليه امامهم عبدالله ابن الكواء.

قال عليّ: « ما الذي نقمتم عليّ بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معي وطاعتكم لي، فهلا برئتم مني يوم الجمل؟ » ..

قال ابن الكواء: « لم يكن هناك تحكيم ».

قال علي: « يا بن الكواء ويحك.. أنا أهدى ام رسول الله ﷺ ؟ »

قال ابن الكواء: « بل رسول الله ﷺ »

قال علي: « فما سمعت قول الله عز وجل: « قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم

ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم » أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون..

قال : « ان ذلك احتجاج عليهم، وانت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين، فنحن أحرى ان نشك فيك ».

قال : « وان الله تعالى يقول : « فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما أتبعه » ..

قال ابن الكواء : « ذلك ايضًا احتجاج منه عليهم ». ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا : « انك صادق في جميع قولك غير انك كفرت حين حكمت الحكمين » .

قال عليٌّ : « ويحك يا بن الكواء.. اني إنما حكّمت أبا موسى وحكم معاوية عمر عمرًا » ..

قال ابن الكواء : « فإن أبا موسى كان كافرًا ».

قال عليّ : « متى كفر ؟.. أحين بعثته أم حين حكم ؟ » .

قال ابن الكواء : « بل حين حكم ».

قال عليّ : « أفلا ترى اني بعثته مسلمًا فكفر في قولك بعد أن بعثته. أرأيت لو أن رسول الله ﷺ بعث رجلا من المسلمين الى ناس من الكافرين ليدعوهم الى الله[1] فدعاهم الى غيره، هل كان على رسول الله ﷺ من ذلك شيء ؟ » .

قال : « لا »

قال : « ويحك.. فما كان عَلَيَّ ان ضل أبو موسى ؟ أفيحل لكم بضلالة أبي

قال : « لا ».

قال : « ويحك.. فما كان عَلَيَّ ان ضل أبو موسى ؟ أفيحل لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس ؟ »

---

(١) وقد حدث هذا في عهد النبي عليه السلام إذ اوفد نهارًا الرجال ليهدي قوم مسلمة فانقلب هناك مبشرًا بدينه .

فعلم الخوارج ان صاحبهم ليس بندٍّ لعلي في مجال نقاش، فكفوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق عليٍّ في حجته وقصده، لولا انهم قوم قهرتهم لجاجة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذين يجدون في المضي مع العناد لذة يستمرئونها من الحق والمعرفة.. فردوا على الشقاق، وأصروا على تكفير علي وأصحابه، وأن يعاملوهم في الحرب والسلم معاملة الكفار..

* * *

واستبقى عليّ بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة.. فرفع في الساحة راية ضم اليها ألفي رجل ونادى: « من التجأ الى هذه الراية فهو آمن ».

ثم قال لأصحابه: « لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم » فصاح الخوارج صيحتهم: « لا حكم إلا الله وان كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد.. وتلقاهم عليّ واصحابه لقاء من نفد صبره ووغر صدره. فما هي الا ساعة حتى قتل معظم الخوارج. وبقي منهم نحو أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال، فأمر بهم عليٌّ فحملوا إلى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج.

وأراد المسير إلى الشام ليلقى بها جيش معاوية..

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى، كما تصدى له في كل فرصة سانحة للغلبة. وقال له على مسمع من الناس: « يا أمير المؤمنين.. نفدت نبالنا. وكلت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا. فارجع بنا الى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا. ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا. فانه أوفى لنا على عدونا ».

* * *

وتسلل الجند من معسكرهم. ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم. وايقن عليّ ان القوم مارقون من يده. ولا طاعة له عليهم اذا دعاهم بعدها لقتال..

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه. وأعانه طلاب المنافع عامدين. وأعانه الخوارج غير عامدين. فحاربوا عليًا ولم يحاربوه. وطلبوا التوبة من عليٍّ ولم يطلبوها

منه ، واستمر هو في إنفاذ البعوث والسرايا الى كل موضع آنس منه غرة وظن بزعمائه موجدة أو سآمة . فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقي عليٌّ في أرباض الكوفة يائسًا منعزلاً عن الناس ، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ، ويوجس شرًا من أقرب المقربين اليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام ، ويكفا السيف عن هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال ..

* * *

وبقيت في كنانة الاقدار مصادفة من هذه المصادفات التي يخيل اليك وأنت تتعقبها . انها تجمعت منذ الأبد ليبوء عليّ بنقائض الموقف كله ، ويظفر خصومه بتوفيقات الموقف كله .. فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة ، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة ، ويفلت زميلاه فيها : معاوية ، وعمرو بن العاص .

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك عبدالله وعمرو بن بكر التميمي ، وهم من غلاة الخوارج الموتورين ، فتذاكروا القتلى من رفاقهم ، وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار – أو أئمة الضلالة في رأيهم – وهم : علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص .

فقال ابن ملجم : « أنا أكفيكم عليّ بن أبي طالب ».

وقال البرك : « أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان ».

وقال عمرو بن بكر : « أنا أكفيكم عمرو بن العاص ».

وإن ضغينة الثأر لحافز أي حافز..

وان تهوّس العقيدة لمثير أي مثير.

وكان للمتآمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين ، يغني عن مزيد من التحريض على القتل والانتقام .

ولكن المصادفة العجيبة هي التي شاءت أن تشحذ عزيمة ابن ملجم بحافز ثالث لعله يمضي حين ينبو هذان الحافزان الماضيان ، . هو حافز من الغرام الظامىء لا يرويه إلا دم ذلك الشهيد الكريم .

فان المرء قد ينيم ثائرة الحقد ، وقد يماري نفسه فما تفرضه العقيدة .. ولكنه اذا كان عاشقًا مخبولاً يستنجزه الوعد معشوق مسلّط عليه . فهو مأسور زمامه في يدي غيره ، وليس في يديه .

* * *

وكان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب ، قتل أبوها وأخوها وبعض أقربائها في معركة الخوارج . وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة القوية ، وتدين بمذهب قومها فوق ما في جوانحها من لوعة الحزن على ذويها ، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجًا الا أن يشفي لوعتها . قال : « وما يشفيك ؟ » قالت : « ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة ، وقتل عليّ بن أبي طالب » .

قال : « أما قتل علي فلا أراك ذكرته لي وأنت تريدينني .. »

قالت : « بل التمس غرته .. فاذا أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنأك العيش معي ، وان قتلت فما عندالله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها » .

وخرج الثلاثة متواعدين الى ليلة واحدة ، يقتل كل منهم صاحبه في ذلك الموعد ..

فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته ، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلي بالناس . فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرًا فقتله . فقال عمرو : أردتني وأراد الله خارجة ، وأمر بقتله ..

وأما معاوية فضربه البرك بن عبدالله ، وقد خرج الغداة للصلاة فوقعت الضربة على إليته .. وقيل ان الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكي بالنار أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ، ورضي انقطاع النسل ، وهو يقول : « في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني » . وأمر بالرجل فقتل لحينه .

وأما عليّ فضربه ابن ملجم في جبينه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلاة : فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم : « يا بني عبد المطلب . لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين .. ألا لا يقتلن أحد قاتلي . »

« انظر يا حسن ! إن أنامتّ من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة . ولا تُمثِّل بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اياكم والمثلة ولو انها بالكلب العقور » .

* * *

وهذه خاتمة فاجعة ، ننظر في كل فرض من فروضها فلا نخليها من المصادفة السيئة التي لا تلقى تبعتها على أحد بعينه .

فمهما يقل القائلون ان عليًّا انما أصيب لأنه كان لا يتقي أحداً . ولا يخرج الى المسجد بحرس ، فالواقع ان المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق في عثرات الحظ بينه وبين زميليه اللذين سيقا معه الى مكيدة واحدة .. فخرجا منها بحظين غير حظه ، فان ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج الى المسجد محروسًا . ولكنه نجا لأنه لزم بيته في تلك الليلة ، ومات صاحب شرطته الذي خرج في مكانه . ولم ينج معاوية لأنه خرج محروسًا ، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت اصابته غير قاتلة .

فهي المصادفة السيئة مهما تلتمس لها علّة من علل التاريخ . ترجع بنا في آخر الأمر إلى علل المصادفات التي لا تقبل التعليل .

وشيء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة ، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها الى ما بعد انتهائها .

وذلك هو النسيج الانساني النابض الذي يتخلل حياة عليّ في لُحمتها وسُداها . وفي تفصيل اجزائها وجُملة فحواها ، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة إلا وهي مَعرضٌ حافِل للعواطف الانسانية برمتها . تلتقي فيه عوامل النخوة والشجاعة

والوفاء والايمان والسماحة ، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم.. ذلك الاشتباك الذي يخلقه الشعراء خلقاً في القصص والملاحم ، فلا يحكمونه بعض إحكام الواقع الملموس في سيرة الامام. وقد أسلفنا في صدر هذا الكتاب انها سيرة تلامس النفس الانسانية في شتى نواحيها : تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة ، ومن ناحية الفكر كناحية الخيال ، ومن ناحية التمرد كناحية الولاء. فاذا اتبعت السيرة بالخاتمة ، فأيّ خيط من خيوط تلك الشبكة الانسانية التي تنسجها القرائح لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقده في هذه الخاتمة الفاجعة ؟ أي باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعاداً في كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدها ؟ يأس الكريم المغلوب وجرأة المحتال الغالب ، وغرام المتهوس المجنون ، وأريحية القتيل الموصي بمن اعتدى عليه ، وحقد المرأة وخداع الجمال ، وزيغ العقيدة ، واستواء الايمان ، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموّار واللهفة الدائمة في خاتمة حياة تسع ألفَ حياة.

* * *

وهذه مزية عليّ بين خلفاء الاسلام قاطبة. ينفرد بها لأنه انفرد بمثال مِنَ النفوس ومثال مِن العوارضِ الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات في الأجيال الطوال ، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها في كل جيل.

تلك حياة حيّ.. وذلك مصرع شهيد.

سياسة

تسري في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم مِنْ فمٍ ، ويتوارثها جيلٌ عن جيل ، ويتخذها السامِعون قضية مسلمة ، مَفروغًا من بحثها والاستدلال عليها ، وهي في الواقع لم تُعرَض قط على البحث والاستدلال ، ولم تجاوز أن تكون شُبهةً وافقت ظواهر الأحوال ، ثم صقلتها الألسنة فعزّ عليها بعد صقلها أن تردّها الى الهجر والاهمال .

كل أولئك من لغو الشعوب .. وللشعوب بداهة تقصر دونها بداهة الغواصين من الأفراد ، ولكنها اذا لَغت فشوطها في اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد بعيد ..

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم ان عليَّ بن أبي طالب رجلٌ شجاع ، ولكن لا علم له بِخدع الحرب والسياسة !

وقد شاع هذا الرأي في عصر علي بين أصحابه ، كما شاع بين اعدائه ، وعزّز القول به انه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه ، وانه لم ينجح بعد هذه المخالفة في مُعظم مساعيه ، فكان من الطبيعي أن يُقال انه مُني بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة ، وانه هو لم يكن من اصحاب الخدع الناجحة في الحرب أو السياسة ..

وقد يكون كذلك أو لا يكون ، فسنرى بعد البحث في آرائه وآراء المشيرين عليه أيّ هذين القولين أدنى إلى الصواب .

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه ، في عصره أو بعد عصره ، أن يسأل نفسه :

أكان في وسع عليّ أن يصنع غير ما صنع ؟

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك : هبه استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هي العاقبة ؟ .. وهل من المحقق انه كان يُفضي بصنيعه الى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار اليها ؟..

لم نعرف أحداً من ناقديه ، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك .. مع ان السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد الى تحقيق الصواب والخطأ في رأيه ورأي مخالفيه . سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة ..

والذي يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة ان العمل بغير الرأي الذي سيق اليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر ، بل ربما كان الأمل في نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم ، لو أنه وُضع في موضع العمل والانجاز وخرج من حيّز النصح والمشورة :

وهذه هي المسائل التي خالفه فيها الدهاة ، أو خالفه فيها نَقدَة التاريخ الذين نظروا اليها من الشاطىء ، ولم ينظروا اليها نظرة الربان في غمرة العواصف والأمواج ..

* * *

فالمآخذ التي من هذا القبيل ، يمكن أن تنحصر في المسائل التالية ، وهي :

١ – عزل معاوية .
٢ – معاملة طلحة والزبير .
٣ – عزل قيس بن سعد من ولاية مصر .
٤ – تسليم قتلة عثمان .
٥ – قبول التحكيم .
٦ – قبول الخلافة .

وهي كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين .. فان لم يكن خلاف وكان جزم قاطع .. فهو على ما نعتقد أقرب الى رأي عليّ وأبعد من

آراء مُخالفيه وناقديه ..

قيل في مسألة معاوية ان عليًّا رضي الله عنه خالف فيها رأي المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمي ، وهم جميعًا من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير.

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : « ان لك حق الطاعة والنصيحة ، وأن الرأي اليوم تحرز به ما في غد ، وان الضَيَاعَ اليوم تضيع به ما في غد . أقرر معاوية على عمله ، وأَقرر العمال على أعمالهم ، حتى اذا أتتك طاعتهم وبَيعة الجنود استبدلت أو تركت » .

فأبى وقال : « لا أُداهِن في ديني ، ولا أعطي الدنية في أمري ».

قال المغيرة : « فان كنت أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاوية ، فان في معاوية جرأة ، وهو في أهل الشام يُستمع له ولك حجة في اثباته .. إذ كان عمر قد ولاه الشام » ..

فقال عليّ : « لا والله .. لا أستعمل معاوية يومين ».

* * *

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له ، لما علم برأي المغيرة : « انه نصحك » ..

قال عليّ : « ولِمَ نصحني ؟ »

قال : « لأنك تعلم ان معاوية وأصحابه أهل دُنيا ، فمتى تثبتهم لا يُبالوا بمن وليَ هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى ، وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فينتقضُ عليك أهل الشام وأهل العراق » ..

ثم مضت الأيام ، وشاع بين أهل المدينة ان معاوية مُنتقِض على الامام .. فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمي يعلم ما عنده من أمر هذا الانتقاض ، وكان زياد من جلسائه .

فقال له الامام : « تيسّر ».

قال زياد : « لأي شيء ؟ ».

قال : « تغزو الشام ».

فقال زياد : « الأناة والرفق أمثل ، واستشهد بقول الشاعر :

ومَنْ لَمْ يصانع في أمورٍ كثيرة يُضرّس بأنيابٍ ويُوطأ بمنسم

فتمثل عليّ :

متى تجمع القلب الذكيّ وصارما وأنفا حميًا تجتنبك المظالم »

فخرج زياد الى الناس وهم يَسألونه « ما وَرَاءك ؟ » فأجابهم : « هو السيف يا قوم ! » ..

* * *

تلك آراء المشيرين من ذوي الحنكة ، وذلك ما عَمل به الامام وارتضاه .. فأيهما على خطأ وأيهما على صواب ؟

سبيل العِلم بذلك أن نعلم أولاً : هل كان الامام مستطيعًا أن يقرّ معاوية في عمله بالشام ؟ ...

وان نعلم بعد هذا : هل كان اقراره أدنى الى السلامة والوفاق لو أنه استطيع ؟.

وعندنا ان الامام لم يكن مُستطيعًا أن يقر معاوية في عمله لسببين : أولهما انه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ، وكان اقراره واقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان في رأي عليّ وذوي الصلاح والاستقامة بين الصحابة ، وكثيراً ما اعتذر عثمان من اقرار معاوية بأنه من ولاة عُمر بن الخطاب .. فكان عليّ لا يقبل هذا العذر ولا يزال يقول له : « انه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه « يرفأ » .. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف » .

فاذا أقرّه وقد وليَ الخلافة ، فكيف يقع هذا الاقرار عند أشياعه ؟ ألا يقولون انه طالبُ حكمٍ لا يعنيه اذا وصل الى بغيته ما كان يقول ، وما سيقوله الناس ؟

واذا هو أعرض عن رأيه الأول ، فهل في وسعه أن يُعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان الى حكم جديد ؟..

ان هؤلاء الثائرين أشفقوا من نية الصُلح مع طلحة والزبير في وقعة الجمل . فبدأوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به .. هجموا على أهل البصرة وهم مأمورون بالهُدنة والاناة . فكيف تراهم يهدأون ويطيعون اذا علموا ان الولايات باقية على حالها . وان الاستغلال الذي شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه ؟ .

وندع هذا ونزعم ان اقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع .. فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى الى الوفاق ؟

كلا .. على الأرجح ، بل على الرجحان الذي هو في حكم التحقيق . لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال يظل واليا طول حياته . ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول الى ما وراءه . ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده .. فجمع الأقطاب من حوله . واشترى الأنصار بكل ثمن في يديه ، وأحاط نفسه بالقوة والثروة . واستعد للبقاء الطويل . واغتنام الفرصة في حينها .. فأي فرصة هو واجدُها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره ؟

وانما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها ، والا ضاع منه الملك وتعرض يومًا من الأيام لضياع الولاية . وما كان مِثل معاوية بالذي يفوته الخطر مِن عزله بعد استقرار الأمور ، ولو على احتمال بعيد .. فماذا تراه صانعًا اذا هو عُزل بعد عام من مبايعته لعليّ وتبرئته إياه من دم عثمان ؟

انما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل الإرجاء ..

واذا كان هذا موقف عليّ ومعاوية عند مقتل عثمان . فماذا كان عليّ مستفيداً من اقراره في عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره ..

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من عليّ . لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله في الولاية . وكان يغنم به أن يفسد الأمر على عليّ بين أنصاره . فتعلو حجته من حيث تسقط حُجة الامام ..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيتيه ان صواب الامام في مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه .. فان لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح ، فأقل ما يقال ان الصواب عِنده وعندهم سواء ..

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية وولاة عثمان على الأمصار :

لأن الرأي الذي عمل به الامام معروف ، والآراء التي تخالفه لا تعدو واحداً من ثلاثة ، كلها أغمض عاقبة ، واقل سلامة ، وأضعف ضماناً من رأيه الذي ارتضاه .

فالرأيُ الأول أن يوليهما العراق واليمن او البصرة والكوفة . وكان عبد الله ابن عباس على هذا الرأي فأنكره الامام لأن « العراقين بهما الرجال والأموال . ومتى تملكا رقاب الناس يستعملان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء . ويقويان على القويّ بالسلطان . » ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية . وقد استفادا من اقامة الامام لهما في الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة . ويثيران بها أنصاره عليه .

* * *

والرأي الثاني أن يُوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل . وهو لا ينجح في الوقيعة بينهما إلا باعطاء أحدهما وحرمان الآخر .. فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرّة السانحة ، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب الى الاثرة كما هرب غيره . فيذهب الى الشام ليُساوم معاوية ، أو يبقى في المدينة على ضَغينة مستورة ..

على انهما لم يكونا قط متفقين حتى في مسيرهما من مكة الى البصرة . فوقع الخلاف في عسكرهما على من يصلي بالناس . ولو لا سعي السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين ..

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين . فانهزما بعد أيام قليلة . وخرج الامام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة . ولو بقيا على السلم المدخول

لما انتفع بهما بعضَ انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة .

والرأي الثالث أن يعتقلهما أسيرين ، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة الى مكة حين سألاه الاذن بالمسير اليها ، ثم خرجا منها الى البصرة ليشنا الغارة عليه ..

والواقع ان الامام قد استراب بما نوَياه حين سألاه الاذن بالسفر الى مكة .. فقال لهما : « ما العُمرة تريدان ، وانما تريدان الغدرة ! ؟ »

ولكنه لم يحبسهما ، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم . وقد تركه عبدالله بن عمر ولم يستأذنه في السفر ، وتسلل الى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا ، ولو انه حَبسهم جميعًا لما تسنّى له ذلك بغير سلطان قاهر ، وهو في ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان . وأغلب الظن ان سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم . وما أكثر المتحرجين في عسكر الامام من حبس الأبرياء بغير برهان ! . لقد كان هؤلاء خُلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم . وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يُعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره في عدله وحُسن مجاملته لهم .

* * *

وعلى هذا كله . حاسنوه ولم يُصارحوه بعداء .. لم يكن الجيش الذي خرج من مكة الى البصرة بيائس من الخروج اليها اذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت « العثمانية » في مكة حزبًا موفور العدد والمال .. فهي مسألة تلتبس فيها الطرائق . ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التي سلكها الامام وخرج منها غالبًا على الحجاز والعراق . وما كان وشيكًا أن يغلب عليهما لو بقي معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التي قدمناها ..

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر . فهي غَلطة من غلطات الامام يقل الخلاف فيها ..

لأن قيس بن سعد كان أقدرَ أصحابه على ولاية مصر وحمايتها . وكان كفؤاً

لمعاوية وعمرو بن العاص في الدهاء والمداورة ، فعزله الامام لأنه شكّ فيه .. وشك فيه لأن معاوية أشاع مَدْحه بين أهل الشام ، وزعم انه من حِزبه والمؤتمرين في السرّ بأمره .

وكان أصحاب عليّ يُحرضونه على عزله . وهو يستمهلهم ويْراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه .. فعزله وهو غير واثق من التهمة . ولكنه كذلك غير واثق من البراءة .

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة . فان قيس بن سعد لم يدخل مصر الا بعد أن مرّ بجماعة من حزب معاوية . فأجازُوه ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم ، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين الى مصر من دولة عليّ في الحجاز .

ولما بايع المصريون عليًّا على يديه ، بقي العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون . وقالوا له : « أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر » فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الاسكندرية .

* * *

ثم أغراه معاوية بمناصرته والخروج على الامام . فكتب اليه كلامًا لا الى الرفض ولا الى القبول . ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مُراوغًا لمعاوية أَو يحسبه مترقبًا لساعة الفصل بين الخصمين .. اذ كان ختام كتابه اليه : « ... أما مُتابعتك فأنظرُ فيها ، وليس هذا مما يسرع اليه وانا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه ، حتى نرى وترى ».

ثم اشتد في وعيده حين أنذره معاوية فقال : « أما قولك اني مالىء عليك مصر خيلاً ورجلاً ، فوالله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم اليك إنك لذو جد والسلام .. »

وأراد الامام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية . فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة .. فلم يفعل وكتب اليه : « ... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوّك .

وهم الآن معتزلون والرأي تركهم ».

فتعاظم شك الامام وأصحابه ، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه الى المدينة .. فعزله واستقدمه ، وتبين بعد ذلك انه أشار بالرأي الصواب ، وان تَرْكَ المتخلفين عن البيعة في عزلتهم خير من التعجيل بحربهم لأنهم هزموا محمد بن أبي بكر والي مصر الجديد ، وجرّءوا عليه من كان يصانعه ويواليه .

غلطة لا ريب فيها ..

وان كان جائزاً مع هذا الا يهزموا قيسًا ، لوكان حاربهم كما هزموا خلَفهُ الذي لا يعدله في الحزم والخبرة .

ولكننا نبالغ على كل حال ، اذا علقنا بها الجرائر التي أصابت الامام من بعدها ، وزعمنا انه تقاعَد عن اصلاحها في حينها ، كما تصلح الغلطات التي يساق اليها الساسة .. فانما هي غلطة من تلكم الغلطات التي تُضير والحوادثُ مُولية .. وقلما تضير أو تعز على الاصلاح والحوادث مؤاتية . وقد عرف الامام خطأه فقال لصحبه : « ان مصر لا يصلح لها الا أحد رجلين هذا الذي عزلناه والأشتر » وأنفذ الأشتر الى مصر ليعيدَها الى طاعته فمات في الطريق ..

* * *

والأقوال في موت الأشتر هذه الميتة الباغتة كثيرة ، منها انه مات وان معاوية أغرى به من دس له السُّم في عسل .. شربه وهو على حدود مصر فقضى نحبه ، ورُوِيَ ان معاوية قال حين بلغه موته : « ان لله جنوداً من العسل » .

فان صحت الرواية ، واعتقد انها من دلائل السياسة القوية عند معاوية .. فمما لا شك فيه ان موت الأشتر ، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الامام ، وانه لا لوم على سياسته في اغتياله ، ان كان فيه سبب ثناءٍ على سياسة الغيلة عند من يحمدونها .

ومن عجائب هذه القصة ان معاوية نَدم على تقريب قَيس من جوار عليّ ،

وقال « لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون عليّ من قيس » لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه في عامة أموره ، ولا ينحصر نفعه له في سياسة مصر وحدها .

ولكن الذي حذره معاوية لم يكن ، والذي حذره عليّ كان .

واذا ولت الحوادث ، فقد ينفع الخطأ وقد يُضير الصواب .

ثم تأتي مسألة القَصَاص من قتلة عثمان التي كانت أطول المسائل جدلاً بين الامام وخصومه ، فاذا هي أقصرها جدلاً مع براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة في الحقيقة ..

فقد طالبوه بالقود ولم يُبايعوه ، مع أن القود لا يكون الا مِن وليِّ الأمر المعترف له باقامة الحدود .

وطالبوه به ولم يعرفوا مَن القتلة ومَن هو الذي يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد ..

وأَعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا انه لا يستطاع قبل أن تَثوب السكينة الى عاصمة الدولة ، وأعفوا أنفسهم منه – وهم ولاة الدم كما يقولون – يوم قبضوا على عنان الحكم وثابَت السكينة الى جميع الأمصار.

* * *

وقد تحدث الامام مرة في أمر القود من قَتلة عثمان . فاذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم «كلهم قَتلة عثمان » .. فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين .

وكان الامام يقول لمن طلبوا منه اقامة الحدود : « إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم . ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم ، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعًا لقُدرة على شيء مما تريدون ؟ . »

ومن قوله لهم : « .. ان هذا الأمر أمر جاهلية ، وان لهؤلاء القوم مادة . وان

الناس من هذا الأمر الذي تطلبون على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها، وتُؤخذ الحقوق فاهدءوا عني، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا».

ولو ان المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق الى الثأر له، والقصاص من العادين عليه، لقد كان هذا أقرب الطرق الى ما أرادوا... يؤَيّدون وليّ الأَمر حتى يقوى على اقامة الحدود، ثم يُحاسِبونه بحكم الشريعة حساب انصاف..

الا انهم طلبوا ما لا يجاب، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه، وليس بينهم أعفّ ولا أتقى من السيدة عائشة رضي الله عنها. وقد رُويَ عنها انها قالت لما أُخبرت ببيعة عليّ وهي خارجة من مكة: «ليت هذه انطبقت على هذه إن تَمَّ الأمر لعليّ» تشير الى السماء والأرض.. ثم عادت الى مكة وهي تقول: «قُتل والله عثمان مظلومًا، والله لأطلبنّ بدمه»..

فقيل لها: «ولِمَ؟.. والله ان أول من أثار الناس عليه لأنت.. ولقد كنت تقولين: اقتلوا «نعثلاً» فقد كفر.

فقالت «انهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي اليوم خير من قولي الأول».

وناهيك بالسيدة عائشة في فضلها ومكانتها وتقواها، فقل ما شئت في المطالبين غيرها بهذا الطلب الذي لا يُجاب.

والرضا أو الارضاء، مستحيل حين يكون الطلب من هذا القبيل.

* * *

أما الذين لاموه لقَبوله التحكيم، فيخيل الينا من عجلتهم الى اللوم أنهم كانوا أول من يلومه ويُفرط في لومه لو انه رفض التحكيم وأصر على رفضه، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه..

ولكنه قَبِله بعد احجام جنوده عن الحرب، ووشك القتال في عسكرهم

خلافًا بين من يقبلونه ويرتضونه .

وقَبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفًا وثمانين فزعة للقتال لشكهم في وجوبه وذهاب بعضهم الى تحريمه .

وبعد ان توعّدوه بقتله كقتلة عثمان ، وأحاطوا به يلحون عليه في استدعاء الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مُستحصداً في ساحة الحرب على أمل في النصر القريب ..

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وخطأوه في قبول أبي موسى الأشعري ، على علمه بضعفه وتردده . ينسون أن أبا موسى كان مفروضًا عليه ، كما فرض عليه التحكيم في لحظة واحدة.. وينسون ما هو أهم من ذلك، وهو ان العاقبة مُتشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبدالله بن عباس .. فان عمرو ابن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر عليًّا في الخلافة ، وقصارى ما هنالك أن الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور الى مثل ما رجعت اليه . وان توهّم بعضهم ان الاشتر أو ابن عباس كان قديراً على تحويل ابن العاص عن رأيه ، والجنوح به الى حزب الامام ، بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية.. فليس ذلك على التحقيق بِمُقنِع معاوية أن يستكين ويستسلم ، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع واللبانات يعزّ عليهم اخفاقهم كما يعزُّ عليه اخفاقه .

* * *

وما أسهل المخرج الشرعي الذي يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على نقض حكم الحكمين المتفقين ؟.. لقد كان النبي عليه السلام يقول عن عمار ابن ياسر انه « تقتله الفئة الباغية » فلما قتله جند معاوية ، وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البغي بشهادة الحديث الشريف – قال قائل منهم : إنما قتله من جاء به الى الحرب .. فشاع بينهم هذا التفسير العجيب ، وقبلوه جميعًا غير مُستثنى منهم رجل واحد .. أفلا يقبلون تفسيراً مثله اذا تحوّل ابن العاص . وأفتى الحكماء بخلع معاوية ومبايعة الامام ؟

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين اذن حل أصوب من الحل الذي أذعن له الامام على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالِم بخطئه أو أذعن له وهو يسوي بينه وبين غيره في عقباه .

ويبقى اعتزال الخلافة من البداية ، وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه المعضلات التي واجهها الامام ، ولم يكن عسيراً عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها .. وشيوعهما قبل ذلك بين جنده الذي يعوّل عليه .

ولكنها خطة سلبية لا يُمتحن بها رأي ولا عمل ، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل .. وكل ما هنالك من أسباب ترجيحها انها أسلم للامام وآمن لسربه وأهدأ لباله ، وهو أمر مشكوك فيه .. على ما في طلب السلامة بين هذه الزعازع من أثرة ، قلما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل .

فمن السّخف أن يخطر على البال ان رجلاً كعليّ بن أبي طالب ، يُترك وادعًا في سربه بين هذه الزعازع التي تحيط بالدولة الاسلامية في عصره . .

ان تَركه الثوار وأعفوه من الحكم ، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يُعفوه من الدسيسة والايذاء ، لاعتقادهم انه باب من أبواب الخطر الدائم ، وانه ما عاش فهو عَلَمٌ منصوب يفيء اليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل ان ابنه الحسن مات مسمومًا في عهد معاوية خوفًا من لياذ الناس به ورجعتهم اليه. وقيل مثل هذا عن عبدالله بن خالد بن الوليد.. وما أعظم البون في المكانة والحساب بينهما وبين الامام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال .

* * *

ولعلنا نُقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى ، اذا رجعنا الى أقوال أبطال الميدان نفسه في علل النصر والهزيمة ، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه .

فعليّ يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه في الدهاء ، فيقول : « ... والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس .. »

أو يقول : « ولكنه لا رأيَ لمن لا يطاع ».

ويعلل ما أصابه في بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم : « .. لم تكن بيعتكم أيايَ فلتة ، وليس أمري وأمركم واحداً .. اني أريدكم لله ، وأنتم تريدونني لأنفسكم ».

ومعاوية يذكر الخصال التي أعين بها على علي . فيقول : « انه كان رجلا لا يكتم سراً وكنت كتومًا لسرّي ، وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكنت أبادر الى ذلك ، وكان في أخبث جند وأشدهم خلافًا . وكنتُ أحب الى قريش منه ، فنلت ما شئت .. ».

وعمرو بن العاص يقول عن عدة النجاح في طلب الخلافة : « انه لا يصلح لهذا الأمر الا رجل له ضرسان ، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر » .

وهذه هي أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها ، الا انها تظل ناقصة ما لم نقرنها بحقيقة أخرى ، وهي ان هزيمة معاوية كانت مُرجّحة – بل مؤكدة – لو انه وُضع في موضع عليّ ، وابتليَ بالأسباب التي ابتلي بها .

فالبلاء كله انما كان في خبث الأجناد وشدة خلافهم . ولهذا كان سرّ عليّ يُعرف وسرّ معاوية يُكتم .. لأن معاوية يُطاع ونيته في صدره . وعليًا لا يطاع إلا اذا سُئِل عن نيته وما يحل منها أو يحرم في رأي أتباعه . وكذلك كانت تفاجئه الحوادث لأنه كان يروي فيها ما يروي . ولا ينفذ من رويّته الا الذي ينساق اليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة الحازبة . وقد بَطُل الجدل من قبله التدبير ..

* * *

ولو ان معاوية كُتب عليه أن يحارب جنداً مطيعًا بجند عُصاة ، لما طمع في حظ أوفق من حظ عليّ في ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين .. ولو استعان

بكل ما أُعين به من رشوة الأنصار وكيد الخصوم ، بل لعله كان يُخفق حيث أَفلح قرنه على قدر ما بينهما من فارق في الشجاعة والسابقة الدينية ، وكذلك قال الامام : « ان لبني أمية مروداً يجرون فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لغلبتهم »

على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون في تعليل النصر والهزيمة ، ولا نعدوه الى ما وراءه .. فليس من قصدنا أن نصف عليًّا بقوة الدهاء وسعة الحيلة ، ولكننا قصدنا أن نبرّئه من عجز الرأي وضعف التدبير ، لأن اسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذي لا دليل عليه ..

فقوامُ الفصل بين الطرفين ، انه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز رأْي ولا قوة دهاء .. ولوكانت قوة الدهاء صفة غالبة فيه لظهرت على صورة من الصور ، وان قامت الحوادث عائقاً بينها وبين النجاح .. فان الدهاء لا يُخفيه أن تكون المعضلة التي يعالجها محتومة الفشل مقرونة بالخذلان ..

ومما لا شك فيه ، ان عليّاً أشار بالرأي في مواقف كثيرة فأصاب المشورة ، وانه وصف أناسًا فدلَّ على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال ، وانه أخذَ بالحزم في توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية في ذلك ، ولم يتجاوزها الى الأمد الذي يسلكه بين الدُّهاة الموسومين بفرط الدهاء ..

فمن مشوراته الصائبة ، انه نهى عمر رضي الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه ، فقال له : « انك متى تسر الى هذا العدو بنفسك فتلقهم فَتُنكب ، لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم .. ليس بعدك مرجع يرجعون اليه ، فابعث اليهم رجلاً مجربًا .. فان أظهر الله فذاك ما تحب ، وان تكن الأخرى كنت ردءًا للناس ومثابة للمسلمين ».

* * *

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم ، قوله لابن عباس وقد أرسله إلى طلحة والزبير : « لا تلقين طلحة ، فانك ان تلقه تلفِهِ كالثور عاقصًا – أي لاويا – قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن الق الزبير فانه ألين عريكة فقل له :

« يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق .. فما عدا مما بدا ؟ »

ومن حزمه انه كان يبثّ عيونه وجواسيسه في الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه ، وانه كان اذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأته التردد والابطاء بعد ذلك إلا من خلاف جُنده .

ومن معرفته للجماهير انه وصفهم أوجز وصف حين قال انهم أتباع كلّ ناعق ، وانهم « هم الذين اذا اجتمعوا ضرّوا واذا تفرقوا نفعوا » .. لأنهم اذا تفرقوا رجع أصحاب المهن الى مهنهم فانتفع بهم الناس ..

فهذا قسط من الرأي الصائب ، كافٍ لمهمة الحكم لو تصدّى به الامام للخلافة .. والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة في دَوْر تأسيسها وتلفيق أجزائها .

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم في الدولة الدنيوية ، لو تولاها بعد استقرارها والفراغ من مكائد تأسيسها .. كما جاء عمر بن عبد العزيز في صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بني أمية .

ولكنه قسط من الرأي لا يسلك صاحبه بين اساطين الدُهاة الذين يكيدون بالرأي وبالعمل النافذ على السواء ..

ونعود بعد هذا ، فنقول انه لم يخسر كثيراً بما فاته من الدهاء .. ولم يكن ليربح كثيراً لو استوفى منه أوفى نصيب ، لأنه لا بد من ملك أو خلافة ..

ولن يكون ملكًا بأدوات خليفة ، ولا خليفةً بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلاً يريد العصر والعصر يريده ، لأنه عصر مُلك تهيأت له الدواعي الاجتماعية ، وتهيأ له الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله .

* * *

ولم يكن معاوية زاهداً في الخلافة على عهد ابي بكر او عمر او عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه .

فلما جاء عصر المُلك ، طلب المُلك والمُلك يطلبه .

وقديمًا قال أبوه للعباس عم النبي ، وقد رأى جيش المسلمين في فتح مكة : « لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيمًا » .

فهو المُلك ، أو جاه الدنيا ، الذي تطلع اليه من نشأته الأولى في بيته .. وانتظر ثم انتظر حتى لاقاه على قدر ، فوضع في موضعه وقام به الموضع كما قام به ، ونجحا معًا على التوافق والرفاء .

وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة ، وجب ان يكون على رأس فريق الخلافة .

وحين وجب ان يقع الفصل بين اصحاب المنافع الراغبين في دَوام المنفعة ، وبين اصحاب المبادىء والظلامات الراغبين في التبديل والاصلاح ، وجب ان يكون على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق .

وحين وجب هذا وذاك وجوبًا لا حيلة فيه للمتحوّل ، ولا اختيار فيه للمختار ، وجب أن تصير خلافة عليٍّ الى ما صارت اليه ، كائنًا ما كان خطره من الدهاء والخدعة ، وكائنًا ما كان طريقه الذي ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه .

* * *

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عُدّة الخلافة وعدة الملك في صراع عليّ ومعاوية ، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر في هذا الصراع ، وقد ظهرت في مآزق شتّى من أحرج مآزق التاريخ ، واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيراً في تأسيس الدول وقمْع الثورات ، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء طويل . ونريد بها عُدة البطش العاجل والمباغتة الحاسمة كلما تأشبت العُقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع ..

فقد علمنا مثلاً ان الأشعث بن قيس كان يعترض الامام في كل خطوة من خطوات النصر ، ويُثقل عليه باللجاجة والعنت في مواقف مُكربة تضيق بها الصدور .

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب ، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج ، يظهرون بالعنت في غير موضعه ويذهبون به وراء حدّه ، وربما بلغوا من الضرر في معسكر الامام فوق مبلغ الأشعث بن قيس ، على عِظم الفارق بين سلطانهم وسلطانه .

ألا يخطر على البال هنا ، ان ضربة من الضربات القاضية كانت تنجع في هذا العنت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعية او الأحابيل السياسية ؟..

ماذا لو ان الامام جرّد سيفه بين أولئك المشاغبين ، واطاح برأس الأشعث ابن قيس قبل ان يفيق احد إلى نفسه ، ثم ولّى على الفور من يقوم مقامه في رآسة قومه ويكفل لهم الطاعة بينهم لأمره ؟ .. أكان بعيداً ان تفعل الرهبة فعلها ، فيسكن المشاغب ، ويهاب المتطاول ، ويجتمع المتفرق ، ويقل الخلاف بعد ذلك على الامام وعلى الرؤساء عامة ؟

لم يكن ذلك ببعيد ..

لكنه كذلك لم يكن بالمحقق ، ولا بالمأمون ..

فهي مجازفة ذات حدين ، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا .. وقد يكون الحد الذي تصيب به هو الحد الذي قِبل الضارب دون الحد الذي من قبل المضروب..

وكل ما تفيدنا اياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق ، ان الامام رضي الله عنه لم يكن من أصحاب هذه المَلَكة التي اتصف بها بعض أبطال القلاقل في أيام الفصل بين عهدين متدابرين . فكانت له ضربة الشجاع ، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر..

ولم يضرب بالسيف قط ، كأنه يقذف بالقداح إما إلى الكسب واما الى الخسارة .. وانما كان يضرب به ضرب الجندي الذي يلتمس الغلب بقوته وقوة ايمانه ، ولا يلتمسه من جولات السهام وفلتات الغيب ..

على اننا – وقد سجلنا هذه الملاحظة – نفرض انه رضي الله عنه كان من أصحاب المَلَكة التي عرف بها بعض المغامرين في أوقات الفصل بين العهود ..

ونفرض انه عمد اليها ، فنفعته في عسكره وطوعت له الجند وأراحته من شغب الخارجين عليه والمتشعبين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله .

فماذا عسى أن يغيّر هذا كله من طبيعة الموقف الذي أجملناه ؟ .. يكون المخرج بين سياسة الملك ، كما يطلبها العصر ، وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية ؟

أيَسوس الامام دولته ملكًا دنيويًا أم يسوسها خليفة نبوّة ؟

أيفرق الأموال على رءوس القوم وقادة الجند وطلاب الترف أم يلزمهم عيشة النسك والشظف والجهاد ؟

واذا حرمهم وتألبوا عليه مع خصمه ، أَفَهو الغالب إذن بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟

واذا أعطاهم ليبذخوا بذخ الملك الدنيوي وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنَّة النبوة ، أفيستقيم له هذا الدور العجيب وهو في جوهره متناقض لا يستقيم ؟..

فالسياسة التي اتبعها الامام هي السياسة التي كانت مقيضة له مفتوحة بين يديه ، وهي السياسة التي لم يكن له محيد عنها ، ولم يكن له أمل في النجاح ان حاد عنها الى غيرها .. سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم الذي رأيناه ، وسواء لانَ لطلاب الدولة الدنيوية أم صمد على سنّة النبوة والخلافة النبوية .

* * *

ومهما يكن من حكم الناقدين في سياسة الامام ، فمن الجَوْر الشديد أن يُطالب بدفع شيء لا سبيل الى دفعه ، وأن يُحاسب على مصير الخلافة وهي منتهية لا محالة الى ما انتهت اليه ..

ومن الجور الشديد ، أن يُلقى عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ، ولا بد لها من شهيد ..

وقد تجمعت له أعباء النقائض والمفارقات التي نشأت من قبله ، ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبي صلوات الله عليه ..

أحس بها الصدِّيق ، فمات وهو ينحي على الصحابة ويحذرهم بوادر الترف الذي استناموا اليه ..

وأحس بها الفاروق وأثقلت كاهله ، وهو الكاهل الضليع بأفدح الأعباء .. فضاق ذرعًا بالحياة ، وطفق يقول في سنة وفاته : « اللهم كبرت سنّي وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني اليك غير مضيع ولا مفرط .. اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك ».

وأحس بها عثمان ، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين ، لا يرجع أحدهما الا بالغلبة على نده وضده ..

وكُتب لعليّ بعد ذلك أن يتلقى الدولة الاسلامية بين هذين العسكرين ، فلا في مقدوره أن يجمعها الى عسكر واحد ، ولا في مقدوره أن يختار منهما عسكر الملك ، ولا أن يختار عسكر الخلافة الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها ..

وما لم يكن في مقدوره لم يكن في مقدور غيره ، وانه لإنصاف قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة ، وهو الذي باء وحده بتلك النقائض والأعباء ..

وقد نُقِدت سياسة عليّ لفوات الخلافة منه قبل البيعة . كما نُقدت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأحصى عليه بعض المؤرخين انه تأخر نيفًا وعشرين سنة .. فلم يخلف النبيّ ، ولم يخلف أبا بكر ، ولم يخلف عمر .. كأنه كان مستطيعًا أن يخلف أحداً منهم بعمل من جهده وسعي من تدبيره ، فأعياه السعي والتدبير ..

ومقطع الفصل في هذا أن نرجع الى العوائق التي حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها اليه ، لنعلم منها العائق الذي كان في أيدي الحوادث والعائق الذي كان في يديه ، أو كانت له قدرة معقولة عليه .

* * *

فمما لا شك فيه ان الامام أنكر اجحافًا أصابه في تخَطيه بالبيعة الى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وانه كان يرى ان قَرابته من النبي مزيّة ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع مِنَ النبوة على اعتقاده ، وهم شجرة النبوة ومحطّ الرسالة ، كما قال ...

ومما لا شك فيه ، ان شعوره هذا طبيعي في النفس الانسانية كيفما كان حظها من الزهد والقناعة ، لأن تخطّيه – مع هذه المزية التي ترشحه للبيعة – يشبه أن يكون قَدْحًا في مزاياه الأخرى ، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالأة على الغضّ من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القَدْح فيها والحط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة ..

إلا أن الخلافة الاسلامية . مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يؤتم فيها برأي واحد ولا بحق واحد . وقد يضحى في سبيلها بالعظيم والعظماء ، اذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء ..

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى في ميزان عليّ هي العائق الأول في سائر الموازين ، ومنها ميزان النبي صلوات الله عليه ..

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبيات في قريش . وفي القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة ، وكراهته أن يصور الاسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصبة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين. وقد رضي في سبيل هذا المقصد الحكيم ، أن يجعل بيت أبي سفيان صنواً للكعبة في أمان اللاجئين اليه ، وأصهر الى أبي سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبيه ، وربما حسن لديه ان تئول الخلافة الى عليّ بعده اذا شاء المسلمون دلك . ولكن على أن تكون خلافته اختياراً مرضيًا كاختيار غيره من أنصاره وأصحابه ، ويستوي منهم القريب والبعيد .

* * *

ولم تكن الحكمة النبوية هي وحدها التي تأبى اثارة العصبيات وتصوير الاسلام

للعرب وللناس عامة في صورة السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها في صميم أصولها تأبى هذا الذي أبته الحكمة النبوية وتجتنبه غاية ما في وسعها اجتنابه .. لأن الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ، تشمل الأمم كافة من عرب الى عجم ومن مشرق الى مغرب ، وتقوم في أساسها على المساواة بين الناس وردّ المفاضلة بينهم الى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق . فليسْ من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة ، وأن يقام الحكم على هذا التفضيل ..

وأن أحق الناس أن يفطن الى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا ان وراثة الخلافة في بني هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من ضرورات الدين ..

فلو أنها كانت حكماً من أحكام الله ، لكان أعجب شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور ، وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت ..

ولو انها كانت ضرورة من ضرورات الدين ، أو ضرورات القضاء ، لنفذت في الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم ، وحبطت كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية ..

فلا النصوص الصريحة ، ولا دلالة الحوادث على الارادة الإلهيّة . مما يؤيد أقوال الغُلاة عن ترجيح الخلافة بالقرابة ، أو حصر الخلافة في الأسرة الهاشمية ..

وهذا هو العائق الأول الذي حال بين عليّ وبين الخلافة ولا قدرة له عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة ، وذكره الفاروق حين قال : « ان قريشاً اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة » .

* * *

ويرى بعض المؤرخين ، ان قريشاً كانت تحقد على الامام وتنحيه عن الخلافة لعلّة أخرى تقترن بهذه العصبية التي أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بني هاشم ، فقد بطش الامام بنفر من جلة البيوت القرشية في حروب المسلمين والمشركين ،

وقتل من أعلام بني أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية . والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه ، وجميعهم من قَتْلاَه في يوم بدر.. عدا من قتلهم في الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه الثرات بعد دخولهم في الاسلام ، وزادهم حقداً انهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم من الكفار. وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبي الحديد : « ... كأنها حاله لو أفضت الخلافة اليه يوم وفاة ابن عمه ، من اظهار ما في النفوس وهيجان ما في القلوب ، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله » .

وقد علم الامام هذا من قريش ، عندما يئس من مودتها وابتلي بالصريح والدخيل من كيدها ، فقال : « ..ما لي ولقريش ؟.. أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم مفتونين .. والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته .. فقل لقريش ، فلتضج ضجيجها » .

ولو أن قريشًا وادعته في سرّها وجهرها ، ووقفت بينه وبين منافسيه على الخلافة لا تصده عنها ولا تدفعهم اليها ، لقد كانت تلك عقبة أي عقبة ..

فأما وهي تحاربه بعصبيتها وتحاربه بذحولها ، فتلك هي العقبة التي لا يذللها الا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبي صلوات الله عليه ، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش في أرجاء الدولة الاسلامية بأسرها ..

ولقد سبق الامام الى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم : أبو بكر وعمر وعثمان ..

فاذا نظرنا الى عائق العصبية الذي قدمناه ، فلا نرى شيئًا أقرب الى طبائع الأمور من سَبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم الى ولاية الخلافة بعد النبي عليه السلام ، لأنهم أقرب الناس أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال الترجيح والترشيح .

فليس أقرب الى طبائع الأمور في بلاد عربية اسلامية من اتجاه الأنظـــار

الى مشيخة الاسلام في السن والوجاهة والسابقة الدينية ، لا ختيار الخليفة من بينها على السنّة التي لم تتغير قط في تواريخ العرب الأقدمين ، ولم يغيرها الاسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين .

* * *

ولم يكن الامام عند وفاة النبي من مشيخة الصحابة التي تئول اليها الرئاسة بداهة بين ذوي الأسنان ، ممن مارسوا الشورى والزعامة في حياته عليه السلام .. لأنه كان يومئذ فتى يجاوز الثلاثين بقليل . وكان أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا في جوار النبي بضع عشرة سنة قبل ظهور عليّ في الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبي ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويُدَان لهم بالتوقير والولاء ..

والعائق الذي قام بين عليّ وبين الخلافة هو في طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب ..

ونعني به عائق العصبية الهاشمية ..

لأن قريشاً لا تنفس على بني تيم ، ولا بني عدي ، ولا بني أمية ، في رئاسة عثمان خاصة .. كما تنفس على بني هاشم ، اذ تجتمع لهم النبوة والخلافة .

والامام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بثاقب نظره ، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق : « ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر الى بيتها فتقول : ان ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً .. وما كانت في غيرها من قريش تداولتموها بينكم . » .

* * *

واذا اجتمع هذا العائق الى عائق السن والتوقير للمشيخة المقدمة ، فهما مُبعِدان للامام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه ..

نعم ان فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق ، وبلغ الامام الخامسة والأربعين ، وسبقت له في المشورة سوابق مأثورات .. فأصبح الفارق بينه وبين من

يكبرونه مزية تعين على العمل والجهد وتنفي مظنة الضعف والتواكل . ولكن الذي كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية ويأس الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه ، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب الى بعض الأمل في لين عثمان وتقدم سنه منهم الى أمل من الآمال في شدة الامام وعسر حسابه ..

وبقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها ، لم يكفكف منها تقادم العهد كما قال ابن أبي الحديد..

وعلى هذه الجفوة في القبيلة كلها ، دخلت في الأمر دخلة البواعث الشخصية التي لا يسلم منها عمل من أعمال بني الانسان في زمن من الأزمان .. فقد اجتمع رهط الشورى الذين نـدبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده ، فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم. وقيل انه أنس من الزبير وسعد بن ابي وقاص ميـلا موقوتًا الى عليّ وانحرافًا موقوتًا عن عثمان ، فسارع الى المنبر وبايع عثمان وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق ..

وكان عبد الرحمن بن عوف صهرًا لعثمان، لأنه زوج أخته لأمّه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط .

* * *

ويقضي الحق أن يقال في هذا المقام ان بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود ، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هي التي خذلت عليّاً وقدمت عثمان عليه ، اذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين حزبين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن ابن عوف.. وهو واحد من خمسة أو ستة اذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ..

ثم بويع الامام بعد مقتل عثمان ، فهل تحولت قريش عن جفوتها ، أو نظرت الى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها ؟

كلا ...

بل جاءت البيعة في المدينة ، يوم خفت فيها صوت قريش ، وهبطت سمعة حكامها .. يوم أصبحت البيعة ثورة على قريش ، تنكر عليها الأثرة بالملك والاثرة بالغنائم والأمصار .. ويوم انقسم المجتمع الاسلامي قسمية اللذين التبسا وتداخلا حيناً حتى فصلتهما الحوادث فصلها الحاسم في خلافة عثمان : قسم يريد الرجعة الى الخلافة والآداب النبوية ، وقسم يريد المضي في الملك والدولة الدنيوية ..

فأي القسمين ، كان قسم عليٌّ كائناً ما كان سعيه واجتهاده ؟ وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبي الى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان ؟

وكل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة أقل محيد .

وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره ، فهو على هذا الملتقى الذي يتلاحق عنده الاسراع والابطاء ..

وعلى هذا ينبغي أن نرجع الى عِلّة غير سياسة عليّ لتعليل العوائق التي قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصدّيق والفاروق وعثمان ..

فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التي نظرت بها قريش الى السيادة الهاشمية ..

وهو غير مسئول عن سنه التي تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوي السابقة في الجهاد والزعامة والأصالة بين ذوي الأسنان والأخطار ..

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التي جعلت تأسيس الاسلام على أسرة واحدة في العالم كله أمراً ملحوظاً بالتوجس والاحجام منذ اللحظة الأولى ..

نعم قد يسأل الامام عن علاقته بالناس وقدرته على تألفهم بالآمال والمجاملات ، ليأنسوا اليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه ، ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملا في بِرّه واطمئناناً الى حفاوته ووده .

وقد يرد على بعض الخواطر ، ان سياسة الدولة الدنيوية أو سياسة الارضاء بالمنافع والوعود ، كانت أجدى عليه من آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولاً وآخراً بين قريش وقبائل العرب عامة ..

فهذا في رأيهم مأخذ يرجع الى شخصه وأعماله ، ويُسأل عنه كما يسأل الانسان عن عمله وتصريف إرادته وفكره . ولا يجوز أن نرجع به الى حكم الحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التي لا قبل له بتبديلها .

ولكن الواقع ان هذه السياسة – سياسة المنافع الدنيوية – لم تكن لتجديه شيئًا بعد وفاة النبي ، ولا بعد مقتل عثمان ..

فبعد النبي عليه السلام ، لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت في الأيدي وأنشأت في المجتمع الاسلامي طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها ..

فالذي يناضل في سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع ، انما كان يناضل بسلاح غير موجود .. بل كان يناضل سلاحًا ماضيًا ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التي غَلَبَتْ في ضرباتها الأولى كل سلاح .

أما بعد مقتل عثمان ، فأبعد الأمور عن التخيّل أن يغلب عليّ معاوية في سوق المنافع الدنيوية ، لأن معاوية قد أهب لها أهبته قبل عشرين سنة ، وجمع لها أنصاره وكنز لها كنوزه في بلاد وادعة بين جند مطيع .

ولو توافرت لعليّ مادة هذه السياسة ، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها .. فليس أقل نفعًا في هذا المضمار من اعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا من أجلها بدم خليفة ، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين .. فلا يديرون أنفسهم الى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه .

وأغلب الظن ان عليًا كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه ، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه .

فقد جبته آداب الخلافة إلى كل طبقة تكره استغلال الحكم ، ولا مطمع لها فيه .. فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم ، فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق ، ونشأت في اليمن – وقد عهدت حكمه قديمًا – تلك الطائفة السبئية التي غلت في حبه حتى ارتفعت به الى مرتبة التقديس ، وانتشرت في مصر وفارس بذور تلك الشيعة

الفاطمية والامامية التي ظلت كامنة في تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال ، وشذّت الشام لأنها كانت في يد معاوية ، وشذّت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت في يد طلحة والزبير ، ولم يشذّ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الاسلامية من أقصاها الى أقصاها .. فلولا ان سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة ، وان العصب من القادة كانوا كلما وُجدوا في بقعة من البقاع وُجد معهم النفع والاستغلال.. لقد كانت محبة أولئك السواد أنفع من عصب معاوية أجمعين ..

فأغلب الظن – كما أسلفنا – ان عليّاً كان يخسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة الدنيوية ، ولا يكسب العصب التي ناصبته العداء ، وأيقنت انه حائل بينها وبين ما طمحت اليه من الصولة والثراء ..

وهذا على تقدير المقدرين ان عليًّا يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة ، وانه لو اتبعها لكانت أجدى عليه .

وليست هي أجدى عليه لو اتبعها ، ولا هو على اجتنابها بملوم ..

وتفضي بنا هذه التقديرات جميعًا الى نتيجة واضحة نلخصها في كلمات وجيزة . ونعتقد أنها أعدل الأقوال في وصف تلك السياسة التي كثرت فيها مطارح النقد والدفاع ..

فسياسة عليّ لم تورطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع سياسة أخرى..

وهي كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية ، كان يعز عليه بلوغها في موضعه الذي وضع فيه وعلى مجراه الذي جرى عليه ..

فليست هي علّة فشل منتزع ، ولا علة نجاح منتزع ، أو هي لا تستدعي الفشل من حيث لم يخلق ، ولا تستدعي النجاح من حيث لم يسلس له قياد ..

ورأينا في سياسته فهمًا وعلمًا ، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التي هي الى الغريزة أقرب منها الى الذكاء..

فكان نعم الخليفة ، لو صادف أوان الخلافة ..

وكان نعم المَلِك لو جاء بعد توطيد المُلْك واستغنائه عن المساومة والاسفاف ..

ولكنه لم يأت في أوان خلافة ولا في أوان مُلك موطد ، فحمل أعباء النقيضين ، واخفق حيث ينبغي أن يخفق أو حيث يعييه أن ينجح .. وتلك آية الشهيد ..

* * *

حكومة

كانت الدولة الاسلامية الناشئة على شفا الخطر في إبان الفتنة الداخلية بين عليّ ومعاوية .. ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذي يهددها .. وتتلخص عوامل الأمان في وقاءين اثنين :

أحدهما ، ان الاسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح اليها ، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره ، وسكن اليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى الى حُكمه وهو باقٍ على اعتقاده ..

وثانيهما ، ان أعداء الاسلام كانوا في شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحدق بهم من المخاوف ، وربما صحَّ في الفتنة الاسلامية يومئذ ما يصح في كثير من الطوارق التاريخية الكبرى ، وهي انها لن تكون شراً محضاً في جميع عواقبها . ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها .. فإن هذه الفتنة قد أغرت أعداء الاسلام بالانتظار ، وأوقعت في روعهم انهم غنيون عن التحفز والوثوب الذي يشق عليهم جهده ، وهم في تلك الحالة من الجهد والإعياء .. فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والأناة ، وألهى القوم عنه ببعض الأتاوات والنوافل .. فتراجعوا متربصين الى أن يقضي الخلاف بين المسلمين قضاءه ، وهم وادعون مكفيون شر القتال .. فكان هذا الانتظار الخادع جانبًا من جوانب الخير في الفتنة الاسلامية التي فاضت يومئذ بالشرور .

وعلى هذا انقضت أيـام عليٍّ وليس للحكومة الاسلامية سياسة خارجية

تحسب من سياسة الفتوح ، أو سياسة الدفاع ، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع ..

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة عليّ ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هو السياسة الداخلية كما نسميها في العصر الحديث ..

* * *

ومن اليسير أن نعرف سياسة الامام بينه وبين رعاياه ، بغير حاجة الى الاطالة في التعريف وسرد الأمثال ..

لأنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية .

فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين ، فاذا طريق عليٍّ هي طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض . أو هي أقرب الطريقين الى المساواة وأدناهما الى رعاية الضعفاء .

فالناس في الحقوق سواء ..

لا محاباة لقويّ ولا اجحاف بضعيف ، وقد عمد الى القطائع التي وزعت قبله على المقربين والرؤساء ، فانتزعها من القابضين عليها وردها إلى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنَّة المساواة ، وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته ، فان في العدل سعة .. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق » .

وفرض الرفق بالرعية على كل والٍ ، فلا ارهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هي صاحبة الحق في المال .

فمن وصاياه المكرّرة لِوُلاته : « انصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فانهم خزان الرعية .. ولا تحسموا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته ، ولا تبيعُن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ، ولا عبداً ، ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم ... »

ومن وصاياه في تحصيل الخَرَاج والصدقات : « .. امض اليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله . أرسلني اليكم وليُّ الله وخليفته لآخذ منكم حَقّ الله في أموالكم ، فهل لله في أَموالكم حق فتؤدوه الى وليّه ؟.. فان قال قائل : لا ، فلا تراجعه .. وان أنعم لك مُنعم ، فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها الا بإذنه ، فان أكثرها له .. فاذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به .. ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعها ، ولا تسُوءن صاحبها فيها ، وأصدع المال صدعين ، ثم خيِّره ، فاذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله في ماله .. فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقله .. » .

وكان دستوره في تحصيل الضرائب المفروضة على الناس ، ان النظر في عمارة الأرض أبلغ من النظر في استجلاب الضريبة ، فكان يكتب الى واليه : « تفقّد أمر الخراج بما يصلح أهله .. فان في صلاحه وصلاحهم صلاحًا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم .. لأن الناس كلهم عيال على الخَرَاج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يُدرك الا بالعمارة ، ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره الا قليلا ، وانما يؤتى خراب الأرض من اعواز أهلها ، وانما يعوز أهلها إسراف الولاة الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر .. »

أما دستوره في الولاة والعمال ، فخلاصته ما كتب به إلى الأشتر النخعي يقول له : « انظر في أمور عمالك ، فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة .. فانهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الاسلام ، فانهم أكثر أخلاقًا وأصح اعراضًا وأقل في المطامع اسرافًا ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً .. ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تَفَقّد أعمالهم وابعث العيون

من أهل الصدق والعيون عليهم .. فان تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية » .

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال ، كان ينهى أشد النهي عن كشف معائب الناس ، أو كما كان يقول في وصية ولاته : « وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس .. فان في الناس عيوبًا ، الوالي أحق من سترها .. فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فانما عليك تطهير ما ظهر لك » .

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثِّه على اتخاذ العيون والجواسيس ، فقال في وصيته لمحمد بن أبي بكر : « لا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جبانًا يضعفك عن الأمور ، ولا حريصًا يزين لك الشره بالجور . فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .. ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة ، فانهم أعوان الأثمة واخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم .. وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم » ..

ولم ينكر قط شيئًا من سياسة التولية ، ثم صنع مثله في عهده ، على كثرة الاغراء حوله باصطناع التُقية والمداراة والهوادة قليلا مع الأقرباء وذوي الأخطار ..

ومن زعم غير ذلك ، من ناقديه في عصره أو بعد عصره ، فانما هو آخذ في المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ..

إذ كان مما قيل مثلا ان عليّا أقام عبد الله بن عباس على البصرة . وعبيد الله ابن العباس على اليمن ، ومحمد بن أبي بكر ابن زوجته على مصر .. وهم أقرباؤه وخاصة أهله ، فهو اذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من إيثار الأقرباء بالولايات واقصاء الآخرين عنها ..

ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ، لأن المقارنة الصحيحة بين العملين تُسفر عن فارق بعيد كالفارق بين النقيض والنقيض ..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية في غير حكومة الامام ، ولم يكن

للامام معتمد على غيرهم بعد أن حاربته قريش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار..

وهم مع هذا لم يؤثَروا بالولايات كلها ، ولم يؤثَروا بالذي خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وارزاقه .. بل كانوا يحاسبون على ما في أيديهم أعسر حساب ، وكانوا لتضييقه عليهم في المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها ، كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة الى مكة ..

وقد بلغ من حسابه للوُلاة انه كان يحاسبهم على حضور الولائم التي لا يجمل بهم حضورها .. فكتب الى عثمان بن حنيف الانصاري عامله على البصرة : « أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغني ان رجلا من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة .. فأسرعت اليها تُستطاب لك الألوان وتنقل اليك الجفان . وما ظننتُ انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيّهم مدعو ، فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم .. فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه » .

واستكثر على شريح قاضيه أن يبني داراً بثمانين ديناراً ، وهو يرزق خمسمائة درهم .. وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة في القضاء وحرجًا في الدين . .

فلو أن الامام اختص أقرباءه بالولايات التي يحاسَبون عليها هذا الحساب ، لما كان في اختصاصه اياهم مُستبيح حق ولا مُستبيح مال .. فكيف وهو لا يختصهم الا بالقليل منها ، ولا يختصهم وله مندوحة عنهم ، أو يختصهم وهم دون غيرهم في القدرة والأمانة ؟

فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف ، وكل ما توحي الى الناقد بها أنه يذكر الأقرباءَ هنا والأقرباء هناك ..

وقد انقسمت طريق الخلافة ، وطريق الدولة الدنيوية في كل أمر من الأمور على عهد الامام ، ولم تنقسم في مسألة الولاة أو مسألة الاستغلال .

وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين في عهده قيام الفكرة العالمية الى جانب

العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية ..

فالدولة الدنيوية تشد أزرها بالعصبية الجنسية ، والخلافة الدينية تشد ازرها بالإخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس..

وقد كانت القبيلة من انصار الامام ، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية في سبيل الرأي والعقيدة ..

وكان أنصار الامام أبداً من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش خاصة ، وبين بني هاشم على الأخص ، وبين قبائل العرب على التعميم ..

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين امامة عليّ أو خلافته ، هو أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة .. فاذا ذهب هذا وجب إن يذهب ذاك ، أيًا كانت السياسة المتوخّاة ، وبالغًا ما بلغ نصيبها من السواء والصواب ..

ولنا أن نعمم هذا الحكم الانساني في كل شأن من شئون الحكومة ، قضى به عليّ في عهده أو عهود الخلفاء من قبله .

فالروح الانساني هو قوام الحكومة الإمامية ، كما ينبغي أن يكون ، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الآدمية .. وهي طاقة لها ما لها من حدود ..

جيء الى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يُشتبه في حملها ، فاستفتى الامام .. فأفتى بوجوب الابقاء عليها حتى تضع جنينها ، وقال له : « ان كان لك سلطان عليها فلا سلطان لك على ما في بطنها » .

وانتزع امرأة من أيدي الموكلين باقامة الحد عليها .. وسأله عمر فقال : « أما سمعت النبي ﷺ يقول : رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المبتلى حتى يعقل ؟ » قال : « بلى » قال : « فهذه مبتلاة بني فلان .. فلعله أتاها وهو بها » قال عمر : « لا أدري » قال : « وأنا لا أدري » فترك رجمها للشك في عقلها ..

وأتي عمر بامرأة أجهدها العطش ، فمرَّت على راعٍ فاستسقته .. فأبى أن يسقيها

الا أن تُمكِّنه من نفسها .. ففعلت ، فشاور الناس في رجمها ، فقال عليّ : « هذه مضطرة الى ذلك .. فخلِّ سبيلها »

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة في القصاص وتفسير الشريعة ..

إلا انه قد حاد عن هذه السنَّة في أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره ، ومنهم ابن عمه عبدالله بن عباس ..

وذلك هو احراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلهة ، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة ، وقيل انهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون .. فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلاً على انه هو الإله المعبود .. اذ لا يعذب بالنار الا الله ..

فهؤلاء المفسدون والمفتونون ، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التي لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة .. ولكن الاحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب ، وليس في اجتنابها خطر على الشريعة ، ولا على النظام ..

انما شفيع الامام في هذه الصرامة انه كان هو المستهدف لتلك الضلالة ، وهو مظنة الريبة في الهوادة فيها .. فهو ينزه عدله عن كل ظن حيث تُظن بالهوادة جميع الظنون ، وقد أحرق الذين ألَّهوه . . ونهى عن قتال الخوارج الذين حكموا بكفره ، الا أن يفسدوا في الأرض أو يبدءوا بالعدوان على بريء . وفي هذا الانصاف بين مؤلِّهيه ومكفريه شفاعة من تلك الصرامة في العقاب .

وكان الامام يذكر أبدًا في حكومته ان الحقوق العامة لها شأن لا يُنسى مع حقوق الأفراد ..

ومن ذلك ما نقله الطبري عن بعض الأسانيد ، حيث قال : « رأيت عليًا عليه السلام خارجًا من همدان ، فرأى فتيين يقتتلان ففرق بينهما .. ثم مضى فسمع صوتًا : يا غوثا بالله . فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله ، وهو يقول : « أتاك الغوث .. » فاذا رجل يلازم رجلًا ، فقال : « يا أمير المؤمنين .. بعتُ هذا ثوبًا بتسعة دراهم وشرطت عليه ألا يعطيني مغموزاً ولا مقطوعًا ، فأتيته بهذه الدراهم

ليبدلها لي فأبى فلزمته فلطمني » فقال : « ابدله » ثم قال : « بيّنتك على اللطمة » فأتاه بالبيّنة .. قال : « دونك فاقتص » قال : « اني قد عفوت يا أمير المؤمنين » قال : « انما أردت أن أحتاط في حقك » .. ثم ضرب الرجل تسع درات ، وقال : « هذا حق السلطان » .

وكان يكرر هذا الحكم في كل ما شابهه من أمثال هذا العدوان ، وهو اشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية في القصاص .

ويقال الكثير عن مناهج الامام في الحكومة وسياسة الرعية مما يغني فيه هذا الاجمال عن التوسع في التفصيل .

ولكن الذي لا يُنسى في سياق الكلام عن الامامة والدعوة العالمية ، انه رضي الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة الى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازي سليل الحجازيين ..

وقد اختار الكوفة ، فكانت أوفق عاصمة للإمامة العالمية في تلك المرحلة من مراحل الدولة الاسلامية ..

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام ، وكانت العاصمة الثقافية التي ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات .. فهي أليق العواصم في ذلك العصر بحكومة إمام ، وما زالت الامامة لاحقة بعليّ ومحيطة به حيث تحول وحيث أقام ..

النبيّ والامام والصحابة

أحاديث النبي عليه السلام في فضل عليٍّ ومحبته متواترة في كتب الحديث المشهورة .. منها ما انفرد به ، وهو حديث الخيمة الذي رواه الصدِّيق رضي الله عنه حيث قال : رأيت رسول الله ﷺ خيم خيمة ، وهو متكىء على قوس عربية ، وفي الخيمة عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : معشر المسلمين .. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، وليٌّ لمن والاهم ، لا يحبهم الا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم الا شقي الجد رديء الولادة » .

ومنها ما اشترك فيه وغيره ، وهو الذي روته السيدة عائشة حيث سئلت : « أي الناس أحب الى رسول الله ﷺ ؟ .. قالت : فاطمة ! .. فقيل : مَنْ زوجها ! .. قالت : زوجها .. ان كان ما علمت صوامًا قوامًا ».

وقد روي حديث في هذا المعنى ، حيث سُئل رسول الله عن أحب الناس اليه ، فقال : « من النساء عائشة ، ومن الرجال أبوها » .

ولا تناقض بين الحديثين ، إذ كانت السيدة عائشة هي التي تروي الحديث الأول ، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه ، أوكانت تروي عن أقرباء النبي من لحمه ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها .

وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية في فضل عليّ ومحبته ومنزلته عند اللهونبيِّه ، وهي تعد بالعشرات .

وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث ، وفي أسانيدها ،

ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للامام أو التشيع عليه .. وهو شرح طويل لا يهمنا منه هنا ان ننصر فيه فريقًا على فريق ، أو نرجّح مذهبًا على مذهب .. اذ ليس فَهْمُ الامام موقوفًا على تغليب أي الفريقين وتعزيز أي المذهبين ، وفَهْم الامام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعنيه ..

فهما يختلف الرواة في تأويل الأحاديث ، فالذي يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم ، ان علياً كان من أحب الناس الى النبيّ ، ان لم يكن أحبهم اليه على الاطلاق ..

لقد كان النبي عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين .. فأي عجب أن يخص بالحب من بينهم انسانًا ، كان ابن عمه الذي كفله وحماه ، وكان ربيبه الذي أوشك أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله في الفراش ليلة الهجرة التي همَّ المشركون فيها بقتل من يبيت في فراشه . وكان نصيره الذي أبلى أحسن البلاء في جميع غزواته ، وتلميذه الذي علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشىء في سنه ؟ ..

حب النبي لهذا الانسان حقيقة لا حاجة بها الى تأويل الرواة ولا الى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية ، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف ..

ومما لا خلاف فيه كذلك ، انه عليه السلام كان لا يكتفي بحبه اياه .. بل كان يسره ويرضيه أن يحبِّبه الى الناس . وكان يسوؤه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه ..

بعث رسول الله عليًّا في سرية ليقبض الخمس ، فاصطفى منه سبية ، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك الى رسول الله . وكان المسلمون اذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول . فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم ، ثم انصرفوا الى رحالهم .. فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه .. فتناوبوا الحديث واحداً بعد واحد في معنى كلامه . فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال : « ما تريدون من عليٍّ ؟.. ما تريدون

من عليٍّ ؟.. ما تريدون من عليٍّ ؟.. عليٌّ مني وأنا منه وهو وليّ كل مؤمن بعدي »
وقال لأحدهم في روايات أخرى : « أتبغض عليًّا ؟ » قال : « نعم ! » قال : « لا تبغضه ، فان له في الخمس أكثر من ذلك ، أي أكثر من السبية التي اصطفاها.. لا تبغضه ، وان كنت تحبه فازدد له حبًّا » .

* * *

وبعث رسول الله عليًّا الى اليمن ، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم ، فأبى .. فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم . وتولى شكايته سعد بن مالك بن الشهيد ، فقال : « يا رسول الله . . لقينا من عليٍّ من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق .. » ومضى يعدد ما لقيه ، حتى اذا كان في وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه ، وهتف به : « يا سعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قولك لأخيك عليٍّ ! فوالله لقد علمت انه جيش في سبيل الله » .

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى ، فقام رسول الله فيهم خطيبًا يقول لهم : « أيها الناس .. لا تشكوا عليًّا ، فوالله انه لجيش في ذات الله » ..

ويلوح لنا ان النبي عليه السلام كان يحب عليًّا ويحببه الى الناس ، ليمهد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات ، ولكن على أن يختاره الناس طواعية وحبًّا .. لا أن يكون اختياره من حقوق العصبية الهاشمية ، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه ، ولم يحذر خطراً على الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس سبيلا الى المُلْك والدولة في بني هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا وأقصى معظم بني هاشم عن الولاية والعمالة لينفي هذه الظنة .. ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأي والمشيئة ..

فالتزم في التمهيد لعليٍّ وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة الى التقديم والوكالة ، أرسله في سرية الى فدك لغزو قبيلة بني سعد اليهودية ، وأرسله الى اليمن للدعوة الى الاسلام ، وأرسله الى منى ليقرأ على الناس سورة براءة ، ويبين لهم حكم الدين في حج المشركين وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون الى غزوة تبوك .. ولم يفته مع هذا كله أن يلمح الجفوة بينه وبين الناس ،

وأن يكله الى السن تعمل عملها مع الأيام ، ويكلهم في شأنه الى ما ارتضوه ، عسى أن تسنح الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه ..

هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخيلها العقل . وتُنبىء عنها الحوادث بين النبي وابن عمه العظيم ..

* * *

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هي وحدها العلاقة الممكنة المأمونة . وكل ما عداها فهو بعيد من الامكان بعده من الأمان .

فهو يحبه ويمهّد له وينظر الى غده ، ويسره أن يحبه الناس كما أحبه ، وأن يحين الحين الذي يكلون فيه أمورهم إليه ..

وكل ما عدا ذلك ، فليس بالممكن وليس بالمعقول ..

ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة ..

وليس بالممكن أن يحبهما له ، وينسى في سبيل هذا الحب حكمته الصالحة للدين والخلافة ..

واذا كان قد رأى الحكمة في استخلافه ، فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لا يجهر به في مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع ..

واذا كان قد جهر به ، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته وعصيان أمره . انهم لا يريدون ذلك مخلصين ، وانهم إن أرادوه لا يستطيعونه بين جماعة المسلمين ، وانهم ان استطاعوه لا يخفى شأنه ببرهان مبين ، ولو بعد حين..

فكل أولئك ليس بالممكن ، وليس بالمعقول ..

وانما الممكن والمعقول هو الذي كان ، وهو الحب والإيثار ، والتمهيد لأوانه . حتى يقبله المسلمون ويتهيأ له الزمان .

أما العلاقة بين عليٍّ وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء ، فهي علاقة الزماله

المرعية والتنافس الذي يثوب الى الصبر والتجمل والتقية ..

فليس فيما لدينا من الأخبار والملامح ما يدل على ألفة حميمة بينه وبين أحد من الصحابة المشهورين ، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة وبغضاء .. بل ليس في أخباره جميعًا ما يدل على طبيعة تحقد على الناس ، وان دلت أحياناً على طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون .

فمن المعلوم ان عليًّا كان يرى انه أحق بالخلافة من سابقيه ، وأنه لم يزل مدفوعًا عن حقه هذا منذ انتقل النبي عليه السلام الى الرفيق الأعلى . واحتج المهاجرون على الأنصار في أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات الله عليه . قال : « ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فلجوا[1] عليهم .. فان يكن الفلج به فالحق لنا دونكم ، وان بغيره فالأنصار على دعواهم »

كذلك كان رأيه في الخلافة يوم بويع بها الصدِّيق ، ثم بويع بها الفاروق ، ثم بويع بها عثمان ..

وجاءت قضية الارث بعد قضية الخلافة في أوائل عهد الصدّيق ، فباعدت الفرجة بين القلوب ، وأطالت العزلة بين الأصحاب .. وخلاصة هذه القضية ، ان فاطمة والعباس رضي الله عنهما طلبا ميراثهما في أرض فدك وسهم خيبر ، فذكر لهما الصدّيق حديث النبي عن إرث الأنبياء ، ونصه في روايته : « « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث .. ما تركناه فهو صدقة .. انما يأكل آل محمد من هذا المال ».

فغضبت فاطمة ، ولم تكلمه حتى ماتت .. ودفنها عليٌّ ليلا . ولم يؤذن بها أبا بكر .. وقيل ان عليًا تخلف عن البيعة ستة أشهر الى ما بعد وفاتها . ثم أرسل الى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد .. وتلقاه وعنده بنو هاشم ، فقال : « انه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله

---

(١) فلجوا : أي انتصروا عليهم .

إليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقًا فاستبددتم به علينا » .

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره ، نرجع الى سيرته وأحاديثه .. فنرى ولا ريب انها أقل ما تشعر به النفس الانسانية في هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولا نجد في خطبه ومساجلاته التي ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله ، أو يجاوز بها حد الحجّة التي تنهض بحقه .. بل الغريب انه لزم هذا الحد ولم يجاوزه الى جمحة غضب تفلت معها بوادر اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائميه .. !

* * *

وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله . ولم يبدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم .. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية اذا رمي بها كما يأنف العزيز الكريم . وفي ذلك يقول من خطاب الى معاوية : « ذكرت ابطائي عن الخلفاء وحسدي اياهم والبغي عليهم ، فأما البغي فمعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهية لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك » .

وأولى أن يقال ان دلائل وفائه في حياتهم ، وبعد ذهابهم ، كانت أظهر من دلائل جفائه . فانه احتضن ابن أبي بكر محمداً وكفله بالرعاية ورشّحه للولاية ، حتى حُسِب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ..

ويخطىء جداً من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نقمة منه في أبنائه .. فقد أسرع عبيد الله بن عمر الى الهرمزان ، فقتله انتقامًا لأبيه ، ولم ينتظر حكم ولي الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه . فلما استفتي في هذه القضية أفتى بالقصاص منه ، ولم يغير رأيه حين تغير رأي عثمان . فأعفاه من جريرة عمله .. لأنه هو الرأي الذي استمده من حكم الشريعة كما اعتقده وتحرّاه ، وبهذا الرأي دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم ، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحداً غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقائه في التآمر عليه .

وانك لن تجد انساناً أعرف بالعهد ، ولا أصون له ممن يتذاكره في حومة الحرب ، ويرى ان التذكير به ينزع السلاح من الأيدي ، ويعود بالخصمين المتناجزين الى الصفاء والإخاء ..

فما حارب عليٌّ عدواً له سابقة مودة به إلا أن يذكره بتلك السابقة ، ويستنجد بالصداقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة ..

ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة في وقعة الجمل ، وهما ملحان في حربه وانكار بيعته ..

فخرج حاسراً لا يحتمي بدرع ولا سلاح ، ونادى :

يا زبير ، اخرج اليَّ .. فخرج إليه شاكا في السلاح ، وسمعت السيدة عائشة فصاحت : واحرباه ! .. اذ كان خصم عليٍّ مقضيًا عليه بالموت كائنًا ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال .

فلما تقابل عليٌّ والزبير اعتنقا ، وعاد عليّ يسأل : « ويحك يا زبير ما الذي أخرجك ؟ .. »

قال : « دم عثمان »

قال : « قتل الله أولادنا بدم عثمان ».

وجعل يذكر عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبي : « والله ستقاتله وأنت له ظالم ».

فاستغفر الزبير وقال : « لو ذكرتها ما خرجت ».

* * *

ولما وقف عليٌّ على جثة طلحة بكى أحر بكاء ، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول : «عزيز عليَّ أن أراك أبا محمد مجندلًا تحت نجوم السماء» وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة . .

والمودّة عند فارس كعلي عهد محفوظ وموثق مذكور، إن فاتها أن تكون حنان قلب أو أُلفة شعور.

ويخيل الينا انه لم يرزق قط صداقة الألفاء الذين يرعاهم ويرعونه لأنه يحبهم ويحبونه، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنَّة العهود وديدن الفروسية، فلم تزل بينه وبينهم ايماءة الى سلاح مغمد أو سلاح مشهور.

ومثل عليٍّ لا يرزق صداقة الأُلفاء، لأنه من أصحاب المزايا التي تغري بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداراة.

فهو شجاع، عالم، بليغ، ذكي، موصول النسب بأعرق الارومات.. فان لم يحسد هذا، فمن يحسد؟..

وان حُسِد، فما الذي يفلّ من غرب حاسديه؟.. وما الذي يفيء بهم الى القصد في عدائه والتأليب عليه؟..

انهم يستبعدون يومه في الامارة والسلطان، واذا استقربوا يومه في الامارة والسلطان فلا مطمع لهم في النفع على يديه وهو قوّام بالقسط على الأموال والحقوق، فنصيبه اذن منهم نصيب المحسود الذي لا رجاء له في هوادة من حاسديه، وليس أحقد من الناس على صاحب عظمة لم يطمعوا في نفعه ولم يزالوا على طمع في النفع من خصومه، وبليّته بهم أكبر وأدهى حين لا يصطنع الدهان ولا يعمد معهم الى الختل والروغان.. وعلى انه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التي لا تحميها حماية من طمع أو نكاية، أو كما قال الحكيم الغربي: «ان نسي انه أسد لم ينسوا انهم كلاب».

* * *

وهكذا فُرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة في ديارها وبين آلها وأنصارها..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة، كانت علاقة الزمالة التي ينوب فيها الواجب مناب الالفة..

والعلاقة بينه وبين الخصوم ، كانت علاقة حسد غير مكفوف ، وبغض غير مكتوم ..

والعلاقة بينه وبين سواد العامة ، كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا ينفذون الى لبابه ، وان قاربه اناس معجبين ، وباعده أناس نافرين ..

وتلك أيضًا آية الشهيد . .

ثقافة

ألسنة الخلق أقلام الحق ..

كلمة سائغة ليس أصدق منها ان صدقت ، وهي صدق في كثير من الأحيان ..

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التي ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل ، فيخيل الينا انها خاطر عابر يسمع ويستملح ويشفع له القدم .. فنقبله كرامة له كما نقبل الثمين والغث أحيانًا من وقار المشيب ، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد ولا يصبر على مراجعة العلم والقياس ، ثم نعرضه اتفاقًا على العلم والقياس .. فاذا به قد احتمل من النقد العسير ما ليست تحتمله آراء العلماء وقضايا الحكماء ، واذا بالخطأ في هذه القولة الشائعة أو في هذا اللقب المرتجل أقل من كل خطأ يحصى على كلام مخلوق ..

من هذه الألقاب الشائعة ، لقب الامام الذي اختُصّ به عليٌّ بين جميع الخلفاء الراشدين ، والذي يطلق اذا أطلق فلا ينصرف الى أحد غيره ، بين جميع الأئمة الذين وُسموا بهذه السمة من سابقيه ولاحقيه ..

ولِمَ وليس هو بفرد في الإمامة بجملة معانيها ؟..

ألم يكن الصدِّيق امامًا كعليٍّ ؟.. ألم يكونوا خلفاء راشدين اذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟..

بلى كانوا أئمة مثله ، وسبقوه في الإمامة ..

ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك ،

ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر ، وصفة تناوئها صفة ، ولا أن يصبح رمزاً للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها .. فكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الامام بغير تعقيب ولا تذييل هو الامام كلما وقع الاشتباه والالتباس ..

وذاك هو عليٌّ بن أبي طالب . كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة .. فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة في الطرقات ، بغير حاجة الى تسمية أو تعريف ..

* * *

وخاصة أخرى من خواص الإمامة ، ينفرد بها عليٌّ ولا يجاريه فيها امام غيره ، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت في صدر الاسلام ، فهو منشىء هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه . وندرت فرقة في الإسلام لم يكن عليٌّ معلمًا لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعًا لها ومحوراً لمباحثها . تقول فيه وترد على قائلين .

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد . كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة . وعلماء الأدب والبلاغة .. فهو أستاذ هؤلاء جميعًا بالسند الموصول ..

أما الفرق التي جعلته موضوعًا لها ومحوراً لمباحثها . فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنَّة . فتكون قد ذكرت جميع الفرق الاسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير .

وهنا تشتبك الفروع وتتأشب الأفانين ، فترى الفرقة الواحدة مزيجا من التصوف والسياسة . كالباطنية على اختلافها .. وقد تترامى بها الفروع حتى تصل إلى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء . وهم طرف مقطوع أو موصول . من تلك الأصول ..

فالامام أحق لقب به . وهو أحق الأئمة بلقب الامام ! ..

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء في كثير من صفاته . وكثير من معارض

حياته ، وطوارىء أوقاته .

وكانت له في الإمامة آية أخرى من هذه الآيات ..

فآية الشهداء انهم يبخسون حقهم في الحياة ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات ..

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا في اقبالها وادبارها ، كما قال الامام رضي الله عنه : « انها إذا أدبرت عن انسان سلبته محاسن نفسه ، وإذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره ».

وكذلك اتفق للإمام في صفة الإمامة ، كما اتفق له في معظم الصفات ..

فقلَّ ان سمعنا بعلم من العلوم الاسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه ، وقلَّ أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه اياه ، وقلَّ ان توجه الثناء بالعلم الى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه ..

نَحلُوه ديوانًا من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها إلا عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه ..

ونَحلُوه علمًا سموه علم « الجفر » وزعموا انه علم النجوم والازياج الذي يكشف عن حوادث الغيب الى آخر الزمان ..

ونَحلُوه مقامات تخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه المقامات قبل عصر الصناعة في أيام العباسيين وما تلاها ..

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالاً لم تعرف ، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الاغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق .

وبعض ما نحلوه يزيده قدراً ويرفعه شأنًا ، ألا تصح نسبته اليه .. ؟

وبعض ما بقي له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه .. كافٍ لتعظيم قدره واثبات امامته في عصره ، وبعد عصره .

وعندنا انه رضي الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير ، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم انه سئل :« من أشعر الناس ؟ » قال : « ان القوم لم يجروا في حلقة تعرف المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب » ..

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب « المدارس » والأغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب .

لكنه رضي الله عنه لم يرزق ملكة الاجادة في شعره ، والنبيّ عليه السلام يرى ذلك حيث سألوه أن يأذن لعليٍّ في هجاء المشركين فقال : « ليس بذاك »..
وأحالهم الى حسان بن ثابت ، وندب له من يبصره بمثالب القوم ..

وكل شعره الذي رجحت نسبته إليه من قبيل هذه الأبيات التي وصف بها قبيلة همدان في وقعة صفين :

ولما رأيتُ الخيلَ ترجَم بالقَنا ... فوارسُها حمرُ النحُور دوام
وأعرض نقع في السّماء كأنه ... عجاجة دجن مُلبس بقتام
ونادى ابن هند في الكلاع وحِمْيَر ... وكِندَة في لخم وحي جذام
تيممت همدان الذين هم هم ... اذا ناب دهر جنّتي وسهامي
فجاوبني من خيل همدان عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاهَا واستطاروا شرارها ... وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت رضوانًا على باب جنة ... لقلت لهمدان : ادخلوا بسلام

أو من قبيل هذه الأبيات :

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن أمي

وبنت محمد سكني وعرسي منوط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم الى الاسلام طرا صغيراً ما بلغت أوان حلمي
وصليت الصلاة وكنت فرداً فمن ذا يدعى يوماً كيومي

وقد نظم شعراً ولا ريب ، كما يدل سؤالهم النبيّ عليه السلام أن يأذن له في هجاء من هجاهم ، ولم ينسب إليه شعر.. صح أو لم يصح ، أجود مما قدمناه . وليس فيه ما يسلكه بين المجودين من الشعراء ، أويلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء..

أما كتاب الجفر أو علم الجفر ، فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل في جميع ما نحلوه وأضافوا إليه .. فمثل عليٍّ في تقواه وفضله . لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه ، وليس هو مما يليق بورعه ولا ذكائه . وقد نهى وشدّد النهي عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم ، ومن المحقق الذي لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها ، هي من مدخول الكلام عليه .. ومما أضافه النساخ الى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل ..

ولا نجزم مثل هذا الجزم في أمر المقامات التي خلت من بعض الحروف . لأن العقل لا يمنعها قطعًا كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من ازياج النجوم . ولكننا نستبعد جداً أن تكون هذه المقامات من كلام الامام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن ، وحاجة النسبة هنا الى سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير .

* * *

وكذلك نستبعد انه قال لكاتبه ليظهر علمه بغريب اللغة : « ألصق روانفك بالجبوب وخذ المزبر بشناترك واجل حندورتيك الى قيهلي حتى لا أنفي نفية الا أودعتها بحماطة حلجلانك » .

أي « الصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بين أصابعك واجعل عينيك الى وجهي حتى لا ألفظ بلفظة الا وعيتها في سواد قلبك » .

فان الولع باظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف في صدر الاسلام ، ولم يلتفت الناس الى ادعائها إلا بعد استعجام العرب وندرة العارفين .

ومثل هذا ، ما نسبوه اليه حيث زعموا انه قال « ما تربعلبنت قط » أي ما أكلت السمك يوم السبت .. « وما تسرولقمت قط » أي ما لبست السراويل قائمًا .. الى أشباه هذه المخترعات التي تستغرب لفظًا ومعنى واعتقاداً من رجل كالإمام في صدر الاسلام .

إلا اننا نسقطها جميعًا ، فلا نسقط بها فضلاً ترجح به موازين الامام في حساب الثقافة ..

بل نحسبها فضلاً – ان شئنا – ونسقطها فيبقى له بعدها السهم الراجح في تلك الموازين ..

تبقى له الهداية الأولى في التوحيد الاسلامي ، والقضاء الاسلامي ، والفقه الاسلامي ، وعلم النحو العربي ، وفن الكتابة العربية .. مما يجوز لنا أن نسميه أساسًا صالحًا لموسوعة المعارف الاسلامية في جميع العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الاسلامية كلها في الصدر الأول من الاسلام ..

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له في ثقافة الأمة الاسلامية . على تباين العصور ..

ففي كتاب نهج البلاغة ، فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأليه وحكمة التوحيد .

وربما تشكك الباحث في نسبة بعضها الى الامام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التي اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الاغريقية والأعجمية ، ولا سيا الكلام على الأضداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصوفات ، ولكن الذي يقرؤه الباحث ولا يشك في نسبته الى الامام أو في جواز نسبته اليه ، قسط وافٍ لتحقيق رأي القائلين بسبق الامام في مضمار علم الكلام ، واعتراف المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء

والمقولات . وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق في كماله ، ومن أمثلته قوله : « الحمد الله الذي لم يسبق له حال حالاً . فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً ، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوي غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك . وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز . وكل سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها . ويذهب عنه ما بعد عنها . وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام . وكل ظاهر غيره باطن . وكل باطن غيره ظاهر . لم يخلق من خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان . ولا استعانة على من شاور ، ولا شريك مكاثر ، ولا ضد منافر ، ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون – أي ضارعون – لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن . ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤوده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ . ولا وقف به عجز عما خلق . ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدر . بل قضاء متقن . وعلم محكم وأمر مبرم .. »

أما القضاء والفقه ، فالمشهور عنه انه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة .. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقه وأقدر على إخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور. وكان عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة : قضية ولا أبا حسن لها : لأنه كان في هذه المسائل يتجاوز التفسير الى التشريع . كلما وجب الاجتهاد بالرأي الصائب والقياس الصحيح ..

وفي أخباره ، ما يدل على عِلْمِه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه .. ومن هذه الأدوات علم الحساب الذي كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف في معضلات المواريث ، لأنه كان سريع الفطنة الى حيله التي كانت تعد في ذلك الزمن ألغازاً تكد في حلها العقول ، فيقال ان امرأة جاءت اليه وشكت اليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار ، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد .. فقال لها : لعله ترك زوجة وابنتين وأما واثني عشر أخاً وأنت ؟ فكان كما قال .

وسئل يومًا في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين . فأجاب من فوره : صار ثمنها تسعًا . وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية ، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة ..

وفي هذه الاجابات ، دليل على الذكاء وسرعة البديهة .. فضلاً عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب .

واذا قيل في قضائه انه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه ، صح أن يقال في علم النحو انه لم يكن أحد أوفر سهمًا في انشاء هذا العلم من سهمه . وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلي شكا إليه شيوع اللحن على ألسنة العرب ، فقال له : اكتب ما أملي عليك ، ثم أملاه أصولاً منها : أن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل .. وان الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومُضمر ، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر .. وانما تتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مُضمر .. يعني اسم الاشارة على قول بعض النحاة ، ثم قال لأبي الأسود : انح هذا النحو يا أبا الأسود .. فَعُرِف العلم باسم النحو من يومها .

وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند الى المقاربة بين اللغات الأخرى في اشتقاق أصولها النحوية ، ولاسيا السريانية واليونانية .. ولكن الروايات العربية لا تنتهي بنا الى مصدر أرجح من هذا المصدر ، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلا ان يكون الامام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربي من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التي تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولا سيا السريان الذين سبقوا الى تدوين نحوهم ، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية .

وليس الامام عليّ أول من كتب الرسائل ، وألقى العظات ، وأطال الخطب على المنابر في الأمة الاسلامية ..

ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى

عليها صبغة الانشاء الذي يقتدى به في الأساليب .. لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين لا صياغة منشئين ، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن الأداء وصناعة التعبير ، ولكن الامام عليّا تعلم الكتابة صغيراً ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى الى طور التفنن والتجويد .. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو فيما نرى أول أساليب الانشاء الفني في اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وتأتّى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذي أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الاسلامية .. فديوانه الذي سمي « نهج البلاغة » أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح الدلالة على أسلوبه ، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب الى الاقناع من دلالة الأسانيد التاريخية ، لأن طابع « الشخصية العَلَوية » فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنايا الحروف ، يوحي اليك حيثما وعيته أنك تسمع الامام ولا تسمع أحداً غير الامام ، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام .

على اننا نبالغ ما نبالغ في تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الامام ومن فنون ثقافته العامة ، ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا – بل توجب علينا – أن نسأل : كيف يتسنى العلم بهذا لأي كان من الناس في مثل ذلك الزمان ؟..

والسؤال لا بد منه ، ولا نظن قارئًا من قراء تاريخ الامام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه .

ولكن لا بد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك..

فالباعث عليه أننا نبالغ في تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين ..

لكن البداوة العربية لم تكن في الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك

العزلة التي تخطر لنا للوهلة الأولى ، فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم ، وكانت للمعارف الانسانية أشعتها التي تتخلل الجزيرة العربية من قديم العصور .

وحسبنا من أمثلة ذلك ، مثال واحد في معسكر الامام نفسه يغني عن الأمثلة من سبيله ..

وذلك هو مثال عبدالله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، وهو يهودي ابن زنجية مولود في بلاد اليمن ، ومذهبه الذي اشتهر به هو مذهب الرجعة الذي يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود ، وقول أهل الهند بظهور الإله الذي يتقمص جسم انسان ، وقول النصارى بظهور المسيح ، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من اقرباء الملوك والأمراء ..

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يمني من أهل الجزيرة ، اذا تخيلنا أن الجزيرة في حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبني اسرائيل ، وان الأمة العربية تخلو من اناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية ، او طريق المحاكاة الاجتماعية ، او طريق الدراسة والسماع .

وقد كانت عاصمة الامام في الكوفة .. وكانت مثابة الغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة في العالم باسره ، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها أناسٌ كانوا ينظرون في كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء في سيرة عمر بن الخطاب ، ومنهم من كان ينظر في النجوم على طريقة الفرس والروم ، وحذر بعض هؤلاء الامام أن يسير الى حرب الخوارج في طالع كوكب من الكواكب المنحوسة ، فقال له : « أتزعم أنك تهدي الى الساعة التي مَنْ سار فيها صُرف عنه السوء ؟. فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه » ..

* * *

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة . قائلاً : « اياكم وتعلم النجوم ، الا ما يهتدى به في بر أو بحر .. فانها تدعو الى الكهانة . والمنجِّم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار ! »

وقد لبث عليّ بن أبي طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعًا أو يكاد ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة ، متفرغًا أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة .. يتأمل كل ما سمع ، ويراجع كل ما قرأ ، ويعرف كل ما يعرف ، ممن يلقاه ، ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياه .. فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلاً في بلاد الاسلام على تلك الأيام .. فقيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية أن تفهم ما قد فهمه الامام ، وأن يثبت ما أثبته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام . .

على أن هذه الفنون من الثقافة – أو جلتها – انما تعظم بالقياس الى عصرها والجهود التي بذلت في بدايتها .

فحصّة الإمام من علم النحو – مثلا – عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التي دوّنها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه ..

وهكذا يقال في الحساب والمسائل العلمية التي من قبيله ، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر.. وهي في ابتدائها أصعب جداً منها في أطوارها التي لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها ..

* * *

أما فن الثقافة الذي يقاس بمقياس كل زمن ، فاذا هو عظيم في جميع هذه المقاييس ، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات ، فذلك هو فن الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التي قلنا آنفًا انها تسجل له في ثقافة الأمم عامة كما تسجل له في ثقافة الأمة الاسلامية ، على تباين العصور.

فالكلم الجوامع التي رويت للامام طراز لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة .

وقد قال النبي عليه السلام : « علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل » ..

فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الامام علي في حكمته التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء ..

فهي من طراز الحكم المأثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان ابن داود.

ويزيد عليها أنها أبدع في التعبير، وأوفر نصيبًا من ذوق الجمال، كقوله مثلاً: «نفس المرء خُطاه الى أجله».. أو قوله: «من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة».. أو قوله: «المرء مخبوء تحت لسانه» أو قوله: «الحلم عشيرة».. أو قوله: «من لان عُوده كَثُفت أغصانه» أو قوله: «كل وعاءٍ يضيق بما جُعل فيه الا وعاء العلم فانه يتسع» الى أشباه هذه التعبيرات الحسان التي تحار فيها أي مزاياها أفضل وأقوم: صدق المعنى، او بلاغة الأداء، او جودة الصناعة..

وبعض اقواله ينضح بدلائل «الشخصية» التي تلازم صاحب الفن الأصيل. فتلبس معانيه لباسًا من خوالج نفسه وأحداث زمانه، كما قال «صواب الرأي بالدول. يقبل باقبالها ويذهب بذهابها» اوكما قال: «ما اكثر العبر واقل الاعتبار».. او كما قال: «شاركوا الذي اقبل عليه الرزق فانه اخلق للغنى واجدر باقبال الحظ عليه».. اوكما قال: اذا هبتَ أمراً فَقَعْ فيه، فان شدة توقيه اعظم مما تخاف منه» أوكما قال: «لا يقيم امر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع»..

وله عدا هذه الحكم التي تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها. وتنفذ الى كل سامع يفطن لها كقوله: «كل معدود منقضٍ وكل متوقَّع آت» أو قوله: «اذا كثرت القدرة قلت الشهوة» أو: «أفضل الأعمال ما اكرهت نفسك عليه».. أو قوله: «من نصب نفسه للناس إمامًا، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره.. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم» أو قوله: «الفقيه كل الفقيه من لم يُقنط الناس من رحمة الله ولم يُؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله».. أو قوله: «قيمة كل امرىء ما يحسنه» او قوله: «العاقل هو الذي يضع الشيء مواضعه» أو قوله: «الصبر صبران: صبر على ما تكره، وصبر على ما تحب» او قوله: «من مَلَكَ استأثر» او قوله: «الناسُ اعداء ما جهلوا». او قوله: «القرابة الى المودة احوج من المودة الى القرابة»..

وله في المواقف المرتجلة كلمات هي اشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة .. فلما خرج وحده لبعض المهام التي تردد فيها أنصاره ، قالوا له يشيرون الى أعدائه : « يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم » فقال : « ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم ؟ ان كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها ، وانني اليوم لأشكو حيف رعيتي ، كأنني المقود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة » .

ورثى محمد بن أبي بكر حين بلغه مقتله على أيدي اصحاب معاوية فقال : « ان حزننا عليه قدر سرورهم به ، الا انهم نقصوا بغيضاً ونقصنا حبيباً » ..

فكل نمط من انماط كلامه ، شاهد له بالملكة الموهوبة في قدرة الوعي وقدرة التعبير .. فهو ولا شك من ابناء آدم الذين عُلّمُوا الأسماء وأُوتوا الحكمة ، وفصل الخطاب .

وقد اخطأ « موير » Moyer المؤرخ الانجليزي حين قال ان عليًّا حكيم كسليمان ، وهو مثله حكمته لغيره .. يعني أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة ، فان « موير » أحجى أن يفرّق بين عمل الانسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه . ولا شك أن عليًّا كان من العاملين بمايقولون ومن المنتصحين بما ينصح به الناس . أما أنه ينتفع بحكمته ، فالطبيب لا يقدح في علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه .. فقد يكون الاخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء .

* * *

ولا يفوتنا ان بعض هذه النصائح ، قد نُسِب الى قالة من الأوائل غير الامام رضي الله عنه ، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى الى الصحيح والمنحول من كلام الامام الذي جمعه الشريف الرضي في « نهج البلاغة » وفرغ من جَمْعِهِ بعد مقتله بزهاء اربعة قرون ، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب الى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة في التعريف بعبقرية الامام .. فحسبنا أن اسلوب الامام معروف في بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه ، وان طابع هذا الأسلوب شائع في الكتاب لا تقدح فيه كلمة ظاهرة التلفيق هنا أو كلمة ظاهرة الاقحام هناك ،

أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير. فنحن لا نخطىء أن نرى في هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حيناً، وتنقطع حيناً، كالوحدة التي نراها بغير انقطاع في كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد .. وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا في تبيان ثقافة الإمام، أو تذوق أسلوبه الذي لا نخطىء فيه مرة جزالة البادية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذي لا تكلف فيه ..

ولا يتم القول في ثقافة الإمام عليّ رضي الله عنه، ما لم نتممه بالقول في نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب، الذي هو مضماره الأول ومناط شهرته التي تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة ..

فجملة ما يقال في هذا الصدد، أن فن الامام العسكري هو فن البطل المغوار الذي يناضل الأفراد وينفع الجيش الذي هو فيه بقدوة الشجاعة واذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه، وانه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم، وكيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويفت في عضده .. ومن حِيَلِهِ المشهورة في توهِين عزم عدوه، انه أمر بعقر الجمل في الوقعة المعروفة باسمه، لأنه كان عَلَمَ القوم الذي كانوا يلتفون به ويثبتون بثبوته ..

وهكذا كله فن البطل المغوار الذي يفرق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش ..

ولم يرد لنا من أنباء الامام في هذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار ..

نعم .. انه كان يقسم جيشه الى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة ومؤخرة، وأشباه ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفين على التخصيص ..

وكانت له وصاياه المحفوظة في تسيير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد، ومنها قوله: «اذا نزلتم بعدو أو نزل بكم، فليكن معسكركم من قبل الاشراف وسفاح الجبال، أو اثناء الأنهار، كيما يكون لكم رداء ودونكم ردا، ولتكن

مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن ، واعلموا ان مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم . واياكم والتفرق فاذا نزلتم فانزلوا جميعًا واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعًا، واذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة - أي محيطة بكم - ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة »..

ومنها قوله : « ولا تَسر أول الليل ، فان الله جعله سكنًا وقدره مقامًا لا ظعنًا » ومنها قوله للولاة : « اني سيرت جنوداً هي مارة بكم ان شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشذى ، وأنا أبرأ اليكم والى ذمتكم من معرة الجيش الا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهبًا الى شعبه . فنكلوا من تناول منهم شيئًا ظلمًا عن ظلمهم ، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم .. »

وهذه وما هو من قبيلها ، مناهج موروثة أو أدب هو أقرب الى نظام الادارة منه الى خطط التعبئة وقيادة الميدان ..

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج في وقعة صفين ، لم تكن الوقعة كلها الا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة في أوقات متباعدة .. كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس المناضل والبطل المفرد في موقف المبارزة أو في غمار الصفوف .

* * *

وخلاصة ذلك كله ، ان ثقافة الامام هي ثقافة العلم المفرد والقمة العالية بين الجماهير في كل مقام ..

وانها هي ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله ، يداول بين القلم والسيف ، ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه .. لأنه بالبأس زاهد في الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله ..

فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودنياه ، وهو عالم يتلاقى في الدين والدنيا بحثه ونجواه ..

* * *

في بليته

خلاصة رأي الامام في المرأة أنها « شر كلها .. وشر ما فيها انه لا بد منها »..

كان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التي تليق بالرجل وتحمد منه .. « فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال .. الزهو ، والجبن ، والبخل .. فاذا كانت المرأة مزهوة لم تُمكِّن من نفسها ، واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، واذا كانت جبانة فَرِقَتْ من كل شيء يعرض لها » ..

والإمام صائر الى رأيه هذا في المرأة من كلتا طريقيه ، وهما طريق الحكيم الذي ينظر اليها على سنّة الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذي ينظر إليها على سنّة العبادة في جميع العصور .. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه ، وهي فطرة الفارس المطبوع في آداب الفروسية ، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها .. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه ، ولا غفل قط عن الوصية بها في موطن يستدعي هذه الوصية . ومن أمثلة وصاياه في هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفّين ، حيث يقول :

« لا تهيجوا النساء بأذى وان شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فانهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول ، ان كنا لنُؤمر بالكفّ عنهن وانهن لمشركات . وان كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالقهر – أي الحجر – أو الهراوة فيعيّر بها وعقبه من بعده .. »

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية ، كما يظهر من غير حادث واحد .. ومن ذلك

صَبيَّة السبي التي استولى عليها وبنى بها لساعتها ، وجعلها قسمه من الخمس قبل تقسيمه .. فرأى بعض أصحابه في ذلك ما شكوه الى النبي عليه السلام من أجله . وربما كان هذا سبب تحذيره منها في الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها . فكان يقول لسراياه وجيوشه اذا شيَّعَها : « اعزبوا عن النساء ما استطعتم » ويوصي في أمثال هذه المواطن باجتنابها ..

الا أنه كان يرى على ما يظهر ان امرأة تغني عن سائر النساء . فلم يُعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذي اختص به السيدة فاطمة رضي الله عنها كرامة لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها . وهو غير الهوى الذي تبعثه المرأة بمغريات جنسها .

كان جالسًا في أصحابه ، فمرت بهم امرأة جميلة ، فرماها القوم بأبصارهم .. فقال رضي الله عنه : « ان أبصار هذه الفحول طوامح ، وان ذلك سبب هياجها .. فاذا نظر أحدكم الى امرأة تعجبه قليلاً مس أهله . فانما هي امرأة كامرأة » .

وعلى الجملة ، يمكن أن يقال ان آراء الامام في المرأة هي خلاصة الحكمة القديمة كلها في شأن النساء .

فهن شر لا بد منه باتفاق آراء الأقدمين . سواء منهم حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا الى المرأة بعين الدين من أبناء بني اسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الاسلام .

لأنهم كانوا جميعًا يمزجونها بالشهوات التي تثيرها عامدة أو غير عامدة . ويلقون عليها تبعة الشرور التي تنجم عنها بمكيدتها أو على الرغم منها ، ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير الا في الأزمنة الحديثة التي نظرت في استقلال التبعات على أساس « الحرية الشخصية » .. فحاسبت المرأة بما تجنيه ، وأوشكت أن تبالغ في تبرئتها من جناياتها .

فمن السهو عن الحقيقة ، أن تُتخذ آراء الأقدمين دليلاً على نصيبهم من الغبطة او السكينة في حياتهم البيتية .. لأننا خلقاء أن نحسبهم جميعًا من الأشقياء المعذبين

في بيوتهم ، وهو ما تأباه البداهة وتأباه أنباء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات .

وليس من اللازم في حياة الامام خاصة ، أن يستمد آراءه في المرأة من حياته البيتية .. فقد كانت تجاربه في الحياة العامه مدداً لا ينفد لهذه الآراء التي شاعت بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج الى تجربة مكررة ، وشاءت المقادير أن تنقضي حياة الامام عليّ وللمرأة يد في القضاء عليها ، فكانت حياته الغالية مهراً لقطام التي قال فيها ابن أبي مياس المرادي :

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينـــــة وضرب عليٍّ بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من عليّ وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

والذي يجزم به مؤرخ الامام ان حياته البيتية خلت من شكاة لم يألفها الأزواج في زمانه ، وانها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله . .

عاش مع فاطمة رضي الله عنها ، لا يقرن بها زوجة أخرى .. حتى ماتت بعد موت النبي عليه السلام بستة أشهر .. وهي رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لا شك فيها ، فقد كان النبي عليه السلام كما جاء في الأثر يغار لبناته غيرة شديدة ، وروي عنه انه قال وهو علي المنبر مرة : « ان بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا ان يريد عليّ بن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم .. فانها بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها » .

وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبي بكر الى ما بعد وفاتها على بعض الروايات . وهجره كما هجرته مدة حياتها . وقد ولدت له أشهر أبنائه وبناته : الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين .

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف في عدهم المؤرخون ،

ويؤخذ من احصائهم في « الرياض النصرة » للمحب الطبري انه رضي الله عنه وافر الحظ من الذرية ، بقي منهم بعده كثيرون .

وكان على ما يفهم من خلائقه ، ومن سيرته وأخباره ، أبا سمحًا يستريح الأبناء الى عطفه ، ويجترئون على مساجلته الرأي في أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام ..

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق ، ومعهما السيدة عائشة رضي الله عنها ، جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له : « قد أمرتك فعصيتني ، فتُقْتَلُ غداً بمَضيعة لا ناصر لك فيها » فسأله : « وما الذي أمرتني فعصيتك ؟ » قال : « أمرتك يوم أحيط بعثمان رضي الله عنه أن تخرج من المدينة فيُقْتَل ولستَ بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر .. فانهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيت .. ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحا .. فان كان الفساد كان على يدي غيرك ، فعصيتني في ذلك كله ! » ..

فلم يأنف أن يساجله الرأي ليقنعه ، وجعل يقول له : « أي بنيّ !.. أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك لا تبايع حتى تأتي بيعة الأمصار فان الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فان ذلك كان وهنًا على أهل الاسلام.. وأما قولك : اجلس في بيتك فكيف لي بما قد لزمني ؟ .. من تريدني ؟.. أتريد أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها ويقال دباب دباب .. ليست هنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج .. واذا لم أنظر فيما لزمني من الأمر ويعنيني ، فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك أي بني » ..

هذه معاملة « أخوة » تستغرب في الأجيال الماضية التي كان للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق ، ولا ينقضها انه لطم الحسن يومًا لأنه ظن به تقصيراً في الدفاع عن عثمان .. فتلك سورة الغضب في موقف من أندر المواقف التي لا يقاس عليها في سائر الأحوال ..

وكان رضي الله عنه ، يزهيه أن يحيط به أبناؤه في محافل الروع ومشاهد الزخرف .. فيخرج اليها وهم حافون به عن يمينه وشماله ، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه ، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان ..

واشتهر بالعطف على صغارهم ، كما اشتهر بمودة كبارهم .. فكان أحب شيء إليه أن يداعبهم او يرى من يداعبونهم ، وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من بني كلب يخرج بها الى المسجد ويسرّه ان يسألها اصحابه : مَنْ أخوالك ؟ .. فتجيب : « وه .. وه » محاكاة لعواء الكلاب ..

وكان يقول : « ان للوالد على الولد حقًا ، وان للولد على الوالد حقًا .. فحق الوالد على الولد ان يطيعه في كل شيء الا في معصية الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن ادبه ويعلمه القرآن » ..

ومن احسان التسمية ، انه هم بتسمية ابنه حربًا لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف صناعاته ، لولا ان رسول الله سماه الحسن ، وهو أحسن .. فجرى على هذا الاختيار في تسمية أخوية الحسين والمحسن . واتم حق أبنائه في احسان أسمائهم فاختار لهم أسماء النبي واسلافه من الخلفاء : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان .

أما معيشته في بيته بين زوجاته وأبنائه ، فمعيشة الزهد والكفاف .. وأوجز ما يقال فيها انه كان يتفق له أن يطحن لنفسه ، وأن يأكل الخبز اليابس الذي يكسره على ركبته ، وان يلبس الرداء الذي يرعد فيه ، وان أحداً من رعاياه لم يمت عن نصيب اقل من النصيب الذي مات عنه وهو خليفة المسلمين .. وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تناقض مُلك الدنيا .. فكان بيته نقيض القصر الذي تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه ..

صورة مجملة

من كلمات الامام التي لم يقلها أحد غيره كلمته في خطاب الدنيا حيث يقول :
« يا دنيا غُرِّي غيري .. غرّي غيري ! »

وانها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء ..

انها لسان قدر ، وعنوان حياة ..

فقد خلق الامام ، وفي كل خليقة من خلائقه الكبار اجتراء على الدنيا ، على ضرب من ضروب الاجتراء .

خلق شجاعًا بالغًا في الشجاعة ، وزاهداً عظيم الزهد ، ودارسًا محبًا للحقيقة الدينية يتحرَّاها حيث اهتدى اليها ..

والشجاع جريء على الدنيا لأنه لا يبالي الحياة ..

والزاهد جريء على الدنيا لأنه لا يبالي النعيم ..

وطالب الحقيقة جريء على الدنيا لأنها طريق عنده الى غاية من ورائها ..

فأي مصير لهذا الرجل غير الشهادة في زمن لم يعرف بطارىء من الطوارىء ، كما عرف بالاقبال على الدنيا ؟ ..

صام الناس قبله عن الدنيا . ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذافيرها ..

هدأت حماسة الدعوة النبوية . وثابت الطبائع الى مألوفها الذي اشرجت عليه ،

وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط في تاريخها القديم ..

وأقبل الناس على الدنيا . بل هرولوا الى الدنيا ..

واذا بخليفة جريء عليها زاهد فيها . يقف لهم في طريقها ويصدهم عنها ..

يصدّ ماذا ؟..

يصدّ الطوفان ، وهو مندفع من وراء السدود ..

يصدّ الطبيعه الانسانية . وهي منطلقة من عقال التقوى ..

يصدّ ما لا سبيل الى صده بحال ..

فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره .. فان الانسان قد يعيش عيشة الشهداء ، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ..

وقد لزمته آية الشهادة في كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى اليها أو سعت اليه ..

فمن آيات الشهادة أن يساق الى الخلافة ، ولا حيلة له في اجتنابها ..

ومن آيات الشهادة أن يساق اليها في ساعة الفصل بينها وبين المُلْك ، وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان ..

ومن آيات الشهادة انه يساق اليها ، ولا حيلة له في تحقيق اغراضها ولا في الخروج من مآزقها ..

ومن آيات الشهادة أن يبتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه ، ولا حيلة في تبديل أولئك الأنصار ..

ومن آيات الشهادة ألا تغرّه الدنيا ، وقد غرّت حوله كل انسان .. فهو شهيد ، شهيد ، شهيد ..

خرج الى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام ..

وصورته المجملة لا تشق على مصوِّر ولا على متفرس ، لأنها صورة المجاهد في سبيل الله بيده وقلبه وعقله ، أو صورة الشهيد ..

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله ، ينبغي أن ينعزل عن محنة القَدَرِ التي لا يغلبها غالب ..

وقد كان له رأي عالم . وفطنة حكيم . ومشورة مُدبّر .. ولكننا اذا قلنا انه أخفق في العمل لأنه لم يغلب القدر . فذلك تكليف بما لا يطاق .

وإنما نقول انه أخفق في العمل ونمسك ، ولعله لو تولى الخلافة قبلها أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الاخفاق ..

* * *

وحق لا شك فيه انه اخفق حيث يُشَرّفه اخفاقه ، وحيث يخفق الآخرون لو نصبتهم الأقدار في مثل مكانه ..

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه ، وهو الى اليوم موضع الخلاف عليها وعليه بين اصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال في التاريخ ..

فقد كان يودّ لو أن رسول الله استخلفه من بعده ، ولكنه لم يطلب اليه ذلك .. ولا رأى من الحكمة أن يطلبه اليه . قال ابن عباس ورسول الله في مرض الوفاة : « اذهب الى رسول الله ، فسله فيمن يكون هذا الأمر .. فان كان فينا علمنا ذلك . وان كان في غيرنا أمر به فأوصى بنا » .. قال : « والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً .. والله لا أسألها رسول الله ابداً » ..

وآمن الامام بحكمة الرسول ايمان محبة وتصديق ، ولكنه لم يفارق الدنيا حتى كان قد آمن بها ايمان تعليم وتطبيق . فلما سألوه : « أنبايع الحسن ؟ » قال : « لا آمركم ولا أنهاكم » فأنصف الذين سبقوه ولم يفرضوا على الناس استخلافه .

لأنهم رأوا في موقفه منها مثل ما رأوه في موقف الحسن ابنه ، على حكم سواء ..

* * *

أي ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام ..

لقد وُلد كما علمنا في الكعبة . وضُرب كما علمنا في المسجد .. فأية بداية ونهاية أشبه بالحياة التي بينهما من تلك البداية وتلك النهاية !..

* * *

عبقرية خالد

البادية والحرب

كان قتيبة بن مسلم قائدا من نوابغ القادة المعدودين الذين أنجبتهم الأمة العربية في صدر الاسلام.

وكان يلي خراسان لملوك الدولة الأموية، فخرجت بها خارجة أهمَّته، فقِيل له: «ما يهمك منهم؟ وجِّه اليهم وكيع بن أبي مسعود فانه يكفيكهم» فأبى، وقال: «لا.. ان وكيعا رجل به كبر يحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قلَّت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غرة...».

وهذه كلمة من كلمات القائد العربي تنبىء عن كثير:

تنبىء عن ملكة القيادة فيه. وتنبىء عن ملكة السيادة في الأمة التي نشأ منها واستطاعت بها أن تسوس الأمم في الحرب والسلم، سياسة للنجاح وللبقاء..

فالحق أن شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة فيها جميعا، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على سبر قوته وسبر قوة خصمه. وكل ما عدا ذلك فانما هو ترتيب لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التي ينازلها أن تصنعه، أو هو تنظيم للأهبة والحيطة بين الفريقين في المكان الذي يتلاقيان فيه.

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسباب كثيرة: منها ضعف العقيدة واختلال النظام ونقص القيادة، وانحلال الترف وتفرق الآراء، ولكن البلاء الأكبر انما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل والاستخفاف بالخصم المقاتل. فانتصر العرب لأنهم ظنوهم لا ينتصرون ولا يعتزمون الانتصار، وكان الاستخفاف والاهمال شرًّا

على تلك الدول المتصلِّفة من الاستهوال والفزع. بل كان الاستخفاف والاهمال سببا لانقلابهم آخر الأمر الى استهوال يخذل المفاصل وفزع يفت في الأعضاء، فاجتمعت عليهم البليتان من سوء التقدير، ولم تنفعهم قلة المبالاة بالعدو ولا فرط المبالاة به بعد الأوان.

* * *

كانت دولة الفرس لا تنظر الى البادية العربية الا نظرة السيد المبجَّل الى الغوغاء المهازيل الذين يحتاجون اما الى العطاء واما الى التأديب، وبلغ من طغيان كسرى حين جاءته الدعوة المحمدية أن بعث الى النبي العربي بشرذمة من الجند تأتيه به في الأصفاد! وبلغ من طغيان جنده عامة وخاصة أنهم كانوا يأنفون أن يقرنهم أحد بالعرب في معرض من المعارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيدة. فاتفق في بعض وقعات العراق أن زعيما عربيا من جيرة الفرس أقبل على القائد الفارسي مهران بن بهرام، ليمده بأبناء قبيلته ويعينه على خالد بن الوليد وجنده. فقال له: «ان العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالداً!»، فجاراه القائد الفارسي مجاملة وخدعة ليستخلص منه أقصى العون والنجدة، وقال له: صدقت لعمري! لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا في قتال العجم... فغضب أتباعه لمجاملته هؤلاء القوم الذين يعينونهم ويقاتلون في صفوفهم، وسألوه: كيف تقول ما قلت لهذا الكلب؟ فلم يهدأوا عنه حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرر بهم، وقال لهم: «دعوني فاني لم أرد الا ما هو خيرٌ لكم وشرٌّ لهم.. فان كانت لهم على خالد فهي لكم. وان كانت الأخرى لم يبلغوكم – أي المسلمون – حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون..»

وسخفوا في طلائع وقعة «أليَس» فلم يحفلوا بجيش خالد الزاحف اليهم وتنادوا الى طعامهم الذي هيأوه، ولم يكلفوا أنفسهم قبل ذلك مشقة استطلاع الطريق! ليأمنوا البغتة قبل تهيئة الطعام.

أما الروم فكان لهم غرور كهذا الغرور في مواجهة البادية العربية، وكان قصارى ما حذروه في أول الأمر أن يغير العرب على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفروا بسلبهم الى الصحراء.. فان أوغلوا في بلاد الدولة الرومانية فهم مأخوذون بالهبات والوعود

أو مأخوذون بالكثرة المستعدة لا يقوم لها جند قليل يوشك أن يتجرد من السلاح بالقياس اليهم. فلما جد الجد وعرفت الدولة الرومانية مَن تقاتل من أولئك الجند العزل على زعمها اذا هي تنقلب من الغفلة الشديدة الى الفزع الشديد.

* * *

ويبدو لنا أن المؤرخين المحدثين لم يبرءوا كل البرء من هذا الخطأ القديم... فما يزال الأكثرون منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم، ويحسبون هذه الغلبة شيئا قد حصل وكان ينبغي أن لا يحصل، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها ومصادفة لا تقبل التكرار!

وبعضهم يلتمس العلة فيقول: انما هي وهن الدولتين ومصابها بالخور والانحلال، أو يلتمس العلة فيقول: « انها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم الى مثل هذه العقيدة ».

وكل أولئك تعليل ناقص من بعض نواحيه.

فالمصادقة لا محل لها في حوادث الوجود، ولا تطرد في قتال بعد قتال، من جوف الصحراء الى عمران العراق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين افريقية والصين.

وانحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزها عن النصر ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكين.

والعقيدة قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها، ولكنها هي وحدها لا تغني عن الخبرة والاستعداد، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد. وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادي حنين، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: « ... ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وَضَاقَت عليكُمُ الأَرضُ بِما رَحُبَت ثُمَّ وَلَّيتم مُدبِرينَ ».

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص لهم من الرجوع اليها لفهم الغلبة الاسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية، وهذه الحقيقة هي أن المسلمين كانوا أيضا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التي تنفعهم من قواد تينك الدولتين، ان البادية العربية سواء في عصور الجاهلية أو صدر الاسلام لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التي توهمها المؤرخون الأوربيون، بل معظم المؤرخين عامة ولا نحاشي منهم العرب والمسلمين.

فالصورة الشائعة في خيال أكثر القارئين عن البادية أن جروب الصحراء لم تكن الا مشاجرات بالسيوف والرماح أو بالقسي والمقاليع، لا ترجع الى نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها فن يتعلمه المتعلم ويتلقاه اللاحق عن السابق، وقوام أمرها شراذم من السطاة والمغيرين سرعان ما تقبل حتى تدبر، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفر بعد الكر أو تكر بعد الفرار.

وهذه صورة مضللة لمن يسترشد بها في اختبار قدرة البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة.

فمن الخطأ «أولاً» أن تستخف بالرياضة التي يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه المناوشات، أو على ما نسميه اليوم حرب العصابات، حتى لو صح أنها كانت هي كل ما يعرفه أهل الصحراء من فنون القتال.

فالذي لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال على حروب العصابات التي تشترك فيها القبائل أبدا بين عادية ومعدوٍّ عليها، وأن البدوي قد عاش زمنا كما جاء في التوراة «يده على كل انسان ويد كل انسان عليه». فحصل من ذلك على ملكة مطبوعة يصح أن تسمى «حاسة الحرب» أو أهبة الميدان الخالد التي لا تفارقه في ليل ولا نهار. فلا يزال حياته في حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذي يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار.

وهذه ملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخرى، ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدى في مكان العمل ثم يطرح عن العاتق في سائر الأوقات.

ومن الرياضة التي يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب حروب العصابات أنهم يتعودون الصبر على الفرار ويملكون الجأش عند الإدبار، لأن الفرار عندهم حركة من الحركات المألوفة في كل وقعة يخوضون غمارها، وليست هزيمة تطيش باللب وتخلع الفؤاد وتوقع في روع صاحبها أنه ضيَّع الأمل ولم يبق له من أطوار القتال غير التسليم. فهو في حالة صالحة لاستئناف القتال ان أقبل وان أدبر، وسواء طمع في النصر أو لاذ بالنجاة، وكأنه يتأخر ليتقدم في حينها أو بعد حين، ويتحول الى الوراء كما يتحول الى الشمال أو اليمين، طوعا لأمر مقصود وجريا في عنان ممدود، ومن هنا تيسر لقواد العرب في الغزوات الكبيرة أن يلموا شمل الجيش المنهزم في سويعات معدودات وأن يتداركوا الخذلان من حيث يعسر على الجيوش المنظمة أن تتداركه قبل زمن طويل.

ولن تخلو العصابات المغيرة – مع طول المرانة – من علم بأصول الاستطلاع والمباغتة والتبييت والمخاتلة وحسبان الحساب للرجعة والافلات، وهي على بساطتها أصول لا ندحة عنها في أكبر الميادين وأصغرها على السواء.

هذا ان صح أن حروب العصابات هي كل ما حذقه عرب البادية من فنون القتال في تاريخهم القديم.

وذلك غير صحيح..

فالعرب قد عرفوا في حروبهم التي وقعت بينهم تسيير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الأسلحة والأقسام، وقيل ان جيش الغساسنة الذي حارب المنذر بن ماء السماء لم يكن يقل عن أربعين ألفا بين راجل وفارس، وكان في الجيش معا راكبو الخيل وراكبو الابل وحاملو السيوف وحاملو الرماح والضاربون بالسهام والنبال والضاربون بالحراب والحجارة.

ولقد كان الغساسنة والمناذرة أصحاب ملك قائم لا يعسر عليهم تسيير هذه الألوف المؤلفة الى الميادين القريبة، ولكن القبائل التي لم تكن على شيء من هذا الملك كانت تسوق الألوف للقاء أمثالها وتستعد لها بالجيوش التي تساوي في عددها بعض جيوش

القتال في عصرنا الحديث ، فاستعدت مذحج لقتال تميم يوم الكُلاب الثاني بثمانية آلاف ، وجرى بين الفريقين من حيل الاستطلاع والمراوغة والهجوم والمطاردة ما هو محتو لكل عناصر الكفاح الأولى في كل زمان .

على أن البادية لم يفتها قط علم الحرب كما علمته دول الحضارة في عصور الجاهلية العربية ، فكانت غسان على مقربة من الروم تدخل معهم في الفرق المتطوعة على حالي الدفاع والهجوم ، وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس يخدمهم أحياناً كتيبتان من الجيش الفارسي هما الشهباء والدوسر أو « الدوشير » بمعنى الأسدين شعار الدولة الفارسية ، وكان جند الشهباء من أبناء فارس وجند الدوسر من أبناء القبائل العربية ، وليس يحتاج العربي الى أكثر من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط الفنون التي يحتاج اليها في تعبئة الجيوش وللفطنة الى المخاوف التي يتقيها في مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة .

وقد تبين هذا فعلا في وقعة ذي قار التي تغلب فيها العرب على الدولة الفارسية . فان العرب كانوا في تلك الوقعة أبرع قيادةً وأخبر بفنون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية . فلم يغفلوا قط عن حيطة واجبة أو حيلة نافعة قبل اشتباكهم بالجيوش الفارسية : بعثوا الطلائع وبثوا العيون وقسموا جموعهم الى ميمنة تولاها بنو عجل ، وميسرة تولاها بنو شيبان وقلب تولته بطون من بكر عليهم رئيسهم القدير هانىء بن مسعود ، وأنفذوا الى قبائل العرب الذين في جيش الفرس رسلا يثيرون نخوتهم ويغرونهم بالتخلي عن أصحابهم حين يجد الجد ويلتحم الجيشان ، فوافقتهم اياد وبرت بوعدها فولت من الميدان في أحرج الأوقات .

ولما اصبح يوم الوقعة الحاسمة أقبل الفرس ومعهم الأفيال والفرق المدرعة فلم يرع قادة العرب ما شاهدوا من ذلك الجيش الزاخر وتلك العدة الوافية ، بل تشاوروا في أمرهم وعقدوا بينهم ما يشبه « مجلس الحرب » في اصطلاح هذه الأيام . فقال ربيعة بن غزالة السكوني : « لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ، ولكن تكردسوا كراديس ، فاذا أقبلوا على كردوس شد الآخر » . وقال حنظلة بن ثعلبة : « ان النشاب الذي مع الأعاجم يفرقكم ، فاذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء ،

وأبدأوهم بالشدة » . وقال يزيد بن حمار : « أكمنوا لهم كمينا » ففعلوا وأكمنوه في موضع يقال له الخبيء وأوصوه أن يظهر حين يستحر القتال بين العسكرين وتفر قبيلة اياد من صفوف الأعاجم ، فيكون فرار أنصارهم واقبال المدد الى خصومهم . مع احتدام القتال ، ضربتين متداركتين لا يقوون بعدهما على الثبات .

ولم يغفلوا عن حمية الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والانفة من طلب النجاة ، وهو ما نسميه اليوم بالروح المعنوية ، فعمد حنظلة بن ثعلبة الى وضين راحلة امرأته — أي حزامها — فقطعه ، وتتبع رواحل النساء فقطع وضنها جميعا فسقطت على الأرض ، وصاح بقومه : ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته ! وراح السيافون يقطعون أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف ، وتسابق الخطباء والشعراء في التذمير والتحريض فذهبوا جميعا يرددون قول قائلهم : « المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ».

وتبارز بعض الفرسان من العسكريين ثم التحم الفريقان وحمي الوطيس وظهر الكمين في أوانه وولت اياد فتبعها فريق ممن كسرت قلوبهم هذه الصدمة التي فوجئوا بها على غير رقبة ، وأطبق الكمين على قلب الجيش ومعه كوكب الجيش العربي كله فحقت الهزيمة العاجلة على أقوى الجيشين ، وكتب النصر لأولى الفريقين به في ميزان الفن العسكري الذي يشمل جميع المرجحات ، ما عدا المرجح المادي دون غيره ، وهو العدد والسلاح .

اذ الحقيقة أن غلبة العرب في يوم ذي قار انما كانت غلبة لليقظة على الغفلة ، وللكفاية على العجز ، وللخفة على الفخامة ، وللفن الحربي الصحيح على النظم التقليدية التي لا تصرف فيها ، وللعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة ، وكان العرب خلقاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصر في الحروب القديمة والحروب الحديثة ، الا تفوق الفرس في بعض العدد التي لم ينفعهم تفوقهم فيها عند التحام الصفوف .

وليس في وسع عالم من علماء الحرب في زماننا هذا أن يأخذ عليهم خللا في خطتهم لم يلتفتوا اليه أو يحصي عليهم وجهًا من وجوه التدبير قصروا فيه ، لأن وجوه التدبير كلها فضول بعد أن تستقيم للمقاتل :

(١) أهبة الاستطلاع. و (٢) رسم الخطة. و (٣) تنظيم الجيش في مواقفه. و (٤) تنظيم الجيش في حركاته. و (٥) اذكاء العزيمة في نفوسه. و (٦) اضعاف العزيمة في نفوس خصومه، وهذه كلها هي صفوة لباب الحرب في العصر الحاضر وفي العصور الغابرة، وفي جميع العصور الى آخر الزمان.

ويبدو لنا أن مزية الفرس والروم في أنواع الأسلحة والعدد كانت مزية مبالغا فيها على الأقل في ميادين الاشتباك والالتحام، اذا صح أن لها الرجحان في مواقف الحصار ومواقف الحرب من بعيد. لأننا عرفنا من أخبار الحروب الماضية أن بعض الفرسان البواسل كانوا يترجلون ليحكموا الضرب والحركة، وكانوا يخلعون عنهم شكتهم تبرما بها وتخففا من ثقلها ولا سيما في أيام القيظ أو في المواضع الوعرة التي تصعب فيها حركة المدرعين في الشكة السابغة، وكان بعض الضباط من النبلاء يستصحبون خدما لهم ليحملوا لهم شكتهم الى حين الحاجة اليها، وجاء في كتاب فيجتيوس (Vegetius) انجيل الحرب عند الرومان الأقدمين أن الجنود كانوا يضيقون ذرعا بالدروع المعدنية ويستثقلونها ويودون لو يطرحونها ويتاح لهم العمل بغيرها، ولم تكن لهم حاجة بها الا حين يرادون على الاقتراب من مواقع السهام والنبال والحراب الطويلة، لأداء عمل من الأعمال.

* * *

وعندنا أن العرب قد كسبوا الطريقتين معا بنشأتهم في البادية واقترابهم من دول الحضارة. ونعني بهما طريقة العصابات وطريقة الجيش في ادارة الحروب.

فهم قد برعوا في حرب العصابات بالمرانة الطويلة، ثم اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم، فلم يخسروا بذلك احدى الطريقتين بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيده كل منهما في موضعها، فأضافوا سرعة العمل في طريقة العصابات الى إحكام التنظيم في طريقة الجيوش، وكانوا يقاتلون بفنين متساندين يأخذون منهما ما يأخذون ويدعون منهما ما يدعون، حيث كان الفرس أو الروم يتقيدون بفن واحد على التراث المحفوظ الذي لا يحسنون التجديد فيه.

ومن المحقق أن قبائل العرب التي أقامت في الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيب الأوفى من كلتا الطريقتين، اما بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود، ولا سيما قبائل قريش التي كانت تقيم في عاصمة العواصم العربية من الوجهة الأدبية والثقافية، وكانت تجمع كل ما تفرق بين أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات، لأنها أخذت نفسها بآداب الرئاسة المدنية والبدوية التي يدين بها جميع هؤلاء.

فالتاريخ الصادق يتقاضانا أن نعرف هذه الحقيقة لنعرف موقع العدل والانصاف من حكم الزمن بين الأمم الكبيرة التي تنازعت السيادة بعد ظهور النهضة العربية.

فالنهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفى، بل هي قد انتصرت لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التي لا مصادفة فيها ولا محاباة، ولا محل فيها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار.

وانما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فنمت في أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها.

كانوا متفرقين بغير باعث الى الوحدة والنهوض، فجاءتهم الدعوة الاسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم في سبيلهم فتم لهم ما نقص وتهيأت لهم ذرائع النصر في شرعة الأرض والسماء، وعلم النبي عليه السلام بيوم «ذي قار» وهو يدعو العرب الى دين التوحيد، فرأى فيه بوادر نصر العرب على العجم، وأيقن أنه يوم تتلوه أيام، وأنه مسمعٌ بدعوته الأمم جميعا عما قريب.

قريش ومخزوم

كانت قريش موئل الثقافة العربية من أنحاء الجزيرة كلها بين حاضرة وبادية ، ومن قديم عصورها الى حديثها.

لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة ، وكانت تقيم في عاصمة الحجاز والى جوار الكعبة التي يحج اليها العرب ، تبركا بحرمتها ولياذا بأصنامها . ويحملون الى أسواقها أزواد الأدب والشعر والحكمة ، كما يحملون اليها أزواد القوت وسلع التجارة .

وكانت قريش تنتقل الى بلاد العرب كما ينتقل العرب اليها من بلادهم ، فكان لها رحلتان في الشتاء والصيف : احداهما الى اليمن والأخرى الى الشام ، وكانت تضيف الى ما تعلمه بالسماع والرواية علم المشاهدة والمراس ، حيثما نزلت في طريقها من ديار العرب أو من ديار الروم والحبشة ، وسائر الأمم الأعجمية كما كانت تسميها .

والعرب من دأبهم حفظ السير ورواية الأحاديث والتنقيب عن الأخبار والطوايا ، لأن الاستطلاع من طبيعة سكان الصحارى ، وتتوقف سلامتهم أحيانا على خبر يعلمونه في أوانه كما تستهدف أرواحهم أحيانا للخطر العظيم من جراء طارئ داهم تفوتهم الحيطة له في حينه ، ولم يزل أبناء القبائل على ولعهم المأثور بالسير والأخبار لغير هذه الضرورة التي يدعوهم اليها حب الأمن والسلامة . فهم غيورون على تراث الآباء والأجداد تفاخرا بالنسب العريق وتصحيحا للعلاقات وتمييزا للأقربين والبعداء .

ومع هذا الولع الأصيل في الطبيعة العربية باستقصاء الخبر، يصعب على الذهن أن يتخيل أن قريشا تجهل شأنا من شؤون الثقافة العربية ، وهي تقيم في مثابة

الجزيرة كلها وتسهر على عاصمة العرب، وتجوب أنحاء هذا الوطن الكبير من شماله الى جنوبه ومن جنوبه الى شماله، وتتابع العصور حقبة بعد حقبة وهي في مرقبها الذي تطل منه على كل ما يعنيها.

فقلما غاب عنها عِلْمٌ عربي وصل اليه أبناء الحواضر والبوادي باجتهادهم واختبارهم، أو وصلوا اليه بالقدوة والسماع عن الأمم الأجنبية.

وقلما خفي عنها فن من فنون ثقافة العرب في مصالح السلم والحرب، أو معارض السياسة والشؤون الاجتماعية.

ونظن أن خطأ المؤرخين في تقدير معارف العرب السياسية لا يقل عن خطئهم في تقدير معارفهم الحربية، وقد كانت كما رأينا كفؤا لحضارة الدولة الفارسية وتجارب قوادها وأساورتها.

وكذلك كانت لهم في السياسة والنظم الحكومية خبرة لا يستخف بها من ينفذ الى بواطنها، فهي لا تبلغ أن تكون فلسفة مشروحة ومذاهب مفصلة على مثال النظم العصرية، ولكنها كذلك لا تنزل الى الفوضى ولا الى الغريزة الهمجية التي لا مساك لها ولا تدبير فيها.

وأوجز ما يقال عن خبرتهم بالنظم الحكومية أن العالم القديم لم يعرف قط نظاما من أنظمة الحكم الا كان للعرب نموذج منه يوافق مصالحهم وعقائدهم ويجري على عاداتهم وخلائقهم.

عرفوا نظام الامارة التي ينفرد فيها الأمير برأيه ويستأثر فيها بشريعته وقضائه.

وعرفوا نظام الامارة التي يتولى فيها الحكم نائب عن الأمير يفصل في قضايا الرعية بمعونة ذوي الرأي منها « الا أن يكون غزو أو قتال » فهو باسم الملك دون غيره، وهو النظام الذي جرى عليه أهل الحيرة زمنا مع ملكهم المنذر ونائبه زيد بن حماد من بني أيوب.

وعرفوا نظام الامارة التي يختار أميرها من أمة أخرى كما تنتقل الأسر الأوربية اليوم من مواطنها الى الموطن الذي تحكمه بالمصاهرة أو بالاتفاق بين الدولتين. وعلى

هذه السنة اجتمع البكريون حين غلبهم سفهاؤهم وأكل قويهم ضعيفهم فقال شيوخهم : « لا نستطيع دفع ذلك الا أن نملك علينا ملكا نعطيه الشاة والبعير، فيأخذ للضعيف من القوي ويرد على المظلوم من الظالم، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون، ولكنا نأتي تبَّعا فيختار لنا » فقصدوه فملك عليهم حجرا أمير كندة، وهو أبو امرئ القيس الشاعر المشهور.

وعرفوا الحمايات على أنواعها : حماية الامارة التي تستعين بجيش أجنبي، وحماية الامارة التي تعتمد على جيشها، وحماية الامارة التي تدين لدولة واحدة أو تدين لدولتين. كما حدث ذلك في ملك اليمن بين الحبشة وفارس وسادات البلاد.

وعرفوا رئاسة القبائل المنفردة ورئاسة القبائل المجتمعة الى نسب واحد، ورئاسة الرحل الذين يرعون الابل والشاء، ورئاسة أهل المدر الذين يغرسون المروج والبساتين ويزاولون التجارة من موسم الى موسم.

وكانت قريش تسمع بهذه النظم وتشاهدها في مواضعها وتقتبس منها ما هي في حاجة اليه، ولكنها لم تأخذ بنظام الامارة لأن التنافس بين بطونها يمنعها أن تتفق على ملك من احداها، ولم تتعرض لنظام الحماية لأنها كانت بنجوة من سلطان الدول الأجنبية، ولم يوافقها نظام أهل الوبر ولا نظام أهل المدر لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة كما قدمنا، وكانت ترعى مصالحها ومصالح الوفود التي تقبل اليها حاجة أو متجرةً وليست هي من عشائرها التي تقبل منها حكم الشيخ في قبيلته على أية صفة من صفاتها.

فاختارت لها نظاما فريدا يوفق بين هذه الأطوار الاجتماعية المختلفة فيها، ولعله أشبه النظم بنظام المشيخة بين الرومان الأقدمين، وانما يؤول الرأي الأخير فيه الى مجلس يجتمع من رؤساء كل بطن في القبيلة، ويوشك أن يكون أمره شورى أو على صورة الشورى التي ترضى بالمجاملة وان لم يكن فيها رضا بالحقيقة. اذ الحقيقة أن المرجع الأخير الى أقوى الأقوياء من أولئك الزعماء، كلما حزب الأمر وتشعبت الآراء.

ومن زكانة الحكم عندهم أنهم فهموا مناط الرئاسة القرشية التي يدين بها حجاج البيت الحرام وقصاد مكة من الحضر والبادية، وهي الدين واللغة والتجارة المشتركة.

فحفظوا مناسك الكعبة، وجعلوا أسواقهم معرضا للبلاغة الشعرية والخطب المروية، وتعاهدوا على ضمان الثقة بالتجارة كلما غدر غادر بذمتها، أو اعتدى معتد على حقوقها.

واحتالوا على التوفيق بينهم بتقسيم المفاخر والمراسم على بطونهم وزعمائهم حسب أقدارهم ومزاياهم، فانتهى الشرف الى عشرة بطون هم: هاشم وأمية ونوفل وعبد الدّار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم، فكانت لهاشم سقاية الحاج، وكانت لأمية راية الحرب يخرجها عند القتال ليسلموها الى قائدهم المختار، وكانت لنوفل الرفادة وهي اعانة الحجاج المنقطعين بالمال، وكانت لعبد الدار السدانة والحجابة واللواء، وكانت لبني أسد المشورة أو رئاسة مجلس الشورى في مهمات الأمور، وكانت لبني تيم الديات والمغارم، وكانت لبني مخزوم القبة وهي مجتمع الجيش والأعنة وهي قيادة الفرسان، وكانت لبني عدي السفارة، ولبني جمح الأيسار أو الأزلام، ولبني سهم الحكومة والأموال المحجرة، وظلوا يتولونها جيلا بعد جيل الى ظهور الاسلام.

ولم يكن لهذه «الوظائف» الموزعة شأن واحد في جميع الأوقات والأحوال، بل كانت تعلو وتهبط على حسب الزعيم الذي يتولاها وعلى حسب القوة التي يكون عليها بيته عند ولايته اياها. ولكننا اذا نظرنا اليها نظرة مجملة وجدنا منها ما كان يقصد به «جبر الخاطر» والارضاء وما كان يشبه الوظائف الشورية أو الادارية الثانوية في حكوماتنا الحاضرة، ولم نجد بينها «سلطات» فعالة خليقة أن تتعاقب مع الزمن غير ثلاث متفرقات، وهي السلطة الروحية لهاشم وعبد الدار، والسلطة السياسية لأمية، والسلطة العسكرية لمخزوم.

من بني مخزوم هؤلاء نشأ خالد بن الوليد – بطل هذا الكتاب – وكانت نشأته في أعرق بيوتها وأعلاها وأشرفها وأغناها، فلم يكن من أبوته أو عمومته الا رئيس ابن رئيس لا تعلو مكانته مكانة أحد من رؤساء الجاهلية.

كان جده المغيرة بن عبدالله، الذي كان الرجل من بني مخزوم يؤثر أن ينسب

اليه فيسمى المغيري تشرفا بالانتساب الى الفرع الذي أناف على الأصول.

وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد، لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى.

وكان عمه هشام قائد بني مخزوم في حرب الفجار، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام، ولم تقم سوقا بمكة ثلاثا لحزنها عليه.

وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب في زمانه، له بيت للضيافة يأوي اليه من شاء بغير استئذان.

وكان عمه أبو حذيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود الى موضعه من الكعبة كما أشار النبي عليه السلام قبل الدعوة الاسلامية.

أما الذي فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء في بعض الروايات. فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم الى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر الى مكانه، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل اهلالها على العالم بسنين. ولُقب أبو أمية زاد الراكب لأنه كان يكفي أصحابه في السفر مؤونتهم فلا يتزودون بزاد.

ويظهر أن بني مخزوم هؤلاء كانوا في ثروتهم وعدتهم وبأسهم أقوى البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منها عن سائر بطونها. ولكنهم لم يستأثروا بالزعامة القرشية لأنهم كانوا ينافسون بني هاشم وبني أمية وبني عبد الدار، وهم ثلاثة بطون قوية في جد واحد أقرب من الجد الذي يجمعهم ببني مخزوم، وهو مُرَّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر جد قريش أجمعين.

وقد تبينت رجاحتهم هذه في مواقف كثيرة قبل الاسلام وبعده. فاضطلعوا وحدهم ببناء ربع الكعبة بين الركنين الأسود واليماني، واشتركت قريش كلها في بناء بقية الأركان.

وكان لبني مخزوم وحدهم في وقعة بدر ثلاثون فرسا من مائة فرس لقريش كلها ، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف مثقال من الذهب غير الأزواد والأمداد .

فلا جرم يعظم على نفوسهم أن يغلبهم منافس على الشرف والعزة ، وأن يحوزوا كل ما حازوه من الرجال والأموال ثم تشيل كفتهم مرجوحة في ميزان الفخار.

ولا جرم يأخذون الأمر مأخذ الأنفة والخنزوانة بينهم وبين بني عبد مناف حين تظهر النبوة في هؤلاء ولا تظهر فيهم .

وقد أخذوها هذا المأخذ حين قال أبو جهل : «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحازينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء .. فتى ندرك هذه ؟ »

وانما قال أبو جهل « بنو عبد مناف » ذهابا الى الجد الذي يجمع هاشما وأمية وعبد الدار، كأنه يستعلي في كبريائه أن ينافس هاشما وحدها دون أن يصعد الى أبيها الذي يجمع بينها وبين غيرها .

وكان الوليد بن المغيرة يزعم أنه هو أحق الناس بالنبوة والقرآن ، ويقول : « أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟ » . ففي ذلك يقول القرآن الكريم : « وقالوا لَولا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُل مِن القَريَتْين عَظِيم » .

ونحن نعلم الآن أي عقبة كانت هذه الخنزوانة المخزومية في طريق الاسلام اذ نرجع الى الآيات التي نزلت في رؤسائهم ووصفت ما كان من عنادهم وعتادهم ، وما كانوا يقابلون دعوة الدين الجديد بدعواهم في آبائهم وأجدادهم . فلم ينزل في رؤساء قبيلة مثل ما نزل في رؤساء هذه القبيلة ، ولم تتمثل منعة قوم كما تمثلت منعتهم في ردود القرآن على أقوالهم ، وهي أقوى ردود عرفت في السور المكية الأولى ، على ما جاء في الآيات الكثيرة من سورة « ن » وسورة المدثر وسورة الكافرون ، عدا اشارات أخرى في سورة الحجر وعبس وتولى .

وكل أولئك فحواه شيء واحد ، وهو أن بني مخزوم باءوا بأسباب المحافظة على القديم جميعا حين تصدى الاسلام لتبديل ذلك القديم ، فهم أول من يصاب بهذه

الدعوة الجديدة وآخر من يلبيها وله مندوحة عنها ، ومن ثم كانت المصاولة بين الاسلام والجاهلية في وجه من وجوهها مصاولةً بين محمد عليه السلام وبين خالد بن الوليد الذي انتهى اليه شرف الرئاسة المخزومية في ذلك الأوان.

* * *

والناس يختلفون في تمثيل بيئاتهم وطبقاتهم غاية الاختلاف ويصدقون في تمثيلها غاية الصدق وهم يتفاوتون بينهم تفاوت النقيض والنقيض. لأن البيئة مستودع شامل يوجد فيه الحسن والرديء ويأخذ كل منه على حسب مأتاه ومورده ، وحسب ما هو مستعد له وقادر عليه.

فاذا قيل سيد من سادات قريش أو نموذج من نماذج القرشية الجاهلية جاز لنا أن نتمثله على ألوان كثيرة لا على لون واحد ، وجاز أن يكون هذا السيد خير السادات من طبقته أو شرهم وشر أهل زمانه من جميع الطبقات.

ولكننا مع هذا قد نحصر الخصال المشتركة والنعوت الوسطى التي تشيع في هؤلاء السادات غير من تجاوزوا الحد وبلغوا الندرة في الشذوذ والاستثناء.

فالغالب على هؤلاء السادة انهم يتوارثون الثقافة العربية ويتدارسونها بالتعليم والتلقين والمعاشرة ، ويستوعبون أخبار الحكماء وذوي الأحلام في علاج المشكلات وتدبير الحيل ومصانعة الناس والأيام.

ويكثر فيهم أن يجمعوا الثقافة السياسية والعسكرية كما وصلت اليهم من تراث الأقدمين من عرب وعجم ، وبخاصة من كان منهم منوطا بعدة الحرب وقيادة القبيلة في غزواتها أو مواقف دفاعها ، كما كان خالد بن الوليد.

ومن صفاتهم الشائعة فيهم حب السيطرة والصرامة وقلة الرحمة والاستزادة من المال ومتع الحياة والتفاخر بالوفر والثراء وجمع الحطام من حيثما اجتمع بأساليبهم التي كانوا يستجيزونها ولا يتحرجون منها ، وأشيعها الربا والمغالاة بالأسعار.

وقد وجد في أسرة خالد من يكثر من الاقراض بالربا ومن يرى في أموال الربا

شيئا من الدنس يقاربه في أحوال ويستبعده في أحوال أخرى.

فمات أبوه وله على قبائل مكة وأرباضها ديون تحسب بالألوف لم يزل خالد يتقاضاها حتى أسلم وأسلم المدينون، فترك الربا من بعدها واكتفى برأس المال عملا بالقرآن الكريم : « يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ وذَرُوا ما بَقِيَ مِن الرِّبَا ان كُنتم مُؤمِنين فإن لَم تَفعلُوا فَأذَنُوا بِحَرب مِنَ اللهِ ورَسُولِه وان تبتُم فلكُم رُؤوس أموالِكم لاَ تَظلِمُون وَلا تُظْلَمُون ».

وكذلك وجد في اسرته من نزه الكعبة عن أموال الربا وما شابهها فقال لقومه : « يا معشر قريش ! لا تدخلوا في بنائها من كسبكم الا طيبا لا يدخل فيه مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد ».

وكلهم قرشي جاهلي من طبقة السادة وأصحاب المال.

فحين نقول ان خالدا كان مثال طبقته وعنوان المحافظة على مزايا هذه الطبقة يحسن بنا أن نتجه الى تلك الخلائق الوسطى ونترقب منه نماذجها المشتركة التي لا غلو فيها من هنا أو هناك، حتى نرى دلائل الزيادة في خليقة من تلك الخلائق، فذاك اذن خاصته التي يتميز بها بين قرنائه ولا تخرجه من معهود الطبقة كلها على الاجمال.

ولا يتم الكلام على تراث بني مخزوم حتى نضيف الى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها في كل مجتمع انساني وليس شأنها بالقليل في حياة خالد على التخصيص.

فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الأقطاب بين رجالها مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية، وبقيت لها هذه الشهرة الى ما بعد قيام الدولة العباسية، اذ كان يقال لأبي العباس السفاح : ان المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين.

ولا بدع يكون هذا شأن القبيلة التي نبغ منها خالد بن الوليد وعمر بن أبي ربيعة. فقديما كانت الفروسية والغزل والمرأة بيئة واحدة تتعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال.

وصفوة هذا جميعه أن خالد بن الوليد قد دخل الاسلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية في عهد الجاهلية ، فصنع للاسلام وصنع الاسلام له الأعاجيب ، وكان مقياس العبقرية العربية في عهدين متقابلين.

نشأة خالد

خالد بن الوليد بن المغيرة أحد سبعة اخوة من الذكور وقيل عشرة ، بل ثلاثة عشر بين ذكور واناث ، ومنهم أختان.

وقد تقدم اجمال القول في شرف قومه ونصيب أعمامه خاصة من الرئاسة والزعامة. أما أبوه الوليد فقد كان الرأس بين الرؤوس والزعيم بين الزعماء ، وكانت له في بعض نواحي خلقه وعقله لمحات تلك المواهب التي تجلت بعد ذلك في عبقرية ولده العظيم.

كان أغنى أبناء زمانه في صفوف الثراء المعروفة بينهم كافة : الذهب والفضة والبساتين والكروم والتجارة والعروض ، والخدم والجواري والعبيد ، وسمي من أجل ذلك بالوحيد، ولقب من أجل ذلك بريحانة قريش.

وهو الذي قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر : « ذَرني ومَن خَلَقْت وَحِيدًا وجعلتُ لَهُ مالاً مَمْدودًا وَبنين شُهُودا ومَهَّدتْ لَه تَمْهيدًا ».

ويروي سُفيان الثوري أنه كان يملك ألف ألف دينار، ويروي ابن عباس أنه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال.

ولكبريائه في جوده أو جوده في كبريائه كان ينهى أن توقد نار غير ناره في منى لإطعام الحجيج.

وكان يأنف لنفسه في الجاهلية أن يُرى سكران على اباحة الخمر وشيوعها في تلك الأيام ، فانتهى عنها بغير ناه ، وقيل انه قطع يد السارق على سبيل القصاص.

وقد كان من أصحاب الحيلة والحول والاقدام : ضربةٌ من ضرباته في موقف اللبس والتردد ترينا فيه أبا خالد قبل أن يعرف العالم ضربات خالد، وذاك يوم تداعت الكعبة وأوجس المشركون أن يهدموها ليعيدوا بناءها، توقيرًا لتلك الحرمة التي كانوا يقاربونها بالضراعة والخشوع ويدخلها بعضهم حفاة الأقدام ولم يقربوها قط بهدم أو عدوان. فلما رأى وسواسهم وفزعهم تناول المعول وضرب الضربة الأولى بيديه وهو يقول : « اللهم لم تُرع. اللهم لا نريد الا الخير » ومضى في أثره الهادمون غير متهيبين.

ويؤخذ في بعض أحاديثه مع أبي جهل أنه كان من أفقه الناس لمعاني الكلام ومن أحفظهم للشعر والخطب في أيامه.

« قام النبي ﷺ في المسجد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم، فقال : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن. والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق، وانه يعلو وما يعلى... ثم انصرف الى منزله ».

فقالت قريش : صبا والله الوليد ولتصبون قريش كلهم. فأوفدوا اليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الاسلام ان كان قد نوى الدخول فيه، وما زال به حتى قام معه الى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه يخنق قط ؟ تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ تزعمون أنه شاعر وما فيكم أحد أعلم بالشعر مني فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ يسألهم ويجيبونه : كلا ، في كل سؤال.

حتى أعياهم أن يردوا كلامه فسألوه رأيه في تفسير بلاغة القرآن ففكر ثم قال : « ما هو الا سحر يؤثر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو السحر المبين... » فذاك اذ يقول القرآن الكريم : « انَّهُ فكَّر وقَدَّرَ فَقُتِل كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِل كيفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظر ثُمَّ عبَس وبَسر ثُمَّ أدْبَرَ واسْتَكبَر فقَال ان هَذا الا سحرٌ يؤثَر ».

واختلف المفسرون في تفسير المعنى المقصود بالعتل الزنيم الذي قيل انه نزل فيه.

فرأى بعضهم أن الزنيم هو الدعي وأن الوليد بن المغيرة يوصف به لأن أباه ادعاه بعد ثماني عشرة من مولده.

ورأى بعضهم أن الزنيم وصفٌ له من زنمة كان يعرف بها في عنقه، وهي اللحمة المدلاة. ويخالفهم آخرون فيقولون ان الرجل الذي كان يعرف بهذه الزنمة هو الأخنس ابن شريق، وكان أصله من ثقيف وعداده في زهرة.

وفي رواية أنه عليه السلام سئل عن العتل الزنيم فقال انه هو الفاحش اللئيم، وغير ذلك من الروايات والتأويلات كثير.

الا أن الذي يعنينا فيما نحن بصدده أن الوليد لم ينسب قط الى أحد غير أبيه المغيرة، وان المغيرة لم يكن بحاجة الى استلحاق ولد غريب عنه لكثرة أولاده ونجابتهم بين فتيان مخزوم وقريش عامة، وأن شبه الوليد ببني المغيرة ظاهر حتى في بعض الفروع البعيدة. فان عمر بن الخطاب كانت أمه قريبة خالد بن الوليد وكان يشبهه أقرب الشبه كما يتفق في أيامنا هذه كثيرًا بين أبناء العمات والأخوال، وأن غير الوليد لأولى بذلك الوصف لما تقدم من اعتزاز قريش بنسبته فيهم حتى لقب بريحانة قريش وسمي بينهم بالوحيد.

وعلى أية حال قد نشأ خالد في بيت الوليد بن المغيرة وهو سيد بني مخزوم، وأحد السادات المعدودين في قريش، وصاحب الكلمة التي يتعلق بها مصير قومه فيما يجنح اليه من شرعة أو دين.

أما أمه فهي لبابة بنت الحارث الهلالية، وهي أخت ميمونة أم المؤمنين زوج النبي عليه السلام، وأخت لبابة بنت الحارث الكبرى زوج العباس عمه، وأخت أسماء بنت عميس التي تزوجها جعفر بن أبي طالب ثم أبو بكر الصديق، ثم علي بن أبي طالب، ولها أخوات أخريات بنى بهن رجال من ذوي الأخطار ومقاديم العشائر النابهين.

وندر في بيوت العرب النبيلة بيت لم يكن له صلة بخالد وذويه بالنسب والمصاهرة،

من جانب أمه أو جانب أبيه.

والأقوال في سن خالد وتاريخ مولده لا تنتهي الى قول يمتنع فيه الخلاف. فمن المؤرخين من يقول انه مات وله من العمر ستون سنة. فاذا كان قد مات في السنة الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين للهجرة فقد ولد اذن في السنة الثامنة والثلاثين أو السنة التاسعة والثلاثين قبل الهجرة.

ولكنه قول يحول دون تصديقه والأخذ به أن خالدا كان صغير السن في عام الفتح – فتح مكة – كما يفهم من تلقيب أبي سفيان له بالغلام وشيوع هذا اللقب بين عارفيه.

فقد كان أبو سفيان والعباس يرقبان عبور الكتائب والقبائل في يوم الفتح فكان خالد بن الوليد أول من مر في بني سليم. فسأل أبو سفيان: من هذا؟ قال العباس: هذا خالد بن الوليد. فعاد أبو سفيان يسأل وهو يخفي حنقه: الغلام؟ قال العباس: نعم! كأنه لقب كان معروفا بين شيوخ قريش.

والرجل لا يقال له «غلام» وهو في نحو السادسة والأربعين. وقد يقال له ذلك وهو حول الأربعين اذا كان القائلون من رؤساء الشيوخ وكان اللقب قد عرف قبل ذلك بسنوات وبقي بحكم العادة والتردد على الأفواه. فاذا كان خالد بن الوليد يومئذ في نحو السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين فمولده على التقريب بين سنتي ثماني وعشرين وثلاثين قبل الهجرة.

وعندئذ تخطر لنا قصة أخرى لها صلة بهذا التقدير. وهي قصة المصارعة بينه وبين عمر بن الخطاب وهما غلامان وغلبته عمر وكسره ساقه في هذه المصارعة، وانما يتصارع الندان أو المتقاربان. وعمر على تقدير مشهور قد ولد قبل الهجرة بأربعين سنة أو قرابة هذا التاريخ.

فالتوفيق بين هذه الأقوال جميعا انما يستقيم لنا بتأخير مولد عمر قليلا عن سنة أربعين، وتقديم مولد خالد قليلا عن سنة ثلاثين، فيرجح اذن أن يكون مولده في نحو سنة أربع وثلاثين قبل الهجرة، ولا مانع اذن أن يصارع عمر

ويغلبه كما يغلب الفتى في الرابعة عشرة مثلا زميلا له في السادسة أو السابعة عشرة ، اذا كان مولودا للدربة على الرياضة وألعاب الفروسية ، وكان خالد ولا شك كذلك ، لأنه ورث قيادة الأعنة من باكر صباه .

نعم يظهر أنه كانت عليه مخايل الفروسية منذ صباه الباكر، اذ رشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبر أبنائه ، ورأيناه على قيادة الفرسان – فرسان قريش – وفي وقعة أحد التي أحاط فيها برماة المسلمين من ورائهم : فحلت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره .

وقد أسلفنا أن بني مخزوم كان لهم في الجاهلية أمر القبة والأعنة ، فالقبة هي خيمة عظيمة يضربونها ليجمعوا فيها عدة القتال ، والأعنة هي الخيل وفرسانها ، وولاية خالد هذه « الوظيفة » الموكولة الى قبيلته بين بطون قريش جميعا هي آية استعداده للرئاسة والقيادة منذ صباه .

وفي أخبار خالد قصة واحدة تنفعنا في تصور ملامحه وسماته لقلة أوصافه المحفوظة ، على خلاف ما تعودناه من أحاديث العرب عن أبطالهم . وهي في الغالب مفيضة في وصف أولئك الأبطال .

تلك القصة هي ما أشرنا اليه من المشابهة بينه وبين عمر بن الخطاب ، حتى كان اناس من ضعاف النظر يخلطون بينهما من قريب ، ولا يميزونهما بالرؤية ولا بسماع الصوت الخفيض .

وخلاصتها أن علقمة بن عُلاثة لقي عمر بن الخطاب سرا فقال له : مرحبًا بك يا أبا سليمان ! .. ثم دنا منه فلم يميزه مع دنوه وسماع صوته برد السلام عليه ، فقال : عزلك ابن الخطاب ؟ فأجابه عمر : نعم . فمضى علقمة يقول : ما يشبع ، لا أشبع الله بطنه !

وأصبح عمر فدعا بخالد وعلقمة وسأل خالدا : ماذا قال لك علقمة ! فنفى أن يكون قد لقيه أو جرى بينهما كلام . وكرر عمر السؤال . فأقسم خالد بالله ما رآه ولا سمع منه شيئا ... فقال علقمة كالموسع له من حرج : حِلاً أبا سليمان ! ولم

يفطن لغلطه حتى تبسم عمر وأخبرهما بالحديث.

ومن هنا نفهم أن خالدًا كان طويلا بائن الطول. وأنه كان عظيم الجسم والهامة، مهيب الطلعة يميل الى البياض.

وغني عن تواريخ المؤرخين ولا جدال أن خالدًا قد تعلم في صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب وللفروسية وشمائل الرئاسة، ومن الصغائر العارضة التي زعم أناس أنها أصل الجفاء بينه وبين قريبه عمر بن الخطاب أنه صارعه كما تقدم فغلبه وكسر ساقه، وهي صغيرة تنبيء عن دراية باكرة بفنون الصراع والكفاح، ولكنها لو لم تذكر في مصادرها لأغنانا عنها علم القائد الكبير بفنون الفروسية على أنواعها وسرعته في مآزق النزال الى مصارعة أقرانه ومبارزيه واحتضانهم بعنف شديد حتى يعجزهم عن الحراك.

وغير بعيد أنه تعود عيشة الشظف وراض نفسه على الخشونة عمدا في البادية ليصبر على مضانك الحرب وشدائد الجوع والظمأ حيثما تفرد عن موارد الزاد. فقد جاء في بعض الأحاديث ان خالدًا كان يأكل الضب ويشتهيه كما يأكله الأعراب ويشتهونه، وهو أغنى انسان في مكة أن يسيغ هذه الأكلة الاعرابية، مع يساره وافتنان أهله في الأطعمة الحضرية.

قال ابن العباس رواية عن خالد أنه دخل مع رسول الله الى خالته ميمونة بنت الحارث فقدمت الى رسول الله لحم ضب جاءها مع قريبة لها من نجد، وكان رسول الله لا يأكل شيئا حتى يعلم ما هو، فاتفق النسوة ألا يخبرنه حتى يرين كيف يتذوقه ويعرفه ان ذاقه. فلما سأل عنه وعلم به تركه وعافه. فسأله خالد : أحرام هو؟ قال : لا. ولكنه طعام ليس في قومي فأجدني أعافه... قال خالد : فاجترته اليَّ فأكلته ورسول الله ينظر!

ومثل هذه التربية لقائد من قواد الحرب نموذج يحتذى في كل مدرسة من مدارس الفنون العسكرية الحديثة، وعلى سنتها كتب نابليون تقريره وهو طالب في المدرسة الحربية يعيب على النظام يومئذ أنه يسمح لأبناء الأعيان بمعيشة الترف

واستصحاب الخدم بين جدران المدرسة، وهم أحرى بخدمة أنفسهم في مدرسة يتعلمون فيها الصبر على شدائد الحروب.

وكان لخالد ولا ريب علم بالبادية العربية من غير هذا الطريق طريق الرياضة المقصودة ان صح ما رجحناه. فلعله سافر كثيرًا في الجزيرة قبل الاسلام، ولعله عرف في تلك الأسفار دروبها العصيبة التي كان يطرقها من العراق الى الحجاز ومن الحجاز الى اليمن، ومن نجد الى الشام، وبعضها كان يعتسفه على عجل بغير أدلاء.

ولم تكن بخالد ولا باخوته حاجة الى التجارة لكسب العيش وتحصيل المال، اذ كان أبوه على تلك الثروة التي لا مزيد عليها في البلاد العربية، وكانت ثروته أشبه شيء في عصرنا هذا بثروة المصارف التي تعمل في صفقات القروض والربا ومضاربات الأسعار. أما الثمرات والخضر في مزارعه فلم تكن مما يحمل الى البلاد القصية للبيع والشراء، وانما قصاراها أن تباع في الحواضر الحجازية وما قاربها من البوادي القادرة على شيء من الترف والمتعة، ولا سيا في أيام الأسواق والحجيج. ولهذا فسر بعضهم وصف بنيه « بالشهود » فيما تقدم من الآيات بأنهم كانوا أبدا في صحبته وجواره مفاخرة بهم وتنزيها لهم عن الكدح والتصرف في شؤون المعاش. فان قضيت لأحدهم رحلةٌ أو سياحة ففي غير هذه الأغراض أو في غير حاجة ملحة الى الاتجار، وانما هي الدربة والتمرس بالمصاعب والانتفاع بخبرة السياحة وآدابها، وقد ينفقون في ذلك خير ما يكسبون، كما كان يصنع عمه « زاد الراكب » وأعمامه الآخرون الذين اشتهروا بالأنفة من مجاراة أحد لهم في الضيافة وبذل العطايا والهبات.

وموضع الترجيح والاستنتاج هنا انما هو في ارسال خالد الى البادية قصدًا لرياضة النفس والجسد على خشونة الاعراب وشدائد الميادين فهذا، وان جرت به عادة بعض الأشراف في حواضر الحجاز، لم يقطع به قول من الأقوال في سيرة الوليد بن المغيرة وبنيه « الشهود » على احتمال الشهادة للمعنى الذي قدمناه.

ولكن الأمر الموثوق به كل الثقة، والذي لا موضع فيه لترجيح ولا استنتاج أن خالدا قد نشأ حيث نشأ في الحاضرة أو البادية مستعدًا للخشونة مستطيعًا لمعيشة الأعراب، مستجيب السليقة والبيئة لما يتكلفه المجاهد في أوعر القفار وأعنف الحروب.

وكانت له ضلاعة العصبيين الأقوياء المعهودين بين رجال السيف، وهي ضلاعة يوشك أن تستمد من حماسة النفس وشهامة القلب أضعاف ما تستمده من العضلات والأوصال.

فلم تُعفه العبقرية من ضريبتها التي لا مناص من أدائها، وآية ذلك أنه مات على فراشه في نحو الخامسة والخمسين، وليست هي بالسن الغالبة فيمن يموتون بداء الشيخوخة من غير علة أخرى.

واذا تجاوزنا هذه المظنة، وهي كافية، ألفينا في تراجم الأسرة كلها ما ينبىء عن عوارض الأسر التي تهيئها الأقدار لإنجاب العباقرة في شتى المواهب والمزايا.

فهذه الأسرة الغريبة تكثر فيها عوارض الاختلاف عن جملة الناس في تركيب الأعصاب خاصة، ويشاهد فيها فرد أو أفراد تتجمع فيهم عللها وتمعن بهم مخالفاتها وعناصر شذوذها حتى تسلمهم الى الاختلال والاضطراب كأنهم ضحايا الأسرة كلها في سبيل انجاب العبقرية منها.

وكانت هذه العوارض مشاهدة في أسرة خالد وفي اخوته على التخصيص. فذكر كتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب « أن الوليد ابن الوليد كان يروع في منامه مثل حديث مالك سواء في قصة خالد ». وعن مسند بن أبي شيبة أن خالد بن الوليد كان يفزع في نومه فشكا الى النبي عليه السلام. فقال له: « ان عفريتا من الجن يكيدك ».

وبذلت هذه الأسرة الممتازة ضحيتها الكبرى في شخص سليلها عمارة بن الوليد أحد الاخوة المذكورين بأسمائهم من ذرية الوليد بن المغيرة.

وعمارة هذا هو صاحب عمرو بن العاص في رحلة الحبشة رسولين الى النجاشي لتسليم المسلمين بها الى قريش.

وكان مولعًا بالخمر والغزل وسيما محببا الى النساء. فلما كان بالسفينة مع عمرو وامرأته شرب ونظر الى امرأة عمرو نظرة مريبة.

وقد نلمح عوارض الأسرة هذه في أعظم أفراد الأسرة كما نلمحها في هذا المسكين الذي ابتلي بالثمن الفادح والضحية الكبرى. فخالد بن الوليد – شرف بني المغيرة – لم يفتنه الميل الى المرأة كما فتن أخاه، ولم يصرفه قط عن عبء من أعباء البطولة ولا عن فريضة من فرائض العظمة والعبقرية، ولكنه على هذا قد تعرض للمؤاخذة من عمر بن الخطاب ومن أبي بكر الصديق في صدد الزواج المعجل في غير حينه، فسبى امرأة مالك بن نويرة، وتزوج في حرب اليمامة وهو بميدان القتال، وسبى ابنة الجودي في دومة الجندل، وقيل انه فقد أربعين ولدًا في طاعون الشام وهو بقيد الحياة لمّا يجاوز الخمسين بكثير.

وتلك في جملتها شواهد العوارض التي يفرز النفسانيون المحدثون أنها سمات العبقرية في منابتها، ومنابتها هي الأسر التي تنجبها وتبذل أثمانها قبل أن تنعم بمجدها وفخارها.

وكما ظهرت هذه العوارض في لون من ألوانها على أخيه عمارة ظهرت في بعض ألوانها الأخرى على أخيه الوليد الذي كان مثله يراع في رقاده.

فهذا الأخ الكريم كان مع جيش المشركين في وقعة بدر فأسره المسلمون، وطال الكلام في فدائه لغناه وعداوة أهله للاسلام، فطلب آسره أربعة آلاف درهم، وأوصى النبي ألا يقبلوا فدية له غير شكة أبيه الوليد وهي درع فضفاضة وسيف وبيضة. وكل هذه المطاولة والمساومة والوليد باق على دين الشرك في أسر المسلمين. فلما تم فداؤه وذهب الى أهله أعلن اسلامه بينهم وهم كارهون، وعجب المشركون لأمره فسألوه: هلا أسلمت قبل أن تفتدى؟ فقال: كرهت أن يظن بي أنني جزعت من الاسار.. وصبر على التعذيب والنكاية والحبس بين أهله حتى أفلت بعد جهد وحيلة ولحق بالنبي مشيًا على قدميه!

هذه أيضًا نفحة خالدية من نفحات تلك الأسرة القوية التي تأبى لخلائقها الا أن تحير الناس وأن ترد عليهم من مورد التفاوت والإغراب والمحافظة للمألوف.

وهي في أطوارها المتباينة منجم العبقرية الذي لا مراء فيه. ومعدن البطولة

التي تكتب لصاحبها وهو في الأصلاب.

فهاهنا نشأة بطل عبقري مدخر للقيادة والرئاسة بميراث حسبه وطبعه، وملكات نفسه وجسده، جاءته البطولة وهو ينتظرها ولا يشك فيها، وتهيأ لها بالقدرة على الشدة والرخاء والنعمة والبأساء، ويكاد الصدق والاشاعة معا يتوافيان الى دلالة واحدة في تربية هذا البطل المنذور للبطولة والعبقرية من قبل ميلاده، فأكلة الضب التي سبق ذكرها واحدة !.. وغيرها أكلات مسمومات يبدو لنا أنها مخترعة أو محرفة ولكن اختراعها وتحريفها يدلان لا محالة على شيء. وهو اشتهار خالد بترويض بنيته على تجرع الغصص التي يتقزز منها الناس ويخافون منها الهلاك. ففي اليواقيت للقطب الشعراني أنه حاصر قوما من الكفار في حصن لهم فقالوا : تزعم أن دين الاسلام حق ؟ فأرنا آية لنسلم. فقال احملوا اليَّ السم القاتل، فأتوه به فأخذه وقال : بسم الله، وشربه فلم يضره، وتردد مثل ذلك في كتاب الاصابة فروي عن مصادر شتّى أنه لما قدم الحيرة أتى بسُم فوضعه في راحته ثم سمى وشربه، ولم يؤثر فيه.

وقد سمعنا نيتشه – بشير السوبرمان في العصر الحديث – يقول : ان السم الذي لا يميتني يزيدني قوة !

فهذه بنية بطل نشأت للمجد على هذا الغرار.

الـسـلامـة

كان اسلام خالد ضربا من التسليم.

كان ضربًا من التسليم بمعناه « العسكري » المصطلح عليه في عرف القادة ورجال الكفاح.

لأنه أسلم أو سلم تسليم القائد البصير بحركة القتال بين المد والجزر والنصر والهزيمة، الخبير بموضع الإقدام وموضع الإحجام، المقاتل والقتال شجاعة، المسالم والسلم ضرورة لا محيص عنها..

ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل، ولا الجازع المنخذل. بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقدرة وحمادى اليقين بالخبرة، يوم أسلم وسلَّم الى معسكر الدين الجديد. كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسه أنه لن يغلبه الا الله، وكأنه كان يقول في قرارة ضميره: أيهزمني أحد وليس له مدد من النبوة؟ أيعلو سيف على سيفي وليس له سر من السماء؟

فبلغ نهاية الايمان بنفسه يوم بلغ بداية الايمان بالله.

وقد كان على ذويه في بني مخزوم أن يحاربوا حربهم الى نهايتها، لأن الصراع بين الجاهلية والاسلام لم يكن الا صراعا لهم قبل كل جاهلي وكل قرشي وكل عربي على التعميم.

وكان معسكرهم أولى المعسكرات أن يصمد الى موقف الحسم من النضال بين الفريقين، لأن بلاءه بادبار الجاهلية أكبر من كل بلاء، وموقفه أمام الاسلام موقف

من ينافح عن عزته وعزة بيته وعزة آبائه وأجداده ، وعزة « النظام » الاجتماعي كله كما قررته الجاهلية أحقابا بعد أحقاب ، لأنه النظام الذي به يقومون وبهم يقوم.

وقد أبلى أبوه في هذا الصراع قصارى ما في وسعه من بلاء ، وهو شرح يطول ، وتفصيل تضيق به الفصول ، ولكن اشارة واحدة فيه تغني عن بيان طويل ، وصفحة موجزة من صفحاته تغني عن الاطناب في القال والقيل.

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها في حرب الاسلام أن نقول انه قد هان عليه في هذا السبيل أن يبذل العزيزين : الولد والمال.

ففي بداية الدعوة المحمدية سعى وقومه الى عم النبي أبي طالب ليسلمهم محمدا أو يتخلى عنه ، وله بديلا منه عمارة بن الوليد ... وقد وصفوه بأنه أنهد الفتيان وأشعرهم وأجملهم في قريش.

وبعد استفاضة الدعوة المحمدية يسعى الى النبي فيمن سعى اليه من سراة قريش ليشاطروه أموالهم ويسكت عن أربابهم وعباداتهم ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم في سورة الأحزاب : « ولا تُطِعِ الكَافِرِين وَالْمُنافِقِينَ ».

وبمقياس هذا البذل السخي في سبيل الدين تقاس كراهة الرجل للدين الجديد ، وهي كراهة الهرم التي تبقى الى الموت ، لأنه فوجىء بالاسلام وهو يقارب الثمانين وظل على الكيد له حتى مات بعيد الهجرة وقد نيف على الخامسة والتسعين.

* * *

وكان خالد فتى ناشئا يوم ظهر النبي بالدعوة الجديدة ، فنفر منها كما نفر قومه أجمعون ، وزاد على النفرة لهبا من حمية صباه ، وتحفزا فتيا يسبق به أباه ..

فما هو الا أن بلغ مبلغ الزعامة في القتال حتى تجرد لها بعزيمة الفتوة وشجاعة البطولة ، ولم تنقض سنتان على موت أبيه حتى كان قائد الميمنة في وقعة أُحُد المشهورة ، وتولى الهجمة التي مالت بكفة النصر من جانب المسلمين الى جانب المشركين.

وذلك أن النبي عليه السلام أقام الرماة من وراء جيشه وقال لهم : « قوموا على

مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فان رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وأن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا » . فلما ولى المشركون منهزمين وتبعهم المسلمون مغتنمين ، خالفت كثرة الرماة وصاية النبي وتصايحوا بينهم : « ما مقامنا ها هنا وقد انهزم المشركون؟ فكانت هي الغرة التي اهتبلها خالد ولم تذهله عنها الهزيمة المطبقة بقومه ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبي جهل صاحب الميسرة وداروا من وراء جيش المسلمين ، فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبدالله بن جبير ، وانتقضت صفوف المسلمينواستدارت رحاهم واختلطوا فصاروا يقتتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضا من العجلة والدهشة ، وشاع أن عليه السلام قتل في المعركة ، وقتل فيها حمزة وسبعون من الأنصار، وأرجف المرجفون بكبار الصحابة حتى ظن أبو سفيان أن أبا بكر وعمر من القتلى ، وصاح بين الصفوف : « يوم بيوم بدر والحرب سجال » .

* * *

واشترك خالد في وقعة أخرى هي وقعة الأحزاب ، أو الخندق ، فكانت هي أيضا من أهول الغزوات على المسلمين وأوشكت أن تحيق بهم دوائرها لولا يقظة علي بن أبي طالب ووقيعة بعض الدهاة بين أحزاب قريش وهبوب الريح التي عصفت ببيوتهم وقدورهم وزادتهم يأسا من اقتحام الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة ، وفي هذه الغزوة يقول القرآن الكريم : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمَة اللهِ عليكم اذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروهَا وكان اللهُ بما تَعملون بصيرا ، اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم واذ زاغتِ الأبصارُ وبَلَغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنُّون باللهِ الظُنُّون . هُنَالِك ابتُلِيَ المؤمِنون وزلزلوا زلزالًا شَديدًا ... »

وقد كان خالد في هذه الغزوة يطوف بخيله حول الخندق يلتمس مضيقا يقحم منه الخيل فأعياه وفشل عمرو بن ود حين حاول العبور من احدى نواحيه . فلما حبطت حملـة عمرو وقتله علي بن أبي طالب ، بات المشركون ليلتهم يقسمون كتائبهم لكل فريق من المسلمين كتيبة تدهمه مع الصباح ، فكان خالد هو الموكل بالنبي عليه السلام في كتيبة غليظة من خيل قريش والأحزاب ، فاندفع يقاتل سحابة النهار وهويا من الليل ، الى أن تحاجز الفريقان ورجع المشركون وانصرف المسلمون

الى قبة النبي ، فارتد خالد بعد هنيهة يطلب الغرة ، وكاد أن يظفر بها لولا حرس من المسلمين بقيادة أسيد بن حضير تنبه له وفوت عليه غرضه. ثم انقطع القتال وهو لا يزال على الطلب والطواف ، وكان آخر من ترك الحومة بعد يأس الأحزاب من عبور الخندق ودخول المدينة ، فلبث هو وعمرو بن العاص على ساقة الجيش في مائتي فارس ردءًا للجيش كله ، مخافة أن يتعقبه المسلمون .

* * *

وتصدى خالد مرة أخرى للنبي عليه السلام في سنة الحديبية وهو في طريقه الى مكة. وكان النبي قد خرج اليها معتمرا في نحو ألف وخمسمائة من المسلمين لا يحملون سلاحا غير السيوف في القرب ، فأوجس المشركون خيفة أن يكون قدومه الى البيت الحرام للقتال لا للعمرة ، وندبوا خالدًا في مائتي فارس للقائه قبل بلوغ مكة فدنا خالد حتى نظر الى أصحاب رسول الله ، وأمر رسول الله عباد بن بشر فتقدم في خيله وأقام بازائه وصف من ورائهم رجاله ، ثم حانت صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف ، وهمَّ خالد أن يغير عليه لولا نخوة من الفروسية أبت له العدوان على المسالم وقمعت فيه طمع الرئيس المغيظ على مكانته وعروض دنياه فعلت هنا كفة الفارس النبيل على كفة الرئيس الموتور، وقال خالد يصف ذلك بعد اسلامه : « هممنا أن نغير عليه ثم لم يُعزم لنا ، وكان فيه خيرة ، فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعا ، وقلت الرجل ممنوع ».

الا أنه مع هذا بقي على لدده في خصومة الاسلام ومعاندة نفسه دون الاصغاء له والنظر اليه. فلما صالح النبي قريشا ودخل مكة في عمرة القضية كره خالد أن يشهد دخوله ، وتغيب من جوار البيت ريثما يعتمر المسلمون ويرجعون من حيث أتوا ، وهو معنى النظر من رؤية شيء لا يستحبه ولا يخلى بينه وبين حزبه .

كذلك كانت كراهة خالد للاسلام بعد كراهة أبيه ..

ومن وثباته هذه ، ولجاجه ذاك ، يغلب على الظن أن كراهته كانت من نوع

تلك الكراهة التي هي أقرب الى المبارزة والمناجزة منها الى المقت والضغينة. لأنها لا تغني صاحبها بالبعد من موضوعها كما تعنيه بالاشتغال به والعكوف عليه، كأنه زميل المبارزة اللازم لاتمام الصراع واذكاء حرارته وامتحان قدرة النفس عليه.

وهذه الحرارة حركة جياشة في النفس وليست كذلك الموات الذي تنقبض عليه النفس في الشيخوخة الفانية، ولا كذلك الضغن الذي يتغذى بقيحه المخزون في طبيعة منغولة معدومة الخير والنجدة.

مثل هذه الحركة الجياشة في النفس الحية الفتية كالسيل المتدفع الأتي في واديه المحيط بجانبيه، يظل متدفعًا أتيا ما بقي في الوادي وما انهمر عليه الغيث من ضفتيه. ولكنه الى أمد لا محالة. لأنه سينتهي الى مفترق الوادي فلا يجيش ولا يتدفع، وسيقصر عنه الغيث فلا يربو ولا يترع. وسيكون طريقه مع الوادي المفترق غير طريقه مع الوادي المحصور..

والوادي هنا قد افترق في مجراه شعبة بعد شعبة منذ عهد قريب وان لم ينته بعد الى غاية المفترق في الأرض البراح.

افترق الوادي قليلا حين انقسم بيت المغيرة بين معسكر الجاهلية ومعسكر الاسلام. وأصبح في معسكر الاسلام أخوان حبيبان الى خالد. وهما الوليد وهشام..

وافترق قليلا يوم أصغى أبوه الى القرآن فحدث آل بيته عنه ذلك الحديث الذي أرابهم وأشجاهم، فحسبوه قد صبأ عن دينه وسألوه عن نبأ محمد فأوشك أن يقع في قلبه أنه وحي السماء لو لم ينطق لسانه بأنه السحر الذي يفرق بين الرجل وزوجه والوالد وبنيه والسيد ومولاه!

وافترق قليلا يوم شهد خالد سكينة المسلمين في طريق الحديبية وهم قائمون للصلاة. وهجس في خاطره أن يغير عليهم فصدته عنهم رهبة الصلاة ونخوة الفارس المحجم عن الغدر والغيلة، وسرى في روعه أن لمحمد لسرًا وأن الرجل لممنوع.

وكان لتلك الحركة الجياشة مدد من تحريك الكتائب وتجريد الطلائع واقامة الأرصاد والتقاء الجموع واتفاق الكلمة بين المشركين على الحرب والعداء. فاذا هم

يتبلبلون مختلفين بعد صلح الحديبية ، واذا بصلح الحديبية يلقي السلاح من الايدي سنين طوالا لا لقاء فيها ولا نزال ، ولا سورة من غضب ولا جذوة من غيظ مثار.

ومات الشيوخ الذين كانوا يخيمون بوقارهم وجمودهم على العقول وتهيأ الجو للسؤال : فيم هذا العداء والنضال ؟ أمن أجل الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم جوارها ويحج اليها ؟ أم من أجل العصبية القومية وشرف محمد شرف العرب أجمعين ؟ .. أم من أجل الكرامة ومحمد يصون للعزيز كرامته ويعرف للحسيب قدره ؟

ومن أين لمحمد ذلك النصر المبين بعد النصر المبين ؟

ومن أين له تلك المهابة التي ترد عنه الأعين والأيدي من قريب ؟

ومن أين له ذلك العون الذي يدركه وقد أحاطت به الهزيمة من كل فج فاذا هو ناصل منها واذا هو الطارد الظافر وقد خيل اليهم أنه الطريد المخذول ؟

ومن أين للمسلمين ذلك الأدب وذلك الخشوع ؟ ومن أين للنبي بينهم ذلك السلطان الصادع والصوت المسموع ؟

لقد رآهم ورآه سيد أهل الطائف عروة بن مسعود فعاد الى قومه يقول : « والله يا معشر قريش ! جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في عظمته فما رأيت ملكا في قومه مثل محمد بين أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه بشيء أبدًا فانظروا رأيكم فانه عرض عليكم رشدًا ، فاقبلوا ما عرض عليكم فاني لكم ناصح ، مع أني أخاف ألا تنصروا عليه ».

ولقد رأوه بعد ذلك في عمرة القضية لا يتوضأ وضوءًا الا كاد المسلمون يقتتلون عليه ، واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، ولا يحدون النظر اليه ، ورأوهم في نظامهم ومودتهم وصدق ايمانهم وخالص نياتهم ، فأكبروهم وعز عليهم أن يصغروهم أو يتمادوا في الزراية بهم والاعراض عنهم ، وانقلبوا الى أنفسهم فاذا هم مرتابون في الغد متدابرون في المقصد ، منهزمون وهم الأكثرون محجمون وهم المتربصون. فحانت الساعة لوزن الأمور ومراجعة الحاضر والمصير وفرضت هذه المراجعة فرضًا على كل ذي بصر بالقيادة في معارك النضال أين تفشل وأين يتسع لها المجال ، فاذا بالرجلين المفطورين

على توجيه الوجوه قد انتهيا الى رأي في مصير المعركة بين الجاهلية والاسلام في ساعة واحدة ، وعلما أين يقف الدينان المتناجزان من حق النصر وعوارض الهزيمة ، وهما عبقريا قريش في أصول القيادة على تباين السن والمذهب والمزاج : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

وفي تلك الآونة التي يشتد فيها الجذب والدفع بين الانسان وقرارة ضميره وتجب فيها الموازنة وجوبًا على كل ضليع بها قادر عليها ، لم يُترك خالد لنفسه ولم يلبث أن جاءته الدعوة التي تنصره على عناده وتخرجه من تردده ، وتستدعي منه البت العاجل بجوابه ، وتمسح الغضاضة التي لعلها كانت تثنيه عن تلبية ضميره .

وتلك رسالة من أخيه يحملها له من كلام محمد ولا غنى فيها عن جواب ..

قال أخوه الوليد : « ... أما بعد .. فاني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام يجهله أحد ؟ ! »

ثم مضى يقول : « سألني رسول الله ﷺ فقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتي الله به . فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدّمناه على غيره ..

فاستدرك يا اخي ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة ».

* * *

تلك كانت هي الدعوة التي جاءت في أوانها ..

وكان اسلام خالد هو الجواب ..

* * *

فهي مراحله الطبيعية التي لا بد له من عبورها بين الجاهلية والاسلام : لم يكن طبيعيا أن يلبي أول دعوة وهو هو في قريش صاحب معقلها المنيع .

ولم يكن طبيعيا أن يلبي الدعوة في وطيس الحرب ومحتدم العداء ..

ولم يكن طبيعيا أن يسكن هنيهة الى الموازنة وقد انقسم بيته ثم انقسمت نفسه ثم جاءته الدعوة الكريمة في حينها فلا يكون الاسلام جوابه المنظور..

فهو قد انتقل من الاصرار، الى القتال، الى الموادعة، الى الموازنة، الى الترجيح، الى الاجابة، ولو عجل بواحدة من هذه الخطوات لكانت هذه العجلة هي مكان العجب وهي الأمر المخالف لطبائع الأمور..

وقد أسلفنا أن الاسلام كان في أمر خالد ضربًا من التسليم، فنعيد هنا أنه تسليم القائد في معركة نفسية وليس بتسليم القائد في معركة حسية وكفى، ولهذا عناه أن يستغفر له النبي ربه عن ماضيه، ولم يكن قصاراه أن يرحب به النبي ويسلكه بين صحابته ومريديه. فقال : يا رسول الله : قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندًا عن الحق، فادع الله يغفرها لي..

فأجابه النبي عليه السلام : ان الاسلام يَجبُّ ما كان قبله..

فعاد خالد يؤكد رجاءه ويقول : يا رسول الله، وعلى ذلك !

فدعا النبي ربه : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أوضع فيه من صد عن سبيلك !

فرضي خالد واستراح..

ولا يكون هذا الا تسليم القلب نفض عنه الكفر، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح.

* * *

وأحرى بنا أن نرجع الى كلام خالد لبيان تاريخ اسلامه وسبب اهتدائه وتلخيص الأحاديث التي كاشف بها خلصاءه قبل لحاقه بالنبي في المدينة ليسلم على يديه، فانه أجمل ذلك كله اجمالا يفصح عن تلك الأطوار النفسية التي ساورته وان لم يقصد الى الافصاح عنها، ولعل صدورها منه على البديهة أبين لها وأقرب الى توكيدها من الشرح المقصود..

قال : « لما أراد الله بي من الخير ما أراد ، قذف في قلبي حب الاسلام وحضرني رشدي وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن أشهده الا وانصرف واني أرى نفسي اني موضع في غير شيء وأن محمدًا سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ الى الحديبية خرجت في خيل المشركين فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعسفان ، فقمت بازائه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر اماما ، فهممنا أن نغير عليه ثم لم يُعزم لنا . وكان فيه خيرة . فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعا وقلت : الرجل ممنوع ! وافترقنا وعدل على سنن خيلنا ، فأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالراح قلت في نفسي : أي شيء بقي ؟ أين المذهب ؟ أإلى النجاشي ؟ فقد اتبع محمدًا وأصحابه آمنون عنده . فأخرج الى هرقل؟ فأخرج من ديني الى نصرانية أو يهودية . أفأقيم في عجم أو أقيم في داري فيمن بقي ؟

« وبينما أنا كذلك اذ دخل رسول الله ﷺ في عمرة القضية ، وتغيبت فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في تلك العمرة ، فطلبني فلم يجدني . فكتب اليَّ كتابًا فاذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فاني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام يجهله أحد ؟ وقد سألني رسول الله ﷺ فقال : أين خالد ؟ فقلت: يأتي الله به . فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ؟ ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرًا له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا اخي ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة » .

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الاسلام ، وسرتني مقالة رسول الله ﷺ . ورأيت في النوم كأني في بلاد ضيقة جدبة فخرجت الى بلد أخضر واسع . فقلت : ان هذه الرؤيا حق ! فلما قدمت المدينة قلت لأذكرنها لأبي بكر ، فذكرتها فقال : هو مخرجك الذي هداك للاسلام ، والضيق الذي كنت فيه الشرك . فلما أجمعت الخروج الى رسول الله ﷺ قلت : من

أصاحب الى محمد ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : أما ترى يا أبا وهب ؟ أما ترى ما نحن فيه؟ انما نحن أكلة رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم. فلو قدمنا عليه فاتبعناه ؟ فان شرف محمد شرف لنا ، فأبى عليَّ أشد الاباء ، وقال : لو لم يبق غيري من قريش ما تبعته أبدا ، فافترقنا ، وقلت : هذا رجل موتور يطلب وترا ، قتل أبوه وأخوه ببدر. ولقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال لي مثل ما قال صفوان.. فقلت له : فاطو ما ذكرت لك.. وخرجت الى منزلي فأمرت براحلتي تخرج اليَّ الى أن ألقى عثمان بن أبي طلحة ، وهو صديق لي أذكر له ما أريد. ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما علي وأنا راحل من ساعتي ؟ فذكرت له ما صار الأمر اليه ، وقلت : انما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صب عليه ذنوب من ماء خرج ، وقلت له نحوًا مما قلته لصاحبيه ، فأسرع الاجابة.. وأدلجنا بسحرة فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج – على ثمانية أميال من مكة – فغدونا حتى انتهينا الى الهدة ، فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال : مرحبا بالقوم. قلنا : وبك. فقال : أين سيركم؟ قلنا. ما أخرجك؟ قال : فما الذي أخرجكم ؟ قلنا:الدخول في الاسلام واتباع محمد ، قال : وذاك الذي أقدمني. فاصطحبنا جميعا حتى قدمنا المدينة ، فأنخنا بظاهر الحرَّة ركائبنا ، وأخبر بنا رسول الله ﷺ فسُر بنا. فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت الى رسول الله ﷺ فلقيني أخي فقال : أسرع فان رسول الله ﷺ اخبر بقدومك فسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم. فأسرعت المشي ، فطلعت فما زال يبتسم اليَّ حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد عليَّ السلام بوجه طلق. فقلت : اني أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله. فقال : الحمد لله الذي هداك. قد كنت أرى لك عقلا ورجوت أن لا يسلمك الا الخير ».

الى أن قال : « وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله ﷺ وكان قدومنا في شهر صفر من سنة ثمان ، فوالله ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما حزبه ».

* * *

فهذا السرد البسيط قد يحوم بنا حول الخالجة الأولى التي حركت قلب خالد الى الايمان بالدين الجديد، ونحسب أنها قد خالجته يوم التقائه بالمسلمين في طريقهم الى مكة قبيل صلح الحديبية. يوم ردته سكينة الصلاة عن جموع المسلمين وهم قانتون الى جوار البيت الحرام، ويوم بدا له أن هذا البيت العتيق غير خاسر شيئاً بدعوة محمد وغلبة أصحابه على البلد الأمين، ويوم تراءى العنت من قريش أن يذودوا ابن عبد المطلب عن كعبة آبائه وأجداده ويفسحوا طريقها للوافدين من حمير كما قال الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش.

فمنذ تلك الساعة تباعد ما بين خالد وبين الشرك وتقارب ما بينه وبين الاسلام وطفق يتباعد من هناك ويتقارب من هنا حتى كانت مبايعته النبي على ما تقدم قبل فتح مكة بشهور.

وفي تحقيق هذا التاريخ – تاريخ اسلامه – خلاف غير قليل، ولكن التاريخ الذي جاء في سرده المنسوب اليه أرجح التواريخ جميعًا لأسباب كثيرة، ليس بأهونها ولا أوهنها السبب النفساني الذي يقترن بغيره. فان الوقت المشار اليه آنفا لهو أشبه الأوقات أن يتفق فيه قائد الحرب وقائد السياسة على انتهاء الجولة بين قريش والاسلام. ولن نجد وقتًا هو أولى باتفاق القائدين على اختياره للتسليم من ذلك الوقت الذي تواردت فيه الخواطر بين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص... وبعده قضي الأمر ولم يبق لمكة الا أن تفتح أبوابها طائعة لمن هجرته وهجرها تلك السنوات الثمان.

وقد علم النبي عليه السلام جلية الأمر منذ قدم اليه الرفاق الثلاثة، فقال لصحبه: رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها، وحق للمسلمين أن يحسبوا منذ تلك الساعة أولئك الرفاق الأفذاذ قد جاءوهم بمقاليد الكعبة ومسالك البلد الأمين..

فالواقع أن مكة قد آذنت بالفتح منذ فارقها خالد وعمرو وعثمان بن طلحة، فأصبحت «المدينة المفتوحة» التي نعرفها في اصطلاح هذه الأيام، وأصبحت قضية مغلقيها في وجه الدين الجديد قضية عبث وحبوط.

ويخطىء الكاتبون الذين يزعمون أنها فتحت بعد شهور لأنها أخذت على غرة

وزحف عليها جيش المسلمين في عشرة آلاف وأهلها معجلون عن الأهبة والدفاع.

فان النبي عليه السلام انما زحف عليها لأن قريشا غدرت بعهدها وسطت على حلفائه من خزاعة. ثم أشفقت من القصاص فأوفدت أبا سفيان الى النبي يستأمنه ويسأله مد العهد الذي أبرم بينهم في صلح الحديبية، فأبى النبي ولم يجبه، وأحس المشركون منذ اللحظة الأولى أن المسلمين زاحفون عليهم لا محالة، فلو أن قضية الشرك بقيت لها بقية من عزم لاستعدوا قبل السطو بخزاعة أو بعده على الأثر وأراحوا أنفسهم من الوساطة في التأجيل والمراوغة، ولكنه التسليم الذي بدأ باسلام خالد وصاحبيه قد تراخى به الوقت الى أجله المعلوم.

* * *

فلما جاءها المسلمون دخلوها آمنين على كثرة من بها من المشركين، وتقدم النبي صلوات الله عليه في كتيبته الخضراء، وتقدم سعد بن عبادة والزبير بن العوام وخالد بن الوليد الى أبوابها فدخلوها كل من الباب الذي وكل اليه، ونهى النبي أصحابه عن القتال فيها فلم يحدث قط قتال الا من صوب خالد بن الوليد، لأن صفوان بن أمية وسهيل بن عمر وعكرمة بن أبي جهل رصدوا للباب الذي وصل منه وجمعوا له جمعهم فمنعوه ورموه بالنبل وشهروا عليه السلاح، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين أكثرهم من قريش وأقلهم من هذيل، وولى السادة والأتباع بعد ذلك في هزيمة نكراء.

أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير؟

خالد دون غيره تصادفه جنود رفقائه بالأمس في جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم وقد كانوا معًا يرمون المسلمين عن قوس واحدة!

انه حارب في صفوف الاسلام عرب الجزيرة وعرب العراق والشام، وحارب في صفوف الاسلام جيوش الفرس والروم، وحارب في صفوف الاسلام كل من برز لتلك الصفوف، فما بال الجاهلية القرشية وحدها ينصرها على المسلمين ولا ينصر المسلمين عليها؟ وأين يلتقي بها ان فاته لقاؤها في ذلك اليوم؟ لقد لقيها اذن في

ساعتها التي لا ساعة بعدها ، وقال النبي حين سمع بضربته : ألم أنهَ عن القتال ؟ قالوا : انه خالد قوتل فقاتل ! فقال : « قضاء الله خير.. » ثم قال : « لا تغزى قريش بعد هذا اليوم الى يوم القيامة.. »

وغرائب الاتفاق هكذا تكون حيث تكون..

مع النبي

أحاط بالنبي عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون في الأعمار والأقدار، مختلفون في البيئات والأحساب، مختلفون في الأمزجة والأخلاق، مختلفون في ملكات العقول وضروب الكفايات، مختلفون في فهم الدين وبواعث الاسلام، فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الآيات على رحابة الأفق وتعدد الجوانب في نفس ذلك الانسان العظيم. وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيدًا من العلم بعظمة هاديهم وسيدهم، وموجِّه كل منهم في وجهته التي هو أصلح لها وأقدر عليها، وهم يلتقون أول الأمر وآخره في ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التي فطرها الله لهداية الأمم وقيادة الرجال. بل لقيادة القواد الذين يروضون الأمم والرجال.

وما من عظيم من هؤلاء العظماء الا كان تقدير النبي اياه بقدره الصحيح آية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس وسبره العميق لأغوار الطبائع والأفكار، ولكن تقديره لخالد بن الوليد على التخصيص كان آية الآيات في هذا الباب، لأنه عليه السلام لم يكبره اكبار السياسي الذي يستجمع القوة حواليه وينزل كل زعيم منزلة قومه من الوفرة والعزة والجاه والعتاد، وانما أكبره لأنه عرف أقصى مستطاعه قبل أن يظهر من مستطاعه كثير، وسماه « سيف الله » وبينه وبين الوقائع التي استحق بها ذلك اللقب الجليل بضع سنوات. بل سماه سيف الله وهو قافل من معركة يتلقى المسلمون من عادوا منها بالنكير والتشهير، ويحثون في وجوههم التراب ويصيحون بهم أينما وجدوهم : يا فرَّار ! يا فرَّار ! .. فررتم من سبيل الله !

لم يكبر النبي خالدا كما أكبر أبا سفيان تألفا له ورعيا لمكانه في قومه ولكنه أكبره

للصفة التي سيوصف بها في تاريخ الاسلام بعد اهتدائه اليه ببضع سنوات.

أكبره لأنه « سيف من سيوف الله » والناس لا يرون الا الهزيمة والارتداد، ولم يكن النبي موليه القيادة في المعركة التي ارتد منها بجيش المسلمين، فيقول قائل انه ينصر قائدا هو المسئول عن اختياره، وهو من ثم المسئول عن ارتداده أو فراره. ولكنه ولى آخرين وترك اختياره بعدهم لمشيئة اخوانه في الجيش، فاختاروه بعد ذلك مجتمعين.

كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الاكليل من رؤوس القادة وهم منتصرون ظافرون، ولكنه موضع يخفى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين اذا لم يدلهم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه في ظلام المحنة والبلاء.

وقد صحب خالد النبي ثلاث سنوات، وعهد اليه النبي في كثير من الأعمال الصغيرة وأشركه في بعض الأعمال الكبيرة: ومنها غزوة مؤتة وغزوة حنين وسرية بني جذيمة، فما من هذه الأعمال الكبيرة عمل واحد لم يتسع فيه المقال للشانىء والحاسد ولم ينظر اليه الناظر من وجهين متعادلين تارة الى جانب العذر وتارة الى جانب الملام، ولو أنه رضي الله عنه قضى نحبه في السنة العاشرة للهجرة أو بعد ذلك بقليل لعجب المؤرخون كيف سمي « سيف الله » وفيم استحق هذا اللقب الذي لا يعلوه لقب في الاسلام، ولكن النبي وحده قد عرف قبل الحادية عشرة للهجرة أنه حقيق بذلك اللقب على أوفى مداه، وسماه به قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للاسلام جزيرة العرب ويضم اليها العراق والشام.. وهي الأعمال الجسام التي من أجلها يدعى اليوم سيف الاسلام.

وانما هو البصر العلوي الذي يلمح هذه القدرة في معدنها حيث ينظر الناس فيرون خالدًا مرتدًا من غزوة مؤتة أو مأخوذا مع الخيل وهي تولي في أول المعركة من ميدان حنين، أو صانعًا في سرية بني جذيمة ما يبرأ منه النبي عليه السلام.

ولهذا ينبغي أن توزن هذه الأعمال بميزانها الصحيح لاقامة خالد نفسه في مقامه الصحيح، فهي ولا ريب من المعدن الذي نجمت منه حروب الردة وفتوح العراق والشام.

١ – سرية مؤتة

وأول هذه الأعمال قد اشترك فيه متطوعًا بعد اسلامه بشهرين أو ثلاثة أشهر، وهو سرية مؤتة التي سيرت إلى البلقاء.

وكان سبب هذه الغزوة أن النبي عليه السلام أرسل وفدا الى ذات الطلح بمقربة من الشام ليدعوهم الى الاسلام: فقتلوا جميعا وعدتهم خمسة عشر الا رئيسهم نجا من القتل وحده ولعلهم أبقوا عليه عمدًا ليخبر بما رآه على ديدن المنكلين في ابلاغ مثلاتهم الى من يهددونه بالتمثيل والتنكيل.

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدي رسولا الى هرقل فقتله شرحبيل ابن عمرو الغساني وهو في الطريق.

فأشفق عليه السلام من عقبى السكوت على كلتا الفعلتين وهو غير مأمون... وعلم أن قبائل الجزيرة العربية نفسها قد أذعنت للدعوة الجديدة، ومنها المتربص للغدر متى قدر عليه، والموهون الايمان الذي لا يصبر على الاغراء والاستثارة. فاذا استضعف الغسانيون وجيران الغسانيين شأن النبي وأفلتوا من جرائر فعلة كتلك الفعلة اللئيمة جرأهم ذلك عاجلا على اقتحام الصحراء للنقمة من المسلمين، فتهب القبائل لنصرتهم في طريقهم وتمدهم الدولة الرومانية بالمال والسلاح تقريرا لهيبتها في عيون أولئك البدو الذين جهلوا بأسها ووهموا أنهم قادرون عليها! اذ لا مطمع للدولة الرومانية في مقاتلة المسلمين واخضاع الجزيرة بغير هذه الوسيلة، ولا سبيل الى تسيير الجنود الرومانيين بنظامهم المعروف ومعداتهم الكثيرة لمنازلة المسلمين في عقر دارهم من وراء المفاوز والنجود، وتسييرهم بحرا الى شواطىء الحجاز لا يغنيهم عن الاستعانة بأناس من العرب وأهل البادية، وهم أولى أن يستعينوا على هذا المطلب بأتباعهم الأقدمين في تخوم الشام.

فلم يجد عليه السلام مناصًا من الثأر لأصحابه المقتولين، وجرد لتأديب المعتدين جيشًا صغيرًا لا تتجاوز عدته ثلاثة آلاف، وكان في ذلك الجيش خالد بن الوليد ونخبة من أقدم الصحابة عهدًا بالاسلام، فلم يتول خالد قيادته لأنه كان على الأرجح

أحدثهم عهدًا بالدخول فيه ، وتولاها زيد بن حارثة « فان أصيب فالرئيس جعفر بن أبي طالب ، فان أصيب فعبدالله بن رواحة ، فان أصيب فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم ».

وأمرهم عليه السلام أن يذهبوا الى حيث قتل الرسول فيدعوا القوم الى الاسلام ، فان أجابوا والا فالقتال ، وأوصاهم : « ألا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا فانيا ولا معتزلا بصومعة ، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناء ».

ولا شك أن هذا الجيش انما كان بالوصف العصري « حملة تأديبية وبعثة استطلاع » يقاد على هذا الاعتبار ومن اجل هذه الغاية ، ولا يراد به بداهة أن يحطم قوة الدولة الرومانية أو يفتح البلاد التي كانت يومئذ في يديها .

فمضى لهذه الوجهة حتى نزل معانا وأقام بها ليلتين ، وسمع المسلمون هناك أن هرقلا قد عسكر بمآب في مائة ألف من الروم ومائة ألف من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلى على أهبة اللقاء .

وقد يقع في الخاطر أن الروم علموا بمسير جيش المسلمين فأعدوا هذه الجحافل الجرارة ثم سيروها الى تخوم الدولة في مدى الأيام التي مضت من خروج جيش المسلمين الى بلوغهم أرض معان ، وهو خاطر بعيد جد البعد لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها في مثل هذه السرعة ، ولما يبدو من ضخامة هذه الجحافل بالقياس الى القوة الاسلامية التي مهدوا للقائها ، ولم يكن ليفوتهم أن يعلموا بحقيقتها لو أنهم تلقوا الخبر بخروجها ممن رآها .

والأرجح أن هرقل انما كان في جموعه هنالك في زيارة الشكر التي نذر لله أن يؤديها اذا هو ظفر بالفرس ورد منهم صليب الكنيسة الكبرى الذي حملوه معهم يوم فتحوا بيت المقدس ، وربما كان هرقل قد بارح بيت المقدس في ذلك الحين وتخلفت جيوش ركابه لأداء هذه الفريضة معه أو للقيام بمراسم الحفاوة في تلك الزيارة التاريخية .

ورأى المسلمون أن مدد الروم حاضر على مقربة منهم ، وان الحرب بين عسكرين

على هذا التفاوت البعيد عمل غير مجد ولم يكن منظورا ولا مقصودا عند مسير الجيش من المدينة، فرجع بعضهم وتمهل الأكثرون منهم ليستأذنوا النبي فيما يصنعون، وغلبت حماسة الشاعر وحمية الشهيد على عبدالله بن رواحة فانتهر المترددين والمثبطين وقال لهم: «يا قوم! والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فانما هي احدى الحسنيين: اما ظهور واما شهادة!»

فاستمعوا اليه ولم يشاءوا بأية حال أن يرجعوا قبل الانتهاء الى مقصدهم الذي خرجوا من أجله وهو ابلاغ الدعوة الى قاتلي الرسول النبوي وابراء الذمة اليهم قبل القصاص، ان وجب قصاص.

فتقدموا من معان الى مؤتة على مسيرة نحو ليلتين، وفيها حصن للغسانيين يقيم به أمير منهم في خدمة الرومان.

واحتمى الأمير الغساني منهم بحصنه ثلاثة أيام لعله كان ينتظر فيها مددًا أو أمرًا من رؤسائه، ثم التقى الفريقان على مزرعة في جوار البلدة، فاستمات من بقي من جيش المسلمين، وحاربوا على ما يظهر وهم مفاجأون، لأننا لم نسمع في أخبار الوقعة بتوجيه الدعوة أو الاجابة عليها، ولأن قائدًا منهم أعجل عن طعامه ولم يذق القوت ساعات، فلما فوجئوا بالقتال لم تدع لهم المفاجأة من خطة غير خطة الصمود للخطر والثبات في وجهه مخافة المصاب الأكبر في هذه الحالة وهو مصاب الذعر والدهشة والملاحقة بلا هوادة.

وكأنما استحى القادة الثلاثة أن يرشحوا للموت ويرجعوا دونه ابتغاء النجاة، فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل، وأحاط القوم بجعفر بن أبي طالب وهو يحمل اللواء ويثير من حوله نخوة المسلمين، فأنحوا عليه بالضرب الدراك حتى قطعت يمينه ثم قطعت شماله ثم ضم اللواء الى عضديه ولبث يناضل عنه الى أن مات.

ودعي ابن رواحة الى الرئاسة فجاءه ابن عم له بعرق من لحم وقال له: شد بهذا صلبك فانك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت. فأخذه من يده فانتهش منه نهشة،

ثم سمع الحطمة في ناحية المعترك فألقاه من يده وجرد سيفه وهو ينشد :

يا نفس الا تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... ان تفعلي فعلهما هديت

فطفق يصول بين الصفوف ويهدر بالشعر حتى قتل والمعركة في أشدها..

فما هي الا لحظة حتى دبر المسلمون أمر الرئاسة بوحي البديهة ونور العقيدة وهداية الفداء التي تهدي الى المصلحة الكبرى وتغفل كل مصلحة دونها. واذا باللواء يأخذه في تلك اللحظة ثابت بن أقرم من بني العجلان وينادي في أصحابه : « يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ». قالوا : « أنت » قال : « لا. ما أنا بفاعل ». فاتفقت الكلمة على خالد بن الوليد فاذا هو يتولى القيادة في حينها ويصنع لساعته خير ما يصنع في ذلك الحين..

وخير ما يصنع في ذلك الحين هو الارتداد المأمون.

وهو أصعب من النصر في بعض المآزق. لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له واحتمال الشدة فيه. ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو في أضعف الموقفين. الا أن تكون له خبرة بالقيادة تكافىء الرجحان في قوة العدو الذي يرتد بين يديه..

وأول شيء ينبغي أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع في روع عدوه أنه لا ينوي الارتداد بل ينوي الهجوم أو يقصد الى الحيلة..

فصمد في الميدان حتى المساء..

ثم بدل مواقف الجيش تحت الليل فنقل الميمنة الى الميسرة ونقل الميسرة الى الميمنة وجعل الساقة في موضع المقدمة والمقدمة في موضع الساقة، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عند طلوع الصباح. فلما طلع الصباح على الفريقين اذا بكل طائفة من طوائف الغسانيين والروم ترى قبالتها وجوهاً غير الوجوه وأعلاما غير الأعلام، واذا بالجلبة مع هذا الاختلاف في الوجوه والأعلام

توهم القوم أن مددًا جديدًا أقبل على جيش المسلمين ، وكانوا قد ذاقوا منهم أمر المذاق بغير مدد وهم مفاجأون ، فلما ذهب خالد يدافع القوم ويخاشي بجيشه لم يتبعوه حذرًا من الكمين وتوقعًا للاحاطة بهم من ورائهم ، وأبلى خالد في هذه المدافعة والمخاشاة بلاء لم يبله قط في غزواته الكبرى على كثرتها. فاندقت في يده تسعة سيوف ولم تصبر معه الا صفيحة يمانية ، وكان هذا التراجع المحمي بشجاعة المستميت غطاء صالحا للجيش الصغير في مواجهة الجيش الكبير. فقفل الى المدينة بسلام ، وعرف خالـد منذ ذلك اليوم بلقبه الـذي أضفاه عليه النبي وهو سيف الله ، وعاد الناس يقولون مع النبي انهم الكرّار باذن الله وليسوا بالفرّار..

وقد سمعنا في عصورنا هذه بالألقاب الكبار تضفى على القادة لأنهم نجحوا في خطة ارتداد لا محيص منها. فتلك هي السنة النبوية تسبق النظم العصرية الى تقدير القائد البارع بقيمة النجاح في ارتداده كما تقدره بقيمة النجاح في تقدمه وانتصاره. ولو أن خالدًا ملكته فطرة المجازفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العقبى أيما سوء وتعرضت الدعوة الاسلامية لمحنة لا نعرف مداها الآن. ولربما تعرضت لهذه المحنة من جانب الجزيرة العربية قبل أن تتعرض لها من جانب الروم والغسانيين. لأن الجيش قد خرج من المدينة تأديبًا لأناس متصلفين قتلوا رسولا واحدًا أو قتلوا وفدًا لا تجاوز عدته خمسة عشر. فاذا تورط هذا الجيش في الزحف حتى اصطلم كله ولم يعد منه أحد ، فكيف يكون وقع هذا التأديب المعكوس في نفوس البادية المتحفزة أو في نفوس أهل مكة ولما تسلم مفاتيحها للمسلمين ؟ انه ليبعث السخرية والاستهانة من حيث أريدت له الهيبة والمنعة ، وانه ليثير من الفتن ومساوىء الظنون ما يصعب استدراكه في سنين.

ولكن الجيش قد عاد وأبلى في أعدائه وتسامعت الجزيرة بعدد الجحافل الهرقلية التي حسبتها مرصدة له ولم تقدر على تمزيقه ولا أصابت منه غير اثني عشر قتيلا منهم القادة الثلاثة الذين ندبوا للشهادة قبل خروجه ، فالسرية اذن قد نهضت بأمانتها ووقع في نفوس المسلمين من فرط الثقة ببأسهم أنها كانت قادرة على جهاد أعظم من جهادها وثبات أطول من ثباتها. وهي مغالاة في القوة والبأس خير من المغالاة

في الضعف والخور، ولا ضرر منها ما شفعتها تلك البصيرة العلوية التي تضع الأمور في نصابها، وتصف النجاح بصفاته ولو بدا للناس في ثياب الاخفاق..

٢ – بنو جذيمة

وقد أثنى النبي على خالد في مهمة لم يندبه لها ولم يرشحه لها مرشح غير كفاءته واتفاق رأي المسلمين فيها..

ولكنه لامه وبرىء من عمله حين أخطأ في مهمة ندبه لها بعد فتح مكة وهي السرية التي قادها الى بني جذيمة ليكشف عن طويتهم ويدعوهم الى الاسلام..

فبعد فتح مكة توجهت عنايته عليه السلام الى تطهير البوادي المحيطة بها من عبادة الأصنام، فأرسل السرايا الى قبائلها لدعوتها والاستيثاق من نياتها، ومنها سرية خالد الى بني جذيمة في نحو ثلثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار وبني سليم. أرسلهم دعاة ولم يأمرهم بقتال.

وكان بنو جذيمة « شر حي في الجاهلية يسمون لعقة الدم، ومن قتلاهم الفاكه ابن المغيرة وأخوه عمًّا خالد بن الوليد، ووالد عبد الرحمن بن عوف، ومالك بن الشريد وإخوته الثلاثة من بني سليم في موطن واحد » وغير هؤلاء من قبائل شتى..

فلما أقبل عليهم خالد وعلموا أن بني سليم معه لبسوا السلاح وركبوا للحرب وأبوا النزول. فسألهم: أمسلمون أنتم؟ فقيل ان بعضهم أجابه نعم! وبعضهم أجابه: صبأنا! صبأنا! أي تركنا عبادة الأصنام، ثم سألهم: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونو هم فأخذنا السلاح! فناداهم: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا. فصاح بهم رجل منهم يقال له جحدم: ويلكم يا بني جذيمة! انه خالد، والله ما بعد وضع السلاح الا الاسار وما بعد الاسار الا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبدًا. فما زالوا بـه حتى نزع سلاحه فيمن نزع وتفرق الآخرون. فأمر خالد بهم فكتفوا وعرضهم على السيف، فأطاعه في قتلهم بنو سليم ومن معه من الأعراب، وأنكر عليـه الأنصار والمهاجرون أن يقتل أحدًا غير مأمور من النبي عليه السلام بالقتال. ثم انتهى الخبر الى النبي فرفع يديه

الى السماء وقال ثلاثا : «اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد» وبعث بعلي بن أبي طالب الى بني جذيمة فودى دماءهم وما أصيب من أموالهم .. قيل انه «كان يدي حتى ميلغة الكلب» ويسألهم : أبقي دم أو مال لم يود لكم ؟ فلما اكتفوا ورضوا فرق بينهم بقية المال «احتياطا لرسول الله».

وقد سأل رسول الله فتى من جذيمة انفلت اليه لينبئه نبأ خالد مع آله وذويه : هل أنكر عليه أحد ! قال : نعم. قد أنكر عليه رجل أصفر ربعة ورجل طويل أحمر، فاشتدت مراجعتها. وكان عمر بن الخطاب بمجلس رسول الله فقال : أما الأول يا رسول الله فابني عبدالله. وأما الآخر فسالم. مولى بني حذيفة.

ويعزى الى خالد أنه استند في قتالهم الى قول عبدالله بن حذافة : « ان رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الاسلام ».

وقد عم النكير على الحادث بين أجلاء الصحابة، من حضر منهم السرية ومن لم يحضرها، واشتد عبد الرحمن بن عوف حتى رمى خالدًا بقتل القوم عمدًا ليدرك ثأر عميه اللذين قتلها بنو جذيمة مع عوف أبي عبد الرحمن ورجل من بني أمية. وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد خرجوا تجارا الى اليمن ثم عادوا ومعهم مال رجل من بني جذيمة قضى نحبه هناك يحملونه الى ورثته وأهله. فاعترضهم جذمي في رهط من قبيلته يدعى خالد بن هشام وزعم أنه وارث المال وأحق به من غيره. فمنعوه ينظرونه أن يصلوا بالمال الى أهل الميت، فغضب وقاتلهم بالرهط الذي معه فقتل عوفًا والفاكه بن المغيرة ثم عمد عبد الرحمن الى خالد بن هشام هذا فقتله بثأر أبيه. وهمت قريش بغزو بني جذيمة لولا أن مشى بعض العقلاء بينهم بالصلح فتصالحوا على الدية والمال.

ومن الاسراف أن يظن بخالد بن الوليد أنه تعمد قتل أناس وهو يعلم أن دمهم حرام ويتخذ من مهمة النبي ذريعة الى شفاء ترة قديمة. فأدنى من ذلك الى القصد في فهم الحقيقة أن نبحث عن دواعي اللبس ودوافع الطبع التي تدفع خالدًا خاصة الى مثل هذا التصرف، فان كانت هذه الدواعي وهذه الدوافع قائمة مفهومة فهي تفسيرٌ لما حدث وفيها الكفاية، وان لم تكن قائمة ولا مفهومة فهنالك بنفسح مجال

الظنون والفروض لمن يشاء..

وقد كانت دواعي اللبس ودوافع الطبع قائمة مفهومة في مقتلة بني جذيمة. فان البوادي كلها حول مكة كانت تزخر بالشر وتتحفز للوقيعة في تلك الآونة بعد تسليم مكة. فلم تمض أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها متجمعة في العدة الكاملة والعديد الوافر لمباغتة النبي وجمعه، فاذا ارتاب خالد في نيات طائفة من أهل البادية مشهورين بالشراسة والغدر وهم يلقونه بالسلاح فله في ارتيابه وجه لا يخفى، واذا أضيف الى ذلك تلجج القوم في اعلان اسلامهم والافضاء بنياتهم فليس اللبس هنا بعازب عن بال المتوجس في أشباه ذلك المقام.

وقد يغني الشعر والقصص في الكشف عن شعور القوم هنا ما ليس يغنيه التاريخ وتسلسل الرواية، فمن كلام أحد الوهبيين في خطاب بني جذيمة بن عامر يسوغ لنا أن نفهم أنهم لم يكونوا متفقين على الاسلام والمسالمة، وذلك اذ يقول:

دعونا الى الاسلام والحق عامرا فما ذنبنا في عامر اذ تولت
وما ذنبنا في عامر لا أبالهم لئن سفهت أحلامهم ثم ضلت

وقال أحد الجذميين:

فلا قومنا ينهون عنا غواتهم ولا الداء من يوم الغميصاء ذاهب

وفي قصة رواها محمد بن اسحاق بن يسار - وهو من الثقات - شواهد على اصرار بني جزيمة وعنادهم الى ما بعد الأسار والأنذار، وفحوى هذه القصة كما أثبتها صاحب كتاب الأغاني حيث نقلت ببعض التصرف: « أن خالدا بن الوليد كان جالسًا عند النبي ﷺ فسئل عن غزوته بني جذيمة فقال: ان أذن رسول الله ﷺ تحدثت. فقال: تحدث. فقال: لقيناهم بالغميصاء عند وجه الصبح. فقاتلناهم. حتى كاد وجه الشمس يغيب، فمنحنا الله أكتافهم فتبعناهم نطلبهم، بغلام له ذوائب على فرس ذنوب في أخريات القوم، فبوّأت له الرمح فوضعته بين كتفيه، فقال: لا اله. فقبضت عنه الرمح، فقال: الا اللات أحسنت أو أساءت. فهمسته همسة أذريته وقيذًا - أي مشرفًا على الموت - ثم أخذته أسيرًا فشددته

وثاقًا، ثم كلمته فلم يكلمني واستخبرته فلم يخبرني فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بني جذيمة يسوق بهن المسلمون. فقال: أيا خالد! قلت: ما تشاء؟ قال: هل أنت واقفي على هؤلاء النسوة.. فأتيت على أصحابي ففعلت وفيهن جارية تدعى حبيشة، فقال لها: ناوليني يدك، فناولته يدها في ثوبها. فقال: أسلمي حبيش قبل نفاد العيش، فقالت: وأنت حييت عشرًا أو تسعًا وترًا وثمانيًا تترى»

قال: «وتناشدا الأشعار حتى قتل وأقبلت الجارية ووضعت رأسه في حجرها وجعلت ترشفه وتبكي...» الى آخر القصة في الجزء السابع من الأغاني وهي على ظهور الاختراع في بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بني جذيمة من سرية خالد.

فاذا صح مع هذا أن خالدا تلقى من عبدالله بن حذافة السهمي أمرا بقتال بني جذيمة نقلا عن النبي عليه السلام فهو خليق أن يعتمد على الفتوى من أمثاله لحداثة اسلامه وقلة علمه بفقه الدين وأحكامه، وهي على أية حال رواية لا تغفل كل الاغفال في صدد البحث عن أخبار هذه السرية..

والجو كله بعد هذا وذاك – سواء في البادية أو في مكة – هو جو الحرب والريبة وجو التربص والنفور، فلا عجب أن تختلف فيه النوازع والآراء وأن تستطار فيه دواعي الشر والنقمة، وأن يتطرق اليه اللبس وتتعذر فيه استبانة الوجه الصراح..

وعند خالد دوافع الطبع الى جانب دواعي اللبس واختلاط الآراء، وهي الدوافع التي قد نعد منها حداثة السن في ذلك الحين، ومنها أنه تناول الموقف كما يتناوله القائد المطبوع على القتال في الصحراء، ويحدث للقائد في هذا الموقف كثيرًا أن يفرق بين ضربين من التسليم: هما تسليم المراوغة والختل وتسليم الاذعان والنصيحة ولا سيما تسليم العدو المتهم المتردد الذي يحيد عن الصراحة ويفند أناس منه مقال أناس آخرين.

ومن دوافع الطبع عند خالد تلك الصرامة التي ينشأ عليها كل من نشأ في مثل بيئته من الجاهلية، وتلك الشدة التي تثيره اليها أعصابه ويومىء اليها تفزعه في نومه ومشاركة اخوته في عوارضها الموروثة على نحو من الانحاء، وهي ولا ريب تلك

الشدة التي عناها عمر بن الخطاب حين قال : « ان في سيف خالد لرهقا » وهو من أعرف الناس به وأقربهم اليه ، وهي التي توقعها جحدم أخو بني جذيمة حين صاح بقومه محذرًا اياهم من إلقاء السلاح : ويلكم يابني جذيمة. انه خالد ! .. كأنها خليقة معهودة منه لا تحتاج الى تأويل بعيد..

وندرت في تاريخ الحروب القديمة والحديثة حرب تدور على العقيدة الدينية أو الحمية الوطنية لا تحصى عليها فلتة من أشباه هذه الفلتات ، ولا يقع فيها نذير السيف حيث ينبغي أن يقع بشير السلام.

ولا يبعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته جفوة لبني جذيمة فجنح به شعوره الى سوء الظن بهم وقلة الطمأنينة اليهم من حيث لا يقصد الترة ولا يتعمد الانتقام.

فكل هذا أقرب الى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبي على دخل وسوء نية وهو الرجل الذي حارب أصدقاءه وأقرب الناس اليه على أبواب مكة ، وله ندحة عن حربهم لو تعمد اجتنابها أوكان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع الى صدق النية في اطاعة النبي عليه السلام.

ومهما يلم اللائمون أو يعذر العاذرون في هذه الزلة فمقطع القول فيها بين المنصفين أنها خطأ وأن الابقاء على خالد بعدها صواب. لأن صواب الابقاء على خدمته بعد غزوة بني جذيمة قد ظهر أيما ظهور في حروب الردة وحروب الفرس والروم..

وذلك مثل من تربية النبي عليه السلام لأفذاذ الرجال..

ويتجلى تمام هذا المثل باعطاء الرجال فرص المراجعة والاصلاح في أمر يشبه الأمر الذي أخطأوا فيه ، وموقف قريب من الموقف الذي عرضهم للملامة وهذا الذي توخاه عليه السلام حين أرسل خالدًا دون غيره الى بني المصطلق – وهم من بني جذيمة – ليستخبر له خبرهم ويتبين الحق فيما بلغه عن ارتدادهم ، وكان الوليد بن عقبة قد أخبره أنهم ارتدوا عن الاسلام ، فندب عليه السلام خالدًا « وأمره أن يتثبت ولا يعجل. فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه فلما جاءوه وأخبروه بأنهم متمسكون بالاسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه فرجع

الى النبي ﷺ فأخبره ».

وهو مثل ينبىء عن كثير، وقد ينبىء فيما ينبىء عنه أن خالدا لم يتعسف كل التعسف في شكه الأول ببني جذيمة على اختلاف بيوتهم، لأن الشك فيهم ما زال يتكرر بعد ذلك بشهور، وما زال يدعو الى تلقي الاشاعة عنهم وايفاد الوفود اليهم مرتين للتمحيص والاستخبار..

٣ - غزوة حنين

ولم تمض أيام معدودات على مقتلة بني جذيمة حتى لمس خالد موضع الثقة من نفس النبي في حادث من أكبر حوادث الاسلام وهو غزوة حنين..

لمس هذه الثقة في غزوة حنين مرتين : مرة في اسناد قيادة الخيل اليه على طليعة الجيش، ومرة في سؤاله عنه وعنايته به بعد هزيمة الخيل مولية عند اشتباك الجمعين.

وحق خالد في تلك الثقة انما يستبين من عرض الغزوة كلها لجلاء الأسباب التي أوقعت الهزيمة الأولى بجيش المسلمين، ولا يد فيها لخالد من قريب أو بعيد.. بل لعلها توحي الينا أن هزيمة خيله يومئذ انما كانت كصد الأجسام للأجسام ضرورة مادية لا دخل فيها للعوامل النفسية، أمام جارفة من الجوارف القوية، تأخذ ما أمامها من انسان أو حيوان ومن شجاع أو جبان.

فقد فتحت مكة والأعراب من حولها ثائرون محنقون، وعلموا يومئذ أنها الوقعة الفاصلة وأنه لا مطمع بعدها في مكافحة النبي اذا تطاولت الأيام على قيام دينه في البلد الحرام وموطن الكعبة والأصنام. فاجتمعت قبائل همدان من هوازن وثقيف وجُشم ومشى بعضهم لبعض يقولون : « ان محمدا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهية له عنا. فلنغزه قبل أن يغزونا » واستنفروا القبائل فلباهم من أقربائهم عدد كبير منهم بنو سعد بن بكر الذين تربى بينهم النبي وهو رضيع..

وتولى قيادتهم مالك بن عوف النصري وهو فتى جريء في نحو الثلاثين يجمع الى غطرسة الامارة وحمية الفروسية حدة الشباب ولدد الخصومة والعناد.. فساق أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأمرهم اذا رأوا المسلمين « أن يكسروا جفون سيوفهم ثم

يشدوا شدة رجل واحد » فاما فوز واما فناء. وصفت الخيل ثم الرجالة المقاتلة ثم الابل عليها النساء ثم صفت الغنم في حراسة لئلا تفر والجيش مشتغل عنها.

وسأله دريد بن الصمة حكيم القوم : مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فسخر دريد برأيه وقال له : رويعي ضأن والله ! وهل يرد المنهزم شيء ؟ انها – أي الحرب – ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه، وان كانت عليك فضحت أهلك ومالك، فرماه مالك بالخرف ولج في عناده ولح في بني هوازن ميلا الى كلام دريد فجمح به غضبه العارم وأقسم. « لتطيعني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ! ».

فهي عزمة رجل مستميت لا يبالي ما يصنع بنفسه أو بقومه في سبيل قهر المسلمين.

ونما الخبر الى النبي فخرج في ألفين من أهل مكة حديثي العهد العهد بالاسلام وعشرة آلاف من أصحابه الذين قدموا معه من المدينة. وقيل انهم كانوا جميعا ثمانية آلاف.

وأعوزه السلاح فاستعار من بعض المشركين دروعا فأعطوه ثلاثين أو أربعين درعا – وقيل مائة درع – بما يكفيها من السلاح، واستعار من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح، فأعاره اياها وهو يقول : كأني أنظر الى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين..

وأخرج خالدًا على طليعة الجيش في مائة فارس من بني سليم.

قال الحارث بن مالك : خرجنا مع رسول الله ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسرنا معه الى حنين، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما. فرأينا ونحن نسير مع رسول الله سدرة خضراء عظيمة. فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله : الله أكبر. قلتم – والذي نفسي بيده – كما قال قوم موسى لموسى

اجعل لنا الها كما لهم آلهة ! ..

وكان في الجيش كثير من أمثال هؤلاء المسلمين المحدثين، ومعهم في ساقة الجيش جمع من المشركين بين رجال ونساء ينظرون ما يكون، وكان فيهم أبو سفيان الذي قال حين رأى بوادر الهزيمة : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! وفيهم كلدة بن الحنبل الذي صرخ شامتا متعجلا : ألا قد بطل السحر اليوم؛ وصرخ معه آخرون يقولون : اليوم ترجع العرب الى دين آبائها.

وكان الغالب على جيش المسلمين في خروجهم قلة الاكتراث بعدوهم، فقال أبو بكر الصديق : لن نغلب اليوم من قلة ! ونسبت هذه الكلمة الى غيره، ولكنها قيلت على التحقيق لما جاء في القرآن الكريم : « إِذ أعجبَتْكُم كَثْرتُكُم فلَم تُغْنِ عنْكُم شَيئًا ».

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاة الظهر فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله ! اني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبلا فاذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا الى حنين. فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة المسلمين غدًا ان شاء الله. ثم سأل : من يحرسنا الليلة ؟ قال أنس بن أبي مرثد : أنا يا رسول الله. فأمره عليه السلام أن يستقبل الشعب حتى يكون في أعلاه، وقال له : لا نغرن من قبلك الليلة.

فلما أصبحوا سأل النبي : هل أحسستم فارسكم ؟ يعني ذلك الحارس المستطلع. قالوا : يا رسول الله ما أحسسنا. فجعل عليه السلام يصلي ويلتفت الى الشعب، حتى اذا قضى صلاته قال : أبشروا فقد جاءكم فارسكم ! فجعل ينظر الى خلال الشجر في الشعب واذا هو قد جاء حتى وقف وقال : اني انطلقت حتى اذا كنت في أعلا هذا الشعب حيث أمرني رسول الله فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا، فسأله : هل نزلت الليلة ؟ قال لا. الا مصليًا أو قاضي حاجة.

وروى مسلم من حديث عكرمة بن عمار عن اياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : « غزونا مع رسول الله حنينا فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية فاستقبلني

رجل من المشركين فأرميه بسهم وتوارى عني فما دريت ما صنع ، ثم نظرت الى القوم فاذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى ، فالتقوا هم وصحابة رسول الله فولى أصحاب رسول الله ، وأرجع منهزما ».

وحدث أبو عبد الرحمن الفهري قال : « كنا مع رسول الله في حنين فسرنا في يوم قائظ شديد الحر » .

وروى محمد بن اسحق بسنده : « خرج مالك بن عوف بمن معه الى حنين فسبق رسول الله اليها فأعدوا وتهيأوا في مضايق الوادي وأحنائه وأقبل رسول الله وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح ، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد ».

وفي روايات شتى أن كمينا من المشركين فاجأ المسلمين من شعبة في الوادي وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر، « وكانوا رماة ... لا يكاد يسقط لهم سهم » فأدبرت الخيل وأدبر المقاتلة وراءها لا يلوون على شيء .

* * *

وتلك جملة الأخبار عن بدء المعركة جمعناها من مصادر متعددة وأثبتنا بعضها بحروفها ، ويتبين من المعارضة بينها أن الهزيمة انكشفت من الهجمة الأولى ، لأن الخيل فوجئت في الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر، فولت منهزمة في جفلة حيوانية معروفة في أشباه هذه المواقف ، وقديما ذكر الرواة عن حرب الاسكندر وأمراء الهند أن جفلة الفيلة من الحديد المحمى كانت هي سبب الهزيمة التي أصيبت بها الهند فانقلبت الفيلة وبالا عليهم وقضت وهي مولية على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم ، تطأ بعضهم وتوقع الآخرين وتدفع من حاول الثبات الى الفرار، ولم تمض على حنين بضع سنوات حتى لقي الفرس من فيلتهم في حرب المسلمين مثل هذا المصرع ومثل هذه الجفلة الحيوانية ، يوم تعمدها المسلمون بالضرب في الأعين والخياشيم .

وقد حدث مثل هذا مرة أخرى في وقعة حنين هذه حين حاول المسلمون أن يكروا بعد الفرار « فصار الرجل يلوي بعيره فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب

المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله ويؤم الصوت ».

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولحاق المشاة بهم واختلاط الحابل بالنابل بعد ذلك من الفريقين ، وتواتر القول أن الطلقاء الحديثين في الاسلام أدبروا منهزمين عمدًا بعد الهجمة الأولى. فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار.

ولقد أوشك أهل مكة أن يستبقوا الأعراب المتقدمين على رضا من بعضهم لحنينهم الى الدين القديم ، وعلى كره من بعضهم لانفتهم من غلبة الأعراب على قريش ، لولا أن تغير مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات ، وكان الفضل في ذلك لحركة جاءت من قبل المسلمين وحركة جاءت من معسكر الأعراب ، وكان مجيئها في الموعد المقدور.

فأما الحركة التي جاءت من قبل المسلمين فهي بروز النبي عليه السلام بشخصه الكريم الى مقدمة الصفوف. فقد ثبت في ذلك الهول الجارف ثبوتا يجل عن الوصف وأخذ زمام المعركة كلها في يديه ليمضي وحده في القتال كيفما تصير الأمور.

وكان قد شهد المعركة على بغلته دلدل أو الشهباء ، فانحاز الى اليمين سريعا ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف المتدفعة من مدبرين ومقبلين ، والتفت الى اليمين ونادى : يا معشر الأنصار ! ثم التفت الى اليسار ونادى كذلك يا معشر الأنصار ! فتسامعوا وتجاوبوا وعطفوا – كما وصفهم شاهدو الموقف – عطفة الابل على أولادها ، واجتمع معهم حول رسول الله مئات في لمحة عين.

وتختلف الروايات في وصف هذه الحركة المجيدة من بدايتها ، فيقول بعضها ان الناس أدبروا يومئذ عن رسول الله حتى بقي وحده ، ويقول بعضها : بل بقي معه نفر قليل منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس والفضل ابنه وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب بن أبي لهب وعبدالله بن مسعود وقليلون لا يتجاوزون الاثني عشر. وجعل رسول الله يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

ثم أمر عمه العباس أن يصرخ في الجيش : يا معشر الأنصار! .. يا أهل السمرة ! يا أصحاب سورة البقرة ! يا بني الخزرج ! .. وكان العباس رضي الله عنه جهير الصوت يسمع صوته على مسافات بعيدة... وقيل انه كان يقف على سلع وينادي غلمانه بالغابة فيسمعونه وبينه وبينهم ثمانية أميال .

فلما جلجل صوته بهذا النداء اذا بالأنصار والمهاجرين يتجاوبون : يا لبيك يا لبيك ! ويسرعون الى ناحية الصوت زرافات زرافات ، حتى تجمع منهم ثلاثمائة أو يزيد في لحظات ، ثم شاعت بين الألوف المؤلفة قدوة الكر والاقبال بعد الفر والادبار، فاذا بالجيش بقضه وقضيضه يعدو الى ساحة القتال ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم زمام يديه وقدميه . وهانت النفوس حتى استهدفت النساء للموت غير مباليات . ومنهن من لم تكن على صحة في النظر كالعميصاء أم أنس بن مالك . وكانت وهي حامل تحزم وسطها ببرد لها وفي حزامها الخنجر لدفاع من يجترىء عليها .

وكان خالد بن الوليد قد ثنى عنان فرسه بعد التوائه في الهجمة الأولى فلم يزل يقاتل حتى سقط مثقلا بالجراح لا يقوى على السير من مؤخرة رحله ، وهناك وجده النبي عليه السلام حين خرج يتفقد الجرحى بعد المعركة ، فبارك له وواساه .

أما الحركة التي جاءت من قبل المشركين فأعانت على هزيمتهم فذاك أنهم قد غرتهم طلائع النصر فأقبلوا على الغنائم والأسلاب وشغل الكثيرون منهم بالتقاطها واستلابها من مطاردة المدبرين . فاتفقت الحركتان في وقت واحد لتحويل وجهة القتال .

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بوادرها التي أجملناها أن الهزيمة فيها بعد الهجمة الأولى كانت ضرورة مادية لا محيد عنها ، وأنها ضرورة لم يكن لخالد يد فيها ولا طاقة باتقائها ، لأن أسبابها كلها كانت من وراء تدبيره ومشيئته ، وهي كثيرة نجملها ما وسعنا الاجمال ..

فمنها أن الروح التي غلبت على جيش المسلمين في بداية المعركة كانت روح استهانة وقلة اكتراث وان الروح التي غلبت على روح المشركين يومئذ كانت روح

استماتة وعناد مع تقارب العدد بين الجيشين ..

وربما رجحت كفة المشركين في الدروع والسلاح لما تقدم من حاجة النبي عليه السلام الى استعارة بعض الدروع والرماح ..

و « منها » أن جيش المسلمين كان فيه كثير من الطلقاء ، قد يبلغون الألفين وقد يزيدون ، وكانوا على دخل أو على ضعف يبيتون النية على خذلان النبي. فخذلوه وتبعهم الناس ..

و « منها » أن جيش المشركين سبق المسلمين الى مواقفه فاختار وأحسن الاختيار، وهجم في الوقت الذي ارتضاه ..

و « منها » أن المسلمين كانوا يواجهون الشمس عند الصباح واليوم قائظ لا تقوى فيه العيون على مواجهة شعاعها ، فحيل بينهم وبين التثبت والاحكام في مطلع الصباح الى أن استوت الشمس في كبد السماء ..

و « منها » أن استطلاع المسلمين لم يكن على عادته من البراعة والتيقن والاسراع. فقد أبطأ الفارس المستطلع حتى التمسه النبي عليه السلام مرات. ثم جاء ولم يخبر بشيء ، ثم ظهر الكمين المرهوب من حيث لا يرونه فأوقع بالخيل وهي لا تحسب له أي حساب ، وهذا مع مهارة المشركين في الرماية حتى قيل انهم لا يسقط لهم سهم.

و « منها » أن بني سليم أصحاب الخيل التي تولاها خالد كانوا على قرابة من هوازن ، وعز عليهم أن يلاحقهم المسلمون بعد استدارة المعركة فكانوا يقولون : ارفعوا القتل عن بني أمكم ! وكانوا مع هذا ضعاف الاسلام فسبقوا الى الردة بعد موت النبي عليه السلام ، وما زالوا في موضع الظنة بعد ذلك على عهد الخلفاء.

* * *

فتقدير النبي عليه السلام لخالد بن الوليد انما هو التقدير الصحيح لأعمال السرايا والجيوش في مؤتة وبني جذيمة وحنين ، وكأنما هو تقويم الجوهري الخبير للجوهر النفيس في معدنه الخفي غير مصنوع ولا مصقول ، وللتاريخ من بعده تقويم الجوهر بما يضفي عليه من جمال الصوغ والضياء ..

ونعود هنا فنقول : ان تقدير النبي عليه السّلام خالد بن الوليد لم يكن تقدير المجاملة لمكانه أو لما يرجى من قومه الأقوياء بني مخزوم، فانه عليه السلام لم يجامله في وصفه الذي طابقته حوادث الأيام، ولم يجامله حين قدم عليه في القيادة ثلاثة من السابقين في الاسلام وترك اختياره بعدهم لاتفاق كلمة المسلمين، بل لم يجامله حين خاصم عبد الرحمن بن عوف فغضب النبي عليه السلام وقال له معرضا : «يا خالد! ذر أصحابي. لو كان لك أحد ذهبا فأنفقته قيراطًا قيراطًا في سبيل الله لم تدركْ غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن»..

انما هو سيد السادة ومربي الرجال والأبطال، يقوم الأعمال بقيمتها وينزل العظماء في منازلهم، ولا يمنعه أداء المجاملة أن يجامل بمقدار على حسب السوابق والأقدار..

وقد تولى خالد للنبي أعمالا أخرى في سنوات صحبته الثلاث، ولكن الأعمال التي اخترناها هي أكبر أعماله في حياته عليه السلام، وهي أقرب الأعمال الى وزن كفايته وتقويم معدنه وتمييز خلقه، ولكنه أريد لكل عمل صغير كما أريد لكل عمل كبير، وكانت للنبي عليه السلام نظرة في كل مهمة مقدورة ندبه اليها..

فمن مهامه الصغيرة تسييره في ثلاثين فارسا لهدم «العزى» بعد فتح مكة ببضعة أيام، وهي الصنم الذي كان أبوه يتمسح به وينحر له الابل والغنم، وكان سدنته من بطون بني سليم الذين قاتلوا مع خالد في مقاوم شتى، وقد كان معبود القبائل التي لقيها المسلمون في حنين، وأصله ثلاث شجرات بأرض نخلة يزعمون أن ربهم كان يشتو بها لحر تهامة ويصيف باللات عند الطائف لبردها.. وظلت مخوفة الى ما بعد الاسلام. فيقول الكلبي : «ان اللات والعزى ومناة لكل منها شيطانة تكلمهم وتراءى للسدنة من صنيع ابليس وأمره» وهي التي أرجف من أرجف من المشركين أن القرآن الكريم يرتضيها ويساومهم على عبادتها ويجعلون منه قولهم : «اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. تلك الغرانيق العلا، وان شفاعتهن لترضى».

فهي مهمة مخوفة من وجهتها النفسية وان سهلت من الوجهة الحربية، فخرج خالد حتى انتهى اليها فهدمها، وجاء في بعض الأقاويل انه : «لما انتهى اليها

جرد سيفه فخرجت اليه امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها ، فجعل السادن يصيح بها :

« أعزى » اذا لم تقتلي المرء خالدًا   فبوئي باثم عاجل أو تنصري

فأخذ خالد « اقشعرار في ظهره » وضربها بالسيف فشقها. ثم لقي النبي فقال له : الحمد لله الذي أكرمنا بك وأنقذنا بك من الهلكة. لقد كنت أرى أبي يأتي العزى بخير ماله من الابل والغنم فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثًا ثم ينصرف الينا مسرورًا ، ونظرت الى ما مات عليه أبي والى ذلك الرأي الذي كان يعاش في فضله وكيف خدع حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع » فقال عليه السلام : « أن هذا الأمر الى الله فمن يسره للهدى تيسر له ومن يسره للضلالة كان فيها » .

وكذلك بلغت العبرة الى خالد قبل أن تبلغ منه الى الناس .

* * *

ومن المهام التي ندب لها في حياة النبي مهمة يمتزج فيها الشك بالأمل والرفق بالشدة والترغيب بالترهيب ، لأنها بعثة الى أناس غلابين مجتمعي الرأي أولي عصبة وبأس وحنكة ولهم سمة يخالفون بها سمة العرب في معظم أنحاء الجزيرة وهم بنو الحارث بن كعب بنجران ..

أرسله اليهم وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ثلاثة أيام ، فان استجابوا قبل منهم وان لم يفعلوا فله أن يقاتلهم. فخرج اليهم وبعث الركبان فيهم يبشرون بالدين الجديد ويبصرونهم بفضائله وأحكامه ، فاستجابوا له ودخلوا فيما دعوا اليه ..

وأقبل وفد من عظمائهم على النبي – بأمره عليه السلام – فقال حين رآهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ .. قيل يا رسول الله : هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب. ثم سلموا ونطقوا بالشهادتين فقال لهم عليه السلام : أنتم الذين اذا زجروا استقدموا ؟ وأعادها ثلاثًا وهم لا يجيبون. فلما أعادها الرابعة قال زعيمهم

يزيد بن عبد المدان وفيه شوس وخيلاء: نعم يا رسول الله ! نحن الذين اذا زجروا استقدموا ، وكررها أربعًا. فقال النبي : لو أن خالدًا لم يكتب لي أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم. فانطلق ابن عبد المدان يقول : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدًا. قال : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله عز وجل الذي هدانا بك يا رسول الله !

قال : صدقتم. ثم سألهم : بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا متغضبين : لم نكن نغلب أحدًا. قال : بلى ! كنتم تغلبون من قاتلكم. فعادوا يقولون : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحدًا بظلم ».

قال : صدقتم ، وقفلوا الى ديارهم فأرسل اليهم عمرو بن حزم يفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام ويأخذ منهم الصدقات.

* * *

وقد شهد خالد مع النبي عليه السلام غزوتين لم يجر فيهما لقاء واشتباك ، وهما غزوة الطائف وغزوة تبوك..

وكانت غزوة الطائف تتمة لوقعة حنين ، لاذت بها القبائل بعد فرارها وامتنعت وراء أسوارها ، وجمعت من الميرة ما يكفيها الى السنة القابلة ، فأحاط المسلمون بالأسوار فرماهم المشركون بالنبل كأنه أسراب الطير وقتلوا وجرحوا وهم متمكنون في أسوارهم ، فبرز خالد لهم يدعوهم الى النزال ولا يجيبه أحد. ثم صاح به عبد ياليل عظيم ثقيف : «لا ينزل منا أحد ولكن تقيم في حصننا فان فيه من الطعام ما يكفينا سنين. فان أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا اليك بأسيافنا جميعا حتى نموت عن آخرنا ».

فضربهم المسلمون بالمنجنيق وتقدم نفر من الصحابة تحت دبابتين من جلود البقر يفتحون ثغرة في الحصن. فأرسل عليهم المشركون سكك الحديد المحماة فأحرقت الدبابتين وصدتهم عن السور..

وأمر عليه السلام بكرومهم ونخيلهم فقطعت وهم يصيحون : دعها لله والرحم ! فقال عليه السلام : أدعها لله والرحم ، واستشار نوفل بن معاوية الديلي في أمرهم

فأجابه : « يا رسول الله ! ثعلب في جحر ان أقمت أخذته وأن تركته لم يضرك » .

وفي الطريق قسم النبي غنائم حنين قسمة لم ترض أناسًا ، فغضب رجل من المنافقين وصاح في حضرته : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ! فاحمر وجهه عليه السلام غضبا وقال له : ويحك من يعدل اذا لم أعدل . ووثب خالد وعمر يستأذنانه في ضرب عنقه فأبى وقال : لا .. لعله أن يكون يصلي . فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ؟ فعاد النبي يقول : اني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أن أشق عن بطونهم ...

أما غزوة تبوك فقد خرج لها النبي عليه السلام الى حدود الروم سنة تسع للهجرة في أعظم جيش شهده المسلمون في حياته . ومن ثم أمر خالدًا أن يذهب الى دومة الجندل ليأتيه بالأكيدر أميرها ، لأنه كان في وسط الطريق بين الحجاز والعراق والشام عينا للروم وحربا للقوافل يدين للقسطنطينية بالعقيدة وبالطاعة . ومن خبرة النبي عليه السلام بالقبائل وأحوالها والأمراء وعاداتهم أنه قال لخالد : ستجده يصيد البقر ! فكان كما قال .

وقد ذهب خالد الى الدومة في أربعمائة وعشرين فارسًا فاقتحم الحصن واضطر من فيه الى التسليم ومنهم الأمير . وجاء به الى المدينة فصالحه النبي على الجزية وعاهده على الأمان ..

وثم بعثة من غير هذا الباب ندب لها خالد ولم يندب لمثلها قط في عهد النبي ولا عهود خلفائه ، وتلك بعثته الى بني مراد وزبيد ومذحج باليمن يدعوهم الى الكتاب ويعلمهم شريعته وأحكامه ..

قيل انه مكث فيهم أشهرًا يدعوهم فلا يجيبونه ، وأنه عليه السلام بعث بعده علي بن ابي طالب وأمره أن يُقفل خالدا ومن معه فان أراد أحد أن يعقب معه تركه ..

ولا غرابة عندنا في هذا الذي حدث — ان كان قد حدث على الوجه الذي ذكره الرواة — فان خالدًا لم يسمع من القرآن ولا من فقه الدين كما سمع الصحابة ممن عاشروا النبي سنين بعد سنين ، وانما هي سنوات قلائل لم يفرغ فيها الا بضعة

أشهر من الغزوات والبعوث. وقد أمَّ الناس بالحيرة – في خلافة الصديق – فقرأ من سور شتى، ثم سلم والتفت الى الناس معتذرًا يقول: شغلني الجهاد عن كثير من قراءة القرآن!

ويجوز أن النبي عليه السلام أرسله في هذه البعثة ليدربه على الدعوة وليفرغ بعض وقته للمدارسة والمذاكرة بهداية من معه من فقهاء الصحابة، ويجوز أنه عليه السلام تعمد أن يرصده للبطل المشهور عمرو بن معد يكرب – فارس زبيد – ندًا له يكف من غربه ويلزمه التدبر في عاقبة نكثه وانتقاضه..

وفي تواريخ البعثة اضطراب قد يشكك القارىء في بعض وقائعها وأغراضها فيجوز أيضًا أن البعثة وفقت بعض التوفيق أو كل التوفيق. وأن الرواة قد فاتهم في هذا الصدد شيء كثير أو قليل من التحقيق..

لكنها كائنًا ما كان مصيرها ومصير عشر من أمثالها لو ندب الى عشر من أمثالها – لتسقطن من سيرة خالد ويبقين له ما هو حسبه من البطولة وصدق البلاء. وليكونن بها أو بغيرها خطيبا يبين من منبر التاريخ، وان لم يحمله قط منبر التعليم.

حروب الردّة

لتفصيل الكلام في حروب الردة مكان غير هذا المكان..

لأننا نتناول منها في هذا الكتاب ما يتصل بأعمال خالد وتقديم خصائصه ومزاياه. وندع ما عدا ذلك لمكانه من الشروح والمطولات..

وقد رجعت حروب الردة – كجميع الثورات والأحداث الاجتماعية – الى أسباب مختلفة ولم تنحصر في سبب واحد، وربما كان من أسبابها ما خفي على المؤرخين ولا يزال خافيًا علينا حتى الآن، ولكننا نعتقد أن الأسباب الآتية كافية لتفسيرها وتفسير نصيب خالد منها، على القدر اللازم لفهمها وتصحيح دلالتها.

فمن أسباب حروب الردة تمرد القبائل القوية على قريش، وأقواها القبائل التي تنتمي الى ربيعة دون مضر. فانها كانت تتعصب لنسبها وتأنف أن تعلوها قريش بفضل النبوة والرئاسة، وصرح بذلك طليحة النمري حين لقي مسيلمة زعيم بني حنيفة ومدعي النبوة في اليمامة فقال : أشهد أنك كذاب... لكن كذاب ربيعة أحب الينا من كذاب مضر. وكان مسيلمة هذا يقول: انه أراد أن يأخذ نصف الأرض ويترك نصفها لقريش « ولكن قريشًا قوم لا يعدلون ! ».

ولم تكن المنافسة بين قبائل مضر أخف ولا أضعف من المنافسة بين مضر وربيعة، فان المنافسة في الأقربين أشد وأيقظ من المنافسة بين الأبعدين كما هو المعهود في كل قبيل. فكانت ذبيان وعبس وبنو أسد تكره من سيادة القرشيين ما تكرهه القبائل البعيدة. وروي عن عيينة بن حصن مثلما روي عن طليحة النمري اذ قال يؤيد

المتنبيء طليحة بن خويلد : « نبي من الحليفين أحب الينا من نبي من قريش » ويعني بالحليفين بني أسد وبني غطفان..

وكانت قريش تقابل مثل هذه النفرة بمثلها في أيام خصومتها للنبي وثورتها عليه. فكان صفوان بن أمية مشركا في وقعة حنين، ولكنه أنكر من أخيه أن يفرح بنصر هوازن وحلفائها، وصاح به وهزيمة المسلمين على أشدها : « اسكت فض الله فاك ! أتبشرني بظهور الأعراب.. والله لأن يربني رجل من قريش أحب الي من أن يربني رجل من هوازن ».

ومن أسباب الردة ثورة البادية على الحاضرة. فما زال من دأب البادية في كل زمان أن تنقم على الحاضرة سلطانها ونعمتها، ولم يشذ عن هذه السنة الا بضع قبائل فيما بين مكة والمدينة كانت تخشى من سطوة القبائل الكبرى ما ليست تخشاه من سطوة المدينتين، وكانت تحتكم في خصوماتها الى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى، فتؤثر مودة الجور بعد طول الخبرة وطول العشرة على البلاء الفتنة فيما بينها اذا زال سلطان مكة والمدينة. ولزم بعض هذه القبائل الحيدة يترقب ما يكون. وأسرع بعضها الى تلبية الدعوة فحارب في صفوف المسلمين.

ومن أسباب الردة نجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة. فان هذا النجاح أطمع بعض القادة من رؤساء العشائر في بلوغ مثل هذا المطلب الجليل.

فما هو الا أن استقر الأمر لمحمد في الحجاز وما حوله حتى اشرأبت الأعناق للاقتداء به وظن من ظن أنهم قادرون على ما قدر عليه وأن المسألة كهانة واسجاع وقيادة واتباع، وقصرت عقولهم عن ادراك سر القوة الأصيلة التي هيأت لمحمد كل ذلك التوفيق العظيم، وهي أن دعوته مطلوبة لاصلاح الأخلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشة في العالم كله ليست مجرد نهزة تنتهز لظهور رئيس مطاع وتحقيق مجد مومرق. فنجم الدعاة في حياة النبي باليمن، ونجد، والبحرين، لمجاراة الدعوة بالحجاز، وجاءت وفاته عليه السلام اثر ذلك فجرأتهم على المجاهرة بالعصيان.

ومن الأسباب التي أثارت القبائل فريضة الزكاة التي فرضها الاسلام على كل

مستطيع ، فانها أثارتهم لضنهم بالمال وانفتهم من الأتاوة وخالفت ما ألفوه حتى من أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، لأنهم كانوا يأخذون من هؤلاء أكثر مما يعطون ، وكانت الأتاوات التي يرضخون عنها أقل من المنح التي توزع عليهم بين حين وحين ، باسم الخلع أو الهبات . .

بل كان منهم من ضاق ذرعا بالفرائض فأسقطها الدعاة عنهم جميعا وأعفوهم من كل فريضة ، ومنهم من أنف من السجود فقال لهم طليحة الأسدى : « ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ، فاذكروا الله قياما ، فان الرغوة فوق الصريح ! » .

ويلحق بهذا وأشباهه أن الدين الجديد لم ترسخ جذوره بعد في نفوس الأقصين من أعراب البادية ، ولم تهجر طباعهم بعد عادات الجاهلية في العبادة والمعيشة ، وقد كان المسلمون أعلم بهم من أن يدهمهم بالمفاجأة من قبلهم ، لأنهم عرفوا طويتهم قبل ذلك من القرآن الكريم : « قَالت الأعرابُ آمنَّا قُل لَم تُؤمِنُوا ولكِن قُولوا أسلمنا ولَمَّا يَدخُلِ الايمانُ في قُلُوبِكُم » .

وليس أقرب الى المألوف من نكوص هؤلاء على أعقابهم بعد موت النبي وشيوع الفتنة والاضطراب عن أيمانهم وشمائلهم ، مع اغراء الدعاة وفرط الحنين الى القديم وهو منهم جد قريب .

* * *

وثمة سبب لا يغفل ولو لم تذكره التواريخ بالسند القاطع والنص الصريح : وهو الدسيسة المبثوثة من الدول الأجنبية : كل منها بما يوائمها وبما هي قادرة عليه .

وهذا يفسر لنا أن النبوة ظهرت من العرب أولياء فارس ولم تظهر من العرب أولياء الروم ، وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبائل التخوم السورية ، فهؤلاء يدينون بالمسيحية فلم يظهر بينهم مدع أو مدعية للنبوة ، ولكنهم ناوشوا المسلمين على التخوم مناوشة الحرب والوقيعة . أما التغلبيون على مقربة من فارس فلم يكن عليهم حرج من دولتهم التي تحميهم أن يحاربوا دين العرب الجديد بدين آخر ، ولم يجدوا حرجا من عقيدتهم أن يسمعوا الى المتنبئين والمتنبئات ، لأن عقيدتهم هذه كانت مزيجا من

المجوسية والوثنية ومسحة من المسيحية لا يرضاها أتباع كتاب. فلهذا ظهرت بينهم سجاح وسلكت في التبشير بدينها العجيب مسلكا لا يستريح العقل الى تفسيره بغير تفسير واحد، وهو أنها كانت تعمل لغرض سياسي وباغراء دولة أجنبية، ولا تعمل لغرض ديني ولا بدافع من عندها وعند ذويها..

فسَجَاحُ هذه كانت من بني يربوع أقرب بطون بني تميم الى نفوذ فارس، ثم تزوجت في أخوالها التغلبيين بالعراق، ثم انحدرت من ثم الى أرض بني تميم مبشرة بدين جديد بعد موت النبي عليه السلام، وانحدر معها جيش كثيف لا يستهان بأمره، فلما دعت قومها الأولين بني يربوع الى هذا الدين طلبوا اليها – على ما يظهر – أن تؤلف بطون بني تميم جميعا الى دينها قبل الزحف على الحجاز لمحاربة المسلمين، فلم يتفق بنو تميم على رأي. وتركتهم الى اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب يتحفز كذلك للخروج على الاسلام، ولم يكن أوفق لهما بهذه المثابة من التعاهد على غرض واحد وهو: الزحف على الحجاز، ولكنها رجعت الى قومها وهي تقول: « انها وجدته على الحق فتزوجته » وأنه سيؤدي لها نصف غلات اليمامة وقد استنجزته شطر هذا النصف قبل مرجعها الى بلادها..

فلماذا خالفها بنو تميم؟ ولماذا خالفها مسيلمة؟ ولماذا انحدرت ثم عادت ان كان همها التبشير بدين جديد؟ ولماذا هابها مسيلمة وأعطاها الجزية وهو يأنف أن يعطيها خليفة المسلمين ويجرد لحربه جيشا قيل ان عدته أربعون ألفا وقيل بل ستون ولم يقل عن عشرين ألفا في تقدير أحد من المؤرخين؟

كل أولئك لغز سخيف لا يقبله العقل الا على وجه واحد، وهو انها كانت داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة، ومن ثم أصابت ما أصابت من الاخفاق أو النجاح.

ويعزز ذلك أنها لقيت في رحلتها عملاء فارس جميعا من أبناء البوادي العراقية والنجدية، وأنها عملت حيث كان الأكاسرة حريصين على تجديد نفوذهم القديم.

قال ابن الكلبي: « كانت عير كسرى تبذرق – أي تحرس – من المدائن حتى

تدفع إلى النعمان بن المنذر بالحيرة. والنعمان يبذرقها بخفراء من بني ربيعة حتى تدفع الى هوذة بن علي الحنفي باليمامة، فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة. وتجعل لهم جعالة، فتسير بها الى أن تبلغ اليمن».

وعلى هذا تكون مهمة سجاح قد وضحت على هذه الصورة التي لا لغز فيها ولا تناقض بين أجزائها..

ويكون بنو تميم وبنو حنيفة وغيرهم قد عاملوها المعاملة الواجبة لمن يعتز بصولة الأكاسرة ويخلف المناذرة في وقت واحد..

فقد هدمت وقعة ذي قار – التي مر ذكرها بأول هذا الكتاب – هيبة الأكاسرة في الجزيرة العربية..

وساء ظن الأكاسرة بالمناذرة – ملوك الحيرة – الذين كانوا صنائع فارس وكانت فارس تعول عليهم في اخضاع البادية القريبة والبعيدة، فنكلوا بهم وعصفوا بدولتهم قبيل ذلك بقليل. فأرسل الأكاسرة أميرة تغلبية لتخلف المناذرة في هذه المهمة القديمة..

وكان اختيارها من بني تغلب أدنى شيء الى المعقول والمنظور، لأنهم أعداء بني بكر الذين تصدوا لحرب الفرس وهزموهم في وقعة ذي قار..

ثم كان تردد بني تميم وبني حنيفة في معاملتها أدنى شيء كذلك الى المعقول والمنظور. لأنهم أصدقاء المناذرة من زمن قديم، فلا هم راضون بهوانهم ولا هم قادرون على اغضاب فارس، وغاية ما في وسعهم أن يصرفوا سجاح راضية ويقنعوها بأن الثورة على الاسلام حاصلة، ويكون عملهم جميعا معقولا على هذا التفسير حيث يعوزه الفهم والوضوح على كل تفسير سواه.

بل نحن نخطر هذا في أخلادنا فنفهم كيف اشتد التغلبيون في حرب المسلمين وكيف اشتد المسلمون في حرب التغلبيين يوم اشتبكت جيوش الاسلام وجيوش الأكاسرة على أثر حروب الردة، فهي شدة لها أوائلها ونهاية جاءت بعد بداية. وكانت رحلة سجاح الى الجزيرة العربية هي أولى الطلائع في حرب الأكاسرة والاسلام.

من جملة هذه الأسباب يجوز لنا أن نقول : ان المدينة ومكة وجيرتهما كانت تقف وحدها في وجه البادية العربية بأسرها، ومن وراء البادية دول كبيرة تنصرها ولا تنصر المدينتين في هذه المعركة.

وقد كانت حروب الردة طائفا من الشر لا شك فيه..

ولكنها ولا ريب لم تكن شرًا محضا خلوًا من جانب المصلحة والفائدة.

لأن هذه الحروب وحدت عناصر المدينتين وهما وشيكتان أن تفترقا كل مفترق، فاجتمعت منهما قوة تكافىء كل قوة في البادية على انفراد، وتيسر لهما من ثم أن تأخذا من البادية قوة تفل قوى الدول الواقفة لهما بمرصد قريب..

ولولا حروب الردة لكان الخلاف بين المهاجرين والأنصار خليقا أن يتشعب ويستفحل، وكان الأنصار فيما بينهم مختلفين شيعتين كبيرتين ثم شيعا صغارًا في كل من الشيعتين، وكذلك كان المهاجرون من هاشميين وأمويين ومن سائر بطون قريش، فان بني هاشم على انفرادهم لم يجتمعوا بينهم الى كلمة، ولم يكن لهم مطمع في الوفاق بينهم وبين بطون قريش الأخرى، ودع عنك الوفاق بين طوائف المسلمين أجمعين.

فلما تحفزت البادية للوثوب على المدينة أحس المسلمون جميعا أنهم فريق واحد، مهدد بخطر واحد، فاتفقوا بوحي البداهة التي لا موضع فيها لتعمل التفكير وحيلة الحض والتحريض، ولبثوا متفقين ما كانوا بحاجة الى الوفاق وما كان الشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الأخطار..

وغني عن القول ان خالد بن الوليد كان في وسط هذه الحومة بكل داع من دواعيه النفسية والعقلية، بداعي العقيدة الاسلامية، وداعي العصبية القرشية. وداعي النشأة الحضرية، وداعي القيادة العسكرية، التي قدمته الى طليعة المجاهدين في هذا الميدان..

فشهد حروب الردة من أوائلها الى نهاياتها، وقسمت له الحصة الكبرى في أهم وقائعها وأعصب أوقاتها، ومنها وقعة واحدة ترجح بها جميعا وتعد من حروب الاسلام الحاسمة في صدر تاريخه، وهي وقعة اليمامة التي انتصر فيها بعد هزيمة

قائدين . .

وتنقسم أعمال خالد في حروب الردة الى قسمين : أحدهما الذي اشترك فيه مع كبار الصحابة بقيادة الخليفة في المدينة وما جاورها ، والآخر الذي استقل به أو استقل على الأصح بناحيته العسكرية ، وهو أعظم عملية في هذه الحروب .

* * *

توفي النبي عليه السلام وجيشا اسامة بن زيد في الجرف من أرباض المدينة ، والفتنة على مقربة منها تتطلع برؤوسها. فعاد فريق منه الى المدينة وأشار بعض الصحابة على الخليفة أن يرجىء مسيرته ويستبقيه عنده فترة من الزمن ريثما يطمئن في عقر داره خلال تلك الغاشية. فأبى أشد الإباء أن يخلف وصية للنبي أوصى بها في مرض وفاته. وقال قولته المأثورة : « والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة » ونادى في المسلمين. ليتم بعث اسامة ! ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند اسامة الا خرج الى عسكره بالجرف..

وسار الجيش الى وجهته كما أراد .

فخلت المدينة من الجند الا بضع مئات من رجال المهاجرين والأنصار. ودرى أقرب المرتدين اليها بحالها من العزلة وقلة الحامية فزحفوا عليها وظنوا أنهم اذا هددوها وهي عزلاء وتوسلوا بالمفاوضة والوساطة في الوقت نفسه رجع الخليفة عن عناده وقبل منهم ما ساوموه عليه ، وهو اقامة الفرائض كلها والاعفاء من الزكاة .. أو من الجزية كما سموها !

زحفت مئات من عبس وذبيان وفزارة على المدينة ، وتركوا شطرًا من جموعهم في الربذة حيث تلتقي طرق كثيرة على مسافة سبعين أو ثمانين ميلا من المدينة ، وساروا بالشطر الآخر الى ذي حسا وذي القصة وهي أقرب محلة اليها. ثم أوفدوا سفراءهم ينزلون بالناس في بيوتهم ويتوسلون بهم الى الخليفة أن يقبل منهم ما عرضوا عليه. فأبى اباءه الذي لا ينثني وقال : لو منعوني عقالًا لجاهدتهم عليه .

فقفلت الوفود الى جماعاتها، وعلم الخليفة بقفولها، وأخذ في التأهب للأمر بحزم العمل وحزم التدبير والحيلة بعد حزم الايمان. فلم يدع شيئا قط يستعد به للخطر المنتظر الا أعده في أوانه، وعلى الوجه الأمثل في تلك الأحوال..

فأقام كبار الصحابة على الأبواب، وجمع في المسجد من استطاع جمعه من المجاهدين، وأرسل العيون على الطرقات من كل سبيل، فما هو الا أن جاءوه بنبأ القوم ومواضع جماعاتهم المختلفة حتى خرج مع الليل ليضربهم من حيث لا يتوقعون قدومه، ودهم من كان منهم بذي القصة فذعروا لهذه البغتة التي لم تكن لهم على بال، ولاذوا بالفرار حتى لحقوا بأصحابهم في ذي حسا فصمدوا هناك للمقاومة، وقيل انهم تحيلوا على ابل المسلمين التي لم تروض للقتال فضربوها بالأنحاء المنفوخة في وجوهها فنفرت وولت مجفلة من حيث أتت. فأطمعهم ذلك في الهجوم على المدينة، وظنوا أن أهلها لن يفارقوها يومهم على الأقل بعد هذه الهزيمة..

الا أن الخليفة لم ينتظرهم معتصما بالمدينة كما انتظروا. بل خرج بمن معه في هزيع من الليل على تعبئة كاملة، هبط عليهم عند طلوع الصبح وهم على غير أهبة فلم يلبثوا قليلا حتى تفرقوا وارتدوا، ولم تقم لهم بعدها قائمة في هذه المحاولة الفاشلة. لأن جيش اسامة عاد من وجهته قبل أن يسعفهم مدد نافع، فيئسوا أن يأخذوا المدينة عنوة أو غرة بعد ما أعياهم أخذها وهي قليلة الحامية مفتوحة الطريق.

تلك كانت هجمة المرتدين الأولى على معقل الاسلام. ظفر فيها المسلمون لأنهم اعتصموا بحزم الايمان وحزم التدبير وحزم الوفاق، وانخذل فيها المرتدون لأنهم كانوا على نصيب ضئيل من هذه العدد الثلاث، فخانتهم عزيمة الدين وعزيمة الرأي وعزيمة الكلمة الواحدة، ولعلهم لو شاءوا أن يتحدوا كلمة وفعلا لفاتهم طلاب ذلك، لقلة الكلأ والماء الذي يكفيهم مجتمعين. فكان تفرقهم مما أعان المسلمين عليهم، وعوضهم من قلة الجند رجحانا يقابلون به الكثرة وهي منحلة الوثاق..

ومن عجائب الخليفة الصديق أنه كان يعتصم بالايمان حتى يقال لم يدع مزيدًا للحيلة والتدبير، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال لم يدع مزيدًا للايمان.

ففي هذه الفترة التي شغل فيها أولئك المرتدين بالهجوم والدفاع كانت رسله الى كل مكان تستنفر القبائل الموالية للنجدة ، وتمشي بالوقيعة والتفرقة بين القبائل المعادية أو المتربصة للعداء ، وتأتيه بالأخبار من كل صوب فيعمل وهو بصير ، ويعملون وهم متخبطون مضللون . .

فلم تنقض هجمة فزارة وعبس وذبيان حتى استتم له جيش كبير من أبناء القبائل الموالية في جوار المدينة ومكة ، ومعهم جيش اسامة وعدته بضعة آلاف من المدربين على القتال . .

ومضى رسوله « عدي بن حاتم الطائي » الى قومه بني طيء وهم يترددون : فريق يعصي الخليفة ويلحق بالمتنبيء الأسدي طليحة بن خويلد ومعهم فلول المرتدين عن المدينة ، وفريق يحجم عن العصيان ويؤثر البقاء والانتظار . فأرهبهم من مغبة العصيان وساعده على ارهابهم مصير عبس وذبيان . وأنذرهم ليهبطن عليهم جيش لا قِبَل لهم بدفعه من تلك الأمداد التي تتدفق على المدينة أو يثوبوا الى الاسلام وايتاء الزكاة . فأصغوا اليه ، وسألوه المهلة حتى يستخرجوا من لحق بطليحة من اخوانهم لئلا يقتلهم وهم بين يديه ، ووعدوه أن يدخلوا بهم جميعا في زمرة جيش المسلمين .

* * *

الى هنا انتهت المرحلة الأولى التي اشترك فيها المسلمون جميعا بقيادة الخليفة لمدافعة المرتدين عن المدينة . وكان شأن خالد فيها شأن غيره من أبطال المجاهدين .

وآن أن تبدأ المرحلة الثانية وهي المرحلة التي توزع فيها الأعمال بين القادة في شتى الميادين ، بعد أن تمت العدة وتوافدت الأمداد من مختلف القبائل ، واستراح جيش اسامة . وهدأت سورة القيظ وبدأ الخريف وأصبح من الميسور للخليفة أن يوجه البعوث الى المتنبئين في مواطنهم ، ليعجل كل منهم عن مراده قبل استفحال خطبه .

ففي أول هذه المرحلة نرى خالدًا « بذي القصة » حيث عقد له الخليفة لواء القيادة على جيش لا تتجاوز عدته أربعة آلاف مقاتل ، أكثرهم من أبناء القبائل

الموالية وأقلهم من المهاجرين والأنصار. ووجهه الى « بزاخة » من أرض بني أسد حيث اجتمع بنو أسد وقيس وحلفاؤهم الى المتنبيء القائم بأمر الردة هناك طليحة بن خويلد.

وربما كان الصحيح أن خالدًا انما استقل في أول هذه المرحلة بعمل القائد العسكري في تنفيذ خطة مرسومة بتفصيلاتها. اذ كانت هذه الخطة متفقا عليها بينه وبين الخليفة، وكان الخليفة اليقظان يأمره بما يصطنع خطوة بعد خطوة، وينبهه الى مواقف القبائل ومواطن الخطر منها على درجاته، ويصحبه الى بداية طريقه.

قال الخليفة وهو يودع الجيش : « أيها الناس : سيروا على اسم الله وبركته، فأميركم خالد بن الوليد الى أن ألقاكم. فاني خارج فيمن معي الى ناحية خيبر حتى ألاقيكم ».

ثم خلا بخالد وأسر اليه أمرا ثم قال : « ... عليك بتقوى الله وايثاره على سواه، والجهاد في سبيله، والرفق بمن معك من رعيتك. فان معك أصحاب رسول الله ﷺ وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم. فاذا دخلت أرض العدو فكن بعيدًا من الحملة فاني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل، سر في أصحابك على تعبئة جيدة، واحرص على الموت توهب لك الحياة، ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه، واحترس من البيات فان في العرب غرة. وأقلل من الكلام واقبل من الناس علانيتهم وكِلهم الى الله في سريرتهم، واذا أتيت دارًا فاقحم. فان سمعت أذانا أو رأيت مصليا أمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة. فان لم تسمع أذانًا ولم تر مصليا شن الغارة، فاقتل واحرق كل من ترك واحدة من الخمس.. واذا لقيت أسدًا وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة، فاستعن بالله على قتالهم، فانه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم، فان كفاك الله الضاحية فامض الى أهل اليمامة. سر على بركة الله ».

ولم يكن الخليفة على نية المسير الى خيبر كما أعلن أمام الناس، ولكنه لم يشأ أن

يعلن سير الجيش الى بزاخة نصا لمقاصد متعددة : منها أن يخيف بطون طيء حين يقصد اليهم جيش خالد بقضه وقضيضه فيجهز على بقية التردد التي تهجس في صدورهم ، ومنها أن يقنع طليحة بارسال من عنده من طيء لنجدة اخوانهم والدفاع عن بلادهم ، ومنها أن يدهم طليحة على غرة وهو يظن أن الجيش متجه الى غير بزاخة ومنصرف عنها الى حين . ومنها أن يلزم أهل خيبر أماكنهم فلا يشتركوا في قتال .

وقد عمل خالد بهذه الخطة فمضى في طريق بزاخة ثم عرج الى اليسار قبل منتصف الطريق كأنه يريد الحملة على ديار طيء . وهناك وافاه فوق الألف من مقاتلة البطون الطائية ممن تخلى عن طليحة أو كان على نية اللحاق به بعد قليل.

وقبل أن يستوي خالد في طريقه الى بزاخة جاءه أناس من الطائيين فعرضوا عليه أن يكفوه حرب قيس ويعفيهم من حرب بني أسد لأنهم حلفاؤهم منذ الجاهلية . ولم يكن عدي بن حاتم على رأي قومه فقال لخالد : لو ترك هذا الدين أسرتي الأدنى فالأدنى من قومي لجاهدتهم عليه. أفأنا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم ؟ فلم يشأ خالد أن يكره أناسا على حرب من يسالمونهم ولا يتحمسون في قتالهم ، وقال لعدي : لا تخالف قومك ، وامض بهم الى القوم الذين هم لقتالهم أنشط ، والله ما قيس بأوهن الشوكتين . امضوا الى أي القبيلتين أحببتم ».

وأتم تعبئته للقتال وهو على الطريق ، فجعل القبائل على ميمنته والأنصار والمهاجرين على ميسرته ، وصمد هو في القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء .

أما طليحة فالظاهر أنه كان أحذر من أن يؤخذ على غرة ، فانه قد رصد العيون على فجاج الصحراء فعلم بمقدم المسلمين قبل وصولهم الى بزاخة ، وأعد العدة لكلتا الحالتين من غلبة وفرار. فعزل أكثر النساء في مكان أمين لئلا يقعن في السبي اذا دارت الدائرة عليه ، وأقام حوله أربعين فارسا من أشد فتيان بني أسد ليدرأوا الهجمة عنه ، كأنه كان يعلم أسلوب خالد في قتاله.. اذ كان وكده قبل كل وكد أن ينحي بالضربة المصمية على رئيس القوم فيفت في أعضاد القوم جميعا بقتله أو اكراهه على الفرار. ولم يكن طليحة جبانا يتنحى عن الطعن والضرب وراء غيره ، بل كان

مشهورًا بالشجاعة معروفا عنه انه أقسم لا يدعوه أحد الى مبارزة الا أجابه ، ولكنه كان على شجاعته أميل الى الحذر والحيطة منه الى المجازفة والحماسة ، وكان في هذه الخصلة نقيض نده الذى يصاوله وينازلة بالسلاح والأخلاق ، فكان خالد أقرب الى المجازفة والحماسة منه الى الحذر والحيطة .

ولقد كانت لجيش طليحة مزيتان هما الكثرة والراحة . فقد كان جيشه يربو على جيش المسلمين بألف مقاتل أو زيادة ، مع وفرة السلاح والركائب ، وكان مستريحا في دياره على خلاف جيش المسلمين الذي كان عليه أن يلقاه بعد مسير مئات من الأميال في الأودية والجبال .

ولهذا أوشك أن يفوز بيومه لولا عزمة من عزمات القيادة التي تأتي في ابانها وتدور برحى الحرب من طرف الى طرف في ساعات معدودات .

فلما التحم الجيشان ثبت طليحة وأصحابه ثبات المستميت ، وكروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا الميمنة ولحقت بها الميسرة وانقضت هنيهة خُيِّل فيها الى المسلمين أنهم منكسرون لا محالة ، وجاء بعض بني طيء الى خالد ينصح له أن يتراجع يومه ليعتصم بجبال طيء ويستدرج المرتدين اليها . فأنكر عليه نصيحته وزجره قائلا : لا أعتصم بغير الله !

ثم عول على الكرة في كبة الجمع ليبلغ النصر أو يموت دونه . فأرسل فرسه وترجل مقاتلا على قدميه ليملك الحركة حيث يشاء ويبعث القدوة في قلوب صحبه ، ونادى بالأنصار كأنه ذكر موقف النبي يوم حنين : يا أنصار الله .. فلبوه مندفعين اليه ، وثاب أبناء القبائل الى مواضعهم فاستحر القتال في الفريقين حتى قتل حرس طليحة جميعا واستقر هو في « دثار الكهانة » يوهمهم أنه يتلقى الوحي أو ينتظر المدد من السماء .

وقد كان أتباعه يحبون أن يؤمنوا به مجاملة له ومرضاة لكبرياء القبيلة في أنفسهم ، فلما جد الجد أحبوا ان يروا لهذا الايمان علامة وسأله زعيم فزارة عيينة بن حصن وهو من أعز أنصاره وألد أعداء المسلمين : هل جاءك جبريل ؟ قال : لا .. ثم رجع له مستعجلا وحي السماء صائحا به وقد نسي في غضبه أنه يخاطب على زعمه نبيا من

الأنبياء : لا أبالك أجاءك صاحبك ؟ قال : لا .. فصاح به : حتى متى ؟ قد والله بلغ منا . فلما عاوده الثالثة خجل أن يجيبه جوابه الأول وقال له : نعم .. جاءني وأوحى الي « أن لك رحى كرحاه ، وحديثا لا تنساه .. » فسخر منه عيينة وقال : « نعم .. هو حديث لا تنساه .. » ونادى في قومه وهو مؤمن بهزيمة طليحة وادبار أمره : انصرفوا يا بني فزارة .. انه لكذاب . وجعل طليحة يسألهم من حيرته: ما يهزمكم ؟ فأجابه أحدهم : أنا أحدثك ما يهزمنا ، انه ليس رجل منا الا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وانا لنلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه » .

وأدرك طليحة حذره . وكان قد أعد لهذا الحذر عدته ، فركب فرسه وأردف امرأته النوار على راحلة وراءه ، ونجا بها وهو ينادي أتباعه : « من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل » . وما زال في فراره حتى لحق بالشام .

* * *

وتعقب خالد فلول المرتدين ومن مالأهم من قبائل هوازن وسليم حتى لحق بهم في « ظفر » حيث أحاطوا بسلمى أم زمل وهي كأمها من قبلها مضرب المثل في العزة والمنعة . كان يقال عن أمها : « أعز من أم قرفة » لأنها تعلق في بيتها خمسين سيفا كل سيف منها لرجل من ذويها ، وقد سبيت هي في عهد النبي عليه السلام فأعتقتها السيدة عائشة رضي الله عنها . فذهبت الى قومها مغضبة لتلك العزة التي انتهى بها عناد قومها الى الأسر والخدمة ، واستثارت حمية الرجال بهذه الغضبة التي تثير الطبيعة البدوية ولو لم تجتمع اليها بواعث أخرى للغضب والثورة . فدار بين خالد وبين جيشها أحر قتال ، ووقفت هي على جمل مشهور تضرم النخوة في قلوب جندها وترد الشجاعة الى من أدبر للفرار ، ومضى اليوم وهي تكافح ومن حولها زعماء جيشها يكافحون . فجعل خالد مائة من الابل لمن يصيب الجمل . وأرسل نخبة من فرسانه عليه فعقروه ، وقيل انهم لم يصلوا اليه حتى قتل من دونه مائة رجل من حماتها المستيئسين ..

وقد تفرقت سرايا خالد في اثر المنهزمين تضربهم وتجمع الأسلاب والغنائم وتدعو الى الاسلام .

فلم تمض أيام حتى كان قد فرغ من مهمتيه الأوليين : وهما الانذار والتغلب على الفتنة ، وبقيت مهمته الأخيرة وهي القصاص والتأديب ، ولعلها كانت ألزم وأحزم من قمع الفتنة وتمزيق الجيوش. لأن المرتدين كانوا قد أسرفوا في التنكيل بالمسلمين الذين أصابوهم بينهم ولم يتورعوا عن مثلة من المثلات التي يتورع عنها المقاتل الكريم ، وأصابوا أولئك العزل المنفردين في غير ساحة حرب وبغير نذير من قتال. فكانت أوامر الخليفة الى خالد صريحة ألا ينى في عقاب المعتدين « ولا يظفرن بأحد قتل المسلمين الا قتله ونكل به غيره».

ولم يكن خالد في مواقف الصرامة والبطش بحاجة الى توكيد وتشديد فلم يقبل من المرتدين الا أن يأتوه « بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على المسلمين ». ومثل بهم فأحرقهم بالنيران ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال كفعلهم بأولئك الأبرياء الغافلين عن عدوانهم الذميم. وقاد رؤساءهم في جوامع الحديد الى الخليفة ليصنع بهم ما يشاء..

وذلك درس لا شك أنه عنيف مخيف ، ولكن لا شك أنه عادل في شرعة الحرب والسلم ، وأنه لازم كل اللزوم في أحوال كتلك الأحوال..

وأية كانت المثلات بالمرتدين فهي على التحقيق لا تتجاوز المثلات التي تؤمر بها « حملات التأديب » في عصرنا هذا لمعاقبة أناس لم يقترفوا مثل ما اقترفه المرتدين ولم يقرنوا فعالهم بجريرة الخروج على عقيدة أو شريعة ولا بتهديد « الدولة » في كيانها وهي أحوج ما تكون الى الأمان والضمان..

ومع هذا وجد من كبار المسلمين من لام خالدًا على الامعان في تأديبه على النحو الذي نحاه. فقال عمر بن الخطاب للخليفة منكرًا احراق الناس : بعثت رجلا يعذب بعذاب الله ؟ انزعه !

فلم يستمع اليه الخليفة لأنه كان في حنقه على المرتدين لا يستعظم عليهم ضربا من ضروب العقاب.

ومهما يكن من مجاراة هذا للعقاب لطبع خالد — فهذه البعثة بين بعثاته جميعا

هي بعثة التنفيذ المحض الذي لا يشوبه نصيب من الاستقلال، اللهم الا استقلال القائد الكفؤ يحسن القيام على ما وكل اليه.

ومما لا غنى عنه قبل الانتقال الى أعمال خالد المستقلة في بقية حياته أن نتحرى نصيبها من اطاعة الأمر ونصيبها من الاقدام على العمل غير مأمور به ولا محملود عليه.

فيجوز لقائل في هذا الصدد أن يقول ان الخليفة لم يرسم لخالد خطة القتال والمداورة في بعثة بزاخة وانما أفضى خالد بهذه الخطة الى الخليفة فأقرها ووافقه عليها.

ذاك جائز غير ضعيف الجواز، ولكننا على هذا نرجح أن الخليفة هو صاحب الخطة من ألفها الى يائها، وأن نصيب خالد فيها هو نصيب الاقرار والموافقة، ويميل بنا الى هذا الترجيح أن نصائح الخليفة في بدء البعثة قد شملت الصغائر والكبائر وتناولت تفصيل الحركة كما تناولت تفصيل البيان الصحيح عن مواقف المرتدين في كل قبيلة وكل ميدان، وأن الخطة قامت على التورية والسبق بالهجوم، وكلاهما مما تعلمه الخليفة الأول بعد طول الصحبة من النبي عليه السلام، اذ كان مأثورًا عنه أنه كان اذا قصد وجهة ورى بغيرها، وأنه كان لا ينتظر الهجوم بل يسبق الهاجمين اليه، وقد جرى الخليفة على ذلك في دفاعه عن المدينة قبل مسير البعوث وعقد الألوية للقواد..

كذلك تواترت بعض الأقوال بمسير خالد الى بني تميم – بعد معركة البزاخة – قبل أن يأتيه أمر الخليفة بالهجوم. قيل ان الأنصار أنكروا عليه المسير الى بني تميم وقالوا له: «ما هذا بعهد الخليفة الينا، انما عهده ان نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب الينا» فقال لهم خالد: «ان يكن عهد اليكم هذا فقد عهد الي أن أمضي. وأنا الأمير والي تنتهي الأخبار، ولو أنه لم يأتني كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة أن أعلمته بها فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها».

بل قيل أكثر من ذلك انه أغار على اليمامة قبل ان يأتيه الأمر من الخليفة بالاغارة عليها. وهي أهول حروب الردة بل لعلها أهول من معظم حروب الفرس والروم..

فزعم قوم أنه قال لصحبه بالبطاح : والله لا أنتهي حتى أناطح مسيلمة. فأبى الأنصار وقالوا : هذا رأي لم يأمرك به أبو بكر فارجع الى المدينة. فأصر على رأيه وقال : لا والله. حتى أناطح مسيلمة. فرجعت الأنصار فسارت ليلة ثم قالوا : والله لئن نصر أصحابنا لقد ندمنا، ولئن هزموا لقد خذلناهم. فرجعوا اليه ومضى بهم الى اليمامة.

والذي لا نزاع فيه أن الخليفة لم يبعث أحدًا غير خالد الى بني تميم، ولو بعث غيره لصح أن يقال انه سار اليهم غير مأمور، ولكنه قال عند مسير جيشه من ذي القصة : « اذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح ان أقام له ».

أما اليمامة فقد بعث اليها الخليفة عكرمة بن أبي جهل ثم رأى حاجته الى المدد فوجه في أثره شرحبيل بن حسنة، وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفردا بالهجمة على اليمامة. ثم بدا لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده فهجم على مسيلمة قبل أن يوافيه المدد فنكب نكبة شديدة. وتلقى الخليفة نبأ هذه النكبة فكتب الى شرحبيل يأمره بالتوقف حتى يأتيه أمره، ولم يقل أحد ان الخليفة وجه قائدًا غير خالد لنجدة شرحبيل، ولا كان معقولا أن يكتفي بشرحبيل بعد هزيمة عكرمة وقد كان كلاهما عنده في حاجة الى التعزيز والامداد..

وقد تقدم أن الخليفة قد بصر خالدًا بشأن اليمامة قبل خروجه الى البزاخة... وليس ثمة من داع الى الشك في نسبة ذلك المقال اليه، ولا الى الشك بعد هذا جميعه في تولية خالد قيادة الجيش الذي سار الى اليمامة.

ومن المتواتر جدًا أن خالدًا لقي الخليفة بعد مسيره الى بني تميم وقبل مسيره الى بني حنيفة. لأنه استدعي لسؤاله عن مقتل مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ليلى. فهو قد توجه الى اليمامة مأذونا مأمورا بعد وقعة البُزاخة وبعد وقعة بني تميم. وعدا هذا كله يكاد يستحيل على العقل أن يقبل أن خالدًا قد تولى حربا كحرب اليمامة اشترك فيها أعظم الصحابة واستهدف المقاتلون فيها لأكبر الأهوال دون أن يندب لذلك بأمر صريح..

* * *

وغاية ما نفهمه الآن من ورود ذكر اليمامة عند عقد الألوية في ذي القصة أن الخليفة عرف خطرها فأراد أن يجمع لها أكبر قوة من جيوشه المختلفة، وأراد في الوقت نفسه أن يشغل بني حنيفة بأنفسهم فوجه اليهم عكرمة أولا ثم وجه شرحبيل بعده ليتلاقيا معا، ويكون خالد قد فرغ في خلال ذلك من أمر بني أسد فيدرك سابقيه معززًا لهم ان تعذر عليهم أن يقهروا بني حنيفة قبل قدومه، وهي خطة تلائم ما عرف عن خطط الصديق من جرأة وحيطة وسرعة، ولا يمنع هذا أن الخليفة أمر خالدا أن يرجع اليه بعد كل مرحلة من مراحل هذه البعثة لعله قد استجد شيء في غيابه.

وفحوى الأقوال الكثيرة التي تتفق بالبداهة على هذا النسق أن خالدًا قد تولى التنفيذ في ترتيب أعماله وتولاه أيضا في أوائل خططه، ولكنه قد وكل الى نفسه في الأمور التي يعلمها الشاهد ولا يعلمها الغائب. ومنها موعد السير وطريقة الهجوم واللقاء. فقام بما وكل اليه جميعا على أكمل الوجوه واقمنها بموافقة الخليفة؛ الا في موضعين لكل منهما ارتباط بمسألة زواج: أحدهما في البطاح والآخر في اليمامة. فقد تعرض فيهما لمؤاخذة الخليفة ومؤاخذة كبار الصحابة، ولم يرض فيهما عرف الجاهلية أو عرف الاسلام.

وظاهر من مقال الخليفة في ذي القصة انه لم يكن على يقين من عداء بني تميم، أو من ضرورة القتال في أرضهم، وانما كان يعلق الأمر على موقفهم عند وصول جيش المسلمين اليهم. وبخاصة بعد وفود زعماء منهم باعلان الطاعة وايتاء الزكاة..

وليس أدل من هذا على أن الصديق رضي الله عنه قد كان يعمل عمله في حروب الردة جميعا وهو على استطلاع وثيق وعلم واف بأحوال كل طائفة من المرتدين، وأن من دواعي انتصاره وفاء أخباره بحاجات القتال ونقص أخبار المسلمين عند القبائل المرتدة بعيدها وقريبها على السواء..

فتقديره لموقف بني أسد منذ البداية كان أصح تقدير..

وكذلك كان تقديره لموقف بني حنيفة في اليمامة..

ومثل هذين في صحة الالمام بالأحوال المختلفة شكه في ضرورة القتال بالبطاح.

وتعليقه القتال مع مالك بن نويرة على شرط . وتخصيصه مالكا بالذكر دون الآخرين من زعماء بيوت بني تميم..

فالواقع في أمر بني تميم كما نعلمه اليوم أنهم لم ينطووا على خطر جسام وان اختلفت في نياتهم الظنون..

وتاريخهم قبل الاسلام بعشرات السنين يؤكد هذه الحقيقة، ويوحي الى الخليفة رأيه الذي ارتآه..

كانوا في أجهل أيام الجاهلية في طليعة العرب كثرة ومنعة وسعة بلاء ووفرة ماء ومرعى..

وكانوا يجترئون على المغامرات التي تفرق منها القبائل الأخرى، فبطشوا مرة بقافلة عظيمة من قوافل الفرس التي تسير في رعاية الدولة الفارسية وحراسة أناس من بني حنيفة. وفارس دولة ضخمة يهابها العرب، وبنو حنيفة قوم من المنعة والعزة بمكان. فلما استشار كسرى بعض زعماء بني حنيفة في عقوبتهم قال له: «ان أرضهم لا تطيقها أساورتك وهم يمتنعون بها، ولكن احبس عنهم الميرة، فاذا فعلت بهم ذلك سنة أرسلت معي جنداً من أساورتك، فأقيم لهم السوق، فانهم يأتونها. فتصيبهم عند ذلك خيلك»..

وكذلك لم يتمكن منهم كسرى حتى منع عنهم حاجياتهم من أرض الحضارة في سنة مجدبة. واستعان عليهم بمن يستدرجهم الى مكان ينالون فيه..

ولكن بني تميم على هذا كانوا مثلا من الأمثلة النادرة على عجائب الحظوظ في هذه الدنيا، فقلما ظهر للمعتبرين أن الكثرة والسعة والمنعة والوفرة تنقلب أحيانا الى نقمة تشبه القلة والضنك والخوف كما ظهر ذلك في شأن بني تميم..

فقد كانت كثرتهم وسعة بلادهم واكتفاء كل بلد منها بمراعيه وأمواهه سببا لتفرقهم وتصدع وحدتهم وتعذر الاجماع بينهم على رئيس واحد. فتشعبوا بطونا يدين كل بطن منها لرئيس، بل بيوتا في البطن الواحد يبلغ من تنافسهم أن يتحاربوا ويتوارثوا الترات، ويصبح التوفيق بينهم أعسر من التوفيق بين أحدهم والغريب

الطارىء عليهم من الأعداء والأصدقاء..

وكان هذا شأنهم يوم ظهرت الدعوة المحمدية فلما بلغتهم خاف كل منهم أن يرفضها فيكون منافسوه الواقفون له بالمرصاد حربا عليه. فأجاب رؤساؤهم الدعوة، وأقرهم النبي على رآستهم، ومنهم الزبرقان بن بدر علي الرباب، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون، ووكيع بن مالك علي بني حنظلة، ومالك بن نويرة على بني يربوع وهم بيت من بيوت بني حنظلة الكبار..

وكل أولئك رجال من ذوي الرأي الراجح والقول النافذ والمناقب « الشخصية »..
ويمتاز من بينهم مالك بن نويرة بمزايا أخرى لم تتفق لواحد منهم، وهي اللباقة والظرف والفصاحة وحسن المحاضرة، مع الوسامة والصباحة وأناقة الزي والشارة، وهي في جملتها تلك الصفات التي ترشح صاحبها لمآسي البطولة في قصص الحياة، من واقع أو خيال..

كانت فيه خيلاء وجفلة، وكان متلافا لا يبقي على مال، وكان فارسا شاعرًا محدثا ظريف المدخل على من يعرف ومن لا يعرف، ومن ذاك أنه كان يقصد الحي من أحياء الأعداء وله فيه أسرى يريد فكاكهم بالفدية المصطلح عليها، فلا يحدث أهل الحي هنيهة حتى يخلبهم بحديثه ويأسرهم بظرفه وحسن سمته فيردوا اليه أسيره بغير فدية، ويفترقوا وهم أصفياء..

وكان مالك هذا أول من قصدت اليه سجاح المتنبئة عند منحدرها من الجزيرة.
فصرفها عنه بلباقته الى ملاقاة البطون الأخرى من بني تميم. ولعله زين لها أن تجمعهم اليها عصبة واحدة، لعلمه باستعصاء ذلك عليها وعلى غيرها... وانها وشيكة أن تنتقم له منهم ان هي دعتهم الى الالتفاف بها فلم يجيبوها..

ولم تزل الأنباء – قبل مقدم سجاح وبعد منصرفها – يتابع بعضها بعضا بانكسار المرتدين وغلبة المسلمين عليهم. الا ما كان من هزيمة عكرمة في اليمامة وانتصار بني حنيفة عليه، وهو انتصار لا يسر بني تميم لشدة المنافسة بينهم وبين بني حنيفة..

فلما أخذ الخليفة في عقد الألوية وتسيير البعوث كان بنو تميم على حالهم المعهود

من التفرق والمراقبة بعضهم لبعض على توجس وحذر، فسبق بعضهم الى المدينة بحصته من الزكاة، وتأخر بعضهم حتى نزل خالد بأرضهم فدفعوها اليه، وتحير مالك ابن نويرة فلم يعزم على الحرب ولم يؤد الزكاة..

وأغلب الظن أنه بدد ما جمع من الصدقات في هباته وملاهيه، ثم ليم في ذلك فأجاب لائميه بأبيات قال فيها:

وقلت خذوا أموالكم غير خائف
ولا ناظر فيما يجيء من الغـــــد

فان قام بالأمر المخوف قائـم
منعنا وقلنا الدين دين محمـــــد

يعني أن محمداً هو صاحب الدين وصاحب الزكاة، وقد مضى محمد فليس لأحد بعده أن يتقاضاه..

وهو على الجملة موقف رجل مسرف «لا يبالي مـا يجيء من الغد» كما قال. وليس بموقف عناد وتحفز لقتال..

فلما نزل خالد بالبطاح لم يجد أمامه أحداً يلقاه بالزكاة أو يلقاه بقتال. فعسكر حيث نزل وأرسل السرايا في أثر هذا البطاح. فجاءته بمالك بن نويرة في نفر من بني يربوع. فحبسهم ثم أمر بقتلهم، وحدث بعد ذلك أنه تزوج بامرأة مالك ليلى أم تميم، وكانت من أشهر نساء العرب بالجمال، ولا سيما جمال العينين والساقين. يقال انه لم ير أجمل من عينيها ولا ساقيها.

وتضطرب الروايات هنا أبعد اضطراب وأصعبه أن تهتدي منه الى مخرج متفق عليه.

فمن قائل ان السرايا وجدت بني يربوع يصلون وسمعت الأذان، ومن قائل: لم نر صلاة ولم نسمع بأذان.

ومن قائل ان الأسرى قتلوا لأن الليلة كانت باردة ونادى مناد من قبل خالد

« أن دافئوا اسراكم » ففهم الحراس أنه يريد القتل لأنهم من بني كنانة والمدفأة بلهجتهم كناية عنه.

ومن قائل ان مالكا قتل بعد محادثة حامية جرت بينه وبين خالد. ثم تضطرب الروايات في نقل حديثها فلا يدرى له نص صحيح. فقيل ان مالكا صرح بأنه لا يعطي الزكاة وانما يقيم الصلاة. فقال خالد: أما علمت أن الصلاة والزكاة معا لا تقبل واحدة دون الأخرى؟ فقال مالك: قد كان صاحبك يقول ذلك. فاتخذ خالد قوله دليلا على تبرئه من النبي وقال له: أو ما تراه لك صاحبا... ثم حمي الجدل بينهما حتى أمر بقتله.. ونسجت الخرافة بعد ذلك نسيجها الذي لا يتماسك لوهية. فزعموا أن خالدًا أمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرًا فأكل منه. وان شعر مالك جعلت النار تعمل فيه الى أن نضج اللحم ولم يفرغ الشعر! وهي خرافة تروى لتدلنا على شيء واحد: وهو وجود المحنقين الراغبين في التشهير بخالد وتبشيع أعماله وايغار الصدور عليه..

وقيل ان مالكا لمح في عيني خالد الاعجاب بامرأته فصاح به: هذه التي قتلتني. فقال له خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الاسلام.

ويذهب بعضهم الى أكثر من هذا فيزعمون أن هوى خالد لها سابق لحرب الردة، وفي ذلك يقول أبو نمير السعدي:

قضى خالد بغيا عليه بعرسه
وكان له فيها هوى قبل ذلك

وقيل أن خالدًا توعد مالكا بالقتل فقال له مالك: أو بذلك أمرك صاحبك؟ قال خالد: وهذه بعد تلك؟ ثم تكلم أبو قتادة الانصاري وعبدالله بن عمر في أمره فكره خالد كلامهما. وعاد مالك يقول له: يا خالد، ابعثنا الى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا. فقال خالد: لا أقالني الله أن أقلتك. وتقدم الى ضرار بن الأزور أن يضرب عنقه. ويزيدون على ذلك أن خالدًا دعا أبا قتادة الانصاري وعبدالله ابن عمر الى حضور عقد الزواج بليلى بعد مقتل زوجها. فأبيا وأشارا عليه أن يكتب

الى أبي بكر، فلم يستمع اليهما..

وغضب أبو قتادة فأقسم لا يجمعه بعد اليوم وخالدًا لواء واحد، وقفل الى المدينة غير مستأذن من قائده، فلقي الخليفة ولقي عمر بن الخطاب، فكانت غضبة عمر أشد وأعنف. وطلب الى الخليفة أن يعزله وأن يقيده قائلا: ان سيفه فيه رهق. فلم يجبه الخليفة وقال له: يا عمر، تأول فأخطأ. أرفع لسانك عن خالد. فاني لا أشيم سيفا سله الله على الكافرين..

ولكنه ودى مالكا واستدعى خالدا اليه. فلما قدم الى المدينة رأى عمر منه ما زاده غضبا وشدة في طلب القود منه. رآه قد دخل المسجد وعليه قباء وقد غرز في عمامته أسهما. فنهض اليه فنزعها وحطمها وصاح به: «قتلت امرءًا مسلما ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك».

فتركه خالد ولقي الخليفة فاعتذر اليه. فعنفه الخليفة وأمره أن يفارق ليلى ثم عفى عنه واستبقى خدمته. فعاد خالد الى المسجد وفيه عمر... فبادره حين رآه مناجزا: هلم الي يا ابن أم شملة... فعرف عمر أن الخليفة قد عفى عنه. فلم يكلمه ودخل بيته.

وحسبنا من هذه الأقوال جميعا أن نقف منها على الثابت الذي لا نزاع فيه. والثابت الذي لا نزاع فيه أن وجوب القتل لم يكن صريحا قاطعا في أمر مالك بن نويرة، وان مالكا كان أحق بارساله الى الخليفة مع زعماء فزارة وغيرهم الذين أرسلهم خالد بعد وقعة البزاخة، وأن خالدًا تزوج امرأة مالك وتعلق بها وأخذها معه الى اليمامة بعد لقاء الخليفة..

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت هذا كله أن نقول: ان وقعة البطاح صفحة في تاريخ خالد كان خيرًا له وأجمل لو أنها حذفت ولم تكتب على قول من جميع تلك الأقوال، لأنها لم تضف الى فخاره العسكري كثيرًا ولا قليلا، وأهدفته للملام أحمد ما يحمد منه أن له عذرا فيه، يقبله أناس ولا يقبله آخرون.

* * *

يجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق الذي لا يعلو على ميزانه ميزان في ترجيح الرجال والأعمال..

ولأن الرجل الذي يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ. اذ معنى الخشية عليه من أخطائه أنه فقير في الحسنات والعظائم، وأنه من الفقر في هذا الجانب بحيث تعصف الأخطاء بعظائمه وحسناته. ولم يكن خالد بن الوليد كذلك، بل كانت له في ميزان العظمة والعبقرية كفة راجحة، ولم يكد يرحل عن البطاح حتى اتصلت له حلقات من كبار الأعمال توزع على عشرة رجال ويجد كل منهم في نصيبه كفايته من الفضل والرجحان.

خرج من البطاح الى اليمامة..

خرج من وقعة لا خطر لها الى وقعة لها الخطر الأكبر في حروب الردة وفي حروب الاسلام كافة خلال أيام الخلفاء الراشدين.

ويرجع هذا الخطر الى قوة بني حنيفة أصحاب اليمامة، ودهاء رئيسهم مسيلمة ابن تمامة، ومنعة بلادهم بالجبال والأودية ووفرة الماء والثمرات.

هابها أصحاب سَجَاح وقالوا لها حين حدثتهم بغزوها: ان مسيلمة قد استفحل أمره وعظم. فلم تهون عليهم خطبها حتى استنزلت لهم سجعات من وحيها المزعوم تقول فيها: «عليكم باليمامة. دفوا دفيف الحمامة، فانها غزوة صرامة، ولا تلحقكم بعدها سلامة».

وكان مسيلمة هذا رجلا قصيرًا أخنس الأنف أفطسه شديد الصفرة زري الهيئة، ولكنه على ما يؤخذ من أخباره كان على ذكاء مفرط وحيلة نافذة، وكان من أولئك الدهاة الذين يعوضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء، فاشتهر بالخلابة والقدرة على استهواء النفوس من الرجال والنساء، فمن خلابته أن النبي عليه السلام أرسل اليه رجلا من قراء القرآن ليعلم أهل اليمامة أحكام الاسلام ويبصرهم بالفرائض والعبادات وهو نهار الرحال. فما لبث الخبيث أن استغواه حتى شهد له أنه يوحى اليه وأنه سمع النبي عليه السلام يقول انه قد أشركه معه وشهد له بالنبوة. وقد استغوى

سجاح – وهي تدعي النبوة – حتى شهدت بنبوته وتزوجته وانصرف
بنصيب من الهدايا يقنعها بالذهاب ولا يضمن لها التكرار. وكأنه كان
عند النساء وخبرة بأهوائهن وأساليب مرضاتهن. فقد كان نساؤه يح
عليه، وصاحت احداهن ساعة قتله وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم
الوضاءة. قتله العبد الأسود... ».

وخليق بهذا أن يظن به السحر وتنتظر منه الخوارق بين الجهلاء. ل
سلطانه ولا يعلمون مأتاه. فيخيل اليهم أنه سر من الغيب أو معونة من الجنة وا
وهو على هذا كان يعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة والألاعيب
يحذقها بعض الكهان في بلاد العرب والعجم، فكان قبل ادعائه النبو
بالأسواق ويتعلم « النيرنجيات » حيث سمع بأساتذتها المبرزين فيها. ولم
طبيعته بمعزل عن طبائع السحرة وأدعياء الغيب. فقد قيل في وصفه وهو يتكهن :
«انه اذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه».. والأغلب الأرجح أن به صرعا
كأولئك الذين يشبهونه في الخلائق والدعاوى. ومنهم الذين يعالجون « الاستهواء »
من المستهوين أو الوسطاء.

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ووثقوا به وأطاعوه. فتأتى له أن يجمع منهم
أربعين ألفا أو ستين. وهو عدد ربما ارتفعت به المبالغة أو الجهل بالتقدير، ولكنه
لا يهبط الى ما دون العشرين قياسا على ما وصفت به معركة اليمامة من الهول وكثرة
القتلى والجرحى بين الفريقين.

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمور كثيرة يوم تصدى لدعوى النبوة
ومقاومة الاسلام. فكان يقاتل تمامة بن أثال، ويناوش بني تميم لما بينهم من الذحول
والمنافسات، ويتوقى شر سَجَاح وقومها التغلبيين ودولة الأكاسرة من وراء التغلبيين،
ويعلم أن أشياعه من بيوت بني تميم قد يخذلونه، وأن الذين دانوا بالاسلام بين
قومه عيون عليه، وأن الخليفة لا يمهله ولا يجهل أخباره. فتحيل على مهادنة خصومه.
وفرغ جهده لحرب المسلمين وحدهم، وحشد كل ما وسعه من جند وسلاح، ثم
تقدم بهم في عجلة الى موقع يقال له عقرباء في طرف بلاده على مقربة من بلاد

خالد يجهل خطر الرجل الذي سيلقاه ، ولم يكن يخفى عليه أن الحرب الحرب في بلاد تكتنفها الجبال وتقام فيها الأبنية والأسوار، فتوجه ي أهبة كافية بالقياس الى أهبة المسلمين لأعدائهم في صدر الاسلام.

على التحقيق عدد الجيش الذي كان معه في عَقربَاء ، ولكنه على التقريب ة الآلاف ولا يقل عنها. لأن جيشه بالبزاخة نحو خمسة آلاف ، يضاف شرحبيل بن حسنة الذي سبقه ولبث في انتظاره ، ولا يقل عن ألفين ، بهم الردء الذي أرسله الصديق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ليحمي ير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بني تميم وبني حنيفة ، فهم م يجاوزون الثمانية الآلاف ولا ينقصون عنها ، ان نقصوا ، الا بقليل.

لكن مكان القوة من هذا الجيش الصغير انما هو كثرة الصناديد من أبطال الصحابة المشهورين فيه. فقد كان جيش المسلمين لا يجاوز في عدته نصف جيش اليمامة ، ولكنه كان في عدة وافية من أفذاذ الرجال الذين يقومون بالألوف ، فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كفؤان متناظران..

وكانا كفؤين متناظرين في صدق النية واتقاء العار من الهزيمة. هذا تأخذه غيرة الحرم وهذا تأخذه غيرة الدين. وقد قال ابن مسيلمة لقومه وهم يتقدمون الى المسلمين : « هذا يوم الغيرة. اليوم ان هزمتم تستنكح النساء سبيات وينكحن غير حظيات. فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم ».

فليست تعوز الخصمين حرارة الخصومة ولا شواحذ الغيرة ولا صلابة العزم ولا توسم الأمل في النجاح..

ولم يزل خالد يتقدم الى وجهته على تعبئة كاملة كعادته في معظم غزواته ، وكان يتلقى الأخبار عن مسيلمة وحركاته في كل مرحلة من مراحل الطريق. ولعله استعظم القوة التي حشدها مسيلمة في عقر داره فجنح الى الأخذ بالأحوط وكتب الى الخليفة في طلب المدد عسى أن يحتاج اليه بعد الجولة الأولى من جولات القتال ، فأمده

الخليفة بجرير بن عبدالله البجلي. ولكنه التحم بجيوش مسيلمة قبل أن يصل اليه، فلقيه منصرفا من اليمامة..

ولما دنا من أرض مسيلمة مرت مقدمة جيشه في الليل بكوكبة من الفرسان بين الأربعين والستين. عليهم مجّاعة بن مرارة من زعماء بني حنيفة وأصحاب الرأي والمنزلة فيهم، وكأنه كان خارجا لاستطلاع أمر المسلمين، ولكنه أنكر ذلك وزعم أنه ذهب « لأخذ ثأر له في بني تميم وبني عامر ». فلما سئلوا عن دينهم قالوا: منا نبي ومنكم نبي. فأمر خالد بضرب أعناقهم جميعا واستبقى مجّاعة عسى أن ينتفع بمنزلته في قومه أو بعلمه بالحرب والمكيدة كما قال لبعض الرواة.

ونزل خالد على كثيب في مواجهة مسيلمة. ثم التحم الفريقان « وقاتلت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله » وأندفعت في هجمتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكر وفيها امرأته أم تميم ومجّاعة بن مرارة مقيد بالأغلال. فهم بعض الحنفيين بقتلها لولا أن حماها منهم مجّاعة وأوصاهم بها خيرًا وهو يقول: نعمت الحرة هذه. وعليكم بالرجال..

شوهد في كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم في الصدر الأول أن الكرّة الأولى غالبا ما تكون للمشركين، ولا سيما حين تجتمع لهم مزية العدد والراحة حيث يختارون مكان القتال، وهي مشاهدة لا تستغرب ولا تخالف العهود. لأن « الدفعة الحيوانية » أبدا لها الوثبة الأولى مع العدد الكثير وراحة الجسد. وانما الثبات للعقيدة التي يلوذ بها الانسان بعد المراجعة، وللضمير الذي يثوب اليه المرء بعد الامتحان. وليس من شأن العقيدة أن تكون – كالدفعة الحيوانية – وثبة عاجلة وهجمة سوارة فاشلة. وانما شأنها أن تحاسب النفس وتستعيد قواها وتستخرج ذخيرتها من أعماقها. فهي لهذا تنفع صاحبها في المحنة وبعد تبين الشدة. وبخاصة حين يحتاج اليها بعد الجولة الأولى..

وهذا الذي حدث في عقرباء كما حدث في وقائع شتى..

فبعد الجولة الأولى التي فازت بها « الدفعة الحيوانية » برزت العقيدة الى الطليعة

وجاءت بمعجزاتها، وهي معجزات لا يتخيل العقل أن نفسا انسانية تقدم عليها بغير اعتقاد..

انكشف الأعراب أولا في أول صدمة، وتزلزلت أقدام أناس من الأنصار والمهاجرين من طغيان الجموع الهازمة على السواء..

فبادر خالد الى تنظيم جيشه على وضع جديد. فميز المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب كل بني أب على راية. وصاح بهم: أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى..

ثم عول على الموت كما وصاه أبو بكر فوهبت له الحياة ووهب النصر. حمل على القوم حتى تجاوز الصفوف وجعل يخاطب مسيلمة ويعرض عليه النصف والرجوع الى الحق ومسيلمة يروغ منه. ثم نادى بشعار المسلمين: يا محمداه. ودعا الى المبارزة وهو يصول ذات اليمين وذات الشمال ولا من يثبت له في مجال، ولم يبال أن ينظر الى ما وراءه لأنه ترك كل شيء في تلك الساعة الا أن يتقدم أمامه. ولم يزد على أن قال لجيرته أو من نسميهم اليوم أركان حربه: «لا أوتين من خلفي» ومضى الى تقدم بغير رجوع، الا رجوع ظافر مختار.

وظهرت في مقام الهول فضيلة الصناديد من كبار الصحابة. فحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض الى أنصاف ساقيه وهو يحمل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن. فلم يزل ثابتا حتى قتل في مكانه..

وصاح زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على اضراسكم واضربوا في عدوكم وامضوا قدما. ثم أقسم: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتي، فكانت آخر ما فاه به في ذلك اليوم..

وحمي البراء بن معرور وأخذته العرواء التي كانت تأخذه حين تتعالى الوغى ويحتدم القتال. فكان كأنما يبحث عن الموت ويهرب من الحياة..

وتجاوبت الساحة بأصوات الأبطال يوصون بعضهم بعضا وينظر بعضهم الى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون بينهم: يا أصحاب سورة البقرة.. يا

أنصار الله.. كما ناداهم النبي عليه السلام في يوم حنين. فاستحى كل منادى منظور المكان منهم في ذلك المشهد العظيم أن ينكص على عقبيه ولم ير منهم الا قتيل في موضعه أو زاحف الى الأمام..

وما هي الا سويعات حتى انكشف أصحاب مسيلمة منكسرين، وهرول مسيلمة نفسه الى حديقة مسورة من ورائه وقد سميت في ذلك اليوم بحديقة الموت لكثرة من قتل في طريقها وكثرة من قتل فيها. ولاحت من البراء نظرة الى جانب الباب فاذا هم قد أوشكوا أن يغلقوه عليهم. فصاح باخوانه: يا معشر المسلمين: ألقوني عليهم من فوق سورها. فاحتملوه فوق الحجف[1] ورفعوها بالرماح حتى بلغت أعلى السور فسقط منه على القوم بعد تردد، ولم يزل يعالج باب الحديقة حتى فتحه، وقد تواثب أفراد من المسلمين الى جانبه فأعانوه..

وقتل في هذه الهجمة مسيلمة كما قتل محكم بن الطفيل أكبر أعوانه ومشيريه، فاضطرب بنو حنيفة ووقعوا في الحيرة وهم في هزيمة لا يشار فيها برأي ولا يصغى فيها الى مشير. فشغلوا عن باب الحديقة وأعين المسلمون على اقتحامه من داخلها وخارجها. فحق لتلك الحديقة في ذلك اليوم أن تسمى حديقة الموت، لأنها اشتملت في يومها على ألوف من القتلى، وبلغ عدد القتلى جميعا في ذلك اليوم بين ساحة القتال وحديقة الموت عشرات الألوف، أقلهم في تقدير المقدرين عشرة آلاف من بني حنيفة وستمائة من المسلمين، وأكثرهم في تقدير المقدرين يرتفعون الى سبعين ألفا أو ثمانين ألفا حنفيين وألفين مسلمين وهو رقم لا يدل على نبأ صحيح ولكنه يدل على هول صحيح سرى في الآفاق من أنباء تلك المعركة التي ذهبت فيها نخبة من أجل الصحابة وأفقه الفقهاء، ومن جراء مقتلهم في هذه المعركة أمر الخلفاء بجمع القرآن في المصحف بعد أن فني الكثيرون من حافظيه، وخيف أن يفنى آخرون.

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي، وعزم على غزو حصونها جميعا ولم يكن بقي فيها الا النساء والصبيان والشيوخ والكبار،

(١) التروس من جلد بلا خشب.

فاقترح عليه مجَّاعة أن يذهب اليهم لينزلهم صلحا عن معاقلهم. ثم خدعه وأخلص لقومه، لأنه أمر النساء والكبار أن يلبسوا الحديد ويبرزوا من رؤوس الحصون، فنظر خالد فاذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس. فآثر المصالحة لما رأى بالمسلمين من الجهد « وقد كلوا من كثرة الحروب » واشترط أن يسلموا وأن يكون له نصف السبي والغنائم، ثم نزل من النصف الى الربع حين أوهمه مجَّاعة أن القوم قد رفضوا ما قبل منه..

فلما اطمأن المعتصمون الى الحصون من بني حنيفة فتحوا أبوابها فلم ير فيها الا امرأة أو صبي أو شيخ فانٍ أو رجل هزيل لا يرجى لقتال..

وقد يتوقع من خالد أن يغضب على مجَّاعة ويبطش به بطشة خالدية بعد هذه الخدعة التي اجترأ عليه بها علانية وهو في قبضة يديه..

لكننا في الحق لا نعجب اذا هو لم يغضب. لأن عمل مجَّاعة لا مراء عمل نبيل يكبره في النفوس النبيلة ويبعث له فيها الاعجاب الذي يكفكف من شرة كل غضب سريع. فهو عمل ينضح بالمروءة والغيرة على العشيرة، وكلتاهما فضيلة يعرفها خالد ويعرف للمتصف بها قدره فلا يذله ولا يجزيه شر الجزاء..

وقصارى ما بلغ من غضبه أنه نظر اليه نظرة شذراء وصرخ به : ويحك.. خدعتني. فلم يجبن مجَّاعة ولم يعتذر، وانما قال : هم قومي !

وما نحسب الا أن الاعجاب بمجَّاعة قد حبب الى خالد أن يصهر اليه ويوثق الصلة بينه وبينه : زعيم شجاع جميل الرأي حسن التدبير غيور على قومه عليم كما وصفوه بمكيدة الحرب والسلم. فهو خير صهر في تلك القبيلة التي يفخر « سيف الله » بدخولها على يديه في الاسلام. ويطيب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب. وقد طاب له المقام بتلك البقاع المخصبة التي يزينها له النصر كما يزينها له طيب الهواء. فاختار له واديا من أوديتها الجميلة يسمى الوبر ليقيم فيه حتى يؤمر بوجهة أخرى، وخطب الى مجَّاعة فتاة له موصوفة بجمالها، وهي خطبة لا ترفض ولكنها قد تقبل وتؤجل. لأن مجَّاعة قد علم من « ليلى » مذ كان سجينا في خيمتها كيف تلقى الخليفة واصحابه خبر زواجها بخالد في ساحة القتال، فأشفق هذا الرجل المحنك البصير

بالعواقب من عاقبة تسوؤه وتسوء ابنته وتسوء خالدًا في جريرته. فاستمهله ولم يعجل بتلبية طلبه، وقال له: « مهلا.. انك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك ».. ولكنه لم يلبث أن علم اصرار خالد حتى أجابه ورأى أن عاقبة القبول أسلم من عاقبة الإباء..

وكان خالد قد تلقى من الخليفة أمرا باستئصال كل من يحمل السلاح من بني حنيفة، فعادت الرسل الى الخليفة بخبر الصلح وخبر الزواج، فحسب أن الأمرين مقترنان واشتد به السخط على عمل خالد بما وقع في نفسه من حسبان فكتب اليه أعنف خطاب وجهه الى قائد من قواده أو وال من ولاته، وسماه « ابن أم خالد... » وقال له في خطابه: انك لفارغ. ونعى عليه أنه « ينكح النساء وبفناء بيته دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفف بعد ».

وقد كتب خالد الى الخليفة يعتذر في انفة وعزة: « أما بعد: فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لي السرور وقرت بي الدار، وما تزوجت الا الى امرئ لو عمدت اليه من المدينة خاطبا لم أبل. دع اني استثرت خطبتي اليه من تحت قدمي. فإن كنت قد كرهت لي ذلك لدين أو دنيا أعتبتك. وأما حسن عزائي على قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقي حيا أو يرد ميتا لأبقى حزني الحي ورد الميت، ولقد اقتحمت في طلب الشهادة حتى يئست من الحياة وأيقنت بالموت. وأما خدعة مجّاعة اياي عن رأيي فاني لم أخطىء رأي يومي ولم يكن لي علم بالغيب، وقد صنع الله للمسلمين خيرًا، وأرثهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين ».

وقال في رسالة أخرى: « انى لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به وحتى عجف الكراع ونهك الخف ونهك المسلمون بالقتل والجراح ».

وقد ظن خالد أن الخليفة لم يكن ساخطا عليه ذلك السخط لولا اصغاؤه « للأعيسر » كما كان يسمي عمر بن الخطاب. ويخيل الينا أن سخط الخليفة لم يكن ليبلغ به هذا المبلغ لولا أن زواجه ببنت مجّاعة سبقه ذلك الزواج الذي خبطت فيه الظنون بعد مقتل مالك بن نويرة..

وعلى هذا انقضى واجب خالد بن الوليد في حروب الردة كأحسن ما ينقضي هذا الواجب ، وقام وحده بأوفر سهم في هذه الحروب ، لأنه قمع أخطر الفتن في الجزيرة العربيـة من أقصاها إلى أقصاها . فقمع فتنة بني أسد وحلفائهم ، وخطرها انها كانت أقرب الفتن الى المدينة ومكة . وقمـع فتنـة بني حنيفـة ، وخطرهـا أنها كانت فتنة القبيلة الأقوى والعديد الأكثر بين العرب قاطبة . وحقق كل ما ندبه له الخليفة وكل ما اتفقا عليه ، سواء من الخطط التي نظرا معا في تفصيلاتها أو من الخطط التي عرف خالد غاياتها وابتدع لها ما ارتآه من أساليبها في أماكنها وأوقاتها . ولم يخالف رغبة الخليفة الا في موضعين لهما ، كما أسلفنا ، علاقة بمسألة زواج :

أما الأولى – وهي زواج ليلى امرأة مالك – فقد تقدم تلخيصها وجملة الرأي فيه – كما أسلفنا – أنه عمل يحوج خالدًا الى الاعتذار والتفسير ، وانه صفحة كان خيرًا له لو طويت من تاريخه ، فما فيها مزيد افتخار ، وفيها على أهون القولين مقام اعتذار .

وأما الأخرى فلا يسع أحدا أن يسهو فيها عن عجلة خالد الى الزواج على غير عادة القوم في ميادين القتال .

ولكن لا يسع أحدًا أن يتعدى هذا الى مظنة تمس نية الرجل أو تجعل صلحه لبني حنيفة متصلا برغبته في الزواج ببنت مجّاعة زعيم الحنفيين في صلح اليمامة .. ذلك بعيد ، جد بعيد ..

لأن بنت مجّاعة كانت بين يديه ، وكان في وسعه أن يقتل أباها نقمة من خداعه اياه ، ومرضاة للخليفة الذي أمره باستئصال من يحمل السلاح في القبيلة . فهو يقتله ولا معتبة عليه ..

ولم يصالح خالد بني حنيفة وهم مجمعون على قبول صلحه . بل كان منهم زعيم له أنصار وأتباع – هو مسيلمة بن عمير – أبي أن يذعن لشروط مجّاعة ومضى يهتف في قومه : « يا بني حنيفة . قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء ، فان الحصن حصين والطعام كثير ، وقد حضر الشتاء »

فلما عارضه مجّاعة وذهب برأي الأكثرين من قومه تمادى مسيلمة بن عمير في لجاج الخصومة وانسل الى فسطاط خالد يريد أن يفتك به ويشيع بموته الفتنة التي لا تؤمن عقابيلها في معسكره ومعسكر بني حنيفة، فتنبه خالد اليه وسأل: من هذا المقبل؟ فعرفوه به فقال: اخرجوه عني. فلما أخرجوه وجدوه يخفي السيف في ثيابه، فلعنوه وأوثقوه في الحصن وأخذوا عليه عهدًا لا يقربن بعدها من فسطاط خالد حتى تنتهي بيعة قومه على الاسلام... ولكنه غدر بعهده وأفلت بالليل الى عسكر خالد مصرًا على قتله، فلما أدركوه دون بغيته أجال السيف على حلقه فقطع أوداجه وآثر الموت على التسليم..

ومع هذا بقيت بلدة «القرية» ووادي العرض في اليمامة لم يشملها الصلح الذي شمل العسكر في عقرباء. فلم تكن مطاولة القوم خيرًا من المصالحة في حالة كتلك الحال، ولم يكن في طاقة المسلمين أن ينهدوا للمطاولة بعد أن قتل منهم من قتل وجرح من جرح ومضى على أكثرهم عدة شهور بين مشقة السفر ومشقة الهول والبلاء، ولم يكن ارجاء التسليم مأمون المغبة اذا استثيرت نخوة الحنفيين وفيهم من يعاند في الخصومة ذلك العناد، ولقد يكون المستسلمون منهم أسرع الى النكسة يوم يشهدون بأعينهم سبي النساء «غير حظيات» وقتل القادرين على الحرب من فتية وكهول.

فدواعي خالد الى الصلح أظهر وأرجح من أن يعتسف معها داع آخر غير معقول ولا مستساغ، وان الداعي الذي لا يعقل ولا يستساغ هنا لهو التعليل بزواجه من فتاة اليمامة. وأيسر شيء لديه أن يسبيها بعد قتل ذويها، ثم يكون ذلك أدنى الى رضى الخليفة وتحقيق ما أمر به، قبل أن يطلع على الموقف في اليمامة من جملة نواحيه.

وبعد فليحسب زواج خالد كله في أي سجل يشاء أن يحسبه الحاسبون..

ففي سجل المفاخر الاسلامية شيء يحسب له بعد حرب اليمامة لن يطول فيه خلاف، فتلك أول حرب ظهر فيها للمسلمين مصداق قول النبي عليه السلام

انه سيف من سيوف الله. كان الخطر على الدين الجديد من العرب أنفسهم ومن أمم «الأعاجم» التي تحيط بالبلاد العربية..

وقد رأينا نصيب خالد من وقاية الاسلام في أرضه، وهو أوفى نصيب. وسنرى نصيبه من مراس الخطر الآخر وما هو بأكبر الخطرين، ولكن نصيب خالد في مراسه كان أوفى النصيبين..

الفتوح

في سبع سنين قصار فتح العرب كل ما اقتحموه من بلاد الفرس والروم...

فتقوضت في الشرق دولة الأكاسرة، وتداعت في الشمال والغرب دولة القياصرة. وزال سلطانها من الشام وفلسطين ومصر وافريقية الشمالية. وشغلت بنفسها زمانا عن الفاتحين وما فتحوه..

عجيبة من أعظم عجائب التاريخ..

لا يبرح المؤرخون حتى أيامنا هذه يأتون في تعليلها كل يوم بعلل جديدة. ويفيضون في شرح السوابق واللواحق على النحو الذي يفسر العجب بالمألوف، ويرد الدهشة الجامحة الى قرار البحث والتدليل

وهو جهد لا نعرض له في هذا الكتاب، ولا يلزمنا هنا أن نستقصيه ونحاول البت فيه

انما يعنينا منه شيء واحد هو تقدير عمل خالد، وتقدير الكفاية التي تضطلع بذلك العمل، وليس تقدير ذلك بعسير ولو بقي التاريخ منشعب اللسان في استقصاء علل الهزائم التي نزلت بالفرس والروم

فالأسباب التي قضت على الفرس والروم بالهزيمة – كائنة ما كانت – ليست هي الأسباب التي قضت للعرب بقيام دولة وانتشار عقيدة، لأن استحقاق أناس للزوال لا ينشيء لغيرهم حق الظهور والبقاء

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهم عرب وكفى. ولم تكن

المسألة في لبابها كفاحا بين الأجناس والعناصر بما لها من المزايا وما فيها من العيوب

فقد كان في أرض الدولتين عرب كثيرون يدينون لهما بالطاعة وينظرون اليهما نظرة الاكبار والمهابة ، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة المسلمين عددًا وأمضى سلاحا وأقرب الى ساحات العراق والشام من أولئك النازحين اليها من جنوب الجزيرة العربية

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين وهم كذلك أوفر في العدد والسلاح وأغنى بالخيل والابل والأموال

فهي نصرة عقيدة لا مراء

وينبغي أن يذكر المؤرخون هذه المسألة من جانبيها ولا يقصروا النظر فيها الى جانب واحد..

فاستحقاق النظم القائمة للضياع هو في وقت واحد سبب ضياعها ، وهو حجة العقيدة التي تخلفها وتنتصر عليها في ساحة النزاع

اذ كان ادعى الدواعي لظهور عقيدة جديدة أن النظم القائمة قبلها لا تتماسك ولا تصلح لحماية ذمارها

فاذا قيل ان العقيدة الجديدة قد انتصرت لتداعي النظم التي اصطدمت بها فليس هذا تعليلا وكفى ، ولكنه كذلك شفاعة وحجة للظهور. ودليل على أنها حق صالح كأصلح الحقوق الكونية ، وأنها علاج عالمي مطلوب جاء في الأوان

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغني عن قول كل قول

أفكل مناضل متذرع بالعقيدة صالح في تلك الآونة للانتصار؟

ينبغي أن يكون الأمر كذلك لو كان تعليل النصر بالعقيدة مغنيا عن كل تعليل

ولكن الواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالا أولي خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائها

وقد أفلح أناس وأخفق آخرون

فانهزم عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة حيث انتصر خالد في اليمامة.

وخرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من طرفيه في وقت واحد، فسار خالد من نصر الى نصر ومن توفيق الى توفيق. ولبث عياض يتردد ويقدم خطوة ثم يحجم أخرى حتى أدركه خالد بالمعونة في دومة الجندل.

وسبق خالد بن سعيد خالد بن الوليد الى الشام فغرر به الروم حتى استدرجوه الى مرج الصفر فأوغل وراءهم ولم ينتظر حتى تدركه أمداد الخليفة التي أرسلها اليه تباعا بقيادة عكرمة بن أبي جهل والوليد بن عقبة وذى الكلاع الحميري. فأحدقت به جحافل الروم وأوشكت أن تلتف به من ورائه، ولولا يقظة الخليفة وتلاحق أمداده في أوقاتها لقضوا عليه..

فلا انحلال الدولتين الفارسية والرومانية بمغن عن الاعتراف للعقيدة المنشئة بحقها في الغلب وحاجة العالم اليها في تلك الآونة..

ولا العقيدة المنشئة بمغنية عن فضل رجالها وحماتها، وكفاية سواسها وقادتها..

فهي عقيدة منشئة يذود عنها حماة قادرون، وكان خالد بن الوليد في طليعة هؤلاء الحماة.

* * *

سبقه اسمه الى أطراف الدولتين فحارب أعداءه بهيبته قبل أن يحاربهم بسيفه، وكانت هذه أول مزية لاختياره وأول فضل يحسب له في ميزانه ويضاف الى قيادته ويعمل عمله في نفوس أعدائه كما يعمل عمله في نفوس أتباعه..

قال صاحب دومة الجندل لقومه حين سمع بمسيره اليه: «أنا أعلم الناس بخالد. لا أحد أيمن طائرًا منه. ولا أصمد في حرب. ولا يرى وجه خالد قوم أبدًا قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه. فأطيعوني وصالحوا القوم..»

وكان الرجل من العرب يعيش في الشام ويهجر موطنه الأول ولكنه يسمع باسم خالد ويتلقى أنباءه من وراء المهامه والدروب، فما هو الا أن ينضوي اليه حتى يوقن

بيمن طائره ويسرع الى طاعة أمره عليما بأنه لا يأمر الأمر الا وهو قادر على انجازه. كما قال الشاعر الفارس عمرو بن العمرد :

اذا قال سيف الله كروا عليهم كررت بقلب رابط الجأش صارم

ويتناقل الرواة قصة لقائد من قادة الروم لا تقل فيها دلالة الخيال عن دلالة الحقيقة، ان كانت القصة من توليد الخيال..

قيل ان قائدا من قادة الروم اسمه جورج برز له في أكبر وقائع الشام وسأله : أحق أن الله أنزل على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم الا هزمتهم؟

قال خالد : لا ...

قال : فم سميت سيف الله ؟

قال : تابعناه. فقال أنت سيف من سيوف الله سلّه على المشركين ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله. فأنا من أشد المسلمين على المشركين وكل هذا شبيه بأن يكون..

فان لم يكن نبأ خالد قد وصل الى كل عدو من أعدائه فالذي لا ريب فيه أن أتباعه كانوا على علم بنبأه فكانوا على ثقة بسداد رأيه ومضاء عزمه. وكانوا يطمئنون اليه فيعملون معه عمل المطمئن الى نجاح سعيه. وهذا هو فضل القيادة الصالحة في نفوس الأتباع..

* * *

خرج خالد وزملاؤه للقاء الفرس والروم بعد وفاة النبي عليه السلام بسنة واحدة، وبعد حروب طالت في الجزيرة العربية عدة سنين..

فلو كانت الفتن وموت الزعماء قاضية على كل أمة كيفما كان السبب وكانت البيئة لكان مصاب العرب كمصاب الفرس والروم في تلك الأعوام: فتن وفتن، ونبي مات وملك قتل أو قيصر شاخ. فهؤلاء وهؤلاء في العلة سواء..

لكن حركة العرب حركة انشاء ونماء ..

وحركة الروم والفرس حركة اختلال وتقويض ..

وجسم الفتى اليافع مضطرب لا يستقر على حال ..

وكذلك جسم الهرم الذاهب ، ولكن شتان اضطراب واضطراب .

* * *

كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الدولة الفارسية يوم قصد خالد الى تخومها من ناحية السواد ..

وكانت علل مثلها – وان كانت أخف منها – قد اصطلحت على بنية الدولة الرومانية الشرقية ، يوم قصدها زملاؤه القواد من شتى نواحيها قِبَل الشام والبلقاء . وهذه خلاصة وجيزة عن الحالة يومئذ في الدولتين :

يقول شراح الحضارات ان الحضارة تبتدئ بمعنى روحي قليل المظهر ثم تنتهي الى مظهر ضخم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعاني الروحية ..

وهذه هي الحالة التي كانت عليها دولتا الفرس والروم عند اصطدامها بالدعوة الاسلامية في نهضتها الأولى ..

ففي بلاد الفرس خفت صوت الدين ومضى على ظهور « زرادشت » مصلحهم الديني الكبير زهاء أربعة عشر قرنا ، فرث الصالح من مذهبه وازداد الطالح سوءًا على سوء ..

وخلف في بيت الملك أمراء ضعفاء بعد آبائهم الأقوياء فشغلوا بالنزاع بينهم وأسقطوا هيبتهم في بلادهم وغير بلادهم ونهكوا قوة الدولة في فتن وبيلة وخيمة وترف أوبل وأوخم . وما برحوا في طغيانهم وتهافتهم حتى ولي الملك أردشير فرأب صدعه وأوشك أن يعيده الى سابق مجده وتركه في القرن الثالث للميلاد وهو موحد بعض التوحيد بالقياس الى ما كان عليه قبل ذلك من التفرق بين العشائر والرؤساء ..

ثم نكس النكسة الأخيرة وشاع فيه الفساد علوًا وسفلا قبيل ظهور الدعوة الاسلامية وكان الملك المعاصر للنبي عليه السلام كسرى أبرويز فثار به أبنه شيرويه فقتله ونكل بذوي قرباه، وأعقب طفلا صغيرًا فلم يلبث أن قتل وتولى بعده قائد الجيش شهريزار، فنفس عليه القواد والعظاء منزلته المغصوبة فقتلوه وولوا عليهم بوران بنت كسرى أبرويز، فلم تتم في الملك سنة وبضعة أشهر حتى ماتت وخلفها فتى من بني عمومتها الأبعدين، ثم قتل وخلفته بنت أخرى لكسرى أبرويز فقتلت، وقتل من بعدها، الى أن تولى الأمر يزدجرد بن شهريار والدولة تترنح من فرط الاعياء..

ومنيت في أيامها الأخيرة بضربة قوية في حروبها الخارجية : وهي غلبة الروم عليها وانتزاع مصر والشام منها ورد حدودها الى دجلة والفرات بعد أن طغت على حدود آسيا الصغرى، وقبل هذا منيت بضربة دون هذه الضربة في القوة والضخامة. ولكنها أشد منها أثرا فيما نحن بصدده من أحوال الدعوة الاسلامية : وتلك هي ضربة الهزيمة « بذي قار » التي تقدم وصفها في أول هذا الكتاب. فان هذه الهزيمة أطمعت فيها العرب بعد مخافة وهيبة، ولا سيما العرب المقيمين بجوار ذي قار وأرباض السواد، ومنهم جند خالد وزملاؤه الذين تقدموا لمنازلة الفرس في العراق..

وساءت من جراء ذلك كله شؤون الأمة في الديار الفارسية. فتهالك العلية على المظاهر وانغمسوا في الترف واستكثروا من النفائس والأموال وشغلوا عن سواد الأمة فشاع بينهم الفقر والضنك والتذمر وبغض الحكام، ولم يعلموا فيم هم مسوقون وعلى أي شيء يتقاتلون ويتفانون. وهي حال تؤذن بالتصدع والانهيار لأول صدمة تهز الأركان والجدران..

ومن أعجب العجب أن يفطن رجل كالمغيرة بن شعبة لدلالة هذه الحال وهي معدودة في عصرنا من دروس علوم الاجتماع والتاريخ التي لا يصل اليها الباحث الا بعد مقارنة واطلاع واسع مستفيض، ولكنه العجب الذي يفسر لنا ما هو أعجب منه. وهو وفرة نصيب العرب يومئذ من أقطاب الرجال ذوي الحنكة والنظر البعيد. وانهم قد ظفروا لأنهم كانوا على أهبة في هذا الباب حرمتها كلتا الدولتين. على كثرة من بهما من الزعماء أصحاب المظاهر والشارات..

دخل المغيرة بن شعبة على رستم بطل الفرس المشهور في التواريخ والأساطير فجلس معه على سريره ، فاستكبر أعوانه هذه الجرأة من ذلك البدوي « المغرور » واجتذبوه من مكانه على السرير في عنف شديد . فما اهتز المغيرة ولا استكان ولا زاد على أن قال : لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى أسفه منكم . انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما تتواسى – أي تتساوى – فكان أحسن من الذي صنعتموه معى أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض . ان هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد . وانى لم آتكم ولكن دعوتموني ... اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وان ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول ».

كلمات من ذهب ..

لو كان فيمن سمعها من الفرس من يضارع المغيرة لقال في جوابه : « واليوم علمنا أنكم غالبون ، وان أحق الملك أن تقوم له قائمة لهو الملك الذي قوامه من هذه السيرة وهذه العقول » .

على أن الأمم لا تقفر من الأحلام كل الاقفار في أظلم ظلمات الجهالة والادبار . فقد وزن « يزدجرد » شأن العرب والفرس بالميزان الصحيح حين قال لرستم : « انما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوي اليه الطير بالليل ، فتبيت في سفحه في أوكارها . فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها ، فان شد منها شيء اختطفه . فلو نهضت نهضة واحدة ردته ، وأشد شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها الا واحداً . وان اختلفت لم تنهض فرقة الا هلكت ، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم » وصف صادق من جملة أطرافه .

وعلامة من علامات الانحلال أن لا ينفع الوصف الصادق ولا يهدي العارفين به الى رأي متفق عليه ، كما يُعرف المرض ولا ينتفع بعرفانه في العلاج اذا شارف الجسم الفناء . ولهذا اتفق يزدجرد ورستم على الصفة ولم يتفقا على العمل النافع مع العرب ، فافترقا مختلفين .

وكما بقيت في أهل فارس يومذاك مسكة من حلوم بقيت لهم كذلك مسكة من

مروءة الفرسان ، أو على الأصح مسكة من المراسم والمأثورات الحربية ، وهم أولع أمة بالمراسم والمأثورات كافة .

وهذه المسكة شرف للقادر ولكنها بلاء على العاجز المتخاذل ، كأنها الوثبة التي تعجل بالهلاك ان وثبها المريض الهزيل ، وانها في الأقوياء لمعوان على المجد والطموح.

فربما أقدموا على القتال وهم يحسبون أنهم مقدمون على مباراة في حلقة صراع . ينظرون عدوهم حتى يصل اليهم كما ينظر المصارع نده حتى يأخذ بعضديه في أمان.

ففي وقعة الجسر أقبل بهمن جاذويه ومعه رايه الفرس الكبرى من جلود النمور طولها عشر أذرع وعرضها ثمان ، وبين يديه جيش يربو على جيش المسلمين مرات . فأرسل الى أبي عبيد قائد المسلمين يقول له : اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور واما أن تخلوا بيننا وبينه . فتعجل أبو عبيد وعبر النهر على جسر نصبوه ، والفرس ينتظرون .

مثل هذه المراسم جهل بحقيقة الحال ، وحقيقته أنه صراع حياة وموت بين أمتين ، وليس بحلبة سباق أو حلقة رهان بين لاعبين في ملهاة .

* * *

أما دولة الرومان الشرقية فقد كانت في حال لا تفضل حال جارتها وعدوتها في محنة العقيدة ومحنة النزاع على الملك والولاية .

ضرب المثل بالجدل البيزنطي في التاريخ القديم والحديث من جراء الخلاف على المذاهب الدينية في الدولة الرومانية الشرقية ، وكان معظم أبناء الولايات من النساطرة واليعاقبة يخالفون مذهب الدولة الرسمى ويمقتون رجاله ويرمونهم بالهرطقة والوثنية ، وكان القائلون منهم بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أقرب الى الاسلام منهم الى المسيحية .

وابتذل عرش الملك بالقتل والاغتصاب فضعف الولاء له في نفوس العلية وقواد الجيوش . وقد استقر الأمر زمنا للقيصر هرقل الذي حضر عهد النبي عليه السلام

ولكنه شقي بالفتن في أخريات عهده وركبته الوساوس في شيخوخته ولا سيما بعد بنائه ببنت أخته ، فاعتقد أنه مغضوب عليه مستحق لعقاب السماء .

ومن كان من الرعية ذا دين غير المسيحية فهو ساخط ناقم كاليهود والوثنيين ... لأن رؤساء الكنيسة والدولة اتهموهم غير مرة بالتواطؤ على فتح البلاد مع المغيرين عليها من الفرس والبرابرة ، فأثخنوا فيهم قتلا وتشريدا حتى قيل انهم كانوا يفتكون في المذبحة الواحدة بعشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال .

وعاشت في ظل الدولة الرومانية قبائل غسان وجذام وكلب وتنوخ وغيرها من قبائل العرب فكانت تعينها وتستعين بها على منافساتها من قبائل المناذرة في الحيرة . ولكن غلبة الفرس تارة وغلبة الروم تارة أخرى على تلك البقاع ضيع الثقة بالدولتين ، وهيأ نفوس العرب لقبول دعوة جديدة ولا سيما الدعوة التي تأتيهم من أبناء جنسهم في الجزيرة العربية وبها اعتزازهم على العجم كافة من فرس وروم . واتفق في تلك الفترة انقطاع الهبات التي كان رؤساء العشائر يتلقونها من قياصرة الدولة وولاتها فبرموا بها وودوا لو انقلبوا عليها ساعة يأمنون كيدها ويوثقون الصلة بينهم وبين خصومها .

ويؤخذ من رسالة فجيتيوس Vegetius في علم الحرب أن نظام الجيش الروماني في الغرب والشرق كان قد تعاوره الخلل قبل ظهور الدعوة المحمدية بأكثر من قرنين . ففي هذه الرسالة يقول فجيتيوس الذي يعدونه امام أساتذة الحرب بين الغربيين أن « اللجيون » قد وهن واضمحل ويذكر من أسباب وهنه واضمحلاله أن مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحاباة والصنيعة بعد أن كانت وقفا على الكفاية والخدمة الطويلة ، وان عامة جنوده يهربون منه ويؤثرون الخدمة في الفرق المتطوعة لأنهم يستثقلون تمريناته وأسلحته ويستقلون جزاءه ويضيقون ذرعا بوطأة نظامه .

وقد أتيحت للرعية في الشام والبلقان فرصة حسنة للمقارنة بين حكم العرب وحكم الرومان قبل الوقائع الفاصلة التي دارت فيها الدائرة على الجيوش الرومانية . فقد كان رجال الجيش الروماني يهبطون المدينة فينهبون بيوتها وغلاتها ويستبيحون أعراضها ويهتكون حرماتها ويسكرون ويعربدون فلا يأمنهم أحد مطموع في ماله أو غير مطموع منه في شيء على الاطلاق ، وانما هي العربدة والضراوة والاستخفاف.

ثم جاءهم قوم لا يعتدون على عرض ولا يقربون الخمر ولا يعفون عمن يقربها منهم ولوكان من عليتهم ، ويقيمون في المدينة ثم يرحلون عنها فيردون الجزية الى أهلها لأنهم انما أخذوها لحمايتهم وحمايتها . فكانت المقابلة بين الحكمين مدعاة الى التراخي في الدفاع عن الحكم القديم وتمني الغلبة للحكم الجديد . وقد تتجاوز ذلك الى المساعدة الظاهرة كما حدث من بعض العرب المسيحيين والوثنيين على السواء .

* * *

بل ربما تجاوزت كل هذا الى ازعاج ثقة القادة بأنفسهم عند المقابلة بينهم وبين قادة خصومهم . فمما يروى في هذا المعنى وهوكثير أن أخا القيصر وقائده سأل رجلا من قضاعة عن شأن المسلمين بعد ما أقام بينهم أياما فقال له : « هم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رجموه اقامة للحد . فقال القائد : لئن كنت صادقا لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها » .

ولما بدأت المعارك بين العرب والدولتين كان العرب ربما أخطأوا فلم يضربوا ضربتهم في موضعها فيتسع لهم الوقت لاصلاح الخطأ والرجوع الى الخليفة لطلب النجدة والمشورة ، لأن أعداءهم مشغولون أبداً بنزاع أو فتنة أو ريبة . أما الروم والفرس فلم يكن لهم متسع لاصلاح خطأ يخطئونه وكثيراً ما كانوا يخطئون . فبدأت المعارك بين الفريقين وعند أحدهما كل مظاهر الأسباب التي تدعو الى النصر وعند الآخر كل حقائق الأسباب التي تدعو اليه .

وقد اتفقت كلمة الصحابة على حرب فارس والروم وسيف الله بوادي الوبر في اليمامة لم يطل استقراره في غمده بعد وقعة عقرباء .

وهناك حلقات من الحوادث تسوغ لنا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتدادا للوقعة الأولى بذي قار ، أو استئنافا لتلك الوقعة بعد فترة لا تحسب طويلة في تواريخ النزاع بين الأمم ، وهي نيف وعشرون سنة .

فالقبائل التي ارتدت بالبحرين وقبائل تغلب التي انحدرت مع سجاح من الجزيرة كانت كلها من أتباع الدولة الفارسية على صورة من صور التبعية في ذلك

الزمان ، وكانت تعيش كلها في ظل تلك الدولة من أيام المناذرة الى زوال ملكهم بعد وقعة ذي قار .

والبطلان اللذان تعودا ضرب الفرس والاغارة على دهاقينهم في تلك الأصقاع كانا من بني بكر الذين نهضوا بالعبء الأكبر في وقعة ذي قار ، وما برح العداء بينهم وبين الفرس والقبائل التي تواليهم على أشد ما يكون : وهما المثنى بن حارثة الشيباني وسويد بن قطبة العجلي . وكلاهما على ذكر من هزيمة الفرس وعلى خبرة بقتالهم في أطراف العراق . وقد صحب المثنى النهر في غاراته حتى بلغ القطيف وهجر ولم يقف له أحد في طريقه . فهذا مع عجز الفرس عن تأديب رعاياهم في اليمن لدخولهم في الاسلام قضيا على تردد الخليفة في أمر البعثة الفارسية ، فصحت عزيمته وعزيمة أصحابه على تجريدها بعد الفراغ من حروب الردة بأسابيع معدودات .

* * *

وقد علمنا من دأب الخليفة الصديق أنه كان لا يبرم أمرا الا أحكم تدبيره في مرحلة مرحلة من طريقه الى منتهاه .

وهكذا كان شأنه في البعثة الفارسية : فانه ندب لها قائدين هما خالد بن الوليد ، وعياض بن غنم ، وأمر خالداً أن يتجه الى الابلة ثغر الهند كما سماها ، وأمر عياضا أن يتجه الى المصيخ بشمال العراق . فأيهما بلغ الحيرة قبل الآخر كان هو قائد الجيشين معا ووجبت طاعته على زميله . وقال لهما : « اذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس أمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردءا للمسلمين ولصاحبه وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم » .

خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى في وقت واحد . ففيها اذكاء المنافسة بين القائدين ، وفيها تشتيت جهود الفرس في الدفاع عن بلادهم ، وفيها تدبير النجدة سلفا لمن يحتاج اليها من الجيشين ، وفيها تيسير أمر الماء والكلأ في الطريق للجيشين معا ، لأن أمواه الطريق ومراعيه تضيق بالجيشين المجتمعين اذا سارا في طريق واحد .

وكان الصديق واخوانه يعلمون أن المسألة في هذه الحرب مسألة يقين وعزيمة وليست مسألة كثرة وهيئة .

فحرص لهذا على أن يجنب الجيوش الاسلامية مخاوف المرتدين ونكساتهم ، وأوصى القائدين ألا يقبلا أحداً منهم ، وألا يكرها أحداً من غير المرتدين على المسير في جيشهما ما لم يقبل على الحرب برضى منه ورغبة . ولما نظر خالد الى من حوله يرفض كثيرهم ويبقي قليلهم كتب الى الخليفة يستمده فأمده بفارس واحد هو القعقاع بن عمرو التميمى .. فعجب أصحابه وقالوا له : أتمده برجل واحد ؟.. قال : نعم !.. لا يهزم جيش فيهم مثل هذا !

ولم تمض أيام حتى ظهر للمسلمين أنه مدد كاف وأي كفاية . فان ثقة الناس بجيش يكون القعقاع فيه ويتولى قيادته خالد بن الوليد قد جاءت بالمتطوعين للقتال من كل صوب وحدب. فبلغ جيش خالد يوم شارف ميدان القتال قرابة عشرة آلاف عدا جيش المثنى بن حارثة وهو يبلغ ثمانيه آلاف . ولم يتقدم المسلمون خطوة في ميدان القتال حتى كانت للقعقاع وقفة لعلها أنقذت الجيش كله وأنقذت البعثة كلها من بدايتها ، ولم يكن أحد ليعلم ماذا تكون العاقبة لولا تلك الوقفة التي تعلق بها الكثير من مصير جيش الفرس ومصير جيش المسلمين .

ففي الوقعة الأولى دعا القائد الفارسي – هُرمُز – خالدا للمبارزة قبل التحام الجيشين ، وأضمر نية الغدر به حين يخرج منفرداً بين الصفين ، فوكل به شرذمة من فرسانه ينقضون عليه وهو مشغول بمبارزته فيراع الجيش العربي بمقتل قائده كما سبق الى وهمه ، ويطبق الجيش الفارسي بعدده الكبير على الجيش العربي بعدده القليل فتكون الغلبة لأكبر الجيشين وأكمل العدتين .

وأوشكت هذه المكيدة أن تتم على النحو الذي دبره هرمز لولا أنه أخطأ الحساب في اغتراره بقوته وجهله بصولة خالد في مبارزته . فظن أن الجولة بينهما تطول قبل أن يخرج فرسانه للغدر بخالد ، ولكنه صرع في جولة واحدة وفوجىء أصحابه بهذه السرعة فاقتربوا من خالد على عجل وهو مشغول بالاجهاز على قائدهم ،

واذا بالقعقاع أسرع اليهم من لمح البصر ومن ورائه جيش المسلمين بجملته يضرب في قطيع مذعور مأخوذ بالمفاجأة ومهابة هذه الصولة العاجلة . فكانت وقعة اليوم وقعة رجلين في جولة واحدة ، تلتها الجولات اللاحقات التي ترسمت خطاها وسارت على هداها .

* * *

سار خالد الى العراق في أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية . وأتم في سنة واحدة ما أعيا الرومان أن يتموه في أجيال .

وقد تكتب في شرح وقعاته بالعراق مجلدات طوال يستغرق بحثها ومعارضة رواياتها مئات الصفحات ، ولكننا لا نتوسع في ذلك الشرح هنا لأن أعمال خالد تعنينا في هذا الكتاب لمقصد واحد ، وهو الرجوع بها الى مصدرها من نفسه وعقله ومقومات شخصه .

وفي هذا حسبنا أن نقول على الاجمال قبل الاشارة الى وقعاته انه لقي الفرس وأولياءهم في خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخطىء ولم يفشل قط في واحدة منها ، وأن قواداً من المسلمين أخطأوا في حروب الردة وحروب الفرس والروم كما حدث من عكرمة وشرحبيل وأبي عبيد وخالد بن سعيد ، ولكن خالداً لم يخطىء قط عن خدعة أو عجلة أو قلة أهبة ، وكان يسير بجيشه أبدا على تعبئة كاملة ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئا أو غير مفاجيء ، وكان أبدا كما وصفه عمرو بن العاص : « في أناة القطاة ووثبة الأسد » فلا يهمل الحيطة ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة ، ولا يعز عليه أن يتحامى لقاء عدوه في بعض الساحات لينتقل به الى المكان الذي هو أصلح لحركاته وأعون له عليه . ومن علمه بفنون القتال أنه كان يحارب بثمانية عشر ألفا وكأنه كان يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء . فاذا أرسل أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف الى مكان يغنون فيه ، فذاك أجدى من تسيير الجيش كله أو تسيير عدد منه يربو على الحاجة الضرورية ، فان طرأ في خلال مسيره ما ليس في الحسبان فعوله في الحالة على سرعة خاطفة كسرعة الباشق وهو ينقض على فريسته ، فلا تشعر الفرقة التي أشخصها الى مكانها بالحاجة اليه حتى يكون

معها كأنها لم تفارقه ولم يفارقها .

فهي شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة ومعرفة بما هو لازم في وقت لزومه ، ولم تخذله خصلة من هذه الخصال قط في ساحات فارس ولا في ساحات الشام مع اختلاف الميادين واختلاف الأحوال واختلاف الأعداء .

وقد كانت تعبئة خالد في المسير تشبه التعبئة التي جرى عليها العرف في أيامه . وهي قسمة الجيش الى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة تسبقه ، ورِدء يلحق به ليحمي ظهره أو يلبث في موضع من المواضع كمينا ينزل الى الساحة على غير انتظار ، لتقوى به سواعد أصحابه وتنخذل به عزائم أعدائه . ولكنه كان عند القتال يفتن باتخاذ طريقة الهجوم أو الدفاع كما توحي بها ضرورة الساعة . فيقاتل بالصفوف كما يقاتل بالكراديس ، ويواجه خصمه أو يدور عليه . ويتراجع أمامه أو يمعن في الهجوم على كبة جمعه ، ويحصره أو يخلي له سبيل الهرب . حسبما تدور به المعركة في أثنائها أو توحي به طوالعها قبل ابتدائها .

فلما عقدت له القيادة على البعثة الفارسية أرسل جيشه على فرق ثلاث من طرائق مختلفة ، فقدم المثنى على رأس فرقة ثم ألحق به عديَّ بن حاتم صاحبه في حرب بني أسد ، ثم لحق بهم على رأس جيشه وواعدهم موضعا الى الجنوب الغربي من البصرة الآن ، ولعله توخى تسهيل السقي والمرعى بهذا التقسيم . ثم اختبار الطريق بقيادة الرجل الذي كانت له سابقة الدراية بهذه الدروب .

وكتب الى هرمز قائد الفرس يخيره بين الاسلام والجزية أو الحرب . ويقول له في ختام كتابه الوجيز : « جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »

ثم عدل الى كاظمة بعد أن كان موعده الأول « الحفير » لأنها كانت على ما يظهر أوفق لتعبئة جيشه .

وهناك التقى بجيوش الفرس – وعلى رأسهم هرمز – فوقعت بينهم الوقعة التي سبقت الاشارة اليها وتعرف باسم ذات السلاسل . لأن الفرس كانوا يوثقون أنفسهم فيها بالسلاسل جماعات جماعات ليثبتوا في القتال ولا يتأتى لهم الفرار ان أرادوه .

ولئن صح هذا لقد كانت مخاوف الشك فيه أظهر من صدق العزيمة والطمأنينة الى النية القوية .

ولما تبدد جيش هرمز تعقبه المثنى بن حارثة وعبر الفرات ليأخذه متفرقا قبل أن تتجمع فلوله حيث تأمن احتثات الملاحقة وراءها ، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمز وتفرق جيشه أنهم مهددون في « المدائن » عاصمة ملكهم فحشدوا لملاقاة المسلمين جيشا عظيما بقيادة قارن بن قريانس يعاونه أميران من بيت أردشير . فأدرك فلول هرمز في « المذار » وضمهم اليه ، وكان المثنى قد علم بخروج هذا الجيش العظيم واجتماع الفلول المتفرقة اليه فكتب الى خالد يستأمره ويستمده . فكان خالد هو الجواب .

ووصل خالد الى المذار وهو كامل التعبئة فتصدى قارن لمبارزته على عادتهم قبل بداية القتال ، فنهض اليه خالد ومعقل بن الأعشى يستبقان ، وأراد معقل أن يحمي خالدًا من مثل مكيدة هرمز فيتلقى الضربة دونه أو يسبقه الى قتل قارن . وبرز عديٌّ ابن حاتم وعاصم بن عمر لمنازلة الأميرين ، فظفروا بهم جميعا ثم اشتبك الفريقان في ملحمة حاربوا فيها كما قال المؤرخون حرب حنق وضغينة . وبلغ بعضهم بعدد القتلى من الفرس ثلاثين ألفا ، ولولا النهر ولياذ الفرس بالسفن لكانت المقتلة أعظم من ذاك ولم يكد يفلت من الموت أحد .

* * *

ورانت الحيرة بعد وقعة المذار على عقول القادة من الفرس . فخيل اليهم أن في هؤلاء العرب سرا لا يدركونه ، وأحبوا أن يحاربوا آفتهم بآفة من جنسها ، فاستعانوا بأوليائهم من أبناء القبائل العربية فيما بين النهرين . واشترك هؤلاء في كثير من الوقائع التي دارت بين الفرس والمسلمين بعد وقعة المذار ، وضايقوا المسلمين غير قليل في الوقعتين التاليتين بالولجة وأليس .

وكان خالد كعادته في الحيطة والمبادرة ، فاستبقى طائفة من جيشه في البلاد التي فتحها حماية لظهره واستعدادا لمن يجترىء عليها بعد مسيره وتقدم الى الولجة

على تعبئة كاملة بمن معه جميعا ، ثم فصل طائفتين من الجيش أثناء الطريق ليكمنا على مقربة من الولجة ويلتفا في ساعة الحرج بالجيش الفارسي من ورائه . فطالت المدافعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكمينان . وتردد النصر بين الفرس والمسلمين تارة هنا وتارة هناك حتى ظن الفرس أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى . ثم ظهر أحد الكمينين وظهر الكمين الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الأول . فتولاهم اعياء اليأس بعد اعياء المصابرة والمجاهدة . وولوا مدبرين وهم يتخففون من السلاح والعتاد في مهربهم ... فكثر منهم القتلى والأسرى كما كثر نصيب المسلمين من الغنائم والأسلاب .

وجاءت بعد وقعة الولجة وقعة « أليس » وهي أعجب الوقائع في حرب العراق بما اتفق فيها من صنوف الحيلة وصروف المقادير ومعارض النقمة وعواقب الرجاء مع الغالب وعواقب اليأس والقنوط مع المغلوب ، ولعلها هي الوقعة الحاسمة في النزاع بين المجوسية والاسلام .

راع الشاهنشاه تلاحق الهزائم على جيوشه ، وغاظ العرب الموالين له أن يؤخذوا في حماهم ، وأنفوا أن يهانوا ولا يراهم الناس كفاء لتلك القبائل الواغلة عليهم . فتلاقوا في الرقعة الوسطى بين ديارهم جميعا وهي أليس ، وانتظروا هناك جحافل من الفرس وعَدُّوهُم أن تربى في العدد والعدة على كل جيش نزلوا به الى الميدان في المعارك الماضية .

وهنا تتراءى في الموقف أصبع المقادير ..

فان « بهمن جاذويه » قائد الفرس الذي أمره الشاهنشاه بالمسير الى أليس أناب عنه قائداً آخر يدعى جابان وشخص هو الى المدائن ليلقى مولاه ويقلب معه الأمر على وجوهه في مسائل شتى لا تغني فيها المراسلة غناء الحديث والمشاهدة . وليأتي من المدائن بمدد آخر يضاف الى جيشه الأول والى جموع القبائل العربية عند الفرات . وقال لجابان وهو يودعه . « كفكف نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك . الا أن يعجلوك » .

وبلغ المدائن فاذا مولاه مريض يجود بنفسه ، وليس نظام الوراثة على عرش فارس في ذلك الحين من الوضوح والاستقرار بحيث يطمأن اليه اذا مات الملك والجيش بعيد والمتربصون كثر والشيع في البلاد أكثر من المتربصين .

فبقي « بهمن » في المدائن ، ووصل جابان الى « أليس » قبل أن يصل اليها خالد فألقى أثقاله وأمر بتهيئة الطعام . ووصل خالد وهم مقبلون على طعامهم لا ينتظرون وصوله . فلبثوا على طعامهم لأنهم أمروا من جهة ألا يعجلوا الى القتال حتى يوافيهم قائدهم الكبير ، ولأنهم من جهة أخرى لم يحسبوا أن خالداً يلقي أثقاله وهو على تعبئة كاملة مستعد للنزال في كل لحظة . ولأنهم على ما يظهر كانوا يواجهون القتال أبداً كأنهم يواجهون ساحات الصوالج والأكر أو ساحات المباراة في « الألعاب الرياضة » : انما تبدأ فيها المباراة باتفاق الطرفين .

ولكن خالداً ضرب ضربته الأولى في الجموع العربية فقتل قائدها وأثخن القتل في صفوفها ، وثار الفرس الى السلاح مكرهين لئلا يمهلوا خالداً حتى يفرغ من الجموع العربية ويتحول اليهم بين لحظة وأخرى .

فثبتت الجموع العربية حين أسعفتها النجدة ، وثبت الفرس وطال بهم الثبات لعلمهم أنه صبر ساعات ثم يدركهم قائدهم الكبير . وابتلى المسلمون من هؤلاء وهؤلاء ببلاء لم يعهدوه من القوم قبل ذلك اليوم . فاشتد الأمر بخالد وثاب الى الله يستلهم العزم للمسلمين وينذر له الضحايا ان منحه أكتاف أعدائه ، « فلا يستبقي منهم أحداً يقدر عليه حتى يجري نهرهم بدمائهم » . وفي هذا النذر بقية من البدوية المخزومية لا تخفى على اللبيب .

وطال صبر الفرس فنفد.

وتساقطت رءوس العرب الموالين لهم فجزعوا .

ولاحت لخالد لوائح النصر الذي سأله الله ، فلم ينس نذره ونادى الى المسلمين : «الأسر .. الأسر . لا تقتلوا الا من امتنع »... لأنه نذر ليجرين النهر بالدماء ... فليجر اذن بالدماء .

وأمر بضرب أعناق القوم في النهر وقد حبس ماءه . فلم يجر بالدماء ! .. لأن الدماء تترقرق ولا تسيل ولو قتل أهل الأرض كما قال له أصحابه . فأطلق الماء فسال بالدم أحمر قانيا ثلاثة أيام .

* * *

وحُمادى ما يقال في الاعتذار لخالد من هذه النقمة المفردة في تاريخ صدر الاسلام أنها كانت شرعة الحرب في تلك الأيام ، وأنه كان يدين بها أناسا صنعوا بالملل الأخرى مثل ما صنع بهم في هذه المعركة ، وعاملوا أسرى الحرب ومن لم يحاربوهم قط مثل هذه المعاملة في حروبهم مع العرب والدولة الرومانية ، وأن خالداً حسب أن هذه الذبائح قربان الى الله ... ودماء المشركين أشبه القرابين بميادين الحروب ، وهو حسبان يوائم صرامة طبعه ويحيك في صدر رجل الحرب وسليل رجال الحرب منذ أمد بعيد ، وأكبر الظن عندنا أنه لوكان قائد الجيش رجلا ممن طالت صحبتهم للنبي عليه السلام كأبي عبيدة أو سعد بن أبي وقاص أو عمر بن الخطاب لتوسل الى الله بغير هذه الوسيلة حين أزم الموقف وجد الجد في معركة أليس . فقد صفح عمر بن الخطاب عن أسرى السواد وظفر المسلمون بألوف الأسرى في معارك العراق والشام ومصر فسرحوهم وعاملوهم بحكم الأسرى في القرآن الكريم ، وقد اختلف فقهاء المسلمين في جواز قتل الأسرى من غير مشركي العرب ، فلم يجزه من أجازه منهم الا لحسم مادة الفساد ، ان خيف ألا تحسم بغير هذه الذريعة . وقد كانت مادة الفساد في أعقاب الدولة الساسانية خليقة – ولا نكران – بضربة من أمثال هذه الضربات ، فقد أعيت فيها الحيلة من دعوة واقناع ومصابرة ، وكانت النكبة بدوام هذه الدولة أشد على الفرس أنفسهم من نكبة القتلى في تلك المعركة الشعواء ، وهي في غرابة صروفها أدنى أن تحسب من معارك الأقدار ، وتلك هي المعارك التي يراد فيها الغالب والمغلوب على الأمر ، ولا يريدان فيه .

وقديما علمنا من طوارق الحرب والسلم أن الشر المحض والخير المحض في هذه الدنيا عزيزان أو مستحيلان . فهذه النقمة الخالدية جاءت على غير المألوف في حروب صدر الاسلام ، ولكنها عجلت بختام عهد موبوء كان لا بد له من ختام ،

فخلعت القلوب وصكت الركب وزلزلت سلطان الطغاة في بلاد الفرس بل في بلاد الروم ، وكان من جرائها أن الأمصار التي كانت تفزع من حصار خالد لها كانت تلقي بأنفسها في أحضان غيره من قادة المسلمين ، كما أسرع أهل دمشق الى ابن الجراح يلتمسون مصالحته مخافة الفتح عنوة على يد ابن الوليد .

* * *

كانت هذه الوقائع تتوالى يوما بعد يوم وتتوالى معها البُرُد الى المدينة بأخبار النصر وغنائم القتال ، فلا يفرغ الناس من حديث بريد حتى يتبعه ما وراءه بنصر جديد . وسبقت ضربات خالد كل آمال الآملين في سرعة الظفر بدولة الأكاسرة . فقال أبو بكر وهو يبلغ الناس أنباء الظفر ليزفوا بشراها الى الجزيرة العربية : « يا معشر قريش .. عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله ... أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد ؟ » .

ثم سلمت الحيرة – بلد النعمان وموئل نابغة بني ذبيان – فكان لتسليمها صدى بين أبناء العروبة لا يعدله صدى الفتح في بلد من البلدان ، لأنها كانت في عالم الشعر والبلاغة حديثا على كل لسان .

الا أن الخليفة الذي عرفناه رجلا حصيف الجرأة ، جريء الحصافة ، لم ينس اليقين مع الحيطة ولم ينس الحيطة مع اليقين . وأدركه الحذر في هذه المرحلة من مراحل الحرب الفارسية فجنح الى الأناة والتريث وأخذ بعنان خالد فلم يأذن له أن ينطلق وراء الحيرة حتى يوافيه زميله عياض بن غنم ويأمن كلاهما من ورائهما غدرات الطريق . وحجة الخليفة في ذلك أظهر من أن تخفى . فمن تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم في الشام من اليسار . ثم ان السواد نفسه اقليم حديث العهد بالاسلام لم ترسخ فيه قدمه ولا يؤمن تركه والتطوح بعده الى حمى الدولة الفارسية في عواصمها من وراء النهرين ، وقد نما اليه ولا شك أن فلول العرب المهزومين هجروا حوض العراق وأوغلوا في الصحراء الى دومة الجندل يتجمعون ويتربصون ، وفي الشام أراجيف عن تعبئة القيصر لجيوشه لا تغمض عنها العيون قبل أن تستقر الطرق وتتمهد مواطيء الفتوح ، فان لم يخرج عياض بن غنم من

معاقل دومة الجندل بين العراق والشام مالكا زمامها وزمام ما حولها فكل خطر هنالك محتمل ، وكل عجلة قد تجر الى وبال .

ولكن الفرس الكريم الذي يحبس في الحلبة يعاني من أمان الحبس ثقلة لا يعانيها من تعجل العواقب ومكافحة الأخطار. فحز في طبع خالد جذب العنان وأقام في انتظار زميله قرابة عام وهو يسميه سنة نساء . ولوكتب لرجل غيره أن يظفر في هذه السنة المستريحة بمثل ما ظفر به لارتضاه لنفسه سجل عمر كامل ، لأنه خاض ثماني وقائع فيما يليه من البلاد لم يحسبها وقائع تحصى . وله في كل وقعة منها نصر يعتز به قائد فخور.

وقد عرضت لخالد في هذه السنة وما قبلها عوارض شتى تدخل في الحساب أو تأتي من هنا وثم على غير حسبان . فتصرف فيها جميعا تصرف الرجل الذي خلق للتقلب في أجواء الحرب كما خلق السمك للتقلب في الماء ، فلا تفجأه حالة من حالاتها بما يربكه أو يعييه .

البدوي لا عهد له بسفينة غير سفينة الصحراء – وهي الجمل – ولكن خالداً غنم السفن الفارسية بعد وقعة أليس فأركب جيشه فيها ليكفيه ويكفي مطاياه مشقة المسير. فلم تنقله السفن قليلا حتى جف الماء ولصقت بالقاع ، لأن الفرس تسامعوا بمسيره في النهر فأوصدوا قناطر الحيرة وحبسوا الماء عن مجراه ، ولو بدوي غير هذا البدوي فوجىء بهذه الحيلة الحضرية وهذه اللعبة الهندسية لوقع في حيص بيص وترك السفن في قاعها ورجع الى مطاياه ... ولكنه أبى الا أن يبلغ بالسفن الى حيث شاء . فانبعث في نفر من أصحابه كالبزاة الى القناطر وأطلقوا ماءها ولبثوا هنالك في حراستها وفي انتظار السفن التي ارتفعت براكبيها كأنهم يشهدون غريبة من غرائب السحرة تعبث بالسفينة بين بر يابس ونهر غزير.

وحفروا له في الأنبار خندقا ثم احتموا وراء الخندق بحصن ينظرون اليه من أعلاه ، كأنهم يهزأون به ويستعجزونه أن يعبر الخندق وأن يفلح في علاج الحصن اذا وصل اليه . فلم يلبث أمام الخندق كثيراً ولا قليلاً بل أمر لتوه بنحر الابل العجاف وألقى بها في الخندق فسدته ودعا جيشه الى العبور عليها . فأصبح من في الحصن

سجناء في يديه ، وتوسلوا اليه أن يرسلهم في سبيلهم مجردين من السلاح والمتاع ، وهم يحمدون الله على النجاة من يوم كيوم أليس . فأجابهم الى ما طلبوه .

وعلم أن عقة بن عقة يحشد له في عين التمر حشوداً من تغلب واياد وأصحاب المتنبئة سجاح ، ويوهم الفرس أنه ند للعرب لأنه أخبر بهم من غيرهم . فوثب على معقله بالصحراء وهو كدأبه على تعبئة كاملة . وبصر بعقة حين دنا من الموقع فقال لصحبه : اكفونا ما معه فانى حامل عليه بنفسي . ثم احتضنه وحمله أسيراً وهو لا يتوقع أن يؤخذ من أساليب القتال العربي بهذا الأسلوب العجيب في كل قتال . وقد كان خالد يعمد اليه كلما بدا له أن يوجز في الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم ، فيصيب ما أراد ..

وأعطى الدعوة حقها كما أعطى القتال حقه في كل معركة بما تقتضيه وتوحيه اليه.

فكان اذا لقي العرب سألهم مذكيا فيهم نخوة العروبة : « ويحكم أأنتم عرب؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ »

وكان يعين الحمية الدينية في جيوشه بما يغري النفوس من نعيم الدنيا ومتاع الحياة . فأباح الأسلاب من سلبها بالغا ما بلغ قدرها ، وربما قسم للمقاتل الواحد في بعض الوقائع ألف دينار فلا يستكثرها عليه ولا ينتزع منه غنيمة وقعت في يديه . وقال لهم يوماً بعد وقعة المذار : « ألا ترون الى الطعام كرفغ التراب ؟ والله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء الى الله عز وجل ولم يكن الا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والاقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه » .

وأحكم الصلح كما أحكم الحرب فكان عهده مع أهل الحيرة نموذجا للعهود من قبيله ، وكان يصالح المستسلمين صلح من يعني كل حرف يخطه بيمينه فلا يزيد ولا ينقص . قال في عهد أهل الحيرة : « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد .. نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به . عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء على أيديهم في الدنيا ، رهبانهم وقسسهم الا

من كان منهم على غير ذي يد حبيسا عن الدنيا تاركا لها . وعلى المنعة ، وان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم . وان غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة .. وكانت كتابة هذا العهد في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة هجرية » وعلى قدر سطوته الجائحة بمحاربيه ومعانديه كانت رعايته ورفقه بأولئك المظاليم الخالدين من زراع تلك البلاد . فللمرة الأولى في التاريخ من قبل بابل ونينوى رأى فلاحو السواد حاكما يحفظ لهم غلاتهم وينصفهم من دهاقينهم – أو مستغليهم – ويستمع شكاية ضعيفهم من قويهم ويشرع بينهم شرعة المساواة والأمان . وبلغ من رفق الحكم الجديد برعاياه – مسلمين وغير مسلمين – أنه تكفل بالعبد اذا تحرر ، وبالغني اذا افتقر ، وبالعائل اذا انقطع عائلوه . وهذا مثل مما تكفل به الحكم الجديد في كتاب خالد . قال : « اني دعوتهم الى الله والى رسوله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا لا حاجة لنا بحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب في اعطاء الجزية ، واني نظرت في عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل ، فأخرجتهم من العدة ، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف فصالحوني على ستين ألفا وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والانجيل : ألا يحالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، ان أخذه أشد ما أخذه على نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة ، وان خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان ، وان هم حفظوا ذلك ووعوه وأدوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم فان فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق . وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا ، وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أوكان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام ، فان خرجوا الى غير دار الهجرة ودار الاسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم . وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم في غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه الى صاحبه . ولهم كل ما لبسوا من الزي الا زي الحرب .

من غير أن يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ، وأيما رجل منهم وجد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فان جاء منه بمخرج والا عوقب بقدر ما عليه من زي الحرب . وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه الى بيت مال المسلمين ، عما لهم منهم ، فان طلبوا عونا من المسلمين أعينوا به ، ومؤونة القواد من بيت مال المسلمين » .

وقد عزلت هذه الرعاية من جانب وتلك السطوة من جانب آخر عزلا فاصلا بين الرعاة والرعية في السواد وفي الديار الفارسية ، فنظرت الدهماء الى الحرب كأنها حرب على الرعاة وحدهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، فلا هي تعنيهم ولا هم يخشون من عواقبها العاجلة أو الآجلة ، بل هم بهذه العواقب ينعمون واليها يتشوفون .

* * *

وكانت وقعة الفراض آخر أعمال خالد الكبار في العراق وأوفاها دلالة على عجز الدولتين معا ، دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية ، عدا ما فيها من الحوادث التي هي أصلح ما تكون للتفرقة بين مغبة العمل الواحد تأتيه الأمة في عهد اقبالها وتأتيه الأمة في عهد ادبارها . فهو ضربة موت من ناحية وهو من الناحية الأخرى كالضربة التي تشحذ عزيمة المضروب وترد التوازن اليه .

الفراض في أعلى العراق بين مسالح الفرس والروم يوشك هؤلاء وهؤلاء فيها أن يتناظرا متقابلين ، وقد هبط عليها خالد في وثبة من وثباته فتألب عليه هنالك عرب البادية وجيش الروم وكان وشيكا أن يتألب معهم جيش من الفرس لولا ما شغلوا به من أمر العرش ووراثه والمتنازعين عليه . وقال الروم لخالد كما قال الفرس بعد ذلك لأبي عبيد : اما أن تعبروا الينا واما أن نعبر اليكم . فلم يصنع خالد صنيع أبي عبيد بل قال لهم : اعبروا أنتم ان شئتم . وتركهم حتى يعبروا ليحصرهم بينه وبين النهر فلا يهرب منهم هارب ، وأرسل الفرسان والرامحين ليعزلوهم قطيعا قطيعا ويضيقوا عليهم مسالكهم . ثم يحصدوهم حصداً وهم أشبه بالمحكوم عليهم في ساعة التنفيذ منهم بالمقاتلين .

على انه لم يثب على الفراض وثبته تلك حتى كان قد « طهر » جوف الصحراء من جموع الأعراب التي تكوفت الى دومة الجندل وعوقت عندها زميله « عياضا » قرابة عام . فلما ترامت أنباء فتوحه الى عياض كتب اليه يستشيره ويستنجده . فكان هو على عادته أول جواب بعد رجع الخطاب ، وكتب اليه يقول :

لبث قليلا تأتك الجـــلائب يحملن آساداً عليها القاشب [1]

كتائب تتبعها كتائب

وكانت تفصله من دومة الجندل مسيرة أسبوعين فقطعها هو في أقل من عشرة أيام ، ووجد حصن الدومة مكتظا بمن فيه وحوله زرافات ضاق بها الحصن فعسكرت بالعراء ، فجعل القوم جميعا بينه وبين عياض . وتولى عياض حرب من قبله فهزمهم لما جاش في نفسه من نخوة المنافسة وما جاش في نفوسهم من الوجل والحيرة . وتدافع المنهزمون الى الحصن يريدون بابه فسبقهم خالد اليه وانتزعه وحال بين النازلين في الحصن ومن حوله . ثم استبى كل من أصابه من رجال ونساء . ومن هؤلاء السبايا ابنة الجودي بن ربيعة ، استباها خالد لنفسه وقيل انه اشتراها . ثم بنى بها وأقام معها في دومة الجندل أيام مقامه فيها .

وكان أهل الدومة قد عاهدوا المسلمين غير مرة ونكثوا بعهودهم فأمعن القتل فيهم وجعلهم نكالا لغيرهم . ثم قفل الى العراق وهو مطمئن الى غزوة الفراض بأعلى الفرات . فغزاها وفرغ منها كما تقدم . وبقيت له في العراق عزمة خالدية أخرى ولكنها من نوع غير هذا النوع ، فلم يلبث أن قضاها .

بقي على موسم الحج أسبوعان وهو أول حج حان بعد تلك الغزوات المتلاحقات اللاتي أمده الله فيها بنصره وعونه .

أيفوته قضاء الشكر في هذا الموسم وأداء الفريضة في موعدها ؟ ولم ؟ ألخوف من الأعداء ؟ ألعائق من بعد الشقة ووعورة الطريق ؟ ألعذر من الأعذار التي يعتصم

(١) السيف اللامع القاطع .

بها القاعدون عن الحج برخصة من الفقهاء ؟ كل أولئك عوائق لا يستهان بها ولكنها خلقت ليذللها لا لينكص عنها . ففي خطفة الريح العاصفة خرج من أعلى العراق الى أقصى الحجاز وأدى الفريضة وعاد الى معسكره دون أن يعلم أحد من الأعداء ولا من المسلمين الا أقرب خاصته المقربين ، بل دون أن يعلم الخليفة نفسه وقد كان على الحج في ذلك العام .

ويروق بعض المؤرخين أن يحسب هذه العزمة الخالدية من مغامراته التي تنم على فرط الثقة بنفسه ولا تنم على شيء غير ذلك ، ولكنها في الواقع دلت على ثقته بغيره كما دلت على ثقته بنفسه . فقد علم أن معه بالجيش من فيه غنى وكفاية اذا جد في غيبته طارق داهم أو خطب حازب . وكفى بالمثنى رائده المقدام ، وبالقعقاع صاحبه القديم وموضع ثقته الحميم .

* * *

علم الخليفة بمغامرته هذه فجاءه منه ملام ، واعجاب ، وتكليف ، ووصاة : أمره بحرب الدولة الرومانية بعد هذا الفوز الذي أصابه في حروب الدولة الفارسية . وأن يسارع الى مرضاة الله وقتال أعداء الله ، ويكون كمن يجاهد في الله حق جهاده .

وقال له : « سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا وأشجوا . واياك أن تعود الى مثل ما فعلت ، فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك . ولن ينزع الشجى من الناس نزعك . فليهنك أبا سليمان النية والحظوة . فأتمم يتمم الله لك . ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، واياك أن تدل بعمل فان الله له المن وهو ولي الجزاء ».

وكتب الى أبي عبيدة في الشام يخبره بمقدم خالد اليه . ويقول له في كلام صريح : « سلام الله عليك . أما بعد .. فقد وليت خالداً قتال العدو في الشام . فلا تخالفه واسمع له وأطع . فانى لم أبعثه عليك ألا تكون عندي خيراً منه . ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك خيراً والسلام » .

فأرسل خالد الى أبي عبيدة رسولا يبلغه قبل مقدمه بكتاب يقول فيه : « أتاني

كتاب خليفة الله يأمرني بالسير الى الشام ، وبالقيام على جندها والتولي لأمرها . والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته اذ وليته . فأنت على جالك الذي كنت عليه لا نعصيك ولا نخالفك . ولا نقطع دونك أمراً . فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغني عن رأيك » .

* * *

وأول خاطر سبق الى ظن خالد حين حوله الخليفة من حرب فارس الى حرب الروم انه عمل من أعمال « الأعيسر » كما يسميه ويعني به عمر بن الخطاب ، وانه نفس عليه أن ينفرد بفتح فارس فأرسله الى ميدان له فيه شركاء من أعلام الصحابة ذوي الخطر والسابقة الملحوظة بين المسلمين .

وهو ظن بعيد يخطر على بال خالد لأنه يتوقع شيئا من صوب عمر ولكنه لا يخطر على بال غيره . اذ لا ينفس عمر على خالد أن ينفرد بغلبة الفرس ثم يرسله ليغلب الروم بعد أن تأخر الفتح على أيدي كبار القواد من أجلاء الصحابة . فهذا مزيد من الفخر يتطاول اليه المتطاول وليس بنقص منه يتعمده لخالد من يأباه عليه . وانما اختار الخليفة خالداً لأن العراق كانت في هدأة من جانب الفرس بعد هزائمهم الكثيرة ، وكان في جيش المسلمين وقواده بالعراق كفاية للمثابرة على الفتح بعد أن تم التدويخ والتمهيد ، ولأن خالداً كان أقرب مدد الى الشام ولم يكن بالحجاز بقية من قوة فاضلة تضاف الى قواتهم في حرب الرومان . فاختاره الخليفة وهو يقول : « لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وليس من عادة خالد أن يضيع وقتا قل أوكثر اذا نيط به أمر من الأمور . فلما ندب للجهاد بالشام نظر فاذا بينه وبين الشام يومئذ من خمسمائة الى ستمائة ميل على حسب الطرق التي يسلكها ، وهي أربع يختار منها أصلحها لانجاز العمل الذي وكل اليه .

من هذه الطرق الأربع ما هو سهل موفور الماء والكلأ ولكنه من أجل هذا موفور الحراس والسكان ، فهم يعوقونه بالمقاومة عن الاسراع المطلوب دون أن تكون للغلبة عليهم فائدة تذكر في القتال الحاسم بين المسلمين والرومان .

ومنها ما هو قليل الحراس والسكان وفيه الماء والكلأ ولكنه بعيد يطول السير فيه .

ومنها ما هو وعر قليل الماء والكلأ مخيف غير مطروق ، أو كما قال الدليل الذي سأله خالد : « انك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال . والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه . وما يسلكها الا مغرور . انها لخمس ليال جياد لا تصاب فيها ماء مع مضلتها .. »

وأيسر شيء على القارىء الذي عرف خالدا أن يعلم أي هذه الطرق يسلكه خالد . فما هو بسالك حيث سلك الا الطريق الذي هو أحوج الى قدرة القائد وأدل على العزمة والمضاء وأبعدها جميعا أن يتوقع العدو هجوما منه فأجمع عزمه على طريق من الطرق الأربع هو أصعبها وأقصرها ، وهو الذي خوفه الأدلاء منه ، وقال لدليله الأكبر رافع بن عميرة الطائي — ولا أحد يغني غناءه في السير بتلك المفازة المهلكة وان كان يومئذ من حسر النظر كالمكفوف الضرير .

« ويحك انـه والله ان لي بـد من ذلك » « ... ان القوة تأتي على قدر النية ، وان المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله » .

ويروي الرواة أن الدليل قال لهم بعد ذلك : أكثروا من الماء . من استطاع منكم أن يصر اذن ناقته على ماء فليفعل ، فانها المهالك الا ما دفع الله .

ثم قال لخالد : ابغني عشرين جزوراً عظاما سمانا مسان فأتاه بهن فظمأهن حتى اذا أجهدن عطشا أوردهن فشربن ، حتى اذا تملأن عمد اليهن فقطع مشافرهن ثم كعمهن لئلا يجترزن .

وأشار على خالد أن يقتط أربعا من هذه الجزور كلما نزل منزلا ليسقي الخيل ، وأن يشرب الجند مما حملوا من الماء . ففعلوا ما أشار به حتى كان آخر يوم في المفازة . فقال له خالد : ويحك يا رافع ما عندك ؟ فأرسل رافع جماعة ينظرون شجيرة من عوسج في موضع كان يعهدها فيه ويعهد فيه الماء على مقربة منها . فلم يجدوها . فصاح الرجل بالويل واسترجع قائلا : هلكتم والله اذن وهلكت لا أبالكم . أنظروا أنظروا » فلما نظروا وأمعنوا النظر رأوا جذراً قد بقي منها وقطع سائرها . فكبروا

فرحا وشكراً وحفروا في أصلها فنبع لهم الماء ، فشربوا ونجوا من هذا الخطر الأليم الذي دونه كل خطر من لقاء الأعداء .

وفي ذلك يقول أبو أحيحة القرشي :

لله عينـــا رافع أنَّى اهتـــدى
في مهمه مشـــتبه الى ســـوى
والعـــين منه قـــد تغشَّاهـــا الردى
معصــــوبة كأنهـــا ملأى ثرى
فهو يرى بقلبـــــه ما لا يرى
من الصوى تترى له بعد الصوى
فـــوز من قـــراقـــر الى ســـوى
والسير زعـــزاع فمـــا فيـــه ونى
خمس اذا ما سارها الجيش بكى
في اليـــوم يومين رواحـــا وسُرى
ما سارهـــا من قبـــله انس يرى
هذا لعمـــري رافعٌ هو الهـــدى

وسواء صحت رواية الجزور المظمأة أوكان فيها شيء من توسع الخيال فالطريق الذي سلكه خالد معروف ، والقدرة عليه هي موضع العبرة والتأمل في هذا المقام . أما نحن فالذي نراه أن خالداً لم يكن لينتظر حتى تظمأ الابل وهي لا تجهد من الظمأ الا في أيام ، وأن الابل لا تخزن الماء في جوفها وان لم تجتره دون أن ينصرف منها ، وان عشرين جزوراً تمتلىء كروشها بالماء لا تسقي الخيلَ في الجيش كله وعدته عشرة آلاف . فلا بد من تدبير آخر مع هذا التدبير تجتمع فيه السرعة الى التخفيف الى الاقدام .

والأمر الذي لا شك فيه بعد هذا كله أن خالداً سار بجيشه – وعدته عشرة آلاف – من عين التمر الى قراقر ، ثم قراقر الى سوى وبينهما تلك المفازة المهلكة ، ثم الى تدمر فالغوطة فبصرى ، فقطع هذه المسافة في ثمانية عشر يوما لأنه كما قال

الشاعر كان يطوي مسافة اليومين في يوم واحد .

« في اليوم يومين رواحا وسرى .. »

خرج من الحيرة في أوائل صفر من سنة ثلاث وعشر للهجرة ، وطوى تلك المسافة في تلك الأيام بعد أن قمع كل مقاومة لقيها من المسالح والحصون وراء المفازة الخاوية من كل ديَّار .

* * *

واتفق خروجه من الحيرة وجيوش المسلمين في الشام تشرع في خطة جديدة للتراجع الى الجنوب وملاقاة الجيوش الرومانية الجرارة في جمع واحد ينهض لها ويحول دون الاحداق بكل جيش منها على انفراد .

وكان الخليفة قد سيرها – بعيد منتصف السنة الثانية عشرة للهجرة – مع أربعة من كبار القواد في طرق مختلفة الى وجهات متعددة .

فسير يزيد بن أبي سفيان على رأس ستة آلاف أو سبعة آلاف الى دمشق ، وسير شرحبيل بن حسنة على مثل هذا العدد الى الأردن ، وسير عمرو بن العاص على رأس جيش يزيد على ذلك قليلا الى فلسطين ، وسير أبا عبيدة بن الجراح على رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف الى الجابية ، وأمدهم بعكرمة بن أبي جهل في جيش صغير ليحمي ظهور من يحتاج منهم الى الحماية ويسرع بالنجدة الى من يطلب منهم المعونة .

ولا نعلم على التحقيق حكمة التفرقة بين هذه الجيوش في طرائقها ووجهاتها ، ولكنها على ما يظهر مسألة الماء والكلأ من جهة ، ثم رغبة الخليفة في تشتيت جموع الروم وتوزيع أغراضها ، ولا يخلو الأمر من الحيطة لمنع الالتفاف بالجيش الواحد اذا أوغل في البلاد كما حدث قبيل ذلك لجيش خالد بن سعيد ، فان الجيوش الأربعة يكون كل منها مدداً لصاحبه ومانعا للالتفاف به أو منقذاً له من الالتفاف اذا وقع فجأة . وهذا مع علم الخليفة يومئذ بتفوق الحاميات الرومانية في مواقع البلاد الداخلية ، اذ كان الرومان على ما يظهر قد اطمأنوا من جانب الفرس بعد انتصارهم عليهم ،

واطمأنوا من جانب العرب بعد رجوع حملاتهم الثلاث على النحو المعروف . وهي حملات مؤتة وتبوك وجيش أسامة ، وزادهم اطمئنانا أنهم غلبوا الحملة الرابعة وهي حملة خالد بن سعيد ، وأنهم عرفوا اشتغال العرب بحرب الفرس فوقع في روعهم أن العرب أضعف من أن يشغلوا أنفسهم بحرب دولتين عظيمتين في وقت واحد . فمن هنا خلت ربوع الشام من جيش كبير للرومان ، وعلم الخليفة ذلك فاعتقد أن تفرقة الجيوش في زحفها الى الشام أقرب الى توزيع العمل والاسراع فيه ، فان تغير الموقف وعمد الرومان الى حشد الحشود الكبيرة فقد أوصى القادة بالتشاور والتعاون في مقابلة هذه الطوارىء ، كما أوصاهم بالرجوع اليه .

وقد نجحت هذه الجيوش في وجهاتها وتقدم بعضها الى دمشق وبعضها الى حمص وأوغل بعضها الى فلسطين .

ثم نما اليهم أن القيصر يستعد لهم بجيش كبير في انطاكية وجيش آخر في جوار بيت المقدس ، وبلغت عدة الجيش الأول على تقدير بعض المؤرخين مائتين وأربعين ألفا ، وعدة الجيش الثاني سبعين ألفا أو نحو ذلك ، ولو نزلنا بعدة الجيشين الى النصف حسبانا للمبالغة وجهل الحقيقة لما كان نصف هذا العدد بالشيء القليل ، لأنه يربى على ثلاثة أضعاف الجيش العربي كله بعد قدوم جيش خالد اليه ، ولم يرتفع به أحد الى ما فوق الخمسين ألفا على أعظم تقدير .

فتشاور القواد فيما يصنعون ، فاستقر رأيهم على التراجع الى الجنوب ليتجمعوا قبل أن يتلاقى الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم وهم متباعدون متفرقون كل منهم في بضعة آلاف .

ولعلهم يصبحون في تراجعهم أقرب الى الأمن اذا حاربوا وظهورهم الى الصحراء ، وقد علموا بالأمثلة الكثيرة أن الجيوش الرومانية تحجم عند حدودها ولا تجسر على خوضها في أعقاب جيش كبير أو صغير .

والمؤرخون مختلفون فيمن هو صاحب المشورة الأولى بالتراجع الى الجنوب ، فمنهم من يقول انه أبو سفيان بن حرب ومنهم من يقول انه عمرو بن العاص . وهذا

القول الأخير أدنى الى الواقع لأن عمراً كان يتراجع في الجنوب قبل أن تصل الجيوش الأخرى اليه ، وكان من الموافق لخططه أن توافيه الأمداد في ميدانه بفلسطين .

وأيا كان صاحب الرأي الأول في هذا فقد تم التراجع باقرار الخليفة وكان شعوره بحرج المسلمين في أماكنهم هو الباعث له أن يستدعي خالداً من العراق الى الشام . فكتب لقواده بالشام يقول : « اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فانكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره . ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وانما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف اذا أتوا من تلقاء الذنوب . فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه » .

ومن المتعذر جداً تمحيص التواريخ في ترتيب الوقائع بعد وصول خالد الى الشام . ولكن الأرجح فيما نرى أن المعركة الأولى بدأت مع الجيش الأصغر في « أجنادين » بالجنوب . لأن البدء بأصغر القوتين واخلاء الجنوب قبل الانتقال الى الشمال أولى وأوفق من ترك هذا الجيش الأصغر وراء ظهور المسلمين ومواجهتهم الجيش الأكبر بين عدوين . ولأن معركة أجنادين لم يشترك فيها معظم القواد المسلمين ، مما يرجح أنها وقعت قبل اجتماع هؤلاء القواد في صعيد واحد . ولو أنها وقعت بعد المعركة الكبرى في اليرموك لما كان مفهوما أن يترك أولئك القواد جيشا كجيش الرومان في فلسطين دون أن يتعقبوه جميعا ، مع فراغهم من أمر الجيش الكبير في اليرموك .

وعلى أية حال هزم الروم في أجنادين وكانت الوقعة الحاسمة بينهم وبين المسلمين في اليرموك ، على اختلاف كثير في التواريخ ، واتفاق في تصوير خطة القتال .

ويحسن بنا قبل أن نستطرد الى الكلام على المعركة أن نجمل حالة الجيشين المتقاتلين عند اللقاء .

فالجيش الروماني كان أوفر عدداً وأكمل عدة بغير خلاف ، ولكنه خليط من عناصر عدة منها الروم والأرمن والعرب وأجناس أخرى ، وقد يظن لأول وهلة أنه امتاز بالنظام والخطط الفنية على أعدائه ، ولكنه في الحقيقة كان أبعد الجيشين عن

النظام الصحيح اذا أردنا بالنظام وحدة الحركة والتوجيه . لأن المتطوعين فيه من أبناء القبائل كانوا يحاربون على ديدنهم والجنود النظاميين يحاربون على ديدن آخر ، وتعوقهم العدد الكثيرة والشكك السابغة التي حسبت من مزاياهم ، فهي الى النقص هنا أقرب منها الى المزية .

وقد أثيرت فيهم حمية الدين ولكنهم ثاروا لها متشككين متفرقين . وجعلتهم حماستهم الدينية يترقبون من الله عقابا ينزله بهم على خطاياهم وخطايا قيصرهم ورؤسائهم المتهمين عندهم بالزيغ ومطاوعة الشيطان . فحمية الدين تثيرهم من ناحية وتضيرهم من ناحية ، وليست هي من قوة اليقين المكين .

أما جيش العرب فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وترجع الى قيادة واحدة ، وفي صدورهم من حمية القتال كل ما يحفز القلب الانساني الى الثبات والاستبسال : غيرة على الدين وغيرة على العرض وناهيك بالغيرتين ، ويقين من نعيم الآخرة ونعيم الدنيا اذا كتب له الفلاح ، وكفى باغراء النعيمين .

كان في جيش المسلمين أصون كرائم البيوتات القرشية : بنت أبي بكر وأم معاوية وزوج عكرمة بن أبي جهل وعقائل أناس من الجند والقادة . وقد أمرهن أبو عبيدة قبل المعركة « أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت والخيام ويجعلن الحجارة بين أيديهن . فان كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه ، وان رأين أحداً من المسلمين منهزما ضربن وجهه بأعمدتهن وأرجعنه بحجارتهن ، ورفعن اليه أولادهن وقلن له : قاتل عن أهلك وعن الاسلام » . ولم يقنع خالد بهذا بل قال لهن : يا نساء المسلمين : أيما رجل أقبل عليكن منهزما فاقتلنه .

ومن أجل هذا لا نعجب أن يكون هرقل قد وزن القوى وفكر حقا في عرض الصلح على المسلمين وقال لبطانته وذوي شوراه : « لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقربوا من جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام كلها ويشاركوكم في جبال الروم » ولكنهم استضعفوه وكبر عليهم أن يجيبوه .

أما المسلمون فالصلح الذي فكروا فيه قبل القتال هو الصلح على شرطهم المعلوم .

الاسلام أو الجزية ، فان لم يقبل شرط من الشرطين فالحكم للسيف .

وقد أفادهم عرض هذه الشروط قوة على قوة وزادهم في نفوس أعدائهم مهابة على مهابة . فلما ذهب وفدهم يعرض هذه الشروط قبل القتال على القائد تيودور – أخي القيصر – حسب هذا أنه يهولهم بالبذخ والثراء ويكسر نفوسهم بما يريهم من حلل الأبهة والنعيم . فأقام لهم سرادقا من فاخر الحرير يستقبلهم فيه ... فوقفوا عند بابه ولم يدخلوه قائلين : « ان ديننا يمنعنا أن نفترش الحرير والديباج » .

فهالوه بزهدهم أكثر مما هالهم بترفه . وأعسر شيء على جنوده بعد ذلك أن يؤمنوا حق الايمان أنهم – وهم الغارقون في المناعم واللذات – يقاتلون في سبيل الله قوما هذا مبلغ زهدهم في المناعم واللذات ، وهذا مبلغ استعلائهم على الدنيا وما تبسطه لهم من غواية .

* * *

ولم يخف على أحد من قادة الرومان والعرب خطر المعركة الكبيرة التي هم مقبلون عليها : هي معركة فاصلة في مصير الشام ما في ذلك ريب . وقد تكون المعركة الفاصلة أيضا في مصير الدولة الرومانية ومصير الأمة العربية . فان هزيمة الدولة الرومانية فيها تنزع من يدها الأماكن المقدسة ويعقبها ضياع مصر وثورة المتربصين بالقيصر وأهل بيته في بلاده الأسيوية والأوربية ، وأن هزيمة الجيش العربي معناها هزيمة الجيش الأكبر الذي لا يتسع الوقت ولا تتسع الطاقة لتجريد جيش غيره على أثر الهزيمة ، وقد تغري القيصر الروماني بارسال قبائل الشام في أعقاب المسلمين الى الحجاز والجزيرة العربية ولا يبعد أن تثير أبناء الجزيرة العربية أنفسهم على خليفة الاسلام ممن لا تزال لهم ترات تغلي في حنايا الصدور .

فاستعد الفريقان غاية ما في الوسع من استعداد .

وارتضى كلاهما موقع اليرموك للوقعة الفاصلة بينهما لأنه يوافق طلبة القيصر من مكان « واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب » ولا يكرهه المسلمون لأنهم رأوا منزل الروم فيه منزل محصور بين النهر والبحيرة والوادي وجيش المسلمين .

أو كما قال عمرو بن العاص حين رآهم : « أيها الناس : أبشروا ... حصرت والله الروم . وقلما جاء محصور بخير »

تحاجز الجيشان أشهراً لا يشتبكان الى جمادى الآخرة أو رجب على قول بعض الرواة .

وكلاهما ينظر كيف يبدأ الآخر هجومه ليرتب له لقاءه ، وكلاهما قد عبأ طاقته من سلاح الأيدي ولم يزل يعبىء طاقته من سلاح النفوس : سلاح العقيدة والفداء .

واستعان الرومان بالقسيسين يلهبون الحمية ويضرمون الحفيظة ، ويهونون على أتباعهم بذل الأرواح في سبيل الملة والدولة والمجد القديم .

وأقبل المسلمون على القرآن يرتلونه وعلى العظات يذمرون بها القلوب ، وجعلوا وراءهم حرسا من الأعراض هو أقوى الحراس بعد الايمان .

ثم كثرت الحركة أياما في جيش الروم فعلم القادة المسلمون أنهم مقتربون من الهجوم . ولم يشأ خالد أن تبتدىء المعركة بقيادة متفرقة لا تتحد في نظام واحد . فصرف همه الأول الى تنظيم الفرق جميعا في تعبئة واحدة يقودها رجل واحد ، ووجد من زملائه قلوبا مصغية فأجابوه الى ما دعاهم اليه .

قال لهم قبل ابتداء القتال : « هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي : اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فان هذا اليوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم متساندون ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغي ... وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي » .

ثم قال وقد سألوه رأيه : « ان الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من امدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم . فالله الله ... ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله .. هلموا .. فان هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده . ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا فلنتعاون الامارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم

والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعوني اليكم اليوم » .

فأسندوا اليه قيادتهم يومها ، وكان توحيده القيادة أول خطوة في طريق النصر الحاسم بمعركة اليرموك .

ثم أسرع الى تعبئة قواده وجنوده على الوضع الذي رآه ملائما للتعبئة الرومانية ، وهو الوضع الملائم للحرب « في العمق » كما يقول العسكريون في هذه الأيام .

فأقام عمرو بن العاص على الجناح الأيمن ، ويزيد بن أبي سفيان على الجناح الأيسر ، وأبا عبيدة بن الجراح على القلب . واتخذ مكانه في كبة الجمع ولجأ الى طريقته التي اختارها لحرب بني حنيفة وهي طريقة الكراديس ، لأنها أصلح الطرق للنفاذ في الصفوف ، وأدعاها الى التنافس بين المقاتلين وتمييزهم بالتبعة أو بالثناء .

وكانت كل فرقة من الميمنة أو القلب أو الميسرة تتألف من كراديس عدة ، على كل منها قائد معروف ، ومنهم صاحبه القديم القعقاع ، وزميله في حرب اليمامة عكرمة بن أبي جهل ، وزميله في دومة الجندل عياض بن غنم ، وابنه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشرين . وجملة الكراديس جميعا ثمانية وثلاثون معظمها في القلب ، وعدته ثمانية عشر كردوسا ، رئيسهم أبو عبيدة وفيهم عكرمة والقعقاع .

وكان موضع الميمنة بحيث يستطيع الالتفاف بالجيش الروماني اذا أمعن في الهجوم والاطباق عليه مع القلب اذا ارتد الى الوراء .

وفرغ من التعبئة فعمد الى « القوة الأدبية » يوليها حقها من عنايته الكبرى . وأخرج المقداد يقرأ على الجيش سورة الأنفال ، ودعا كل رئيس أن يعظ جنده ويبصرهم بمرماه في حركاته ، وجماع هذه العظات خطبة عمرو بن العاص حيث قال : « غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، فاذا حملوا عليكم فأمهلوهم . حتى اذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا في وجوههم وثبة الأسد ، فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويجزي بالاحسان احسانا ، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً وقصرا قصرا . فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فانكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الحجول » .

وخطب مثله معاذ بن جبل وأبو سفيان . وبرز القعقاع وعكرمة قائدا المجنبة في القلب يرتجزان ، واختير يوم القتال في يوم ريح سموم سافياء في حمارة القيظ فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم .

ثم اشتبك الجيشان على نحو لا يعلم تفصيله على التحقيق ، ولكنه بدأ كما تعودنا في حروب المسلمين بهجمة شعواء من جانب العدو يتزعزع لها العدد الصغير أمام العدد الكبير ، ثم تكون الكرة الثانية لحمية العقيدة ومراجعة الايمان والاعتصام بنية الفداء .

فلما انكشف المسلمون بعد الهجمة الأولى ثابوا الى عزماتهم بنخوة الايمان ونخوة العرض والانفة . فضرب النساء في وجوه الخيل قائلات : « الى أين يا حماة الاسلام وطلاب الشهادة ! » وصاح عكرمة كأنه يؤنب نفسه : « قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر اليوم؟ من يبايع على الموت ؟ » فبايعه أربعمائة من الفرسان المغاوير لا يقوم في وجههم قائم ، وصدموا الروم حتى صدوهم غير حافلين بما أصابهم ، وقد قتل في طليعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك الفرسان ، ولم ينج منهم قط الا جريح مثخن بالجراح .

وأفلحت الكرة الثانية ، وتقهقر الروم .

وقد اهتم خالد بالعزل بين خيل العدو ومشاته ، فتضايقت الخيل وعجزت عن الجولان وولت هاربة فأخلوا لها الطريق ، ورجع المشاة الى الخنادق فلحقهم بها المسلمون ثم أحاطوا بهم من ورائهم فشاع فيهم الذعر وسقطوا وهم مولون مهرولون في هوة الواقوصة أو وادي الرقاد . وقيل ان موتاهم بالواقوصة كانوا أكثر من قتلاهم في حومة الوغي ، لأنهم قدروا بثمانين ألفا سقطوا في الوادي فرادى وجماعات . اذ كان بعضهم يقرنون أنفسهم في السلاسل كل عشرة في سلسلة واحدة تثبيتا لأقدامهم وتيئيسا من الفرار. فاذا بالوجل يفل حديد السلاسل كما فل عزائم القلوب ، وبلغ اليأس مبلغه من أشراف القوم فقعدوا في أماكنهم ينتظرون الموت . فكأنهم قد فروا قاعدين ! .

وحق لهرقل وقد حبطت محاولاته جميعا بعد اليرموك أن يودع الشام الى عاصمة ملكه المتصدع وداعا – كما قال – ليس بعده لقاء .

* * *

العـــزل

يستحق الرجل أن يسمى بطلا من أبطال التاريخ اذا كان له « دور تاريخي » يقضيه ويتسم بملامحه ودواعيه..

وآية انقضاء ذلك الدور أن يبلغ البطل من الأعمال المقدورة له قمتها العليا التي لا قمة وراءها، وأنه يعدو هذا الدور فاذا هو مفتئت على الآخرين ممن لهم حق مثل حقه في أدوار التاريخ، أو يعدوه الى أعمال يغني فيها الآخرون مثل غنائه، وتدخل في باب من السعي والدراية غير بابه..

وقد بلغ خالد في معركة اليرموك قمته العليا التي لا مرتقى بعدها لراق: قمع فتنة الردة، وضرب دولة الأكاسرة ضربته الدامغة، ووحد قيادة المسلمين في حرب الرومان، فصدهم الى ما وراء حدودهم، ودخلت ميادين الشام بعدها من أعمال يصح أن تسمى بالأعمال الخالدية. فهي بين حصار أو مراوغة أو تسليم. وانما يراد خالد لتحطيم قوى الأعداء التي تعز على التحطيم..

وان يكن من عمل « خالدي » في ميادين الشام بعد معركة اليرموك فهو عمله في مرج الروم، ثم عمله في قنسرين .

ففي مرج الروم كان هو وأبو عبيدة ينازلهما قائدان رومانيان هما جونس وتوذر كما سماه خالد، فتسلل توذر تحت الليل ليفاجئ الجيش العربي عند دمشق بقيادة يزيد ابن أبي سفيان ويأخذ جيوش المسلمين على غرة متفرقين. فاتفق خالد وأبو عبيدة على تعقبه ومفاجأته من خلفه قبل أن يفاجىء يزيد بن أبي سفيان. فأوقعاه في الفخ

الذي نصبه ، ولم يرجع خالد الى أبي عبيدة الا وتوذر مقتول وجيشه مبدد كما قال :

نحن قتلنا توذرا وشـوذرا وقبله ما قد قتلنا حيـــــدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

وفي قنسرين حصر خالد الرومان المحتمين بحصونها فطاولوه وأبرموه فقال لهم محنقا : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا » وأبى أن يصالحهم بعد ذلك الا على تخريب المدينة ودك حصونها . فختمت بذلك ضرباته الخالديات .

ولكنه كان قبل مرج الروم وقنسرين قد وفى « دوره التاريخي » أكمل وفاء ، فلو فاته هذان العملان لما نقص من مجده شيء ولا تغير مجرى الحوادث في أعقاب هزيمة الرومان . .

أما سائر الميادين فقد تولاها قواد آخرون ففتحت بقية فارس وفتحت مصر وشطر من افريقية الشمالية ، وكتبت بذلك « أدوار تاريخية » أخرى للمثنى بن حارثة وسعد بن أبي وقاص والنعمان بن مقرن وعمرو بن العاص ، ورجال غيرهم يساوونهم أو يقلون عنهم في المقدرة ولا يقلون عنهم في المقصد والنية ، وكل زيادة في عمل خالد لا تضيف اليه مجداً فوق مجده ، وتنقص ولا ريب من عمل هؤلاء ، وتحرم الاسلام أيديا كثيرة تعمل له وتدفع عنه . وليس هو بمستغن عن تلك الأيدي الكثيرة بيد واحدة ، بالغا ما بلغ بها الرجحان والاستعلاء . .

قلنا في أول هذا الفصل أن انقضاء « الدور التاريخي » لبطل من الأبطال له آيات تدل عليه ، ومنها أن يعدو دوره الى أعمال يغني فيها الآخرون مثل غنائه وتدخل في باب من السعي والدراية غير بابه ، ونزيد على هذا أن غناء الآخرين في هذا خيراً من غنائه لهو أولى أن يدل على انقضاء دوره وانتقاله الى من هو أحق به وأخلق . .

وفي ميدان الشام – بعد معركة اليرموك – كان أبو عبيدة بن الجراح أحق بالموقف الجديد من خالد بن الوليد . لأنه موقف التسليم والمسالمة واستلال الحقود وضمد الجراح وتقريب القلوب ، وفي جميع أولئك يتسع المجال لهوادة أبي عبيدة ويضيق

بضربات خالـد . فأبو عبيدة يسرغ الى المسالمـة اذا فتحت لـه أبوابها ولا يبطئ عـن الحرب اذا وجبت عليه أسبابها ، فان كانت بالمسالمـة جدوى فذاك ، وان كان يوم الضربات الخالديات فهي لديه يرمي بها في مراميها . وانما يكون العمـل الأول هنا لمن يسالم ويتقبل التسليم، ويكون العمل التابع له لمن يرفع سوط النقمة على الذين يلجون في العداء كأهل قنسرين ، فلا يسلمون الا بتخريب الديار ودك الحصون ..

ولا جرم كان أبناء الأمصار يتسامعون بحلم أبي عبيدة فيقبلون على التسليم اليه ويؤثرون خطابهم له على خطابهم لغيره ، وكان خالد يرضى بهذا حينا ويسخط منه حينا ، كما سخط عند تسليم دمشق ووساطة أبي عبيدة في العفو عن أهلها. فانه كان يحسبهم مغلوبين عنوة فيعاقبون بالسبي والقصاص ولا يبسط لهم مهاد العذر والموادعة، ولولا أنه لا يغدر بعهد عاهدهم به أبو عبيدة لما كان لهم من شرط عنده غير شرطه على أهل قنسرين..

فصواب التاريخ وصواب ابن الخطاب قد تلاقيا ها هنا باسناد الأمر الى أبي عبيدة بن الجراح في أوانه المقدور، وان كان تلاقيا لم يجر على قصد مرسوم.

* * *

تولى الفاروق الخلافة بعد الصديق عليهما الرضوان..

ورأي الفاروق في أبي عبيدة بن الجراح معروف. فقد كان لا يعدل به أحدًا من الصحابة الأولين، وقد همَّ بترشيحه للخلافة بعد وفاة النبي عليه السلام وقال وهو يجود بنفسه . انه لو كان حيا لعهد اليه ولم يلجأ الى مجلس الشورى الذي وكل اليه أمر انتخاب الخليفة بعده.

وتحدث عمرو بن العاص مرة الى الفاروق في رئاسة الجيوش الموجهة الى الشام فأجابه في مقال صريح : « ... انه ليس على أبي عبيدة أمير، ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة ، والنبي عليه السلام قال فيه : أبو عبيدة أمين هذه الأمة » .

وكما عرف رأي الفاروق في أبي عبيدة عرف كذلك رأيه في سابقة الاسلام

والغزو على الاجمال. فانه خالف الصديق في التسوية بين أنصباء المسلمين كافة يوم أخذ الصديق في توزيع الأرزاق والأنفال، وجعل للرجل نصيبا يختلف باختلاف سابقته في الاسلام والجهاد، لأنه «لا يجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه، ولا يسوي بين من هاجر الهجرتين وصلى الى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف».

فاقامة أبي عبيدة على ولاية الشام وقيادة جيوشها حادث لا غرابة فيه من الفاروق ولا ينتظر منه غيره، وبخاصة حين تكون امارة خالد بن الوليد بغير تأمير من الخليفة الأول، وانما هي اتفاق على تقسيم القيادة بين الأمراء يوما بعد يوم..

وبهذه المثابة تكون ولاية أبي عبيدة سنة عمرية معروفة ولا يبلغ منها أن تكون «قضية» بين الفاروق وخالد على الصورة التي هول بها بعض المؤرخين واتخذوا منها محورًا للجدال، والتنقيب عن الأسباب والأقوال..

واذا نحن تجاوزنا النظر الى الموضوع من جانب هذه السنة العمرية فولاية أبي عبيدة كانت في اعتقادنا أصلح الولايات للشام في تلك المرحلة التي انتهت اليها الحرب بين المسلمين والروم..

فما نظن أحدا تفوته حاجة الشام في مثل تلك المرحلة التي انتهت فيها بطشة الحرب الكبرى، وبدأت فيها ممهدات السلم والحكم والمصالحة. وهذه مهمة وال يحسن الحرب ويحسن التوجيه اليها في مناسباتها، وليست مهمة قائد عسكري يجري الأمر على سنة السطوة العسكرية، ويكون عمله الأكبر تحطيم قوى الأعداء في ضربة طاحنة ثم يلاحقهم متى شاء بالمطاردة والتضييق والاحراج، كما كان دأب خالد في بطشاته التي لا تبقى بعدها بقية لغير الاجهاز..

واذ تكون هذه هي المهمة المطلوبة بعد معركة اليرموك، فلا خلاف في أي الرجلين أولى بالولاية عند ذاك: أبو عبيدة بن الجراح أو خالد بن الوليد، سواء أكان الخليفة على رأي الفاروق أم كان على غير هذا الرأي في أمين الأمة وفي سوابق الاسلام والجهاد.

* * *

ونما الى الفاروق بعد ذلك أن خالدا وعياضا أغـارا على بلاد الروم ورجعا منها بغنائم وأسلاب ، وأن الأشعث بن قيس قصد خالدًا ومدحه فأجازه بعشرة آلاف درهم ، وأجاز آخرين من « ذوي البأس وذوي الشرف وذوي اللسان » ..

فعظم هذا البذل على الفاروق وكتب الى أبي عبيدة : « أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث ، هل من مال الله أم من ماله أم من اصابة أصابها ؟ فان زعم أنه من اصابة أصابها فقد أقر بالخيانة ، وان زعم أنها من ماله فقد أسرف » وأمر أبا عبيدة أن يعزله على كل حال وأن يضم اليه عمله – وكان يومئذ يلي أمور قنسرين – وأن يقاسمه ماله نصفين.

فصدع أبو عبيدة بالأمر ، وجمع الناس وجلس على المنبر ، ودعا بخالد فسأله : يا خالد .. أمن مالك أجزت عشرة آلاف أم من اصابة ؟ فلم يجب وأبو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة. فوثب اليه بلال مؤذن النبي عليه السلام وقال له : أن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالـد لا يمنعـه ، وسأله : ما تقول ؟ أمن مالك أم من اصابة ؟ فقال : لا ، بل من مالي. فأطلقه وعممه بيده وهو يقول : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا ».

ثم قوسم ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : ان هذا لا يصلح الا بهذا. فقال خالد : أجل. ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك ..

ولما علم خالد بعزله ذهب الى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم ثم ذهب الى حمص فخطب أهلها وودعهم وقال في بعض خطبه : « ان أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى اذا كانت بثنية وعسلا عزلني وآثر بها غيري » . فنهض له رجل من السامعين فقال : صبرا أيها الأمير ، فانها الفتنة. فما تردد خالد أن قال : أما وابن الخطاب حي فلا »

ثم قصد الى المدينة فلقي الفاروق فقال له : « لقد شكوتك الى المسلمين. وبالله انك في أمري غير مجمل يا عمر .. » فسأله الفاروق .. من أين هذا الثراء ؟ قال : من الأنفال والسهمان. ما زاد على الستين ألفا فلك » فزادت عشرون ألفا فضمها

الى بيت المال. ثم قال له : يا خالد. والله انك علي لكريم. وانك اليَّ لحبيب. ولن تعاتبني بعد على شيء » وأرسل الى الأمصار يأمر الولاة أن يعلنوا فيها باسمه : « اني لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا عن خيانة. ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا اليه ويبتلوا. وألا يكونوا بعرض فتنة »

* * *

تلك قصة خالد والفاروق..

وهي قصة تؤلم وتؤسف. الا أن الألم والأسف فيها من فعل الضرورة التي لا محيد عنها، وليسا من فعل خالد ولا فعل الفاروق.

ومن الحق للرجلين العظيمين أن نفهم هذه القصة على حقيقتها المبرأة من الخلط والجهالة. لأن فهمها على حقيقتها موصول بتقدير الحالة كلها وموصول بتقدير الخليفة العادل وتقدير القائد الكبير..

وأبعد شيء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة في نفس عمر أو لتلك المنافسة التي تستحكم بين الأشباه والنظراء. أو لغير سبب من تلك الأسباب التي كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة..

وأسخف من هذه الظنون أن يسبق الى الوهم كما سبق الى وهم بعض المؤرخين أن عمر قد عزل خالدًا لبغضاء قديمة مرجعها الى الصراع بينهما في أيام الصبا، وأن خالدًا صرع عمر وكسر ساقه فلم يزل بقية حياته واجدًا عليه..

وأجهل الناس بخلائق عمر من يجمح به الوهم الى ظن من هذه الظنون. فليس بين رجال التاريخ جميعا من هو أصعب تخطئة من عمر بن الخطاب، لأنه ليس بينهم جميعا من هو أشد حسابا لنفسه ومراجعة لنياته منه، وأغلب الظن عندنا أنه لو أحس في نفسه نية ذحل أو ثأر قديم لكان أثر هذا الاحساس أن يؤجل عزل خالد ولا يعجل به مخافة من خدعة نفسه وتضليل هواه..

فالحق أن حساب عمر لخالد لم يخالف قط حسابه لجميع ولاته. فكذلك

صنع بعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص، وكذلك صنع بكل وال أحصى ماله فظهرت فيه الزيادة. وقد عزل زياد بن أبيه ثم قال انه عزله « لأنه كره أن يحمل على الناس فضل عقله » وكان يحسب أنه قادر على أن يسوق العرب بعصاه لو أنه من قريش. ولقد تبين بعد أنه من قريش.

وكانت سياسة عمر مع الولاة جميعا أن يراجعوه في الأموال، وبذلك أشار على أبي بكر فوافاه الحساب من كل وال الا خالدًا أبى وأغلظ له في الجواب حيث قال: « اما أن تدعني وعملي والا فشأنك وعملك ».

فلما بويع عمر كتب الى خالد أن يراجعه في حساب المال وألا يعطي شاة ولا بعيرا الا بأمره، فأحاله الى ما جرى به العمل قبله. فلم يطقها عمر وقال: ما صدقت الله ان كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه ».

هذا الى الخلاف بين سنن عمر في سياسة الناس وتصريف الشؤون وسنن خالد التي طبع عليها. فعمر كان يحب الأناة قبل القتل والقتال ومن ثم كان انكاره لمقتل بني جذيمة ومقتل مالك بن نويرة، وعفوه عن أسرى السواد خلافا لما صنع بهم خالد في معركة أليس أو نهر الدم كما سميت بعد ذاك. وقد حرم عمر « قيس بن سليط » أن يقود جيشا هو كفؤ لقيادته قائلا له: « لولا أنك رجل عجل في الحرب لوليتك هذا الجيش. والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث ».

واذا كان عمر قد أوجس من « عقل زياد بن أبيه وهو مجهول النسب فالفتنة باسم خالد أعظم وأخطر. انه لعظيم النزعة الى الاستقلال، وانه لمن بني مخزوم وهم أقوى قبائل قريش منفردين، وله صهر في سائر القبائل والبطون ولأبنائه أخوال في بني تميم وبني حنيفة، ولشهرته سحر في نفوس الناس يفعل الأعاجيب، وللزهو مكان من طباع خالد يحسب حسابه ولا ينساه الخليفة المسئول عن عواقب الأمور في دولة الاسلام. فقبل أن يقهر خالد دولة الأكاسرة ودولة القياصرة رجع الى المدينة يوما فاذا هو يغرز في عمامته السهام ويدخل المسجد بدرع القتال. فبعد غلبته على الأكاسرة والقياصرة وشيوع ذكره في الأمصار ماذا يجري لو وهن الحكم يوما بعد « ابن الخطاب » ؟..

أما و « ابن الخطاب » حي فلا . كما قال خالد ولكن ابن الخطاب لا يدوم . والعواقب لا تنكشف ، وعزل خالد نقص يعوضه قادة آخرون من حقهم أن يعملوا كما عمل ومن أثرهم أن يثوب الناس الى العقيدة وحدها فلا يحسبوا أن النصر رهين برجل واحد لا يرتهن بغيره .

أما الاحتمال الآخر – ان حدث – فالخطر فيه عظيم والموازنة بينه وبين كل عاقبة يعقبها عزل خالد لا مجال فيها لتردد طويل .

وهذا كله فضلا عن مرد العزل الى القسطاس الذي يرد اليه حساب جميع القواد والولاة . ولم يفت ذلك خالدًا بعد هدوء الغضب والمثوبة الى الرأي فقال في مرض وفاته لأبى الدرداء : « قد كنت وجدت عليه في نفسي في أمور لما تدبرتها في مرضي هذا وحضرني من الله حاضر عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل . كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث اليَّ من يقاسمني مالي حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل . فرأيته فعل ذلك بغيري من أهل السابقة ومن شهد بدرًا . وكان يغلظ عليَّ وكانت غلظته على غيري نحوًا من غلظته عليَّ ، وكنت أدل عليه بقرابة فرأيته لا يبالي قريبا ولا لوم لائم في غير الله ، فذلك الذي أذهب ما كنت أجد عليه . وكان يكثر علي عنده وما كان ذلك الا على النظر . كنت في حرب ومكابدة وكنت شاهدًا وكان غائبًا فكنت أعطي على ذلك ، فخالفه ذلك من أمري »

ولقد توفي رحمه الله وهو يجعل وصيته وتركته وانفاذ عهده الى عمر بن الخطاب .

* * *

ونحن اليوم ننظر الى القصة بعين التاريخ فنرى – كما أسلفنا – أن الفاروق انما ختم دورًا ختمه القدر وانقضت به الحوادث . فلم يكن بعد القمة التي ارتفع اليها خالد في ضربته لدولة الرومان مرتقى لراق . ولعل مجده الباذخ قد كانت تعوزه قمة من نوع غير تلك القمم التي تسنم فيها صعدا من غلبته على طليحة ومسيلمة الى غلبته على القياصرة والأكاسرة : تلك هي قمة التجمل والاخلاد الى الواجب الأليم يوم عزله . فهي والله لمما يحسب له الى جانب قممه البواذخ ، قمم العظيم الظافر الجسور... وأين لولا عزله كنا نبصر بينها قمة العظيم الصابر المطيع .

عبقرية الحربية

كسبت المعارك الحاسمة لأسباب لا تحصى، وكسبت معارك شتى للسبب ونقيضه، وربما تعرض النقاد العسكريون للمعركة الواحدة فاذا بهم يردون النصر فيها الى أسباب تتناقض وتتباعد كأنهم يتكلمون عن النصر والهزيمة.

كسب بعض المعارك لأن الأقواس كانت أكثر من السيوف، وكسب بعضها لأن السيوف كانت أكثر من الأقواس.

وكسبت معارك حاسمة لأن رماح المنتصرين كانت أطول من رماح المهزومين بشبرين أو بضعة أشبار، وكسبت معارك غيرها لأن الرماح كانت تتلاحق في طولها على حسب الصفوف.

وفي بعض المعارك كان الفرسان في الوسط فقيل ان هذا كان من دواعي النصر العاجل، وفي معارك أخرى قيل ان دواعي النصر انما ترجع الى قيام الفرسان على الجانبين.

وكثيرًا ما يقال ان اشتراك الفرسان والمشاة في العمل كفيل بالغلبة في بعض الميادين، ثم يدور الكلام على ميدان آخر فيقال ان تربص الفرسان بمعزل عن القتال الى ساعة الفصل هو الكفيل بالغلبة المؤزرة حتى نهاية القتال، وربما قيل ان ظهور الفرسان في ميدان يضيق عن حركات المناورة جنى على الفرسان وعلى المشاة فدب الفشل في صفوف هؤلاء وهؤلاء.

ولقد يحاول بعض الخبراء أن يجمعوا أسباب النصر الى قاعدة موجزة فيقولون

كلاما يحسن الاطلاع عليه، ولكنه كلام يقرأه القائدان معا فيبوء أحدهما بالنصر ويبوء الآخر بالهزيمة.

مثل هذه القواعد الموجزة كمثل القاعدة التي توجز لك البلاغة الشعرية في كلمات ثلاث وهي : الوزن، واللفظ، والمعنى. ولا خطأ في هذا الايجاز، ولكنه مع هذا لا يعلم الشاعر الصواب..

وقصارى ما يقال بعد تقرير الأسباب وتدوين القواعد انها لا تمنع الفروق بين معركة ومعركة وميدان وميدان، وأن القائد الموفق هو الذي يلمح هذه الفروق فيعمد الى العمل اللازم في الوقت اللازم بالقدر اللازم، فلا ينقص أو يزيد، ولا يتقدم أو يتأخر، ولا يوحد العمل مع وفرة الفروق.

واذا كان كل شيء في المعركة يتوقف أحيانا على كذا أوكذا من الخطوات في السبق الى حومة القتال. وكذا أوكذا من الأشبار في طول الرماح. وكذا أوكذا من التفاوت في سرعة القذيفة هنا أو هناك. أوكذا وكذا من الحركات الى اليمين او الى الشمال والى الأمام أو الى الوراء، فتفصيل أسباب النصر في المعارك القديمة على التخصيص ضرب من المستحيل. لأن اثبات الفوارق بين المعسكرين في الأسلحة والمواعيد والعدد والحركة غير ميسور. وأقصى ما نطمع فيه أن نقنع بالاجمال دون التفصيل.

واجمال القول في توفيق خالد بن الوليد أنه لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال : وهي الشجاعة والنشاط والجلد واليقظة وحضور البديهة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير..

كان يضع الخطة في موضعها ساعة الحاجة اليها. فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس، وكان يحارب بالكمين والكمينين كما يحارب أحيانا بغير كمين، وكان يستخدم التورية والمباغتة والسرعة على انماط تختلف باختلاف الدواعي والأحوال.

وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى في الحرب من الحصار والاحتلال.

وعلم أن الخبر قوة وسلاح. فكان يستطلع أخبار العدو ولا يتيح له أن يستطلع خبرًا من أخباره يفيده أو يحميه من بأسه..

وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغفل عن القوة الأدبية يعززها ما استطاع في جيشه ويضعضعها ما استطاع في جيش عدوه..

فكان هو نفسه مادة لهذه القوة الأدبية تجيش بها نفوس أنصاره فيثقون بالفوز ويأمنون خطر الهزيمة، وتشيع في نفوس أعدائه فيسري اليهم الذعر وتفارقهم الثقة والطمأنينة.

والى هذا كان يعتمد على قوة الايمان وهمة الأمل، فيتعهد جيشه بالعظات قبل القتال وفي أثناء القتال، ولا يفوته وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتذمير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذي هو ضرب من العمل، فاذا قال: «ان الصبر عز وان الفشل عجز وان الصبر مع النصر» فليست هي أصداء تمر بالهواء ولكنها هي العز والصبر ماثلان للعيان يسريان بالقدوة منه الى كل مسمع وجنان.

والى هذا وذاك كان يثير المنافسة الكريمة في صدور جنده وأعوانه، فيدعوهم الى التمايز والتناظر لينفث فيهم مع عزيمة الايمان عزيمة أخرى من حب الفخار وخوف المسبة والعار.

ويتخذ من الغيرة على العرض مددًا لهذه العزائم التي تواجه الموت على حد قوله كما تواجه الحياة، فاذا بالرجل الفرد يبلي في قتاله ما ليس يبليه عشرات.

ولم يخف عليه قط مقتل العدو من قوته الأدبية حيثما عمد الى هذا المقتل في منازلاته للمستبدين والطغاة. فانهم في جيوش الأمم التي طال عهدها بالظلم يرتفعون الى مقام الأرباب من حيث يتحدر رعاياهم الى مقام القطيع السائم. فاذا أصيب القائد في الجولة الأولى فكثرة الجند بعد ذلك معوان على الهزيمة وليست بالوقاية منها. لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات.

* * *

ولقد كان هو يخلق فنون الحرب التي يجمعها « الخبراء » في عصورنا هذه بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات.

قرأنا في كتاب « فن الحرب اليوم[1] » لمؤلفيه من قواد البحر والبر والهواء : « عند بحث هذه المسألة ينبغي أن نحضر في أذهاننا أنه مع استثناء قليل لم يكن ثمة الا نوعان من السلاح سيطرا على حومة القتال، وهما السلاح المقذوف والسلاح الضارب أو القارع، أي النبل أو السهم أو الرصاصة من جانب، والهراوة والسيف والرمح من الجانب الآخر. ومجمل ما يقال بعد هذا أن الصف هو أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف وأن الكردوس أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح الضارب. لأن الرماة بالقذائف يحتاجون الى مدى مكشوف، وانما يتأتى الضرب في العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات ».

ان خالد بن الوليد لم يقرأ هذا ولم يفته شيء بفواته عنه، لأنه قد علم كنهه ولبابه من بديهته الحربية فقاتل بالصفوف حيث تغني الصفوف وبالكراديس حيث لا تغني الا الكراديس.

وفي هذا الكتاب أيضا يقول المؤلفون : « يتضح مما تقدم أنه في حملات السلاح الضارب هناك أمران ضروريان : هما الاستطلاع وكتمان الحركات. والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو ومن كتمان الحركات أن تحول بينه وبين وزن قوتك وتوقع الهجمة من أي موضع تكون »

ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجري في عصرنا الحديث فيقولون : « وعلى هذا يجري الاستطلاع من الهواء قبل الحركات الأولى وفي خلالها، وتتقدم الكراديس أثناء ذلك على نظام المعركة، أي على النظام الذي تتألف به حين تدعى الى الهجوم ».

وهذه هي ربيئة خالد للاستطلاع، ومسيره « على التعبئة الكاملة » التي يهجم بها ساعة اللقاء بالنظام الذي كان يسير عليه. ثم يدخل في التحام قريب ولا يطيل

---

(١) Warfare Today تأليف الأميرال باكون والجنرال فلر ومارشال الطيران باتريك بلايفير.

في موقف التقاذف بالنبال والسهام.

وتقرأ في كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة[١] » لمؤلفه ونترنجهام الذي كان محررًا لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة : « ان سرعة الحركات وقوة الاصابة وتدبير الوقاية هي الآن – كما كانت في كل زمان – بعض مفاتيح النصر التي لا شك فيها ، فاذا كسبت المعارك أحيانا بالمفاجأة أو التركيز في الموضع الحاسم وفي الوقت اللازم أو المناورة البارعة ، فهذه المزايا انما تستمد مباشرة من التفوق في سرعة الحركة أو في قوة الاصابة أو في تدبير الوقاية ».

وخالد بن الوليد لم يقسم فن التعبئة هذا التقسيم حين علم أنه يضمن سرعة الحركة باقتحام الصحراء المخيفة ، ويضمن المفاجأة بهذا الاقتحام ، ولا يزال واثقا بالوقاية حيثما حارب وظهره الى الصحراء ، أو حيثما تقدم وراء جيش مهزوم لا يتماسك له قوام.

* * *

ووضع الخبير الحربي المشهور ليدل هارت[٢] كتابا مستقلا عن فن سوق الجيوش على طريق التورية لخصه في قوله : « ان التحرك في الوجهة المتوقعة يحفظ توازن العدو ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرته على المقاومة ، وفي الحرب – كما في المصارعة – انما يتأتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتخل توازنه باستنفاد قوتك أنت استنفادًا لا يناسب الجهد الذي يلقاه خصمك. ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة الا بفضل الرجحان الكبير في قوتك على نحو من الأنحاء. وقد يضعف الجسم في النتيجة مع ذاك. وعلى نقيض هذا ينبئنا التاريخ العسكري في جميع العصور لا في عصر واحد ، وفي جميع الحروب الحاسمة على التقريب ، أن الاخلال بتوازن العدو نفسيا وماديا هو المقدمة التي لا محيص عنها للقضاء عليه ».

---

(١) Wintringham : Weapons and tactics.

(٢) The strategy of Indirect Approach : by Liddell Hart.

وهذا الاخلال بالتوازن هو الغاية التي كان يتوخاها ابن الوليد، اما بالهجوم من جهتين أو ثلاث جهات، واما بالمفاجأة التي لا تتوقع بحال من الأحوال، واما بالكمين الذي يدخل اليأس على العدو في ساعة حرجة، واما بالتطويق من حيث لا ينتظر التطويق.

وكل أولئك مفهوم جد الفهم أن يزلزل الأقدام ويخل التوازن، وكل ما يزلزل أقدام الانسان في الحرب أو السلم فهو كذلك مفهوم جد الفهم من أقدم الزمان، ولكن القدرة حق القدرة هي معرفة الوقت، ومعرفة الوسيلة، ومعرفة التنفيذ متى عرف الوقت وعرفت الوسيلة، وبهذا دون غيره تتجلى «معرفة» القواد الملهمين.

وقال خبير حربي آخر هو أرثر برني[1] في كتابه «فن الحرب» معقبا على حروب الفرس واليونان: «كانت قوة الفرس، جنودًا، قائمة على الخيالة والرماة. وكانت طريقتهم في القتال أن يمطروا العدو سهاما، ثم يجترفوه بجملة من الفرسان في الوقت اللازم، وأفلحت هذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين. وأصحاب الرماح الراكبة من الليديين، وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين. ولكنها خابت مع اليونان، وكانت التبعة في خيبتها على ضعف فرق المشاة الفارسية، فاذا ما استطاع الجند الاغريق أن يقتربوا – وكل شيء يتوقف على هذا – تناولوا المشاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة..».

ولو عمم هذا الخبير القول لوجب أن يقول ان الذي خيب طريقة الفرس مع اليونان هو الذي خيبها مع العرب من أيام ذي قار الى أيام خالد بن الوليد، فالهجوم من قريب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الجنة التي احتمى بها العرب من الرماة ومن الفرسان، بل من الفيلة في بعض الأحيان، وقد قيل في الأمثال الشعبية التي هي أصدق من قواعد الخبراء «الذي تغلب به العب به» وقد كان خالد يعلم أن الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجندي الذي ينافح عن عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف. فلم يلق الفرس ولا الروم الا في التحام.

(١) Arthur Birnie في كتاب The Art of War

وقد صح هنا رأي ونترنجهام مؤلف كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة » الذي سبقت الاشارة اليه حين قال : « ان بعض الجماعات الانسانية بطيئة التغير، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التي يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب الى السماء، فانها تنتظم على سنن فحواها أن التغيير لا ينبغي وأن العادات المأثورة كلها حسنة قويمة، وأن كل ما يعمل الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان، وربما لاذت بعض الأمم التي هي أقرب الى التقدم بفترة من فترات الراحة تستبقي فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم. فاذا برزت جماعات من هذا القبيل للقتال برزت وفي رؤوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها، ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة، ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها أصول على الاطلاق، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقا للترتيب الذي وضع منذ عهد بعيد وان هذه الجماعات لتخرج جيوشا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التي يسهل عليها اتخاذ الأساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارىء ».

ولو شاء صاحب هذا الرأي لشمل الدولة الرومانية فيما حكم به على الدول الآسيوية، لأنها كانت تقاتل بخطط وضعها الأقدمون لها منذ قرون، وهي على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم عجزها عن ابتكار الجديد.

وجملة القول ان خالدًا كان يحارب بالقريحة الملهمة أناسا رثت عقائدهم كما رثت ملكاتهم العسكرية، فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم في الميدان على نحو مرسوم كأنهم قائمون في مراتبهم بديوان التشريفات، وكان خالد يلبي الضرورة عفو الساعة في ترتيب كل كتيبة وكل سلاح. فاذا بدا له أن الخيالة لا تجدي في الحركة جدوى المشاة ترتبت حركات الجيش معه كما تترتب الحركات في أعضاء الجسم الشاعر بتلبية الأعصاب والجوارح لمراكز التنبيه في الدماغ، فيترجل وقد ترجل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه في كره وفره وهجومه ودفاعه..

واذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة، فما هي الا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها الى قائدها المختار :

« تمايزوا أيها الناس » فاذا هم بعد لحظات متمايزون..

وكانت مادة القتال التي يعمل بها من جند أو سلاح تغنيه وتلبيه. فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقد مفقود، لأنهم مؤمنون عالمون أن الموجود هو رب القائد والمقود، وكانوا يصبرون على الهزيمة لأنهم عرب معودون في غزواتهم أن يكروا بعد فر، وأن يجتمعوا بعد تفرق، فهم يحسبون النكوص ضربا من التحفز للوثوب. أما خصومه فكانوا يتساقطون تباعا كما تتساقط حجارة اللعب المرصوصة اذا سقط منها الحجر الأول... فلا تماسك لها بعد ابتداء السقوط..

ومن ثم كان نمطا فريدًا بين قواد التاريخ، لأنه يمزج الفن بالبديهة، كما يمزج فن البداوة بفن الحضارة، وكان يقتبس ويجدد بالرأي والفطنة كما يقتبس ويجدد بغريزة موروثة من قبيلة « القبة والأعنة » يصح أن تسمى غريزة الميدان. وقد تصعب المقارنة بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات، وان كنا نعتقد أن القائد العبقري تسعفه عبقريته على اختلاف العصر والسلاح..

ولكن المقارنة بينه وبين قواد الطراز الأول في الزمن القديم تقدمه الى المرتبة الأولى بين أكبر القواد، ومنهم الاسكندر وبلزاريوس اللذان حاربا عدوا كعدوه في ميدان كميدانه. فالاسكندر في وقعة « اربيل » هزم جيشا فارسيا تقدر عدته بمائة ألف من الفرسان والمشاة، وبلزاريوس في وقائع ارمينية هزم جيشا فارسيا تقدر عدته بأربعين ألفا أو قرابة الأربعين.. والمقارنة بين خالد بن الوليد وهذين القائدين ترجح كفته على كفتيهما معا في هذا الميدان، لأن الاسكندر كان يقود خمسة وأربعين ألفا وبلزاريوس كان يقود نيفا وعشرين ألفا، وكلا الجيشين مسلح بأمضى الأسلحة في ذلك الزمان..

وقد كان خالد يحارب بثمانية عشر ألفا جيوشا أعظم من الجيوش التي تصدى لها القائدان الكبيران، ولم يكن له مثل سلاح المقدونيين أو سلاح الرومانيين، ولم يكن نصرهما كنصره ولا العاقبة بعدهما كالعاقبة بعده. وزاد على ذلك أنه انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم، ومنهم الرومان في أكبر الميادين، ميدان اليرموك..

فكان خالد في التاريخ العسكري هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن أو اشتهروا بالعبقرية أو اشتهروا بالمناقب الشخصية. وفيه من ملامح القيادة في العظائم والصغائر ما يدل على طبيعة القيادة الملهمة، وانه كان كما يقال قائدا من فرع رأسه الى قدميه..

فقد خالد قلنسوته يوم اليرموك فقال : اطلبوها. فبحثوا ونظروا فلم يجدوها، فما زال بهم يأمرهم أن يطلبوها ويلحوا في طلبها حتى وجدوها، فاذا هي خلقة لا تساوي شيئا. فسئل عن ذلك فقال : «اعتمر النبي ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم الى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالا وهي معي الا تبين لي النصر».

رحمه الله ! لم تفته من سمات القيادة حتى التعويذة المشهورة بين رجال الحروب.. فما زال معلوما عن كبار الجند أنهم يأنسون الى تعويذة يعتزون بها ويستبشرون بصحبتها وهم يخوضون غمرات الموت. وما في ذلك من عجب، فليس أحوج الى صلة بعالم الغيب من رجل يلقى الموت صباح ومساء..

وقال خالد في أخريات عمره: «ما ليلة يهدى اليّ فيها عروس أنالهـا محب، أو أبشر فيها بغلام أحب اليَّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين، أصبح بهم العدو، فعليكم بالجهاد».

هذا حبيب الحرب الذي يهواها وتهواه. فله منها الصفوة التي لا تصطفي بها أحدا من الطلاب والقرناء على بغضاء..

مفتاح شخصيته

تقدمت الاشارة الى قصة الشبه القريب بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب في ملامح الوجه وطول القامة، وأنهما كانا من التقارب بحيث يشتبه الأمر على قصير النظر وهو يتكلم اليهما، فيخاطب عمر بن الخطاب وهو يظن أنه يخاطب خالد بن الوليد.

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين أن الشبه بينهما يتعدى الملامح والقامة الى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية، فكلاهما يجوز أن يقال فيه انه « جندي » بالفطرة وان « مفتاح شخصيته » هو السليقة الجندية، فاذا أحضرنا في أخلادنا كلمة « الجندي » أو الجندي المطبوع لم نجد في ابن الخطاب ولا في ابن الوليد صفة لا تحتويها هذه الكلمة في معنى من معانيها.

وبين الرجلين فارق لا خفاء به في الخلق والتفكير..

لكنه فارق لا يخرج بهما من نطاق هذه الطبيعة، فكلاهما جندي مطبوع على الخلائق الجندية. ولكن ابن الخطاب تغلب عليه، من مزاج الجندي، ناحيته الروحية أو ناحية الضمير، وابن الوليد تغلب عليه من هذا المزاج نفسه ناحية الحيوية أو ناحية البنيان والتركيب..

وأصح من هذا أن نقول ان عمر كان جنديا في أخلاقه الوازعة الحاكمة. وان خالدا كان جنديا في أخلاقه الدافعة الهاجمة. وفي الجنود، كما لا يخفى، هذه الأخلاق وهذه الأخلاق.

ولا ريب أن هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله انما هو قبل كل شيء فارق بين نفسين، أو بين رجلين، أو بين « شخصيتين ».

لكن هذا لا يمنع أن يكون في الوقت نفسه فارقا بين « قبيلتين » وبين أسرتين وبين نشأتين. فان الفوارق بين بني عدي قبيلة عمر وبين بني مخزوم قبيلة خالد لخليقة أن تتجه بالمزاج المتقارب وجهتين متباينتين،

فبنو عديٍّ – آل عمر – كانوا في الجاهلية أهل تحكيم ومعرفة بالفصل في الخصومات. وقد ذاقوا، كما قلنا في « عبقرية عمر » : « طعم الظلم من أقربائهم بني عبد شمس، وكانوا أشداء في الحرب يسمونهم لعقة الدم، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس الى عدد أقربائهم. فاستقر فيهم بغض القوي المظلوم للظلم وحبه للعدل الذي مارسوه ودربوا عليه... »

أما بنو مخزوم – آل خالد – فكانوا على خلاف ذلك أهل حرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء، وكانوا في الجاهلية موكلين بالخيل والسلاح، معتزين بالعتاد التليد، والعدة والعديد..

وكان ثراؤهم يملي لهم في أسباب الترف والنعيم كما تملي لهم فيه مزية أخرى من المزايا التي تكفلها للقبيلة عزة السلطان وطول العهد بالحضارة والرئاسة، وتلك المزية هي جمال النساء..

فقد كان يقال ان « المخزوميات » رياحين العرب..

وكان في رجالهم ذلك الغزل الذي أخرج منهم شاعره الأول عمر بن أبي ربيعة، بل أخرج منهم غزلين ظرفاء حتى في النساك والأتقياء.

جاء في كتاب الأغاني عن أبي السائب المخزومي : « أنه كان رجلا صالحا زاهدًا متقللا يصوم الدهر، وكان أرق خلق الله وأشدهم غزلا. فوجه ابنه يوما يأتيه بما يفطر عليه، فأبطأ الغلام الى العتمة. فلما جاء قال له : يا عدو نفسه، ما أخرك الى هذا الوقت ؟.. قال : جزت بباب بني فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى

أخذته ، فقال : هات يا بني ، فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونك ، ولئن كنت أسأت لأضربنك . فاندفع يغني بشعر كثير :

ولما علوا شغبا[1] تبينت أنه
تقطّع من أهل الحجاز علائقي

فلا زلن حسرى ظلّعا . لم حملنها
الى بلـد ناء قليـل الأصـادق

« فلم يزل يغنيه الى نصف الليل . فقالت له زوجته : يا هذا ، قد انتصف الليل وما أفطرنا . قال لها : أنت طالق ان كان فطورنا غيره. فلم يزل يغنيه الى السحر. فلما كان السحر قالت زوجته : هذا السحر وما أفطرنا ، فقال : أنت طالق ان كان سحورنا غيره . فلما أصبح قال لابنه : خذ جبتي هذه وأعطني خلقك ليكون الحباء فضل ما بينهما. فقال له : يا أبت .. أنت شيخ وأنا شاب ، وأنا أقوى على البرد منك . قال : يا بني .. ما ترك صوتك هذا للبرد عليَّ سبيلا ما حييت ».

واطرح كل ما في هذه القصة من المبالغة والاغراق تبق منها بقية كافية لبيان مكان الغزل من نساك بني مخزوم ، فضلا عن الشعراء والظرفاء .

وندع القبيلة الى الأسرة فيتراءى لنا في النظرة الأولى ذلك الاختلاف الذي لا بد منه بين معيشة الخطاب ومعيشة الوليد ، أو بين معيشة الرجل الكادح لنفسه الخشن في ملمسه ، وبين معيشة الرجل المترف الفخور بالمال والبنين والجاه المكين .

لكنه مع هذا فرق في المعيشة لا يتغلغل الى بواطن الطباع . انما الفرق المتغلغل الى بواطن الطباع ، بل الى أعمق أعماقها ، هو فرق البنية العصبية بين أبناء الخطاب وأبناء الوليد .

فمن أوصاف أبناء الوليد عامة ينكشف لنا « قلق عصبي » في هذه الأسرة قد تطرف جد التطرف في أفراد منها ، واعتدل بعض الاعتدال في آخرين

(١) سهل بين طريقي مصر والشام .

فعمارة بن الوليد هو الذي بلغ منه الاضطراب أن يراود امرأة في محضر زوجها. وأن يجترئ على حرم النجاشي بالمغازلة، ثم يجترئ بالتحدث عن هذه المغازلة حديث الفخر والمباهاة، ثم ينطلق مع الأوابد في الآجام بفعل السواحر كما قيل، وهو قول لا يخفى مدلوله في لغة العصر الحديث.

وذكر عن خالد كما ذكر عن أخيه الوليد أنه كان يتفزع في نومه. فذاك أثر من آثار «أعصاب الأسرة» كلها على ما هو واضح من جملة المشاهدات في أبنائها، وان كان يجمح بهم في حين ويكبح في حين.

وقد كان خالد يغضب فينتقع لونه كما جاء في كتب الفتوح من حديث المغاضبة بينه وبين أبي عبيدة بعد تسليم دمشق ومصالحة أهلها. وقد كانت علة المغاضبة أن أبا عبيدة يحسب التسليم صلحا وخالدًا يحسبه غلبا يحق فيه على المغلوب جزاء السبي والاغتنام والقصاص..

وكانت في خالد حدة يملكها أو تملكه آونة بعد آونة. وفي القليل الذي بلغنا اشارة الى الكثير الذي لم يبلغنا. فقد غاضب أبا عبيدة وغاضب عبد الرحمن بن عوف وغاضب عمار بن ياسر. وقال له عمار وقد سمع منه ما ساءه: «لقد هممت الا أكلمك أبدًا» فأصلح بينهما النبي عليه السلام وهو يقول لخالد: «يا خالد.. مالك ولعمار.. رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا» ثم يقول لعمار: «ان خالدا يا عمار سيف من سيوف الله على الكفار».

فهذا الفارق بين الأسرتين، وذلك الفارق بين القبيلتين، مفسران صالحان لاختلاف لوني «الجندية» في شخصية الرجلين العظيمين. عمر الى الجندية الموزوعة وخالد الى الجندية المدفوعة، وعمر الى الشظف المختار وخالد الى المتاع المباح.

ولا يرد الينا العجب بعد هذا أن يكون شعور خالد بالمرأة هو شعوره ذاك الذي أهدفه للملاحظة والمؤاخذة مرات، وجعل من مؤاخذيه أرغب الناس في عذره والثناء عليه، ونعني به الخليفة الصديق.

وقد كان هذا الشعور يلازمه ما يلازم أبناء الثراء من حب الرفاهية وبهجة الحياة.

فلم يفرغ من الحرب قط الا انقلب منها الى واد ظليل في صحبة زوج محببة اليه. فقضى في وادي الوبر باليمامة أيام الدعة بين زوجيه بنت مجّاعة وبنت المنهال. وقضى في دومة الجندل أيام الهدأة بين الوقائع في صحبة ابنة الجودي الحسناء، واستطاب المقام بحمص بعد العزل وآثره على المقام بالحجاز. وأغضب الفاروق لأنه «كان يدخل الحمام فيتدلك بعد النورة بثخين معجون بخمر» فلما لامه الفاروق في ذلك قال : انا قتلناها فعادت غسولا غير خمر. ثم قال يخاطب عمر :

سهِّل أبا حفص فان لديننـــــا
شرائع لا يشقى بهن المسهِّل
وهل يشبهن طعم الغسول وذوقه
حميا الخمور. والخمور تسلسل

وفي كل أولئك هو سليل حق لبني مخزوم ولبيت الوليد. وترجمان صدق لتلك البنية العصبية المتفززة التي تجنح به الى المتعة في أيام الدعة كما تجنح به الى البطش في مقام الجلاد والعناد، وتفسر لنا الجندي الذي تميل به القوة الحيوية تارة الى لقاء الحسان وتارة الى لقاء الأقران.

وهو نفسه قد أبان عن طويته كلها غير عامد حين قال : «ما ليلة يهدى اليّ فيها عروس أنا لها محب أو أبشر بغلام أحب اليَّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو، فعليكم بالجهاد».

فالحرب عنده اشتهاء. والعروس عنده غاية المتاع.

والحرب في رأيه حسناء تشتهى أبدًا ولا تشيب كصاحبة الزبيدي التي تكون في مبدئها «فتنة تسعى بزينتها لكل جهول» ثم تصبح :

شمطاء جزت شعرها وتنكرت مكروهة للشـم والتقبيـل

وأيا كانت متعته بالمرأة الحسناء أو بالمقام الوثير فهي متعة القوي اليقظان وليست بمتعة الضعيف المستنيم.

هي متعة المسافر الذي يستريح الى الواحة لينفض عنه الجهد ويتزود منها لجهد جديد، وليست متعة المتهافت الذي يتوق الى مهاد الراحة لينغمس فيها ويستكين اليها ولا يفيق من سكرتها.

بل هو يحب المتعة لأنه يحب الجهاد، فاذا طالت عافها وبرم بها واجتواها، وأنف أن يقنع بها ويستمرئها. فلم يطق سنة واحدة بالحيرة بين حروب فارس وحروب الروم، وسماها « سنة نساء » لأنها كانت سنة راحة من العناء.. مع أنها كانت راحة المتربص المتوفز، وكانت راحة تتخللها وثبات وضربات من هنا وهناك.

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير، ليأخذ من الشدة والبأس بأوفر المقادير.

لأن طبيعته القوية هيأته للشدة والبأس قبل كل شيء، وما بقي من الطبيعة للرياضة فقد أتمته الرياضة بعزيمة الجبابرة التي لا تلين. باستمراء ما لا مراءة فيه من طعام وشراب، وبأكل الضب وشرب السم ومطاولة الركوب أياما بعد أيام.

لا جرم يكون أكبر الأسى لتلك النفس في ساعة الموت انها تموت على الفراش أو على حد قوله كما يموت البعير: « لقد طلبت القتل في مظانه، فلم يقدر لي الا أن أموت على فراشي... ولقيت الزحوف وما في جسدي شبر الا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء ».

وأقرب شيء أن يلاحظ في سيرة خالد – من نشأته الى وفاته – ان هذا الولع كله بالحـــرب لم يكن ولعا بالشر والسوء ولا ولعا بالضغينة والبغضاء، فكانت عداواته كلها عداوات جندي مقاتل ولم تكن عدوات مضطغن آثم... ولم يعرف قط عنه أنه حمل الضغينة لأحد من الناس. ولو أنه اضطغن على أحد لكان أحق الناس أن يضطغن عليه عمر بن الخطاب، لأنه عزله وشطر ماله وأبقاه في العزلة سنوات، ولكنه لم يعمل عملاً واحدًا ولم يقل كلمة واحدة تدل على ضغن عليه. وقد سامحه والتمس له المعذرة وعلم أنه قد أراد وجه الله بما حاسبه عليه، وكان أشد ما قاله فيه: « الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب اليَّ من عمر، والحمد لله

الذي ولّى عمر وكان أبغض اليّ من أبي بكر ثم ألزمني حُبّه » وربما ذكره وهو غاضب فسماه « الأعيسر بن أم شملة » فكانت هذه الكلمة أدل على التحبب منها على الكراهة، ولاحت كأنها كلمة المغلوب في لعبة لا في غرض عظيم يقعد ويقيم.

وقد يمكن كثيرًا أن تتسع هوة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والضغينة، وانها لأولى أن تتسع بينهما حيث تكون الحرب ميدان التضحية والفداء في سبيل الغيرة القومية أو في سبيل الايمان والضمير، وحيث يكون الرجل قد تربى على مراسها وطبع في نفسه على مزاج يألف القتال ولا ينفر منه، وليس في المجتمعات الانسانية التي تصبح الحرب فيها ضرورة من ضرورات الحياة والشرف باعث الى النفرة من القتال، ولن تزال القدرة على الحرب شرفا وشجاعة الى آخر الزمان، ما دام في بني الانسان من يحمل السلاح للعدوان والبغي والتلصص والمراء، فيتقيه بنو الانسان بمن يحمل السلاح للحق والعقيدة والانصاف..

وعلى كثرة من قتل خالد في حروبه لم يكن يقتل أحدًا قط وهو يشك في صواب قتله وان أخطأ وجه الصواب. فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف الجلادين بأمره في « نهر الدم » كانوا يستحقون عنده القتل قربانا الى الله وجزاء لهم على عناد الشرك والاصرار.

أما اذا شك في صوابه فهو يستكثر المساءة الى رجل واحد فضلا عن الجحافل والقبائل، ويسبق الى الرفق رجلا كأبي عبيدة عرف طوال حياته بالرفق والرحمة والأناة. فيقول له وقد تناول رجلا بشيء: « اني لم أرد أن أغضبك، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ان أشد الناس عذابا يوم القيامة أشد الناس عذابا للناس في الدنيا ».

فهو مطبوع على عداء الجندي المقاتل وليس بالمطبوع على عداء الدسيسة والشر في صغائر العيش وسفاسف الأمور.

كذلك لا يفهم من ولعه بالحرب على هذه الصفة أنه كان مبتلى بذلك الولع الأهوج الذي يبتلى به من لا يعقلون هجوما الا كهجوم الريح أو فرارًا الا كفرار الحيوان.

فقد كان يقدم عن علم بمواضع الاقدام، ولذلك لم ينهزم قط وهو مسؤل عن الهزيمة. وانما هزم في حنين مرة واحدة وهو مسئول عن اليوم كله كما قدمناه.

أما اذا وجب التراجع فالشجاعة كل الشجاعة عنده أن يؤمن بهذه الحقيقة، وأن يدبر أمر التراجع بعد ذلك على النحو الذي يصون الكرامة ويصون الدماء، ويكون المخدوع المغلوب فيه هو الذي أمكن التراجع من بين يديه، وقد كان في وسعه أن يبطش بالمتراجعين جميعا قبل أن يفلتوا من أوهاقه المطبقة عليهم.

هذه هي الجندية البصيرة بمزاياها في الكفة الراجحة والكفة المرجوحة أو هذه هي الجندية الغالبة أبدًا وهي في اقدام أو في احجام.

ولقد كادت هذه الطبيعة الجندية أن تحيط بكل ما رزق من طبيعة حية. فمن أقواله: ان الجهاد شغلني عن تعلم القرآن، أو قراءة كثير من القرآن.

وعذره في ذلك حين قال ذلك المقال انه لم يقض في ملازمة النبي غير أوقات جد قصار، لأنه شغل السنوات الثلاث التي قضاها مع النبي بعد اسلامه وهو بين السرايا والغزوات.

وقد كان يخطب ويكتب ويقول الأبيات من الشعر والرجز على مثال ما قدمناه. ولكنها الخطب والكتب التي يستطيعها العربي الفصيح الناشيء في كنف الفصحاء. ثم هي كلها ملحقة بوظيفة الجندية فيه، فاذا قال كلمة أو كتب سطرًا فكأنما يكتب بحسام لا بيراع..

كتب الى مرازبة فارس فقال: «الحمد لله الذي فضّ ملككم وأذل عزكم، فاذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا اليَّ الرهن واعتقدوا منا الذمة وأجيبوا الى الجزية، والا والله الذي لا اله الا هو لأسيرن اليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا».

وخطب في المسلمين وقد تهيبوا طروق المفازة من العراق الى الشام فقال: «لا يختلفن هديكم، ولا يضعفن يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية،

والأجر على قدر الحسنة ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترث لشيء يقع فيه مع معونة الله له ».

ويسمع الكلمة فيردها بالجواب المسكت كأنه يتلقى ضربة سيف بضربة سيف كما قال حين سمع صائحا في المعسكر يصيح : ما أكثر الروم وأقل المسلمين.

فلم يكن أسرع منه الى أن يقول : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين. ان الجيوش انما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان ».

فكل كلمة منه فانما هي ضربة سيف في صورة حروف ونبرات.

ومن الملاحظات الجديرة باستقراء علم النفس أنه على التشابه بينه وبين عمر كان في عمر جانب فكاهة وان كانت خشنة غليظة ، ولم يكن فيه هو مثل هذا الجانب في عمله أو كلامه..

وقد كان الأدنى الى الظن – عند النظرة الأولى – أن تنمو الفكاهة مع الرجل الذي نشأ في مهد اليسار ولا تنمو مع الرجل الذي نشأ على العسر أو اليسر القليل.

لكنها النظرة الأولى ولا تتعداها..

لأن الاعسار في الواقع أعون على الفكاهة من اليسار. ومن هنا كان ولع الناس بالفكاهة في أيام الحروب وأزمات الشدة ومظالم الاستبداد ، كأنها ضرب من التعويض والمقابلة ، ولا غرابة في ذلك حيث ننظر الى منشأ الفكاهة في جملتها ، فهي على أكثرها وليدة المفارقة بين الحالات وليست وليدة الموافقة الموائمة. وما أكثر المفارقات في حياة المعسرين.

ولعلنا نبلغ مقطع القول في هذه الملاحظة حين نقول : ان الموسر أقدر على التسلية والمعسر أقدر على الفكاهة ، وبين التسلية والفكاهة فرق غير مجهول.. رحم الله خالدا... انه كان جنديا وكفى !

لكنه قد عوض في جانبه الواحد عن جوانب عدة في الآخرين ، لأنه قد رزق الجندية في طرازها الأول ، ورزق منها وحده ما يكفي عشرة من جنود التاريخ المبرزين.

نهاية من صنع القدر

قضى خالد بقية أيامه بعد عزله في مدينة حمص - زهاء سنوات أربع - لم يفارقها قليلا الا ليعود اليها.

وعاش هناك بين أهله وولده وهم كثيرون.

وكأنما كانت للموت ضريبة مقضية على هذا القائد الكبير يطالبه بها في حربه وسلمه حيث كان. فمات من أولاده نحو أربعين في سنة الطاعون.

ولم تُرو لنا كلمة قالها خالد في موت هؤلاء الأبناء الكثيرين، وهو الرجل الذي كان التبشير بغلام عنده فرحا من أكبر أفراح الحياة. فكأنما ألف وجه الموت لطول ما واجهه من قريب، فهو لا يلقاه أبدًا لقاء غريب مريب..

وتعقب الموت أبناءه الذين بقوا بعد الطاعون وأشهرهم المهاجر من حزب علي وعبد الرحمن من حزب معاوية. فمات المهاجر في صفين ومات عبد الرحمن مسموما على ما قيل، لأنه رشح للخلافة قبل أن يرشح يزيد بن معاوية لولاية العهد. فسقاه معاوية السم على يد الطبيب ابن أثال..

وما هي الا فترة حتى انقرضت ذرية هذا القائد الكبير - صاحب الموت والقدر - فورث دورهم بالمدينة أحد أبناء أخيه..

وانتهت حياة خالد رضي الله عنه نهايتها العجيبة، بين سنة احدى وعشرين واثنتين وعشرين..

والنهاية العجيبة لحياة مثله أن يموت على فراشه – كما قال – بعد أن شهد نيفا وخمسين زحفا في نجد والحجاز والعراق والشام، ولم يبق في جسمه مصح من كثرة الجراح.

وليس هذا كل ما في موته من « غير المألوف » أو غير المنظور، فانه مات ولما يجاوز الخامسة والخمسين على أرجح تقدير، وليست هي بالسن التي تنتهي بها الحياة بغير مرض شديد. فان كان قد ألم به مرض عارض غير مميت في جملة أطواره فلعله قد أتم ما بدأه الحزن على الأبناء، والفتور من الراحة، وذلك الاضطراب الذي كان يفزعه في نومه وينتقع منه لونه اذا غضب أو ثار..

ولم يوجد في بيته عند موته غير فرسه وغلامه وسلاح وقفه للجهاد في سبيـل الله. فلما بلغ ذلك عمر قال : رحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظنناه به... ونكس مرارًا وهو يسترجع كلما رفع رأسه. ثم قال : كان والله سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة.

وقد كان حزن عمر عليه حزن قريب وحزن مسلم وحزن خليفة. قال لأمه : عزمت عليك ألا تبيتي حتى تسودي يديك من الخضاب.

واجتمع بنات عمه يبكين فقيل لعمر : أرسل اليهن فانههن. فقال : دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة. على مثل أبي سليمان تبكي البواكي ».

ولما سئل عمر أن يعهد بعد موته قال : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي : لم استخلفته على أمة محمد ؟.. لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول : لكل أمة أمين وان أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، ولو أدركت خالدًا ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي:من استخلفت على أمة محمد لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول لخالد : سيف من سيوف الله سله الله على المشركين !

ولعمري ان « سيف الله » قد استحق هذه التزكية وهو في الغمد كما استحقها وهو مشهور.

فليست سنوات العزلة بأخف السنوات وزنا في سيرة خالد بن الوليد .

ان الحوادث قد وعظته بها فاتعظ في صبر وأناة. فلم يغلبه لسانه ولم يغلبه هواه ولم يتحرك لكيد ولا لشغب ولا لمذمة ولا لوقيعة. ولو شاء بعض ذلك لكان له مطمع فيه، وهو الرجل الذي طبقت شهرته آفاق المسلمين وغير المسلمين.

نعم انه لا فتنة وابن الخطاب حي كما قال، وان الفتنة انما تخشى « اذا كان الناس بذي بليٍّ » أو في معرض الفرقة والنزاع وعصيان الأئمة أو انقطاع الامام.

ولكن إدراك هذا وحده مفخرة من المفاخر، وليس كل ادراك كهذا الادراك بالذي يغلب الهوى ويقمع النزوات.

فلا جرم يرشح الفاروق خالدًا للخلافة كما رشح لها أبا عبيدة. ولا جرم يعرف سيف الله في الغمد كما عرفه وهو في يمين البطل الجسور. فان يكن خالد مخشيّ المزاحمة على الخلافة في ظن من الظنون فليس هو بمخشيّ عليها وقد وصلت اليه معهودًا اليه خالصة من الزحام، وقد استحقها بعد أكبر مستحقيها وريض لها سنوات تجرد فيها من سورة الشباب وبعد ما بينه وبين نشأة الجاهلية، وقرب ما بينه وبين الله.

لقد مات – نصير الموت – مطمئنا الى نهاية حياته، لا يكره منها الا أنها انتهت به على فراشه..

ولكننا – أبناء آدم – نكره كثيرًا ما يكون من حقنا أن نتمناه. وما كان لخالد أمنية قد بقيت له في ميدان الكفاح يتمناها. لقد عرفه الناس حق عرفانه وهو الكريم الشجاع، ولم يبق له الا أن يعرفوه في ميدان العزلة وهو الشجاع الصبور. وقد عرفوه على هذه الصفة في ميدان حمص – ميدان السلم والتسليم – خير عرفان وأ[illegible]ره بماضيه العظيم وتاريخه الخالد المقيم.